# دولة الإسلام في الأندلس

تأليف
محمد عبد الله عنان

## العصر الأول - القسم الأول

### مِنَ الفتح إلى بداية عهد الناصر

الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة

الطبعة الرابعة
١٤١٧ هـ = ١٩٩٧ م

رقم الإيداع : 90/8988
الترقيم الدولى : 977-505-082-4

مطبعة المدني المؤسسة السعودية بمصر
٦٨ شارع العباسية - القاهرة - ت : ٤٨٢٧٨٥١

نموذج من صفحات الجزء المخطوط من تاريخ ابن حيان المحفوظ بمكتبة جامع القرويين بفاس

بسم الله الرحمن الرحيم

# مقدمة

تصدر اليوم الطبعة الرابعة من كتاب « دولة الإسلام فى الأندلس » ، وقد أتيح لنا بعون الله وتوفيقه ، أن نكمل تاريخ الأندلس منذ بدايته إلى نهايته ، وأن تظهر عصوره الأربعة على النحو الآتى :

العصر الأول — ويشمل تاريخ فتوح إفريقية والأندلس ، وعصر الولاة ، ثم تاريخ الدولة الأموية الأندلسية منذ قيامها فى ظل الإمارة ، ثم قيام الخلافة الأموية ، وانحلالها على يد الدولة العامرية ، ثم انهيارها وسقوطها ، وبدء قيام دول الطوائف الأندلسية : ٢٢ — ٤٥٠ هـ ( ٦٤٣ — ١٠٥٨ م ) .

وهذا العصر ، هو الذى نقدمه اليوم إلى القارئ فى طبعته الجديدة .

العصر الثانى — « دول الطوائف » ، ويشمل تاريخ الأندلس منذ قيام دول الطوائف الأندلسية ، فى أوائل القرن الخامس الهجرى ، حتى سقوطها على يد المرابطين فى أواخر هذا القرن : ٤٢٥ — ٥٠٢ هـ ( ١٠٣٣ — ١١٠٨ م ) .

العصر الثالث — « عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والأندلس » ويشمل تاريخ هاتين الدولتين المغربيتين العظيمتين ، منذ بدايته حتى نهايته ، وتاريخ الأندلس الكبرى فى ظلهما ، ثم انهيارها عقب انهيار سلطان الموحدين فى الأندلس ، فى أوائل القرن السابع الهجرى : ٥٠٠ — ٦٦٨ هـ ( ١١٠٦ — ١٢٦٩ م ) .

العصر الرابع — « نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين » ، ويشمل تاريخ مملكة غرناطة آخر دول الإسلام فى الأندلس ، منذ قيامها حتى سقوطها ، ثم تاريخ الأمة الأندلسية المغلوبة تحت نير اسبانيا النصرانية ، بعد أن غدت طائفة الموريسكيين أو العرب المتنصرين ، وما نزل بها من محن التنصير المغصوب ، ومختلف ضروب الاضطهاد المفجعة ، حتى إخراجها نهائياً من

الأراضى الإسبانية ، وذلك فى بداية القرن السابع عشر الميلادى : ٦٣٥ — ١٠١٩ هـ ( ١٢٣٧ — ١٦١٠ م ) .

وقد أتيح لنا إلى جانب هذه العصور الأربعة من تاريخ الأندلس ، أن نصدر فى نفس الوقت مؤلفاً خاصاً عن الآثار والنقوش الأندلسية الباقية ، فى شبه الجزيرة الأندلسية ، وذلك بعنوان « الآثار الأندلسية الباقية ، فى اسبانيا والبرتغال » .

وتشغل هذه العصور الأربعة تسعة قرون من حياة الأمة الأندلسية ، زاخرة بالأحداث والعبر والمآسى المشجية ، لم نأل جهداً فى سردها ، وتحليلها ، وإسنادها إلى مصادرها الوثيقة .

وقد أنفقت فى كتابة هذه العصور الأربعة ، من تاريخ الأمة الأندلسية ، خمسة وعشرين عاماً ، قمت خلالها بست عشرة رحلة فى اسبانيا والمغرب ، لم أدخر خلالها وسعاً فى البحث والتنقيب ، وتقصى مختلف المصادر والوثائق ، ودراسة المخطوطات العربية ، والوثائق القشتالية ، فى مختلف مواطنها .

ولقد كان لهذا التجوال المتكرر ، فى ربوع الأندلس القديمة ، والزيارات المتعددة للقواعد الأندلسية الذاهبة ، ولاسيما القواعد الكبرى مثل قرطبة وإشبيلية ، وبلنسية ، وشاطبة ، ومرسية ، وسرقسطة ، وطليطلة ، وبطليوس ، وماردة ، وأشبونة ، وباجة وغرناطة ، وألمرية ، ومالقة ، وغيرها ، وهذه الدراسات المستفيضة لآثارها ونقوشها الأندلسية الباقية ، وهذه المشاهدات لطبائع الإقليم ، والبقاع ، والأوساط التى حلت فيها الأمة الأندلسية ، وعاشت عدة قرون ، ووضعت أسس حضارتها العظيمة — كان لذلك كله فى نفسى أعمق الآثار ، وقد أمدنى بكثير من الحقائق والفكر الجديدة .

وأود أن أنوه هنا ، بأنه فضلا عن استيعاب المصادر القشتالية واللاتينية القديمة ، والمصادر الغربية الحديثة ، إلى جانب المصادر العربية المختلفة العامة والخاصة ، قد أتيح لى أن أنتفع بكثير من المصادر المخطوطة الهامة ، مما عثرت عليه خلال بحوثى فى المجموعات الإسبانية ( ولاسيما مجموعة الإسكوريال ومجموعة أكاديمية التاريخ ) ، والمجموعات المغربية فى الرباط وفاس ، وأن أنتفع فى هذا القسم من تاريخ الأندلس ، بوجه خاص ، بثلاث قطع مخطوطة نادرة

من مؤلف ابن حيّان القيم فى تاريخ الأندلس ، وهو كتاب « المقتبس فى تاريخ رجال الأندلس » أو « المقتبس فى أخبار أهل الأندلس » .

القطعة الأولى — وتشمل حوادث سنى ١٨٠—٢٣٢ هـ ، أعنى عصرى الحكم ابن هشام وعبد الرحمن بن الحكم ، وتقع فى نحو مائة صفحة ( ص ٨٨ — ١٨٩ ) من القطع الكبير ، وهى عبارة عن بداية السفر الثانى من كتاب « المقتبس » ؛ ويرجع الفضل فى انتفاعى بهذا القسم ، إلى صديقى العلامة المرحوم الأستاذ ليڤى بروڤنسال ، وكان قد عثر عليه فى مكتبة جامع القرويين بفاس ، وقد اختفى الآن هذا القسم ولا نعرف مكان وجوده .

القطعة الثانية — وهى تأتى مباشرة بعد القطعة الأولى ، وتشمل حوادث سنى ٢٣٣ — ٢٦٧ هـ ، أعنى بقية عصر عبد الرحمن بن الحكم ، ومعظم عهد ولده الأمير محمد ، والبوادر الأولى للثورة الكبرى ، وتقع فى ٩٥ لوحة أعنى مائة وتسعين صفحة من القطع الكبير ، وهى عتيقة بالية كثيرة الخروم ، متساقطة الحواشى ، مكتوبة بخط أندلسى قديم ، وقد كتب فى نهايتها « كمل السفر الثانى بحمد الله تعالى ، يتلوه الثالث ، مبتدأ نجوم عمر بن حفصون كبير الثوار بالأندلس » . وهى تحتوى على تفاصيل ومعلومات هامة عن بلاط قرطبة وأحواله فى هذا العصر ، وعن الصقالبة والوزراء والعمال . وقد عثرت على هذه القطعة فى مكتبة جامع القرويين بفاس ، وحصلت منها على صورة فتوغرافية ، وانتفعت بها منذ الطبعة الثالثة من الكتاب انتفاعاً عظيماً ، وذلك بالرغم من صعوبة المراجعة فى هذه المخطوطة البالية[١].

ويتلو هذا القسم المخطوط الذى يشتمل على السفر الثانى من « المقتبس » ، السفر الثالث ، الذى قام بنشره المستشرق الإسبانى الأب الأوغسطينى ملشيور أنتونيا عن مخطوطة المكتبة البودلية بأكسفورد ( باريس سنة ١٩٣٧ ) ، وهو يشتمل على عهد الأمير عبد الله بن محمد ، وحوادث الفتنة الكبرى من سنة ٢٧٥ إلى سنة ٢٩٨ هـ ، قبيل عهد الناصر بعامين .

القطعة الثالثة — وهى تتعلق بأعظم اكتشاف من نوعه من كتاب « المقتبس » ،

---

( ١ ) وقد قام صديق الدكتور محمود على مكى أخيراً بتحقيق هذه القطعة ونشرها ، وسوف تظهر قريباً .

وهو العثور على « السفر الخامس » منه المتعلق بعهد عبد الرحمن الناصر .

إن هذا الاكتشاف يتعلق بأعظم قطعة مخطوطة عثر بها البحث حتى اليوم من هذا المؤلف الكبير . وقد تم العثور عليها منذ أعوام قلائل بين موجودات الخزانة الملكية بالرباط ، وقد كان من حسن الطالع أن أتيح لنا الاطلاع عليها ودراسة محتوياتها دراسة وافية .

وهى عبارة عن جزء ضخم من كتاب « المقتبس » يقع فى مائة وخمسة وثمانين ورقة كبيرة تضم ٣٧٠ صفحة ، ولا يحمل المخطوط عنواناً لأنه ناقص من أوله . ولكن لا يصعب على من يعرف منهج ابن حيان التاريخى وأسلوبه النقدى ، ومصادره التى يقتبس منها ، أن يدرك لأول وهلة أنه أمام جزء كبير من المقتبس . ومن جهة أخرى ، فإنه مما يقطع بصحة هذا الاستنتاج ، ما قرأناه فى حوادث سنة ٣٢٧ هـ ، عن موقعة الخندق ، من قول المؤلف خلال حديثه عمن قتل من المسلمين فى الموقعة « وفشا القتل فيمن سواهم من المستنفرين والمحشودة ، فافترطنا فيهم إلى جدنا حيان الأمثل طريقة أبا سعد مروان بن محمد بن حيان رحمه الله » .

ويضم هذا المجلد الضخم السفر الخامس من كتاب « المقتبس » ، وذلك حسبما ورد فى ختامه . وهو يتعلق جميعه بعصر عبد الرحمن الناصر . ومن ثم كانت أهميته البالغة ، بيد أنه مع ضخامته لا يشمل عصر الناصر كله ، وهو يبدأ من سنة ٣٠٠هـ وينتهى فى سنة ٣٥٠هـ . بل تنقص هذا السفر الخامس من « المقتبس » فى البداية نحو ستين صفحة ، وهو يبدأ بحوادث سنة « سبع وثلاثمائة » ، وينتهى بحوادث سنة ٣٣٠ هـ وإن كان يتناول أحياناً بعض الحوادث التى وقعت قبل ذلك أو بعد ذلك حتى سنة ٣٤٠ هـ .

والمخطوط قديم ، ومكتوب بخط أندلسى جميل ، ولكنه لا يحمل تاريخ كتابته[1] .

وقد قضينا فى دراسة هذا المخطوط والنقل منه فترات طويلة ، وانتفعنا

---

(١) هذا وقد كتبت عن هذا الاكتشاف بحثاً مفصلا ، نشر بمجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد فى المجلد الثالث عشر ( سنة ١٩٦٥ — ١٩٦٦ ) . ثم ألقيت بعد ذلك عنه محاضرة بالإنجليزية بمدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية بجامعة لندن فى ربيع سنة ١٩٦٧

بمحتوياته أعظم انتفاع ، فى هذه الطبعة الرابعة من كتابنا ، وما نقلناه منه يرى الضياء لأول مرة .

وتوجد إلى جانب ذلك قطعة مخطوطة أخرى من تاريخ ابن حيّان فى مكتبة أكاديمية التاريخ بمدريد ( مجموعة كوديرا ) ، تقع فى ١٣٦ صفحة صغيرة ، وتشتمل على حوادث سنى ٣٦١ — ٣٦٤ ﻫ ، وهى أواخر عهد الخليفة الحكم المستنصر بالله ، وتحتوى على معلومات هامة عن الشئون المالية والإدارية فى هذا العصر .

فإذا ذكرنا بعد ذلك كله ، ما نقله الكتاب والمؤرخون اللاحقون مثل ابن بسام صاحب الذخيرة ، وابن عذارى صاحب البيان المغرب ، وابن الخطيب ، فى الإحاطة ، وأعمال الأعلام ، والمقّرى فى نفح الطيب ، من الفصول والشذور العديدة ، من تاريخ ابن حيان ، أدركنا أننا قد ظفرنا فى الواقع بقدر كبير ، وربما بمعظم محتويات هذا التاريخ العظيم الجامع ، الذى يعتبر بحق من أقيم مصادر التاريخ الأندلسى ، وأكثرها اتزاناً ، وأقواها من حيث الروح التحليلية والنقدية ، ولا سيما فيما يتعلق بحوادث سقوط الخلافة الأموية ، وأوائل عهد الطوائف ، وهو العصر الذى أدركه ابن حيان وعاش فيه ، وشهد أحداثه المثيرة ، وترك لنا عنها أبدع الصور وأقواها .

ونكتفى بهذه الإشارة إلى المصادر المخطوطة ، وهى عديدة ذكرت فى مواضعها ، وكذلك المصادر الأخرى من عربية وقشتالية وغيرها ، فقد ذكرت كذلك فى مواضعها ، وسوف نثبتها جميعاً فى نهاية الكتاب فى ثبت خاص .

وأما المصادر والنصوص والوثائق اللاتينية والقشتالية ، فقد راجعت معظمها فى مدريد ، فى المكتبة الوطنية ، وقسم المحفوظات التاريخية ، وكذلك فى مكتبة معهدنا المصرى بمدريد ، وهى تضم مجموعة نفيسة من مصادر التاريخ الأندلسى .

* * *

ولا بد لى أن أكرر هنا ما سبق أن ذكرته فى مقدمة الطبعة الأولى ، وهو أنى بذلت فى كتابة هذا المؤلف الذى يمتزج فيه تاريخ الشرق والغرب ، والإسلام والنصرانية ، جهداً خاصاً لتمحيص الروايات والنصوص العربية والإفرنجية ، واستخراج الرواية الراجحة ، وتكوين الرأى المستقل مهما يكن هذا الرأى

ومما تجدر ملاحظته أن تاريخ الأندلس كتاريخ الحروب الصليبية ، يمتاز فى كثير من الأحيان بتباين واضح بين الرواية الإسلامية والرواية النصرانية ، وقد تتأثر هذه الرواية أو تلك ، بالمؤثرات القومية أو الدينية ؛ ولكن الرواية الإسلامية فيما يتعلق بتاريخ الأندلس ، تبدو على العموم أقل تحاملا ، وأكثر دقة واعتدالا . وأما الرواية النصرانية فكثيراً ما يشوبها الإغراق والتحامل ، وينقصها الإنصاف والدقة . ويرجع ذلك إلى أن الروايات النصرانية الأولى ، التى كتبت عن تاريخ اسبانيا المسلمة ، كانت من تصنيف بعض الأحبار المتعصبين ، وإلى أن مؤرخى اسبانيا المحدثين ، لبثوا حتى أواخر القرن الثامن عشر يكتبون تاريخ اسبانيا من ناحية واحدة ، ويرجعون إلى المصادر النصرانية دون غيرها ، ويجتنبون كل بحث أو تنقيب فى المصادر العربية ، وذلك بالرغم من أن تاريخ اسبانيا المسلمة يشغل أعظم مكانة فى تاريخ اسبانيا فى العصور الوسطى ، ويكون صفحة من أمجد صفحاته . وقد نعى النقد الإسبانى الحديث نفسه هذا المسلك على مؤرخى اسبانيا النصرانية ، فمثلا يقول العلامة المستشرق الإسبانى جاينجوس فى مقدمة ترجمته لكتاب نفح الطيب : « إن ماريانا وأكابر المؤرخين الإسبانيين تحدوهم عاطفة بغض قومى عميق ، أو نزعة تعصب دينى ، أبدوا دائماً أبلغ الإحتقار لمؤلفات العرب .. فكانوا يرفضون وسائل البحث التى تقدمها لهم الوثائق التاريخية العربية الكثيرة ، ويهملون المزايا التى قد تترتب على المقارنة بين الروايات النصرانية والإسلامية ، ويؤثرون أن يكتبوا تواريخهم من جانب واحد . وقد ترتب على هذا الروح الضيق الذى يطبع كتاباتهم أثر واضح . ذلك أن تاريخ اسبانيا فى العصور الوسطى ، ما يزال بالرغم من كل ما أفاض عليه النقدة المحدثون ، معتركاً من الخرافة والمتناقضات » .

وقد أرسل العلامة جاينجوس هذه الصيحة منذ نحو قرن . ومع ذلك فإن فريقاً من المؤرخين والمفكرين الإسبان ، ما زال حتى عصرنا يعتبر تاريخ الأمة الأندلسية صفحة بغيضة من التاريخ القومى ، وأن القضاء على الأمة الأندلسية وعلى حضارتها إنما هو نصر قومى باهر ، وأن مطاردات ديوان التحقيق المروعة لبقايا الأمة المغلوبة ، إنما هى عمل إنقاذ وسلام . وينسى هذا الفريق أو يتناسى كل المزايا ، وكل الجهود الإنتاجية ، وكل التراث الحضارى ، وكل التقدم الإنسانى الذى

حققه المسلمون فى اسبانيا ؛ بل نجد فى العصر الحديث عالماً إسبانياً مثل المستشرق سيمونيت ، يبرر ، بل ويمجد العمل الوندلى الذى ارتكبه الكردينال خمنيس مطران طليطلة ، بجمع الكتب العربية من المسلمين بعد سقوط غرناطة بقليل ، وقد بلغت زهاء مائة ألف أو تزيد ، والاحتفال بإحراقها أكداساً فى ميادين غرناطة ، لكى تحرم الأمة المغلوبة بذلك من غذائها الروحى والفكرى .

على أن البحث الغربى الحديث ، استطاع أن يستدرك كثيراً من شوائب هذا النقص ، الذى يكتنف تاريخ اسبانيا فى العصور الوسطى ، فدرست الكتب والوثائق العربية منذ أوائل القرن الماضى ، وتبوأت المصادر الإسلامية مكانها إلى جانب المصادر النصرانية ، وترجم البعض منها إلى اللغات الأوربية ، وظهرت طائفة كبيرة من الكتب والبحوث النقدية بمختلف اللغات الأوربية ومنها الإسبانية ، تكشف للغرب عن كثير من الحقائق المتعلقة بتاريخ الأندلس ، وأحوال المجتمع الإسلامى فى اسبانيا ، وتكشف بالأخص عن القسط البارز ، الذى ساهمت به المدنية الإسلامية بالأندلس ، فى بناء الحضارة الإسبانية الحديثة ، وحضارة عصر الإحياء الأوربى .

هذا وقد راعيت فى سائر فصول هذه القصة الأندلسية المشجية ، أن أسلك سبيل التبسط المعتدل ، بعيداً عن الإيجاز المخل ، بعيداً فى الوقت نفسه عن الإسهاب والتفاصيل الكثيرة ، إلا ما دعت إليه المناسبات الهامة أو المواقع الحاسمة ، حريصاً خلال ذلك كله على أن أبرز الحوادث والشخصيات والصور فى إطارها النقدى ، الذى تدعمه الوثائق والنصوص والقرائن ، بعيداً كل البعد عن التأثر بالعاطفة أو الأهواء أو الاتجاهات القومية أو الدينية من أى نوع ، وإنى لأرجو أن أكون قد وفقت فى ذلك ، إلى تأدية رسالة الحق والصدق والاعتدال ، فى كتابة هذه الصفحات المشرقة المؤسية معاً من تاريخ الأمة الأندلسية .

وقد حرصت إلى جانب تاريخ اسبانيا المسلمة ، أن أكتب فى نفس الوقت تاريخ اسبانيا النصرانية ، فاستعرضت منذ البداية نشأة المملكة النصرانية الأولى ، ثم تاريخ الممالك النصرانية اللاحقة ، ثم تناولت تاريخها تباعاً فى عصورها المتعاقبة ، وعنيت بعد ذلك بتتبع أحداث المعركة الأبدية المضطرمة ، التى نشبت بين الأندلس المسلمة ، وبين هاته الممالك النصرانية ، وهى التى غدت فيما بعد محور التاريخ الأندلسى

كله ، ثم تحولت من جانب اسبانيا النصرانية إلى ما يسميه المؤرخون الإسبان « معركة الاسترداد » La Reconquista ، وانتهت إلى نتيجتها الطبيعية المحتومة ، أعنى إلى القضاء على دولة الإسلام فى اسبانيا .

وهذه الطبعة الجديدة من « دولة الإسلام فى الأندلس » تتضمن بعض الإضافات والنصوص الجديدة ، التى استطعنا أن نقتبسها بالأخص من « السفر الخامس » من تاريخ ابن حيان ، وهو الذى يتضمنه مخطوط المكتبة الملكية الذى سبق ذكره ، وقد كنا لحسن الطالع ، أول من وفق إلى مراجعته والانتفاع به . وقد نقلنا منه كثيراً من النصوص والوثائق الهامة ، ولا سيما كتاب الناصر عن فتنة ابن مسرة ، وكتابه عن موقعة الخندق ، وغيرهما من الوثائق الرسمية التى ترى الضياء لأول مرة فى البحوث الأندلسية . كما تتضمن هذه الطبعة فصلين جديدين ينشران لأول مرة ، الأول عن نظم الحكم والأوضاع السياسية والعسكرية والاقتصادية فى عصر الإمارة والخلافة ، والثانى عن الحركة الفكرية الأندلسية .

هذا إلى ما تتضمنه هذه الطبعة أيضاً من النصوص والتعليقات الكثيرة ، المستمدة من المصادر النصرانية والقشتالية ، وهو أثر من آثار المراجعة المستمرة التى عكفت عليها فى مدريد ، خلال رحلاتى المتوالية إلى شبه الجزيرة الإسبانية .

ولقد تمنيت فى ختام مقدمة الطبعة الأولى لهذا الكتاب ، أن يكون صدوره « بداية مشجعة تبعث إلى اهتمام الباحثين بهذه الصفحة المجيدة من تاريخ الإسلام فى الغرب » . وإنه لما يدعو إلى الغبطة ، ما يلاحظ من تقدم الدراسات الأندلسية وانتعاشها فى العهد الأخير ، وذلك سواء فى ميدان الكتابة والتصنيف ، أو ميدان نشر الآثار الأندلسية المخطوطة ، وهو نشاط تساهم القاهرة فى قسميه بأوفى نصيب .

القاهرة فى المحرم سنة ١٣٨٩
الموافق مارس سنة ١٩٦٩

محمد عبد الله عنان

# الكتاب الأول

# فتوح العرب

## فى إفريقية والأندلس وغاليس

## وعصر الولاة فى الأندلس

٢٢ – ١٣٨ ﻫ : ٦٤٣ – ٧٥٥ م

# الفصل الأول

## فتوح العرب في إفريقية

الصراع بين الدولتين الإسلامية والرومانية . اتجاه الفتوح الإسلامية نحو الغرب . غزو برقة . جرجير حاكم إفريقية الرومانى . موقعة سبيطلة وهزيمة الروم . فتح سبيطلة عقد الصلح . إفريقية وقت الفتح الإسلامى . أحوالها فى ظل الحكم الرومانى . انتقالها إلى الدولة الشرقية . فتحها على يد الوندال . كلمة بربر مدلولها . إستعادة الدولة الشرقية لإفريقية . ضعفها وانحلالها . وقف الفتوح العربية واستئنافها على يد الدولة الأموية . موقعة حصن الأجم . إفتتاح سوسة وحصن جالولاء . ولاية عقبة بن نافع الفهرى لإفريقية . افتتاحه لأقطار المغرب . بناؤه لمدينة القيروان . ولاية أبى المهاجر الأنصارى . ولاية عقبة الثانية . مسيره ثانية إلى المغرب . ثورة البربر وقيام كسيلة بن لزم . هزيمته للمسلمين واستيلاؤه على القيروان . ولاية زهير البلوى . زحفه على القيروان . مقتل كسيلة وافتتاح القيروان . هجوم الروم من البحر على برقة . هزيمة العرب ومقتل زهير . مسير حسان بن النعمان إلى إفريقية . غزو العرب لقرطاجنة واستيلاؤهم عليها . فقدهم إياها ثم استردادهم لها . ثورة البربر وقيام الكاهنة . القتال بين العرب والبربر . هزيمة العرب ارتدادهم إلى برقة . عود حسان إلى غزو المغرب . انصراف البربر عن الكاهنة وهزيمتها . تنظيم حكومة إفريقية وتجديد القيروان . عزل حسان وولاية موسى بن نصير . نشأة موسى وحياته الأولى . الخلاف على تاريخ توليته لإفريقية . عود البربر إلى الثورة . هزيمتهم وسحق ثورتهم . فتح موسى لطنجة . لاية طارق بن زياد لها . إنشاء موسى للأسطول . غزو العرب لجزائر البليار وصقلية وسردانية .

كان الصراع الذى نشب بين الدولة الإسلامية الناشئة، وبين الدولة الرومانية الشرقية ، يضطرم حيثما تبسط الدولة الشرقية سلطانها . وكانت بسائط الشام مهاد المعارك الأولى بين الدولتين ، وكانت أول قطر غنمته الخلافة من أراضى الدولة الرومانية ؛ ثم افتتح العرب مصر بعد الشام ، وهى أيضاً ولاية رومانية ، وكان افتتاحها فى خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، على يد عمرو بن العاص ، وذلك فى المحرم سنة عشرين من الهجرة ( ديسمبر سنة ٦٤٠ م ) . ولما كانت مصر تتصل من الغرب بأملاك أخرى للدولة الرومانية هى الولايات الإفريقية ، فقد كان من الطبيعى أن يتخذ العرب مصر قاعدة لافتتاح إفريقية ، توطيداً لسلطانهم فى مصر

والشام ، وإتماماً لسلسلة الفتوحات الغربية . غير أن تقدمهم نحو الغرب كان محفوفاً بمشاق وصعاب لم يألفوها فى فتوحهم الأولى ، فقضوا زهاء نصف قرن فى معارك عنيفة مع الروم ( الروماں ) والبربر ، وأصيبوا إلى جانب انتصاراتهم ، بأكثر من هزيمة شديدة ، وواجهوا عدة ثورات محلية عنيفة ، وانهار سلطانهم الفتىّ غير مرة ، قبل أن يستقر نهائياً فى إفريقية :

وبدأ العرب فتوحهم فى إفريقية عقب افتتاحهم لمصر مباشرة . ففى سنة اثنتين وعشرين من الهجرة ، أعنى بعد افتتاح مصر بنحو عامين ، سار عمرو ابن العاص غرباً إلى برقة ، فافتتحها وصالح أهلها على الجزية ، ثم افتتح طرابلس (أو إطرابلس) بعد أن حاصرها شهراً ولجأ سكانها إلى سفنهم فى البحر ، ولكنه تركها بعد اغتنام ما فيها[١] . وفى خلافة عثمان توغل العرب فى قفار إفريقية . وفى سنة سبع وعشرين ( ٦٤٧ م )[٢] سار عبد الله بن سعد بن أبى سرح الذى خلف عمراً فى ولاية مصر إلى إفريقية فى نحو عشرين ألف مقاتل[٣] ، وسارت معه حامية برقة بقيادة عقبة بن نافع ، وكان عمرو قد ولاه على تلك الأنحاء[٤] . وقصد الغزاة بادئ بدء إلى طرابلس وهى يومئذ أغنى وأمنع ثغور إفريقية[٥] .

---

( ١ ) فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم ( طبعة لجنة ذكرى جب ) ص ١٧١ ، وأبو الفداء ( مصر ) ج ١ ص ١٦٤ ، وابن الأثير ( مصر ) ج ٣ ص ١٠ .

( ٢ ) هذه هى رواية ابن عبد الحكم ( ص ١٨٧ ) وهى أقدم رواية . ويوافقه البلاذرى ، وهو معاصر له تقريباً ، ولكنه يضيف إلى ذلك أن هناك رواية بوقوع هذه الغزوة سنة ٢٨ هـ ، وثالثة بوقوعها سنة ٢٩ ( فتوح البلدان — مصر — ص ٢٢٦ ) . ويضع الطبرى تاريخ هذه الغزوة فى سنة ٢٧ هـ متفقاً مع ابن عبد الحكم والبلاذرى ( مصر ج ٥ ص ٤٨ و ٤٩ ) . ولكن ابن الأثير يضع تاريخها فى سنة ٢٦ هـ ( ج ٣ ص ٣٣ ) .

( ٣ ) فتوح مصر ص ١٨٤ .

( ٤ ) فتوح البلدان ص ٢٢٤ .

( ٥ ) يطلق العرب اسم إفريقية على الأقطار الواقعة شمال هذه القارة دون مصر . وذكر ياقوت فى معجمه أن حد إفريقية من برقة شرقاً إلى طنجة الخضراء غرباً ، وعرضها من البحر إلى الرمال التى فى أول السودان ( معجم البلدان فى مقال إفريقية ) . وتنقسم إلى ثلاثة أقسام : الأول ، إفريقية ويمتد من حدود مصر الغربية إلى شرق الجزائر ، والثانى المغرب الأدنى ويشمل قطر الجزائر تقريباً ، والثالث المغرب الأقصى ممتداً من غرب الجزائر إلى المحيط ، ويشمل إقليم مراكش وطنجة . وكانت كلمة إفريقية تطلق أيضاً فى العصور الوسطى بمعنى أخص على إقليم تونس وما يليه .

ولكن الروم تقدموا إلى لقاء المسلمين فى مائة وعشرين ألف مقاتل[١] بقيادة جريجوريوس أو جرجير حاكم إفريقية الرومانى[٢]. وتختلف الرواية الإسلامية فى أمر جرجير هذا ، ويقول البعض إنه كان من الفرنج . وليس من الروم ، وإنه كان ملك الفرنجة فى إفريقية ما بين طرابلس وطنجة ، وإن سبيطله كانت دار ملكه . والحقيقة أن إفريقية كانت فى ذلك الحين ولاية رومانية ، تخضع لقيصر ( إمبراطور ) قسطنطينية ، وكان جرجير أو جريجوريوس حاكمها من قبل الإمبراطور . على أن حاكم إفريقية الرومانى ، كان يتمتع وقتئذ بكثير من الإستقلال ، نظراً لضعف السلطة المركزية فى عاصمة الدولة الشرقية . وهكذا كان شأن جرجير ، فقد كان حاكماً بأمره فى ولايته . ولما علم العرب بتحرك جرجير ، تركوا حصار طرابلس وساروا إلى لقاء الروم ، ونشبت بين الجيشين مدى أيام معارك شديدة فى ظاهر سبيطلة (سوفيتولا) بالقرب من أطلال قرطاجنة القديمة ، وهى عاصمة إفريقية يومئذ ، فهزم الروم هزيمة شديدة . وقتل قائدهم جريجوريوس ، وأسرت إبنته (٢٨ هـ — ٦٤٨م)[٣] . ثم حاصر عبد الله سبيطلة ، وافتتحها وخربها ، وبث جيوشه فى تلك الأنحاء حتى قفصة . ثم عقد الصلح مع أهلها على أن يؤدوا الجزية . وقضى فى تلك الغزوات خمسة عشر شهراً ، ولكنه لم ينشئ فى البلاد المفتوحة حكومة جديدة . ولم يتخذ بها قاعدة إسلامية . ثم عاد إلى مصر بعد أن أنشأ حامية فى برقة وأخرى فى زويلة[٤] .

ويجب قبل أن نمضى فى الكلام على افتتاح إفريقية أن نذكر كلمة عما كانت عليه أحوالها وظروفها وقت الفتح الإسلامى. كانت إفريقية منذ زوال قرطاجنّة القديمة ، فى أوائل القرن الثانى قبل الميلاد إلى أوائل القرن الخامس بعده ، ولاية رومانية تخضع لسلطة رومة أولا ، ثم بعد سقوطها لسلطة قسطنطينية أو الدولة

---

( ١ ) ابن الأثير ج ٣ ص ٣٤ — **Gibbon : Roman Empire, Ch. Ll,**

( ٢ ) ابن خلدون — كتاب العبر — ج ٦ ص ١٠٧ .

( ٣ ) روى ابن عبد الحكم أن ابنة جريجوريوس وقعت بعد أسرها فى نصيب رجل من الأنصار ، ولكنها انتحرت أثناء الطريق ( فتح مصر ص ١٨٥ ) .

( ٤ ) ابن عبد الحكم ص ١٨٣ .

الرومانية الشرقية ؛ ولما غزت القبائل الجرمانية رومة واستولت على معظم أقطار الدولة الرومانية الغربية ، نفذ الوندال إلى غاليا أو غاليس ( جنوبى فرنسا ) ثم إلى اسبانيا ، واستقر الوندال حيناً فى جنوبى إسبانيا فى ولايات الأندلس ، التى سميت يومئذ باسمهم « ڤانداليتا » Vandalita أو ڤاندلوسيا Vandalusia أى بلد الوندال[١] .

وكان البربر أو سكان إفريقية ، قبل الفتح الرومانى ، يدينون بالوثنية ، ولكن رومة استطاعت منذ أوائل القرن الرابع ، أن تفرض النصرانية على معظم القبائل . ويقول لنا ابن خلدون من جهة أخرى ، إن القبائل البربرية كانت وقت الفتح الإسلامى تدين باليهودية ، وإنهم تلقوها منذ أقدم العصور عن بنى إسرائيل عند استفحال ملكهم لقرب الشام وسلطانه منهم ، وكان من هؤلاء قبائل جبل أوراس وملكتهم الكاهنة[٢] . وكان الفتح الرومانى شديد الوطأة على القبائل المغلوبة ، وكانت النظم الإدارية والمالية التى فرضتها عليهم رومة غاية فى التعسف والشطط ، مع ما يقترن بها من اقتضاء الضرائب والمغارم الفادحة ؛ فكان البربر يتوقون إلى التخلص من نيرها ، وقد نزعوا فعلا إلى الثورة فى عهد الإمبراطور تيودوسيوس فى أواخر القرن الرابع ، ونادوا بأحد زعمائهم ملكاً عليهم ، ولكن الثورة أخفقت وأخمدت . ولما انتقلت إفريقية إلى سلطان قسطنطينية بعد سقوط رومة ، كانت قد اضمحلت ثروتها ، واضطربت نظمها ، ومزقتها الخلافات الدينية ، وضعف سلطان الدولة عليها ، وكثر الخوارج من الحكام والزعماء المحليين . وفى أوائل القرن الخامس ، عبر الوندال البحر من اسبانيا إلى إفريقية ، بقيادة ملكهم جنسريك ، وافتتحوها فى سنة ٤٢٩ م ، وعاونهم البربر[٣] حباً فى التخلص من نير رومة . ولكن الوندال عاثوا فى إفريقية أيما عيث ، وخربوا المدن والمنشآت

---

( ١ ) سوف نفصل فى حاشية لاحقة أصول هذه التسمية وفقاً لمختلف الروايات .

( ٢ ) ابن خلدون ج ٦ ص ١٠٧ .

( ٣ ) يطلق العرب كلمة « البربَر » على سكان « إفريقية » أعنى من برقة إلى المحيط ، وأصل التسمية مجهول . ولكن المحقق أنها كانت موجودة قبل الفتح الإسلامى بعصور بعيدة . وترجعها الرواية اللاتينية إلى أقدم العصور . فكان يطلقها اليونانيون القدماء على الأمم ذات اللغات واللهجات المعقدة بوجه عام وحيثما وجدت ، وعلى الأمم الغريبة عن لغة اليونانيين وحضارتهم . وكان يطلقها الرومان على شعوب الإمبراطورية خلا إيطاليا وولاياتها ، ثم انتهوا إلى تحديد معنى الكلمة بإطلاقها على القبائل=

الرومانية ، واستقروا سادة فى البلاد المفتوحة مدى قرن ، عانى البربر فيه أمر ضروب العسف والطغيان . وفى سنة ٥٣٤ م بعث يوستنيان ، إمبراطور ( قيصر ) الدولة الشرقية قائده الشهير بليزاريوس إلى إفريقية على رأس جيش ضخم فافتتحها وحطم سلطان الوندال وأجلاهم عنها ؛ ومن ذلك الحين عادت إفريقية إلى سلطان الدولة الشرقية ، وظلت كذلك حتى الفتح الإسلامى .

وكانت إفريقية يومئذ فى حال يرثى لها من الانحلال والتفكك ، يسود الاضطراب نظمها وإدارتها ، وتمزقها الأهواء والمطامع والفتن ؛ وكانت عصور من الطغيان والجور والمصادرة قد عصفت بمواردها ، ولكن الثروات كانت مع ذلك تتكدس فى بعض الثغور والمدن ؛ وكانت الدولة الشرقية قلما تعنى بإصلاح هذه الأقطار أو إعداد وسائل الدفاع عنها ، وإنما كانت ترى فيها قبل كل شىء مورداً للكسب على نحو ما قدمنا ، فكان البربر على استعداد للتخلص من هذا النير المرهق ، ومعاونة الفاتحين الجدد .

ولكن العرب شغلوا حيناً عن متابعة الفتح حينما عصفت ريح التفرق بالخلافة الإسلامية ، ونشب الخلاف بين على بن أبى طالب ، الذى ولى الخلافة على أثر مقتل عثمان ، فى مستهل سنة ٣٥ هـ ( ٦٥٥ م ) ، وبين خصمه ومنافسه القوى معاوية بن أبى سفيان والى الشام ، واضطرمت ثورة الخوارج التى كادت أن تزعزع أسس الدولة الإسلامية الناشئة ، وشغلت الجزيرة العربية بضعة أعوام ، بتلك الحوادث والفتن الداخلية . وكان مقتل أمير المؤمنين على بن أبى طالب فى رمضان سنة ٤٠ هـ خاتمة هذا النضال المؤلم ، فآلت الخلافة إلى معاوية ، وقامت الدولة الأموية فى الشام لتفتتح فى تاريخ الإسلام عصراً جديداً .

وكانت الدولة الأموية ، تتشح إلى جانب ثوبها الخلافى ، بأثواب الملك

---

= المتوحشة أو المعادية خارج الإمبراطورية بأسرها . ثم حرفها العرب عند الفتح من اللاتينية وأطلقوها على الأمم والقبائل التى تسكن إفريقية ( خلا مصر ) راجع **(Gibbon. ibid, Chap. LI (note)**
ويقول ابن خلدون فى أصل هذه التسمية ، إن أحد ملوك التبابعة العرب لما غزا المغرب وإفريقية ، ورأى هذا الجيل من الأعاجم ، وسمع رطانتهم تعجب من ذلك وقال ما أكثر بربرتكم فسموا بالبربر . والبربرة بلسان العرب هى اختلاط الأصوات غير المفهومة ، ومنه يقال بربر الأسد إذا زأر بأصوات غير مفهومة ( كتاب العبر ج ٦ ص ٨٩ ) .

الإمبراطورى ، وهكذا قدر لها أن تكون منشئة الإمبراطورية الإسلامية الكبرى . وما كادت تستقر الأمور الداخلية ، حتى نشطت سياسة الفتح مرة أخرى. وكانت الخلافة فى نفس الوقت الذى تسير فيه جيوشها نحو الشمال وتقترب من عاصمة الدولة الشرقية ، تتجه ببصرها نحو الغرب ، حيث كانت فتوحها فى إفريقية ما تزال بحاجة إلى التوسع والتوطد . وهكذا وجه معاوية عنايته إلى إتمام فتح إفريقية . وكان الروم قد عادوا إلى الأرض المفتوحة عقب انسحاب العرب ، فعاد إليها الجور والإرهاق ، وأثقل كاهل البربر بما فرض عليهم من الأعباء والمغارم الجديدة ، فاتصل زعماؤهم يالعرب واستحثوهم إلى العود واستئناف الفتح . فنى سنة ٤٥ هـ ( ٦٦٥ م ) سار معاوية بن حُديج التجيبى [1] إلى إفريقية وهزم الروم عند حصن الأجم ، وتفرق الغزاة فى مختلف الأنحاء ، فسار عبد الله ابن الزبير إلى سوسة وافتتحها ، وافتتح عبد الله بن مروان حصن جالولاء ، وافتتحت عدة أخرى من البلاد والحصون .

وفى سنة خمسين ( ٦٧٠ م ) [2] قام العرب بأعظم فتح فى إفريقية بقيادة عقبة ابن نافع الفهرى . وكان عقبة جندياً عظيماً ، خبيراً بتلك الأنحاء والمسالك، وكان يتولى قيادة حامية برقة منذ فتحها ، فاختاره الخليفة ( معاوية ) لولاية إفريقية ، وبعث إليه بعشرة آلاف مقاتل ليتم فتحها . فجاز عقبة وهاد برقة ، وتوغل غرباً حتى المغرب الأقصى ، وافتتح جميع العواصم والثغور الإفريقية تباعاً ، وهزم جيوش الروم والبربر فى مواقع عديدة ، وتوغل فى مفاوز المغرب الأقصى ، ثم

---

( ١ ) وذكر بعض المؤرخين أن معاوية بن حديج كان فى ذلك الحين والياً على إفريقية ( ابن الأثير ج ٣ ص ١٨٤ ) ، وذكر البلاذرى أنه ولى بعد ذلك على مصر سنة ٥٠ هـ ، وأنه هو الذى بعث عقبة بن نافع إلى إفريقية ( ص ٣٢٧ ) ، وذكر الطبرى أن معاوية بن حديج ولى مصر وعزله معاوية عنها سنة ٥٠ هـ ( ج ٦ ص ١٣٤ ) . ويضع ابن الأثير تاريخ ولاية ابن حديج لمصر فى سنة ٤٧ هـ . على أن صاحب النجوم الزاهرة الذى عنى عناية خاصة بتعداد ولاة مصر يقول : إن حاكم مصر من سنة ٤٥ — ٤٨ هـ هو عقبة بن عامر الجهنى ( النجوم الزاهرة ج ١ ص ١٣٠ ) ، وإن الذ ليها بعده هو مسلمة بن مخلد الأنصارى ، واستمر فى ولايتها حتى سنة ٦٢ هـ ، وفى ولايته وقع فتح إفريقية الكبير .

( ٢ ) هذه هى الرواية الراجحة ، ولكن ابن عبد الحكم يضع تاريخ هذه الغزوة فى سنة ٤٦ هـ .

أنشأ مدينة القَيرُوان لتكون عاصمة للولاية الإسلامية الجديدة ، وحصناً للدفاع عنها ، وقاعدة لرد الروم والبربر .

ولم يمض قليل على قيام عقبة بذلك الفتح الكبير ، حتى عزله والى مصر مسلمة بن مخلد الذى جمع له معاوية بين حكم مصر والمغرب[١] ، وولى مكانه على إفريقية أبا المهاجر الأنصارى ، فلبث فى ولايتها عدة أعوام لم تقع فيها حوادث تذكر . ثم عزل أبو المهاجر وأعيد عقبة سنة ٦٢هـ فى بدء خلافة يزيد بن معاوية . وكانت البلاد المفتوحة ما تزال تضطرم بعوامل الخروج والثورة . وكان الروم والبربر كلاهما يترقب الفرص ، ولكن عقبة شغل عن توطيد الدولة الفتية بفتوحات جديدة ، وعاد فاخترق المغرب إلى أقصاه ، ووصل إلى ساحل المحيط هذه المرة . وهنا تقول الرواية العربية ، إن عقبة لما انتهى إلى المحيط دفع فرسه إلى الماء حتى بلغ نحره ، ، ثم قال : « اللهم إنى أشهدك أن لا مجاز ، ولو وجدت مجازاً لجزت »[٢] .

فنى ذلك الحين ثار البربر بقيادة زعيم لهم يدعى كسيلة بن لمزم[٣] كان قد اعتنق الإسلام وحالف العرب ثم تغير عليهم ، وانضمت إليه جموع كثيرة من الروم والبربر ، وانتهز فرصة تفرق المسلمين فى مختلف الأنحاء ، وانقض بجموعه على جيش عقبة ، ووقعت بين الفريقين معارك شديدة هزم فيها المسلمون ، وقتل عقبة وجماعة من القادة ( سنة ٦٢ هـ ) وزحف كسيلة على القيروان واستولى عليها ، وارتد حاكمها زهير بن قيس البلوى بقواته القليلة إلى برقة ، وكادت بذلك تذهب دولة العرب فى إفريقية .

ولما تولى الخلافة عبد الملك بن مروان ( سنة ٦٥ هـ ) اعتزم أن يعمل لاستعادة إفريقية ، فولى عليها زهير بن قيس البلوى ، وكان منذ سقوط القيروان يتولى الدفاع عن برقة ، وأمده بجيش ضخم ، فزحف زهير على القيروان سنة ٦٩هـ ( ٦٨٨ م ) والتقى على مقربة منها بجيش كسيلة ، فهزم البربر بعد معركة شديدة

---

( ١ ) ويضع ابن عبد الحكم تاريخ هذا العزل فى سنة ٥١ هـ ، ويقول الطبرى إنه وقع فى سنة ٥٥ هـ ( ج ٦ ص ١٣٤ ) .

( ٢ ) ابن عبد الحكم ص ١٩٩ ، وابن الأثير ج ٤ ص ٤٢ .

( ٣ ) هذه هى تسمية ابن عبد الحكم ( ص ٢٠٠ ) وابن خلدون ( ج ٦ ص ١٠٨ ) ولكن ابن الأثير يسميه كسيلة ابن كرم .

قتل فيها كسيلة وكثير من أصحابه ، ودخل زهير القيروان وترك فيها حامية للدفاع عنها ، وفرق جنده لإخضاع الثوار فى مختلف الأنحاء . ولكن الروم انتهزوا فرصة توغل المسلمين غرباً ، وأمدهم قيصر قسطنطينية[١] بأسطول من صقلية ، فنزلوا فى قرطاجَنَّة ثم زحفوا على برقة فى جموع عظيمة ، وعلم زهير بتلك المفاجأة ، فارتد للدفاع عن برقة ، ونشبت بين الفريقين معركة هائلة هزم فيها المسلمون ، وقتل زهير ومعظم ضباطه ، وذهب المغرب من قبضة المسلمين مرة خرى .

وكان وقع هذا الخطب شديداً فى حكومة دمشق ، وكانت تشغل يومئذ بمحاربة ابن الزبير وصحبه الخوارج عليها ، فمضت أعوام أخرى قبل أن تتمكن من العناية بشئون إفريقية ، فلما انتهت الثورة وقتل ابن الزبير ، وجه عبد الملك عنايته إلى استعادة إفريقية ، فولى عليها حسان بن النعمان الغسانى سنة ٧٣ هـ[٢] (٦٩٢ م) وسيره إليها فى جيش ضخم كان أعظم قوة سيرتها الخلافة إلى إفريقية ، فاخترق حسان برقة وقصد قرطاجَنة عاصمة إفريقية الرومانية ، وكانت لاتزال فى يد الروم ولم يغزها المسلمون بعد لحصانتها واتصالها بالبحر ، وقربها من صقلية حيث كانت ترسل إليها الأمداد بسرعة ، فحاصرها بشدة ثم اقتحمها واستولى عليها ، ولكن الإمبراطور سير إليها جيشاً بقيادة حاكمها يوحنا ، يعاونه أسطول من صقلية ، وقوة من القوط أرسلها ملك اسبانيا القوطى الذى أزعجه اقتراب العرب من بلاده ، فانسحب العرب وارتدوا إلى القيروان ، حتى إذا جاءتهم الأمداد أعادوا الكرة على قرطاجنة ، وهزموا الروم والقوط هزيمة شديدة ، ففروا إلى سفنهم ، وخربت قرطاجنة وهدمت حصونها القوية . ثم سار حسان غرباً وهزم الروم والبربر فى عدة مواقع ، واستعاد الإسلام سلطانه فيما بين برقة والمحيط[٣] .

وعاد حسان إلى القيروان لينظم جيشه . وكان البربر والقبائل الجبلية قد

---

(١) كان إمبراطور قسطنطينية فى ذلك الحين يوستنيان الثانى ، ٦٨٥ — ٦٩٥ م .

(٢) ابن عبد الحكم ص ٢٠٠ ؛ ولكن ابن الأثير يضع تاريخ توليته فى سنة ٧٤ هـ .

(٣) ابن الأثير ج ٤ ص ١٤٣ ، ومعجم ياقوت تحت كلمة قرطاجنة ، وكذلك : **Gibbon : ibid., Chap. L**

اجتمعوا منذ مقتل زعيمهم كسيلة ، فى مفاوز المغرب الأقصى ، تحت لواء امرأة من قبيلة جراوة يعتقدون فيها السحر والكهانة وتعرف بالكاهنة[١] ، وكانت تقيم ملكها فى جبل أوراس . فسار حسان لقتالها وخرجت إليه بجموعها، فالتقيا عند نهر نينى ، ونشبت بينهما موقعة هائلة هزم فيها العرب هزيمة شديدة ، وقتل منهم جمع كبير ، وارتد حسان إلى برقة . وسارت الكاهنة شرقاً حتى قابس واستولت على كثير من البلاد والحصون ، وبسطت سلطانها على معظم إفريقية مدى خمسة أعوام . ولبث حسان فى برقة حتى أمده عبد الملك بالجند ، فزحف على المغرب ثانية سنة ٧٩ هـ (٦٩٨ م) ، ولم تر الكاهنة وسيلة لوقفه إلا أن تحول البلاد إلى خراب بلقع ، فهدمت جميع المدن والحصون ، وأحرقت جميع القرى والضياع الواقعة فى طريق المسلمين ، ولكن ذلك لم يثن حساناً عن عزمه ، فتابع سيره حتى أقاصى المغرب فى وهاد ومفاوز صعبة . وكان البربر قد سئموا نير الكاهنة وعسفها ، فهرع الكثير منهم إلى حسان يطلبون حمايته ، وتفرقت جموع الكاهنة ، وأدركها المسلمون بجبل أوراس فمزقت جموعها وقتلت . واستأمن البربر على الإسلام والطاعة ، وأن يمدوا المسلمين باثنى عشر ألف مقاتل . وولى حسان جبل أوراس ابن الكاهنة بعد أن استوثق من طاعته ، ثم عاد إلى القيروان بعد أن سحق كل مقاومة وقضى على كل نزعة إلى الخروج والثورة[٢] .

ولبث حسان بن النعمان بإفريقية حيناً ، ينظم شؤونها العسكرية والإدارية والمالية ، وينشئ الدواوين ويرتب الخراج والجزية ، ويوطد سلطان الحكم الجديد فى الثغور والنواحى . ثم جدد مدينة القيروان وأنشأ بها المسجد الجامع[٣] ، ولبث

---

(١) ويسميها ابن خلدون دهيا بنت ماتية بن تيفان (ج ٦ ص ١٠٩) ويسميها بعض المؤرخين الأوربيين داميا ؛ راجع **Aschbach : Geschicchte der Omaijaden in Spanien. B. 1.21**

(٢) ابن الأثير ج ٤ ص ١٤٤ ، وابن خلدون ج ٦ ص ١٠٩ . وفى روايته من حيث التاريخ شىء من التناقض ، فهو يؤرخ غزوة حسان الأولى وفتح قرطاجنة بسنة ٧٩ هـ ثم يؤرخ حرب الكاهنة للمرة الثانية بعد أن يذكر أنها لبثت تحكم إفريقية خمسة أعوام بسنة ٧٤ هـ — ولعل هذا تحريف فى النقل أو الطبع ، إذ يقتضى ان يكون هذا التاريخ طبقاً لرواية ابن خلدون هو سنة ٨٤ هـ . ولكن ابن عبد الحكم وهو أقدم رواية وثيقة يؤرخ غزوة حسان الأولى بسنة ٧٣ هـ ويؤرخها ابن الأثير بسنة ٧٤ هـ — وينقض رواية ابن عبد الحكم عن مقتل الكاهنة تاريخ هذه الواقعة (ص ٢٠١) .

(٣) ابن خلدون ج ٦ ص ١١٠ ، وابن عبد الحكم ص ٢٠١ .

فى منصبه حتى توفى عبد الملك بن مروان سنة ٨٦ هـ (٧٠٥ م) فخلفه ابنه الوليد بعهد منه ، وولى عمه عبد الله بن مروان على مصر ، فعزل حساناً عن ولاية إفريقية ، واختار لولايتها موسى بن نصير اللخمى ، وكانت إفريقية تابعة لمصر فى شؤون الحكم والولاية كما بينا . وكانت ولاية موسى بن نصير لإفريقية سنة ٨٩ هـ (٧٠٨ م) .

ويجب قبل أن نمضى فى الكلام عن حوادث إفريقية ، أن نقول كلمة عن الرجل الذى قدر أن يجوز الإسلام على يديه لأول مرة إلى القارة الأوربية ، وأن يكتب فيها صفحة من أمجد صفحاته . كان موسى بن نصير من أعظم الزعماء والقادة الذين وجهتهم الخلافة إلى الغرب . ومع أن الرواية الإسلامية تتبع حياته بإفاضة منذ ولايته لحكم إفريقية ، فإنها لا تقدم إلينا عن نشأته وحياته الأولى تفاصيل شافية ، شأنها نحو كثير من زعماء الإسلام فى القرن الأول من الهجرة . بيد أننا نعرف مع ذلك أنه من التابعين ، وأنه ولد سنة ١٩ هـ فى خلافة أمير المؤمنين عمر ، فى قرية من قرى الجزيرة ، أو بوادى القرى فى شمالى الحجاز على قول آخر . وأما عن نسبته ، فتقول الرواية إنه ينتسب إلى بكر بن وائل ، وان أباه نصيراً كان ممن سباهم خالد بن الوليد فى موقعة عين التمر (سنة ١٢ هـ)[١] . وقيل إنه ينتسب بطريق الولاء إلى بنى لخم ، وان أباه نصيراً كان على حرس معاوية بن أبى سفيان . ثم كان وصيفاً لعبد العزيز بن مروان فأعتقه[٢] .

وأما عن حياة موسى الأولى فلا تذكر الرواية سوى القليل . وكل ما نعرفه منها أنه تقلب فى بعض المناصب الحربية والإدارية الهامة ، قبل أن يعهد إليه بحكم إفريقية ، وأنه قاد بعض الحملات البحرية فى عصر معاوية بن أبى سفيان ، وغزا قبرس وغيرها من الجزر القريبة[٣] . وفى بعض الروايات أن عبد الملك بن مروان حينما ولى أخاه بشراً على البصرة فى سنة ٧٣ هـ ، وكان يتولى قيادة الجند

---

(١) الطبرى ج ٤ ص ٢٢ ، و «أخبار مجموعة فى فتح الأندلس» ص ٣ ، وأبو المحاسن فى النجوم الزاهرة (مصر) ج ١ ص ٢٣٥ .

(٢) ابن خلكان ج ٢ ص ١٧٦ ، وابن الأثير ج ٤ ص ٢٠٩ ، والبلاذرى فى فتوح البلدان ص ٢٣٢ .

(٣) النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢٢٥ .

بمصر ، ندب موسى بن نصير لمعاونته ، وكان يومئذ بمصر فى خدمة أميرها عبد العزيز بن مروان صديقه وحاميه ، وأن موسى لبث وزيراً ومستشاراً لبشر أيام ولايته للبصرة . فلما وُلّى الحجاج حكم العراق فى سنة ٧٥ هـ ، اتهم موسى باختلاس أموال البصرة ، ولم ينقذه من بطش الحجاج سوى تدخل عبد العزيز ابن مروان ، وكان قد وفد يومئذ على الشام بأموال مصر ، وهرع إليه موسى مستجيراً به . ثم عاد موسى إلى مصر مع عبد العزيز بن مروان ، ولبث بها يتبوأ لديه أسمى مراتب النفوذ والثقة حتى عين حاكماً لإفريقية(١) .

وتختلف الرواية فى تاريخ ولاية موسى بن نصير لإفريقية اختلافاً بيناً ، فالبعض يقول إنها كانت فى سنة ٧٨ أو ٧٩ هـ فى عهد عبد الملك ، ويقول البعض الآخر إنها كانت فى سنة ٨٦ أو سنة ٨٩ هـ فى عهد ابنه الوليد(٢) ؛ ونحن نؤثر الأخذ بالقول الثانى لأنه أكثر اتفاقاً مع سير الحوادث فى إفريقية ، ولأن معظم الروايات تجمع على أن حسان بن النعمان والى إفريقية لبث على ولايتها حتى وفاة عبد الملك ، وقد توفى عبد الملك فى شوال سنة ٨٦ هـ . وكان عبد العزيز بن مروان أمير مصر قد توفى قبل ذلك سنة ٨٥ هـ ، وندب عبد الملك ولده عبدالله أميراً

---

(١) وردت هذه التفاصيل فى كتاب « الإمامة والسياسة » المنسوب لابن قتيبة . ومع أن هذه النسبة يحيط بها كثير من الشك ، فإن الكتاب يتضمن كثيراً من الأخبار والتفاصيل المفيدة عن رجالات الإسلام فى عصر الخلفاء الراشدين والدولة الأموية ( راجع الكتاب المشار إليه – طبع مصر – ج ٢ ص ٦٠ وما بعدها ) . وقد اعتبره المستشرق الإسبانى جاينجوس **Gayangos** قديماً وصحيحاً ، وإن كان يشك فى نسبته لابن قتيبة لعدة أسباب وجيهة ؛ وانتفع به المستشرق الألمانى ڤايل **Weil** ، والمستشرق الإيطالى أمارى **Amari** . ويرى دوزى أن الكتاب غير قديم وغير صحيح ، وأنه يحتوى على أخطاء تاريخية وروايات خيالية غير معقولة ، وعلى ذلك فلا يمكن أن يكون ابن قتيبة صاحب هذا التصنيف الضعيف ؛ ويرى المستشرق هاماكر ويوافقه دوزى أن هذا الكتاب وأمثاله من الكتب التاريخية الحماسية ( مثل الكتب التى نسبت للواقدى ) ، قد ألفت أيام الحروب الصليبية لبث الحماس فى نفوس المسلمين ، وتذكيرهم بمجد أسلافهم وبطولتهم الخارقة . راجع دوزى :

**Recherches sur l'Histoire et Littérature de l'Espagne au moyen âge ; V.I. p. 21**

(٢) يقول بالرواية الأولى ابن عبد الحكم ( ص ٢٠٣ ) ، ويتبعه صاحب كتاب الإمامة والسياسة ( ج ٢ ص ٦٢ ) ، وابن الأبار فى الحلة السيراء ( ليدن ص ٧٠ ) ، والحميدى فى جذوة المقتبس ( مصر ص ٣١٧ ) ، والنجوم الزاهرة ( ج ١ ص ١٨٨ ) ؛ ويقول بالثانية ابن الأثير ( ج ٤ ص ١٤٤ و ٢٠٦ ) ، وابن خلكان ( ج ٢ ص ١٧٦ ) . وابن عذارى فى البيان المغرب ( ج ١ ص ٢٣ )

على مصر ، فدخلها فى جمادى الآخرة سنة ٨٦ﻫ قبيل وفاة أبيه بأشهر قلائل . وعزل عبد الله ، حسان بن النعمان عن ولاية إفريقية ، واختار لولايتها موسى بن نصير . وكانت ولاية موسى لإفريقية على أرجح الأقوال فى سنة ٨٩ ﻫ ( ٧٠٨ م ) .

وكان موسى بن نصير قد اختبر مفاوز إفريقية من قبل ، وسيره عبد العزيز ابن مروان فى سنة ٨٤ ﻫ إلى برقة ، فافتتح درنة وسبى من أهلها جموعاً غفيرة . وكان البربر لا يزالون على اضطرابهم وتمردهم ، يتحينون الفرصة للثورة كلما سنحت . فما كاد موسى يلى الحكم حتى نزعوا إلى الثورة شأنهم عند كل تغيير فى الحكم ، ولكنهم أخطأوا تقدير عزم الحاكم الجديد وصرامته . وسرعان ما سحقت الثورة فى كل ناحية ، ومزق موسى جموع الثوار بيد من حديد ، ودوخ هوارة وزناتة وكتامة وصنهاجة وغيرها من القبائل البربرية القوية ، ثم سار إلى طنجة وهى آخر معقل اعتصم به الثوار ، ولم يكن غزاها العرب بعد ، فافتتحها ، وولى عليها جندياً عظيماً هو طارق بن زياد الليثى ، وأثخن فى مفاوز المغرب الأقصى ، وطهرها من العصاة والمتآمرين ، وأحرز فى تلك الغزوات من الغنائم والسبى ما لا يحصى ، واستمال إليه وجوه القبائل ، وحشد فى جيشه آلافاً من البربر المسلمين ، واهتم بنشر الإسلام بين البربر اهتماماً عظيماً ، فأقبلوا على اعتناقه وذاع بينهم ذيوعاً كبيراً ، وهبت ريح من الأمن والسكينة على البلاد المفتوحة .

وكان الروم ( الرومان ) بعد أن أخفقوا فى الحرب البرية ، ويئسوا من استرداد إفريقية ، قد لجأوا إلى غزو الثغور ونهبها ، فابتنى موسى داراً عظيمة للصناعة ( بناء السفن ) على مقربة من أطلال قرطاجنة ، وأنشأ أسطولا ضخماً لحماية الثغور . وكان العرب قد بدأوا غزواتهم البحرية الأولى فى تلك المياه قبل ذلك بعدة أعوام ، وسير موسى ابنه عبد الله فى السفن إلى الجزر القريبة فغزا جزائر البليار ( الجزائر الشرقية ) وكانت يومئذ من أملاك ملك اسبانيا القوطى ، وافتتح مَيُورقة ومِنُورقة ( ٧١٠ م ) ولكنه لم يكن فتحاً مستقراً[1] . وسارت

---

( ١ ) تعرف هذه الغزوة بغزوة الأشراف لكثرة من اشترك فيها من أكابر المسلمين . وورد فى كتاب « الإمامة والسياسة » أن هذه الغزوة التى قادها عبد الله بن موسى كانت خاصة بصقلية لا بميورقة ( ج ٢ ص ٧٣ ) .

حملات بحرية أخرى إلى صقلية وسردانية وعاثت فى ثغورها ، وعادت مثقلة بالسبي والغنائم . وهكذا بسط العرب سلطانهم على شمالى إفريقية كله فى البر والبحر ، ولم يبق من ثغوره بيد النصارى بعد افتتاح طنجة سوى ثغر سبتة(١) الواقع فى نهاية البحر الأبيض المتوسط شرقى طنجة ، وكانت يومئذ من أملاك اسبانيا ، ويحكمها زعيم من القوط أو الفرنج يدعى الكونت يوليان . وكانت سبتة قد استطاعت لمنعتها الطبيعية ويقظة حاكمها ، أن ترد هجمات العرب ، رغم مجاورتهم لها من الجنوب والغرب ، وكان موسى يتوق إلى افتتاح هذا المعقل الحصين . على أن مشاريعه فى الفتح لم تكن تقف عند سبتة بل كانت تجاوزها إلى ما وراء ذلك البحر الشاسع ، الذى عرف العرب كثيراً عن شواطئه الشرقية والجنوبية ، ولكنهم لم يعرفوا بعد شيئاً أو لم يعرفوا سوى القليل عن شواطئه الشمالية والغربية : أجل ، كان موسى يتوق إلى افتتاح ما وراء ذلك البحر من الممالك والأمم المجهولة .

---

(١) ومقابلها الإفرنجى هو Ceuta

# الفصل الثانى

## إسبانيا قبل الفتح الإسلامى

أصل القوط . نزوحهم من الشمال إلى الجنوب . عبورهم نهر الدانوب . يهزمون الإمبراطور ديسيوس . هزيمتهم على يد الإمبراطور قسطنطين ثم الإمبراطور ڤالنس . زحف الهذن على القوط . دخولهم فى طاعة الإمبراطور . ثورة القوط فى عهد هونوريوس . زعيم القوط ألاريك . عقدهم الصلح مع الإمبراطور واندماجهم فى الجيش الرومانى . استقرارهم فى غاليس . ڤاليا أول ملوكهم . تيودريك الأول يعاون الدولة فى محاربة آتيلا . تيودريك الثانى يفتتح إسبانيا من يد الوندال . قيام مملكة القوط فى اسبانيا . اعتناقهم للنصرانية . اسبانيا وقت الفتح الإسلامى . المجتمع الإسبانى . استئثار القوط بالسيادة والثراء . نفوذ رجال الدين . بؤس الشعب وانحلال الجيش . ركون القوط إلى الرفاهة والدعة . يهود إسبانيا . اضطهاد الكنيسة لهم وإرغامهم على التنصير . محاولتهم الثورة والمبالغة فى إرهاقهم . ملك القوط وتيزا والخوارج عليه . تفرق المملكة ونشوب الثورة . مقدم العرب إلى شواطىء الجزيرة . محاصرة العرب لسبتة . زعيم الثورة ردريك . الحرب بينه وبين وتيزا . مقتل وتيزا واستيلاء ردريك على الملك . الكونت يوليان حاكم سبتة والخلاف فى شأنه . الاتفاق بينه وبين وتيزا على الاستنجاد بالعرب . قصة فلوردندا إبنة الكونت يوليان . أقوال الرواية الإسلامية فى شأنها . إنكار الرواية الإسبانية لصحتها . ما يرجحها فى نظر التاريخ .

كانت اسبانيا[1] فى الوقت الذى امتد فيه سلطان العرب إلى الشواطىء القريبة منها ، وإلى الجزر المجاورة لها ، خاضعة لنير القوط . وكانت قبل ذلك بنحو ثلاثة قرون كإفريقية ، ولاية رومانية تخضع لسلطان رومة . فلما اضمحل سلطان رومة ، وغزتها القبائل البربرية الجرمانية فى أوائل القرن الخامس الميلادى ،

---

(١) لا يستعمل العرب اسم « اسبانيا » للإشارة إلى شبه الجزيرة المعروفة بهذا الاسم ، وإنما يطلق العرب اسم « الأندلس » على شبه الجزيرة كلها ( راجع الروض المعطار — مصر — ص ١ ) . وفى بعض الروايات العربية أن التسمية نسبة لملك من الرومان اسمه إشبان بن طيطش غلب الأفارقة على ملك الأندلس ، وباسمه سميت إشبانية . وذكر بعضهم أن اسمه أصبهان فحرف وأنه هو الذى بنى إشبيلية ، وأن « اشبانية » كانت تطلق على إشبيلية التى كان ينزلها إشبان هذا . ثم غلب الاسم بعده على الأندلس كله ، فالعجم يسمونه إشبانية ( نفح الطيب عن الرازى ج ١ ص ٦٧ ) ؛ وذكر ابن حيان أن الإشبانيين ينسبون إلى إشبان وفسر منشأهم بخرافة دينية ( نفح الطيب ج ١ ص ٦٩ ) . ولم تنفرد الرواية الإسلامية بذكر « إشبان Espan » هذا ولكن تذكره أيضاً رواية ألفونسو العاشر القشتالية ، فتقول لنا انه ابن أخ للملك هرقل ، وأنه هو الذى عمر جزيرة قادس واتخذها مقراً له . راجع :

**Primera Crónica General de Espana (Ed. Pidal) Vol, I. p. 10**

اقتسمت هذه القبائل أملاك رومة الغربية ، واستولت على إيطاليا وفرنسا واسبانيا وكانت اسبانيا من نصيب القوط .

والقوط هم إحدى هذه القبائل أو الشعوب البربرية . التي هبطت من شمال أوربا ، وقوضت صروح الإمبراطورية الرومانية . وتقول الأساطير القديمة إنهم نزحوا من اسكندناوة ، وهي رواية يؤيدها كثير من القرائن والشواهد . ويذكر المؤرخ تاسيتوس أنهم كانوا منذ ظهور النصرانية إلى أواخر القرن الثاني ، يسكنون شواطىء البلطيق الجنوبية ، وأن قبائل عديدة من الوندال كانت تسكن على ضفاف نهر «أودَر» . وهنالك من المشابهات بين القوط والوندال ، في الدين والعادات والأخلاق والتقاليد ، ما يدل على أنهما يرجعان في الأصل إلى شعب أو جنس عظيم واحد . وفي عهد الإمبراطور اسكندر سيڤروس ( ٢٢٢ — ٢٣٥ م ) ظهرت طلائع القوط في ولاية «داسيا»[١] الرومانية ، وأغارت على بعض مدنها ، وكان هذا نزوحهم الثاني حيث استقروا عندئذ في إقليم « اليوكرين » . وفي عهد الإمبراطور ديسيوس عبروا نهر الدانوب وخربوا ولاية ميزيا[٢] الرومانية ، ثم تقدموا إلى قلب البلقان ، فسار ديسيوس لقتالهم ولكنه هزم ومزق جيشه (٢٥٠ م) وسار القوط إلى اليونان فعاثوا فيها وخربوها . ولم ينقطع عيثهم حتى نشط الإمبراطور قسطنطين الكبير لقتالهم ورد عدوانهم ، فحاربهم في عدة مواقع وهزمهم هزيمة شديدة ، وردهم إلى أقاصي داسيا ( سنة ٣٢٢ م ) وفرض عليهم شروطاً فادحة . ثم حاربهم الإمبراطور ڤالينس قيصر قسطنطينية وهزمهم في سنة ٣٦٩ م . وفي سنة ٣٧٥ م زحف الهون من المشرق على القوط ومزقوهم ، ففروا إلى ضفاف الدانوب واستغاثوا بالإمبراطور وطلبوا الدخول في طاعته ، فأجابهم إلى ذلك ، واستقروا حيناً في ولاية تراقية ، ولكنهم ثاروا مراراً من جراء قسوة الحكام الرومانيين وعسفهم[٣] .

وفي عهد الإمبراطور هونوريوس ، قام القوط بثورة أعظم وأبعد أثراً بقيادة زعيمهم « ألاريك » ، وخربوا تراقية واليونان ، ثم عبروا إلى إيطاليا

---

( ١ ) كانت ولاية داسيا تقع في شرق حوض الدانوب وتشغل مكان رومانيا والمجر .

( ٢ ) كانت ولاية ميزيا تقع في وسط البلقان وتشغل مكان بلغاريا الحديثة .

( ٣ ) Gibbon, Ibid. Chap X, XIV & XXV

وافتتحوا رومة ونهبوها (سنة ٤١٠م) . ولكن زعيمهم ألاريك توفى فى نفس هذا العام فارتدوا إلى الشمال . ثم عقدوا الصلح مع الإمبراطور، واندمجوا فى الجيش الإمبراطورى ، وقاموا بقمع الثورات المحلية فى غاليا أو غاليس[1] (جنوبى فرنسا) وشمالى إسبانيا ، ثم استقروا فى أواسط فرنسا وجنوبها ، فيما بين نهرى اللوار والجارون ، واتخذوا تولوز (تولوشة) عاصمة لهم . وأقطع الإمبراطور ملكهم «ڤاليا» حكم هذا القطر ، وقامت بذلك مملكة قوطية تابعة للدولة الرومانية . وعاون القوط الدولة على محاربة الوندال والآلان والسوابيين[2] ، وعاونها بالأخص ملكهم تيودريك الأول ولد ألاريك ، على هزيمة آتيلا التترى وبرابرته الهون فى موقعة شالون (سنة ٤٥١ م) . ثم عبر خلفه وأخوه تيودريك الثانى إلى اسبانيا ، لانتزاعها من الوندال والسوابيين المتغلبين عليها ، مشترطاً على الدولة أن يحتفظ بما يفتتحه من اسبانيا لنفسه ولعقبه . وحارب الوندال والسوابيين وهزمهم (سنة ٤٥٦ م) ، وافتتح اسبانيا ما عدا ركنها الشمالى الغربى (جليقية) ، الذى استعصم به الوندال حيناً . ولم تأت نهاية القرن الخامس حتى ملك القوط شبه الجزيرة كلها ، وامتد ملكهم من اللوار إلى شاطىء اسبانيا الجنوبى . ولكن الفرنج غزوهم من الشمال ، وأجلوهم عن فرنسا فى أعوام قلائل ، فاستقروا فى اسبانيا ، واتخذوا طليطلة دار ملكهم ، ووضعوا لمملكتهم الجديدة نظماً وقوانين خاصة ، تتأثر روح الحضارة والأنظمة الرومانية ؛ وكانوا أيضاً قد اعتنقوا النصرانية منذ أواخر القرن الرابع ، كما اعتنقها الوندال وغيرهم من الشعوب البربرية ، التى تقاسمت تراث رومة وأملاكها . ولبث القوط زهاء قرنين سادة لإسبانيا حتى الفتح الإسلامى[3] .

---

(١) هكذا يسميها ابن الأثير . ويسميها البكرى ، «بلاد غاليش» وهو اسمها الرومانى : **La Gaule**

(٢) ويبدى ابن خلدون دقة فى تسمية هؤلاء البربر ، فيسميهم «القندلس والآبيون والشوابيون» (ج ٢ ص ٢٣٥) .

(٣) يقدم المؤرخون المسلمون عن تاريخ اسبانيا قبل الفتح الإسلامى روايات غامضة أكثرها خرافى . ولكن بعضها يقترب من التاريخ . فابن الأثير مثلا يشير فى روايته عن القوط إلى غزوهم لمقدونية ومحاربة قسطنطين الأكبر لهم . ثم يذكر زعيمهم «ألريق» (ألاريك) وكيف غزا رومة ، وكيف استقر القوط أولا فى غاليس (أى غاليا) ثم انتقلوا إلى اسبانيا . غير أنه يذكر ثبت ملوكهم —

ولنعرض بعد ذلك إلى حالة اسبانيا وقت الفتح . كانت المملكة القوطية تجوز دور انحلالها قبل ذلك بأمد طويل ، وكان المجتمع الإسبانى يعانى صنوف الشقاء والبؤس ، وقد مزقته عصور طويلة من الظلم والإرهاق والإيثار . ولم يكن القوط فى الحقيقة أمة بمعنى الكلمة ، فإنهم لم يمتزجوا بسكان الجزيرة ، ذلك الامتزاج الذى يجعل الغالب والمغلوب ، والحاكم والمحكوم ، أمة واحدة . بل كان القوط يستأثرون بمزايا الغلبة والسيادة ، وينعمون بإحراز الإقطاعات والضياع الواسعة ، ومنهم وحدهم الحكام والسادة والأشراف. أما سواد الشعب الأعظم ، فقوامه طبقة متوسطة رقيقة الحال ، وزراع شبه أرقاء يلحقون بالضياع ، وأرقاء للسيد عليهم حق الحياة والموت . وإلى جانب السادة والأشراف ، يتمتع رجال الدين بأعظم قسط من السلطان والنفوذ ؛ ذلك أن القوط كانوا أتقياء مؤمنين رغم خشونتهم ، وكان للأحبار عليهم أيما تأثير ، وقد استطاعوا أن يوجهوا القوانين والنظم ، وأن يصوغوا الحياة العقلية والاجتماعية ، وفقاً لمثل الكنيسة وغاياتها . ثم استغلوا هذا النفوذ فى إحراز الضياع وتكديس الثروات ، واقتناء الزراع والأرقاء . وهكذا كانت ثروات البلاد كلها تجمع فى أيدى فئة قليلة ممتازة من الأشراف ورجال الدين ، اختصت بترف العيش ومتاع الحياة ، وكل نعم الحرية والكرامة والاعتبار .

أما الشعب فقد كان فى حالة يرثى لها من الحرمان والبؤس ، يعانى أمر ضروب الظلم والعسف والإرهاق ، ويُخص وحده دون الطبقات الممتازة ، بأعباء المغارم والضرائب الفادحة ، ومشاق العمل ، والسخرة فى ضياع الأشراف والأحبار ، وتسلبه فروض العبودية والرق ، كل شعور بالعزة والكرامة . ولم يكن الشعب كما قدمنا سوى كتلة مهيضة من طبقة فقيرة وسطى ، ومن جمهرة من الزراع شبه الأرقاء والأرقاء ، ومع ذلك فقد كان يقع عليه إلى جانب هذه الفروض والمغارم

— فى كثير من التحريف والخلط (ج ٤ ص ٢١٢ و٢١٣) . وقال ابن حيان بعد أن ذكر أصل اسم اسبانيا « وغلب على هؤلاء الإشبانيين من عجم رومة أمة يدعون البشتولقات ( الوندال ) وملكهم طلويش بن بيطة وذلك من بعث المسيح . ثم دخلت عليهم أمة القوط » ( نقله المقرى فى نفح الطيب ج ١ ص ٦٩ ) . وأقرب الروايات إلى الصحة هى رواية ابن خلدون ، فهو يقول متفقاً مع الرواية اللاتينية : « إن القوط قد امتلكوا القطر الأندلسى لمئين من السنين قبل الإسلام . بعد حروب كانت لهم مع اللطنيين ، حاصروا فيها رومة ثم عقدوا معهم السلم على أن تنصرف القوط إلى الأندلس» (ج ٤ ص ١١٦) .

الفادحة ، عبء الحرب والدفاع عن الوطن . وكما أن الجيوش الرومانية كانت وقت ظهور الإسلام ، قد فقدت وحدتها وروحها القومى وقوتها المعنوية ، لتكوينها من الرعايا الأجانب والمرتزقة ، فكذلك كان الجيش الإسبانى منذ العهد الرومانى ، قوامه الزراع شبه الأرقاء واليهود . فلما حل القوط فى اسبانيا وذاقوا نعم السلم ، بعد مشاق التجوال والغزو ، وتبوأوا مراكز الغلبة والسيادة ، اعتمدوا فى الدفاع عن ملكهم الجديد على هذا الجيش ، الذى تموج صفوفه بجماعات مضطهدة ناقمة على سادتها . « ولاريب أن شبه الأرقاء كانوا فى الجيش أكثر بكثير من الأحرار ، وهذا ما يعنى أن الدفاع عن الدولة كان يعهد به إلى أولئك الذين يؤثرون ممالأة العدو على الذود عن ظالميهم »[1] . أما القوط أنفسهم فقد فقدوا منذ بعيد خلالهم الحربية القوية ، وركنوا إلى حياة النعماء والدعة ، وفتت فى عزائمهم وشجاعتهم نعومة الجو وترف العيش ، ولم يعودوا بعد أولئك الغزاة الأشداء الذين أخضعوا رومة ، وتوغلوا فيما بين الدانوب والمحيط ، « بل كان خلفاء ألاريك يحتجبون بصخور البرنيه غارقين فى سبات السلم ، لا يعنون بتحصين مدينة ، ولا يعبأ شبابهم بتجريد سيف »[2] .

وكان يهود الجزيرة كتلة كبيرة عاملة ، ولكنهم كانوا موضع البغض والتعصب والتحامل ، يعانون أشنع ألوان الجور والاضطهاد . وكانت الكنيسة منذ اشتد ساعدها ونفوذها تحاول تنصير اليهود ، وتتوسل إلى تحقيق غايتها بالعنف والمطاردة . ففى عصر الملك سيزبوت[3] فرض التنصر على اليهود أو النفى أو المصادرة ، فاعتنق النصرانية كثير منهم كرها ورياء (سنة ٦١٦ م) . ثم توالت عليهم مع ذلك صنوف الاضطهاد والمحن ، فركنوا إلى التآمر وتدبير الثورة ، وتفاهموا مع إخوانهم يهود المغرب على المؤازرة والتعاون . ولكن المؤامرة اكتشفت قبل نضجها (٦٩٤م) . وكان ذلك فى عهد الملك إجيكا ؛ فقرر أن يشتد فى معاقبتهم ، واجتمع مؤتمر الأحبار فى طليطلة للنظر فى ذلك ، وأجاب الملك إلى ما طلبه ، وقرر معاقبة اليهود باعتبارهم خوارج على الدولة يأتمرون بسلامتها ، ولأنهم ارتدوا

---

(١) Dozy: Histoire des Musulmans de L'Espagne (1932) Vol. I. p. 269

(٢) Gibbon, ibid, Chap. LI.

(٣) ويسميه ابن الأثير ، سيسفوط (ج ٤ ص ٢١٣) .

عن النصرانية التى اعتنقوها من قبل ؛ وقرر أن ينزع أملاكهم فى سائر الولايات الإسبانية ، وأن تحول إلى جانب العرش ، وأن يشردوا ويقضى عليهم بالرق الأبدى للنصارى ، وأن يهبهم الملك عبيداً لمن شاء ، وألا يسمح لهم باسترداد حرياتهم ما بقوا على اليهودية ، وأن يحرر أرقاؤهم من النصارى ويمنحون بعض أملاكهم ، وأن ينزع أبناؤهم منذ السابعة ويربون على دين النصرانية ، وألا يتزوج عبد يهودى إلا بجارية نصرانية ، ولا تتزوج يهودية إلا بنصرانى[1] . وهكذا عصفت يد البطش والمطاردة باليهود أيما عصف ، فكانوا قبيل الفتح الإسلامى ضحية ظلم لا يطاق ، وكانوا كباقى طوائف الشعب المهيضة يتوقون إلى الخلاص من هذا النير الجائر ، ويرون فى أولئك الفاتحين الذين يتركون لهم حرية الضمائر والشعائر مقابل جزية ضئيلة ملائكة منقذين[2] .

هكذا كانت حال اسبانيا حينما افتتح العرب إفريقية واقتربوا من شواطىء الأندلس . وكان على عرش اسبانيا يومئذ الملك وتيزا[3] خلف الملك إجيكا وولده . وكان يحكم مملكة مزقها الخلاف وشعباً أضناه العسف . وتحمل بعض الروايات الإسبانية القديمة على وتيزا ، وتصفه بأنه كان ملكاً خليعاً فاجراً ، مغرقاً فى شهواته ، وأنه كان على رأس بلاط منحل وضيع الخلال . ويقول البعض الآخر إنه كان بالعكس ملكاً فاضلاحسن السيرة ، وافر الحكمة والعدالة ، وإنه عمل على رد المظالم وإقامة العدل[4] . والمرجح المتداول ، أنه أحسن السيرة فى بداية عهده ، ورد إلى اليهود سابق حقوقهم وامتيازاتهم ، ولكنه حاول أن يحد من سلطة الأشراف والأحبار ، وأن يجمع السلطة فى يد العرش ، فسخط عليه الأشراف ورجال الدين ، ودبروا لإسقاطه ثورة بعد ثورة ؛ ولكنه أخمدها

---

( ١ ) راجع كتاب « تاريخ لانجدوك » **Histoire de Languedoc** ، تأليف الراهب **Dom Vissette** ( الطبعة الجديدة ج ١ ص ٧٥٠ و ٧٥١ ) ، وهذا المؤلف موسوعة ضخمة من ستة عشر مجلدا ، ويشتمل على وثائق وتفاصيل هامة عن تاريخ اسبانيا قبل الفتح الإسلامى ، وغزوات العرب الأولى لإسبانيا وفرنسا .

( ٢ ) **Dozy : Hist. : V. I. p. 268**

( ٣ ) ويسميه العرب « غيطشة » .

( ٤ ) يقول بالرواية الأولى سبستيان الشلمنتى وردريك الطليطلى ، ويقول بالرواية الثانية إيزيدور الباجى ؛ ويوافقه فى هذا ابن عذارى المراكشى ( البيان المغرب ج ٢ ص ٤ ) . وراجع : **Dozy : Recherches, V.1 p. 16.**

جميعاً ، وهدم جميع المعاقل والحصون الداخلية لكى يحطم سلطان خصومه ويجردهم من وسائل الدفاع والمقاومة ، فلم يزدهم البطش والهزيمة إلا ظمأً إلى الخروج والثورة . وكان فى مقدمة خصومه الذين يخشى بأسهم دوق تيودوفريد الذى نفاه أبوه الملك إجيكا إلى قرطبة ، فزاد على ذلك أن سمل عينيه مبالغة فى النكاية به ، وحاول أن يفعل ذلك مع بلاجيوس ولد فافيلا دوق كانتابريا ، ولكنه استطاع الفرار من نقمته[1] . وكان الشعب من جهة أخرى يرزح أبداً تحت نير الجور والإرهاق ، فكان عرش القوط يرتجف فوق بركان مضطرم من السخط ؛ وتقول الرواية النصرانية إن الزعماء الناقمين انتهزوا فرصة اقتراب أسطول إسلامى من جنوب اسبانيا ورفعوا لواء الثورة ، وإن وتيزا استطاع أن يرد هذا الأسطول وإن تيودومير قائد الأسطول القوطى هزم المسلمين فى معركة بحرية كبيرة وذلك فى سنة ٧٠٨ م[2] . وكان العرب كما قدمنا قد طوقوا أسوار سبتة معقل القوط فى الضفة المقابلة من البحر ، وأمد وتيزا حاكمها الكونت يوليان بأشجع جنده ، فانتهز خصومه فرصة ضعفه فى الداخل ليدبروا الثورة مرة أخرى . وقاد الثورة عندئذ زعيم جرىء هو رُدريك ابن دوق تيودوفرد الذى سمل وتيزا عينى أبيه ، فكان يحفزه باعث الانتقام أيضاً ، وكان يتزعم حزباً قوياً ، والتف حوله رجال الدين والأشراف والأسر الرومانية ، فجمع جيشاً كبيراً ونادى بنفسه ملكاً . ووقعت بين الفريقين حرب أهلية شديدة . وهنا تختلف الرواية فيقال إن وتيزا قتل فى هذا النضال وخلص الملك لمنافسه ، وفى رواية أخرى أن ردريك ظفر به وسمل عينيه انتقاماً لأبيه ، ويقال أيضاً إنه ارتد إلى إحدى الولايات الشمالية وامتنع بها حتى وفاته . ويختلف المؤرخون كذلك فى تاريخ ولاية ردريك الملك ، فيقول البعض ، ومنهم ردريك الطليطلى ، إنه تولى سنة ٧١١ م ، وحكم مع وتيزا قسما من اسبانيا ، وإنه لما توفى وتيزا فى سنة ٧١٣م ، استأثر بالحكم مدى

---

(١) Dom Vissette : ibid, V. 1. p. 756

(٢) أورد هذه الرواية إيزيدور الباجى **Isidorus Pacensis** ونقلها المؤرخ الألمانى يوسف أشباخ فى كتابه **Geschichte der Omajaden in Spanien** (ج ١ ص٢٦) . والظاهر أن المقصود هنا هو الحملة البحرية التى جهزها موسى بن نصير بقيادة ابنه عبد الله سنة ٨٩ ﻫ ( ٧٠٨م ) وهى المعرفة بغزوة الأشراف . ولكن المسلمين لم يهزموا عندئذ فى أية موقعة بحرية ، وقد غزوا جزائر البليار كما قدمنا .

عام آخر حتى فتح اسبانيا ، ويقول إيزيدورالباجى ، إن ردريك ظفر بالعرش فى أواخر سنة ٧١١ م وإنه لم يحكم قبل الفتح سوى عام واحد[١] ؛ وفى الروايتين تحريف ظاهر ، ولا بد أن ردريك ولى الملك قبل سنة ٧١١ ، إذكان فتح العرب لاسبانيا فى صيف هذا العام نفسه . وعلى أى حال فإن المعركة استمرت مدى حين بين ردريك وولدى وتيزا ، وهما إيقا ومسيزبوت يعاونهما عمهما أوباس[٢] أسقف طليطلة وإشبيلية ورأس الكنيسة ، والتفت حولها رجال الدين وكل أنصار الحكم القديم . وكان ردريك قوى الجانب وافر الشجاعة والعزم ، فاستطاع أن يخمد الثورة فى كل ناحية ، واستتب له الأمر حيناً ، ومع ذلك فقد بقى عرش القوط مضطرباً يهتز فى يد القدر ، وكان الخطر يجثم فى ناحية أخرى :

ذلك أن خصوم ردريك اتجهوا بأبصارهم إلى خارج الجزيرة . وكان الكونت يوليان حاكم سبتة والمضيق ، محط أنظارهم ومساعيهم . وقد اختلف فى أمر الكونت يوليان اختلافاً بيناً ، فالروايات العربية القديمة كلها تشيد بذكره ، وبالدور العظيم الذى أداه فى الفتح ، وينكر وجوده بعض أكابر المؤرخين الإسبان مثل ماسدى وغيره ، لأن ذكره لم يرد لأول مرة إلا فى روايات القرن الثانى عشر. على أنه مما يعزز إجماع الرواية العربية ، إشارة إيزيدور الباجى ، صاحب أقدم رواية إسبانية عن الفتح ، إلى شريف نصرانى كان يصحب موسى فى كل غزواته . كذلك تختلف الرواية فى صفة الكونت ، فيقال إنه لم يكن تابعاً لملك القوط ، وإن سبتة كانت فى ذلك الحين ما تزال تابعة لقيصر الدولة الشرقية ، ولكن حاكمها الكونت رأى لبعدها وعزلتها أن يستظل بحماية اسبانيا[٣] . على أنه يبدو من أقوال الرواية العربية ، وهى فى نظرنا أقوى وأرجح ، أن الكونت يوليان كان قوطياً إسبانياً ، وأنه كان يرتبط ببلاط طليطلة بصلات وثيقة . وتؤيد الرواية العربية

---

(١) Dom Visette : ibid, V. 1. p. 756 وذلك نقلا عن Rodericus Toletanus
Chronicon و Isidorus Pacensis

(٢) يسمى ابن القوطية أولاد وتيزا كما يأتى : المند . ورملة . ثم أرطباس . ولعل أرطباس هو أوباس . ولكن صاحب «أخبار مجموعة فى فتح الأندلس» أصح وأدق فهو يسميهما شبشرت وأبة باعتبار أنهما اثنان فقط ( ص ٨ ) .

(٣) Dozy : Recherches : V. 1. p. 60-65, Hiet : V. 1. p. 270

بعض التواريخ النصرانية المتأخرة ، فيقول لنا ردريك الطليطلى ، ولوقا التطيلى ، إن الكونت يوليان كان حاكماً لسبتة ، وهى يومئذ من أملاك العرش القوطى ، وإنه كان رجلا شجاعاً ، ولكنه كان مغامراً منتقماً ، وإنه كان من أقارب الملك ڤامبا[١] . ويقول لنا ألفونسو العاشر فى تاريخه العام إن الكونت يوليان كان من أكابر الأشراف الذين يرجع أصلهم إلى القوط ، وإنه كان قريباً للملك وتيزا[٢]. ولما نشب الخلاف الداخلى حول العرش ، انضم الكونت إلى أنصار الحكم القديم وأنصار الملك وتيزا . وكان غنياً شديد البأس ، كثير الأتباع والجند ، يعتصم بالبحر ، بعيداً عن سلطة العرش ، ويقبض على مفتاح اسبانيا بحكمه لسبتة والمضيق . وكان من خصوم الحكم الجديد يخشى عواقبه على مركزه وسلطانه . فاتصل به إبنا وتيزا وباقى الزعماء الخوارج ، واستقر الرأى على الاستنجاد بالعرب جيران الكونت ، وهذا هو التعليل التاريخى للتحالف الذى عقد بين يوليان وموسى ابن نصير وانتهى بفتح العرب لإسبانيا . ولكن الرواية — والرواية الإسلامية بنوع خاص — تقدم إلينا تعليلا آخر ، فتقول لنا إن يوليان كان يعمل بدافع الانتقام الشخصى أيضاً . فقد كانت له إبنة رائعة الحسن تدعى فلورندا أوكابا ، أرسلها إلى بلاط طليطلة جرياً على رسوم ذلك العصر ، لتتلقى ما يليق بها من التربية بين كرائم العقائل والفرسان ، فاستهوى جمالها الفتان قلب ردريك فاغتصبها وانتهك عفافها . وعلم الكونت بذلك فاستقدم ابنته إليه وأقسم بالانتقام ، ونزع ردريك ذلك العرش الذى اغتصبه . فلما نشبت الحرب الأهلية بين ردريك وخصومه ، والتجأ هؤلاء الخصوم إليه ، رأى الفرصة سانحة للعمل ، ولم ير خيراً من الاستنصار بالعرب ومعاونتهم على فتح اسبانيا .

والرواية الإسلامية تجمع على قبول هذه القصة والأخذ بها ، مع أخذها فى الوقت نفسه بالعوامل السياسية التى ذكرناها[٣]. ولكن الرواية النصرانية تردد

---

(١) Camille Julian : Histoie de la Gaule p. 727

(٢) Pr. Crónica General ( Ed. Pidal ) Vol. I. p. 307

(٣) يتناقل المؤرخون المسلمون هذه القصة منذ أقدم العصور ، فنراها فى رواية ابن عبد الحكم الذى كتب تاريخ فتح الأندلس بعد وقوعه بنحو قرن فقط (أخبار مصر وفتوحها ص ٢٠٥) . وذكرها ابن حيان مؤرخ الأندلس ( نقله نفح الطيب ج ١ ص ١٠٩ ) ، وابن القوطية القوطى فى « افتتاح الأندلس » (ص ٨) — وهو يصف يوليان بأنه كان تاجراً من تجار العجم لا حاكما لسبتة ، ويعلل=

فى قبولها ، وتنكرها معظم الروايات الإسبانية الحديثة ، وتعتبرها أسطورة صاغتها الأغانى والقصص القديمة . وهكذا نجد ماريانا وماسدى أعظم مؤرخى اسبانيا فى مقدمة المنكرين لصحتها . ويذهب البعض الآخر مثل مونتيخار وغيره إلى أبعد من ذلك ، فينكر شخصية الكونت يوليان ذاته ، ويعتبرها شخصية خيالية ، ويعتبر القصة كلها خرافة وأسطورة فقط[1] . ويقول كوندى إن اسم كابا ( فلورندا ) ووصيفتها أليڤا وكل أشخاص هذه الرواية تدل على أن القصة كلها إنما هى خرافة موريسكية[2] اشتقت من الأساطير والأغانى العامية التى كانت ذائعة بين المسلمين والنصارى[3] .

وإنكار الرواية الإسبانية لمثل هذه القصة معقول ظاهر الحكمة ، فهى تأبى الاعتراف بواقعة تسجل خيانة الوطن على نفر من زعماء اسبانيا الأوائل ، وهى خيانة كان من أثرها أن افتتح العرب اسبانيا وحكمها الإسلام قروناً طويلة . على أننا لا نجد فى القصة ما يبعث إلى إنكارها ، فوقوعها ممكن معقول فى مثل الظروف التى كانت تجوزها اسبانيا يومئذ ، من خلاف فى الرأى ، وتنازع على السلطة ، وانحلال أخلاقى واجتماعى . ولسنا من جهة أخرى نلمس فى الرواية الإسلامية أثر الاختراع . فليس ثمة ما يدعو إليه . وليس من المعقول أن تخترع الرواية الإسلامية قصة مفادها أن المسلمين لقوا فى فتح اسبانيا معاونة لم يتوقعوها ، وأن هذه المعاونة سهلت لهم سبل الفتح ، ولعلهم لم يقدموا بدونها على الاضطلاع به ، أو لعلهم كانوا يتعرضون للإخفاق والفشل . هذا إلى أن بعض الروايات الإسبانية القديمة ، ومنها ما هو قريب من الفتح ، يشترك مع الرواية العربية فى سرد قصة فلورندا والأخذ بها .

---

= وقوع الفتح بخروج أولاد وتيزا وخيانتهم . وكذا صاحب أخبار مجموعة (ص ٥) . وابن الأثير (ج ٤ ص ٢١٣) . وابن خلدون ( ج ٢ ص ٢٣٦ وج ٤ ص ١١٧ ) . وعبد الواحد المراكشى فى « المعجب » ( ص ٦ ) . وابن عذارى المراكشى فى « البيان المغرب » ( ج ٢ ص ٨ ) . وصاحب الروض المعطار فى « وصف جزيرة الأندلس » المنشور بالقاهرة ١٩٣٧ ( ص ٧ ) .

( ١ ) راجع الهامش فى : **Aschbach : ibid, I. p. 28**

( ٢ ) نسبة إلى الموريسكيين **Moriscos** أو العرب المتنصرين ، وهم بقية الأمة الأندلسية المغلوبة بعد سقوط غرناطة ( ١٤٩٢ م ) وانتهاء دولة الإسلام فى الأندلس .

( ٣ ) **Historia de la Dominación de los Arabes en Espana**

فمن ذلك ما ورد فى رواية إيزيدور الباجى الذى عاش فى أوائل القرن الثامن ، وما ذكره ردريك الطليطلى فى روايته ، من أن الكوست يوليان ثار لاعتداء ردريك على ابنته أو زوجه ، واعتزم أن ينتقم لنفسه بدعوة العرب إلى فتح اسبانيا ، وهى قصة يرددها أيضاً التاريخ العام الذى وضع بأمر الملك ألفونسو العالم فى أواخر القرن الثالث عشر[١]. فى هذه الروايات الإسبانية النصرانية كلها تأييد لهذه القصة الشهيرة . كذلك يختلف النقد الأوربى الحديث فى أمر هذه القصة ، فيرى البعض أنها أسطورة لا يصح الأخذ بها ، ويرى البعض الآخر أنها معقولة لا أثر للاختراع فيها[٢] . ونحن مع هذا الفريق نرى قصة فلورندا حادثاً طبيعياً معقولا ، ونرى فى إجماع الرواية الإسلامية على تدوينها دليلا آخر على صحتها . ومهما كان من أمر يوليان ، ومهما كان من بواعث غضبه ونقمته على مليكه ، فقد كان تدخله أكبر عامل فى تذليل فتح المسلمين لشبه الجزيرة الإسبانية ، والقضاء على مملكة القوط .

---

(١) Pr. Crónica General; Vol. I. p. 807, C. Julian, ibid, p. 757 — Gibbon, ibid. Chap. LI (Note)

(٢) قال الفيلسوف جيبون فى تعليقه على تلك القصة : « طالما كانت أهواء الملوك يطبعها الجموح والعبث . ولكن هذه القصة المعروفة ، وإن كانت روائية فى ذاتها ، لم تؤيدها الأدلة الكافية ، وتاريخ اسبانيا يقدم من بواعث المصلحة والسياسة ما هو أليق بتفكير السياسى القديم ( يريد الكونت يوليان ) Gibbon, ibid, LI . ويسخر ڤولتير فى تاريخه العام من القصة ويقول : « إن الاغتصاب صعب التنفيذ صعب التدليل ، فهل يتحالف الأحبار من أجل فتاة » . ولكن المؤرخ المستشرق دوز يروى القصة ويأخذ بها فى شرح حوادث الفتح Dozy : Histoire V.I.p.271 وكذا يرويها ويأخذ بها المستشرق كاردون فى كتابه : Histoire de l'Afrique et de l'Espagne p. 65.

# الفصل الثالث

## فتح اسـبانيا

المفاوضة بين موسى بن نصير والكونت يوليان . استئذان موسى للوليد فى الفتح . فكرة يوليان وأصحابه فى استدعاء العرب . حملة تمهيدية إلى الجزيرة الخضراء . حملة الفتح . طارق بن زياد . عبوره إلى الأندلس واختراقه للجزيرة الخضراء . تأهب رذريك ملك القوط لملاقاة العرب . مكان اللقاء بينهما . موقعة شذونة أو وادى لكة . تفرق الجيش القوطى . هزيمة القوط ومقتل رذريك . الخطاب الذى ينسب إلى طارق والشك فى صحته . هل أحرق طارق سفن الحملة . اللقاء الثانى بين القوط والعرب فى إستجة . هزيمة القوط الثانية . زحف طارق على طليطلة . إفتتاح قرطبة وغرناطة ومالقة . معاونة اليهود للمسلمين . افتتاح تدمير وعقد الصلح مع أميرها . طارق يخترق الأندلس . كلمة أندلس وأصلها . استيلاء طارق على طليطلة . اختراقه قشتالة وليون وجبال أستورية . عوده إلى طليطلة . موسى وموقفه من الفتح . أوامره لطارق . يقود حملة جديدة إلى اسانيا . استيلاؤه على شذونة وقرمونة وإشبيلية . حصاره لماردة وافتتاحها . غضبه على طارق ثم عفوه عنه . مسيرهما إلى الشمال وافتتاحهما لسرقسطة وطركونة وبرشلونة . مسير طارق إلى جليقية . موسى يخترق البرنيه ويغزو سبتمانيا . إفتتاحه لأربونة وقرقشونة ووادى الرون . مشروعه فى اختراق الأمم النصرانية شرقاً إلى مقر الخلافة . إعتراض حكومة دمشق . مسيره لإخضاع جليقية . استدعاؤه وطارق إلى دمشق . بواعث هذا الاستدعاء . افتتاح عبد العزيز بن موسى لبلنسية ولبلة . معاهدته مع تيودمير . إشبيلية عاصمة الأندلس . إستخلاف موسى لولده عبد العزيز . سفره وطارق إلى المشرق . ما أصاب المسلمون من غنائم الأندلس . مصير موسى واختلاف الرواية فى شأنه . وفاته وخلاله . مصير طارق . مصير الكونت يوليان والأمراء المحالفين للعرب . سارة القوطية وحفيدها المؤرخ .

فى الوقت الذى كانت شبه الجزيرة الإسبانية تجوز فيه هذه الحوادث والأزمات الخطيرة ، كان العرب قد أتموا فتح المغرب الأقصى ، واستولوا على ثغر طنجة ، وأشرفوا على شواطىء الأندلس من الضفة الأخرى من البحر ، ولم يبق لإتمام فتح إفريقيه سوى ثغر سبتة الذى يقع مقابل طنجة فى الطرف الآخر من اللسان المغربى . وكانت سبتة قد استطاعت لمنعتها وسهر حاكمها الكونت يوليان ، أن تحبط كل محاولة لأخذها . وكان موسى بن نصير يتوق إلى افتتاح هذا الثغر المنيع ، وتطهير إفريقية من البقية الباقية من العدو . وبينا هو يرقب الفرص لتحقيق هذه الأمنية ، إذ جاءته رسالة من الكونت يوليان نفسه يعرض فيها

تسليم معقله ، ويدعوه إلى فتح اسبانيا ، وجرت بينهما المفاوضة فى هذا المشروع الخطير . وتختلف الرواية فى أمر هذا الاتصال ، فيقال إن موسى ويوليان اتصلا بالمراسلة ، وقيل إنهما اتصلا بالمقابلة الشخصية ، وإن الكونت استدعى موسى إلى سبتة ، وهنالك وقعت المفاوضة بينهما . وقيل أخيراً إنهما اجتمعا فى سفينة فى البحر[١] . وعلى أى حال فقد استجاب موسى لدعوة الكونت ، واهتم بمشروعه أعظم اهتمام ، وكان قد وقف على أحوال اسبانيا وخصبها وغناها ، واستطاع أن يقدر أهمية مثل هذا الفتح ، وجليل مغانمه ومزاياه ، فلما علم من يوليان وحلفائه ما تعانيه اسبانيا من الخلاف والشقاق ، وما يسودها من الانحلال والضعف ، ورأى مما يعرضه يوليان من تسليم سبتة وباقى معاقله ، وتقديم سفنه لنقل المسلمين فى البحر ، ومعاونته بجنده وإرشاده ، أن الفوز ميسور محقق ، كتب إلى الوليد بن عبد الملك يخبره بأمر المشروع ، فكتب إليه الوليد أن يختبره بالسرايا ، أعنى بالحملات الصغيرة بادىء بدء ، وألا يزج بالمسلمين إلى أهوال البحر ، بيد أن المسلمين كانوا قد خاضوا قبل ذلك غمر المعارك البحرية فى هذه المياه ، وغزوا صقلية وسردانية ، ثم غزوا جزائر البليار ( الجزائر الشرقية ) كما قدمنا ، وكان البحر الذى يفصل بين إفريقية والأندلس مجازاً ضيقاً سهل العبور .

ولبث موسى حيناً بطنجة يهيئ عُدة الفتح . والظاهر أن يوليان وحلفاءه لم يقصدوا بدعوة موسى أن يمتلك العرب اسبانيا ، وأن يحكموها ، بل كان مشروعهم أن يستعينوا بالعرب على محاربة المغتصب وإسقاطه ، واستخلاص الملك لأنفسهم . وكان اعتقادهم أن العرب متى امتلأت أيديهم بالأسلاب والغنائم ، قفلوا إلى إفريقية . وهو فرض معقول يؤيده سير الحوادث فى اسبانيا ، فقد كان الخوارج على ردريك يقصدون إلى انتزاع الملك من يده . وتحقيق أطماعهم بالحلول مكانه . أما الفرض الآخر — وهو أنهم كانوا يقصدون بالفعل تسليم وطنهم إلى العرب — فمعناه أنهم كانوا يعملون للقضاء بأنفسهم على مشاريعهم وأطماعهم ، وهو مما يصعب قبوله وتعليله[٢] ، والظاهر أن موسى بن نصير كان من جانبه

---

( ١ ) راجع ابن الأثير ج ٤ ص ٢١٣ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٦ .

( ٢ ) قدم ابن الأثير فى روايته ما يفيد صحة الفرض الأول ( ج ٤ ص ٢١٤ ) . وكذا صاحب =

يؤكد ليوليان أنه لايقصد بالغزو سوى مجد الفتح وكسب الغنائم ، وأنه لا ينوى إنشاء دولة مسلمة فيما وراء البحر . ونزل موسى على نصح الخليفة فى اختبار الفتح الجديد بالسرايا ، وبدأ مشروعه بمحاولة صغيرة ، فجهز خمسمائة مقاتل بينهم مائة فارس ، بقيادة ضابط من البربر يدعى طريف بن مالك ، فعبروا البحر من سبتة فى أربع سفن قدمها يوليان ، إلى البقعة المقابلة التى سميت جزيرة طريف باسم قائد الحملة ، وذلك فى رمضان سنة إحدى وتسعين (يوليه سنة ٧١٠ م) . وجاست الحملة خلال الجزيرة الخضراء بإرشاد يوليان ، فأصابت كثيراً من الغنائم ، وقوبلت بالإكرام والترحيب ، وشهدت كثيراً من دلائل خصب الجزيرة وغناها ، ثم عادت فى أمن وسلام ، وقص قائدها على موسى نتائج رحلته ، فاستبشر بالفوز ، وجد فى أهبة الفتح .

وفى شهر رجب سنة اثنتين وتسعين (إبريل سنة ٧١١ م) جهز موسى جيشاً من العرب والبربر يبلغ سبعة آلاف مقاتل بقيادة طارق بن زياد الليثى ، وكان يومئذ حاكماً لطنجة كما قدمنا[١] . ومن الغريب أن الرواية الإسلامية لا تحدثنا عن فاتح الأندلس بشىء قبل ولايته لطنجة ، بل إنها لتختلف فى أصله ونسبته ، فقيل هو فارسى من همذان ، كان مولى لموسى بن نصير ، وقيل إنه من سبى البربر ، وقيل أخيراً إنه بربرى من بطن من بطون نفزة ، وهذه فيما يظن أرجح رواية ، وهى رواية يؤيدها صاحب البيان المغرب ، بإيراد نسبة طارق مفصلة . ويبدو منها أن طارقاً تلقى الإسلام عن أبيه زياد عن جده عبد الله ، وهو أول اسم عربى إسلامى فى نسبته ، ثم ينحدر مساق النسبة بعد ذلك خلال أسماء بربرية محضة حتى ينتهى إلى نفزة ، وهى القبيلة التى ينتمى إليها[٢] .

---

= « أخبار مجموعة » (ص ٨) ، والمقرى (ج ١ ص ١٢٠) . ومن جهة أخرى فإن البحث الحديث يؤيده ويرجحه . راجع دوزى : Dozy : Hist, V. I. p. 272 ، وأيضاً جيبون حيث يقول : « يظهر أن الكونت لا يستحق وصمات الخيانة والخسة والغدر مطلقة ، فإن التاريخ لم يثبت أنه كان يريد تسليم بلاده للعرب . وإنما كان مشروعه أن يستعين بهم على قلب الحكومة وإسقاط ردريك حتى يكون له فى حكومة هو منشؤها مكانة أسمى » Gibbon : ibid. Chap. LI. (note)

(١) يقول صاحب البيان المغرب إن ولاية طارق لطنجة كانت فى سنة ٨٥ هـ (ج ٢ ص ٢٨) ، ولكن الظاهر أنه وليها بعد ذلك ببضعة أعوام .

(٢) راجع البيان المغرب (ج ٢ ص ٦) وفيه ترد نسبة طارق هكذا : — طارق بن زياد ابن عبد الله بن ولغو بن ورفجوم بن نيرغاس بن ولهاص بن يطومث بن نفزا ؛ وراجع أيضاً نزهة =

وتقدم إلينا الرواية الإسلامية التى يسوقها إلينا صاحب كتاب « الإمامة والسياسة » وصفاً لشخص طارق خلاصته أنه كان « رجلا طويلا أشقر ، بعينيه قبل أى حول وبيده شلل »[١] . فإذا صحت هذه الرواية ، فإنها يمكن أن تقدم إلينا دليلا آخر على انتماء طارق إلى الجنس البربرى . فالبربر حسبما شهدنا من التجوال فى بعض ربوعهم بالمغرب ، يكثر بينهم الطول والشقرة .

وكان طارق جندياً عظيماً ظهر فى غزوات المغرب بفائق شجاعته وبراعته ، وقدر موسى مواهبه ومقدرته واختاره لحكم طنجة وما يليها ، وهى يومئذ أخطر بقاع المغرب الأقصى وأشدها اضطرباً ، ثم اختاره لفتح الأندلس . فعبر البحر من سبتة بجيشه تباعاً فى سفن يوليان القليلة ، ونزل بالبقعة الصخرية المقابلة التى ما زالت تحمل اسمه إلى اليوم أعنى جبل طارق ، وذلك فى يوم الإثنين الخامس من رجب سنة ٩٢ هـ ( ٢٧ إبريل سنة ٧١١ م )[٢] . واخترق طارق المنطقة المجاورة غرباً بمعاونة يوليان وإرشاده ، وزحف على ولاية الجزيرة التى كان يحكمها تيودومير القوطى عامل ردريك واحتل قلاعها ، بعد أن هزم شراذم من القوط تصدت لوقفه . وبادر حكام الولايات المجاورة بإخطار بلاط طليطلة بالخطر الداهم . وكان ردريك يشتغل يومئذ بمحاربة بعض الخوارج فى الولايات الشمالية ، فهرع إلى طليطلة شاعراً بفداحة الخطر المحيق بعرشه وأمته ، وبعث قائده إديكو لرد العدو حتى يستكمل أهبته . ولكن طارقاً هزمه ثم اخترق بسائط « الفرنتيره »[٣] معتزماً السير صوب عاصمة القوط .

وكان رُدريك أو رذريق أو لذريق كما يسميه العرب[٤] أميراً شجاعاً وافر المقدرة والعزم ، ولكنه كان طاغية يثير بقسوته وصرامته حوله كثيراً من البغضاء

---

= المشتاق للشريف الإدريسى حيث يقول إنه بربرى من زناته ( طبع رومة ص ١٧٩ ) ، وكذلك ابن خلدون ( ج ٤ ص ١١٧ ) ، والمقرى ( نفح الطيب ج ١ ص ١١٩ ) .

( ١ ) الإمامة والسياسة ج ٢ ص ٧٤ . ونقل إلينا المقرى ما يفيد أن طارقا كان ضخم الهامة ، وفى كتفه الأيسر شامة ( ج ١ ص ١٠٧ ) .

( ٢ ) المقرى ( ج ١ ص ١١٩ ) ، والبيان المغرب ؛ وهناك خلاف على الشهر الذى عبر فيه طارق .

( ٣ ) الفرنتيره **La Frontera** ، هى المنطقة الوسطى والغربية فى المثلث الإسبانى .

( ٤ ) ويسميه الواقدى باسم آخر هو « الأدرينوق » ؛ راجع الطبر ج ٨ ص ٨٢ .

والسخط[1] . وكان عرشه يرتجف فوق بركان من الخلاف ، وكانت إسبانيا قد مزقت شيعاً وأحزاباً ، يتطلع كل منها إلى انتزاع السلطان والملك ، وكان أهم هذه الأحزاب وأقواها حزب العرش القديم الذى يلتف حول ولدى وتيزا ( غيطشة ) . ومع ذلك فقد اعتصم القوط حين الخطر الداهم بنوع من الاتحاد ، واستطاع ردريك أن يجمع حوله معظم الأمراء والأشراف والأساقفة ، وحشد هؤلاء رجالهم وأتباعهم ، فاجتمع للقوط يومئذ جيش ضخم تقدره بعض الروايات بمائة ألف[2] ، ويقدره مؤرخ أندلسى متأخر بتسعين ألف[3] . وسار ردريك نحو الجنوب للقاء المسلمين ، وكان طارق قد وقف على أمر هذه الأهبة العظيمة ، فكتب إلى موسى يستنجد به ، فأمده بخمسة آلاف مقاتل ، فبلغ المسلمون اثنى عشر ألفاً ، وانضم إليهم يوليان فى قوة صغيرة من صحبه وأتباعه .

كان القوط أضعاف المسلمين ، وكان المسلمون يقاتلون فى أرض العدو فى هضاب ومفاوز شاقة ، ولكن قائدهم الجرىء تقدم إلى الموقعة الحاسمة بعزم . فكان اللقاء بين الجيشين فى سهل الفرنتيره **Frontera** على ضفاف نهر وادى لكُه أو وادى بكه . وقد اختلف البحث الحديث فى تحديد المكان والنهر الذى يحمل هذا الاسم الذى تورده الرواية العربية . فذكر البعض أنه هو نهر «جواداليتى» **Guadalete** ( وادى لكه ) الذى يصب فى خليج قادس على مقربة من مدينة شريش ، وأن اللقاء حدث على ضفته الجنوبية شمالى مدينة شذونة . وذكر البعض الآخر ، وهى الرواية الراجحة فيما يرى البحث الحديث ، أن اللقاء قد حدث جنوبى بحيرة « خَنْدة » **Janda** الصغيرة المتصلة بنهر بارباتى **Barbate** الصغير

---

( ١ ) **Cardonne : ibid. p. 62**

( ٢ ) راجع ابن الأثير ج ٤ ص ٢١٤ ؛ والمقرى ج ١ ص ١٢٠ . ويقدره فى مكان آخر بسبعين ألف ( ص ١١٢ ) . ويأخذ جيبون بهذه الرواية فيقدر جيش القوط بتسعين ألف أو مائة ألف ( الفصل الحادى والخمسون ) . ولكن ابن خلدون يقدره بأربعين ألف فقط ، وهو فى نظرنا أقرب إلى المعقول ( ج ٤ ص ١١٧ ) .

( ٣ ) هذه هى رواية على بن عبد الرحمن بن هذيل صاحب كتاب « تحفة الأنفس وشعار أهل الأندلس » وهو من كتاب القرن الرابع عشر الميلادى ( مخطوط بالإسكوريال رقم ١٦٥٢ دير نبور – لوحة ٤٨ ) وهو مؤلف فريد فى بابه يتحدث عن الجهاد والمغازى والصوائف والفروسية وأحوالها وشروطها . وبه نبذ تاريخية مفيدة . وقد نشره المستشرق مرسييه .

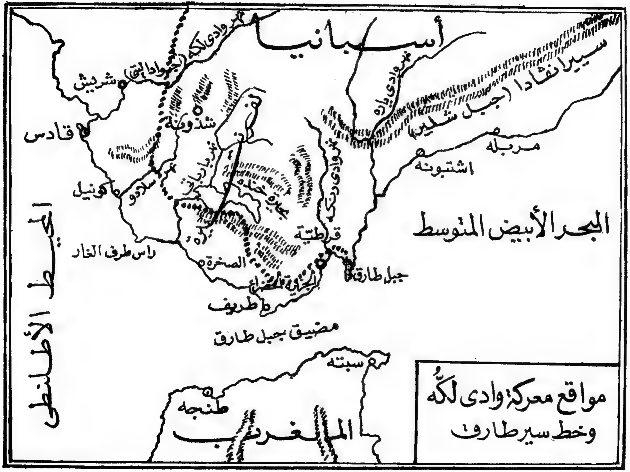

مواقع معركة وادى لكه
وخط سير طارق

الذى يصب فى المحيط على مقربة من رأس « طرف الغاز »[١] وأن الرواية العربية تقصد هذا النهر بما تورده من إسم وادى لكه أو وادى بكه . فى هذا السهل الصغير الذى تحده من الجنوب سلسلة من التلال العالية ، وعلى ضفاف بحيرة خنده ونهر «بارباتى» تلاقى العرب والقوط ، والإسلام والنصرانية ، وذلك فى الثامن والعشرين من شهر رمضان سنة ٩٢ ( ١٧ يوليه سنة ٧١١ م )[٢] . وفرق النهر بين الجيشين مدى أيام ثلاثة شغلت بالمعارك البسيطة . وفى اليوم الرابع التحم الجيشان ونشبت بينهما معركة عامة . وظهر ردريك وسط الميدان فى حلل ملوكية فوق عرش تجره الخيل المطهمة ، وهو منظر يثير سخرية الفيلسوف جيبون ولاذع تهكمه إذ يقول : « ولقد يخجل ألاريك ( مؤسس دولة القوط ) عند رؤية خلفه ( ردريك ) متوجاً باللآلىء ، متشحاً بالحرير والذهب ، مضجعاً فى هودج من العاج »[٣] . واستمرت المعركة هائلة مضطرمة بين القوى النصرانية الضخمة ، وبين القوة المسلمة المتواضعة نحو أربعة أيام[٤] . ولكن الجيش القوطى كان رغم كثرته مختل النظام منحل العرى ، وكان يقود جناحيه إيفا وسيزبوت خصما ردريك[٥] ،

---

( ١ ) يقول دوزى إن هذا النهر يحمل اليوم اسم سلادو Salado ( ج ١ ص ٢٧٣ هامش ) وهو خطأ لأن هذا الإسم يطلق على نهر آخر يقع شمالى نهر بارباتى . ويسميه ابن القوطية « وادى بكه » ( ص ٧ ) . وراجع : الأستاذ ليڤى بروڤنسال : Histoire de l'Espagne Musulmane (1944) p. 15 & 16. والهوامش .

( ٢ ) تجمع الرواية الإسلامية تقريباً على أن الموقعة كانت فى ذلك التاريخ . ولكن ابن حيان مؤرخ الأندلس يقول إنها كانت فى السابع من ربيع الأول سنة ٩٢ هـ ( المقرى عن ابن حيان ج ص ١١٦ ) ولعله ينفرد بهذا الخلاف .

( ٣ ) تشير معظم الروايات الإسلامية إلى هذا المنظر ؛ فيقول الطبرى نقلا عن الواقدى : « فزحف الأدرينوق فى سرير الملك ، وعلى الأدرينوق تاجه وقفازه وجميع الحلة التى كان يلبسها الملوك » ( ج ٨ ص ٨٢ ) ، والمقرى ( ج ١ ص ١١٢ ) ، وابن الأثير ( ج ٤ ص ٢١٢ ) ، وابن عذارى ( ج ٢ ص ٩ ) .

( ٤ ) قال الرازى : « كانت الملاقاة يوم الأحد لليلتين بقيتا من شهر رمضان ، فاتصلت الحرب بينهم إلى يوم الأحد لخمس خلون من شوال . ثم هزم الله المشركين فقتل منهم خلق عظيم أقامت عظامهم بعد ذلك بدهر طويل ملبسة بتلك الأرض ، قالوا : وحاز المسلمون من عسكرهم ما يجل قدره ، فكانوا يعرفون كبار العجم وملوكهم بخواتم الذهب يجدونها فى أصابعهم ، ويعرفون من دونهم بخواتم الفضة ، ويميزون عبيدهم بخواتم النحاس » ( المقرى ج ١ ص ١٢١ ) .

( ٥ ) أخبار مجموعة ( ص ٨ ) .

وتتكون صفوفه من أتباعهما وأتباع حلفائهما من الأمراء والزعماء الناقمين ، الذين تظاهروا بالإخلاص وقت الخطر ، وكلهم يتحين الفرصة للإيقاع بالملك المغتصب[١] ، فكانت الخيانة تمزق جيش القوط شر ممزق . واستمال يوليان والأسقف أوپاس وهما فى صف المسلمين كثيراً من جند القوط ، وبثا بدعايتهما فى الصفوف الموالية لردريك كثيراً من عوامل الشقاق والتفرق ، فأخذ كل أمير يسعى فى سلامة نفسه . وتمكن الجيش الإسلامى على ضآلة عدده ، بجلده وثباته واتحاد كلمته ، من جيش القوط ، فلم يأت اليوم السابع من اللقاء حتى تم النصر لطارق وجنده ، وهزم القوط شر هزيمة ، وشتتوا ألوفاً فى كل صوب .

أما ردريك آخر ملوك القوط ، فقد اختفى عقب الموقعة ، ولم يعثر له بأثر . ويقول إيزويدور الباجى إنه بقى فى ميدان الحرب حتى قتل مدافعاً عن عرشه وأمته . وتقول بعض الروايات النصرانية الأخرى إنه فر عقب الهزيمة على ظهر جواده ، ولكنه غرق فى مياه النهر . وتميل التواريخ الإسلامية إلى تأييد هذه الرواية ، وتقول لنا إن ملك القوط مات غريقاً ، وإنهم عثروا على جواده وسرجه الذهبى ، ولم يعثر إنسان بجثته . وتزعم بعض الروايات النصرانية أيضاً أن ردريك استطاع أن يلوذ بالفرار ، ولكنه قتل بعد ذلك ، أو أنه فر إلى بعض الأديار فى البرتغال وترهب ،وعاش متنكراً حيناً من الدهر . وينفرد صاحب كتاب الإمامة والسياسة بين المشارقة برواية أخرى ، وهى أن طارقاً ظفر بجثة ردريك ، فاحتز رأسه وبعث بها إلى موسى بن نصير ، وبعث بها موسى إلى الخليفة ، ويتابعه فى هذه الرواية كاتب أندلسى هو صاحب كتاب تحفة الأنفس الذى تقدم ذكره[٢] . هذا إلى روايات كثيرة أخرى . ولكن المرجح فى هذه الروايات كلها هو أن ردريك فقد حياته فى الموقعة التى فقد فيها ملكه ، وأنه مات قتيلا أو غريقاً على الأثر[٣] .

---

(١) ابن الأثير (ج ٤ ص ٢١٤ ) والمقرى (ج ١ ص ١٢١ ) ودوزى ( ج ١ ص ٢٧٢ ) .

(٢) راجع كتاب الإمامة والسياسة ج ٢ ص ٧٥ و ٧٦ . ووردت هذه الرواية فى كتاب تحفة الأنفس فى المخطوط المتقدم ذكره ( لوحة ٤٨ ) .

(٣) راجع فى مصير ردريك **C. Julian: Histoire de la Gaule p.750-Gibbon, ibid, Chap.LI. & notes** ، وراجع من المصادر الإسلامية : ابن الأثير حيث يقول إنه غرق فى نهاية الموقعة (ج ٤ ص ٢١٤) . والمقرى حيث يقول إنه رمى بنفسه مختارا إلى النهر ، وقد ثقلته الجراح (نفح الطيب =

هكذا كانت موقعة شذونة التى دالت فيها دولة القوط ، بعد أن لبثت زهاء ثلاثمائة عام منذ قيامها فى غاليس ، وغنم الإسلام فيها ملك إسبانيا . وتحيط الرواية الإسلامية حوادث الفتح بطائفة كبيرة من الأساطير والقصص التى لا يستطيع المؤرخ أن يقف بها[1] . بيد أنه يجدر بنا فى هذا المقام أن نذكر ما تعرضه الرواية من أن طارقاً خطب جنده قبيل نشوب المعركة الحاسمة ؛ كما أنه يجدر بنا أن نورد نص هذا الخطاب الشهير الذى ينسب لفاتح الأندلس ، والذى يعتبر نموذجاً بديعاً من الفصاحة والحماسة الحربية وهو :

« أيها الناس : أين المفر ؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم . وليس لكم والله إلا الصدق والصبر ، واعلموا أنكم فى هذه الجزيرة أضيع من الأيتام فى مأدبة اللئام ، وقد استقبلكم عدوكم بجيوشه وأسلحته ، وأقواته موفورة ، وأنتم لا وزر لكم إلا سيوفكم ، ولا أقوات لكم إلا ما تستخلصونه من أيدى عدوكم . وإن امتدت بكم الأيام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمراً ، ذهبت ريحكم وتعوضت القلوب عن رعبها منكم الجرأة عليكم ؛ فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم ، بمناجزة هذا الطاغية ، فقد ألقت به إليكم مدينته الحصينة ؛ وإن انتهاز الفرصة فيه لممكن إن سمحتم لأنفسكم بالموت . وإنى لم أحذركم أمراً أنا عنه بنجوة ، ولا حملتكم على خطة أرخص متاعاً فيها للنفوس ، أبدأ بنفسى ، واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشق قليلا استمتعتم بالأرفه الألذ طويلا ، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسى ، فما حظكم فيه بأوفى من حظى . وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان من بنات اليونان ، الرافلات فى الدر والمرجان .

---

= ج ١ ص ١٢١ ) . وقال ابن الأبار فى الحلة السيراء إنهم عثروا على جواد ردريك وسرجه من ذهب وزبرجد وإحدى نعليه وغاب شخصه ، فما وجد حياً ولا ميتاً (ايدن ص ٣١) . وهذه هى أيضاً رواية صاحب « أخبار مجموعة » ( ص ٦ ) . وقال ابن عذارى إن ردريك اختفى ولم يعرف له موضع ولا وجدت له جثة ، وإنما وجد له خف مفضض ، فقالوا إنه غرق وقالوا إنه قتل ( ج ٢ ص ١٠ ) ؛ وتردد بعض التواريخ الغربية هذه الرواية (كامى جوليان فى تاريخ « غاليس » ص ٧٥٨ ) . وتقول بعض الروايات الإسبانية إنه فر إلى مغار ناسك ، والبعض الآخر إنه ألقى حياً إلى بئر ملأى بالأفاعى حيث صاح : « وإنها تلتهم الجزء الذى ثقلته بالخطايا » ( جيبون الهامش فى الفصل الحادى والخمسين ) .

( ١ ) راجع رواية ابن عبد الحكم عن فتح الأندلس ( ص ٣٠٤ وما بعدها ) فقد تخللها بعض هذه الأساطير ، ولكن المقرى يستوعب الكثير منها نقلا عن مختلف الروايات ( نفح الطيب ج ١ ص ١١٤ وما بعدها ) .

والحلل المنسوجة بالعقيان ، المقصورات فى قصور الملوك ذوى التيجان ، وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين من الأبطال عرباناً ، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهاراً وأختاناً ، ثقة منه بارتياحكم للطعان ، واسماحكم بمجالدة الأبطال والفرسان ، ليكون حظه منكم ثواب الله على إعلاء كلمته ، وإظهار دينه بهـــذه الجزيرة ، وليكون مغنمها خالصة لكم من دونه ، ومن دون المؤمنين سواكم . والله تعالى ولىُّ إنجادكم على ما يكون لكم ذكراً فى الدارين . أيها الناس : ما فعلت من شىء فافعلوا مثله ، إن حملت فاحملوا ، وإن وقفت فقفوا ، ثم كونوا كهيئة رجل واحد فى القتال ، وإنى عامد إلى طاغيتهم بحيث لا أنهيه حتى أخالطه وأمثل دونه ، فإن قتلت فلا تهنوا ولا تحزنوا ولا تنازعوا ، فتفشلوا وتذهب ريحكم ، وتولوا الدبر لعدوكم فتبدوا بين قتيل وأسير . وإياكم إياكم أن ترضوا بالدنية ، ولا تعطوا بأيديكم ، وارغبوا فيما عجل لكم من الكرامة ، والراحة من المهنة والذلة ، وما قد أحل لكم من ثواب الشهادة ، فإنكم إن تفعلوا ، والله معكم ومفيدكم ، تبوءوا بالخسران المبين ، وسوء الحديث غدا بين من عرفكم من المسلمين ، وهأنذا حامل حتى أغشاه فاحملوا بحملتى »[1] .

ويشير صاحب كتاب تحفة الأنفس إلى خطبة طارق فى قوله : « لما التقى العرب والقوط ، فاقتتلوا ثلاثة أيام أشد قتال ، فرأى طارق ما الناس فيه من الشدة ، فقام يعظهم ويحضهم على الصبر ويرغبهم فى الشهادة ، وبسط فى آمالهم » ، ثم يورد نص الخطبة[2] .

ثم تنوه الرواية الإسلامية بما كان لهذا الخطاب من أثر فعال فى إذكاء همم المسلمين وشجاعتهم وثقتهم ، ودفعهم إلى طريق النصر والظفر .

على أنه يسوغ لنا أن نرتاب فى نسبة هذه الخطبة إلى طارق ؛ فإن معظم المؤرخين المسلمين ، ولاسيما المتقدمين منهم لا يشير إليها ، ولم يذكرها ابن عبدالحكم

---

(١) هذا ، ومما ينسب لطارق أيضاً من قصيدة قالها فى الفتح :

ركبنـــا سفيناً بالمجـــاز قصيرا     عسى أن يكون الله منا قد اشترى
نفوســاً وأموالا وأهلا بجنـــة     إذا ما اشتهينا الشىء فيها تيسرا
ولسنا نبالى كيف ســالت نفوسنا     إذا نحن أدركنا الذى كان أجدرا

(٢) كتاب تحفة الأنفس وشعار أهل الأندلس ؛ المخطوط المتقدم ذكره لوحة ٤٨ .

ولا البلاذرى ، وهما أقدم رواة الفتوحات الإسلامية ؛ ولم تشر إليها المصادر الأندلسية الأولى ، ولم يشر إليها ابن الأثير وابن خلدون ، ونقلها المقرى عن مؤرخ لم يذكر اسمه ؛ وهى على العموم أكثر ظهوراً فى كتب المؤرخين والأدباء المتأخرين . وليس بعيداً أن يكون طارق قد خطب جنده قبل الموقعة ، فنحن نعرف أن كثيراً من قادة الغزوات الإسلامية الأولى ، كانوا يخطبون جندهم فى الميدان ؛ ولكن فى لغة هذه الخطبة ، وروعة أسلوبها وعباراتها ، ما يحمل على الشك فى نسبتها إلى طارق ، وهو بربرى لم يكن عريقاً فى الإسلام والعروبة . والظاهر أنها من إنشاء بعض المتأخرين ، صاغها على لسان طارق مع مراعاة ظروف المكان والزمان .

وتشير الرواية الإسلامية فى هذا الموطن إلى واقعة أخرى جديرة بالتأمل والبحث ؛ وهى واقعة قد يغلب عليها لون الأسطورة ، وإن كانت مع ذلك تعرض علينا فى ثوب التاريخ الحق ؛ تلك هى واقعة إحراق السفن التى نقل عليها طارق جيشه من الشاطىء الإفريقى إلى شاطىء الأندلس . ونحن نعرف مما تقدم أن الكونت يوليان هو الذى قدم السفن التى ركبها العرب إلى الأندلس فى بعثتهم الاستكشافية الأولى بقيادة طريف بن مالك ، ثم فى حملتهم الغازية بقيادة طارق . وهنا تذكر الرواية أن طارقاً ما كاد يعبر بجيشه إلى الشاطئ الأندلسى ، حتى أمر بإحراق السفن التى عبر عليها جيشه ، وذلك لكى يدفع جنده إلى الاستبسال والموت ، أو النصر المحقق ، ويقطع عليهم بذلك كل تفكير فى التخاذل والارتداد. فما مبلغ هذه الرواية من الصحة ؟ إن جميع الروايات الإسلامية التى تحدثنا عن فتح الأندلس لا تذكر شيئاً عن هذه الواقعة ، ولاتذكرها الرواية الإسلامية إلا فى موطن واحد ؛ فقد ذكر الشريف الإدريسى فى معجمه الجغرافى « نزهة المشتاق » عند الكلام على جغرافية الأندلس ، أن طارقاً أحرق سفنه بعد العبور بجيشه إلى الأندلس[1] ، وقد نقلت بعض التواريخ النصرانية المتأخرة هذه الرواية عن الإدريسى فيما يرجح ؛ وفيما عدا ذلك فإن جميع الروايات الإسلامية تمر عليها بالصمت المطلق .

وقد يقال إن فى الخطاب المنسوب إلى طارق ما يؤيد صحة هذه الرواية ،

(١) نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ( المختصر ) ، طبع رومة ، ص ١٧٨ .

فطارق يستهله بقوله : « أيها الناس ، أين المفر ؟ البحر من ورائكم ، والعدو أمامكم ، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر ... » ، وفى ذلك ما يمكن أن يحمل على أن الجيش الفاتح قد جرد من وسائل الارتداد والرجعة إلى الشاطئ الإفريقى ، أو بعبارة أخرى قد جرد من السفن التى حملته فى عرض البحر إلى اسبانيا ؛ ولكنا رأينا أن هذا الخطاب لا يمكن الاعتماد عليه من الوجهة التاريخية ، كوثيقة بعيدة عن شوائب الريب . ولو صح أن طارقاً ألقى فى جنده مثل ذلك الخطاب ، فقد نجد تفسيراً لأقوال طارق فى أن السفن كانت ملكاً للكونت يوليان ، وفى أنها لم تكن تحت تصرف الغزاة فى جميع الأوقات .

ومع ذلك كله فإن رواية الشريف الإدريسى عن واقعة إحراق طارق للسفن ليست من الأمور المستحيلة ؛ وهى عمل بطولة يتفق مع بطولة فاتح الأندلس ؛ على أنها تبقى عرضة لكثير من الريب ، فقد دونت لأول مرة فى القرن الخامس الهجرى . أعنى بعد فتح الأندلس بأكثر من ثلاثة قرون ، ولم تؤيدها أية رواية إسلامية أخرى[1] .

وعلى أثر الموقعة الحاسمة التى غلب فيها الجيش القوطى ومزق ، ساد الرعب على القوط ، فامتنعوا بالحصون والجبال ،وقصدوا إلى الهضاب والسهول . وذاعت أنباء النصر فى طنجة وسبتة وما جاورهما من أراضى العدوة ، فعبر إلى الجيش الفاتح سيل من المجاهدين والمغامرين من العرب والبربر . وزحف طارق بجيشه شمالا . وكانت بقية الجيش القوطى قد اجتمعت عند إستجة لتحاول رد الجيش الفاتح ، فالتقى الجيشان هناك ثانية ، وهزم القوط مرة أخرى ، ولم يبق إلا أن يستولى الفاتحون على المدن والقواعد الحصينة واحدة بعد الأخرى .

وكان يوليان وأصحابه إلى جانب المسلمين ، يعاونهم بالنصح والإرشاد كما قدمنا ، ففى إستجة وضعت خطة السير ، وتقرر أن يسير طارق بنفسه إلى طليطلة عاصمة المملكة القوطية ؛ وأرسل طارق مغيثاً الرومى مولى الوليد بن

---

(١) يقدم لنا التاريخ الحديث مثلا بديعا للفاتح الذى يحرق السفن التى عبر عليها جيشه لكى يقطع على جنده كل تفكير فى الرجعة والارتداد ، هو مثل المكتشف الإسبانى هرناندو كورتيث فاتح المكسيك . فقد أمر هذا الفاتح الشهير ، حينما أشرف على شواطىء المكسيك مستكشفا فاتحا فى سنة ١٥١٩ م . بإحراق سفنه التى قدم عليها جيشه من اسبانيا . ومن الغريب أن يكون بطل هذا الحادث إسبانيا ، وهو ما يحملنا على الظن بأنه قد تأثر فى عمله بالمثل الذى ينسب لطارق فاتح الأندلس .

عبد الملك إلى قرطبة فى سبعمائة فارس ، فاقتحم أسوارها الحصينة واستولى عليها دون مشقة ، وأرسل حملات أخرى إلى غرناطة وإلبيرة ومالقة ، فافتتحت مالقة وفر سكانها إلى الجبال ، ثم لحق جيشها بالجيش المتجه إلى إلبيرة وغرناطة ، فحوصرت غرناطة قليلا وفتحت ، ثم فتحت إلبيرة . وكان اليهود يعاونون المسلمين فى كل هذه الفتوح ، فكان المسلمون يضمون إليهم فى كل مدينة من المدائن المفتوحة حامية صغيرة لحفظها . ثم سار المسلمون بعد ذلك شرقاً نحو ولاية مرسية ، وكانت تسمى يومئذ تيودمير ( أو تدمير ) باسم أميرها ، وقاعدتها مدينة أوريولة ؛ وكان تيودمير جندياً كبيراً ، وافر العزم والبأس ، فالتقى بالمسلمين ونشبت بينه وبينهم معارك شديدة هلك فيها معظم رجاله ، فارتد إلى أوريولة ، وامتنع بها ، وعرض النساء ، حسبما تقول الرواية ، على الأسوار فى أثواب الرجال إيهاماً بكثرة جنده ، واستطاع بثباته وجلده ، أن يعقد الصلح مع المسلمين بشروط حسنة أنقذت بها مدينته من السبى والجزية[1] .

وسار طارق فى بقية الجيش إلى طليطلة مخترقاً هضاب الأندلس[2] وجبال

---

( ١ ) ابن الأثير (ج ٤ ص ٢١٥ ) . والبيان المغرب (ج ٢ ص ١٣ ) . وسنورد فيما بعد نص هذه المعاهدة .

( ٢ ) يطلق المؤرخون والجغرافيون العرب كلمة « الأندلس » على شبه جزيرة إيبيريا المكونة من اسبانيا والبرتغال ( ياقوت فى معجم البلدان تحت كلمة لأندلس . والروض المعطار ص١ ) . وتطلق فى الرواية العربية أيضاً على اسبانيا المسلمة ، التى كانت عقب الفتح تشمل كل إسبانيا ما عدا جاهقية وولايات جبال البرنيه . ولكن « الأندلس » تطلق فى العصور المتأخرة وفى الجغرافية الحديثة على ولايات الأندلس الواقعة فى جنوبى إسبانيا بين نهر الوادى الكبير والبحر ، وبين ولاية مرسيه وإشبيلية ؛ وما زالت « الأندلس » **Andalucia** تحتل فى تقسيم اسبانيا الإدارى الحاضر نفس هذه المنطقة . والرواية العربية تعلل هذه التسمية بصور مختلفة فتقول مثلا إنها سميت أندلس باسم أول من سكنها من قديم الزمان وهم قوم من الأعاجم يقال لهم أندلوش ( نفح الطيب ج ١ ص ٦٧ ) . ويقول ابن الأثير إن النصارى يسمون الأندلس إشبانة باسم اشبانس أحد ملوكها ، وهذا هو اسمها عند بطليموس (ج ٤ ص ٢١٢ ) . ولكن ابن خلدون يقدم لنا تعليقاً أدق فيقول إنها سميت «الأندلس» باسم « قندلس» ولعلها قندلس ، ومن الواضح أنه يقصد القندال أى الوندال (ج ٢ ص ٢٣٥ فى تاريخ القوط ) . ويقدم لنا البكرى خلاصة دقيقة لهذه المسميات الجغرافية التاريخية فيقول فى وصفه لجزيرة الأندلس ، « إن اسمها فى القديم إباريه **Iberia** من وادى إبره ، ثم سميت بعد ذلك باطقة **Baetica** ، من وادى بيطى وهو نهر قرطبة . ثم سميت إشبانية من اسم رجل ملكها فى القديم كان اسمه إشبان . وقيل سميت بالإشبان سكنوه فى أول الزمان على جرية النهر وما والاه . وقال قوم إن اسمها هو فى الحقيقة إشبارية **Hisperia** =

سيرّا مورينا (جبل الشارّات) التى تفصل بين الأندلس وقشتالة ، بإرشاد يوليان وأصحابه . وكان القوط قد فروا منها نحو الشمال بأموالهم وآثار قديسيهم . ولم يبق بها سوى اليهود وقليل من النصارى ، فاستولى طارق عليها ، وأبقى على من بقى من سكانها ، وترك لأهلها عدة كنائس ، وترك لأحبارها حرية إقامة الشعائر الدينية ، وأباح للنصارى من القوط والرومان اتباع شرائعهم وتقاليدهم ، واختار لحكمها وإدارتها أوباس مطرانها السابق وأخا الملك وتيزا . وتابع طارق زحفه شمالا ، فاخترق قشتالة ثم ليون فى وهادٍ ومفاوز صعبة ، وطارد فلول القوط حتى أسترقة ؛ فلجأت إلى قاصية جلّيقية واعتصمت بجبالها الشامخة . وعبر طارق جبال أشتوريش (أستورياس)[1] واستمر فى سيره حتى أشرف على ثغر خيخون الواقع على خليج بسكونية (غسقونية) فكان خاتمة زحفه ونهاية فتوحاته ، ورده عباب المحيط عن التقدم فعاد إلى طليطلة حيث تلقى أوامر موسى بوقف الفتح . وكان ذلك لعام فقط من عبوره إلى اسبانيا .

وقد اختلف المؤرخون فى تعليل البواعث التى حملت موسى على أن يصدر أوامره إلى طارق بوقف الفتح ؛ فقيل إن موسى لم يكن يتوقع كل هذا الفوز لقائده ومبعوثه ، فلما وقف على مبلغ فوزه وتقدمه ، تحول إعجابه به إلى حسد وغيرة ، وخشى أن ينسب ذلك الفتح العظيم إليه دونه ، فكتب إليه ألا يتقدم

---

من إشبرش وهو الكوكب المعروف بالأحمر . وسميت بعد ذلك بالأندلس من أسماء الأندليش من الذين سكنوها » . والأندليش هم الوندال **Vandals** . (أبو عبيد البكرى فى جغرافية بلاد افريقية والمغرب طبعة دى سلان) . وهذا هو التعليل الذى يأخذ به دانفيل **Danville** إذ يقول إن الاشتقاق مأخوذ من كلمة ڤاندالوسيا **Vandalusia** أى بلد الوندال ، (نقله جيبون عن كتاب ممالك أوربا فى هامش الفصل الحادى والخمسين) . وهذا ما يقرره الغزيرى أيضاً فى معجم مخطوطات الإسكوريال **(Bibliotheca Arabico - Hispana Escurialensis II, p. 237)**

(١) وهنا تذكر الرواية العربية أن طارقاً انتهى إلى مدينة المائدة خلف جبال أستوريه فاستولى على مائدة سليمان بن دا د ، وهى خضراء من زبرجد حافاتها منها وأرجلها ثلثمائة وخمسة وستون. ويقال إن هذه المائدة غنمها الرومان من المشرق أو بيت المقدس فى بعض غزواتهم ثم نقلوها إلى رومة ، فغنمها القوط حين افتتحوا رومة ، ثم أحرزها العرب عند فتح اسبانيا . وذكر ابن الأثير أن أحد ملوك اسبانيا فى عهد الوندال غزا بيت المقدس وأحرز المائدة (ج ٤ ص ٢١٢) . وذكر صاحب الروض المعطار ، كما ذكر بعض مؤرخى الإفرنج ، أن هذه المائدة هى من نفائس ملوك القوط ، وأن العرب عثروا بها فى كنيسة طليطلة وهو أقرب إلى المعقول . (الروض المعطار ص ٥) .

حتى يلحق به ، ويتوعده بالعقاب إذ توغل بعد بغير إذنه[١] . ولكن البعض يعلل غضب موسى على طارق ولحاقه به ، بأن طارقاً خالف الأوامر الصادرة إليه بألا يجاوز قرطبة أو حيث تقع هزيمة القوط[٢] . وهذا تعليل حسن يتفق وما أثر عن موسى من الحيطة والحذر ، فقد ينكب المسلمون إذا توغلوا فى أراض ومسالك مجهولة . على أن ذلك لا يمنع من أن يكون للغيرة أثرها أيضاً فى نفس موسى وفى تصرفه . وعلى أى حال فقد عبر موسى البحر إلى اسبانيا فى عشرة آلاف من العرب وثمانية آلاف من البربر ، فى سفن صنعها خصيصاً لذلك ، يحفزه شغف الفتح بالرغم من شيخوخته ، ونزل بولاية الجزيرة حيث استقبله الكونت يوليان ، وذلك فى رمضان سنة ثلاث وتسعين ( يونيه سنة ٧١٢ م ) . وبدأ موسى زحفه بالاستيلاء على مدينة شَذُونة[٣] ، ثم سار إلى قَرْمونة وهى يومئذ من أمنع معاقل الأندلس ، فاستولى عليها بمعاونة يوليان وأصحابه . وقصد بعدئذ إلى إشبيلية أعظم قواعد الأندلس . فافتتحها بعد أن حاصرها شهراً . ثم سار إلى ماردة وحاصرها مدة ، وقتل تحت أسوارها جماعة كبيرة من المسلمين فى كمين دبره النصارى . وانتهت بالتسليم فى رمضان أو شوال سنة أربع وتسعين ، على أن تكون أموال الغائبين والكنائس ، غنيمة للمسلمين دية لمن قتل منهم . وقصد موسى بعدئذ إلى طليطلة فالتقى بطارق على مقربة منها وكان قد سار إلى استقباله . فأنبه وبالغ فى إهانته ، وزجه مصفداً إلى ظلام السجن بتهمة الخروج والعصيان ، وقيل بل هم بقتله أيضاً[٤] . ولكنه ما لبث أن عفا عنه ورده إلى منصبه[٥] .

---

( ١ ) هذه هى رواية ابن عبد الحكم ( ص ٢٠٧ ) ، وصاحب أخبار مجموعة ( ص ١٥ ) ، وابن القوطية ( ص ٩ ) ، وابن الأثير ( ج ٤ ص ٢١٥ ) ، وابن خلدون ( ج ٤ ص ١١٧ ) ، وابن حيان مؤرخ الأندلس ( نفح الطيب ج ١ ص ١٢٦ ) ، وبغية الملتمس للضبى ( ص ١١ ) ، والحميدى فى جذوة المقتبس ( طبع مصر ) ص ٥ .

( ٢ ) البيان المغرب ( ج ٢ ص ١٥ و ١٨ ) .

( ٣ ) **Medina Sedonia** ، ويسميها ابن الأثير مدينة السليم ( ج ٤ ص ٢١٥ ) . ولكن شدونة أو شذونة تسمية أكثر ذيوعاً .

( ٤ ) ابن عبد الحكم ( ص ٢٠٨ ) ، وابن الأثير ( ج ٤ ص ٢١٥ ) ، والمقرى فى نفح الطيب ( ج ١ ص ١٢٧ ) ، والحميدى فى جذوة المقتبس ( ص ٦ ) .

( ٥ ) ينفرد ابن عبد الحكم برواية عن إطلاق سراح طارق ، هى أن طارقاً استجار بمغيث الرومى وكان عائداً من الأندلس إلى المشرق ، ووعده بمائة عبد إذا هو أبلغ أمره إلى الوليد بن عبد الملك ، فقام مغيث بالرسالة وبادر الوليد بالكتابة إلى موسى أن يطلق سراح طارق ويتوعده إذا أساء إليه .=

ووضع الإثنان خطة لافتتاح ما بقى من إسبانيا . ثم زحفا نحو الشمال الشرقى واخترقا ولاية أراجون ( الثغر الأعلى ) وافتتحا سرقسطة وطرّكونة وبرشلونة وغيرها من المدائن والمعاقل . ثم افترق الفاتحان ، فسار طارق نحو الغرب ليغزو جلّيقية ، وليتم القضاء على فلول القوط . وسار موسى شمالا فاخترق جبال البرنيه ( جبال البرت أو البرتات أو الممرات)[١] ، وغزا ولاية لانجدوك أو سبتمانيا التى كانت تابعة إذ ذاك لملوك القوط ، واستولى على قرقشونة (كاركاسون) وأربونة ( ناربون ) . ثم نفذ إلى مملكة الفرنج وغزا وادى الرون ( رذونة ) حتى مدينة لوطون أو لوذون (ليون) ، فاضطرب أمراء الفرنج وأخذوا فى الأهبة لرد الغزاة ؛ ويقال إن المعارك الأولى بين العرب والفرنج وقعت فى تلك السهول على مقربة من أربونة[٢] .

وهنا فكر القائد الجرىء فى أن يخترق بجيشه جميع أوربا غازياً فاتحاً ، وأن يصل إلى الشام من طريق قسطنطينية ، وأن يفتتح فى طريقه أمم النصرانية والفرنجة كلها . وهو ما يجمله ابن خلدون فى تلك العبارة القوية : « وجمع أن يأتى المشرق على القسطنطينية ، ويتجاوز إلى الشام ودروب الأندلس ، ويخوض ما بينها من بلاد الأعاجم أمم النصرانية مجاهداً فيهم ، مستلحماً لهم إلى أن يلحق بدار الخلافة »[٣] . وكان موسى يقدر تنفيذ مشروعه العظيم بجيش ضخم يقتحم البرنيه ، يؤيده من البحر أسطول قوى ، فيبدأ بافتتاح مملكة الفرنج ثم يقصد إلى مملكة اللومبارد[٤] فى شمالى إيطاليا ، فيخترقها فاتحاً إلى رومة قاعدة النصرانية ، فيفتتحها ويقضى فيها على كرسى النصرانية . ويتابع سيره بعدئذ شرقاً إلى سهول الدانوب ،

---

= وحمل مغيث هذا الكتاب إلى الأندلس ، فأفرج موسى عن طارق ورده إلى منصبه (ص ٢١٠) . وذكر الطبرى أن طارقاً ترضى موسى فرضى عنه وقبل منه عذره ( ج ٨ ص ٩٠ ) .

( ١ ) البرت أو البرتات محرفة عن الاسبانية Puerta ، ومعناها الباب . وسميت الجبال بهذا الاسم لأنها تحتوى على خمسة أبواب أو ممرات طويلة كانت تستعمل للعبور والغزو . وسنعود إلى تفصيل ذلك . أما تسميتها بجبال البرانس فهو خطأ جغرافى حسبما نوضح بعد .

( ٢ ) ابن حيان مؤرخ الأندلس ( نقله المقرى فى نفح الطيب ج ١ ص ١٢٨ ) ، والبيان المغرب ( ج ٢ ص ١٤ ) . ومعظم الروايات على أن موسى وقف فى زحفه عند أربونة .

( ٣ ) ابن خلدون ج ٤ ص ١١٧ ، ونفح الطيب ج ١ ص ١٣٠ .

( ٤ ) فى الجغرافية العربية بلاد اللنبرد أو أنكبردية .

مثخناً فى القبائل الجرمانية التى تسيطر على ضفافه ، ثم يخترق أراضى الدولة البيزنطية حتى قسطنطينية فيستولى عليها ، ثم يعبر إلى آسيا الصغرى قاصداً إلى دمشق فيصل بذلك أملاك الخلافة الإسلامية فيما بين المشرق والمغرب من طريق الشمال ، كما اتصلت من طريق الجنوب[1] .

ولم يك ثمة ما يحول دون تنفيذ هذا المشروع الضخم ؛ فقد كان الإسلام يومئذ فى ذروة الفتوة والقوة والبأس ، وكانت جيوشه تقتحم أرجاء العالم القديم ظافرة أينما حلت . وكانت أمم الغرب من جهة أخرى يسودها الضعف والانحلال ، وكانت مملكة الفرنج وهى أضخمها وأقواها تمزقها الخلاف والتفرق ، وقد بدأ العرب غزوها بالفعل . ولم تستطع النصرانية أن توحد جهودها لرد الإسلام ، ولم تقم فيها زعامة قوية تجمع كلمتها وتنظم قواها فى جبهة دفاعية موحدة . ولم تكن أوربا فى ذلك الحين سوى مزيج مضطرب من الأمم والقبائل المتنافرة ، تمزقها المطامع والأهواء المختلفة . فكان الإسلام يستطيع غزوها وفتحها . ولم يكن حلماً وإغراقاً ما تصوره موسى بن نصير واعتزمه . ولكن سياسة الإحجام والتردد التى اتبعها بلاط دمشق نحو الفتوح الغربية ، والتى كادت تحول دون فتح اسبانيا ، أودت بذلك المشروع البديع ، وكتب الوليد بن عبد الملك إلى موسى يحذره من التوغل بالمسلمين فى دروب مجهولة ، ويأمره بالعود ، فارتد موسى مرغماً آسفاً ؛ ولكنه تمهل فى العود حتى يتم إخضاع معاقل جليقية التى اعتصمت بها فلول القوط ، ويطهر اسبانيا بأسرها من كل خروج ومقاومة ، فاخترق جليقية واستولى على معظم معاقلها ، ومزق كل قوة تصدت لمقاومته ، ولم يبق من النصارى سوى شراذم يسيرة اجتمعت حول زعيم يدعى بلاجيوس أو بلايو ، ولجأت إلى قاصية جليقية ؛ وبينما كان موسى يتأهب للحاق بها وسحقها ، إذ وصله كتاب آخر من دمشق يستدعيه وطارقاً ، ويأمرهما بتعجيل العود . ولعل أقوى البواعث التى حملت الوليد على هذا الاستدعاء ما نمى إليه من خلاف موسى وطارق ، وخوفه أن ينتهى هذا الخلاف ، بتفرق كلمة المسلمين ونكبتهم فى تلك الأقطار

---

(١) Cardonne : ibid. V.I.p. 96—97 . ويقول الفيلسوف جيبون تعليقاً على هذا المشروع إنه تمكن مقارنته بخطة مثراديتيس ليفتتح ما بين القرم ورومة ، أو خطة قيصر ليفتتح المشرق ثم يعود من طريق الشمال . ويفوق هذه المشاريع جميعاً مشروع هانيبال الذى نفذ بنجاح عظيم ( الفصل الحادى والخمسون ) .

الحديدة المجهولة التى افتتحوها[1] . أو لعله خوف الوليد أن يفكر موسى بما عرف من طمعه ودهائه ، فى الاستقلال بذلك الملك الحديد النائى ، وهو أفضل تعليل يقبله النقد الحديث ويرجحه . وربما كان من هذه البواعث أيضاً ما بلغ الوليد عن وفرة الأموال والتحف التى اغتنمت من الأندلس ، وخوفه أن تمتد إليها يد التبديد . ومهما كانت العوامل التى دفعت الوليد إلى استدعاء فاتحى الأندلس ، فلا ريب أنه كان خطراً على مستقبل الإسلام فى اسبانيا . ذلك أن هذه الشراذم النصرانية الصغيرة التى نجت من المطاردة واعتصمت بصخور جليقية ، لم تلبث أن نمت وقويت ، وكانت منشأ المملكة النصرانية التى قامت فى الشمال ، ولبثت قروناً تكافح دولة الإسلام فى اسبانيا حتى انتهت بالقضاء عليها .

وفى ذلك الحين كان عبد العزيز بن موسى قد افتتح منطقة الساحل الواقعة بين مالقة وبلنسية ، وأخمد الثورة فى إشبيلية وباجة ، وافتتح لبلة وغيرها من المعاقل والحصون ، وأبدى فى معاملة البلاد المفتوحة كثيراً من الرفق والتسامح ، والاعتدال فى تطبيق الأحكام وفرض الضرائب . ولنا فى معاهدته مع تيودمير خير شاهد باعتدال السياسة الإسلامية ولينها وتسامحها . وإليك نص هذه المعاهدة ، حسبما نقله إلينا الغزيرى فى معجمه ، نورده نموذجاً للوثائق السياسية الإسلامية فى عصر الفتح :

« نسخة كتاب الصلح الذى كتبه عبد العزيز بن موسى لتدمير عبدوش — بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد العزيز إلى تدمير ، أنه نزل على الصلح ، وأنه له عهد الله وذمته أن لا ينزع عنه ملكه ، ولا أحد من النصارى عن أملاكه . وأنهم لا يقتلون ولا يسبون ، أولادهم ولا نساؤهم ، ولا يكرهون على دينهم ، ولا تحترق كنائسهم ما تعبد ونصح ، وأن الذى اشترط عليه أنه صالح على سبع مدائن ، أوريوالة وبلنتلة ولقنت ومولة وبقسرّة وأنة ولورقة . وأنه لا يأوى لنا عدواً ، ولا يخون لنا أمناً ولا يكتم خبراً علمه . وأنه عليه وعلى أصحابه ديناراً

---

(١) لم توضح الرواية الإسلامية أسباب هذا الاستدعاء . ولكن الغزيرى نقل فى معجمه عن بعض أوراق مخطوطة فى الإسكوريال فى سبب الاستدعاء هذه الفقرة : « ولما علم الوليد بن عبد الملك ما حدث لطارق بن زياد وموسى بن نصير من الخلاف بعث فيهما فانصرفا إلى المشرق » . ويعتقد الغزيرى أن الأوراق التى عثر بها ونقل منها هذه الفقرة إنما هى من تاريخ الرازى لقرائن ذكرها . راجع Casiri : ibid ; V. II p. 323

كل سنة ، وأربعة أمداد قمح وأربعة أمداد شعير ، وأربعة أقساط طلا ، وأربعة أقساط خل ، وقسطى عسل ، وقسطى زيت ، وعلى العبد نصف ذلك . كتب فى أربع من رجب سنة أربع وتسعين من الهجرة . شهد على ذلك ... الخ »[1] .

واتخذ موسى بن نصير أهبته للعود إلى دمشق نزولا على أوامر الخليفة . فنظم حكومة الأندلس قبل رحيله ما استطاع ، وجعل حاضرتها إشبيلية[2] لاتصالها بالبحر وكانت حاضرتها أيام الرومان ، واختار لولايتها ولده عبدالعزيز ، واستخلف على المغرب الأقصى ولده عبد الملك ، كما استخلف على إفريقية عبد الله أكبر أولاده . وفى شهر ذى الحجة سنة خمس وتسعين ( أغسطس ٧١٥ م ) قفل راجعاً إلى المشرق وطارق معه ، وفى ركبه من نفيس التحف والغنائم ما لا يقدر ولا يوصف ، ومن أشراف السبى عدد عظيم[3] .

---

( ١ ) نقل الغزيرى هذا النص فى معجمه عن بعض مخطوطات الإسكوريال ، وقرنه بترجمة لاتينية (Casiri : ibid. V II. p. 105)

هذا وقد أورد لنا العذرى نصا آخر لهذا الأمان فى كتابه « ترصيع الأخبار وتنويع الآثار » ؛ على نفس المدن السبعة ، جاءت شروطه على النحو الآتى : « ألا يقدم ولا يؤخر لأحد من أصحابه بسوء ، وأن لا يسبون ، ولا يفرق بينهم وبين نسائهم وأولادهم ، ولا يقتلون ولا تحرق كنائسهم ، ولا يكرهون على دينهم ؛ وأنه لا يدع حفظ العهد ، ولا يحل ما انعقد ، ويصحح الذ فرضناه عليه ، وألزمناه أمره ، ولا يكتمنا خبراً علمه ، وأن عليه وعلى أصحابه غرم الجزية من ذلك على كل حر دينار .. الخ » ثم يلى ذلك شهود هذا الأمان » ( راجع « نصوص عن الأندلس » وهى عبارة عن أوراق منقولة من كتاب « ترصيع الأخبار » ومنشو ة بعناية الدكتور عبد العزيز الأهوانى ، وصادرة عن معهد الدراسات الإسلامية بمدريد — ص ٤ و ٥ ) .

( ٢ ) اقتبس العرب اسم « إشبيلية » من اسمها اللاتينى « هسبالى « Hispali » ، ثم حرف الإسبان هذا الاسم إلى « سفيليا « Sevilla » ، وهو الذ يطلق عليها فى الجغرافية الحديثة .

( ٣ ) تفيض الرواية الإسلامية فى وصف ما أصابه المسلمون فى الأندلس من الغنائم الجليلة والسبى الذى لا يحصى . وتقول إن موسى بن نصير حمل إلى دمشق من التحف والذخائر من الذهب والدر والياقوت والزبرجد ما لا يقدر ؛ منها مائدة سليمان السالفة الذكر ؛ وأما السبايا فيقال إنه حمل منها ثلاثين ألفاً ، بينهم مئات من أشراف القوط واله صفاء المختارين ، من ذو الشباب الغض والجمال الباهر ذكوراً وإناثاً . وذكر ابن القوطية أن موسى بن نصير عاد ومعه من أبناء الملوك والعجم أربعمائة ، على رؤسهم تيجان الذهب وفى أوساطهم مناطق الذهب ( ص ١٠ ) . ونقل المقرى عن بعض المؤرخين أن العرب وجدوا فى طليطلة حين فتحوها من الذخائر والأموال ما لا يحصى ، فن ذلك مائة وسبعون تاجاً من الذهب الأحمر مرصعة بالدر وأصناف الحجارة الكريمة ، ووجد فيها ألف سيف ملوكى ، ومن الدر والياقوت أكيال ، ومن أوانى الذهب والفضة ما لا يحيط به وصف ( نفح الطيب ج ١ ص ١٣٠ و ١٣٥ و ١٣٦ ) .

وقد اختلفت الرواية العربية فى مصير موسى بن نصير ، واختلف الرواة فى أمر لقائه بالخليفة ؛ فقيل إنه وصل إلى دمشق قبل وفاة الوليد بن عبد الملك ، وقدم إليه الأخماس والغنائم ، فأكرمه وأحسن إجازته ، وقيل بل وصل عقب وفاة الوليد وارتقاء سليمان بن عبد الملك أخيه عرش الخلافة ، وأن سليمان غضب عليه ونكبه[1] . على أنه يمكن التوفيق بين القولين أعنى وفود موسى على الوليد ابن عبد الملك ثم نكبته على يد سليمان . وهنالك ما يرجح لدينا أنه لحق بالوليد قبيل وفاته ، فإن ابن عبد الحكم وهو أقدم رواة فتوح الأندلس ، يقول لنا إن موسى بن نصير مر بمدينة الفسطاط فى أواخر شهر ربيع الأول سنة ست وتسعين فى طريقه إلى دمشق[2]. وقد توفى الوليد فى منتصف جمادى الآخرة من هذا العام أعنى بعد وصول موسى إلى مصر بأكثر من شهرين ونصف . ولما كانت مسافة السفر بين الفسطاط ودمشق لا تتجاوز فى هذا العصر بضعة أسابيع ، فإن الوقت كان يكفى لمقدم موسى على الوليد قبل وفاته بأسابيع . على أن الرواية من جهة أخرى تكاد تجمع على أن سليمان سخط على فاتح الأندلس ونكبه . ذلك أن موسى وصل إلى الشام والوليد فى مرض موته ، فكتب إليه سليمان ولى العهد أن يتمهل فى السير ، رجاء أن يموت الوليد بسرعة ، فيقدم عليه فى صدر خلافته بما يحمل من التحف والغنائم الكثيرة ، فأبى موسى وجد فى السير حتى قدم والوليد حى فسلم إليه الأخماس والغنائم . ثم توفى الوليد بعد ذلك بقليل مستخلفاً أخاه سليمان على كرسى الخلافة . فغضب سليمان على موسى ، وزاد فى حقده عليه ، ما قدمه فى حقه طارق ومغيث من مختلف التهم[3] . وفى الحال أمر ، بعزله واتهمه وبنيه باختلاس مقادير عظيمة من المال والتحف ، وقضى عليه بردها ، وبالغ فى إهانته وتعذيبه ، ثم ألقاه إلى ظلام السجن . واستجار موسى بصديقه يزيد بن المهلب من نقمة سليمان ، وكان من أخصائه وذوى النفوذ عنده ، فيروى أن يزيداً

---

(١) يقول بالرواية الأولى ابن عبد الحكم ( فتوح مصر ص ٢١١ ) ، وصاحب كتاب الإمامة والسياسة (ج ٢ ص ٩٣ و ٩٤ ) ، وابن خلكان (ج ٢ ص ١٨١ ) . ويقول بالرواية الثانية ابن الأثير ( ج ٤ ص ٢١٦ ) ، والحميدى فى جذوة المقتبس ( ص ٦ ) ، وابن خلدون (ج ٤ ص ١١٨ ) .

(٢) فتوح مصر ص ٢١١ .

(٣) أخبار مجموعة ص ٢٩ .

قال له : « لم أزل أسمع عنك أنك من أعقل الناس وأعرفهم بمكائد الحروب ومداراة الدنيا . فقل لى كيف حصلت فى يد هذا الرجل بعد ما ملكت الأندلس ، وألقيت بينك وبين هؤلاء القوم البحر الزخار ، وتيقنت بعد المرام واستصعابه ، واستخلفت بلاداً أنت اخترعتها ، وحصل فى يدك من الذخائر والأموال والمعاقل ما لو أظهرت به الامتناع ما ألقيت عنقك فى يد من لا يرحمك . ثم إنك علمت أن سليمان ولى عهد وأنه الولى بعد أخيه ، وقد أشرف على الهلاك لا محالة ، وبعد ذلك خالفته وألقيت بيدك إلى التهلكة ، وأحقدت مالكك ومملوكك » . وما زال يزيد بسليمان حتى عفا عن موسى ، وأعفاه من الغرامة الفادحة التى قضى بها عليه ، ويقال بل عفا عن حياته ، ولم يعفه من الغرامة ، وإن موسى استطاع أن يفتدى نفسه ببعض ما فرض عليه ، وإن سليمان عفا عنه بعد ذلك[1] . وأقر ابنه عبد الله على إفريقية وابنه عبد العزيز على الأندلس . وتبالغ بعض الروايات فتقول إن سليمان أصر على معاقبة موسى وتغريمه ، حتى كان يطوف أحياء العرب مع حراسه ليسأل بعض المال ليفتدى نفسه ، وإنه لبث على تلك الحال حتى توفى فى منتهى البؤس والذلة بوادى القرى فى شمال الحجاز حيث ينسب مولده ، وذلك سنة سبع وتسعين[2] .

بيد أنه لا يوجد ما يبرر الأخذ بمثل هذه الرواية المغرقة . والصحيح المعول عليه أن سليمان عفا عن موسى ، وأقاله من محنته ، وتوفى موسى بعد ذلك بقليل فى سنة سبع وتسعين (وقيل فى سنة تسع وتسعين ) وهو فى طريقه إلى الحج مع سليمان ، وقد جاوز الثمانين من عمره .

---

(١) هذه هى رواية ابن عبد الحكم ( فتوح مصر ص ٢١٣ ) . وهى رواية يؤيدها البلاذرى ( فتوح البلدان ص ٢٣٠ ) .

(٢) يراجع فى مصير موسى بن نصير : فتوح مصر ( ص ٢١١ ) ، وأخبار مجموعة ( ص ٢٩ و ٣٠ ) ، وابن القوطية ( ص ١٠ — ١١ ) ، وابن الأثير ( ج ٤ ص ٢١٦ ) ، والمقرى عن ابن حيان وابن يشكوال والحجارى ، ( نفح الطيب ج ١ ص ١٣٤ و ١٣٥ ) ، وابن خلكان ( ج ٢ ص ١٨١ ) ، وكذلك كتاب الإمامة والسياسة ( ج ٢ ص ٨٦ ، ٨٩ و ٩٣ ، ٩٦ ) . هذا ويبدى المستشرق دوزى ريبه فى صحة الروايات والقصص التى قيلت عن مصير موسى بن نصير ، ويقول إنه لا يوجد ثمة ما يبررها ، لأن موسى كان يتمتع بحماية يزيد بن المهلب صديق سليمان وصاحب النفوذ لديه ، ويستشهد برواية البلاذرى التى أشرنا إليها ، وأيضاً برواية مؤرخ نصرانى معاصر هو إيزيدور الباجى (Dozy, Hist. V. I. p. 134—135).

هذا ما تردده الرواية الإسلامية عن مصير موسى بن نصير . ومهما كان من الأمر ، فإن فاتح الأندلس لم يلق الجزاء الحق ، بل غمط حقه وفضله أشنع غمط ، وأبدت الخلافة بهذا الجحود والنكران ، أنها لم تقدر البطولة فى هذا الموطن قدرها ، ولم تقدر عظمة الفتح الباهر الذى غنمته على يد رجلها وقائدها .

وكان موسى بن نصير من أعظم رجال الحرب والإدارة المسلمين فى القرن الأول للهجرة . وقد ظهرت براعته الإدارية فى جميع المناصب التى تقلدها ، كما ظهرت براعته الحربية فى جميع الحملات البرية والبحرية التى قادها . على أن هذه المواهب تبدو بنوع خاص فى حكمه لإفريقية ، حيث كانت الحكومة الإسلامية تواجه شعباً شديد المراس ، يضطرم بعوامل الانتقاض والفتنة ، وإذا كان موسى قد أبدى فى معالجة الموقف وإخماد الفتنة كثيراً من الحزم والشدة ، فقد أبدى فى الوقت نفسه خبرة فائقة بنفسية الشعوب ، وبراعة فى سياستها وقيادتها . وكان موسى فوق مواهبه الإدارية والعسكرية ، غزير العلم والأدب ، متمكنا من الحديث والفقه ، عالماً بالفلك ، مجيداً للنثر والنظم . غير أن هذه المواهب والخلال البديعة كانت تشوبها نزعة قوية إلى الطغيان والبطش ، وشهوة الحقد والحسد[1] .

وإلى موسى بن نصير يرجع الفضل الأول فى عبور الإسلام إلى أوربا من الغرب وقيام دولته فيها ، بعد أن اخفقت محاولته فى العبور إليها من المشرق عن طريق قسطنطينية . ومع أن سيل الفتح الإسلامى رد غير بعيد فى سهول بلاط الشهداء ، فإن الإسلام استطاع مع ذلك أن يستقر فى إسبانيا قروناً ، يبهر بضوء مدنيته الزاهرة جميع الأمم الأوربية فى العصور الوسطى .

* * *

هذا ما كان من شأن موسى ومصيره ، فماذا كان مصير طارق ؟ هذا ما تمر عليه الرواية الإسلامية بالصمت . وكل ما هنالك أنها تشير إلى ما كان من نية سليمان بن عبد الملك فى تعيينه والياً للأندلس مكان موسى ، وكيف عدل عن ذلك حينما وقف من مغيث الرومى فاتح قرطبة ، على ما كان يتمتع به طارق فى الأندلس من عظيم الهيبة والنفوذ ، وذلك توجساً مما قد يجيش به من أطماع ومشاريع نحو ذلك

---

(١) نفح الطيب (ج ١ ص ١٣٣ و ١٣٤) .

القطر النائى من أقطار الخلافة[1] . وقد كان مغيث يحقد على موسى وطارق منذ الفتح ويسعى إلى منافستهما والإيقاع بهما ، وكان لوقيعته ومساعيه ضدهما أكبر الأثر فى استدعائهما إلى دمشق . وإذا كانت هذه الرواية لا تلقى ضوءاً كافياً على مصير طارق ، فإنها قد تسمح لنا مع ذلك أن نعتقد أن طارقاً لم يلق مثل المصير المحزن الذى لقيه موسى ، وأنه بالعكس قد استقبل فى بلاط دمشق استقبالا حسناً ، وربما أحسن الخليفة فوق ذلك إثابته ، بدليل أنه فكر فى تعيينه والياً للقطر الذى ساهم فى افتتاحه بأعظم قسط .

ولكن الرواية الإسلامية لا تحدثنا بعد ذلك عن طارق بشىء ، ولا تذكر لنا أين ومتى توفى ، بل تسدل على نهايته حجاباً عميقاً من الصمت[2] .

وليس فى وسعنا إزاء هذا الغموض الذى يحيط بسيرة طارق أن نتحدث عن صفاته وخلاله ، وكل ما نستطيعه فى هذا الموطن هو أن ننوه بخلاله العسكرية الباهرة ، التى ظهرت بوضوح فى حروب المغرب وفتح الأندلس ، وهو بهذه الخلال يتبوأ مكانته بين أعظم الفاتحين المسلمين .

أما مصير الكونت يوليان الذى مهد لفتح الأندلس ، فلم تشر إليه الرواية الإسلامية . وفى بعض الروايات أنه عاد بعد الفتح إلى سبتة وأقطع ما حولها من الأراضى ، وقُلِّد إمارتها جزاء خدماته . ولكنه بقى نصرانياً هو وبنوه الأقربون ، ثم دخل عقبه فى الإسلام بعد ذلك . وتقول الرواية الكنسية الإسبانية إنه قتل بيد مواطنيه فى معركة نشبت بينه وبينهم ، أو أنه قتل بعد ذلك بأعوام فى ولاية الحر الثقفى بيد العرب لريبة فى ولائه . وتقول هذه الرواية أيضاً إن العرب أعدموا ابنى وتيزا وأفراد أسرته لمثل هذا السبب[3] . وهذا ما تنفيه الرواية الإسلامية وتؤكد عكسه . فالمصادر الإسلامية تجمع كلها على أن العرب أحسنوا معاملة إيفا ( أو إيبا ) وسيزبوت ابنى وتيزا وعمهما أوباس ؛ فأما أوباس فقد عين كما تقدم مطراناً لطليطلة ، وأقطع إيفا وسيزبوت ما كان لأبيهما من الضياع .

---

(١) راجع نفح الطيب ج ٢ ص ٥٥ .

(٢) ولا نعرف مصدراً لما يقوله السيد أمير على من أن طارقاً لقى نفس المصير التعس الذى قيل إن موسى لقيه وأنه مات فى فقر وضعة : **History of the Saracens p. 122**

(٣) **Crónica General; Vol. II. p. 324. Cardonne : ibid.. V. I. p. 85 — Gibbon, ibid. Ch. LI — Scott : Moorish Empire, V. I. p. 259**

ثم توفى إيقا أكبر الأخوين بعد ذلك بأعوام عن إبنة تدعى سارة وولدين صغيرين ، فاغتصب سيزبوت ميراثه وضياعه ، فبادرت سارة بالسفر مع أخويها إلى دمشق ، وشكت عمها إلى الخليفة هشام بن عبد الملك ، فأنصفها وقضى لها برد ميراث أبيها ، وبعث بذلك إلى والى الأندلس أبى الخطار الكلبى . وتزوجت سارة فى دمشق من سيد عربى يدعى عيسى بن مزاحم ، ورزقت منه بولدين هما إبراهيم وإسحاق . ثم عادت مع زوجها إلى الأندلس ، وأحرز ولداها مكانة ممتازة . وإليها ينتمى نسب ابن القوطية القرطبى المؤرخ ، نسبة إلى لقبها العربى وهو سارة « القوطية »[1] .

---

(١) تضطرب معظم الروايات العربية فى ذكر ابناء وتيزا ، فتقول إنه ترك ثلاثة بنين وتسميهم إلمند ورملة وارطباس . والظاهر أن الخطأ فى اعتبارها أوباس ( ولعله هو أرطباس ) ابنا لوتيزا . والمند هو إيقا ورملة هو سيزبوت . ( راجع فتح الأندلس لابن القوطية ص ٥ و ٦ ) : والمقرى ( ج ١ ص ١٢٥ ) ، ولكن صاحب « أخبار مجموعة » يقرر أنهما اثنان . ويسميهما ششبرت وأبة ، وهو تعريب حسن للاسمين ( ص ٨ ) ، وكذا ابن الأثير ( ج ٤ ص ٢١٣ ) .

# الفصل الرابع

## إسبانيا بعد الفتح الإسلامى

(١) آثار الفتح الإسلامى . سياسة العدل والتسامح . أقوال النقد الغربى الحديث فى ذلك . الحرية الدينية . المجتمع الإسلامى الجديد . عناصر الضعف فيه . العرب والبربر والمولدون . الخصومة بين اليمنية والمضرية . أسباب هذه الخصومة . رأى ابن خلدون فى تعليلها . الخصومة بين العرب والبربر . أثر دعوة الخوارج فى إذكائها . (٢) الأقاليم الأندلسية الجديدة . تفرق القبائل فى المدن المختلفة . منازل البربر فى شبه الجزيرة . ولاية عبد العزيز بن موسى . تنظيمه للحكومة الجديدة . زواجه بأرملة ردريك . التوجس من سياسته . مقتله . بواعث هذه الجريمة . ولاية أيوب ابن حبيب اللخمى . نقل قاعدة الحكم إلى قرطبة . ولاية الحر الثقفى . قمعه للمنازعات والفتن . غزوه لسبتمانيا وافتتاحه لقواعدها . محاربته لثوار الشمال . الإضطراب فى قرطبة . ولاية السمح بن مالك . فصل حكومة الأندلس عن إفريقية . فكرة عمر بن عبد العزيز فى جلاء المسلمين عن الأندلس . إصلاحات السمح ومنشآته . غزوه لسبتمانيا . زحفه على تولوشة .

— ١ —

كان فتح الإسلام لاسبانيا فاتحة عصر جديد ، وبدأ تطور عظيم فى حياتها العامة وفى نظمها الاجتماعية . وقد كانت لعهد الفتح كما رأينا ترزح فى غمر مرهقة من الجور والعسف ، وكانت أقلية باغية من الأمراء والنبلاء تسود شعباً بأسره وتستغله أشنع استغلال ، وتفرض عليه رسوم الرق والعبودية ، وتستبيح منه كل الحريات والحرم . فجاء الإسلام ليقضى على ذلك كله ، وليحمل نعم العدل والحرية والمساواة إلى الناس جميعاً ، وليعطى كل ذى حق حقه ، وليقمع البغى والظلم . وبالرغم من أن العرب شغلوا حيناً بتوطيد الفتح الجديد وتوسيعه ، فإنهم استطاعوا فى أعوام قلائل أن يقمعوا عناصر الشر والفوضى ، وأن ينظموا إدارة البلاد المفتوحة ، وأن يبثوا فى الجزيرة روحاً جديداً من العزم والأمل ، فنشطت الزراعة والصناعة والتجارة بعد ركودها ، وهبت ريح من الرخاء والدعة ، على مجتمع أضناه العسف والفاقة مدى عصور .

قضى الفتح على سلطان الطبقات الممتازة ، فتنفس الشعب الصعداء ، وخف عن كاهله ما كان ينوء به من الأعباء والمغارم . وفرض المسلمون الضرائب

بالمساواة والاعتدال والعدل ، بعد أن كان يفرضها حكم الهوى والجشع ، وأمن الناس على حياتهم وحرياتهم وأموالهم . وترك الفاتحون لرعاياهم الجدد حق اتباع قوانينهم وتقاليدهم ، والخضوع لقضائهم وقضاتهم ، واختاروا فى معظم الأحوال لهم حكاماً من أبناء جنسهم ، يعهد إليهم بسن الضرائب المطلوبة ، والإشراف على النظام والسكينة . أما فى شأن الدين وحرية العقائد والضمائر ، فقد كانت السياسة الإسلامية مثلا أعلى للتسامح . فلم يظلم أحد أو يرهق بسبب الدين أو الاعتقاد ، وكان أداء الجزية هو كل ما يفرض على الذميين من النصارى أو اليهود ، لقاء الاحتفاظ بدينهم وحرية عقائدهم وشعائرهم ، ومن دخل الإسلام منهم سقطت عنه الجزية ، وأصبح كالمسلم سواء بسواء فى جميع الحقوق والواجبات . ونرى فى هذا الموطن أن نقدم طائفة من الأقوال والآراء التى يعلق بها المؤرخون والنقدة الغربيون ، على سياسة الفتح الإسلامى وآثاره فى اسبانيا . يقول العلامة المستشرق رينهارت دوزى :

« لم تكن حال النصارى فى ظل الحكم الإسلامى مما يدعو إلى كثير من الشكوى بالنسبة لما كانت عليه من قبل . أضف إلى ذلك أن العرب كانوا يتحلون بكثير من التسامح . فلم يرهقوا أحداً فى شئون الدين . ولم تكن الحكومة — إذا لم تكن مغرقة فى الدين — لتشجع إسلام النصارى ، إذ كانت خزانة الدولة تخسر بإسلامهم كثيراً . ولم يغمط النصارى للعرب هذا الفضل ، بل حمدوا للفاتحين تسامحهم وعدلهم ، وآثروا حكمهم على حكم الجرمان والفرنج ، وانقضى القرن الثامن كله فى سكينة ، وقلما نشبت فيه ثورة . كذلك لم يبد رجال الدين فى العصور الأولى كثيراً من التذمر ، وإن كانت لديهم أكثر البواعث لذلك . وهذا ما تؤيده روح الرواية اللاتينية التى كتبت سنة ٧٥٤ فى قرطبة ، والتى تنسب لإيزيدور الباجى ، فإن كاتبها رغم كونه من رجال الدين ، يبدى نحو المسلمين من العطف ، ما لم يبده أى كاتب إسبانى آخر قبل القرن الرابع عشر » . ويقول دوزى عن آثار الفتح الإجتماعية : « كان الفتح العربى من بعض الوجوه نعمة لإسبانيا . فقد أحدث فيها ثورة إجتماعية هامة ، وقضى على كثير من الأدواء التى كانت تعانيها البلاد منذ قرون .. وحطمت سلطة الأشراف والطبقات الممتازة أو كادت تمحى ، ووزعت الأراضى توزيعاً كبيراً ، فكان ذلك حسنة سابغة ، وعاملا فى ازدهار الزراعة إبان الحكم العربى . ثم كان الفتح عاملا فى تحسين أحوال الطبقات المستعبدة ،

إذ كان الإسلام أكثر تعضيداً لتحرير الرقيق من النصرانية ، كما فهمها أحبار المملكة القوطية . وكذا حسنت أحوال أرقاء الضياع ، إذ غدوا من الزراع تقريباً ، وتمتعوا بشيء من الإستقلال والحرية » (١).

ويقول الأستاذ لاين پول : « أنشأ العرب حكومة قرطبة التي كانت أعجوبة العصور الوسطى ، بينما كانت أوربا تتخبط فى ظلمات الجهل ، فلم يكن سوى المسلمين من أقام بها منائر العلم والمدنية » .

« ماكان المسلمون كالبرابرة من القوط أو الوندال ، يتركون وراءهم الخراب والموت . حاشا ، فإن الأندلس لم تشهد قط أعدل وأصلح من حكمهم . ومن الصعب أن نقول أنى اكتسب العرب تلك الخبرة الفائقة بالشئون الإدارية ، فقد خرجوا من الصحراء إلى الغزو ، ولم يفسح لهم تيار الفتح مجالا يدرسون فيه إدارة الأمم المفتوحة »(٢) .

ويقول المستشرق الإسبانى جاينجوس : « لقد سطعت فى اسبانيا ( الأندلس ) أول أشعة لهذه المدنية ، التى نثرت ضوءها فيما بعد على جميع الأمم النصرانية . وفى مدارس قرطبة وطليطلة العربية ، جمعت الجذوات الأخيرة للعلوم اليونانية بعد أن أشرفت على الانطفاء ، وحفظت بعناية . وإلى حكمة العرب ، وذكائهم ، ونشاطهم ، يرجع الفضل فى كثير من أهم المخترعات الحديثة وأنفعها »(٣) .

وقال المؤرخ الأمريكى سكوت : « فى أقل من أربعة عشر شهراً ، قضى

---

(١) Dozy : Histoire, V.II, p. 277—278 . ويذكر دوزى من جهة أخرى أن الفتح أعقبته فترة من الفوضى نهب فيها المسلمون عدة أماكن ، وأحرقوا عدة مدن وشنقوا بعض الأشراف ، وقتلوا الأطفال بالخناجر ، ولكن الحكومة العربية قمعت فى الحال هذه الفظائع (ج ٢ ص ٢٧٥) . ويندد من جهة أخرى بقضاء العرب على حرية الكنيسة ، واستئثارهم بتكوين المجالس الدينية ، وتعيين الأساقفة وعزلهم . ثم يقول إن العرب بعد أن توطد سلطانهم ، كانوا أقل احتراماً للمعاهدات المعقودة (ج ٢ ص ٢٨١) . ونقول نحن إن دوزى لم يعتمد فى سرد هذه الفظائع إلا على الرواية النصرانية وهى متحاملة مغرضة تحمل طابع المبالغة ، خصوصاً فيما يتعلق بقتل الأطفال . أما تنديده بقضاء العرب على سلطة الكنيسة فليس مما يمكن تبريره ، لأن سياسة الفتح المستنيرة ، وبواعث توطيد دعائم الدولة الجديدة ، تقضى بأن يأخذ الغالب بزمام كل السلطات فى البلد المفتوح .

(٢) Lane - Poole : The Moors in Spain, Ch. I

(٣) P. Gayangos : History of the Mohammedan Dynasties in Spain V. I. p. VII & VIII

على مملكة القوط قضاء تاماً ؛ وفى عامين فقط وطدت سلطة المسلمين فيما بين البحر الأبيض المتوسط وجبال البرنيه . ولا يقدم لنا التاريخ مثلا آخر اجتمعت فيه السرعة والكمال والرسوخ بمثل ما اجتمعت فى هذا الفتح... وقد كان المظنون فى البداية أن الغزو إنما هو أمر مؤقت فقط . ولم يتوقع أحد أن يكون احتلال البلاد دائماً . فلما استقرت الجماعات المستعمرة ، وفتحت الثغور لتجارة المشرق ، وأقيمت المساجد ، أدرك القوط فداحة الخطب الذى نزل بهم . ولكن اعتدال حكامهم الجدد خفف من ألم الهزيمة . وكان دفع الجزية يضمن الحماية لأقل الناس ، وكان يسمح للورع المتعصب أن يزاول شعائره دون تدخل ، كما يسمح للملحد أن يجاهر بآرائه دون خشية المطاردة ، والأحبار يزاولون شئونهم فى سلام : أما أقوال الكتاب النصارى التى ينسبون فيها للعرب أفظع المثالب ، فهى محض مبالغة أو افتراء »[1] .

أجل ، لم يك ثمة ما يدعو لأن يعتبر الفتح الإسلامى لاسبانيا كارثة قومية يفزع لها الشعب ويأسو ، بل كان كل ما هنالك بالعكس يدعو إلى اعتباره نذير الخلاص والأمل . ألم يكن شعار الفاتحين التسامح والعدل والمساواة ؟ لقد كان تسامح الإسلام نبراساً يشع بضوئه المنقذ فى هاتيك المجتمعات التى أضناها الإرهاق الدينى ، ولم ير الإسلام بأساً من أن يستقبل النصارى واليهود إلى جانب المسلمين فى مجتمع واحد ، يسوى فيه بينهم فى جميع الحقوق والواجبات ، ولم ير بأساً من أن تقوم الكنائس والبيع إلى جانب المساجد ، ألم يكن ذلك أبدع وأروع ما فى سياسة الفتح الإسلامى ؟ لقد كانت حرية الضمائر والعقائد والفكر ، وما زالت منذ أقدم العصور ، أثمن ما تحرص عليه الشعوب الكريمة وتذود عنه .

فإذا ذكرنا أن هذا التسامح الذى أبداه الإسلام نحو الأمم المغلوبة ، وهذا الاحترام لضمائر الناس وعقائدهم ، وهذه الحرية التى تركها لهم فى إقامة شعائرهم ، إنما جاءت بعد عصور طويلة من الاضطهاد الدينى ، اتخذت فيها مطاردة الضمائر والعقائد أشنع الأساليب والصور ، استطعنا أن نقدر ما كان لذلك الانقلاب من

---

( ١ ) **Scott : ibid., V. I. p. 260 & 264** . وينوه باحث أمريكى حديث آخر هو الدكتور **Lea** لى بتسامح العرب والمسلمين خلال العصور الوسطى ، وترفعهم عن الخصومات الدينية ، وبغض الأجناس أو التفرقة بينها . راجع : **History of the Inquisition in Spain V. I. p. 356**

أثر عميق فى نفسية الشعوب المغلوبة وعواطفها ، وما كانت تحبو به حكم الإسلام من التأييد والرضى .

ويبدى كثير من العلماء الإسبان أنفسهم مثل هذا التقدير ، والإشادة باعتدال السياسة الإسلامية وآثار مسلكها المستنير . ذلك أن العرب تركوا الشعب المغلوب دون مضايقة ، يحيا حياته الخاصة فى نظمه وتقاليده . وهذا ما يسلم به المستشرق سيمونيت ، بالرغم من كونه من أشد العلماء الإسبان تحاملا ، فهو يقول لنا « إنه فيما يتعلق بالقوانين المدنية والسياسية ، فإن النصارى الإسبان احتفظوا فى ظل الحكم الإسلامى بنوع من الحكومة الخاصة ، واحتفظ الناس بأحوالهم القديمة دون تغيير كبير ؛ وفيما يتعلق بالتشريع ، فإنهم قد احتفظوا فى باب النظم الكهنوتية بقوانين الكنيسة الإسبانية القديمة ، واحتفظوا فى الناحية المدنية بالقوانين القوطية أو قانون التقاضى "Fuero Juzgo" ، يخضعون لها فى كل ما له علاقة بحكومتهم . وهى حكومة بلدية محلية ، وما لم يكن يتعارض مع القوانين والسياسة الإسلامية »[1] .

وفيما يتعلق بالناحية النظامية يقول العلامة ألتاميرا ، إن أغلبية الشعب الإسبانى الرومانى والقوطى بقيت فى ظل حكم المسلمين محتفظة بروسائها ( وهم الأقماط أو الكونتات Condes ) وقضاتها وأساقفتها وكنائسها ، وبالجملة بقيت محتفظة بما يشبه استقلالها المدنى الكامل . وقنع الولاة بأن يفرضوا على النصارى المحكومين الضرائب الشرعية »[2] .

ويقول المستشرق كارديناس : « إن الفضل يرجع إلى تسامح الولاة والأمراء الأوائل ، فى أنه خلال العصور الأولى من الحكم الإسلامى ، كان الشعبان — المسلمون والمستعربون ( النصارى ) — يعيشان جنباً إلى جنب عيشة حرة » .

« واستطاع المستعربون فى ظل الحكم الإسلامى أن يحتفظوا باستقلالهم ، ولغتهم وعاداتهم وقوانينهم ، وأحياناً بأساقفتهم وكونتاتهم ، وأن يسهروا على صيانة الفنون القوطية التى كان العرب أنفسهم يقتبسون من أساليبها »[3] .

---

(١) D. Francisco J. Simonet : Historia de los Mozarabes de Espana (Madrid 1897) V. I. p. 106.

(٢) R. Altamira y Crevea : Historia de Espana y de la Civilizacion Espanola (Barcelona 1900) T. I. p. 217.

(٣) O. Almagro y Cardenas: La Cultura Arabigo—Sevillana (Sevilla 1894) p. 10.

ونكتفى بما تقدم من أقوال المؤرخين والمفكرين الغربيين فى الإشادة باعتدال السياسة الإسلامية وتسامحها . وفى أقوالهم أبلغ رد على ما ينسبه بعض الأحبار والعلماء المتعصبين لحكم المسلمين ، من ضروب التعصب والطغيان المدنى والدينى .

غير أن هذه الدولة الجديدة التى أنشأها الإسلام فى اسبانيا ، كانت تحمل منذ البداية جرثومة الخلاف الخطر . وكان هذا المجتمع الجديد الذى جمع الإسلام شمله ومزج بين عناصره ، يجيش بمختلف الأهواء والنزعات ، وتمزقه فوارق الجنس والعصبية . كانت القبائل العربية ماتزال تضطرم بمنافساتها القديمة الخالدة ، وكان البربر الذين يتألف منهم معظم الجيش ، يبغضون قادتهم ورؤساءهم العرب ، وينقمون عليهم استئثارهم بالسلطة والمغانم الكبيرة ، واحتلالهم لمعظم القواعد والوديان الخصبة ، وكثيراً ما رفعوا لواء العصيان والثورة . وكان المسلمون الإسبان وهم « المولدون أو البلديون »[1] محدثين فى الإسلام ، يشعرون دائماً بأنهم رغم إسلامهم ، أحط من الوجهة الاجتماعية ، من سادتهم العرب . ذلك أن العرب رغم كون الإسلام يسوى بين جميع المسلمين فى الحقوق والواجبات ، ويمحو كل فوارق الجنس والطبقات ، كانوا يشكون فى ولاء المسلمين الجدد ، ويضنون عليهم بمناصب الثقة والنفوذ ، هذا إلى أن العربى فى الأقطار القاصية التى افتتحها بالسيف ، لم يستطع أن يتنازل عن كبرياء الجنس ، التى كانت دائماً من خواص طبيعته ، فكان مثل الإنكليزى السكسونى يعد نفسه أشرف الخليقة[2] . على أن الخلاف بين العرب أنفسهم كان أخطر ما فى هذا المجتمع الجديد من عوامل التفكك والانحلال ، فقد كانت عصبية القبائل والبطون ، ما تزال قوية حية فى الصدور ، وكان التنافس على السلطان والرياسة بين الزعماء والقادة ، يمزق الصفوف ويجعلها شيعاً وأحزاباً ، وكانت عوامل الغيرة والحسد تعمل عملها فى نفوس القبائل والبطون المختلفة . وأشد ما كانت تستعر نار ذلك الخلاف والتنافس بين اليمنية والمضرية ، وذلك لأسباب عديدة ترجع إلى ماقبل الإسلام . منها أن الرياسة كانت لعصور طويلة قبل الإسلام فى حمير وتُبع ، أعظم القبائل اليمنية ، وكانت لهم دول ومنعة وحضارة زاهرة ، بينما كانت مضر بدواً متأخرين يخضعون لحمير ويؤدون

---

(١) ابن القوطية — افتتاح الأندلس — ص ٣٠ .

(٢) Ameer Ali : Ibid., p. 118

الجزية لهم . وكان بينهما خصومات وحروب مستعرة طويلة الأمد ، إذ كانت حمير تعمل للاحتفاظ برياستها وسلطانها ، وتجاهد مضر فى سبيل استقلالها وحريتها . ولنا فى « أيام » العرب ووقائعها المشهورة ، أمثلة رائعة من هذا التضال . قال ابن خلدون : « واستمرت الرياسة والملك فى هذه الطبقة اليمانية أزمنة وآماداً ، بما كانت صبغتها لهم من قبل ، وأحياء مضر وربيعة تبعاً لهم — فكان الملك بالحيرة للخم فى بنى المنذر ، وبالشام لغسان فى بنى جفنة ، ويثرب كذلك فى الأوس والخزرج . وما سوى هؤلاء من العرب فكانوا ظواعن بادية وأحياء ناجعة . وكانت فى بعضهم رياسة بدوية وراجعة فى الغالب إلى أحد هؤلاء . ثم نبضت عروق الملك ، وظهرت قريش على مكة ونواحى الحجاز ، أزمنة عرفت فيها منهم ودانت الدول بتعظيمهم . ثم صبغ الإسلام أهل هذا الجيل ، فاستحالت صبغة الملك إليهم وعادت الدول لمضر من بينهم ، واختصت كرامة الله بالنبوة بهم ، فكانت فيهم الدول الإسلامية كلها ، إلا بعضاً من دولها قام بها العجم اقتداء بالملة وتمهيداً للدعوة »[1]. وهكذا أسفر النضال لظهور الإسلام عن تحول فى الرياسة ، إذ انتهت إلى قريش زعيمة المضرية ، بعد أن لبثت عصوراً طويلة فى اليمنية ، وانقلبت الآية ، فأصبحت المضرية تعمل على الاحتفاظ برياستها ، واليمنية تجاهد فى انتزاعها منها . وكانت مسألة اللغة أيضاً من أسباب ذلك الخلاف . ذلك أن لسان حمير ، كان أصل اللغة العربية التى اعتنقتها مضر ، وأسبغت عليها آيات باهرة من الفصاحة والبيان ، ونزل بها القرآن الكريم على النبى القرشى المضرى ، فكانت اللغة من مفاخر مضر ، تغار عليها وتحافظ على سلامتها ونقائها ، بينما فسدت لهجات القبائل الأخرى بالاختلاط وضعف بيانها . وفى ذلك يقول ابن خلدون : « ولهذا كانت لغة قريش أفصح اللغات العربية وأصرحها ، لبعدهم عن بلاد العجم من جميع جهاتهم ، ثم من اكتنفهم من ثقيف وهذيل وخزاعة وبنى كنانة وغطفان وبنى أسد وتميم . وأما من بعد عنهم من ربيعة ولخم وجذام وغسان وأياد وقضاعة وعرب اليمن المجاورين لأمم الفرس والروم والحبشة ، فلم تكن لغتهم تامة الملكة بمخالطة الأعاجم »[2] . أضف إلى هذا وذاك ما كان بين الفريقين من تباين شديد

---

(١) ابن خلدون ج ٢ ص ٢٣٩ و ٢٤٠ .

(٢) ابن خلدون ج ١ ( المقدمة ) ص ٤٨٧ .

فى الطبائع والخلال ، مما كان يذكى بينها أسباب النفور والتباعد . وقد كان الإسلام مدى حين عاملا قوياً فى جمع الكلمة ، وتوطيد الصفوف ، وتلطيف أسباب الخصومة ، ولاسيما فى شبه الجزيرة العربية . ولكن ما كاد ينقضى العصر الأول ، حتى هبت كوامن الخصومة والنضال من مرقدها ، وعادت تعصف بوحدة المجتمع الإسلامى ، وكان هذا الخلاف أخطر وأشد فى الأقطار القاصية التى افتتحها الإسلام ، ففتحت أمام القبائل والأجناس المختلفة ، التى تعمل معاً تحت لوائه ، مجالا واسعاً للتنافس والتطاحن . وكان هذا هو بالأخص شأن المجتمع الإسلامى المضطرم المتنافر ، الذى قام عقب الفتح فى اسبانيا .

وكانت إفريقية وهى أقرب قطر إسلامى لإسبانيا ، وتتبعها حكومة الأندلس من الوجهة الإدارية ، تفيض أيضاً بعناصر اضطراب خطرة . فقد نزح إليها الدعاة الخوارج منذ أواخر القرن الأول ، وذاعت مبادئ الخوارج الثورية بين البربر بسرعة ، لحداثة عهدهم بالإسلام ، وتعددت نحلهم وطوائفهم ، واشتد الخلاف والجدل فيما بينهم ، وفسد من جهة أخرى مابينهم وبين العرب من علائق الإخاء والمودة ، وكثر نزوعهم إلى الثورة . وهذا مايصفه ابن خلدون فى قوله : « ثم نبضت فيهم ( أى البربر ) عروق الخارجية ، فدانوا بها ، ولقنوها من العرب الناقلة ممن سمعها بالعراق ، وتعددت طوائفهم ، وتشعبت طرقها من الإباضية والصفرية . وفشت هذه البدعة ، وعقدها رؤوس النفاق من العرب ، وجرت إليهم الفتنة من البربر ذريعة الانتزاء على الأمر ، فاختلفوا فى كل جهة ، ودعوا إلى قائدهم طغام البربر ، تتلون عليهم مذاهب كفرها ، ويلبسون الحق بالباطل فيها ، إلى أن رسخت فيهم عروق من غرائسها . ثم تطاول البربر إلى الفتك بأمر العرب »[1] . واشتد تحريض الخوارج على حكومة الأمويين فى إفريقية ، بعد أن أخفقوا فى مقاومتها فى العراق ، وتوالت الثورات والحروب الأهلية حيناً . وكان لذلك كله صداه فى اسبانيا ، وخصوصاً بين البربر الذين يتألف منهم معظم الجيش ، فاضطرب أمر الحكم والنظام فى الأندلس ، وذكا الخلاف بين الزعماء والقادة على نحو ما قدمنا ، ولبثت حكومة اسبانيا العسكرية مدى حين عرضة للخروج والثورة ، وذهب ضحية الفتنة جماعة من الحكام والزعماء كما نفصل بعد .

---

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ١١٠ .

— ٢ —

عنى الفاتحون عقب الفتح بتنظيم شئون الحكم والإدارة ، فقسمت اسبانيا على ضوء تقسيمها القديم أيام الرومان والقوط ، فى المبدأ ، إلى أربع ولايات كبيرة على رأس كل منها حاكم محلى يعينه الحاكم العام ، ويُسئل أمامه مباشرة عن أعماله وشئون إدارته . أما حاكم الأندلس أو واليها العام ، فكان تعيينه فى المبدأ راجعاً إلى حاكم إفريقية يختاره بموافقة الخليفة .

وكانت الولاية الأولى تشمل إقليم الأندلس ، الممتد بين البحر المتوسط ونهر الوادى الكبير ، وما يلى هذا النهر حتى نهر وادى أنة أو وادى يانة ، وأشهر مدنها قرطبة ، وإشبيلية ، ومالقة ، وإستجة ، وجيان . وتشمل الثانية جميع اسبانيا الوسطى ، من البحر المتوسط شرقاً إلى حدود البرتغال غرباً ( لوزيتانيا ) ، ثم إلى نهر دويره ( دورو ) شمالا ، وأشهر قواعدها طليطلة ، على نهر تاجُه ، وقونقة وشقوبية ، وبلنسية ، ودانية ، ولقنت ، وقرطاجنة ، ومرسية ، ولورقة ، وبسطة . وتشمل الثالثة جليقية ولوزيتانيا ( البرتغال القديمة ) ، وأشهر قواعدها ماردة ، ويابرة ، وباجة ، وأشبونة ، وقلمرية ، ولك ، وأسترقة ، وشلمنقة وغيرها . وتمتد الرابعة من نهر دويره إلى جبال البرنيه ( جبال البرت أو الممرات ) على ضفتى نهر إبره (إيبرو) ، وغرباً إلى جليقية . وأشهر قواعدها سرقسطة ، وطرطوشة ، وطركونة ، وبرشلونة ، وأرقلة ( أرجل ) ، وبلد الوليد ، ووشقة ، وببشتر وغيرها . ولما اتسع نطاق الفتوح الإسلامية شمالا ، أنشئت ولاية خامسة شمالى جبال البرنيه شاملة لأربونة ، ونيمة ( أونومشو ) ، وقرقشونة ، وبزييه ، وأجده ، وماجويلون ( أومقلون ) ، ولوديف[1] .

ففى هذه الولايات والقواعد الجديدة تفرقت القبائل والعشائر المختلفة ، فنزلت قبائل دمشق بكورة قرطبة ، وحمص بإشبيلية ولبلة وأنحائهما ، وقنسرين بجيان وأنحائها ، وفلسطين بشذونة والجزيرة وريُّه ومالقة وأنحائها ، وقبائل اليمن بطليطلة وأراضيها ، ونزل الفرس بشريش وأحوازها ، والعراقيون بكورة إلبيرة (غرناطة) ؛

(١) يقدم لنا أبو عبيدة البكرى فى وصفه للأندلس تفصيلا لهذا التقسيم ، ويسميه تقسيم قسطنطين . وهو يقوم على تقسيم اسبانيا إلى ست وحدات إدارية ، تقترب فى أوضاعها مما ذكر . ( راجع الروض المعطار – الترجمة الفرنسية ص ٢٤٦ ) .

والمصريون بتدمير وماردة وأشبونة وأراضيها ، واستقر الحجازيون بالقواعد الداخلية[١] .

وأما البربر فقد نزل أغلبهم بالأطراف الغربية فى نواحى ماردة وبطليوس وأراضى البرتغال ، ونواحى الثغر الأوسط شمالى طليطلة فيما وراء نهر التاجُه ، وفى بعض أنحاء الثغر الأعلى ، وفى قطاع قونقة والسهلة ، ونزلت أقليات منهم بين القبائل العربية ، بنواحى شاطبة ولقنت ، وفى أحواز شذونة وأراضى الفرنتيرة[٢] .

ويلاحظ من الناحية الإقليمية ، أن القبائل العربية قد احتلت معظم البقاع والوديان الخصبة فى شبه الجزيرة ، وأن البربر نزلوا أو بعبارة أخرى أنزلوا بالعكس فى معظم الأقاليم والهضاب القاحلة ، ولم يحتلوا من البقاع الخصبة سوى القليل . وقد كان هذا التقسيم المجحف للأقاليم المفتوحة عاملا آخر فى ازدياد الشقاق بين العنصرين الفاتحين — العرب والبربر — . وسنرى فيما بعد كيف كان استقرار البربر فى تلك الأطراف الوعرة النائية ، من العوامل التى شجعتهم على تحدى السلطة المركزية ، ورفع لواء الثورة من آن لآخر .

وقد ذكرنا أن موسى بن نصير قبل رحيله إلى المشرق فى شهر ذى الحجة سنة ٩٥ ، اختار ولده عبد العزيز لولاية الأندلس ، فكان أول ولاتها من المسلمين ، وأنه استخلف ولده عبدالله فى ولاية إفريقية ، وأن سليمان بن عبد الملك أقر هذا الاختيار . فقضى عبد العزيز بن موسى فى ولايته زهاء عامين عنى فيهما بتحصين الثغور ، وقمع الخروج والعصيان ، وافتتح عدة أماكن وحصون ، وأبدى همة فى تنظيم الحكومة الجديدة وإدارتها ، وأنشأ ديواناً لتطبيق الأحكام الشرعية وتنسيقها ، لتوافق مشارب الرعايا الجدد ، ولتجمع حولها كلمة المسلمين من مختلف القبائل ، وشجع الزواج بين العرب والإسبان ، وتزوج هو بالملكة إجلونا[٣] أرملة ردريك ملك القوط ، واختار فى إشبيلية عاصمة ، الأندلس

---

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١١٩ .

(٢) يقدم لنا ابن حزم فى كتاب « الجمهرة » بياناً مفصلا عن القبائل والبطون البربرية التى نزلت فى شبه الجزيرة ، والنواحى التى نزلت بها . راجع « جمهرة أنساب العرب » ( القاهرة ) ص ٤٦٤ ، ٤٦٥ .

(٣) ويسميها العرب « إيلة » أو أم عاصم . وقال الواقدى ، ونقله ابن عبد الحكم ، إنها كانت ابنة ردريك لا زوجته ( أخبار مصر ص ٢١٢ ) ، وكذا ورد فى البيان المغرب ( ج ٢ ص ٢٢ ) .

الجديدة ، دير « سانتا روفينا » ليكون مقاماً له ولزوجه ، وفيه أجريت أول تعديلات على الطراز العربى ، ووفد عليه المهاجرون من مصر والشأم والعراق وفارس ، فأحيوا بالجزيرة سبل الزراعة والصناعة والتجارة . ولكنه لم يستطع أن يوفق بين مختلف القبائل ، ولا أن يهدئ من فورة الجند . هذا إلى ما ثار من ريب حول مقاصده ونياته ، بانقياده إلى زوجه ، واتخاذه نوعاً من رسوم الملك ، حتى قيل إنه تنصر ، وقيل إنه كان يبغى الملك ويسعى إليه بتحريض زوجه ، ويعمل للاستقلال بإسبانيا(١) .

وهذا ما يراه المستشرق سيمونيت ، إذ يقول إن عبد العزيز بن موسى كان يدبر مشروعاً يرمى إلى الاستقلال بإسبانيا ، وإلى أن يؤسس مملكة أو إمارة مستقلة فوق أنقاض المملكة القوطية ، وقد كان مما يدفعه إلى هذا العزم ، فضلا عن طموحه الشخصى ، تحريض زوجه إيجلونا ، التى كانت تضطرم رغبة فى استرداد تاجها القديم ، وأسباب أخرى تتعلق بالسياسة العليا . ولم يكن يخفى عليه أن سلطان خلفاء المشرق ، غدا قاصراً عن أن يسيطر على هذا القطر الغربى ، الذى كان سكانه الوطنيون أقل انحطاطاً من الأمم الأخرى التى فتحها المسلمون ، والذى كان يقدم إلى الفاتحين بعدده وحضارته مزية عظيمة(٢) . وبالرغم من أنه ليست لدينا أدلة حاسمة على مشروع عبد العزيز بن موسى فى الاستقلال باسبانيا ، فإنه يبدو ممكناً ومعقولا فى الظروف التى كانت تجوزها اسبانيا يومئذ . وعلى أى حال ، فإن خصومه شنوا عليه وعلى تصرفاته دعاية قوية انتهت بالثورة ، فوثب به جماعه من الجند على رأسهم وزيره حبيب بن أبى عبدة الفهرى ، وقتلوه أثناء صلاته بأحد مساجد إشبيلية ، وذلك فى رجب سنة ٩٧ (يناير ٧١٦م) ، وبعثوا برأسه إلى دمشق . ومن المرجح أن يد الخلافة لم تكن بعيدة عن هذه المؤامرة ، وأن سليمان بن عبد الملك هو روحها والمحرض عليها ، فمن المعقول أن يتوجس سليمان ريبة من عبد العزيز ومقاصده ، بعد الذى أنزله بأبيه موسى ، وأن يرى التخلص منه وسيلة لتأمين الخلافة على سلطانها فى ذلك القطر الجديد . وفى اهتمام

(١) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٨ . وراجع C. Julian : ibid, p. 778

(٢) F. J. Simonet : Historia de los Mozarabes de Espana, Vol. I, p. 147

الجناة بإرسال رأس القتيل إلى دمشق اتهام واضح للخليفة . وقد عزل سليمان ، عبد الله بن موسى بن نصير عن إفريقية ، فى نفس الوقت الذى قتل فيه عبد العزيز ، وهو ما يؤيد هذا الفرض أيضاً . والواقع أن أكثر من رواية إسلامية وثيقة يلقى تبعة هذه الجريمة على سليمان ، ويتهمه البعض صراحة بأنه مدبرها ، بل لقد ذهب بعضهم إلى القول بأن سليمان لم يكتف بأن حمل الجناة إليه رأس عبد العزيز ، وأنه عرضها على أبيه موسى زيادة فى إيلامه والتشفى منه[١] ، على أن سليمان لم يعدم من الرواة من يبرئه من ارتكاب هذه الجريمة ، فقد ذكر لنا صاحب « أخبار مجموعة » أن سليمان أسف لمقتل عبد العزيز ، أو بعبارة أخرى أنه برىء من تبعة مقتله ، وهى الرواية الوحيدة من نوعها ، وهى رواية ظاهرة الضعف[٢] .

وعلى أثر مقتل عبد العزيز ، اتفق الزعماء فى إشبيلية على تولية أيوب بن حبيب اللخمى ، وهو ابن أخت موسى بن نصير ، وكان عاقلا صالحاً ، فهدأت الخواطر نوعاً ، ولبث فى ولايته ستة أشهر نقلت خلالها قاعدة الحكم من إشبيلية إلى قرطبة باتفاق الجماعة[٣] . ثم أقاله محمد بن يزيد الذى خلف عبد الله بن موسى فى ولاية إفريقية ، وعين لولاية الأندلس الحر بن عبد الرحمن الثقفى ، فقدمها فى ذى الحجة سنة ٩٧ فى جماعة كبيرة من وجوه إفريقية . وأنفق الحر صدر ولايته فى قمع الفتن والمنازعات التى كانت قائمة بين العرب والبربر ، وإصلاح الجيش ، ومطاردة الخوارج والمعتدين من الجند ، وتنظيم الإدارة وتوطيد الأمن ، وكان صارماً جائراً شديد الوطأة . ثم سار نحو الشمال فى جيش ضخم ليستعيد المدن والحصون الشمالية التى غزاها المسلمون من قبل ، فعبر جبال البرنيه واخترق ولاية سبتمانيا[٤] أو لانجدوك فى ربيع سنة ٧١٨ (٩٩هـ) ، وكانت مدن سبتمانيا قرقشونة

---

(١) راجع ابن عبد الحكم ص ٢١٢ و ٢١٣ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٢ و ٢٣ ؛ وابن الأثير ج ٥ ص ٨ ، وابن القوطية ( ص ٤١ ) وهو صريح فى أن سليمان هو الذى دبر الجريمة وعهد بتنفيذها إلى جماعة معينة من الجند ، وابن خلدون وهو صريح أيضاً فى أن الجريمة تمت بتحريض سليمان ( ج ٤ ص ١١٨ ) .

(٢) راجع أخبار مجموعة ص ٢٢ .

(٣) وهناك رواية أخرى فى أن الذى نقل قاعدة الحكم إلى قرطبة هو الحر الثقفى . راجع البيان المغرب ج ٢ ص ٢٤ و ٢٥ ؛ ونفح الطيب ج ٢ ص ٥٦ .

(٤) سميت كذلك لاحتوائها على المدن السبعة أربونة وقرقشونة وأجدة وبزييه ولوديف وقيمة وماجويلون .

وأربونة وبزييه ونيمة تابعة لمملكة القوط ، وكانت تخلفت عن الطاعة بعد أن غزاها المسلمون لأول مرة بقيادة موسى بن نصير على نحو ما قدمنا . فافتتحها الحر واستولى عليها ، وتابع زحفه حتى ضفاف نهر الجارون . ولكنه اضطر أن يعود أدراجه ، إذ علم أن النصارى فى منطقة نافار الجبلية ( نبّره أو بلاد البشكنس ) ، قد نظموا حركة مقاومة خطيرة ، وأن الأمور قد اضطربت فى قرطبة . وكان النظام قد اختل ، وعادت المنازعات والدسائس تعمل عملها ، فى تقويض الأمن والسكينة ، فأنفق الحر حيناً آخر فى قمع الفتنة ، حتى عزله أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ، فى منتصف سنة مائة لقسوته وصرامته ، واضطراب النظام فى عهده ، فكانت ولايته سنتان وثمانية أشهر ، سادت فيها القلاقل والفتن .

واختار عمر بن عبدالعزيز لولاية الأندلس السَّمْح بن مالك الخولانى . وقرر أن تكون الأندلس ولاية مستقلة عن إفريقية تابعة للخلافة مباشرة ، لما رآه من أهميتها واتساع شئونها ، وكانت إلى ذلك الحين تابعة لعامل إفريقية وإليه تعيين ولاتها . ويقال إن عمر بن عبد العزيز فكر فى إخلاء الأندلس وإجلاء المسلمين قاطبة عنها ، لانقطاعهم بها ، وعزلتهم فيما وراء البحر عن باقى أقطار الخلافة ، فقيل له إن المسلمين قد تكاثروا بها واستقروا ، فعدل عن مشروعه . « قالوا وليت الله تعالى أبقاه حتى يفعل ، فإن مصيرهم مع الكفار إلى بوار إلا أن يستنقذهم الله برحمته »[1] . وقدم السمح إلى الأندلس فى رمضان سنة مائة ( إبريل سنة ٧١٩ ) مزوداً بنصح الخليفة فى أن يتبع الرفق والعدل ، وأن يقيم كلمة الحق والدين . وكان السمح حاكماً وافر الخبرة والحكمة والعقل . فقبض على زمام الأمور بحزم وهمة ، وبادر بقمع المنازعات والفتن ، وإصلاح الإدارة والجيش . وخمس جميع أراضى الأندلس التى فتحت عنوة ، أعنى مسحها وقرر عليها الخراج بنسبة الخمس .

ويقول لنا العلامة ألتاميرا ، فيما يتعلق بتوزيع أراضى الأندلس ما يأتى :

« وقد ترك الفاتحون للإسبان الذين أسلموا أو خضعوا ، سواء أكانوا جنداً

---

( ١ ) أورد هذه الرواية صاحب البيان المغرب ( ج ٢ ص ٢٥ ) ، ونقلها المقرى عن ابن حيان مؤرخ الأندلس ( ج ٢ ص ٥٦ ) ، وأشار إليها ابن الأثير أيضاً ( ج ٥ ص ١٨٢ ) .

أم نبلاء — حقوقهم فى ملكية أملاكهم كلها أو بعضها ، مع فرض ضريبة عقارية عليهم مشابهة للخراج هى ( الجزية ) ، على الأراضى المنزرعة والأشجار المثمرة ، واتبعت هذه القاعدة نحو بعض الأديار ، كما حدث فى الامتياز الذى منح لمدينة « قُلُمرية » ، وأبيح لهؤلاء الملاك فوق ذلك حرية التصرف فى أملاكهم ، وهو حق كان وفقاً للقوانين الرومانية القديمة مقيداً أيام القوط . وأما مازاد عن الخمس فى الأراضى التى استولى عليها الفاتحون ، فقد وزع بين الرؤساء والجند ، وبين القبائل التى يتألف منها الجيش .

« وقد روعى فى توزيع الأراضى أن تخصص الولايات الشمالية ، وهى جلّيقية وليون والأسترياس للبربر ، وأن تخصص الولايات الجنوبية ، أعنى الأندلس للقبائل العربية . وكان يفرض على العمال الملازمين siervos من القوط ، الذين يشتغلون بزرع الأرض ، أن يدفعوا للسيد أو القبيلة المالكة ثلثى أو ثلاثة أخماس المحصول . وكان من أثر ذلك أن تحسنت أحوال المزارعين ، كما أنه أدى فى نفس الوقت إلى تقسيم الملكية وتمزيق الملكيات الكبيرة . كذلك تحسنت حال العبيد ، لأن المسلمين كانوا يعاملونهم بأفضل مما كان الإسبان الرومان والقوط ، ولأنه كان يكفى أن يدخل العبد فى الإسلام ليغدو حراً »[1] .

وأنشأ السمح قنطرة قرطبة الشهيرة ، على نهر الوادى الكبير ، تحقيقاً لرغبة أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ، وأبدى فى جميع أعماله حزماً ورفقاً وعدلا ، فالتف الزعماء حوله ، وخبت الفتنة وهدأت الخواطر ، واستقر النظام والأمن .

وكان السمح فوق كفايته الإدارية جندياً جريئاً وقائداً عظيماً . فلما انتهى من مهمة التنظيم والإصلاح ، تأهب لاستئناف الغزو ، وتوطيد سلطان الخلافة فى الولايات الجبلية ، والقواعد الشمالية ، التى لم يستطع أن يتمم إخضاعها الحر الثقفى . فزحف على لانجدوك (سبتمانيا) فى أواخر سنة ٧١٩ م فى جيش ضخم ، وفى جماعة كبيرة من وجوه الزعماء والقادة ، واخترق جبال البرنيه من الشرق من ناحية روسيون ، واستعاد أربونة وقرقشونة ومعظم قواعد سبتمانيا وحصونها ، وعاث فى تلك الأنحاء ، وشتت كل قوة تصدت لمقاومته . ووقعت هذه الغزوة

---

(١) R. Altamira. Historia de Espana. V. I, p. 217—218

الشاملة فى سنة ٧٢٠ م ( ١٠١ هـ ) . ويقول إيزيدور الباجى إن العرب اجتاحوا يومئذ غاليس القوطية كلها وجميع قواعد سبتمانيا[١] . ثم اتجه السمح بعد ذلك نحو الشرق ليغزو مملكة الفرنج الجنوبية أو أكوتين ، وزحف تواً على قاعدتها تولوشة ( تولوز )[٢] ، وبدأ بذلك النضال بين العرب والفرنج فى بسائط غاليس قوياً رائعاً .

---

(١) Dom Vissette : ibid. V. I. p. 781

(٢) ويسميها ابن عذارى طرسونة ( البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥ ) وهو تحريف ظاهر لأن طرسونة كانت من أعمال تطيلة فى شمال شرق الأندلس ( راجع معجم ياقوت ) .

# الفصل الخامس

## غاليس بين العرب والفرنج

(١) مملكة الفرنج . نزوحهم من الشمال إلى فرنسا . كلوڤيس أول ملوكهم . كلوتير الثانى . داجوبرت . نمو مملكة الفرنج . ضعف سلطان العرش . الزعماء المحليون . محافظ القصر . الأسرة الكارلية . نفوذها وتقدمها فى الرياسة . المعارك الأهلية . قيام إمارة أكوتين . ببين دى هرشتال محافظ القصر . حفيده تودڤالد يخلفه . ولده كارل مارتل ينتزع السلطة لنفسه . الدوق أودو أمير أكوتين . السمح ينزو إمارته . موقعة تولوشة ومقتل السمح . (٢) انتخاب عبد الرحمن الغافقى للرياسة . إخماده للفتنة فى الشمال . ولاية عنبسة بن سحيم الكلبى . رد الأندلس إلى حكومة إفريقية . سير عنبسة إلى الشمال . غزوه لسبتمانيا . استيلاؤه على قرقشونة . غزوه لوادى الرون . تفاهم أودو مع المسلمين . أقوال إيزيدور الباجى . كمين الفرنج لعنبسة ومقتله . تتابع الولاة على الأندلس . عزرة بن عبد الله الفهرى . يحيى بن سلمة الكلبى . عثمان بن أبى نسعة الخثعمى . حذيفة بن الأحوص القيسى . الهيثم ابن عبيد الكلابى . اضطراب شؤون الأندلس . غزو الفرنج لمواقع المسلمين . اجتماع فلول القوط فى جليقيه . إصلاحات الهيثم . عبوره إلى سبتمانيا . غزوه لوادى الرون وبرجونية . ولاية محمد ابن عبد الله الأشجعى . ولاية عبد الرحمن الغافقى الثانية . مواهبه وخلاله . بوادر الثورة فى الشمال . منوسة حاكم الولايات الشمالية . غموض شخصيته . أطماعه ومشاريعه . تفاهمه مع أودو دوق اكوتين وتحالفه معه . اقترانه بلامبيجيا ابنة الدوق . ارتياب عبد الرحمن فى موقفه وتصرفاته . إرساله جيشاً إلى الشمال . فرار منوسة ومقتله وأسر زوجه . مخاوف أودو . تأهب عبد الرحمن للغزوة الكبرى . سيره إلى الشمال . زحفه على مدينة آرل واستيلاؤه عليها . اختراقه لأكوتين . موقعة الدردون وهزيمة الفرنج . استيلاء عبد الرحمن على بوردو . سيره ثانية إلى وادى الرون . استيلاؤه على ليون وبيزانصون وصانص . زحفه غرباً نحو اللوار . أقوال الفيلسوف جيبون .

— ١ —

يجدر بنا قبل أن نمضى فى تتبع الغزوات الإسلامية لتلك الأنحاء ، أن نقول كلمة عن مملكة الفرنج تمهيداً لما سيجىء من لقاء العرب والفرنج وتطور العلائق بينهما . كان الفرنج ( أو الفرنك ) شعبة من القبائل الجرمانية استقرت منذ أواخر القرن الخامس للميلاد ، بين نهر الرين والبحر فى إقليم فلاندر وما إليه ( البلچيك الحديثة ) ، ثم على ضفاف الرين الوسطى والموزل . وفى نهاية القرن الخامس كان زعيم هذه القبائل أمير شجاع مقدام يدعى كلوڤيس بدأ حكمه فى مدينة «تورنى» .

وفى سنة ٤٨٦ م غزا شمال فرنسا وانتزعه من يد الحاكم الرومانى سباجريوس ، وكان قد أقام به دولة مستقلة ، ثم حارب قبائل « الألمانى » القاطنة شرق نهر الرين ، وافتتح أراضيها حتى باڤاريا . وفى سنة ٥٠٧ م حارب كلوڤيس القوط ، وكانوا قد استقروا كما قدمنا فى القسم الجنوبى من فرنسا المسمى بغاليا ( أوغاليس ) وقتل ملكهم ألاريك ، واستولى على الأراضى الواقعة ما بين اللوار والبرنيه ، عدا ولاية سبتمانيا (لانجدوك) التى بقيت فى يد القوط . واعتنق كلوڤيس النصرانية وأذاعها بين قبائله الوثنية ، وجعل باريس مقر ملكه الشاسع ، وبذا قامت مملكة الفرنج القوية أصل فرنسا الحديثة . وتابع أبناء كلوڤيس وخلفاؤه من بعده سياسة الفتح ، وافتتحوا برجونية وأواسط ألمانيا وشمالى إيطاليا . ثم وقعت الحرب الأهلية حيناً بين أمراء الفرنج الذين اقتسموا تراث كلوڤيس ، حتى جاء كلوتير الثانى سنة ٦١٣ م فبسط سلطانه على غاليس كلها ( فرنسا ) [١]، واستأنف الفتح لإخضاع باقى الإمارات الفرنجية الواقعة شرقى الرين . وسار ولده داجوبرت فى أثره ، وجمع كلمة الفرنج تحت لواء واحد ، وغلبت سلطة الفرنج على ألمانيا الغربية ثانية ، وهذبت النصرانية التى جاهد فى إذاعتها الفرنج بين هذه القبائل المتوحشة ، كثيراً من خشونتها ، وقضت على كثير من رسومها الوثنية .

ولكن داجوبرت كان آخر ملك من الفرنج الميروڤنجيـة — أسرة كلوڤيس[٢] — استطاع أن يقبض على زمام السلطة المركزية بيد قوية . ذلك أن نظام الإقطاع والعشائر ، كان يسود هذه المملكة الشاسعة ، وكانت جمهرة من الأمراء والدوقات والكونتات تتقاسم السلطة فى مختلف الولايات والأنحاء ، وكلما ضعف سلطان العرش اشتد نفوذ أولئك الزعماء المحليين .

وكان أولئك الزعماء قد استطاعوا خلال العصور المتعاقبة ، أن يحدوا تباعاً من سلطة العرش ، وأن يحرزوا لأنفسهم كثيراً من الامتيازات والسلطات ، فلما جاء كلوڤيس استطاع بعزمه وصرامته ، أن يقبض على السلطة المركزية بيد قوية ، وأن يبسط على مملكة الفرنج كلها سلطاناً مطلقاً ، واستطاع بعض خلفائه

---

( ١ ) تطلق كلمة غاليس فى الرواية الإسلامية على جنوبى فرنسا ، وهى تعريب حسن لكلمة La Gaule أو Gaulia ( راجع ابن الأثير ج ٤ ص ٢١٣ ) . وتسمى فرنسا أيضاً فى الجغرافية العربية بالأرض الكبيرة .

( ٢ ) The Merovingians ، نسبة إلى مؤسس أسرتهم الملك مرفيج جد كلوڤيس .

حتى داجوبيرت أن يبسطوا مثل هذا السلطان حيناً . ولكن خلفاء داجوبيرت كانوا رجالا ضعاف الخلال والعزائم ، ينغمسون فى نعماء الترف والملاذ ، فضعف سلطان العرش ، وانهارت السلطة المركزية القوية التى كان يقبض عليها ، واسترد الأشراف والزعماء المحليون استقلالهم وامتيازاتهم . هذا إلى أن ما استطاع العرش أن يحتفظ به من السلطات ، امتدت إليه سلطة جديدة فى القصر ذاته ، هى سلطة محافظ القصر . وكان هذا المنصب فى المبدأ متواضعاً ، ليست له أية صفة سياسية أو إدارية ، تقتصر مهامه على النظر فى شئون القصر المنزلية ، ولكنه غدا منذ أوائل القرن السابع ، أعنى منذ أخذت سلطة العرش فى الضعف ، منصباً هاماً ، يتولاه رجال أقوياء يتطلعون إلى السلطان ، وتؤازرهم عصبية الأسرة والثروة ، وأصبح بمضى الزمن أهم مناصب الدولة السياسية والإدارية ، يستأثر صاحبه بكل السلطات الحقيقية ، وإليه منتهى الأمر فى أخطر شئون الدولة ، يباشرها باسم العرش ومن ورائه ، ولا يباشر الملك إلى جانبه غير رسوم الملك الإسمية ، ويلتف حوله الزعماء والأكابر ، ويباشر فى معظم الأحيان سلطة الملك الحقيقية ، خصوصاً إذا كان الملك طفلا قاصراً ، فهو عندئذ يغدو الملك الحقيقى باسم الوصى أو النائب.

وكانت الأسرة الكارلية[1] القوية قد اختصت بهذا المنصب الخطير ، منذ عهد الملك داجوبيرت ، وأخذت تهدد بنفوذها وقوتها مصير الأسرة الميروفنجية الملكية . وكانت أقوى بطون الفرنج فى أوستراسيا ( مملكة الفرنج الغربية ) ، تملك ضياعاً شاسعة ما بين نهرى الرين والموز وتتزعم جماعة النبلاء ، وترعاها الكنيسة لنفوذها وسلطانها ، ويمنح زعيمها محافظ القصر لقب « دوق الفرنج » ، تنويهاً برياسته وسلطانه ، الذى أصبح فوق سلطان العرش . وكان انحلال الأسرة الميروفنجية وانهيار سلطانها على هذا النحو ، سبباً فى تفرق كلمة الفرنج وانحلال الإمبراطورية الفرنجية الشاسعة ، وتطلع الزعماء إلى الاستقلال والرياسة ، أسوة بما انتهى إليه محافظ القصر ؛ فاضطرمت الحرب الأهلية حيناً بين الفرنج فى أوستراسيا والفرنج فى نوستريا ( الفرنج الشرقية ) ، وأسفر هذا الصراع عن استقلال ولاية أكوتين فى غاليا الجنوبية ، وكذا استقلال معظم الولايات الألمانية ، برياسة طائفة من

---

(١) Carlovingians أو Carolingians ، نسبة إلى أعظم ملوكها كارل الأكبر أو الإمبراطور شارلمان .

الأمراء الأقوياء . ثم آل منصب المحافظ فى أواخر القرن السابع إلى أمير مقدام جرىء من الأسرة الكارلية ، هو ببين دى هرشتال ، فحارب الفرنج الخوارج فى فريزيا وسكسونيا وباڤاريا وأخضعهم ، ولبث محافظاً للقصر يحكم مملكة الفرنج فى الشرق والغرب بقوة وعزم ، مدى سبعة وعشرين عاماً ، ثم توفى سنة ٧١٥ م موصياً بمنصبه لحفيده الطفل تودڤالد ، ولد ابنه جريمولد الذى قتل قبل وفاته . وكان لببين ولد آخر من زوجته « ألفايده » ابنة راتبود زعيم فريزيا الوثنى ، هو كارل ( أو شارل ) مارتل ، تركه أبوه فتى قوياً فى نحو الثلاثين من عمره ، وكان من الطبيعى أن يكون هو محافظ القصر بعد وفاة أخويه الكبيرين جريمولد ودروجو. ولكن ببين تأثر بتحريض زوجه الأولى « بلكترود » وأوصى بالمنصب لحفيده ، فكان محافظ القصر طفلا هو تودڤالد ، يحكم مكان الملك الميروڤنجى وهو طفل أيضاً ، بواسطة بلكترود التى عينت وصية على حفيدها . وكان أول ما فعلت بلكترود أن قبضت على كارل مارتل ، وزجته إلى السجن لتأمن شره ومنافسته . ولكن أشراف أوستريا ساءهم أن تتولى الحكم امرأة . فثاروا ونادوا بأحد زعمائهم « راجنفرد » محافظاً للقصر ، ونشبت الحرب بين الفريقين ، وهزم حزب بلكترود ، فارتدت مع حفيدها إلى كلونية ، وقبض راجنفرد على زمام الحكم .

وفى تلك الأثناء فر كارل مارتل من سجنه ، والتف حوله جماعة من أنصار أبيه ، وحارب النوستريين ، فاستغاث راجنفرد بالدوق أودو أمير أكوتين القوى ، فلم يغنه ذلك شيئاً ، وانتهى كارل بأن هزمه ومزق قواته ، واضطره إلى التسليم والصلح . أما بلكترود فقد عقدت الصلح أيضاً ، ونزلت عن كل حقوقها . وغدا كارل منذ سنة ٧٢٠ م محافظاً للقصر لا ينازعه منازع ، يحكم جميع الفرنج فى أوستراسيا ونوستريا[1] .

هكذا كانت مملكة الفرنج حينما عبر المسلمون إلى غاليا أو غاليس ( فرنسا ) لثالث مرة بقيادة السمح بن مالك ، وغزوا ولاية سبتمانيا القوطية ، واستولوا على قواعدها ، وزحفوا على مدينة تولوشة (تولوز) عاصمة أكوتين . وكان أودو

---

( ١ ) راجع فى تاريخ مملكة الفرنج ونشأتها وعصر الأسرتين الميروڤنجية والكارلية :
**Hodgkin : Charles the Great,** وكذلك **Zeller : Histoire de l'Allemagne Ch. VII Ch. II & III**

دوق أكوتين أحد أعضاء الأسرة الميروفنجية ، أقوى أمراء الفرنج فى غاليا وأشدهم بأساً . وكان أثناء الاضطراب الذى ساد مملكة الفرنج ، قد استقل بأكوتين وبسط حكمه على جميع غاليس الجنوبية ، من اللوار إلى البرنيه ، والتف حوله القوط والبشكنس (الناڤاريون) ، وأخذ يطمح إلى انتزاع ملك الفرنج أو ملك أسرته ، ويعد العدة لقتال كارل مارتل المتغلب عليه . ولكنه اضطر أن يشتغل عن مشروعه برد خطر العرب الداهم .

استولى السمح على سبتمانيا وأقام بها حكومة إسلامية ، ووزع الأراضى بين العرب والسكان ، وفرض الجزية على النصارى ، وترك لهم حرية الاحتكام إلى شرائعهم ، ثم زحف نحو الغرب ليغزو أكوتين كما قدمنا ، فقاومه البشكنس والغسقونيون سكان هذه الأنحاء أشد مقاومة . ولكنه مزق جموعهم وقصد إلى تولوشة . وكان الدوق أودو قد جمع فى تلك الأثناء جيشاً ضخماً وسار لرد العرب ، وعلم السمح بذلك فارتد عن مهاجمة تولوشة ليلقى جيش الدوق رغم تفوقه على جيشه فى العدد . والتقى الفريقان بظاهر تولوشة ، ونشبت بينهما معركة هائلة سالت فيها الدماء غزيرة ، وكثر القتل فى الجيشين ، وأبدى المسلمون رغم قلتهم شجاعة خارقة ، وتراوح النصر حيناً بين الفريقين . ولكن السمح سقط قتيلا من فوق جواده ، فاختل نظام الفرسان المسلمين ، ووقع الاضطراب فى الجيش كله ، وارتد المسلمون إلى سبتمانيا بعد أن فقدوا زهرة جندهم ، وسقط منهم عدة من الزعماء الأكابر ، وذلك فى التاسع من ذى الحجة سنة اثنتين ومائة (٩ يونيه سنة ٧٢١ م)[1] .

وعلى أثر مقتل السمح اختار الجيش أحد زعمائه ، عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى للقيادة العامة ، فارتد عبد الرحمن إلى الجنوب تواً ، وأقرته « الجماعة » والياً للأندلس ، حتى يأتى الحاكم الجديد . فلبث فى منصبه فترة وجيزة ، ولكنه استطاع خلالها أن يخمد بوادر الخروج التى ظهرت فى الولايات الجبلية الشمالية ،

---

(١) يضع كوند وهو ينقل عن مصادر عربية إسبانية لم يبينها ، تاريخ الموقعة فى سنة ١٠٣ ﻫ (Conde : ibid. I. p. 72) . ولكن المصادر العربية التى بين أيدينا تجمع كلها على أن الموقعة كانت سنة ١٠٢ ﻫ (نفح الطيب عن ابن بشكوال وابن حيان ج ٢ ص ٥٦ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٥ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١١٨ ) . ومعظم المصادر الفرنجية على أن الموقعة كانت سنة ٧٢١ م (١٠٢ ﻫ) متفقة بذلك مع الرواية الإسلامية . راجع Dom Vissette : ibid ; I. p. 781 & 784

وأن يستبقي الجزية على أربونة وغيرها من قواعد سبتمانيا . ولبث يخمد الفتن ، ويصلح الأمور حتى قدم عنبسة بن سحيم الكلبي ، الذى اختاره بشر بن صفوان الكلبي والى إفريقية ، والياً للأندلس . وكان الخليفة عمر بن عبد العزيز قد جعل الأندلس ولاية مستقلة كما قدمنا ، تتبع الخلافة مباشرة . ولكن خلفه يزيد بن عبد الملك لم يقر هذا التعديل ، فعادت الأندلس تابعة فى إدارتها لإفريقية كما كانت . وقدم عنبسة بن سحيم الكلبي إلى الأندلس فى صفر سنة ١٠٣ . وأنفق حيناً فى تنظيم الإدارة ، وضبط النواحى ، وإصلاح الجيش ، وإعداده لغزوات جديدة . وفى أوخر سنة ١٠٥ هـ ( أوائل سنة ٧٢٤ م ) سار عنبسة فى الجيش إلى الشمال غازياً ، وعبر جبال البرنيه[1] مرة أخرى ، وغزا سبتمانيا التى فقد المسلمون كثيراً من معاقلها ، منذ هزيمة تولوشة ، واستولى على قرقشونة ونيمة وما بينهما من القواعد ، وارتد القوط عن محالفة الفرنج إلى محالفته . وتابع زحفه شمالا فى وادى الرون ونفذ إلى برجونية حتى مدينة أوتون فغزاها وخربها ( أغسطس سنة ٧٢٥ م ) ، ثم غزا مدينة صانص . وخشى أودوق أكوتين أن يهاجمه المسلمون مرة أخرى ، فسعى إلى مفاوضتهم ومهادنتهم . وبسط المسلمون سلطانهم قوياً فى شرق جنوبى فرنسا . وفى ذلك يقول إيزيدور الباجى : « كان نجاح عنبسة راجعاً إلى الجرأة والبراعة ، أكثر منه إلى القوة والكثرة . وكان لينه ورفقه وحسن معاملته للسكان ، عاملا فى تقوية سلطان الإسلام فى جنوبى فرنسا » . ولكن قضى نكد الطالع أن ينكب المسلمون مرة أخرى . فإن عنبسة حين عوده إلى الجنوب ، داهمته قبل أن يجتمع إليه جميع جيشه ، جموع كبيرة من الفرنج ، فأصيب أثناء الموقعة التى نشبت بجراح بالغة توفى على أثرها ، وذلك فى شعبان سنة ١٠٧ هـ ( ديسمبر سنة ٧٢٥ ) ، فارتد الجيش إلى الداخل ، وعاد الاضطراب إلى الجزيرة مرة أخرى .

---

( ١ ) يحسن بنا أن نشير هنا إلى أن بعض الكتاب والباحثين يسمون جبال البرنيه خطأً بجبال « البرانس » . ذلك لأن جبال البرنيه تسمى فى الجغرافية العربية حسبما قدمنا بجبال البرت أو البرتات . أما جبال « البرانس » فهى سلسلة أخرى من الجبال الإسبانية ، تقع شرقى ماردة ، وجنوبى طليطلة ، وهى التى تعرف فى الجغرافية الحديثة بجبال المعدن **Sierra de Almaden** ، لوقوعها على مقربة من مدينة « المعدن » . وسميت فى الجغرافية العربية « بالبرانس » نسبة لقبيلة البرانس البربرية ، التى كان منزلها فى الأندلس على مقربة من هذه الجبال ( راجع البيان المغرب ج ٢ ص ١٤٣ و ١٦٣ حيث يشير إلى الحملات التى جردت لمقاتلة الثوار فى منطقة جبال البرانس ) .

وتوالى على الأندلس مدى الأعوام الخمسة التى تلت وفاة عنبسة ، ستة ولاة أولهم عزرة بن عبد الله الفهرى[1] ، الذى تولى قيادة الجيش عقب وفاة عنبسة ، فلبث فى منصبه شهرين فقط . ثم يحيى بن سلمة الكلبى ، ولاه بشر بن صفوان عامل إفريقية ، فقدم الأندلس فى شوال سنة ١٠٧ ، وامتد حكمه عامين ونصف لم تقع فيهما حوادث أو غزوات تذكر . ثم توفى بشر بن صفوان ، وخلفه فى ولاية إفريقية عبيدة بن عبد الرحمن السلمى ، فولى على الأندلس عثمان بن أبى نسعة الخثعمى ، فقدمها فى شعبان سنة ١١٠ ، ولبث فى منصبه ستة أشهر فقط ثم عزل ، وخلفه حذيفة بن الأحوص القيسى فلم تطل ولايته سوى أشهر أيضاً ، فخلفه الهيثم ابن عبيد الكلابى أو الكنانى ، ولاه أيضاً عبيدة السلمى عامل إفريقية ، فقدم الأندلس فى المحرم سنة ١١١ هـ . وكان تتابع الولاة على هذا النحو سبباً فى تفاقم الخلل والاضطراب فى شئون الجزيرة ، وتفاقم الخلاف بين الزعماء والقبائل . وكان تخلف المسلمين عن الغزو من جهة أخرى مشجعاً للفرنج على مهاجمة القواعد الشمالية ، مشجعاً للخوارج من القوط والبشكنس على تنظيم قواتهم . وكان أخطر أولئك الخوارج شراذم القوط التى لجأت كما أسلفنا إلى قاصية جليقية ، واجتمعت هناك حول زعيم يدعى بلايو أو بلاى ، ولم يعن الولاة بتتبعها والقضاء عليها ، إما احتقاراً لشأنها أو لوعورة الجبال التى امتنعت بها ، ففى أثناء اضطراب الشئون وانشغال الولاة ، كانت هذه الشراذم تنمو وتشتد داخل هضابها النائية ، وكانت هى نواة هذه المملكة النصرانية القوية التى نشأت سراعاً ، واشتد ساعدها ، حتى غدت قبل قرن تنافس الإسلام وتنازعه سيادة اسبانيا .

فلما ولى الهيثم حاول أن يقمع الفوضى ، وأن يرد النظام . وكان الهيثم حازماً قوى العزم ، ولكن صارماً شديد الوطأة ، فطارد الشغب والفوضى بشدة ، واضطهد معظم الزعماء والمخالفين له فى الرأى ، وبالأخص اليمنية ، وتتبع كثيرين منهم بالسجن والمطاردة ، وقاد حملة ضد « منوسة » وهو حسبما نوضح بعد زعيم بربرى غامض الشخصية ، كان حاكماً لمنطقة الأستورياس وظهرت منه أعراض التمرد ، ولكنه لم يوفق إلى القضاء عليه . ثم سار فى الجيش إلى الشمال ليقمع

---

(١) يرى بعض المؤرخين أن عزرة لم يكن من ولاة الأندلس ، أو أن ولايته كانت غير رسمية ( المقرى عن ابن بشكوال ج ٢ ص ٥٧ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٦ ) .

أعراض الثورة التى بدأت فى الولايات الجبلية ، وليستأنف الغزو ؛ فعبر البرنيه ، واخترق سبتمانيا إلى وادى الرون وغزا ليون (لوذون) وماسون[١] وشالون الواقعة على نهر الساؤون ، واستولى على أوتون وبون ، وعاث فى أراضى برجونية الجنوبية . ولكن هذا الفتح الكبير لم يكن ثابت الأثر ، فقد أدى اختلاف القبائل وتمرد البربر إلى تفكك الجيش الفاتح ، وإلى تخلف المدن المفتوحة عن قبضة الفاتحين. فعاد الهيثم إلى الجنوب ، ولم يلبث أن توفى بعد أن حكم الأندلس مدى عامين ، فاختارت « الجماعة » مكانه محمد بن عبد الله الأشجعى حتى يعين الوالى الجديد[٢] ، فلبث فى منصبه شهرين ، حتى عين عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى والياً للأندلس ، عينه عبيدة بن عبد الرحمن السلمى والى إفريقية بمصادقة الخليفة هشام بن عبد الملك فى صفر سنة ١١٣ هـ ( إبريل سنة ٧٣١ )[٣] فكانت ولايته الثانية . وكانت ولايته الأولى سنة ١٠٣ هـ على أثر مقتل السمح كما قدمنا . وكان عبد الرحمن جندياً عظيماً ظهرت مواهبه الحربية فى غزوات غاليا ، وحاكماً قديراً بارعاً فى شئون الحكم والإدارة ، ومصلحاً كبيراً يضطرم رغبة فى الإصلاح ، بل كان بلا ريب أعظم ولاة الأندلس وأقدرهم جميعاً . وتجمع الرواية الإسلامية على تقديره والتنويه برفيع خلاله ، والإشادة بعدله وحلمه وتقواه[٤] . فرحبت الأندلس قاطبة بتعيينه

---

( ١ ) لعل ماسون هى التى يسميها ابن عذارى منوسه ( راجع البيان المغرب ج ٢ ص ٢٧ ) .

( ٢ ) يقدم كوندى رواية أخرى عن مصير الهيثم ، فيقول إن أمر عسفه وجوره نمى إلى الخليفة هشام بن عبد الملك ، فانتدب محمد بن عبد الله الأشجعى للتحقيق معه . فلما تحقق صحة التهم المنسوبة إليه عزله وسجنه وصادر أمواله ، وأطلق الذين اعتقلهم ظلماً . ويقول كوندى أيضاً إن الأشجعى هو الذى اختار عبد الرحمن الغافقى لولاية الأندلس ، لما تحقق من شجاعته وحزمه بتفويض لديه من الخليفة **Conde. ibid. V.I.p.81)** . ويأخذ دوزى بهذه الرواية **(Hist.V.I.p.137)** . وكوندى يستق روايته من بعض المصادر العربية الإسپانية ، ولكنه لا يعين هذه المصادر . على أن المصادر العربية التى أمامنا تجمع على أن ولاية الهيثم اختتمت بوفاته ، وأن الأشجعى خلفه باختيار الجماعة ( البيان المغرب ج ٢ ص ٢٧ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ٥٨ عن ابن بشكوال ، وابن خلدون ج ٤ ص ١١٩ ) .

( ٣ ) تختلف الرواية الإسلامية فى تاريخ ولاية عبد الرحمن ، فيقول الضبى إن تعيينه كان فى حدود سنة ١١٠ هـ ( بغية الملتمس رقم ١٠٢١ ) ، وكذا ابن بشكوال ( نفح الطيب ج ٢ ص ٥٦ ) . ويقول ابن عذارى إنه كان فى صفر سنة ١١٢ ( ج ٢ ص ٢٨ ) ، وابن حيان إنه كان فى صفر سنة ١١٣ ( نفح ج ٢ ص ٥٦ ) . وهى أرجح رواية فيما نعتقد وبها أخذنا لاتفاقها مع سير تواريخ الولاة المتقدمين .

( ٤ ) راجع ابن عبد الحكم ص ٢١٦ ، ٢١٧ و وبغية الملتمس رقم ١٠٢١ ، والحميدى فى جذوة المقتبس ص ٦ و ٢٥٥ .

وأحبه الجند لعدله ورفقه ولينه ، وجمعت هيبته كلمة القبائل ، فتراضت مضر وحمير ، وعاد الوئام نوعاً فى الإدارة والجيش ، واستقبلت الأندلس عهداً جديداً.

وبدأ عبدالرحمن ولايته بزيارة الأقاليم المختلفة فنظم شئونها ، وعهد بإدارتها إلى ذوى الكفاية والعدل ، وقمع الفتن والمظالم ما استطاع ، ورد إلى النصارى كنائسهم وأملاكهم المغصوبة ، وعدل نظام الضرائب وفرضها على الجميع بالعدل والمساواة ، وقضى صدر ولايته فى إصلاح الإدارة ، ومعالجة ماسرى إليها فى عهد أسلافه من عوامل الاضطراب والخلل . وعنى بإصلاح الجيش وتنظيمه عناية خاصة ، فحشد الصفوف من مختلف الولايات ، وأنشأ فرقاً قوية مختارة من فرسان البربر ، بإشراف نخبة من الضباط العرب ، وحصن القواعد والثغور الشمالية ، وتأهب لإخماد كل نزعة إلى الخروج والثورة(١) .

وكانت الثورة فى الواقع توشك أن تنقض فى الشمال ، وبطلها فى تلك المرة زعيم مسلم هو حاكم الولايات الشمالية . فمن هو ذلك الزعيم الثائر ؟ إن الرواية الإسلامية تلزم الصمت إزاء شخصية هذا الزعيم ، وإزاء الحوادث التى اقترنت باسمه . وكل ما هنالك أن صاحب البيان المغرب يقول لنا فى حديثه عن ولاية الهيثم بن عبيد الكنانى « وهو الذى غزا منوسة »(٢). ثم يردد المقرى هذه العبارة فى قوله مشيراً أيضاً إلى الهيثم « وغزا أرض منوسة فافتتحها »(٣) . ويبدو لأول وهله من استقراء هاتين الإشارتين القصيرتين ، أن « منوسة » تنصرف فيما يرجع إلى المكان ، ومنوسة قد تكون مدينة « ماسون » وهى التى غزاها الهيثم ضمن غزواته فى أرض فرنسا . ولكن معظم الروايات النصرانية والفرنجية المعاصرة ، تحدثنا فى نفس الوقت عن شخصية زعيم مسلم يدعى Munuza « منوزا » أو Munez « مونز » ، وهو كما يبدو مطابق لاسم « منوسة » ، وتسرد لنا سلسلة من الحوادث الهامة التى اقترنت باسمه . وفى موطن واحد فقط تقول الرواية النصرانية إن منوسة كان زعيماً نصرانياً من زعماء منطقة الأستورياس ، وأنه كان حاكماً لمدينة خيخون(٤) . ولنسلم نحن بهذه المطابقة بين الإسمين ،

---

(١) Conde; ibid V. I. p. 82 & 83

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٧

(٣) نفح الطيب ج ١ ص ١٠٩ .

(٤) Crónica General : Vol. I. p. 319 & V. II. p. 324

فنقول إن منوسة ، كان وفقاً لأقوال هذه الروايات النصرانية والفرنجية ، زعيماً مسلماً يحكم بعض ولايات البرنيه الغربية وسبتمانيا فيما وراء البرنيه باسم حكومة الأندلس ، وذلك حوالى سنة ٧٢٥ إلى سنة ٧٣٠ م[١] . وكان الدوق أودو أمير أكوتين منذ اجتاح المسلمون أراضيه ، ورأى خطر الفتح الإسلامى يهدد ملكه يسعى إلى مهادنة المسلمين والتقرب من حكومة الأندلس ، ويحاول فى نفس الوقت أن يجمع الحلفاء من حوله لمقاومتها إذا اقتضى الأمر . فلما تولى منوسة حكم الولايات الشمالية . وهى تجاور أكوتين من الشرق والجنوب ، سعى الدوق إلى التفاهم معه . وكان منوسه كما تصفه الرواية النصرانية المعاصرة ، زعيماً قوى المراس ، كثير الأطماع ، نافذ الهيبة فى هاتيك الوهاد ، ولم يكن على اتفاق مع حكومة الأندلس . ذلك أنه كان من أقطاب البربر الذين عبروا الأندلس مع طارق بن زياد[٢] ؛ وقد سبق أن شرحنا عوامل الخلاف بين العرب والبربر ، وكيف حقد البربر على العرب لاستئثارهم بمغانم الفتح والرياسة .

وعلى ضوء هذه التفاصيل ، نعود فنتساءل من يكون « منوسة » ؟ هل يكون هو عثمان بن أبى نسعة الخثعمى الذى ولى إمارة الأندلس قبل ذلك بثلاثة أعوام حسبما قدمنا ، ولم يطل أمد ولايته سوى أشهر قلائل ؟ وهل يكون اسم « منوسة » Munuza تحريفاً نصرانياً للقب « نسعة » العربى ؟ إذا صح أن منوسة كان زعيماً بربرياً كما تصفه الروايات النصرانية المعاصرة ، وهى وحدها مصدر التعريف عنه ، فيكون من المشكوك فيه إذن أن يكون منوسة ، هو عثمان ابن أبى نسعة الخثعمى والى الأندلس[٣] . ذلك أن عثمان بن أبى نسعة كان زعيماً

---

(١) ويقول ألتاميرا إن « منوسه » **Munuza** هو الحاكم البربرى الذى تركه موسى ابن نصير فى خيخون فى منطقة الأستورياس وكان حاكماً لمدينة أوفيدو ، وأنه أى منوسة قد اضطر عقب فشله فى القضاء على بلايو الزعيم القوطى ، وهزيمته فى موقعة كوفادونجا أن يخلى منطقة الأستورياس . راجع : **Altamira : ibid, T. I. p. 221—223**

(٢) هذه هى رواية إيزيدور الباجى وقد نقلتها بعض الروايات النصرانية المتأخرة ؛ راجع **Dozy:Histoire,V.I.p. 160 et notes** و **Dom Viseette : ibid, V.I. p. 794 & II. p.129**

(٣) كنت من قبل أعتقد كبعض الباحثين أن « منوزا » ( منوسة ) هو تحريف لاسم ابن أبى نسعة ؛ وأنهما اسمان لشخص واحد . وهذا ما يقوله فى الواقع يوسف كوندى (**V, I. p. 80**) . ولكنى أصبحت بعد الذى قرأته من مختلف التفاصيل والتعليقات التى أوردتها الروايات النصرانية المعاصرة ، وبعد مقارنتها بأقوال الرواية الإسلامية عن ابن أبى نسعة ، أشك فى صواب هذا الرأى . والمرجح كما يبدو من مختلف الشروح المتقدمة أن منوسة كان فعلا من زعماء البربر المتمردين على حكومة قرطبة .

عربياً ينتسب إلى خثعم إحدى البطون العربية العريقة[1] ، ولم يفز بإمارة الأندلس فى تلك الفترة سوى زعماء العرب ، ولم تسند إلى أحد من البربر . هذا إلى أن الرواية الإسلامية تقدم إلينا عن مصير عثمان بن أبى نسعة رواية أخرى غير التى تقدمها إلينا الرواية النصرانية عن مصير «منوسة» ، فهى تقول لنا ان أبن ابى نسعة ولى الأندلس فى شعبان سنة ١١٠ هـ (٧٢٨م) واستمرت ولايته خمسة أشهر أو ستة ثم عزل ، وانصرف إلى القيروان فمات بها[2] . أما « منوسة » فقد مات محارباً ، ومات قتيلا كما سنرى .

وعلى أى حال فقد تفاهم دوق أكوتين ومنوسة ، وقوت المصاهرة بينهما أواصر الصداقة والتحالف. ذلك أنه كانت للدوق ابنة رائعة الحسن تدعى لامبجيا ( أو منينا أو نومبرانا على قول بعض الروايات ) فرآها منوسة أثناء بعض رحلاته فى أكوتين أو أنه أسرها فى بعض غاراته عليها . تقول الرواية : « وكانت لامبجيا أجمل امرأة فى عصرها ، كما كان منوسة أقبح رجل فى عصره ، وكانت نصرانية متعصبة ، ولكن أطماع الوالد غلبت على كل شىء ، فارتضى مصاهرة الزعيم المسلم » .

وكما يحيط الغموض بشخصية منوسة ، فكذلك يحيط بشخصية لامبجيا وظروف زواجها من الزعيم المسلم ، فتقول الرواية مثلا ، إن منوسة بعد أن أسر لامبجيا ، وشغف بها حبا وتزوج بها ، حمل بتأثيرها ونفوذها على محالفة أبيها الدوق ومناوأة حكومة الأندلس ، وتقول أيضاً إن ابنة الدوق أكوتين التى تزوجها منوسة لم تكن لامبجيا التى اشتهرت بفائق حسنها ، بل كانت أختها « منينا » التى كانت من قبل زوجة لفرويلا القوطى أمير أستورية ، كما تورد لنا غير ذلك من الأنباء والتفاصيل التى يقع معظمها فى حد الأساطير[3].

وهكذا اجتمعت عوامل الحب والسياسة لتوثيق عرى التحالف بين الزعيم المسلم وبين الدوق أودو . وكان أودو ، فضلا عما يهدده من خطر الغزو الإسلامى ، يخشى بأس خصمه القوى كارل مارتل زعيم الفرنج ، وكذا كان كارل مارتل

---

(١) راجع نفح الطيب ج ١ ص ١٣٩ .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٨ .

(٣) راجع خلاصة الروايات النصرانية والفرنجية فى موسوعة **Bayle V. IV.** والتعليقات .

ينقم على أودو نفوذه واستقلاله بالجنوب ، وقد غزا بالفعل أكوتين غير مرة وهزم أميرها . فكان أودو فى الواقع بين نارين ، يخشى الفرنج من الشمال ، والعرب من الجنوب . وكانت جيوش كارل مارتل تهدده وتعيث فى أرضه (سنة ٧٣١) فى نفس الوقت الذى سعى فيه منوسة إلى محالفته ، والاستعانة به على تنفيذ مشروعه فى الخروج على حكومة الأندلس ، والاستقلال بحكم الولايات الشمالية . وقد رأى منوسة اكتساباً للوقت وكتماناً لحقيقة مشروعه ، أن يسبغ على محالفته مع الدوق صفة هدنة عقدت بينه وبين الفرنج ، ولكن عبد الرحمن أمير الأندلس ارتاب فى أمر الثائر ونياته ، وأبى إقرار الهدنة التى عقدها . وعندئذ كشف منوسة القناع ، وأعلن الثورة ، فأرسل عبد الرحمن إلى الشمال حملة قوية بقيادة ابن زيان لتأديب الزعيم الثائر ، والتحوط لسلامة الولايات الشمالية ، فاستعصم منوسة بمواقعه الجبلية ، وتحصن فى عاصمة إقليمه « مدينة الباب »[١] ، الواقعة على منحدر جبال البرنيه ، وكان يظن أنه يستطيع أن يتحدى الجيش الإسلامى ، وأن يعتصم بالصخر ، كما اعتصم به الزعيم القوطى « بلاجيوس » (بلايو) ولكنه كان مخطئاً فى تقديره ، فقد نفذ ابن زيان بجيشه إلى مدينة الباب ، وحاصر الثائر فى عاصمته ، ففر منها إلى شعب الجبال الداخلية ، فطارده ابن زيان من صخرة إلى صخرة ، حتى أخذ وقتل مدافعاً عن نفسه ، وتحطمت أطماعه ومشاريعه (١١٣ هـ — ٧٣١ م)[٢] ، وأسرت زوجه الحسناء لامبجيا ، وأرسلت إلى بلاط دمشق ، فاستقبلها الخليفة ( هشام بن عبد الملك ) بحفاوة وإكرام ، وزوجت هنالك من أمير مسلم لا تذكر لنا الرواية اسمه[٣] .

---

( ١ ) واسمها بالقشتالية **Ciudad de la Puerta** ، وقد كانت تقع على أحد ممرات البرنيه وتسمى أحياناً « بويكاردا » .

( ٢ ) تمر الرواية الإسلامية على هذه الحوادث كلها بالصمت كما قدمنا ، ولا تذكر لنا أى تفصيل أو لمحة تلقى الضياء على شخصية منوسة ؛ ويوافق دوزى على أن منوسة **Munuza** هو اسم للزعيم البربرى المتقدم الذكر . راجع : **Dozy : Histoire V.II. p. 129 & note,** ؛ وكذلك **Lévy-Provençal : Hist. de l'Espagne Musulmane (1944) p.43 & note.**

( ٣ ) **Dom Vissette : ibid, I. p. 764** . وتحيط الرواية سيرة لامبجيا وزوجها بكثير من القصص الخيالية الشائقة ، التى اتخذت فيما بعد مستقى لخيال بعض الشعراء والكتاب . غير أن معظم هذه القصص لا يخرج عن حد الأساطير .

هذا ، وهناك فى شأن «منوسة» وزوجه رواية أخرى ، أوردها الحبر ماريانا كبير مؤرخى إسبانيا ، فقد ذكر أن منوسة كان زعيماً نصرانياً اختاره المسلمون لحكم المنطقة الواقعة غربى البرنيه ، ولكنه كان صارماً يشتد فى معاملة النصارى ، وأنه كانت للدون بلاجيوس زعيم جليقية القوطى أخت بارعة الحسن ، شغف بها منوسة حباً ، ولكن بلاجيوس لم يوافق على زواجها منه ، فاحتال منوسة ، وبعثه فى مهمة إلى قرطبة ، وأسر الأميرة أثناء غيبته وتزوج بها قسراً ، فأسر بلاجيوس وأخته هذه الإهانة ، ولبثا يرقبان الفرص حتى استطاعت الأميرة فراراً من أسرها وسارت مع أخيها إلى جبال جليقية حيث اعتصم بلاجيوس مع أنصاره ، وأعلن الخروج والثورة ، فأخطر منوسة حكومة قرطبة ، فأرسلت حملة لتأديب الثائر بقيادة « علقمة » . ولكن بلاجيوس استطاع مع أنصاره القلائل ، أن يعتصم بشعب الجبال ، فارتد المسلمون منهزمين ، وقتل علقمة ، وارتاع منوسة لفوز خصمه ، وخشى انتقام مواطنيه ، فحاول الفرار إلى الجنوب ، ولكنه وقع فى يد شرذمة من الفلاحين النصارى فقتلوه ، ويضع ماريانا تاريخ هذه الحوادث فى سنة ٧١٨ م[1] .

ولكن رواية ماريانا هذه ظاهرة الضعف ، أولا لأنه ليس بمعقول أن تعهد حكومة الأندلس المسلمة بحكم ولاية من ولاياتها إلى زعيم نصرانى . وثانياً لأن هذه الرواية تخالف فى مجموع تفاصيلها كل ما كتبته الروايات المعاصرة عن شخصية منوسة ، وعن مصاهرته لأمير أكوتين . وثالثاً لأن تاريخ هذه الحوادث متأخر عن التاريخ الذى يعينه ماريانا بأكثر من عشرة أعوام .

ولما قتل منوسة ، وانهارت مشاريعه ، ورأى أودو ما حل بحليفه ، واستشعر الخطر الداهم تأهب للدفاع عن مملكته ، وبدأ الفرنج والقوط فى الولايات الشمالية بالتحرك لمهاجمة المواقع الإسلامية . وكان عبد الرحمن يتوق إلى الانتقام لمقتل السمح وهزيمة المسلمين عند أسوار تولوشة ، ويتخذ العدة منذ بدء ولايته لاجتياح مملكة الفرنج كلها . فلما رأى الخطر محدقاً بالولايات الشمالية ، لم ير بدا من السير إلى الشمال ، قبل أن يستكمل كل أهبته . على أنه استطاع أن يجمع أعظم جيش سيره

(١) Mariana فى تاريخ إسبانيا العام — الترجمة الفرنسية ج ٣ ص ٥ وما بعدها .

المسلمون إلى غاليس (فرنسا) منذ الفتح . وفى أوائل سنة ٧٣٢ م ( أوائل سنة ١١٤ هـ ) سار عبد الرحمن إلى الشمال مخترقاً ولاية أراجون ( الثغر الأعلى ) ونافار ( بلاد البشكس ) وعبر البرنية من طريق بنبلونة ، ودخل فرنسا فى ربيع سنة ٧٣٢ م ، وزحف تواً على مدينة آرل الواقعة على نهر الرون ، لتخلفها عن أداء الجزية ، واستولى عليها بعد معركة عنيفة ، نشبت على ضفاف النهر بينه وبين قوات الدوق أودو . ثم زحف غرباً وعبر نهر الجارون ، وانقض المسلمون كالسيل على ولاية أكوتين[1]، يثخنون فى مدنها وبسائطها ، فحاول أودو أن يقف زحفهم ، والتقى الفريقان على ضفاف نهر الدردون ، فهزم الدوق هزيمة فادحة ، ومزق جيشه شر ممزق . قال إيزيدور الباجى : « والله وحده يعلم كم قتل فى تلك الموقعة من النصارى » . وطارد عبد الرحمن جيش الدوق حتى عاصمته بوردو ( بردال ) . واستولى عليها بعد حصار قصير[2] ، وفر الدوق فى نفر من صحبه إلى الشمال ، وسقطت أكوتين كلها فى يد المسلمين . ثم ارتد عبد الرحمن نحو الرون كرة أخرى واخترق الجيش الإسلامى برجونية واستولى على ليون وبزانصون[3]، ووصلت سرياته حتى صانص ، التى تبعد عن باريس نحو مائة ميل فقط . وارتد عبد الرحمن بعد ذلك غرباً إلى ضفاف اللوار ليتم فتح هذه المنطقة ثم يقصد إلى عاصمة الفرنج[4].

---

( ١ ) كانت إمارة أكوتين فى ذلك الحين تمتد بين نهر الرون شرقاً وخليج غسقونية (بسكونية) غرباً ، وبين نهر اللوار شمالا ونهر الجارون جنوباً ، وتشمل من مقاطعات فرنسا الحديثة جويان وبيرجور وسانتونج وبواتو وڤنده وجزءاً من أنجو .

( ٢ ) Dom Vissette : Ibid, I. p. 795

( ٣ ) وهى مسقط رأس الشاعر الفرنسى الأشهر ڤكتور هوجو .

( ٤ ) يقدم المستشرق كاردون شرحاً آخر لسير عبد الرحمن ، فيقول إنه زحف أولا على آرل وحاصرها فبادر الكونت إلى إنجادها ، فلقيه عبد الرحمن وهزمه وألجأه إلى الفرار ، ثم عبر عبد الرحمن نهر الجارون واستولى على بوردو . وكان الكونت قد جمع جيشاً جديداً وحاول رده فهزم مرة أخرى ، ثم اخترق عبد الرحمن بيرجور وسانتونج وبواتو وهو يثخن فى تلك الأنحاء حتى انتهى إلى تور Cardonne : Hist. de L'Afrique et de L'Espagne -I-129 ولكن عبد الرحمن اقتحم وادى الرون أيضاً كما بينا ، وقد شرحنا سيره طبقاً لجميع الروايات مجتمعة ، وطبقاً للمواقع الجغرافية التى تتعلق بهذه الغزوة . وقد يكون أن عبد الرحمن لم يسر بنفسه شمالا نحو برجونية ، ولكن الجيش الإسلامى اقتحم هذه الأنحاء بلا ريب .

وتم هذا السير ، وافتتح نصف فرنسا الجنوبى كله من الشرق إلى الغرب ، فى بضعة أشهر فقط. قال إدوارد جيبون : « وامتد خط الظفر مدى ألف ميل من صخرة طارق إلى ضفاف اللوار . وقد كان اقتحام مثل هذه المسافة يحمل العرب إلى حدود بولونيا وربى اسكتلندا . فليس الرّين بأمنع من النيل أو الفرات ، ولعل أسطولا عربياً كان يصل إلى مصب التيمز دون معركة بحرية ، بل ربما كانت أحكام القرآن تدرس الآن فى معاهد أكسفورد ، وربما كانت منابرها تؤيد لمحمد صدق الوحى والرسالة» .

Gibbon : ibid, Ch-LII (١)

# الفصل السادس

## بلاط الشهـــداء

معركة الإسلام والنصرانية . تحول هذه المعركة إلى سهول فرنسا . العرب والفرنج على أطلال الدولة الرومانية . حلول الفرنج فى فرنسا . خواص المجتمع الفرنجى . انحلال عصبيته بالاستقرار . تفككه وتنافره . خطر القبائل الجرمانية الوثنية . الدولة الإسلامية . انتظامها وتماسكها . تفرق الفرنج . سيل الفتح الإسلامى . عبد الرحمن الغافقى وجيشه . كيف يصوره الشاعر سوذى . اختراق عبد الرحمن لفرنسا . موقف الدوق أودو . كارل مارتل محافظ القصر . تمهله فى لقاء العرب . ما تقوله الرواية فى ذلك . التجاء أودو إلى كارل . مسير كارل للقاء العرب . اجتياح العرب لأكوتين . أين التق العرب والفرنج . هجوم المسلمين على مدينة تور . وصول الفرنج إلى اللوار . ارتداد عبد الرحمن إلى ما وراء النهر . حالة الجيش الإسلامى . وفرة غنائمه وخطرها على نظامه . بدء القتال . المعارك المحلية . المعركة العامة . مهاجمة الفرنج لمعسكر الغنائم . ارتداد الفرسان المسلمين لحمايته . اختلال نظام المسلمين. مقتل عبد الرحمن الغافقى . الذعر فى الجيش الإسلامى . رجحان كفة الفرنج . افتراق الجيشين . الخلاف فى القيادة الإسلامية . تقرير الانسحاب . ارتداد المسلمين إلى الجنوب . توجس كارل مارتل . أقوال الرواية الكنسية . مبالغتها فى التقدير والتصوير . وصفها لحوادث اللقاء الحاسم . صمت الرواية الأندلسية . وصفها لحوادث الغزوة الإسلامية . وصفها للجيش الإسلامى . حديثها عن الموقعة الحاسمة . أقوال المستشرق كاردون . تحفظ الرواية الإسلامية ومغزى هذا التحفظ . بلاط الشهداء . لون الموقعة الدينى . أقوال المؤرخين المسلمين عنها . موقف الرواية النصرانية . مبالغتها فى تصوير هزيمة المسلمين وتقدير خسائرهم . ما يدحض هذا الإغراق . إحجام الفرنج عن مطاردة العرب . خسارة المسلمين بمقتل عبد الرحمن . النقد الحديث وبلاط الشهداء . كيف ينوه بأهميتها فى خلاص النصرانية من سلطان الإسلام . تأملات .

أجل ، كان اللقاء الحاسم بين الإسلام والنصرانية ، وبين الشرق والغرب على وشك الوقوع . وكان اجتياح الإسلام للعالم القديم سريعاً مدهشاً ، فإنه لم يمض على وفاة النبى العربى نصف قرن ، حتى سحق العرب دولة الفرس الشامخة ، واستولوا على معظم أقطار الدولة الرومانية الشرقية ، من الشام إلى أقاصى المغرب ، وقامت دولة الخلافة قوية راسخة الدعائم فيما بين السند شرقاً والمحيط غرباً ، وامتدت شمالا حتى أواسط آسيا الصغرى . وكانت سياسة الفتح الإسلامى منذ توطدت دولة الإسلام ، ترمى إلى غاية أبعد من امتلاك الأقطار ، وبسطة السلطان والملك . فقد كان الإسلام يواجه فى الأقطار التى افتتحها من العالم القديم أنظمة

راسخة مدنية واجتماعية ، تقوم على أصول وثنية أو نصرانية . وكانت النصرانية قد سادت أقطار الدولة الرومانية منذ القرن الرابع . فكان على الخلافة أن تهدم هذا الصرح القديم ، وأن تقيم فوق أنقاضه فى الأمم المفتوحة ، نظماً جديدة تستمد روحها من الإسلام ، وأن تذلل النصرانية لصولة الإسلام ، سواء بنشر الإسلام بين الشعوب المفتوحة ، أو بإخضاعها من الوجهتين المدنية والاجتماعية لنفوذ الإسلام وسلطانه . وكان هذا الصراع بين الإسلام والنصرانية قصير الأمد فى الشام ومصر وإفريقية ، فلم يمض نصف قرن حتى غمر الإسلام هذه الأمم بسيادته ونفوذه ، وقامت فيها مجتمعات إسلامية قوية شاملة ، وغاضت الأنظمة والأديان القديمة . ثم دفعت الخلافة فتوحها إلى أقاصى الأناضول من المشرق ، وجازت إلى اسبانيا من المغرب . فأما فى المشرق فقد حاول الإسلام أن يعبر إلى الغرب عن طريق قسطنطينية ، وبعثت الخلافة جيوشها وأساطيلها الزاخرة إلى عاصمة الدولة الشرقية مرتين ، الأولى فى عهد معاوية بن أبى سفيان فى سنة ٤٩ هـ (٦٦٩ م) والثانية فى عهد سليمان بن عبد الملك سنة ٩٨ هـ (٧١٧ م) ، وكانت قوى الخلافة فى كل مرة تبدى فى محاصرة قسطنطينية ، غاية الإصرار والعزم والجلد ، ولكنها فشلت فى المرتين ، وارتدت عن أسوار قسطنطينية منهوكة خائرة ، وأخفق مشروع الخلافة فى افتتاح الغرب من تلك الناحية ، ولقى الإسلام هزيمته الحاسمة فى المشرق أمام أسوار بيزنطية ، وقامت الدولة الشرقية فى وجه الإسلام حصناً منيعاً يحمى النصرانية من غزوه وسلطانه . ولكن جيوش الإسلام جازت إلى الغرب عن طريق اسبانيا ، وأشرفت من هضاب البرنيه على باقى أمم أوربا النصرانية ، ولولا تردد الخلافة وخلاف الزعماء ، لاستطاع موسى بن نصير أن ينفذ مشروعه فى اختراق أوربا من الغرب إلى المشرق ، والوصول إلى دار الخلافة بطريق قسطنطينية ، ولكان من المرجح أن تلقى النصرانية يومئذ ضربتها القاضية ، وأن يسود الإسلام أمم الشمال كما ساد أمم الجنوب ، ولكن الفكرة غاضت فى مهدها لتوجس الخلافة وترددها .

على أن الفتوح التى قام بها ولاة الأندلس بعد ذلك فى جنوبى فرنسا ، كانت طوراً آخر من أطوار ذلك الصراع بين الإسلام والنصرانية . فقد كانت مملكة الفرنج أعظم ممالك الغرب والشمال يومئذ ، وكانت تقوم فى الغرب بحماية النصرانية ،

على نحو ما كانت الدولة الرومانية فى الشرق ، بل كانت مهمتها فى هذه الحماية أشق وأصعب ، إذ بينما كان الإسلام يهدد النصرانية من الجنوب ، كانت القبائل الوثنية الجرمانية تهددها من الشمال والشرق . وكانت الغزوات الإسلامية تقف فى المبدأ عند سبتمانيا ومدنها ، ولكنها امتدت بعدئذ إلى أكوتين وضفاف الجارون ، ثم امتدت إلى شمال الرون وولاية برجونية ، وشملت نصف فرنسا الجنوبى كله ، وهكذا بدا الخطر الإسلامى على مصير الفرنج والنصرانية قوياً ساطعاً ، وبدت طوالع ذلك الصراع الحاسم ، الذى يجب أن تتأهب لخوضه أمم الفرنج والنصرانية كلها .

كانت المعركة فى سهول فرنسا إذاً بين الإسلام والنصرانية ، بيد أنها كانت من الجانب الآخر بين غزاة الدولة الرومانية ، والمتنافسين فى اجتناء تراثها . كانت بين العرب الذين اجتاحوا أملاك الدولة الرومانية فى المشرق والجنوب . وبين الفرنج الذين حلوا فى ألمانيا وغاليس ( فرنسا ) . والفرنج هم شعبة من القبائل البربرية التى غزت رومة وتقاسمت تراثها ، من وندال وقوط وآلان وشوابيين . فكان ذلك اللقاء بين العرب والفرنج فى سهول فرنسا ، أكثر من نزاع محلى على غزو مدينة أو ولاية بعينها : كان هذا النزاع فى الواقع أبعد ما يكون مدى وأثراً ، إذ كان محوره تراث الدولة الرومانية العريض الشاسع ، الذى فاز العرب منه بأكبر غنم ، ثم أرادوا أن ينتزعوا ما بقى منه بأيدى منافسيهم غزاة الدولة الرومانية من الشمال .

وكانت هذه السهول الشمالية ، التى قدر أن تشهد موقعة الفصل بين غزاة الدولة الرومانية ، تضم مجتمعاً متنافراً ، لم تستقر بعد قواعده ونظمه على أسس متينة . ذلك أن القبائل الجرمانية التى عبرت نهر الرين وقضت على سلطان رومة فى الأراضى المفتوحة ، كانت مزيجاً مضطرماً من الغزاة الظمأى إلى تراث رومة من الثروة والنعماء . وكان القوط قد اجتاحوا شمالى إيطاليا منذ القرن الخامس ، وحلوا فى جنوبى غاليس واسبانيا . ولكن هذه الممالك البربرية لم تكن تحمل عناصر البقاء والاستقرار ، فلم يمض زهاء قرن آخر حتى غزا الفرنج فرنسا ، وانتزعوا نصفها الشمالى من يد حاكمه الرومانى المستقل بأمره ، وانتزعوا نصفها الجنوبى من القوط ، وحلت فى غاليس سلطة جديدة ومجتمع جديد . وكان الغزاة فى كل

مرة يقيمون ملكهم على القوة وحدها ، ويقتسمون السلطة فى نوع من الإقطاع ، فلا يمضى وقت طويل حتى تقوم فى القطر المفتوح عدة إمارات محلية ، ولم يعن الغزاة بإقامة مجتمع متماسك ذى نظم سياسية واجتماعية ثابتة ، ولم يعنوا بالأخص بأن يندمجوا برعاياهم الجدد . فكان سكان البلاد المفتوحة من الرومان والغاليين ، الذين لبثوا قروناً يخضعون لسلطان رومة ، مازال تسود فيهم لغة رومة وحضارتها ، ولكن القبائل الجرمانية الغازية كانت تستأثر بالحكم والرياسة ، وتكون وحدها مجتمعاً منعزلا ، لبثت تسوده الخشونة والبداوة أحقاباً ، قبل أن يتأثر بمدنية رومة وتراثها الفكرى والاجتماعى . وكان اعتناق الفرنج للنصرانية منذ عهد كلوفيس ، أكبر عامل فى تطور هذه القبائل وتهذيب عقليتها الوثنية وتقاليدها الوحشية . ثم كان استقرارها بعد حين فى الأرض المفتوحة ، وتوطد سلطانها وتمتعها بالنعماء والثراء ، بعد طول المغامرة والتجوال ، وشظف العيش ، وحرصها على حياة الدعة والرخاء ، عوامل قوية فى انحلال عصبيتها الحربية وفتور شغفها بالغزو ، وإذكاء رغبتها فى الاستعمار والبقاء . وهكذا كانت القبائل الجرمانية التى عبرت الرين تحت لواء الفرنج واستقرت فى غاليس ، قد تطورت فى أوائل القرن الثامن ، إلى مجتمع مستقر متماسك نوعاً . ولم تكن غاليس قد استحالت عندئذ إلى فرنسا ، ولكن جذور فرنسا المستقبلة كانت قد وضعت ، وهيئت الأسباب والعوامل لنشوء الأمة الفرنسية . بيد أن هذا المجتمع رغم تمتعه بنوع من الاستقرار والتماسك ، كان وقت أن نفذ العرب إلى فرنسا ، فريسة الانحلال والتفكك ، وكان الخلاف يمزقه كما قدمنا . وكانت أكوتين وباقى فرنسا الجنوبية ، فى يد جماعة من الأمراء والزعماء المحليين ، الذين انتهزوا ضعف السلطة المركزية ، فاستقلوا بما فى أيديهم من الأقاليم والمدن . ثم كانت القبائل الجرمانية الوثنية ، فيما وراء الرين من جهة أخرى ، تحاول اقتحام النهر من آن لآخر ، وتهدد بالقضاء على مملكة الفرنج . فكان الفرنج يشغلون برد هذه المحاولات ويقتحمون النهر بين آونة وأخرى لدرء هذا الخطر ، ولإرغام القبائل الوثنية على اعتناق النصرانية . فكانت المسألة الدينية أيضاً عاملا قوياً فى هذا النضال الذى يضطرم بين قبائل وعشائر تجمعها صلة الجنس والنسب . ولم ينقذ مملكة الفرنج من ذلك الخطر ، سوى خلاف القبائل الوثنية وتنافسها وتفرق كلمتها[1] .

---

(١) راجع Creasy : Decisive Battles of the World, Ch. VII (الفصل السابع)=

هكذا كانت مملكة الفرنج والمجتمع الفرنجى فى أوائل القرن الثامن ، أعنى حينما انساب تيار الفتح الإسلامى من اسبانيا إلى جنوبى فرنسا . وكان قد مضى منذ وفاة النبى العربى ، إلى عهد هذا اللقاء الحاسم بين الإسلام والنصرانية (سنة ٧٣٢م) ، مائة عام فقط . ولكن العرب كانوا خلال هذا القرن ، قد افتتحوا جميع الأمم الواقعة بين السند شرقاً والمحيط غرباً ، واكتسحوا العالم القديم ، فى فيض مدهش من الظفر الباهر ، واستولوا على جميع أقطار الدولة الرومانية الجنوبية ، من الشأم إلى أقاصى المغرب واسبانيا ، وعبروا البرنيه إلى أواسط فرنسا ، هذا بينما أنفقت القبائل الجرمانية الشمالية ، أكثر من ثلاثة قرون فى افتتاح أقطار الدولة الشمالية ، ومحاولة الاستقرار فيها . وبينما قامت الدولة الإسلامية ثابتة وطيدة الدعائم ، وقامت فى جميع أقطار الخلافة حكومات محلية قوية ، ومجتمعات إسلامية مستنيرة ، وجيوش غازية منظمة ، إذا بمعظم القبائل الجرمانية غزاة رومة من الشمال ، ما يزال إذا استثنينا مملكة الفرنج ، على حاله من البداوة والتجوال والتفرق . وكان الفرنج هم قادة القبائل الجرمانية فى هذا الصراع ، الذى نشب فى سهول فرنسا ، وآذن طوره الحاسم بعبور المسلمين إلى فرنسا فى ربيع سنة ٧٣٢ م . وكان سيل الفتح الإسلامى ، ينذر باجتياح فرنسا منذ عشرين عاماً ، أعنى مذ عبر المسلمون جبال البرنيه بقيادة موسى بن نصير لأول مرة واستولوا على سبتمانيا ، ثم اقتحموا بعد ذلك وادى الرون وأكوتين غير مرة . ولكن مملكة الفرنج كانت يومئذ تشغل بالمعارك الداخلية ، وتقتتل حول السلطان والرياسة ، حتى ظفر كارل مارتل بمنصب محافظ القصر ، وأنفق أعواماً أخرى فى توطيد سلطانه ، بينما كان خصمه ومنافسه أودو أمير أكوتين ، يتلقى وحده ضربات العرب . فلما استفحل خطر الفتح الإسلامى ، وانساب نحو الشمال حتى برجونية ، فزع الفرنج وهبت القبائل الجرمانية فى أوستراسيا ونوستريا لتذود عن سلطانها وكيانها .

وكان الخطر داهماً حقيقياً فى تلك المرة ، لأن المسلمين عبروا البرنيه عندئذ فى أكبر جيش حشد ، وأتم أهبة اتخذت منذ الفتح . وكان على رأس الجيش الإسلامى قائد وافر الهمة والشجاعة والمقدرة هو عبد الرحمن الغافقى ، وهو أعظم

= ففيه استعراض حسن لأحوال المجتمع الجرمانى فى هذا العصر ، وعرض شائق لحوادث موقعة تور . وراجع أيضاً Zeller : Hist. de l'Allemagne, p. 67

جندى مسلم عبر البرنيه . وكان قد ظهر ببراعته فى القيادة منذ موقعة تولوشة ، حيث استطاع إنقاذ الجيش الإسلامى من المطاردة عقب هزيمته ومقتل قائده السمح ، والارتداد إلى سبتمانيا . وتبالغ الرواية الفرنجية فى تقدير جيش عبد الرحمن وأهبته ، فتقدره بأربعمائة ألف مقاتل ، هذا غير جموع حاشدة أخرى صحبها لاستعمار الأرض المفتوحة . وهو قول ظاهر المبالغة . وتقدره بعض الروايات العربية بسبعين أو ثمانين ألف مقاتل ، وهو أقرب إلى الحقيقة والمعقول . وقد أثارت هذه الغزوة الإسلامية الشهيرة ، وهذا الجيش الضخم ، خيال الشاعر الأوربى الحديث ، فنرى الشاعر الإنجليزى سوذى يقول فى منظومته عن ردريك آخر ملوك القوط ·

« جمع لا يحصى .
« من شأم وبربر وعرب ، وروم خوارج .
« وفرس وقبط وتتر عصبة واحدة .
« يجمعها إيمان ، هائم راسخ الفتوة .
« وحمية مضطرمة ، وأخوة مروعة .
« ولم يك الزعماء ،
« أقل ثقة بالنصر ، وقد شمخوا بطول ظفر
« يتيهون بتلك القوة الخارقة ،
« التى أيقنوا أنها كما اندفعت ،
« حيثما كانوا بلا منازع ، ستندفع ظافرة إلى الأمام ،
« حتى يصبح الغرب المغلوب كالشرق ،
« يطأطئ الرأس إجلالا لاسم محمد ،
« وينهض الحاج من أقاصى المنجمد ،
« ليطأ بأقدام الإيمان ، الرمال المحرقة ،
« المنتثرة فوق صحراء العرب وأراضى مكة الصلدة »(١) .

ونفذ عبد الرحمن فى جيشه الزاخر إلى فرنسا ، فى ربيع سنة ٧٣٢ م ( أوائل سنة ١١٤ هـ ) ، واقتحم وادى الرون وولاية أكوتين ، وشتت قوى الدوق أودو ، وأشرف بعد هذا السير الباهر على ضفاف نهر اللوار . وتقول بعض الروايات

---

(١) Southy: Roderic the last of the Goths

الكنسية ، إن أودو هو الذى استدعى عبد الرحمن إلى فرنسا ، ليعاونه على محاربة خصمه كارل مارتل[1]. ولكن هذه الرواية مردودة غير معقولة ، لما قدمنا من أن أودو هو الذى بادر إلى مقاومة عبد الرحمن ورده ، وكانت مملكته وعاصمته أول غنم للمسلمين . وكان ملك الفرنج يومئذ تيودوريك الرابع ، ولكن ملوك الفرنج كانوا فى ذلك العصر أشباحاً قائمة فقط . وكان محافظ القصر كارل مارتل هو الملك الحقيقى ، يستأثر بكل سلطة حقيقية ، وعليه يقع عبء الدفاع عن ملكه وأمته . وكان منذ استفحل خطر الفتح الإسلامى يتخذ أهبته ويحشد قواه . ولكن عبد الرحمن سار إلى قلب فرنسا قبل أن يتحرك للقائه . وترد الرواية الإسلامية هذا التمهل إلى خطة مرسومة مقصودة . فتقول فى هذا الموطن : « فاجتمعت الفرنج إلى ملكها الأعظم قارلة وهذه سمة لملوكهم ، فقالت له ما هذا الخزى الباقى فى الأعقاب . كنا نسمع بالعرب ونخافهم من جهة مطلع الشمس حتى أتوا من مغربها ، واستولوا على بلاد الأندلس ، وعظيم ما فيها من العدة والعدد ، بجمعهم القليل وقلة عدتهم وكونهم لا دروع لهم . فقال لهم ما معناه : الرأى عندى أن لا تعترضوهم فى خرجتهم هذه ، فانهم كالسيل يحمل من يصادره ، وهم فى إقبال أمرهم ، ولهم نيات تغنى عن كثرة العدد ، وقلوب تغنى عن حصانة الدروع ، ولكن أمهلوهم حتى تمتلئ أيديهم من الغنائم ، ويتخذوا المساكن ، ويتنافسوا فى الرياسة ، ويستعين بعضهم ببعض ، فحينئذ تتمكنون منهم بأيسر أمر »[2]. ونستطيع أيضاً أن نفسر تمهل كارل مارتل بأنه كان يقصد إلى ترك خصمه ومنافسه أودو دون إغاثة ، حتى يقضى المسلمون على ملكه وسلطانه ، فيتخلص بذلك من منافسته ومناوأته . وعلى أى حال فإن عبد الرحمن كان قد اقتحم أكوتين وجنوبى فرنسا كله ، حينما تأهب كارل مارتل للسير إلى لقائه . وجاء الدوق أودو بعد ضياع ملكه ، وتمزيق

---

(١) موسوعة **Bouquet : Recueil des Historiens de la Gaule et de la France.** رواية القديس دنى **Vol. III. p. 310** . وراجع أيضاً موسوعة : **Bayle : Dictionnaire Historiqne et Critique** تحت كلمة **Abderame**

(٢) المقرى عن الحجارى فى المسهب ( نفح الطيب ج ١ ص ١٢٩ ) . ويورد الحجارى هذه الرواية بمناسبة عبور موسى بن نصير إلى فرنسا . ولكن ظاهر من اسم قارلة ( كارل ) أن الأمر يتعلق بالغزوة الكبيرة التى نتحدث عنها ؛ وإليها ترجعها الرواية الكنسية اللاتينية . راجع : **Gibbon : ibid, Ch. LII.** حيث يورد نفس هذه الفقرة فى كلامه عن موقعة تور .

قواته يطلب العون والنجدة من خصمه القديم أعنى كارل مارتل[1]. وكان كارل قد حشدجيشاً ضخماً من الفرنج ومختلف العشائر الجرمانية المتوحشة ، والعصابات المرتزقة فيما وراء الرين ، يمتزج فيه المقاتلة من أمم الشمال كلها ، وجله جند غير نظاميين ، نصف عراة يتشحون بجلود الذئاب ، وتنسدل شعورهم الجعدة ، فوق أكتافهم العارية . وسار زعيم الفرنجة فى هذا الجيش الجرار نحو الجنوب لملاقاة العرب فى حمى الهضاب والربى ، حتى يفاجئ العدو فى مراكزه قبل أن يستكمل الأهبة لرده . وكان الجيش الإسلامى قد اجتاح عندئذ جميع أراضى أكوتين ، التى تقابل اليوم من مقاطعات فرنسا الحديثة جويان وبرجور وسانتونج وبواتو ، وأشرف بعد سيره المظفر على مروج نهر اللوار الجنوبية ، حيثما يلتقى بثلاثة من فروعه هى « الكريز » و « الڤين » و « الكلين » .

ومن الصعب أن نعين بالتحقيق ، مكان ذلك اللقاء الحاسم فى تاريخ الشرق والغرب ، والإسلام والنصرانية . ولكن المتفق عليه أنه السهل الواقع بين مدينتى بواتييه وتور ، حول نهرى كلين وڤين فرعى اللوار ، على مقربة من مدينة تور . والرواية الإسلامية مقلة موجزة فى الكلام عن تلك الموقعة العظيمة ، وليس فيما لدينا من المصادر العربية عنها أى تفصيل شامل ، وإنما وردت تفاصيل للرواية الإسلامية عن الموقعة ، نقلها إلينا المؤرخ الإسبانى كوندى سنعود إليها بعد . وتفيض الرواية الفرنجية والكنسية بالعكس فى حوادث الموقعة ، وتقدم إلينا عنها تفاصيل شائقة ، ولكن يحفها الريب وتنقصها الدقة التاريخية . وقد رأينا أن نحاول وصف الموقعة أولا مما لدينا من أقوال الروايتين ، ثم نعود بعد ذلك إلى ذكر كل منهما

انتهى الجيش الإسلامى فى زحفه إلى السهل الممتد بين مدينتى بواتييه وتور كما قدمنا ، واستولى المسلمون على بواتييه ، ونهبوها وأحرقوا كنيستها الشهيرة . ثم هجموا على مدينة تور الواقعة على ضفة اللوار اليسرى ، واستولوا عليها وخربوا كنيستها أيضاً . وفى ذلك الحين كان جيش الفرنج قد انتهى إلى اللوار ، دون أن يشعر المسلمون بمقدمه بادئ بدء ، وأخطأت الطلائع الإسلامية تقدير عدده وعدته . فلما أراد عبد الرحمن أن يقتحم اللوار ، لملاقاة العدو على ضفته اليمنى ، فاجأه كارل مارتل بجموعه الجرارة . وألفى عبد الرحمن جيش الفرنج يفوقه فى

---

(1) Dom: Visstte, Ibid, V.I. p. 795

الكثرة ، فارتد من ضفاف النهر ثانية إلى السهل الواقع بين تور وبواتييه . وعبر كارل اللوار غربي تور ، وعسكر بجيشه إلى يسار الجيش الإسلامى بأميال قليلة ، بين نهرى كلين وڤيين فرعى اللوار .

وكان الجيش الإسلامى فى حال تدعو إلى القلق والتوجس ، فإن الشقاق كان يضطرم بين قبائل البربر التى يتألف منها معظم الجيش ، وكانت تتوق إلى الانسحاب ناجية بغنائمها الكبيرة . وكان المسلمون فى الواقع قد استصفوا ثروات فرنسا الجنوبية أثناء سيرهم المظفر ، ونهبوا جميع كنائسها وأديارها الغنية ، وأثقلوا بما لا يقدر ولا يحصى ، من الذخائر والغنائم والسبى ، فكانت هذه الأثقال النفيسة تحدث الخلل فى صفوفهم ، وتثير بينهم ضروب الخلاف والنزاع . وقدر عبد الرحمن خطر هذه الغنائم على نظام الجيش وأهبته ، وخشى مما تثيره فى نفوس الجند من الحرص والانشغال ، وحاول عبثاً أن يحملهم على ترك شىء منها . ولكنه لم يشدد فى ذلك خيفة التمرد . وكان المسلمون من جهة أخرى ، قد أنهكتهم غزوات أشهر متواصلة ، مذ دخلوا فرنسا ، ونقص عددهم بسبب تخلف حاميات عديدة منهم ، فى كثير من القواعد والمدن المفتوحة . ولكن عبد الرحمن تأهب لقتال العدو وخوض المعركة الحاسمة بعزم وثقة .

وبدأ القتال فى اليوم الثانى عشر أو الثالث عشر من أكتوبر سنة ٧٣٢ م (أواخر شعبان سنة ١١٤ هـ) فنشبت بين الجيشين معارك محلية مدى سبعة أيام أو ثمانية ، احتفظ فيها كل بمراكزه . وفى اليوم التاسع نشبت بينهما معركة عامة ، فاقتتلا بشدة وتعادل ، حتى دخول الليل . واستأنفا القتال فى اليوم التالى ، وأبدى كلاهما منتهى الشجاعة والجلد ، حتى بدا الإعياء على الفرنج ، ولاح النصر فى جانب المسلمين . ولكن حدث عندئذ أن افتتح الفرنج ثغرة إلى معسكر الغنائم الإسلامى ، وخشى عليه من السقوط فى أيديهم ، أو حدث كما تقول الرواية أن ارتفعت صيحة مجهول فى المراكز الإسلامية ، بأن معسكر الغنائم سوف يقع فى يد العدو . فارتدت قوة كبيرة من الفرسان من قلب المعركة إلى ما وراء الصفوف لحماية الغنائم ، وتواثب كثير من الجند للدفاع عن غنائمهم ، فدب الخلل إلى صفوف المسلمين . وعبثاً حاول عبد الرحمن أن يعيد النظام وأن يهدئ روع الجند ، وبينما هو يتنقل أمام الصفوف يقودها ويجمع شتاتها ، إذ أصابه من جانب الأعداء سهم أودى

بحياته ، فسقط قتيلا من فوق جواده ، وعم الذعر والاضطراب فى الجيش الإسلامى ، واشتدت وطأة الفرنج على المسلمين ، وكثر القتل فى صفوفهم . ولكنهم صمدوا للعدو حتى جن الليل ، وافترق الجيشان دون فصل . وكان ذلك فى اليوم الحادى والعشرين من أكتوبر سنة ٧٣٢م (أوائل رمضان سنة ١١٤هـ)(١).

وهنا اضطرم الجدل والنزاع بين قادة الجيش الإسلامى ، واختلف الرأى وهاجت الخواطر ، وسرى التوجس والفزع . ورأى الزعماء أن كل أمل فى النصر قد غاض ، فقرروا الانسحاب على الأثر . وفى الحال غادر المسلمون مراكزهم ، وارتدوا فى جوف الليل وتحت جنح الظلام ، جنوباً صوب قواعدهم فى سبتمانيا ، تاركين أثقالهم ومعظم أسلابهم غنماً للعدو . وفى فجر الغد ، لاحظ كارل وحليفه أودو سكون المعسكرات العربية ، فتقدما منها بحذر وإحجام ، فألفياها خاوية خالية إلا من بعض الجرحى الذين لم يستطيعوا مرافقة الجيش المنسحب ، فذبحوا على الأثر . وخشى كارل الخديعة والكمين فاكتفى بانسحاب العدو ، ولم يجرؤ على مطاردته ، وآثر العود بجيشه إلى الشمال .

هذه هى أصدق صورة لحوادث تلك الموقعة الشهيرة ، طبقاً لمختلف الروايات . والآن نورد ما تقوله الرواية الفرنجية الكنسية ثم الرواية الإسلامية .

أما الرواية الفرنجية الكنسية فيشوبها كثير من المبالغة والتحامل والتعصب ، وهى تصف مصائب فرنسا والنصرانية من جراء غزوة العرب ، فى صور مثيرة محزنة ، وتفصل حوادث هذه الغزوة فتقول إحداها : « لما رأى الدوق أودو أن الأمير شارل (كارل) قد هزمه وأذله ، وأنه لا يستطيع الانتقام ، إذا لم يتلق النجدة من إحدى النواحى ، تحالف مع عرب اسبانيا ، ودعاهم إلى معاونته ضد الأمير شارل وضد النصرانية ، وعندئذ خرج العرب وملكهم عبد الرحمن ، من

---

(١) تجمع معظم الروايات الفرنجية والكنسية على أن الموقعة كانت فى أكتوبر سنة ٧٣٢ م . وهذا التاريخ يوافق بالهجرية شعبان سنة ١١٤ . بيد أن الرواية الإسلامية تختلف فى تحديد هذا التاريخ ؛ فالبعض يقول إنها كانت سنة ١١٥ هـ ( ابن عبد الحكم ص ٣١٧ ، والضبى فى بغية الملتمس رقم ١٠٢١ ، وابن عذارى فى البيان المغرب ج ١ ص ٣٧ ؛ ولكنه يعود فيذكر أن الموقعة كانت سنة ١١٤ هـ — ج ٢ ص ٢٨ ) . ولكن ابن الأثير (ج ٥ ص ٧٤ ) ، وابن خلدون (ج ٤ ص ١١٩ ) والمقرى عن ابن حيان (ج ١ ص ١٠٩ وج ٢ ص ٥٦ ) متفقون على أنها كانت سنة ١١٤ هـ ؛ ويقول الأخيران إنها كانت فى رمضان سنة ١١٤ هـ ، وهو أصح تعيين يتفق مع الرواية الغربية .

اسبانيا ، مع جميع نسائهم وأولادهم وعددهم وأقواتهم ، فى جموع لا تحصى ولا تقدر ، وحملوا كل ما استطاعوا من الأسلحة والذخائر ، كأنما عولوا على البقاء فى أرض فرنسا ، ثم اخترقوا مقاطعة چيروند ، واقتحموا بوردو ، وقتلوا الناس ، ونهبوا الكنائس ، وخربوا كل البسائط ، وساروا حتى پواتيو... »(١).

وتقول أخرى : « ولما رأى عبد الرحمن أن السهول قد غصت بجموعه ، اقتحم الجبال ، ووطئ السهول بسيطها ووعرها ، وتوغل مثخناً فى بلاد الفرنج ، وسحق بسيفه كل شىء ، حتى أن أودو حينما تقدم لقتاله على نهر الجارون وفر منهزماً أمامه ، لم يكن يعرف عدد القتلى سوى الله وحده ، ثم طارد عبد الرحمن الكونت أودو ، وحينما حاول أن ينهب كنيسة تور المقدسة ويحرقها ، التقى بكارل أمير فرنج أوستراسيا ، وهو رجل حرب منذ فتوته ، وكان أودو قد بادر بإخطاره . وهناك قضى الفريقان أسبوعاً فى التأهب ، واصطفا أخيراً للقتال ، ثم وقفت أمم الشمال كسور منيع ، أو منطقة من الثلج لاتخترق ، وأثخنت فى العرب بحد السيف » .

« ولما أن استطاع أهل أوستراسيا ( الفرنج ) ، بقوة أطرافهم الضخمة ، وبأيديهم الحديدية ، التى ترسل من الصدر تواً ضرباتها القوية ، أن يجهزوا على جموع كبيرة من العدو ، التقوا أخيراً بالملك ( عبد الرحمن ) وقضوا على حياته . ثم دخل الليل ففصل بين الجيشين ، والفرنج يلوحون بسيوفهم عالية احتقاراً للعدو . فلما استيقظوا فى فجر الغد ، ورأوا خيام العرب الكثيرة كلها مصفوفة أمامهم ، تأهبوا للقتال معتقدين أن جموع العدو جاثمة فيها . ولكنهم حينما أرسلوا طلائعهم ، ألفوا جموع المسلمين ، قد فرت صامتة تحت جنح الليل ، مولية شطر بلادها . على أنهم خشوا أن يكون هذا الفرار خديعة يعقبها كمين من جهات أخرى ، فأحاطوا بالمعسكر حذرين دهشين . ولكن الغزاة كانوا قد فروا ، وبعد أن اقتسم الفرنج الغنائم والأسرى فيما بينهم بنظام ، عادوا مغتبطين إلى ديارهم »(٢) .

---

( ١ ) هذه هى رواية القديس دنى **Saint Denis** — وردت فى موسوعة **Bouquet** . ووردت فى هذه الموسوعة أيضاً أقوال آخرين من الرواة الأحبار .

( ٢ ) هذه هى رواية إيزيدور الباجى وهو معاصر للموقعة . راجع **Creasy : ibid , Ch. VI** و **Hodgkin , Charles the Great ; Ch. III** ، وكذلك **Gibbon : ibid , Ch. LII** ففيها تنقل هذه التفاصيل أو تلخص .

وأما الرواية الإسلامية فهى ضنينة فى هذا الموطن كل الضن كما أسلفنا . ويمر معظم المؤرخين المسلمين على تلك الحوادث العظيمة ، بالصمت أو الإشارة الموجزة كما سنرى . غير أن المؤرخ الإسبانى كوندى يقدم إلينا خلاصة من أقوال ينسبها إلى الرواية الأندلسية المسلمة[١] ، عن غزو فرنسا وعن موقعة تور ؛ ونحن ننقلها مترجمة فيما يلى :

« لما علم الفرنج وسكان بلاد الحدود الإسبانية بمقتل عثمان بن أبى نسعة ، وسمعوا بضخامة الجيش الإسلامى الذى سير إليهم ، استعدوا للدفاع جهدهم ، وكتبوا إلى جيرانهم يلتمسون الغوث . وجمع الكونت وسيد هذه الأنحاء ( يريد أودو ) قواته وسار للقاء العرب ، ووقت بينهم معارك سجال . ولكن النصر كان إلى جانب عبد الرحمن بوجه عام ، فاستولى تباعاً على كل مدن الكونت . وكان جنده قد نفخ فيهم حسن طالعهم المستمر ، فلم يكونوا يرغبون إلا فى خوض المعارك ، واثقين كل الثقة فى شجاعة قائدهم وبراعته .

« وعبر المسلمون نهر الجارون ، وأحرقوا كل المدن الواقعة على ضفافه ، وخربوا جميع الضياع ، وسبوا جموعاً لاتحصى ، وانقض هذا الجيش على البلاد كالعاصفة المخربة فاجتاحها ، وأذكى اضطرام الجند ، نجاح غزواتهم ، واستمرار ظفرهم وما أصابوا من الغنائم .

« ولما عبر عبد الرحمن نهر الجارون اعترضه أمير هذه الأنحاء ، ولكنه هزمه ففر أمامه وامتنع بمدينته . فحاصرها المسلمون ولم يلبثوا أن اقتحموها ، وسحقوا بسيوفهم الماحقة كل شىء . ومات الكونت مدافعاً عن مدينته ، واحتز الغزاة رأسه[٢] . ثم ساروا مثقلين بالغنائم فى طلب انتصارات أخرى ، وارتجت بلاد

---

( ١ ) لم نقف فى أى المصادر العربية التى بين أيدينا ، على أصل هذه التفاصيل التى يقول كوندى إنه اقتبسها من الرواية العربية ، ولم يذكر هو مصدر اقتباسه . ولعله نقلها عن بعض مخطوطات الإسكوريال أو المجموعات الخاصة وقد فقدت آثارها اليوم ، كما فقدت مخطوطات كثيرة من المجموعة الأندلسية بالإسكوريال . ولعله أيضاً نقل شيئاً منها من شذور لابن حيان وابن بشكوال كانت موجودة فى عصره ولم تصل إلينا . ويلوح لنا أن الحجارى فى كتابه « المسهب » قد تناول هذه الحوادث بالتفصيل حيث نقل المقرى منه شذرة تفيد ذلك . ( نفح ج ١ ص ١٣٩ ) ، ولعل كوندى وقف على شىء منها . على أننا لم نعثر خلال بحوثنا فى مجموعة الإسكوريال على أثر لمثل هذه المخطوطات أو الأوراق . راجع حديث كوندى عن مصادرة : **Conde : ibid., V.I. Prologo, p. 20 & 21.**

( ٢ ) هذا خطأ بين ، لأن الكونت أودو لم يقتل عندئذ ، بل فر إلى الشمال ، وعاد لقتال عبد الرحمن فى تور كما قدمنا .

الفرنج كلها رعباً لاقتراب جموع المسلمين ، وهرع الفرنج إلى ملكهم قلدوس فى طلب الغوث ، وأخبروه بما يأتيه الفرسان المسلمون من العيث والسفك ، وكأنهم فى كل مكان ، وكيف أنهم احتلوا واجتاحوا كل أقاليم أربونة وتولوشة وبردال(١) وقتلوا الكونت . فهدأ الملك روعهم ووعدهم بالغوث العاجل . وفى سنة ١١٤ هـ سار على رأس جموع لاتحصى للقاء المسلمين . وكان المسلمون قد اقتربوا عندئذ من مدينة تور ، وهنالك علم عبد الرحمن بأمر الجيش العظيم الذى سيلقى . وكان جيشه قد دب إليه الخلل ، لأنه كان مثقلا بالغنائم من كل ضرب . ورأى عبد الرحمن وأولوا الحزم من زملائه ، أن يحملوا الجند على ترك هذه الأثقال ، والاقتصار على أسلحتهم وخيولهم ، ولكنهم خشوا التمرد أو أن يثبطوا عزائم الجند ، واستسلموا لرأى الواثقين المستهترين . واعتمد عبد الرحمن على شجاعة جنده ، وحسن طالعه المستمر . ولكن الاضطراب خطر خالد على سلامة الجيوش . نعم إن الجند يحملهم ظمأ الغنم ، قد أتوا جهوداً لم يسمع بها ، فطوقوا مدينة تور ، وقاتلوا حصونها بشدة رائعة ، حتى سقطت فى أيديهم أمام أعين الجيش القادم لإنقاذها ، وانقض المسلمون على أهلها كالضوارى المفترسة ، وأمعنوا القتل فيهم . قالوا ، ولعل الله أراد أن يعاقب المسلمين على تلك الآثام . وكان طالعهم قد ولى .

« وعلى ضفاف نهر « الأوار » ( اللوار ) اصطف رجال اللغتين ، والتقى المسلمون والنصارى ، وكلاهما جزع من الآخر . وكان عبد الرحمن ثقة منه بظفره المستمر ، هو البادئ بالهجوم ، فانقض بفرسانه على الفرنج بشدة ، وقابله الفرنج بالمثل . ودامت المعركة ذريعة مروعة طوال اليوم حتى جن الليل . وفرق بين الجيشين . وفى اليوم التالى استؤنف القتال منذ الفجر بشدة ، وشق بعض مقدمى المسلمين طريقهم إلى صفوف العدو وتوغلوا فيها . ولكن عبد الرحمن لاحظ والمعركة فى أوج اضطرامها ، أن جماعة كبيرة من فرسانه ، غادرت الميدان بسرعة لحماية الغنائم المكدسة فى المعسكر العربى ، لأن العدو أخذ يهددها . فأحدثت هذه الحركة خللا فى صفوف المسلمين ، وخشى عبد الرحمن عاقبة هذا الاضطراب ، فأخذ يثب من صف إلى صف يحث جنوده على القتال ، ولكنه ما لبث أن أدرك أنه يستحيل عليه ضبطهم ، فارتد يحارب مع أشجع جنده حينما استقرت المعركة ،

---

(١) مدينة بوردو .

حتى سقط قتيلا مع جواده وقد أثخن طعاناً . وهنا ساد الخلل فى الجيش الإسلامى وارتد المسلمون فى كل ناحية ، ولم يعاونهم على الانسحاب من تلك المعركة الهائلة سوى دخول الليل .

« وانتهز النصارى هذه الفرصة فطاردوا الجنود المنهزمة أياماً عديدة ، واضطر المسلمون أثناء انسحابهم أن يحتملوا عدة هجمات ، واستمر الصراع بين مناظر مروعة حتى أربونة .

« وقد وقعت هذه الهزيمة الفادحة بالمسلمين ، وقتل قائدهم الشهير عبد الرحمن سنة ١١٥ هـ . ثم أن ملك فرنسا حاصر مدينة أربونة ، ولكن المسلمين دافعوا عنها بشجاعة فائقة ، حتى أرغم على رفع الحصار ، وارتد إلى داخل بلاده وقد أصابته خسائر كبيرة »[١] .

وأورد المؤرخ كاردون من جهة أخرى فى كلامه عن الموقعة ، فقرة ذكر أنه نقلها عن ابن خلكان جاء فيها : « لما استولى العرب على قرقشونة خشى قارله ( كارل ) أن يتوغلوا فى الفتح ، فسار لقتالهم فى الأرض الكبيرة ( فرنسا ) فى جيش ضخم ، وعلم العرب بقدومه وهم فى لوذون (ليون) وأن جيشه يفوقهم بكثرة ، فعولوا على الارتداد . وسار قارله حتى سهل أنيسون دون أن يلقى أحداً إذ احتجب العرب وراء الجبال وامتنعوا بها ، فطوق هذه الجبال دون أن يدرى العرب ، ثم قاتلهم حتى هلك عدد عظيم منهم ، وفر الباقون إلى أربونة . فحاصر قارلة أربونة مدة ، ولم يستطيع فتحها فارتد إلى أراضيه ، وأنشأ قلعة وادى رذونة ( الرون ) ، ووضع فيها حامية قوية لتكون حداً بينه وبين العرب »[٢] .

ونعود بعد ذلك إلى الرواية الإسلامية فنقول إن المؤرخين المسلمين يمرون على حوادث هذه الموقعة الشهيرة إما بالصمت أو الإشارة الموجزة . ويجب أن نذكر بادىء بدء أن موقعة تور ، تعرف فى التاريخ الإسلامى بواقعة البلاط أو بلاط

---

( ١ ) Conde : ibid , Vol. I, p. 86-88

( ٢ ) راجع : Cardonne : ibid, V.I. p.129-131 . وقد بحثنا طويلا فى كتاب وفيات الأعيان لابن خلكان فى مظان وجود هذه التفاصيل فلم نعثر بها . ولعل كاردون وقد كتب فى أواسط القرن الثامن عشر ، واستعان بمخطوطات عربية فى المكتبة الملكية فى باريس ، قد نقل عن نسخة لابن خلكان فيها زيادات عن النسخة التى بين أيدينا . ولسنا نعلم من جهة أخرى أن لابن خلكان مؤلفاً تاريخياً آخر يمكن أن يحتوى مثل هذه التفاصيل .

الشهداء ، لكثرة من استشهد فيها من أكابر المسلمين والتابعين . وفى هذه التسمية ذاتها ، وفى تحفظ الرواية الإسلامية ، وفى لهجة العبارات القليلة التى ذكرت بها الموقعة ، ما يدل على أن المؤرخين المسلمين ، يقدرون خطورة هذا اللقاء الحاسم بين الإسلام والنصرانية ، ويقدرون فداحة الخطب الذى نزل بالإسلام فى سهول تور . ويدل على لون الموقعة الدينى ما تردده الأسطورة الإسلامية ، من أن الأذان لبث عصوراً طويلة يسمع فى بلاط الشهداء[1] . ونستطيع أن نحمل تحفظ المؤرخين المسلمين فى هذا المقام ، على أنهم لم يروا أن يبسطوا القول فى مصاب جلل نزل بالإسلام ، ولا أن يفيضوا فى تفاصيله المؤلمة ، فاكتفوا بالإشارة الموجزة ، ولم يكن ثمة مجال للتعليق أيضاً ، ولا التحدث عن نتائج خطب ، لاريب أنه كان ضربة للإسلام ولمطامع الخلافة ومشاريعها . وإذا استثنينا بعض الروايات الأندلسية التى كتبت عن الموقعة فى عصر متأخر ، والتى نقلناها فيما تقدم ، فإن المؤرخين المسلمين يتفقون جميعاً فى هذا الصمت والتحفظ . وهذه طائفة من أقوالهم وإشاراتهم الموجزة :

قال ابن عبد الحكم ، وهو من أقدم رواة الفتوح الإسلامية وأقرب من كتب عن فتوح الأندلس ما يأتى : « وكان عبيدة ( يريد والى إفريقية ) قد ولى عبد الرحمن بن عبد الله العكى على الأندلس ، وكان رجلا صالحاً فغزا عبد الرحمن إفرنجة ، وهم أقاصى عدو الأندلس ، فغنم غنائم كثيرة وظفر بهم . . . ثم خرج إليهم غازياً فاستشهد وعامة أصحابه ، وكان قتله فيما حدثنا يحيى عن الليث فى سنة خمسة عشر ومائة »[2]. ولم يذكر الواقدى والبلاذرى والطبرى وهم أيضاً من أقدم رواة الفتوح شيئاً عن الموقعة . وقال ابن الأثير فى حوادث سنة ثلاث عشرة ومائة مردداً لرواية ابن عبد الحكم . « ثم إن عبيدة استعمل على الأندلس عبد الرحمن ابن عبد الله ، فغزا إفرنجة وتوغل فى أرضهم وغنم غنائم كثيرة . ثم خرج غازياً ببلاد الفرنج فى هذه السنة ( أعنى ١١٣ هـ ) ، وقيل سنة أربع عشرة ومائة وهو الصحيح ، فقتل هو ومن معه شهداء »[3]. وينسب ابن خلدون الموقعة خطأ لابن الحبحاب والى مصر وإفريقية فيقول : « وقدم بعده ( أى بعد الهيثم ) محمد

---

(١) المقرى عن ابن حيان ( نفح الطيب ج ٢ ص ٥٦ ) .
(٢) فتوح مصر وأخبارها ص ٢١٦ ٢١٧ .
(٣) ابن الأثير ج ٥ ص ٦٤ .

ابن عبد الله بن الحبحاب صاحب إفريقية فدخلها ( أى الأندلس ) سنة ثلاث عشرة ، وغزا إفرنجة وكانت له فيهم وقائع ، وأصيب عسكره فى رمضان سنة أربع عشرة فولى سنتين»[١]. ولدينا من الرواية الأندلسية ما قاله صاحب « أخبار مجموعة » عند ذكر ولاة الأندلس وهو : « ثم ( أى وليها ) عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى ، وعلى يده استشهد أهل البلاط الشهداء ، واستشهد معهم واليهم عبد الرحمن »[٢]. ونقل الضبى فى ترجمة عبد الرحمن ما ذكر ابن عبد الحكم عن الموقعة[٣]. وقال الحميدى وهو من مؤرخى الأندلس فى حديثه عن عبد الرحمن : « وعبد الرحمن الغافقى هذا من التابعين ... استشهد فى قتال الروم بالأندلس سنة خمس عشرة ومائة »[٤]. وقال ابن عذارى المراكشى : « ثم ولى الأندلس عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى ، فغزا الروم واستشهد مع جماعة من عسكره سنة ١١٥ ، بموضع يعرف ببلاط الشهداء »[٥] وقال فى موضع آخر : « ثم ولى الأندلس عبد الرحمن هذا ( أى الغافقى ) ثانية وكان جلوسه لها فى صفر سنة ١١٢ فأقام والياً سنتين وسبعة أشهر وقيل وثمانية أشهر ، واستشهد فى أرض العدو فى رمضان سنة ١١٤ »[٦]. وقال المقرى فيما نقل : « ثم قدم عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى من قبل عبيد الله بن الحبحاب صاحب إفريقية ، فدخلها ( أى الأندلس ) سنة ثلاث عشرة ، وغزا الإفرنجة وكانت له فيهم وقائع ، وأصيب عسكره فى رمضان سنة أربع عشرة فى موضع يعرف ببلاط الشهداء وبه عرفت الغزوة »[٧]. ونقل فى موضع آخر : « وذكر أنه قتل ( والإشارة هنا خطأ إلى السمح بن مالك ) فى الواقعة المشهورة عند أهل الأندلس بوقعة البلاط ، وكانت جنود الإفرنجة قد تكاثرت عليه ، فأحاطت بالمسلمين فلم ينج من المسلمين أحد . قال ابن حيان ،

---

( ١ ) ابن خلدون ج ٤ ص ١١٩ ، وفى نسبته الموقعة لمحمد بن الحبحاب خطأ بين لأن ابن الحبحاب كان عامل مصر ، ولم يندب لولاية إفريقية سوى سنة ست عشرة ومائة . ولم يل هو أو ولده الأندلس قط ( راجع ابن عبد الحكم ص ٢١٧ ) .

( ٢ ) أخبار مجموعة فى فتح الأندلس ص ٢٥ .

( ٣ ) بغية الملتمس رقم ١٠٢٤ .

( ٤ ) جذوة المقتبس ( طبع القاهرة ) ص ٢٥٦ .

( ٥ ) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٧ .

( ٦ ) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٨ .

( ٧ ) نفح الطيب ج ١ ص ١٠٩ .

فيقال إن الأذان يسمع بذلك الموضع إلى الآن » . ونقل عن ابن حيان : « قال دخل الأندلس ( أى عبد الرحمن ) حين وليها ولايته الثانية من قبل ابن الحبحاب فى صفر سنة ثلاث عشرة ومائة ، وغزا الإفرنج فكانت له فيهم وقائع جمة إلى أن استشهد ، وأصيب عسكره فى موضع يعرف ببلاط الشهداء . قال ابن بشكوال وتعرف غزوته هذه بغزوة البلاط »[1] .

هذه الفقرات والإشارات الموجزة ، التى تكاد تتفق جميعاً فى اللفظ والمعنى ، هى ما ارتضت الرواية الإسلامية أن تقدمه إلينا فى هذا المقام ، وإن كان فى تحفظها ذاته ما ينم عن تقديرها لرهبة الحادث وخطورته وبعد آثاره . وإذا كان صمت الرواية الإسلامية تمليه فداحة الخطب الذى أصاب الإسلام فى سهول تور ، فإن الرواية النصرانية تفيض بالعكس فى تفاصيل الموقعة إفاضة واضحة ، وتشيد بظفر النصرانية ونجاتها من الخطر الإسلامى ، وترفع بطولة كارل مارتل إلى السماكين . وتذهب الرواية النصرانية ، ومعظم كتابها من الأحبار المعاصرين ، فى تصوير نكبة المسلمين إلى حد الإغراق ، فتزعم أن القتلى من المسلمين فى الموقعة بلغوا ثلاثمائة وخمسة وسبعين ألفاً ، فى حين أنه لم يقتل من الفرنج سوى ألف وخمسمائة . ومنشأ هذه الرواية رسالة أرسلها الدوق أودو إلى البابا جريجورى الثانى ، يصف فيها حوادث الموقعة وينسب النصر لنفسه ، فنقلتها التواريخ النصرانية المعاصرة واللاحقة ، كأنها حقيقة يستطيع العقل أن يسيغها . بيد أنها ليست سوى محض خرافة ، فإن الجيش الإسلامى كله ، لم يبلغ حين دخوله فرنسا على أقصى تقدير ، أكثر من مائة ألف[2] . والجيش الإسلامى لم يهزم فى تور ولم يسحق ، بالمعنى الذى تفهم به الهزيمة الساحقة ، ولكنه ارتد من تلقاء نفسه بعد أن لبث طوال المعركة الفاصلة ، يقاتل حتى المساء محتفظاً بمراكزه أمام العدو ، ولم يرتد أثناء القتال ولم يهزم . ومن المستحيل أن يصل القتل الذريع فى جيش يحافظ على ثباته ومواقعه ، إلى هذه النسبة الخيالية . ومن المعقول أن تكون خسائر المسلمين فادحة فى مثل هذه المعارك الهائلة ، وهذا ما تسلم به الرواية الإسلامية . ولكن مثل هذه

---

( ١ ) نفح الطيب ج ٢ ص ٥٦ .

( ٢ ) وهذا التقدير يأخذ به بعض المؤرخين الغربيين أيضاً ، مثال ذلك المؤرخ الفرنسى **Mezerai** . راجع التعليقات فى موسوعة **Bayle** ، تحت كلمة **Abderame** .

الخسائر لا تمكن أن تعدو بضع عشرات الألوف فى جيش لم يزد على مائة ألف . وأسطع دليل على ذلك هو حذر الفرنج وإحجامهم عن مطاردة العرب عقب الموقعة ، وتوجسهم أن يكون انسحاب العرب خديعة حربية ، فلو أن الجيش الإسلامى انتهى إلى أنقاض ممزقة ، لبادر الفرنج بمطاردته والإجهاز عليه . ولكنه كان مايزال من القوة والكثرة إلى حد يخيف العدو ويرده[١] . على أن خسارة المسلمين كانت بالأخص فادحة فى نوعها ، تتمثل فى مقتل عبد الرحمن وجمع كبير من زعماء الجيش وقادته . بل كان مقتل عبد الرحمن أفدح ما فى هذه الخسارة ، فقد كان خير ولاة الأندلس ، وكان أعظم قائد عرفه الإسلام فى الغرب ، وكان الرجل الوحيد الذى استطاع بهيبته وقوة خلاله ، أن يجمع كلمة الإسلام فى اسبانيا ، فكان لمقتله فى هذا المأزق العصيب ، ضربة شديدة لمثل الإسلام ومشاريع الخلافة فى افتتاح الغرب[٢].

ويعلق النقد الحديث على هذا اللقاء بين الإسلام والنصرانية أهمية كبرى ، وينوه بخطورة آثاره وبعد مداها فى تغيير مصاير النصرانية وأمم الغرب ، ومن ثم فى تغيير تاريخ العالم كله . وإليك طائفة مما يقوله أكبر مؤرخى الغرب ومفكريه فى هذا المقام :

قال إدوارد جيبون ، إن حوادث هذه الموقعة « أنقذت آباءنا البريطانيين وجيراننا الغاليين ( الفرنسيين ) من نير القرآن المدنى والدينى ، وحفظت جلال رومة ، وأخرت استعباد قسطنطينيه ، وشدت بأزر النصرانية ، وأوقعت بأعدائها بذور التفرق والفشل »[٣]. ويعتبر المؤرخ أرنولد الموقعة « إحدى هاته المواقف

---

( ١ ) قال ادوار جيبون تعليقاً على مزاعم الرواية الفرنجية « ولكن تلك القصة الخرافية يمكن ردها بحذر القائد الفرنسى ( كارل مارتل ) إذ توجس من شراك المطاردة ومفاجآتها ورد حلفاءه الألمان إلى أوطانهم . ان سكون الفاتح ينم عن فقد الدماء والقوة ، وأن أشنع تمزيق للعدو لا يقع حين التحام الصفوف ، وإنما حين الانسحاب وتولية الأدبار » .

( ٢ ) راجع موسوعة **Bayle** تحت كلمة **Abderame** ، ففيها أيضاً إنكار للرواية الفرنجية عن خسائر العرب . وفى هذه الموسوعة تعليقات وملاحظات مفيدة لطائفة من المؤرخين الفرنسيين تجمع كلها على التنديد بمبالغة الرواية الفرنجية . وراجع أيضاً **Dom Vissette : ibid , V.I. p. 797** حيث يدحض مزاعم الروايات النصرانية .

( ٣ ) **Roman Empire - Ch. LII.**

الرهيبة لنجاة الإنسانية وضمان سعادتها مدى قرون »[١] . ويقول السير إدوار كريزى : « إن النصر العظيم الذى ناله كارل مارتل على العرب سنة ٧٣٢ وضع حداً حاسماً لفتوح العرب فى غرب أوربا ، وأنقذ النصرانية من الإسلام ، وحفظ بقايا الحضارة القديمة ، وبذور الحضارة الحديثة ، ورد التفوق القديم للأمم الهندية الأوربية على الأمم السامية »[٢]. ويقول فون شليجل فى كلامه عن الإسلام والإمبراطورية العربية : « ما كاد العرب يتمون فتح إسبانيا حتى تطلعوا إلى فتح غاليا وبرجونية . ولكن النصر الساحق الذى غنمه بطل الفرنج كارل مارتل بين تور وبواتييه وضع لتقدمهم حداً ، وسقط قائدهم عبد الرحمن فى الميدان مع زهرة جنده . وبذا أنقذ كارل مارتل بسيفه أمم الغرب النصرانية من قبضة الإسلام الفتاكة ، الهدامة إلى الذروة »[٣] ، ويقول رانكه : « إن فاتحة القرن الثامن من أهم عصور التاريخ ، ففيها كان دين محمد ينذر بامتلاك إيطاليا وغاليا ، وقد وثبت الوثنية كرة أخرى إلى ما وراء الرين . فنهض إزاء ذلك الخطر فتى من عشيرة جرمانية هو كارل مارتل ، وأيد هيبة النظم النصرانية المشرفة على الفناء ، بكل ما تقتضيه غريزة البقاء من عزم ، ودفعها إلى بلاد جديدة »[٤] . ويقول زيلر : « كان هذا الانتصار بالأخص انتصار الفرنج والنصرانية . وقد عاون هذا النصر زعيم الفرنج على توطيد سلطانه ، لا فى غاليا وحدها ولكن فى جرمانيا التى أشركها فى نصره »[٥]. على أن هناك فريقاً من مؤرخى الغرب لا يذهب إلى هذا الحد فى تقدير نتائج الموقعة وآثارها . ومن هذا الفريق المؤرخان الكبيران سسموندى وميشليه ، فهما لا يعلقان كبير أهمية على ظفر كارل مارتل . ويقول جورج فنلى : «إن أثرة الكتاب الغاليين قد عظمت من شأن تغلب كارل مارتل على حملة ناهبة من عرب اسبانيا ، وصورته كانتصار باهر ، ونسبت خلاص أوربا من نير العرب إلى شجاعة الفرنج ، فى حين أن حجاباً ألقى على عبقرية ليون الثالث ( إمبراطور قسطنطينية ) وعزمه ، مع أنه نشأ جندياً يبحث وراء طالعه ، ولم يكد يجلس على

---

(١) History of the Roman Commonwealth

(٢) Decisive Battles of the World

(٣) Philosophie der Geschichte

(٤) History of the Reformation

(٥) Histoire de L'Allemagne

العرش حتى أحبط خطط الفتح ، التى أنفق الوليد وسليمان طويلا فى تدبيرها »[١]

ونحن مع الفريق الأول نكبر شأن بلاط الشهداء أيما إكبار ، ونرى أنها كانت أعظم لقاء بين الإسلام والنصرانية ، وبين الشرق والغرب ، ففى سهول تور وبواتييه فقد العرب سيادة العالم بأسره ، وتغيرت مصاير العالم القديم كله ، وارتد تيار الفتح الإسلامى أمام الأمم الشمالية ، كما ارتد قبل ذلك بأعوام أمام أسوار قسطنطينية ، وأخفقت بذلك آخر محاولة بذلتها الخلافة لافتتاح أمم الغرب ، واخضاع النصرانية لصولة الإسلام . ولم تتح للإسلام المتحد فرصة أخرى ، لينفذ إلى قلب أوربا فى مثل كثرته وعزمه واعتزازه ، يوم مسيره إلى بلاط الشهداء . ولكنه أصيب غير بعيد بتفرق الكلمة ، وبينما شغلت إسبانيا المسلمة بمنازعاتها الداخلية ، إذ قامت فيما وراء البرنيه إمبراطورية فرنجية عظيمة موحدة الكلمة ، تهدد الإسلام فى الغرب وتنازعه السيادة والنفوذ .

---

(١) Byzantine Empire

# الفصل السابع

## الأندلس بين المد والجزر

صدى بلاط الشهداء . اهتمام الخلافة بحوادث الأندلس . تعيين عبد الملك بن قطن والياً للأندلس . مسير ابن قطن إلى الشمال . محاربته للثوار فى الثغر الأعلى وبسكونية . غزوه لأكوتين . هزيمته أثناء العودة . صرامته وعزله . ولاية عقبة بن الحجاج . حزم عقبة وإصلاحاته . غزوه لجليقية . تحصينه لقواعد الثغر . غزواته فى غاليس . حوادث أكوتين . عبد الرحمن اللخمى فارس الأندلس يغزو آرل . تحالف مورنتوس دوق بروڤانس مع العرب . غزو القوات المتحدة لبرجونية . مهاجمة الفرنج لأڤنيون واستيلاؤهم عليها . حصار كارل مارتل لأربونة . موقعة بين العرب والفرنج . هزيمة العرب . رفع الحصار عن أربونة . استيلاء كارل على مدن سبتمانيا وتخريبها . عوده إلى الشمال . مسير عقبة إلى سبتمانيا . استرداده لآرل . غزو الفرنج واللومبارد لبروڤانس . قدوم كارل مارتل . ارتداد المسلمين . هزيمة مورنتوس وتمزيق قواته . مهاجمة البشكنس لعقبة حين عبوره الجبال . وفاة عقبة . ولاية عبد الملك ابن قطن الثانية . حوادث إفريقية . سخط البربر على العرب . ذيوع الدعوة الخارجية بين البربر . موقف البربر فى أسبانيا . أقوال ابن خلدون فى ذلك . أقوال دوزى . اضطرام البربر بعوامل الثورة . إخماد الثورة فى المغرب الأقصى . ولاية إسماعيل بن عبيد الله للمغرب . عودة الثورة بزعامة ميسرة المدغرى . استيلاء الثوار على طنجة . الحرب بين العرب والبربر . مصرع ميسرة . موقعة الأشراف . ولاية كلثوم بن عياض لإفريقية . الخلاف بين زعماء العرب . مسير كلثوم إلى المغرب . استئناف الحرب بين العرب والبربر . هزيمة العرب ومقتل كلثوم . امتناع الشاميين بسبتة . ولاية حنظلة بن صفوان لإفريقية . الثورة فى إفريقية الوسطى . قتال حنظلة للثوار . هزيمة البربر ومصرع زعمائهم .

كان للخطب الجلل الذى أصاب الإسلام فى بلاط الشهداء وقع عظيم فى بلاط دمشق . وفى جميع أرجاء العالم الإسلامى، وكان ارتداد الإسلام أمام أسوار قسطنطينية قد وقع للمرة الثانية قبل ذلك بأربعة عشر عاماً فقط ، فكانت نكبة البلاط تتمة الفشل المؤلم ، الذى أصاب مشاريع الخلافة فى افتتاح أمم الغرب . على أنها لم تكن خاتمة الفتوح الإسلامية فى فرنسا .

وأثار هذا الخطب فى نفس هشام بن عبد الملك . أيما اهتمام بشئون الأندلس ومصير الإسلام فى الغرب ، فاختار عبد الملك بن قطن الفهرى والياً للأندلس ، وأمره أن يعمل على حماية شبه الجزيرة ، وتوطيد هيبة الإسلام فى تلك الأقطار

النائية . فعبر عبد الملك إلى اسبانيا ، فى جيش منتخب من جند إفريقية ، فى أواخر سنة ١١٤ هـ[١]. وكان ثوار المقاطعات الشمالية قد انتهزوا فرصة مقتل عبد الرحمن وانحلال جيشه ، وحاولوا أن ينزعوا عنهم نير الإسلام ، فسار عبد الملك إلى الثغر الأعلى (أراجون) وهزم الثوار فى عدة مواقع . ثم عبر البرنيه إلى بسكونية ( بلاد البشكنس)[٢]سنة ١١٥ هـ ( ٧٣٣ م ) ، وكانت دائماً أشد المقاطعات الجبلية مراساً ، وأكثرها خروجاً وانتقاضاً ، فعاث فيها وشتت جندها وألجأهم إلى طلب الصلح[٣] . ثم سار إلى لانجدوك ، وكان الفرنج منذ موقعة البلاط ، يتطلعون إلى استردادها ، ويكثرون من الإغارة عليها ، فنظم حاميتها ، وحصن قواعدها . ثم أغار على أراضى أكوتين وعاث فيها ، فاعترضه الدوق أودووردو ، ولم يخاطر عبد الملك بالتوغل فى أرض الفرنج لصغر جيشه ، فارتد إلى الجنوب ، ولكنه أثناء عبوره جبال البرنيه ، هاجمته العصابات الجبلية البسكونية ، وأصابته فى قتالها خسارة كبيرة ، فعاد إلى قرطبة دون أن يتمكن من إخضاعها .

ولم يطل عهد عبد الملك بعد عوده ، فقد كان صارماً ، شديد الوطأة ، كثير الظلم والبطش[٤]. فسخط عليه الزعماء وأولو الرأى ، ودب الخلاف بين القبائل ، وبدت بوادر الفتنة . هذا إلى أنه لم يوفق إلى إخماد الثورة فى الولايات الشمالية ، وتوطيد سلطان الإسلام فيها . فعزل فى رمضان سنة ١١٦ لسنتين من ولايته . واختار عبيد الله بن الحبحاب عامل إفريقية ، مكانه لولاية الأندلس ، عقبة بن الحجاج السلولى . فدخلها فى شوال سنة ١١٦ ( أواخر سنة ٧٣٤ م ) . وكان عقبة من طراز عبد الرحمن الغافقى جندياً عظيماً ، نافذ العزم والهيبة ، محمود الخلال والسيرة ، كثير العدل والتقوى[٥] ، فأقام النظام والعدل ، ورد المظالم ، وقمع الرشوة

---

( ١ ) المقر ج ٢ ص ٥٨ ، ابن الأثير ج ٥ ص ٦٤ . ولكن ابن عبد الحكم يقول إن ولاية ابن قطن كانت سنة ١١٥هـ (ص٢١٧) . وهذا يرجع إلى أنه يقول كما قدمنا بوقوع بلاط الشهداء سنة ١١٥ .

( ٢ ) بسكونية أو بسكونس أو بلاد البشكنس بالعربية هى **Vasconia** القديمة ، وقد كانت تشمل الرقعة الممتدة فى غرب البرنيه بحذاء الشاطىء إلى شرق الأستورياس ، وكانت أهم أجزائها فى ذلك العصر ولاية نافار التى يسميها العرب أحياناً نبره ، وكانت عندئذ إمارة مستقلة يحكمها على الأرجح زعيم أو أمير قوطى ، وتشمل من مقاطعات اسبانيا الحديثة نافار وبسكاية **Vizcaya**.

( ٣ ) المقرى ج ٢ ص ٥٨ .

( ٤ ) المقرى ج ١ ص ١١٠ ؛ وعن ابن بشكوال ج ٢ ص ٥٨ .

( ٥ ) المقر ج ٢ ص ٥٨ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٨ .

والاختلاس ، وعزل الحكام الظلمة وألقاهم فى غيابة السجن ، وأقام مكانهم جماعة من ذوى الحزم والنزاهة ، وأنشأ كثيراً من المدارس والمساجد . فاستقرت الأحوال وخبت الفتنة ، وتراضت القبائل . واعتزم عقبة فى الوقت نفسه أن يعيد عهد الجهاد والفتوح العظيمة ، وأن يوطد سلطان الإسلام فى الولايات الشمالية ، وفى غاليس ( فرنسا ) . فنظم الجيش وزاد فى قواته وأهبته ، وغزا جليقية وتوغل فيها ، واستولى على كثير من مواقعها ، ولكنه لم يستطع أن يسحق بقية النصارى التى اجتمعت حول الزعيم القوطى بلاى (أوبلايو) ، وما زالت معتصمة بأقاصى الجبال فى شعب عرفت لمنعتها « بالصخرة » ، متحدية كل أمير وقائد مسلم[١] . وحصن عقبة جميع المواقع الإسلامية على ضفاف نهر الرون ، واتخذ ثغر أربونة قاعدة للجهاد والغزو ، فحصنها وبعث إليها بالجند والمؤن والذخائر . وتقول الرواية الإسلامية إن عقبة لبث طوال حكمه الذى امتد خمسة أعوام مثابراً على الجهاد والغزو ، وأنه كان يخرج للغزو كل عام ، حتى عاد نهر الرون رباط المسلمين أو معقل فتوحاتهم[٢] ، بعد أن كان الفرنج قد استردوا ما بيد المسلمين فى تلك الأنحاء . ولا تفصل الرواية الإسلامية حوادث هذه الغزوات ، ولكن الروايات الفرنجية المعاصرة تلقى عليها شيئاً من الضياء ، وإليك ملخص الغزوات الإسلامية فى غاليس فى تلك الفترة حسبما تقصه علينا تلك الروايات :

رأى الفرنج على أثر ما أصاب المسلمين فى بلاط الشهداء ، أن الفرصة قد سنحت لإخراجهم من فرنسا . ولكن كارل مارتل شغل حيناً بمحاربة القبائل الوثنية فيما وراء الرين ، فى فريزيا وسكسونية ، وشغل أودو برد العرب حينما غزوا أكوتين مرة أخرى بقيادة ابن قطن . ثم توفى أودو فى العام التالى ( سنة ٧٣٥م ) ، وتخلص كارل مارتل بذلك من منافسه القوى ، وبادر إلى غزو أكوتين ودخل بوردو عاصمتها ، وأقام هونالد ولد أودو دوقاً مكان أبيه ، على أن تكون أكوتين تابعة للمملكة الفرنجية . وفى تلك الأثناء ولى الأندلس عقبة بن الحجاج ، وأخذ ينظم الأهبة لاسترداد الثغور الإسلامية الشمالية . وفى سنة ٧٣٥م ( ١١٧ هـ ) غزا العرب مدينة آرل للمرة الثانية ، بقيادة عبد الرحمن بن علقمة اللخمى والى

---

( ١ ) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٩ .

( ٢ ) المقرى ج ٢ ص ٥٨ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٩ .

أربونة ، الموصوف بأنه « فارس الأندلس فى عصره » تنويهاً بشجاعته الفائقة[١] واستولوا عليها . وكانت الولايات المجاورة لسبتمانيا الواقعة حول ضفاف الرون ، وكلها مزيج من القوط والبرجونيين ، تنزع إلى الخروج على كارل مارتل ، وتحاول التخلص من نير الفرنج ، وكان الدوق مورنتوس أو مورنت أمير بروفانس أقوى زعماء هذه المنطقة . بحكم ما بين نهر الرون وجبال الألب ، ويسعى إلى توطيد استقلاله . وتوسيع ملكه على نحو ما كان يفعل أودو فى أكوتين ، فاتصل بالعرب وتحالف معهم . وفى سنة ٧٣٦ م عبر الدوق وعبد الرحمن اللخمى الرون فى جيش مشترك ، واستوليا على مدينة أڤنيون رغم حصانتها[٢] . واخترق العرب بعد ذلك إقليم دوفينه ، واستولوا على أوسيز وڤڤييه وڤالانس وڤيين وليون وغيرها ، وغزوا برجونية وحصلوا على غنائم لا تحصى[٣] . وعلم كارل مارتل بذلك أثناء انشغاله بالحرب فى سكسونية ، فبعث أخاه شلدبراند فى جيش ضخم ليصد العرب . ثم لحق به جيش آخر ، وزحف الفرنج على أڤنيون فى كثرة وهاجموها بشدة حتى سقطت فى أيديهم ، وقتلوا حاميتها المسلمة ، وتحصن العرب فى أربونة ، فسار إليها كارل مارتل ، وحاصرها فقاومه المسلمون أشد مقاومة . وردوا كل هجماته . وأرسل عقبة فى الحال جيشاً لإنقاذ المدينة ، فقصدها من جهة البحر . وجاز إلى الشاطئ قبل أن يشعر به الفرنج حتى صار على مقربة من أربونة . فلما علم كارل بمقدم هذا الجيش الجديد ، بادر إلى لقائه ونشبت بينه وبين العرب موقعة هائلة ، فيما بين البحر وأربونة ، هزم فيها العرب هزيمة شديدة ، وطاردهم الفرنج حتى الشاطئ ، فلم ينج منهم سوى شراذم قليلة لجأت إلى السفن ، وذلك فى ربيع سنة ٧٣٧م (١١٩هـ) . ومع ذلك فلم تسلم أربونة ولم يهن عزمها . فاضطر عندئذ كارل مارتل إلى رفع الحصار عنها ، وارتد إلى مهاجمة المواقع الإسلامية الأخرى ، فاستولى على بزييه وأجده وماجلونة وخرب قلاعها ومعاهدها ، وأحرق نيمة وآثارها الرومانية الفخمة ، فغدت جميعاً أطلالا دارسة ، بعد أن كانت أيام المسلمين زاهرة باسمة . وحول السهل الواقع غرب سبتمانيا وشمالها إلى قفر بلقع ليحول دون تقدم المسلمين . وهنا وصلته الأنباء بوفاة تيودريك الرابع

---

(١) نفح الطيب ج ٢ ص ٥٩ و ٦٢ .

(٢) وهى فى الرواية العربية « صخرة أبنيون » ( راجع نفح الطيب ج ١ ص ١٢٨ ) .

(٣) Dom Vissette : ibid. V.I. p. 803

ملك الفرنج الميروفنجى (سبتمبر سنة ٧٣٧) ، فارتد مسرعاً إلى عاصمة ملكه ليتقى تدابير خصومه ، ولم يقم ملكاً جديداً على العرش رغم وجود أعضاء من الأسرة الميروفنجية ، بل آثر أن يترك العرش خالياً ، حتى تمهد الظروف له أو لبنيه اعتلاءه ، وتتويج سلطان محافظ القصر الفعلى بألقاب الملك .

وفى ذلك الحين كان عقبة بن الحجاج يتأهب لاستئناف الغزو ، واسترداد ما انتزعه كارل مارتل من قواعد سبتمانيا . ففى ربيع سنة ٧٣٨ م ( ١٢٠ هـ ) عبر عقبة جبال البرنيه فى جيش ضخم ونفذ إلى سبتمانيا ، وعبر الرون واسترد مدينة آرل للمرة الثالثة أو الرابعة . ثم استولى بمعاونة الدوق مورنتوس على أفنيون وعدة معاقل أخرى فى بروفانس . وكان كارل فى ذلك الحين قد عاد إلى محاربة السكسونيين ، فبعث لقتال العرب جيشاً بقيادة أخيه شلدبراند ، واستغاث بصهره وحليفه لوتبراند ملك اللومبارد[1] ، فغزا بروفانس من جهة الشرق ليضيق على قوات الدوق ، ثم أسرع كارل إلى الرون بجيش ثالث ، وزحفت الجيوش المتحدة على مواقع المسلمين ، فاضطر عقبة إلى إخلاء بروفانس والارتداد إلى ما وراء الرون ، واستولى الفرنج أيضاً على معظم سبتمانيا ، ولم يبق منها بيد المسلمين سوى أربونة ، ورقعة ضيقة من الأرض على الشاطئ بين أربونة والبرنيه ، ومزقت قوى الدوق مورنتوس ، وطارده الفرنج فى شعب الجبال ، ففر ناجياً بحياته ، واستولى الفرنج على أراضيه ، واصطدم عقبة حين عبوره البرنيه إلى الأندلس بعصابات قوية من البسكونيين والقوط ، حاولت بتحريض الفرنج أن تسد دونه ممرات الجبال ، فتكبد فى تمزيقها بعض الخسائر ، ولكنه ارتد بجيشه سالماً إلى قرطبة . وكان هذا اللقاء الأخير بين العرب والفرنج فى سهول الرون فى سنة ٧٣٩ م ( ١٢١ هـ )[1] .

ثم توفى عقبة بن الحجاج بعد ذلك بقليل . وقدمت الجماعة مكانه عبد الملك ابن قَطَن ، فولى الأندلس للمرة الثانية . وقيل بل ثار ابن قطن على عقبة فى جمع

---

( ١ ) يسمى العرب لومبارديا أنكبردة ، واللومبارد بالأنكبرد ، محرفة عن التسمية القديمة ( لانجوبارد ) Langobard ( راجع معجم ياقوت الجغرافى ج ١ ص ٢٦٢ ) ،

( ٢ ) رجعنا فى تفصيل هذه الغزوات والوقائع إلى ما ورد فى موسوعة Bouquet من أقوال الرواة والمؤرخين المعاصرين من الأحبار وغيرهم . وراجع أيضاً : Dom Vissette: ibid , V.I. p. 807 & 809

كبير من أنصاره ، وكان عقبة قد ولاه على أثر عزله ، قيادة الجيش فى الشمال ، فلبث يتحين الفرص للخروج والثورة . فأسر عقبة وقتل ، أو أسر حتى توفى ، وانتزع ابن قطن ولاية الأندلس لنفسه ، ووقع هذا الانقلاب سنة ١٢٢ هـ[١]، وقيل بل سنة ١٢٣ . قال الرازى : « ثار أهل الأندلس بأميرهم عقبة فى صفر سنة ثلاث وعشرين ، فى خلافة هشام بن عبد الملك ، وولوا عليهم عبد الملك بن قطن ولايته الثانية ، وكانت ولاية عقبة ستة أعوام وأربعة أشهر ، وتوفى بقرمونة فى صفر سنة ثلاث وعشرين واستقام الأمر لعبد الملك »[٢]. وعلى أى حال فقد كان هذا الانقلاب بالنسبة للأندلس فاتحة عهد من الاضطراب والفتن والحرب الأهلية المتصلة كما سنرى .

ويجب لكى نعرف عوامل هذا الاضطراب ، أن نعود إلى حوادث إفريقية قبل ذلك بثلاثة أعوام أو أربعة . فنى سنة ١١٦ هـ عيُن عبيد الله بن الحبحاب عامل مصر والياً لإفريقية ، وقد بينا فيما سلف كيف كان البربر يضطرمون سخطاً على سادتهم العرب ، وشرحنا طرفاً من عوامل هذا السخط ، وبينا كيف أن دعوة الخوارج ذاعت بين البربر منذ أواخر القرن الأول ، فأقبلوا على اعتناقها لما تضمنت من مبادئ الحرية والديمقراطية ، والحث على مقاتلة الغاصبين للرياسة والحكم . كذلك رأينا كيف استبسل البربر فى الدفاع عن حرياتهم ، وانقضوا على الفاتحين غير مرة ، وحطموا سلطانهم ، وفتكوا بقادتهم وجيوشهم ، ولم يخضعوا لنير العرب إلا بعد كفاح رائع ، استطال زهاء نصف قرن . ومع أن الأمر استتب للعرب آخر الأمر ، واستطاعوا أن يفرضوا سلطانهم ودينهم على البربر ، وأن يتخذوهم جنداً لجيوش الخلافة فى الغرب ، فإن البربر لبثوا يعتبرون العرب أجانب غاصبين لحرياتهم ، ولبثت القبائل البربرية القاصية ، تضطرم دائماً بنزعات الخروج والثورة . وكانت مثل هذه العواطف تحفز البربر فى اسبانيا ، إلى مخاصمة العرب والسخط عليهم والتربص بهم ، وخصوصاً لأنهم رغم قيامهم بمعظم أعباء الفتح ، لم يفوزوا بكثير من مغانمه ، واستأثر العرب دونهم بالسلطان والحكم . وفى ذلك يقول ابن خلدون : « ثم نبضت فيهم ( أى البربر ) عروق الخارجية

---

( ١ ) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٩ .

( ٢ ) المقرى عن الرازى (نفح الطيب ج ١ ص ١١٠ ) . راجع أيضاً عن مصير عقبة ، نفح الطيب ج ٢ ص ٥٨ ، وابن الأثير ج ٥ ص ٩٢ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١١٩ .

فدانوا بها ، ولقنوها من العرب الناقلة ممن سمعها بالعراق ، وتعددت طوائفهم ، وتشعبت طرقها من الإباضية والصفرية . وفشت هذه البدعة وعقدها رؤوس النفاق من العرب ، وجرت إليهم الفتنة من البربر ذريعة الانتزاء على الأمر ، فاختلوا فى كل جهة ، ودعوا إلى قائدهم طغام البربر ، تتلون عليهم مذاهب كفرها ، ويلبسون الحق بالباطل فيها ، إلى أن رسخت فيهم عروق من غرائسها . ثم تطاول البربر إلى الفتك بأمر العرب »[1] .

ويصف دوزى موقف البربر من العرب فيما يأتى : « اعتنق البربر سكان الأكواخ الحقيرة ، كل التعاليم بحماسة لا توصف ، ولا ريب أنهم لجهالتهم وسذاجتهم ، لم يدركوا شيئاً من تضارب المذاهب ودقائقها ، مما تدركه وتسيغه أذهان مستنيرة ، فمن العبث إذاً أن نبحث عن أى الفرق كانوا يفضلون الانضمام إليها ، وعما إذا كانوا من الحرورية أو الصفرية أو الإباضية ، فقد اختلف الرواة فى ذلك . ولكنهم كانوا يفقهون من المبادئ . ما يسمح لهم باعتناق المبادئ الثورية والديمقراطية ، ومشاطرة الآمال الخيالية التى يذيعها فقهاؤهم فى المساواة العامة ، وما يقنعهم بأن ظالميهم كانوا آثمين نصيبهم النار . ولما كان الخلفاء منذ عثمان جميعاً غاصبين غير مؤمنين ، فلم يكن جريمة أن يثوروا على الظالم الذى يسلبهم أراضيهم ونساءهم . فقد كان هذا حقاً بل كان واجباً . ولما كان العرب قد أبعدوهم عن السلطة ، ولم يتركوا لهم إلا ما عجزوا عن أخذه منهم ، أعنى حكم القبائل ، فقد اعتقدوا بسهولة أن نظرية سيادة الشعب ، وهى نظرية يعتنقونها فى ظل استقلالهم الوحشى منذ غابر العصور ، إنما هى نظرية عريقة فى الإسلام عريقة فى الإيمان . وأن أقل بربرى يمكن رفعه إلى العرش برأى الجماعة . وهكذا كان هذا الشعب الذى بولغ فى ظلمه ، يثيره متعصبون أنصاف فقهاء وأنصاف جند ، وينزع إلى رفع هذا النير باسم الله وباسم النبى . وباسم هذا الكتاب المقدس ( القرآن ) الذى اعتمد عليه آخرون فى إقامة الطغيان الرائع »[2] .

فلما ولى عبيد الله بن الحبحاب إفريقية ، كانت القبائل البربرية تضطرم بعوامل الثورة ولا سيما فى المغرب الأقصى ، فسير عبيد الله إلى مواطن الثورة فى قاصية المغرب جيشاً بقيادة حبيب بن أبى عبيدة الفهرى ، فأثخن فى هاتيك الأنحاء ومزق

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ١١٠ .
(٢) Dozy : Hist. V.I. p. 149 — 150

جموع الثائرين ، وعاد مثقلا بالغنائم والسبى ، وسادت السكينة حيناً فى المغرب الأقصى . وسير ابن الحبحاب حبيباً فى معظم قواته فى غزوة بحرية إلى سردانية وصقلية ، وعين ولده إسماعيل والياً للمغرب الأقصى . ولكن هذه السكينة كانت ظاهراً خلباً فقط ، فقد كان البربر يتوقون إلى الانتقام ويرقبون الفرص . وكان إسماعيل يحفزهم ويثيرهم بعسفه وسوء تصرفه . وذاع فوق ذلك أنه ينوى أن يعتبر مسلمى البربر كالنصارى فيئاً وغنيمة ، وأن يفرض الأخماس عليهم . فذكا الهياج واستفحل ، وانتهز البربر فرصة غياب الجيش والقادة فى صقلية . فأعلنوا الثورة والتفوا حول داعية من الخوارج الصفرية ، وهو سقاء يدعى ميسرة المدغرى ، وانقضوا على طنجة وهزموا حاميتها ، وقتلوا قائدهم عمر بن عبد الله . واستولوا عليها ودعوا لميسرة بالخلافة . ثم زحفوا على السوس وهزموا إسماعيل بن عبيد الله وقتلوه ، فقويت جموعهم واستفحل شأنهم . وذاعت الدعوة الخارجية فى قفار المغرب ذيوعاً كبيراً ، واضطرب سلطان العرب فى معظم النواحى . فسير ابن الحبحاب فى الحال جيشاً إلى المغرب الأقصى بقيادة خالد بن حبيب ، واستدعى حبيب بن أبى عبيدة وجيشه من صقلية ، ووقعت بين خالد والبربر بقيادة ميسرة معارك شديدة غير حاسمة فى ظاهر طنجة . ثم ارتد ميسرة إلى طنجة حيناً ، واغتاله بعض أنصاره لأمور نقموها منه ، وولوا مكانه خالد بن حميد الزناتى ، وهو من بطون زناتة . فبرز لقتال العرب ثانية ، ونشبت بين الفريقين فى مكان يعرف بوادى سلف ، معارك هائلة هزم فيها العرب ، وقتل خالد بن حبيب وجماعة كبيرة من الزعماء والقادة . وسميت الموقعة لذلك بغزوة الأشراف ( أوائل سنة ١٢٣ هـ )(١).

فلما رأى هشام بن عبد الملك عجز ابن الحبحاب عن ضبط الأمور . استدعاه وأقاله ، واعتزم أن يخمد ثورة البربر بأى الوسائل . فعين لولاية إفريقية كلثوم ابن عياض القشيرى(٢)، وسيره إليها فى جيش ضخم من عرب الشام ، بقيادة ابن أخيه بَلْج بن بشر القشيرى ( جمادى الثانية سنة ١٢٣ ) واجتمعت إليه أثناء

---

(١) ابن عبد الحكم ص٢١٧ و ٢١٨ ؛ وابن الأثير ج ٥ ص ٧٠ ؛ وابن خلدون ج ٦ ص ١١٠

(٢) هكذا يسميه ابن الأثير ( ج ٥ ص ٧٠ ) ، وابن خلدون ( ج ٦ ص ١١١ ) ، والمقرى ( ج ٢ ص ٥٨ ) ولكن ابن عبد الحكم يسميه كلثوم بن عياض القيسى ( ص ٢١٨ ) . وكذا بشر ابن بلج فيسميه القيسى بدلا من القشيرى ( ص ٢١٩ ) .

مسيره قوات أخرى من مصر وطرابلس ، حتى بلغ جيشه زهاء سبعين ألفاً[١]. وكان حبيب بن أبى عبيدة قد وقف بجيشه فى منتصف الطريق ، متردداً لما رآه من استفحال أمر البربر ، فاستوقفه كلثوم حتى يصل إليه . وكان حبيب وزعماء العرب فى إفريقية ، يتوجسون شراً من غلبة الشاميين ، فاستقبلوا كلثوماً وبلْجا بفتور ، وأبدى بلج بالأخص جفاء وخشونة فى معاملة أهل القيروان ، وثارت بينه وبين حبيب مناقشات عاصفة ، وكاد الخلاف يضطرم بين الفريقين ، ويرتد العرب لقتال بعضهم بعضاً لولا أن غلبت الحكمة إزاء الخطر الداهم[٢] . فسارت القوات المتحدة لقتال البربر ، وسار البربر لقتالهم من طنجة فى جموع زاخرة بقيادة خالد بن حميد الزناتى ، ونشبت بين الفريقين على مقربة من طنجة فى مكان يعرف بوادى سبسر ، معارك هائلة كان النصر فيها حليف البربر ، فمزق العرب للمرة الثالثة ، وقتل كلثوم وحبيب وكثير من الزعماء والقادة[٣]. وارتدت فلول العرب إلى القيروان ، وفر بلج بن بشر ونفر من الزعماء ، منهم ثعلبة بن سلامة الجذامى وعبد الرحمن بن حبيب فى بقية من جند الشام إلى سبتة ، فامتنعوا بها واستغاثوا بوالى الأندلس عبد الملك بن قطن ، ووقعت هذه النكبة فى أواخر سنة ١٢٣ أو أوائل سنة ١٢٤ هـ ( ٧٤١ م ) .

عندئذ سير هشام بن عبد الملك والى مصر ، حنظلة بن صفوان الكلبى والياً لإفريقية ، فقدمها فى ربيع الثانى سنة ١٢٤ . وكانت دعوة الخوارج قد سرت أيضاً إلى إفريقية الوسطى ، بعد أن خرج المغرب الأقصى من قبضة الخلافة ، وثار البربر فى كثير من النواحى . وخرج منهم فى ناحية قابس زعيم يدعى عكاشة الفزارى . وخرج فى غرب القيروان زعيم آخر هو عبد الواحد بن يزيد الهوارى . فحشد حنظلة كل قواته ، ولقى الفزارى أولا ، وهزمه بعد معركة عنيفة ومزق جموعه . ثم التقى بجيش عبد الواحد على مقربة من القيروان بمكان يعرف بالأصنام ،

---

( ١ ) المقرى عن ابن حيان ج ٢ ص ٥٨

( ٢ ) ابن عبد الحكم ( ص ٢١٩ ) ، وابن الأثير ( ج ٥ ص ٧٠ ) وراجع أيضاً دوزى : Hist, V.I. p. 245

( ٣ ) يتفق ابن عبد الحكم ( ص ٢٢٠ ) وابن الأثير ( ج ٥ ص ٧١ ) وابن خلدون ( ج ٦ ص ١١١ ) ، على أن كلثوم بن عياض قتل فى الموقعة ، ولكن المقرى يقول نقلا عن ابن حيان إن فر مع بلج إلى سبتة ، وعبر إلى الأندلس حيث توفى ( ج ٢ ص ٥٨ — ٥٩ ) .

ويقال إن جموع البربر بلغت يومئذ ثلاثمائة ألف ، وبلغ العرب أربعين ألفاً فقط[١]. ونشب بين الفريقين قتال رائع ثبت فيه العرب ، ومزق البربر وقتلت منهم جموع عظيمة ، وقتل عبد الواحد وأسر الفزارى وقتل بأمر حنظلة . وكانت هذه الموقعة الشهيرة سنة ١٢٥ هـ ( ٨٤٢ م ) .

وليس من موضوعنا أن نتتبع ما تلا من الحوادث فى إفريقية[٢] ، ويكفى أن نقول إن ثورة الخوارج لبثت على اضطرامها ، وظهر الثوار والمتغلبون فى كل ناحية ، ولبثت إفريقية عصراً آخر فريسة الاضطراب والفوضى ، واضمحلت سيادة العرب ، ثم زالت غير بعيد لتحل مكانها سيادة المستعربين من البربر والموالى .

---

( ١ ) ابن الأثير ج ٥ ص ٧١ .

( ٢ ) يفصل ابن خلدون هذه الحوادث فى ج ٦ ص ١١١ وما بعدها ، وكذلك ابن عبد الحكم فى أخبار مصر وفتوحها ص ٢٣٣ وما بعدها .

# الفصل الثامن

## الحرب الأهليـــة

صدى حوادث إفريقية فى الأندلس . استغاثة الشاميين بابن قطن . إعراضه عن دعوتهم . ثورة البربر فى الأندلس . مفاوضة ابن قطن لبلج زعيم الشاميين واستخدامهم . سير القوات المتحدة لمحاربة البربر . هزيمة البربر فى شذونة وقرطبة . سحق ثورتهم . مطالبة ابن قطن للشاميين بالجلاء . ثورة بلج بن بشر وادعاؤه ولاية الأندلس . مقتل ابن قطن وولاية بلج . ثورة أمية وقطن ابنى عبد الملك . الخصومة بين الشاميين والعرب المحليين . لقاء الفريقين فى ظاهر قرطبة . مصرع بلج وانتصار الشاميين . ولاية ثعلبة بن سلامة . ضعف حكومة قرطبة . خروج الزعماء فى مختلف النواحى . استئناف الحرب بين الشاميين وخصومهم . هزيمة ثعلبة ثم فوزه . مقدم أبى الخطار الوالى الجديد . قبضه على زمام السلطة . تفرقته للشاميين . ضمه لولاية تدمير إلى الأندلس . مطاردته للزعماء الخوارج . سكون الفتنة . تعصب أبى الخطار لليمنية . الصميل بن حاتم زعيم المضرية . ثورة المضرية والجذامية . الحرب بين الفريقين . هزيمة أبى الخطار . ولاية ثوابة بن سلامة . ثورة أبى الخطار . زحفه على قرطبة . فشله وهزيمته . الخلاف بين اليمنية والمضرية. ولاية عبد الرحمن اللخمى لشئون الحكم . الاتفاق على تولية يوسف بن عبد الرحمن الفهرى .

كان لهذه الفتنة التى اضطرمت فى إفريقية بين العرب والبربر . وما اقترن بها من الأحداث الخطيرة . صداها فى شئون الأندلس . وكانت الأندلس تتبع يومئذ إفريقية من الوجهة الإدارية . فكان لاضطراب الحكم فى إفريقية أثره فى اضطراب الحكم فى الأندلس ، كما كان لثورة البربر فى المغرب . أثرها فى تحريك البربر فى الضفة الأخرى من البحر . وقد سبق أن بينا كيف كان البربر فى شبه الجزيرة الإسبانية يجيشون سخطاً على العرب . لما استأثروا به دونهم من مغانم السيادة والحكم . وكيف كانت عصبية القبيل تمزق وحدة العرب أنفسهم ، وكيف كانت عوامل التنافس والتنازع ، تضطرم باستمرار بين اليمنية والمضرية . وسنرى الآن كيف كان صدى هذه العوامل المختلفة قوياً بارزاً فى حوادث الأندلس، وفى اضطراب شئونها ، وتمزيق وحدتها . وكيف انحدرت الأندلس من جرائها ، إلى معترك خطر من الفتن ، والحروب الأهلية الطاحنة . والفوضى .

تولى عبد الملك بن قطن الفهرى إمارة الأندلس للمرة الثانية على أثر وفاة عقبة بن الحجاج سنة ١٢٢ أو ١٢٣ هـ ، وثورة البربر يومئذ على أشدها فى المغرب

الأقصى . فلما هزم الجيش العربي فى مفاوز طنجة للمرة الثالثة ، وقتل كلثوم ابن عياض والى إفريقية ومعظم قواده ، فر بَلْج بن بشر فى بقية من جند الشام إلى سبتة ، وامتنع بها حسبما أسلفنا ، فطاردهم البربر وشددوا الحصار عليهم حتى جهدوا وأشرفوا على الهلاك . واستغاث بلج وزملاؤه بعبد الملك بن قطن ورجوه أن يعاونهم على العبور إلى الأندلس . وكان عبد الملك مضرياً شهد موقعة الحَرَّة(١) قبل ذلك بستين عاماً ، وشهد ما ارتكبه جند يزيد فى المدينة من رائع السفك والإثم ، فكان يبغض الشاميين أشد البغض ، وكان فوق ذلك يخشى مطامعهم ومنافستهم ، فأبى إغاثتهم بادئ ذى بدء ، وعاقب بالجلد والقتل زعيماً من بنى لخم ، أمدهم ببعض المؤن . ولكنه من جهة أخرى خشى عاقبة تصرفه ، وأن يتهمه الخليفة بالعمل على إهلاك جنده . ولم يمض قليل حتى اضطرته الحوادث نفسها إلى استدعاء بَلْج وأصحابه . ذلك أن ثورة البربر كان لها فى الأندلس أكبر صدى ، فتحرك البربر فى معظم الأقاليم الشمالية . وعصفت بالأندلس ريح ثورة بربرية دينية سياسية ، كتلك التى عصفت بإفريقية ، وإن كانت دونها شدة . واضطرمت الثورة بالأخص فى جليقية وماردة وقورية وطَلَبيرة ، وحشد الثوار جموعهم واختاروا لهم إماماً . واعتزموا الزحف على طليطلة وقرطبة ثم الجزيرة ، ليمهدوا لبربر العدوة سبيل القدوم إلى اسبانيا ، ومعاونتهم على سحق العرب . واستطاع البربر ، وهم فى عنفوان ثورتهم ، أن يهزموا كل الحملات ، التى وجهها ابن قطن لإخضاعهم . وهنا ارتاع ابن قطن . وفكر فى الحال أن يستعين بجند الشام المحصورين فى سبتة ، وهم زهاء عشرة آلاف ، فكتب إلى بلج يدعوه إلى معاونته ، واشترط عليه للعبور إلى الأندلس ، أن يغادرها متى صلحت حال جنده ، وانتهت الثورة . فقبل بَلْج وقدم الرهائن من أصحابه لتنفيذ هذا الميثاق . وعبر بَلْج وأصحابه إلى الأندلس (سنة ١٢٣ هـ) ، وقدمت إليهم المؤن والثياب . وانضموا إلى قوات ابن قطن بقيادة ولديه أمية وقطن . والتقت القوات المتحدة بالبربر أولا فى شَذُونة (مدينا سدونيا) فهزم البربر ، وأصاب الشاميون منهم غنائم كثيرة . ثم وقع القتال فى ظاهر قرطبة مع جموع البربر الزاحفة عليها ، فهزموا أيضاً بعد مقاومة

(١) هى ضاحية المدينة الشرقية وتعرف بحرة واقم . وكانت موقعة الحرة سنة ٦٣ هـ ؛ وفيها هاجم جند يزيد بن معاوية المدينة بقيادة مسلم بن عقبة المرى ، واستباحوها وقتلوا من أهلها جموعاً كبيرة ، ونهبوا الأموال ، وسبوا الذرية ، وهتكوا الأعراض ؛ وكانت من أشنع الوقائع .

شديدة ، ثم هزم البربر للمرة الثالثة ، فى وادى سليط على مقربة من طليطلة ، وكانوا قد بدأوا حصارها ، وبذلك سحقت الثورة ، ومزق البربر وطوردوا فى كل مكان ، وانتعش بلج وأصحابه وقويت نفوسهم واشتدت شوكتهم[١] .

وعندئذ طالب ابن قَطَن بتنفيذ الميثاق وجلاء الشاميين عن الأندلس متوجساً من بقائهم . ولكن بَلْجا كانت تحدوه أطماع أخرى ، فماطل فى الجلاء وسوّف ، ثم كشف القناع فجأة ، وادعى أنه أمير الأندلس الشرعى بعهد من عمه كلثوم ، وأيده فى ذلك ثعلبة بن سلامة وغيره من الزعماء . ثم نادى الشاميون بخلع ابن قطن وتولية بلج ، وانحازت إليه اليمانية ، ووثب بلج وأصحابه على ابن قطن وهو فى قلة من جنده ، فقبضوا عليه بقصره بقرطبة ، وكان شيخاً قد أشرف على التسعين فلم يرحموا شيخوخته بل قتلوه وصلبوه ومثلوا بجثته ، فتم الأمر بذلك لبلج بن بشر القشيرى ، وتولى إمارة الأندلس فى أوائل ذى القعدة سنة ١٢٣ هـ ( سبتمبر سنة ٧٤١ م )[٢].

ولكن الفتنة لم تنته بعد . فإن أمية وقَطَن ابنى عبد الملك فرا إلى الشمال ، وحشدا جموعهما فى سرقسطة ، وآزرهما البلديون ( العرب المحليون ) والبربر ، وانضم إليهما جماعة من الزعماء ، الذين أنكروا فعلة بلج بعبد الملك ، مثل عبد الرحمن ابن حبيب الفهرى كبير الجند ، وكان من أنصار بلج قبل الانقلاب ، وعبد الرحمن ابن علقمة اللخمى ، حاكم أربونة « فارس الأندلس فى عصره » ، وكان قوى البأس كثير الأتباع . وانقسمت الأندلس بذلك إلى معسكرين كبيرين ، معسكر الشاميين[٣] المتغلبين على الحكم ، ومعسكر العرب والبربر المحليين الذين اعتبروا الشاميين دخلاء غاصبين ، فعظمت الفتنة واشتد الاضطراب ، وسار أمية وقطن وأنصارهما إلى قرطبة لقتال الشاميين فى جيش قيل إنه بلغ نحو مائة ألف ، وتأهب بلج وأنصاره للدفاع فى نحو عشرين ألفاً ، والتقى الفريقان على مقربة من قرطبة فى شوال سنة ١٢٤ ( أغسطس سنة ٧٤٢ م ) ونشبت بينهما معارك

---

( ١ ) المقرى عن ابن حيان ج ٢ ص ٥٩ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٣٠ و ٣١ ، وراجع أيضاً : Dozy : Hist. V. I. p. 163

( ٢ ) ابن عبد الحكم ص ٢٢٠ ، وابن الأثير ج ٥ ص ٩٢ .

( ٣ ) ويعرف هؤلاء الجند الشاميون أيضاً « بالطالعة البلجية » نسبة إلى زعيمهم بلج ( ابن الأبار فى الحلة السيراء – ليدن – ( ص ٥١ ) .

شديدة ، وأبدى الشاميون شجاعة وجلداً . ولكن عبد الرحمن اللخمى صمم على قتل بلج . فحمل بجند أربونة على الشاميين ، وشق بينهم طريقاً إلى مكان بلج ، وأثخنه طعاناً توفى منها بعد أيام . ومع ذلك فقد انتصر الشاميون على البلديين انتصاراً باهراً فارتدوا منهزمين . وعاد الشاميون ظافرين إلى قرطبة ، وقدموا عليهم ثعلبة بن سلامة العاملى ، وكان من أصحاب بلج الذين عبروا معه إلى الأندلس كما قدمنا . فتولى إمارة الأندلس ، وقيل فى إمارته ما قيل فى إمارة بلج ، من أنه وليها بعهد من الخليفة ، أو من كلثوم والى إفريقية يليها بعد بلج ، وكانت ولايته فى شوال سنة ١٢٤[١] . فقبض ثعلبة على زمام الأمور بحزم ، وحاول أن يضبط النظام والأمن ، وأبدى كثيراً من اللين والاعتدال ، ولكن سلطان الحكومة المركزية كان قد تضعضع ، وانقسمت الأندلس إلى مناطق عديدة للنفوذ ، ولبثت الغلبة فى الأقاليم الوسطى والشمالية ، لجماعة من الزعماء الخارجين على حكومة قرطبة ، مثل أمية وقطن ابنى عبد الملك ، وعبد الرحمن بن حبيب الفهرى ، وعبد الرحمن اللخمى حاكم أربونة ، واستمر يؤازر هذا الفريق سواد العرب المحليين والبربر . ولم تمض أشهر قلائل حتى اضطرمت الحرب مرة أخرى بين الفريقين المتنازعين ، ونشبت بينهما مواقع عديدة على مقربة من ماردة ، فهزم الشاميون أولا واعتصم ثعلبة بقلعة ماردة ، ولكنه عاد فكر على خصومه وهزمهم هزيمة شنيعة ، وأسر وسبى منهم جموعاً كبيرة ، وعاد ظافراً إلى قرطبة ، وقرر إعدام الأسرى ليلقى على خصومه درساً قاسياً . ولكنه قبل أن يتمكن من تنفيذ عزمه ، قدم إلى قرطبة حاكم جديد للأندلس ، هو أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبى ، بعثه حنظلة بن صفوان والى إفريقية ، إجابة لجماعة من زعماء الأندلس ، خشوا عواقب الفتنة ، وما قد تؤدى إليه من استظهار نصارى الشمال . وإغارتهم على الأراضى الإسلامية[٢] ، وقيل إن الذى اختار أبا الخطار لولاية الأندلس ، هو هشام بن عبد الملك[٣] . اختاره قبيل وفاته بقليل ، إذ توفى فى ربيع الثانى سنة ١٢٥ . وقدم أبو الخطار إلى لأندلس

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٢ و ٣٣ ؛ ونفح الطيب ج ٢ ص ٥٩ و ٦٠ ؛ وابن الأثير ج ٥ ص ٩٥ .

(٢) ابن عبد الحكم ص ٢٢١ ؛ وأخبار مجموعة ص ٤٥ ؛ وابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٤٦ ؛ وكذلك **Dozy: Hist , V. I. p. 168**

(٣) ابن الأثير ج ٥ ص ١٠٠ ؛ وابن الأبار ص ٤٨ .

فى رجب ، ولم يكن مضى على ولاية ثعلبة سوى عشرة أشهر . فقبض فى الحال على زمام السلطة . وأفرج عن جموع الأسرى والسبايا ، التى اعتزم أن يزهقها وينكل بها ثعلبة ، واهتم برد السكينة والنظام ، وإخماد شوكة الزعماء الخارجين ، ففرق الشاميين فى مختلف الكور تمزيقاً لعصبتهم ، وأنزل جند الشام بإلبيرة ( غرناطة ) ، وجند حمص بإشبيلية ولَبْلة ، وجند فلسطين بشذونة والجزيرة ، وجند الأردن بريُّه . وجند قنسرين بجيان ، وجند مصر بعضهم فى أكشُونبة وباجة والبعض فى تدمير . ونذكر أن ولاية تدمير ( مرسية ) كانت قد تركت عند الفتح لصاحبها تيودمير ، وفقاً للمعاهدة التى عقدت بينه وبين عبد العزيز بن موسى[1] ، ولكن تيودمير كان قد توفى ، وخلفه فى حكم الولاية ولده أتاناجلد . واعتبر أبو الخطار أن نص المعاهدة ، كان قاصراً على تيودمير ، وأنه لا يسرى على خلفائه ، وطالب أتاناجلد بتأدية الجزية لحكومة قرطبة ، وأنزل جند مصر قسراً بقواعد تدمير ، وأقطعهم أراضيها ، وبذلك فقد القوط آخر معاقلهم الحرة فى الجنوب ، وضمت تدمير إلى باقى ولايات الأندلس ، تحت سلطان الحكومة المركزية[2] . وتتبع أبو الخطار الزعماء الخارجين ، فقبض على ثعلبة ونفاه إلى إفريقية مع نفر من زملائه ، وأعلن أمية وقطن ابنا عبد الملك الطاعة ، وتفاهما مع أبى الخطار ، فولاهما الحكم فى بعض الولايات الشمالية . أما عبد الرحمن بن حبيب فاستطاع أن يتقى المطاردة وفر إلى تونس ، وهنالك أقام حيناً يرقب الحوادث ، حتى سنحت له فرصة الوثوب وانتزاع إمارة إفريقية من حنظلة ابن صفوان على ما سيجىء . وأما عبد الرحمن اللخمى فلبث مستقلا برباط الثغر فى أربونة وما جاورها .

وسلك أبو الخطار فى البداية سبيل الحزم والاعتدال ، وسوى بين جميع القبائل فى المعاملة ، فرضى الجميع واجتمعت الكلمة على تأييده وطاعته ، وسكنت الفتنة واستقر النظام حيناً . ولكن نزعة العصبية ما لبثت أن حملته كما حملت أسلافه من قبل ، فمال إلى قومه اليمانية ، وتنكر لخصومهم من المضرية ، واضطرمت الأحقاد

---

( ١ ) أوردنا نص هذه المعاهدة فى ص ٥٥ و٥٦ من هذا الكتاب . وراجع فى توزيع القبائل على الكور ، ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٤٦ . وكذلك : Conde : ibid, V.I. p. 112

( ٢ ) Conde:ibid, quot Isodorus, V.I. p. 112 (note) وكذلك Aschbach: ibid. V. I, p. 92

والمنافسات القديمة . وحدث أن اعتدى أبو الخطار على زعيم من زعماء المضرية بالإهانة والضرب لأنه تدخل لحماية رجل من بنى قومه . وهذا الزعيم هو الصميل ابن حاتم بن شمر الكلابى ، وجده شمر بن ذى الجوشن من أشراف الكوفة ، وكان قد اشترك فى قتل الحسين بن على فى كربلاء ، ثم نزح بأسرته إلى الشام خيفة الانتقام ، فلما ولى كلثوم بن عياض القشيرى حكم إفريقية . كان الصميل بين أشراف الشام الذين انتظموا فى جيش بلج القشيرى ، ثم جازوا معه إلى الأندلس(١) . وكان الصميل فارساً شجاعاً وزعيماً ذا نجدة ، يلتف حوله المضرية وبعض اليمنية ، من خصوم أبى الخطار ومنافسيه مثل جذام ولخم . فلما اعتدى أبو الخطار عليه بعث إلى قومه فى مختلف الأنحاء ، وأيدته المضرية وحلفاؤهم فى الخروج ؛ وتفاهم مع باقى الزعماء الناقمين على أبى الخطار ، ومنهم ثوابة بن سلامة الجذامى زعيم جذام . وكان يمنياً ولكنه كان يحقد على أبى الخطار . لأنه عزله عن ولاية إشبيلية . وتكفل ثوابة بمحاربة أبى الخطار ، وقدّمته المضرية ، وزحف بجموعه على قرطبة ، فلقيه أبو الخطار بقواته فى شذونة على ضفاف وادى لكه فى رجب سنة ١٢٧ . ونشبت بين الفريقين معارك شديدة انتهت بهزيمة أبى الخطار وأسره ؛ ودخل ثوابة قرطبة وارتضته المضرية أميراً للأندلس مكان أبى الخطار ، ووافق عبد الرحمن بن حبيب الفهرى أمير إفريقية على هذا الاختيار . وكان قد استطاع فى تلك الفترة أن ينتزع ولاية إفريقية من حنظلة بن صفوان . ولكن أبا الخطار استطاع أن يفر من سجنه بمعونة نفر من أصدقائه . فذهب إلى باجة وحشد جموعه ، وقصد إلى قرطبة ، فلقيه الصميل فى المضرية وثوابة فى أنصاره من اليمنية ، ووقعت بينهما معركة غير حاسمة . وعندئذ دعا بعض اليمنية من فريق ثوابة إلى وقف القتال ، ونعى على أنصار أبى الخطار أنهم يقاتلون ثوابة . مع أنه يمنى منهم ، وقد عفا عن أبى الخطار وعف عن دمه حين كان فى قبضته ؛ فأحدثت هذه الدعوة أثرها ، وانفض عن أبى الخطار جنده . واضطر أن يعود إلى باجة وهنالك لبث ينتظر مجرى الحوادث(٢) .

ولم يمض سوى قليل حتى توفى ثوابة فى أوائل سنة تسع وعشرين ومائة .

---

(١) ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٤٩ ؛ والمقرى عن ابن حيان فى نفح الطيب ج ٢ ص ٦٢ .

(٢) المقرى ج ٢ ص ٦٠ و ٦١ ، وابن الأثير ج ٥ ص ١٢٦ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٣٥ و ٣٦ .

بعد أن حكم الأندلس زهاء عام ونصف . وهنا نشب الخلاف بين الزعماء والقبائل كرة أخرى ، وأصرت اليمنية على أن يكون الأمير منهم خلفاً لأميرهم **المتوفى ، وأصر** الصميل أن يكون الأمير من المضرية ، واشتد النزاع بين الفريقين ، **ووقعت** بينهما مصادمات ومعارك عديدة ، ولبثت الأندلس بضعة أشهر دون أمير رسمى ، وتولى الأحكام فيها عندئذ عبد الرحمن بن كثير اللخمى باتفاق الفريقين . ولما تفاقم الخلاف ، وخشى الزعماء عاقبة الفتنة والحرب الأهلية ، اتفقوا على تولية يوسف ابن عبد الرحمن الفهرى أحد زعماء المضرية ، فولى إمارة الأندلس فى ربيع الثانى سنة ١٢٩ ( يناير ٧٤٧ م ) دون مصادقة أو مراجعة من دمشق أو إفريقية . وكانت حكومة دمشق قد اضطربت يومئذ شئونها . وأخذت نذر السوء تبدو فى الأفق ، وشغلت الخلافة الأموية بما يهددها من خطر داهم على سلطانها ، وضعف إشراف الحكومة المركزية على الولايات النائية ، فاستقلت إفريقية والأندلس كل بشئونها ، حتى يستبين المصير ، وتستقر الأمور .

# الفصل التاسع

## خاتمة عصر الولاة

أصل يوسف الفهرى . عبد الرحمن بن حبيب واستيلاؤه على إفريقية . استئثار يوسف بالسلطة . تحرك اليمنية . خروج أبى الخطار وابن حريث . التقاء المضرية واليمنية فى شقندة . هزيمة اليمنية ومقتل زعمائها . استقرار الأمر ليوسف والصميل . ولاية الصميل لسرقسطة . إصلاحات يوسف الإدارية والمالية . تقسيم اسبانيا الجديد . إصلاحه للجيش . إرساله جيشاً إلى الشمال . ثورة البشكنس والقوط . استيلاء الفرنج على المواقع الإسلامية فى سبتمانيا . اضطراب أمر الخلافة فى المشرق . سخط الزعماء على يوسف والصميل . عبد الرحمن اللخمى فارس الأندلس . محاولته الخروج ومصرعه . الثورة فى إشبيلية وسحقها . ثورة عروة بن الوليد فى باجة . استيلاؤه على إشبيلية . هزيمته ومصرعه . ثورة المضرية واليمنية بقيادة عامر العبدرى . فراره إلى الشمال وتحالفه مع الحباب الزهرى وتميم الفهرى . محاصرة الثوار للصميل فى سرقسطة . هزيمة الصميل واستيلاء الثوار على سرقسطة . إدعاء عامر لولاية الأندلس . ولاية الصميل لطليطلة . مسير يوسف إلى سرقسطة واستيلاؤه عليها . أسر زعماء الثورة ومصرعهم . اجتماع يوسف والصميل فى طليطلة . الإخطار بمقدم عبد الرحمن الأموى . مسيره إلى قرطبة . بيبن ملك الفرنج وأنزيموند أمير القوط يحاصران أربونة . القتال بين بيبن وأمير أكوتين . مصرع أنزيموند . خيانة النصارى فى أربونة . سقوطها فى يد الفرنج . انتهاء سيادة الإسلام فيما وراء البرنيه . نصارى الشمال . امتناعهم بهضاب جليقية . إغارتهم على الأراضى الإسلامية . نمو المملكة النصرانية .

ويجب أن نقف قليلا عند شخصية يوسف بن عبد الرحمن الفهرى هذا ، الذى اختارته « الجماعة » والياً للأندلس ، واستقل بولايتها زهاء عشرة أعوام ، وكان آخر هذا الثبت من أمرائها ، وعلى يده انتقلت إلى عهد جديد ، ودولة جديدة . فمعظم الروايات على أنه ولد عبد الرحمن بن حبيب بن أبى عبيدة بن عقبة بن نافع الفهرى فاتح إفريقية . ويؤيد هذا القول من مؤرخى الأندلس ابن القوطية ، وابن حزم ، والرازى ، وابن الفرضى . ولكن ابن حيان يرتاب فى هذه النسبة ويقول لنا إنه لم يقف على ما يؤيد بنوة يوسف لعبد الرحمن بن حبيب ، أو صلته بهذا الفرع[1]. بيد أن اتفاق معظم مؤرخى الأندلس ، ولا سيما المتقدمين منهم

(١) نقل ابن الأبار فى الحلة السيراء أقوال ابن القوطية وابن حيان وابن حزم فى هذه النقطة – الحلة السيراء ص ٥٣ و ٥٤ – وراجع أقوال ابن الفرضى والرازى فى نفح الطيب ج ٢ =

على صحة هذه النسبة يجعلها فى نظرنا أقوى وأرجح . وإذن فيوسف بن عبد الرحمن خاتمة ولاة الأندلس هو ولد عبد الرحمن بن حبيب ، الذى تتبعنا أخباره فيما تقدم خلال الحروب الأهلية ، التى اضطرمت منذ قدوم بلْج القشيرى إلى شبه الجزيرة . وقد أسلفنا أنه فر إلى تونس اتقاء لنقمة أبى الخطار ، وهنالك لبث يرقب الحوادث مدى حين ، فلما جاءت الأخبار إلى إفريقية بمقتل الخليفة الوليد بن يزيد بن عبد الملك ( فى جمادى الآخرة سنة ١٢٦ ) ، رأى عبد الرحمن الفرصة سانحة للعمل ، فدعا أنصاره وحشد جموعه لقتال حنظلة بن صفوان والى إفريقية ، وزحف على القيروان ، وخشى حنظلة عاقبة الفتنة ، فانسحب مع أصحابه إلى الشام دون قتال ، ودخل عبد الرحمن القيروان (سنة ١٢٧ هـ) وأعلن ولايته لإفريقية ، وأيدته المضرية ، وبعث إلى الثغور عمالا من أقاربه وأنصاره . ولم يختر يزيد بن الوليد ، الذى ولى الخلافة عقب مقتل أبيه ، والياً لإفريقية نزولا على حكم الواقع . فلما خلفه مروان بن محمد بعد ذلك بأشهر ، كاتبه عبد الرحمن وهاداه وأظهر له الطاعة فأقره على ولايته[1]. ولبث عبد الرحمن مستقلا بحكم إفريقية أكثر من عشرة أعوام ، وفى عهده وقعت بإفريقية ثورات وقلاقل كثيرة ، فأخمدها جميعاً وغزا صقلية وسردانية . ولما دالت دولة بنى أمية أعلن الطاعة لبنى العباس ، ودعا لهم بإفريقية . ولكنه لم يلبث أن قتل غيلة فى شهر ذى الحجة سنة ١٣٨ ( ٧٥٥ م ) . وأما ابنه يوسف فقد فر منه مغضباً لأمور نقمها عليه ، ودخل الأندلس يبحث وراء طالعه فى حوادثها ، وكان مثل أبيه فارساً هماماً وخطيباً مفوهاً[2]. فلم يلبث أن ظهر بين أنجاد المضرية وسادتهم ، ولازم الصميل وصادقه حتى عظم نفوذه ، وانتهى بأن ظفر بإمارة الأندلس فى ربيع الثانى سنة ١٢٩ ، وهو يومئذ فى السابعة والخمسين من عمره .

وكانت مصاير الخلافة الأموية تهتز يومئذ فى يد القدر ، وقد شغلت بما يواجهها من خطر الفناء الداهم عن حوادث الأندلس ، فلم تحاول تدخلا أو اعتراضاً على ما يحدث فى ذلك القطر النائى ، ولم يكن يوسف بحاجة إلى مصادقة أو مراجعة .

---

= ص ٦١ . ويقر ابن عذارى هذه النسبة أيضاً ( البيان المغرب ج ٢ ص ١٠٧ ) وكذلك صاحب أخبار مجموعة ( ص ٢١ ) .

( ١ ) البلاذرى فى فتوح البلدان ص ٢٣٣ .

( ٢ ) نفح الطيب ( عن الرازى ) ج ٢ ص ٦١ ، وابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٥٥ .

وكان المتفق عليه بين اليمنية والمضرية أن يتعاقبا فى الولاية فيمكث يوسف عاماً فقط ثم يُرد الأمر إلى اليمنية[١] . ولكن المضرية وعلى رأسهم الصميل مرجع الزعامة والأمر يومئذ،لم يفكروا بلاريب فى تمكين اليمنية من الرياسة بأى الصور ، وكذلك لا ريب فى أن يوسف بن عبد الرحمن لم يفكر بعد أن ظفر بالإمارة أن ينزل عنها طائعاً مختاراً ، بل بادر منذ البداية إلى استخلاص جميع السلطات لنفسه ، فنزع ولاية ريُّه من يحيى بن حريث الجذامى أحد الزعماء اليمنية ، وكان ينافسه ويعارض إمارته ، فأقطع ريه ثمناً لموافقته . فلما نزعت منه ريه ثار قومه من اليمنية والتفوا حوله . وهنا أيضاً ظهر أبو الخطار الأمير المعزول على مسرح الحوادث ، وكان يقيم كما قدمنا فى باجة ، بغرب الأندلس . فلما علم بتولية يوسف وخروج ابن حريث ، تحرك للعمل ، وفاوضه ابن حريث ولكنهما لم يتفقا ، إذ أصر كل منهما على ترشيح نفسه للإمارة ، بيد أنهما اجتمعا على قتال يوسف ابن عبد الرحمن ، وحشد كل منهما جموعه من الفريق الذى يؤازره ، وزحفا على قرطبة . وحشد يوسف والصميل جموع المضرية ، وبالغ كل فريق فى الأهبة ، والتقيا أخيراً فى شقندة بالقرب من قرطبة (سنة ١٣٠ هـ — ٧٤٧ م) ونشبت بينهما موقعة هائلة تبالغ فى روعتها الرواية الأندلسية ، إذ تقول لنا : « إنه لم يك بالمشرق ولا بالمغرب ، حرب أصدق منها جلاداً ولا أصبر رجالا ، طال صبر بعضهم على بعض إلى أن فنى السلاح ، وتجاذبوا بالشعور ، وتلاطموا بالأيدى ، وكلَّ بعضهم عن بعض »[٢] . واستمر القتال حيناً سجالا بين الفريقين ، ثم داهمت المضرية ذات يوم جموع اليمنية على غرة ، فأوقعت بها ، وأسر أبو الخطار وابن حريث وكثير من أصحابهما ، وقتلوا جميعاً بأمر الصميل ، وجردت اليمنية من زعمائها ، واستقر الأمر ليوسف ، ولكنه كان يخشى الصميل ، لأنه كان بنفوذه وكثرة عصبته ، يقبض على ناصية الموقف ، فرأى أن يبعده عن قرطبة ، وأقطعه ولاية سرقسطة وأعمالها ، فسار الصميل إلى سرقسطة واستقل يوسف بالأمر .

ونشط يوسف إلى ضبط النظام ، وإصلاح الشئون فى ظروف صعبة . وكانت السلطة المركزية قد اضمحلت ، وهبت ريح الفتنة من كل صوب .

---

(١) ابن الأثير ج ٥ ص ١٨٣ .

(٢) المقرى عن ابن حيان ج ٢ ص ٦١ .

واستقل كثير من العمال بالنواحى ، وتحرك النصارى فى الولايات الشمالية ، وعصف القحط فوق ذلك بالأندلس سنة ١٣٣ ﻫ ( ٧٥٠ م ) ، واستطال زهاء عامين ، فأجدبت السهول والوديان ، وأمحلت الزراعة ، وفتك الجوع بالمدن والقرى ، وهبطت عندئذ على شواطئ الأندلس عصابات بحرية ناهبة كثيرة من أمم الشمال ، وعاثت فى الشواطىء والثغور والمدن القريبة[١]. ولكن يوسف أبدى فى مغالبة هذه الصعاب والمحن همة فائقة ، فطاف بالأقاليم وعزل الحكام العابثين ، وقمع المظالم والفوضى ما استطاع ، وأصلح الطرق الحربية ، لتكون ممهدة لحملاته حينما اضطر إلى الحرب ، وعدل نظام الضرائب فاقتضى ثلث الدخل من كل ولاية ، ولكنه أمر بمراجعة السجلات القديمة ، واستبعاد الأموات منها ، وكانت الضرائب ما تزال تجبى طبقاً للإحصاء القديم ، فكان فى ذلك إرهاق للسكان ، لأن عددهم تناقص منذ الفتح ، فقرر يوسف أن تجبى الضرائب عن الأحياء فقط ، وأسقطها عمن توفوا ، واكتسب بذلك عطف كثير من النصارى[٢]. وأعاد يوسف أيضاً تنظيم الأقاليم الإدارى ، فقسم اسبانيا إلى خمس ولايات كما كانت أيام القوط ، وكما قسمت عند الفتح مع تعديل فى حدودها ، فأصبحت كما يأتى : ولاية الأندلس وهى ولاية « باطقة » Baetica القديمة ، وتقع بين نهر وادى يانة والبحر الأبيض المتوسط ، وأشهر قواعدها قرطبة ، وقرمونة ، وإستجة ، وإشبيلية ، وشذُونة ، ولَبْلَة ، ومالقة ، وإلبيرة ، وجيّان . وولاية طليطلة ، وهى ولاية قرطاجنة القديمة ، وتمتد من جبال قرطبة فى شمال شرقى ولاية الأندلس حتى نهر دويره (الدورو) ، وجبال وادى الحجارة شمالا ، وأشهر قواعدها طُلَيطلة ، ومرسية ، ولورَقَة ، وأوريولة ، وشاطبة ، ودانية ، ولَقَنت ، وبلنسية ، وشَقُوبية ، ووادى الحجارة ، وقُونْقَة . وولاية ماردة وهى ولاية اوجدانيا أو جلِّيقية القديمة ، وتمتد فيما وراء نهر وادى يانة شرقاً حتى المحيط ، وأشهر قواعدها ماردة ، وباجة ، وأُشبُونة ، وأستُرقه ، وسمُّورة ، وشلمنقة . وولاية سَرَقُسطة ، وهى ولاية كانتبريا القديمة ، وتمتد من منابع نهر التَّاجُه شرقاً ، على ضفتى نهر إيبرو حتى

---

( ١ ) إيزيدور الباجى . راجع : Aschbach : ibid, V.I. p. 102 ، وكذا البيان المغرب ج ٢ ص ٣٨

( ٢ ) Conde : ibid, V.I. p. 121 - Aschbach, quot. Isidorus, ibid. V.I. p. 101

جبال البرنيه وبلاد البشكنس، وأشهر قواعدها سرقسطة، وطرّكونة، وجيرندة، وبرشلونة، وأرقلة، ولاردة، وطُرطُوشة، ووشقة. ثم ولاية أربونة وهى ولاية الثغر، وتقع شمال شرقى جبال البرنيه حتى البحر، وتشمل مصب نهر الرون، وأشهر قواعدها أربونة، ونيمة، وقرقشونة، وأجدة، وبزييه، وماجلونة(١).

وعنى يوسف بتنظيم الجيش وإصلاحه أشد عناية، وحشد قوات جديدة ليستطيع قمع الثورة فى الداخل وحماية الحدود الشمالية، وسير إلى الشمال جيشاً بقيادة ولده محمد أبى الأسود، وسليمان بن شهاب، والحصين العقيلى. وكان النصارى قد انتهزوا فرصة الاضطراب الداخلى، وأغاروا على الأراضى الشمالية، واستولوا على كثير من القلاع والحصون، ووصلوا فى تقدمهم حتى ضفاف نهر دويره (الدورو). وثار البشكنس والقوط فيما وراء البرنيه واستدعى أميرهم الكونت آنزيموند، ملك الفرنج پپين الملقب «بالقصير» لمحاربة المسلمين، وكان آنزيموند هذا من نبلاء القوط، فانتهز فرصة اضطراب الحوادث فى اسبانيا، واستولى على قواعد سبتمانيا المسلمة، وهى نيمة وأجدة وماجلونة وبزييه وما حولها، وأنشأ منها مملكة صغيرة، والتف حوله السكان النصارى، واستطاع بمؤازرة الزعماء المحليين، أن يقضى على سلطان المسلمين فى تلك الأنحاء. ولكنه رأى أنه لا يستطيع الاحتفاظ بمملكته الصغيرة، والعرب على مقربة منه فى أربونة أقوياء يخشى بأسهم، وكذلك توجس شراً من جاره أمير أكوتين، إذ كان يطمح إلى ضم هذه الأراضى إلى أملاكه، فلم ير خيراً من الانضواء تحت لواء ملك الفرنج پپين، واستدعائه لمعاونته(٢).

وكان پپين قد خلف أباه كارل مارتل كمحافظ للقصر الفرنجى، ولكنه لم يلبث أن قبض على مليكه شلدريك الثالث آخر الملوك الميروفنجية، وزج به إلى ظلام الدير، وانتزع العرش لنفسه (٧٥١ م). فلما استدعاه آنزيموند، استجاب لدعوته، ورحب بتلك الفرصة ليتم ما بدأه أبوه من إجلاء المسلمين عن غاليس، وغزا لانجدوك، وهاجم المواقع الإسلامية مع حليفه آنزيموند، وفتك بالمسلمين فى تلك الأنحاء (٧٥٣ م). وقاومته الحاميات الإسلامية أشد مقاومة، ولكنها لم تثبت طويلا لعزلتها، وحرمانها من كل معاونة ومدد، واستولى الفرنج على تلك

---

(١) سبق أن أشرنا إلى تقسيم اسبانيا الإدارى الذى أورده البكرى، راجع الهامش فى ص ٧٠

(٢) **Dom Vissette: ibid, V.I. p. 822**

القواعد والمعاقل كلها خلا أربونة ، فإنها لبثت بيد المسلمين أعواماً أخرى . ولم يستطع الجيش الذى سيره يوسف إلى الشمال ، أن يحقق الغاية المنشودة ، بل رد بخسارة فادحة وقتل قائده سليمان بن شهاب ، ونجا الحصين العقيلى وفرسانه بصعوبة[١] . وترك الشمال لمصيره ، واستغرقت الثورات والحروب الداخلية اهتمام يوسف وكل نشاطه وموارده .

ذلك أن الأحقاد والمنافسات القديمة التى هدأت حيناً بتولية يوسف ، عادت فاضطرمت حين استأثر يوسف وحليفه الصميل بكل سلطة وولاية ، وكان المفهوم أن ولاية يوسف لإمارة الأندلس إنما هى حل موقت لحالة طارئة حتى يأتى الأمير الشرعى الذى يختاره الخليفة ، ولكن الخلافة الأموية لقيت مصرعها غير بعيد (١٣٢هـ — ٧٥٠م) ، وتفاقم الاضطراب الذى سرى إلى شئون إفريقية والأندلس قبل ذلك بأعوام ، وأصبح تراث الخلافة الأموية نهباً مباحاً لكل طامع ومتغلب . وكان بالأندلس عدة من الزعماء النابهين ذوى الجاه والعصبية ، ينقمون من يوسف والصميل استئثارهما بالسلطة ، ويرى كل منهم أنه أولى بها وأجدر ، وكان يوسف يعمل من جهة أخرى لتوطيد سلطانه فى ذلك القطر البعيد ، الذى رفعه القدر إلى ولايته ورياسته ، والذى يضارع بضخامته وأهميته ملكاً عظيماً . وكان أقوى أولئك الخصوم والزعماء المنافسين ليوسف ، عبد الرحمن بن علقمة اللخمى حاكم ثغر أربونة الملقب «بفارس الأندلس» تنويهاً بفائق شجاعته[٢] . وكان قد اشترك فى الحرب الأهلية قبل ذلك بأعوام حسبما قدمنا . ثم ارتد بجنده إلى أربونة ، واستعصم بها يرقب الحوادث والفرص . فلما تولى يوسف إمارة الأندلس ، واضطربت شئون الشمال ، أخذ يدبر العدة لعبور البرنيه ومحاربة يوسف ، ولكن لم يلبث أن اغتاله بعض أصحابه وحملوا رأسه إلى يوسف ، وتمت هذه الخيانة بوحى يوسف وتحريضه على الأرجح ، وانهارت تلك المحاولة فى مهدها[٣] . وخرج على يوسف فى إشبيلية يوسف بن عمرو بن يزيد الأزرق ، وكثر جمعه وقوى أمره ، فزحف إليه يوسف وقاتله حتى هزمه وقتله . وخرج عليه فى باجة عروة بن الوليد

---

(١) ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٥٨ . وكذا **Conde: ibid, V.I. p. 127** و **Aschbach: ibid, V.I. p.102** ويضع صاحب أخبار مجموعة تاريخ هذه الحملة بعد ذلك بنحو عامين ص ٧٦ و٧٧ .

(٢) ابن القوطية ص ٤٣ .

(٣) المقرى عن ابن حيان ج ٢ ص ٦٢ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٣٩ .

المعروف بالذمّى لتحالفه مع أهل الذمة ، والتف حوله النصارى فضلا عن أنصاره من العرب والبربر ، وسار إلى إشبيلية فاستولى عليها . واتسع نطاق الثورة فى تلك الأنحاء ، فوجه إليه يوسف جيشاً لقتاله فهزمه عروة ، فسار إليه يوسف بنفسه ، ووقعت بينهما معارك شديدة انتهت بهزيمة عروة وأسره ، ثم بقتله مع نفر من أصحابه . بيد أن ثورة أخطر وأوسع نطاقاً كانت تدبر عندئذ فى الشمال لخلع يوسف والصميل وسحق سلطانهما . وكان روح هذه الثورة ومدبرها زعيم مضرى شديد البأس والجاه ، هو عامر بن عمرو بن وهب العبدرى ، وكان عامر عريق الحسب والعصبية ، وافر الجاه والأتباع ، يتزعم مضر ويقودها خلال الحوادث ، وكان صديقاً ليوسف الفهرى قبل ظفره بالإمارة ، يتولى مثله قيادة الجيش ، فلما وُلِّى يوسف نزعها منه ، وكان كباقى الزعماء ينقم من يوسف والصميل استئثارهما بالسلطة واستبدادهما بالشئون . فلما اضطرمت الأندلس بالفتن واتسع نطاق الثورة ، أخذ يدبر وسائل الخروج على يوسف ، وكان يبسط نفوذه على الجزيرة الخضراء ، ثم انتقل إلى قرطبة يرقب الحوادث ، وكاتب الخليفة العباسى أبا جعفر المنصور ، وعرض عليه أن يدعو له بالأندلس ، وأن يحكمها باسمه ، إذا بعث إليه بمرسوم إمارتها . وكان يتودد فوق ذلك إلى اليمانية ، وينعى على يوسف والصميل إسرافهما فى سفك دمائهم يوم شَقُنْدة ، فالتفت حوله اليمنية والمضرية . ولم يكن يوسف يجهل حركاته وتدابيره ، فلما هم بمطاردته والقبض عليه ، فر إلى الشمال فى كثير من أتباعه . وكان ثمة زعيمان قرشيان آخران هما الحباب بن رواحة الزهرى من بنى كلاب ، وتميم بن معبد الفهرى ، قد رفعا لواء الثورة فى ولاية سرقسطة ، فتفاهم معهما عامر وتحالف ، واجتمع إليه جيش كبير من اليمنية والمضرية والبربر ، وزحف عامر والحباب الزهرى على سرقسطة ، حيث كان الصميل ، وضيقا عليه الحصار . فاستغاث الصميل بحليفه يوسف . ولكن يوسف لم يستطع أو لم يُرد إنجاده بغية القضاء على سلطانه[1] . فاضطر الصميل أن يلقى خصومه فى أنصاره وأتباعه القلائل . ونشبت بين الفريقين مدى أشهر معارك عديدة ، انتهت بهزيمة الصميل وانسحابه من سرقسطة فى فل أنصاره ، فدخلها عامر وحليفه ، واستوليا عليها ( سنة ١٣٦ هـ — ٧٥٣ م ) . وعمت الثورة كورة

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٨ و ٤٣ .

سرقسطة وما إليها ، ودعا عامر لنفسه بولاية الأندلس ، بمرسوم زعم أنه تلقاه من أبي جعفر المنصور ، وخرج الشمال كله عن قبضة يوسف الفهرى .

أما الصميل فارتد إلى طليطلة التى أسند إليه يوسف ولايتها بدلا من سرقسطة ، وكان يوسف قد أنهكت قواه واستنفدت موارده تلك الحروب والثورات المتوالية ، فاضطر أن يلزم السكينة حيناً . وبسط عامر سلطانه زهاء عامين ، على كورة سرقسطة . وفى أواخر سنة ١٣٧ هـ (٧٥٤ م) سار يوسف إلى سرقسطة فى جيش كبير ، وحاصرها بشدة حتى ضاق أهلها بالحصار ذرعاً ، ورأوا أن يتقوا مصائب الحصار ، بتسليم عامر وابنه وهب والحباب الزهرى إلى يوسف ، فحملهم يوسف معه فى الأصفاد ، وارتد صوب طليطلة ، ثم أمر بهم فقتلوا أثناء الطريق ، وتخلص يوسف بذلك من آخر الزعماء الخوارج عليه[1] . ولكنه لم يقدر أن خطراً آخر سيأتيه من خارج الجزيرة ، وينذر جميع مشاريعه وتدابيره بالانهيار . ذلك أنه ما كاد يجتمع بصديقه وحليفه الصميل فى ظاهر طليطلة ، حتى أقبل عليه رسول من قرطبة يحمل كتاباً من ولده عبد الرحمن ، خلاصته أن فتى من بنى أمية يدعى عبد الرحمن بن معاوية قد نزل بساحل الأندلس فى ثغر المُنكّب Almuñecar ، واجتمع إليه أشياع بنى أمية فى كورة إلبيرة ( غرناطة ) ، وانتشرت دعوته فى جنوب الأندلس بسرعة . وذاع الخبر فى جيش يوسف فأحدث فيه ذعراً واضطراباً ، وتفرق كثير من جنده . وقيل إن نبأ مقدم الأمير الأموى انتهى إلى يوسف أثناء سيره إلى الشمال ليقاتل نصارى جليقية ، بعد أن سحق الثوار فى سرقسطة[2] . وعلى أى حال فقد بادر يوسف والصميل فيمن بقى من الأشياع والجند بالسير إلى قرطبة ، ليدبرا الخطط لرد هذا الخطر الجديد ، وكان ذلك فى أواسط سنة ١٣٨ هـ ( أواخر سنة ٧٥٥ م ) .

وفى أثناء هذه الفتن والقلاقل المتواصلة ، استولى الفرنج كما قدمنا على جميع القواعد والأراضى الإسلامية فى سبتمانيا ولانجدوك ، وهى التى تكون ولاية الثغر أو رباط الثغر ، ولم يبق منها بيد المسلمين سوى أربونة . وكانت

---

( ١ ) راجع فى تفصيل هذه الحوادث ، ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٥٢ ؛ وابن الأثير ج ٥ ص ١٤٠ و ١٨٤ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٤٣ و ٤٤ ؛ وكذا فى Dozy:Hist : V.I.p.184 & 185

( ٢ ) ابن القوطية ص ٢٠ ؛ ونفح الطيب ج ١ ص ١٥٤ .

أمنع قلاع المسلمين فيما وراء جبال البرنيه ، وقد استطاعت أن ترد غزوات الفرنج أيام كارل مارتل . فلما فقدت أربونة بطلها المدافع عنها أعنى عبد الرحمن اللخمى فارس الأندلس ، وسقطت أراضى الثغر كلها فى يد النصارى ، زحف پپين ملك الفرنج ومعه حليفه الكونت آنزيموند القوطى أمير سبتمانيا على أربونة ، وطوقها بقوات كثيفة وضرب حولها الحصار الصارم (سنة ٧٥٥ م) . وكانت أربونة فى غاية المنعة والحصانة ، فاعتزم المسلمون الدفاع عنها لآخر نسمة ، واضطر پپين خلال الحصار أيضاً ، أن يرتد عنها بقسم من جيشه لمحاربة أمير أكوتين حفيد الدوق أودو ، ورده عن الأراضى الفرنجية ، وترك آنزيموند لمتابعة الحصار . ولكن آنزيموند قتل أثناء ذلك غيلة تحت أسوار أربونة ، فعاد پپين لاستئناف الحصار وهاجم المدينة المحصورة مراراً ، ولكن المسلمين استطاعوا أن يقاوموا الفرنج ، وأن يردوا كل هجماتهم مدى أربعة أعوام ، رغم عزلتهم وانقطاع صلتهم بالأندلس ، وعدم تلقيهم أى مدد من أولى الأمر فى قرطبة ، لاشتغالهم بالحرب الأهلية . وكان اتصال المدينة بالبحر يسهل على المسلمين تلقى بعض المؤن ، وتحمل ويلات الحصار . فلما رأى پپين أنه لا يستطيع أخذ المدينة بالحرب لجأ إلى الخديعة والخيانة ، وتفاهم مع أهلها القوط ، وقطع لهم عهوداً مؤكدة أنهم إذا عاونوه على أخذها ، فإنه يترك لهم حرية التمتع بقوانينهم ، ويمنحهم حقوقاً ومزايا كثيرة ، فعمل القوط على إضرام الثورة داخل المدينة ، ثم انقضوا ذات يوم على حراسها المسلمين وقتلوهم وفتحوا أبوابها ، فدخلها الفرنج وفتكوا بسكانها المسلمين إيما فتك ، وخربوا مساجدها ومعاهدها ودورها وذلك فى سنة ٧٥٩ م (١٤٢ هـ)[1]. وسقطت بذلك آخر المعاقل الإسلامية فى غاليس فى يد النصارى ، وانهارت سيادة الإسلام فيما وراء جبال البرنيه ، بعد أن استمرت هنالك زهاء نصف قرن ، وعادت قوى النصرانية ، فاحتشدت وراء تلك الآكام تتربص بالإسلام فى الأندلس ، بينما كانت قوى الإسلام داخل شبه الجزيرة يمزق بعضها بعضاً .

وحذا نصارى الشمال حذو الفرنج فى الاستفادة من تمزق الإسلام بالأندلس ، ونريد بنصارى الشمال تلك البقية الباقية من القوط الذين ارتدوا أمام الفتح الإسلامى

(١) Dom Vissette : ibid., V. I. p. 827

# الكتاب الثانى

# الدولة الأموية فى الأندلس

## القسم الأول

# عصر الإمارة

من عبد الرحمن الداخل إلى عبد الرحمن بن الحكم

١٣٨ — ٢٣٨ هـ : ٧٥٦ — ٨٥٢ م

# الفصل الأول

## مصرع الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية

اضمحلال الدولة الأموية إبان فتوتها . عوامل هذا الاضمحلال . السياسة الأموية . ما أثارته وسائلها من السخط . إستغلال الشيعة لهذه العاطفة . إضطرام العصبية والخلافات القومية . خلاف العرب والبربر . خلاف العرب فيما بينهم . وهن دعائم الدولة الأموية . العوامل الخفية التي عملت على تقويضها . الخصومة بين بني أمية وآل البيت . تقدم الدعوة الشيعية . ظهور الشيعة في النواحي . أئمة الشيعة بعد الحسين . محمد بن علي ولد العباس . أبو مسلم الخراساني أعظم دعاة الشيعة . إضطرام الدعوة في خراسان . إستنجاد أميرها نصر بن سيار بالخليفة . غزو أبي مسلم الخراساني وفرار أميرها . استيلاء أبي مسلم على خراسان وفارس . وفاة إبراهيم الإمام والدعوة لأخيه عبد الله بن محمد . غزو الشيعة العراق . نزول أبي العباس عبد الله بن محمد بالكوفة . من هو السفاح . مسير مروان الثاني لقتال الشيعة . لقاء الأموية والشيعة على ضفاف الزاب . هزيمة مروان . فراره ومصرعه . ذهاب الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية .

كانت الدولة الأموية دولة الإمبراطورية الإسلامية الكبرى ، ففي ظلها امتدت الفتوح الإسلامية شرقاً إلى السند وغرباً إلى المحيط الأطلنطي وإسبانيا ، ووصلت الإمبراطورية الإسلامية إلى ذروة ضخامتها وقوتها ، متماسكة الأجزاء ، وثيقة العرى ، موحدة السلطان والإدارة . ولكن الدولة الأموية لم تنعم طويلا بطور فتوتها ومنعتها ووحدتها ، ولم تأت فاتحة القرن الثاني للهجرة حتى كانت هذه الدولة الشامخة التي لم تجز بعد طور الفتوة ، قد هرمت سراعاً وأدركها الانحلال والوهن ، وتصدع صرح وحدتها الباذخ . واختتم ثبت الخلفاء الأقوياء من بني أمية ، بالوليد بن عبد الملك وأخيه سليمان (٨٦–٩٩ هـ) ثم بأخيهما هشام . ومنذ عصر هشام بن عبد الملك ، نجد عوامل الانحلال والتفكك ، تعمل عملها في هذا الصرح العظيم ، فلم يمض طويل حتى اضطرمت الأندلس بالفتن وخرجت من حظيرة الإمبراطورية ، ولم يبق للخلافة عليها سوى سلطة إسمية ، واستقل الزعماء المتغلبون بحكم إفريقية ، بعد أن خرجت أطرافها القصوى عن قبضة الخلافة ، واضطرب سلطان الخلافة في الولايات الشرقية النائية مثل خراسان وفارس ، وأخذ ملك بني أمية يهتز فوق بركان مضطرم من الدعوات الخصمية ، التي لبثت قبل

ذلك بنصف قرن تعمل فى الخفاء ، ثم لاح لها أن الفرصة قد آذنت بالانفجار .

ولهذا الانحلال الذى سرى إلى الدولة الأموية ، قبل أن تستكمل أطوار نموها وتوطدها ، أسباب خاصة ، ترجع إلى الظروف التى قامت فيها ، وإلى الآثار الدينية والمعنوية ، التى أثارتها السياسة الأموية فى الجزيرة العربية ، ثم إلى نتائج تلك المعركة الخالدة التى نشبت بين مختلف العناصر والقوى ، التى اشتركت فى بناء الإمبراطورية الإسلامية . فقد استطاع بنو أمية أن ينتزعوا الخلافة والملك ، خلال معركة اعتبرها فريق كبير من الأمة العربية ، خروجاً على آل البيت ذوى الحق الشرعى فى الخلافة ، وبوسائل لم تكن دائماً نزيهة ولا عادلة . وكان لما ارتكبه بنو أمية خلال هذه المعركة من الأحداث المثيرة ، أسوأ وقع فى نفوس الأمة العربية . فقد فتك بنو أمية بآل البيت وشيعتهم أشنع فتك ، وكان مقتل الحسين ابن على فى كربلاء (سنة٦١هـ)[١]، ومقتل عدة من أبنائه وأخوته أشهر حوادث الفتك بآل البيت وأروعها . ومع أن مصرع الحسين وآله ، لم يكن سوى نتيجة للصراع السياسى الذى اضطرم بين آل البيت وبين بنى أمية منذ خلافة على ، فقد كان لهذا الحادث أعظم وقع فى العالم الإسلامى . ولم يمض عامان على تلك المأساة المؤلمة ، حتى أرسل يزيد بن معاوية (سنة ٦٣هـ) جنده إلى المدينة بقيادة مسلم بن عقبة المرّى ، لمعاقبة أهلها على خروجهم عن طاعة بنى أمية ، فاقتحم الجند الأمويون مدينة الرسول ، وعاثوا فيها واستباحوا الحرم المقدسة ، وارتكبوا أشنع صنوف الكبائر والإثم[٢]، ثم ساروا بعد ذلك إلى مكة فحاصروها ، وضربوا البيت الحرام بالمنجنيق والنار . وكان لهذه الحوادث وأمثالها أثر عميق فى الأمة الإسلامية ، وألفى الشيعة صحب آل البيت ودعاتهم ، فى تلك الأحداث المثيرة ، غذاء للتشهير بالسياسة الأموية وأساليبها ، وأصيبت هيبة الخلافة الأموية من هذه الناحية ، بصدع لم تنهض من بعده ، وذكت عوامل السخط عليها .

---

(١) كان مقتل الحسين بن على فى كربلاء فى العاشر من المحرم سنة ٦١ هـ ، وهو يوم « عاشوراء » الذى اتخذته الخلافة الفاطمية بمصر يوم حزن وأسى ؛ وكانت تقام فى ذلك اليوم بمدينة القاهرة طائفة من المراسم والاحتفالات المؤثرة . ( راجع كتابى الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية — الطبعة الثانية — ص ٣٥٤ ) .

(٢) وتعرف هذه الموقعة الشهيرة بموقعة الحرة أو حرة واقم ، وهى ضاحية المدينة الشرقية ، وقد سبقت الإشارة إليها .

واستغل الشيعة هذه العاطفة لبثّ دعوتهم وتدعيم قضيتهم ، وحشد العناصر الناقمة فى صفوفهم . وكان اضطرام العصبية والخلافات القومية من جهة أخرى ، يعمل عمله لتمزيق روابط هذه الإمبراطورية الشاسعة . فنى إفريقية كانت ثورات البربر القومية ، تستنفد قوى الخلافة ومواردها بلا انقطاع ، وكان الخلاف بين العرب والبربر فى الأندلس ، يهدد مصير الإسلام والخلافة فى ذلك القطر النائى ، ويفت فى عضد الزعماء والقادة ، ويبعث الاضطراب والوهن إلى صفوف الغزاة . وكان العرب أنفسهم قدوة سيئة فى تفرق الرأى والكلمة . فكانت المعركة الخالدة بين مضر وحمير ، وبين مختلف القبائل والبطون ، تمزق أوصال الوحدة العربية ، وتقوض دعائم هذه العصبية القومية ، التى دفعت يوم اتحادها وتماسكها ، سيل الفتوح الإسلامية إلى أقاصى المشرق والمغرب .

كانت الخلافة الأموية تسيطر على دولة عظيمة مترامية الأطراف . ولكن سلطانها الحقيقى كان محدود المدى داخل هذه الإمبراطورية الشاسعة ، وكان فوق ذلك يقوم على دعائم مضطربة . وفى ذلك ما يفسر تلك الظاهرة التى يعرضها سقوط الدولة الأموية . فبينا هى تبدو فى أوج قوتها وفتوحها ، إذ بها تنهار فجأة ، وتبدو فى الحال مظاهر ضعفها وتفككها ، ويبدو ما كان يحيط بسلطانها الشاسع من عوامل مصطنعة ، وما كان يهدده من عوامل الهدم الخفية ، المعنوية والنفسية . وكانت هذه العوامل الخفية فى الواقع أخطر ما يهدد سلطان بنى أمية ، فإن تلك الأحقاد المرة التى أثارتها السياسة الأموية فى نفوس خصومها ، كانت تسرى وتجيش ، وتحيط ملك بنى أمية بسياج خطر من الحفيظة والبغض . وكانت هذه الخصومة الخطرة التى يغذيها ظمأ الانتقام ، هى عماد الدعوة الشيعية التى لبثت تشق طريقها منذ مقتل علىّ ، ثم مقتل بنيه من بعده . ثم تأثلت هذه الخصومة وتوطدت منذ أوائل القرن الثانى من الهجرة . واستطاع الشيعة أن يظهروا فى النواحى ، ولاسيما فى العراق وخراسان ، وأن يدبروا عدة ثورات محلية خطيرة . وقد أخمدت هذه الحركات الأولى فى سيل من الدماء . ولكن القمع كان يذكى النضال ، وإراقة الدم تذكى ظمأ الانتقام . ولم تكن المعركة متكافئة من الوجهة المادية ، فلم يك للشيعة جيوش منظمة أو موارد يعتد بها ، ولكن خطر المعركة كان يجثم فى نواحيها المعنوية . واشتد هذا الخطر حينما ضعف أمر العمال فى

النواحى ، واتسع الأمر على الحكومة المركزية ، وانحل سلطانها فى الأنحاء النائية ، وأضحى عرضة للانتقاض والانهيار .

ولبث دعاة الشيعة زهاء نصف قرن ينظمون دعوتهم ، ويضعون لها الأصول والقواعد ، ويحشدون لها الصحب والأنصار فى سائر النواحى ، وكانت كغيرها من الدعوات السرية الثورية ، تلقى فى الخفاء تأييداً كبيراً . وليس من موضوعنا أن نتحدث عن مبادئ الشيعة ورأيهم فى الإمامة ومساقها[1] . ويكفى أن نقول إن اختلاف الشيعة فيما بينهم ، على حق الإمامة ومساقها فى ولد على ، لم يحل دون إجماعهم على خصومة بنى أمية ، ولا دون استمرار الدعوة الشيعية وتقدمها . وكانت إمامة الشيعة قد انتقلت بعد مقتل الحسين إلى أخيه ، محمد بن على بن أبى طالب المعروف بابن الحنفية[2]. فلما توفى سنة ٨١ هـ ، قام بها ولده أبو هاشم عبد الله بوصية منه . واستمر أبو هاشم أيام الوليد بن عبد الملك وأخيه سليمان قائماً بأمر الشيعة ، يفدون عليه ويؤدون له الخراج . ثم توفى مسموماً سنة ٩٨ هـ بتحريض سليمان بن عبد الملك فيما يقال ، وأوصى بالإمامة إلى ابن عمه محمد ابن على بن عبدالله بن العباس كبير علماء الشيعة يومئذ . والعباس هو ابن عبدالمطلب عم النبى . وتقدمت الدعوة الشيعية على يد محمد بن على تقدماً كبيراً ، وظفرت فى ذلك الحين بأعظم دعاتها السياسيين ، ونعنى أبا مسلم الخراسانى . وقد كان أبو مسلم شخصية عظيمة ، وكان يتمتع بمقدرة ومواهب فائقة . ولكن الغموض يحيط مع ذلك بأصله ونشأته ، وتختلف الرواية فى أمره اختلافاً كبيراً ، حتى أنها لتختلف فيما إذا كان من الأحرار أو الموالى . فيقول البعض إنه حر ، يرجع إلى أصل فارسى رفيع المنبت ، وإنه ولد بأصبهان ونشأ بالكوفة ، واسمه الحقيقى إبراهيم بن عثمان بن بشار . ويقول البعض إنه من الموالى ، وأصله من أصبهان ، واسمه إبراهيم . وقيل بل كان عبداً لبكير بن ماهان أحد عمال السند ، وإنه استصحبه إلى مكة فى زيارته لإبراهيم الإمام ، فأعجب إبراهيم بذكائه وفطنته واشتراه منه . وأما تسميته بأبى مسلم ، فيقال إنه سمى نفسه عبد الرحمن بن مسلم ،

---

(١) أ رد ابن خلدون فى مقدمته شرحاً حسناً لمبادئ الشيعة ومساق الإمامة عند مختلف فرقهم ( المقدمة ص ١٦٤ – ١٦٨ ) . ويتناولها الشهرستانى فى « الملل والنحل » بشىء من التفصيل ؛ وكذلك عبد القاهر البغدادى فى كتابه « الفرق بين الفرق » .

(٢) وهو أخو الحسن والحسين من الأب فقط . ويعرف بابن الحنفية نسبة لأمه خولة بنت جعفر بن قيس المعروف بالحنفية .

واتخذ كنيته أبا مسلم ، وقيل إن إبراهيم الإمام هو الذى سماه بهذا الإسم . ولعل أرجح رواية فى شأن هذا الداعية الكبير أنه كان فتى مغموراً ، ولد بمرو فى أسرة رقيقة الحال ، ونشأ بأصبهان ، واتصل منذ فتوته ببعض نقباء الشيعة فى الكوفة ، فآنسوا فيه ذكاء خارقاً ، وحماسة تضطرم لآل البيت وقضيتهم ، وسار معهم إلى محمد بن على بن عبد الله بمكة ، فأعجب بذكائه وعزمه ، واختاره داعية للشيعة فى خراسان ، موطنه وأصلح ميدان لنشاطه . ولما ظهر أبو مسلم وقوى أمره ، وكثر أنصاره ، ادعى أنه من آل البيت من ولد سليط بن عبدالله بن عباس[1]. ولما توفى محمد بن على ، وخلفه فى الإمامة ولده إبراهيم الملقب بالإمام بعهد منه (سنة ١٢٦ هـ) استمر أبو مسلم فى مهمته ، يبث الدعوة ، ويحشد لها الأنصار . وكانت خراسان كما قدمنا أخصب ميدان للدعوة الشيعية لبعدها عن الحكومة المركزية ، وتعاقب الفتن فيها بين المضرية واليمنية . وكان أميرها من قبل بنى أمية نصر بن سيار فى مأزق صعب ، يستنجد عبثاً بحكومة دمشق ، ويشهد تفاقم الحوادث عاجزاً ، وحركة الشيعة تشتد ، وتجتاح خراسان بسرعة . ويروى أن نصر بن سيار كتب إلى مروان بن محمد الخليفة يومئذ ، هذا الشعر الفياض بالنبوءة والنذير يستنجد به ، ويستحثه للدفاع عن عرشه وترات أسرته :

| | |
|---|---|
| أرى تحت الرماد وميض نار | ويوشك أن يكون لهـا ضرام |
| فان النـار بالعودين تـذكى | وإن الحـرب أولهـا الكلام |
| فإن لم يطفهـا عقـلاء قـوم | يكون وقودهـا جثث وهـام |
| فقلت من التعجب ليت شعرى | أأيقـاظ أميـة أم نيـام |
| فان كانوا لحينهـم نيـاماً | فقل قوموا فقـد حان القيام |
| فقرى عن رحالك ثم قـولى | على الإسلام والعرب السلام[2] |

وكان أبو مسلم رجل الموقف يدبر الخطط بقوة وبراعة ، فلم يمض بعيد حتى ألفى الفرصة سانحة للعمل الحاسم ، فاعتزم أمره ووثب فى صحبه على نصر بن سيار

---

(١) راجع فى أصل أبى مسلم وسيرته ، ابن الأثير ج ٥ ص ٩٥ — ٩٧ ، وابن خلكان ج ١ ص ٣٥٢ — ٣٥٤ ، وابن خلدون ج ٣ ص ١٠٠ و ١١٧ — ١٢٠ .

(٢) تروى هذه الأبيات بصورة أخر . راجع مروج الذهب للمسعودى (بولاق) ج ٢ ص ١٥٩

وقوات بنى أمية وهزمهم فى عدة معارك (سنة ١٢٩ — ١٣٠ هـ) ، واستولى على مرو وسمرقند وخراسان ونيسابور ، وطرد منها عمال بنى أمية ، وفر نصر بن سيار إلى العراق . وبسط أبو مسلم سلطانه على خراسان وفارس ، ورفع فيهما لواء الشيعة الأسود ، ودعا لأبى العباس عبد الله بن محمد بن على المعروف « بالسفاح » أخى إبراهيم الإمام وخلفه . وكان الخليفة الأموى مروان بن محمد ، قد هاله ما رأى من تغلغل الدعوة الشيعية فى النواحى ، فقبض على إبراهيم الإمام ، وهو يومئذ بإحدى قرى الشام ، وزجه إلى السجن حتى مات ( سنة ١٣٢ هـ ) ، وزعم أخوه عبد الله أبو العباس وأصحابه ، أنه أوصى إليه بالإمامة من بعده . فدعا له أبو مسلم فى خراسان وفارس حسبما تقدم . ثم سير أبو مسلم جيشاً إلى العراق فلقيه أميرها ابن هبيرة فى قواته ، ووقعت بين الفريقين على ضفاف الفرات معارك شديدة ، هزم فيها ابن هبيرة وفر إلى الشمال . واستولى الشيعة على العراق ، ودعوا لأبى العباس بالخلافة (ربيع الآخر سنة ١٣٢ هـ) ، ونزل أبو العباس عبد الله « السفاح » بالكوفة ، واستقر بها يرقب الحوادث .

وفى ذلك الحين كان مروان بن محمد أو مروان الثانى[1] ، الذى ولى الخلافة سنة ١٢٧هـ ، يتأهب للدفاع عن ملك بنى أمية ، الذى تصدع صرحه سراعاً . فحشد جيشاً ضخماً ، وسار شرقاً حتى وصل إلى ضفاف نهر الزّاب ، وهو فرع من دجلة يتصل به فى الضفة الشرقية جنوب شرقى الموصل ، وسار للقائه قائد المسوّدة (الشيعة) فى الشمال ، أبو عون عبد الملك بن يزيد الأزدى ، وأمده أبو العباس بجيش آخر بقيادة عمه عبد الله بن على . وبلغت قوات الشيعة كلها زهاء عشرين ألفاً ، وبلغت القوات الأموية زهاء مائة وعشرين ألفاً . ولكن حماسة الشيعة كانت تغنى عن الكثرة ، وكان تعاقب الظفر يذكى عزائمهم ويضاعف قواهم ، وكان الجيش الأموى على ضخامته قد خبت عزائمه ، واختلت صفوفه وغاضت قواه المعنوية . والتقى الفريقان على ضفة الزاب اليسرى ونشبت بينهما معركة شديدة حاسمة ، انتهت بهزيمة الجيش الأموى وتمزيقه ، وذلك فى الحادى عشر من جمادى الثانية سنة ١٣٢ هـ (٢٥ يناير ٧٥٠ م) ، وغرق فى النهر آلاف من جند الشام ، وعدة من زعمائه وقادته ، واستولى الشيعة على أسلابه ، وفر

---

(١) يعرف مروان بن محمد أيضاً بمروان الجعد ، وحمار الجزيرة ، أو مروان الحمار .

مروان فى فل من صحبه إلى الشام ، فسار فى أثره عبد الله بن على ، وحاصر دمشق واقتحمها فى الخامس من رمضان من نفس العام . وفر مروان إلى فلسطين ثم إلى مصر . فبعث « السفاح » فى أثره جيشاً بقيادة عمه صالح بن على ، فلحق به فى مصر ، وظل يطارده من مكان إلى مكان ، حتى ظفر به فى قرية بوصير على مقربة من الجيزة . وهنالك مزقت البقية الباقية من أنصار بنى أمية ، وقتل مروان آخر الخلفاء الأمويين بالمشرق ، وأرسل رأسه إلى «السفاح» وذلك فى السابع والعشرين من ذى الحجة سنة ١٣٢ هـ ( ٦ أغسطس سنة ٧٥٠ م ) .

وهكذا انهارت دعائم الدولة الأموية بسرعة مدهشة ، وقامت على أنقاضها دولة بنى العباس . ولا ريب أن أكبر الفضل فى تحطيم ذلك الصرح الشامخ ، يرجع إلى جهود تلك الشخصية العظيمة ونعنى أبا مسلم الخراسانى . كان أبو مسلم إحدى هذه العبقريات الشاملة ، التى تتفتح فى معترك الإنقلابات الحاسمة ، وتقوم على سواعدها الدول العظيمة . وكانت دعوة الشيعة وإمامة آل البيت مبعث هذا الانقلاب وروحه . ولكن بنى العباس ما كادوا يتبوأون ذلك الملك الباذخ ، حتى غلبت عليهم عصبية الأسرة ، وألفوا فى أبى مسلم منافساً تخشى عواقبه ، وفى الدعوة الشيعية خطراً يجب القضاء عليه . فلم تمض أعوام قلائل حتى قتل أبو مسلم ( شعبان سنة ١٣٧ هـ ) ، قتله أبو جعفر المنصور أخو أبى العباس وخلفه . ثم تتبع زعماء الشيعة وولد على بن أبى طالب بالقبض والمطاردة ، حتى مزق شملهم وسحق دعوتهم . واستخلص بنو العباس تراث بنى أمية لأنفسهم . وقامت تلك الدولة العباسية الزاهرة ، تصل تاريخ الإسلام فى المشرق ، وتسير به إلى عصر جديد من العظمة والبهاء .

# الفصل الثانى

## بعث الدولة الأموية فى الأندلس

موقف الأندلس بعد سقوط الدولة الأموية . يوسف الفهرى حاكم بأمره . مطاردة بنى العباس لبنى أمية . المذبحة الرائعة . من هو السفاح . نجاة عبد الرحمن بن معاوية . فراره وظروفه المؤثرة . تجوله فى برقة وإفريقية . نجاته من قبضة عبد الرحمن بن حبيب . التجاؤه إلى المغرب الأقصى . إرساله لبدر مولاه إلى الأندلس . مفاوضة بدر للزعماء . سعى أبى عثمان وعبد الله بن خالد لتأييد عبد الرحمن . موقف الصميل بن حاتم . عبور عبد الرحمن إلى الأندلس . توجس يوسف الفهر واختلال جيشه . تقدم الدعوة الأموية . الزعماء المؤيدون لعبد الرحمن . عود يوسف والصميل إلى قرطبة . عرض يوسف على عبد الرحمن وكتابه إليه . رفض عبد الرحمن لهذا العرض . مبايعة ريه وشذونة وإشبيلية لعبد الرحمن . زحفه على قرطبة . خروج يوسف والصميل لملاقاته . لقاء الفريقين فى موقعة المسارة . هزيمة يوسف والصميل . دخول عبد الرحمن قرطبة ومبايعته بالإمارة . الموقف بعد المسارة . مهمة عبد الرحمن الفادحة . معركة الدولة والإمارات المستقلة . الأخطار التى تحيق بالأندلس . الكفاح المستمر .

بينما كانت حوادث هذا الانقلاب الحاسم فى مصاير الإسلام تجرى فى المشرق ، كانت حوادث الأندلس تؤذن بانقلاب عظيم آخر فى مصاير الإسلام فى ذلك القطر النائى . وكانت الفتن والحروب الأهلية المتعاقبة التى فصلنا أخبارها ، تدفع بالأندلس إلى مصير مجهول تخشى عواقبه ، وتعصف تباعاً بمنعة الإسلام فى الغرب ، وتشجع الفرنج ونصارى الشمال على اقتطاع الأطراف النائية ، والتوغل فى الأراضى الإسلامية . وكان من عناية القدر أن تولى أمر الأندلس فى ذلك المأزق العصيب ، رجل قوى حازم هو يوسف بن عبد الرحمن الفهرى . ولكن ولاية يوسف لم تكن حلا نهائياً للأزمة ، لأنه تولى دون مصادقة شرعية من السلطة العليا ، ولأن منافسيه من الزعماء والخوارج لم يقروا بولايته ، ولم يخلدوا إلى السكينة ، وأخيراً لأن السلطة العليا التى يرجع إليها أمر الأندلس ، ونعنى خلافة دمشق قد انهارت غير بعيد ، وقامت على أنقاضها دولة وخلافة جديدتان .
والحقيقة أن يوسف بن عبد الرحمن الفهرى كان حاكماً بأمره فى الأندلس . وكانت الأندلس فى ذلك الحين إمارة أو دولة مستقلة ، يتوقف مصيرها ومصير السلطات فيها على سير الظروف والحوادث . وكان للانقلاب الذى وقع فى المشرق صداه

فى الأندلس ، إذ قام بعض الخوارج على يوسف يدعو لبنى العباس ، طمعاً فى الرياسة على نحو ما بينا ، ولكنه كان صدى ضعيفاً لم يحدث أثره ، واستمر يوسف ثابتاً فى مركزه ، يناهض الخارجين عليه بقوة وعزم . ولاريب أنه كان يحرص على ذلك السلطان الذى ألقى إليه به القدر ، بل لعله كان يعمل لغاية أتم وأبعد ، هى أن يؤسس بالأندلس مملكة مستقلة قوية ، يتبوأ عرشها ، وأسرة ملوكية جديدة من بنيه وعقبه ، يلقى إليها بهذا التراث الباذخ :

على أن حوادث المشرق كانت تتمخض عن عوامل ومفاجآت أخرى. ذلك أن بنى العباس بعد أن ظفروا بملك بنى أمية ومزقوا شمل أسرتهم ، أخذوا فى تتبع من بقى من أمرائهم وزعمائهم ، حتى لا تقوم لفلهم قائمة بعد . وعهد أبو العباس عبد الله « السفاح » ، إلى عمه عبد الله بن على وهو بالشام ، تنظيم هذه المطاردة الدموية[1]. فتتبع وجوه بنى أمية ومواليهم فى كل مكان ، وأمعن فى مطاردتهم وسفك دمائهم ، وقتل منهم جماعه كبيرة من الأمراء والسادة ، ولم يبق حتى على النساء والأطفال ، ولما شعر أن كثيرين منهم فروا ولاذوا بالاختفاء ، زعم أن أبا العباس قد ندم على ما فرط منه فى حقهم ، وأنه يشملهم بعفوه وأمانه ، فخدع كثيرون منهم بهذا الوعد ، ولبوا دعوة عبد الله إلى الظهور ، واستطاع بهذه الوسيلة أن يقتل منهم نحو سبعين رجلا أخر . وكانت مأساة هائلة ارتكبت خلالها ضروب مروعة من القسوة ، ومثل بكثير من الضحايا أشنع تمثيل ، وألقيت جثثهم للكلاب ، واستخرجت رفات الخلفاء الأمويين من مثواها وبددت ، ولم تترك جريمة مثيرة ، أو لون من العقاب أو المهانة ، إلا كان فلّ بنى أمية لها فرائس وضحايا[2] .

وهنا يسوغ لنا أن نتساءل ، من هو « السفاح » ؟ أهو أبو العباس عبد الله ابن محمد أول خلفاء بنى العباس ؟ أم هو هو عمه عبدالله بن على ؟ هذا ما تختلف

---

( ١ ) وقد أشار أحد الشعراء من دعاة بنى العباس وهو سديف بن ميمون إلى هذه المطاردة فى شعر أنشده بين يدى أبى العباس وفيه يقول :

لا يغرنك ما ترى من رجال   إن تحت الضلوع داء دويا

فضع السيف وارفع السوط حتى   لا ترى فوق ظهرها أمويا

( ٢ ) راجع طرفاً من فظائع هذه المطاردة فى ابن خلدون ج ٣ ص ١٣٢ و ١٣٣ ؛ وابن الأثير ج ١ ص ١٦١ .

الرواية الإسلامية فى شأنه . ويتفق معظم المؤرخين المسلمين ، مثل الطبرى ، وابن الأثير ، وابن خلكان ، وابن خلدون[1] على أن « السفاح » إنما هو لقب أبى العباس عبد الله بن محمد أول الخلفاء العباسيين . ويذكر لنا الطبرى وابن الأثير كيف أن أبا العباس ، هو الذى أطلق على نفسه هذا اللقب حينما ألقى خطابه الأول بمسجد الكوفة على أثر مبايعته بالخلافة ، إذ قال للناس فى ختام خطابه : «فاستعدوا فأنا السفاح المبيح ، والثائر المنيح »[2]. ولكن هناك روايات أخرى ومنها رواية قديمة هى رواية صاحب « أخبار مجموعة فى فتح الأندلس » تذكر لنا أن لقب «السفاح» لم يطلق على أبى العباس ولكنه أطلق على عمه عبد الله بن على[3]. ولهذه الرواية ظاهر من الوجاهة فيما ارتكبه عبد الله بن على من الفتك الذريع ببنى أمية ، وتتبعهم بالقتل فى سائر الأنحاء دون هوادة . ولكن من الذى يحمل فى الواقع تبعة هذه المطاردة الدموية المروعة ؟ إن الذى أوصى بمطاردة بنى أمية والفتك بهم هو أبوالعباس ذاته ، وهو أول من اجتنى ثمار الجريمة ، وتلقى تراث القتلى ، ولم يكن عمه عبد الله بن على سوى منفذ لإرادته وأمره ، وعلى ذلك فهو أحق بأن يحمل ذلك اللقب الذى يتفق مع تبعاته ونتائج سياسته ، وهو لقب يخصه به جمهرة من الثقاة المؤرخين .

ولكن هذه المطاردة الدموية الشاملة لم تجتث الشجرة من أصلها ، وشاء القدر أن تفلت بعض فروعها من يد الجناة ، وأن تزكو لتستعيد أصلها الراسخ فى أرض أخرى . وكان ممن نجا من المذبحة الهائلة فتى من ولد هشام بن عبد الملك هو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام . وكان وقت أن حلت النكبة بأسرته يقيم مع أهله وأخوته ، فى قرية تعرف بدير خنان من أعمال قنسرين ؛ وفيها كان مولده قبل ذلك بنحو عشرين عاماً فى سنة ١١٣ من الهجرة ( ٧٣١ م ) ؛ وقيل بل كان مولده بالعليا من أعمال تدمير . وتوفى أبوه معاوية شاباً فى أيام أبيه هشام بن

---

( ١ ) راجع الطبرى ج ٩ ص ١٢٣ ؛ وابن خلكان فى الوفيات ج ١ ص ٣٥٤ ؛ وابن الأثير ج ٥ ص ١٤٥ و ١٥٥ ، وابن خلدون ج ٣ ص ١٢٨ و ١٣١ و ١٧٣ .

( ٢ ) الطبرى ج ٩ ص ١٣٢ ؛ وابن الأثير ج ٥ ص ١٥٥ .

( ٣ ) راجع « أخبار مجموعة فى فتح الأندلس » ص ٤٨ ؛ وراجع أيضاً كتاب الإمامة والسياسة ج ٢ ص ١٤٨ .

عبد الملك فى سنة ١١٨ هـ ، فكفله وأخوته جدهم هشام[1]. ولما انهار صرح الخلافة الأموية ، وأمعن الظافر فى مطاردة بنى أمية ، فر عبد الرحمن بأهله وولده إلى ناحية الفرات ، وحل هناك ببعض القرى واختفى بها حيناً يدبر أمره ، ولكن جند المسوّدة ما لبثت أن حلت بتلك الجهة تستقصى آثار بنى أمية ، فبادر عبد الرحمن بالفرار . وتنقل إلينا الرواية على لسانه قصة مؤثرة عن حوادث فراره ، وتصف لنا كيف أدركته خيل المطاردين على ضفة النهر مع أخيه الصبى ، فوثبا إلى النهر واستطاع عبد الرحمن أن يقطعه سباحة إلى الضفة الأخرى ، ولكن الغلام عجز عن قطعه وعاد إلى الضفة الأولى ، حيث وعده المطاردون بالأمان ، ولكنه ما كاد يقع فى أيديهم حتى انقضوا عليه وقطعوا رأسه أمام عينى أخيه ، وقلبه يتفطر روعة وأسى[2] . ولما أن أمن عبد الرحمن خطر مطارديه ، سار مختفياً إلى الجنوب ، قاصداً إلى المغرب . وتقول لنا الرواية أيضاً ، إن المغرب كان مقصده منذ الساعة الأولى ، وإن نفسه كانت تحدثه بما سيكون له فى الأندلس من شأن ، وإن بنى أمية كانوا قبل مصرعهم ، يهجسون بمثل هذه النبوءة ويرددونها[3] .

واخترق عبد الرحمن فلسطين ومصر ، ولحق به مولياه بدر وسالم ، أنفذتهما إليه أخته أم الأصبغ بشىء من المال والجوهر ، ثم جاز إلى برقة والتجأ إلى أخواله بنى نفزة ، وهم من برابرة طرابلس ، وكانت أمه بربرية منهم تدعى راح ، وأقام لديهم طويلا يرقب الفرص . والظاهر أن محاولة الاستيلاء على إفريقية لم تكن بعيدة عن ذلك الذهن الجرىء المغامر ، وقد كانت إفريقية فى الواقع منذ ربع قرن مطمح الخوارج والمتغلبين . وكان عبد الرحمن بن حبيب الفهرى قد انتزعها لنفسه فى سنة ١٢٧ هـ ، ولما دالت دولة بنى أمية دعا لبنى العباس كما قدمنا ، ولكن الفتى الأموى لم يجد على ما يظهر أية فرصة للعمل فى هذا السبيل . وكان عبد الرحمن ابن حبيب يخشى على سلطانه من ظهور بنى أمية فى إفريقية ، فطارد اللاجئين إليها منهم ، وقتل ولدين للوليد بن يزيد بن عبد الملك ، واعتقل آخرين وصادر أموالهم.

---

(١) نفح الطيب ج ١ ص ١٥٦ .

(٢) أورد هذه الرواية صاحب أخبار مجموعة ( ص ٥١ – ٥٣ ) . وكذلك أوردها ابن حيان مؤرخ الأندلس ونقلها المقرى ( نفح الطيب ج ٢ ص ٦٢ و ٦٣ ) .

(٣) أخبار مجموعة ص ٥١ ؛ ونفح الطيب ج ٢ ص ٦٢ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٤٣ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٢١ .

ولما شعر بظهور عبد الرحمن الأموى حاول القبض عليه ، ولكن عبد الرحمن استطاع أن يتجنب المطاردة ، وفر مع صحبه إلى المغرب الأقصى ، وتجول حيناً فى تلك الأنحاء ، ولقى كثيراً من الصعاب والخطوب ، وكان يرى الموت والأسر ينذرانه فى كل خطوة . وأقام حيناً مختفياً عند شيخ من شيوخ البربر يدعى وانسوس ، كانت له فيما بعد لديه حظوة ، ثم نزل عند قوم من زناتة على شاطىء البحر ، ولحق حيناً بمليلة وغيرها ، وكان أثناء تجواله يدرس أحوال الأندلس وأخبارها ، ويرقب فرص العبور إليها .

وفى أواخر سنة ١٣٦ هـ (٧٥٣ م) لاحت له فرصة العمل ، وقوى أمله ما علمه من اشتداد الخلاف بين المضرية واليمنية ، فبعث بدراً مولاه إلى الأندلس ليسبر غور شئونها ، وليحاول بث دعوته بين أنصار بنى أمية وأهل الشام ، فنزل بدر بساحل إلبيرة (كورة غرناطة) وكانت منزل جند الشام كما أسلفنا ، وفيها تجتمع عصبة بنى أمية . وكانت رياسة الأمويين (أو المروانية) والشاميين يومئذ لزعيمين من موالى بنى أمية ، هما أبو عثمان عبيد الله بن عثمان وصهره عبد الله ابن خالد . فاجتمع بدر بأبى عثمان وأبلغه رسالة عبد الرحمن ، وناشده العمل لنصرته ، وبث دعوته بين أصدقائه وشيعته ، ولاسيما بين اليمنية ، وهم خصوم يوسف الفهرى ومنافسوه[1] . فاستجاب أبو عثمان لهذه الدعوة ، وكانت بينه وبين الصميل مودة وصداقة ، ففكر فى التماس عونه فى ذلك المشروع ، وسار إليه مع عبد الله بن خالد فى طليطلة ، وكان الصميل قد ارتد إليها منهزماً عن سرقسطة وفى نفسه مرارة من يوسف لأنه قصر فى غوثه وإنجاده ، ففاوضاه فى أمر عبد الرحمن وطلبا منه العون والتأييد . ولكن الصميل أبدى تردداً وفتوراً ، واقترح أن يتزوج عبد الرحمن من ابنة يوسف ، وأن ينزل آمناً فى ظله ، ثم صرفهما ببعض الوعود الغامضة[2]. وكان الصميل يحرص فى الواقع على أن تبقى السلطة ليوسف ،

---

(١) يروى لنا ابن حيان قصة اتصال بدر باليمانيين على النحو الآتى : قال لهم ، ما رأيكم فى رجل من أهل الخلافة يطلب الدولة بكم ، فيقيم أودكم ، ويدرككم آمالكم ؛ فقالوا : ومن لنا به فى هذه الديار . فقال بدر : ما أدناه منكم ، وأنا الكفيل لكم به . ثم ذكر لهم خبر عبد الرحمن ومكان وجوده ، وأنه يقدم نفسه إليهم ، فقالوا : فجئ به أهلا ، إنا سراع إلى طاعته ، وأرسلوا بدراً بكتبهم يستدعونه ( راجع الإحاطة لابن الخطيب ( ١٩٥٦ ) ج ١ ص ٤٥٣ ) .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٤٥ ؛ ونفح الطيب ج ٢ ص ٦٤ ؛ وابن القوطية ص ٢٣ .

لأنه مستأثر فى ظله بالنفوذ والسلطان ، ويشاركه فى تدبير الأمر وحكم الأندلس ؛ فعاد أبو عثمان وزميله إلى إلبيرة ونشطا إلى بث الدعوة فيها ، وحث اليمنية على القيام للأخذ بالثأر ، وبثا عمالها فى أنحاء الأندلس يدعون إلى تأييد عبد الرحمن الأموى . وعاد بدر إلى عبد الرحمن على مركب خاصة جهزها أبو عثمان ومعه عدة من أنصار الأموية ، وأفضى إليه بنتائج رحلته ، فاستبشر عبد الرحمن ، وعبر البحر معهم إلى الأندلس ، ونزل بساحل إلبيرة فى ثغر المُنَكَّب Almuñecar[1] ، وذلك فى ربيع الآخر سنة ١٣٨ هـ (سبتمبر سنة ٧٥٥ م ) ، فاستقبله أبو عثمان وأنزله بمقامه فى طُرُّش Torrox ، وهى قرية تقع غربى المنكب على مقربة من البحر ، فاستقر بها ينظم دعوته ويدبر خططه[2] .

وكان يوسف بن عبد الرحمن الفهرى أثناء ذلك فى الشمال يعسكر بجيشه تحت أسوار سرقسطة ، وقد استعصم بها عامر العبدرى والحباب الزهرى . فلما تم له الأمر بالاستيلاء على سرقسطة والقبض على الزعيمين الثائرين وإعدامهما على نحو ما فصلنا ، ارتد بجيشه صوب طليطلة . وبينا هو فى الطريق على مقربة منها ، إذ أتاه رسول أوفده على جناح السرعة ولده عبد الرحمن بن يوسف ، الذى استخلفه على قرطبة ، ومعه كتاب ينبئه فيه بمقدم عبد الرحمن الأموى ، وانتشار دعوته فى فى جنوب الأندلس ، فذعر يوسف ، وذاع النبأ فى الجيش ، فسرى إليه الخلل ، وتسللت العناصر الناقمة ، ولم يبق منه سوى فلول يسيرة . فهرول يوسف فى بقية جنده إلى طليطلة ، ليبحث مع الصميل فى خير الوسائل لرد هذا الخطر . وكانت الدعوة الأموية فى ذلك الحين قد اجتاحت جنوبى الأندلس ، والتف حول عبد الرحمن عدة من زعماء القبائل والجند ، منهم تمام بن علقمة اللخمى[3] ، وقد أخذ له بيعة جند فلسطين ، ويوسف بن بخت وقد أخذ له بيعة جند الأردن ، وجدار بن عمرو المذحجى من زعماء ريُّه ، وحسان بن مالك الكلبى من زعماء

---

(١) وما تزال المنكب كما كانت ثغراً من ثغور الأندلس الجنوبية . وهى مدينة كبيرة بيضاء تقع على خليجين متجاورين كقوسين فى البحر ، وتحميها الجبال من الخلف . وربما كان موقعها الحصين من البر والبحر ، هو الذى حدا بعبد الرحمن إلى اختيارها للنزول فى شاطىء الأندلس . فضلا عن قربها لمركز دعوته .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٤٦ ؛ ونفح الطيب ج ٢ ص ٦٥ ؛ وأخبار مجموعة ص ٧٦ .

(٣) لعله أخ لعبد الرحمن بن علقمة اللخمى والى أربونة ، المعروف بفارس الأندلس الذى فصلنا أخباره فيما تقدم .

إشبيلية ، وحشد أبو عثمان وعبد الله بن خالد حوله جموعاً كبيرة من الأموية وأهل الشام . وعاد يوسف والصميل إلى قرطبة ليدبرا الأمر معاً ، وأشار الصميل على يوسف بمصانعة عبد الرحمن وملاطفته وإغرائه بمصاهرته ، فأرسل إليه يوسف وهو ما يزال بطرّش وفداً يعرض عليه أن يزوجه ابنته ، ويقطعه كورة إلبيرة (غرناطه) أو كورة ريه أو يقطعه ما بينهما ، وبعث إليه هدية وشيئاً من المال ، وكتاباً طويلا يرغبه فيه بمحالفته . وينقل إلينا منه صاحب البيان المغرب هذه الفقرة : « أما بعد فقد انتهى إلينا نزولك بساحل المنكب ، وتأبش من تأبش إليك ، ونزع نحوك من السراق وأهل الختر والغدر ، ونقض الأيمان المؤكدة التى كذبوا الله فيها وكذبونا ، وبه جل وعلا نستعين عليهم . ولقد كانوا معنا فى ذرى كنف ورفاهية عيش ، حتى غمضوا ذلك ، واستبدلوا بالأمن خوفاً ، وجنحوا إلى النقض ، والله من ورائهم محيط . فإن كنت تريد المال وسعة الجناب . فأنا أولى بك ممن لجأت إليه ، أكنفك وأصل رحمك ، وأنزلك معى إن أردت أو بحيث تريد ، ثم لك عهد الله وذمته بى ، ألا أغدرك ولا أمكن منك ابن عمى صاحب إفريقية ولا غيره ...» . ولكن عبد الرحمن لم يخدع بوعود يوسف وعهده، فأبى عرضه ورد رسله ، وكان يسمو بأطماعه إلى أبعد من ذلك وأرفع ، وكان سلطان الأندلس كلها مطمح آماله[1]. وكان قد آنس عندئذ ذيوع دعوته وقوة أنصاره ، فسار فى صحبه من طرّش إلى ريُّه ، فبايعه عاملها عيسى بن مساور ، ثم إلى شذونة فبايعه عاملها علقمة بن غيات اللخمى ، ثم إلى إشبيليه ، فبايعه كبيرها أبو الصباح بن يحيى اليحصبى زعيم اليمنية ، وانضم إليه أثناء تجواله كثير من الأنصار والجند ، واجتمع له فى إشبيلية زهاء ثلاثة آلاف فارس ، وذاعت دعوته فى غربى الأندلس كله ، وأقبلت إليه المتطوعة من كل صوب ، من المضرية واليمنية وأهل الشام . ولما رأى أنه يستطيع البدء بمناجزة يوسف سار فى قواته صوب قرطبة ، وكان ذلك فى فاتحة ذى الحجة سنة ١٣٨ هـ (أوائل سنة ٧٥٦ م) .

وفى ذلك الحين كان يوسف والصميل قد حشدا جموعهما ، ومعظمها من الفهرية والقيسية ، وكان جند يوسف قد وهن ، وتفرق معظمه خلال الفتن والغزوات المتوالية ، وجاءت دعوة عبد الرحمن الأموى فزادته تفرقاً وضعفاً .

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٤٧ ؛ وأخبار مجموعة ص ٧٩ و ٨٠ .

وخرج يوسف بقواته إلى المسارّة فى ظاهر قرطبة من الغرب ، على ضفة نهر الوادى الكبير ، وكان عبد الرحمن قد أشرف بجيشه على ضفة النهر الجنوبية ، فى قرية مقابلة تسمى « بلّة نوبة » ( ڤليا نويڤا Villanueva )[1] . وفرق النهر بين الجيشين مدى أيام ثلاثة ، وفى اليوم الرابع وهو يوم الخميس تاسع ذى الحجة ، هبط ماء النهر وانحسر فى بعض المواضع ، فتأهب الفريقان للحرب ، ولم تنجح محاولة يوسف فى سبيل عقد الصلح ، وصمم عبد الرحمن على القتال فى اليوم التالى أعنى يوم الجمعة ، وكان يوم الأضحى ، متيمنا فى ذلك بذكرى موقعة مرج راهط الشهيرة ، التى انتصر فيها جده مروان بن الحكم ، على قوات عبد الله ابن الزبير ، التى يقودها الضحاك بن قيس الفهرى ، وذلك فى يوم الأضحى — وقد كان الجمعة أيضاً — سنة ٦٤ ﻫ . وفى اليوم التالى دفع عبد الرحمن قواته لاقتحام النهر ، وكان أول من اقتحمه منهم جند بنى أمية ، وكان يوسف يتفوق على خصومه بكثرة فرسانه ، ولكن التفرق كان يسود جنده ، وكانت جموع عبد الرحمن تضطرم على قلتها عزماً وحماسة ، فنشبت بين الفريقين معركة عنيفة ولكن قصيرة ، فلم يأت الضحى حتى مزقت خيل يوسف ، وهزم جيشه هزيمة شديدة ، ونهبت أسلابه ، وقتل كثير من وجوه القيسية والفهرية[2] . وفر يوسف صوب طليطلة ، حيث كان ولده عبد الرحمن ، وفر الصميل صوب جيان . ودخل عبد الرحمن الأموى وصحبه قرطبة دون معارضة ، وحمل جنده ما استطاع على الاعتدال والقناعة ، وحمى أسر خصومه وحريمهم وأموالهم من العيث ، وصلى الجمعة فى الجامع ، ثم نزل بالقصر ، وبويع فى الحال بالإمارة ، وذلك فى العاشر من ذى الحجة سنة ١٣٨ ﻫ ( ١٣ مايو سنة ٧٥٦ م )[3] .

كان يوم المسارّة بالنسبة لعبد الرحمن فاتحة الظفر لاغايته ، فقد استطاع بعد أحداث وخطوب جمة أن يجوز إلى الأندلس ، وأن يفتتح عاصمتها ، وأن ينتزع إمارتها لنفسه ، ولكنه ظفر بعرش لم يتوطد سلطانه بعد . وكان ثمة بينه وبين مُلْك

---

( ١ ) ابن القوطية ص ٢٦ .

( ٢ ) ويبالغ البعض فى تقدير عدد القتلى فيقدره بسبعين ألفاً ( ابن القوطية ص ٢٧ ) .

( ٣ ) يفرد صاحب أخبار مجموعة فصلا مسهباً لهذه الموقعة ، وكيفية تقسيم الجيشين المتحاربين وأسماء القادة فى كل منها ( ص ٨٦ — ٩٠ ) . وراجع أيضاً ابن القوطية ص ٢٦ — ٢٨ ؛ ونفح الطيب ج ٢ ص ٦٥ و ٦٦ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٤٨ و ٤٩ .

الأندلس الحقيقى مراحل بعيدة ، وكان ملك الأندلس قد غدا منذ انحلال الخلافة الأموية ، كما رأينا ، نهباً مشاعاً يتنازعه الزعماء والمتغلبون ، وكانت الفتن المتوالية قد عصفت بالسلطة العليا ، واقتصت من أطرافها ، واستقل الزعماء الأقوياء بكثير من النواحى ، وقضى يوسف الفهرى معظم ولايته فى إخماد الفتنة ، واستخلاص الرياسة ، ولكنه لم يوفق إلى إخماد كل عناصر النزاع والخروج. فلما ظهر الفتى الأموى فى الميدان ، كان صرح الأندلس يهتز فوق دعائمه الواهنة ، وكان توطيده يتطلب كثيراً من العزم والعمل القوى .

وكان يوم المسارّة حاسما فى مصاير الأندلس ، وكان فاتحة عهد جديد فى تاريخها . ولكن المهمة كانت فادحة ، والمعركة شاقة مشعبة النواحى. وكما أن يوم المسارة كان فاتحة الظفر ، فقد كان فاتحة الكفاح أيضاً . ذلك أن الأندلس كانت يومئذ بسيطاً من الفتن المتأججة ، وكانت الثورة تجثم فى كل ناحية ، وانحلت عرى العصبية القديمة الشاملة ، وانتثرت فرقاً وشيعاً صغيرة ، فلم تبق الخصومة قاصرة على المضرية واليمنية فقط ، ولكن غدت كل قبيلة وكل بطن تلتف حول زعامتها ومصالحها الخاصة . وكانت هذه القوى المنتثرة المستقلة برأيها وهواها ، تتمسك باستقلالها المحلى ، وتأبى الخضوع لأية سلطة عامة . وكان عبد الرحمن يرمى إلى إحياء دولة الإسلام فى الأندلس موحدة متماسكة ، كما كانت قبل أن تمزقها الحرب الأهلية ، فكانت المعركة فى الواقع معركة الدولة والإمارات المستقلة ، ومعركة السلطة المركزية والإقطاع المحلى : معركة الرياسة الشاملة ، والعصبية المتناثرة . وكان البربر عنصراً قوياً فى الفتنة ، يحتفظون دائماً ببغضهم القديم للعرب ، ويحرصون على ما انتزعوه منهم خلال الفتنة من النواحى والضياع . ثم كان هنالك ما هو أشد خطراً على دولة الإسلام فى الأندلس ، ونعنى اسبانيا النصرانية التى استطاعت أن تخرج سراعاً من غمر الهزيمة والفوضى ، وأن تنتظم إلى مملكة جديدة فى الشمال ، وكذلك مملكة الفرنج القوية التى استطاعت أثناء الفتنة أن تنتزع الأراضى الإسلامية فيما وراء البرنيه. وكان نصارى الشمال والفرنج يتربصون يومئذ بالأندلس ، ويرون فى تفرقها وضعفها فرصة صالحة للعمل ، ويتصلون بكثير من الزعماء والخوارج ، ويمدونهم بالنصح والعون ، ويتخذونهم وسائل لتحقيق مشاريعهم فى تمزيق الأندلس وانتزاع أطرافها .

كان عبد الرحمن غداة ظفره الأول ، يواجه هذه الخطوب والأخطار كلها ، وكان عليه أن يقارعها جميعاً ، لكي يغنم رياسة الأندلس القوية المتحدة . ولكن ذلك الأمير الفتى الذى لم يكن يجاوز السادسة والعشرين يوم ظفره ، كان رجل الموقف ، قد شحذت من عزمه الخطوب والمحن ، وأعدته لحياة النضال والمغامرة . فقضى بقية عمره — اثنين وثلاثين عاماً — فى كفاح مستمر ، لاينتهى من معركة إلا ليخوض أخرى ، ولايقمع ثورة إلا تليها ثورة ، ولا يسحق خارجاً إلا ليعقبه خارج ، ولم تبق بالأندلس ناحية أو مدينة إلا ثارت عليه ، ولا قبيلة إلا نازعته فى الرياسة ، ولم تبق قوة خفية أو ظاهرة إلا عملت لسحقه . فكانت الأندلس طوال عهده بركاناً يتأجج بضرام الحرب والثورة والمؤامرة . ولكنه صمد لتلك الخطوب كلها ، واستطاع بكثير من الذكاء والإقدام والعزم والجلد ، أن يغالب تلك الأخطار والقوى ، وأن يقبض على مصاير الأندلس بيده القوية ، وأن يحيي سلطان أسرته المندثر ، فى ذلك القطر النائى ، ليستقر ويزدهر أكثر من قرنين . وكان تفرق خصومه أهم عامل فى ظفره ، فلم تك ثمة زعامة شاملة بعد يوسف والصميل ، يجتمع الخصوم حولها ، وكانت القوى الخصيمة منتثرة فى النواحى والمدن ، تعمل كل بمفردها حول زعيمها المحلى ، وكانت فوق ذلك يعارض بعضها بعضاً فى معظم الأحيان . وقد استطاع عبد الرحمن أن يقدر هذا الظرف وأن يستغله ، فعمد إلى لقاء معارضيه فى الميدان فرادى ، واستطاع أن يخمد ثوراتهم ، وأن يحطم قواهم بالتعاقب ، وهو فى كل مرة يزداد قوة ومنعة ، ويزداد خصومه ضعفاً وتفرقاً ، حتى قضى عليهم جميعاً .

# الفصل الثالث

## ولاية عبد الرحمن الداخل

— ١ —

بدء المعارك الداخلية . القتال بين يوسف والصميل وبين عبد الرحمن . إذعانهما إلى طلب الصلح وعودهما إلى قرطبة . فرار يوسف وسجن الصميل . يوسف يستأنف الحرب . هزيمته وفراره . مصرعه فى طليطلة ومقتل ولده عبد الرحمن . فرار ولده محمد إلى طليطلة . هزيمته وأسره . مصرع الصميل . تأملات عن يوسف والصميل . ثورة القاسم بن يوسف فى الجزيرة الخضراء . استيلاؤه على إشبيلية . مهاجمة عبد الرحمن لإشبيلية . هزيمة القاسم وأسره . ثورة عبد الغافر اليمنى فى إشبيلية وإخمادها . استئنافها على يد حيوة بن ملامس . عبد الرحمن يقاتله ويهزمه . ثورة هشام بن عزرة الفهرى بطليطلة وامتناعه بها . ظهور العلاء بن مغيث واضطرام الثورة فى باجة . شهر الدعوة العباسية واتساع نطاق الثورة . مسير عبد الرحمن لمقاتلة العلاء وحلفائه . لقاؤهما فى قرمونة . هزيمة الثوار ومصرعهم . إرسال رؤوسهم إلى إفريقية ومكة . استئناف حصار طليطلة . تسليمها ومصرع زعمائها . ثورة المطرى بلبلة . هزيمته ومقتله . ثورة أبى الصباح فى إشبيلية . إستدراجه إلى قرطبة ومقتله . ظهور الفاطمى البربر ودعوته . ثورته فى غرب الأندلس . هزيمته لقوات عبد الرحمن . مسير عبد الرحمن لقتاله . التجاؤه إلى الجبال . خطة عبد الرحمن لتفريق جموعه . عود الثورة إلى إشبيلية ولبلة . مسير عبد الرحمن لقتال الثوار . تفرق الثوار وهزيمتهم . عود عبد الرحمن لقتال الفاطمى . التجاؤه إلى شنت برية . اغتياله وانهيار دعوته .

وكان أول ما عنى به عبد الرحمن من أدوار ذلك النضال بعد يوم المسارة ، هو أن يتعقب يوسف والصميل أقوى خصومه وأخطرهم . وكان يوسف قد فر عقب الموقعة صوب طليطلة ، وفر الصميل إلى جيان معقل قومه . وحشد يوسف فى طليطلة ونواحيها ما استطاع من أنصاره ، بمعاونة عامله عليها هشام بن عزرة الفهرى ، ووافاه الصميل بمن حشد من المضرية . ثم سارا فى قواتهما إلى جيان ثم إلى إلبيرة (غرناطة) ، واجتمع أهل هذه الأنحاء حول يوسف ، ونزل يوسف بإلبيرة يتأهب لمحاربة عبد الرحمن . ولكنه ما كان يستقر فى إلبيرة ، حتى بادر عبد الرحمن بالسير إليه ، وترك حماية قرطبة لحليفه وقائده أبى عثمان . ولما علم يوسف بمسيره إليه ، بعث ابنه عبد الرحمن فى بعض قواته إلى قرطبة ، فاقتحمها وأسر أبا عثمان ونفراً من أهل عبد الرحمن وحريمه ، ثم غادرها فى الحال خشية

المفاجأة . ولكن عبد الرحمن الأموى لم يلو فى طريقه على شىء ، وقصد إلى إلبيرة توا ، وحاصر يوسف والصميل . فلما شعرا بأن المقاومة عبث ، فاوضاه فى الصلح والتسليم بالأمر له ، ونبذ كل دعوى فى الولاية والسلطة ، على أن يؤمنهما فى النفس والمال والأهل ، وأن يؤمن حلفاؤهم وأصدقاؤهم جميعاً ، وأن يسمح لهما بسكنى قرطبة تحت رعايته ورقابته ، فأجابهما عبد الرحمن إلى الصلح على ذلك ، وعلى أن يقدم يوسف ولديه عبد الرحمن ومحمداً أبا الأسود رهينة لديه ، يعتقلهما فى قصر قرطبة برفق وإكرام ، حتى تطمئن النفوس وتستقر الأمور ، وتم عقد الصلح بين الفريقين فى صفر سنة ١٣٩ هـ ، وأفرج عن أبى عثمان وباقى الأسرى الذين أسرهم ولد يوسف ، وتصافى الفريقان ، وقفل يوسف والصميل مع عبد الرحمن إلى قرطبة ، وانفض جندهما[1]. ونزل يوسف بشرقى قرطبة فى قصر الحر الثقفى أحد الولاة السابقين ، ونزل الصميل بداره بالربض ( الضاحية ) ، وأبدى عبد الرحمن نحوهما عطفاً وليناً ، وهو مع ذلك يشدد عليهما الرقابة ، ويحرص على تجريدهما من كل سلطة وقوة . وكان فى قرطبة فل من عصبة يوسف وأنصاره السابقين ، الذين نالوا على يديه جاهاً وحظوة ، يتطلعون إلى العهد السابق ، ويلومون يوسف على تسليمه واستكانته ، ويحرضونه على استعادة مركزه وسلطانه ، وكان يوسف من جهة أخرى يشعر أنه فى شبه اعتقال ، وأن عبد الرحمن يضيق الخناق عليه ، ويؤلب عليه صنائعه ، ينازعونه فى أملاكه وأمواله لدى القضاء ، والقضاء يميل إلى غبنه وإعناته ، حتى ذهب معظم أملاكه ، وهو يشعر أن عبد الرحمن من وراء ذلك الاضطهاد[2]. عندئذ عول على الفرار ، وكاتب أنصاره فى ماردة وطليطلة ، ثم فر إلى ماردة ، وكان بها معظم أهله وأصهاره (سنة ١٤١ هـ) ، وهناك حشد أنصاره من العرب والبربر ، حتى اجتمع له زهاء عشرين ألفاً ، وتخلف الصميل ولم يوافقه ، فقبض عليه عبد الرحمن وألقاه فى غيابة السجن بتهمة التحريض والتآمر . وبينا كان عبد الرحمن يحشد جنوده ، سار يوسف بقواته إلى إشبيلية ، وعليها عبد الملك بن عمر بن مروان المعروف بالمروانى ، فحاصره فى إشبيلية حتى أتاه ولده عبد الله بالمدد ، ثم وقعت بينهما معارك شديدة

---

( ١ ) راجع نفح الطيب ج ٢ ص ٦٦ ؛ وأخبار مجموعة ص ٩٣ و ٩٤ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٥٠ .

( ٢ ) المقرى عن ابن حيان ( نفح الطيب ج ٢ ص ٦٦ ) ، وأخبار مجموعة ص ٩٥ .

قتل فيها كثير من الفريقين ، وارتد يوسف منهزماً بفلوله . وكان عبد الرحمن الأموى يرابط عندئذ بقواته فى حصن المدوّر ، الواقع على مقربة من غربى قرطبة ، على نهر الوادى الكبير ، فوافته الأخبار بهزيمة يوسف وفراره ، فتوقف عن مطاردته ، وسار يوسف إلى طليطلة ، ولبث يتردد فى أنحائها مدى أشهر ، وهو يحاول أن ينظم قواته مرة أخرى ، ولكن بعض الخونة من أنصاره أو مواليه ائتمروا به ، واغتالوه ذات يوم على مقربة من طليطلة ، وحملوا رأسه إلى عبد الرحمن فى قرطبة (سنة ١٤٢ هـ) . والظاهر أن هذه الجريمة لم تكن بعيدة عن وحى عبد الرحمن . وانتهت بذلك حياة يوسف الحافلة المضطربة ، وأمن عبد الرحمن شره وخطره ، وقتل ابنه عبد الرحمن المعتقل لديه ، ورفع رأسيهما فوق الرماح أمام القصر ليلقى الرعب فى قلوب الخوارج والمخالفين [١]. أما ولد يوسف الآخر وهو محمد أبو الأسود ، فقد استطاع أن يفر من سجنه ، وقصد تواً إلى طليطلة معقل عصبة أبيه وتحصن بها ، فبعث عبد الرحمن فى أثره جيشاً بقيادة تمام بن علقمة وعينه والياً لطليطلة ، فحاصرها حتى سلمت ، وأسر محمد بن يوسف ثانية وجىء به إلى قرطبة ، واستولت جنود عبد الرحمن على طليطلة ( ذى الحجة سنة ١٤٢ ) ، وسحق بذلك وكر الثورة الفهرية . وزج محمد إلى السجن ثانية وادعى العمى حتى استطاع الفرار بعد محنة طويلة ، وعاد يرفع علم الثورة كما سيأتى . واستطاع أخوه الأصغر القاسم بن يوسف أن يفر من طليطلة متنكراً قبل سقوطها . وأما الصميل ، فلبث يوسف فى سجنه مدى أسابيع أخرى حتى دس عليه عبد الرحمن من قتله داخل السجن خنقاً ( أواخر سنة ١٤٢ هـ ) [٢].

وهكذا انتهت بذهاب يوسف والصميل مرحلة خطيرة من الإضطراب والقلاقل . كان يوسف شخصية قوية وزعيما ممتازاً ، وقد استطاع أن يحكم الأندلس زهاء عشرة أعوام فى ظروف عصيبة ، وأن يسهر على وحدتها وسلامتها بقوة

---

( ١ ) البيان المغرب ج ٢ ص ٥١ ؛ وأخبار مجموعة ص ١٠٠ . ولكن كوندى يورد عن مصرع عبد الرحمن بن يوسف رواية أخرى هى أنه كان عند مقتل أبيه حراً طليقاً ، وقتل فى معركة دموية نشبت بينه وبين جنود تمام بن علقمة والى طليطلة (Conde : ibid., V.I. p. 174) وهى رواية ظاهرة الضعف .

( ٢ ) نفح الطيب ج ٢ ص ٦٧ ؛ وابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٥٥ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٥١ ، وأخبار مجموعة ص ١٠١ .

وذكاء ، وأن يدرأ عنها خطر نصارى الشمال والفرنج ، ولما فقد يوسف رياسة الأندلس فى يوم المسارة ، لبث مع ذلك أخطر قوة تهدد طالع عبد الرحمن الأموى وسلطانه ، ولبث روح الثورة والمعارضة مدى أعوام أخرى. وكان الصميل زعيماً قوى العصبية ، نافذ الرأى والكلمة ، وافر الدهاء والمكر ، يخشى بأسه ووحيه . فكان ذهابهما من الميدان فوزاً لعبد الرحمن ، وخطوة كبيرة فى سبيل استقرار رياسته وتوطدها .

وقطع عبد الرحمن أعوامه التالية فى كفاح مستمر ، يتلقى وثبات الخوارج عليه من كل صوب. وكان أول الخوارج عليه بعد مصرع يوسف والصميل ، القاسم ابن يوسف وحليفه رزق بن النعمان الغسانى. وكان القاسم حينما فر من طليطلة كما قدمنا ، قد سار إلى الجزيرة الخضراء ، والتجأ إلى شيخها رزق بن النعمان صديق أبيه ، وحشد حوله جمعاً من الأنصار والمرتزقة ، واستولى بمعونة حليفه على شذونة ، ثم سارا فى قواتهما إلى إشبيلية ، ولم تكن بها قوة تدافع عنها ، فاستوليا عليها دون مشقة ، فبادر عبد الرحمن الأموى فى قواته إلى إشبيلية ، ونشبت بينه وبين الخوارج معركة عنيفة ، قتل فيها رزق بن النعمان ومزق جنده ، ودخل عبد الرحمن إشبيلية ظافراً ، وذلك فى أواخر سنة ١٤٣ هـ . أما القاسم فالتجأ بقواته إلى شذونة ، وبعث عبد الرحمن فى أثره تماماً والى طليطلة ، فطارده حتى أسره ومزق قواته[1] .

ولبث عبد الرحمن بإشبيلية بضعة أشهر ، ولكنه ماكاد يغادرها إلى قرطبة حتى نشبت فيها ثورة أخرى ، بقيادة عبد الغافر اليمانى زعيم اليمانية ، واستولى عبد الغافر على ما جاور قرطبة من الأنحاء ، وكثرت جموعه ولا سيما من البربر ، وأصبح يهدد قرطبة . فخرج عبد الرحمن لقتاله ، والتقيا بوادى قيس على مقربة من قرطبة ، فاستمال عبد الرحمن حلفاء عبد الغافر من البربر وانفض عنه جندهم ، واقتتل الفريقان فهزم عبد الغافر هزيمة شديدة ، وفر إلى لقنت ، وطارد عبد الرحمن جنده حتى قتل منهم ألوفاً عديدة (سنة ١٤٤ هـ) .

ورفع لواء الثورة من بعده فى إشبيلية أيضاً ، حيوة بن ملامس الحضرمى

---

(١) Conde : ibid., V. I. p. 178 ، وأخبار مجموعة ص ١٠١ .

كبير زعمائها ، وتغلب على إشبيلية وإستجة وكثير من نواحى الغرب[1] ، والتف حوله أهل هذه الأنحاء واستفحل أمره . فسار إليه عبد الرحمن ، ونشبت بينهما معارك عنيفة مدى أيام ، ودافع الثوار عن أنفسهم بمنتهى البسالة ، حتى كادت الدائرة تدور على عبد الرحمن ، ولكن التفرق دب أخيراً إلى صفوف الثوار ، ولحقهم الإعياء والملل ، فوقعت عليهم الهزيمة ، وفر زعيمهم حيوة ، وكتب إلى عبد الرحمن يلتمس منه العفو والأمان ( سنة ١٤٤ هـ — ٧٦١ م )[2] .

وعلى أثر ذلك نشبت الثورة فى طليطلة . وكان عبد الرحمن قد اختار لولايتها تمام بن علقمة ، ثم عينه لحجابته فكان أول حجابه ، وخلفه فى ولاية طليطلة حبيب بن عبد الملك . وكانت المدينة ماتزال تضطرم بعناصر الثورة وفيها كثير من أنصار الفهرية ، فلم يلبث أن قام زعيمهم هشام بن عزرة الفهرى ، ولد عزرة أمير الأندلس السابق ، وأعلن الثورة واعتصم بالمدينة . فسار إليه عبد الرحمن وحاصره مدى أشهر ، حتى اضطر إلى طلب الصلح ، وقدم ولده رهينة بحسن طاعته ، فأجابه عبد الرحمن إلى طلبه ، وآثر أن يهادنه مؤقتاً . ولكنه ما كاد يصل إلى قرطبة حتى عاد هشام إلى الثورة ، فارتد إليه عبد الرحمن ليعاقبه على نكثه ، وحاصره ثانية وقتل ابنه ، وأطلق رأسه بالمنجنيق داخل الأسوار ، ولكنه لم يظفر بحمل الثائر على التسليم ، فعاد إلى قرطبة ليضاعف أهباته ، بيد أنه لم يستطع أن يعود تواً إلى طليطلة ، إذ نمى إليه عندئذ خبر حادث داهم الخطر يتطلب كل جهوده وقواه .

ذلك أن داعية من خصوم بنى أمية هو العلاء بن مغيث اليحصبى[3] ، وكان من وجوه باجة وله بها رياسة وعصبة ، كاتب أبا جعفر المنصور ، واتصل برسله

---

( ١ ) كورة « الغرب » كانت تقع غربى إشبيلية ، حتى جنوبى البرتغال ما بين لبلة وولبة والمحيط ، وقد حرفت فى الإفرنجية إلى كلمة **Algarve** .

( ٢ ) البيان المغرب ج ٢ ص ٥٣ ، والمقرى ج ٢ ص ٧٣ . ويذكر كوندى أن حيوة من ملامس كان بالعكس صديقاً حميماً لعبد الرحمن ، وبالغ فى الاحتفاء به يوم نزوله بإشبيلية ، وأنه توفى بعد ذلك بقليل فرثاه عبد الرحمن بأبيات مؤثرة **(Conde : ibid., V.I.p. 179)** ، ولكن كوندى يخلط هنا فى الوقائع . والحقيقة أن حيوة بن ملامس كان من أصدقاء عبد الرحمن لأول مقدمه وكانت له لديه منزلة ، وينقل إلينا ابن الأبار بيتين ينسب قولهما إلى عبد الرحمن فى امتداح حيوة وجوده ووفائه ( الحلة السيراء ص ٣٢ و ٣٤ ) . ولكنه غدا بعد من ألد خصومه ومنافسيه . وله أخبار أخرى ستجىء .

( ٣ ) وقيل الحضرمى ( أخبار مجموعة ص ١٠٧ ) . والجذامى ( البيان المغرب ج ٢ ص ٥٣ ) .

فى إفريقية، واستصدر منه سجلا بولايته للأندلس . ثم ارتد إلى الأندلس، وعاد إلى باجة فى قوة كبيرة ، ودعا لبنى العباس ، ورفع العلم الأسود ، وأعلن أنه قد عين أميراً للأندلس من قبل المنصور[١] (سنة ١٤٦هـ) . وكان الخليفة العباسى يحاول بهذه الدعوة ، أن يحطم مشاريع بنى أمية فيما وراء البحر ، وأن يبسط سلطانه الإسمى على الأندلس . وقد رأينا أن عبد الرحمن بن حبيب المتغلب على إفريقية ، دعا لبنى العباس حينما انهار سلطان بنى أمية ، وكاتب الخليفة العباسى فأقره على حكم إفريقية ، فكانت إفريقية تابعة لبنى العباس من الوجهة النظرية ، وهكذا كان شأن العلاء بن مغيث، فقد رأى أن يستظل فى ثورته بالدعوة العباسية، لكى يسبغ عليها لوناً من الشرعية ، ولم يكن للخليفة العباسى اعتراض على محاولة لا يتحمل تبعتها من الوجهة المادية ، وإن كان يعضدها من الناحية المعنوية ، وقد أرسل بالفعل سجلا إلى الثائر بما طلب . وكان بعض الزعماء الخوارج على يوسف ابن عبد الرحمن ، قد استظلوا بالدعوة العباسية كما قدمنا . وسنرى كيف يشهر الخوارج على عبد الرحمن الأموى هذه الدعوة فى حوادث وخطوب أخرى[٢] .

واضطرمت باجة وما حولها بنار الثورة ، وهرعت القبائل والأحزاب المختلفة إلى الانضواء تحت اللواء الأسود ، ولاسيما الفهرية واليمنية وجند مصر ، واستفحل أمر العلاء وكثر جمعه ، وانضم إليه أمية بن قطن وأصحابه . وأعلن غياث ابن علقمة الثورة فى شذونة محالفاً للعلاء . فخرج عبد الرحمن من قرطبة فى جميع قواته ، وبعث بدراً مولاه فى بعضها إلى شذونة ، فحاصرها حتى أذعن غياث لطلب الصلح . وسار عبد الرحمن إلى قرمونة ما بين قرطبة وإشبيلية نظراً لمناعتها ، واتخذ موقف الدفاع ، فسار إليه العلاء فى جموعه ، وهاجم قرمونة مراراً ، وحاصرها مدى أسابيع حتى وهنت قوى جنده ، وعندئذ انقلب عبد الرحمن من الدفاع إلى الهجوم ، وداهم العلاء فى صفوة جنده ، ونشبت بين الفريقين معارك شديدة مدى أيام ، حتى هزم العلاء ومزق جنده ، وقتل منهم آلاف عديدة ، وكان العلاء نفسه بين القتلى ؛ وأسر ابن قطن . وجمع عبد الرحمن رؤوس الزعماء والقادة من خصومه ورقمها بأسمائهم . وحملها بعض رسله إلى القيروان ، فألقيت فى أسواقها سراً ، وأثارت هناك دهشة وارتياعاً . ووضعت رأس العلاء فى سفط ،

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٥٤ .

(٢) راجع ابن القوطية ص ٣٢ ؛ وابن الأثير ج ٥ ص ٢١٣ ؛ وابن خلدون ج ٤ ص ١٢٢

ومعها اللواء الأسود وسجل المنصور للعلاء ، وحمله بعض التجار الثقاة إلى مكة ، حيث كان المنصور يؤدى فريضة الحج فى العام التالى ( سنة ١٤٧ هـ ) . وألقى أمام سرادق المنصور ، وحمل إليه فارتاع لرؤيته ، وقال ما معناه : « ما فى هذا الشيطان مطمح ، فالحمد لله الذى جعل بيننا وبينه البحر »[١] .

وهكذا استطاع عبد الرحمن أن يسحق هذه الدعوة الخطرة ، وكان أخطر ما فيها أنها لم تكن دعوة حزب أو قبيلة ، وإنما كانت دعوة عامة تدعمها الصبغة الشرعية ، ولم يك أصلح منها لجمع خصوم عبد الرحمن من سائر الأحزاب والقبائل تحت لواء واحد[٢] . ولما عاد عبد الرحمن إلى قرطبة كانت الثورة التى يثير ضرامها هشام الفهرى فى طليطلة ، قد استفحلت واتسع نطاقها . فأرسل عبد الرحمن قائديه بدراً وتمام بن علقمة فى جيش كبير إلى طليطلة ، فطوقها وشدد الحصار عليها حتى ضاق أهلها ذرعاً ، واضطروا إلى طلب الصلح ، على أن يسلموا الزعماء الثائرين ، وقبضوا على هشام وعدة من أصحابه ، فأخذوا إلى قرطبة مصفدين معذبين ، ثم صلبوا بأمر عبد الرحمن ، وتم بذلك سحق الثورة فى طليطلة إلى حين ( سنة ١٤٧ هـ — ٧٦٤ م ) .

وفى أوائل سنة ١٤٩ هـ — ٧٦٦م ، خرج سعيد اليحصبى المعروف بالمطرى بمدينة لَبْلة ، مطالباً بثأر اليمانية الذين قتلوا مع العلاء ، فهرعت إليه اليمانية وقوى جمعه . ثم سار إلى إشبيلية فاستولى عليها ، وارتد عنها واليها عبد الملك بن عمر المروانى لقلة جنده ، ولبث ينتظر المدد . وكانت إشبيلية مطمح كل ثائر لقربها من قرطبة ، ولأنها لبثت مدى أعوام من أهم مراكز الثورة فى الأندلس . وخرج فى الوقت نفسه غياث بن علقمة اللخمى بمدينة شذونة ناكثاً لعهده . فسار عبد الرحمن أولا إلى إشبيلية ، وانقلب المطرى إلى قلعة رعواق القريبة وامتنع بها ، فحاصره عبد الرحمن وقطع علائقه مع بقية أنصاره ، فلما ضاق الثائر بالحصار ذرعاً ، حاول الخروج ليشق له طريقاً بين الحشد المحاصر ، ووقعت بين الفريقين معركة شديدة قتل فيها المطرى ، وارتدت فلوله إلى القلعة ، وقدموا عليهم خليفة بن مروان ،

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٥٤ ؛ والمقرى ج ١ ص ١٥٦ وج ٢ ص ٦٧ ؛ وأخبار مجموعة ص ١٠٢ و ١٠٣ ؛ وابن القوطية ص ٢٣ .

(٢) Dozy : Hist., V. I. p. 234

فاستمر عبد الرحمن فى محاصرة الخوارج ، حتى أذعنوا لطلب الصلح ، وسلموا إليه قائدهم فقتله ، واستولى على القلعة وهدمها ، ثم سار إلى شذونة فحاصرها حتى أذعن أهلها لطلب الأمان .

وفى العام التالى عادت الثورة فاضطرمت فى إشبيلية ، ومدبرها وزعيمها فى تلك المرة أبو الصباح بن يحيى اليحصبى ، صديق عبد الرحمن وحليفه ، وكان أبو الصباح زعيم اليمنية فى إشبيلية يوم قدوم عبد الرحمن إلى الأندلس ، فكان فى طليعة من هرعوا يومئذ لتأييده ونصرته ، وقاتل معه يوم المسارّة ، وغدا إلى جانب أبى عثمان وعبد الله بن خالد ، من خاصة أعوانه وأركان دولته . ولكن عبد الرحمن كان يحقد عليه ويتوجس منه ، لحديث نقل عنه يوم المسارة بوجوب التخلص من عبد الرحمن بعد التخلص من يوسف الفهرى ورد الأمر إلى اليمنية[1] . وكان عبد الرحمن قد ولاه إشبيلية ، ثم عزله عنها لما ظهر من عجزه عن قمع الفتنة ، فغضب أبو الصباح وأظهر الخلاف ، واجتمع إليه أنصاره ، ورأى عبد الرحمن أن يأخذه بالحيلة والملاطفة ، فبعث إليه تمام بن علقمة يدعوه إلى قرطبة للتفاهم ، ويبذل له ما شاء من الوعود ، فسار أبو الصباح إلى قرطبة فى أربعمائة من رجاله ، واستقبله عبد الرحمن بالقصر ، وعاتبه على ما كان منه ، فأغلظ أبو الصباح فى الجواب ، ولامه على النكث بوعوده له ، فأمر الفتيان بقتله ، فقتل طعناً بالخناجر وانفض جمعه ( سنة ١٥٠ هـ ) .

ولم يمض قليل على ذلك حتى نشبت فتنة خطيرة من نوع جديد ، شغلت عبد الرحمن مدى الأعوام التالية ، وكان نشوبها فى شمال شرقى الأندلس بين البربر ، وزعيمها ومثير ضرامها ، داعية بربرى خطر يدعى شقنا أو شقيا بن عبد الواحد ، وأصله من بربر مكناسة ، وكان فقيهاً يعلم الصبيان ، فزعم ذات يوم أنه سليل النبى ومن ولد فاطمة والحسين ، وتسمى بعبد الله بن محمد . فذاعت دعوته بين البربر فى تلك المنطقة ، وكانوا أكثرية بها . والخصومة بين العرب والبربر قديمة مؤثلة كما بينا ، وقد كان البربر دائماً على قدم الأهبة للثورة ضد العرب . ولما آنس الدعى الفاطمى قوة جمعه ، سار إلى شنّت بريّة[2]. فاستولى عليها وجعلها مركزه

---

( ١ ) نفح الطيب ج ٢ ص ٦٦ ؛ وابن القوطية ص ٣٠ .

( ٢ ) شنت برية وبالإسبانية **Santaver** من الكور الأندلسية القديمة التى اندثرت ، وكان موقعها يشغل مقاطعة قونقة اليوم ، وقاعدتها شنت برية تقع شرقى وادى الحجارة . وسميت كذلك عن اسمها القديم **Santebria** .

العام ، ثم سار فى جموعه غرباً واستولى على ماردة وقورية ومدلين ، وعلى جميع المنطقة الواقعة حولها بين نهرى التاجُه ووادىيانة ، فقويت دعوته وعظم أمره ، واشتد بغيه وعيثه فى تلك الأنحاء ، وأخذت العناصر المخالفة لعبد الرحمن من العرب فى التحرك أيضاً . فعهد عبد الرحمن إلى والى طليطلة أن يقمع ثورة الدعى ، فبعث إلى شنت برية جيشاً بقيادة سليمان بن عثمان ، فخرج إليه الفاطمى فى قواته ، فهزمه هزيمة شديدة ، وأسر قائده سليمان وقتله ، وزاد هذا الظفر فى سلطانه وبغيه . فسار إليه عبد الرحمن بنفسه فى العام التالى (سنة ١٥٢ هـ) ، واقتحم منطقة الثورة ، ونشبت بينه وبين البربر وقائع عديدة ثبت فيها البربر ، وامتنع الثائر بالجبال ، ولم يجد عبد الرحمن سبيلا إلى مطاردته . فارتد إلى قرطبة ، وبعث إلى شنت برية مولاه بدراً ليتابع القتال ، فاستمر الفاطمى ممتنعاً بصحبه فى الجبال ، محاذراً لقاء الجيش المهاجم . وعاد عبد الرحمن لقتاله بنفسه فى العام التالى (سنة ١٥٤ هـ) ، وشدد فى محاصرته ومطاردته ، ولكنه لم يفلح أيضاً فى حمله على مغادرة مواقعه ، ثم بعث لقتاله فى العام التالى مولاه عبيد الله بن عثمان ، فخرج الفاطمى للقائه واستمال جنده البربر ، وبث الخلاف إلى صفوفه ، فانحل عسكره وأثخن فيه الفاطمى ، ففر عبيد الله واستولى الثائر على معسكره وأسلاب جيشه ، وقتل جماعة كبيرة من وجهاء جنده ( سنة ١٥٥ هـ )[1] .

وهكذا فشلت الحملات المتوالية لإخماد الثورة فى تلك المنطقة الوعرة ، فعاد عبد الرحمن بجيش جديد إلى شنت برية ، ولكنه لجأ عندئذ إلى وسيلة جديدة لتمزيق شمل الثوار ، فاستقدم إليه كبير البربر فى شرق الأندلس واسمه هلال الميديونى ، وأقره على ما بيده من الأنحاء ، وأصدر له عهداً بولاية الأنحاء التى غلب عليها الفاطمى ، وفوض إليه أمر استخلاصها منه ، وكان لتلك الحيلة أثرها فى بث الخلاف إلى صفوف البربر ، فانفض عن الفاطمى كثير من أنصاره ، واضطر أن ينسحب من شنت برية إلى الشمال ليعتصم بالجبال مرة أخرى ، وبينا عبد الرحمن يجد فى مطاردته ويقتحم معاقله وضياعه ، وينكل بأنصاره حيثما وجدوا ، إذ بلغه نشوب الثورة فى إشبيلية ولبلة وباجة ، وقوامها اليمنية من عصبة أبى الصباح

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٥٦ و ٥٧ ؛ وابن الأثير ج ٥ ص ٢٢٤ ؛ وابن خلدون ج ٤ ص ١٢٣ .

وأنصاره . وكان على رأس الثورة فى إشبيلية زعيمها القدم حيوة بن ملامس الحضرمى ، وفى باجة عبد الغافر اليحصبى ، وفى لبلة عمر بن طالوت ، وهما من أبناء عمومة أبى الصباح ، وانضم إليهم كثير من البربر ، فحشد الثلاثة جموعهم واعتزموا السير إلى قرطبة فى غيبة عبد الرحمن ، وكان قد استخلف عليها مولاه بدراً [١] .
فعاد عبد الرحمن إلى قرطبة مسرعاً ، ثم غادرها تواً إلى لقاء الثوار ، فالتقى بهم فى وادى منبس على نهر «بمبزار» أحد فروع الوادى الكبير ، ونشبت بين الفريقين فى المبدأ عدة معارك محلية . ثم لجأ عبد الرحمن إلى الحيلة والخديعة ، فعهد إلى جماعة من وجهاء البربر من جنده ، أن يتصلوا بزملائهم البربر من جند العدو ، وأن يقنعوهم بخطأ تصرفهم فى نصرة اليمنية ، وأنه إذا تغلب عليه العرب ، كانت العاقبة وبالا عليهم أيضاً ، فانسل الرسل إلى معسكر العدو تحت جنح الظلام ، وخاطبوا أبناء جنسهم بما تقدم ، وأخذوا عليهم العهود والمواثيق . وفى اليوم التالى نشبت بين الفريقين موقعة عامة . فنكث البربر وتقاعدوا عن القتال ، فهزم الثوار شر هزيمة ، وكثر القتل فى جموعهم حتى قتل منهم زهاء ثلاثين ألفاً [٢] .
وهلك معظم الزعماء الثائرين ، وفر عبد الغافر وركب البحر إلى المشرق ، وقرن عبد الرحمن ظفره باجراء دموى آخر ، إذ قبض على ثلاثين من وجهاء إشبيلية ممن كانوا فى جيشه وأمر بهم فأعدموا ( سنة ١٥٧ — ١٥٨ هـ ) .

وفى العام التالى عاد عبد الرحمن إلى مطاردة الفاطمى ، فالتجأ الثائر إلى الجبال كعادته ، ولم يجد عبد الرحمن سبيلا إلى اللحاق به ، فغزا قورية وأثخن فى تلك الأنحاء ، وكان أمر الفاطمى قد ضعف خلال هذه الأعوام وتضاءل جمعه ، ولكنه لبث يسيطر على شنت برية وماردة ، ولبثت دعوته خطراً يهدد سلام الأندلس . فوجه عبد الرحمن لقتاله فى العام التالى حملة قوية أخرى بقيادة تمام ابن علقمة وعبيد الله بن عثمان ، فلقيهما الفاطمى ووقعت بينهما معارك شديدة ، رجحت فيها كفته ، ثم التجأ إلى حصن شبطران بقرب شنت برية ، فحاصره تمام وعبيد الله مدى أشهر ، ولم يظفروا منه بطائل ، فعادا إلى قرطبة ، وخرج الفاطمى على أثر عودهما إلى شنت برية ، ونزل بقرية من أعمالها تسمى قرية العيون ،

---

( ١ ) ويقول ابن الأثير إنه كان يستخلف عليها ولده سليمان ( ج ٦ ص ٣ ) .
( ٢ ) ابن القوطية ص ٣١ و ٣٢ .

وهنالك ائتمر به اثنان من أصحابه هما أبو معن داود بن هلال وكنانة بن سعيد ، وانقضا عليه ذات يوم وقتلاه ، واحتزا رأسه وحملاها إلى عبد الرحمن فى قرطبة ، وبذلك انفضت جموعه ، وخبت ثورته ، بعد أن لبثت زهاء عشرة أعوام تحمل الدمار والسفك إلى شرقى الأندلس وغربها ، وتهدد سلطان عبد الرحمن بشر العواقب ، وحققت الخيانة فى لحظة واحدة ما لم تحققه الحملات والبعوث المتعاقبة فى أعوام طويلة . ولعل هذه الضربة الناجعة لم تكن بعيدة عن أصبع عبد الرحمن أو وحيه ، وقد كانت الخيانة والجريمة من بعض أسلحته فى مقارعة خصومه ، وكانتا تحققان له فى بعض الأحيان من الظفر ما لا تحققه أى الوسائل . وكان مصرع الفاطمى وانتهاء ثورة سنة ١٦٠ هـ (٧٧٦ م)[1] .

---

(١) أخبار مجموعة ص ١١١ ؛ وابن الأثير ج ٦ ص ١٧ .

# الفصل الرابع

## موقعة رونسڤال أو باب شزروا

الثورة فى الشمال . تحالف ابن يقظان والى برشلونة والحسين الأنصارى والى سرقسطة . هزيمة جيش عبد الرحمن وأسر قائده . سعى ابن يقظان لدى ملك الفرنج واستدعاؤه لغزو اسبانيا . تلبية شارلمان للدعوة . اتصال الزعماء الخوارج بالفرنج . سياسة الفرنج فى تشجيع الثورة فى الأندلس . صلة الخلافة العباسية بهذه السياسة . الصراع بين الأندلس والفرنج . اللون الدينى لهذا الصراع . أقوال الروايات اللاتينية فى تأييد هذه الخاصة . مسير شارلمان إلى اسبانيا . اختراقه لناڤار وحصاره لبنبلونة . مقاومة البشكنس . سقوط المدينة فى يد الفرنج . مقدم سليمان وتسليمه للرهائن . زحف شارلمان على سرقسطة . مقدم بقية الجيش الفرنجى . تطور الحوادث . تحول الحسين وامتناعه بسرقسطة . فشل شارلمان فى أخذها . اعتقاله لسليمان وارتداده . بواعث هذا الارتداد الفجائى . عود شارلمان إلى مهاجمة بنبلونة وتخريبها . بدء المسير للعود . عيشون ومطروح ولدا سليمان . تحالفهما مع الحسين الأنصار . سيرهما فى قواتهما فى أثر الفرنج . مسير شارلمان إلى البرنيه . أبواب البرنيه . رونسڤال أو باب شزروا . مفاجأة الجيش الفرنجى وفصل مؤخرته . من هم الذين هاجموه . المسلمون أم البشكنس . المسلمون هم الذين دبروا الهجوم . معاونة البشكنس . وصف الرواية اللاتينية للهجوم . تمزيق مؤخرة الجيش الفرنجى . مصرع الفرسان والسادة الفرنج . أنشودة رولان وبعدها عن التاريخ الحق . مكانتها فى أدب الفروسة . لماذا لم ينتقم شارلمان لهزيمته . مقارنة بين الروايتين العربية واللاتينية .

فى ذلك الحين كانت ثمة حوادث هامة أخرى تقع فى شمال الأندلس . وقد تتبعنا ثورة الفاطمى والبربر إلى نهايتها حرصاً على صلة الحديث . ونعود الآن بضع سنين إلى الوراء . ففى سنة ١٥٧ هـ (٧٧٤ م) ثار سليمان بن يقظان الكلبى ( أو الأعرابى ) والى برشلونة (أوبرشنونة )[1]وجيرونة ( جيرندة ) ، والحسين ابن يحيى الأنصارى والى سرقسطة ، وهو من ولد سعد بن عبادة ، وتحالفا على قتال عبد الرحمن وخلعه . وكان استمرار الثورة فى الجنوب ، وانشغال عبد الرحمن الدائم بقمعها ، وطبيعة الشمال الجبلية ومنعته ، مما يذكى عوامل الثورة فى الولايات الشمالية ، ويشجع مشاريع الزعماء الخوارج . وكان عبد الرحمن يشتغل يومئذ بمقاتلة الفاطمى ، فأرسل إلى الشمال جيشاً بقيادة ثعلبة بن عبيد الجذامى ، فهزمه

---

( ١ ) وهو تعريب مطابق لأصلها اللاتينى Barcenona

سليمان وأسره وتفرق جيشه ( ١٥٨ هـ — ٧٧٥ م ) [١]. واستفحل أمر الثورة فى الشمال ، ولكن زعماء الثورة وعلى رأسهم سليمان بن يقظان لم يطمئنوا إلى ذلك النصر المؤقت لما يعلمونه من عزم عبد الرحمن وبأسه وروعة انتقامه ، ففكروا فى الاستنصار بملك الفرنج. وسار سليمان ( وتسميه الرواية اللاتينية ابن الأعرابى ) مع نفر من صحبه الخوارج ، إلى لقاء شارلمان أو كارل الأكبر فى ربيع سنة ٧٧٧م (١٦٠ هـ) ؛ وكان يومئذ يقيم بلاطه فى مدينة پادربورن من أعمال وستفاليا (شمال غربى ألمانيا ) ، ويعقد الجمعية الكبرى ، حيث كانت جموع السكسونيين المغلوبة تعمَّد للنصرانية ، بعد أن شتت شارلمان شملهم وفر زعيمهم ڤيد وكنت ؛ فهنا وفد عليه سليمان وصحبه ، وعرض عليه المحالفة على قتال عبد الرحمن ، واقترح عليه غزو الولايات الأندلسية الشمالية ، وتعهد بمعاونته ، وبأن يسلمه المدن التى يحكمها هو وصحبه من قبل أمير قرطبة ولاسيما سرقسطة ، وأخيراً بأن يسلمه أسيره القائد ثعلبة بن عبيد . وتضيف الرواية اللاتينية إلى ذلك أنه كان مع ابن الأعرابى ولد ليوسف الفهرى حاكم الأندلس السابق جاء ومعه صهره ليسعيا كذلك إلى خلع عبد الرحمن ؛ وتقول الرواية الإسبانية النصرانية ، إن الذى دعا شارلمان إلى غزو اسبانيا هو ألفونسو أمير إمارة ليون النصرانية (جليقية) . ولكن الروايتين العربية والفرنجية (اللاتينية) كلتاهما صريحة فى أن الدعو جاءت من سليمان بن يقظان ( الأعرابى ) وحلفائه . والرواية العربية تقول لنا بمنتهى الوضوح ، إن سليمان استدعى قارله ( كارل أو شارلمان ) ملك الفرنج إلى بلاد المسلمين ، ووعده بتسليم برشلونة أو سرقسطة[٢] . وتوافق الرواية اللاتينية على ذلك ، وتزيد أن سليمان

---

( ١ ) ويقدم إلينا الرازى بعض تفاصيل من ذلك . فيقول لنا إن سليمان بن يقظان الكلبى ( وهو الأعرابى ) كان من زعماء سرقسطة ، فلما ولى الثغر بدر مولى عبد الرحمن الداخل نقله إلى قرطبة ، فحرضه البعض على القيام بثأر قومه اليمانية فخرج من قرطبة إلى سرقسطة ودخلها . وخرج لمحاربة ثعلبة بن عبيد سنة أربع وستين ومائة ، ونزل مدينة طرسونة ، ووالى حربه ، واضطرب على باب سرقسطة بمعسكره ، فافترس سليمان بن يقظان غفلته ، وافتراق أهل الجيش ، فهجم عليه وأسر ثعلبة بن عبيد ، وبعث به إلى ملك الفرنج . وأهم مفارقة فى رواية الرازى هو التاريخ المتأخر الذى يقدمه إلينا عن هذه الموقعة ، وذلك حسبما يتضح بعد من سير الحوادث ( وقد نقل إلينا هذه الرواية العذرى فى كتابه ترصيع الأخبار الذى سبقت الإشارة إليه ص ١٢٥) .

( ٢ ) أخبار مجموعة ص ١١٢ و ١١٣ ، وابن الأثير ج ٦ ص ٥ و ٢١ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٢٤ .

وحلفاءه أعلنوا خضوعهم لملك الفرنج وانضواءهم تحت حمايته[١].

ولبى ملك الفرنج دعوة الثوار المسلمين ووافق على عروضهم . وبعث إليه سليمان بأسيره ثعلبة بن عبيد قائد عبد الرحمن ، عنواناً للثقة والتحالف ، فسجن فى إحدى القلاع الفرنسية . وفى رواية أخرى أنه سلمه إليه عقب مقدمه إلى اسبانيا . وعلى أى حال فقد كان حصول هذا الأسير ، وهو من خاصة عبد الرحمن وأكابر وزرائه فى يد ملك الفرنج ، ضربة لعبد الرحمن ، ورهينة قيمة يمكن استغلالها . وكان سليمان زعيم أولئك الخوارج يعمل مستقلا لنفسه ، ويرمى قبل كل شىء إلى تحطيم سيادة قرطبة ، وإلى الاستقلال بما فى يده تحت حماية ملك الفرنج . ولكن ملك الفرنج كانت له مشاريع أخرى . وكانت السياسة الفرنجية ترمى إلى تعضيد روح الثورة والخلاف فى إسبانيا المسلمة ، ولاسيما منذ انهارت سيادة الإسلام فى جنوبى فرنسا وارتد المسلمون إلى ما وراء البرنيه . وبدأ تطبيق هذه السياسة منذ عهد پپين أبى شارلمان . وكان سليمان بن يقظان زعيم الثورة فى الشمال يتصل بملك الفرنج منذ سنة ٧٦٠ م ، أعنى منذ استيلائه على أربونة واتصال الحدود الفرنجية بحدود اسبانيا المسلمة ، ويسعى بهذا التحالف إلى تأييد استقلاله . وهكذا بدأت العلائق تنتظم بين الزعماء المسلمين ، الخوارج على حكومة قرطبة ، وبين الفرنج المتربصين بدولة الإسلام فى الأندلس ، فكان الزعماء الخوارج كلما حاولوا الثورة والاستقلال بحكم مدينة أو ولاية ، اتجهوا إلى الفرنج يستمدون عونهم ومناصرتهم ، وكان الفرنج يسارعون إلى تلبية هذه الدعوات ، ويتخذونها ذريعة للتدخل فى شئون اسبانيا المسلمة ، وإذكاء روح التفرق فيها ، وسنرى كيف استطاع ملوك الفرنج تنفيذ هذه السياسة فى فرص عديدة متعاقبة . والظاهر أن الخلافة العباسية فى المشرق لم تكن بعيدة عن تأييد هذه السياسة فى المغرب ، والتوسل بذلك إلى مناوأة بنى أمية الذين استطاعوا أن ينتزعوا هذا القطر النائى من أقطار الخلافة ، ويقيموا فيه دولتهم الداهبة على دعائم جديدة ، فإن الرواية الفرنجية تحدثنا عن

---

(١) تراجع أقوال الرواية اللاتينية فى مؤلف العلامة الأستاذ پيدال : **Ramón Menendez Pidal: La Chanson de Roland y el Neotradicionalismo (Espana-Calpe, Madrid 1959) p. 179-180** وهو مؤلف ضخم جامع، وأحدث ما أخرجه العلامة الإسبانى، وهو يتناول حوادث موقعة باب الشزرى بإفاضة شافية وتحليل ممتع . وراجع أيضاً موسوعة بوكيه **Bouquet. Vol. V.** وكذلك **Reinaud : Invasions des Sarrazins, en France, p. 94, p. 14, 40 & 142**

علائق المنصور وپيپن وتقول لنا ، إن پيپن بعث فى سنة ٧٦٥ م سفارة إلى بغداد ، ورد المنصور بإرسال سفراء إلى ملك الفرنج وفدوا عليه بعد ذلك بثلاثة أعوام ، وقضوا حيناً فى البلاط الفرنجى فى مدينة متز[١]. وسار شارلمان ولد پيپن على سياسة أبيه ، فكان بينه وبين الرشيد فيما بعد تلك المكاتبات والسفارات الشهيرة التى فصلتها الرواية الفرنجية أيضاً ، والتى نعود إليها فى مقامها المناسب. وسنرى فيما بعد ، أنه فى الوقت الذى كان فيه يعقد هذا التحالف بين ثوار الشمال وبين ملك الفرنج ، كانت ثمة محاولات تبذل لنشر الدعوة العباسية فى الأندلس حيث نزل عبد الرحمن بن حبيب الفهرى المعروف بالصقلبى فى تدمير يدعو للخلافة العباسية على نحو ما نفصل بعد .

وكانت إسبانيا المسلمة تجوز إزاء هذا الخطر الأجنبى الذى يتربص بها ظرفاً من أدق ظروفها ، فقد كانت مصايرها تهتز فى يد القدر ، وكان الإسلام يجوز فيها معركة الحياة والموت ، بعد أن كان قبل ذلك بحقبة يسيرة يتدفق إلى ماوراء البرنيه بقوة ، ويسود معظم أنحاء فرنسا الجنوبية . وكانت مملكة الفرنج بالعكس قد توطدت دعائمها ، وانتزعت من الإسلام كل معاقله فى فرنسا ، بعد أن لبث مدى حين يزعجها ويهدد وجودها . وبينما اجتمعت كلمة الفرنج بزعامة الأسرة القارلية القوية ، إذا بالإسلام فى اسبانيا تعصف به ريح التفرق من كل صوب وتمزقه شر ممزق ، وإذا بالأندلس تغدو بركاناً من القلاقل والحروب الأهلية . وكان كارل الأكبر (شارلمان) مذ ولى العرش (سنة ٧٦٨ م) يشغل عن التدخل فى اسبانيا المسلمة ، بمحاربة القبائل الوثنية السكسونية فيما وراء الرين لبرد خطر اعتدائها على مملكته ، وليخضعها إلى سلطانه . وكانت غزوات الأسرة القارلية تتخذ فيما وراء الرين منذ عهد كارل مارتل ، جد كارل الأكبر ، لوناً دينياً عميقاً كالذى تتخذه حروب الفرنج مع العرب فى غاليس . ذلك أن حروب الفرنج فيما وراء الرين كانت تتخذ مظهر حماية النصرانية ، من خطر الوثنية المتدفق من المشرق ، وكانت حروبهم فى غاليس تتخذ مظهر حماية النصرانية ، من وثبات الإسلام المتدفق من الجنوب . وكانت الكنيسة روح هذه المعارك توحى بها وتذكيها ، إلى جانب شهوة الظفر والفتح . فلما ظفر الفرنج برد تيار الإسلام إلى ما وراء البرنيه ، واستولوا

---

(١) Reinaud : ibid. p. 89 & 92.

على جميع ثغوره ومعاقله فى فرنسا ، وفترت تلك النزعة الدينية العميقة ، التى جعلت غاليس مدى نصف قرن مسرحاً لصراع العرب والفرنج ، بقيت الأطماع والبواعث السياسية ، تحفز الفرنج إلى قتال الإسلام ومطاردته ، وانتزاع اسبانيا أو على الأقل ولاياتها وثغورها الشمالية من قبضته ، لتكون معقلا لدرء فورانه ووثباته من الجنوب .

وتشير الروايات اللاتينية إلى غايات السياسة الفرنجية من التدخل فى شئون اسبانيا المسلمة ، وتحدثنا عن هذا المزج بين الغايات الدينية والدنيوية . فأما عن الناحية السياسية فإن إجنهارت مؤرخ شارلمان يقول لنا إن الحملة التى نظمها الملك الفرنجى إلى اسبانيا كان يقصد بها مهاجمة قرطبة . وإنه ليبدو من ضخامة الجيش الذى حشده شارلمان ، أن الأمر لم يكن متعلقاً فقط بالاستيلاء على المدن التى وعد سليمان بن يقظان بتسليمها ، وأن شارلمان كان يرمى بالعكس إلى السيطرة على اسبانيا كلها ، أو على الأقل نصفها الشمالى . ويقول لنا «أبدال» وهو مؤرخ حملة شارلمان الإسبانية ، إن الأمر لم يكن متعلقاً بغاية دينية قوامها تحطيم دولة «كافرة» ولكن الحملة كانت ترمى إلى غاية سياسية قوامها أن يوضع حد لأخطار الغزوات الإسلامية لفرنسا . ويرى الأستاذ بيدال أن شارلمان لم تكن له غاية دينية خالصة فى أية حملة من حملاته ، وأن الباعث كان دائماً سياسياً ، ولكنه يبطن فى ثنيته الغاية الدينية . ذلك لأن المشكل الوحيد لإخضاع شعب « كافر » هو حمله على اعتناق النصرانية ، وهذا ما وقع بالنسبة لحملات شارلمان ضد « الأفار »[1] ، وضد « السكسونيين » .

ومن ثم فقد كان مسير شارلمان إلى اسبانيا يبطن الغاية الدينية إلى جانب الغاية السياسية ، وهذا ما تؤيده الرواية اللاتينية **Anales Mettenses** ، التى كتبت فى حياة شارلمان ، وفيها «أن كارلوس قد هزته شكاوى النصارى الإسبان الذين نكل بهم المسلمون فسار بجيشه إلى هنالك» . ويضيف الأستاذ بيدال إلى ذلك «انه وإن كان الإسلام يتسم حقاً بالتسامح ، إلا أن النصارى واليهود فى اسبانيا كانوا يعانون ضغطاً وإرهاقاً فى ظل الحكومة الإسلامية ، ومن ثم فقد كان للنصارى المستعربين

---

(١) الأفار أو الأفاريين **Avars** هم مجموعة من القبائل القوية كانت تسكن حوض نهر الدانوب الأوسط . وقد حطمهم شارلمان وانتهى الأمر بتنصيرهم ( ٧٩١ — ٧٩٥ م ) .

أن يستقبلوا شارلمان كمحرر لهم » . وتؤيد هذه النزعة الدينية للحملة ، روايات لاتينية كثيرة أخرى معاصرة ولاحقة . بيد أن أقطع دليل على روح الحملة الدينية هو أن شارلمان قد أبلغ البابا هادريان بأمرها قبل أن يضطلع بها ، وأن البابا بارك عزيمته ووعده بإقامة الصلوات ، لكي يعود ظافراً إلى مملكته(١).

وكان كارل حينما استدعاه الخوارج المسلمون لغزو اسبانيا ، قد انتهى من الحرب فى سكسونية ، وهزم القبائل الوثنية الجرمانية ، وأخضع زعيمها القوى «فيدوكنت» وألجأه إلى الفرار ، فجاءت الدعوة إليه فى وقت ملائم . وانتظر كارل حتى مضى الشتاء ، ثم سار إلى الجنوب وقضى أعياد الفصح فى أكوتين على مقربة من بوردو . وفى فاتحة ربيع سنة ٧٧٨ م ، جمع قواته المؤلفة من فرنج نوستريا ومن الجرمان واللونبارد وفرق من بريتانيا وأكوتين ، واخترق ولاية أكوتين ، وقرر أن يفتتح الغزوة الإسبانية توا حتى لا يفاجئه الشتاء ، وقسم جيشه الضخم إلى قسمين ، عبر أحدهما جبال البرنيه من الناحية الشرقية ، وعبرها القسم الثانى بقيادة كارل نفسه من الناحية الغربية ، من الطريق الرومانى القديم فوق آكام «چان دى لاپور» الشاهقة التى تشرف على مفاوز رونسفال الوعرة ، على أن يجتمع الجيشان على ضفاف نهر الإيبرو أمام سرقسطة حيث يلتقى شارلمان بحلفائه المسلمين . وكان عبوره لجبال البرنيه من « باب الشزرى » فى شهر أبريل على الأرجح . واخترق شارلمان بلاد البشكنس أوناڤار الحديثة ، وحاصر عاصمتها بنبلونة ، وهى قلعة الناڤاريين ، واستولى عليها بعد قليل . وقد كان أولئك الناڤاريون دائماً شعبة خاصة من « البشكنس » ، وكانت بنبلونة دائماً مدينة البشكنس منذ أيام سترابون(٢). وقد كان البشكنس دائماً يحاولون الاحتفاظ باستقلالهم منذ أيام القوط ، وكثيراً ما لجأوا فى سبيل ذلك إلى الخروج والعصيان ، والامتناع بهضابهم وجبالهم الشاهقة ، وكان هذا شأنهم حينما وفد شارلمان بقواته الضخمة ، فقد كانوا يحرصون على هذا الاستقلال ، ولا يودون الخضوع لأية جهة ، لا إلى الفرنج ، ولا إلى مملكة (جليقية) ، ولا إلى إمارة قرطبة الإسلامية . ومن ثم فقد اضطر شارلمان إلى محاصرة بنبلونة وأخذها بالعنف . وهنا تبرز هذه الحقيقة ، وهى

---

(١) راجع : R.M. Pidal : ibid., p. 181, 182, 183 & 184.

(٢) R. M. Pidal : ibid., p. 186

أن شارلمان بغزو بلاد البشكنس ، كان يحارب أمة من النصارى ، وهو فى ذلك لم تكن تحدوه سوى بواعث السياسة والفتح . ولم تكن النزعة الدينية خاصة بارزة فى تلك الغزوة . أما الجيش الفرنجى الذى اخترق شرقى البرنيه ، فقد كان يسير فى منطقة يسيطر عليها الفرنج ، مذ تقلص عنها سلطان المسلمين ، منذ أيام پپين والد شارلمان ، ومن ثم فقد كان يخترق بلاداً صديقة ، يرحب أهلها بمقدمه ، أملا فى عونه وحمايته .

وتقول لنا بعض الروايات اللاتينية[1] إن سليمان بن يقظان (ابن الأعرابى) ، كان يتردد عندئذ بانتظام على بنبلونة ، وإنه وفقاً لتعهداته سلم الرهائن إلى شارلمان ، وإنه قد وفد كذلك على بنبلونة أبوثور بن قسى حاكم وشقه ، وقدم أخاه وولده رهينة ، وقد بقيت هذه الرهائن فى معسكر شارلمان حتى وقعت النكبة . بيد أنه توجد روايات أخرى مفادها أن الرهائن سلمت فيما بعد ، حين وفود شارلمان على سرقسطة . وعلى أى حال ، فقد سار شارلمان بعد استيلائه على بنبلونة ومعه سليمان إلى سرقسطة[2] ، وهى معقد المشروع كله حسبما اتفق عليه فى پادربورن ؛ وكان القسم الآخر من الجيش ، قد اخترق فى تلك الآونة منطقة جيرندة ( جيرونة ) وبرشلونة ، واتجه غرباً إلى سرقسطة حيث انضم إلى القوات التى يقودها شارلمان ، وكان شارلمان ، يعتقد حينما سار إلى سرقسطة أنه سيلقى هناك حلفاءه المسلمين على أهبة لمعاونته وتحقيق رغباته فى الاستيلاء على المدينة الكبرى . ولكن الحوادث كانت تطورت عندئذ ، ودب الخلاف بين الخوارج المسلمين . وكان الحسين بن يحيى الأنصارى والى سرقسطة حليف سليمان منذ البداية ، وكان عضده فى مشروعه لاستدعاء الفرنج . وبالرغم من أنه لم يذهب إلى پادربورن ، ولا إلى بنبلونة ، فقد كان موافقاً على الحلف الذى عقده سليمان مع شارلمان ، وعلى العهود التى قطعها له . والظاهر أن الحسين نقم على سليمان موقف الصدارة والزعامة الذى اتشح به إزاء الفرنج ، فنشبت بينهما الخصومة ، أو أنه خشى عاقبة التورط فى حلف الفرنج . فعدل موقفه فى آخر لحظة حينما شعر بمسير الفرنج إلى مدينته والظاهر أيضاً أنه لم يكن فى سرقسطة حينما أقبل إليها الجيش الفرنجى ؛ إذ تقول

---

R. M. Pidal : Ibid., cit. Anales Breves. p. 187 (١)

(٢) ابن الأثير ج ٦ ص ٥ .

لنا الرواية الإسلامية ، إنه سبق إليها سليمان ، وتحصن بها ، فلما أشرف شارلمان مع حليفه سليمان على سرقسطة ، رفض الحسين أن يستقبله ، وألفى المدينة محصنة متأهبة للدفاع والمقاومة ، فعبر نهر الإيبرو إلى الضفة الأخرى ، وقدم إليه سليمان رهائن عدة من الأعيان والأكابر ، وفى مقدمتهم ثعلبة بن عبيد قائد عبد الرحمن وكان أسيراً لديه حسبما تقدم . ولكنه لم يستطع أن يفعل شيئاً لإقناع الحسين بفتح أبواب سرقسطة ، ولم يستطع شارلمان من جهة أخرى الاستيلاء عليها ، وردت المدينة المحصورة كل هجماته بشدة[1]، وعجز سليمان أن يحقق شيئاً من وعوده فى تسليم المدن والحصون الواقعة فى تلك المنطقة . ولم يشأ ملك الفرنج أن يخوض فى تلك الوهاد والهضاب الصعبة معارك لم يتأهب لخوضها ، وارتاب من جهة أخرى فى نية سليمان وموقفه ، فقبض عليه[2] ، وارتد بجيشه نحو الشمال الشرقى فى طريق العودة . وكان ذلك فى شهر يوليه سنة ٧٧٨ م ( شوال سنة ١٦١ هـ ) .

بيد أن هذه الوقائع ينقصها شىء من الوضوح . ذلك أنه لم تقع بين الفريقين معارك ذات شأن . فهل ارتد ملك الفرنج من تلقاء نفسه ، أم اضطر مرغماً إلى الارتداد لبواعث وأسباب لا نعلمها ؟ .

يقول الأستاذ پيدال « إن الانسحاب لا شك فيه . ولكن فشل حملة الملك الفرنجى لا تفسرها لنا هجمات المحصورين . إذ كيف يرتد هذان الجيشان الفرنجيان اللذان يضمان هذه الجموع من جند بريتانيا ونوستريا وباڤاريا ولومبارديا ؟ وكيف يرتد كارل وهو فى عنفوان قوته بهذه السهولة ؟ كيف يرتد هذا العاهل القوى وجيشه العظيم ما يزال سليما لم يمس ، دون أن يخضع الحسين ، ودون أن يفتتح أواسط إسبانيا ؟ »[3] .

إن الروايات اللاتينية تحاول أن تلقى الضوء على ذلك الغموض ؛ فيقول لنا «أبدال» السالف الذكر ، إن شارلمان قدر أنه قد يجد نفسه وحيداً فى قلب شعب معاد ، مع صعوبة التموين لجيشه العظيم . بيد أنه يوجد تعليل آخر أقوى وأوضح ، تقدمه إلينا رواية لاتينية أخرى فى نصها الآتى : « إن السكسون المارقين حينما

---

(١) أخبار مجموعة ص ١١٣ .

(٢) ابن الأثير ج ٦ ص ٥ .

(٣) R.M. Pidal : Ibid.; p 188

علموا أن الملك كارلوس فى منطقة سرقسطة ، قد شقوا الطاعة ، وخربوا وأحرقوا الأراضى حتى ضفاف الرين . ونمى ذلك إلى كارلوس وهو فى اسبانيا ، فلما وقف عليه عاد مسرعاً إلى فرنسا »[١] . وربما كان فى ذلك خير تفسير لانسحاب شارلمان ، وتركه سرقسطة لمصيرها .

ارتد شارلمان على رأس قواته المجتمعة وفى ركبه سليمان أسيره وعدد من الرهائن وسار شمالا نحو بلاد البشكنس . وكان النافاريون فى تلك الأثناء قد جمعوا فلولهم ، واعتزموا الدفاع عن حاضرتهم بنبلونة وعن حرياتهم التالدة ، خصوصاً وقد شجعتهم وقفة سرقسطة وصاحبها الحسين ضد الملك الفرنجى ، وانضم إليهم كثير من المسلمين من أبناء الأنحاء المجاورة ، للتعاون فى دفع العدو المشترك ؛ ولكن شارلمان هاجم بنبلونة بعنف ، ولم تجد بسالة النافاريين وحلفائهم المسلمين شيئاً ، فتركوا المدينة ، وتفرقوا فى مختلف الأنحاء ؛ واستولى شارلمان على بنبلونة للمرة الثانية ، وهدم حصونها وأسوارها حتى لاتعود إلى المقاومة إذا عاد إلى تلك الأنحاء ، ولكى يمهد لجيشه طريق العود المأمون إلى فرنسا .

وغادر شارلمان بنبلونة متجهاً إلى جبال البرنيه من طريق هضاب رونسڤال المؤدية إلى باب الشزرى . فما الذى حدث عندئذ ؟ تقول الرواية العربية إن شارلمان « لما أبعد من بلاد المسلمين واطمأن ، هجم مطروح وعيشون إبنا سليمان فى أصحابهما ، فاستنقذا أباهما ورجعا به إلى سرقسطة »[٢] . وفى هذه الكلمات القليلة تشير الرواية العربية إلى النكبة الهائلة التى أصابت الجيش الفرنجى أمام باب الشزرى والتى تقدم إلينا الروايات اللاتينية اللاحقة تفاصيلها .

والظاهر أيضاً من الرواية العربية أن ولدى سليمان ، حينما قبض شارلمان على أبيهما ، عادا إلى الاتفاق مع الحسين بن يحيى على مقاومة الفرنج ، وجمعا فى الحال قوات أبيهما وأتباعه ، وسارا بجيشهما فى أثر ملك الفرنج يحاولان مهاجمته وإنقاذ أبيهما من أسره . وكان شارلمان فى ذلك الحين قد غادر بنبلونة بعد تخريبها متجهاً صوب جبال البرنيه ، ليعبرها كرة أخرى إلى فرنسا ، وكان عبوره من نفس الطريق التى أتى منها ، أعنى من مفاوز رونسڤال . ويقع ممر رونسڤال Roncesvalles ،

---

(١) R. M. Pidal : ibid ; cit. Chronicon Moissiocense ; p. 189

(٢) ابن الأثير ج ٦ ص ٥ .

الذى يسمى بالعربية « باب شيزروا »[1]، أو باب الشزرى ، فى طرف البرنية الغربى شمال شرقى بنبلونة ، وعلى قيد عشرين كيلومتر منها ، وهو أحد ممرات عدة كانت تستعمل منذ عهد الرومان لاختراق البرنيه من الشمال أو الجنوب . وهى نفس الممرات أو الأبواب التى كان يستعملها العرب للعبور إلى غاليس[2] . وقد لبثت هذه الجبال الوعرة الشاهقة على ممر القرون حاجزاً منيعاً يفصل بين شبه الجزيرة الإسبانية وبين غاليس ، ولا يتأتى للغزاة ، عبوره إلا خلال هذه الممرات الشهيرة . فى مفاوز رونسفال الوعرة ، وتجاه ممر البرنيه المسمى بهذا الاسم أعنى باب شيزروا ، وقعت المفاجأة الهائلة . ذلك أن الجيش الفرنجى ما كاد يبدأ عبور الجبال ، حتى أشرف المسلمون بقيادة عيشون ومطروح على مؤخرته ، وهاجموه بشدة رائعة ، وفصلوا عنه مؤخرته ، وانتزعوا منها الأسلاب والأسرى ، وفيهم سليمان بن يقظان . والرواية العربية صريحة فى أن المسلمين هم الذين دبروا هذا الهجوم الفجائى ، على مؤخرة الجيش الفرنسى ، ولكن بعض الروايات اللاتينية التى تتحدث عن الموقعة ، تقول لنا إن الذين

---

(١) هذه هى تسمية الشريف الإدريسى ، وهى مشتقة من الاسم الرومانى القديم **Portus Ciserei** أو **Portus Sizarae**

(٢) يقدم لنا الشريف الإدريسى وصفاً دقيقاً لجبال البرنيه التى تسمى فى الجغرافية العربية بجبال البرت أو البرتات كما قدمنا ، وللأبواب الرومانية التى كانت بها فيقول : « وطول هذا الجبل من الشمال إلى الجنوب مع سير تقويس سبعة أيام ، وهو جبل عال جداً صعب الصعود ، وفيه أربعة أبواب فيها مضايق يدخلها الفارس بعد الفارس . وهذه الأبواب عراض لها مسافات وهى منحرفة الطرق . وأحد هذه الأبواب الباب الذى فى ناحية برشلونة ويسمى « برت جاقة » ( چاكا ) ؛ والباب الثانى الذى يليه يسمى « برت أشبرة » ؛ والباب الثالث منها يسمى « برت شيزروا » **Roncesvalles** وطوله فى عرض الجبل خمسة وثلاثون ميلا ؛ والباب الرابع منها يسمى « برت بيونة » . ويتصل بكل برت منها مدن فى الجهتين ، فما يلى برت شيزروا مدينة بنبلونة ؛ والباب المسمى جاقة عليه مدينة جاقة . (راجع نزهة المشتاق للشريف الإدريسى ؛ وكذا وصف الإدريسى لجغرافية الأندلس ص ٦٥ من طبعة **Saavedra**) وظاهر أن كلمة برت تعنى الباب أو الممر ، وأصلها من الإسبانية **Puerta** ، وقد سميت جبال البرنيه بالعربية البرتات نسبة إلى الأبواب والممرات المذكورة . والجغرافية الحديثة لا تختلف كثيراً عما تقدم ، وفيها أن هذه الأبواب والممرات خمسة : ( ١ ) ممر بربنيان ، بين برشلونة وأربونة ( ٢ ) ممر بوكيردا الموصل إلى شرطانية ( ٣ ) الممر بين بنبلونة وسان چان دى بييدبور ( ويسميها الإدريسى شنت جوان ) وهو باب شيزروا ( ٤ ) ممر تولوز ( طلوشة ) إلى بيونة ( ٥ ) ممرچاكا . وكانت هذه الأبواب أو الممرات تستعمل لاختراق الجبال حين الغزو إلى فرنسا ومنها فى طريق العودة .

هاجموا مؤخرة شارلمان حين ارتداده ، هم البشكنس النصارى انتقاماً لما أنزله الفرنج ببلادهم وعاصمتهم بنبلونة من العيث والتخريب . وإليك ما تقوله هذه الرواية : « إن شارلمان عاد من سرقسطة إلى بنبلونة ، وهدم أسوار هذه المدينة من أساسها لكي لاتستطيع الثورة عليه وقرر العودة ، وبدأ بجوز شعب البرنيه . وهنا ، وفى أرفع نقطة هجم البشكنس ، وقد كانوا يكمنون فى المؤخرة ، وأوقعوا الخلل فى الجيش كله ، فساده أيما اضطراب وجلبة ، وبالرغم من أن الفرنج أبدوا تفوقهم على البشكنس ، سواء فى السلاح أو الروح المعنوية ، فقد بقوا هم الأضعف بسبب رداءة الموقع وعدم التكافؤ فى وضع المعركة »(١) .

وهنا يحق لنا أن نتساءل إزاء هذا التناقض بين الروايتين ، من هم الذين دبروا هذا الهجوم على مؤخرة الجيش الفرنجي ؛ أهم المسلمون وحدهم حسبما تقرر الرواية العربية ، أم هم البشكنس وحدهم حسبما تقرر الرواية الفرنجية ؟ يقول الأستاذ بيدال ، إنه لمن غير المعقول ، بل ومن المستحيل أن يقوم البشكنس وحدهم بمهاجمة مؤخرة جيش عظيم كجيش شارلمان ، والأكثر احتمالا هو أنهم يبحثون عن العون ضد المعتدى الخارجي ، وإنه لكذلك من غير المعقول أن يستطيع إبنا سليمان وحدهما انتزاع الأسرى من الجيش الفرنجي ، وذلك فى الأرض المكشوفة ما بين سرقسطة وبنبلونة ، وإنه لا يمكن الاعتقاد بأى حال بأن يسمح جيش شارلمان لنفسه أن يُفاجأ مرتين فى أيام قليلة ، وإذاً فلا بد أن البشكنس والمسلمين معاً قد فاجأوه فى شعب البرنيه : البشكنس الذين أثارهم تخريب بنبلونة ، والمسلمون الذين يحاولون استنقاذ ابن الأعرابى والرهائن(٢) .

ثم يقول العلامة الإسبانى « إنه باستعراض سائر الروايات يبدو أن هناك حقيقة تاريخية ، وهى أن المسلمين تعاونوا مع البشكنس فى موقعة باب الشزرى ؛ وأن أنشودة رولان ، وهى مستمدة من أناشيد معاصرة للنكبة ، هى أصح من الرواية اللاتينية Anales Regios » . ونقول نحن إن هذا الاستعراض لمختلف الروايات يدلى بأن المسلين هم الذين دبروا الهجوم على مؤخرة الجيش الفرنجى ، وإنه

---

(١) Anales Regios hssta 829; cit. por R.M. Pidal : ibid ; p. 191 & 192

(٢) R. M. Pidal : ibid ; p. 193&194 . وراجع أيضاً Conde : Ibid., V.I. p.201 و Dozy : Hist. V. I. p. 243 & notes . وهل أدل على أن العرب هم الذين مزقوا مؤخرة الفرنج من أنشودة رولان الشهيرة ، التى نتحدث عنها بعد .

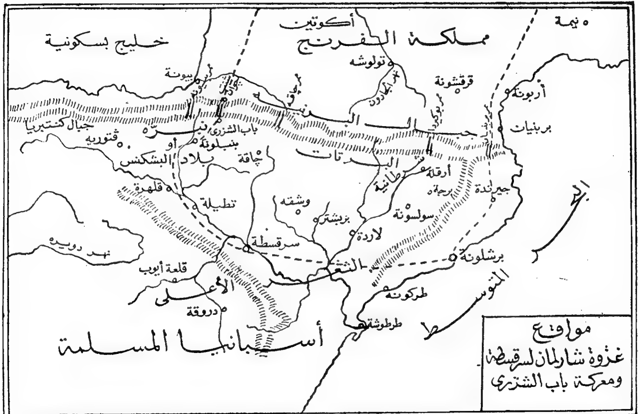


مواقع
غزوة شارلمان لسرقسطة
ومعركة باب الشزرى

فيما يرجح قد اشتركت معهم جموع كبيرة من البشكنس فى هذا الهجوم ، وإن مضمون أنشودة رولان حسبما نقدمه بعد ، يؤكد هذا الاستنتاج فى إسناد الدور الرئيسى فى الموقعة إلى المسلمين .

وقد وصفت لنا إحدى هذه الروايات اللاتينية ، تعاون المسلمين والبشكنس فى الهجوم ، وفيها «أن جيش شارلمان كان يتكون من خمسة آلاف فارس من ذوى الأسلحة الثقيلة وعدد مماثل من المشاة ، وأن المؤخرة كانت تتكون من ألف فارس ومعها دواب الحمل ، وأن الكمين وقع فى الأماكن الصاعدة من الطريق المعبد . وقد تعاون بشكنس بنبلونة والمسلمون ولاسيما مطروح وعيشون ولدى ابن الأعرابى ، وكان هذا التحالف ضرورياً ، لأن المسلمين كانوا فى حاجة إلى المعرفة الدقيقة لهذه الوهاد وهو ما يتقنه البشكنس ، وكان البشكنس بحاجة إلى مقدرة المسلمين فى التنظيم العسكرى ، وهما معاً قد استطاعا أن يسحقا مؤخرة هذه الصفوف التى ارتجت لها سائر إسبانيا »[١] .

وقع هذا الهجوم الفجائى من المسلمين على مؤخرة الجيش الفرنجى بمعاونة البشكنس ، فأسفر عن أروع نتيجة يمكن تصورها . ذلك أن الفرنج لم يحسنوا الدفاع عن أنفسهم فى تلك الشعاب الضيقة المنحدرة . وقد فصلت مؤخرة الجيش الفرنجى ، وانتزعت منها الأسلاب والأمتعة وفى مقدمتها الخزانة الملكية ، وكذلك الرهائن ، وفى مقدمتهم سليمان ، ومزقت المؤخرة نفسها شر ممزق ، وهلك خلال المعمعة الهائلة عدد عظيم من سادة الجيش الفرنجى وفرسانه ، ولم تسمح المفاجأة المذهلة بأى عمل أو محاولة منظمة لإنقاذ الفرق المنكوبة . وكانت نكبة مروعة لبث صداها يتردد مدى عصور فى أمم الغرب والنصرانية .

وتضع الرواية الفرنجية تاريخ الموقعة فى ١٨ أغسطس سنة ٧٧٨ ( ذى القعدة سنة ١٦١ هـ )[٢]. وقد رأينا فيما تقدم كيف تقنع الرواية العربية بالإشارة إليها فى

---

(١) Anales Regios, cit. por R. M. Pidal: ibid. p. 197

(٢) ولكن الرواية العربية تقدم تاريخها عن ذلك فتضعها فى سنة ١٥٧ هـ ( ٧٧٤ م ) وهى رواية ابن الأثير ( ج ٦ ص ٥ ) والمقرى فى نفح الطيب ( ج ٢ ص ٧٣ ) . والظاهر من نص الرواية العربية أنها تنصرف هنا إلى بداية الحوادث لا إلى الموقعة ذاتها ، وقد وقعت فيما بعد ، وهو ما يفسر التباين بين التاريخين . ولا ريب أن الرواية الفرنجية أقرب إلى الصحة والتحقيق لأنها معاصرة قريبة من الحوادث .

عبارات موجزة ، وإن كانت مع إيجازها فى منتهى الدقة ، وكيف أن الرواية اللاتينية الفرنجية والكنسية تفيض بالعكس فى تفاصيلها إفاضة واضحة ، وقد أشرنا فيما تقدم إلى بعض هذه الروايات التى اقتبسنا بعض نصوصها ؛ وربما كانت رواية إجنهارت (أينهارت) مؤرخ شارلمان ، عن الموقعة ، هى أدق هذه الروايات وأوثقها ، فقد كتبت فى سنة ٨٢٩ م بعد وفاة شارلمان بقليل ، واعتمد فيها على كثير من أقوال المعاصرين وشهود العيان . وهو يفصل لنا حوادثها ويذكر من هلك فيها من الأمراء والسادة ، ومنهم إيجهارد رئيس الخاص ، وأنسلم محافظ القصر ، وهردولاند حاكم القصر البريتانى ، وكثير من الرؤساء ورجال الخاص والحاشية . وهردولاند ، هو رولان Roland بطل الأنشودة الشهيرة ، التى نظمت فيها بعد عن هذه الموقعة ، واستمدت من أناشيد معاصرة لها ، والتى ما زالت أثراً خالداً لقريض الفروسية فى العصور الوسطى. بيد أن أنشودة رولان تنحرف فى كثير من مناحيها إلى الأسطورة . وقد اتخذت الأسطورة من حوادث الموقعة موضوعاً لقصة حربية حماسية حرفت فيها الوقائع الأصلية أيما تحريف ، ولكنها تستبقى مكان الموقعة ، وبعض أشخاص التاريخ . وقد رأينا أن نورد فيما يلى خلاصة هذه القصة أو الأنشودة الشهيرة :

« غزا شارلمان إسبانيا ، ولبث يحارب فيها سبعة أعوام ، حتى افتتح ثغورها ومدنها ، ما عدا سرقسطة ، وهى معقل الملك العربى مارسيل . وكان يعسكر بجيشه بجوار قرطبة ، حين جاءته رسل مارسيل يعرض عليه الطاعة ، بشرط أن يجلو الفرنج عن إسبانيا ، فعقد شارلمان مجلساً من البارونات ومنهم رولان ابن أخيه . وكان رولان يرى أن تستمر الحرب ، ولكن فريقاً آخر من السادة برآسة جانلون كونت مايانس ، كان يرى الصلح والمهادنة ، فغلب رأى هذا الفريق ، لأن الفرنج سئموا الحرب والقتال ، وأرسل جانلون إلى الملك مارسيل ليعقد معه شروط الهدنة . فأغراه مارسيل واستماله بالتحف والذخائر ، واتفق معه على الغدر برولان وفريقه . ثم عاد إلى شارلمان وزعم أن مارسيل قبل شروط الفرنج ، وبذا قرر شارلمان الإنسحاب . وتولى رولان قيادة المؤخرة . وكان معه الأمراء الإثنا عشر ، وزهرة الفروسية الفرنجية . ولما وصل الجيش إلى قمة الممرات الجبلية رآى أوليفر أحد الأمراء ، جيشاً من العرب ، يبلغ أربعمائة ألف مقاتل .

فتضرع إلى رولان أن ينفخ فى بوقه ليدعو شارلمان إلى نجدته ، فأبى رولان ، وانقض الجيش الهاجم على مؤخرة الفرنج ، ونشبت بينهما عدة معارك هائلة . واستمر رولان يأبى طلب النجدة حتى مزق جيشه ولم يبق منه سوى ستين رجلا ، وعندئذ نفخ فى بوقه يدعو شارلمان : ثم قتل بقية أصحابه ، ولم يبق سوى رولان وأوليفر واثنين آخرين . ولما شعر العرب أن شارلمان سيرتد بجيشه لقتالهم ، قرروا الانسحاب . وكان زملاء رولان الثلاثة قد قتلوا ، وأثخن رولان نفسه جراحاً حتى أشرف على الموت . ولكنه استطاع أن ينفخ فى بوقه مرة أخرى قبل أن يموت ، وأن يسمع صرخة شارلمان الحربية ، وسمع شارلمان صوت البوق على بعد مراحل عديدة . فعاد مسرعاً وطارد جيش العدو وسحقه . ودفن الفرنج قتلاهم ، وعوقب جانلون الخائن أروع عقاب . وتوفيت ألده ، خطيبة رولان حينما علمت بموته » .

هذه هى خلاصة القصة التى ترددها أنشودة رولان الشهيرة . وهى أبعد ما يكون عن وقائع التاريخ الحق . بيد أنها تتخذ مادتها من بعض هذه الوقائع ، ومن الذكريات والروايات الشفوية المتناقلة ، والأناشيد الحربية المعاصرة . وهى نورمانية الأصل ، ظهرت لأول مرة فى القرن الحادى عشر ، أعنى بعد الموقعة بنحو ثلاثة قرون ، ودونت أولا فى بعض القصص اللاتينية ، ثم دونت بالنظم فى ملحمة طويلة تبلغ أربعة آلاف بيت بعنوان «أنشودة رولان» **Chanson de Roland** ولبثت تعتبر مدى عصور من أعظم الآثار الأدبية ، ومن روائع القريض الحربى :

وكانت حوادث هذه الموقعة الشهيرة مستقى خصباً لكثير من الكتاب والشعراء ، وكانت بالأخص مستقى لقصص الفروسية والملاحم الحماسية المغرقة ، التى تملأ فراغاً كبيراً فى الأدب الفرنجى فى العصور الوسطى[1] .

ومما يلفت النظر فى حوادث الموقعة أن شارلمان ، لم يحاول بعد أن أفاق من الصدمة الأولى ، أن يعجل بالانتقام لنكبة جيشه ومقتل فرسانه ، وأن يعود فيطارد تلك العصابات التى تحدته واجترأت عليه سواء من المسلمين أو البشكنس .

---

(١) راجع حوادث هذه الموقعة الشهيرة فى أخبار مجموعة ص ١١٢ و ١١٣ ، وابن الأثير ج ٦ ص ٥ و ٢١ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٢٤ ، وراجع أيضاً **Bouquet ; Vol. V.** **R.M. Pidal : La Chanson de Rolad. Cap. VI. p. 171 — 215;p. 14,26,42,& 208** و **Reinaud: ibid ; p. 95, 96** و **Hodgkin : Charles the Great p. 141—152**

وتعليل ذلك هو أن شارلمان شغل قبل كل شيء بخطورة الأنباء التي وصلته عن تحرك السكسونيين ، وهم ألد أعداء الفرنج وأخطرهم ، فارتد أدراجه مسرعاً ليخوض معهم حرباً جديدة استطالت زهاء سبع سنين ، حتى تمت هزيمة زعيمهم ڤتكنت ( أو ڤيدوكنت ) نهائياً ، وأرغم على التنصير فى سنة ٧٨٥ م(١) .

ولم يبق بيد شارلمان ، بعد استنقاذ المسلمين للرهائن ، سوى ثعلبة بن عبيد قائد عبد الرحمن ، وقد لبث فترة أخرى معتقلا بفرنسا ، حتى تمت المفاوضة بشأنه ، وأطلق سراحه لقاء فدية كبيرة .

وهكذا اختتمت محاولة شارلمان غزو اسبانيا المسلمة والتدخل فى شئونها ، بنكبته والقضاء على زهرة جنده ، وقد أسبلت هذه النكبة مدى حين سحابة على مجده الحربى . بيد أنها لم تكن كما سنرى آخر محاولة من نوعها لعاهل الفرنج ، فإن السياسة الفرنجية لبثت بالرغم من هذه الصدمة المؤلمة ، ترقب سير الحوادث فى الأندلس لتجد فيها ثغرة تتخذها وسيلة لتحقيق غاياتها .

* * *

ونستطيع بعد أن استعرضنا أدوار هذه الموقعة الشهيرة التى تركت فى عصرها أعظم صدى فى الروايات الفرنجية (اللاتينية) والكنسية المعاصرة واللاحقة ، وبعد أن سجلنا ممهداتها وحوادثها تفصيلا . أن نعود فنلقى نظرة مقارنة على موقف الروايات العربية واللاتينية إزاء الموقعة ، وكيف تعاملها كل منها .

وأول ما يلفت النظر هو حسبما قدمنا ، إيجاز الروايات العربية ، فى الوقت الذى تميل فيه الروايات اللاتينية إلى الإفاضة الواضحة . وقد كان خليقاً بالرواية العربية أن تبسط القول فى حوادث موقعة لها من الخطورة البالغة ما لموقعة « باب الشزرى » خصوصاً وقد كان التفوق فيها للجانب الإسلامى. ولكن الرواية العربية لم تنظر إلى الموقعة إلا من حيث ارتباطها بحوادث الأندلس ، ومن جهة أخرى فإنها لم تكن على علم تام بما يدور فى الناحية الأخرى من جبال البرنيه ، فى مملكة الفرنج الشاسعة ، ولم تقف على آثار الصدى الهائل الذى أحدثه تمزيق جيش شارلمان داخل مملكة الفرنج ، وفى سائر الأمم المتصلة بها ، ولاسيما القبائل السكسونية ألد أعداء الفرنج يومئذ .

---

(١) R.M. Pidal : ibid, p. 199

وثمة فرق واضح آخر بين الروايتين العربية واللاتينية ، هو أن الأولى تنوه بأن شارلمان قاد حملته إلى اسبانيا استجابة لدعوة الخوارج المسلمين ليعمل معهم ضد إمارة قرطبة ، وأن الثانية تنوه بأن حملة شارلمان إنما كانت موجهة إلى إخضاع البشكنس .

ومع ذلك فإن الرواية العربية على إيجازها تقدم إلينا ممهدات الموقعة وعناصرها الأساسية بمنتهى الدقة ، بل إن العلامة المؤرخ الأستاذ پيدال ، وهو آخر من تناول حوادث هذه الموقعة من النقدة المحدثين بإفاضة ، وبأسلوبه النقدى الرائع ، يقرر لنا أن الرواية العربية هنا ، هى أرقى بكثير من الرواية اللاتينية ، وأنها فيما يتعلق بغزوة شارلمان لإسبانيا ، أبعد من أن تنحدر إلى الغموض والتناقض ، وأنها بالعكس تقدم إلينا بعض أنباء فى منتهى الأهمية والجدارة .

ويدفع الأستاذ پيدال ما يرمى به بعض الباحثين مثل باسيه وغيره ، الرواية العربية من أخطاء وسابقات تاريخية ، ويؤكد بالعكس أنه لاتناقض بين النصوص العربية واللاتينية ، وكل ماهنالك أن كلامنهما ركز اهتمامه فى نقط معينة ، وكلتاهما تتفق مع الأخرى فى الحوادث الرئيسية(١) .

---

(١) R.M. Pidal : ibid., p. 177, 178

# الفصل الخامس

## ولاية عبد الرحمن الداخل

— ٢ —

عبد الرحمن وحوادث الشمال . ظهور الصقلبى فى شرق الأندلس . استئنافه للدعوة العباسية . تحالفه مع ابن يقظان ثم خلافه معه . مسير عبد الرحمن إلى قتال الصقلبى . التجاؤه إلى بلنسية . مصرعه وانهيار دعوته . ثورات محلية مختلفة . حوادث الشمال . مصرع ابن يقظان . مسير عبد الرحمن إلى سرقسطة وحصارها . خضوع الحسين الأنصارى . عبد الرحمن يغزو نافار وشرطانية . قتله لعيشون ابن سليمان . عود الحسين إلى الثورة . إرسال عبد الرحمن حملة لقتاله . حصار سرقسطة وثبات الحسين . مسير عبد الرحمن إلى قتاله . هزيمته ومصرعه . تفاهم عبد الرحمن مع شارلمان وسعيه إلى مصاهرته . ائتمار الوافدين من الأموية بعبد الرحمن . صرامته فى إخماد هذه المؤامرات . حديث ينسب إليه عنها . فرار محمد بن يوسف الفهرى وثورته فى طليطلة . مسير عبد الرحمن لقتاله . موقعة قسطلونة . هزيمة محمد وفراره . استئنافه للثورة فى قورية . هزيمته ووفاته . أخوه أبو القاسم . خروجه ثم خضوعه . انتهاء الثورة . خاتمة الكفاح الرائع .

بينما كانت هذه الحوادث الخطيرة تجرى فى الشمال ، كان عبد الرحمن الأموى فى الجنوب يكافح الثورة فى مختلف الأنحاء . وكانت ثورة البربر قد شغلته واستنفدت معظم قواه أعواماً متوالية . بيد أنه ما كاد يفرغ من سحقها حتى ظهر فى شرق الأندلس خطر جديد قوامه الدعوة العباسية . ذلك أن عبد الرحمن بن حبيب الفهرى أحد زعماء الفهرية ، وهو المعروف بالصقلبى نظراً لطوله وشقرته وزرقة عينيه ، عبر البحر من إفريقية إلى الأندلس فى قوة كبيرة ، ونزل بساحل تدمير (مرسية) فى شرق الأندلس ، ودعا للخليفة العباسى (سنة ١٦١ هـ) . ويجب أن نذكر أن عبدالرحمن بن حبيب هذا هو غير سميه عبد الرحمن بن حبيب المتغلب على إفريقية الذى فصلنا أخباره من قبل ، فقد قتل هذا المتغلب على إفريقية منذ سنة ١٤٠ هـ ، بعد أن خرج على طاعة بنى العباس[1] . ولا نعرف علاقة الصقلبى

---

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ١١١ .

بيوسف بن عبد الرحمن الفهرى ، وربما كان من أبناء عمومته[١]. بيد أنه كان من زعماء الفهرية وزعماء الثورة على بنى أمية . وكانت حركة الصقلبى فى تدمير ، كحركة العلاء بن مغيث من قبل فى باجة ، ولكنها كانت أشد خطراً ، لأن الصقلبى سعى إلى التفاهم مع زعيم الثورة فى الشمال سليمان بن يقظان وتحالف معه[٢] . والظاهر أن هذا التحالف كان بعد عبور الفرنج إلى إسبانيا وموقعة باب شيزروا . ولكن ابن يقظان لم يف بوعده فى إمداده لقتال عبد الرحمن الأموى ، فغضب منه وسار لقتاله ، فهزمه ابن يقظان فى ظاهر برشلونة . فعاد إلى تدمير ولبث مدى أشهر ينظم قواته وأهبته ، ولكن عبد الرحمن لم ينتظر حتى يهاجمه ، بل سار بنفسه ، وهاجمه بشدة ، وأحرق سفنه الراسية بالساحل ، حتى لايجد سبيلا إلى الفرار ، فارتد الصقلبى بفلوله إلى جبال بلنسية واستعصم بها ، وهنا لجأ عبد الرحمن إلى سلاح الاغتيال مرة أخرى ، فدس على الصقلبى بعض أصدقائه فاغتاله وحمل رأسه إليه ، وانهارت بذلك دعوته وثورته (سنة ١٦٢ و ١٦٣ هـ : ٧٧٨ — ٧٧٩ م ) .

ووقعت بعد ذلك عدة ثورات محلية عنى عبد الرحمن بقمعها قبل أن يسير إلى الشمال ، فقد ثار دحية الغسانى ببعض حصون إلبيرة (غرناطة) ، وكان دحية من أصدقاء عبد الرحمن ومن قادته ، ولكنه نكث بعهده ولحق بالفاطمى ، فلما هلك الفاطمى ، فر إلى إلبيرة وأعلن بها الثورة ، فأرسل عبد الرحمن إليه جيشاً ضيق عليه الحصار حتى أخذ وقتل . وثار إبراهيم بن شجرة بحصن مورور ،

---

( ١ ) يقول دوزى إنه كان صهراً ليوسف الفهرى متزوجاً بإحدى بناته ( ج ١ ص ٢٤٢ ) ولكنه لم يبين مصدراً لقوله ، ولم نجد فى المراجع العربية ما يؤيده .

( ٢ ) يقدم إلينا دوزى ثورة ابن يقظان وحلفائه وعلاقة الصقلبى به فى صورة أخرى ، فيقول لنا ، إن هذا التحالف كان يضم ابن يقظان والحسين بن يحيى والصقلبى ومحمد بن يوسف الفهرى ، وانهم اتفقوا جميعاً على استدعاء الفرنج إلى اسبانيا ، وساروا جميعاً إلى لقاء شارلمان فى بادربورن ، واتفق على أن يقوم ابن يقظان بمعاونة شارلمان فى غزوته بينما يقوم الصقلبى بحشد البربر فى إفريقية ثم يعبر بهم إلى تدمير ليشغل عبد الرحمن بحركته ( دوزى ج ١ ص ٢٤٠ — ٢٤١ ) . ولكننا لا نوافق دوزى على هذا التصوير أولا لأن المصادر العربية لا تشير إلى مثل هذا التحالف الرباعى ، وتتفق جميعاً فى اعتبار حركة الصقلبى حركة مستقلة لا علاقة لها بغزوة الفرنج ، ومن جهة أخرى فإنه لا يوجد فى الروايات اللاتينية المتعلقة بغزوة شارلمان لإسبانيا ما يشير إلى هذا التحالف ، وثانياً لأن محمد بن يوسف الفهرى أحد أركان هذا التحالف لم يفر من سجنه كما سنرى إلا بعد ذلك ببضعة أعوام . راجع : ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٥٧ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٥٨ ، وابن الأثير ج ٦ ص ٢٦ .

فبعث إليه عبد الرحمن مولاه بدراً ، فهاجمه وقتله . وثار فى طليطلة القائد السلمى ، وكان من خاصة عبد الرحمن ، ثم فر من قرطبة خشية بطشه به لأمور نقمها منه ، والتفت حوله العناصر الخارجة فى تلك الأنحاء ، فسير إليه عبد الرحمن جيشاً قوياً بقيادة حبيب بن عبد الملك ، فحاصره حيناً ثم قتل . وثار فى الجزيرة الخضراء واليها الرماحس بن عبد العزيز الكنانى ، فسار إليه عبد الرحمن بنفسه ، وداهمه قبل أن يستكمل أهبته ، ففر الرماحس وعبر البحر إلى المشرق (سنة ١٦٣–١٦٤)[١].

وفى العام التالى تأهب عبد الرحمن لقمع الثورة فى الشمال . وكان الخلاف قد وقع بين زعيمى الثورة بعد تفاهمهما على أثر نكبة الجيش الفرنجى فى موقعة باب الشزرى ، وتربص الحسين بن يحيى الأنصارى بزميله سليمان بن يقظان ، ودس عليه ذات يوم من قتله بالمسجد الجامع ، وانفرد بالأمر فى سرقسطة وما حولها[٢]. فسار عبد الرحمن إلى سرقسطة فى جيش ضخم وضيق الحصار عليها (سنة ١٦٥ هـ — ٧٨١ م) . ووفد عليه عندئذ عيشون بن سليمان ، وكان قد فر عقب مقتل أبيه إلى أربونة ، وانضم إليه بمن معه فى مقاتلة الحسين ، فلما اشتد الحصار بالحسين طلب الصلح ، وقدم ابنه سعيداً رهينة ، فأجابه عبد الرحمن إلى ملتمسه ، وأقره والياً على سرقسطة . ثم تحول عن سرقسطة إلى الشمال الشرقى ، واخترق بلاد البشكنس (ناڤار) ليعاقب أهلها على عيثهم وعدوانهم ، وغزا عاصمتها بنبلونة ، وأثخن فيها وخرب قلاعها ، وغزا قلهرّة وبقيرة (ڤكيرا) ، واجتاح ولاية شرطانية[٣]، وأرغم أميرها على تقديم الطاعة وأداء الجزية[٤]. ثم عاد إلى قرطبة ظافراً بعد أن وطد هيبة الحكومة المركزية فى الشمال نوعاً ، وألقى على النصارى درساً يذكرهم بأن الإسلام قد استرد منعته وسلطانه فى اسبانيا . وكان سعيد بن الحسين قد فر من معسكر الأمير أثناء الطريق ، ولما حل عبد الرحمن بقرطبة توجس شراً من عيشون بن سليمان ، وكان قد عاد فى ركابه ، فأمر به

---

(١) أخبار مجموعة ص ١١٢ ، وابن الأثير ج ٦ ص ٢٠ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٥٨ .

(٢) يقول لنا العذرى نقلا عن الرازى أن قتل الحسين لسليمان كان بتحريض من حكومة قرطبة ، وذلك على أن يولى سرقسطة (فى كتابه ترصيع الأخبار الذى سبقت الإشارة إليه ص ٢٦) .

(٣) شرطانية بالإفرنجية **Cerdagne** وبالإسبانية **Cerdana** ، وهى ولاية صغيرة فى شمال شرق إسبانيا .

(٤) أخبار مجموعة ص ١١٤ ، وابن الأثير ج ٦ ص ٢٢ .

فقتل . ولما رأى الحسين بن يحيى أن عبد الرحمن قد ارتد عنه ، وعاد إليه ولده سالماً ، نكث بعهده وعاد إلى الثورة ، وعاث فساداً فى سرقسطة وأعمالها ، فاعتزم عبد الرحمن أن يعود إلى قتاله ، وأن ينكل به وبأنصاره فى تلك المرة . فبعث إلى الشمال جيشاً كثيفاً بقيادة غالب بن تمام بن علقمة ، فخرج الحسين إلى لقائه ، ووقعت بينهما معارك شديدة هزم فيها الحسين ، وأسر ولده يحيى وعدة من صحبه ، فأرسلوا إلى قرطبة حيث أمر عبد الرحمن بإعدامهم ، وامتنع الحسين بالمدينة واستمر غالب فى حصاره . وفى العام التالى ( سنة ١٦٧ هـ — ٧٨٣ م ) سار عبد الرحمن بنفسه إلى سرقسطة وحاصرها بشدة ، وضربها بالمجانيق ضرباً عنيفاً حتى هدم أسوارها ، واقتحمها عنوة ، وقبض على الحسين وجماعة من صحبه ، وقتلهم جميعاً ، وشرد كثيراً من أهلها ، وفر سعيد ولد الحسين ، وعين عبد الرحمن قائده ثعلبة بن عبيد والياً لسرقسطة ، وكان قد افتداه من أسر الفرنج حسبما تقدم . وركدت بذلك ريح الثورة فى الشمال مدى حين[١] .

وشغل عاهل الفرنج شارلمان مدى حين عن شئون إسبانيا ، لأن القبائل السكسونية عادت فنكثت طاعته ، وعاد لقتاله خصمه القوى ڤيدوكنت ، واستمرت الحرب بينهما زهاء سبعة أعوام وانتهت بهزيمة السكسونيين ، وخضوع زعيمهم وإرغامه على التنصر (سنة ٧٨٥ م) . بيد أن عبد الرحمن رأى أن يتفاهم مع زعيم الفرنجة ، وأن يؤثر صداقته ومدارته على خصومته ، فبعث إليه يطلب عقد الصداقة معه ، ويكاشفه برغبته فى مصاهرته ، فأجابه شارلمان إلى السلم ولم تتم المصاهرة[٢] . وفى بعض الروايات أن شارلمان هو الذى عرض على عبد الرحمن أن يزوجه ابنته فاعتذر عبد الرحمن باعتلال صحته[٣] . واستمر السلام معقوداً بين الزعيمين حتى وفاة عبد الرحمن .

---

( ١ ) ابن الأثير ج ٦ ص ٢٢ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٥٩ .

( ٢ ) المقرى عن ابن حيان ( ج ١ ص ١٥٥ ) . ولا تقدم الرواية لنا تفصيلا عن مشروع المصاهرة هذا ، ولكن الظاهر أن عبد الرحمن طلب الاقتران بإحدى بنات شارلمان ، والمرجح أنها « هروترود » كبرى بناته ، وكانت وحدها تصلح للزواج فى ذلك الحين . ويرى رينو أن المقصود بهذه الإشارة إنما هو عبد الرحمن الثانى أو عبد الرحمن الأوسط حفيد عبد الرحمن الداخل ، فقد كانت علائقه بملك الفرنج ( شارل الأصلع ) على ما يرام ، وكان هذا الاتصال بين الأمراء الفرنج والمسلمين دائماً (Reinaud : ibid , p. 98)

( ٣ ) راجع : Scott : Moorish Empire, V.I. p. 40

ولما عاد عبد الرحمن إلى قرطبة نمى إليه خبر مؤامرة خطيرة دبرت لسحقه ، بزعامة ابن أخيه المغيرة بن الوليد بن معاوية ، وهذيل ولد الصميل بن حاتم . ولم تكن هذه أول مؤامرة من نوعها ، فقد دبرت قبل ذلك ببضعة أعوام سنة١٦٣هـ مؤامرة أخرى ، وعلى رأسها أيضاً اثنان من أقطاب بنى أمية ، الذين وفدوا على الأندلس حينما تألق طالع عبد الرحمن ، هما عبد السلام بن يزيد بن هشام المعروف باليزيدى ، وهو ابن عم عبد الرحمن ، وعبيد الله بن أبان بن معاوية وهو ابن أخيه ، وذلك بمعاونة أبى عثمان كبير الدولة . وكان عبد الرحمن مذ تم له الأمر ، يسعى إلى استقدام فل بنى أمية من المنفى ، ويدعوهم إليه ليكونوا له عوناً وعصبة ، ويظلهم برعايته ،ويغدق عليهم من نعمه ، ويختارهم لمختلف المناصب . ولكن روحاً سيئاً من الحقد والحسد ، كان يحفز أولئك الأقارب لمناوأة ذلك الذى هيأت له الأقدار أن يفوز دونهم ، بتراث بنى أمية فى الأندلس . فائتمروا به غير مرة ، وشجعهم على ذلك بعض الخوارج الناقمين والمنافسين الطامعين ، ولكن عبد الرحمن كان يكتشف الخطر قبل وقوعه ، ويسحقه بكل ما أوتى من شدة وصرامة ، فلم يحجم حينما وقف على المؤامرة الأولى ، عن قتل ابن عمه عبد السلام اليزيدى وعبيد الله ابن أخيه أبان ، وعفا عن أبى عثمان لمكانته وسابق صنيعه . ولم يحجم حينما وقف على المؤامرة الثانية ، عن قتل المغيرة بن أخيه الوليد ، وزميله هذيل بن الصميل ومن معهما ، ونفى أخاه الوليد وأسرته إلى المغرب . وقد نقل إلينا مؤرخ أندلسى عن بعض موالى عبد الرحمن ، أنه دخل عليه أثناء قتله المغيرة ، ابن أخيه ، وهو مطرق شديد الغم فرفع رأسه وقال : « ما عجبى إلا من هؤلاء القوم . سعينا فيما يضجعهم فى مهاد الأمن والنعمة وخاطرنا بحياتنا ، حتى إذا بلغنا منه إلى مطلوبنا ويسر الله تعالى أسبابه ، أقبلو علينا بالسيوف . ولما آويناهم وشاركناهم فيما أفردنا الله تعالى به ، حتى أمنوا وردت عليهم أخلاف النعم ، هزوا أعطافهم ، وشمخوا بآنافهم ، وسموا إلى العظمى ، فنازعونا فيما منحه الله تعالى ، فخذلهم الله بكفرهم النعم ، إذ أطلعنا على عوراتهم ، فعاجلناهم قبل أن يعاجلونا ، وأدى ذلك إلى أن ساء ظننا فى البرىء منهم ، وساء أيضاً ظنه فينا ، وصار يتوقع من تغيرنا عليه ما نتوقع نحن منه »[1] .

---

(١) الحجارى فى كتابه « المسهب » ؛ ونقله المقرى فى نفح الطيب (ج ٢ ص ٧٢ و ٧٣) .

وفى ذلك الحين فر أبو الأسود محمد بن يوسف الفهرى من سجنه ، ورفع لواء الثورة فى طليطلة . وكان محمد سجيناً فى قرطبة منذ مقتل أبيه ، ثم فراره وأسره ثانية فى حوادث طليطلة سنة ١٤٢ هـ كما قدمنا . وتظاهر محمد عندئذ بالعمى ، وأتقن حيلته حتى جازت على جميع الموكلين بسجنه ، وأشفق عبد الرحمن عليه فأبقاه ولم يقتله كأخيه ، وأنفق محمد فى أسره أعواماً طويلة حتى أهمل شأنه ، ولم يعد يكترث أحد به ، وعرف بالأعمى . ثم سنحت له فرصة الفرار على يد بعض مواليه المتصلين به ، ففر من سجنه الواقع على النهر الكبير ، وجاز النهر سباحة ، ولحق بطليطلة سنة ١٦٨ هـ وأعلن الثورة . والتفت حوله جموع كبيرة من الفهرية والقيسية ، ومن إليهم من عناصر الخروج والثورة ، وسار فى قواته صوب جيان ، فخرج عبد الرحمن إلى قتاله ، ووقعت بينهما معارك عديدة ، كان النصر فيها لعبد الرحمن . ولكن أبا الأسود لبث حيناً محتفظاً بمراكزه وقواته . ثم نشبت بينهما على مقربة من قسطلونة فى الوادى الأحمر ، بمكان يعرف بمخاضة الفتح ، معركة شديدة حاسمة ، ولجأ عبد الرحمن إلى الخديعة ، فاتفق مع بعض قادة أبى الأسود على التقاعد والغدر ، فهزم أبو الأسود هزيمة شديدة ، وقتل من جنده عدة آلاف ، وغرق عدد كبير فى النهر ، وطارده عبد الرحمن حتى قلعة رباح ، ومزق جيشه كل ممزق ( ربيع الأول سنة ١٦٨ هـ — ٧٨٤ م )[١]. ولكن محمداً لم يخضع ولم يهن عزمه ، فارتد إلى جهة الغرب ونزل بقورية ، وعاد يحشد قواته لاستئناف القتال ، وقوى أمره وبسط سلطانه على تلك الأنحاء ، فسار عبد الرحمن لقتاله ثانية ، وهاجم قورية ومزق شمل قواته (سنة ١٦٩ هـ — ٧٨٥ م) ، ففر فى نفر من صحبه إلى بعض قرى طلطلية ، وهنالك توفى لأشهر قلائل (سنة ١٧٠هـ). فقام مكانه أخوه أبو القاسم بن يوسف ، واقترن بزوجته ، وعاد ينظم الثورة فى طليطلة . فسار عبد الرحمن لقتاله قبل أن يستفحل أمره ، ولم ير أبو القاسم بداً من الخضوع والتماس الصلح والعفو ، فأجابه الأمير إلى ملتمسه ، وصحبه معه إلى قرطبة ، ورد إليه بعض أموال أسرته[٢]، وطويت بذلك آخر مرحلة فى ثورة

---

( ١ ) يضع الرازى تاريخ هذه الموقعة فى أول ربيع الأول سنة ١٦٨ ( ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٥٧ ) ويتبعه فى ذلك ابن الأثير فيضع تاريخها سنة ١٦٨ هـ . ولكن صاحب البيان المغرب يجعل تاريخها فى سنة ١٦٩ هـ (ج ٢ ص ٥٩ ) .

( ٢ ) ابن الأبار ص ٥٦ و ٥٧ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٥٢ و ٥٩ و ٦٠ ، ويروى ابن الأثير أن عبد الرحمن لم يبق على أبى القاسم بل قتله (ج ٦ ص ٢٦ ) .

الفهرية ، بل كانت آخر ثورة قام بقمعها عبد الرحمن ، ولم يعش بعدها سوى عدة أشهر .

وهكذا أنفق عبد الرحمن جميع حكمه — ثلاثة وثلاثين عاماً — فى كفاح مستمر . وكانت مهمة عظيمة دونها خطوب فادحة . أن يطمح فتى شريد ، يعمل القتل الذريع فى أسرته وعصبته ، وحيد ليس له أنصار ولا صحب ، إلى افتتاح قطر عظيم زاخر بالقادة والجند ، وأن يخضع ذلك القطر فى حروب لا يخمد أوارها ، وسيول من الدماء لا تنقطع ، وأن يقيم ملكاً على بركان يضطرم من الثورة والمؤامرة والخصومة : تلك هى قصة عبد الرحمن الأموى ، وهى قصة عجيبة ليست من حوادث التاريخ العادية ، ولا يقدم إلينا التاريخ كثيراً من أمثالها . ولكن عبد الرحمن كان رجل الموقف ، وكانت حوادث الجزيرة ( إسبانيا ) وظروفها ، وتمزق شملها ، وتطلعها إلى زعامة قوية توحد كلمتها وقواها ، وتسير بها نحو السلام والأمن ، تفسح مجال الطموح والعمل لذهن جرىء مغامر كذهن عبد الرحمن . وكان عبد الرحمن يجمع إلى فيض جرأته ، كثيراً من الذكاء والدهاء والعزم ، ولم يكن عليه أن يخاطر بأكثر من تلك الحياة التى كادت تزهق غير مرة ، وكان يحملها فى كفه أمام مطارديه خلال القفر الشاسع . ولكن الغنم كان عظيماً : كان ملكاً بأسره ، وكان بعث أسرة هوت ومجد عريض دثر . وسنعرض فى الفصل القادم طرفاً من خلال تلك الشخصية الباهرة ، التى تتبوأ مكانها بين أسطع شخصيات التاريخ الإسلامى .

# الفصل السادس

## خلال عبد الرحمن ومآثره

(١) وفاة عبد الرحمن الداخل . شخصيته . أساليبه . إقدامه وجرأته وقسوته . بطشه بآله وأصدقائه . نزعته الميكافيلية . تعليقات دوزى على سياسته . خلاله الباهرة . وصفه بصقر قريش . (٢) نوع رياسته . قطعه الدعاء لبنى العباس . إحجامه عن التلقب بالخلافة . أقوال ابن خلدون فى ذلك . نظام الحكومة فى عهده . حجابه وأعوانه . استرابته بالعرب بعد الثقة فيهم . اصطناعه للموالى والبربر . سياسته نحو النصارى . مقدماته الإدارية . عنايته بالجيش والأسطول . تفكيره فى غزو الشام . منشآته بقرطبة . الرصافة . السور الكبير . المسجد الجامع . (٣) كرمه وتواضعه . نقش خاتمه . خلاله الأدبية . نثره وشعره . (٤) عناصر المجتمع الأندلسى . العرب والبربر والمولدون . النصارى المعاهدون واليهود .

— ١ —

توفى عبد الرحمن الأموى فى الرابع والعشرين من ربيع الآخر سنة ١٧٢ هـ (٢ أكتوبر سنة ٧٨٧ م)[1] وهو فى نحو الثامنة والخمسين من عمره ، بعد أن حكم الأندلس ثلاثة وثلاثين عاماً ملؤها الخطوب والفتن . فخلفه ولده هشام بعهد منه لأيام قلائل من وفاته . وانتظم بذلك سلك الدولة الأموية بالأندلس بعد أن تصرم بالمشرق ، واستؤنفت حياة تلك الدولة الزاهرة ، التى بلغ الإسلام على يدها ذروة الفتح والظفر ، والتى ذهبت سراعاً كالحلم فى عنفوان قوتها .

---

(١) يختلف المؤرخون فى تاريخ وفاة عبد الرحمن . ويستفاد من أقوال صاحب أخبار مجموعة أنها وقعت فى أوائل سنة ١٧٢هـ ( ص ١١٦ ) . ويوافقه ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد على ذلك ، فيقول إنها وقعت فى ١٢ جمادى الأولى سنة ١٧٢ هـ ( العقد الفريد ج ٣ ص ٢٠١ ) . ولكن ابن حيان مؤرخ الأندلس يضعها فى ٢٤ ربيع الآخر سنة ١٧١ ( المقرى ج ٢ ص ٧٢ ) . وهذه أيضاً رواية ابن الأبار (الحلة ص٣٧ ) .على إننا نرجح الرواية الأولى لقدمها ،وهى أيضاً رواية ابن عذارى حيث يضع وفاة عبد الرحمن فى ٢٤ ربيع الآخر سنة ١٧٢ هـ ( البيان المغرب ج ٢ ص ٦٠ ) . ويضعها كل من ابن خلدون ( ج ٤ ص ١٢٤ ) ، والمراكشى ( المعجب ص ٩ ) فى سنة ١٧٢ هـ دون تعيين للشهر . ويضعها ابن الأثير فى ربيع الآخر سنة ١٧١ ، ولكنه يرجح وقوعها سنة ١٧٢ هـ (ج ٦ ص ٣٧ ) .

كان سقوط الدولة الأموية بالمشرق مأساة من أروع مآسى التاريخ الإسلامى ، وكانت تلك الشخصية التى قامت على كاهلها دعائم الدولة الجديدة ، من أعظم شخصيات الحرب والسياسة . كان عبد الرحمن الأموى يتمتع بعبقرية ممتازة وخلال نادرة . وكان قرين جده العظيم معاوية بن أبى سفيان ، ينشئ مثله دولة ، ولكن فى ظروف أسوأ من ظروفه ، ويهزم الخطوب والحوادث ، ويسحق خصومه فى كل ميدان ، ويؤثر مثل السياسة العملية على كل اعتبار ، ويذهب توا إلى الغاية بأى الوسائل . وكانت المحنة المروعة التى نزلت بأسرته ، والظروف العصيبة التى يواجهها ، والخصومات والأحقاد المستعرة التى تحيط به ، تحمل خلاله القوية إلى ذروة التطرف ، وتدفعه إلى التذرع بأشد الوسائل . فنراه يقرن وافر العزم بفيض من الجرأة والمغامرة واحتقار الخطر ، ويقرن وافر الدهاء بنزوع إلى الخيانة والغدر والفتك ، ويقرن وافر الحزم والصرامة بنزوع إلى القمع الذريع ، ويذهب فى الانتقام إلى حدود مروعة من القسوة . ومع ذلك فقد كان عبد الرحمن وفياً يحفظ العهد والصنيعة لمن أخلص له ، وإن لم يحجم لأقل ريب أو بادرة عن الفتك بأعز أصدقائه وأقرب الناس إليه . وقد رأينا هذه الخلال واضحة بارزة ، فى كثير مما تقدم من حوادث حياته ونضاله ، فرأيناه مراراً يلجأ إلى الغدر والاغتيال للتخلص من خصومه ، ورأيناه فى مواطن كثيرة يزهق دون تردد ، كل من وقع فى يده من أولئك الخصوم أو من ولدهم وصحبهم الأبرياء . وذهب عبد الرحمن فى صرامته وقسوته إلى البطش بكثير من أصدقائه ، الذين آزروه يوم مقدمه ، شريداً لاعصبة له ، وقاتلوا معه وقادوه إلى الظفر والحكم ، وكان قد أولاهم فى المبدأ ثقته وجعلهم عماد دولته . ومن هؤلاء بدر مولاه الذى جاب معه القفر وخاض الغمار ، وكان مثالا للشجاعة والدهاء وبعد النظر ، فإنه قدر فى البداية خلاله وكفايته وولاه القيادة واختصه بأسمى المناصب والمهام ، ولكنه تغير عليه فى أواخر عهده ، لما أبداه من التذمر وعدم الرضى ، ولما وجهه إليه من عتاب خشن تجاوز فيه حد اللياقة ، فنكبه وجرده من مناصبه وأمواله ، وشرده عن قرطبة إلى قاصية الثغر ، ولم يستمع إلى تضرعه حتى مات فى فقر وضعة[1] . ومنهم أبو عثمان رأس أنصاره ،

---

(١) راجع نفح الطيب ج ٢ ص ٦٩ و ٧١ ، حيث يورد طرفاً من الرسائل التى تبادلها عبد الرحمن وبدر ، والتى انتهت بنكبة بدر . وراجع الإحاطة لابن الخطيب (١٩٥٦) ج ١ ص ٤٥٣ .

وأول من تلقاه وآواه يوم مقدمه ؛ فإنه جعله كبير دولته ، فلما توطد أمره جرده من نفوذه ، ولما وقعت المؤامرة التى دبرها بعض الوافدين من بنى أمية ، واتهم أبو عثمان بالاشتراك فى تدبيرها استراب به ، ولم ينقذه من بطشه إلا عظم صنيعه لديه . ولما ثار ابن أخت أبى عثمان فى بعض حصون إلبيرة ، لم يتردد عبد الرحمن فى قتله حين ظفر به . وكذا تغير عبد الرحمن على عبد الله بن خالد ، صهر أبى عثمان وزميله فى مؤازرة عبد الرحمن ونصرته ، وكان من وزرائه ، ثم اعتزل المنصب ، وتوارى لما رأى من غدر عبد الرحمن بزعيم اليمنية أبى الصباح ، وكان أبو الصباح هو الذى جمع كلمة اليمنية فى إشبيلية حول عبد الرحمن وقاتل معه بصحبه ، ثم انحرف عنه لأمور نقمها منه ، فاستدرجه عبد الرحمن إلى قرطبة وفتك به فى نفس مجلسه بالقصر ، ناكثاً لعهوده كما قدمنا[1]. بل لم يحجم عبد الرحمن عن الفتك بذويه وخاصة أسرته ، حينما نمى إليه أنهم يأتمرون به ، فقتل ابنى أخيه عبيد الله بن أبان والمغيرة بن الوليد ، وابن عمه عبد السلام اليزيدى حسبما فصلنا .

والخلاصة أن عبد الرحمن كان يلجأ فى تحقيق غاياته إلى أروع الأساليب والوسائل ، وكان طاغية مسرفاً فى البطش والسفك ، مكيافيليا[2] بكل معانى الكلمة . ولكن تلك الخلال المثيرة التى كان يحفزها ويذكيها الخطر الداهم ، كانت عنوان قوته ووسيلة ظفره . يقول دوزى : « لقد دفع عبد الرحمن ثمن ظفره غاليا ، ذلك الطاغية الغادر الصارم المنتقم ، الذى لاتأخذه رأفة . ولم يبق زعيم عربى أو بربرى ، يجرؤ على مواجهته صراحة ، ولكن الجميع كانوا يلعنونه خفية . ولم يك ثمة رجل يرغب فى خدمته » . ثم يقول : «كان هم عبد الرحمن الدائم أن يذل العرب والبربر إلى الطاعة ، وأن يرغمهم على التعود على النظام والسلام ، وقد لجأ فى تحقيق هذه الغاية إلى جميع الوسائل ، التى لجأ إليها ملوك القرن الخامس عشر لسحق الإقطاع . بيد أنه كان مصيراً محزناً ذلك الذى دفع القدر إليه اسبانيا ، وكانت مهمة محزنة تلك التى كان على خلفاء عبد الرحمن أن يضطلعوا بها . ذلك أن الطريق الذى رسمه لهم مؤسس الأسرة ، كان طريق الطغيان يؤيده السيف . ولكن من الحق أن نقول إن ملكاً لايستطيع أن يحكم العرب والبربر

---

(١) نفح الطيب ج ٢ ص ٦٧ و ٧١ .

(٢) نسبة إلى مكيافيللى صاحب المذهب السياسى المشهور ، وخلاصته أن للأمير أن يتذرع فى تحقيق الغاية بأى الوسائل ، ومنها الغدر والخيانة والسفك وكل ما إليها .

بغير هذه الوسيلة ، وإذا كان العنف والطغيان ثمة فى ناحية ، فى الناحية الأخرى يوجد الاضطراب والفوضى »[١] .

على أن عبد الرحمن كان إلى جانب هذه الصفات المثيرة ، يتمتع بكثير من الخلال الباهرة . وقد أجمل ابن حيان مؤرخ الأندلس خلاله فى تلك العبارات القوية ، قال : « كان عبد الرحمن راجح الحلم ، فاسح العلم ، ثاقب الفهم ، كثير الحزم ، نافذ العزم ، بريئاً من العجز ، سريع النهضة فى طلب الخارجين عليه ، متصل الحركة ، لايخلد إلى راحة ، ولايسكن إلى دعة ، ولايكل الأمور إلى غيره ، ثم لاينفرد فى إبرامها برأيه ، شجاعاً مقداماً ، بعيد الغور ، شديد الحذر قليل الطمأنينة ، بليغاً ، مفوهاً ، شاعراً ، محسناً ، سمحاً ، سخياً ، طلق اللسان »[٢] وهذا التصوير الرائع الذى يقدمه لنا ابن حيان عن خلال تلك الشخصية الممتازة ، إنما هو صورة بارزة من صور العظمة والبطولة ، توضحها فى جملتها وفى تفاصيلها حياة عبد الرحمن فى جميع أدوارها .

ويشبهه ابن حيان أيضاً بأبى جعفر المنصور فى قوة الشكيمة ، ومضاء العزم ، وفى القسوة والصرامة والاجتراء على الكبائر[٣] .

وإذا كانت هذه الصفات والخلال القوية المثيرة معاً ، لا تحمل على الحب ، فإنها تحمل على الإعجاب بلا ريب . بل إن المتأمل ليشعر بعطف خاص نحو هذه الشخصية الفريدة ، ويرجع ذلك بلا ريب إلى تلك الحياة المؤثرة ، التى خاض عبد الرحمن غمارها ، وتلك المحن الأليمة التى نزلت بأسرته ، وتلك الجهود الفادحة التى بذلها لاسترداد حقه وحق أسرته فى الحياة والرياسة . وكانت هذه الحياة المؤثرة وما انتهت إليه من النتائج الباهرة ، تحمل ألد خصوم عبدالرحمن على احترامه والإعجاب به ، حتى لقد سماه أبو جعفر المنصور « صقر قريش » فى حديث طريف تنقله إلينا الرواية ، وهو أن المنصور قال يوماً لبعض أصحابه ، « من صقر قريش من الملوك ؟ » قالوا : أمير المؤمنين الذى راض الملك وسكن الزلازل وحسم الأدواء . قال ما صنعتم شيئاً . قالوا فمعاوية ، قال ولا هذا . قالوا

---

(١) Dozy : Hist. V. I. p. 245, 248

(٢) نقله نفح الطيب ج ٢ ص ٦٧ .

(٣) نفح الطيب ج ١ ص ١٥٦ .

فعبد الملك بن مروان ، قال لا . قالوا فمن يا أمير المؤمنين؟ قال : صقر قريش عبد الرحمن بن معاوية ، الذى تخلص بكيده عن سنن الأسنة وظباة السيوف ، يعبر القفر ، وركب البحر ، حتى دخل بلداً أعجمياً منفرداً بنفسه ، فمصر الأمصار ، وجند الأجناد ، ودون الدواوين ، وأقام ملكاً عظيماً بعد انقطاعه ، بحسن تدبيره وشدة شكيمته . إن معاوية نهض بمركب حمله عليه عمر وعثمان وذلل له صعبه ، وعبد الملك ببيعة أبرم عقدها ، وأمير المؤمنين بطلب عزته واجتماع شيعته . ، وعبد الرحمن منفرد بنفسه ، مؤيد برأيه ، مستصحب لعزمه ، وطد الخلافة بالأندلس ، وافتتح الثغور وقتل المارقين ، وأذل الجبابرة الثائرين[1] .

هذا وأما عن شخصه ، فقد وُصف عبد الرحمن ، بأنه كان مديد القامة ، نحيف القوام ، أعور ، أخشم[2] ، له ضفيرتان ، أصهب[3] ، خفيف العارضين ، له خال فى وجهه[4] .

— ٢ —

كانت الأندلس حتى ولاية يوسف بن عبد الرحمن الفهرى ، ولاية من ولايات الخلافة الأموية . فلما انهار سلطان بنى أمية ، انفرد يوسف بالأمر ، وغدت الأندلس فى عهده إمارة مستقلة . وتلقى عبد الرحمن الأموى تراث الإمارة كما خلفه يوسف ، ولم ينشئ رغم كونه سليل بنى أمية ، لنفسه شيئاً جديداً من رسوم الملك . وتلقبه الرواية الإسلامية أحياناً بالأمير ، وأحياناً بالإمام[5] ، ويلقب أيضاً بصاحب الأندلس[6] . ويعرف بعبد الرحمن الداخل لأنه أول من دخل لأندلس من أمراء بنى أمية وحكمها ، ويعرف أيضاً بعبد الرحمن الأول ، لأنه أول أمراء ثلاثة من بنى أمية بهذا الاسم حكموا الأندلس ، هم عبد الرحمن الداخل ،

---

(١) راجع أخبار مجموعة ص ١١٨ و ١١٩ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٦١ و ٦٢ ، وبين الروايتين اختلاف يسير فى الألفاظ .

(٢) هو الذى فقد حاسة الشم .

(٣) من الصهبة والصهوبة وهى احمرار الشعر .

(٤) نفح الطيب ج ١ ص ١٥٦ ؛ وابن الأثير ج ٦ ص ٣٧ .

(٥) راجع أخبار مجموعة ص ١٠٠ — ١٠٤ حتى نهاية الحديث عن عبد الرحمن ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٢٢ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٥١ وما بعدها ، وص ٦٠ ، حيث ينعت عبد الرحمن بالإمام ، وكذلك نفح الطيب ج ٢ ص ٧٤ ، والروض المعطار ( القاهرة ١٩٣٧ ) ص ١٨٦ .

(٦) ابن الأثير ج ٦ ص ٣٧ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٥٠ .

وحفيده عبد الرحمن الأوسط ( ابن الحكم ) ، ثم عبد الرحمن الناصر .

وكانت الدعوة العباسية قد انتهت إلى الأندلس حين مقدم عبد الرحمن ، وذاعت فى منابرها ، ودعى فى الخطبة لبنى العباس فى كثير من النواحى ، ثم دعى لهم فى قرطبة ذاتها ، ودعى عبد الرحمن الداخل نفسه لأبى جعفر المنصور مدى أشهر ، وكان ذلك رغم غرابته وتناقضه ، عملا من أعمال السياسة . ولكن جماعة من بنى أمية الذين وفدوا على الأندلس ، وعلى رأسهم عبد الملك المروانى ، اعترضوا على هذا التصرف ، ونوهوا بما أثم به بنو العباس فى حق بنى أمية ، وما زالوا بعبد الرحمن حتى قرر قطع ذكر بنى العباس من الخطبة ( ١٣٩ هـ ) ، فقطعت من سائر منابر الأندلس[١] . ولكن عبد الرحمن لم يحاول أن يتخذ سمة الخلافة قط ، رغم كونه سليل أقيالها . ويرجع ذلك إلى اعتبارات دينية وسياسية ، يجملها ابن خلدون فى قوله ، إن بنى أمية بالأندلس « تلقبوا كسلفهم مع ما علموه من أنفسهم من القصور عن ذلك ، بالقصور عن ملك الحجاز أصل العرب والملة ، والبعد عن دار الخلافة التى هى مركز العصبية ، وأنهم إنما منعوا بإمارة القاصية أنفسهم عن مهالك بنى العباس »[٢] . ويقول لنا فى موضع آخر إن عبد الرحمن لم يتخذ سمة الخلافة تأدباً منه فى حق الخلافة بمقر الإسلام ومنتدى العرب[٣]. ويقول المسعودى إن الخلافة لم يكن يستحقها عند بنى أمية إلا من كان مالكاً للحرمين ، ولذلك سموا بالخلائف ، حتى بعد أن تسموا بالخلافة ولم يخاطبوا بالخلفاء[٤]. وعلى أى حال فإن بواعث السياسة العملية ، هى التى حملت عبد الرحمن على سلوك هذا المسلك ، والحرص على عدم التورط فى رسوم لم يحن الوقت لاتخاذها ، والدخول بذلك مع الخلافة العباسية القوية فى منافسة لا تؤمن عواقبها .

وأما عن نظام الحكومة ، فقد اتبع عبد الرحمن الداخل سنة أسلافه بالمشرق فى تبسيط الرسوم والنظم ، وأنشأ منصب الحجابة ، ولكنه لم ينشئ مناصب الوزارة ، بل استعاض عنها بأعوان وأشياخ يعاونونه فى القيام بمهام الحكم ، وليست لهم سمة الوزارة ، وإنما هم أقرب إلى الخاصة وأهل الشورى . واختار أعوانه فى

---

( ١ ) نفح الطيب ج ٢ ص ٧٨ ، وابن الأبار فى الحلة السيراء ( ليدن ) ص ٣٣ .
( ٢ ) المقدمة ص ١٩٠ .
( ٣ ) ابن خلدون ج ٤ ص ١٢٢ .
( ٤ ) المسعودى فى مروج الذهب ( بولاق ) ج ١ ص ٧٨ .

البداية من أصدقائه ، الذين استقبلوه يوم مقدمه ، وآزروه وقاتلوا معه ، فولى حجابته تمام بن علقمة ، ثم ولاها من بعده ليوسف بن بخت الفارسي مولى عبد الملك ابن مروان ، ثم عبد الكريم بن مهران الغسانى ، ثم عبد الرحمن بن مغيث ولد مغيث فاتح قرطبة ، وولاها فى آخر أيامه لمنصور الخصى ، فلم يزل فى حجابته حتى توفى . وعين لمشورته أبا عثمان عبيد الله بن عثمان كبير أنصاره ، وصهره عبد الله بن خالد ، فكانا مدى حين دعامة حكومته . وكان من أعوان حكومته أيضاً جدار بن عمرو ، وأبو عبدة حسان بن مالك زعيم إشبيلية ، وشهيد بن عيسى ابن شهيد ، وعبد السلام بن بسيل الرومى ، وهما من موالى بنى أمية ، وثعلبة ابن عبيد الجذامى الذى ولاه سرقسطة فيما بعد ، وعاصم بن مسلم الثقفى وهو من خاصة أنصاره يوم المسارّة . وولى قيادة عسكره مولاه بدراً ، وتمام بن علقمة ، وعبد الملك المروانى ، وثعلبة بن عبيد ، وغيرهم من خاصة عصبته ، وقد كان عبد الرحمن يتولى بنفسه قيادة الجيش ، فى معظم الوقائع والحروب التى نشبت بينه وبين خصومه كما رأينا . وولى عبد الرحمن على الكور والثغور جماعة مختارة من أصدقائه ، وذوى رحمه الوافدين عليه حسبما فصلنا فى مواضعه . وعلى الجملة فقد كانت حكومة عبد الرحمن الداخل تقوم فى البداية بالأخص على العصبية والموالاة ، وكانت عربية فى بنائها وروحها ، ولكن الخصومة المستعرة التى شهرها زعماء القبائل والبطون المختلفة على عبد الرحمن ، والثورات المستمرة التى عملوا على إضرامها من حوله ، ونكثهم المتكرر بعهودهم ، حمله على الاسترابة بالعرب والحذر منهم ، فمال عنهم إلى اصطناع الموالى والبربر ، ولاسيما بربر العُدوة (المغرب) وحشد حوله من الموالى والبربر والرقيق آلافاً مؤلفة ، لتكون له وقت الحاجة عوناً يركن إليه ويثق به . وكان ذلك قاعدة للسياسة التى سار عليها خلفاء عبد الرحمن الداخل من بعده ، والتى بلغت ذروتها فى عهد عبد الرحمن الناصر ، كما نفصل فى موضعه[1] .

وأما عن سياسة عبد الرحمن نحو رعاياه النصارى (المستعربين) ، ونحو نصارى الشمال ، فقد كانت سياسة اعتدال ومهادنة . وكان من الواضح أنه نظراً لاشتغاله المستمر بأمر الثورات الداخلية ، لم يفكر فى غزو أرض النصارى ، وأنه

(١) راجع نفح الطيب ج ١ ص ١٥٦ ، وج ٢ ص ٦٧ .

كان يرحب بعقد السلم والمهادنة معهم . وهذا الأمان الذى يقال إن عبد الرحمن أصدره لجيرانه نصارى قشتالة يؤيد هذه السياسة وهذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، كتاب أمان الملك العظيم عبد الرحمن ، للبطارقة والرهبان والأعيان والنصارى والأندلسيين أهل قشتالة ، ومن تبعهم من سائر البلدان . كتاب أمان وسلام ، وشهد على نفسه أن عهده لا ينسخ ما أقاموا على تأدية عشرة آلاف أوقية من الذهب وعشرة آلاف رطل من الفضة ، وعشرة آلاف رأس من خيار الخيل ، ومثلها من البغال ، مع ألف درع وألف بيضة ومثلها من الرماح ، فى كل عام إلى خمس سنين ، كتب بمدينة قرطبة ثلاث صفر عام اثنين وأربعين ومائة ( ٧٥٩ م ) »[١] .

وكان عبد الرحمن الداخل يتمتع بمواهب إدارية باهرة ، فاستطاع خلال الاضطراب الشامل أن يوطد دعائم الحكم والإدارة ، وأن يقمع كثيراً من ضروب الفساد والبغى ، وأن يؤيد هيبة القانون والنظام . ولما توطد سلطانه وخبا ضرام الثورة نوعاً ، استطاعت الأندلس أن تتمتع فى ظل حكومته بأمن وطمأنينه ورخاء لم تعرفها منذ بعيد ، ولو لم يُشغل عبد الرحمن طوال عهده بقمع الثورة والفتن الداخلية ، لاستطاع كأسلافه الفاتحين الأوائل ، أن يبعث الأندلس خلقاً جديداً ، وأن يجعل منها حديقة يانعة . على أنه ذلل الصعب ومهد الطريق لعقبة ، واستطاع أن يضع دعائم تلك المملكة ، التى غدت على يد بنيه أعجوبة العصور الوسطى . وينوه ابن حيان مؤرخ الأندلس بمقدرة الداخل وكفاياته الإدارية فيقول إنه «دون الدواوين ، ورفع الأواوين ، وفرض الأعطية ، وعقد الألوية ، وجند الأجناد ، ورفع العماد ، وأوثق الأوتاد ، فأقام للملك آلته ، وأخذ للسلطان عدته »[٢].

وعنى عبد الرحمن بالجيش عناية خاصة ، فحشد المتطوعة والمرتزقة من كل صوب ، وبلغت قواته مائة ألف مقاتل[٣]، هذا عدا حرسه الخاص الذى أنشأه

---

( ١ ) أورد ابن الخطيب فى كتاب الإحاطة ( مخطوط الإسكوريال ) نص هذا الكتاب ونقله عنه الغزيرى فى فهرسه . راجع Casiri : Bibliotheca Arabico-Hispana Escurialenses Vol. II. p. 104 . بيد أننا نرتاب على الأقل فى صحة الأرقام التى وردت به لضخامتها بالنسبة لموارد النصارى فى هذا العصر .

( ٢ ) نقله نفح الطيب ج ١ ص ١٥٥ .

( ٣ ) نفح الطيب ج ٢ ص ٧٤ .

من الموالى والبربر والرقيق حسبما قدمنا ويبلغ زهاء أربعين ألفاً[١] . كذلك عنى عبد الرحمن فى أواخر عهده بأمر القوات البحرية ، فأنشأ عدة قواعد لبناء السفن فى بعض الثغور النهرية والبحرية ، مثل طركونة وطرطوشة وقرطاجنة وإشبيلية وغيرها[٢]. ويقال إن عبد الرحمن الداخل لما توطد ملكه ، وكثرت قواته وعدته ، فكر فى استرداد ملك بنى أمية بالشام ، والرحيل إلى المشرق ببعض قواته ، واستخلاف ولده سليمان على الأندلس ، وأيده فى ذلك خاصة أسرته ومواليه . وكان ذلك فى سنة ١٦٣ هـ . ولكن اضطرام الثورة فى سرقسطة حال بينه وبين ذلك العزم ، وتوفى قبل أن تسنح فرصة لتنفيذه[٣]. وقد تكون هذه أمنية جالت بذهن عبد الرحمن ، ولكنا لانجد فى ظروف حياته التى انقضت كلها فى إخماد الفتن والثورات المحلية ، ما يسمح باعتبار مثل هذه الأمنية مشروعاً جدياً تتخذ العدة لتنفيذه .

واستطاع الداخل أيضاً أن يعنى بالحاضرة الأموية الجديدة أعنى قرطبة ، فحصنها وزينها بالمنشآت الفخمة والرياض اليانعة . وكان أول ما أنشأ بها فى عهده منية الرُّصافة وقصرها المنيف. وكان قصر الإمارة بناء قديماً ساذجاً يرجع إلى عهد القوط ، فرأى عبد الرحمن أن ينشئ ضاحية ملوكية جديدة ، تليق بحاضرة ملكه ، وتعيد ذكرى بهاء بنى أمية بالمشرق ، فأنشأ فى شمال غربى قرطبة قصراً فخماً تحيط به حدائق زاهرة ، وجلب إليها مختلف الغروس والبذور والنوى من الشأم وإفريقية ، وسمى تلك الضاحية الجديدة بالرُّصافة تخليداً لذكرى الرصافة التى أنشأها جده هشام بالشأم ، واتخذها مقاماً ومنتزها ومركزاً للإمارة ، وكانت حدائق الرصافة أماً لحدائق الأندلس ، ومنها انتشرت بالأندلس غروس الشام وإفريقية[٤]. وفى سنة ١٥٠ هـ بدأ عبد الرحمن بإنشاء سور قرطبة الكبير ، واستمر العمل فيه مدى أعوام[٥]. وأنشأ عبدالرحمن فى قرطبة وفى باقى مدن الأندلس مساجد محلية عديدة ، وبدأ فى أواخر أيامه (سنة ١٧٠ هـ — ٧٨٦م) بإنشاء المسجد

(١) نفح الطيب ج ٢ ص ٦٧ .

(٢) Reinaud : ibid, p. 120

(٣) نفح الطيب ج ١ ص ١٥٦ ، وج ٢ ص ٧٦ .

(٤) نفح الطيب ج ١ ص ٢١٧ .

(٥) ابن خلدون ج ٤ ص ١٢٣ .

الأموى الجامع بقرطبة ، وكان موضعه كنيسة قوطية قديمة ، وجلب إليه الأعمدة الفخمة والرخام المنقوش بالذهب واللازورد . ولكنه توفى قبل إتمامه ، فأتمه ولده هشام ، وزاد فيه من بعده ملوك بنى أمية ، حتى غدا أعظم مساجد الأندلس ، وبلغ ما أنفقه عليه الداخل وحده زهاء مائة ألف دينار (١) . وأنشأ عبد الرحمن أيضاً فى قرطبة داراً للسكة ، تضرب فيها النقود على نحو ما كانت تضرب فى دمشق أيام بنى أمية وزناً ونقشاً .

— ٣ —

وكان عبد الرحمن الأموى جواداً ، جم البساطة والتواضع ، يؤثر لبس البياض ويعتم به ، يصلى بالناس أيام الجمع والأعياد ، ويحضر الجنائز ويصلى عليها ، ويعود المرضى ، ويزور الناس ويخاطبهم ، ولم ينحرف عن هذه الديمقراطية إلا فى أواخر عهده ، حينما نصحه بعض خاصته بالترفع ، استبقاء لهيبة الملك ، والحذر من بوادر العامة وشر المتآمرين (٢) . وقد كان فى نقش خاتمه « عبد الرحمن بقضاء الله راض » و « وبالله يثق عبد الرحمن وبه يعتصم » ما ينم عن ذلك التواضع الجم (٣) ، حيث لم يتخذ لقب المظفر أو الناصر أو المنصور وما إليها .

بقى أن نتحدث عن ناحية أخرى من خلال عبد الرحمن البديعة ، هى الناحية الأدبية . كان عبد الرحمن شاعراً جيد النظم ، ناثراً فصيح البيان ، قوى الترسل ، عالماً بالشريعة ، وكان يعتبر من أعظم بنى مروان مكانة فى البلاغة والأدب (٤) . وقد انتهت إلينا بعض رسائله وفيها تبدو قوة بيانه وفيض بلاغته . ومن ذلك رسالة موجزة وجهها إلى سليمان بن يقظان حين خروجه عليه : « أما بعد ، فدعنى من معارض المعاذر ، والتعسف عن جادة الطريق ، لتمدن يداً إلى الطاعة ، والاعتصام بحبل الجماعة ، أو لألقين بنانها على رصف المعصية ، نكالا بما قدمت يداك ، وما الله بظلام للعبيد » . ومنها رسائله إلى بدر مولاه ، يزجره عن تمرده وانحرافه وقد كتب إليه حين ألحف فى طلب العفو والمنة : « لتعلم أنك لم تزل بمقتك حتى

---

(١) نفح الطيب ج ١ ص ١٥٥ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٦٠ .
(٢) نفح الطيب ج ٢ ص ٦٧ .
(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ٥٠ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ٧٦ .
(٤) البيان المغرب ج ٢ ص ٦٠ و ٦٢ ؛ ونفح الطيب ج ٢ ص ٦٩ ؛ والمراكشى فى المعجب ص ١٠ .

ثقلت على العين طلعتك ، ثم زدت إلى أن ثقل على السمع كلامك ، ثم زدت إلى أن ثقل على النفس جوارك ، وقد أمرنا بإقصائك إلى أقصى الثغر ... » . ومن أقواله لأصحابه يوم المسارّة يشحذ هممهم للقتال : « هذا اليوم هو أس ما يبنى عليه ، إما ذل الدهر وإما عز الدهر ، فاصبروا ساعة فيما لا تشتهون ، تربحوا بها بقية أعماركم فيما تشتهون »(١) .

وانتهى إلينا من نظم عبدالرحمن ما يدل على قوة شاعريته ورقة خياله . فمن ذلك قوله حين بلغه أن بعض أصدقائه يمن عليه ، ويزعم أنه لولاه لما صار الملك إليه :

سعدى وحزمى والمهنـد والقنا ... ومقادر بلغت وحال حائل
إن الملوك مع الزمان كواكب ... نجم يطالعنا ونجم آفل
والحزم كل الحزم أن لا يغفلوا ... أيروم تدبير البرية غافل
ويقول قوم سعده لا عقله ... خير السعادة ما حماها العاقل

وأشاد بعضهم أمامه بموقف الغمر بن يزيد بن عبد الملك فى مجلس عبد الله ابن على جلاد بنى أمية ، ونعيه عليه إثمه فى حقهم وسفكه لدمائهم ، وفقده لحياته ثمناً لجرأته ، فأنشد عبد الرحمن :

شتان من قام ذا امتعاص(٢) ... فشال ما قال واضمحلا
ومن غدا مصلتا لعزم(٣) ... مجرداً للعداة نصلا
فجاب قفراً وشق بحراً ... ولم يكن فى الأنام كلاّ
فبز ملكاً وشاد عزاً ... ومنبراً للخطاب فصلا
وجند الجند حين أودى ... ومصر المصر حين أجلى
ثم دعا أهله جميعاً ... حيث انتأوا أن هلم أهلا(٤)

ومن قوله فى التشوق إلى ربوع الشام ، وهو رقيق مؤثر :

أيها الركب الميمم أرضى ... أقر من بعضى السلام لبعضى
إن جسمى كما علمت بأرض ... وفؤادى ومالكيه بأرض

---

(١) راجع نفح الطيب ج ٢ ص ٦٨ — ٧٠ ، حيث يورد عدة من رسائل عبد الرحمن وأقواله .

(٢) يريد الغمر بن يزيد بن عبد الملك .

(٣) يريد نفسه أى عبد الرحمن الداخل .

(٤) هكذا يوردها المقرى ( نفح الطيب ج ٢ ص ٦٨ ) ؛ ولكن صاحب البيان المغرب يوردها بصورة أخرى ج ٢ ص ٦١ ) .

قدر البين بيننـــا فافترقنـــا     وطوى البين عن جفونى غمضى
قد قضى الله بالفـــراق علينـــا     فعسى باجتماعنا ســـوف يقضى

ورأى بروض الرصافة وهى الضاحية الجديدة التى أنشأها ، نخلة منفردة ، فأثار منظرها فى نفسه ذكرى وشجناً وأنشد(١) :

تبدت لنا وسط الرصافة نخـــلة     تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت شبيهى فى التغرب والنوى     وطول التنائى عن بنى وعن أهلى
نشأت بأرض أنت فيها غريبـــة     فمثلك فى الإقصاء والمنتأى مثلى
سقتك غوادى المزن من صوبها الذى     يسح ويستمرىء السماكين بالويل(٢)

— ٤ —

هذا ويجب أن نستعرض هنا ، وقبل اختتام الكلام على عصر عبد الرحمن الداخل ، عناصر المجتمع الأندلسى ، الذى كان خلال هذه الأحداث والخطوب التى توالت عليه منذ أيام الفتح ، قد استقر ، وأخذت جذوره فى التوطد والرسوخ ، وأخذت عناصره المختلفة ، يؤدى كل منها دوره فى غمرة الحوادث ، مستهدياً بعواطفه وأمانيه ومثله الخاصة .

وقد سبق أن أشرنا بإيجاز إلى أن المجتمع الإسلامى الذى قام فى شبه الجزيرة عقب الفتح ، كان يتألف من عناصر رئيسية ثلاثة ، هى العرب ، والبربر ، والمولدون . كما أشرنا إلى عناصر الشقاق والتفرق التى كانت تعمل فى صفوف هذا المجتمع الإسلامى الجديد .

كانت البطون العربية التى اشتركت فى الفتح ، واستقرت فى شبه الجزيرة تضطرم منذ البداية بروحها القبلى المتأصل ، ولم تستطع قط أن تتحرر من هذا

---

(١) وينسب هذا الشعر أيضاً لعبد الملك بن بشر بن عبد الملك بن مروان ، وكان من الداخلين إلى الأندلس ( راجع الحلة السيراء ص ٣٤ ) .

(٢) يورد ابن الأبار فى هذا الموطن رواية يفهم منها أن هذه النخلة هى أول نخلة غرست بالأندلس ، ومنها تولد جميع النخل بالأندلس فيما بعد ، وإذاً فيكون عبد الرحمن الداخل هو أول من نقل غراس النخيل بالأندلس فيما نقل من غراس الشام إلى الرصافة ( الحلة السيراء ص ٣٥ ) . ولكن يحق لنا أن نلاحظ أن العرب فتحوا الأندلس قبل ذلك بنحو ثمانين عاماً ، ومن قبلها فتحوا إفريقية ؛ ومن المعقول أن يكون النخل قد نقل إليها فيما نقلوا من غراس بلادهم ؛ وقد نقلوه قبل ذلك إلى مصر منذ الفتح . وإذا كان النخيل قد غرس بإفريقية عقب افتتاحها ، أفلا يكون من المرجح أنه قد نقل منها إلى الأندلس عقب افتتاحها أيضاً ؟ وقد كان أول ما عنى به العرب فى الأندلس تنظيم للزراعة وغرس الحدائق .

الروح النكد ، الذى أشاع فيا بينها عوامل الشقاق والتنابذ ، وأثار فيا بينها غير مرة ضرام الحرب الأهلية . وقد رأينا كيف عانت الأندلس فى أواخر عهد الولاة من هذه الحرب الأهلية ، التى اضطرمت بين المضرية واليمنية وبين البلديين والشاميين ، وكيف كادت تودى بسلامة الأندلس ومنعتها . ثم رأينا كيف قضى عبد الرحمن الداخل معظم عهده فى مكافحة الثورات المتعاقبة التى شهرها فى وجهه زعماء القبائل والبطون فى سبيل الاحتفاظ بسلطانهم المحلى . وهكذا كانت القبائل العربية فى الأندلس منقسمة على نفسها ، وإن كانت الرياسة قد بقيت فيها على يد الدولة الأموية الجديدة التى قامت فى شبه الجزيرة . بيد أن العرب لم يكونوا بين كتلة الأمة الأندلسية أغلبية ؛ بل كانوا بالعكس أقلية تتمثل بالأخص فى الأرستقراطية العربية التى استأثرت بمعظم مغانم الفتح ، واستولت حيناً على أزمة الحكم ، واحتلت فى شبه الجزيرة معظم البقاع الخصبة . وقد ذكر لنا ابن غالب فى « فرحة الأنفس » ، كثيراً من البطون العربية التى استقرت بالأندلس ، وبعض من كان ينتمى إليها من الأسر الأندلسية النابهة ، وذكر لنا من منازلها ، بلنسية وأوريولة وإشبيلية وغرناطة ووادى آش(١) . وكانت الأرستقراطية العربية تستقر بالأخص فى القواعد والمدن الكبيرة ، ولا سيما فى قرطبة ، وتترك العمل فى ضياعها الشاسعة للموالى والبربر ، وكان أمراء بنى أمية منذ عهد عبد الرحمن الداخل يعملون على مقارعة هذه الأرستقراطية القوية وإخضاعها ، حتى جاء عبد الرحمن الناصر ، فقضى على سلطانها السياسى والاجتماعى ، ورفع إلى مكانها الموالى والصقالبة ، ثم جاء المنصور بن أبى عامر ، فعمل على تمزيقها وتشتيتها ، وخلق أرستقراطية جديدة من البربر تقوم مكانها ، ومن ذلك الحين تغيض الأصول العربية فى شبه الجزيرة تباعاً ، وتضمحل مكانتها وأهميتها .

ويرجع انكماش العنصر العربى فى الأمة الأندلسية ، أولا إلى كونه يمثل الطبقة الممتازة وهى تكون الأقلية دائماً ، وثانياً إلى أن الهجرة العربية إلى شبه الجزيرة لم تكن هجرة غزيرة ، وقد توقفت تقريباً منذ القرن الثالث الهجرى ، ولم يكن ما ينسب للأمراء والكبراء من كثرة النسل ، لامتلاء قصورهم بالجوارى ، ؛ا يعوض هذا النقص العنصرى .

وإلى جانب الأقلية العربية الأرستقراطية ، يجب أن نذكر طائفة الموالى التى

(١) نقله المقرى فى نفح الطيب ج ١ ص ١٣٦ و ١٣٧ .

كانت تنتمى إليها أولا وتشد بأزرها، ثم انقلبت عليها فيما بعد حينما تمكنت واشتد نفوذها . وقد نمت هذه الطائفة بمر الأيام . وظهر منها كثير من القادة والزعماء النابهين ،الذين شغلوا أعظم المناصب فى الدولة وفى الجيش ، مثل بنى شُهيد ، وبنى مغيث وبنى عَبْدَة ، وبنى جهور ، وبنى بسيل ؛ وهم الذين شغلوا مناصب القيادة والحجابة أجيالا . وإلى جانب هؤلاء ، يجب أن نذكر طائفة الصقالبة الأجانب التى ظهرت أهميتها منذ أيام عبد الرحمن الداخل ، وبلغت ذروة تضخمها ونفوذها أيام عبد الرحمن الناصر . وقد كان بنو أمية يؤثرون اصطناع هؤلاء الموالى والإفادة من عونهم وتأييدهم . .

وأما العنصر الثانى الذى كانت تتكون منه الأمة الأندلسية فهو عنصر البربر . وقد قام البربر حسبما رأينا بأكبر قسط فى فتح الأندلس ، وفى الغزوات التى اضطلعت بها الجيوش الإسلامية فيما وراء البرنيه . وكانوا فى معظم الأحيان أغلبية فى تلك الجيوش ، وإن كانت القيادة قد لبثت على الأغلب فى أيدى القادة والضباط العرب . وكانت هجرة القبائل البربرية إلى شبه الجزيرة أسرع وأشد كثافة من هجرة العرب ، أولا لقرب منازلهم فى العدوة من شبه الجزيرة ، وثانياً لشعورهم بما كان لهم من فضل فى أعمال الفتح ، وثالثاً لما كان يحفزهم من آمال فى البحث وراء طالعهم فى هذا القطر الجديد ، الذى كانت وديانه الخضراء تجذبهم من بواديهم المقفرة . وقد استمرت هجرة البربر على هذا المنوال أجيالا ، بينما كانت هجرة العرب من منازلهم البعيدة فى شبه الجزيرة العربية وفى الشام بطيئة محدودة أضف إلى ذلك ما عمد إليه أمراء بنى أمية ، منذ عهد عبد الرحمن الداخل من اصطناع البربر إلى جانب الموالى والصقالبة ، والاستعانة بهم فى تدعيم سلطانهم ، لاسترابتهم بالقبائل العربية . وقد بلغت هذه السياسة كما سنرى فيما بعد ذروتها فى عهد المنصور بن أبى عامر ، حيث انثالت القبائل البربرية على شبه الجزيرة ، واحتل زعماؤها معظم المناصب الكبيرة ، وأضحى سواد الجيش مؤلفاً منها . وقد كانت معظم البطون البربرية المهاجرة تنتمى بالأخص إلى زناتة ومصمودة ومكناسة ونفزة والبرانس ، واشتهرت من هـذه البطون بالأخص ، مدغرة ومديونة ومكناسة وهوارة . ومنها خرج فيما بعد أمراء كثير من القواعد والثغور ، وقامت من بينها ممالك من دول الطوائف . وقد كان البربر أكثرية فى الشمال الغربى ، وفى وسط الأندلس فى منطقة جبال المعدن ( أو جبال البرانس ) ، وفى أراضى السهلة

ووادى الحجارة ، ومنطقة شرقى إشبيليه والفرنتيرة ، وهى مناطق تمتاز على الأغلب بهضابها الوعرة ، وهو ما كان يشجع البربر فى أحيان كثيرة على الثورة ومقاومة الحكومة المركزية للمحافظة على استقلالهم المحلى[1] .

والعنصر الثالث الذى كانت تتكون منه الأمة الأندلسية هو عنصر المولدين ، وهم القوط والإسبان الذين أسلموا منذ الفتح ، ودخلوا حظيرة المجتمع الإسلامى إلى جانب زملائهم العرب والبربر ، مؤثرين أن يتمتعوا فى ظل الإسلام بمزايا المساواة والثقة ، والتحرر من القيود والأعباء التى تلاحق الذميين . ويعرف أولئك المولدون فى الإسبانية بالخوارج أو المرتدين Renegados ، أى الذين ارتدوا عن دينهم القديم ، وهو النصرانية ، ويسمون أحياناً بالمسالمة أو بالأسالمة ، أو أسالمة أهل الذمة ، متى كان إسلامهم حديثاً . وكان المولدون يكونون بين السكان كتلة كبيرة ربما كانت الأغلبية ، وقد كان إسلامهم سريعاً ، ولم يأت جيل أو اثنان حتى استطاعوا الاندماج فى المجتمع الإسلامى ، وأضحى من الصعب تمييزهم من المسلمين الأصليين ، وغدوا بمضى الزمن عنصرا من أهم عناصر السكان إن لم يكن أهمها جميعاً ، سواء من حيث الكثرة أو المستوى الاجتماعى والحضارى .

وإلى جانب هذه العناصر الأساسية الثلاثة ؛ التى كانت تتكون منها الأمة الأندلسية ، كان ثمة عنصران آخران هما المستعربون أو النصارى المعاهدون Mozárabes وهم النصارى الذين آثروا الاحتفاظ بدينهم القديم ، ولبثوا يعيشون فى المدن والأراضى المفتوحة تحت الحكم الإسلامى ، وقد كانت منهم ثمة أقليات كبيرة فى بعض المدن مثل طليطلة وقرطبة . واليهود ، وقد رأينا كيف ساعدوا الفاتحين المسلمين وقت الفتح ، وتعاونوا معهم فى حفظ المدن المفتوحة وإدارتها ، وقد كانت منهم أقليات فى معظم المدن الأندلسية ، تتمتع بحماية الحكومات الإسلامية ورعايتها . وقد ازدهرت هذه الأقليات اليهودية فيما بعد ، وظهرت منها شخصيات بارزة تولت مناصب كبيرة فى الدولة ، وغلب نفوذها فى بعض المناطق ، كما حدث فى مملكة غرناطة البربرية ، وظهرت كذلك فى ميدان العلوم والآداب ، ونبغ منها علماء نابهون مثل ابن ميمون وغيره .

تلك هى العناصر المختلفة التى كانت تتألف منها الأمة الأندلسية . وسوف نعود من آن لآخر إلى التحدث عن هذه العناصر فى مختلف المواطن والمناسبات .

---

(١) يحدثنا ابن حزم تفصيلا عن منازل البربر فى الأندلس . راجع جمهرة أنساب العرب (القاهرة) ص ٤٦٣ – ٤٦٧ .

# الفصل السابع

## المملكة النصرانية الشمالية

### منذ قيامها إلى ولاية ألفونسو الثانى

بعث المملكة النصرانية فى الشمال . اجتماع فلول النصارى فى الهضاب الشمالية . الدوق بتروس وبلاجيوس . نشوء المملكة النصرانية . صمت إيزيدرو الباجى عن ذكرها . أقوال الرواية الإسلامية . إمارة جليقية والصخرة . رأى لابن خلدون فى شأنها . إغفال الفاتحين لأمرها . حملات المسلمين عليها . ارتدادهم عن تلك الهضاب . اجتماع النصارى حول بلاجيوس . حملة ابن أبى نسعة على جليقية . إغارة النصارى على الأراضى الإسلامية . غزو عقبة بن الحجاج لجليقية . نمو المملكة النصرانية . وفاة بلاجيوس . ولده فافيلا . إمارة كانتابريا . تحالفها مع جليقية . اتحادهما تحت ولاية ألفونسو الأول . ألفونسو الأول أو الكاثوليكى . اجتياحه للأراضى الإسلامية . استيلاؤه على أسترقة . أخوه فرويلا أمير كانتابريا . استيلاء ألفونسو على مدينة لك . حملة يوسف الفهرى لإنقاذ أربونة . القتال بينه وبين البشكنس . عبور ألفونسو لنهر دويرة . وفاة فرويلا . وفاة ألفونسو . فرويلا الأول . استيلاؤه على شلمنقة وشقوبية وسمورة وقشتالة . اختلاف الرواية الإسلامية فى تاريخ هذه الغزوة . خطر المملكة النصرانية . عبد الرحمن الأموى يرسل حملة إلى جليقية . غزو ألبة والقلاع . ما تقوله الرواية النصرانية عن موقعة بونتومو . ثورات النصارى على فرويلا . غزوه لنافار . بعاشه وسفكه . إنشاؤه لمدينة أوبييدو . وفاته . انقسام المملكة . ولاية أورليوس للولايات الشرقية . ولاية سيلو للولايات الغربية . وفاة أورليوس . ولاية سيلو على المملكة كلها . الصلح بينه وبين المسلمين . وفاة سيلو . اضطراب المملكة . قيام مورجات ولد ألفونسو الأول . فرار ألفونسو ابن فرويلا إلى ألبة . تحالف مورجات مع المسلمين . أقوال الرواية الإسلامية . وفاة مورجات . ولاية برمند الأول لجليقية . تحالفه مع ألفونسو . تخلى برمند وولاية ألفونسو على المملكة كلها . أسطورة القديس يعقوب وقيام مدينة شنت ياقب . عزلة المملكة الشمالية . خواص مجتمعها .

نقف الآن قليلا فى تتبع أخبار دولة الإسلام فى الأندلس ، لنأتى على أخبار دولة متواضعة أخرى ، قامت فى اسبانيا إلى جانب الدولة الإسلامية فى نوع من الخفاء والصمت ، ولم يشعر المسلمون بمولدها ولا نموها فى أعوامها الأول ، ولم يقدروا أهميتها حين شعروا وجودها ، ولم يعنوا بأمرها إلا حينما نمت وانتظمت إلى قوة تستطيع العدوان والمقاومة : تلك هى المملكة الإسبانية النصرانية التى يجب أن تأخذ منذ الآن مكانها فى تاريخ شبه الجزيرة ، إلى جانب دولة الإسلام فيها . ولم يكن قيام هذه المملكة الناشئة ، سوى طور جديد فى حياة تلك المملكة

القوطية التى سحقها العرب عند فتح الأندلس ( ٩٢ هـ — ٧١١ م ) ، والتى قامت بعد ذلك تستأنف حياتها ضئيلة متواضعة ، فى قاصية اسبانيا الشمالية الغربية وفيما وراء الصخر ، ثم لبثت تنمو بطيئة ولكن ثابتة ، حتى رسخت دعائمها فى هاتيك الهضاب ، وبدأت بعد ذلك معركة الحياة والموت ، مع تلك المملكة الإسلامية التى قامت فى الجنوب ، على أنقاض مملكة القوط القديمة ، وهى معركة تشغل منذ الآن حيزاً كبيراً فى تاريخ الإسلام فى اسبانيا .

وقد نشأت المملكة الإسبانية النصرانية فى ظروف كالأساطير ، ونشأت فى نفس الوقت الذى افتتح فيه العرب اسبانيا ، وسحقوا دولة القوط القديمة . ففى موقعة شَريش التى مزق فيها جيش القوط وقتل آخر ملوكهم ردريك ( لذريق ) ( ٩٢ هـ ) ، فرت شراذم قليلة من الجيش المنهزم إلى الشمال ، واختفت فيما وراء تلك الجبال الشمالية ، التى وقف عندها تيار الفتح الإسلامى ، واجتمعت بالأخص فى هضاب كانتاريا (ناڤار وبسكونية) فى الشرق ، وفى هضاب أشتوريش[1] فى الغرب ، واجتمع فل النصارى فى الهضاب الشرقية تحت لواء زعيم يدعى الدوق پتروس ، واجتمع فلّهم فى الهضاب الغربية فى جليقية تحت لواء زعيم يدعى پلاجيوس أو پلايو . وكان پتروس ينتمى إلى أحد الأصول الملكية ، وكان من قادة الجيش فى عهد وتيزا ملك القوط ، ثم فى عهد خلفه ومغتصب ملكه ردريك . أما پلاجيوس أو پلايو فيحيط الغموض بأصله ونشأته ، ولكن يبدو مما تنسبه إليه الرواية من ألوان الوطنية والبسالة والبطولة ، أنه كان رفيع المنبت والنشأة ، وتقول بعض الروايات إنه ولد الزعيم فاڤيلا[2] الذى قتل الملك وتيزا فى هضاب جليقية ، وإنه كان لذلك من خاصة الملك ردريك وقادته . وهذا ما ردده سيمونيت إذ يقول فى أصل پلاجيوس ما يأتى ؛ « وكان الحزب المتمسك بدينه ووطنه ، المنكر لخيانة أولاد وتيزا ، قد اختار له رئيساً رفيع المواهب هو الدون پلايو بن فاڤيلا ، من سلالة القوط الملكية . ويقول البعض إنه ولد من يدعى ڤرمندو ، وحفيد للملك ردريك ، وقد حارب إلى جانب ردريك . ثم رأى فيه الأحبار والأكابر الذين التفوا حوله ، أنه جدير بالعمل على إحياء مملكة

---

(١) فى الجغرافية الحديثة « أستورية » Asturias

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٧٦ ، حيث يقول « وملكوا عليهم ( أى الجلالقة ) بلاى ابن فافلة »

القوط»[١]. وتعرف الرواية الإسلامية بلايو وتحدثنا عنه وتسميه ( بلاى ) ، وتصفه أحياناً بأنه أمير أو ملك، وتنعته غالباً بأنه « علج من علوج النصارى »[٢] وتتبع أخباره مع المسلمين ، ولكنها لا تلقى ضياء كثيراً على أصله أو أحوال مملكته الصغيرة . ذلك لأن المسلمين لم ينفذوا قط إلى ما وراء الهضاب الوعرة ، التى امتنع بها هذا الزعيم وفله ، والتى نشأت فيها جذور المملكة النصرانية الشمالية ، التى غدت غير بعيد خطراً على دولة الإسلام فى اسبانيا . ومن الغريب أن راوية نصرانياً كبيراً معاصراً هو إيزيدور الباجى ، وهو حبر عاصر الفتح الإسلامى ، وكتب روايته منذ منتصف القرن السابع ، ووصل فى كتابتها حتى سنة ٧٥٤ م[٣]، لم يذكر لنا فى روايته شيئاً عن قيام تلك المملكة النصرانية الصغيرة فى الشمال ، ولا عن زعيمها أو ملكها بلايو ، ولا عن غزوات المسلمين لها ، مع أن إيزيدور يتتبع أخبار الغزوات الإسلامية كلها ، منذ الفتح حتى منتصف القرن الثامن ، سواء فى اسـبانيا أو فى مملكة الفرنج ، ويقدم إلينا عنها كثيراً من التفاصيل والملاحظات الهامة . وقد يرجع ذلك إلى أن إيزيدور وهو يقيم فى الجنوب فى مدينة باجة ، كان يجهل قصة هذه المملكة النصرانية الناشئة ، ولكن ما نراه من عنايته بتدوين أخبار الغزوات الإسلامية فى فرنسا ، وأخبار مملكة أكوتين ، يحملنا على الاعتقاد بأنه لم يكن يجهل أخبار مملكة جليقية النصرانية ، وهى أقرب إليه من فرنسا ، وأن أسباباً أخرى لعلها ترجع إلى انتماء أميرها بلايو إلى حزب ردريك الذى كان يبغضه المؤرخ ، هى التى حملته على إغفال أخبارها[٤].

وعلى أى حال فإن الرواية الإسلامية ، تذكر لنا كيف نشأت المملكة النصرانية

---

( ١ ) F.J. Simonet cit. Saavedra ; Historia de los Mozarabes de Espana, Vol. I. p. 148. ويقول المؤرخ المستشرق كاردون إن بلاجيوس ينتمى إلى أصل ملكى ، وانه الأمير الوحيد الذى نجا من فتك العرب ( راجع Cardonne : ibid , I. p. 105. ) ، بيد أن كاردون لا يقول لنا من أين استقى هذه الرواية .

( ٢ ) راجع أخبار مجموعة ص ٢٨ ، ونفح الطيب ج ١ ص ١١٠ .

( ٣ ) وقد كتبت باللاتينية بعنوان Isidorus Pacensis Chronicon . ونشرت ضمن المجموعة التاريخية الكنسية الإسبانية الكبيرة المسماة Espana Sagrada تصنيف الأب P. Enrique Florez . الجزء الثامن . ونشر دوزى منها مقتطفات فى كتابه : Recherches : V.I. p. 4-14 مع تعليقات .

( ٤ ) راجع : Aschbach : ibid, I. p. 142

الإسبانية فى الهضاب الشمالية ، بعد أن سحقت فى موقعة شريش فقد لجأت شراذم قليلة من القوط عقب الفتح إلى الجبال الشمالية ، وامتنعت فى مفاوز جبال أشتوريش (أستورية) ، وقامت إمارتان نصرانيتان صغيرتان فى كانتاريا وجلِّيقية . وكانت إمارة كانتاريا التى أسسها الدوق بترُوس ، لوقوعها فى الطرف الغربى من جبال البرنيه فى سهول نافار وبسكونية ، عرضة لاقتحام الفاتحين لها حين سيرهم إلى فرنسا وحين عودهم منها . ولكن إمارة جلِّيقية Galicia ، كانت تقع فى أعماق جبال أشتوريش الوعرة ، بعيداً عن غزوات الفاتحين . وسميت جليقية لأنها قامت على حدود الولاية الرومانية القديمة التى كانت تسمى بهذا الإسم .

ففى هذه الهضاب النائية المنيعة اجتمع پلايو وصحبه ، وعددهم لا يتجاوز بضع مئات حسبما تقول الرواية ، ولجأوا إلى مغار عظيم فى آكام كوڤادنجا ، تحيط به وديان سحيقة خطرة ، ويعرف فى الرواية الإسلامية باسم (الصخرة)[1]. ويقول لنا ابن خلدون فى الفصل الذى يخصصه (لملوك الجلالقة) ، إن هذه الإمارة الصغيرة التى كانت مهد المملكة النصرانية ، لاتمت بصلة إلى القوط ، وإن ملوك الجلالقة ليسوا من القوط ، لأن أمة القوط كانت قد بادت ودثرت لعهد الفتح الإسلامى[2]. بيد أنه يصعب علينا أن نقبل هذا الرأى على إطلاقه ، فمن المحقق أن فلول النصارى التى لجأت إلى الشمال كانت مزيجاً من القوط والإسبان المحليين ، ولكن الظاهر مما انتهى إلينا من أقوال الروايتين المسلمة والنصرانية ، أن الزعماء ولاسيما پلاجيوس كانوا من القوط ، وأن ملوك الجلالقة يمتون إلى القوط بأكبر الصلات .

ولم يعن المسلمون لأول عهد الفتح بأمر هذه الشراذم الممزقة عناية كافية . وكان فاتحا الأندلس موسى وطارق ، قد قاد كل منهما حملة إلى جليقية لسحق البقية الباقية من فلّ القوط ، ولكنهما لم يتمكنا من تحقيق غايتهما لاستدعائهما إلى دمشق كما أسلفنا . وكان إغفال أمر هذه الفلول الباقية بعد ذلك من أعظم أخطاء الفاتحين . بيد أنه لما كثرت ثورات النصارى فى الشمال ، وبالأخص فى بسكونية (أو بلاد البشكنس) ، اهتم ولاة الأندلس بقمعها وتأمين الولايات الشمالية ،

---

(١) نفح الطيب ج ٢ ص ٥٧ .

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٧٩ ، وهو يعارض هنا رأى ابن حيان فى أن المملكة النصرانية يرجع أصلها إلى القوط .

وسير الحرُّ بن عبد الرحمن الثقفى والى الأندلس فى سنة ٩٨ هـ ( ٧١٨ م ) جيشاً إلى الشمال لإخضاع النصارى ، فاجتاح المسلمون بلاد البشكنس وهضاب أشتوريش ، وأوفدوا حليفهم الأسقف أوپاس وهو أخو الملك وتيزا إلى پلايو ليقنعه بالتسليم وعبث المقاومة ، فأبى پلايو ولجأ إلى كهوفه المنيعة فى صخرة كوڤادنجا ، ونفذ المسلمون إلى أعماق الجبال وحاولوا عبثاً أن يستولوا على مراكز العدو ، وحالت بينهم وبينه الوديان السحيقة والآكام الرفيعة ، وحوصر پلايو وأصحابه فى « الصخرة » مدى حين ، وقطعت عنهم المؤن ، وتساقطوا تباعاً من الجوع ، حتى لم يبق منهم على قول الرواية سوى ثلاثين رجلا وعشر نساء(١). وتزعم بعض الروايات النصرانية أن پلايو كر على المسلمين ، وأنهم هزموا هزيمة شديدة وفقدوا ألوفاً كثيرة ، ووقع أوپاس فى أيدى مواطنيه فعاقبوه على خيانته بالموت(٢) .

وقد أتيح لنا أن نزور هذه المنطقة الوعرة — منطقة كوڤادنجا — وأن نشهد الصخرة المنيعة ، التى تقول الرواية إن پلايو وأصحابه امتنعوا فى مغارها ، والتى تثوى فى جانب منها إلى اليوم رفات پلايو . والحق أننا شهدنا من الوادى الذى تشرف عليه الصخرة ، والذى يقال إن المسلمين رابطوا فيه لمحاصرة النصارى ، أروع منظر يمكن تصوره من الصخور الوعرة ، والآكام الرفيعة المدببة ، وأدركنا كيف عجز المسلمون عن اقتحام مثل هذا المعقل المنيع .

ولما رأى المسلمون وعورة الهضاب وقسوة الطبيعة ، ارتدوا عن جلّيقية محتقرين شأن هذه الشرذمة الممزقة الجائعة . فقويت لذلك نفس پلايو وأصحابه ، وانضم إليهم كثير من النصارى فى كانتابريا وسهول جليقية ، واختاروه ملكاً عليهم لما رأوا من بسالته وبراعته وقوة عزمه ، وألفى پلايو الفرصة سانحة لتوطيد سلطانه وتوسيع أملاكه ، فأخذ يغير على الأراضى الإسلامية الشمالية ، وبدا لحكومة الأندلس خطر هذه العصابات الجبلية التى أخذت تنتظم إلى قوة يخشى بأسها . ولكن اضطراب الشئون الداخلية حال مدى حين دون مطاردتها وغزوها .

وفى سنة ١١٢ هـ ( ٧٣٠ م ) فى عهد أمير الأندلس الهيثم بن عبيد ، بعث حاكم ولاية البرنيه وهو يومئذ الزعيم المسلم الذى تعرفه الرواية النصرانية باسم

---

( ١ ) أخبار مجموعة ص ٢٨ ؛ وكذلك Dozy : Hist, II. p.129

( ٢ ) Cardonne : ibid , I. p. 109, Aschbach : ibid; I. p. 145

منوسة أو مونس — جيشاً إلى جبال أشتوريش لغزو جليقية وسحق أميرها بلايو . ولكن بلايو استطاع أن يصمد للمسلمين كرة أخرى ، وأن يهزمهم هزيمة شنيعة . ولما رأى بلايو منعة معقله وقوة عصبته ، اخترق بسكونية وهاجم قوات المسلمين فى الوقت الذى كانت تتأهب فيه للسير إليه ، ومزق بعض وحداتها ، ثم ارتد إلى هضابه فاستعصم بها . ولما اضطربت شئون الأندلس بعد مقتل أميرها عبد الرحمن الغافقى وارتداد جيشه فى بلاط الشهداء ( ١١٤ ﻫ — ٧٣٢ م ) ، وشغل الولاة برد جيوش الفرنج ، عن الأراضى الإسلامية فى سبتمانيا ، كثرت غارات العصابات الجليقية على الأراضى الإسلامية فى شمال نهر دويرة ( دورو ) وفى منطقة أسترقة ، وعانى المسلمون فى تلك الأنحاء كثيراً من عيث النصارى . ولما تولى عقبة بن الحجاج حكومة الأندلس فى سنة ١١٦ ﻫ (٧٣٤ م ) ، ورأى خطر العصابات الجليقية وشدة عيثها فى الأراضى الإسلامية ، سار إلى جليقية وغزاها مرة أخرى فى سنة ٧٣٥ أو ٧٣٦ م ( ١١٨ ﻫ ) واستولى على بعض مواقعها ، ولكن النصارى امتنعوا كعادتهم فى الجبال ولم يبلغ عقبة منهم أمراً . ولما اضطرمت الأندلس بالفتن ونشبت الحرب الأهلية ، بين مختلف الزعماء والقبائل ، ازداد النصارى جرأة وتحرشاً بالمسلمين وعيثاً فى أراضيهم ، ولم تستطع حكومة قرطبة أن تسعفهم بالعون والمدد لاشتغالها بالشئون الداخلية . وكانت سلطة الحكومة المركزية ضعيفة فى تلك الأنحاء النائية ، وكان سكانها ومعظمهم من البربر ، يكثرون من الخروج والثورة سخطاً على العرب ، واستئثارهم بالحكم والسيادة . وكان النصارى من رعايا حكومة قرطبة ، يدسون الدسائس ويرتكبون شتى الخيانات ، ويشجعون بذلك بلايو وعصبته على الإغارة والعيث فى أراضى المسلمين ، وكانت الإمارة النصرانية الناشئة تنمو خلال ذلك ويشتد ساعدها ، ويهرع النصارى إلى لواء بلايو من مختلف الأنحاء .

ويقول العلامة ألتاميرا : « كان كفاح بلايو وزملائه الأشراف يرجع إلى الرغبة فى استرداد جزء من الأراضى المفقودة ، ومن جهة أخرى فإن احترام الفاتحين لدين المغلوبين وعاداتهم ، لم يجعل فى البداية للمعركة لوناً دينياً أو عنصرياً ، بل كان مدارها من جانب الأشراف ورجال الدين ، استرداد الأملاك وشىء من هيبة الملك »(١) .

---

R. Altamira :Historia de Espana, Vol. I. p. 224 (١)

واستمر پلايو فى حكم إمارة جليقية زهاء تسعة عشر عاماً ، وتوفى سنة ٧٣٧ م . ولكن بعض الروايات النصرانية تضع تاريخ وفاته بعد ذلك ، فتقول إنه لبث حتى ولاية عبد الرحمن بن يوسف الفهرى للأندلس (١٢٧ — ١٣٧ ﻫ) (٧٤٥ — ٧٥٥ م) ، وأن الموقعة التى نشبت بين منوسة وپلايو كانت بين سنتى ٧٤٦ و ٧٥١[1] ، وهى رواية ظاهرة الضعف ، لأن منوسة قتل فى سنة ١١٤ ﻫ ( ٧٣٢ م ) كما قدمنا ، والرواية الإسلامية واضحة دقيقة فى ترتيب الوقائع والتواريخ فى هذا الموطن . وخلف پلايو ولده فاڤيلا ، ولكنه توفى بعد حكم لم يطل أمده سوى عامين ( سنة ٧٣٩ م ) . وكان الدوق پتروس أمير كانتاريا قد توفى فى ذلك الحين أيضاً ، وخلفه ولده ألفونسو دوق كانتاريا ، ونمت هذه الإمارة النصرانية الصغيرة أيضاً واشتد ساعدها ، وقويت أواصر التحالف بينها وبين جليّقية بتزوج أميرها ألفونسو من ابنة پلايو واسمها أرموزندة أو هرمزندة . فلما توفى فاڤيلا ولد پلايو ، اختار الجلالقة ألفونسو دوق كانتاريا ملكاً عليهم ، واتحدت الإمارتان ، وقامت منهما مملكة نصرانية واحدة ، هى مملكة ليون النصرانية أو مملكة جليّقية فى الرواية الإسلامية ، وتمتد من بلاد البشكنس شرقاً إلى شاطئ المحيط غرباً ، ومن خليج بسكونية شمالا إلى نهر دويرة جنوباً ، وتشمل مناطق شاسعة من القفر والهضاب الوعرة ، وتحتجب وراء الجبال بعيدة عن سلطان المسلمين وغزواتهم[2] .

ويعتبر ألفونسو دوق كانتاريا ، أو ألفونسو الأول الملقب بالكاثوليكى مؤسس المملكة النصرانية الشمالية ، وأصل ذلك الثبت الحافل من ملوك قشتالة[3] ، الذين لبثوا قروناً يدفعون حدودهم إلى الجنوب تباعاً فى قلب المملكة الإسلامية ، ثم انتهوا بالقضاء عليها والاستيلاء على غرناطة آخر معاقلها ( ١٤٩٢ م ) . وحكم ألفونسو فى ظروف حسنة ، فقد كانت الحرب الأهلية تمزق الأندلس ، وكان أمر الولايات الشمالية فوضى ، والضعف يسود المسلمين فى تلك الأنحاء ، وكان ثمة منطقة عظيمة من القفر والخراب تفصل بين جليقية وبين الأراضى الإسلامية ، فاجتاحها ألفونسو بجموعه ، وقتل من بها من المسلمين القلائل ، ودفع النصارى

---

( ١ ) Aschbach : ibid , I. p. 148—149

( ٢ ) Dozy : Hsit., V. II. p. 130 و Aschbach : ibid , I. p. 152

( ٣ ) ابن خلدون ج ٤ ص ١٧٩ .

إلى الشمال . ولما حل القحط بالأندلس ( سنة ١٣٣ هـ — ٧٥٠ م ) واشتد عصفه بالولايات الشمالية الغربية ، جلا كثير من المسلمين عن تلك الأنحاء ، واشتد ساعد النصارى فيها ، ورفعوا لواء الثورة ، وفتكوا بالمسلمين ، ونادوا بألفونسو ملكاً عليهم[1] ، وانتهز ألفونسو الفرصة فغزا أسْتُرقة واستولى عليها من يد المسلمين ، واستولى على كثير من البلاد والضياع المجاورة ، وضمها لأملاكه ( ١٣٦ هـ — ٧٥٣ م ) . وهكذا نمت تلك المملكة النصرانية التى نشأت فى ظروف كالأساطير واتسعت حدودها ، واشتد بأسها بسرعة مدهشة ، ولم يأت منتصف القرن الثامن حتى بدأت تناهض الإسلام فى الأندلس وتغالبه ، وتغير على معاقله وأراضيه .

وعهد ألفونسو بإمارة كانتابريا وهى القسم الشرقى من مملكته ، إلى أخيه فرويلا ( أو فرويلة ) ، فكان يغير أيضاً على الأراضى الإسلامية المجاورة ، ويعيث فيها قتلا ونهباً وسبياً ، ثم يعود مسرعاً إلى الجبال خشية أن يلحق به المسلمون . بيد أن المسلمين كانوا يومئذ فى شغل شاغل من الفتنة والحروب الداخلية ، وكان يوسف بن عبد الرحمن الفهرى أمير الأندلس يعنى يومئذ بقمع الثورة فى الشمال ، فانتهز ألفونسو تلك الفرصة وغزا مدينة لُك (لوجو) الحصينة وهى أقصى معاقل المسلمين فى الشمال الغربى وافتتحها ( سنة ١٣٧ هـ — ٧٥٤ م ) ، وكان يوسف قد انتهى من إخماد الثورة فى الشمال ، وأراد إنجاد المدينة المحصورة ، فجاءته الأنباء بمقدم عبد الرحمن الأموى ، فهرول إلى الجنوب وترك لُك لمصيرها . وكان أيضاً قد أرسل قبل أن يغادر الشمال قوة من جنده بقيادة الحصين بن الدجن وسليمان بن شهاب لإنجاد ثغر أربونة ، الذى كان يحاصره الفرنج يومئذ ، ففاجأها النصارى قبل أن تعبر البرنيه ، ونشبت بين الفريقين معركة مزق فيها المسلمون وقتل قائدهم سليمان بن شهاب ، وارتد فلهم إلى الجنوب ( سنة ٧٥٦ م )[2] . والظاهر أن الذى هاجم المسلمين فى تلك الموقعة هو فرويلا وحلفاؤه أو رعاياه البشكنس . وعبر ألفونسو نهر دويرة (دورو) غير مرة ، وعاث فى أراضى المسلمين مراراً ، وكان يقتل كل من وقع فى يده من المسلمين ، ويسوق النصارى معه إلى الشمال . ولبث مع أخيه فرويلا كلٌّ يعمل من جانبه على توسيع المملكة

---

( ١ ) أخبار مجموعة ص ٦١ و ٦٢ .

( ٢ ) راجع ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٥٨ ؛ وكذلك Aschbach : I. ibid ; I.p. 155 والهوامش .

النصرانية ، حتى توفى فرويلا سنة ٧٦٤ م ( ١٤٦ هـ ) ، وتولى أخوه ألفونسو من بعده حكم المملكة كلها ، ولكنه لم يعش طويلا ، وتوفى فى العام التالى (٧٦٥م )[١] فخلفه ابنه فرويلا الأول . وكان عبد الرحمن الأموى يكرس كل جهوده وقواه لقمع الثورة الخطيرة التى نظمها العلاء بن مغيث باسم الدعوة العباسية ، فرأى فرويلا الفرصة سانحة لغزو الأراضى الإسلامية[٢] فعبر نهر دويرة فى جيش ضخم وغزا لُك وبُرتقال وشلَمنقة وشقَوبية وآبلة وسمّورة وقشتالة[٣] ، واستولى عليها من المسلمين ، وعاث فى تلك المنطقة سفكاً وتخريباً وضمها إلى أملاكه ، فصارت جزءاً من مملكة جلّيقية ، حتى استعادها المسلمون بعد ذلك بنحو قرنين فى عهد الحاجب المنصور . وتختلف الرواية الإسلامية فى تعين تاريخ هذه الغزوة فيضعها ابن الأثير قبل ذلك بأعوام فى حوادث سنة ١٤٠ هـ ( ٧٥٨ م ) ويقول إن الذى قام بها هو تدويلية ( تدڤيليا ) ابن أذفنش (ألفونسو ) ، ولكن ألفونسو توفى بعد ذلك كما رأينا[٤] ، ويضعها ابن خلدون بعد سنة ١٤٢ هـ وهى التى يعينها تاريخاً لوفاة ألفونسو ، فى عهد فرويلا ، وقد تولى فرويلا الملك بعد وفاة أبيه حسبما تقول الرواية النصرانية فى سنة ٧٦٥ م (١٤٧ هـ)[٥]. وعلى أى حال فقد كانت هذه الغزوة أعظم فتح قام به النصارى يومئذ فى الأراضى الإسلامية ، بعد افتتاح الفرنج لسبتمانيا واستيلائهم على أربونة أمنع مواقع ولاية « الثغر » قبل ذلك بأعوام قلائل .

وهنا ظهر خطر المملكة النصرانية واضحاً جلياً . ولم يكن عبد الرحمن الأموى بغافل عن ذلك الخطر ، وكان رغم اشتغاله المتواصل بقمع الثورة والفتن الداخلية ، يتحين الفرص لدرئه ، ففى سنة ١٤٨ هـ ( ٧٦٦ م ) أرسل بعض قواده إلى

---

( ١ ) يضع ابن خلدون (ج ٤ ص ١٨٠ ) وفاة ألفونسو(أدفونش) فى سنة ١٤٢ هـ (٧٦٠م) .

( ٢ ) ينسب أشباخ هذه الغزوة لفرويلا الكبير ( ج ١ ص ١٥٦ ) معتمداً على رواية ردريك الطليطلى ، ولكن الرواية الإسلامية وهى أقدم من ذلك ، تجمع على أنها وقعت بعد ذلك فى عهد فرويلا ابن الفونسو .

( ٣ ) تراجع الأسماء الفرنجية لهذه الأماكن فى جدول الأعلام التاريخية والجغرافية الملحق بنهاية الكتاب .

( ٤ ) ابن الأثير ج ٥ ص ١٨٦ .

( ٥ ) ابن خلدون ج ٤ ص ١٢٢ و ١٨٠ ؛ وكذلك المقرى عن ابن حيان فى نفح الطيب ج ١ ص ١٥٥ .

الشمال على رأس قوة كبيرة ، فسارت حتى حدود جليقية ، واشتبكت مع النصارى والعصاة فى عدة مواقع ، وعادت مثقلة بالغنائم والأسرى[1]. وفى سنة ١٥٠ هـ ( ٧٦٧ م ) بعث عبد الرحمن جيشاً بقيادة مولاه بدر إلى ألبة والقلاع [2]، وهى المنطقة الواقعة بين بلاد البشكنس وجبال كانتابريا ، على ضفاف نهر إيبرو فى الطرف الشرقى من مملكة جليقية ، فغزاها وتوغل فيها وأرغمها على أداء الجزية ، وقبض على كثير من العصاة فى تلك الأنحاء[3] . وتقص الرواية النصرانية علينا بعد ذلك نبأ موقعة كبيرة وقعت بين المسلمين والنصارى فى بونتومو من أعمال جليقية ، وتقول لنا إن عبد الرحمن أرسل فى سنة ٧٧٣ م ( ١٥٧ هـ ) جيشاً كبيراً إلى الشمال بقيادة حاجبه عامر ، أو تمام بن علقمة على يظهر ، فلقيه النصارى بقيادة فرويلا فى بونتومو ، ونشبت بين الفريقين موقعة هائلة ، هزم فيها المسلمون وقتل منهم عدد عظيم تقدره الرواية بأربعة وخمسين ألفاً وأسر قائدهم[4]. ولم تشر الرواية المسلمة إلى أن موقعة بهذه الخطورة نشبت بين المسلمين والنصارى ، ولاسيا فى هذا التاريخ ، الذى كان عبد الرحمن مشتبكا فيه مع الدعى الفاطمى فى معارك تقتضى كل جهوده وموارده ، والرواية النصرانية تبدى كعادتها فى هذا الموطن مبالغة تسبغ عليها كبير ريب .

وكان فرويلا طاغية شديد البطش ، ولم يكن حكمه موفقاً ، فقد اضطرمت فى جليقية الغربية نار ثورة كبيرة أيدها المسلمون فيما يظهر ، وأخمدها فرويلا بعد جهد ، ولكنه فقد كثيراً من أرضه التى افتتحها فى تلك الأنحاء ، وعادت إلى

---

( ١ ) Conde : Ibid , I. p. 207

( ٢ ) تطلق الرواية الإسلامية اسم «ألبة والقلاع» على ولايتى قشتالة القديمة Castile وآلفا Alava معربة عن اللاتينية القديمة Alava et Castella Vetula . وكانت « ألبة والقلاع » تشمل فى العصور الوسطى ، جميع المنطقة الواقعة بين نهر دويرة جنوباً والبحر شمالا ، وبين نافار ( بلاد البشكنس ) وأراجون ( الثغر الأعلى ) شرقاً ومملكة ليون غرباً ؛ وألبة هى فى الواقع إحدى ولايات بلاد البشكنس ، وتمتد غرباً حتى « برغش » وشمالا حتى خليج بسكونية ، وجنوباً حتى نهر إيبرو . وأما « القلاع » أو قشتالة Castella أو Castile فقد كانت تشمل باقى المنطقة من برغش شمالا إلى ما بعد نهر دويرة ( الدورو ) وجبال واد الرملة Guadarrama جنوباً ، وحتى موقع مدينة مدريد عاصمة إسبانيا الحديثة .

( ٣ ) البيان المغرب ج ٢ ص ٥٦ ؛ ونفح الطيب ج ١ ص ١٥٦ .

( ٤ ) Aschbach: Ibid ; I, p. 169 والهوامش

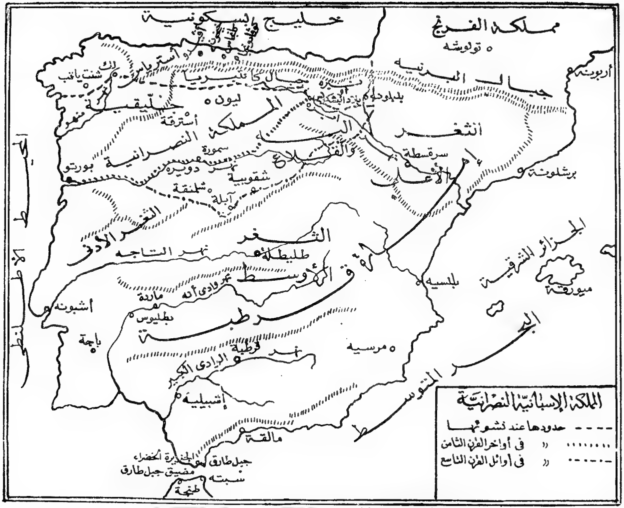

مملكة الفرنج
تولوشه
خليج البسكونية
جبال البرتيه
جبال كانتبريا
أربونة
أستوريا
شنت ياقب
جليقية
ليون
أسترقة
المملكة النصرانية
سمورة
نهر دويره
بورتو
شقوبية
شلمنقة
آبلة
الثغر الأعلى
سرقسطة
برشلونة
الثغر الأدنى
الثغر الأوسط
طليطلة
نهر التاجه
وادى آنه
ماردة
بطليوس
أشبونه
باجة
قرطبة
نهر الوادى الكبير
مرسية
بلنسية
إشبيلية
مالقة
الجزيرة الخضراء
جبل طارق
مضيق جبل طارق
سبته
طنجة
المحيط الأطلنطي
الجزائر الشرقية
ميورقة
البحر المتوسط
المملكة الإسبانية النصرانية
حدودها عند نشوئها
فى أواخر القرن الثامن
فى أوائل القرن التاسع

المسلمين ، ونشبت ضده فى ناڤار فى الشرق ثورة أخرى ، فأخمدها بشدة ، واجتاح ناڤار وأخضعها ، وكان من أسراه فى تلك المعارك فتاة حسناء من أسرة كريمة تدعى مونيا فأحبها وتزوجها ، ورزق منها بولده ألفونسو ، الذى تولى العرش فيما بعد ، وكان مسرفاً فى الانتقام والسفك ، قتل كثيراً من أفراد أسرته وقتل أخاه بيده ، وكان الشعب يبغضه ويلتف حول « أورليوس » ابن عمه فرويلا . وأنشأ فرويلا مدينة أوبييدو التى غدت فيما بعد حاضرة جليقية ، ولكنه لم يتخذها قاعدة للحكم ، ولبث فى مدينة كانجاس حاضرتها الأولى ، حتى هلك قتيلا فى ثورة جديدة نشبت سنة ٧٧٥ م[١] .

ولما توفى فُرُويلا كان ولده من مونيا ألفونسو طفلا ، فافترقت كلمة الشعب ، وانحازت منه أغلبية كبيرة إلى أورليوس أو أورالى[٢] ولد فرويلا أخى ألفونسو الأول واختارته للملك ، ولكنه لم يحكم إلا فى الولايات الشرقية فى ناڤار وبسكونية ، حيث كان يحكم أبوه من قبل ، وانحازت جليقية الغربية إلى سيلو أو شيلون[٣] زوج أروزندا إبنة ألفونسو الأول ، وانقسمت المملكة بذلك إلى إمارتين . ولكنهما تهادنتا ولم تقع بينهما حرب ولا منافسة . وفى سنة ٧٧٨ م غزا شارلمان بلاد البشكنس فى طريقه إلى سرقسطة حسبما قدمنا ، فاضطر أورليوس أن يسعى إلى محالفة المسلمين . ولم تقع فى ذلك الحين فيما يظهر حروب بين المسلمين ومملكة جليقية ، لاشتغال كل منهما بشئونه الخاصة . وتوفى أورليوس سنة ٧٨١ م ، فاختار البشكنس مكانه سيلو لأن ألفونسو ولد فرويلا كان لايزال طفلا ، واتحدت المملكة مرة أخرى . ولبث سيلو ملكاً على جليقية المتحدة ثلاثة أعوام أخرى ، وفى عهده عقد الصلح بين المسلمين والنصارى . ولكن نشبت بعض ثورات محلية فى جليقية نجح فى إخمادها ، وتوفى بعدئذ بقليل سنة ٧٨٤م[٤] .

وتوفى سيلو دون عقب ، ولكنه أوصى بالملك لألفونسو ولد فرويلا الطفل

---

(١) يضع ابن خلدون وفاة فرويلا فى سنة ١٥٨ ( ٧٧٥ م ) متفقاً بذلك مع الرواية النصرانية (ج ٤ ص ١٨٠) .

(٢) هكذا تسميه الرواية العربية وهى تعتبره ملكاً لجليقية كلها ( راجع ابن الأثير ج ٦ ص ١٢)

(٣) وهو اسمه فى الرواية العربية . ويعتبره ابن خلدون خطأ ولد فرويلا الكبير (ج ٤ ص ١٨٠ ) .

(٤) يضع ابن خلدون وفاة سيلو أو شيلون سنة ١٦٨ هـ ( ٧٨٤ م ) متفقاً أيضاً مع الرواية النصرانية ( ج ٤ ص ١٨٠ ) . وكذا ابن الأثير ( ج ٦ ص ٢٢ ) .

وبالوصاية عليه لزوجه أروزندا . ولكن الأشراف لم يرضوا عن حكم طفل وامرأة ، وانضم إليهم فريق من الشعب ، ولم تلبث جليقية أن اضطرمت بثورة قوية على رأسها زعيم يدعى مورجات — وفى الرواية العربية مورقاط — وهو ولد غير شرعى لألفونسو الأول من جارية عربية ، فاستولى على جليقية الغربية ، وانضم إليه كثير من الأشراف والزعماء الذين اشتركوا فى محاربة فرويلا خشية أن يستقر الملك لابنه فيبطش بهم فيما بعد ، ففر ألفونسو إلى ألبة حيث عصبة أمه وعشيرتها ، وقد كانت بسكونية حسبما تقدم . ورأى مورجات أن يوطد مركزه وسلطانه بالتحالف مع المسلمين ، وتحالف حزب ألفونسو مع الفرنج أعداء المسلمين ، واتخذ مورجات قاعدة حكمه فى مدينة براڤيا فى قاصية جليقية . وكان رجال الدين ومن إليهم من النصارى والمتعصبين يبغضونه ويثيرون الشعب عليه ، لأنه بالغ فى التودد إلى المسلمين والتقرب إليهم ، ولأنه يمت إليهم بصلة الدم بواسطة أمه العربية . ولكنه استطاع مع ذلك أن يحكم مملكته الصغيرة حتى وفاته فى سنة ٧٨٩ م[١] .

وتشير الرواية العربية إلى طرف من هذه الحوادث ، وتقول لنا إن مورقاط (مورجات) وثب على أذفنش (ألفونسو) فقتله ، ولكن ألفونسو لم يقتل كما قدمنا . وسنرى أنه يتولى الملك ويخوض مع المسلمين فى الأعوام التالية كثيراً من الوقائع . وتقول الرواية العربية أيضاً ، إن المسلمين انتهزوا فرصة الاضطراب الذى وقع فى جليقية ، من جراء هذه الحوادث ، فسار إليها وإلى طليطلة وغزاها وأثخن فيها[٢] ، وهذا ما لا تشير إليه الرواية النصرانية . والظاهر أن المسلمين أغاروا على ألبة والقلاع ، لأنهم كانوا على وئام وتحالف مع مورقاط أمير جليقية . ووقعت هذه الغزوة حسبما تشير الرواية العربية حوالى سنة ١٦٩ هـ ( ٧٨٦ م ) أعنى فى أواخر عهد عبد الرحمن الداخل .

وكان طبيعياً بعد أن توفى مورجات عميد الثورة ومغتصب الملك ، أن يعود العرش إلى صاحبه الشرعى ، أعنى ألفونسو ولد فرويلا . ولكن الأشراف لبثوا

---

( ١ ) Aschbach : ibid, I. p. 165—166

( ٢ ) راجع ابن الأثير ج ٦ ص ٢٢ ؛ وابن خلدون ج ٤ ص ١٨٠ ، ويسمى مورقاط هنا بسمول قاط وهو تحريف نسخ أو خطأ مطبعى على ما يظهر .

فى توجسهم من نقمة ألفونسو ، واختاروا للملك برمند ( أو برمودو ) ، وهو ولد لفرويلا وأخ لأروليوس ، الذى تولى إمارة البشكنس من قبل . وكان قد هجر الحياة الدنيا إلى عزلة الدير ، فتولى الملك على غضاضة منه ، ولكنه لم يحكم على ما يظهر إلا فى غربى جليقية ، حيثما كان يسود نفوذ مورجات ، ولبث ألفونسو أميراً على الأنحاء الشرقية . وفى ذلك الحين كان أمير الأندلس هشام بن عبد الرحمن يتأهب لغزو الشمال ، فخشى برمند خطر الإنقسام على مستقبل المملكة ، وعقد الصلح مع ألفونسو وولاه قيادة الجيش ، ولم تمض ثلاثة أعوام حتى ضاق ذرعاً بمهام الملك فتنازل عن العرش مختاراً لألفونسو ، وارتد إلى حياة الدير والعزلة ، وتولى ألفونسو الملك فى أواخر سنة ٧٩١ م ( ١٧٥ هـ )[1] باسم ألفونسو الثانى . وبذلك عادت المملكة النصرانية إلى اتحادها مرة أخرى .

وفى أواخر عهد ألفونسو الثانى ، الملقب « بالعفيف » el Casto ، وقع حدث دينى كان له فيما بعد أثر عميق فى توجيه مصاير المملكة النصرانية ، هو اكتشاف قبر القديس ياقب ، وهو القديس يعقوب أو يعقوب الحوارى . وتذكر الأسطورة أنه لما قتل بأمر هيرود الثانى ملك بيت المقدس ، حمل تلاميذه جثته فى مركب جاز به البحر المتوسط إلى المحيط ، ثم حملتهم الرياح شمالا حتى انتهوا إلى موضع فى قاصية جليقية ، ودفنوا جثمان القديس فى سفح تلال هنالك . ومضت العصور ، وغاض القبر ولم يعلم مكانه ، حتى كانت سنة ٨٣٥ م ، حيث زعم القس تيودمير أسقف إريا أنه اكتشف القبر ، هداه إليه ضوء نجم ، وحمل النبأ فى الحال إلى الملك ، فأمر أن يبنى فوق هذه البقعة كنيسة ، وذاعت الأسطورة فى جميع الأنحاء ، وصدقها المؤمنون دون تردد ، وهرعوا يحجون إلى البقعة المقدسة ، وقامت حول المزار المزعوم مدينة نمت بسرعة ، وغدت مدينة شنت ياقب Santiago de Compostela المقدسة ، وأنشئت فيما بعد فوق القبر مكان الكنيسة الساذجة كنيسة جامعة (كتدرائية) ، غدت من أعظم كنائس اسبانيا ضخامة وروعة وفخامة . وكان لقيام هذه المدينة المقدسة أثر كبير فى إذكاء الحماسة الدينية والعاطفية القومية فى إسبانيا ، وغدا القديس ياقب

---

(١) ابن الأثير ج ٦ ص ٤٠ ، وهو يتفق هنا مع الروايه النصرانية فى الوقائع والتواريخ وراجع أيضا Aschbach : I. p. 188—192

« حامى » اسبانيا كلها ، وغدا قبره من أشهر المزارات النصرانية فى أوربا .

وينوه الأستاذ ألتاميرا بأهمية هذا الحدث الدينى ، وأثره فى حضارة هذه المنطقة من اسبانيا ، فيقول : « وقد بعث هذا الاكتشاف فى النصارى أيما سرور ، وانتظمت وفود عظيمة ، جاءت لتحج إلى القبر ، لا من الأراضى الإسبانية وحدها ، ولكن من الخارج أيضاً ؛ وهكذا بدأ تيار من الزيارات والمؤثرات الأوربية فى جليقية ، وكان لها أعظم تأثير فى العادات والآداب »[1] .

وقد أتيح لنا أن نزور مدينة شنت ياقب ، وهى من أعجب وأجمل المدن الإسبانية ، ذات طابع خاص بها ، وهى أشد المدن الإسبانية احتفاظاً بهذا الطابع الخاص . وطابعها القدم المشبع بالجلال والوقار ، وهى تبدو بشوارعها المعقودة ، وميادينها التى تغص بالصروح التاريخية ، مدينة قديمة عريقة حقاً . وأروع ما تقع عليه العين كنيستها العظمى ، التى تقوم فى وسطها ، وتبدو بواجهاتها الفخمة وصرحها الشامخ ، وبرجها العظيم ، أثراً من أعظم الآثار الدينية .

وقد نشأت هذه المملكة النصرانية الشمالية ، مستقلة فى ظروفها وفى خواصها ، ولبثت آماداً طويلة بعيدة عن الإتصال بالأمم النصرانية الأخرى ، ولم تنشأ بينها وبين جيرانها المسلمين علائق سياسية أو اجتماعية قوية تؤثر فى نظمها وخواصها ، فاستمرت تحتجب بوعر الجبال وعباب المحيط ، تسود فيها روح المملكة القوطية القديمة ونظمها ، واستمر الجلالقة دهراً ينتسبون إلى القوط ، ويسمون أنفسهم قوطاً ، وتسير حكوماتهم على سنن السياسة القوطية ونظمها ، فالعرش مطلق يقبض على زمام السلطتين التشريعية والتنفيذية ، ولا يستطيع الأشراف الحد من سلطانه إلا بالثورة ، أو باستعمال حقهم فى الانتخاب ، واستمرت خواص المجتمع القديم كما كانت أيام القوط : أقلية غنية قوية تستأثر بنعم الثروة والجاه ، وأكثرية فقيرة مستعبدة ترزخ تحت جور العرش ، واستغلال الأشراف والسادة ، بيد أن هذه الأكثرية استطاعت أن تشق طريقها إلى الحرية ، حينما اشتدت معركة الحياة والموت بين الإسلام والنصرانية فى اسبانيا ، واضطرت المملكة أن تلجأ إلى الأكثرية للذود عن حدودها وحياتها ، وانقلب الرقيق القديم جنداً يثور ضد

---

(١) R. Altamira: Hist. de Espana; Vol. I, p. 239

وتعرف الرواية الإسلامية هذه الأسطورة وتشير إليها . راجع الروض المعطار ( صفة جزيرة الأندلس ) ص ١١٥ .

سادته ، ورغمهم على احترامه ومصانعته . هكذا نشأت المملكة النصرانية الشمالية ، ونمت واتسعت حدودها فيما بين الجبال والقفر ، حتى أصبحت تمتد من بلاد البشكنس شرقاً إلى المحيط غرباً ، ومن المحيط شمالا إلى ما بعد ضفاف نهر دويرة جنوباً ، وتشمل عدة مناطق وقواعد ، كانت قبل ذلك بفترة يسيرة فى قبضة الإسلام .

وهنا نقف فى تتبع أخبار المملكة النصرانية عند هذا الحد ، لنستأنفه فى مواطنه فيما سيأتى .

# الفصل الثامن

## هشام بن عبد الرحمن والحكم بن هشام

(١) ولاية العهد. هشام يخلف أباه عبد الرحمن. خلاله. خروج أخويه سليمان وعبد الله. خضوع عبد الله. مطاردة سليمان وعبوره إلى المغرب. الثورة فى الشمال. إخمادها. عدوان النصارى. غزو جليقية وهزيمة النصارى. غزو المسلمين الثغر الفرنجى. موقف حكام الشمال وانحرافهم إلى الفرنج. الاستيلاء على جرندة ومحاصرة أربونة. موقعة قيل دنى بين المسلمين والفرنج. غزو جليقية ثانية. هزيمة الجلالقة. وفاة هشام. حزمه وتقواه. منشآته بقرطبة. شغفه بالجهاد. إعزازه للغة العربية. نفوذ الفقهاء فى عهده. انتشار مذهب مالك بالأندلس. (٢) الحكم بن هشام وخلاله. محاربته لنفوذ الفقهاء وسخطهم عليه. غزوة ألبة والقلاع. الثورة فى سرقسطة. عود سليمان وعبد الله عمى الحكم إلى الثورة. استنصار عبد الله بشارلمان. غزو الفرنج للثغر الأعلى ثم انسحابهم. هدوء الثورة فى الشمال. الحرب بين الحكم وعمه سليمان. هزيمة سليمان وإعدامه. خضوع عبد الله. سياسة الفرنج نحو اسبانيا المسلمة. تحرشهم بالمملكة الإسلامية. موقف الخلافة العباسية من هذه السياسة. اتحاد الغاية بينها وبين الفرنج. إنتهاز الفرنج لاضطراب الحوادث الداخلية. غزوهم للثغر الأعلى ومحاصرتهم لبرشلونة. دفاع المسلمين الباسل عنها. سقوطها فى أيدى الفرنج. إنشاء الفرنج الثغر القوطى. ائتمار الفقهاء والأعيان بالحكم. اكتشاف المؤامرة وسحقها. الثورة فى ماردة. الثورة فى طليطلة. تعيين عمروس ابن يوسف حاكماً لها. واقعة الحفرة. حصار الفرنج لطرطوشة. تحرك نصارى الشمال. عيثهم فى أراضى المسلمين. مسير الحكم لمحاربتهم. غزو المسلمين لقطلونية. عقد الهدنة بين الحكم وشارلمان. بواعث هذا الصلح. الثورات المحلية. القحط فى الأندلس. غزو المسلمين لجليقية. سخط أهل قرطبة على الحكم. تحريض الفقهاء. تحرك العامة وزحفهم على القصر. واقعة الربض. إخماد الثورة وتمزيق الثوار. معاقبة أهل الربض ونفيهم. مسير الأندلسيين إلى الإسكندرية وافتتاحهم لإقريطش. بلاغ الحكم عن الثورة وشعره فيها. تحوطاته بعد إخمادها. مرض الحكم ووفاته. وصيته لولده عبد الرحمن. أخلاق الحكم وصفاته. توطيده هيبة الملك. إصطناؤه الصقالبة. أبهته وفخامته. شعره. رجال دولته. الحاجب عبد الكريم. قومس أهل الذمة. ازدهار العلوم والآداب. عباس بن فرناس ويحيى الغزال.

— ١ —

خلف عبد الرحمن الداخل ولدُه هشام بعهد منه، ولم يكن أكبر ولده، بل كان أكبرهم سليمان والى طليطلة، ولم يك يومئذ ثمة نظام خاص لولاية العهد، بل كانت ولاية العهد كما هو مأثور، حقاً مفوضاً للأمير أو الإمام، يجريه وفقاً

للمصلحة العامة[1]، ولم يكن انحصاره فى ولد الأمير أو أسرته ، سوى تقليد من تقاليد السياسة والعصبية ، سارت عليه الدولة الأموية ، فوضعت بذلك فى الدول الإسلامية أسس الأسر الملوكية ، والعروش المتوارثة . وكان من الطبيعى بعد أن ظفر عبد الرحمن الأموى ، بإحياء تراث أسرته المندثر فى المشرق ، أن يصل ما انقطع ، وأن تقوم من هذا الفرع الأموى ، أسرة ملوكية جديدة تتعاقب فى العرش ، وتعيد بالأندلس مجد الدولة الأموية الذاهب .

وهكذا اختار عبد الرحمن لولاية العهد من بين بنيه الأحد عشر ، ولده هشاماً ، وآثره بهذه الاختيار لما توسمه فيه من المزايا والمواهب الخاصة . وكان مولده بقرطبة فى سنة ١٣٩هـ — ٧٥٦م[2] . وكانت أمه — وهى « أم ولد »[3] بارعة فى الحسن تدعى «حلل»[4]— أحب نساء عبد الرحمن إليه ، وأكثرهم نفوذاً لديه ، وكان هشام حينما توفى أبوه مقيماً بماردة مقر ولايته ، فأخذ البيعة له أخوه عبد الله المعروف بالبلنسى ، ولكن على غضاضة منه ، لأنه مثل أخيه سليمان ، كان يرى نفسه أحق بولاية العهد من أخيه الأصغر . ودخل هشام قرطبة لأيام قلائل من وفاة أبيه ، وبويع فى مستهل جمادى الأولى سنة ١٧٢ هـ ( ٧٨٨ م ) ، وكان حينما ولى العرش فى الثالثة والثلاثين من عمره ، بيد أنه كان عاقلا حازماً وافر الشجاعة والعزم ، كثير العدل والتقوى ، جم التواضع والرفق . وتشيد الرواية الإسلامية بجميل خلاله ، وتنوه بالأخص بورعه ، وتواضعه ، وحبه للخير ، فيقول لنا ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد إنه «كان أحسن الناس وجهاً ، وأشرفهم نفساً ، الكامل المروءة ، الحاكم بالكتاب والسنة ، الذى أخذ الزكاة على حلها ، ووضعها فى حقها ، لم يعرف عنه هفوة فى حداثته ، ولا زلة فى أيام صباه » . وقيل بلغ من تواضعه أن كان يطوف شوارع قرطبة مختلطاً بالرعية يسمع المظالم بنفسه ، ويعود المرضى ، ويشهد الجنائز ، وربما كان يخرج فى الليالى المظلمة الممطرة ، فيلقى بصرر المال فى المساجد لمن وجد فيها بغية تعميرها بالمصلين ،

---

( ١ ) يعقد ابن خلدون فى مقدمته ، فصلا عن ولاية العهد فى الأمة الإسلامية ، ( ص ١٧٥ وما بعدها ) .

( ٢ ) البيان المغرب ج ٢ ص ٦٢ ؛ وابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٣٧ .

( ٣ ) هى الجارية إذا رزقت من سيدها بولد ، وعندئذ لا يجوز بيعها ولا هبتها .

( ٤ ) وفى رواية « حوراء » . وفى رواية أخرى « جمال » .

ويسعى إلى غوث البائس والمسكين بمختلف الوسائل[١]. وكان يذهب مذهب عمر بن عبد العزيز ، فى تحرى الحق والعدالة ، فكان يبعث إلى الكور بقوم من ثقاته ، للتحرى عن مسلك العمال وسيرهم بين الرعية ، فإذا انتهى إليه حيف من أحدهم أسقطه واشتد فى عقابه[٢] .

وكانت ولاية هشام نذير فوره جديدة من الثورات المحلية . ذلك أن سليمان أكبر أخوته لم يقر إمارته ، ودعا لنفسه فى طليطلة وما جاورها ، وكذلك أخوه عبد الله البلنسى لم يخلد إلى الرضى ، بالرغم مما بذله هشام لاسترضائه ، ولم يلبث أن لحق بأخيه سليمان فى طليطلة ، وتحالفا على العصيان والثورة ، وسار سليمان خفية إلى قرطبة ليحاول إضرام الثورة ضد أخيه ، فلم يظفر بشىء ، وطارده الجند ، ففر إلى ماردة وحاول أن يعتصم بها ، ولكن رده عاملها . وكان هشام قد بعث جيشاً لحصار طليطلة وإخضاعها ، ففر سليمان إلى جبال بلنسية ، ولجأ إلى بعض ثغور تدمير . ولما رأى عبد الله البلنسى ما حل بأخيه من الفشل والهزيمة ، خشى عاقبة الخروج ، وارتد إلى قرطبة يلتمس الصفح من أخيه ، فعفا عنه هشام وأكرم مثواه ، وبعث جيشاً بقيادة ولده معاوية لمطاردة سليمان وصحبه ، فتوغل فى أنحاء تدمير (مرسية) واضطر سليمان إلى طلب الأمان والعفو ، فأجابه هشام إلى طلبه ، على أن يعبر بأهله وولده إلى المغرب ، وأعطاه ستين ألف دينار صلحاً على تركة أبيه . وسار معه أخوه عبد الله ، وأقاما بعدوة المغرب ، وانتهت بذلك ثورة الأخوين ( سنة ١٧٤ هـ — ٧٩٠ م )[٣] .

واعتقد ثوار الشمال فى نفس الوقت أن الفرصة قد سنحت بوفاة عبد الرحمن لإضرام نار الثورة كرة أخرى ، فخرج بطرطوشة سعيد بن الحسين الأنصارى ، وكان قد التجأ إليها منذ مصرع أبيه ، والتف حوله اليمنية ، وأخرج عاملها من قبل هشام ، يوسف العبسى ، فعارضه موسى بن فرقوق فى المضرية ودعا لهشام[٤] ،

---

( ١ ) راجع فى التنويه بخلال هشام وصفاته ، أخبار مجموعة ص ١٢٠ و ١٢١ ؛ وابن الأثير ج ٦ ص ٣٧ ؛ والعقد الفريد ( مصر سنة ١٩٢٨ ) ج ٣ ص ٢٠٢ ؛ والمعجب لعبد الواحد المراكشى ص ١٠ .

( ٢ ) البيان المغرب ج ٢ ص ٦٧ ، وأخبار المجموعة ص ١٢٧ .

( ٣ ) البيان المغرب ج ٢ ص ٦٤ و ٦٥ .

( ٤ ) ابن خلدون ج ٤ ص ١٢٤ .

وخرج أيضاً مطروح بن سليمان بن يقظان بثغر برشلونة ، والتفت حوله جموع كبيرة ، واستولى على سرقسطة ووشقة ، وقوى أمره ، وبسط سلطانه على الولاية كلها ، فسير إليه هشام جيشا كبيراً بقيادة عبيد الله بن عثمان ، فسار إلى طرطوشة وانتزعها من يد الثوار ، وحاصر سرقسطة وفيها مطروح وصحبه ، وضيق عليها الخناق حتى ضاق أهلها ذرعاً بالحصار ، وفى ذات يوم اغتال مطروحاً بعض أصحابه واحتزوا رأسه ، وقدموها إلى ابن عثمان ، فبعث بها إلى هشام ، ودخل سرقسطة ظافراً (سنة ١٧٥ هـ)[١]، وقضى بذلك على الثورة فى تلك الأنحاء .

وكان نصارى الشمال ، منذ اشتد ساعدهم ، يكثرون من الإغارة على البلاد الإسلامية والعيث فيها ، ويشتد هذا العيث والعدوان كلما اضطرمت الأندلس بالفتن الداخلية ، وشغلت حكومة قرطبة عن حماية الأطراف النائية . وكان الفرنج جرياً على سياستهم المأثورة ، يشجعون النصارى من البشكنس والجلالقة على مواصلة التحرش بالمملكة الإسلامية ، وكان هشام كأبيه يقدر خطورة هذه الدسائس الفرنجية ، وتحدوه من جهة أخرى نزعة قوية إلى الجهاد والغزو ، فما كاد ينتهى من القضاء على الثورة الداخليـــة ، حتى سير إلى الشمال جيشاً قوياً من أربعين ألف مقاتل بقيادة عبيد الله بن عثمان ، فاخترق ألبة والقلاع (قشتالة القديمة) ، واجتاح جليقية ، وهزم الجلالقة بقيادة ملكهم برمودو (أو برمند) وحلفاءهم البشكنس ، ومزق جموعهم (سنة ١٧٥هـ — ٧٩١م) ، وعاد إلى قرطبة مثقلا بالغنائم والسبى . ولم يمض قليل على ذلك حتى سارت إلى جليقية حملة أخرى بقيادة يوسف بن بخت ، وهزم برمودو مرة أخرى ، وقتلت جموع كبيرة من النصارى ، وعلى أثر ذلك تنازل برمودو عن العرش لألفونسو الثانى ولد فرويلا ، وأمير جليقية الشرقية ، ولجأ إلى عزلة الدير .

وفى العام التالى أعنى فى سنة ١٧٦ هـ (٧٩٢ م) تأهب هشام لمحاربة الفرنج ، واستئناف عهد الجهاد والغزو ، فسير إلى الشمال جيشاً كثيفاً . بقيادة حاجبه عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث[٢]. فعبر البرنيه من ناحية قطلونية ، واستولى

---

(١) العذرى فى كتاب « ترصيع الأخبار » (ص ٢٦ و ٢٩) .

(٢) وهو حفيد مغيث الرومى فاتح قرطبة .

أثناء سيره على مدينة چيرونة ( جرندة ) الحصينة فى قاصية شمال شرقى إسبانيا ، وكان الفرنج قد استولوا عليها منذ سنة ٧٨٥ م من يد مطروح بن سليمان . وكان حكام هذه الأنحاء التى لبثت تضطرم بالثورة على حكومة قرطبة ، منذ غزوة شارلمان الأولى لإسبانيا ، قد استقلوا بما فى أيديهم من المدن ، وجنحوا إلى محالفة الفرنج جيرانهم من الشمال ، والتماس حمايتهم . ومن ذلك أن أبا ثور صاحب مدينة وشقة ، الذى سبق ذكره فى حوادث باب الشزرى ، بعث رسله إلى تولوشة عاصمة أكوتين يطلب التحالف من ملكها الدوق لويس ابن شارلمان (٧٩٠م)(١).
واستولى الحاجب عبد الملك بعد ذلك على عدد آخر من المعاقل والحصون ، ثم نفذ إلى سبتمانيا ، وزحف على أربونة قاعدة الثغر الإسلامى القديم . وتقول الرواية الإسلامية إن المسلمين افتتحوا خلال تلك الغزوة أربونة(٢) ، ولكن الروايات الفرنجية المعاصرة لاتذكر شيئاً عن ذلك الفتح ، وتذكر أن المسلمين أرتدوا عن أربونة لمناعتها إلى قرقشونة . وكان شارلمان (أوكارل الأكبر ) ملك الفرنج يشتغل يومئذ بمحاربة خصومه السكسونيين بعيداً عن فرنسا ، فتأهب ولده لويس أمير أكوتين لصد العرب ، وأوفد لمحاربتهم جيشاً بقيادة جيوم كونت دى تولوز ، فالتقى الفريقان فى مكان يسمى «ڤيل دنى» على ضفاف نهر أوربينا بين أربونة وقرقشونة ، ونشبت بينهما موقعة غير حاسمة ، ارتد المسلمون على أثرها إلى الجنوب مثقلين بالغنائم والسبى ، وقدرت أخماس السبى وحدها بخمسة وأربعين ألفاً من الذهب ، وأرغم الأسرى النصارى على حمل أو جر أحمال من الأحجار والتراب من سور أربونة حتى قرطبة ، وأمر هشام أن يُبنى منها جناح جديد للمسجد الجامع تخليداً لتلك الغزوة الشهيرة .

وكانت منطقة رندة ، المعروفة بإقليم « تاكرنّا » ، أو « تاكرنى»(٣)، وفيها يحتشد البربر ، مهد الفتن والقلاقل المتوالية . فى سنة ١٧٨ هـ ( ٧٩٤ م ) أثار البربر هنالك ضرام الفتنة مرة أخرى ، وخلعوا الطاعة وعاثوا فى تلك الأنحاء ، فسير إليهم هشام حملة بقيادة عبد القادر بن أبان بن عبد الله ، فأخمد الثورة دون رأفة ، وأباد جموع البربر ، وخرب بلادهم وضياعهم ، وفرقهم فى الأنحاء

(١) راجع R.M. Pidal : Ibid, p. 203
(٢) ابن الأثير ج ٦ ص ٤٥ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٦٤ ، ونفح الطيب ج ١ ص ١٥٨
(٣) راجع معجم البلدان لياقوت ج ٢ ص ٣٠٣ .

والقبائل تمزيقاً لعصبتهم ، وبقيت هذه المنطقة عدة أعوام قفراً خراباً .

وفى ربيع سنة ١٧٩ هـ ( ٧٩٥ م ) سير هشام إلى جليقية حملة أخرى بقيادة عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث ، أخى الحاجب ، فاخترق المسلمون مفاوز جليقية حتى أستُرقة ، ففر السكان النصارى إلى رؤوس الجبال ، وتأهب ألفونسو ملك جليقية للقاء المسلمين ، على رأس جيش من الجلالقة وحلفائهم البشكنس ، ونشب القتال بين الفريقين فى قاصية جليقية ، فى المكان المعروف بالصخرة ، وانتصر الجلالقة فى البداية فى بعض الوقائع المحلية ، وقتل جماعة من المسلمين فى كمين دبر لهم ، ولكن النصارى هزموا فى النهاية ، وعاث المسلمون فى جليقية ، وأصابوا كثيراً من الغنائم ، ثم ارتدوا إلى الجنوب بعد أن مزقت قوى الجلالقة وسكنوا إلى حين ، وساد الأمن فى الولايات الشمالية[1].

وكانت هذه آخر غزوة سيرها هشام ، إذ توفى عقب ذلك بقليل فى الثالث من صفر سنة ١٨٠ هـ ( ١٨ إبريل سنة ٧٩٦ م ) فى نحو الأربعين من عمره ، بعد أن حكم نحو ثمانية أعوام . وكان أبيض ، أشهل ، مشرباً بالحمرة ، وبعينيه حول ، وكنيته أبو الوليد ويلقب بالرضا[2]. وفى عهده ساد الأمن والاستقرار ربوع الأندلس بالرغم مما وقع خلاله من الثورات المحلية . وكان هشام إلى جانب رفقه وتواضعه ، حازماً ، صارماً فى الحق ، حريصاً على توطيد النظام والعدالة ، فلم يتردد فى القبض على ابنه الأكبر عبد الملك وزجه إلى السجن لما ثبت لديه من ائتماره به ، فبقى فى سجنه أعواماً طويلة حتى توفى بعد وفاة أبيه[3]. وكان فوق شغفه بالجهاد والغزو ، محباً للإصلاح والإنشاء ، فعنى بإتمام مسجد قرطبة الجامع الذى بدأ بإنشائه أبوه وتوفى قبل إتمامه ، وأنشأ عدة مساجد أخرى ، وزين قرطبة بكثير من الأبنية والحدائق الفخمة ، وجدد قنطرة قرطبة الشهيرة التى بناها السمح بن مالك على النهر الكبير ، وأنفق فى تجديدها أموالا عظيمة ، وكان

---

( ١ ) البيان المغرب ج ٢ ص ٦٦ ؛ وابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٧٢ . ويقول ابن الأثير إن الذى قاد هذه الحملة هو عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث ( ج ٦ ص ٤٨ ) . وراجع ابن خلدون ج ٤ ص ١٢٥ .

( ٢ ) ابن الأثير ج ٦ ص ٤٦ ؛ وابن الأبار ص ٣٧ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٦٢ .

( ٣ ) ابن الأثير ج ٦ ص ٤١ .

يشرف على إصلاحها بنفسه[١]، وعلى الجملة فقد كان عهده زاهراً ، وافر الأمن والرخاء .

وكان هشام شديد الورع والتقوى ، وكان شغفه بالجهاد وإعلاء كلمة الدين من أخص مظاهر تقواه ، وكان ينفق الأموال الطائلة فى افتداء أسرى المسلمين ، حتى لم يبق فى عهده منهم فى قبضة العدو أحد ، ورتب فى ديوانه أرزاقاً لأسر الجند المتوفين فى الجهاد[٢] . وفى عصره اتخذت السياسة الأموية إجراء يشهد ببعد نظرها ، إذ جعلت العربية لغة التدريس فى معاهد النصارى واليهود . وكان لذلك الإجراء بالرغم من بساطته ، أثر عميق فى التقريب بين أصحاب المذاهب المختلفة ، وفى بث روح التفاهم والوئام بينها ، ولاسيما بين المسلمين والنصارى ، وكان من أثره أيضاً أن كثر اعتناق النصارى للإسلام بعد أن وقفوا على أصوله وتفاصيله ، وقربت مسافة الخلف بينهم وبين الفاتحين ، ولم يكن ذلك بعيداً فى الواقع عن غاية السياسة الأموية[٣] .

وكان هشام يؤثر مجالس العلم والأدب ولاسيما الحديث والفقه على غيرها . وفى عصره ذاع مذهب مالك[٤] . وكان الإمام مالك ، وهو معاصر لهشام ، يعجب بسيرته وخلاله ، ويشيد بعدله وتقواه ، وكانت تجمع بين الرجلين على بعد المزار عاطفة مشتركة هى بغض بنى العباس ، وكان قد رحل إلى المشرق عدة من فقهاء الأندلس ، منذ أيام عبد الرحمن الداخل ، وفى مقدمتهم زياد بن عبدالرحمن ، وعيسى بن دينار ، وسعيد بن أبى هند ، ويحيى بن يحيى الليثى ، فدرسوا على مالك بالمدينة ، واستقوا من علمه واجتهاده ، ونقلوا عنه كتابه « الموطأ » ، وذاع مذهب مالك على يدهم فى الأندلس فى عصر هشام . وكان هشام كثير الإجلال لمالك ومذهبه ، فزاد ذلك فى ذيوعه وتوطده ، وغدا مذهب أهل الأندلس الغالب ، وكانوا قبل ذلك يعملون بمذهب الأوزاعى إمام

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٦٨ ، وابن الأثير ج ٦ ص ٤٩ . وما تزال هذه القنطرة العربية قائمة حتى اليوم على نهر الوادى الكبير خلف الجامع الأموى ، محتفظة بعقودها القديمة ، بالرغم مما توالى عليها من ضروب الإصلاح والتجديد .

(٢) أخبار مجموعة ص ١٢٠ .

(٣) راجع Scott : Ibid, I. p. 433.

(٤) الإمام مالك بن أنس ، أبو عبد الله ، أحد أصحاب المذاهب الأربعة الشهيرة ( ٩٥ — ١٧٩ هـ ) وترجمته فى ابن خلكان ج ١ ص ٥٥٥ — ٥٧ .

أهل الشأم[١]. وفى عصر هشام قوى نفوذ الفقهاء ورجال الدين ، وتربعوا فى أهم المناصب ، وكثر تدخلهم فى شئون الدولة ، خلافاً لما كان عليه عبد الرحمن الداخل من إقصائهم والتحرز من تدخلهم ونفوذهم ، وكان لذلك أثر غير محمود ترتبت عليه فيما بعد نتائج سياسية واجتماعية خطيرة .

— ٢ —

وخلف هشاماً ولده الحكم بعهده منه ، وبويع عقب وفاة أبيه بأيام قلائل فى الثامن من صفر سنة ١٨٠ هـ ( أبريل ٧٩٦ م ) ، وهو فى السادسة والعشرين من عمره ، وكان مولده بقرطبة سنة ١٥٤ هـ ( ٧٧١ م ) ، وأمه أم ولد تدعى زخرف ، وكان طاغية ، حازماً ، شجاعاً ، شديد الوطأة على خصومه والخارجين عليه ، وكانت تحدوه مع ذلك نزعة إلى الإنصاف والعدالة[٢] . وهو أول من أظهر فخامة الملك بالأندلس ، وأسرف فى تأييد هيبته ، وجدد عهد أجداده بالمشرق ببذخه وروعته ، واستكثر من المماليك والبطانة . وكان ميالا إلى اللهو ، مولعاً بالصيد ، يؤثر مجالس الندماء والشعراء ، على مجالس الفقهاء والعلماء . وآنس الفقهاء تصدع مركزهم الذى سما فى عهد أبيه هشام ، وكانت سياسة الحكم ترمى إلى الحد من نفوذهم ، وإبعادهم عن التدخل فى شئون الدولة ، وكانوا بالعكس يرمون إلى انتزاع السلطة السياسية ليحكموا الأمة من وراء العرش بواسطة جمهورية دينية ، فجاءت سياسة الحكم ضربة قاضية على أمانيهم ، وثارت نفوسهم سخطاً على الأمير الفتى ، وأخذوا يلوحون بسبه والتعريض به من فوق المنابر ، ويوغرون عليه صدور العامة بالدس والوقيعة ، ويسبغون على دعايتهم ثوب الوعظ والإرشاد ، والحض على التمسك بأحكام الدين . وكان الحكم بإسرافه فى مجالى اللهو والبذخ ، يسبغ على أقوالهم قوة ، وكانت دعايتهم قوية بالأخص بين البربر والمولدين ( أو مسلمى الإسبان ) ، إذ كان هؤلاء يبغضون العرب لكبريائهم واستئثارهم بالمناصب والنفوذ ، وكانوا دائماً على أهبة الخروج والعصيان كلما سنحت الفرصة . وكان لتحريض الفقهاء وسعايتهم كما سنرى آثار بعيدة المدى[٣].

---

( ١ ) أخبار مجموعة ص ١٢٠ ؛ والاستقصاء ج ١ ص ٦١ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ١٥٨ ؛ وراجع أيضاً **Dozy : Hist. , I. p. 286 & 287**

( ٢ ) أخبار مجموعة ص ١٢٥ .

( ٣ ) راجع المعجب ص ١١ ؛ ونفح الطيب ج ١ ص١٥٩ ، وكذلك **Dozy : Hist,I.p. 238** وألتاليرا **Hist. de Espana, Vol. I. p. 227**

وفى بداية عهد الحكم ، فى صيف سنة ١٨٠ هـ ( ٧٩٦ م ) سار الحاجب عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث غازياً بالصائفة إلى ألبة والقلاع ، ( قشتالة القديمة ) واستولى على قلعة قلهُرّة الواقعة على نهر إيبرو ، وأثخن فى بلاد البشكنس ( نافار ) ، وعاد مثقلا بالغنائم والسبى . ولكن سرعان ما اضطر الحكم إلى ترك الجهاد والغزو ، ليعنى بمقاومة بوادر الخروج والثورة التى أخذت تتفتح حوله من كل صوب . وكان الثغر الأعلى ( أراجون ) موطن الخطر فى تلك المرة ، وكانت تؤازره وتذكيه عوامل خارجية فى منتهى الخطورة . ذلك أن الحكم ما كاد يجلس على عرش أبيه ، حتى عول عماه سليمان وعبد الله على التحرك مرة أخرى . وكانا يقيمان فى عدوة المغرب منذ أيام أخيهما هشام ، يرقبان الفرص . واتصل عبد الله بابن الأغلب صاحب إفريقية وخاطبه فى مشروعهما ، ولكنه لم يلق على ما يظهر منه تأييداً ، فاتجه الأخوان وجهة أخرى . وكانت مدائن الثغر الأعلى[1] وفى مقدمتها سرقسطة ما زالت ، منذ أيام عبد الرحمن الداخل تفيض بعوامل الفتنة ، ففى سنة ١٨١ هـ ( ٧٩٧ م ) ثار بالثغر الأعلى بهلول بن مروان المعروف بأبى الحجاج ودخل سرقسطة ، وثار حاكم مدينة وشقة فى نفس الوقت . فعبر سليمان وعبد الله سراً إلى الأندلس ، وسار عبد الله إلى الثغر الأعلى يؤلب البلاد ، ويحشد الأنصار لمقاتلة الحكم ، ثم عبر جبال البرنيه إلى بلاد الفرنج ، وسعى إلى مقابلة شارلمان ( كارل الأكبر ) فى مدينة إيكسلا شابيل حيث كان يعقد بلاطه يومئذ ، والتمس إليه العون والمؤازرة ، فأكرم ملك الفرنج وفادته ، واستجاب إلى دعوته ، وألفى الفرصة سانحة للتدخل فى شئون الأندلس ، وتحقيق مطامعه القديمة . وسير شارلمان جيشاً مع ولده لويس أمير أكوتين ، فعبر البرنيه واستولى على مدينة جيرونة ( جيرندة ) ، ثم توغل فى ولاية الثغر الأعلى ، بممالأة بعض الزعماء الخوارج ، وقيل إن الأخوين عبد الملك وعبد الكريم ابنى عبد الواحد

---

( ١ ) قال ياقوت فى معجمه الجغرافى « الثغر » ، كل موضع قريب من أرض العدو يسمى ثغراً ، كأنه مأخوذ عن الثغرة ، وهى الفرجة فى الحائط » . وكان رباط الثغر أيام فتح الأندلس يشمل أربونة وما حولها ، باعتبارها أقصى ولاية فى اسبانيا المسلمة ، مما يلى أرض الفرنج ، فلما سقطت أربونة فى يد النصارى ارتد « ثغر » الأندلس إلى ما وراء جبال البرنيه ؛ فأصبح « الثغر » يطلق على ولاية سرقسطة وما جاورها حتى برشلونة والبحر شرقاً ، وهذا هو « الثغر الأعلى » ، ويشمل عدا سرقسطة لاردة ، وتطيلة ، ووشقة ، وطرطوشة ، وطركونة وغيرها ؛ ويقابل « أراجون » من ولايات اسبانيا الحديثة . وسميت طليطلة وأعمالها « بالثغر الأوسط » لمجاورتها لمملكة ليون النصرانية ( جليقية ) .

ابن مغيث انضما يومئذ إلى عبدالله فى ثورته ، وأنهما سارا إلى سرقسطة ، ولكن أبا صفوان حاكمها من قبل الحكم ، استطاع أن يهزم الخوارج ، وأن يأسر زعيمهم عبد الكريم . وأن الأخوين عادا بعد ذلك إلى الطاعة واستأمنا فى أوائل سنة ١٨٦ هـ فأمنهما الحكم ، ووفدا على قرطبة وقدما خضوعهما وإخلاصهما[1]. وقد نجد ما يؤيد هذه الرواية فى أنه لم يرد للأخوين ذكر خلال هذه الأعوام الخمسة ، مع أنهما كانا دائماً فى الطليعة فى قيادة مختلف الحملات والغزوات . وعلى أى حال فقد بادر الحكم بالسير إلى الشمال لرد هذا الخطر الجديد . والظاهر أن الفرنج لم يلقوا الحوادث ممهدة فى ذلك الجزء المضطرم من الأندلس ، وخشوا من جهة أخرى من نكث حلفائهم المسلمين ، وتكرار مأساة باب الشزرى ؛ فارتدوا إلى الشمال بعد أن حاصروا مدينة وشقة حيناً ( ٧٩٧ م ) ، تاركين الأمور لمصيرها ؛ ولما رأى الزعماء الخوارج عبث المقاومة ، عادوا إلى الطاعة ، واسترد الحكم سلطانه على سرقسطة ووشقة ولاردة وغيرها .

---

(١) وردت هذه الرواية منسوبة إلى الرازى مؤرخ الأندلس ، فى أوراق مخطوطة عن تاريخ الأندلس من سنة ١٨٠ إلى سنة ٢٣٢ هـ عثر بها صديقى العلامة المرحوم الأستاذ « ليڤى بروڤنسال » عميد كلية الجزائر والأستاذ بجامعة باريس سابقاً . وقد تفضل بإطلاعى عليها ونقلت منها . ولم نكن نعرف وقتئذ بالتحقيق من هو مؤلف هذا المخطوط ؛ ولكن تبين فيما بعد من مقارنة الروايات التى يوردها عن مؤرخى الأندلس السابقين مثل الرازى وابن القوطية وابن الفرضى ، ثم ابن حزم وأحمد ابن خالد ، كما تبين منه مما تقدم به كتاباته وتعليقاته من الرزانة والدقة ، أن هذه الأوراق المخطوطة ، إنما هى قطعة من مؤلف مؤرخ الأندلس الكبير ابن حيان ، وهو المسمى « المقتبس فى تاريخ رجال الأندلس » . وتحتوى هذه القطعة على كثير من المعلومات والتفاصيل الحسنة عن حوادث العصر الذى نتحدث عنه وعن شخصياته . وقد حصلت بعد ذلك بأعوام من مكتبة القرويين بفاس ، على نسخة مصورة من قطعة كبيرة مخطوطة من تاريخ ابن حيان المشار إليه تبين أنها تتمة الجزء المتقدم ، إذ تبدأ حوادثها من سنة ٢٣٣ هـ وتنتهى فى سنة ٢٦٧ هـ ، وهى عبارة عن جزء كبير يقع فى مائة وتسعين صفحة كبيرة . وهى قديمة بالية متآكلة الحوافى . وقد انتفعت بها منذ الطبعة الثالثة من الكتاب انتفاعاً عظيماً حسبما يرى القارىء بعد هذا . ثم ظهرت أخيراً قطعة كبيرة من « المقتبس » تتعلق بعصر الناصر وتحفظ بالمكتبة الملكية بالرباط ، وقد أشرنا إليها وإلى محتوياتها فى مقدمة الكتاب . وقد انتفعنا بها فى هذه الطبعة الجديدة أعظم انتفاع حسبما يرى القارىء بعد . وقد نشرت من قبل قطعة أخرى من تاريخ ابن حيان بعناية المستشرق الإسبانى أنتونيا ، وهى تتعلق بالأخص بحوادث عصر الفتنة الكبرى ( ٢٥٠ — ٣٠٠ هـ ) . وتوجد قطعة صغيرة مخطوطة أخرى من تاريخ ابن حيان بمكتبة أكاديمية التاريخ بمدريد ، وهى تتعلق بأحوال الخلافة وحوادث الأندلس فى سنى ٣٦٢ — ٣٦٥ هـ أيام الحكم المستنصر .

وفى ذلك الحين كان سليمان بن عبد الرحمن قد استطاع أن يحشد أنصاره ولاسيما من البربر ، وهرع إليه أخوه عبد الله البلنسى بعد فشله فى الشمال ، وسار الخوارج إلى قرطبة يحاولون الإغارة عليها ، فالتقوا بجند الحكم على مقربة منها فى مكان يسمى « فنجيط » وذلك فى شوال سنة ١٨٢ هـ ، فهزم سليمان . ثم التقى الجمعان ثانية بالقرب من إستجّة فى صفر سنة ١٨٣ ، فهزم سليمان مرة أخرى بعد قتال عنيف ، وفر فى أصحابه متجهاً إلى ماردة ، فبعث الحكم الجند فى أثره ، فطاردته حتى قبض عليه . وجىء به إلى الحكم ، فأمر بإعدامه ، وأعدم معه عدة من زعماء الفتنة ، وأرسلت رؤوسهم إلى قرطبة حيث طيف بها ( سنة ١٨٤ هـ — ٨٠٠ م ) . وفر أخوه عبد الله إلى بلنسية فاختفى بها ، ولكنه لم ير فى النهاية مناصاً من طلب العفو ، فعفا عنه الحكم وأصدر له أماناً خاصاً ، وذلك على أن يبقى فى بلنسية وتجرى عليه أرزاقه ، وبعث عبد الله إلى الحكم بابنه عبيد الله فأكرمه الحكم وزوجه إحدى أخواته ، وركن عبد الله إلى السكينة طوال عهد الحكم[١] .

وهكذا انتهت المرحلة الأولى من الحوادث التى اقترنت بثورة سليمانُ وأخيه عبد الله ، ولم يجن الفرنج منها كبير غنم ، ولكن ذلك لم يثن شارلمان عاهل الفرنج عن عزمه ومشاريعه . ذلك أن سياسة التدخل فى شئون إسبانيا المسلمة ، كانت أصلا من أصول السياسة الفرنجية ، وكان الفرنج ينظرون بعين التوجس ، إلى قيام هذه الإمارة الإسلامية الجديدة فيما وراء البرنيه ، وإلى توطدها ونموها ، ويخشون بالأخص أن يضطرم الإسلام بفورة جديدة من الجهاد والغزو ، فينساب تيار الفتح الإسلامى إلى غاليس كرة أخرى ، وقد حاول شارلمان ضربته الأولى فى عهد عبد الرحمن الداخل فباء بالهزيمة والفشل ، ونكب فى مفاوز رونسفال ( باب الشزرى ) . ولما عبر المسلمون جبال البرنيه فى عهد هشام وغزوا سبتمانيا ، تجددت مخاوف الفرنج وتجددت مشاريعهم لتأمين حدودهم الجنوبية ، وكانوا يلتمسون الفرصة كلما اضطرمت الأندلس بالثورة . وهنا يجدر بنا أن نتساءل ، هل كان لسياسة الخلافة العباسية أثر فى صوغ هذه السياسة الفرنجية نحو الأندلس أو الإيحاء بها ؟ لقد رأينا كيف كانت الخلافة العباسية تحاول بث دعوتها فى الأندلس على يد بعض الزعماء الخوارج ، وكيف كانت هذه الدعوة تحدث أثرها فى إضرام نار

---

( ١ ) مخطوط ابن حيان المشار إليه لوحة ٩٠ .

الفتنة . على أن الخلافة العباسية ، كانت من جهة أخرى تتصل بالمملكة الفرنجية بصلات سياسية . وترجع الرواية الفرنجية هذه الصلة إلى عهد المنصور ، وتقول لنا إن پپين ملك الفرنج أرسل إلى المنصور سفارة رد عليها المنصور بمثلها ، وتضيف الرواية الفرنجية إلى ذلك أنه كانت ثمة بعدئذ مكاتبات وسفارات بين الرشيد وبين شارلمان ولد پپين ، ومع أن الرواية الإسلامية لا تذكر شيئاً عن هذه العلائق بين ملك الفرنج والخليفة العباسى ، فإن فى تفاصيل الرواية الفرنجية ، وفى طبيعة الحوادث التى كان يجوزها الشرق والغرب يومئذ ، مايحملنا على الاعتقاد فى صحتها[1]. وهذه العلائق ذاتها تلقى ضوءاً على موقف السياسة العباسية ، من حوادث الأندلس فى ذلك الحين . فقد كانت الخلافة العباسية ترى فى قيام إمارة قرطبة الأموية فى الغرب منافساً لها فى سيادة العالم الإسلامى ، ولم يكن يسوءها أن تتعثر هذه الإمارة الفتية فى معترك من الصعاب والفتن ، وأن تشغل بمقارعة أعدائها فى الداخل والخارج . وإذاً فقد كانت الخلافة العباسية تشاطر السياسة الفرنجية نفس الغاية التى ترمى إليها بالنسبة لإمارة قرطبة ، وهى العمل على إضعافها وتحطيمها إن أمكن ، ولما كانت الدولة العباسية لاتستطيع أن تعمل لتحقيق هذه الغاية بطريق مباشر ، فقد كان فى وسعها على الأقل أن تعمل لتأييدها بطريق الدعوة والتحريض . ولم يكن بعيداً أن يجد الخليفة العباسى ، وهو يبسط حكمه على ملايين من النصارى ، وفى أرضه يقع القبر المقدس ، وسيلة للتفاهم مع إمبراطور الفرنج وحامى النصرانية ، وأن يجد عاهل الفرنج ما يشجعه على إذكاء تحرشه بإمارة قرطبة ، فى رفق الخليفة برعاياه النصارى ، هذا فضلا عن أن السياسة الفرنجية تعمل بذلك على تحقيق غايتها الأصلية من مناوأة الإسلام فى اسبانيا وإضعاف سيادته ونفوذه ، وحماية حدود مملكة الفرنج الجنوبية . وإذاً فمن المحتمل أن يكون لهذه السفارات والمراسلات السياسية ، التى تقول الرواية الفرنجية بوقوعها بين الرشيد وشارلمان ، صلة بهذه المرحلة من تدخل الفرنج فى شئون اسبانيا المسلمة ، واعتدائهم المتكرر على أراضيها . وقد وقع الغزو الفرنجى لشمال اسبانيا فى عهد الحكم بين سنتى ١٨١ و ١٨٥ هـ ، أعنى فى أواسط عهد الرشيد

---

( ١ ) تناولت موضوع العلائق بين الرشيد وشارلمان فى فصل خاص فى كتابى « مواقف حاسمة فى تاريخ الإسلام » ( الطبعة الرابعة ص ٢١٨ — ٢٢٤ ) .

( ١٧٠ — ١٩٣ هـ ) . والواقع أن فى اتحاد المصلحة والغاية بين الخليفة العباسى وعاهل الفرنج ، ما يسبغ على هذا الفرض تأييداً .

ولما كانت السياسة الفرنجية ترمى قبل كل شىء إلى تأمين غاليس ( جنوب فرنسا ) من خطر الغزو الإسلامى ، فقد رأت أن تنشىء فى قاصية اسبانيا الشمالية الشرقية مما يلى جبال البرنيه ، ولاية فرنجية جديدة تكون سداً بين الغزاة وبين مملكة الفرنج ، وأنشئت هذه الولاية التى سميت « بالثغر القوطى » أو الثغر الإسبانى فى البداية ، من مدن چيرونة (جيرندة) وأوزونة وسولسونة ، وما حولها مما اقتطعه الفرنج من أراضى اسبانيا المسلمة ، التى كانت تابعة لرباط الثغر الإسلامى القديم . ولما عاد الاضطراب إلى الثغر الأعلى ، وشغلت حكومة قرطبة بأمر الثورات الداخلية المتوالية ، ألفى الفرنج الفرصة سانحة لدفع غزواتهم نحو الجنوب ، وكان شارلمان يطمح بالأخص إلى افتتاح ثغر برشلونة المنيع ليكون معقلا لحماية أملاكه الجنوبية ، وحلقة اتصال بحرى سهل بينها وبين فرنسا . وعمد شارلمان قبل البدء فى تنفيذ مشروعه إلى عقد محالفة بينه وبين أمير جليقية ألفونسو الثانى ( سنة ٧٩٨ م ) ، لكى يكتسب ولاء البشكنس ومعاونتهم . وفى سنة ٨٠١م ( ١٨٥ هـ ) سير شارلمان إلى اسبانيا جيشاً ضخماً لافتتاح برشلونة بقيادة ولده لويس أمير أكوتين ، وانقسم هذا الجيش إلى قسمين ، سار أحدهما بقيادة حاكم چيرونة لمحاصرة برشلونة ، وسار الآخر بقيادة جيوم كونت دى تولوز ليرابط جنوب غربى برشلونة بين لاردة وطركونة ، ليحول دون وصول أى مدد إلى المدينة المحصورة . وكان الحكم يشغل يومئذ بمطاردة الخوارج عليه وفى مقدمتهم عمه عبد الله ، وكان والى برشلونة ، سعدون الرعينى ، فى مأزق حرج ، يتطلع عبثاً إلى قدوم المدد ، وهو فى ثغره القاصى بعيداً عن كل عون ومساعدة ، ولم يكن له ما يؤمل من معاونة زملائه ولاة الثغر الأعلى ، ومعظمهم يضمر الخروج على حكومة قرطبة ، ويرى فى اضطراب الأمور ملاذاً . ومع ذلك فقد صمدت برشلونة ، وصمم واليها الشجاع على المقاومة ، ولبثت حيناً تعانى أمر ضروب الحرمان والجوع ، دون أن يأتيها المدد المنشود . ثم تفاقم الأمر وجاء جيش جديد من الفرنج بقيادة لويس ليشدد الحصار على المدينة ، فرأى سعدون الرعينى أن يحاول التماس المدد بنفسه من قرطبة ، وغادر برشلونة تحت جنح الظلام ،

وحاول أن يخترق خطوط العدو ، ولكنه ضبط وأسر ، ولم تستطع برشلونة ثباتاً بعد أن هلك ألوف من أهلها ، وفتحت ثغرات عديدة فى أسوارها ، فاضطرت إلى التسليم بعد أن ذاقت ويلات الحصار سبعة أشهر . واتخذ الفرنج من برشلونة مكان جيرندة ، قاعدة للثغر القوطى الذى نما فيما بعد ، وكان الفرنج يعينون حكامه من الكونتات الذين ينتمون إلى أصل قوطى أو فرنجى . ولم يلبث أولئك الحكام ، حينما شعروا بقوتهم وبعدهم عن سلطان مملكة الفرنج ، أن أعلنوا استقلالهم ، وغدا الثغر الفرنجى إمارة نصرانية هى إمارة قطلونية ، التى اندمجت فيما بعد فى مملكة أراجون القوية ، وخسر الإسلام بفقد برشلونة أمنع ثغوره فى قاصية اسبانيا ، وارتدت حدود الأندلس إلى الثغر الأعلى ، بعد أن كانت تجاوز جبال البرنيه[١].

وفى سنة ١٨٩ هـ ( ٨٠٥ م ) اكتشف الحكم مؤامرة خطيرة دبرت لخلعه ، وكان من ورائها رهط الفقهاء الذين قضى الحكم على نفوذهم ، مثل يحيى بن يحيى الليثى ، وعيسى بن دينار ، وطالوت الفقيه ، وغيرهم من زعماء المالكية . وقد رأينا كيف سخط الفقهاء على الحكم لتصدع نفوذهم القديم ، وأثاروا عليه وعلى خلاله دعاية قوية ، واتهموه من فوق المنابر بالقسوة والخروج على أحكام الدين ، وكيف كان الحكم ، بمرحه وبذخه ، وشغفه باللهو والشراب ، يسبغ على دعايتهم قوة . وكان ثمة فريق آخر من أعيان قرطبة ينقم على الحكم صرامته وطغيانه . وكان هؤلاء وهؤلاء يتربصون بالحكم ويلتمسون الفرصة للإيقاع به ، وكان فى موقف الشعب القرطبى ، ما يشجعهم على تدبير مشاريعهم ، إذ كان الشعب متأثراً بدعاية الفقهاء فى حق الحكم ، ومما كان يبديه الحكم من ترفع عن الشعب ، فكان أهل قرطبة يبغضون الحكم وبلاطه . وهكذا ائتمر الفقهاء والأعيان بالحكم واتفقوا على خلعه ، وكان فى مقدمة المتآمرين مالك بن يزيد بن يحيى التجيبى ، وموسى بن سالم الخولانى ، وأبو كعب بن عبد البر وأخوه عيسى ، ويحيى ابن مضر القيسى الفقيه وغيرهم ، وكان بينهم بعض المروانية من أقارب الحكم ، ومنهم محمد بن القاسم المروانى الذى اختاره المتآمرون لرياستهم ، ووعدوه بأن

---

( ١ ) تضع الرواية الإسلامية تاريخ سقوط برشلونة فى سنة ١٨٥ هـ ( ٨٠١ م ) متفقة بذلك مع الرواية الفرنجية ، وقد وردت عنه نبذة حسنة فى مخطوط ابن حيان الذى أشرنا إليه ( ص ٩٠ ) . وراجع ابن الأثير ج ٦ ص ٥٥ ؛ وكذلك Scott : ibid , V. I. p. 448-452; و . Altamira : Hist. de Espana : Vol. I. p. 241

يكون خلف الحكم فى الإمارة[1] ، ولكنه خشى العاقبة وبادر بإبلاغ الحكم ، واكتشفت المؤامرة قبل نضجها ، وقبض الحكم على عدد كبير من المتآمرين . واستطاع بعضهم الفرار ، مثل يحيى بن يحيى ، وعيسى بن دينار . وأعدم الحكم منهم اثنين وسبعين رجلا ، وأبدى فى إعدامهم قسوة ظاهرة ، إذ صلبهم على شاطىء النهر تجاه مشارف القصر ، وكان من بين القتلى عماه مسلمة المشهور بكليب ، وأمية ، ابنا عبد الرحمن بن معاوية ، قتلهما لارتيابه فى سلوكهما ، فأثار هذا الإجراء الدموى فى قرطبة أيما ارتياع ، وأسبغ على خلال الحكم ريباً ، وأذكى الحفيظة على الأمير فى نفوس الخاصة والعامة معاً . وشعر الحكم بخطورة هذا الأثر ، فحصن قرطبة ورمم أسوارها ، واحتفر الخنادق حولها ، وفرض على الشعب حكم إرهاب يزيد فى حفيظته . ولم تمض أشهر على ذلك حتى اضطرمت فى قرطبة فورة من السخط ، وثار العامة فى الرَّبض ( الضاحية ) بزعامة رجل منهم يقال له ديبل ، وكان الحكم غائباً يشرف على محاصرة الثوار فى ماردة ، فعاد مسرعاً إلى قرطبة ، وقبض على زعيم الفتنة وعدة كبيرة من أنصاره ، وصلبوا جميعاً ومثل بهم ، وسحق الهياج دون رأفة ، وهدأت العاصمة إلى حين[2] .

وفى العام التالى ، سنة ١٩٠ ﻫ ( ٨٠٦ م ) ، نشبت الثورة فى ماردة بقيادة زعيمها أصبغ بن عبد الله بن وانسوس ، فسار الحكم إلى قتاله ، ولكنه ارتد عنه حينما وقف على نبأ الهياج فى قرطبة . وترددت الحملات والبعوث بعد ذلك إلى ماردة لإخماد الثورة ، واستمر زعيمها أصبغ على مقاومته بضعة أعوام ، وكان ذا وجاهة وبأس ، يلتف حوله مواطنوه البربر ، وهم كثرة فى ماردة وما حولها ، ولكنه اضطر أخيراً إزاء حزم الحكم وصرامته إلى طلب الأمان والصلح ، فاجابه الحكم إلى طلبه ، وعادت ماردة إلى الطاعة[3] .

وكانت طليطلة حاضرة القوط القديمة ، وقاعدة «الثغر الأوسط»[4] ما تزال

---

( ١ ) راجع البيان المغرب ج ٢ ص ٧٣ ؛ وابن الأثير ج ٦ ص ٦٦ ؛ ولكن ابن القوطية يذكر أن المتآمرين بايعوا شخصاً آخر من أبناء عمومة الحكم .

( ٢ ) البيان المغرب ج ٢ ص ٧٣ ؛ وابن الأثير ج ٦ ص ٨٦ ، ومخطوط ابن حيان المشار إليه ص ٩٨ .

( ٣ ) البيان المغرب ج ٢ ص ٧٤ ، ومخطوط ابن حيان المشار إليه ص ٩٩ .

( ٤ ) تسمى طليطلة وأعمالها فى الجغرافية الأندلسية « بالثغر بالأوسط » حسبما تقدم .

منذ الفتح تفيض بعوامل الهياج والثورة ، وكان بين أهلها كثرة من المولدين أو النصارى الذين دخلوا فى الإسلام ، والمستعربين أو النصارى المعاهدين . وقد سبق أن عنينا بالتعريف بهذين العنصرين ، اللذين اضطلعا بأدوار خطيرة فى تاريخ اسبانيا المسلمة ، وأوضحنا أن العرب والبربر ، وهما العنصران اللذان تعاونا فى فتح اسبانيا ، لم يكونا أغلبية بين الشعب الأندلسى الذى تكون بعد الفتح بمضى الزمن ، وكان العرب بالأخص أقلية فى معظم المدن الكبيرة ، لكن هذه الأقلية العربية كانت تستأثر بالحكم ، وخصوصاً فى الأقاليم الوسطى والجنوبية القريبة من قرطبة مركز الإمارة والسيادة . وكان البربر من جانبهم أغلبية فى بعض المناطق الغربية والشمالية ، وكانوا حيثما غلبت كثرتهم وسلطتهم ، يتحدون فى معظم الأحيان مع المولدين ، وأحياناً مع النصارى المعاهدين أنفسهم ، على مناوأة حكومة قرطبة . أما «المولدون» فكان معظمهم حسبما أسلفنا من الإسبان والقوط الذين اعتنقوا الإسلام منذ الفتح تباعاً ، واندمجوا فى المجتمع الإسلامى ، وقد كانوا كثرة فى بعض المدن القوطية العريقة مثل طليطلة وبعض مدن الثغر الأعلى ، وقد برزت منهم بعض الأسر القوية ذات السلطان والبأس ، مثل بنى قسى زعماء الثغر الأعلى وبنو حفصون زعماء ريُّه ، ويصفهم المستشرق سيمونيت بأنهم كانوا بعد اندماجهم فى المجتمع الإسلامى أشد تعصباً ضد النصارى من المسلمين الخلص أنفسهم[1] . وأما النصارى المعاهدون أو المستعربون كما يسمون بالإسبانية Mozárabes ، فهم حسبما أشرنا من قبل النصارى الإسبان الذين آثروا الاحتفاظ بدينهم ، وبقوا فى المدن الأندلسية المفتوحة تحت الحكم الإسلامى . وبالرغم مما كانت تسبغه الحكومة الإسلامية عليهم من أسباب الرعاية ، وما كان لهم فى كثير من الأحيان من الحظوة والتمتع بثقة الأمراء ، وتولى كثير من الوظائف الهامة ، فقد كانوا على العموم عنصراً قليل الولاء للحكومة الإسلامية ، وكانوا فى المدن البعيدة فى كثير من الأحيان ، يحالفون الثوار من المسلمين والبربر والمولدين ، ويمالئونهم ، ويعملون على عقد الصلات بينهم وبين الملوك النصارى ، سعياً إلى مناوأة حكومة قرطبة وخلق الصعاب فى وجهها . وسنرى أى دور خطير يلعبه أولئك النصارى المعاهدون فى قرطبة فى عهد عبد الرحمن بن الحكم ، لإثارة الفتن والاضطراب فى المملكة الإسلامية .

---

(١) Simonet: Hist. de los Mozárabes, Vol.I.p. 362

هذا ، وفضلا عما كان للمولدين والنصارى المعاهدين من كثرة ظاهرة فى مدينة طليطلة ، فإن أهل طليطلة على وجه العموم ، لم ينسوا سالف عزهم ومجدهم أيام أن كانت مدينتهم دار ملك القوط ، وكانوا يعتزون بكثرتهم وثروتهم وحصانة مدينتهم[1] ، وتحدوهم روح من التمرد والخروج المستمر على حكومة قرطبة . وقد رأينا كيف كانت طليطلة مركز الثورة ، وملاذ الزعماء الخوارج منذ عهد عبد الرحمن الداخل . وفى عهد الحكم عادت طليطلة إلى سابق سيرتها ، وثار فيها فى سنة ١٨١ هـ ( ٧٩٧ م ) عبيدة بن حميد ، فوجه الحكم قائده عمروس ابن يوسف لمحاربته ، وكان يقود الجيش فى طلبيرة ، فالتقى بالثوار فى عدة وقائع ، ولما رأى ثبات الثوار لجأ إلى سلاح الغيلة ، واستمال إليه بعض وجهاء المدينة بالمنح والوعود ، ودفعهم إلى اغتيال عبيدة بن حميد ، وبذا أخمدت الثورة إلى حين ، وأذعنت المدينة الثائرة لسلطان الحكم . ولكن هذا الهدوء المؤقت لم يطل أمده ، ولم تمض بضعة أعوام حتى عادت طليطلة إلى الثورة ، ولم ير الحكم وسيلة لإخضاعها سوى تعيين عمروس بن يوسف حاكماً لها . وكان عمروس « مولداً » من أهل وشقة ، ذا وجاهة وبأس ، وكان قد ظهر فى الثغر الأعلى ، وأظهر طاعة الحكم ودعا له ، خلافاً لكثير من زعماء الثغر الخوارج ، فسر الحكم بمسلكه ودعاه إلى خدمته ، واختاره للقيادة ، ثم اختاره لولاية طليطلة ليعالج المدينة الثائرة ، ويعمل على إخضاعها ، ولوحظ فى هذا الاختيار أن عمروس مولد ، وأن معظم أهل طليطلة من المولدين . وكتب الحكم إلى أهل طليطلة يقول : « إنى قد اخترت لكم فلاناً وهو منكم لتطمئن قلوبكم إليه ، وأعفيتكم ممن تكرهون من عمالنا وموالينا ، ولتعرفوا جميل رأينا فيكم » . ودخل عمروس طليطلة ، فأنس به أهلها ، وتظاهر أمامهم ببغض بنى أمية والموافقة على خلع طاعتهم ، واستمالهم برفقه ولينه ، ثم أنشأ بموافقتهم فى ظاهر طليطلة قلعة حصينة بحجة إيواء الجند والموظفين فيها بعيداً عن أهل المدينة وحرصاً على راحتهم ، وبعث إلى الحكم يستقدم إليه الجند سراً ، فسير الحكم جيشاً بقيادة ولده عبد الرحمن لمقاتلة نصارى الشمال فى الظاهر ، ثم عرج هذا الجيش حين العودة على طليطلة ، وخرج عمروس لملاقاة الأمير

---

( ١ ) إن إلقاء نظرة على موقع طليطلة فوق المنحدر الصخرى الوعر المشرف على منحنى نهر التاجه ، والنهر محيط بها من كل نواحيها تقريباً ، وبقية الأسوار الهائلة التى كانت تحيط بها ، كل ذلك يدل على ما كانت عليه هذه المدينة التالدة من الحصانة فى تلك العصور .

وتحيته ، ومعه وجوه المدينة ، فأكرمهم عبد الرحمن ولاطفهم . وهنا دبرت المؤامرة التى هلك فيها وجوه طليطلة وأعيانها ، وفى بعض الروايات أن الذى دبرها وأوعز بتنفيذها هو الحكم ، فى خطاب أرسله سراً إلى عمروس مع ولده عبد الرحمن ، وفى البعض الآخر أن الذى دبر الكمين هو عمروس . وعلى أى حال فقد نفذت المؤامرة بأن أقام عمروس فى القلعة الجديدة ، وليمة حافلة دعا إليها ألوفاً من الكبراء والأعيان ، ورتب الدخول من باب والخروج من باب آخر ، منعاً للزحام ، وجعل الخدم يقتادون المدعوين إلى غرف الطعام عشرة عشرة ، وكلما دخل منهم فوج أخذوا إلى ناحية معينة ، وضربت أعناقهم ، وألقيت جثثهم إلى حفرة عظيمة ، حفرت خصيصاً فى مؤخرة القصر ، وأصوات الطبول والمزامير تحول دون سماع استغاثتهم ، ولم يفطن أحد إلى الحقيقة المروعة إلا بعد أن تعالى النهار ، ولم يبد للداخلين أثر فى الخروج ، ولم يسمع لهم ضجيج ، فعندئذ فطن البعض إلى الكمين ، وتصايح القادمون ونكصوا على أعقابهم ، وهلك فى تلك المذبحة التى تعرف بواقعة « الحفرة » عدد كبير من وجوه طليطلة وأعيانها ، يقدره البعض ببضع مئين والبعض الآخر ببضعة آلاف ، وكانت ضربة شديدة للمدينة الثائرة جردتها من زعامتها ، وأضعفت من شأنها ، وقضت مدى حين على روح الثورة فيها ، وكانت وقعة الحفرة فى سنة ١٩١ هـ ( ٨٠٧ م )(١) .

وفى ذلك الحين غزا الفرنج بقيادة لويس ولد شارلمان(٢) ، ولاية الثغر الأعلى مرة أخرى ، وحاصروا مدينة طرطوشة ( سنة ١٩٢ هـ ) ، فبعث الحكم جيشاً إلى الشمال بقيادة ولده عبد الرحمن ، فارتد الفرنج إلى أراضيهم ، ثم عادوا إلى حصار طرطوشة فى العام التالى بقيادة لويس أيضاً ، وعاد المسلمون إلى قتالهم بقيادة عبد الرحمن ، ومعه فى تلك المرة عمروس عامل الثغر الأوسط ،

---

( ١ ) راجع ابن الأثير ج ٦ ص ٦٥ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٢٦ و ١٢٧ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٧١ و ٧٢ ، وفيه أن من هلك فى مذبحة الحفرة ، بلغ زهاء سبعمائة فقط . وجاء فى مخطوط ابن حيان السابق ذكره ، رواية عيسى بن أحمد الرازى ، أن الذى دبر الكمين هو الأمير عبد الرحمن بن الحكم ، وأنه هو الذى أولم الوليمة ، وأنه هلك فى المذبحة زهاء خمسة آلاف ( ص ٩٣ ) . وراجع أيضاً Dozy : Hist., I. p. 291—294.

( ٢ ) وتسميه الرواية العربية خطأً برذريق أو لذريق بن قارله ( ابن الأثير ج ٦ ص ٦٦ والبيان المغرب ج ٢ ص ٧٤ ) .

وعبدون عامل الثغر الأعلى ، فى قواتهما ، ونشبت بين المسلمين والفرنج عدة وقائع انتهت بهزيمة الفرنج وإنقاذ طرطوشة ، وذلك فى سنة ١٩٣ هـ ( ٨٠٩ م ) .

وعمد نصارى الشمال كعادتهم إلى انتهاز كل فرصة سانحة للإغارة على أراضى المسلمين ، وشجعهم انشغال حكومة قرطبة بقمع الثورات المختلفة ، وكان ملك جليقية يومئذ ألفونسو الثانى ، الملقب بالعفيف ، أميراً شديد التعصب لدينه ووطنه ، وكانت حملاته المتوالية إلى أراضى المسلمين يطبعها لون دينى عميق ، وعبر ألفونسو نهر دويرة (دورو) إلى أراضى المسلمين غير مرة ، وعاث فيها قتلا ونهباً وسبياً ، وكانت حملاته تتجه بالأخص إلى أطراف الثغر الأدنى ، والى المنطقة الواقعة بين نهرى دويرة والتَّاجُه ، لبعدها عن حكومة قرطبة ، وضعف وسائل الدفاع فيها ، وتوغل ألفونسو فى حملاته حتى قُلُمْرِية ( قلنبرية ) وأشبونة ، وعانى المسلمون فى تلك الأنحاء كثيراً من جراء غزوات النصارى ، وترامت إلى الحكم آلامهم واستغاثتهم ، ورفع إليه شاعره عباس بن ناصح الجزيرى قصيدة يصف فيها آلام أهل الثغر ومصائبهم . فى صيف سنة ١٩٤ هـ ( ٨١٠ م )(١) ، سار الحكم غازياً بنفسه إلى أراضى ألبة والقلاع ، وتوغل فيها مما يلى وادى الحجارة غرباً ، وأثخن فى تلك الأنحاء ، وهزم النصارى فى عدة وقائع ، وقتل وسبى منهم جموعاً كثيرة ، واطمأنت نفوس المسلمين فى الثغر بزجر النصارى وردهم إلى داخل أراضيهم .

وسير الحكم فى العام التالى جيشاً إلى الثغر الأعلى بقيادة عمه عبد الله البلنسى ، فغزا قطلونية ، وهاجم مدينة برشلونة ، وهزم الفرنج ، ولكنه لم يحرز فتوحاً ثابتة . وشعر الفرنج ، كما شعر المسلمون بعقم هذه الحملات المخربة ، وآثر الفريقان التفاهم والمهادنة ، ويقول لنا ابن حيان إنه كان ثمة باعث آخر على التعجيل بعقد السلم بين العاهلين ، هو استفحال أمر إدريس بن إدريس بن عبد الله الحسنى بأرض العدوة ( المغرب ) ، وتقاطر الوفود من إفريقية والأندلس إلى بيعته ، وتوجس الحكم من مصاير هذه الحركة الجديدة بالمغرب (٢) . وهكذا عقد

( ١ ) هذه رواية صاحب البيان المغرب ( ج ٢ ص ٧٥ ) ويضع ابن الأثير تاريخ هذه الغزوة فى سنة ١٩٦ هـ .

( ٢ ) مخطوط ابن حيان المشار إليه ص ١٠٠ . ويسمى ابن حيان هنا ملك الفرنج باسمه الصحيح « قارله بن ببين » . وراجع الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى ج ١ ص ٧١ و ٧٢ .

السلم بين شارلمان والحكم ، واستمر معقوداً حتى وفاة شارلمان بعد ذلك بأعوام قلائل فى سنة ٨١٤ م .

ووقعت فى تلك الأثناء عدة ثورات محلية ، فثار حزم بن وهب فى باجة ، وامتد سلطانه حتى أشبونة ، فسير إليه الحكم ولده هشاماً ، فقاتل الثوار حتى أذعنوا لطلب الأمان . وعادت طليطلة إلى الثورة فى سنة ١٩٧ هـ لأعوام قلائل من واقعة الحفرة ، فرأى الحكم أن يسير إليها بنفسه ، فسار فى قواته من طريق منحرفة كأنه يقصد الشمال ، ثم تحول إليها فجأة ، ولم تكن الثورة يومئذ ، فى مثل عنفها القديم ، فلم يجد الحكم مشقة فى دخول المدينة الثائرة وإخضاعها (سنة ١٩٩ هـ) . وثارت بعد ذلك ماردة بقيادة زعيمها مروان بن يونس الجليقى ، فبعث الحكم إليها ولده عبد الرحمن فى الجند فأخضعها .

وفى سنة ١٩٧ هـ (٨١٢ م) عصف بالولايات الشمالية قحط شديد ، وعانى المسلمون فى تلك الأنحاء كثيراً من ضروب الحرمان والبؤس ، ومات منهم خلق كثير ، وعبر البحر إلى العدوة الكثير منهم ، فبادر الحكم إلى إغاثتهم ومعاونة المنكوبين منهم ، وتخفيف الويل عنهم ، وفرق الصدقات الواسعة والأموال الكثيرة فى الضعفاء والمساكين ، وأبناء السبيل ، وفى ذلك يمتدحه شاعره عباس بن ناصح الجزيرى بقوله :

نكد الزمان فآمنت أيامه  من أن يكون بعصره عسر
طلع الزمان بأزمة فجلت له  تلك الكريهة جوده الغمر

وكانت آخر غزوة قام بها الحكم فى الشمال فى سنة ٢٠٠ هـ (٨١٥ م) إذ سير الحاجب عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث إلى جليقية فى جيش ضخم ، وكان الجلالقة وحلفاؤهم البشكنس ما يزالون على عدوانهم وعيثهم بالأراضى الإسلامية المجاورة ، فتوغل المسلمون فى أراضى جليقية ، وأثخنوا فيها ، ونشبت بينهم وبين النصارى موقعة شديدة على ضفاف نهر أرون استمرت عدة أيام ، وانتهت بهزيمة النصارى ، وقتل منهم عدد كبير ، ووقع فى الأسر جماعة من أمرائهم وأكابرهم ، وارتد النصارى إلى الداخل ، واعتصموا بالوهاد والربى ، وعاد الحاجب إلى قرطبة ظافراً[1] .

---

(١) نفح الطيب ج ١ ص ١٥٩ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٧٧ .

وفى أواخر عهد الحكم اضطرمت بقرطبة ثورة خطيرة كادت أن تزعزع عرشه ، وكان الشعب القرطبى ينقم على الأمير طغيانه وصرامته وكبرياءه ، وكان بين أهل قرطبة كثير من « المولدين » الذين يبغضون السلطة الحاكمة ، لشعورهم بنقص فى مركزهم الإجتماعى وفى حقوقهم العامة ، وكان الفقهاء من جهة أخرى ، وفى مقدمتهم جماعة من المحرضين البارعين مثل طالوت المعافرى وغيره ، يعملون على إذكاء سخط العامة على الحكم وبلاطه ، بما يرمون به الحكم من جنوح إلى المعاصى ، واقتراف للإثم ، وانهماك فى اللهو والشراب ، فكانت بين الأمير وبين أهل قرطبة وحشة تشتد على ممر الأيام ، وزاد فى سخط العامة ما فرضه الحكم على المواد الغذائية ، من عشور مرهقة ، وكان العامة يجاهرون بذم الأمير والخوض فى سيرته ، ويجتمعون فى المساجد ليلا لتجريحه والطعن عليه ، ووصلت بهم الجرأة إلى أن كانوا يتعرضون له فى الطريق ، وينعتونه علنا « بالمخمور » . وحدث ذات يوم أن خرج الأمير إلى الصيد ، وشق سوق «الربض» فتعرضوا له بالقول ، وصفقوا عليه بالأكف ، فأمر بالقبض على عشرة من زعمائهم وصلبهم . ويقول لنا ابن القوطية ، إن أولئك الذين قبض عليهم وصلبوا كانوا من زعماء مؤامرة دبرت ضد الحكم ، وكان منهم بعض أعلام القوم ، مثل يحيى بن نصر اليحصبى ، وموسى بن سالم الخولانى وولده[1]. وهنا ازداد الهياج ، وبدت أعراض الثورة ، وتحفز العامة للوثوب ، وأكثروا من التعرض لجند الأمير وحرسه والاعتداء عليهم ، وشعر الحكم بخطورة الموقف ، فحصن القصر واتخذ أهبته . وفى ذات يوم اضطرمت نار الثورة فجأة ، وذلك على أثر مشادة وقعت بين أحد مماليك الحكم وبين صيقل عهد إليه بصقل سيفه ، فتباطأ الصيقل ، فقتله المملوك ، فثار العامة فى الحال ، وهرعوا إلى السلاح ، وكان أشدهم تحفزاً وهياجاً أهل «الربض» الجنوبى فى الضفة الأخرى من النهر ، وهى ضاحية قرطبة الجنوبية المسماة « شَقُنْدة» ، وكانت كثرتهم من الأوغاد والسفلة ، وكان ذلك فى اليوم الثالث عشر من رمضان سنة ٢٠٢ هـ ( ٢٥ مارس ٨١٨ م )[2]، وزحفت

---

(١) ابن القوطية فى « افتتاح الأندلس » ص ٥٠ و ٥١ .

(٢) تختلف الرواية الإسلامية فى تاريخ هذه الواقعة اختلافاً بينا ، فتضع معظم الروايات الأندلسية تاريخها فى سنة ٢٠٢هـ ؛ ويعين ابن الأبار اليوم والشهر الذى وقعت فيه فيقول إنها وقعت =

جموع الثوار إلى القصر من كل ناحية ، وتأهب الحكم فى حرسه وغلمانه لردها ، وبعث ابن عمه عبيد الله البلنسى صاحب الصوائف ، والحاجب عبد الكريم ، فى قوة من الفرسان والمشاة ، فاستقبلت الجموع الزاحفة ، وردتها إلى الوراء بعد أن نفذت إلى فناء القصر ، ثم شقت طريقها إلى النهر واقتحمته إلى الضاحية الثائرة ، وأضرمت النار فى عدة من أنحائها ، ونجحت هذه الوسيلة فى تفرقة شمل الثوار ، إذ ما كادت ألسنة اللهب تبدو ، حتى هرع الكثير منهم إلى دورهم يحاولون إطفاء النار وإنقاذ الأهل والولد . وهنا احتاط الجند بالثوار من كل ناحية وأمعنوا فيهم قتلا حتى أفنوا منهم خلقاً كثيراً ، وطاردوهم فى كل مكان ، ونهبت دورهم ، وأسر منهم عدد كبير ، وفر من استطاع ، ومنهم بعض الفقهاء والمحرضين مثل طالوت وغيره ، والتجأ البعض إلى طليطلة ، واستمر القتل والنهب ثلاثة أيام حتى مزقوا كل ممزق ، وصلب الحكم تجاه قصره على شاطىء النهر ثلاثمائة رجل من الثوار ، صفوفاً منكسة ، إرهاباً لأهل قرطبة . ثم كف الجند عنهم ، ونودى بالأمان وهدأت الفتنة ، وأمر الحكم بديار الثوار فهدمت عن آخرها ، ولا سيما «الرَّبَض» القبلى الذى كان مهد الفتنة ، وقام على الهدم ربيع القومس عامل أهل الذمة وقائد الغلمان الخاصة ، فمسح أحياء الثوار مسحاً ، وغدت ألوف كثيرة منهم دون مأوى ، وأمر الحكم بخروجهم من قرطبة فى الحال ، وأن

---

=فى يوم الأربعاء ١٣ رمضان سنة ٢٠٢ (الحلة السيراء ص ٣٩) ؛ ويوافقه ابن عذارى فيضع تاريخها فى نفس العام (ج ٢ ص ٨٧ ) ؛ وتؤيد هذا التاريخ عدة روايات وردت فى مخطوط ابن حيان الذى بين أيدينا ، ومنها رواية الرازى (ص ١٠٣ و ١٠٤ ) . ولكن ابن الأثير يضع تاريخ واقعة الربض فى سنة ١٩٨ هـ ، وإن كان يشير أيضاً إلى ما قيل من وقوعها فى سنة ٢٠٢ هـ (ج ٦ ص ١٠١ و ١٠٢ ) ؛ ويأخذ المشارقة بهذه الرواية ؛ فنرى المقريزى مثلا يضع مقدم الأندلسيين الذين نزحوا على أثر الواقعة إلى الإسكندرية فى سنة ١٩٩ هـ ، ويشير إلى اشتراكهم فى الحرب الأهلية التى كانت تضطرم يومئذ بها فى سنتى ٢٠٠ و ٢٠١ هـ (راجع خطط المقريزى — مصر — ج ١ ص ٢٧٨—٢٨٠ ) وذلك مما قد يعزز رواية ابن الأثير فى حدوث الواقعة سنة ١٩٨ هـ ؛ ويميل دوزى أيضاً إلى الأخذ بهذه الرواية (ج ١ ص ٢٩٦ — ٢٩٧ ) ، ويستشهد بما يرويه المقريزى من الوقائع المادية . على أننا نميل من جانبنا إلى الأخذ بالرواية الأندلسية ، لقدمها واتفاقها ، وكونها أقرب إلى ميدان الحوادث وأقرب إلى التحقيق . وأما رواية المقريزى ، فقد يحمل ما ورد فيها إلى اضطراب فى ذكر الحوادث ، خصوصاً وأن الحرب الأهلية المصرية التى يشير إلى اشتراك الأندلسيين فيها قد استمرت من سنة ١٩٩ إلى سنة ٢٠٥ هـ ، مما يمكن معه أن نوفق بين أقواله وبين حدوث واقعة الربض فى سنة ٢٠٢ هـ (وراجع النجوم الزاهرة ج ٢ ص ١٦٩ و ١٧٨ ) .

لا أمان لمن لديه تخلف منهم . وبدأ رحيلهم فى العشرين من رمضان (٢٠٢ هـ) فتفرقوا فى الثغور والكور ، ولجأت جموع منهم إلى طليطلة لمخالفة أهلها على الحكم يومئذ ، وعبر البحر كثير منهم إلى عدوة المغرب ، واتجهت جماعة كبيرة منهم قوامها زهاء خمسة عشر ألفاً إلى المشرق فى عدة من السفن ، ورست فى مياه الإسكندرية ، وكانت مصر تضطرم يومئذ بنار الحرب الأهلية التى نشبت بين السّرى بن الحكم وبين خصومه حول ولايتها ، فنزل الأندلسيون إلى الثغر واستقروا فيه ، واشتركوا فى الحرب الأهلية ، واستمرت الفتنة بمصر ، والأندلسيون بالإسكندرية ، حتى قدم عبد الله بن طاهر إلى مصر أميراً عليها من قبل الخليفة المأمون ، فسار إلى الإسكندرية وحاصرها ، واضطر الأندلسيون إلى الإذعان والصلح ، وغادروا الإسكندرية فى سفنهم ، وساروا إلى جزيرة إقريطش (كريت) ، بقيادة زعيمهم أبى حفص عمر بن عيسى البلوطى ، وافتتحوها ، ونزلوا بها (٢١٢ هـ — ٨٢٧ م) ، وأسسوا بها دولة صغيرة زاهرة استمرت زهاء قرن وثلث ، حتى استعاد البيزنطيون الجزيرة من المسلمين سنة ٣٥٠ هـ (٩٦١ م) .

هكذا كانت ثورة « الربض » التى كادت أن تحمل الحكم وعرشه ، وكانت ثورة شعبية بمعنى الكلمة ، ولكنها كانت دون تنظيم ودون زعامة ، وقد أدرك الحكم خطورتها ، ولم تأخذه فى إخمادها هوادة ولا رأفة ، وأصدر عقب إخمادها كتاباً إلى الكور يشرح فيه الواقعة وظروفها . وقد رأينا أن ننقل نصه فيما يلى كوثيقة سياسية وديوانية هامة من وثائق العصر :

« بسم الله الرحمن الرحيم ؛ أما بعد فإن الله ذو الفضل والمنن ، والطول والعدل ، إذا أراد إتمام أمر وتهميه ، لمن جعله أهله وكفيه ، سدده وأعزه ، وأنفذ قضاءه بفلحه ، ولم يجعل لأحد من خلقه قوة على عناده ودفاعه ، حتى يمضى فيه حكمه له وعليه كما شاء ، وختم فى أم الكتاب لامبدل لكلماته عز وجل ، وإنه لما كان يوم الأربعاء لثلاث عشرة من شهر رمضان ، تداعى فسقة أهل قرطبة وسفلتهم ، وأذنبتهم من الشرطانيين ، ألد الفئة ، المعلوجى شراً وبطراً ، عن غير مكروه سيرة ، ولا قبيح أثر ، ولا نكر حادثة ، كان منا فيهم ، فأظهروا السلاح ، وتلينوا للكفاح ، وهتفوا بالخلعان ، وتأنقوا بالخلاف ، ومدوا عنقاً إلى ما لم يجعله الله له أهلا من التأمير على خلقه ، والتسور فى حكمه . فلما رأيت ذلك من

غدرهم وعدوانهم ، أمرت بشد جدار المدينة ، فشد بالرجال والأسلحة ، ثم أنهضت الأجناد خيلا ورجالا ، إلى من تداعى من الفسقة فى أرباضها ، فأقحموا الخيل فى شوارعهم وأزقتهم ، وأخذوا بفوهاتها عليهم ، ثم صدقوهم الحملات ، وكورهم بالسدّات المتواليات ، فما صبر العبدان أن كشفوا السوءات ، ومنحوا أكتافهم المتواليات ، وأمكن الله منهم ذوى البصائر المؤيدات ، فأسلمهم الله بجريرتهم ، وصدعهم ببغيهم ، وأخذهم بنكثهم ، فقتلوا تقتيلا ، وعموا تدميراً ، وعروا تشويهاً وتمثيلا ، جزاء عاجلا على الذى نكثوه من بيعتنا ، ودفعوه من طاعتنا ، ولعذاب الآخرة أخزى وأشد تنكيلا . فلما قتلهم الله بجرمهم فيها ، وأحسن العون عليهم لنا ، أمسكت عن نهب الأموال ، وسبى الذرية والعيال ، وعن قتل من لا ذنب له من أهل البراءة والاعتزال ، ازدلافاً إلى رضى الله ناصرى عليهم ذى العزة والجلال ، تهنأت صلحه وفلحه ، واستورعت حمده وشكره ، فاحمدوا الله ذا الآلاء والقمع ، معشرة الأولياء والرعية ، الذى أتاح لنا ولجميع المسلمين فى قتلهم وإذلالهم ، وقمعهم وإهلاكهم ، مما أعظم به علينا المنة ، وخصنا فيه بالكفاية ، وتمم علينا وعليكم به النعمة ، فقد كانوا أهل جرأة مقدم ، وذعرة ضلالة ، واستخفاف بالأئمة ، وظهير إلى المشركين ، وحطوط إليهم ، وتحنن لدولتهم ، فلله الحمد المكرور ، والاعتراف المذخور ، على قطع دابرهم ، وحسم شرهم ، أحببت إعلامك بالذى كان من صنع الله عليهم لولائك بنا ، ومكانك منا ، لمشاركتنا فى نصرته ، وتحمد الله ومن قبلك من شيعتنا ومعتقدى طاعتنا ، على جميل صنعه فيه ، وتشيعوا شكره عليه إنشاء الله »(١) .

ومن نظم الحكم فى واقعة الربض قوله :

رأيت صدوع الأرض بالسيف واقعاً ... وقدما لأمت الشعب مذ كنت يافعا

فسائل ثغورى هل بها اليوم ثغرة ... أبادرها مستنضى السيف دارعا

---

(١) نقلنا هذه الوثيقة عن مخطوط ابن حيان المشار إليه ( ص ١٠٣ و ١٠٤ ) . وتراجع حوادث واقعة الربض فى ابن الأبار ( الحلة السيراء ص ٣٩ و ٤٠ ) ، والبيان المغرب ( ج ٢ ص ٧٧ و ٧٨ ) ، والمعجب للمراكشى ( ص ١١ ) ، وابن الأثير ( ج ٦ ص ١٠١ و ١٠٢ ) ، وابن القوطية ص ٥١ و ٥٢ . ويورد ابن خلدون والمقرى عن الواقعة روايات محرفة متداخلة فى حوادث سابقة ( راجع ابن خلدون ج ٤ ص ١٢٦ ، ونفح الطيب ج ١ ص ١٥٦ ) . ووردت فى مخطوط ابن حيان عنها تفاصيل كثيرة منسوبة إلى الرازى وغيره ( ص ١٠٣ — ١١٠ ) .

تنبيــك أنى لم أكن فى قراعهــم بوان وقد ما كنت بالسيف قارعا
وهل زدت أن وفيتهم صاع قرضهم فوافوا منــايا قدرت بمصارعا
فهذى بلادى إننى قــد تركتهــا مهاداً ولم أترك عليهــا منــازعا
وإنى إذ أجادر أجراعاً عن الــردى فما كنت ذا جيد عن الموت جارعا

خرج الحكم ظافراً من تلك الثورة الشعبية بعد أن سحقها سحقاً . ومع ذلك فقد لبث أهل قرطبة على تحديهم له ، ولبثوا يتغامزون عليه ، ويقدحون فى سيرته . وقد وصف لنا كاتب قريب من العصر ، موقف أهل قرطبة بعد الواقعة من الحكم فى قوله : « فأكثروا الخوض ، وأطالوا الهمهمة ، وفزع رؤوسهم إلى السمر فى مساجدهم بالليل ، مستخفين من السلطان ، مدبرين عليه ، وقد كان خائفاً من ثورتهم ، متهمماً لدخلتهم ، حذراً منهم ، مستعداً لهم ، مرتقباً لوثبتهم ، مرتبطاً الخيل على باب قصره ، نوباً بين غلمانه ... » . ثم إنه استكثر من العبيد والسلاح ، وعززهم بالأحرار ، يرابطون دائماً حول القصر ، واستشعر الناس من ذلك الهيبة والخوف ، وركنوا إلى السكينة ، وفرض الحكم العشور على جميع الناس بقرطبة وبالكور ، فزاد فى نفورهم منه ، وبغضهم له[1].

وأثارت حوادث الربض ، واستكانة الشعب ، من جهة أخرى ، قريض الشعراء الأحرار ، من خصوم الحكم ، والناقمين على عسفه وطغيانه ، وصدرت فى ذلك قصائد كثيرة تنعى مسلك أهل قرطبة واستكانتهم ، ومن ذلك قول الشاعر غريب بن عبد الله من قصيدة طويلة :

يا أهــل قرطبة الذين تواكلوا جد الدفاع من التواكل أفضل
جد الدفاع لو انــكم دافعــتم يوم الهياج لــكم أعز وأجمــل
إن التواكل وهنــة ومــذلة والحد فيــه الصنع والمتمهــل
صرتم أحــاديث العبــاد وكنتم عوناً لهــم فى كل هم يــنزل
أمسى عبيــدكم الذين ملــكتم ملــكوا عليــكم والأمور تحول

ومرض عبد الرحمن بعد ذلك واستطالت به العلة ، فاستناب عنه فى أواخر عهده عبد الرحمن أكبر أولاده لتدبير الأمور[2] ، واختاره لولاية عهده ، وأخذ له البيعة

---

(١) مخطوط ابن حيان المشار إليه ص ١٠٥ و ١١٠

(٢) ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٤١ .

بالفعل ، واختار أخاه المغيرة ليخلفه من بعده ، ولكن المغيرة تنازل فيما بعد عن حقه فى ولاية العهد . وكان الحكم أول أمير من أمراء بنى أمية بالأندلس أخذ البيعة فى حياته لولى عهده ، وذلك خشية وقوع الخلاف بعد موته . ثم توفى الحكم فى السادس والعشرين من ذى الحجة سنة ٢٠٦ هـ (٢٢ مايو سنة ٨٢٢ م) ، وقد بلغ الثانية والخمسين من عمره ، ودفن مع آبائه فى مقبرة القصر المعروفة بالروضة . وترك من الولد تسعة عشر من الذكور واثنين وثلاثين من الإناث .

وقيل إن الحكم أبدى حين مرض موته أسفه وندمه ، لما أوقعه بأهل الربض من بالغ النكال والشدة ، وصرح بأنه كان خيراً لو لم يفعل ما فعله[1] .

ولما شعر الحكم بدنو أجله استدعى ولده عبد الرحمن ، وألقى إليه وصيته ، وفيها يقول : « إنى وطدت لك الدنيا ، وذللت لك الأعداء ، وأقمت أود الخلافة ، وأمنت عليك الخلاف والمنازعة ، فاجر على ما نهجت لك من الطريقة ، واعلم أن أولى الأمور بك ، وأوجبها عليك ، حفظ أهلك ، ثم عشيرتك ، ثم الذين يلونهم من مواليك وشيعتك ، فهم أنصارك وأهل دعوتك ، ومشاركوك فى حلوك ومرك ، فهم أنزل ثقتك ، وإياهم واس من نعمتك ، وعصابتهم استشعر دون المتوثبين إلى مراتبهم من عوام رعيتك ، الذين لا يزالون ناقمين على الملوك أفعالهم ، مستثقلين لأعبائهم ، فاحسم عللهم ببسط العدل لكافتهم ، واحسام أولى الفضل والسداد لأحكامهم وعمالاتهم ، دون أن ترفع عنهم ثقل الهيبة ، وإن رأيت فيمن يرتقى من صنائعك رجلا لم تنهض به سابقة ، ويشف بخصلة ، وتطمح نفسه و همته ، فأعنه واختبره ، وقدمه واصطنعه ، ولا يريبنك خمول أوله ، فان أول كل شرف خارجيته ، ولاتدعن مجازاة المحسن بإحسانه ، ومعاقبة المسىء بإساءته ، فإن عند التزامك لهذين ، ووضعك لهما مواضعهما ، رغب فيك ، ورهب منك . وملاك أمرك كله بالمال ، وحفظه ، بأخذه من حله ، وصرفه فى حقه ، فإنه روح الملك المدبر بجثمانه ، فلا تجعل بينك وبينه أحداً ، فى الإشراف على اجتنائه وادخاره ، والتثقيف لإنفاقه وعطائه . وختام وصيتى إياك بإحكامك فى أحكامك ، فاتق الله ما استطعت ، وإلى الله أكلك ، وإياه استحفظك ، فقد هان على الموت إذ خلفنى مثلك »[2].

---

(١) ابن القوطية ص ٥٥

(٢) نقلنا نص هذه الوصية عن مخطوط ابن حيان . وقد وردت فيه برواية الرازى ومعاوية هشام الشبينسى فى نصين مختلفين حاولنا أن ننسق بينهما .

وكان الحكم أميراً قوى النفس ، وافر العزم ، فطناً ، حسن التدبير ، واسع الحيلة ، نافذ الرأى والحزم ، صارماً يؤثر وسائل الطغيان المطلق ، شديد الاستئثار بسلطانه ، حريصاً على حمايته من كل تدخل أو نفوذ . وكان مثل جده عبد الرحمن الداخل يلتمس الغاية بأى الوسائل ، ويذهب فى صرامته وطغيانه إلى حد القسوة والقمع الذريع ، ولم يكن يحجم مثله عن الالتجاء إلى وسائل لا تقرها المبادئ الأخلاقية القويمة . وكان شغوفاً بأبهة الملك ، مسرفاً فى مظاهر البذخ الطائل ، كثير الترفع عن العامة ، ولم يكن كأبيه وجده محبباً إلى الشعب ، بل كان بالعكس مكروهاً من الكافة ، وكان الفقهاء يبثون هذا البغض فى نفوسهم بوسائلهم الخاصة ، لما عمد إليه الحكم من سحق سلطانهم ونفوذهم . ومع ذلك فقد كان الحكم بالرغم من عسفه وطغيانه ، أميراً مستنيراً ، يؤثر العدل ، ويحرص على إقامته ، ويختار لقضائه أفضل الناس ، وأكثرهم نزاهة وورعاً ، وكان يسلط قضاته على نفسه ، وعلى ولده وخاصته . وكان قاضيه محمد بن بشير من أعظم القضاة نزاهة واستقلالا فى الرأى والحكم[1] .

وقد أشرنا فيما تقدم إلى أن الحكم كان أول من أظهر فخامة الملك بالأندلس ، والواقع أنه أول من أنشأ بالأندلس بلاطاً إسلامياً ملوكياً بكل معانى الكلمة ، ورتب نظمه ورسومه ، وأقام له بطانة ملوكية فخمة ، فاستكثر من الموالى والحشم ، وأنشأ الحرس الخاص ، وفى عهده ظهر الصقالبة لأول مرة فى البلاط بكثرة ، وكان جده عبد الرحمن الداخل أول من وضع سياسة اصطفاء الموالى لاسترابته بالعرب كما قدمنا ، وتوسع حفيده الحكم فى تطبيق هذه السياسة ، فاستكثر من الموالى والصقالبة ، وعهد إليهم بمعظم شئون القصر والخاص . وكان هؤلاء الصقالبة[2] على الأغلب من الرقيق والخصيان ، الذين يؤتى بهم بالأخص من بلاد الفرنج وحوض الدانوب وبلاد اللونبارد ومختلف ثغور البحر الأبيض النصرانية ، وكان يؤتى بهم أطفالا من الجنسين ويربون تربية إسلامية ، ثم يدربون على أعمال البطانة وشئون القصر ، وقد سما شأنهم فيما بعد ، وتولوا مناصب الرياسة والقيادة ،

---

(١) أخبار مجموعة ص ١٢٤ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٨٠ ؛ والمعجب ص ١١ .

(٢) يرى البعض أن كلمة صقالبة قد اشتقت فى الأصل من كلمة **Esclave** الإفرنجية . ومعناها الرقيق أو الأسير . راجع **Reinaud : ibid, p. 237**

وبلغ عددهم فى عهد الحكم زهاء خمسة آلاف[1]. وكان للحكم فرقة من الحرس الخاص معظمهم من فىء أربونة ورثهم عن والده هشام ، وقد أبلوا فى الدفاع عنه يوم الربض أحسن البلاء ، فأعتقهم جميعاً ، وأغدق عليهم صلاته[2] . وكان الحكم فارساً مجيداً ، يعشق الفروسية والصيد ، وكانت له ألفا فرس من الجياد الصافنات مرتبطة على شاطئ النهر تجاه القصر ، يشرف عليها جماعة من العرفاء البارعين[3]. وكانت له شرطة قوية منظمة ، وله عيون يطالعونه بأحوال الناس . وعلى الجملة فقد كان الحكم أميراً عظيم السلطان والهيبة ، يسطع بلاطه ، كما تسطع خلاله ، ويثير من حوله بهاء الملك وروعته ، وقد شبهه بعضهم بأبى جعفر المنصور فى قوة الملك ، وتوطيد الدولة ، وقمع الأعداء[4].

وكان الحكم فوق ذلك خطيباً مفوهاً ، وشاعراً مجيداً ، نظم الشعر فى مختلف المناسبات ، من أحداث الحرب والسياسة ، والفخر والغزل وغيرها . وقد أوردنا فيما تقدم شيئاً من نظمه فى واقعة الربض ، ومن قوله فى الفخر :

غناء صليل البيض أشهى إلى الأذن ... من اللحن فى الأوتار واللهو والردن
إذا اختلفت زرق الأسنة والقنا ... أرتك نجوماً يطلعن من الطعن
بها يهتدى السارى وينكشف الدجى ... وتستشعر الدنيا لباساً من الأمن
وإن تجد الأبطال حصناً ومعقلا ... فما لى غير السيف فى الأرض من حصن
قذفت بهم فى فضا الأرض فانزوت ... له الأرض واستولى على السهل والحزن

ومن قوله فى الغزل :

قضب من البان ماست فوق كثبان ... ولَّيْن عنى وقد أزمعن هجرانى
ناشدتهن بحقى فاعتزمن على الـ ... عصيان لما خلا منهن عصيانى
ملكننى ملكاً ذلت عزائمه ... للحب ذل أسير موثق عانى
من لى بمغتصبات الروح من بدنى ... يغصبننى فى الهوى عزى وسلطانى

---

(١) المسالك والممالك لابن حوقل ص ٧٥ ؛ ونفح الطيب ج ١ ص ١٥٩ و ١٦٠ ؛ وابن الأثير ج ٦ ص ١٢٨ .

(٢) مخطوط ابن حيان المشار إليه ( ص ١٠٦ ) .

(٣) أخبار مجموعة ص ١٢٩ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٨١ .

(٤) ابن خلدون ج ٤ ص ١٢٧ ؛ وابن الأثير ج ٦ ص ١٢٨ ؛ ونفح الطيب ج ١ ص ١٥٩ .

على أن هذه الخلال الباهرة التى كان يتمتع بها الحكم ، لم تكن دون نواح قاتمة هى دائماً مما يغلب لدى الطغاة الأقوياء ، وقد ذكر لنا ابن‌حزم أنه كان من المجاهرين بالمعاصى السفاكين للدماء . ويزيد ابن حزم على ذلك أن الحكم كان يخصى من اشتهر بالجمال من أبناء رعيته ، ليدخلهم إلى قصره ويصيرهم من خدمه ، ومن هؤلاء طرفة بن لقيط ، وهو من أسرة نابهة تصرف أبناؤها فى الولايات الرفيعة ، ومنهم نصر صاحب منية نصر ، وهو الذى غدا فى عهد ولده عبد الرحمن من أعظم رجالات الدولة مكانة ونفوذاً[1] .

وكان الحكم مديد القامة ، أسمر ، نحيفاً ، وكان يلقب بالحكم المنتصر ، وبالحكم الربضى ، نسبة إلى ما حدث منه فى واقعة الربض .

* * *

وكانت حكومة الحكم تضم طائفة من الشخصيات البارزة فى تاريخ الأندلس فى ذلك العصر ، فتولى حجابته (رياسة الوزارة) عبد الكريم بن عبد الواحد ابن مغيث قائد أبيه من قبل ، وكان جندياً عظيماً ، قاد عدة غزوات مظفرة إلى بلاد النصارى ، وكان أيضاً كاتباً بليغاً وشاعراً مجيداً[2]. وخلفه فى الحجابة عبد العزيز بن أبى عبْدَة ، وكان قائداً كبيراً وسياسياً بارعاً . وكان بين قواده ووزرائه أيضاً ، إسحاق بن المنذر ، والعباس بن عبد الله . وفى عهد الحكم أنشئ بالدولة منصب خاص لإدارة شئون أهل الذمة (النصارى واليهود) ينعت صاحبه بالقومس[3]، وعين فيه ربيع بن تدلف القومس ، قائد الغلمان الخاصة ومتولى قهرمة الأمير الحكم وشئونه الخاصة ، وكان طاغية ظلوماً يبغضه الجميع ، وقد أمر الحكم بقتله قبيل وفاته ، فنفذ فيه الحكم ولى العهد عبد الرحمن ، وتم إعدامه وسط الاغتباط العام . وذكر البعض أن هذا المنصب أنشئ فى عهد

---

(١) مخطوط ابن حيان السالف الذكر ص ١٢٨ . وراجع رسالة ابن حزم المسماة « نقط العروس » المنشورة بعناية الدكتور شوقى ضيف فى مجلة كلية الآداب ( ديسمبر سنة ١٩٥١ ) ، ص ٧٣ . وكذلك نفح الطيب ج ١ ص ١٦٠ .

(٢) ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٧٢ .

(٣) مخطوط ابن حيان . والقومس تعريب للكلمة اللاتينية **Comes** ، وتعرب أحياناً بكلمة « قمط » ، أعنى « الكونت » **Comte** باللغة الحديثة .

عبد الرحمن الداخل[١]. ولكن الظاهر أنه لم يرتب بصورة ثابتةوتحدد اختصاصاته إلا فى عهد الحكم .

وكان عصر الحكم ، بالرغم مما غشيه من الاضطرابات والفتن ، عصراً ازدهرت فيه الآداب والعلوم ، وظهر فيه عدد جم من أكابر الكتاب والشعراء والعلماء . وكان فى مقدمتهم شاعر الحكم الأثير لديه ، وقطب الشعر فى عصره ، عباس بن ناصح الثقفى الجزيرى ؛ وكان فضلا عن براعته فى الشعر والأدب ، بارعاً فى علوم اللغة ، وفى الهندسة والفلسفة والفلك ، وكانت له منزلة خاصة عند الحكم ، وله فى مدحه أشعار كثيرة . وقد ولاه الحكم قضاء الجزيرة بلده ومسقط رأسه ، ثم وليه من بعده ولده عبد الوهاب بن عباس ، وكان مثله شاعراً نابهاً ، وتوفى أواخر عهد الحكم[٢] .

وكان من أعلام عصر الحكم أبو القاسم عباس بن فرناس ، وهو فيلسوف وعلامة رياضى من نوع فذ ، وقد ولد فى مقاطعة تاكرنا من أصل بربرى ، وبرع منذ فتوته فى الفلسفة والفلك والكيمياء الصناعية ، وهو أول من استنبط بالأندلس صناعة الزجاج من الحجارة ، وبرع أيضاً فى الموسيقى ، وصنع آلة فلكية تعرف « بالميقاتة » لتعريف الوقت ، وله مخترعات كثيرة أخرى . وروى بعضهم أنه حاول أن يخترع أداة للطيران ، فصنع لنفسه جناحين بهيئة مخصوصة ، وحاول الطيران من ناحية الرُّصافة ، فحلق فى الهواء ، ثم وقع فى مكان طيرانه على مسافة بعيدة ، واشتهر أمره بذلك حتى قال فيه مؤمن بن سعيد الشاعر :

يطم على العنقـــاء فى طيرانهـــا      إذا ما كسى جثمانه ريش قشعم

وذكر عبد الحميد بن بسيل الوزير ، قال : « أبدع عباس بن فرناس طول أمده إبداعات لطيفة واختراعات عجيبه ، وضرب بالعود ، وصاغ الألحان الحسنة ، وكان مع ذلك مجيداً للشعر ، حسن التصرف فى طريقته ، كثير المحاسن جم الفوائد » . وأثار ابن فرناس باختراعاته المدهشة ريب الجهلاء ، فكثر الطعن فى عقيدته ، واتهم بالزندقة ، ولكن القضاء لم يجد سبيلا إلى إدانته ، وعاش طويلا وعاصر من بعد الحكم ، ولده عبد الرحمن ، وتوفى فى عهد حفيده الأمير محمد بن

---

(١) ابن القوطية ص ٣٨ . ويقول إن أول من تولى « القيامة » هو ارطباس ابن وتيزا .

(٢) مخطوط ابن حيان ص ١٢٨ و ١٢٩ . وراجع تاريخ العلماء والرواة لابن الفرضى رقم ٨٨١ ( طبع مصر ص ٣٤٠ )

عبد الرحمن[١] ونظم كثيراً من مختار الشعر فى العهود الثلاثة . وسوف نعود إلى ذكره .

ومن أعلام عصر الحكم أيضاً ، يحيى الغزال الجيانى ، وهو أبو زكريا يحيى ابن الحكم البكرى ، نسبة إلى بكر بن وائل ، وأصله من مدينة جيّان ، ولقب بالغزال لجماله وظرفه وتأنقه ، وكان شاعراً جزلا مطبوعاً ، وبرع بالأخص فى الغزل ، وله فى النسائيات كثير من رقيق النظم ، وكان فوق ذلك عالماً بالفلك والفلسفة ، وله أرجوزة طويلة فى أبواب العلوم لم تصل إلينا ، وكان كثير التعريض بالفقهاء والحملة عليهم ، حتى سخطوا عليه ، ورموه بالزندقة ، لصراحته وحر تفكيره . وهو القائل فيهم :

لست تلقى الفقيــه إلا غنيــّاً ليت شعرى من أين يستغنونا
تقطع البر والبحــار طلاب الـ ـرزق والقوم ها هنــا قاعدونا
إن للقوم مضرباً غــاب عنــا لم يصب قصد وجهه الراكبونا

وله فى ذكر النفس والروح قصيدة ، أثارت حول عقيدته شبهاً وريباً ، يقول فيها :

يا ليت شعرى أى شىء محصــل يرى شخص من قد مات وهو دفين
أهو هو أم خــلق شبيه بمــا رأ ى فقل للقــلوب النائمــات عيون
وكيف يرى والعين قد مات نورها وواقعــه شــبه الوقــار سـكون
لئن كانت الأرواح من بعــد بينها بهــن إلى ما خلفهــن حــنين

وقال يمدح الحكم فى قصيدة مطلعها :

كأن الملوك الغُلْبَ عنــدك خُضَّعاً خواضع طير يتقى الصــقر لُبَّد
تقــلب فيهــم مقــلة حكميــة فتخفض أقواماً وقــوماً تُسوِّد

واشتهر الغزال فوق ذلك بأصالة الرأى ، وحسن التدبير ، واللباقة ، والدهاء وقد رشحته هذه الصفات فيما بعد ، فى عصر عبد الرحمن بن الحكم للقيام ببعض المهام الدبلوماسية الخطيرة ، وهو ما سوف نعود إليه فى موضعه .

---

(١) المخطوط السابق الذكر ص ١٣١ ؛ ١٣٢ .

# الفصل السادس

## عبد الرحمن بن الحكم

ولاية عبد الرحمن بن عبد الحكم . الثورة فى تدمير . شغب أهل الذمة . غزو ألبة والقلاع . وفاة الحاجب عبد الكريم . نكبة جديدة للفرنج . حوادث الثغر الأعلى . ثورة البربر فى ماردة . مغامرات محمود بن عبد الجبار وأخته جميلة العذراء . ثورة هاشم الضراب فى طليطلة . مسير الجند إليها ومصرع الضراب . محاصرة طليطلة وثبات الثوار . تعاقب الحملات إليها . حصارها للمرة الثانية وخضوعها . الصوائف . غزو عبد الرحمن لناڤار . خروج والى تطيلة وتحالفه مع النصارى . بنى قسى وأصلهم . مسير عبد الرحمن إلى الشمال . زحفه على ناڤار واقتحامه لبنبلونة . هزيمة الثوار والنصارى . وفاة ألفونسو الثانى . النورمانيون أو المجوس . بدء ظهورهم فى المياه الإسبانية . غزوهم لثغر أشبونة . إقتحامهم للنهر حتى إشبيلية . غزوهم لها وعيثهم فيها . الحرب بين المسلمين والغزاة . هزيمة النورمانيين وانسحابهم . اهتمام حكومة قرطبة بأمر الأسطول . غزو جليقية . حوادث الثغر الأعلى . غزو ميورقة . الحملات البحرية الأندلسية إلى شواطىء فرنسا وكورسيكا وسردانية . الحرب بين المسلمين والبشكنس . مجتمع النصارى فى قرطبة . كيف يصفه المستشرق سيمونيت . حملته على الحكومة الإسلامية . الغلاة المتعصبون . بغضهم للمسلمين وتحاملهم على الإسلام . مجاهرتهم بسب النبى . عقاب المعتدين . دسائس الأحبار وتفاقم الفتنة . أقوال العلامة ألتاميرا . مجتمع الأساقفة وحزم الحكومة . قصة الفتاة فلورا . وفاة عبد الرحمن . صفاته وخلاله . روعة البلاط الأموى فى عهده . ترتيب الوزارة . وزراؤه وكتابه وقضاته . اصطفاؤه للموالى والصقالبة . الفتى نصر . نفوذ الفتيان والجوارى . منشآته . الأمن والرخاء فى عهده . أدبه وشعره . حمايته للعلوم والآداب . استقدامه لزرياب نابغة الموسيقى . شغفه بجمع الكتب . سفارة قيصر قسطنطينية إليه . بواعث هذه السفارة . سفارة عبد الرحمن إلى القيصر وكتابه إليه . يحيى الغزال فى بلاط بيزنطية . سفارته إلى ملك النورمانيين .

لما توفى الحكم ، خلفه عبد الرحمن أكبر أولاده بعهد منه ، وكان ينوب عنه فى الحكم أثناء مرضه حسبما قدمنا ، وبويع فى اليوم التالى لوفاة أبيه ، فى السابع والعشرين من ذى الحجة سنة ٢٠٦ ( مايو ٨٢٢ م ) ، وأخذ له البيعة بالقصر الحاجب عبد الكريم ، وكان حينما ولى العرش فى الحادية والثلاثين من عمره ، إذ كان مولده بطليطلة فى سنة ١٧٦ هـ (٧٩٢ م) ، وأمه أم ولد تدعى « حلاوة » ، وكان أحب أبناء الحكم إليه ، وقد عنى بتربيته وتثقيفه عناية خاصة . وشغف عبد الرحمن ، منذ فتوته بالأدب والحكمة ، ودرس الحديث والفقه ، فكان ذهناً مستنيراً[1] ، وكان فوق ذلك أميراً رفيع الخلال والكفاية ، وافر الخبرة بشئون

---

( ١ ) أخبار مجموعة ص ١٣٥ .

الحرب والإدارة ، بحسن اختيار الرجال للمناصب ، فكان يحشد حوله خيرة رجال الدولة من الوزراء والقادة والولاة والقضاة[١] .

وفى فاتحة ولايته ، عاد عبد الله البلنسى ، عم أبيه ، إلى الثورة مرة أخرى ، واحتل كورة تدمير مطالباً بإقطاعها (سنة٢٠٧ﻫ) ، والتف حوله جمع كثير ، وكان يزمع الزحف إلى قرطبة بالرغم من ضعفه وشيخوخته ، ولكن المرض عاجله ، وتوفى فى العام التالى ( سنة ٢٠٨ ﻫ ) ، فاحتل عبد الرحمن كورة تدمير ، وتكفل بأهله وولده ، وانتهت بذلك آخر مرحلة فى فتنة طالما تكرر حدوثها منذ وفاة عبد الرحمن الداخل .

ولكن تدمير لبثت مع ذلك تضطرم بنار ثورة داخلية من نوع جديد . ذلك أن فتنة نشبت فيها بين المضرية واليمنية ، من جراء موت مضرى قتله يمانى ، واستفحل الشر بينهما ، وقتل كثير من الفريقين ، فبعث عبد الرحمن إليهم حملة بقيادة يحيى بن عبد الله ، وعينه والياً على تدمير ، ولكنه لم يفلح فى إخضاع الولاية الثائرة . واستمرت الفتنة على أشدها ، وغلب على تدمير أبو الشماخ زعيم اليمنية ، ولبث بضعة أعوام يتحدى سلطة قرطبة ، والبعوث تتردد إليه فى كل عام ، دون أن تنال منه منالا ، ولم تهدأ الفتنة إلا فى سنة ٢١٣ ﻫ ، حيث خضع أبو الشماخ وغيره من الزعماء ، وطلبوا الأمان ، وعادوا إلى الطاعة .

وحدثت فى قرطبة عقب جلوس عبد الرحمن بأيام قلائل ، فتنة شعبية من نوع ما حدث أيام الربض . ذلك أن وفوداً من أهل الذمة وغيرهم قدمت من إلبيرة تطالب برفع المغارم التى فرضها عليهم ربيع الأسقف ، وانضم إليهم كثير من أهل قرطبة النصارى ، وساروا إلى القصر فى ضجة كبيرة ، فأرسل إليهم عبد الرحمن قوة من الفتيان لتهدئتهم فاعتدوا عليها ، فبعث عندئذ الجند إليهم ، ففتكوا بهم وقتل منهم خلق كثير ، وفر الباقون فى مختلف الأنحاء ، وكان ذلك فى المحرم سنة ٢٠٧ ﻫ[٢].

وبدأ عبد الرحمن برنامجه فى الغزو والجهاد مبكراً ، فبعث فى صيف سنة ٢٠٨ ﻫ ( ٨٢٣ م ) حملة إلى ألبة والقلاع بقيادة عبد الكريم بن عبد الواحد ابن مغيث ، وكان ألفونسو الثانى ملك جليقية ( أو ليون ) قد أغار على

( ١ ) مخطوط ابن حيان ص ١٣٨ .

( ٢ ) مخطوط ابن حيان المشار إليه ، وابن الأثير ج ٦ ص ١٣٠ .

مدينة سالم Medinaceli من أعمال الثغر الأعلى ، وحذت حذوه بعض القبائل الجبلية من أهل بسكونية ، فأغارت على أطراف الثغر وعاثت فيها ، فاخترق الحاجب بسائط ألبة والقلاع ، وهزم النصارى فى عدة مواقع ، وعاث فى ألبة وخرب مدينة ليون وأحرق حصونها ، واشترط على النصارى أن يدفعوا جزية كبيرة ، وأن يطلقوا أسرى المسلمين ، وأن يسلموا بعض زعمائهم كفالة بسكينتهم ، وعاد الحاجب إلى قرطبة مثقلا بالغنائم والسبي . وكانت هذه آخر غزوة قام بها هذا الوزير النابه والقائد المظفر ، الذى قاد معظم الغزوات الكبرى إلى أرض العدو ، منذ عهد هشام بن عبد الرحمن ، إذ توفى عقب عوده إلى قرطبة بقليل فى المحرم سنة ٢٠٩ هـ ( ٨٢٤ م ) [(١)] .

وفى هذا العام ( ٨٢٤ م ) أصيب الفرنج بهزيمة ساحقة فى أحواز بنبلونة ، فى سفح جبال البرنيه ، عند باب شزروا ، حيث نكب جيش شارلمان من قبل ؛ ويبدو من أقوال الرواية الفرنجية أن المسلمين كان لهم دور كبير فى إيقاع هذه الهزيمة . ذلك أن لويس ملك الفرنج أرسل قواته بقيادة الكونتين أزنار وإبلو لمهاجمة البشكنس وإخضاعهم ، فاستغاث البشكنس بجيرانهم المسلمين ، والظاهر أن الذى لبى نداء البشكنس هم بنو موسى أو بنو قسى أصحاب تطيلة ، وأن هذه المعاونة كانت بموافقة حكومة قرطبة . وعلى أى حال فقد أحرز المسلمون والبشكنس على الفرنج نصراً ساحقاً . وأسر القائدان أزنار وإبلو ، ثم أطلق سراح الأول وأرسل الثانى إلى قرطبة حيث اعتقل بعض الوقت . وقد أثار هذا الحادث ذكريات موقعة باب شزروا الكبرى التى نكب فيها الفرنج أيام الأمير عبد الرحمن الداخل ، قبل ذلك بستة وأربعين عاماً [(٢)] .

وتولى قيادة الصائفة بعد الحاجب عبد الكريم [(٣)] ، أمية بن معاوية بن هشام ، ولكنه لم يسر إلى أرض العدو ، بل سار إلى شنت برية ، ثم إلى تدمير ليعمل على تهدئة الثورة . وكانت حوادث الشمال قد عادت تتطلب اهتمام قرطبة ، وكان

---

( ١ ) راجع نفح الطيب ج ١ ص ١٦١ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٨٤ .

( ٢ ) راجع: R.M. Pidal : ibid, Vol. I. p. 195 ، وكذلك كوندى : Conde : ibid ; Vol. I. p. 264 & 265

( ٣ ) كانت معظم الحملات والغزوات الإسلامية الكبرى ، تنظم فى الصيف باعتباره خير الفصول للقيام بمثل هذه الغزوات ، ولهذا كانت تسمى بالصائفة و الصوائف .

الفرنج فى الثغر القوطى قد تحركوا ، وأغاروا على أطراف الثغر الأعلى ، بقيادة أميرهم برنهارت صاحب برشلونة ، وهو ولد جيوم دوق تولوز ، فسير عبد الرحمن إلى الشمال جيشاً كبيراً بقيادة عبيد الله بن عبد الله البلنسى ، فاخترق الثغر الأعلى إلى أراضى الفرنج ( ٢١٢ هـ — ٨٢٧ م ) واجتاح ولاية قطلونية ، وهزم الفرنج فى عدة مواقع ، وسار حتى جيرُندة (چيرونة) ، ولكنه لم يحاول أن يحرز فتوحاً ثابتة ، فارتد إلى الجنوب بعد أن مزق شمل النصارى فى تلك الأنحاء[1] .

وشغلت عبد الرحمن فى الأعوام التالية عدة ثورات محلية خطيرة ، وكانت الفتنة تضطرم فى نفس مواطنها القديمة ، فى طليطلة ، وماردة ، حيث كانت عناصر الخروج والثورة تحتشد وتعمل بعيدة عن العاصمة ، ممتنعة بالوهاد والوعر ، قريبة من النصارى ، تتلقى منهم الوحى والعون فى أحيان كثيرة . ففى ماردة ثار البربر بقيادة زعيمين من زعمائهم هما محمود بن عبد الجبار بن راحلة ، وهو من بنى طريف من مصمودة ، وسليمان بن مرتين ، وانضم إليهم النصارى المعاهدون . وألفى لويس ملك الفرنج فرصة جديدة للدس والتحريض على حكومة قرطبة ، فبعث إلى الثوار يشجعهم ويعدهم بالمدد والعون[2] . وكان محمود زعيما قوياً ومغامراً جريئاً ، فوثب بعامل ماردة وقتله ، وعاث فى تلك الأنحاء قتلا ونهباً وتخريباً ، وتوالت إليه بعوث عبد الرحمن ، فكان فى كل مرة يعتصم بالمدينة ، فإذا غادره الجند عاد إلى عيثه وسفكه . وفى سنة ٢١٨ هـ ( ٨٣٣ م ) سار إليه عبد الرحمن بنفسه ، فغادر ماردة فى صحبه ومعه زميله سليمان ، وخرجت مع محمود أخته جميلة العذراء ، وهى فارسة بارعة الحسن ، اشتهرت يومئذ فى جميع أنحاء الأندلس برائع جمالها ، كما اشتهرت بالشجاعة والنجدة والفروسية ، ولقاء الفرسان ومبارزتهم[3] ، ونزل الثوار بحصن فرنكش على ضفة نهر وادى يانة . ثم غادر سليمان زميله ، واستقل محمود بالعمل ، وزحف فى جموعه على بطليوس ، ثم على أكشونبة[4] ثم سار إلى باجة ، فقاتله أهلها ، ولكنه تغلب عليهم بمعاونة أخته جميلة ، وبسط محمود سلطانه على

---

( ١ ) البيان المغرب ج ٢ ص ٨٥ ؛ ومخطوط ابن حيان ص ١٨٠ .

( ٢ ) Scott : ibid , Vol. I. p.482

( ٣ ) جمهرة أنساب العرب لابن حزم ( القاهرة ) ص ٤٦٦ .

( ٤ ) بطليوس بالإسبانية Badajoz ، وأكشونبة Ocsonoba

باجة ، وهو يقاتل خصومه من حوله ، وبعوث الأمير تتردد إليه ، حتى لحقه الإعياء واليأس ، ففر مع أخته وصحبه إلى جليقية ، واستجار بملكها ألفونسو الثانى ، فرحب به وأكرم وفادته ، وأنزله بأطراف مملكته . وبعد حين رأى الثائر أن يعود إلى الطاعة فكاتب عبد الرحمن ، ووقف ألفونسو على هذه المحاولة ، فخشى إن أفلت الثائر منه أن ينقلب حرباً عليه ، فسار إليه وأحاطت به الجند من كل ناحية ، ودافع محمود عن نفسه دفاع الأبطال ، ولكنه قتل أخيراً ، وأسر أهله وصحبه ، وكانت أخته الحسناء جميلة بين الأسرى ( ٢٢٥ هـ — ٨٤٠ م ) . ووقعت جميلة فى نصيب كبير من كبراء النصارى ، فحملها على اعتناق النصرانية وتزوج منها ، وكان من ولدها فيما بعد أسقف شنت ياقب[1] .

واضطرمت طليطلة بالثورة فى نفس الوقت ، ففى سنة ٢١٤ هـ ( ٨٢٩ م ) ثار بها زعيم من العامة يدعى هاشم الضراب ، وكان هاشم فى طليطلة أيام واقعة الحفرة ، ثم أخذ بين الرهائن إلى قرطبة ، فاشتغل بها حداداً مدى حين وعرف بالضراب ، ثم غادرها إلى طليطلة ، وهناك اجتمع إليه عدد كبير من الأوغاد والسفلة ، فأخذ يغير بهم على الأنحاء المجاورة ، حتى اشتد بأسه وطار صيته ، وهرع إلى لوائه أهل الشر والبغى من كل صوب ، وسار إلى البربر فى شنت برية ، فأغار عليهم وأوقع بهم ، فبعث عبد الرحمن الجند لقتاله بقيادة محمد بن رستم ، عامل الثغر الأدنى ، فنشبت بينه وبين الثوار عدة وقائع غير حاسمة . وفى العام التالى بعث عبد الرحمن إلى عامله بالمدد ، فزحف على الثوار والتقى بهم على مقربة من حصن سمسطا بمجاورة رورية ، ونشبت بين الفريقين موقعة عنيفة هزم فيها الثوار ، وقتل هاشم الضراب وكثير من أصحابه ، وذلك فى سنة ٢١٦ هـ ( ٨٣١ م ) .

ولكن طليطلة استمرت مع ذلك على اضطرامها ، وكان على عبد الرحمن أن يخوض معارك أخرى لإخضاعها . ففى سنة ٢١٩ هـ ( ٨٣٤ م ) أرسل إليها جيشاً بقيادة أخيه أمية بن الحكم ، فحاصرها وانتسف ما حولها من الزروع ، ولكن المدينة الثائرة لم تهن ولم تخضع ، فرحل عنها ، وأبقى بعض قواته بقيادة

---

( ١ ) وردت هذه التفاصيل الشائقة فى مخطوط ابن حيان ( ص ١٨٢ و ١٨٣ و ١٨٤ ) . وراجع ابن القوطية ص ٦٧ .

ميسرة الفتى فى قلعة رباح [1] الواقعة فى جنوبها استعداداً لمحاصرتها ، فخرج عندئذ أهل طليطلة لقتال ميسرة ، فظهر عليهم وقتل منهم مقتلة عظيمة ، فارتدوا إلى داخل المدينة ، وعادوا إلى الاعتصام بأسوارها المنيعة . وفى العام التالى ( سنة ٢٢٠ هـ ) سار إليهم عبد الرحمن بنفسه ، فثبتت فى وجهه المدينة الثائرة ، فترك الجند فى قلعة رباح ، وسار إلى الغرب فى أحواز ماردة ، ليطارد سليمان بن مرتين زعيم البربر ، وكان بعد أن تخلف عن زميله محمود بن عبد الجبار ، يتزعم الثورة فى تلك الأنحاء ، فحاصره عبد الرحمن ، وحدث أن قتل الثائر فى سقطة مميتة عن جواده ، فانفضت جموعه وخبت ثورته . وسير عبد الرحمن فى العام التالى حملة أخرى إلى طليطلة بقيادة أخيه الوليد بن الحكم ، فضرب حولها الحصار الصارم ، واستمر على حصارها حتى جهد أهلها ، وضاقوا بالحصار ذرعاً ، ثم هاجمها بعد ذلك واقتحم أسوارها ، وخضعت المدينة الثائرة ، بعد أعوام عديدة من من فتن وثورات مستمرة ، كان يغذيها خلالها روح التمرد المتأصل فى شعبها ، ودسائس البربر والنصارى من أهلها ، وتحريض الفرنج والجلالقة ، وكان خضوعها فى رجب سنة ٢٢٢ هـ ( ٨٣٧ م )[2] .

واستطاع عبد الرحمن بعد إخماد الثورة فى مختلف النواحى ، أن يستأنف أعمال الجهاد والغزو ، فعكف فى الأعوام التالية على تسيير الصوائف أو حملات الغزو الصيفية متعاقبة فى كل عام إلى الشمال ، تارة إلى أطراف الثغر الأعلى ، حيث تشتبك مع الفرنج ، وتثخن فى أراضيهم ، وتارة إلى ألبة والقلاع ، حيث تغير على أراضى البشكنس ، أو أطراف مملكة ليون (جليقية) ، وتولى عبد الرحمن قيادة الصائفة بنفسه إلى جليقية فى سنة ٢٢٥ هـ ( ٨٤٠ م ) . وفى سنة ٢٢٧ هـ (٨٤٢ م) سار عبد الرحمن إلى الشمال ، وكان موسى بن موسى بن قسيّ والى تُطيلة[3] من أعمال الثغر الأعلى ( أراجون ) ، قد خرج عن طاعته وتحالف مع غرسية[4] أمير نافار ، وأوقع الإثنان بجند الأمير فى الثغر ، وعاثا فى أنحائه .

---

( ١ ) ومقابلها بالإسبانية Calatrava

( ٢ ) راجع ابن الأثير ج ٦ ص ١٤١ و ١٥٠ و ١٥٣ و ١٦١ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٨٥ و ٨٦ و ٨٧ .

( ٣ ) وهى بالإسبانية Tudela

( ٤ ) وهى بالإسبانية Garcia

وتقول الرواية فى سبب نقض موسى الطاعة ، أن عبد الرحمن كان قد ولى عبد الله بن كليب على سرقسطة ، وعامر بن كليب على تُطيلة ، فأغار عبد الله على أموال ينقة بن ونقة أخى موسى لأمه ، واعتدى عامر بن كليب على أملاك موسى وخيله ، وانتهب أمواله ، وخرب حدائقه ، فعندئذ أعلن الخروج والعصيان ، وكان ذلك فى سنة ٢٢٦ هـ[1] . فسار عبد الرحمن إلى بلاد البشكنس ( نافار ) ، وتوغل فيها حتى بنبلونة ، وعاث فيها نسفاً وتخريباً ، وسبى من أهلها جموعاً كثيرة .

ولا بد لنا هنا من التعريف بهذا الزعيم الثائر موسى بن موسى ، إذ هو سوف يحتل منذ الآن فصاعداً ، هو وأبناؤه ، حيزاً كبيراً فى تاريخ الثورة على حكومة قرطبة . فهو وفقاً لابن حيان ، وابن حزم ، موسى بن موسى بن فرتون ابن قسىّ ( أو القسوى ) . وكان جده الأعلى ، الكونت قسىّ Kasi من أشراف القوط ، وكان وقت الفتح «قومس» Comes الثغر الأعلى ، فلما غزا المسلمون أراضيه سار إلى الشام ، واعتنق الإسلام على يدى الخليفة الوليد بن عبد الملك ، وذلك لكى يحتفظ فى ظل الغزاة الجدد ، بأملاكه وسلطانه الإقطاعى ، واعتبر بإسلامه على يدى الخليفة من مواليه ، وانحاز بطريق هذا الولاء إلى جانب المضرية . وعدا أولاده وأحفاده من بعده زعماء المولدين فى الثغر الأعلى . وكانوا من أنجاد الزعماء والفرسان ، يمتازون بالجرأة والإقدام والشجاعة ، ويعتزون دائماً بأصلهم القوطى النصرانى ، وكانت لهم دائماً علائق مصاهرة مع جيرانهم من الأمراء النصارى ، من البشكنس وغيرهم ؛ وكان إسلامهم فى الواقع مظهراً سطحياً لاغتنام السلطان والنفوذ ، وكانوا لايشعرون بالولاء نحو حكومة قرطبة ، يصانعونها متى وجبت المصانعة ، احتفاظاً بمركزهم وسلطانهم فى الثغر ، ولكنهم لايحجمون عن انتهاز أية فرصة للثورة عليها ، ومحالفة أعدائها من النصارى . وسنرى فيما بعد أى دور خطير قامت به هذه الأسرة المتمردة الخطرة ، فى ثورة المولدين الكبرى على قرطبة[2] .

---

( ١ ) نصوص عن الأندلس للعذرى فى الأوراق المنشورة من كتاب « ترصيع الأخبار » ص٢٩

( ٢ ) راجع المقتبس لابن حيان ، الجزء المطبوع بعناية المستشرق أنتونيا ص ١٦ و ١٧ . وكذلك جمهرة أنساب العرب لابن حزم ( القاهرة ) ص ٤٦٧ و ٤٦٨ ، حيث يقدم لنا شجرة كاملة لنسبة بنى قسى ، منذ جدهم الأعلى حتى أواخر القرن الثالث الهجرى .

وفى العام التالى سار عبد الرحمن إلى الشمال مرة أخرى ، ومعه ولداه المطرّف ومحمد ، واستخلف ولده المنذر على قرطبة ، وبدأ عبد الرحمن بمحاصرة تُطيلة حتى أخضعها ، ثم زحف على بلاد البشكنس مرة أخرى ، ولقيه غرسية وحليفه موسى بن موسى فى جموع كبيرة ، فهزم البشكنس وحلفاؤهم هزيمة شديدة ، وقتل منهم عدد جم ، وفر موسى وحليفه غرسيّة جريحين ، وسار عبد الرحمن إلى بنبلونة فأثخن فيها وخربها ، واضطر البشكنس إلى طلب الأمان والصلح ، وعاد عبد الرحمن إلى قرطبة ظافراً بعد أن وطد هيبة الإسلام وحكومته فى تلك الأنحاء ( ٢٢٨ هـ — ٨٤٢ م )[1] . ولم يكن لهذه الغزوات فى الواقع نتائج مستقرة ، وكانت تقصد فى الغالب إلى إيقاع الرعب فى قلوب نصارى الشمال ، وتخريب بلادهم ، وإنهاك قواهم ، حتى يلزموا السكينة ، ويكفوا عن عدوانهم وعيثهم فى أراضى المسلمين .

وفى نفس هذا العام الذى سحقت فيه نافار وخربت (٨٤٢ م) ، توفى ألفونسو الثانى الملقب بالعفيف بعد أن حكم مملكة ليون ( جليقية ) إحدى وخمسين عاماً ، إذ تولى الملك فى سنة ٨٩١ م ، أيام الأمير هشام بن عبد الرحمن ، وخلفه ولده راميرو الأول ، أو رذمير كما تسميه الرواية العربية . وقد اقتصرنا فيما تقدم على أن نسرد من أخباره وأخبار مملكته ، ما له صلة بسير الحوادث فى اسبانيا المسلمة ، أما أخبار مملكة ليون الداخلية ، فسنفصلها عند الكلام على تاريخ المملكة النصرانية الشمالية .

* * *

وفى عهد عبد الرحمن بن الحكم ، عرفت الأندلس لأول مرة خطراً جديداً لم يسبق لها أن عرفته أو توقعت حدوثه : ذلك هو خطر الغزوات النورمانية البحرية .

كانت سيادة البحار الشمالية منذ بداية العصور الوسطى فى يد « الڤيكنج » Vikings أو النورمانيين ، وكان أولئك النورمانيون أمة بحرية عريقة ، تمرست منذ غابر العصور فى ركوب البحر ومقارعة أهواله ، ووطنهم الأصلى هو اسكندناوة ، وربما دانيماركه ، وشواطئ ألمانيا الشمالية ، ولذا عرفوا بالنورمانيين

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٨٨ و ٨٩ ؛ وابن الأثير ج ٦ ص ١٦٧ و ١٧٢ و ١٨٠ ؛ ومخطوط ابن حيان ص ١٨٥ .

أى أهل الشمال[١] . واشتهر النورمانيون بجرأتهم فى جوب البحار الشمالية ، وبراعتهم فى مغالبة قسوة الجليد وأهوال اللجة والطبيعة ، ولم يأت القرن الثامن الميلادى حتى كانت حملاتهم البحرية الناهبة ، تثخن فى شواطئ الجزر البريطانية . وكان جدب الوطن ، وشظف العيش ، وروح المخاطرة ، تدفع بهم دائماً إلى عرض البحار ، وتجعلهم خطراً دائماً على الشواطئ والثغور المجاورة . وفى أوائل القرن التاسع وصلت حملاتهم الناهبة إلى شواطئ بلاد الفرنج ( فرنسا ) ، ثم نفذت جموع منهم إلى شمال فرنسا . وغزوا مصب اللوار ومصب الجارون ، وأنشأوا لهم عدة مراكز وقواعد فى تلك الأنحاء .

وهنا بدأ تطلع النورمانيين إلى اسبانيا . والأندلس بنوع خاص . وكانت نعماء الأندلس . وما اشتهرت به من الخصب والغنى . تثير جشع أولئك الغزاة المغامرين ، ولم تكن الأندلس تحسب حساباً لذلك الخطر الداهم المستتر معاً ، لأنها لم تعرف النورمانيين من قبل . ولا تعرف لهم بقربها أرضاً أو مستقراً . وتطلق الرواية الإسلامية على أولئك الغزاة المجهولين إسم «المجوس» ، بيد أنها تعرفهم أيضاً «بالأردمانيين» أى النورمانيين . وقد ترجع هذه التسمية إلى أن النورمانيين كانوا فى العهد الذى عرفهم فيه عرب الأندلس لأول مرة « مجوساً » أى وثنيين لم يعتنقوا النصرانية بعد . وكان ظهور النورمانيين فى المياه الإسبانية ، لأول مرة فى سنة ٨٤٣ م . ففى تلك السنة خرج أسطول نورمانى من نهر الجارون وعاث فى شواطئ مملكة جليقية ، فبعث ملكها راميرو ( رذمير ) إليهم جيشاً ردهم وأحرق كثيراً من سفنهم ، فانقلب النورمانيون عندئذ إلى مياه إسبانيا الغربية والجنوبية ، يجوبونها فى طلب السبى والغنيمة ، واقتحموا شواطئ المملكة الإسلامية ( الأندلس ) فى غزوتهم الأولى .

وتضع الرواية الإسلامية هذه الغزوة فى سنة ٢٣٠ ھ ، وتحدثنا عنها بإفاضة ، فتقول لنا إن أسطولا مجوسياً (نورمانياً) قوامه زهاء ثمانين مركباً ، رسا فى مياه أشبونة[٢] فى أواخر سنة ٢٢٩ ھ ( يوليه أو أغسطس سنة ٨٤٣ م ) ؛ فكتب عاملها وهب الله بن حزم إلى عبدالرحمن بن الحكم ينبئه بالخطر . فكتب عبد الرحمن

---

( ١ ) وهى بالإفرنجية **Norsmen** أو **Normanen**

( ٢ ) لشبونة **Lisboa** عاصمة البرتغال الحديثة .

إلى عمال الثغور بالتحوط والأهبة . ولبث النورمانيون فى مياه أشبونة ثلاثة عشر يوماً التحموا خلالها مع المسلمين فى عدة وقائع ، ثم ساروا بأسطولهم جنوباً إلى قادس ، ثم شذونة ، ثم اخترقوا النهر الكبير ( الوادى الكبير ) حتى إشبيلية . وكان ظهور هذه السفن الغازية ، وأولئك الغزاة الشقر فى قلب الأندلس ، مفاجأة مروعة ، ولم يكن للأندلس يومئذ أسطول قوى تدفع به شر الغزوات البحرية ، ولم تتخذ فى الثغور لردها أهبات خاصة . ونزل النورمانيون فى ظاهر إشبيلية فى أوائل المحرم سنة ٢٣٠ هـ ( سبتمبر سنة ٨٤٣ م )[١] وكانت يومئذ دون أسوار تحميها من العدوان المفاجىء ، وكانت مفاجأة مروعة لأهلها ، الذين لم يتخذوا أية أهبة خاصة للدفاع عن أنفسهم . وعبثاً حاول المسلمون رد الغزاة . واقتحم النورمانيون إشبيلية وأمعنوا فى أهلها سفكاً ونهباً وسبياً ، وعاثوا فيها مدى سبعة أيام أشنع عيث ، ثم غادروها وعسكروا فى ظاهرها ، فى قرية طلياطة الواقعة غربى إشبيلية . وفى تلك الأثناء بعث الأمير عبد الرحمن قوات من الخيل على عجل لإنجاد إشبيلية بقيادة عبد الله بن كليب ومحمد بن رستم ، وجعل على قوات قرطبة حاجبه عيسى بن شهيد ، وهرع المسلمون من كل صوب للجهاد ورد الغزاة . وقاد القوات المتحدة نصر الخصى ، وتلقى النورمانيون المدد فى سفن جديدة قدمت إليهم ، ونشبت بين الفريقين فى البداية بضع معارك محلية ، تفوق فيها الغزاة . وفى الخامس والعشرين من صفر سنة ٢٣٠ هـ ، نشبت بينهما معركة حاسمة تجاه قرية طلياطة ، وكان على رأس قوات المسلمين محمد بن رستم ، فهزم النورمانيون بعد قتال عنيف ، وقتل منهم نحو ألف وأسر نيف وأربعمائة ، وأحرق من سفنهم ثلاثون ، وكان قائدهم بين القتلى . وارتد النورمانيون إلى سفنهم ، وتحصنوا بها ، وقتل المسلمون أسراهم أمام أعينهم ، وصلبوا على جذوع النخل ، ثم أقلعت سفن الغزاة مرتدة إلى الجنوب ، والمسلمون من ورائهم يطاردونهم ، ويفتدون أسرى المسلمين منهم بمختلف السلع ، وانتقم النورمانيون لأنفسهم أثناء ارتدادهم بالإغارة على لبلة وباجة ، ثم انتهوا ثانية إلى ثغر أشبونة حيث غادروا مياه الأندلس مع باقى سفنهم ، بعد أن لبثوا بضعة أسابيع يبثون فيها الرعب والروع .

---

( ١ ) يضع ماريانا غزوة النورمانيين الأولى لإشبيلية فى سنة ٨٤٧ م ( راجع تاريخه العام — الترجمة الفرنسية — ج ٢ ص ٨٤ ) .

واستطالت غزوة النورمانيين ، منذ نزولهم بأرض إشبيلية ، إلى أن تمت هزيمتهم وإقلاعهم ، إثنين وأربعين يوماً ، عانى فيها المسلمون محناً وشدائد كثيرة ، ارتجت لها ربوع الأندلس كلها . فلما انقشعت الغمة . بادر الأمير عبد الرحمن فبعث بالكتب إلى سائر الآفاق معلنة هذا النصر على العدو المغير ، وبعث بها بالأخص إلى أمراء العدوة ، ومعها طائفة من رؤوس أكابر النورمانيين القتلى . وأغدق الأمير ثناءه وصلاته على نصر الخصى فتاه الأثير لديه ، وكان قائد قواته العام فى تلك المعركة الكبرى[1] .

وكان لهذه المفاجأة المروعة أثرها فى حمل حكومة الأندلس على الاهتمام بأمر الأسطول والتحصينات البحرية ، فابتنى عبد الرحمن حول إشبيلية سوراً ضخماً ، وأنشأ بها داراً عظيمة للصناعة ، واهتم بصنع السفن الحربية الكبيرة ، وحشد لها المقاتلة من شواطئ الأندلس . فكانت نواة الأسطول الأندلسى الكبير الذى بلغ فى عهد عبد الرحمن الناصر زهاء مائتى سفينة . وعلى أى حال فقد أدرك النورمانيون أن الأندلس لم تكن فريسة هينة . وتحدثنا الرواية الإسلامية بأنهم عقب هزيمتهم فى هذه الغزوة الأولى سعوا إلى الصلح مع أمير الأندلس ، وبعثوا رسلهم فى طلب السلم والمهادنة ، وأن الأمير الأندلسى عبدالرحمن بعث كاتبه يحيى الغزال إلى ملكهم ليرد السفارة ، وهى رواية سنعود إلى تفصيلها[2] .

ولم يمض قليل على رد الغزاة النورمانيين ، حتى بادر عبد الرحمن إلى استئناف الغزو ، فسير بالصائفة إلى الشمال جيشاً بقيادة ولده هشام ، ومعه الوزير عيسى ابن شهيد . فاخترق قشتالة القديمة ، وسار صوب ناڤار وغزا بنبلونة ، ووافاه هناك موسى بن موسى والى تطيلة ، فقدم طاعته ، ومنح الأمان ، وأقر على ولايته . وفى العام التالى سير عبد الرحمن بالصائفة قواته مرة أخرى إلى الشمال ،

(١) راجع فى تفاصيل هذه الغزوة ، البيان المغرب ج ٢ ص ٨٩ و ٩٠ ، والعذرى فى الأوراق المنشورة من « ترصيع الأخبار » ص ٩٨ — ١٠٠ ؛ وفى النويرى : نهاية الأرب ( القسم الخاص بتاريخ الأندلس ) وقد نقل دوزى روايته ؛ **Recherches : II: p. 337-338** وكذلك فى الملحق **Appendice 37** ؛ وفى ابن القوطية ( ص ٦٣ — ٦٧ ) ؛ وابن الأثير ج ٧ ص ٧ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٢٩ . وفى مخطوط ابن حيان عنها تفاصيل كثيرة نقلت عن محمد بن أحمد الرازى وأخيه عيسى ومعاوية بن هشام الشبينسى .

(٢) راجع رواية النويرى المشار إليها فى دوزى : **Recherches : App. 37**

بقيادة ولده محمد ، فاخترق بسائط جليقية ، وحاصر عاصمتها ليون ، ولجأ النصارى إلى الجبال ، ثم ارتد عنها بعد أن عاث فيها قتلا وتخريباً (سنة ٢٣١ هـ — ٨٤٥ م) . وعصف بالأندلس فى العام التالى قحط شديد ، وهلكت الزروع والماشية ، وقاست البلاد من ويلاته مدى أشهر .

وفى سنة ٢٣٣ هـ (٨٤٧ م) ظهر بالثغر الفرنجى ، فى شمال شرقى إسبانيا ، زعيم يدعى جيين دى تولوز ، وهو فيما يرجح من تسميه الرواية العربية ، غليالم بن برباط بن غليالم ، وكان قد أعلن الخروج والثورة على ملك الفرنج شارل الأصلع ، ووفد فى العام السابق على بلاط قرطبة ، يلتمس التأييد والعون ، فاستقبله عبد الرحمن بترحاب ، وأمده بعونه ، فعاد إلى الثغر وعاث فيه بقواته ، وحاصر برشلونة وخرب حصونها ، وهاجم جرندة ، وكتب عبد الرحمن إلى عامله على طرطوشة عبد الله بن يحيى ، وعامله على سرقسطة عبد الله بن كليب ، فى إمداده وتأييده فى ثورته ضد ملك الفرنج[١]. بيد أنه يبدو من أقوال الرواية الفرنجية أنه وقعت على إثر ذلك مفاوضات بين عبد الرحمن وشارل الأصلع ، انتهت بعقد الهدنة والسلم بينهما .

وفى نفس هذا العام نقض موسى بن موسى بن قسى (القسوى) العهد ، وعاد إلى الثورة ، وعاث فى أحواز تطيلة وطرسونة وبرجة من أعمال الثغر الأعلى ، وظاهره أخوه لأمه فرتون إنيجز (ابن ونقة) أمير بنبلونة ، فبعث إليه عبد الرحمن جند الصائفة بقيادة عباس بن الوليد المعروف بالطبلى ، فطاردته حتى أرهق وأعلن عوده إلى الطاعة ، وقدم ولده إسماعيل رهينة كفالة بولائه ، فقبل عبد الرحمن طاعته ، وأقره على ولايته تطيلة ، ودخل معه فى هذا الصلح أخوه فرتون إنيجز[٢]

وفى سنة ٢٣٤ هـ (٨٤٨ م) بعث عبد الرحمن قوة بحرية كبيرة إلى جزيرتى ميورقة ومنورقة وهما أكبر الجزائر الشرقية (جزائر البليار) لغزوهما ، ومعاقبة

---

(١) وردت هذه الرواية فى قطعة مخطوطة أخرى من تاريخ ابن حيان ، عثرت بها فى مكتبة القرويين بفاس ، وحصلت منها على نسخة مصورة حسبما أشرت إلى ذلك من قبل . وهى التى تبدأ حوادثها منذ سنة ٢٣٣ هـ وتنتهى بحوادث سنة ٢٦٧ هـ ، وسوف نقتبس منها منذ الآن فصاعدا فى مختلف المواطن التى تتناول حوادثها . (لوحة ١٨٩ ب من المخطوطة المذكورة) .

(٢) لوحة ١٨٩ ب و ١٩٠ أ من المخطوط المذكور ، وهو يسمى هنا أمير بنبلونة بابن رنقة وهو تحريف ، والصواب ابن ونقة Inequiz

أهلهما لتعرضهم لسفن المسلمين المجاهدين والإضرار بهم ، فأخضعهما المسلمون وأثخنوا فيهما ، وأصابوا كثيراً من السبى ، وبعث أهلهما إلى الأمير يطلبون الأمان ودفع الجزية ، ويتعهدون بالولاء والطاعة ، فأجابهم إلى ما طلبوا . وكانت مياه اسبانيا الشرقية قد غدت منذ عهد هشام مركزاً للحملات البحرية المتجهة نحو الشمال والشرق ، وكان قوام هذه الحملات فى الغالب جماعات من البحارة والمجاهدين ، الذين يجوبون هذه المياه طلباً للغنيمة والسبى ، ويثخنون فى الثغور والجزر النصرانية القريبة . ففى سنة ٨٠٦ م (١٩١ هـ) فى عهد الحكم ، غزت إحدى هذه الجماعات البحرية الأندلسية المغامرة جزيرة كورسيكا (قورسقة) ، فبعث ببين ابن شارلمان ملك إيطاليا أسطولا لقتالهم ، فهزموه واستولوا على كثيرا من الغنائم والسبى . ولم يمض عامان على ذلك ، حتى عاد البحارة المسلمون إلى غزو شواطىء كورسيكا وسردانية ، ثم توالت غزواتهم لها بعد ذلك . وفى سنة ٨٣٦ م (٢٢١ هـ) خرج أسطول أندلسى من ثغر طركونة والجزائر الشرقية ، وسار إلى مياه فرنسا الجنوبية ، وهاجم المسلمون ثغر مرسيليا وما حوله من الأراضى وأثخنوا فيها . وكان على عرش فرنسا يومئذ لويس ابن شارلمان ، وكان ملكاً ضعيفاً عاجزاً ، فلما توفى سنة ٨٤٠ م ، اضطربت أحوال المملكة ، وضعفت حماية الثغور ، فانتهز البحارة المجاهدون هذه الفرصة ، وغزوا ولاية بروڤانس عند مصب نهر الرون ، وهاجموا مدينة آرل وخربوها ، ثم توالت غزواتهم فى تلك المياه بعد ذلك ، وكان من أثرها أن قامت مستعمرات عربية كثيرة فى بروڤانس وفى أنحاء أخرى فى جنوب فرنسا وشمال إيطاليا ، وسوف نعود إلى حديث هذه المستعمرات العربية النائية فى قلب أوربا .

وفى سنة ٢٣٧ هـ ( ٨٥١ م ) ، اضطرمت الحرب فى الشمال بين المسلمين والغسقونيين أو الجاشقيين كما تسميهم الرواية الإسلامية وهم فرع من البشكنس ، وكان هؤلاء قد أغاروا على الأراضى الإسلامية المجاورة ، فى قاصية الثغر الأعلى ، فتصدى لردهم موسى بن موسى والى تطيلة ، وكان يومئذ على ولائه لحكومة قرطبة ، ووقعت الحرب بين المسلمين والبشكنس ، فى جنوبى بنبلونة على مقربة من بقيرة ، فهزم المسلمون أولا ، وأثخن قائدهم موسى جراحاً ، ولكنه أستأنف المعركة فى اليوم التالى ، وكر على العدو بشدة ، فهزم البشكنس شر

هزيمة ، وقتل منهم عدد جم ، وتسمى هذه الموقعة فى الرواية الإسلامية بموقعة البيضاء ، وهى محلة صغيرة مجاورة لبقيرة[1] .

* * *

وفى أواخر عهد عبد الرحمن ، هبت على نصارى قرطبة ريح شديدة من التعصب ، ولاحت فى الأفق بوادر فتنة دينية واجتماعية خطيرة . ولم يك فى نظم الحكم الإسلامى ، ما يقصد إلى إيذاء النصارى المستظلين بلوائه ، ولم تشذ حكومة قرطبة عن سياسة التسامح الإسلامى المأثور ، ولم تحاول تدخلا فى شئون النصارى الدينية أو تعرضاً لعقائدهم أو شعائرهم ، بل كان النصارى فى قرطبة وغيرها ، أحراراً فى عقائدهم وشعائرهم ، والاحتكام إلى شرائعهم وقضاتهم ، وكثيراً ما تبوأوا مناصب الثقة والمسئولية فى الجيش وفى الإدارة ، وكثيراً ما حاربوا مع إخوانهم المسلمين جنباً إلى جنب ، وكانت أغلبية كثيرة منهم تشتغل بالتجارة فى الثغور والمدن ، ويشتغل عامتهم فى ضياع المسلمين دون إكراه ولا عنت ، وكانت منهم مجتمعات زاهرة رغدة فى قرطبة وغيرها ، بل كثيراً ما بهرتهم الفصاحة العربية فانطلقت بها ألسنتهم ووضعوا بها كتبهم ، وكثيراً ما تخلقوا بأخلاق المسلمين وعاداتهم ، ونهجوا نهجهم فى الحياة الخاصة . بيد أنه كان ثمة فريق آخر من النصارى المتعصبين الذين يرون فى سادتهم المسلمين أجانب غاصبين ، معتدين على دينهم وأوطانهم ، وكان أولئك الغلاة يبغضون إخوانهم من النصارى المعتدلين ، ويرمونهم بالمروق والخيانة ، وكان رجال الدين ، وهم فى الأصل مبعث التعصب ودعامته ، يبذرون بذور الشقاق ، ويضرمون نار الفتنة ، ويوغرون قلوب الغلاة والمتطرفين ، باسم الدين ، وكانوا يبغضون المسلمين أشد البغض ويسخرون من دينهم ونبيهم ، ويجاهرون بهذا التحامل والبغض للنبى العربى وتعاليمه ، ويعتمدون فى معرفتهم للإسلام ونبيه ، على طائفة من الخرافات والأباطيل التى يتناقلها القسس فى كل عصر ومكان . يقول دوزى : « ولم يك ثمة أيسر عليهم ، وقد كانوا يعيشون بين المسلمين من الوقوف على الحقيقة ، ولكنهم كانوا رفضون أن يستقوا من المصادر التى كانت لديهم ، وكان يسرهم أن يعتقدوا وأن يعيدوا كل الخرافات السخيفة التى أذيعت عن نبى مكة »[2] .

---

(١) ابن حيان ( مخطوط القرويين ) لوحة ١٩٣ أ . وبقيرة هى بالإسبانية **Viguera** .

(٢) **Dozy : Hist, I.p. 317 et suiv.** . ويخصص دوزى لهذا البحث حيزاً كبيراً ، وتحمله نزعة من التعصب فى إيراد الوقائع ووصفها ، وهو يعتمد هنا بالأخص على مصادر كنسية معاصرة .

ويقدم إلينا المستشرق سيمونت ، وهو عمدة العلماء الإسبان فى الكتابة عن تاريخ « النصارى المعاهدين » Los Mozárabes التفاصيل الآتية ، عما يصفه بأنه « البطولة التى تذرعت بها النصرانية فى قرطبة فى مقاومة فورات الإلحاد الإسلامى » .
ويرى سيمونيت أن قرطبة كانت من المعسكرات الرئيسية للحرب المدمرة التى شهرها الإسلام على النصرانية . وبالرغم عن أنه يعترف بأن الإسلام لبث مدى قرن يحتفظ بقدر من التسامح نحو المستعربين ، وقت أن كان فى حاجة إلى خدماتهم ومعاونتهم ، فإنه يقول إن الإسلام لما شعر بقوته ، لم يبد تسامحاً إزاء انتعاش الروح النصرانى ، الذى بدا يسيطر على فريق كبير من الشعب النصرانى . ثم يتحدث سيمونيت بعد ذلك عن « المظالم وصنوف الاضطهاد التى كان النصارى يقاسونها ، ليس فقط من عامة أهل قرطبة بل من حكومة قرطبة ذاتها » . ثم يقول : « وقد كانت هذه السياسة منافية للعهود والقوانين التى منحت للوطنيين ( الإسبان ) أيام الفتح . وقد كان الطغيان الإسلامى شديد الوطأة على ضمائر النصارى الوطنيين وأملاكهم وكرامتهم معاً » .

وينعى سيمونيت على أمراء قرطبة ، أنهم احتفظوا بحقوق وامتيازات ضد النصارى لإخضاعهم ، وأنهم كانوا مثل القوط يدعون لأنفسهم حق تعيين الأساقفة وعزلهم ، وحق عقد المجالس الدينية التى يمثلهم فيها بعض المسلمين أو النصارى المرتدين ، ويسندون وظائف الأساقفة فى أحيان كثيرة إلى رجال من طراز منحط ، يملقون الأمراء ويخدمونهم .

ولم يك استبداد الأمراء أقل وطأة على أملاك المستعربين وثرواتهم ، إذ كانوا حرصاً على سلامتهم يؤدون للخزانة مزايا عظيمة ، فى شكل جزية وضرائب تنبو عن طاقتهم . وقد كان تسامح المسلمين لايغتنم فى الظروف العادية إلا بالعرق والدم . ثم جاءت الأيام التى كان يقاسى فيها النصارى كل شىء ، ليحتفظوا بحرية دينهم ، وينتزع كل يوم منهم مغارم أكبر ، هذا فضلا عن الضرائب العادية ، وقد كانت فادحة فى ذاتها تفرض عليهم بمختلف الحجج والأعذار .

وقد وصلت هذه المغارم إلى ذروتها فى عصر عبد الرحمن الثانى الأمير الباذخ ، ومحمد الأول الأمير القاسى ، الذى حصل من نصارى قرطبة بواسطة الكونت سواندا على مبلغ مائة ألف « سويلدو » .

ويتحدث سيمونيت بعد ذلك عن تعصب المسلمين ، ويقول إن تعصب العرب ضد الأجانب وامتهانهم لهم ، وصل إلى الذروة فى النصف الأول من القرن التاسع ، وكذا وصل إلى الذروة تزمت البربر الوحشى ، وتزمت الإسبان المسلمين ( المولدين ) الذين اتخذوا الارتداد عن دينهم سبيلا إلى بلوغ الرخاء ، وكانوا لكى يمحوا ذكرى أصولهم المسيحية، أشد تعصباً ضد النصارى من المسلمين أنفسهم . كان هؤلاء وهؤلاء يمعنون فى إهانة النصارى واضطهادهم بشتى المظاهر ، ولاسيما رجال الدين والقساوسة ، وكانت موجة هذا الاضطهاد تشتد كلما جاءت الأخبار بانتصار نصارى الشمال ، أو قيام المولدين فى طليطلة أو غيرها .

هكذا يتحدث سيمونيت عن « تعصب » المسلمين ضد رعاياهم وإخوانهم النصارى المعاهدين . ومع ذلك فإن سيمونيت يعترف بأن كثيراً من نصارى قرطبة ، كانوا يخدمون فى الجيش الإسلامى جنداً أو ضباطاً ، وأن كثيراً منهم وصل إلى وظائف هامة فى البلاط والقصر الملكى ، وفى قصور أكابر المسلمين .

ويصف سيمونيت تأثير المجتمع الإسلامى ، وعظمته ولغته وتقاليده ، فى نفوس النصارى فى قوله :

« هذا ، وقد كان يأسر الشباب النصرانى منظر العظمة المادية والحضارية ، التى تفوقت بها قرطبة المسلمة على قرطبة النصرانية ، وما كانت تقترن به هذه العظمة من المظاهر الأدبية والفنية ، التى بثها عبد الرحمن بحبه للشعر والفلسفة والموسيقى .

وكان من مظاهر تأثر الشباب النصرانى أنهم كانوا يكتبون ويتكلمون العربية ، محتقرين دراسة اللغة والآداب اللاتينية ، وهو أمر كان شديد الخطر على وطنيتهم ودينهم .

وفى النصف الأول من القرن التاسع ، لم تكن اللغة والآداب العربية فقط ، بل وكذلك الأفكار والتقاليد الإسلامية ، قد انتشرت بين المستعربين الإسبان . وهذا ما تشير إليه وثيقة هامة كتبها نصرانى قرطبى معاصر هو ألبرو القرطبى Alvaro Cordubense فى سنة ٨٥٤ م عنوانها Indicalo Luminoso ، وفيها يصف بقوة وبلاغة ، الذعر الذى أصاب « الأشراف الكرماء البواسل الذين كانوا يحتفظون بالعاطفة المسيحية والوطنية الإسبانية » ، وكيف أن شباناً من

النصارى يمتلئون حياة وقوة وفصاحة ، يتقنون اللغة العربية ، ويبحثون بشغف عن الكتب العربية ويدرسونها بعناية ، ويمتدحونها بحماسة ، هذا فى حين أنهم يجهلون جمال الآداب الكنسية ، ثم يبدى ألمه من أن النصارى يجهلون شريعتهم ولغتهم اللاتينية ، وينسون لغتهم القومية(١) .

وهذه التفاصيل التى يقدمها إلينا العلامة سيمونيت عن أحوال المجتمع النصرانى فى قرطبة ، هى تفاصيل مفيدة قيمة ، ولكنها تنم عن كثير من التحامل ، وتصور وجهة نظر الكنيسة بأسلوب مغرق متزمت . وهى تغضى عن تلك الحقيقة الهامة ، وهى أن النصارى المستعربين وهم من رعايا الحكومة الإسلامية ، ويتمتعون تقريباً بكامل حقوق إخوانهم المسلمين ، يدينون لهذه الحكومة بالطاعة ، واحترام القانون والنظام . ولئن كانت ثمة بعض قيود لحقوقهم ، فإن سن هذه القيود لا يرجع إلى عدم التسامح ، ولكنه يرجع إلى روح العصر ذاته .

بيد أن العوامل الدينية لم تكن وحدها مبعث هذا التحامل ، الذى يضطرم به نصارى قرطبة نحو الحكومة الإسلامية ، بل كان للعوامل الاجتماعية أيضاً أثرها فى إذكائه . ذلك أن القسس والمتعصبين كان يحفظهم ويثيرهم ، ما يحيط بالحكم الإسلامى من مظاهر الإعزاز والسؤدد ، وما تبديه الهيئة الحاكمة من مظاهر الأبهة والفخامة ، وماينعم به المجتمع الإسلامى ، من حياة رغدة رفيعة . وكان يذكى هذا الحقد فى نفوسهم مايعانونه من خشونة عامة قرطبة وتعريضهم وتحاملهم . وهكذا بلغ تعصب النصارى أقصاه فى عهد عبد الرحمن ، وبدا منذراً بشر العواقب . وكان فى وسع أولئك المتعصبين فى المدن البعيدة عن قرطبة مثل طليطلة وغيرها ، أن يرفعوا علم الثورة ، وأن يقاتلوا حكامهم وجهاً لوجه ، ولكن الثورة فى قرطبة كانت أمراً عسيراً . فحاولوا عندئذ أن يبثوا بذور الفتنة الطائفية والفوضى الدينية والاجتماعية ، وأن يحاولوا الاستشهاد بطريق الاشتباك والتحدى . وعمد القسس والمتعصبون إلى تحقيق غايتهم بوسيلة بسيطة خطيرة معاً ، هى المجاهرة بسب النبى العربى ودينه ، وهى جريمة شنعاء تعرض مرتكبها لعقوبة الموت ، وأخذ بعض الغلاة من القسس والمتعصبين الهائمين يتزلقون عامدين إلى

(١) راجع هذا الفصل فى مؤلف سيمونيت الضخم : Historia de los Mozarabes de España. Vol. I. p. 258—272

هذا المنحدر الخطر ، ويوجهون السب المثير إلى النبى العربى فى الطرقات جهراً ، فإذا أخذوا أمام القضاة كرروا سبابهم بمنتهى الإصرار والجرأة . وحاول القضاة فى البداية استعمال الرفق واللين ، وإقناع أولئك العابثين بالعدول عن أقوالهم ، ولكنهم ألفوا أنفسهم أمام سلسلة مدبرة من الجرائم المماثلة ، فلم يترددوا عندئذ فى الحكم على القاذفين بالموت ، وهكذا أزهق بتلك الطريقة عدة من القسس والمتعصبين فى فترة وجيزة من صيف سنة ٨٥١ م ( ٢٣٧ هـ ) ، وكان الأحبار يكرمون رفات القتلى ، ويسبغون عليهم صفة الشهداء ، ويزيدون بذلك فى اضطرام الفتنة . وكان فى مقدمة المنظمين لهذه الحركة قس من قرطبة يدعى «أولوخيو» ، كان يعمل على تحريض أولئك «الشهداء» المزعومين ، ودفعهم إلى براثن الموت .

ويصف لنا العلامة المتزن ألتاميرا ، تلك المؤامرة المنظمة فيما يأتى : «اتبع الأمراء المسلمون سياسة التسامح الدينى منذ الفتح . وكان أشراف العرب يحترمون النصارى ، ولكنهم لم يستطيعوا منع الدهماء فى أوقات الحماسة المغرقة ، من إهانة القسس حينما يسيرون فى الشوارع فرادى أو فى مواكبهم . وكانت هذه الحوادث وأمثالها تثير سخط النصارى ، وأدى ذلك بمضى الزمن إلى حقد الورعين ولاسيما القساوسة . وحاول النصارى عن طريق آخر ، أن يحدثوا فورات تحطم النير الإسلامى . فطلبوا الاستشهاد بالطعن فى محمد أمام الناس والسلطات ، وأعدموا لأن القانون يعاقب بالموت على ذلك . ولم يقتصر الاندفاع فى ذلك الطريق على المدنيين ، بل اندفع فيه كذلك قساوسة عقلاء مسالمون ، وكان من هؤلاء أولوخيو وألبارو ، ولم يجد هؤلاء طريقة أفضل للاحتجاج على الإسلام من الطعن فيه ، وتقديم حياتهم قرباناً للدين الكاثوليكى»[1]. وأدرك عبد الرحمن دقة الموقف وخطورته ، ورأى أن يعالجه بالحزم والتفاهم معاً ، فاستدعى مجلساً من الأساقفة ، عقد فى قرطبة برآسة ريكافرد مطران إشبيلية ، ومثل الأمير فيه أحد كتابه النصارى ، وهو جومث بن أنطونيان بن خوليان عامل أهل الذمة[2] ، وشرح للأساقفة

---

(١) R. Altamira : Hist. de Espana , Vol. I. p. 230

(٢) ويسميه ابن القوطية قومس بن انتنيان بن يليانة وقد اعتنق الإسلام فيما بعد ( ص ٨٣ ) . وكذلك يذكره الخشنى فى كتاب قضاة قرطبة ويسميه أيضاً قومس بن انتنيان . راجع كتاب قضاة قرطبة ( القاهرة ) ص ١١١ .

ما يمكن أن يترتب على أعمال المتطرفين وسبهم للنبي من العواقب الخطيرة بالنسبة للنصارى. ولم يعترض المجلس على مبدأ الاستشهاد فى ذاته ، ولكنه أصدر قراره باستهجان مسلك أولئك المتطرفين ، وتحذير النصارى المخلصين من حذو مسلكهم ، ووجوب اعتقال كل مخالف (١). ولكن قرار الأساقفة لم يكف لتسكين فورة التعصب المزبد ، وتمادى المتطرفون أنصار أولوخيو فى غيهم ، وزج إلى السجن منهم كثيرون ، ومنهم أولوخيو نفسه ، وكان بين المعتقلين بضع فتيات مسلمات بمولدهن من آباء مسلمين وأمهات نصارى ، ولكن أضلهن الأمهات والقسس ، ودفعن إلى التنصر وسب النبي ، وكان منهن فتاة رائعة الحسن تدعى فلورا ، عرفها أولوخيو وهام بها حباً .

وقصة هذه الفتاة حسبما يرويها سيمونيت ، توضح لنا طريقة التحدى والاستثارة التى اتبعها المتطرفون لإحداث الشغب . فقد كانت فلورا ابنة مسلم من زوجه النصرانية ، وتوفى أبوها وهى ما تزال طفلة ، فربتها أمها على مبادئ المسيحية . وكانت بالرغم من جمالها تبدى تحفظاً ونسكاً ، وتزور الكنائس خفية لخوفها من أخيها الأكبر ، وهو مسلم شديد التعصب. ثم فرت من دار أهلها ، وتتبعها أخوها فى كل مكان ، فعادت إلى منزلها ، وأعلنت لأخيها تمسكها بدين النصرانية ، ولم ينجع فى ردها الضرب والوعيد . فأخذها أخوها إلى القاضى ، وأبلغه بأن أخته القاصر قد ضلت واعتنقت الدين المسيحى ، وأنها تسب النبي ودينه ، واعترفت فلورا بأنها نصرانية منذ طفولتها ، ومتمسكة بدينها . ومع أن هذا الاعتراف بالردة يستحق عقوبة الموت ، فإن القاضى اكتفى بتقرير ضربها ضرباً مبرحاً ، أملا فى أن تعود إلى صوابها . فاحتملت الفتاة العقوبة بجلد ، وحملت إلى دارها منهوكة القوى ، وصبرت أياماً حتى برئت من مرضها ، ثم فرت من الدار ذات ليلة ، وسارت هائمة على وجهها ، حتى لجأت إلى دار نصرانى فى بلدة « مرتش » القريبة ، والظاهر أن القس أولوخيو رآها هنالك ، وأعجب بجمالها وحشمتها وورعها ، وشعر نحوها بحب سماوى عميق .

ثم عادت فلورا بعد حين إلى قرطبة مواجهة كل خطر ، معتزمة الاستشهاد ، ولجأت إلى كنيسة سان إثيسكولو ، وكانت قد لجأت إليها أيضاً فتاة نصرانية

---

(١) Dozy : ibid , Vol. I. p. 340

أخرى تدعى ماريا ، وكانت إبنة رجل نصرانى من لبلة ، وأم مسلمة تنصرت . وربيت ماريا فى الدير تربية دينية خالصة ، كما ربى أخوها الأكبر فيه . ولما توفى أخوها وجدت عليه وجداً شديداً ، وسارت إلى قرطبة تبغى الاستشهاد ، ولجأت إلى نفس الكنيسة التى لجأت إليها فلورا . واعتزمت الفتاتان أمرهما وذهبتا إلى دار القضاء ، وقالت فلورا للقاضى إنها إبنة مسلم ، ولكنها اعتنقت النصرانية وأخلصت لها ، وأن المسيح هو الإله الحق ، وأن النبى محمد ، هو نبى زائف ... الخ[1]. وكذلك قالت ماريا إنها تؤكد من كل قلبها أن يسوع هو الرب الحقيقى ، وأن الإسلام دين الشيطان . فأمر القاضى بإيداعهما السجن . وكان فيه بطريق الصدفة أولوخيو مقضياً بحبسه أيضاً ، فعكف على وعظ الفتاتين ، وحثهما على الاستشهاد فى سبيل المسيح .

وحاول القاضى نصح الفتاتين ، ولكنهما أصرتا على موقفهما وعلى مطاعنهما. وأخيراً أصدر القاضى حكمه بإعدامهما ، وذلك فى ٢٤ نوفمبر سنة ٨٥١ ، وأخذتا إلى ساحة الإعدام، وهنالك أبدت كلتاهما إشارة الصليب ، ثم أعدمتا بقطع الرأس ، وألقيت جثتاهما إلى النهر ، واستطاع النصارى العثور على جثة ماريا وحدها ، فأخذوها مع رأسى الفتاتين . ونظمت فلورا فيما بعد فى سلك القديسين[2].

هكذا يروى سيمونيت قصة فلورا وزميلتها ، ومهما كان فى أسلوبه من رواء القصة المشجية ، فإن فى وقائعها ما يلقى ضوءاً على خيوط المؤامرة التى دبرها نصارى قرطبة ، وفى مقدمتهم القسس ، لإثارة الفتنة الطائفية والإخلال بالنظام والأمن ، وهى محاولة لا يمكن لأية حكومة منظمة أن تغضى عنها .

واستمرت هذه الفتنة المضطرمة مدى حين ، وتذرعت حكومة قرطبة فى إخمادها بالحزم والشدة ، وزهق من المتعصبين عدة أخر ، ومن بينهم أولوخيو الذى نظمه النصارى فيما بعد فى ثبت « القديسين » .

وهكذا شغل عبد الرحمن فى أواخر عهده بتلك الفتنة الدينية الخطيرة ، ولكن المتعصبين لم يحققوا منها ما أملوا ، وكانت بالعكس مثار السخط والإنكار من جانب النصارى المعتدلين ، الذين يقدرون تسامح الحكومة الإسلامية ورفقها ورعايتها .

* * *

(١) لم نر مجالا لإيراد بقية المطاعن التى أوردها سيمونيت على لسان فلورا وهى مطاعن مقذعة .

(٢) Simonet : Hist. de los Mozarabes, Vol. I. p. 413—422

وتوفى عبد الرحمن بن الحكم فى الثالث من ربيع الثانى سنة ٢٣٨ هـ ( ٢٣ سبتمبر ٨٥٢ م ) فى الثانية والستين من عمره ، بعد أن حكم إحدى وثلاثين عاماً وبضعة أشهر . وكان أسمر طويلا ، وسيم المحيا ، أشم ، أقنى ، أعين ، أسود العينين ، بهى الطلعة ، بهيج الزى ، كبير اللحية . نقش خاتمة : « عبد الرحمن بقضاء الله راض »[1] ، ويكنى أبا المطرِّف ، ويعرف بعبد الرحمن الأوسط أو الثانى ، والأول هو جده عبد الرحمن الداخل ، والثالث هو عبد الرحمن الناصر . وكان مثل أبيه الحكم ، أميراً وافر البأس والعزم ، رفيع الخلال ، يسمو بمكانته ويحتجب عن العامة ، ويعشق مظاهر البذخ والفخامة . وفى عهده وصل البلاط الأموى إلى درجة لم تسبق من البهاء والروعة ، وبدت الأرستقراطية العربية فى أبدع مظاهرها ، وسطعت الفروسية الأندلسية ، وتجلت خلالها الباهرة التى غدت فيما بعد مثلا يحتذى فى مجتمعات العصور الوسطى ، وعنها اقتبست فروسة النصرانية فيما تلا من العصور . ورتبت رسوم المملكة أبدع ترتيب ، ورفع من شأن الوظائف العامة ، وأحيطت بسياج من الهيبة والمسئولية ، وجعل « أحكام السوق » منصباً مستقلا عن ولاية المدينة ، واتبعت رسوم الخلفاء فى الزينة والشكل وترتيب الخدمة[2] ، ووضعت خطة الوزارة المنظمة .

وتنوه الرواية الإسلامية بمقدرة عبد الرحمن ، وحسن اختياره لرجالات حكومته . فيقول لنا الرازى : « وانتقى الرجال للأعمال ، واستوزر الأكفاء من أهل الاكتفاء ، وقدوة الأبطال ذوى الغناء ، فظهر فى أيامه جلة الوزراء وكبار الفقهاء » . وكان من وزرائه عدة من أعظم وألمع رجالات العصر ، مثل الحاجب عبد الكريم ، والقائد عيسى بن شُهيد ، ويوسف بن بخت ، وهاشم بن عبد العزيز ، وعبد الرحمن بن رستم ، وحسن بن عبد الغافر بن أبى عبده ، ومحمد بن السليم ، ومحمد بن عبد السلام بن بسيل ، وعبد الواحد بن يزيد الإسكندرانى ، وغيرهم . وكان الوزراء يختلفون إلى القصر بطريقة منظمة للبحث والمداولة وإبرام الشئون فى جناح خاص ، سمى « بيت الوزارء » ، وانتهت

---

( ١ ) ابن الأثير ج ٧ ص ٢٢ ؛ وابن حيان عن الرازى ، المخطوطة الأولى ص ١١١ ؛ والثانية لوحة ١٩٤ ب

( ٢ ) ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٦١ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٩٣ .

أرزاق الوزراء يومئذ إلى ثلاثمائة وخمسين ديناراً فى الشهر(١) .

وتفيض الرواية فى مناقب هذه الجمهرة من الوزراء والقادة ، الذين اجتمعوا فى بلاط عبد الرحمن بن الحكم ، وتصفهم بأنهم «عصابة من سراة الوزراء ، أولى الحلوم والنهى ، لم يجتمع مثلها عند أحد من الخلفاء قبلهم ولا بعدهم» . ويتقدم هذا الثبت الحافل رجلان ، كان لهما فى تنظيم حكومة عبد الرحمن وسياسته أعظم الأثر ، أولهما الحاجب عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث حاجب أبيه الحكم من قبل ، وهو الذى يصفه الرازى بأنه « أكمل من حمل هذا الاسم ، وأجمعهم لكل خلة حسنة» . وكان عبد الكريم ، فضلا عن براعته الإدارية ، مثل جده مغيث فاتح قرطبة ، من أعظم قادة هذا العصر ، وقد قاد حسبما تقدم فى مواضعه ، عدة من الحملات الغازية المظفرة . ولما توفى فى سنة ٢٠٩ هـ ( ٨٢٤ م ) خلفه فى الحجابة سفيان بن عبد ربه وهو من البربر ، ولم تكن له نباهة سابقة ، ثم عيسى بن شهيد ، وهو ثانى الرجلين . وكان عيسى من أعيان موالى بنى أمية ، وكان أيضاً من وزراء الحكم ، أوصى به ولده عبد الرحمن ، فلما ولى الأمر قدمه على خاصته ، ثم ولاه خطة الخيل ، ثم خلع عليه رتبة الوزارة ، وعهد إليه بالنظر فى المظالم ، وتنفيذ الأحكام على طبقات أهل المملكة . ثم ولاه الحجابة بعد سفيان . واشتهر عيسى بالحلم والوقار وحصافة الرأى ، والمعرفة والجزالة ، وقاد كثيراً من الصوائف المظفرة . بيد أنه استهدف لخصومة الفتى نصر الخصى المسيطر على شئون القصر ، والأثير لدى الأمير بمظاهرته لحظيته طروب ، فلبث يدس له ويعمل على إقصائه عن الحجابة ، حتى تم له ذلك ، حينما مرض عبد الرحمن وطال احتجابه . وعين مكانه للحجابة عبد الرحمن بن رستم . فلما أبل الأمير من مرضه أنكر ما وقع ، وأنحى باللائمة على نصر ، وأعاد عيسى بن شهيد إلى الحجابة ، فلم يزل على حجابته حتى توفى عبد الرحمن . قال ابن القوطية : « لم يختلف أحد من شيوخ الأندلس فى أنه ما خدم ملوك بنى أمية فيها أحد أكرم من عيسى بن شهيد غاية ، ولا أكرم اصطناعاً ، ولا أدعى لذمته . ولقد كان الحاجب قبله عبد الكريم ابن عبد الواحد بن مغيث بهذه الصفة ، على زيادة خصاله وأدواته على عيسى ،

---

( ١ ) ابن القوطية ص ٦١ ، و ٦٢ ، وكذلك مخطوط ابن حيان ص ١٤٤ . ومخطوط القرويين لوحة ١٩٦ أ .

إلا فى باب كرم الصنيعة واستمامها ، فلم يك تفصله درجة »[١] .

وتولى الكتابة للأمير عبد الرحمن عدة من الكتاب المبرزين ، فى مقدمتهم الحاجب عبد الكريم ، وقد كان أيضاً كاتباً بليغاً وشاعراً جزلا ، وعبد الله بن محمد ابن أمية بن أبى حوثرة ، ومحمد بن أبى سليمان الزجالى وهو من برابرة نفزة ، وكان كاتباً بارعاً ، واشتهر بقوته فى الحفظ حتى أنه سمى « بالأصمعى » ، واشتهر أبناؤه من بعده فى ميدان الكتابة .

وكان ممن كتبوا للأمير عبدالرحمن أيضاً الأسقف جومث (قومس) بن أنطونيان عامل أهل الذمة ، وكان أديباً بارعاً ، وكاتباً مقتدراً ، وكان عبد الرحمن يعهد إليه بالمهام الخطيرة ، وخدم من بعده ولده الأمير محمد[٢] .

واجتمعت فى عهد الأمير عبد الرحمن أيضاً جمهرة من جلة الفقهاء والقضاة ، رحل معظمهم إلى المشرق فى طلب العلم وانتقاء الرواية ، ومن هؤلاء محمد بن يوسف بن مطروح ، ومحمد بن حارث ، وعبد الأعلى بن وهب ، وبقى بن مخلد ، ومحمد بن وضاح ، ويحيى بن إبراهيم بن مدين ، وعيسى بن دينار ، ويحيى بن يحيى . وقد اشتهر بعض هؤلاء من قبل فى عهد أبيه الحكم . وكان يتقدم هذه الجمهرة من الفقهاء فى المكانة والنفوذ ، عبد الأعلى بن وهب ، ويحيى ابن يحيى ، وعبد الملك بن حبيب . وكان يحيى بن يحيى عميد الفقهاء وشيخ قرطبة الأول ، وأصله من برابرة مصمودة ، ودرس فى المشرق على مالك ، والليث بن سعد وابن وهب وغيرهم ، وتولى الفتيا بعد عيسى بن دينار ، ولبث حتى وفاته فى سنة ٢٣٤ هـ يتبوأ أسمى مكانة . وكان ممن اتهموا بالتحريض على ثورة الربض وفر عقب إخماد الثورة إلى طليطلة ، ثم استأمن الحكم فأمنه وعاد إلى قرطبة .

وخلفه فى علمه ومكانته عبد الملك بن حبيب ، وغدا أثير الأمير ، لا يقدم عليه أحداً ، ولا يعدل بمشورته أحد . وكان عبد الملك فوق براعته فى الفقه والحديث ، متقدماً فى علوم اللغة ، والعلوم القديمة ، بارعاً فى الأدب ، وكتب كتباً فى إعراب القرآن وشرح الحديث وفى الأنساب وغيرها[٣] .

---

(١) تاريخ ابن حيان ( مخطوط القرويين ) لوحة ١٩٦ أ و ب و ١٩٧ أ و ١٩٨ أ .
(٢) راجع قضاة قرطبة للخشنى ص ١١١ .
(٣) تاريخ ابن حيان ( مخطوط القرويين ) لوحة ٢٠١ ب و ٢٠٢ أ .

ويخصص ابن حيان لذكر قضاة عبد الرحمن ، وأخبارهم ، ونوادرهم والتعريف بهم ، نبذاً طويلة رأينا أن نكتفى بالإشارة إليها[١].

وحذا عبد الرحمن حذو أبيه أيضاً ، فى اصطفاء الموالى والصقالبة ، وابتاع أنصبة أخوته من مماليك أبيه « العجم » ، وكانوا خمسة آلاف مملوك ، ثلاثة آلاف فارس يرابطون إزاء باب القصر ، فوق الرصيف ، وألفا رجل على أبواب القصر وكانوا يسمون « الخرس » لعجمتهم[٢] . وسما نفوذ الفتيان يومئذ فى البلاط ، وكان زعيمهم الفتى نصر المتصرف فى شئون القصر الخاص ، وكان يتمتع بأعظم نفوذ فى القصر والدولة ، بمؤازرة طروب جارية عبد الرحمن .

وكان نصر هذا ويكنى أبو الفتوح ، من الفتيان المختارين الذين اشتهروا بالجمال والظرف ، وأمر الحكم بخصيهم ، وأصله من أبناء الأحرار الذين حشدوا للخدمة داخل القصر ، وكان أبوه من أسالمة أهل الذمة ( المولدين ) من أهل قرمونة[٣] . ولما ولى عبد الرحمن ، قدّمه على سائر خاصته ، وغدا مدبر أمر داره ، ومشاركاً لأكابر وزرائه فى تصريف الشئون . وتضاعف نفوذه ومكانته بمحالفته لجارية عبد الرحمن الأثيرة طروب ، صاحبة النفوذ القوى. وكان من أشهر أعمال نصر قيادته لجيوش الأندلس التى حشدت لمقاتلة النورمانيين فى أراضى إشبيلية ، وانتصاره عليهم . واستمر نجم نصر فى صعود ، ونفوذه فى تمكن ، حتى غدا أعظم رجال الدولة ، وأمضاهم أمراً ؛ وكان مرهوب الجانب ، تخشاه الأكابر والخاصة . توفى فجأة فى أواخر سنة ٢٣٣ هـ ( ٨٤٨ م ) ، « أرقى ما كان فى غلوائه ، وأطمع ما هو بالاحتواء على أمر سلطانه ، أرهب ما كان الناس له ، وأخوفهم لعدوانه ، إذ نال من أثرة مولاه الأمير عبد الرحمن واصطفائه ، فوق ما ناله خادم خاص ، مع أمير رشيد » . فتنفس الناس الصعداء ، وسروا لوفاته ، والتخلص من طغيانه[٤].

---

( ١ ) مخطوط القرويين اللوحات ٢٠٢ أ حتى ٢١١ أ .

( ٢ ) مخطوط ابن حيان ص ١٤٥ .

( ٣ ) ابن حزم فى رسالة نقط العروس ص ٧٣ . ويقول ابن حزم إن نصراً هذا هو الذى تنسب إليه « منية نصر » وهى ضاحية جميلة كانت تقع على النهر ، على مسافة قصيرة من شرق قرطبة .

( ٤ ) تاريخ ابن حيان ( مخطوط القرويين ) لوحة ١٩١ ب .

واستكثر عبد الرحمن أيضاً من اقتناء الجوارى الحسان ، وكان كلفاً شديد الشغف بهن ، وكان يعنى باختيارهن من أطيب العناصر والأصول ، واجتمعت لديه منهن نخبة بارعة فى الحسن والخلال ، مثل طروب أم ولده عبد الله ، ومؤمرة أم ولده المنذر ، وشفاء أم ولده المطرّف ، وفخر ومتعة وغيرهن ، وأنجب عبد الرحمن من الولد عدداً ضخماً بلغ وفقاً لابن حزم مائة ، خمسين من الذكور ، ومثلهم من الإناث ، وذكر الرازى أن عدد أولاده من الذكور أربعون ، وسماهم واحداً واحداً ، وأن عدد بناته ثلاثة وأربعون ، ذكر أسماءهن جميعاً[1] . وبلغ الجوارى كالفتيان من النفوذ مبلغاً عظيماً . واشتهرت من بينهن طروب حظية عبد الرحمن الأثيرة لديه ، وقد اشتد نفوذها فى أواخر أيامه ، وظاهرت نصراً الفتى ، فكانت لها الكلمة النافذة فى معظم الشئون ، وكان عبد الرحمن يشغف بها أعظم شغف ، وهو القائل فيها :

إذا ما بدت لى شمس النهـــا ـر طالعـــة ذكرتنى طـــروبا

وعنى عبد الرحمن بالمنشآت العامة أعظم عناية ، فزاد فى مسجد قرطبة الجامع بهوين جديدين من جانب القبلة ، وقام على عمارته الفتى نصر . وما زال هذا الجامع الشهير قائماً إلى اليوم بسائر عقوده الإسلامية ، وأروقته ومحاريبه . ولكنه حول منذ القرن السادس عشر إلى كنيسة قرطبة العظمى (كتدرائية) ، وبالرغم من أن الهياكل قد أقيمت فى سائر عقوده الجانبية ، وأقيم فى وسطه مصلى عظيم على شكل صليب ، فإنه ما زال يحمل بالإسبانية اسمه الإسلامى القديم « المسجد الجامع » La Mezqnita Aljama ، وقد أزيلت قبابه ومعظم زخارفه الإسلامية ، لتحل مكانها الزخارف النصرانية . ولكن محاريبه الفخمة ، مازالت تحتفظ بنقوشها الإسلامية ، وآياتها القرآنية .

ويقع جامع قرطبة فى طرف المدينة الجنوبى وسط شبكة من الدروب الأندلسية القديمة ، على مقربة من القنطرة الرومانية العربية القائمة على نهر الوادى الكبير . ويبلغ طوله ١٨٥ متراً وعرضه ١٣٥ متراً . وله عدة أبواب كبيرة فخمة ، مازالت تحتفظ بكثير من نقوشها الإسلامية . ويعرف بابه الرئيسى المقابل لصحنه

(١) راجع جمهرة أنساب العرب لابن حزم ( القاهرة ) ، ص ٩٠ ، وابن حيان ( مخطوط القرويين ) لوحة ١٩٤ ب و ١٩٥ أ .

« بباب النخيل » Puerta de las Palmas ، ويقع صحنه فى ناحيته الشمالية ويعرف بفناء النارنج Patio de los Naranjos ، وهو صحن مستطيل شاسع يزدان بعدد من أشجار البرتقال ( أو النارنج ) ، وهو الآن صحن الكنيسة . وقد هدمت منارة الجامع ، وهى التى أقامها عبد الرحمن الناصر بجوار الصحن ، وأقيم مكانها برج الأجراس الحالى(١) .

وأنشأ عبد الرحمن أيضاً مسجد إشبيلية الجامع ، كما ابتنى سورها الكبير عقب غزو النورمانيين لها ، ووضع نظاماً جديداً للسكة وجعلها أندلسية مستقلة ، بقيم وأوزان جديدة . وكان أهل الأندلس يتعاملون من قبل بما يحمل إليهم من نقد المشرق ، أو بنقود تسك على نظامه ، فى دار السكة التى أنشأها عبد الرحمن الداخل . وأنشأ أجنحة ومشارف جديدة للقصر ، وجلب إليه الماء العذب من قنن الجبال ، وأنشأ على النهر الأعظم مما يلى سور القصر والمدينة رصيفاً عظيماً(٢) . كما أنشأ بقرطبة عدة من الحدائق الغناء . وحذت جواريه حذوه ، فأنشأن فى قرطبة عدة مساجد سميت بأسمائهن .

ويشير سيمونيت إلى عظمة قرطبة فى عصر عبد الرحمن ويقول « إن عبد الرحمن كان يعشق البذخ الطائل ، وفى عهده حفلت قرطبة بطائفة من المساجد والقصور والقناطر والمنشآت المختلفة . وقد وصف قرطبة وعظمتها فى عهده نصرانى معاصر شهير وهو سان أولوخيو ، إذ يقول إن عبد الرحمن أسبغ على عاصمة مملكته لوناً خارقاً من العظمة ، ورفع من ذكرها ، وأفاض عليها حلل المجد ، وأغدق عليها الثروات ، وملأها بجميع مظاهر المتعة الدنيوية إلى حدود لا تصدق »(٣) .

وكانت أيام عبد الرحمن أيام سكينة وأمن ورخاء ، وفيها ازدهرت الزراعة والصناعة والتجارة ، وورد على الأندلس كثير من الأمتعة والسلع الفاخرة ، وزخرت الأسواق بالبضائع . وزاد الدخل زيادة عظيمة ، وبلغت الجباية وحدها

---

( ١ ) راجع وصفاً سهباً لجامع قرطبة وتاريخه وخواصه الأثرية فى كتابى : « الآثار الأندلسية الباقية فى اسبانيا والبرتغال » ( الطبعة الثانية ) ص ٢٠ — ٣٤ .

( ٢ ) كان القصر الأموى القديم يقع على ضفة النهر على مقربة من الجامع ، ويحتل موقعه اليوم القصر الأسقفى والسجن المحلى ، والحدائق المجاورة التى ما زالت إلى اليوم ، تسمى حدائق القصر Huertas del Alcazar ، والمرجح أنها تقوم مكان حدائق القصر القديمة .

( ٣ ) Simonet : ibid, Vol. I: p. 366

زهاء ألف ألف دينار فى السنة ، واستطاع الأمير أن ينفق بسخاء على تسيير الحملات الغازية ، وإقامة المنشآت المختلفة[١] .

وكان عبد الرحمن بن الحكم أديباً حسن التثقيف ، وكاتباً بليغاً مشرق البيان ، عالماً بالشريعة والحكمة ( الفلسفة ) ، مجيداً للنظم ، نصيراً للعلوم والآداب ، يحتشد حوله جمهرة من أكابر العلماء والأدباء والشعراء ، مثل العلامة الرياضى والفلكى عباس بن فرناس ، ويحيى الغزال ، وشاعره الخاص عبد الله بن الشمر بن نمير ، وكان صديقه مذ كان ولياً للعهد ، وكان بارعاً فى الأدب والشعر والمنطق والتنجيم ، وكان يكشف لعبد الرحمن نجمه وطالعه[٢] ، وعباس بن ناصح الجزيرى شاعر أبيه الحكم ، وعبيد الله بن قرلمان بن بدر مولى الداخل ، وكان من جلسائه وخاصته وكان أديباً بارعاً ، وشاعراً مجيداً . وغيرهم . ومن نظمه قوله :

ولقد تعارض أوجه لأوامر  فيقودها التوفيق نحو صوابها
والشيخ أن يحو النهى بتجارب  فشباب رأى القوم عند شبابها

وقوله وقد خرج غازياً إلى جلّيقية :

فكم قد تخطيت من سبسب  ولاقيت بعد دروب دروبا
ألاقى بوجهى سموم الهجـ  ـير إذ كاد منه الحصى أن يذوبا
تدارك بى الله دين الهدى  فأحييته وأمتُّ الصليبا
وسرت إلى الشرك فى جحفل  ملأت الحزون بها والسهوبا

ومن قوله فى الغزل :

قتلتنى بهواكا  وما أحب سواكا
من لى بسحر جفون  تديره عيناكا
وحمرة فى بياض  تكسى به وجنتاكا
أعطف على قليلا  واحينى برضاكا
فقد قنعت وحسبى  أن أرى من رآكا

---

( ١ ) راجع ابن القوطية ص٦٧ ، وابن الأبار ص ٦١ ، والبيان المغرب ج ٢ ص٩٣ و ٩٤ ، وأخبار مجموعة ص ١٣٦ ، ونفح الطيب ج ١ ص ١٦٢ و ١٦٣ ؛ وابن الأثير ج ٧ ص ٢٢ ؛ وفى مخطوط ابن حيان عما تقدم نبذ وتفاصيل حسنة ( ص ١٣٨ و ١٤٢ و ١٤٤ ) .

( ٢ ) مخطوط ابن حيان ص ١٥٦ و ١٥٧ .

واشتهر عبد الرحمن بحنوه الجم على قرابته وذوى رحمه بدرجة لم يجاره فيها أحد من أهل بيته ، فكان يوليهم وافر عطفه ، ويجرى عليهم الصلات السخية . وفى أيامه وفد من المشرق على الأندلس عدد من قرابته المروانية ( بنى أمية ) ، فاستقبلهم جميعاً أجمل استقبال ، وأنزلهم أكرم منزل ، وأجرى عليهم الأرزاق والإقطاعات الواسعة .

وكان عبد الرحمن يعشق الفلك والتنجيم ، ويشغف بدراسته ، وكان العلامة الرياضى ابن فرناس ، وعبيد الله بن الشمر ، وعبد الواحد بن إسحاق الضبى من أساتذته فى ذلك الفن ، وكان يقربهم ويجرى عليهم الأرزاق الواسعة ، وله معهم قصص ونوادر كثيرة . وكان أيضاً يعشق الغناء والموسيقى ، ويجمع حوله عدداً من أكابر الفنانين يجرى عليهم الأرزاق الواسعة . ووفد عليه من المشرق أبو الحسن على بن نافع الملقب بزرياب نابغة الغناء والموسيقى ، وكان زرياب من تلاميذ الفنان الشهير إسحاق الموصلى مغنى الرشيد ، فلما ظهر نبوغه وشعر أبو إسحاق بخطورة منافسته ، تحيل فى صرفه وإبعاده ، فغادر بغداد إلى المغرب ، وكتب إلى الحكم أمير الأندلس يستأذنه فى الوفود عليه . فأذن له واستدعاه ، ولكن زرياب ما كاد يصل إلى المغرب حتى علم بوفاة الحكم ، وكاد ينثنى عن عزمه فى العبور إلى الأندلس ، لولا أن جاءه كتاب عبد الرحمن بدعوته والترحيب به ، فسار إلى قرطبة واستقبله عبد الرحمن بمنتهى الإكرام والحفاوة ، وأجرى عليه الأرزاق الواسعة ، وجعله من خاصة بطانته . وبهر زرياب أهل الأندلس ببراعتـــه فى الغناء والموسيقى ، وطار صيته فى كل مكان ، وأضحى قطب الفن الذى لا يجارى ، وأخذ عنه أهل الأندلس فنونه وإبداعه ، وتشبهوا به فى مظاهر زيه وإناقته وطرائق معيشته . وتوفى فى ربيع الأول سنة ٢٣٨ هـ ( أغسطس ٨٥٢ م ) قبيل وفاة عبد الرحمن بأسابيع قلائل . وكان لزرياب وفنه أعظم الأثر فى تكوين الفن الأندلسى فى ظل الدولة الأموية ، ثم فى ظل دول الطوائف(١) .

وشغف عبد الرحمن أيضاً بجمع الكتب ، وأوفد شاعره عباس بن ناصح إلى المشرق للبحث عن الكتب القيمة واستنساخها ، فجمع له منها طائفة كبيرة ،

---

( ١ ) راجع نفح الطيب ج ٢ ص ١٠٩ وما بعدها ، وابن خلدون فى المقدمة ص ٢٥٧ .

وكان أول من عنى بجمعها من أمراء الأندلس، وكانت جهوده فى هذا السبيل نواة لإنشاء مكتبة قرطبة العظيمة .

* * *

وفى عهد عبد الرحمن سما شأن حكومة قرطبة الإسلامية ، وأخذت تتبوأ مكانتها من الهيبة والنفوذ ، بين مختلف القصور والحكومات النصرانية ، وتغدو مركز التوجيه للدبلوماسية الإسلامية فى الغرب . والظاهر أن الدولة البيزنطية ، خصيمة الدولة العباسية فى المشرق ، كانت تعتقد أنها تستطيع أن تصل بتفاهمها مع حكومة قرطبة الإسلامية ، إلى بغض النتائج العملية فى مقاومة خصيمتهما المشتركة . ففى سنة ٨٤٠ م ( ٢٢٥ هـ ) وفد على قرطبة سفير من قبل قيصر قسطنطينية الإمبراطور تيوفيلوس ( توفلس ) ، يدعى قرطيوس ، ومعه كتاب وهدية فخمة ، فاستقبله عبد الرحمن بحفاوة ، وكان القيصر يتوجه فى كتابه إلى أمير الأندلس ، باسم الصداقة القديمة التى كانت قائمة بين الأوائل من خلفاء بنى أمية وقياصرة بيزنطية ، ويشكو مر الشكوى من فعال الخليفة المأمون وأخيه المعتصم وعيثهما فى أراضيه ، ويشير إليهما فى كتابه بابن مراجل وابن ماردة[1] تحقيراً وازدراء ، كما يشكو إليه من استيلاء أبى حفص البلوطى وعصبته الأندلسية على جزيرة إقريطش (كريت) وهى من أملاكه ، ويطلب إليه عقد أواصر المودة والصداقة بينهما ، ويرغبه فى ملك أجداده بالمشرق ، ويستنهض همته لاستردداده ، ويتنبأ له بقرب انهيار الدولة العباسية ، وزوال سلطانها ، ويعده بنصرته فى ذلك المشروع . وقد رد عبد الرحمن على سفارة تيوفيلوس بمثلها ، وأوفد كاتبه وصديقه الشاعر يحيى الغزال إلى قسطنطينية ومعه يحيى بن حبيب المعروف بالمنيقلة بكتاب وهدية إلى الإمبراطور . وقد سبق أن أشرنا إلى الغزال وإلى شخصيته الممتازة وإلى بارع خلاله وظرفه ، وكان الغزال قد جاوز الستين يومئذ ولكنه كان مايزال يحتفظ بكثير من إناقته وروائه . وسار الغزال وصاحبه يحيى ومعهما السفير البيزنطى إلى المشرق عن طريق تدمير (مرسية) ، فوصلوا إلى قسطنطينية بعد رحلة بحرية شاقة، عانوا فيها الأهوال من اضطراب البحر وروعة الموج. واستقبل الإمبراطور السفير الأندلسى بحفاوة ، وقدم الغزال إليه كتاب

(١) مراجل هى أم المأمون ، وماردة هى أم المعتصم ، وكلتاهما جارية وأم ولد .

عبد الرحمن وهديته . ويرد عبد الرحمن فى كتابه على ما جاء فى كتاب الإمبراطور تفصيلا ، ويشير مثله إلى المأمون والمعتصم بابن مراجل وابن ماردة ، وإليك ما يرد به عبد الرحمن على ما يدعوه إليه الإمبراطور من وجوب العمل لاسترداد ملك أجداده بالمشرق ، وهى أهم فقرات الخطاب :

« وأما ما ذكرت من أمر الخبيث ابن ماردة ، وحضضت عليه من الخروج إلى ما قبله ، وذكرته من تقارب انقطاع دولته ودولة أهله ، وزوال سلطانهم ، وما حضر من وقت رجوع دولتنا ، وأزف من حين ارتجاع سلطاننا ، فإننا نرجو فى ذلك عادة الله عندنا ، ونستنجز موعوده إيانا ، ونمترى حسن بلائه لدينا ، بما جمع لنا من طاعة من قبلنا ، من أهل شأمنا وأندلسنا وأجنادنا وكورنا وثغورنا ، وما لم نزل نسمع ونعترف أن النقمة تنزل بهم ، والدائرة تحل عليهم من أهل المغرب بنا وعلى أيدينا ، فيقطع الله دابرهم ، ويستأصل شأفتهم إن شاء الله تعالى »(١).

وأدى الغزال سفارته خير أداء ، وعمل على إحكام الصلة والمودة بين الإمبراطور وبين مليكه ، وسحر البلاط البيزنطى بكياسته وظرفه ، وبديع صفاته ، وقدمه الإمبراطور إلى زوجه الإمبراطورة تيودورا وإلى ولده الأمير ميخائيل الذى تولى العرش فيما بعد ، وكان يومئذ فتى يافعاً ، فأنست به الإمبراطورة وسحرته برائع جمالها ، وسحره الأمير الفتى بظرفه وبارع خلاله . وقال فيه قصيدته التى مطلعها :

وأغيد لين الأطراف رخص　　　كحيل الطرف ذو عنق طويل
ترى ماء الشباب بوجنتيه　　　يلوح كرونق السيف الصقيل
من أبنـــاء الغطارف قيصرى　　　العمومة حين ينسب والخؤول

وعاد الغزال إلى قرطبة بعد رحلة دامت عدة أشهر ، وقد بهرته مظاهر الحضارة البيزنطية وروعة البلاط البيزنطى .

---

(١) ورد هذا الخطاب بنصه كاملا كما وردت تفاصيل هذه السفارة مفصلة فى مخطوط ابن حيان ص ١٦١ و١٦٢ و ١٦٣ ؛ ونشر الأستاذ ليڤى بروڤنسال قصة هذه السفارة بالفرنسية ، ومعها نص الخطاب بالعربية فى فصل خاص ، فى المجلد الثانى عشر من مجموعة **Byzantion** التى تصدر فى بروكسل بعنوان : **Echange d'Ambassades entre Cordoue et Byzance au IXe.Siècle** كما نشرها أيضاً فى رسالة خاصة . وراجع أيضاً نفح الطيب ج ١ ص ١٦٢ ، حيث يشير إلى هذه السفارة إشارة موجزة .

هذا وقد أوفد الغزال بعد ذلك بقليل فى سفارة أخرى أغرب وأعجب ؛ وذلك أنه على أثر غزو النورمانيين (المجوس) لولايات الأندلس الجنوبية الغربية واقتحامهم إشبيلية ، وردهم عنها ، ثم هزيمتهم ومطاردتهم ، بعث ملكهم رسله إلى عبد الرحمن بن الحكم فى طلب المهادنة والصلح ، فأجابه عبد الرحمن إلى طلبه ، وبعث الغزال مع الرسل إلى ملكهم ليرد السفارة ، ويعلنه بقبول الصلح .

وتقدم إلينا الرواية الإسلامية عن هذه السفارة تفاصيل شائقة . وهى رواية أديب أندلسى عاش فى القرن الثالث عشر الميلادى ، هو أبو الخطاب عمر ابن الحسن بن دحية البلنسى ، أوردها فى كتابه «المطرب من أشعار أهل المغرب» فى حديثه عن الغزال . وهو يذكر لنا أن عبد الرحمن أوفد مع الغزال ، يحيى بن حبيب لمرافقته فى تلك السفارة ، وأنهما خرجا معاً إلى البحر المحيط عن طريق شلب[1] فى مركب خاص أعد لهما ، وسارت مع مركب الرسل النورمانيين . ويصف لنا ما لقيه السفيران المسلمان من أهوال البحر وروعته ، وكيف أنهما جازا تلك الشدائد سالمين ووصلا إلى بلاد المجوس . ثم يصف لنا بلاد المجوس بأنها « جزيرة عظيمة فى البحر المحيط » ، وعلى مقربة منها « جزائر كثيرة منها صغار وكبار ، أهلها كلهم من المجوس ، وما يليهم من البر أيضاً لهم مسيرة أيام ، وهم مجوس ، وهم اليوم على دين النصرانية » .

ويبدو من وصف طريق الرحلة ، وأوصاف تلك الجزر ، أن القطر الذى قصده الغزال ورفيقه ، هو الدانماركة ، ويؤيد ذلك أن الدانماركة كانت فى ذلك الوقت مستقر ملك النورمان ( المجوس ) ، وكان ملكهم عندئذ يشمل الدانماركة وما حولها من الجزائر ، وقسما من إسكندناوة وألمانيا الشمالية . وكان يجلس على عرش النورمان فى ذلك الوقت (نحو سنة ٨٤٤ أو ٨٤٥ م ) ملك يسمى « هوريك » . وكان النورمان يومئذ أحداثاً فى النصرانية ، حسبما تقول الرواية الإسلامية . ولقى السفير المسلم من ملك النورمان كل ترحاب وعطف ، وأفرد لإقامته وزملائه منزلاً حسناً . وقدم إليه الغزال كتاب الأمير عبد الرحمن وهديته من الثياب والآنية ، فوقعت لديه أحسن موقع . ولقى الغزال فى البلاط النورمانى كله ، كثيراً من

---

( ١ ) شلب Silves هى بلدة أندلسية قديمة تقع فى جنوب غربى البرتغال على مقربة من المحيط الأطلنطى .

الإعجاب والعطف ، واستقبلته « نود » ملكة النورمان ، فراعه حسنها ، وشملته بعطفها ، ورآها بعد ذلك مراراً ، ونظم فى حسنها شعراً رقيقاً ، يورده لنا ابن دحية ، وفيه يخاطبها بقوله :

يا نود يا رود الشباب التى ‏ ‏ تُطلع من أزرارها الكوكبا

وعاد الغزال إلى الأندلس بعد رحلة دامت عشرين شهراً ، وكان عوده عن طريق شنت ياقب . ويقول لنا ابن دحية إنه كان يحمل من ملك النورمان كتاباً إلى صاحبها ، وهو ملك جليقية وليون . والظاهر أنه كان كتاب توصية وجواز ، لكى يستطيع السفير المسلم وزملاؤه اختراق المملكة النصرانية الشمالية ، فى طريقهم إلى الأندلس . وقد اخترق الغزال بالفعل مملكة ليون ، وسار إلى طليطلة ، ومنها إلى قرطبة . والمرجح أن وصوله إلى قرطبة ، كان سنة ٢٣٢ هـ ( أواخر سنة ٨٤٦ م ) .

وعاش الغزال بعد ذلك زهاء عشرين عاماً أخرى ، وتوفى فى سنة ٢٥٠ هـ . وقد بلغ الرابعة والتسعين من عمره ، إذ كان مولده فى سنة ١٥٦ هـ[١] ، وأدرك خمسة من أمراء بنى أمية بالأندلس أولهم عبد الرحمن الداخل ، وآخرهم محمد ابن عبد الرحمن . وكان مدى نصف قرن يتبوأ الزعامة فى الشعر والأدب والحكمة ، ويتبوأ فى بلاط قرطبة أسمى مقام من النفوذ والثقة والتقدير[٢] .

---

( ١ ) راجع جذوة المقتبس للحميدى ( مصر ) رقم ٨٨٧

( ٢ ) تراجع رواية ابن دحية كاملة فى كتابه « المطرب من أشعار أهل المغرب » المنشور بعناية وزارة المعارف سنة ١٩٥٤ ( ص ١٣٨ — ١٤٩ ) . ونقلها دوزى فى كتابه : Recherches, Vol. I. App, XXXIV ، وأشار إليها المقرى فى الفصل الذى أورده عن الغزال وأخباره ( نفح الطيب ج ١ ص ٤٤١ وما بعدها ) . وقد كان البحث يتجه من قبل إلى أن رواية ابن دحية عن هذه السفارة قد تكون تكراراً أو تحريفاً للرواية الخاصة بسفارة الغزال إلى قسطنطينية ، ولكن يتضح من مراجعة رواية ابن دحية كاملة فى كتابه المنشور ، ودراسة المعالم الجغرافية التى أوردها عن طريق سفر الغزال وطريق عودته عن طريق شنت ياقب ومملكة جليقية — وعن موقع مملكة النورمان ، يتضح من ذلك كله أنه لا توجد الآن ذرة من الريب فى صحة القول بأن السفارة كانت فعلا إلى « بلاد المجوس » أو النورمان ، أو بعبارة أخرى إلى الدانماركة .

# الفصل الأول

## ولاية محمد بن عبد الرحمن بن الحكم
## وطوالع الثورة الأولى

محمد بن عبد الرحمن . ظروف توليته والتمهيد لها . الثورة فى طليطلة . مسير محمد إلى طليطلة . استعانة الثوار بملكى ليون وناڤار . موقعة وادى سليط . تحريضات النصارى المتعصبين . غزوة ألبة والقلاع . عود إلى محاربة طليطلة وإخضاعها . غزوة النورمانيين . عيثهم فى جنوبى الجزيرة . ارتدادهم من طريق الشمال . غزو المسلمين لناڤار وألبة والقلاع . موسى بن موسى وسيادته فى الثغر الأعلى . الحرب بينه وبين أردونيو . مصرع موسى . ولده لب ومحالفته للنصارى . أخوته الثلاثة . غزو المسلمين لألبة والقلاع . هزيمة المسلمين . عود إلى غزو ألبة . هزيمة النصارى . الثورة فى ماردة وإخمادها . احتماء بنى قسى بملك النصارى . الثورة فى قواعد الثغر الأعلى . استيلاء بنى قسى على تطيلة وسرقسطة . سير محمد إلى الثغر الأعلى . استيلاؤه على تطيلة . غزوه لناڤار . زحف المنذر إلى سرقسطة . غزوه لناڤار ثانية . عوده إلى غزو الثغر الأعلى . افتتاح المنذر لحصن روطة واستيلاؤه على لاردة . خضوع سرقسطة . الخلاف بين بنى قسى . خروج محمد بن لب فى سرقسطة وتحالفه مع النصارى . سير المنذر إلى سرقسطة واستيلاؤه عليها . الهدنة بين المسلمين والنصارى . عود ابن مروان إلى الثورة فى ماردة . سير محمد لقتاله . تحالف ابن مروان مع ملك ليون . هزيمة جيش الأندلس وأسر قائده . عيث ابن مروان بنواحى الغرب . التجاؤه إلى ملك ليون . زحف المنذر على بطليوس وإحراقها . الثورة فى شنت برية وبنو ذو النون . ظهور ابن حفصون فى جبل ببشتر . بواعث الفتنة فى كورة ريه . غزو ابن حفصون لكورة ريه . محاربة ابن حفصون وأسره . فراره واستئنافه الثورة . سير المنذر لقتاله . محاصرة الحامة . وفاة محمد بن عبد الرحمن وعود المنذر إلى قرطبة . خلال محمد . عنايته بالجيش والأسطول والمنشئات الدفاعية . نظام البلاط فى عهده . حجابه ووزراؤه . أعماله الإنشائية . المسجد الجامع ومنية الرصافة . شخصه وخلاله . أدبه وبلاغته . عطفه على العلماء والأدباء . حمايته لبقى بن مخلد . نفوذ الفقهاء فى عهده . تسامحه نحو النصارى .

ترك عبد الرحمن بن عبد الحكم ، مملكة زاهرة موطدة الأركان ، تنعم بالاستقرار والهدوء . ولكن هذا الاستقرار الظاهر ، كان يحجب كثيراً من التيارات الخفية ، التى تهدد أمن المملكة وسلامتها . ذلك أن الهزات العنيفة التى توالت على الأندلس فى عهد عبد الرحمن ، تركت آثارها العميقة فى هذا الصرح الباذخ .

وكانت الثورات المحلية المتعاقبة ، وغزوات النورمانيين ، ودسائس النصارى المتعصبين ، كلها تنذر بأن الاستقرار المؤقت الذى تنعم به المملكة ، لم يكن سوى

هدنة خادعة ، حققتها سياسة قوية حازمة . وكانت عناصر الإضطراب والغدر تجثم هنالك فى صدور المنافقين والطامعين ، وتنذر حكومة قرطبة وعرش بنى أمية بأعظم الأخطار .

تولى محمد بن عبد الرحمن الملك عقب وفاة أبيه ، فى الرابع من ربيع الآخر سنة ٢٣٨ هـ (٢٤ سبتمبر سنة ٨٥٢ م) ، ودخل القصر وأبوه مسجى على سريره ، فاقتعد لفوره سرير الملك ، وأخذ له البيعة الحاجب عيسى بن شُهيد . وكان يومئذ قد جاوز الثلاثين بقليل . وكان مولده فى شهر ذى القعدة سنة ٢٠٧ هـ (إبريل سنة ٨٢٣ م) . وأمه أم ولد تدعى بهير[1]. وكانت ظروف ولايته ممهدة من قبل ، وكان والده عبد الرحمن قد استخلفه بقصر الإمارة ، حينما اعتزم أن ينيبه عنه فى سنة ٢٢٦ هـ ، وهو يومئذ فتى فى العشرين من عمره ، ثم ولاه ثغر سرقسطة ، فضبطه وأحسن إدارته ، وصحب والده إلى بنبلونة فى غزوته المظفرة سنة ٢٢٨ هـ ، وقاد ميمنة الجيش ، وأثنى عليه والده فى كتاب الفتح ، فاشتهر اسمه بين الناس ، ثم ندبه أبوه بعد ذلك لمقابلة رسل ملك الفرنج قارله (كارل) بن ببين القادمين إليه . وأخيراً كلفه بالركوب إلى البلاط بصفة منتظمة ، لبرفع إليه الكتب الواردة بعد تلخيصها بمعرفته ، وقد تم هذا الإجراء بتوصية الحاجب عيسى بن شهيد ونصحه ، وذلك لتمكين أمر محمد ومكانته ، وتوهين ما كان يحاوله نصر الخصى الأثير لدى الأمير ، وحليف حظيته طروب المتغلبة عليه ، من ترشيح ولدها عبد الله لولاية العهد ، وتمكين أمره .

ولم يكن ذلك دون اختيار وتثبت . ذلك أن عبد الرحمن ، كان حسبما يحدثنا عيسى الرازى « قد كشف عن مذاهب ولده ، ولداً ولداً ، وعجم أخلاقهم اختباراً ، فوجد محمداً راجحاً لهم بخلاله » . فاختاره ليخلفه من بعده ، وأوعز إلى وزرائه وأكابر دولته ، بأنه صاحب ولاية عهده ، والمفوض إليه الأمر من بعده ، وكلفهم جميعاً ، ومعهم القاضى وأهل الشورى ، بالركوب إليه وغشيان مجلسه أيام الجمع فى المسجد الجامع ، وأبدى على الجملة بما لا يدع مجالا لأى شك ، بإيثاره على جميع ولده ، وتفرده دونهم بخلافته فى ملكه .

وفضلا عن ذلك كله ، فقد كانت لمحمد عيون من الصقالبة بالقصر يطالعونه

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٩٦ .

بالأخبار فى وقتها . فلما توفى والده ، وافاه فى مساء نفس اليوم رسول من قبل حبيب الخصى ، يستدعيه إلى القصر بسرعة ، فبادر إلى القصر متنكراً وقد أخفى سلاحه تحت ثيابه ، خوفاً من دسائس أخيه ومنافسه عبدالله ، لتمكن نفوذ أمه داخل القصر . وكان الصقالبة قد كتموا موت الأمير ، وأغلقوا أبواب القصر ، وثارت بينهم مناقشات عنيفة حول ولاية العرش ، وانتهى الأمر بتفضيل محمد وتقرير استدعائه . وخرج محمد من غرفة أبيه المسجى إلى مجلس البيعة ، واستدعى إخوته التسعة والأربعين ، وعمومته ، وأهل بيته ، وعظماء المملكة . وأخذت له البيعة دون خلاف ( يوم الجمعة الرابع من ربيع الأول ٢٣٨ هـ ) ، ثم أخذت له بيعة الكافة فى المسجد الجامع أياماً متوالية[١] .

أوردنا هذه التفاصيل لنقف على نوع الإجراءات التى كانت تتخذ لتقرير ولاية العهد ، فى إمارة قرطبة الأموية ، ثم لنقف على الدور الذى أخذ يضطلع به الفتيان الصقالبة منذ الآن فصاعداً فى مسألة خلافة العرش ، وهو دور كان له أثره الحاسم فى كثير من المواطن .

وكان محمداً أميراً ذكياً فطناً بالأمور[٢] ، تولى والأفق الذى ظلل عصر أبيه العظيم مازال يحتفظ بلمعانه ، وملوك اسبانيا النصرانية يحسبون حسابه ، ويشعرون بأنه خلف كفء لأبيه ، وملوك العدوة القريبين من الأندلس يخطبون وده ، وملك الفرنج يسعى إلى عقد السلم معه .

وأقر محمد حاجب أبيه عيسى بن شُهيد ، ومعظم الوزراء الذين كانوا يتولون خدمة أبيه على خططهم ومراتبهم ؛ وصنع نظاماً جديداً للوزارة ، تتميز فيه الخطط الرفيعة على غيرها ، ويمتاز فيه الوزراء بنوع من التعظيم والتجلة ، وقدم الوزراء من أهل الشام على غيرهم من الأندلسيين والبربر ، وأعلاهم فى الجلوس على أرائكهم ببيت الوزارة . وكان بنفسه يشرف على أعمال الوزارة والكتاب ، ويدقق فى أعمالهم وتصرفاتهم وحساباتهم[٣] . ولما توفى عيسى بن شهيد ، خلفه فى الحجابة عيسى بن الحسن بن أبى عبدة ، وكان بالرغم من رثاثة هيئته وزيراً قوياً ،

---

( ١ ) ابن حيان عن أحمد بن محمد الرازى ، وعيسى بن أحمد الرازى ، ومعاوية بن هشام الشبينسى ؛ مخطوط القرويين اللوحات ٢١٥ إلى ٢٢٠ ب .

( ٢ ) ابن الأثير ج ٧ ص ١٤١ .

( ٣ ) ابن حيان عن أحمد الرازى ؛ مخطوط القرويين لوحة ٢٢٣ .

وافر الفطنة والذكاء ، صائب الرأى والتقدير . وكان هاشم بن عبد العزيز من بين وزراء الأمير محمد، أشدهم خصومة ومنافسة للحاجب ابن أبى عبدة ، وكان فى نفس الوقت أحب وزراء الأمير إليه ، وأكثرهم حظوة لديه ، فلم يلبث أن غلب نفوذه على سائر الوزراء . ويقول لنا ابن عبد البر إن هذه الحظوة التى استأثر بها الوزير هاشم لدى الأمير محمد، كان لها أثر سيئ فى تصرفات الأمير ، وأنه أى هاشم قد أفسد عليه أمره ، « فشرّهه ، وصلفه ، وحمله على غير المنهج من محمود طرقه ، وعدل عن اختيار ثقات العمال ، من الشيوخ والكهول أولى النهى والأصول ، إلى الأحداث من أولى الشر والخيانة ودناءة الأصول . فلم يلبث الأمر أن فسد بذلك إلى أبعد حال .. فنجمت الفتنة بأكثر البلاد ، وكثر فى الأرض الفساد فى المملكة »[1]. وفى أقوال ابن عبد البر عن هذا التحول فى سياسة الأمير محمد وفى أساليب حكمه مبالغة ، ينقضها ما أورده صاحب البيان المغرب وغيره عن صفاته[2]. وعلى أى حال فسوف نرى أى دور خطير يلعبه الوزير هاشم بن عبد العزيز ، الذى تولى الحجابة فيما بعد ، فى ميدان الحرب والسياسة فى عهد الأمير محمد .

وقد شاء القدر أن يكون عهد محمد بداية عصر من أخطر عصور التاريخ الأندلسى ، وأشدها خطراً على ملك بنى أمية ، وعلى دولة الإسلام فى الأندلس . ذلك أنه ما كاد يتبوأ العرش ، حتى بدأت طلائع تلك الثورة الجارفة ، التى قدر له أن يضطلع بكفاحها طوال حكمه ، الذى امتد خمسة وثلاثين عاماً ، والذى يصفه ابن حيان بقوله : « والمشوب آخره بالتنكيد ، المنصرم عن فرقة الجماعة ، ونجوم النفاق بكل جهة » .

ففى منتصف ربيع الثانى سنة ٢٣٨ هـ ، يعنى لأيام قلائل فقط من وفاة عبد الرحمن ، وولايه محمد ، تحرك أهل طليطلة التى ما فتئت تفيض بعوامل الثورة . وكان بها عندئذ سعيد بن الأمير محمد ، والعامل عليها حارث بن بزيع . وكان جماعة من المارقين وأهل الشر ، قد اجتمعوا فى الهضبة القريبة من المدينة المسماة « جبل الأخوين » بزعامة مسوقة بن مطرّف ، وهو أحد الزعماء الخوارج الذين فروا من قرطبة ، فلما وقفوا على وفاة الأمير عبد الرحمن ، كاتبوا أهل طليطلة وحرضوهم على الوثوب بسعيد ومن معه . فاضطرمت الثورة داخل المدينة ؛

---

(١) نقله ابن حيان ، مخطوط القرويين اللوحة ٢٢٢ أ .

(٢) راجع البيان المغرب ج ٢ ص ١١١ .

وساعدهم ابن مطرف بحشوده من الخارج ، وانتهى الأمر بهزيمة جند الأمير ، واستطاع سعيد أن يغادر المدينة ، ولكن الثوار أسروا عاملها حارثاً ، ورفضوا إطلاق سراحه حتى أطلقت حكومة قرطبة رهائنهم المعتقلة هناك[1]. وفى صيف العام التالى (سنة ٢٣٩ هـ — ٨٥٣ م) بعث الأمير محمد أخاه الحكم فى جند الصائفة إلى قلعة رباح ، وكانت قد أقفرت وخربت وغادرها معظم أهلها ، عقب مهاجمة أهل طليطلة الخوارج لها ، وقتلهم كثيراً من أهلها ، فاحتلتها جند الأمير ، وقامت بإصلاح أسوارها ، واستدعى أهلها الفارون وأمنوا ؛ وفعل الحكم مثل ذلك بحصن شندلة ، الواقع على النهر المسمى بهذا الإسم **Jandula** ، وهو من أفرع الوادى الكبير ؛ وجالت جند الأمير فى تلك المنطقة تطهيراً من الثوار ، وخرجت منها حملة سارت جنوباً ، فلقيتها عصابات الخوارج من أهل طليطلة فى فحص أندوجر ، ووقعت بين الفريقين معركة عنيفة هزم فيها جند الأمير ، وردوا بخسارة فادحة (شوال سنة ٢٣٩ هـ) . وعلى أثر ذلك خشى أهل مدينة جيّان القريبة على أنفسهم من عيث الخوارج ، فغادرها كثير منهم إلى الجبال ، وابتنى الأمير محمد لهذا السبب حصن «أندة» على مقربة جيان ، وضم إليه العرب المقيمين على الطاعة ، وسمى المكان لذلك «أندة العرب»[2] .

وعندئذ شعر محمد بما يهدد العاصمة من الأخطار ، وأراد أن يلقى على ثوار طليطلة ، درساً عميق الأثر ، فسار إليها فى المحرم سنة ٢٤٠ هـ (يونيه ٨٥٤ م) على رأس قوة كبيرة . وكانت أول حملة يقودها بنفسه بعد تبوئه الملك . وكان عماد الثورة فى طليطلة جمع كبير من المولدين والنصارى ، الذين تحركهم روايات المتعصبين ، عن الاضطهاد الذى يلقاه إخوانهم فى قرطبة ، وكانوا يتطلعون دائماً إلى عون ملك النصارى ؛ فلما استشعروا عزم محمد على قتالهم ، بادروا بالاستغاثة بأردونيو (أردن) ملك ليون ، وكذلك بملك نافار ؛ وأمدهم أردونيو بقوة على رأسها الكونت غاتون[3]. وكان تدخل النصارى على هذا النحو لتأييد الثورة ضد حكومة قرطبة ، عاملا فى إذكاء حماسة المسلمين ، فهرعت جموع كبيرة إلى جيش الأمير ، ومنهم كثير من الفرسان الأشراف وذوى الحسب ، وسار محمد صوب

---

(١) ابن حيان عن الرازى فى مخطوط القرويين لوحة ٢٥٩ أ .

(٢) مخطوط القرويين لوحة ٢٥٩ ب .

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٣٠ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٩٧ . ويقول صاحب البيان إن الكونت غاتون هو أخ الملك ليون .

طليطلة فى بعض قواته ، وترك بقية جيشه الكثيف مستتراً بالتلال التى تظلل وادى سليط ، وهو الوادى الذى تخترقه النهر المسمى بهذا الإسم Guazalete ، وهو أحد أفرع التاجُه الجنوبية ، فلما رأى أهل طليطلة قلة الجيش المحاصر ، خرجوا لقتاله ومعهم حلفاؤهم النصارى وهم على ثقة من الظفر ، فارتد محمد بجنوده نحو وادى سليط متظاهراً بالهزيمة ، وعندئذ برزت قوات الأندلس من مكامنها ، وأطبقت على الثوار وحلفائهم النصارى ، وكانت موقعة هائلة مزقت فيها جموع الطليطليين والإسبان فى ساعات قلائل من الصباح إلى الضحى ، وقتل منهم مقتلة عظيمة تقدرها الرواية الإسلامية بأحد عشر ألفاً ، وقيل بل عشرين ألفاً ، وأسر منهم كذلك عدد جم ، بينهم كثير من القساوسة وقد أعدموا على الفور ، ورصت رؤوس القتلى ، وأذن فوقها لصلاة الظهر . وكان نصراً عظيماً . وفى هذه الموقعة يقول شاعر العصر عباس بن فرناس :

| | |
|---|---|
| ومؤتلف الأصوات مختلف الزحف | لهـــوم الفلا عبل القبائل ملتف |
| إذا أومضت فيه الصوارم خلتها | بروقاً تراءى فى الغمام وتستخفى |
| كأن ذرى الأعلام فى ميلانها | قراقير فى يم عجزن عن القذف |
| بكى جبلا وادى سليط فأعولا | على النفر العبدان والعصبة الغلف |
| يقول ابن يوليس لموسى وقد ونى | أرى الموت قدامى وتحتى ومن خلفى |
| قتلنـــا لهم ألفاً وألفاً ومثلهـــا | وألفاً وألفاً بعد ألف إلى ألف |
| سوى من طواه النهر فى مستلجه | فأغرق فيه أو تهدهد من جرف |
| لقد نعمت فيه غزاة نسورنا | وسمعت الدقات قصفاً على قصف (١) |

على أن الفتنة فى طليطلة لم تهدأ ولم تخمد ، فقد استمر تحريض النصارى المتعصبين فيها على أشده ، وأضحت المدينة الثائرة موئلا لطائفة من القسس المتعصبين مثل أولوخيو وصحبه ، يبثون دعايتهم المضطرمة فى طليطلة وما جاورها من الأنحاء ، ويصورون مصير النصارى فى ظل الحكم الإسلامى بأشنع الصور ، ويدعون إلى التحرر من الاضطهاد الدينى والاجتماعى ، وكان صدى هذه

---

(١) ينقل إلينا ابن حيان عن موسى الرازى تفاصيل هذه الموقعة — مخطوط القرويين لوحة ٢٦٠ أ وب و ٢٦١ أ . وراجع البيان المغرب ج ٢ ص ٩٧ و ١١٤ . وكذلك : Dozy Histoire, V.I. p. 355

الدعوة يتردد قوياً فى العاصمة الأندلسية ، ويبث القسس تحريضهم ودعاياتهم المسمومة ، مثلما كانوا يفعلون أيام عبد الرحمن بن الحكم[١]. وكان محمد يرقب هذه الفتنة حذراً من عواقبها ، وعواقب تمرد المدينة الثائرة ، ومن ثم فقد لبث متأهباً لمقارعتها ، وشحن قلعة رباح وطلبيرة على مقربة منها بالجند والعدد .

وسير الأمير محمد كذلك الصوائف والحملات الغازية إلى الثغر الأعلى . ففى سنة ٢٣٩ هـ ( ٨٥٣ م ) سير جيشاً بقيادة موسى بن موسى بن قسىّ والى تطيلة إلى ألبة والقلاع . وكان موسى أيام الأمير عبد الرحمن ، من زعماء الثورة فى الشمال ، وتحالف مع النصارى حسبما تقدم ، وقاتله عبد الرحمن حتى تمكن من إخضاعه . ولكنه عاد فى أواخر عهده إلى سابق مكانته من زعامة الثغر الأعلى ، واستطاع أن يوطد استقلاله فى تطيلة وما جاورها ، مع التظاهر فى نفس الوقت بالولاء لحكومة قرطبة ، اتقاء لخصومتها . فسار إلى ألبة والقلاع وعاث فيها ، وهزم النصارى فى عدة مواقع ، وافتتح بعض الحصون ، ثم عاد بعد ذلك فاتجه صوب ثغر برشلونة ، وانتزع بعض حصونه من أيدى النصارى ، وتضع بعض الروايات تاريخ هذه الغزوة فى سنة ٢٤٢ هـ ( ٨٥٦ م ) . بيد أنه يبدو من أقوال الرازى أنها وقعت قبل سنة ٢٤١ هـ[٢] .

وفى صيف سنة ٢٤١ هـ ( ٨٥٥ م ) سار محمد بنفسه إلى ألبة والقلاع ، وقد كتب إلى موسى بن موسى وأهل الثغور بالاحتشاد والسير فى حملته ، فعاث فى بسائط ألبة والقلاع ، وافتتح كثيراً من حصون النصارى . وفى العام التالى بعث موسى بن موسى إلى أحواز برشلونة ، فغزاها وخرب برشلونة وافتتح بعض حصونها ، وأسر بعض أمرائها[٣] .

بيد أن اهتمام الأمير لبث فى الوقت نفسه بالأخص موجهاً إلى طليطلة ، فبعث ولده المنذر إلى المدينة الثائرة فى قوة كبيرة فحاصرتها وعاثت فى أحوازها (٢٤٢هـ) ، ولم يجرأ الثوار هذه المرة على مغادرة مدينتهم . ولكنهم خرجوا فى العام التالى إلى طلبيرة لمقاتلة الحامية الأندلسية بها ، فخرج إليهم قائدها مسعود بن عبد الله ،

---

(١) يفيض دوزى فى شرح أدوار هـذه الفتنة الدينية وأعمال دعاتها : Dozy: Hist.; V. I. p. 356—362

(٢) مخطوط القرويين لوحة ٢٦١ ب .

(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ٩٨ .

وأوقع بهم وقتل منهم عدة مئات أرسلت رؤوسهم إلى قرطبة . وسارت جند الصائفة فى الوقت نفسه إلى طليطلة ، فنازلتها وعاثت فى أحوازها ، وانتسفت زروعها وأقواتها .

ورأى الأمير محمد أن يتابع معاقبة أهل طليطلة . فخرج إليهم بنفسه فى صيف سنة ٢٤٤هـ (٨٥٨م) ، وحاصر المدينة الثائرة ، وتأهب أهلها لقتاله بالرغم مما أصابهم من نقص فى القوى ، وشح فى الأقوات ، واعتمدوا على حصانة مدينتهم . ولجأ محمد إلى الحيلة فهدم مهندسوه قواعد القنطرة الكبيرة مع تركها قائمة ثم انسحب بجنوده ؛ وهنا خرج أهل طليطلة لقتاله ، فلما احتشدوا على القنطرة سقطت بهم فى نهر التاجه وغرق منهم عدد جم[1] . ولم يترك محمد هذه المرة وسيلة رائعة إلا استعملها لسحق المدينة الثائرة ، فخرب حصونها ومعالمها ، وأوقع بأهلها قتلا وتشريداً ، حتى اضطروا إلى طلب الأمان والصلح ، وأذعنوا للخضوع والطاعة ، وهم يعتزمون النكث فى قرارة أنفسهم متى سنحت الفرص (٢٤٥ هـ — ٨٥٩ م) .

وهكذا لبثت طليطلة عصراً تضنى حكومة قرطبة بتمردها وثوراتها المتوالية ؛ وكانت حاضرة القوط القديمة تشعر دائماً بقوتها ومنعتها الطبيعية ، وكانت فوق ذلك مثوى التيارات النصرانية الخطرة حسبما بينا ، تنساب إليها من نصارى الشمال ، ومن النصارى المعاهدين بقرطبة ، ومن أهلها أنفسهم . والواقع أن طليطلة كانت بوعورة موقعها على المنحدر الصخرى الممتد نحو نهر التاجه ، وإحاطة النهر بهذا المنحدر الوعر ، ثم بحصونها القوية ، وأسوارها العالية الضخمة ، من أمنع مدن العصور الوسطى . وما تزال إلى اليوم حين نتأملها ونتجول فيها ، تذكرنا بموقعها الصعب ، وطرقها الصخرية الوعرة ، وبقية أسوارها وحصونها المنيعة ، بما كان لها من سابق الحصانة والقوة فيما خلا من العصور .

وهكذا أخمدت ثورة المولدين والنصارى المعاهدين فى طليطلة إلى حين ؛ وتأهب محمد فى الوقت نفسه لقمع شغب النصارى المتعصبين فى قرطبة وغيرها ،

---

(١) يقدم إلينا ابن حيان عن هدم القنطرة قصة أخرى ، فيقول إن جنود محمد حاولوا هدم القنطرة تحت أنظار أهل المدينة ، وأنهم سخروا من هذه المحاولة ، وأيقنوا بعقمها . ثم خرجوا للقتال ، واحتشد الكثير منهم فوق القنطرة ، فانهارت تحت أقدامهم وهوت بمن فوقها إلى النهر ، وهدمت صخورها عليهم من كل ناحية ( مخطوط القرويين لوحة ٢٦٢ أ ) .

وإخماد نزعتهم الثورية الخطرة . وحوكم القس أولوخيو الذى أشرنا من قبل إلى دعايته وتحريضه أيام عبد الرحمن ، وكان مايزال معقد الدسائس الدينية ، وقضى بإعدامه كما قضى بإعدام صاحبته ومعاونته الفتاة ليوكريسيا ( مارس سنة ٨٥٩ م ) . ورأى النصارى فتنتهم تنهار فركنوا إلى السكينة ، وخبت جذوة تعصبهم ، التى لبثت أعواماً طويلة تضطرم فى قرطبة ، ولم يبق من حماستهم سوى الذكرى(١) .

ولم يكد ينتهى الأمير محمد من إخضاع طليطلة ، حتى دهم الأندلس خطر النورمانيين مرة أخرى. ففى نفس هذا العام (٢٤٥هـ — ٨٥٩ م) انحدر النورمانيون ( وهم الأردمانيون أو المجوس كما تسميهم الرواية الإسلامية ) فى سفنهم نحو شواطئ جليقية ، وعاثوا فى شاطئ اسبانيا الغربى . وتقدر الرواية الإسلامية أسطول النورمان فى هذه المرة باثنتين وستين مركباً ؛ وطاردتهم السفن الأندلسية ، وكانت دائماً على قدم الأهبة تجوس خلال المياه الغربية بصفة مستمرة استعداداً لرد أولئك الغزاة الخطرين ، مذ فاجأوا الأندلس بغاراتهم المخربة أيام عبد الرحمن . ووصلت بعض سفن النورمانيين جنوباً حتى تجاه مدينة باجة ، وهنالك استطاعت السفن الأندلسية أن تقضى على طلائع الغزاة ، وأن تنتزع سفينتين من سفنهم المحملة بالغنائم والسبى ، بيد أنهم انقضوا على الشواطىء الجنوبية ، ووصلوا إلى مصب نهر الوادى الكبير ، ثم انحدروا جنوباً حتى مياه الجزيرة الخضراء .

وفى تلك الأثناء كانت القوات الأندلسية قد سارت إلى الغرب بقيادة الحاجب عيسى بن أبى الحسن بن أبى عبدة ، وهرع الناس إلى جيش الأمير من كل صوب ، وتقدم الأسطول بقيادة أميرى البحر حشحاش وابن شكوح ، وقد عبىء أحسن تعبئة ، وجهز بالأنفاط وفرق الرماة الكثيفة ، ورد الغزاة أولا عن إشبيلية بعد عدة معارك برية وبحرية . ثم نشبت بين الفريقين بعد ذلك معركة بحرية شديدة تجاه شاطئ شذونة ، وغنم المسلمون فى البداية مركبين آخرين ، ولكن السفن النورمانية تكاثرت على جناح الأسطول الذى يقوده حشحاش ، وغلبت عليه ، وقتل أمير البحر المسلم فوق سفينته ، ثم انحدر النورمانيون صوب الجزيرة الخضراء واقتحموها ، وأحرقوا مسجدها الجامع ، وعاثوا فيها سفكاً ونهباً ، وسارت

(١) Dozy : Hist, V. I. p. 361—362

بعض سفنهم إلى شواطئ العدوة ( عدوة المغرب ) وعاثت فيها ، ثم نزلوا بشاطئ الأندلس الجنوبى ، وسارت سفنهم قبالتهم على ساحل تدمير حتى أوريولة ، فدخلوها ، وعاثوا فى تلك الأنحاء نهباً وسبياً ، واشتبكوا مع القوات الأندلسية فى عدة معارك برية وبحرية عنيفة ، حطمت فيها بعض سفنهم ، وقتل كثير من المسلمين ، واستمر عيث النورمانيين على هذا النحو أشهراً حتى خبت فورتهم ، وفقدوا كثيراً من سفنهم . فارتدوا نحو الشمال على طول شواطئ اسبانيا الشرقية ، ونفذت منهم قوة خلال نهر إبره إلى ناڤار ، واقتحموا عاصمتها بنبلونة وأسروا ملكها غرسية ، ولم يطلقوه إلا لقاء فدية كبيرة ، وأغارت قوات أخرى منهم على الجزائر الشرقية وشواطئ پروڤانس حيث عبروا مصب الرون ، وخربوا آرل ونيمة وڤالانس .

وهكذا لم تكن الغزوة النورمانية فى هذه المرة مفاجأة مثلما كانت الغزوة الأولى ، ولم يكن عيث الغزاة على نفس النطاق الواسع . وهذا ما يسجله لنا ابن حيان فى ختام حديثه عنها ، إذ يقول : « فلم يكن لهم فى هذه الكرّة الإنبساط فى البحر ، والإضرار بأهل السواحل ما جرت به عادتهم ، ولم يجدوا فى السواحل مطمعاً لشدة ضبطها ، ولاقوا مع ذلك من البحر هولا عطبت له من مراكبهم أربعة عشر مركباً بناحية البحيرة من الجزيرة ، فنكبوا عن حائط الأندلس ، واعتلوا إلى جهة الفرنجة ، فلم يلقوا ظفراً ، وأسرعوا الانصراف إلى بلدتهم بالخيبة ، فلم تكن لهم بعد بالأندلس إلى اليوم عودة »(١) .

وفى العام التالى أعنى سنة ٢٤٦ هـ ( ٨٦٠ م ) بعث محمد حملة إلى الولايات الشمالية بقيادة حاكم طرطوشة . ويقول لنا ابن حيان إن الأمير محمد هو الذى غزا بالصائفة بنفسه فى تلك السنة . وكان غرسية ملك ناڤار ، قد تحالف عقب انطلاقه من أسر النورمان مع أردونيو ملك ليون ، وأغارت قواتهما المتحالفة على الأراضى الإسلامية . وعلى أى حال فقد زحفت القوات الأندلسية على ناڤار ، ولم تكن قد

( ١ ) تختلف الرواية الإسلامية فى تاريخ هذه الغزوة النورمانية الثانية لشواطىء الأندلس ، فيضعه الرازى فى سنة ٢٤٥ هـ ( ٨٥٩ م ) . ويتابعه فى ذلك ابن الأثير وابن عذارى . ويضعها هشام ابن معاوية الشبينسى فى سنة ٢٤٧ هـ ( ٨٦١ م ) ، وقد أخذنا بالرواية الأولى لأنها أرجح وأكثر اتفاقاً مع سير الحوادث . راجع فى تفاصيل الغزوة ، ابن حيان فى مخطوط القرويين لوحة ٢٦٣ أ و ب و ٢٦٤ أ ، والعذرى فى « الأوراق المنثورة من ترصيع الأخبار » ص ١١٨ و ١١٩ . وابن الأثير ج ٧ ص ٢٨ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٩٩ .

أفاقت بعد من ضربة النورمانيين ، وغزت بنبلونة وخربت حصونها . ولم تقو جموع غرسية على رد المسلمين ، واستمر المسلمون بضعة أسابيع يخربون بسائط نافار وينتسفون قراها وحصونها ، وكان من بين الأسرى فرتون ولد غرسية ، فأخذ إلى قرطبة حيث اعتقل زهاء عشرين عاماً[1] .

وفى صيف سنة ٢٤٧ هـ ( ٨٦١ م ) سارت حملة أندلسية أخرى إلى ألبة والقلاع . وكان موسى بن موسى قد طلب إلى محمد أن يكون طريق الحملات الغازية عن غير منطقته ، نظراً لما يتجشمه فى مقارعة النصارى من جهد ، وما يصيب أراضيه من الدمار ، فأجابه الأمير إلى طلبه ، وسارت الحملة من طريق آخر ، وعاثت فى أراضى النصارى .

وكان موسى بن موسى بن قسىّ يومئذ ، قد بسط نفوذه على بسائط قواعد الثغر الأعلى ، وأصبح سيداً لتطيلة ووشقة وسرقسطة وأحوازها . وكان هذا الزعيم القوى الذى يرجع حسبما أسلفنا إلى أصل نصرانى ، وله مصاهرة وقرابة مع الأمراء النصارى ، ينتهز كل فرصة لتدعيم استقلاله ، وكان يتشح بلقب الإمارة ، ولم يكن يدين لحكومة قرطبة إلا بنوع من الولاء الإسمى . وكانت علائقه مع أردونيو ملك ليون جاره من الغرب ، تتردد بين الخصومة والتحالف وفقاً للظروف . وكان أردونيو ينظر إلى اتساع ولايته من ناحية الغرب بعين القلق ، وموسى من جانبه يحرص على تحصين قواعده وحدوده ؛ ففى سنة ٢٤٨هـ (٨٦٢م) سار موسى فى قواته إلى الغرب لتحصين قواعده الغربية ومعه صهره غرسية أمير نافار ؛ وحاول أردونيو من جانبه أن يحبط هذه الحركة ، فهاجم بعض الحصون التابعة لموسى وفى مقدمتها حصن « البلدة » الواقع على نهر إبره على مقربة من قلهرّة ، ونشبت بين الفريقين معركة جرح فيها موسى جراحاً خطيرة ، وهزمت قواته وقتل منها عدد كبير من المسلمين والنصارى ، وقتل صهره غرسية ، وهدم أردونيو حصن البلدة وغيره من الحصون التى تحمى أراضى ابن قسى ، ولم يمض سوى قليل حتى توفى موسى نفسه متأثراً بجراحه ، وكانت وفاته نذيراً بتطور الحوادث فى الثغر الأعلى .

وذلك أن موسى بن موسى كان بالرغم من استقلاله عن حكومة قرطبة ،

---

(١) راجع البيان المغرب ج ٢ ص ٩٩ و ١٠٠ ، ومخطوط القرويين اللوحة ٢٦٣ أ .

يقف بقواعده وقواته فى الشمال الشرقى ، سداً منيعاً فى وجه النصارى . فلما توفى أعلن ولده لب خضوعه لأردونيوملك ليون ، وتحالف معه ضد المسلمين ، وزحف على وادى الحجارة يبغى الاستيلاء عليها ، فرده عنها حاكمها ابن سالم . وأصابته خلال المعركة جراح توفى منها وهو فى طريق العودة إلى تطيلة ، وحل أخوته الثلاثة إسماعيل ومطرِّف وفرُتون مكان أبيهم فى حكم القواعد الشمالية . وهنا رأت حكومة قرطبة أن تضاعف أهباتها لرد النصارى عن الولايات الشمالية . ففى صيف سنة ٢٤٨ هـ ( ٨٦٣ م ) سار عبد الرحمن ابن الأمير محمد على رأس حملة كبيرة إلى ألبة والقلاع ، ومعه القائد عبد الملك بن العباس القرشى ، فجاس خلالها وخرب بسائطها . واشتبك النصارى بقيادة ملكهم أردونيو مع المسلمين فى معركة عنيفة ، وهزموا على أثرها هزيمة شديدة ، وقتل عدة من قوادهم(١) . ولم يمض عامان حتى سير محمد ولده عبد الرحمن مرة أخرى ، إلى غزو ألبة والقلاع (٢٥١ هـ — ٨٦٥ م) . ويقول لنا ابن حيان إن الذى كان على رأس هذه الغزوة هو المنذر بن عبد الرحمن ، وكانت قيادة الجيش للحاجب عيسى بن الحسن بن أبى عبدة . وعلى أى حال فقد سار المسلمون بحذاء نهر إبره ، واستولوا على معظم حصون أكابر النبلاء والسادة فى تلك المنطقة . وحاول أردونيو كعادته أن يعترض سبيل المسلمين عند العودة ، وقد كمن لهم فى موضع يسمى «بفج المركور» على مقربة من نهر إبره ، أفرغ جهده فى تحصينه ، فنشبت بينه وبين المسلمين على ضفاف النهر معركة شديدة ، كانت الدائرة فيها على النصارى ، فقتل وأسر منهم عدد كبير وغرق الكثير منهم فى النهر ، ومزقوا كل ممزق(٢) . وفى العام التالى سارت حملة أخرى إلى الشمال بقيادة الحكم بن محمد ، فعاث فى أرض النصارى ، و استولى على بعض الحصون . وكانت هذه الغزوات المتوالية قد هدت من قوى النصارى ، ومزقت شملهم وخربت بلادهم ، فركنوا إلى السكينة ، وتوفى ملكهم أردونيو فى الوقت نفسه ( ٨٦٦ م ) فخلفه ولده ألفونسو الثالث الذى لقب فيما بعد بألفونسو الكبير .

— ٢ —

كان حرياً بعد أن هدأت ثائرة النصارى فى الشمال ، أن تتمتع حكومة قرطبة

(١) ابن حيان فى مخطوط القرويين لوحة ٢٩٥ أ

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ١٠٢ . ومخطوط القرويين لوحة ٢٦٥ ب .

بفترة من السلام والدعة . ولكن الخطر كان يجثم فى ناحية أخرى. ذلك أن عوامل الانتقاض والثورة كانت تجتمع من جديد فى شمال غربى الأندلس ، فى المناطق الجبلية التى ألفت الثورة واتخذتها شعاراً لها . ولم تكن حكومة قرطبة بغافلة عن هذه النذر . وكانت ماردة وبها عدد من زعماء المولدين المتمردين ، فى مقدمة القواعد التى يشك فى ولائها وطاعتها . ففى سنة ٢٥٤هـ ( ٨٦٨ م) خرج الأمير محمد على رأس جنده من قرطبة ، متظاهراً بالسير إلى طليطلة ، ولكنه عرج فى منتصف الطريق فجأة على طريق ماردة ، ودهمها قبل أن تستعد للقائه ، فتحصن بها أهلها . ثم اقتحمها محمد ، ووقع بين الفريقين قتال عنيف انتهى بسحق الثوار وإذعان المدينة ، وطلب الزعماء الثائرون الأمان وفى مقدمتهم عبد الرحمن بن مروان الجليقى، وابن شاكر ، ومكحول ، وغيرهم ، وهم من أكابر الفرسان والسادة ، فنقلهم الأمير بأموالهم وأهلهم إلى قرطبة ، وولى على ماردة سعيداً بن عباس القرشى ، وهدم حصونها وأسوارها(١) .

وكانت الحوادث تتطور فى الثغر الأعلى فى نفس الوقت تطوراً خطيراً . وكان الأمير محمد قد استطاع عقب وفاة موسى بن موسى أن يسترد سلطانه فى تلك الأنحاء ، وأن ينتزع القواعد الشمالية من أبنائه ، ويعين لها حكاماً من قبله . وكان بنو موسى أو بنو قسىّ ، نسبة إلى جدهم الأعلى الكونت قسىّ القوطى ، يرجعون كما أسلفنا إلى أصل نصرانى ، وكانت هذه الأسرة المتمردة الشديدة المراس ، كباقى الأسر القوية المولدة ، تبغض حكومة قرطبة، وتميل إلى مناوأتها والتحالف ضدها مع النصارى ، وكان بنو قسى أصهاراً لملك نافار النصرانى ، حيث كان غرسية زوجاً لابنة موسى المسماة « أورية » Oria ، فلما توفى موسى وانتزعت حكومة قرطبة قواعده من يد بنيه ، لجأ هؤلاء حيناً إلى حماية ملك ليون ، حتى تسنح لهم فرصة العمل ومعاودة الجهاد . على أن حكومة قرطبة لم تلق فى حكامها الذين اختارتهم للقواعد الشمالية ما كانت تؤمل من ولاء وإخلاص . ففى سنة ٢٥٥هـ ( ٨٦٩ م ) ثار سليمان بن عبدوس فى مدينة سُرية وهى من أعمال سرقسطة ، فسار إليه الحكم بن الأمير محمد ، وحاصر سرية وهدم أسوارها بالمجانيق ، وأرغم الثائر على الخضوع والطاعة ، وبعث به إلى قرطبة . وفى العام التالى ( ٢٥٦ هـ )

---

( ١ ) ابن الأثير ج ٧ ص ٦٢ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ١٠٣ ، ومخطوط القرويين لوحة ٢٦٨ أ .

ثار عمروس بن عمر بن عمروس أحد زعماء الثغر ، وغدر بموسى بن غلند عامل وشقه وانتزعها منه . وعمروس هذا هو حفيد عمروس بن يوسف بطل واقعة الحفرة بطليطلة ، وقد كان بنو عمروس مثل بنى قسى مولدين من أصل نصرانى ، لا يشعرون بأى ولاء حقيقى لحكومة قرطبة . فسير عامل الثغر عبد الوهاب بن أحمد بن مغيث الجند لمقاتلة الثائر ، فلما انتهت إلى وشقة فر عنها عمروس ، وأسر بها حفيده لب بن زكريا بن عمروس ، وقتل وعلق رأسه على سور المدينة . وفى سنة ٢٥٧ هـ ( ٨٧١ م ) أرسل محمد حملة جديدة إلى الثغر الأعلى بقيادة عبد الغافر بن عبد العزيز ، فطارد فلول عمروس ، وقبض على ولده زكريا وأبنائه وجماعة من أهله ، وقتلهم على باب مدينة سرقسطة ، وقفل إلى قرطبة ورؤوسهم مرفوعة بين يديه(١) ، ولاح أن الثورة قد أخمدت فى الشمال

ولكن الواقع أن الثورة عادت لتضطرم فى الشمال بأقصى شدتها . ذلك أن القوات الأندلسية ما كادت تعود إلى قرطبة حتى ظهر بنوقسى فى الميدان مرة أخرى ، وزحف مطرف وأخوه إسماعيل ابنا موسى بن موسى على تطيلة ، فانتزعاها من حاكمها عبد الوهاب بن مغيث ، كما انتزعا سرقسطة من ولده محمد ابن عبد الوهاب ؛ وملك مطرف تطيلة فى صفر سنة ٢٥٨ هـ (٨٧١ م) ، وملك إسماعيل سرقسطة فى ربيع الأول من نفس العام . وهنا عول محمد على أن يخرج إلى الثوار بنفسه . فسار فى العام التالى على رأس جيشه ( ٢٥٩ هـ — ٨٧٢ م ) وعرج فى طريقه على طليطلة ، حيث عقد لأهلها الأمان وأخذ الرهائن . ثم سار إلى الثغر الأعلى ، وزحف تواً على تطيلة واستولى عليها . وقبض فيها على مطرف ابن موسى وأبنائه . وفى رواية أخرى أن مطرفاً كان قد ملك وشقة إلى جانب تطيلة واستقر بها ، وأن عمروساً صاحب وشقه السابق استطاع أن يؤلب أهلها على مطرف ، وانتهى بأن انتزعها منه ، وقبض عليه وعلى ولده وزوجته وهى بنت غرسية ملك نافار وتزوجها . فلما قدم الأمير فى جيشه سارع عمروس بإعلان طاعته ، والتمس الأمان ، فأجابه الأمير إلى ما طلب ، وأقره على ولاية وشقة وأعمالها ، وتسلم منه مطرفاً وأولاده(٢) . واتجه الأمير بعد ذلك إلى نافار فخرب

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ١٠٣ ، ومخطوط القرويين لوحة ٢٦٩ أ .

(٢) هذه هى رواية عيسى بن أحمد الرازى ، نقلها إلينا ابن حيان فى مخطوط القرويين لوحة ٢٧٠ ب .

بسائطها، ثم عاد إلى قرطبة وأمر بقتل الثائر مطرّف وبنيه الثلاثة : ورفعت رؤوسهم على باب القصر . وفى العام التالى ( ٢٦٠ هـ ) سير محمد إلى الشمال مع ولده المنذر جيشاً بقيادة هاشم بن عبد العزيز . فزحف المنذر إلى سرقسطة وعاث فى نواحيها ، وانتسف أشجارها وزروعها ، وجعلها قاعاً صفصفاً ، ولكنه لم يستطع انتزاعها من يد المتغلب عليها اسماعيل بن موسى . وكان أخوه فُرتون قد حل فى تطيلة مكان أخيه مطرف ، وتحالف الثائران مع ألفونسو الثالث ملك ليون . فسار المنذر إلى وشقة ، ثم إلى بنبلونة عاصمة نافار ، وعاث فى تلك الأنحاء ، ولكن جهوده لم تسفر عن أية نتائج مستقرة[١] .

وشغلت حوادث الشمال وثورة بنى موسى حكومة قرطبة أعواماً طويلة . فى سنة ٢٦٤ هـ (٨٧٨ م) سار المنذر مرة أخرى إلى الثغر الأعلى ، وعاث فى بسائط سرقسطة وتطيلة ، ولكنه لم يظفر بالاستيلاء عليهما . ثم زحف على بنبلونة ، فخرب بسائطها ، وأتلف زرعها ، وقتل كثيراً من أهلها . وفى العام التالى ( ٢٦٥ هـ ) ، عاد المنذر إلى غزو الثغر الأعلى ، وحاصر مدينة سرقسطة وسائر بلاد بنى قسىّ ، وعاث فيها إتلافاً وتخريباً . ومع ذلك فقد لبث الشمال بعيداً عن سلطان قرطبة بضعة أعوام أخرى . وكانت جنبات الأندلس الأخرى تضطرم فى الوقت نفسه بسلسلة من الثورات المدمرة حسبما نفصل بعد ، ولكن حكومة قرطبة كانت تعلق على قواعد الثغر الأعلى أهمية خاصة ، لوقوعها على حدود الممالك النصرانية . فى سنة ٢٦٨ هـ ( ٨٨٢ م ) سير الأمير محمد ولده المنذر إلى الشمال على رأس جيش ضخم ، ومعه القائد هاشم بن عبد العزيز . وكان المنذر قائداً مجرباً ذا شجاعة وبأس ، وكان يعتزم هذه المرة أن يسحق الثورة وزعماءها فى الشمال . فزحف تواً على سرقسطة ، ولما لم ينجح فى اقتحامها ، تحول إلى الحصون الواقعة حولها فخربها واستولى عليها ، وافتتح حصن روطة أمنع حصونها وأسر به عبد الواحد الروطى « أشجع أهل عصره »[٢] ثم استولى على لاردة وما حولها من الأنحاء ، وانضم إليه محمد بن لب بن موسى ، وكان ساخطاً على عميه لاستئثارهما دونه بالسلطان . ولما رأى إسماعيل بن موسى صاحب سرقسطة

( ١ ) مخطوط القرويين لوحة ٢٧٢ أ .

( ٢ ) ابن الأثير ج ٧ ص ١٢٢ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ١٠٧ . وفى رواية أخرى أن هاشم بن عبد العزيز اشترى حصن روطة من صاحبه عبد الواحد ولم يفتتحه ( العذرى فى كتاب « ترصيع الأخبار » ص ٣٥ ) .

عبث المقاومة ، أعلن خضوعه وطاعته للأمير وقدم رهائنه . وزحف المنذر بعد ذلك على ألبة واخترقها إلى قشتالة (القلاع) ، وتأهب النصارى للقائه بقيادة ملكهم ألفونسو الثالث . ولكن جرت مفاوضة بين الفريقين انتهت بعقد الهدنة ، وعاد المنذر إلى قرطبة ظافراً .

وما كاد المنذر يرتد إلى قرطبة ، حتى نشب الخلاف بين إسماعيل بن موسى وابن أخيه محمد بن لب ، وكان إسماعيل يحقد عليه لتحالفه مع المنذر . وانتهى القتال بينهما إلى انتصار محمد بن لب ، واستيلائه على سرقسطة ، وأسره لعمه إسماعيل . وحكم محمد سرقسطة باسم الأمير محمد . ولكن الأمير أراد أن ينتزع ولايتها منه ، فسخط عليه وأعلن خروجه عن طاعته ، وتحالف مع ألفونسو الثالث ملك ليون . فبادر الأمير محمد بإرسال قواته مرة أخرى بقيادة ولده المنذر وهاشم بن عبد العزيز ، إلى الثغر الأعلى ( ٢٧٠ هـ — ٨٨٣ م ) . فسار المنذر إلى سرقسطة واستولى عليها بعد قتال عنيف ، وأخرج منها محمد بن لب . وفى رواية أخرى أن محمداً بن لب سلم سرقسطة صلحاً وفقاً لاتفاق تم بينه وبين المنذر نظير قدر كبير من المال[1] . وكان من ضباط جيش الأمير فى تلك الغزوة عمر بن حفصون الزعيم الخارج الذى سيجىء ذكره فيما بعد . ثم اخترق المنذر ألبة لمقاتلة النصارى حلفاء الثائر . ولكن المفاوضات انتهت بعقد الهدنة بين الفريقين . وأرسل ألفونسو الثالث سفيراً إلى قرطبة هو القس دولثديو ليضع قواعد الصلح مع أمير الأندلس ، فنجح السفير فى مهمته وعاد إلى أوبييدو عاصمة ليون ، ومعه رفات القس أولوخيو وصاحبته ليوكريسيا ، وهما اللذان أعدما بقرطبة قبل ذلك بنحو عشرين عاماً ، ونظمهما النصارى فى سلك القديسين .

ولنترك الآن حوادث الثغر الأعلى لحظة لنستعرض ما حدث خلال هذه الأعوام المليئة بالفتنة فى أنحاء الأندلس الأخرى . فى ماردة وبطليوس عادت الثورة إلى الاضطرام . وذلك أن عبد الرحمن بن مروان الملقب بالجليقى — لانتمائه

---

( ١ ) نقل إلينا هذه الرواية العذرى فى كتابه « ترصيع الأخبار » وفيها أن محمداً بن لب تقاضى نظير تسليمه سرقسطة خمسة عشر ألف دينار . وكان ذلك فى سنة ٢٦١ هـ . ( الأوراق المنشورة من الكتاب المذكور ص ٣٥ ) . هذا وقد أورد لنا العذرى تفاصيل كثيرة عن موسى بن موسى بن قسى وأولاده وأحفاده ، وثوراتهم ، وما خاضوه من الوقائع المختلفة فى الثغر الأعلى زهاء نصف قرن ( الأوراق المذكورة ص ٢٩ — ٤٠ ) .

إلى أسرة من المولدين أصلها من ولاية جليقية فى شمال البرتغال — استطاع أن يفر من قرطبة مع نفر من صحبه . وكان بنو الجليقى قد استقروا بماردة منذ أمد طويل ، وتولى أبوه مروان بن يونس الجليقى حكم ماردة أيام الأمير عبد الرحمن ، فلما اضطرمت الثورة بماردة قتله أهلها (سنة ٢١٣ هـ) . وكان ولده عبد الرحمن طموحاً لا يشعر بالولاء نحو حكومة قرطبة ، فانتظم فى سلك الخوارج ، واشترك فى الثورة ضد الأمير محمد . فلما أخمدت الثورة وتم إخضاع ماردة فى سنة ٢٥٤ هـ ( ٨٦٨ م ) قبض الأمير على عبد الرحمن الجليقى ونقله مع باقى الزعماء الثائرين إلى قرطبة حسبما تقدم . وكان فرار الجليقى من قرطبة فى أوائل سنة ٢٦١ هـ ( ٨٧٥ م ) على أثر مشادة وقعت بينه وبين القائد هاشم بن عبد العزيز كبير الوزراء أهانه خلالها وصفعه ؛ فغادر قرطبة خفية مع جمع من أنصاره ، واستولى على قلعة ألانية (أو قلعة الحنش)(١) فى جنوبى ماردة وتحصن بها ؛ واستولى زميله فى الخروج والعصيان مكحول ابن عمر على قلعة جلمانية(٢) القريبة منها . واجتمع إليهما جمع غفير من المارقين والمتمردين ، واشتد عيثهما فى سائر الأنحاء المجاورة . وعندئذ سار الأمير لقتال الثائرين فى قوة كبيرة . فلما علما بمقدمه استغاثا بزميلهما القديم سعدون بن عامر المعروف بالسرنباقى ، وهو أيضاً من زعماء الثوار المولدين ، وكان يعيش فى كنف ألفونسو الثالث ملك ليون فى مدينة برتقال جنوبى جليقية ، فسار إليهما فى قوة من صحبه ، وانضم إلى قوات ابن مكحول . فضرب الأمير الحصار حول القلاع الثائرة ، وقطع عنها الماء ، واشتد فى ذلك ، وجنده ترهق المحصورين كلما طلبوا الحصول على الماء والمؤن خارج الأسوار . فلما ضاقوا بالحصار ذرعاً ، اضطر عبد الرحمن الجليقى أن يستجير بعبد الله ولد الأمير ، وأن يوسطه فى الشفاعة والإذعان إلى طلب الأمان . وكان عبد الله لبن العريكة محباً للسلم ، فتوسط لدى والده الأمير ، وألح حتى أسعفه بما طلب ، ووافق على منح الأمان للثائر ، على أن ينزل له عن قلعة الحنش ، وينصرف وقومه إلى بطليوس ، وكانت يومئذ خالية مجردة من الحصون فينزلون بها ، ويقومون بتعميرها . فقدم ابن مروان رهائنه وهم ولده محمد وثلاثون من أكابر قومه ، وسار إلى بطليوس وصحبه ، ونزلها وأخذ فى تعميرها

---

(١) هى بالإسبانية **Alange** .

(٢) هى بالإسبانية **Jurumena** ، وهى تقع على مقربة من غربى بطليوس .

وماكاد الأمير يرتد أدراجه إلى قرطبة ، حتى حشد ابن مروان أنصاره من كل ناحية ومعظمهم من أهل الشر والمولدين الناقمين ، وأخذ فى تحصين بطليوس ، وإعدادها للدفاع والمقاومة ، وبعث جواسيسه إلى قرطبة ، يتعرفون أخبار الأمير ويترصدون حركاته ، ويبعثون بها إليه تباعاً . ثم عقد حلفاً مع ألفونسو الثالث ملك ليون . وكان يدعو أنصاره إلى مذهب دينى جديد هو خليط من تعاليم الإسلام والنصرانية . واستمر على هذا النحو زهاء عام آخر ، وهو يغير على الأنحاء المجاورة ويرهق أهلها ، ويستلب أموالهم ومتاعهم .

فلما اشتد عيثه ، وضج المسلمون فى تلك الأنحاء من شره وعدوانه ، وجاهر هو من جانبه بالعصيان وخلع الطاعة ، اعتزم الأمير محمد أن يعاقبه ويقمع شره بطريقة حاسمة ، فجهز إليه حملة كبيرة برياسة ولده المنذر ، وجعل قيادتها لوزيره الأثير هاشم بن عبد العزيز . وسارت هذه الحملة صوب بطليوس فى شهر شعبان سنة ٢٦٢ هـ (٨٧٦ م) ، فلما علم ابن مروان بمقدم جند الأمير ، وشعر بصعوبة الدفاع عن بطليوس لاتساعها ، غادرها مع قواته ، وانضم إليه كثير من المولدين من الأنحاء المجاورة ممن خشوا بطش قوات الأمير بهم ، ونزل بحصن كركى أو كركو القريب وامتنع به ، وبعث إلى سعدون السرنباقى فى طلب النجدة . وسار المنذر وهاشم إلى بطليوس ، فألفياها خالية ، فسارا فى أثره ، واحتل هاشم حصن منت سلود ( منت شلوط ) الواقع جنوبى بطليوس خوفاً من أن يحتله الثوار ، وضرب المنذر الحصار حول حصن كركى . وفى تلك الأثناء قدم سعدون السرنباقى فى صحبه ، ومعه قوة كبيرة من النصارى أمده بها ملك ليون ، واشتبك فى طريقه بمدينة قُلُمرية بحاميتها ، وهم قوم من البربر من بنى دانس من مصمودة ، وفتك بهم ، وكانوا على الطاعة ، فبعثوا إلى هاشم بن عبد العزيز يستغيثون به . ووقف هاشم من طلائعه على مقدم سعدون وقواته ، وما فعله بأهل قلمرية ، فخرج إلى لقائه متحمساً تواقاً إلى الانتقام ، وكان سعدون قائداً مجرباً وافر الجرأة ، وكانت لديه فرق مختارة من الفرسان والرماة ، فرتب معظم قواته وراء التلال ، وتقدم للقاء قوات هاشم ، واعتقد هاشم أنه يستطيع سحق الثوار بأيسر أمر ، والتقى الفريقان فى مخاضة النهر جنوبى بطليوس ، وفاجأت خيل سعدون قوات الأندلس وأرهقتها ، وكثر فيها القتل ، وتقدم هاشم بن عبد العزيز إلى المعمعة ،

بعيداً عن مركز قيادته ، فأصابته جراح ،وأحاطت به فرسان العدو ، وكادت تجهز عليه ، لولا أن عرفه بعضهم ، فقبض عليه ، وحمله معه سعدون أسيراً إلى حصن منت سلود ، وكانت قوات الأمير قد غادرته . وكانت هزيمة قوات الأندلس ، وأسر قائدهم على هذا النحو ، فى الثانى عشر من شهر شوال سنة ٢٦٢ هـ ( يونيه سنة ٨٧٦ م ) . ولما علم المنذر بن محمد بما وقع لجنده من الهزيمة وأسر هاشم ، وكان مقيماً على حصار الجليقى ، شدد فى الحصار أياماً أخر ، ثم انصرف قافلا ببقية الجيش إلى قرطبة . وسار الجليقى وسعدون ومعهما أسيرهما القائد هاشم غرباً ، وهما يعيثان فساداً فى الأرض . وحصل الجليقى أولا على هاشم ، وكان يؤمل أن يتخذه أداة للمساومة مع الأمير ، ولكن سعدون استرده منه فيما بعد ، خوفاً من غضب سيده وحاميه ملك ليون ، وتوجه به سعدون بالفعل إلى ألفونسو الثالث ، فتسلمه وحصل فى يده ، واستمر أسيراً لديه بمدينة أوبييدو زهاء عامين ، حتى تم الإفراج عنه لقاء فدية كبيرة بلغت مائة وخمسين ألف دينار(١) .

واستمر ابن مروان أعواماً وهو يسيطر على منطقة بطليوس ، ويعيث فى أنحائها فساداً ، ويخرج منها للإغارة على ناحية الغرب حتى أشبونة ، وجنوباً حتى باجة وأطراف أكشونبة ، ثم أن بعض أصحابه اختلفوا معه ، وغادروه إلى بلدهم ماردة بعد أن حصلوا على أمان من الأمير . ولما شعر بقلة جمعه ، وخشى مطاردة الأمير وانتقامه ، عول على أن يحذو حذو صاحبه سعدون فى الالتجاء إلى ملك جليقية ، فقبل الملك النصرانى ملتمسه ، وأنزله مع صحبه فى حصن بطرسة بوادى دويره على مقربة من ليون ، ولبث فى كنفه أعواماً . ثم دب الخلاف بينهما بسبب غارة قام بها ملك جليقية فى منطقة بطليوس ومعه ابن مروان ، وفيها بالغ الملك النصرانى فى قتل المسلمين ، ومعظمهم من أصحاب ابن مروان ورعاياه السابقين (سنة ٢٦٦ هـ — ٨٧٩ م ) . فغادره ابن مروان مغضباً ، وعاد إلى منطقة بطليوس ، ليستأنف غاراته وعيثه فى أراضى النواحى المجاورة . وفى سنة ٢٧١ هـ ( ٨٨٥ م ) سير إليه الأمير محمد ولده المنذر فى قوة كبيرة ، فزحف على بطليوس ، ففر منها

---

(١) لخصنا ما تقدم من رواية عيسى بن أحمد الرازى المسهبة التى نقلها إلينا ابن حيان ؛ وقد وردت فى مخطوط القرويين فى اللوحات ٢٦٧ أ و ب و ٢٧٣ أ و ب و ٢٧٤ أ و ب ، و ٢٧٦ ب و ٢٧٧ أ حتى ٢٨٠ أ . وراجع البيان المغرب ج ٢ ص ١٠٤ و ١٠٥ .

ابن مروان وتحصن بجبل « أشبروغبره »[١] فأحرق المنذر بطليوس ودمر حصونها . وفى العام التالى سارت حملة أخرى بقيادة الوزير هاشم إلى « أشبروغبره » لقتال ابن مروان ، فحاصره حيناً ثم ارتد عنه دون إخضاعه . ولما أعيا الأمير أمره ، انتهى أخيراً إلى قبول شروطه فى الاستقلال بحكم بطليوس وما جاورها ، والإعفاء من المغارم والفروض[٢] .

ووقعت فى ذلك الحين ثورات محلية أخرى ، فخرج فى شنت برية[٣] مظفر ابن موسى بن ذى النون وزحف على طليطلة ، فلقيه جندها فهزمهم ، وقوى أمره فى تلك الجهة ، وأضاف إلى شنتبرية ما حولها من البلاد والحصون .

ويرجع ظهور بنى ذى النون ، وهم سادة مملكة طليطلة أيام الطوائف ، إلى ذلك العهد . وخلاصة ما تقدمه إلينا الرواية فى ذلك ، هو أن جدهم ذا النون (أو زنون) بن سليمان الهوارى ، كان زعيماً لشنت برية من أعمال قونقة ، ومر به الأمير محمد فى بعض غزواته إلى الثغر ، وقد مرض له خصى من أكابر فتيانه ، فتركه عند ذى النون حتى يحدث الله فيه أمره . فاعتنى به ذو النون حتى برئ من علته ، وصحبه بنفسه إلى الأمير بقرطبة ، فكافأه الأمير بأن أقره على ناحيته . واستقام ذو النون على الطاعة حتى توفى ، وخلفه ولده موسى ، فنبذ الطاعة ، وانتظم فى سلك الخوارج ؛ ولما توفى سار ولده مظفر على خطته ، وأضحى بنو ذو النون من زعماء الفتنة فى الثغر الأوسط[٤] . وخرج أسد بن الحرث بجهة رندة[٥] وأخذ ضرام الفتنة ينساب إلى كل ناحية ، ونشط النصارى فى الشمال ، يتربصون لإذكاء الفتنة ، وانتهاز الفرصة السانحة للإغارة على الأراضى الإسلامية .

وانبعثت من هذا الضرام شرارة فى الجبال الجنوبية ، قدر لها أن تستفحل بسرعة ، وأن تغدو أخطر ما يهدد سلام الأندلس وعرش بنى أمية . ففى جبل بُبَشْتر[٦] ، فيما بين رندة ومالقه ، ظهر عمر بن حفصون أعظم ثوار الأندلس ،

---

( ١ ) واسمه بالإسبانية **Esparragosa** . وهو يقع بين نهر وادى يانة وجبال المعدن .

( ٢ ) البيان المغرب ج ٢ ص ١٠٥ و١٠٦ و١٠٨ . وراجع **Dozy : Hist.; V. II p. 8-11**

( ٣ ) وهى بالإسبانية **Santaver** وهى تقع جنوب شرق وادى الحجارة . وهى غير شنتمرية الشرق .

( ٤ ) مخطوط القرويين لوحة ٢٧٢ ب .

( ٥ ) ابن خلدون ج ٤ ص ١٣١ .

( ٦ ) وبالإسبانية **Bobastro**

وأشدهم مراساً ، وأخطرهم جانباً . وكانت سلسلة الجبال الواقعة بين رندة ومالقة مأوى الأشقياء والعصاة . وكان عمر سليل أسرة من المولدين ترجع إلى أصل نصرانى قوطى . وقد سجلت لنا الرواية الأندلسية نسبته ، فجده عند الفتح هو ألفونسو القس ، وجده الرابع جعفر هو أول من اعتنق الإسلام من أسرته(١) . ونشأ بيتهم فى تاكرنّا من أعمال رندة . وكان والده حفصون ذا مال ووجاهة . ونشأ ولده عمر فاسداً سيئ السيرة ، عنيفاً يعتدى على النفس والمال ، ولم يلبث أن هجر أسرته وأطلق العنان لأهوائه وغيه ، والتف حوله جماعة من أهل الفساد والبغى ، فألف منهم عصابة معتدية ناهبة ، ونزل بمكان منيع بجبل بُبَشْتر الواقع شمال شرقى جبال رندة ، وكان ذلك فى سنة ٢٦٧ هـ (٨٨٠ م) . وقد وصف لنا ابن حيان مؤرخ الأندلس ابن حفصون عند ذكر الخوارج فى تلك العبارة الجامعة : « إمامهم وقدوتهم عمر بن حفصون ، أعلاهم ذكراً فى الباطل ، وأضخمهم بصيرة فى الخلاف ، وأشدهم سلطاناً ، وأعظمهم كيداً ، وأبعدهم قوة »(٢) .

ويشرح لنا الرازى البواعث الأولى لهذه الفتنة التى اضطرمت فى كورة ريُّه والجزيرة ، فيقول لنا إن السبب فى تحريكها يرجع إلى عنف يحيى بن عبد الله ابن يحيى عامل الأمير محمد فى كورة ريه ، فى مطالبته لأهلها ببقايا عشور تأخرت عليهم ، واشتطاطه فى ذلك وإرهاقهم ، فامتنعوا عليه واعتصموا بجبالهم ، وتأهبوا للدفاع عن أنفسهم ؛ فحشد يحيى بن عبد الله قواته لقتالهم ، واستدعى أخاه أحمد ابن عبد الله عامل كورة الجزيرة بقواته لمعاونته فى حربهم ، ونشبت بين قوات الأمير وبين الخوارج معارك عنيفة قتل فيها كثير من الفريقين ، وكان ذلك فى سنة ٢٦٥ هـ (٨٧٨ م) . وفى العام التالى سار بالصائفة إلى كورة ريه عبدالله ابن الأمير محمد ، وعلى قيادة الجيش الحاجب هاشم بن عبد العزيز ، وكان قد أطلق سراحه من الأسر ، وعاد إلى سابق مكانته لدى الأمير محمد ، واستأنف القيادة لأول مرة ، فاشتد فى مطاردة الخوارج ، ومزق جموعهم ، وأنشأ عدة

---

(١) قال ابن خلدون عن ابن حيان إنه عمر بن حفصون بن عمر بن جعفر بن دميان بن فرغلوش ابن أدفونش القس (ج ٤ ص ١٣٤) . وزاد عليها صاحب البيان المغرب اسما آخر (ج ٢ ص١٠٨) .

(٢) ابن حيان فى المقتبس ، وهو السفر الثالث المطبوع بعناية المستشرق الأب ملشيور أنتونيا (باريس ١٩٣٧) ص ٩ .

من الحصون لمدافعتهم ، ولكن الفتنة لم تقمع ، وظلت سحب الخروج والعصيان قائمة ، وعمت الفوضى كورة ريه بأسرها .

فى هذا الأفق المضطرم ظهر ابن حفصون ؛ وكانت حوادث ريه مقدمة هذه الفتنة الهائلة التى تزعمها فى جنوبى الأندلس ، والتى يصفها الرازى بأنها « طمت على جميع فتن الأندلس ، بعمومها وامتداد أيامها ، ودفع أهل الشرور منهم نحوها »(١). وأخذ ابن حفصون ينتهز كل فرصة للإغارة على أطراف إقليم ريه ويوسعها تخريباً وسبياً ونهباً ، ثم يعتصم بأوكاره فى جبل ببشتر ، فلما اشتد عيثه وعدوانه ، سار إليه عامل ريه ، عامر بن عامر فى بعض قواته ، فهزمه ابن حفصون وقوى بذلك أمره ، وهرع إلى لوائه كثير من أهل الشر والعصاة . وعزل الأمير عامل ريه المهزوم ، وبعث إليها بعامل جديد هو عبد العزيز بن عباس ، فسار إلى قتال ابن حفصون للمرة الثانية ، فامتنع الثائر بقلاعه ، ووقعت الهدنة بين الفريقين(٢). وعندئذ سير محمد وزيره هاشم بن عبد العزيز إلى كورة ريه فى قوة كبيرة ، فشدد الحصار على ابن حفصون ، وجد فى أثر العصاة والخوارج ، وأسر الكثير منهم ، وما زال حتى أرغم ابن حفصون على التسليم مع سائر عصابته ، وحملهم جميعاً إلى قرطبة . فعفا محمد عن الثائر وضمه إلى جيشه ، لما آنسه من براعته وقوة مراسه . ولما سار المنذر إلى الثغر الأعلى سنة ٢٧٠ هـ (٨٨٣ م) لقتال محمد بن لب ، كان ابن حفصون من ضباط جيشه . بيد أنه لم يكن راضياً كل الرضى عن منصبه ، وكانت نفسه الوثابة تنزع دائماً إلى الخروج والعمل الحر ، فلم يلبث أن فر من جيش الأمير مع نفر من صحبه ، ولم يلبث أن عاد إلى معاقله فى ببشتر ، واستأنف ثورته ، ومن حوله جميع كبير من الخوارج والبغاة (٨٨٤ م) .

ولبث ابن حفصون مدى عامين يعيث فى هذه المنطقة فساداً ، ويبث من حوله الذعر والروع . وفى صيف سنة ٢٧٣ هـ (٨٨٦ م) ، خرج المنذر إلى كورة ريه لقتال ابن حفصون ، وبدأ الزحف على مدينة الحامّة فى شمال شرقى مالقة ، وفيها الثائر ابن حمدون حليف ابن حفصون ، فسارع ابن حفصون إلى إنجاد حليفه ، واجتمع الثائران بمدينة الحامة لمقاتلة جند الأمير ، فحاصر المنذر الحامة مدى

(١) ابن حيان عن عيسى بن أحمد الرازى . مخطوط القرويين لوحة ٢٨٣ أ و ب .
(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ١٠٧ .

شهرين، ولما أشرفت مؤن المدينة المحصورة على النفاد، خرج ابن حفصون وحليفه فى جندهما ، واشتبكا مع جند الأمير فى معركة عنيفة ، هزم فيها الثوار وجرح ابن حفصون ، وارتد مع أصحابه ثانية إلى الحامة واستعصم بها . وبينما المنذر مقيم على حصار الحامة ، إذ جاءته الأنباء من قرطبة بوفاة أبيه الأمير محمد . وكانت وفاته فى ٢٩ صفر سنة ٢٧٣ هـ ( أوائل أغسطس سنة ٨٨٦م ) فارتد لفوره إلى قرطبة ، تاركاً الحامّة لمصيرها ، وتنفس ابن حفصون الصعداء ، وانتهز الفرصة السانحة للإغارة على معظم الحصون الواقعة فى تلك المنطقة ، ولم يمض سوى قليل حتى استطاع أن يبسط سلطانه على ريُّه ورندة وإستجّة وغيرها .

— ٣ —

كان الأمير محمد بن عبد الرحمن بن الحكم من خيرة أمراء بنى أمية وأوفرهم ذكاء وفطنة[١]. وقال الرازى : « ولمحمد فى سلطانه الآثار الجميلة ، والآيات الجزيلة، والفتوح العظيمة ، والعناية بمصالح المسلمين ،والتهمم بثغورهم ، والضبط لأطرافهم ، والتوجيه لمصالحهم »[٢] ، وكان يرجو محمد أن يجرى على سنن أبيه من الإصلاح والإنشاء ، ولكن الحوادث سارت على غير ما يشتهى ، وسرت الفتنة إلى سائر أنحاء الأندلس ، واضطر أن ينفق حكمه الطويل فى غزوات متعاقبة وكفاح مستمر . وكان عليه أن يصون عرش بنى أمية ، وأن يحمى سلطان الدولة الإسلامية فى الأندلس من الانهيار . وكانت مهمة شاقة ، ولكنه أبدى فى الاضطلاع بها جلداً وبراعة ، فكانت الصوائف لغزو أرض النصارى ، والحملات التأديبية لقمع الثوار ، تتوالى دون كلل ، وذلك بالرغم مما كانت تنتهى إليه فى معظم الأحيان من النتائج السلبية . وكان الأمير محمد يعشق الجهاد والكفاح ، ويقود الجيش بنفسه كلما سنحت الفرص . وكان ولده المنذر ساعده الأيمن فى تلك المهمة الخطرة. واهتم محمد بأمر الجيش والأسطول ، وكان اهتمامه بتقوية الجيش ضرورة ، أملتها الظروف العصيبة التى كانت تجوزها المملكة يومئذ . وتلقى الأرقام التى يقدمها إلينا ابن حيان نقلا عن معاوية بن هشام ، عن عدد الفرسان الذين يحشدون فى مختلف الكور والمدن لغزوات الصوائف ، ضوءاً على مدى قوة الجيش الأندلسى

( ١ ) ابن الأثير ج ٧ ص ١٤١ .
( ٢ ) مخطوط القرويين لوحة ٢٢٢ أ .

يومئذ ، وقد كانت هذه الأرقام ، تفرض على النواحى ، ويؤخذون بها غير منتقصين لها ، إلا لعذر قاهر أو لحدب بين . ومن ذلك كورة إلبيرة ( غرناطة ) ألفان وتسعمائة ، وجيّان ألفان ومئتان ، وقبرة ألف وثمانمائة ، وباغة تسعمائة ، وتاكرنا ميتان وتسعة وستون ، والجزيرة مايتان وتسعون ، وإستجة ألف ومايتان ، وقرمونة مائة وخمسة وثمانون ، وشذونة ستة آلاف وسبعمائة وتسعون ، وريّه ألفان وستّمائة وسبعة ، وشريش ثلاثمائة واثنان وأربعون ، وفحص البلوط اربعمائة ، ومورور ألف وأربعمائة وثلاثة ، وتدمير مايتان ... أما قرطبة العاصمة فكانت تترك لاجتهادها وهمّتها ، ويحشد أبناؤها بطريق التطوع خلافاً لأهل النواحى الأخرى. وكانت هذه الفرق تسمى بفرق الفرسان المستنفرين ويجرى « استنفارهم» أوقات الصوائف ، أو كلما بدرت من العدو حركة اعتداء على أهل الثغور . فاذا ذكرنا أن هذه الأرقام تتعلق بنواحى الأندلس فقط ، وإذا ذكرنا بعد ذلك حشود المشاة المستنفرة والمتطوعة ، استطعنا أن نقدر ضخامة الجيوش التى كانت الدولة الأندلسية تستطيع تعبئتها يومئذ[1] . وأما الأسطول فقد عمل محمد ، على إنشائه ، لحماية الشواطئ الغربية ولغزو مملكة جليقية من ناحية البحر . وفى سنة ٨٦٦م ( ٢٥٢ هـ ) سارت السفن الأندلسية بالفعل إلى شواطئ جليقية بقيادة أمير البحر عبد الحميد بن مغيث ، ووصلت إلى مصب نهر منهو . ولكنه لم يوفق إلى تحقيق بغيته ، إذ عصفت الرياح بالسفن فتفرقت وغرق معظمها فى المياه الغربية[2] .

وعنى محمد كذلك بتحصين أطراف الثغور ، وأقام عدة من المحلات والقلاع الدفاعية ، المنيعة فابتنى حصن شنت إشتبين لحماية مدينة سالم ، وابتنى حصن طلمنكة وحصن مجريط بمنطقة وادى الحجارة ، للدفاع عن طليطلة ، وكان شديد الاستخبار عن الثغور ، والبحث فى مصالحها .

وبالرغم مما كان يقتضيه الجهاد المتواصل من النفقات الضخمة ، فقد كان الأمير محمد يبذل وسعه لتخفيف الضرائب عن كاهل شعبه ، وقد رفع عن أهل قرطبة ضريبة « الحشود » ، واكتفى بدعوتهم إلى التطوع والجهاد فى سبيل الله ،

---

( ١ ) مخطوط القرويين لوحة ٢٥٤ ب . وراجع البيان المغرب ج ٢ ص ١١١ .

( ٢ ) البيان المغرب ج ٢ ص ١٠٦ ، و **Aschbach : Geschichte der Omajaden in Spanien; B. I. s. 293.**

فأقبلوا على تعضيده وتأييده[١]. وأما عن العشور فقد أبدى محمد تشدداً فى اقتضائها وقد نصح له وزيره عبد الرحمن بن غانم صاحب المدينة ، بأن يسقط العشور متى عدمت الغلات ، لأن العشور إنما تفرض على الغلات إذا وهبها الله ، فإذا لم يزرع بذر ولم يستغل زرع وجب إسقاطها ، فلم يستمع إليه محمد فى البداية وعزله ، وعين مكانه حمدون بن بسيل ، وكان فظاً ظلوماً ، فاشتط فى تحصيل العشور ، حتى ضج الناس بالدعاء عليه ، ووصل صريخهم إلى الأمير ، وتوالت فى نفس الوقت أعوام الجدب والقحط ، فاضطر الأمير أن يسقط عن الناس جملا من العشور ، حتى يتنفس مختنقهم ، ويستطيعوا مواجهة أعباء الحياة ، ومواصلة نشاطهم العمرانى ، وأعلن الناس عندئذ بشكره ومدحه الشعراء[٢]. وكان الأمير محمد بارعاً فى الشئون المالية ، دقيقاً فى مراجعة الدخل والخرج ، وقد ساعده ذلك على ضبط شئون الخزانة العامة[٣]. وفى عهده أصيبت الأندلس بالقحط مرتين ، الأولى بين سنتى ٢٥١ و ٢٥٥ هـ ، والثانية فى سنة ٢٦٠ هـ ، وكان قحطاً شديداً استمر بضعة أعوام ، وكثر بسببه الغلاء والموت . ولكن الأندلس استطاعت أن تصمد للمحنة ، وأن تتغلب عليها .

وفى عهده سار بلاط قرطبة على سنن الاعتدال ، ومجانبة البذخ الذى ساد فى أيام أبيه عبد الرحمن ، وضعف نفوذ الجوارى والصقالبة فى القصر ، ومع ذلك فقد استمر النظام الإدارى الذى كان قائماً فى عهد عبد الرحمن بتفاصيله تحت إشراف الأمير وتولى زمام الأمور نفس الرجال الذين تولوها من قبل ، واجتمعت السلطات فى أيدى أسرتى بنى شُهيد وبنى أبى عَبْدة ، أعظم الأسر القرطبية يومئذ ، وتولى الحجابة لمحمد فى البداية عيسى بن شهيد حاجب أبيه من قبل . وقد أشرنا من قبل إلى هذا الوزير النابه غير مرة . ثم خلفه فى الحجابة عيسى بن الحسن ابن أبى عبدة ، فكان من أرجح الوزراء عقلا وإصابة ، وكان طوال خدمته هدفاً لمنافسة هاشم بن عبد العزيز ودسائسه ، وقد خلفه هاشم بالفعل فى الحجابة ، ولبث يضطلع بها أعواماً طويلة حتى وفاة الأمير محمد ، وكان هاشم بن عبد العزيز ينتمى إلى أسرة من المولدين ، وكان من أعظم رجالات الحرب والسياسة فى

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ١١١ و ١١٢ ، وأخبار مجموعة ص ١٤١ و ١٤٢ .
(٢) ابن حيان — مخطوط القرويين لوحة ٢٣٩ أ و ٢٥٥ .
(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ١١٠ .

عصره ، وقد تولى القيادة الفعلية لكثير من الغزوات والحملات حسبما فصلنا ، وكان من قبل من وزراء الأمير عبد الرحمن ، فلما صار الأمر إلى ولده محمد ، غدا من بين وزرائه أكثرهم حظوة لديه ، وغدا من خاصة جلسائه وندمائه ، وكان هاشم فوق ذلك أديباً متمكناً وكاتباً بليغاً ، وشاعراً مطبوعاً ، يقرب الأدباء والشعراء ، بيد أنه كان حاد الطبع قليل التحفظ ، لا يحسن اصطناع الرجال ، حتى أنه لما نكب فى غزوة الخليق وحمل أسيراً إلى ملك ليون (سنة ٢٦٢ هـ) لم يجد كثيراً من المدافعين عنه فى محنته ، وسخط عليه الأمير محمد ، وأنحى عليه باللوم ، وكان يقول « هذا أمر جناه علينا فألحق بنا غضاضة ، واستزاد برأيه فضيع وصاتنا ، ولم يحكم تدبير ما صيرنا فى يده من أمرنا » . ولم يدافع عن هاشم ، ويستدر عطف الأمير عليه سوى صديقه الوليد بن غانم صاحب المدينة أعنى حاكم قرطبة ، وقد أقنع الأمير بأن يولى وزيره المنكوب عطفه ، وأن يستخدم ولده مكانه ، حتى يتم إطلاق سراحه . وقد لبث هاشم بن عبد العزيز أسيراً فى أو بييدو عاصمة ليون زهاء عامين ، حتى تم افتداؤه وإطلاق سراحه لقاء فدية ضخمة حسبما أشرنا إلى ذلك من قبل[1] .

وكان من وزراء الأمير محمد ، أمية بن عيسى بن شهيد ، وكان من أجل وزرائه وآثرهم لديه ، وأخصهم بخدمته ؛ والوليد بن غانم المتقدم الذكر ، وكانا يتعاقبان فى منصب ولاية المدينة ، وهو من أهم مناصب الدولة يومئذ ، لما يتطلبه من الحزم وقوة الشكيمة ، والنزاهة فى نفس الوقت . ومنهم تمام بن عامر الثقفى الشاعر الأديب ، وكان مؤرخاً راوية كتب أرجوزة طويلة فى فتح الأندلس ، وقد اشتهر ببراعته فى لعبة الشطرنج ، وكانت من أسباب حظوته لدى الأمير ، وتمكن منزلته لديه ، وقد ذاعت فى أيامه ذيوعاً عظيماً . ومنهم كذلك سليمان ابن وانسوس ، وهو من أشرف البيوتات البربرية ، وكان جده رئيساً مطاعاً بماردة ، وقد ثار فيها أيام الحكم بن هشام ، وكان أديباً وافر الوجاهة ، وقد تولى خطة السوق وهو اسم ولاية الحسبة يومئذ . وكان من الوزراء الكتاب عبد الملك بن عبد الله بن أمية ، وكان كاتباً بليغاً[2] .

---

(١) ابن حيان فى مخطوط القرويين لوحة ٢٢٨ أ وب و ٢٣٠ أ و ٢٣٥ ب .

(٢) مخطوط القرويين لوحة ٢٣٠ ب و ٢٣٢ أ و ٢٣٣ ب و ٢٣٥ أ .

وكانت تربط الأمير محمد بأمراء المغرب المعاصرين ولا سيما بنو رستم أمراء تاهرت، وبنو مدرار أمراء سجلماسة وغيرهما، علائق مودة وصداقة متينة العرى. فكانوا يستمدون منه العون والنصح فى شئونهم، وكان هو من جانبه شديد الاهتمام بأخبارهم وأحوالهم، وتتردد إليهم رسله وكتبه فى البحث عن أخبار بنى العباس بدار مملكتهم، وأخبار ولاتهم وعمالهم بالشام وإفريقية. وكان شارل الأصلع ملك فرنسا (إفرنجة) يقدر خلاله ويتودد إليه، وربما تبادلا المراسلة والهدايا[1]؛ والظاهر أن ملك فرنسا كان يؤثر سياسة السلم مع حكومة قرطبة خشية أن يتكرر غزو المسلمين لسبتمانيا. وكانت تربطه فى الوقت نفسه علائق مودة ببنى قسى سادة الثغر الأعلى، الذين ظهروا بمغامراتهم فيما وراء جبال البرنيه.

وعلى الرغم من أن وقت الأمير محمد لم يتسع كثيراً للأعمال الإنشائية، لما زخر به من الفتن والغزوات المتوالية، فقد قام منها بطائفة حسنة. وكان فى مقدمتها منشآته بالمسجد الجامع، فقد عنى أولا بإتمام الزيادة التى بدأها أبوه عبد الرحمن فى وسطه وأقام فيها المقصورة، وكان أول من اتخذها هنالك من الخلفاء، وأصلح جناحه القديم الذى أنشأه عبد الرحمن الداخل، وجدده وأعاده إلى رونقه القديم. ولما تمت هذه الزيادات والإصلاحات ركب الأمير إلى الجامع وزاره فى موكب فخم، وأشادت بعمله الشعراء. وأصلح محمد جامع إستجة وجامع شذونة، ومساجد عديدة أخرى فى مختلف الأنحاء، وأنشأ زيادات كثيرة بالقصر وملحقاته امتازت بالجمال والإناقة. وعنى بتجديد منية الرصافة التى أنشأها جده الأعلى عبد الرحمن الداخل، وجدد حدائقها ومتنزهاتها، وزودها بالأشجار والغراس النادرة، وجعلها منتدى نزهه وأسماره. وفى ذلك يقول عباس بن فرناس من قصيدة:

كأن قصور الأرض بعد تمامه ... بنوا لذرى أخفى شخوصاً من الدر
وتنتشر الأبصار منها إلى مدى ... التنزه بالأطيار والوحش والزهر
فأعجب من أفنانها الغرر التى ... يقيل بهن البرد فى وعوة الحر
هم بأخفى سرها غير كاتم ... صداها فأخفى السر بها من الجهر
كأن الذى يخفى الحديث بنجوها ... على أخفض الأصوات يشدو على وتر

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ١١١. ويسمى ملك فرنسا هنا خطأ بفردلند.

وأنشأ محمد له كذلك منية خاصة فى مكان ضيعته المسماة «كنتش» الواقعة جنوب غربى قرطبة ، عرفت «بمنية كنتش» وعنى بتجميلها ، وجعلها كذلك موطناً لنزهه ومسراته . وهى التى يقول فيها ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد :

ألما على قصر الخليفــة فانظرا  إلى منيــة شــيدت لأزهرا
هى الزهرة البيضاء فى الأرض ألبست لها الزهرة الحمراء فى الحو مغفرا[1]

وكان الأمير محمد ربع القوام ، أبيض مشرباً بحمرة ، أوقص[2] ، يخضب بالحناء . وكان كثير الأناة والحلم ، عطوفاً على أخوته وآل بيته ، وقد عنى منذ ولايته بشئون الأكابر من أخوته ، فأعد لهم الدور الفخمة خارج القصر ، ووهبهم الضياع المغلة ، وأجرى عليهم الأرزاق الواسعة ، واستعمل من يصلح منهم للأعمال البعيدة . وكان فوق رجاحة عقله ، أديباً ، يشغف بالبيان ، بليغاً فى كتبه ، محسناً فى توقيعه . بيد أنه لم يكن شاعراً مثل أبيه وجده . وكان مكرماً لأعلام الناس ، وذوى العلم والحجى منهم ، يرفع مجالسهم ، ويكثر من رعايتهم ، ويستشعر مع ذلك الحذر من منافستهم وتحاسدهم ، ويأبى الإصغاء لسعاياتهم .

وكان يجمع حوله صفوة من الشعراء والعلماء[3] مثل عباس بن فرناس ، ومؤمن ابن سعيد ، وابن عبد ربه ، وهم من أقطاب الشعر فى عصره ؛ ومن العلماء عبد الله ابن حبيب أعظم علماء الأندلس فى عصره ، وقد توفى فى صدر ولايته ، وبقى بن مخلد وعيسى بن دينار ، ومحمد بن عمر بن لبابة ، ومحمد بن عبد السلام الخشنى ، وغيرهم . وقد اشتهر فى عصره بالأخص الفقيه الورع العلامة بقى بن مخلد ، وكان فقيهاً حر الذهن ، واسع الأفق ، نشأ فى قرطبة ، ورحل إلى إفريقية والمشرق ، ودرس دراسة مستفيضة . ولما عاد إلى الأندلس ، حقد عليه فريق من فقهائها ، لغزارة علمه ، وتفوقه عليهم ، ولاسيما فى أساليب الحديث والرواية ، وحاولوا اتهامه بالزندقة ، والإيقاع به لدى الأمير ، فاستجار بقى بالحاجب هاشم بن عبد العزيز ، وكتب إلى الأمير يناشده الله فى دمه ، ليرى رأيه فيه بعد سماع حجته ، فأسعفه هاشم وشرح للأمير قضيته ، وعقد له الأمير مجلساً لمناجزته خصومه فتناظروا بين يديه ، ودحض بقى تهم خصومه بقوة ، وألزمهم الحجة ، واستبان

---

(١) مخطوط القرويين فى اللوحات ٢٤٣ – ٢٤٧ . وراجع أيضاً البيان المغرب ج ٢ ص ١٠٠ .
(٢) أعنى قصير العنق .
(٣) أخبار مجموعة ص ١٤٥ .

الأمير فضله وتفوقه ، وأسبغ عليه حمايته ورعايته ، وأعلى منزلته . ولبث بقى عمدة العلماء والفقهاء والمحدثين بالأندلس حتى توفى فى سنة ٢٧٦ هـ ، فى عهد الأمير عبد الله بن محمد[١] .

وكان للفقهاء فى عصر الأمير محمد نفوذ كبير فى بلاط قرطبة ، وفى صوغ سياستها نحو النصارى . وكان محمد ينحو نحو أبيه عبد الرحمن فى سياسة التسامح نحو النصارى ، وكان من أثر ذلك أن أقر الأسقف جومث قومس أهل الذمة على ولايته كما كان فى عهد أبيه ، وذلك بالرغم من اعتراض الفقهاء وسخطهم ؛ وبالرغم مما كان ينقل إليه من نعى المشارقة على بنى أمية استخدام النصارى فى بلاطهم وتوليتهم أسمى المناصب[٢] .

وترك محمد من الولد ثلاثة وثلاثين من البنين وإحدى وعشرين من البنات[٣]

---

(١) مخطوط القرويين اللوحة ٢٤٣ ب ، و٢٥٣ ب . وراجع ترجمة بقى من مخلد فى ابن الفرضى ، تاريخ العلماء والرواة بالأندلس ، رقم ٢٨٣ ؛ وكذلك البيان المغرب ج ٢ ص ١١٢ و ١١٣ .

(٢) أشار ابن القوطية إلى ذلك فى رواية أوردها عن حديث جرى بين القائد ابن أبى عبدة وبين محمد بن الكوثر أحد كتاب الأندلس ، وصف فيه ابن الكوثر « أنه من عجائب الزمان أن يكون صاحب قلم بنى أمية الأعلى وكاتبها العظيم قومس النصرانى » . وكتب إليه « أن من أعجب العجب أن يبلغ خلايف بنى العباس بالمشرق أن بنى أمية اضطروا فى كتابتهم العظمى وقلمهم الأعلى أن يولوا قومساً النصرانى ابن انتنيان ابن يليانه النصرانية » ( واسمه بالإسبانية جومث بن أنتونيو ابن خوليان ) — راجع افتتاح الأندلس ص ٨٢ و ٨٣ .

(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ٩٦ .

# الفصل الثاني

## ولاية المنذر بن محمد بن عبد الرحمن

### وبداية ثـــورة المولدين

ولاية المنذر . تأهبه لقمع الفتنة . الحاجب هاشم بن عبد العزيز . طغيانه وتوجس المنذر منه . سجنه ومصرعه . حملة إلى طليطلة والثغر الأعلى . اشتداد أمر بن حفصون وأطماعه . قضية المولدين وأثرها فى ازدياد سلطانه . خروج المنذر لمحاربته . استيلاؤه على أرشدونة وباغة . محاصرته لابن حفصون فى ببشتر . إذعان الثائر ثم نكثه . عود المنذر إلى محاصرته . مرض المنذر ووفاته . رواية عن اغتيال المنذر . رفع الحصار عن ببشتر . صفات المنذر وخلاله .

وصل المنذر بن محمد بجيشه إلى قرطبة لأيام قلائل من وفاة أبيه ، عائداً من مقاتلة ابن حفصون . وفى الحال أعلنت بيعته فى الثامن من ربيع الأول سنة ٢٧٣ هـ ( أغسطس سنة ٨٨٦ م ) . وكان فى الرابعة والأربعين من عمره . وكان مولده فى قرطبة سنة ٢٢٩ هـ ( ٨٤٤ م ) ، وكان منذ فتوته أثيراً عند أبيه بين أبنائه الثلاثة والثلاثين ، مستأثراً بثقته وولايته عهده . يختاره لجلائل الأمور ، ويندبه لقيادة الجيش كلما جد الخطب . وقد أبلى المنذر حسبما رأينا بلاء حسناً ، فى مقاتلة الثوار والخوارج ؛ وحينما تولى العرش ، كانت الفتنة قد تفاقمت ، وعمت الثورة معظم الأنحاء ؛ وكان المنذر رجل الموقف فتأهب لإتمام المهمة التى بدأها ، من العمل على سحق الثورة ، وتأييد النظام والأمن ، وحماية العرش والدولة ، من كيد الخوارج والطامعين .

وعهد المنذر بحجابته إلى القائد هاشم بن عبد العزيز حاجب أبيه وقائده ، وكان هذا الوزير القوى ، فى أواخر عهد الأمير محمد ، قد استأثر بالسلطة ، وأصبح أقوى رجل فى الدولة . وكان المنذر يخشاه ويتوجس من نفوذه وسلطانه ؛ وكان خصوم هاشم يكثرون من السعاية فى حقه وإحفاظ المنذر عليه ، وتحذيره من أطماعه . فلما توفى الأمير محمد ، رأى المنذر أن يستمر هاشم فى حجابته براً منه بذكرى أبيه ، وأملا فى تحسن الأمور ؛ ولكن الظاهر أن الحاجب استمر فى طغيانه ، ولم يكترث للقوى المتألبة عليه ، وأذكت مساعى خصومه فى نفس المنذر

نوجسه القديم منه ، وسخطه عليه ، فلم يمض سوى قليل حتى اعتزم المنذر أمره ، وأمر بالقبض على هاشم وأولاده وصحبه ، ثم دس عليه فى سجنه من قتله ، وهدم داره ، واستصفى أمواله ، وكان ذلك فى جمادى الأولى سنة ٢٧٣ هـ ، أعنى لشهرين فقط من ولايته . وكانت ضربة جريئة تنبيء عن قسوته وصرامته . واستمر أولاد الحاجب القتيل فى السجن ، حتى أطلقوا بعد وفاة المنذر أيام أخيه الأمير عبد الله ، وردت إليهم أموالهم[1] . وفى تلك المحنة يقول هاشم بن عبد العزيز من شعر نظمه فى سجنه :

سـأرضى بحكم الله فيما ينوبنى ... وما من قضـاء الله للمرء مهرب

فمن يك أمسى شـامتاً بى فإنه ... سينهل فى كأسى وشيكاً ويشرب

وندب المنذر لحجابته مكان الحاجب المقتول ، عبد الرحمن بن أمية بن شهيد ؛ وقد لبث بنو شهيد حسبما رأينا عصراً يستأثرون بمناصب الحجابة والكتابة .

وسير المنذر بعد ذلك بقليل حملة إلى طليطلة . وكانت قد عادت إلى الثورة ، واجتمع إلى أهلها كثير من البربر المنفيين من مدينة ترجيله أو ترجاله[2]، الواقعة جنوبى غربى طلبيرة ، فهزم الثوار وقتل منهم ألوف[3] . وفى نفس هذا العام أيضاً ، غزا محمد بن لب زعيم الثغر الأعلى السابق ، ألبة والقلاع ، وقاتل النصارى وهزمهم ، وكان قد نزل عن سرقسطة حسبما تقدم وعاد إلى سابق ولائه[4] .

على أن أعظم ما كان يشغل المنذر ، هو القضاء على ابن حفصون عماد الثورة ومثير ضرامها فى الجنوب . وكان ابن حفصون منذ بلغته وفاة الأمير محمد ورحل عنه المنذر ، قد اشتد بأسه وقويت نفسه ، وأخذ يعمل لإخضاع القواعد والحصون الجنوبية كلها ، فبسط سلطانه على كورة ريه بأسرها ، وامتد سلطانه إلى أرشدونة ومالقة وجيان وإستجة وغيرها . واجتمع إليه المغامرون والخوارج من سائر أقطار الأندلس ، وأخذ يطمح إلى الاستيلاء على الأندلس كلها ، وأظهر الدعوة لبنى العباس ، وكاتب ابن الأغلب أمير إفريقية ( تونس ) فى ذلك ، ولكن ابن الأغلب

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ١١٨ و ١١٩ .

(٢) وهى بالإسبانية Trujillo .

(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ١١٩

(٤) البيان المغرب ج ٢ ص ١١٨ .

لم يستجب إلى دعوته[1]. ولم يكن ابن حفصون ثائراً عادياً يعتمد فقط على أساليب العنف ، ولكنه كان صاحب دعوة سياسية يدعو الكافة إلى اعتناقها . وقد كان ابن حفصون حسبما قدمنا مولّداً ، يمثل فى ثورته ، كل ما يجيش به المولدون نحو العرب الفاتحين ونحو حكومة قرطبة من الحفيظة والبغض . وقد أشرنا من قبل فى حديثنا عن عناصر الأمة الأندلسية ، إلى أولئك المولدين — وهم الإسبان الذين أسلموا منذ الفتح — وبينا كيف كانوا يؤلفون عنصراً من أهم عناصرها ، من حيث الكثرة والمستوى الإجتماعى ، وقد كانوا بالرغم من اندماجهم فى المجتمع الإسلامى يحتفظون دائماً بنزعة إستقلالية واضحة ، ويبغضون العرب والبربر معاً ، وقد ظهرت هذه النزعة الاستقلالية بالأخص فى الثغر الأعلى ، حيث لبث بنو موسى ، وبنو عمروس ، وبنو الطويل ، وهم جميعاً من الأسر المولدة القوية ، عصراً يتحدون السلطة المركزية ويقاومونها . وكانت ثورة ابن حفصون زعيم المولدين فى الجنوب ، هى المرحلة الثانية لتلك النزعة الثورية التى رفع المولدون لواءها ضد حكومة قرطبة . وهكذا كان ابن حفصون يدعو المولدين ومن إليهم من عشاق الخروج والفوضى ، إلى تأييد قضية الإستقلال والحرية ، ويذكرهم بما ينالهم من عسف السلطان ، وانتزاعه لأموالهم ، وتكليفهم فوق طاقتهم ، وكيف أذلتهم العرب واستعبدتهم ، وقضت على حرياتهم واستقلالهم ؛ وأنه إنما ينهض ليأخذ بثأرهم ، ويرفع عنهم نير الطغيان والعبودية . وناهيك بما كانت تبثه هذه الدعوة المثيرة ، فى نفوس سكان هذه المناطق الجبلية من الحماسة والتعلق بقضية الحرية ، وهى لا تعنى فى نظرهم سوى التفانى فى مقاتلة حكومة قرطبة . وهكذا كانت الجموع الغفيرة تحتشد حول ابن حفصون ودعوته ، ويشتد نفوذه ويمتد سلطانه بسرعة ؛ وبالرغم من أن حكومته كانت تقوم على الخروج والثورة ، وكان معظم صحبه من أهل البغى والشر ، فقد كان الأمن يسود المناطق التى يسيطر عليها ؛ وكان صارماً فى أحكامه وعقوباته ، شديداً على كل مخالف ومستهتر ، وكان فوق ذلك كله متودداً لأصحابه ، متواضعاً يكرم الشجعان ويثيبهم ، فكانت هذه العوامل كلها مما يقوى نفوذه ويوطد سلطانه[2] .

---

(١) ابن حيان فى المقتبس ( القسم المطبوع ) ص ٩٣

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ١١٧ و ١١٨ .

وبلغ ابن حفصون فى زحفه إلى المنطقة الوسطى أحواز جيّان ، وما يليها من الغرب ، واستولى على باغة « بريجو »(١) وأسر حاكمها ، واستولى على قبرة ، الواقعتين فى جنوبى غربى جيان ، وعلى حصن أشرس الواقع فى شمال كورة ريه . وسير المنذر بعض قواته إلى تلك الأنحاء ، فاستردت حصن أشرس وبعض القرى المجاور لقبرة . وفى ربيع العام التالى (٢٧٤ هـ — ٨٨٧ م) خرج المنذر بنفسه فى قواته معتزماً أن يسحق الثائر ، وأن يقضى على الثورة فى الجنوب ، وزحف تواً على كورة ريه ،وحاصر أرشدونة الواقعة فى جنوب غربى لوشة حتى سلمت ، وقبض على عيشون حاكمها من قبل الثائر وعلى صحبه ؛ وافتتح حصون جبل باغة (بريجو) وأسر بها بنى مطروح حلفاء الثائر ، وهم حرب وعون وطالوت ، وبعث بهم جميعاً إلى قرطبة حيث قتلوا صلباً ، وصلب مع عيشون خنزير وكلب ، إمعاناً فى التمثيل به . وكان ابن حفصون أثناء ذلك ممتنعاً بقلاعه فى ببشتر ، فطوقه المنذر بقواته وشدد فى حصاره ، وقطع كل علائقه مع الخارج. فلما ضاق الثائر ذرعاً بالحصار وشعر بنفاد أقواته ، لجأ إلى الخديعة وعرض التسليم والخضوع ، وطلب الصلح الأمان ، على أن يسير بأهله وولده إلى قرطبة ، فأجابه الأمير إلى طلبه ، وعقد له الأمان ، وأمده بالثياب والدواب والمؤن ؛ وطلب الثائر من الأمير مائة بغل لتحمل أهله ومتاعه فزوده بها ، وبعث بها ابن حفصون إلى قلاعه ، ورفع المنذر الحصار عن ببشتر ، وقفل راجعاً بجيشه إلى قرطبة . ولكن ابن حفصون فر من الجيش تحت جنح الظلام ، وعاد إلى ببشتر وامتنع بها ، بعد أن قويت نفسه بما حصل من الأمداد . فاستشاط المنذر حنقاً لتلك الخيانة المثيرة ، وارتد راجعاً بجنده إلى ببشتر ، وضرب حولها الحصار مرة أخرى ، معتزماً ألا يبرحها حتى يقبض على الثائر حياً أو ميتاً ، واستمر الحصار ثلاثة وأربعين يوماً . ومرض المنذر أثناء ذلك ، واستقدم أخاه عبد الله من قرطبة لينوب عنه فى متابعة الحصار ، ولم يأت منتصف صفر سنة ٢٧٥ هـ ( يونيه ٨٨٨ م ) حتى قضى المنذر نحبه تحت أسوار ببشتر ، بعد حكم لم يطل سوى عامين . وفى بعض الروايات أن المنذر توفى قتيلا بتدبير أخيه عبدالله ، وأن عبد الله رغبة منه فى التخلص من أخيه واعتلاء العرش مكانه ، حرض طبيبه ( حجامه ) على قتله ، ففصده الطبيب بمبضع مسموم

(١) وهى بالإسبانية Priego .

أثناء حصاره لببشتر ، فتوفى من أثر السم . ويؤيد هذه الرواية من مؤرخى الأندلس، ابن القوطية وابن حزم، ويرى ابن حزم بنوع خاص أنها رواية معقولة يؤيدها خلق عبد الله وسياسته الدموية . ذلك أنه قتل فيما بعد اثنين من أبنائه ، وهما محمد والد الناصر والمطرف ، ثم قتل أخوين له وهما هشام والقاسم ، فليس غريباً أن يكون هو مدبر جريمة يرتفع بها إلى العرش[1] .

وعلى أثر وفاة المنذر ، رفع الحصار عن بُبَشتر للمرة الثانية ، وقفل الجيش راجعاً إلى قرطبة ، وأنقذ ابن حفصون من خطر محقق ، وعاد ينظم شئونه ، ويوطد سلطانه فى الأنحاء الجنوبية .

وكان المنذر أميراً وافر العزم والحزم ، ذا شجاعة وبأس ، وكان خلال الفتنة التى ثار ضرامها فى أيام أبيه ، معقد آمال الحكومة والجيش ، وكان زعماء الفتنة يهابونه ويخشون جانبه ، لما عرف من حدته وصرامته ، وكان موته تحت أسوار ببشتر ضربة مؤلمة لحكومة قرطبة . ولو امتد به الأجل قليلا لاستطاع أن يقضى على ابن حفصون وأضرابه من زعماء الفتنة ، ولأمنت الأندلس شر تفاقمها بعد ذلك . وكان المنذر فوق ذلك يعشق مجالس الشعر والأدب ، ينشده الشعراء قصائدهم ويجزل لهم العطاء . وكان من شعراء دولته ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد والعكى وغيرهما[2] .

وكان المنذر أسمر طويلا ، جعد الشعر ، كث اللحية ، بوجهه أثر جدرى[3] .

(١) ابن القوطية فى افتتاح الأندلس ص ١٠٢ ، وابن حزم نقلا عن ابن حيان فى رسالة « نقط العروس » ص ٧٨و٧٩. وينقل صاحب البيان المغرب أقوال ابن حزم ج ٢ص ١٠٦و١٦١.

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ١٢٣ ؛ وابن الأثير ج ٣ ص ١٤٠ ، وابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٩٠ .

(٣) ابن الأثير ج ٧ ص ١٤٥ ؛ والبيان لمغرب ج ٢ ص ١١٦ .

# الفصل الثالث

## ولاية عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن

### ١ – ثورة المولدين والعـــرب

عبد الله يلى العرش فى ظروف صعبة . استفحال الثورة وامتدادها إلى زعماء العرب والبربر . ابن حفصون يحاول التفاهم مع الأمير . نكثه ومسير عبد الله إلى قتاله . الثورة فى جيان . عيث ابن حفصون واشتداد غاراته . مسير عبد الله إلى قتاله . موقعة بلاى . هزيمة ابن حفصون وفراره . أهمية موقعة بلاى وأثرها الحاسم . أقوال الشعر فيها . ثورة القبائل العربية بعد المولدين . الثورة فى كورة ريه واستفحالها . سوار بن حمدون القيسى . استيلاؤه على إلبيرة وغرناطة . مصرعه . قيام سعيد بن جودى مكانه . الحرب بين العرب والمولدين . تفاهم سعيد مع الأمير . مصرعه وشاعريته . محمد بن أضحى . تفاقم الثورة بين القبائل العربية . الثورة فى جيان وتدمير . امتداد الفتنة إلى إشبيلية . بنو عبدة وبنو حجاج وبنو خلدون . رياسة بنى عبدة . ثورة كريب بن خلدون وعيثه فى أحواز إشبيلية . ثورة بنى حجاج . مصرع أمية والى إشبيلية . الإضطراب والفوضى . مسير المطرف بن عبد الله إلى إشبيلية وهزيمته للثوار . حكم إبراهيم بن حجاج وكريب بن خلدون للمدينة . مصرع كريب وانفراد إبراهيم بالحكم . خروجه على الأمير وعوده إلى الطاعة . دولة بنى حجاج فى إشبيلية وقرمونة . وفاة إبراهيم وخلاله .

خلف المنذر على العرش ، أخوه عبد الله بن محمد ، وبويع فى نفس اليوم الذى توفى فيه أخوه ، فى محلة الجيش تحت أسوار بُبشتر ، فى منتصف صفر سنة ٢٧٥ هـ ( يونيه ٨٨٨ م) . وكان مولده بقرطبة فى نفس العام الذى ولد فيه أخوه المنذر ، أعنى فى سنة ٢٢٩ هـ ( ٨٤٤ ) وأمه أم ولد تدعى بهار ، وكان حينما تولى الملك فى السادسة والأربعين من عمره .

وعلى أثر البيعة ارتد عبد الله مع جيشه عائداً إلى قرطبة ، ومعه جثمان أخيه المنذر ، فدفن بمقبرة القصر ، واستتم عبد الله البيعة دون أن يعارضه أحد من أخوته العديدين .

وبدأ عبد الله حكمه الطويل المضنى فى ظروف قاتمة ، والخلاف يمزق أوصال المملكة ، وعرش بنى أمية يهتز تحت ضربات الخوارج والمتغلبين . ويصف لنا ابن الأثير عهد الأمير عبد الله فى هذه العبارة الجامعة : « وفى أيامه امتلأت الأندلس

بالفن ، وصار فى كل جهة متغلب ، ولم تزل كذلك طول ولايته » (١).

والحقيقة أن الثورة كانت قد استفحلت ، واندلع لهيبها فى كل ناحية ، ولم تبق قاصرة على المناطق الجبلية ، بل تجاوزتها إلى القواعد والمدن الكبيرة ، مثل إشبيلية وبطليوس وجيان ولورقة ومرسية وغيرها ؛ ولم تبق كذلك قاصرة على زعماء المولدين الذين تحدوهم نحو حكومة قرطبة عاطفة بغض طبيعى ، ولكنها امتدت إلى زعماء القبائل العربية أنفسهم ، إذ رأوا الفرصة سانحة لاستقلالهم ، وتدعيم سلطانهم ؛ وظهر البربر فى الوقت نفسه فى الميدان ، فاستعصم كثير من زعمائهم بالحصون النائية ، ونشبت المعارك العنصرية القديمة بين العرب والمولدين حيثما التقت حشودهم ، كما حدث فى كورة ريُّه وإشبيلية ؛ ونشبت مثل هذه الخصومات بين العرب والبربر ، وفيما بين العرب أنفسهم ، واستقل زعماء العرب بإلبيرة وجيان ومنتيشة ولورقة ومدينة سالم ، واستقل زعماء المولدين بالثغر الأعلى وبطليوس وباجة وجيان ومرسية ، وغدت إشبيلية مسرحاً للتنافس الدموى بين العرب والبربر ، وبسط ابن حفصون سلطانه على معظم الأنحاء الجنوبية الغربية فيما بين البحر ووادى شَنيل ؛ وهكذ عمت الثورة معظم جنبات الأندلس ، ولم يبق لحكومة قرطبة سلطان حقيقى إلا فى منطقة العاصمة وأحوازها .

— ١ —

كان عبد الله يواجه هذه الخطوب كلها . وكان يرى إخماد الفتنة مسألة حياة أو موت بالنسبة لسلطان العرش ، وكانت هذه مهمته الشاقة التى كرس لها كل جهوده . وكان يرى أن الثورة فى الجنوب هى أخطر ما يواجه العرش ، وأن ابن حفصون قد غدا قوة يخشى بأسها ، وأنه يجب أن تكرس الجهود لتحطيم ثورته وسحق قواه . وكان ابن حفصون يشعر من جانبه ، بأنه يواجه قوة العرش كلها ، ومن ثم فقد حاول عقب ارتقاء الأمير عبد الله أن يحصل على هدنة يستطيع خلالها أن ينظم شئونه ويوطد سلطانه ؛ فبعث إلى قرطبة ابنه حفصاً مع جماعة من أصحابه ليعقدوا السلم باسمه مع عبد الله ، على أن يستقر فى منطقة ببشتر فى طاعة الأمير ، فاستجاب عبد الله إلى طلبه ، ورد ابنه وصحبه رداً جميلا وأجزل لهم الصلات ، وبعث معهم عبد الوهاب بن عبد الرؤوف والياً من قبله على كورة ريُّه ليكون مع

(١) ابن الأثير ج ٧ ص ١٤٥ .

ابن حفصون شريكاً فى حكمها ، ولكن لم تمض بضعة أشهر ، حتى نكث ابن حفصون العهد وطرد عامل الأمير ، وأغار على البلاد المجاورة ، واستولى على أرشدونة ، وعاث فساداً فى تلك المنطقة ، فسار إليه الأمير عبد الله فى سنة ٢٧٦ هـ (٨٨٩ م) واجتاح منطقة ببشتر وخربها ، ولكنه لم ينل من الثائر مأرباً ؛ ولما ارتد إلى قرطبة خرج ابن حفصون فى أثره ، وتوغل حتى إستجة واستولى عليها ، فبعث إليه عبد الله الجند فردته عنها .

ولبثت الثورة على اضطرامها فى الجنوب . وخرج خير بن شاكر فى جيّان ، وطرد منها عامل الأمير واستولى عليها ، فسارت إليه جند الأندلس بقيادة أحمد ابن محمد بن أبى عبدة ، وحاصرته وقتلت كثيراً من أصحابه ، وخربت معظم دور جيان ، ثم عادت دون إخضاعه . وهنا بعث ابن حفصون جماعة من أصحابه إلى جيان بحجة معاونة ابن شاكر ، ولكنهم فتكوا به وحملوا رأسه إلى ابن حفصون ، فبعث بها إلى الأمير عبدالله سعياً إلى مصانعته ومطاولته[1] . ولكن الأمير لم يخدع بسعيه . وسار ابن حفصون إلى جيان فعاث فيها وانتهب أموالها ، وأذل أهلها ، وساد الذعر والفوضى فى تلك الأنحاء .

ودفع ابن حفصون غاراته شمالا حتى أحواز قرطبة ، وبلغ من جرأته أن حاول إحراق مخيم الأمير فى ضاحية شَقُندة على مقربة من العاصمة . فعندئذ عول الأمير عبدالله على أن يخرج لقتاله مرة أخرى ، فحشد ما استطاع من قواته ، واتجه نحو الجنوب إلى ناحية قبرة Cabra حيث حشد الثائر قواته فى معقل بلاى أو « بَلِيّ » ( بولى )[2] ، وكان حصن بلاى من أمنع حصون قبرة الواقعة على مقربة من جنوب شرقى قرطبة . وقد افتن ابن حفصون فى تقويته وتحصينه ، وجعله مركزاً للسيطرة على كورة قبرة كلها ، والإغارة على المدن والحصون القريبة من قرطبة ، وتهديد أطراف العاصمة ذاتها . وكانت قوات الثور تبلغ زهاء ثلاثين ألفاً ، ولا تعدو قوات الأندلس ثمانية عشر ألفاً ، بل أربعة عشر ألفاً على قول

---

(١) ابن حيان فى المقتبس ص ٩٢ و٩٣ .

(٢) هى بالإسبانية Poley أو Polei ، وما يزال موقعها قائماً معروفاً إلى اليوم تحتله قرية أجيلار Aguilar الحديثة الواقعة جنوبى قرطبة .

ابن حيان[1]. ووقع اللقاء بين الفريقين على ضفاف نهر الفوشكة أحد فروع نهر الوادى الكبير[2] على قيد مسافة قصيرة من بلاى ، فى الثانى من صفر سنة ٢٧٨ هـ ( ١٦ مايو سنة ٨٩١ م ) . وقاد جند الأندلس القائد عبيد الله بن محمد ابن أبى عبدة . وتولى ابن حفصون قيادة جنده بنفسه . ونجح فرسان الأندلس فى هزيمة الجناح الأيمن للثوار وتمزيقه ، فدب الذعر إلى باقى القوات الثائرة ، وركنت إلى الفرار ، وهرعت الخيل فى آثارهم فقتلت كثيراً منهم ، وفر ابن حفصون فى بعض قواته إلى حصن بلاى معولا على الامتناع به ، ولكن هجره معظم جنده ، مؤثرين الفرار على حصار غير مأمون العاقبة ؛ فلما رأى ابن حفصون عبث المقاومة ارتد فى نفر من صحبه إلى شعب الجبال الجنوبية ، بعد أن فقد معظم قواته ، وقتل من الثوار أثناء الموقعة وخلال المطاردة ألوف عدة ، واحتل عبدالله حصن بلاى وقتل من جنده زهاء ألف ، واستولت جند الأمير على محتوياته . وكانت موقعة بلاى موقعة فاصلة فى معنى من المعانى ، وفيها أصيب ابن حفصون بضربة أليمة لم يصب بمثلها من قبل . ولم ير الأمير مطاردة الثائر جنوباً ، ولكنه آثر أن يزحف غرباً إلى إستجة التى كانت تدين بطاعته ، فحاصرها أياماً حتى سلمت والتمس أهلها العفو والأمان[3] .

وسار الأمير بعد ذلك فى أثر ابن حفصون إلى ببشتر قاعدته الرئيسية ، وكان الثائر قد التجأ إليها عقب الهزيمة ، واجتمع إليه كثير من أنصاره من أهل الجزيرة . وعاث الأمير فى تلك المنطقة ، ولم يخرج ابن حفصون إلى لقائه ، ولكنه حينما ارتد جيش الأندلس أدراجه ، حاول مطاردته ، واشتبك مع مؤخرته فى معركة هزم فيها ورد على أعقابه ( ربيع الأول سنة ٢٧٨ هـ ) . وعلى أثر هذه الغزوة الموفقة ،

---

(١) ابن حيان فى المقتبس ص ١٠٤ . ويقول ابن عبد ربه وهو معاصر للمعركة ، وربما شهدها بنفسه مع الأمير ، إن قوات الأندلس كانت ثمانية عشر ألفاً منهم أربعة عشر ألفاً من أهل قرطبة وأربعة آلاف من حشم الأمير ومواليه ( راجع العقد الفريد ، طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ج ٤ ص ٤٩٨ ) .

(٢) ويسمى بالإسبانية **Las Carchenas** ( لاساس كارشيناس ) .

(٣) يورد لنا ابن حيان رواية ضافية وتفاصيل كثيرة عن موقعة بلاى (المقتبس ص ٩٤-١٠٥). وراجع البيان المغرب ج ٢ ص ١٢٦ و ١٢٧ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٣٥ . ويضع دوزى تاريخ الموقعة فى ١٥ إبريل سنة ٨٩١ م . ولكن إبريل يوافق شهر المحرم سنة ٢٧٨ هـ . وقد حدثت الموقعة فى بداية صفر . راجع : **Dozy : Hist.; V.II. p. 68-73** .

اختار الأمير عبد الله قائده البطل عبيد الله بن محمد بن أبي عبدة للوزارة ، إثابة له وتكريماً ، وعرفاناً لما أسداه إلى العرش وإلى الدولة ببراعته وبطولته(١) .

وقد أشاد الشعراء بذكر موقعة بلاى وإستجة ، وما أحرزه الأمير فيها من النصر الباهر ، فمن ذلك قصيدة طويلة لابن عبد ربه يقول فيها :

نجا مستكناً تحت جنح من الدجى — وليس يودى شكرنا أنعم الجنح
يودون أن الصبح ليـل عليهم — ونحن نود الليل لو أنه صبح
أقادح نار كان طعم وقـودها — بعينك فانظر ما أضاء لك القدح
محا السيف ما زخرفت أول وهلة — ودونك فانظر بعد ذلك ما يمح
فكم شارب منكم صحى بعد سكرة — وما كان لولا السيف من سكره يصحو
كأن « بلايا » والخنازير حولها — مقطعـة الأوصال أنيابها كلح
ديار الذين كذبوا رسل ربهم — فلاقوا عذاباً كان موعده الصبح
فيا وقعة أنست وقيعة راهـط — ويا عزمة من دونها البطن والنطح
ويا ليلة أبقت لنـا العز دهرنا — وذلا على الأعداء صل به الترح
بدولة عبد الله ذى العـز والتقى — يخبر فى أدنى مقاماته المـدح(٢)

ولابن عبد ربه قصيدة أخرى يهنئ فيها الأمير بفتح بلاى هذا مطلعها

الحق أبلج واضح المنهـاج — والبـدر يشرق فى الظلام الداج
والسيف يعدل ميل كل مخالف — عميت بصـيرته عن المنهـاج

ومنهـا :

لما حفلن إلى « بلاى » عشـية — أقوت معـاهدها من الأعـلاج
فكأنما جاشت خـلال ديارهم — أسد العرين خلت بسرب نعاج
ونجى ابن حفصون ومن يكن الردى — والسيف طالبه فليس بنـاج
فى ليـلة أسرت به فكأنمـا — خيلت لـديه ليـلة المعـراج
هذى الفتوحات التى أذكت لنا — فى ظلمة الآفاق نور سـراج

---

(١) راجع المقتبس ص ١٠٠ .

(٢) راجع هذه القصيدة بأكملها فى المقتبس ص ٩٧ — ٩٩ .

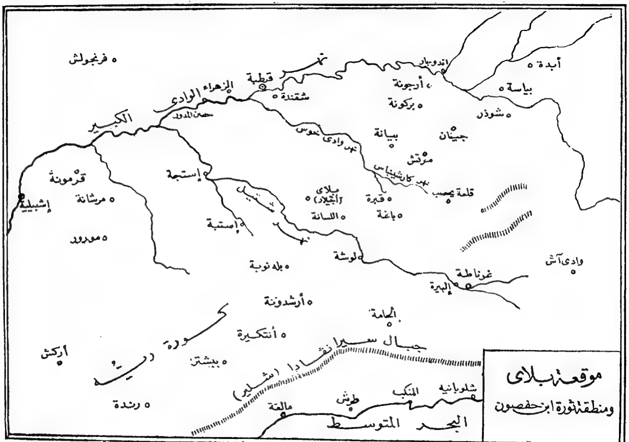
موقعة بلاى
ومنطقة ثورة ابن حفصون
فرنجولش
قرطبة
الزهراء
الوادى
الكبير
شقندة
حصن المدور
أندوجار
أرجونة
بركونة
أبدة
بياسة
شوذر
جيان
ببيانة
نهر وادى خوس
مرتش
إستجة
قرمونة
إشبيلية
مرشانة
مورور
إستبة
بلاى (الجبلار)
قبرة
قلعة يحصب
باغة
اللسانة
لوشة
بله نوبة
غرناطة
إلبيرة
وادى آش
أرشذونة
الحامة
أنتكيرة
جبال سيرا نفادا (شلير)
أركش
ببشتر
رندة
شلوبانية
المنكب
طرش
مالقة
البحر المتوسط

— ٢ —

وهنا نقف قليلا فى تتبع ثورة المولدين وزعيمهم ابن حفصون ، لنعطف على أخبار الثورات التى قام بها الزعماء العرب فى الوقت نفسه ، فى مختلف القواعد والثغور .

كانت المناطق الجنوبية فى الوقت التى تجيش فيه بثورة المولدين فى الغرب ، تجيش فى الشرق بثورة أخرى عمادها القبائل العربية . وكانت سياسة اصطفاء الموالى التى جرى عليها بنو أمية فى الأندلس منذ بداية أمرهم ، قد أخذت تحدث أثرها فى نفوس القبائل العربية ، وأضحت هذه القبائل ترى فى سياسة حكومة قرطبة نوعاً من الطغيان والمهانه . ولما ثار ضرام الفتنة على يد المولدين فى الثغر الأعلى وفى المناطق الجنوبية ، ألفت القبائل العربية الفرصة سانحة للقيام بدورها ، والانتصاف لعصبيتها وكرامتها . وكانت كورة إلبيرة مركز نشاطهم فى الجنوب ؛ ففى سنة ٢٧٥ هـ ( ٨٨٩ ) ثار فى ناحية البراجلة من كورة إلبيرة يحيى بن صقالة القيسى ، وكان ذا وجاهة ومال ، والتفت حوله البيوتات العربية ، واشتد فى مطاردة المولدين والنصارى[١] ، فثاروا به ولم يلبث أن قتل فى بعض المواقع التى نشبت بينه وبينهم ؛ فتصدر لزعامة العرب عندئذ سوّار بن حمدون القيسى ؛ وكان سوار زعيما مجرباً . وافر الشجاعة والبأس ، فهرعت العرب إلى لوائه ، وأغار على حصون المولدين والنصارى فى تلك المنطقة ، فانتزع معظمها ، وامتدت رياسته حتى قلعة رباح ، وجعل مركزه فى حصن منت شقند[٢] على مقربة من إلبيرة ثم زحف على إلبيرة وفيها جعد بن عبد الغافر واليها من قبل الأمير ، ونشبت بين الفريقين معركة هائلة ، فهزم جعد وأسر ، وقتل كثير من أصحابه ( ٢٧٦ هـ ) ، وتعرف هذه الموقعة بواقعة المدينة[٣] . ثم أطلق سوار جعدا فتحالف مع ابن حفصون على قتاله . وقوى أمر سوار واشتد ساعده وكثر أنصاره ، فسار إلى غرناطة واستولى عليها واتخذها قاعدة له ، ونشبت بينـه وبين المولدين وزعيمهم ابن حفصون عدة معارك ، هزم فيها ابن حفصون وقتل بعض قواده . وكان سوار

(١) ابن حيان فى المقتبس ص ٥٥ .

(٢) ويسميها ابن حيان منت شاقر ( المقتبس ص ٥٥ ).

(٣) المقتبس ص ٥٥ و ٥٧ .

فوق فروسيته شاعراً جزلا فصيحاً يأسر الجموع بذلاقته . ولكن رياسته لم تطل سوى نحو عام ، إذ قتل فى كمين دبره له خصمه القديم جعد والى إلبيرة ، وحفص بن المرة قائد ابن حفصون . فقد خرج سوار ذات يوم من غرناطة إلى بعض غاراته فى نفر قليل من أصحابه ، وكان حفص قد رتب قواته فى أماكن مستورة على مقربة من المدينة ، فانقضت على سوار وفتكت به وبأصحابه ومثل بجثته . فخلفه فى رياسة العرب سعيد بن سليمان بن جودى السعدى زعيم قبيلة هوازن ، وكان مثل صديقه سوار بطلا شجاعاً وفارساً مجرباً ، وشاعراً أديباً ، وخطيباً مفوها ، قد تفقه مع فروسيته فى فنون العلم والأدب(١) ، فالتفت حوله القبائل ، واشتدت وطأته على المولدين وزعيمهم ابن حفصون وهزمه مراراً ، وأسره ابن حفصون فى بعض الوقائع ثم أطلقه لقاء فدية كبيرة . ولما رأى الأمير عبد الله غلبة العرب على كورة إلبيرة ، أقر سعيداً على ولايتها فحكمها باسم الأمير ، واستمرت زعامته بضعة أعوام حتى قتل غيلة فى دار عشيقته اليهودية ، وذلك فى أواخر سنة ٢٨٤ هـ ( ٨٩٧ م ) ، ويقال إنه قتل بتدبير الأمير عبد الله ، وكان من أهم أسباب قتله أبيات من الشعر قالها فى ذم بنى أمية جاء فيها :

يا بنى مروان جدوا فى الهرب نجم الثائر من وادى القصب
يا بنى مروان خلوا ملكنـــا إنمـــا الملك لأبناء العرب

ولسعيد بن جودى شعر كثير ، وقد أورد لنا ابن الأبار بعض قصائده ، وهى تنم عن مقدرته وقوة شاعريته(٢) .

ولما قتل سعيد بن جودى ، قام بأمر العرب من بعده فى كورة إلبيرة ، محمد ابن أضحى الهمذانى صاحب حصن الحامّة ( الحمة ) ، وأقره الأمير عبد الله على رياسته ، ونشبت بينه وبين ابن حفصون وقائع عديدة كانت سجالا بينهما ؛ ولبث سعيد على رياسته لتلك المنطقة ، حتى قضى عليها الناصر فى بداية عهده ، واستولى على الحامة وغيرها من النواحى الثائرة فى تلك المنطقة(٣) .

---

(١) المقتبس ص ٦٠ و ٦١ .

(٢) راجع فى أخبار سوار بن حمدون وسعيد بن جودى ، ابن الأبار فى « الحلة السيراء » (ليدن) ص ٨٠ — ٨٧ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ١٣٨ و١٣٩ و١٤١ ، والمقتبس ص ٢٩ و٣٠ .

(٣) الحلة السيراء ص ٨٥ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ١٣٩ .

واتسع نطاق الثورة بين القبائل والبطون العربية والمولدين ، فخرج فى مدينة ابن السليم (شذونة)[1] منذر بن ابراهيم ، واستقل برياستها إلى أن قتله بعض أتباعه ؛ وخرج آخرون من الزعماء فى كورة جيان ، وكان أشدهم مراساً عبيد الله ابن أمية بن الشالية ، وهو من زعماء المولدين . وقد خرج فى منطقة جبل شمنتان وما يليها ، وامتد سلطانه حتى حصن قسطلونة[2] ، وقوى أمره وأنشأ له بلاطاً وجيشاً ، وحالف ابن حفصون وصاهره بأن زوج ابنته من جعفر ولد ابن حفصون . واستمر ابن الشالية ممتنعاً بمعاقله ، طوال أيام الأمير عبد الله ، ولم تنته ثورته إلا فى أوائل عهد الناصر حيث عاد إلى الطاعة ، وعينه الناصر والياً لمنطقة شمنتان . وثار سعيد بن مستنه فى باغة ، وقوى أمره ، فسار إليه الأمير عبد الله فى سنة ٢٧٩ هـ ( ٨٩٢ م ) عقب موقعة بلاى ، وغزا حصن كركبوليه ، الواقع بين قرطبة وجيان ، وهو معقله وأمنع حصونه ، واشتد فى حصاره حتى اضطر إلى التسليم ، وهدم الأمير جميع حصونه[3] . وثار بغربى الأندلس اثنان من زعماء المولدين أيضاً هما بكر بن يحيى بن بكر ، ثار بشنترية الغرب وحصنها واستقل بها ، وبسط سلطانه على ما حولها ، وتشبه بالأمراء ، فأنشأ له بلاطاً وحكومة ، وكان جواداً يأوى أبناء السبيل ويحفظ الطرق ، وفى أواخر عهد الأمير عبدالله عاد إلى الطاعة . وعبد الملك بن أبى الجواد ، وقد ثار فى باجة ومبرتلة . وكان كلاهما من أتباع عبد الرحمن الجليقى وأنصاره . وثار فى لَبْلَة عثمان بن عمرون وأخرج منها عامل الأمير ، وامتدت الفتنة إلى المنطقة كلها . وغلب إسحاق بن إبراهيم العقيلى المعروف بابن عطاف على حصن منتيشة من أعمال جيان وامتنع به ، مستظلا مع ذلك بطاعة الأمير . وفى شرقى الأندلس خرج ديسم بن إسحاق فى كورة تدمير وغلب على مدينتى مرسية ولورقة ، واستفحل أمره ، وكان أديباً يصل الأدباء والشعراء . وسير إليه الأمير عبد الله فى سنة ٢٨٣ هـ ( ٨٩٦ م ) حملة بقيادة عمه هشام بن عبد الرحمن بن الحكم ، فاخترقت ولاية تدمير وعاثت فيها وهاجمت مرسية وأرغمتها على دفع الخراج ، ونشبت بينهم وبين قوات ديسم فى ظاهر لوَرْقة ،

---

(١) Medina Sidonia . وهذه تسمية ابن الأثير ( ج ٤ ص ٢١٥ ) .

(٢) جبل شمنتان هو بالإسبانية Somontin ، وهو يقع شمالى جيان بين مدينة ليناريس الحديثة ونهر الوادى الكبير ؛ وحصن قسطلونة هو بالإسبانية Castalona .

(٣) المقتبس ص ١٠٦ .

معركة هزم فيها الثوار ، بيد أنها لم تكن معركة حاسمة(١). وقامت ثورات محلية أخرى فى بعض القواعد والحصون ، بيد أنها كانت على الأغلب ثورات قليلة الخطورة ، محدودة الأثر ، وكانت حكومة قرطبة تراها فى المحل الثانى ، ولم تكن ثورة القبائل العربية تصطبغ بتلك المرارة التى كانت تطبع ثورات المولدين والبربر . ولبث كثير من أولئك الزعماء الخوارج على رياستهم واستقلالهم حتى بداية عصر الناصر(٢) .

— ٣ —

وكانت إشبيلية ، أعظم القواعد الأندلسية بعد قرطبة ، فى أثناء ذلك، مسرحاً لفتنة دموية استطال أمدها . وكان سكان إشبيلية مزيجاً من العرب والمولدين والنصارى ، وكانت منزل عدد كبير من البيوتات العربية العريقة التى تمتاز بالثراء والعصبية . وبالرغم مما كان يسود بين هذه العناصر فى معظم الأحيان من عوامل الجفاء والشقاق ، فقد استطاعت إشبيلية أن تحافظ على سكينتها وولائها مدى حين . فلما أخذت القبائل العربية فى ولاية الأمير عبد الله تجيش بعوامل الخروج والثورة ، هبت ريح الاضطراب على إشبيلية وسرت إليها عوامل الفتنة ، وظهر الزعماء المتطلعون إلى الرياسة على مسرح الحوادث . وكان بنو أبى عبدة ، وبنو حجاج ، وبنو خلدون، يومئذ أعظم البيوتات العربية فى إشبيلية . فأما بنو أبى عبدة فكان منهم كثير من رجال الدولة والقادة ، وكان زعيمهم يومئذ أمية بن عبد الغافر بن أبى عبدة ، وكان من وجوه القوم المقربين لدى حكومة قرطبة . وأما بنو حجاج فإنهم يرجعون بنسبتهم إلى لخم ، ويتصلون فى الوقت نفسه من ناحية الأمومة بملوك القوط ، وذلك عن طريق سارة القوطية حفيدة وتيزا ملك القوط(٣)، وكان زعيم بيتهم يومئذ عبد الله بن حجاج وأخوه إبراهيم . وأما بنو خلدون فإنهم ينتسبون إلى العرب اليمانية فى حضرموت ، وإليهم ينتسب المؤرخ الفيلسوف ابن خلدون،وكان زعيم بيتهم يومئذ كريب بن عثمان بن خلدون وأخوه خالد(٤).

---

(١) المقتبس ص ١١٨ .

(٢) راجع فى تفاصيل هذه الثورات ، المقتبس ص ٩ – ١١ و ١٦ ، وكذلك البيان المغرب ج ٢ ص ١٣٩ – ١٤١ .

(٣) راجع « دولة الإسلام فى الأندلس » ص ٦٠ و ٦١ .

(٤) راجع كتاب العبر ج ٧ ص ٣٨٠ و ٣٨١ ، وابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٩٦ .

وكان هنالك إلى جانب هذه الأسر العربية الصميمة ، عدد من الأسر المولدة القوية الغنية . وكان التنافس بين العرب والمولدين فى النفوذ والرياسة ، من أهم أسباب الاضطراب فى المجتمع الأندلسى يومئذ .

وكانت الرياسة فى إشبيلية قديمة فى بيت أبى عبدة ، حيث كان جدهم أبو عبدة واليها من قبل عبد الرحمن الداخل ، وكان حفيده أمية بن عبد الغافر واليها فى الوقت الذى نتحدث عنه ؛ وكان الأمير عبد الله قد أرسل إلى جانب أمية ولده محمداً ، ليكون عضداً أدبياً له فى حكم المدينة . وفى سنة ٢٧٦ هـ ( ٨٨٩ م ) كان بنو خلدون أول من رفع لواء الثورة فى إشبيلية ، وخرج زعيمهم كريب بن عثمان ابن خلدون فى أنصاره وحلفائه من المولدين والبربر ، الذين رأوا أن يعملوا على إذكاء المعركة بين الأسر العربية ، وتحالف مع ابن مروان الجليقى الثائر ببطليوس . وعاث كريب وأصحابه فى أحواز إشبيلية وقطعوا السبل ، ولكنه لم ينل من المدينة مأرباً . ثم ثار المولدون ضد العرب اليمانية لمقتل واحد من كبرائهم ، وتحرك بنو حجاج فى نفس الوقت . وخشى أمية العاقبة فدس على زعيمهم عبد الله ابن حجاج من قتله ، فحل فى الحال مكانه أخوه إبراهيم ، وحمى وطيس الفتنة ، واشتد بنو حجاج وأنصارهم من العرب فى قتال أمية ، وقتل أمية فى النهاية مدافعاً عن نفسه . فأرسل الأمير عبد الله إلى إشبيليه حاكماً جديداً من قبله ، هو عمه هشام ابن عبد الرحمن ، ولكنه لم ينجح فى تهدئة المدينة الثائرة ، وقتل الثوار ولده ، وسادت الفوضى ، واضطرب حبل الأمن فى إشبيلية وما جاورها ؛ فعندئذ أرسل عبد الله ولده المطرِّف ، ومعه الوزير عبد الملك بن عبد الله بن أمية على رأس حملة قوية إلى إشبيلية ( ٢٨٢ هـ — ٨٩٥ م ) . فلما أشرف المطرف على إشبيلية وثب بالقائد عبد الملك فقتله ، وندب للقيادة مكانه أحمد بن هاشم بن عبد العزيز ، وأرسل إلى والده الأمير عبد الله محضراً يبرر فيه تصرفه ، ونشبت الموقعة بين المطرف وبين الثوار خارج المدينة ، فهزمهم وردهم إلى سور المدينة ، وقتل منهم عدد كبير ، وأسر إبراهيم بن حجاج وخالد بن خلدون وغيرهما من زعماء الفتنة ، ولم يطلق سراحهم حتى أذعنت المدينة الثائرة لمطالبه ، وسلمت الخراج المطلوب ، وقدم زعماء الفتنة رهائن من الولد والأهل ، واتُّفق على أن يشترك

فى حكم المدينة إبراهيم بن حجاج وكريب بن خلدون باسم الأمير وفى طاعته[1] . وكان كريب طاغية شديد الوطأة فنفر منه الشعب . أما إبراهيم فكان رفيقاً دمث الخلق فكثر أنصاره ، ورجحت كفته ، واستطاع فى الوقت نفسه أن يحصل من الأمير عبد الله سراً على عهد بولاية المدينة . ثم اعتزم أمره ودبر مقتل كريب ابن خلدون وأخيه خالد ، وانفرد بحكم إشبيلية ( ٢٨٢ هـ )[2] ، وأقره عبد الله على ولاية إشبيلية وقرمونة . وسطع نجم بنى الحجاج وقوى أمرهم ، وطالب إبراهيم الأمير بالإفراج عن ولده عبد الرحمن ، المعتقل رهينة فى قرطبة ، فلما تباطأ الأمير فى إجابته خلع الطاعة وتحالف مع ابن حفصون[3] ، وسار معه فى قواته لمقاتلة قوات الأندلس ( ٢٨٩ هـ ) حسبما نفصل بعد . وقدر الأمير عبد الله خطورة هذا التحالف وتوجس من عواقبه ، وعاد فأجاب رغبة إبراهيم ، وأفرج عن ولده عبد الرحمن ورده إليه مكرماً (٢٨٩ هـ) ، فجنح إبرهيم إلى الطاعة مرة أخرى ، وارتضى أداء الجزية للأمير ، ونبذ حلف ابن حفصون ، وقنع الأمير من جانبه بهذا المظهر من الخضوع والطاعة ، واستقرت الأمور فى إشبيلية[4] .

وأبدى إبراهيم بن حجاج فى إدارة ولايته همة وبراعة ، واتخذ سمة الملوك وأنشأ له بلاطاً ، وحرساً خاصاً قوامه خمسمائة فارس غير المشاة ، وحصن مدينة قرمونة ، وجعل بها مرابط خيله[5] ، وفرض الضرائب وأصلح نظم الحكم والقضاء ، وعمل على توثيق أواصر المودة بينه وبين حكومة قرطبة . وكان يبعث بالأموال والهدايا إلى الأمير عبد الله ، ويمده بجنده فى بعض غزواته . وكان إبراهيم فوق ذلك رضى الخلق ، محبوباً من الشعب ، جواداً يقصده الشعراء وينشدونه مدائحهم

---

( ١ ) يقول ابن خلدون إن كريباً انفرد أولا بحكم إشبيلية ، وسعى ابن حجاج إلى انتزاعها منه ، فتحالف مع ابن حفصون ، ثم جنح إلى مصانعة كريب فأشركه معه فى حكم المدينة (كتاب العبر ج ٧ ص ٣٨١ ) . وراجع المقتبس ص ١١١ .

( ٢ ) أو فى أوائل سنة ٢٨٦ هـ ، على رواية ابن حيان ( المقتبس ص ٨٤ ) .

( ٣ ) البيان المغرب ج ٢ ص ١٢٩ .

( ٤ ) المقتبس ص ١٣١ .

( ٥ ) وما تزال مدينة قرمونة تحتفظ حتى اليوم ببعض الأبواب والأطلال الأندلسية القديمة التى تدل على حصانتها أيام المسلمين ، وما زالت بالأخص تحتفظ بباب « إشبيلية » الشهير كاملا بعقده العظيم وشرفته العربية الرائعة .

فيجزل صلاتهم ؛ وكان ممن مدحه شاعر العصر أبو عمر بن عبد ربه صاحب العقد الفريد ، ومما قاله فى مدحه :

ألا أن إبراهيم لجـــة ســـاحل  من الجود أرست فوق لجة ساحل
فإشبيلية الزهراء تزهو بوجهه  وقرمونة الغـــراء ذات الفضائل
إذا ما تحلت تلك من نور وجهه  غدت هذه للناس فى زى عاطل

واستمر إبراهيم بن حجاج فى حكم إشبيلية وقرمونة ، حتى توفى سنة ٢٩٨ ﻫ ( ٩١٠ م )(١) فى سن الثالثة والستين ، فخلفه فى حكم إشبيلية ولده عبد الرحمن ، وفى حكم قرمونة ولده محمد حتى انتهت دولتهم فى بداية عهد الناصر (٢).

---

(١) ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٩٧ . ويضع ابن عذارى وفاته فى سنة ٢٨٨ ﻫ ( البيان المغرب ج ٢ ص ١٣٢ ) والرواية الأولى أرجح . وراجع أخبار ابن حجاج فى المقتبس ص ١١ — ١٤ .

(٢) راجع فى تفاصيل ثورة بنى حجاج ، ابن خلدون فى كتاب العبر ج ٤ ص ١٣٥ و ج ٧ ص ٣٨٠ ، ٣٨١ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ١٢٨ — ١٣٥ ؛ وابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٩٦ و ٩٧ .

# الفصل الرابع

## ولاية عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن

### ٢ — ذروه الفتنـــة الكبرى

عود إلى ثورة المولدين . ابن حفصون يعود إلى الميدان . عوَد الصوائف إلى غزوه . إستيلاؤه على إستجة . مسير أبان بن عبد الله لقتاله . المعارك فى الجزيرة الخضراء . تحالف ابن حفصون ومحمد ابن لب . ابن حفصون يعلن اعتناقه للنصرانية . تفرق أنصاره . التحالف بين ابن حجاج وابن حفصون . الحرب بين جند الأندلس وابن حفصون . هزيمة الثائر وانتهاء حلفه مع ابن حجا . توالى الحملات والصوائف لقتال ابن حفصون . استقلال ابن مروان ببطليوس . ثورة ابن تاكيت فى الثغر الأدنى . محاصرة جند قرطبة لماردة . الخلاف بين ابن مروان وابن تاكيت . وفاة ابن مروان واستمرار بنيه فى حكم بطليوس . بنو ذو النون فى طليطلة . استيلاء بنى قسى عليها وحكمهم لها . سقوطها فى يد ابن الطربيشة . بنو ذو النون فى شرق طليطلة . استيلاء ابن يحيى الأنقر على سرقسطة . بنو قسى فى تطيلة وطرسونة . غزوات لب فى ليون وناڤار . وفاة لب وولاية أخيه عبد الله . ظهور محمد بن عبد الله الطويل فى الثغر الأعلى . القتال بينه وبين بنى قسى . أفول نجم بنى قسى . غزوات الطويل فى أراضى النصارى . مصرعه وذهاب دولته . الأمير عبد الله ومقارعته للثورة . انتهاز ملك ليون لمشاغل حكومة قرطبة . استيلاؤه على سمورة . ظهور ابن القط فى أحواز طليطلة . زعمه بأن هو المهدى . القتال بينه وبين ملك ليون . مصرع ابن القط وتفرق شمله . تفاهم ملك ليون مع الثوار . افتتاح الجزائر الشرقية . وفاة الأمير عبد الله . خلاله وصفاته . صرامته وعدله وتقشفه . حجابه وقواده . اصطفاؤه للموالى . أولاده . مأساة ولديه محمد والمطرف . اغتيال المطرف لأخيه محمد . حكم عبدالله بإعدام المطرف . بطشه بأخوته . أقوال ابن حزم فى صرامته وسفكه للدماء . صفة الأمير عبدالله وخلاله . أدبه وشاعريته . اصطفاؤه للعلماء والشعراء . شعراء العصر وأدباؤه وفقهاؤه .

لم تشغل ثورة القبائل العربية فى إشبيلية وباجة وإلبيرة وتدمير وغيرها، حكومة قرطبة عن متابعة الجهاد لإخماد ثورة المولدين . وقد كانت ثورة المولدين فى الواقع أخطر وأشد رسوخاً ، وأبعد أثراً . وقد استطاع زعيم ثورة المولدين فى الجنوب عمر بن حفصون ، أن يستغرق معظم جهود حكومة قرطبة منذ أواخر عهد الأمير محمد ، ولكن هزيمة الزعيم الثائر فى موقعة بلاى (بولى) سنة ٢٧٨ هـ ( ٨٩١ م ) وما ترتب عليها من تضعضع قواته ، فلت من عزيمته ووضعت حداً موقتاً لطغيانه . بيد أن حكومة قرطبة لم تركن إلى هذه الهدنة المؤقتة ، فقد كانت تعرف

ابن حفصون وتعرف مبلغ خطره ، ومقدرته على العدوان والبغى ، وكان ابن حفصون من جانبه ، يعمل جاهداً لتنظيم قواه واستكمال أهبته ، لاستئناف صراعه المرير مرة أخرى .

ومن ثم فإنه لم يمض عامان على موقعة بلاى، حتى عادت الصوائف تتردد لغزو ابن حفصون ومطاردته . فى سنة ٢٨١ هـ (٨٩٤ م) سار المطرف بن الأمير عبدالله فى جند الأندلس إلى كورة ريه ، وحاصر ابن حفصون فى ببشتر معقله ، وعاث فى بسائطه . وآثر ابن حفصون فى البداية أن يستعصم بمعقله ، ثم خرج إلى لقاء المطرف فهزم ، وقتل فى هذه الموقعة حفص بن المرة أشجع قواد ابن حفصون وأشدهم مراساً[1]. فلما عادت جند الأمير إلى قرطبة ، عاد ابن حفصون يدبر خطط العدوان ، ثم جمع جموعه وزحف على إستجة ، واستولى عليها للمرة الثانية ، وذلك فى سنة ٢٨٤ هـ (٨٩٧ م)[2] . وإستجة تقع جنوب غربى العاصمة على مسافة غير بعيدة عنها ، فبادر الأمير عبد الله باستقدام الجند من النواحى ، وفى العام التالى ( ٢٨٥ هـ ) سير ولده أبان لقتال ابن حفصون ومعه القائد أحمد بن أبى عبدة . واخترقت الحملة الجزيرة الخضراء ، وعكفت على مهاجمة الحصون الخارجية حتى وصلت إلى طريف ، ثم ارتدت إلى ببشتر ثم إلى أرشدونة ثم إلى إلبيرة وحصن شلوبانية ؛ ونشبت بينها وبين قوات ابن حفصون عدة معارك محلية ، ثم عادت إلى قرطبة عن طريق وادى آش[3] . ولكن هذه المعارك لم تسفر عن أية نتيجة حاسمة ، واقتنعت حكومة قرطبة بأنه لا بد من مضاعفة الأهبة لكى تستطيع أن تضع حداً لعدوان الزعيم الثائر .

وفى سنة ٢٨٥ هـ ( ٨٩٨ م ) عقد ابن حفصون ومحمد بن لب زعيم بنى قسى حلفاً متبادلا ، وأرسل محمد ولده لباً فى بعض قواته إلى ابن حفصون ليوثق هذا التحالف ؛ ولكن لباً لم يلبث أن تلقى نبأ موت أبيه أمام أسوار طليطلة ، فغادر ابن حفصون دون أن يبرم أمراً ،وهكذا فشل هذا التحالف قبل نضجه[4]؛ وفى سنة ٢٨٦ هـ ( ٨٩٩ م ) أعلن عمر بن حفصون أعتناقه للنصرانية هو وسائر

---

( ١ ) البيان المغرب ج ٢ ص ١٤٢ . وراجع Dozy : Hist. ; V. II, p. 84

( ٢ ) المقتبس ص ١٠٨ .

( ٣ ) المقتبس ١٢٢ .

( ٤ ) المقتبس ص ١٢٧ .

أفراد أسرته ، واتخذ له إسما نصرانياً هو صموبل ، وكان أبوه قد فعل ذلك منذ أعوام ، ولم يخلص عمر بن حفصون للإسلام قط ، وكان يسرُّ النصرانية دائماً ، ولم يمنعه من إعلانها سوى خوفه من تفرق أنصاره ؛ وقد تحقق ما كان يخشاه إذ هجره كثير من أنصاره ، وتبرأوا من فعلته ، وخرج عليه بعض قواده المسلمين ، وامتنعوا بحصونهم ، وبعثوا بطاعتهم إلى الأمير ، واشتد السخط عليه فى سائر جنبات الأندلس ، ورأى المسلمون فى قتاله نوعاً من الجهاد[١] . وحاول ابن حفصون من جانبه ، أن يقوى مركزه بعقد محالفات جديدة ، ففاوض ألفونسو الثالث ملك ليون وبنى قسيّ ، كما فاوض بعض أمراء المغرب ، ولكن العون الحقيقى جاء من ناحية أخرى . ذلك أن إبراهيم بن حجاج سيد إشبيلية وقرمونة ، لما ساءت العلائق بينه وبين الأمير عبدالله بسبب رفضه إطلاق سراح ولده ، قطع الجزية ، وأعلن استقلاله ، وتحالف مع ابن حفصون (٢٨٨ هـ — ٩٠٠ م) ، وغدا الإثنان قوة يحسب حسابها[٢] .

وتوجست حكومة قرطبة شراً من هذا التحالف ، فبعث الأمير إلى ابن حفصون يعرض عليه شروطاً مغرية للصلح ، فقبل الثائر هذا العرض ، وبعث إلى قرطبة أربع رهائن من أصحابه ، منهم خازنه وحليفه سعيد بن مستنة الثائر من قبل فى باغة Priego[٣] . بيد أنه لم يمض قليل على ذلك ، حتى حدث خلاف فى تنفيذ الشروط بين الفريقين ، وعاد ابن حفصون فأعلن الخلاف وتأهب للحرب ، وعاونه حليفه ابن حجاج بقوة من الفرسان ، وسارت جند الأندلس بقيادة أحمد ابن أبى عبدة ، وخرج ابن حفصون من إستجة التى اتخذها قاعدة لملاقاته . واشتبك الفريقان فى «إستبة» الواقعة جنوبى إستجة ، على مقربة من نهر شنيل ، فهزم جند الأندلس فى البداية ، وقتل منهم بضع مئات ، ولكنهم عادوا فكروا على قوات ابن حفصون بعنف ، وأوقعوا بها هزيمة شديدة (٢٨٩ هـ — ٩٠٢ م) ، وعلى أثر ذلك أمر الأمير عبد الله بقتل رهائن ابن حفصون ، ما عدا ابن مستنة ، إذ افتدى حياته بالخضوع والطاعة . وخشى إبراهيم بن حجاج على

---

(١) راجع البيان المغرب ج ٢ ص١٤٣ ، والمقتبس ص١٢٨ . وراجع دوزى : Hist.; V. II. p. 84 & 85 . وكان ابن حفصون أيضاً يتكلم «الأعجمية» ، وهى الإسبانية القديمة أو الرومانش .

(٢) المقتبس ص ١٢٩ .

(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ١٤٤ ، ودوزى : Hist., V. II. p. 86 .

ولده ، ففاوض الأمير فى الصلح ، فأجابه إلى طلبه ، وأطلق سراح ولده عبد الرحمن وعاد إلى سابق ولائه[1] .

وتوالت حملات الأمير بعد ذلك على ابن حفصون . ففى سنة ٢٩١هـ ( ٩٠٤م ) سار أبان بن الأمير عبد الله ، ومعه القائد أحمد بن أبى عبدة إلى ريُّه ، فعاث فى تلك الناحية وهزم ابن حفصون فى عدة مواقع . وفى العام التالى (٩٠٥م ) خرجت الصائفة لقتال ابن حفصون فاستولت على بعض حصونه ، وأوقعت بقواته هزيمة شديدة فى وادى بلون على مقربة من جيان ، وقتل كثير من جنده[2] . وفى سنة ٢٩٥ هـ (٩٠٨ م) سارت جند الأندلس إلى ببشتر معقل الثائر ، وعاثت فى تلك المنطقة . وفى سنة ٢٩٧ هـ (٩١٠ م) سارت حملة قوية بقيادة أحمد بن أبى عبدة إلى كورة ريه ، واشتبكت مع قوات ابن حفصون فى عدة معارك شديدة ، ثم سارت شمالا إلى حصون إلبيرة وجيان وحاصرت منتلون حيناً ، وحاول ابن حفصون من جانبه أن يهاجم حصن جيان ، فردته جند الأندلس وطاردته . وفى العام التالى غزت جند الأندلس منطقة ببشتر مرة أخرى. وورد ابن حفصون بأن أغار وحليفه ابن مستنة ، الذى خلع الطاعة مرة أخرى ، على بسائط قبرة وبعض قرى قرطبة ، فلقيته جند الأندلس وهزمته . وسارت فى العام التالى ( سنة ٢٩٩ هـ ) حملة أخرى إلى ببشتر فعاثت فى بسائطها[3] ؛ وهكذا استمرت حملات الأندلس متوالية متلاحقة على ابن حفصون زهاء ثلاثين عاماً . وبالرغم من أن حكومة قرطبة استطاعت أن تعمل باستمرار على مناهضته وإحباط خططه وإنهاك قواه ، فإنها لم تفلح فى القضاء عليه ، وإخماد الحركة الثورية المضطرمة ، التى استطاع أن يحمل لواءها بقوة وجلد وعزم لا مثيل لها .

— ٢ —

وقد أشرنا من قبل ، إلى خروج عبدالرحمن بن مروان الجليقى بمدينة بطليوس منذ أيام الأمير محمد ، وكيف أن حكومة قرطبة فشلت فى إخضاعه ، وانتهى الأمر باستقلاله ببطليوس وما جاورها . ولما تولى الأمير عبد الله، لم ير مناصاً من

---

( ١ ) راجع دوز : Hist., V. II. p. 86-88
( ٢ ) البيان المغرب ج ٢ ص ١٥٤ .
( ٣ ) راجع البيان المغرب ج ٢ ص ١٤٨ — ١٥٣ .

إقراره على استقلاله بتلك القاعدة المنيعة ؛ وهكذا لبث ابن مروان سيد بطليوس بلا منازع . فحصنها وجملها ؛ وبسط حكمه على الأنحاء المجاورة ؛ وكان من حلفائه فى تلك المنطقة حسبما قدمنا يحيى بن يحيى بن بكر الثائر بمدينة شنتمرية الغرب[١] بولاية أكشونبة ، وعبد الملك بن أبى الجواد الثائر بمدينة باجة Beja . وكان يحيى زعيما مقداماً، فحصن شنتمرية ، وأقام بها حكومة منظمة ، وضبط الأمور وقمع أهل الشر[٢] . وفى سنة ٢٧٦ هـ ( ٨٨٩ م ) نكث ابن مروان بعهده ، وعاون كريب بن خلدون الثائر باشبيلية ، على مهاجمة المدينة ونهب أحوازها . ولم يمض قليل على ذلك حتى ثار البربر فى الثغر الأدنى[٣] بزعامة محمد بن تاكيت المصمودى وزحف على ماردة فى شرقى بطليوس ، واستولى عليها ، فسارت إليه الجند من قرطبة ، فتقدم لإنجاده ابن مروان ، ولبث الحصار مدة ارتحلت بعدها جند الأمير خائبة . وكان بماردة جموع من العرب والبربر من قبائل كتامة ومصمودة ، فسعى ابن تاكيت فى إخراج العرب وكتامة منها ، واستقل بها مع شيعته . ولم يلبث أن ثار الخلاف بينه وبين جاره ابن مروان ، ونشبت بينهما الحرب ، فهزمه ابن مروان وظهر عليه . ثم توفى عبد الرحمن بن مروان بعد قليل ، فخلفه فى حكم بطليوس ابنه مروان ، واشتد فى مطاردة البربر ، ولكن ولايته لم تدم سوى شهرين ، فخلفه على بطليوس حفيد لابن مروان يدعى عبد الله ، واستمر بنو مروان سادة بطليوس حتى انتزعها منهم عبد الرحمن الناصر سنة ٣١٧ هـ (٩٢٩ م) ، وقضى على دولتهم[٤] .

وكانت طليطلة قاعدة الثغر الأوسط ، قد سقطت فى يد بنى ذى النون أيام المنذر . وكان بنو ذى النون من أكابر زعماء البربر فى تلك المنطقة ، وينتمون إلى قبيلة هوارة ، وكان زعيمهم موسى بن ذى النون قد ظهر فى عهد الأمير محمد ،

---

( ١ ) Santa Maria de Algarve ، وهذا بخلاف شنتمرية الشرق أو شنتمرية ابن رزين التى اشتهرت أيام الطوائف وتعرف فى الإسبانية باسم Albarracin .

( ٢ ) البيان المغرب ج ٢ ص ١٤١ .

( ٣ ) هو فى جغرافية الأندلس عبارة عن المنطقة الغربية الواقعة بين نهر دويرة ونهر التاجه ومن مدنها قورية وقلمرية وشنترين وغيرها ، وأما الثغر الأعلى فهو عبارة عن سرقسطة وأعمالها من المدن الشمالية المتاخمة لحدود نافار وليون وقطلونية . ويشمل الثغر الأوسط طليطلة وأعمالها .

( ٤ ) البيان المغرب ج ٢ ص ١٤٠ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٣٣ و ١٣٤ .

واستقل بشنت برية حسبما ذكرنا من قبل . ثم زحف على طليطلة فى قوة كبيرة من البربر ، واستطاع بممالأة بعض زعمائها أن يستولى عليها ، وذلك فى سنة ٢٧٤هـ (٨٨٨م). وحكم بنوذى النون طليطلة بضعة أعوام ، ثم غلبهم عليها محمد بن لب بن موسى كبير بنى قسىّ وزعيم الثغر الأعلى ، وكان بنو قسىّ قد فقدوا زعامتهم يومئذ فى الثغر الأعلى بخروج سرقسطة من أيديهم ووقوعها فى يد أبى يحيى التجيبى حسبما نذكر بعد ، فتحولوا إلى الثغر الأوسط واستولوا على طليطلة سنة ٢٨٣ هـ (٨٩٧ م) . وبعث محمد بن لب ولده لبّا إلى أحواز جيان ، فهاجم حصن قسطلونة واستولى عليه . والظاهر أن كانت ثمة لتلك الحملة علاقة بمشروع التحالف بين بنى قسى وابن حفصون حسبما قدمنا ، ولكن محمداً بن لب لم يلبث أن قتل بعد ذلك بعامين تحت أسوار سرقسطة ، وهو يحاول انتزاعها من التجيبيين [1]، ولم يستطع ولده لب أن يستمر فى حكم طليطلة فأبعد عنها حيناً . ولكن أهل طليطلة عادوا فدعوه إلى حكمها ، فبعث إليهم أخاه المطرّف فتولى حكمها . ثم خرج عليه محمد بن إسماعيل بن موسى من أبناء عمومته ، فحكمها حتى مصرعه فى سنة ٢٩٣هـ (٩٠٦ ) قتيلا بيد أهلها . وعندئذ تولى حكم طليطلة زعيم من البربر المحليين هو ابن الطربيشة ، وهو حليف ابن ذى النون ، واستمر فى حكمها حتى انتزعها منه عبد الرحمن الناصر فى أوائل حكمه . واستمر بنو ذى النون أبناء موسى وهم الفتح ويحيى ومطرف بعد وفاة أبيهم ، فى حكم المناطق الواقعة فى شرقى طليطلة ، مثل إقليش ووبذة ثم قلعة رباح [2] وغيرها ، إلى نهاية عهد الأمير عبد الله وأوائل عهد الناصر . وكان مطرِّف أشهرهم وأنجبهم ، وقد استمر معتصماً بوبذة حتى استنزله الناصر منها ، ثم ولاه عليها واستقام بها شأنه ، وحضر مع الناصر واقعة الخندق [3]. وكان لبنى ذى النون هؤلاء فيما بعد شأن ، وكانت لهم أيام الطوائف فى طليطلة دولة سطعت مدى حين .

أما لُبٌّ بن محمد فاستقر فى تطيلة ، وكان النزاع يضطرم فى الثغر الأعلى منذ أعوام طويلة بين التجيبيين وبنى قسى .

---

( ١ ) البيان المغرب ج ٢ ص ١٤٣ .

( ٢ ) وهى بالإسبانية على التوالى : **Uclés, Huele, Calatrava** .

( ٣ ) ابن حيان فى المقتبس ص ١٩ .

وتذكر لنا الرواية فى أصل نباهة بنى تجيب ، أنه لما ثار بنوقسى فى الثغر الأعلى ، واحتلوا قواعده ، نَوه للأمير محمد بن عبد الرحمن ، بأولاد عبد العزيز ابن عبد الرحمن بن عبد الله بن المهاجر التجيبى ، فاستدعاهم ، وبنى لهم قلعة أيوب على مقربة من سرقسطة ، وعين لضبطها عبد الرحمن بن عبد العزيز التجيبى ، وبنى لهم قلاعاً حصينة فى شميط ودَرَوْقه ، وفُرتش ، ونصبهم لمحاربة بنى قسى ، وعقد لهم على قومهم ، وأجرى عليهم أرزاق الغزو .

ولما انتزع الأمير المنذر سرقسطة من محمد بن لب بن موسى فى سنة ٢٧٠ هـ ، توالى عليها عمال الأمير ؛ وكان عليها فى بداية عهد الأمير عبد الله واليها أحمد ابن البرّاء ، فتظاهر محمد بن عبد الرحمن بن عبد العزيز (وهو المعروف بأبى يحيى وبالأنقر) بمهاجمة والده عبد الرحمن والخروج عليه ، والتجأ إلى سرقسطة تحت كنف ابن البراء وحمايته ، وفى ذات يوم وثب بحاميه ابن البراء وقتله غيلة ، واستولى على سرقسطة ، وكان ذلك فى رمضان سنة ٢٧٦ هـ ( ٨٨٩ م ) وفقاً لرواية العذرى ، أو فى سنة ٢٨٢ هـ ( ٨٩٥ م ) وفقاً لرواية ابن حيان . وكان وثوب أبى يحيى الأنقر بابن البرّاء على هذا النحو ، فيما يبدو بتفاهم مع الأمير عبد الله ، إذ كان يشك فى ولاء حاكمه . ومن ثم فقد أقره الأمير عبد الله على حكم سرقسطة وأعمالها(١) .

وحاول محمد بن لُبّ أن ينتزع سرقسطة من أبى يحيى ، فهاجمها وحاصرها غير مرة ، حتى قتل تحت أسوارها سنة ٢٨٥ هـ ( ٨٩٨ م ) حسبما أسلفنا . قال ابن حيان : «وهوى نجم القسويين ( بنى قسى ) بعد مهلك محمد واعتورهم الإدبار ، وغشيتهم دولة الجماعة ، وجمع الثغر كله لأبى يحيى »(٢) . ولبث أبو يحيى على استقلاله بسرقسطة ، حتى وفاته فى عهد الناصر سنة ٣١٢ هـ ( ٩٢٤ م ) .

ولما توفى محمد بن لُبّ ، خلفه ولده لب فى تطيلة وما جاورها . والظاهر أنه آثر يومئذ مهادنة الأمير والانضواء تحت لوائه ، وأقره عبد الله على حكم تطيلة وطرسونة وما جاورها . وشغل لُب فى الأعوام التالية بغزو أراضى النصارى

---

(١) « نصوص عن الأندلس » . من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار للعذرى ص ٤١ . وابن حيان فى المقتبس ص ٨٥ و ٨٦ .

(٢) المقتبس ص ٨٧ .

المجاورة ، فغزا فى سنة ٢٩٠ هـ (٩٠٣ م) أرض ليون واستولى على بعض حصونها ، وهزم ألفونسو الثالث فى معركة نشبت بينهما ، ثم غزا ناحية بليارش Pallars ، واستولى على حصون إيلاس ومولە وقشتيل ، وقتل بها كثيراً من النصارى . وفى العام التالى خرج لب لمحاصرة سرقسطة ، وخرب ما حولها من القرى ولكنه لم ينل منها مأرباً . وفى سنة ٢٩٤ هـ (٩٠٦ م) ، غزا لب نافار وزحف على طريق بنبلونة ، فحشد سانشو (شانجه) ملك نافار كل قواته ، ونشبت بين الفريقين معركة شديدة ، هزم فيها لب وقتل كثير من جنده . وكان لب زعيماً مقداماً وافر الجرأة والشجاعة ، وتوفى شاباً فى الثانية والثلاثين من عمره ، فكانت وفاته ضربة شديدة لسلطان بنى قسى . وخلفه فى تُطيلة أخوه عبد الله بن محمد بن لب[1] ، وسار على أثره من الانضواء تحت لواء الأمير ، ومتابعة الإغارة على أرض النصارى . وهنا ظهر على مسرح الحوادث فى الثغر الأعلى زعيم جديد هو محمد بن عبد الملك بن شبريط المعروف بالطويل ، وسمى بذلك لطوله الفائق . وكان بنو شبريط أو بنو شبراط من أكبر أسر المولدين بالثغر : وكان منزلهم بوشقة وبربشتر[2] وكان عميدهم شبريط قد ظهر فى أواخر المائة الثانية فى عصر الحكم بن هشام ، وتغلب حيناً على وشقة . ولكن بنى قسى غلبوا على تلك الأنحاء دهراً ، وحجبوا بنى شبريط وغيرهم من أعيان المولدين عن الظهور . فلما اضمحل شأن بنى قسى ، عاد بنو شبريط إلى الظهور ، واستطاع الطويل أن يستقر فى وشقة تراث أسرته ، وذلك منذ بداية عهد الأمير عبد الله ، ثم حاول أن يتوسع بالإغارة على بعض أملاك جيرانه بنى قسى ، فاستولى على لاردة ، ولكنه اضطر إلى إعادتها إلى محمد بن لب باشارة الأمير عبد الله ، ثم وقع الخلاف بينه وبين لب بن محمد على بعض الحصون المجاورة ، ونشب بينهما قتال هزم فيه الطويل . ومضت بعد ذلك عدة أعوام ، شغل فيها الطويل على ما يظهر بمحاربة جيرانه النصارى فى منطقة البرنيه ، فى أحواز نافار وجاقة ، وسوبرانى وبليارش وغيرها . ولما توفى لب بن محمد ، رأى الطويل الفرصة سانحة لتنفيذ خطته ومشاريعه ، فزحف على أراضى بنى قسى مرة أخرى ، واستولى على لاردة وبربشتر وحصن منتشون[3]

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ١٤٣ و ١٤٥ ؛ وراجع دوزى **Hist.; V. II., p. 93**

(٢) ابن حزم فى جمهرة أنساب العرب ص ٤٦٤ .

(٣) راجع ابن حيان فى المقتبس ص ٨٧ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ١٤٨ و ١٤٩ .

( ٢٩٥ هـ — ٩٠٧ م ) وركد أمر بنى قسى فى الثغر من ذلك الحين . بيد أنهم استمروا فى بعض القواعد والحصون حتى قضى الناصر على دولتهم فى سنة ٣١٢ هـ (٩٢٤م) . أما الطويل فقد قوى أمره واشتد بأسه ، وكان قد تزوج من دونيا سانشا الحسناء ابنة الكونت أسنار أحد سادة أراجون ، وحفيدة غرسية إنيجيز ملك نافار . وتعرف الروايات النصرانية ، من جراء هذه المصاهرة ، محمداً الطويل معرفة حسنة ، وتذكره بإفاضة وتسميه « الملك الطويل »[١] . وعكف الطويل بعد ذلك على الإغارة على الأراضى النصرانية المجاورة ، فخرج فى سنة ٢٩٦ هـ (٩٠٨ م) إلى منطقة بليارش ، وعاث فيها وقتل كثيراً من النصارى ، واستولى على حصن روطة وهدمه ، ثم استولى على حصن منت بطروش . وفى العام التالى خرج الطويل إلى منطقة بليارش مرة أخرى ، وعاد مثقلا بالغنائم والسبى[٢] . ولما رأى عبد الله بن لب قوة الطويل واشتداد بأسه ، آثر مهادنته ، وفى أواخر سنة ٢٩٨هـ (٩١١م) تحالف الإثنان على غزو نافار والزحف إلى عاصمتها بنبلونة ، وسار كل منهما فى طريق مستقل ، وأغار الطويل على بعض الحصون ، وهدم الكنائس ، ولكنه ارتد حينما علم بأن سانشو ملك نافار يسير لقتاله . وغزا عبد الله فى طريقه حصوناً أخرى ، وقتل وسبى كثيراً من النصارى . وفى العام التالى (٩١٢ م) غزا الطويل أراضى برشلونة ونشبت بينه وبين صاحبها الكونت سنير Sunier معركة هزم فيها الكونت وقتل كثير من أصحابه[٣] ، ولكن الطويل لم يلبث أن قتل فى العام التالى (٣٠١ هـ — ٩١٣ م) . والظاهر أنه قتل خلال غزوة أخرى قام بها فى قطلونية[٤] ، فخلفه أولاده فى حكم أراضيه[٥] .

---

( ١ ) نشر العلامة المستشرق ف . كوديرا بحثاً ضمنه سيرة الطويل حسبما تعرضها المصادر اللاتينية والعربية ، وذكر فيه تفاصيل كثيرة شائقة . راجع البحث المذكور فى مجلة أكاديمية التاريخ بمدريد : **Mohamed Atauil, rey moro de Huesca (B.R.A.H.) T. XXXVI (1900) p.316—24.**

( ٢ ) البيان المغرب ج ٢ ص ١٤٩ و ١٥٠ .

( ٣ ) البيان المغرب ج ٢ ص ١٥٢ و ١٥٣ و ١٥٤ .

( ٤ ) يذكر لنا ابن عذارى تاريخ وفاة الطويل فى حوادث سنة ٣٠١ هـ . ولكنه لا يقول لنا أين قتل ومن الذى قتله ( ج ٢ ص ١٧٠ ) .

( ٥ ) يذكر لنا الأستاذ كوديرا فى بحثه السالف الذكر أسماء أبناء الطويل وهم أربعة من الذكور هم عبد الملك ، وعمروس ، وفورتونيو ، وموسى ، وابنة تسمى دونيا بلاسكيتا .

— ٣ —

وكان عهد الأمير عبد الله يدنو عندئذ من نهايته ، ولم تشهد الأندلس منذ عهد عبد الرحمن الداخل فترة كهذه ، عمت فيها الفتنة وسرى ضرامها إلى كل ولاية وقاعدة ، ولم ينكمش سلطان الدولة الأموية بالأندلس قدر انكماشه فى تلك الفترة . وكان على الأمير عبد الله أن يكافح دون هوادة لإنقاذ الدولة والعرش من خطر الانهيار ، فقضى حكمه الذى استطال خمسة وعشرين عاماً فى سلسلة لا نهاية لها من الفتن والغزوات والمعارك المستمرة ، مزقت خلالها أوصال المملكة ، واهتزت أسس الدولة إلى الأعماق ، ونضبت قواها ومواردها . وبالرغم من أن الأمير عبد الله لم يوفق إلى القضاء على الثورة فى سائر النواحى ، فإنه استطاع أن يقضى على الخطر الداهم ، وأن يمزق شمل الثوار ، وأن يستميل نفراً من أخطر زعمائهم ، وأن يبسط سلطان العرش من الناحية الإسمية على الأقل ، على بعض القواعد الهامة مثل إشبيلية وسرقسطة . وكان لهذه النتائج الأولى أثرها فيما بعد فى عهد خلفه عبد الرحمن الناصر ، فى التمهيد للقضاء على عناصر الثورة ، وتوطيد سلطان الدولة والعرش .

ويحاول الوزير المؤرخ ابن الخطيب أن يلقى ضوءاً على أسباب ذيوع الثورة فى الأندلس فى هذا العصر فى قوله : « والسبب فى كثرة الثوار بالأندلس يومئذ ثلاثة وجوه : الأول ، منعة البلاد وحصانة المعاقل ، وبأس أهلها بمقاربتهم عدو الدين ، فهم شوكة وحدٌ بخلاف سواهم . والثانى ، علو الهمم ، وشموخ الأنوف ، وقلة الاحتمال لثقل الطاعة ، إذ كان من يحصل بالأندلس من العرب والبرابرة ، أشرافاً يأنف بعضهم من الإذعان لبعض . والثالث ، الاستناد عند الضيقة والاضطرار إلى الجبل الأشم ، والمعقل الأعظم من مَلِك النصارى ، الحريص على ضرب المسلمين بعضهم ببعض . فكان الأمراء من بنى أمية يرون أن اللجاج فى أمورهم ، يؤدى إلى الأضلولة ، وفيها فساد الأموال ، وتعذر الجباية ، وتعريض الجيوش إلى الانتكاب ، وأولياء الدولة إلى القتل . ولا يقوم السرور بغلبة الثائر ، بما يوازنه من ترحة هذه الأمور »[1] .

ولم تترك مقارعة الثورة لعبدالله فرصة للقيام بغزوات فى أراضى النصارى .

---

(١) أعمال الأعلام (طبع بيروت) ص ٣٦ .

وشغلت البعوث والصوائف كلها أعواماً متوالية ، بمحاربة الخوارج والثوار فى مختلف الأنحاء . ولم يقم النصارى من جانبهم بغزوات ذات شأن فى الأراضى الإسلامية : وشغل ألفونسو الثالث ملك ليون (جلِّيقية) الذى خلف أباه أردونيو على العرش فى سنة ٨٦٦م بتنظيم مملكته وتوطيد حدودها ، منتهزاً فرصة الاضطراب الذى ساد المملكة الإسلامية . وكان من أعظم أعماله استيلاؤه على مدينة سمُّورة وهى من أمنع مدن الحدود الشمالية الغربية ، وذلك فى سنة ٢٨٠ هـ (٨٩٣م)[١]. وحصن ألفونسو سمورة وأسكنها النصارى ، واتخذها قاعدة للإغارة على الأراضى الإسلامية المجاورة ومعظم سكانها من البربر[٢]. ولما اشتدت الفتنة وعمت سائر النواحى ، ظهر فى أحواز طليطلة وطلبيرة ، أحمد بن معاوية المعروف بابن القط ، وهو من ولد هشام بن عبد الرحمن ، ودعا لنفسه بين البربر فى تلك الأنحاء ، وزعم أنه المهدى ، وكان عالماً ومشعوذاً وافر الذكاء والعزم ، فالتفت حوله جموع غفيرة من البربر ، وأعلن الجهاد وقصد إلى سمورة لافتتاحها ، وكتب إلى ألفونسو رسالة عنيفة يدعوه فيها إلى الإسلام وينذره بالويل إذا أبى . وكان ألفونسو يومئذ فى قواته على مقربة من سمورة ، فسار إلى لقاء المهدى وقواته ، ودارت الموقعة فى مخائض نهر دويرة أمام سمورة ، فهزم النصارى أولا وارتدوا ، وحاصر المهدى سمورة . ولكن حدث عندئذ أن انسحب زعماء البربر فى قواتهم خشـــية من تفوقه عليهم وغدره بهم . وصمد ابن القط فيمن بقى معه ، ثم نشبت بينه وبين النصارى موقعة ثانية قاتل فيها ببسالة حتى قتل ومزقت قواته ، واحتز رأسه وسمر فوق أحد أبواب سمورة . وكان ذلك فى شهر رجب سنة ٢٨٨ هـ (يوليه سنة ٩٠١ م) وبذا انهارت حركته ووطد ألفونسو سيادته فى تلك الأنحاء[٣] .

وكان ألفونسو الثالث يعمل على انتهاز كل فرصة لإذكاء الفتنة والاضطراب فى المملكة الإسلامية ، وكان يقصده الثوار وفى مقدمتهم عميدهم ابن حفصون ، للتحالف معه ضد حكومة قرطبة ؛ واستدعاه أهل طليطلة فى أواخر عهد الأمير

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ١٢٧ .

(٢) المقتبس ص ١٠٩ .

(٣) راجع تفاصيل حركة ابن القط وموقعة سمورة ، فى المقتبس ص ١٣٣ — ١٣٩ ، وكذلك فى ابن الأبار ، الحلة السيراء ص ٩١ — ٩٢ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ١٤٤ ، ودوزى : **Hist.; V. II. p. 132—134.**

عبد الله ودفعوا إليه الجزية ،واستولى فى عودته على بعض الحصون . وكانت هذه أول غزوة للنصارى على ضفاف نهر التاجُه ، بيد أنها كانت غزوة عابرة ولم تخلف أثراً ثابتاً. وأما الثغر الأعلى فقد كان بنوقسيّ ، وفى مقدمتهم لب بن محمد بن لب ، يحاربون ألفونسو ويحاربهم من وقت إلى آخر .

وكان من الحوادث البارزة فى عهد الأمير عبد الله افتتاح الجزائر الشرقية ( جزائر البليار ) . وقد رأينا فيما تقدم كيف أرسل عبد الرحمن بن الحكم فى سنة ٢٣٤ هـ (٨٤٨ م) حملة بحرية إلى ميورقة لغزوها ، ومعاقبة أهلها على تعرضهم لسفن المسلمين وكيف تعهد أهلها بالجزية والولاء . وفى أواخر عهد الأمير عبد الله فى سنة ١٩٠ هـ (٩٠٣م) سار عصام الخولانى إلى ميورقة فى قوة بحرية من المجاهدين ، فحاصرها تباعاً ، وكان عصام قد حملته الرياح قبل ذلك وهو فى طريقه إلى الحج إلى ميورقة فعرفها ، واختبر أحوال هذه الجزائر الغنية ، وأدرك سهولة فتحها وعرض مشروعه على الأمير عبد الله ، فأقره وأمده بالسفن والقطائع . ولما وفق إلى فتحها أقره الأمير على ولايتها . ومن ذلك الحين تدخل الجزائر الشرقية فى حظيرة المملكة الإسلامية(١) .

وكان أيضاً من الحوادث البارزة فى هذا العهد الحافل بالخطوب والمحن ، المجاعة الشديدة التى وقعت فى سنة ٢٨٥ هـ (٨٩٨ م) والتى قاست الأندلس منها الشدائد والأهوال .

— ٤ —

وتوفى الأمير عبدالله بن محمد بن عبد الرحمن فى مستهل ربيع الأول سنة ٣٠٠ هـ ( أكتوبر سنة ٩١٢ م ) فى الثانية والسبعين من عمره ، بعد أن حكم خمسة وعشرين عاماً ملؤها الاضطراب والفتن. وكان أميراً ورعاً جم التقشف والتواضع ، جواداً محباً للخير ، كثير البر بالفقراء وذوى الحاجات ، يفرز لهم سهماً من مال الجبايات(٢)، عالماً أديباً فصيحاً رفيع البيان ، ينظم الجيد من الشعر . وكان بالرغم مما شغله طوال حكمه من الفتن والخطوب ، شديد العناية بشئون الحكم وتوطيد أركانه ، وتعرف أحوال الشعب ورغباته ، وكان من أشد الناس حرصاً على

( ١ ) ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٤ .
( ٢ ) المقتبس ص ٣٣ و ٣٤ .

إقامة العدل ، وقمع الظلم والبغى ، وسحق الظلمة . وكان يجلس للفقراء يوماً فى كل أسبوع بباب أنشأه عند ركن القصر خصيصاً لذلك وسماه باب العدل ، ليقضى فى مظالم الناس بنفسه ، وليستمع إلى كل ذى حاجة ومظلمة ، وأنشأ باباً حديدياً يتمكن الناس بواسطته من تقديم شكاويهم وظلاماتهم حتى لا يحرم بذلك ضعيف من مخاطبته(١). وكان لصرامته وشدة وطأته على الطغاة وأهل السلطان ، أثر كبير فى شيوع العدل فى عهده ، والحد من بغى ذوى الجور والظلم ، كما كان لبالغ تقواه وتواضعه ، واحتشامه وتقشفه فى حياته الخاصة ، وفى مظاهره وحياته الملوكية ، أثر كبير فى تقويم الأخلاق ودعم الفضيلة ، والاقتصاد فى اللهو والملاذ ، فى عصر كثرت فيه الخطوب والمحن .

وتولى الحجابة فى بداية عهد عبدالله ، عبد الرحمن بن أمية بن شُهيد حاجب أخيه المنذر ، ثم تولاها من بعده سعيد بن محمد بن السليم حيناً ، ثم عزله عبد الله فى أواخر عهده ، ولم يول أحداً من بعده لحجابته ، واقتصر فى تدبير شئون الدولة على الوزراء والكتاب ، وبالأخص على بدر الخصى الصقلبى وكان يؤثره ويوليه ثقته(٢).

وكان من حسن الطالع أن استطاع الأمير عبدالله ، أن يعتمد فى مواجهة الفتنة الغامرة التى أحاقت بعرشه وملك أسرته ، على عون نفر من أكابر رجال الحرب والسياسة ، الذين أبدوا فى معالجة الخطوب مقدرة فائقة . وكان فى مقدمة أولئك الرجال بنو عَبْدة وهم من صميم موالى بنى أمية . وقد تولى عدة منهم الوزارة والقيادة للأمير عبد الله ، ومنهم عبيدالله محمد بن أبى عبدة ، الظافر فى موقعة بلاى ، وأحمد بن محمد بن عيسى بن أبى عبدة ، وسلمة بن على بن أبى عبدة ، وقد اضطلع كلاهما بقيادة كثير من الصوائف . وينسب أعظم الفضل إلى هؤلاء القادة فى مقارعة الفتنة ، وإنقاذ العرش والدولة(٣). وتولى القيادة والوزارة منهم أيضاً عبد الرحمن بن حمدون بن أبى عبدة ، وعبد الله بن محمد بن أبى عبدة ولد القائد الشهير(٤). وكان من وزراء الأمير عبد الله أيضاً ، عبد الملك بن عبد الله

---

(١) راجع المقتبس ص ٣٤ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ١٥٨ . وقد استعملت هذه الوسيلة فى كثير من العصور لإيقاف الأمير على مظالم رعاياه بطريقة مباشرة .

(٢) ابن حيان فى المقتبس ص ٤ .

(٣) المقتبس ص ٢٩ .

(٤) راجع البيان المغرب ج ٢ ص ١٥٦ ، و ١٥٧ ، وأخبار مجموعة ص ١٥١ . وكذلك المقتبس ص ٦ .

ابن أمية ، وقد قتله ولده المطرف أثناء حملة إشبيلية حسبما أسلفنا . والزعيم البربرى سليمان بن وانسوس وزير أبيه من قبل ، وكان من أقدر وزرائه وأعقلهم ، عزله عن الوزارة ثم اضطر لإعادته للاستعانة بخبرته ونصحه[١] .

وكان الأمير عبد الله ، إلى جانب هؤلاء الوزراء والقادة ، الذين يمثلون العصبية العربية أو البربرية ، يعتمد على ولاء الموالى والفتيان ، ويقدم الموالى الشاميين على البلديين ، أسوة بما رتبه أبوه الأمير محمد ، وكان من زعماء الفتيان فى بلاطه ريّان صاحب الطراز ، وبدر الوصيف وزميله أفلح . وسنرى فيما بعد كيف نما نفوذ أولئك الفتيان فى بلاط قرطبة ، واستفحل فى عهد الناصر حتى غلب على كل نفوذ آخر[٢] .

ورزق الأمير عبد الله من الولد إثنا عشر إبناً وثلاثة عشر بنتاً[٣] . ووقعت داخل الأسرة الملكية فى عهده عدة حوادث محزنة أسبغت على اسمه وخلاله سحباً قاتمة . من ذلك مصرع ولديه محمد والمطرّف. وكان محمد أكبر أبنائه وولى عهده، وكان أخوه الأصغر مطرف يحقد عليه ، ويرى أنه أحق بولاية العهد لما كان والده يحبوه به من ثقته ، ويعهد إليه به من جلائل الأمور والغزوات، فما زال يدس فى حق أخيه ويغرى أباه عليه ويتهمه بممالأة الثوار ، والاتصال بابن حفصون ، حتى توجس منه أبوه الأمير شراً ، وأمر باعتقاله فى جناح من القصر. ولما تواترت الأدلة بعد ذلك على براءته ، واعتزم عبدالله إطلاق سراحه ، بادر مطرف إليه فى معتقله ، وأثخنه طعاناً حتى أجهز عليه . وهنا تختلف الرواية فيقال إن الأمير عبد الله حزن أشد الحزن لمصرع ولده الأكبر ، وهم بقتل أخيه وقاتله مطرف ، لولا أن ثناه عن ذلك رجال دولته ، ويقال من جهة أخرى إن مطرفاً لم يرتكب جريمته إلا بوحى أبيه وموافقته[٤]. وكان مصرع محمد فى شوال سنة ٢٧٧ هـ

---

(١) راجع ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٦٦ و ٦٧ .

(٢) راجع الحلة السيراء ص ٦٥ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ١٥٣ .

(٣) يذكر لنا صاحب البيان المغرب أسماء أبناء الأمير عبد الله وبناته (ج ٢ ص ١٥٦ ) .

(٤) راجع ابن خلدون ج ٤ ص ١٣٧ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ١٥٦ و ١٥٧ و ١٦٠ و ١٦١ . ويقول صاحب البيان إن محمداً خرج بالفعل على أبيه ، وفر إلى ابن حفصون ، ثم عفا عنه أبوه وعاد إليه ، حتى انتهت وشاية أخيه باعتقاله ( ص ١٥٤ و ١٥٥ ) . وذكر ابن الأثير أن الأمير عبد الله قتل ولده محمداً فى حد من الحدود (ج ٨ ص ٢٤ ) .

( ٨٩١ م ) وهو فى السابعة والعشرين من عمره ، فتولى أبوه عبد الله كفالة ولده الرضيع عبد الرحمن ، وكان قد مضى على مولده ثلاثة أسابيع فقط ، وأسكنه معه فى قصره ، ولما بلغ أشده وظهرت نجابته ، عنى بتعليمه وتربيته ، وقربه إليه وأولاه ثقته ثم جعله كاتب سره[1]. وقد شاء القدر أن يخلف الطفل اليتيم فيما بعد جده على العرش ، وأن يغدو أعظم خلفاء الأندلس .

ولم تذهب جريمة المطرف دون عقاب . ذلك أنه لم تمض بضعة أعوام حتى ساءت العلائق بين مطرف وبين أبيه ، ولما سار المطرف على رأس الصائفة إلى إشبيلية فى سنة ٢٨٢هـ (٨٩٥ م) ، ومعه الوزير عبد الملك بن أمية ، وثب المطرف بالوزير لعداوة بينهما وقتله ، وأثمر سعى خصوم المطرف هذه المرة ، وصُور لأبيه كما صور أخوه من قبل ، فى صورة الخارج عليه المتربص به ، فقضى بإعدامه ، وقطع رأسه وبذا كفر عن دم أخيه ودم الوزير[2] .

واستراب عبدالله أيضاً بإخوته ، وقد أشرنا فيما تقدم إلى ما قيل من أن أخاه المنذر توفى قتيلا ، وأنه هو الذى أوحى إلى طبيبه بتدبير قتله . وبطش عبد الله بأخوين آخرين له هما هشام والقاسم ابنا محمد بن عبد الرحمن . فأما هشام فاتهم بالتآمر على أخيه ، فقبض عليه وقضى بإعدامه (٢٨٤ هـ) . وأما القاسم فقبض عليه وزج إلى السجن ، ثم دس عليه عبد الله من قتله بالسم . واعتقل كذلك عدة من أمراء بنى أمية وأكابر رجال الدولة ، وقتل بعضهم . وقد أسبغت هذه الوقائع الدموية سحابة قاتمة على خلال الأمير عبدالله وسيرته ، ولم ينجح فى محوها ورعه وزهده وحبه للخير . وقد نعى عليه الفيلسوف ابن حزم هذا الإسراف فى البطش فى أقوال استشهد بها ابن حيان وغيره من مؤرخى الأندلس ، وجاء فيها أن الأمير عبدالله « كان قتالا تهون عليه الدماء ، مع الذى كان يظهره من عفته ، فإنه احتال على أخيه المنذر على إيثاره إياه ، وأوطأ عليه حجامه بأن سم له المبضع الذى فصده به وهو نازل بعسكره على ابن حفصون ، فكانت فيه منيته وتطوق دمه . ثم قتل ولديه معاً بالسيف واحداً بعد آخر ، محمداً والد الخليفة الناصر لدين الله ،

---

(١) المقتبس ص ٤٠ .

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٣٧ .

وأخاه عدوه المطرف ؛ ثم قتل أخوين له معاً أيضاً ، قتل هشاماً بالسيف ، والقاسم أخاه بالسم ، إلى من قتله غيرهم »[1] .

وتجمل الرواية خلال الأمير عبدالله وصفاته فى العبارات الآتية : « وكانوا يعدونه من أصلح خلفاء بنى أمية بالأندلس ، وأمثلهم طريقة ، وأتمهم معرفة ، وأمتنهم ديانة ، لكنه كان منغص الحال بدوام الفتنة ، وتضييق نطاق الخطة ، ونقصان مقدار التزكية ، حتى كان يتخلله الرياء تحت قناع تقواه ، والبخل يطوقه طبيعة ليست له تحط من قدره »[2] ويزيد ابن حيان على ذلك قوله : « وغمصوا دينه بما كان من هو ن الدماء عليه ، وإسراعه إلى سفكها ، حتى من ولديه وإخوته ومن خلفهما من صحابته ورعيته ، أخذاً لأكثرهم بالظنة ، مقوياً فى إيثامهم بالشبهة »[3] .

وكان للأمير عبدالله بالرغم من هذا الجانب المظلم ، خلال مشرقة ، منها أدبه وفصاحته وشاعريته. وتنوه الرواية بهذه الموهبة فيقول لنا صاحب أخبار مجموعة ، إن الأمير عبد الله كانت له توقيعات بليغة ، وأشعار بديعة فى الغزل والزهد ، لا يكاد أن يقع مثلها أو تنسب إلى من تقدمه نظيرها[4] . ويقول ابن حيان « كان متصرفاً فى فنون ، متحققاً منها بلسان العرب ، بصيراً بلغاتها وأيامها ، حافظاً للغريب من الأخبار ، آخذاً من الشعر بحظ وافر »[5]. ويقول صاحب البيان المغرب إنه كان شاعراً مطبوعاً له أشعار حسان[6]، ومن شعره فى الغزل قوله :

يا مهجة المشتاق ما أوجعك ويا أسير الحب ما أخشعك
ويا رسول العين من لحظها بالرد والتبليغ ما أسرعك
تذهب بالسر فتأتى به فى مجلس يخفى على من معك

---

(١) راجع نقط العروس لابن حزم ص ٨٧ و ٧٩ ، والمقتبس ص ٤١ ، وكذلك ص ١٢٢ ، وابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٦٩ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ١٦٠ و ١٦١ .

(٢) ابن حيان ، نقلا عن عيسى بن أحمد الرازى ، فى المقتبس ص ٣٣ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ١٦٠ .

(٣) المقتبس ص ٣٩ .

(٤) أخبار مجموعة ص ١٥٢ .

(٥) المقتبس ص ٣٤ .

(٦) البيان المغرب ج ٢ ص ١٥٩ .

كم حاجـــة أنجـــزت إبرازها     تبـــارك الرحمن ما أطوعـــك

وقوله :

ويحى على شـــادن كحيـــل     فى مثـــله يخـــلع العـــذار
كأنمـــــا وجنتـــــاه ورد     خالصـــــة النور والبهـــار
قضيب بان إذا تثـــنى     يـــدير طرفاً به أحوار
فصفو ودى عليـــــه وقف     ما اطّـــرد لليـــل و النهـــار

ومن قوله فى الزهد :

يا من يراوغـــه الأجـــــل     حتى م يلهيـــك الأمـــل
حتى م لا تخشى الـــردى     وكأنه بك قـــد نـــزل
أغفلت عن طلب النجـــاة     ولا نجـــــاة لمـــن غفـــل
هيهـــــات يشـغلك المـــنى     ولا يدوم لك الشـــغل
فـــكأن يومك لم يـــكن     وكأن نعيـــــك قد نزل

وكان يؤثر مجالس العلماء والشعراء ، ويعظمهم ويقربهم ويستدعيهم ، و يرتاح لمديحهم . قال ابن حيان : « وكان مجلس الأمير عبدالله قبل الخلافة وبعدها ، أعمر مجالس للفضائل ، وأنزهها من الرذائل ، وأجمعها لطبقات أهل الآداب والتعالم » . وكان فى مقدمة أصدقائه وجلاسه زعيم شعراء العصر ، أبو عمر أحمد ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد ؛ وكان شاعر الدولة الأموية ، ومادح أمرائها منذ الأمير محمد حتى الناصر ؛ وموسى بن محمد بن حُدير المعروف بالزهد ؛ وسعيد بن عمرو العكى ؛ وعبيد الله بن يحيى بن إدريس الخالدى ، وسعيد ابن عبد ربه ابن أخى صاحب العقد ؛ وكلهم من أكابر الشعراء والكتاب . وكان من أخص وزرائه فى تلك المجالس العلمية ، الوزيران العالمان الأديبان عبد الملك بن جَهور ، وعبد الملك بن شُهيد . وكان من عادته أن يلجأ إلى العلماء وأهل الرأى فى المشورة ، ويستعين بآرائهم وأحكامهم فيما يواجه من أحداث وخطوب ؛ وكان بقىّ بن مخلد فقيه العصر وأعظم علمائه أكثرهم حظوة لديه ، وكان يبجله ويزوره فى داره ، ويقتبس منه ، ويستمع لنصحه(١) .

---

(١) المقتبس ص ٣٤ و ٣٨ و ٤١ و ٤٢ .

ولم يتسع عهد الأمير عبد الله الفياض بالثورات والفتن للأعمال الإنشائية ، بيد أنه يمكن أن نذكر من منشآته القليلة «الساباط» الموصل بين القصر والمسجد الجامع ، وهو عبارة عن ممر مسقوف مبني فوق عقد كبير يفضي من القصر إلى الجامع ، ويتصل به على مقربة من المحراب .

وكان الأمير عبد الله بن محمد ، أبيض ، أصهب ، مشرباً بحمرة ، أزرق العينين ، أقنى الأنف ، يخضب بالسواد ، إلى الطول أميل[1]. ووصفه ابن حيان بقوله : « كان جميل الطلعة ، ضخماً ، مهيباً ، نبيلا »[2] .

---

(١) ابن الأثير ج ٨ ص ٣٤ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ١٥٥ .
(٢) المقتبس ص ٣٦ .

# الفصل الخامس

## المملكة الإسبانية النصرانية

### خلال القرن التاسع الميلادى

ألفونسو الثانى ملك جليقية . النضال بين الأندلس وبين المملكة النصرانية . موقعة الصخرة . غزو ألفونسو للأراضى الإسلامية . غزو الحكم لجليقية . غزو المسلمين لألبة والقلاع . رامير و الأول . الحرب الأهلية فى جليقية . غزو محمد بن عبد الرحمن لجليقية . وفاة رامير و وولاية ولده أردونيو . تحالف أردونيو مع الثوار المسلمين . غزو الأمير محمد لألبة والقلاع . التحالف بين موسى بن موسى وملك نافار . الحرب بين أردونيو وبنى قسى . هزيمة موسى ومصرعه . تحالف لب بن موسى مع أردونيو . غزو أردونيو لأراضى المسلمين . غزوة المنذر بن محمد لنافار . غزوات أخرى لألبة والقلاع . وفاة أردونيو وولاية ولده ألفونسو الثالث . الحرب الأهلية فى جليقية . اتساع المملكة النصرانية فى عهد الفونسو الثالث . توغله فى أراضى المسلمين . عقد السلم بينه وبين محمد بن عبد الرحمن . أحوال المملكة النصرانية . نفوذ الكنيسة فى توجيه العرش الإسبانى . معارك بين المسلمين والنصارى . الثورة ضد ألفونسو . نزوله عن العرش . وفاته وخلاله . مملكة نافار . أصلها ونشأتها . مدافعة البشكنس عن استقلالهم . تحالف نافار مع بنى قسى . المصاهرة بين الأسرتين . التنافر بين نافار وليون . سانشو ملك نافار . الحرب بين سانشو وبنى قسى .

— ١ —

تحدثنا فيما تقدم عن نشأة المملكة الإسبانية النصرانية عقب افتتاح المسلمين لاسبانيا ، وكيف نمت هذه المملكة الوليدة المحتجبة فيما وراء الجبال الشمالية ، بخطوات بطيئة ولكن ثابتة ، وكيف شغل عنها ولاة الأندلس فلم ينهضوا لسحقها ، انتقاصاً لشأنها وخطرها ، حتى غدت فى أواخر القرن الثامن عاملا يحسب حسابه ، وبدأت حكومة قرطبة تنظر إلى هذه القوة الجديدة التى توالت غزواتها للأراضى الإسلامية بعين الاهتمام والتوجس ، وتخصص لمقارعتها شطراً كبيراً من جهودها ومواردها .

وقد انتهينا فى أخبار هذه الحقبة من تاريخ المملكة الإسبانية النصرانية ، إلى عصر ألفونسو الثانى الملقب بالعفيف ، الذى تولى الملك سنة ٧٩١ م ( ١٧٥ هـ ) .

وكان ألفونسو الثانى ملكاً حازماً مقداماً ، فضبط المملكة ونهض بها نهضة شاملة ، وحصن ثغورها وقواعدها ، وعمل على تحسين شئونها الاجتماعية ، وجعل عاصمتها مدينة «أوبييدو» Oviedo . وكانت مملكة جلّيقية أو مملكة أشتوريش (أستورياس) كما كانت تسمى يومئذ ، تمتد من ولاية بسكونية شرقاً إلى المحيط غرباً ، ومن خليج بسكونية شمالا حتى نهر دويرة جنوباً ، ولكنها لم تكن عندئذ كما كانت أيام ألفونسو الكاثوليكى تشمل ولاية نافار أو بلاد البشكنس ، التى استطاعت أن تستقل بنفسها ، وقامت بها غير بعيد مملكة نصرانية مستقلة أخرى .

واستطال حكم ألفونسو الثانى زهاء نصف قرن . عاصر فيه ثلاثة من أمراء الأندلس ؛ هم هشام بن عبد الرحمن ، وولده الحكم ، وحفيده عبد الرحمن ، وتوالت فيه مراحل النضال بين الأندلس والمملكة النصرانية ، فنشبت الحرب بينهما مراراً عدة ، وتبادلا الغزو كلٌ لأراضى الآخر مراراً ؛ وكانت أهم الأحداث البارزة فى حلقات هذا النضال ، هزيمة الجلالقة والبشكنس بقيادة ألفونسو الثانى على يد المسلمين فى موقعة الصخرة فى قاصية جليقية فى سنة ٧٩٥ م ( ١٧٩ ﻫ ) . وفى سنة ٨١٠ م ( ١٩٣ ﻫ ) فى عهد الحكم بن هشام عبر ألفونسو الثانى بقواته نهر دويرة ، وغزا الأراضى الإسلامية ، وتوغل فى سيره حتى قُلُمرية وأشبونة ، وعاث فى تلك الأنحاء أيما عيث ، ورد الحكم على ذلك بنفسه فى صيف العام التالى غازياً إلى جليقية ، وتوغل فى منطقة وادى الحجارة ، وأثخن فى تلك الأنحاء عقاباً للنصارى وزجراً لهم على عدوانهم .

وفى عهد عبد الرحمن بن الحكم سارت الجيوش الأندلسية ، بقيادة الحاجب عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث فى سنة ٨٢٣ م ( ٢٠٨ ﻫ ) ، غازية إلى ألبة والقلاع ، على أثر غزو ألفونسو الثانى للثغر الأعلى ، وإغارته على مدينة سالم ، وهزم المسلمون النصارى فى عدة مواقع ، وعاثوا فى أراضى جلّيقية ، وخربوا مدينة ليون ، وأملوا على النصارى صلحاً شديداً قاسياً[1] .

ولما توفى ألفونسو الثانى فى سنة ٨٤٢ م ، خلفه على العرش ولده راميرو الأول أو رذمير كما تسميه الرواية الإسلامية . على أنه لم يخلفه دون نضال . ذلك أن

---

( ١ ) راجع فى تفاصيل الحروب والغزوات المتقدمة « دولة الإسلام فى الأندلس » الفصل السابع من القسم الأول من الكتاب الثانى ص ٢٠٨ وما بعدها ، وكذلك المراجع .

راميرو حينما توفى أبوه كان فى ولاية بردوليا الشرقية ، التى عرفت فيما بعد بقشتالة (كاستيليا) Castilla نظراً لكثرة قلاعها ، برقب حركات المسلمين . وكان عبد الرحمن بن الحكم يقوم عندئذ بغزوته الكبرى فى الثغر الأعلى ، ويثخن فى بلاد البشكنس ، وكان ألفونسو يخشى أن يتدفق هذا السيل المخرب إلى أحواز جليقية ، ولكن عبد الرحمن ارتد إلى قرطبة بعد أن غزا بنبلونة ، وخربها ، وسحق البشكنس وحلفاءهم ثوار الثغر الأعلى . وتوفى ألفونسو بعد ذلك بقليل ؛ فوثب فى أوبييدو زعيم من الأشراف يدعى الكونت ريوتيانوس واستولى على العرش ؛ وعلم راميرو بذلك وهو فى بردوليا فهرع إلى جليقية ، وجمع جيشاً فى مدينة « لك » وسار إلى أشتوريش ليقاتل المغتصب . ولقيه ريوتيانوس فى قواته على ضفاف نهر نارسياس ، وما كادت المعركة تضطرم بين الفريقين ، حتى هجر ريوتيانوس معظم جنده ، وهزم هزيمة شديدة ، وقبض عليه ، وسملت عيناه ، واعتقل بقية حياته فى أحد الأديار ؛ واسترد راميرو عرشه ، وأطاعته سائر جليقية وأشتوريش .

ولكن علاقة العرش بالأشراف لبثت على توترها ، ولم تمض أعوام قلائل حتى دبر الأشراف ثورة جديدة ضد راميرو (٨٤٥ م) . ثم تلتها فى سنة ٨٤٨م ثورة أخرى ، واستطاع راميرو فى كل مرة أن يخمد الثورة ، وقبض على معظم الزعماء والخوارج وأعدم الكثير منهم .

ومما تجدر ملاحظته بهذه المناسبة أن حكومة قرطبة كانت فى معاملتها للزعماء الخوارج عليها ، تبدو أكثر اعتدالا وتسامحاً . فقد كانت تعفو أحياناً عن الثوار ، وكانت تؤثر اصطناع القادرين والأكفاء منهم ، وكانت فى عقابهم أقل قسوة ونكالا . وقد يرجع ذلك إلى ظروف الأحوال فى الأندلس ، فقد كانت الثورات شعبية أو قبلية على الأغلب . أما فى جليقية فكان زعماء الثورة من الأشراف والزعماء الإقطاعيين الأقوياء ، وكان خطرهم على العرش أشد وأدعى إلى التوجس والحذر(١) .

وشغلت المملكة النصرانية فى بداية عهد راميرو ، كما شغلت المملكة الإسلامية ، برد خطر النورمانيين الذين فاجأوا الأندلس بغاراتهم المخربة فى سنة ٨٤٢ م حسبما

---

(١) Aschbach : Geschichte der Omajaden in Spanien, B. I. s. 263

أسلفنا . وشغلت حكومة قرطبة بالأخص حيناً بتحصين أطراف المملكة، وإصلاح ما تخرب من أعمالها . وما كاد أمير الأندلس عبد الرحمن بن الحكم ينتهى من ذلك ، حتى نشط إلى استئناف غزو المملكة النصرانية ورد غارات النصارى ، فسير ولده محمداً فى سنة ٨٤٧م إلى جليقية فاخترق بسائطها ، وحاصر مدينة ليون ، وعاث فى تلك المنطقة . وتقول بعض الروايات النصرانية ، إن المسلمين التقوا براميرو على مقربة من مدينة سالم ، وهزموه هزيمة شديدة ، واستولوا على عدد من الحصون ، وعلى كثير من الغنائم والأسرى . وفى رواية أخرى أن راميرو التقى بالمسلمين على مقربة من كلافينجو بجوار قلهرة ، وأنه هزمهم بالرغم من قلة جنده ، وتنسب هذا النصر إلى خرافة خلاصتها أن راميرو رأى القديس ياقب فى نومه ليلة المعركة ووعده بالنصر (١). على أن الروايات الإسلامية لا تذكر شيئاً عن هذه الموقعة وهذا النصر المزعوم .

وأنفق راميرو بقية عهده القصير فى العمل على تنظيم شئون مملكته وتوطيد الأمن فيها ، وأنشأ عدداً من الكنائس والأديار ، ثم توفى فى ديسمبر سنة ٨٥٠ م بعد حكم دام نحو ثمانية أعوام ، تاركاً عرش أشتوريش وبردوليا لولده أردونيو.

— ٢ —

وتولى أردونيو عرش المملكة النصرانية عقب وفاة أبيه بقليل، وبدأ أعماله بتحصين المدن المتاخمة لحدود المسلمين ، مثل تودة وليون وأسترقة ، وأصلح باقى القلاع والحصون تأهباً للدفاع ، وأخمد الثورة فى ولاية بسكونية ، وفرض عليها سلطانه . ولما ظهرت أعراض ثورة المولدين فى الأندلس فى بداية عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن ،وقامت طليطلة بثورتها على حكومة قرطبة ، أرسل أردونيو مدداً إلى الثوار ، ولكن جيش الأندلس هزم الثوار وحلفاءهم النصارى فى موقعة وادى سليط شر هزيمة ( ٨٥٤ م ) . وفى العام التالى غزا الأمير محمد ألبة والقلاع وعاث فيها ، ولكن الأندلس شغلت بعد ذلك بظهور النورمانيين وغزوهم لثغور الأندلس وبسائطها القريبة ، فوقف سير الصوائف إلى الشمال بضعة أعوام .

ولكن أردونيو كان يواجه عندئذ خطر قوة جديدة ، أخذت تنمو وتشتد فى الولايات الشمالية . ذلك أن موسى بن موسى بن قسى ، استطاع أن يبسط سلطانه

---

(١) Aschbach : ibid , B. I. s. 259.

على الثغر الأعلى ؛ وأن ينشئ فيه إمارة مستقلة قوية ، واقترن غرسية أمير نافار بابنة موسى وتحالف معه ، ليستعين به على مقاومة المسلمين ، ومقاومة جيرانه النصارى من الغرب . وفى أوائل عهد الأمير محمد ، عبر موسى جبال البرنيه بقواته ، وغزا جنوبى فرنسا ، واضطر ملكها شارل الأصلع إلى مهادنته ومسالمته ، وأغدق عليه الهدايا والتحف. ولما رأى أردونيو نهوض قوة موسى وخطرها عليه ، اضطر أن يسعى إلى محالفته ، ولكنه ما لبث أن تركه مغضباً إذ كان موسى يؤازر البشكنس الثائرين عليه بتحريض صهره أمير نافار ، ولم ير أردونيو فى النهاية بداً من مخاصمة موسى ومحاربته ، وهاجم أردونيو بعض الحصون الغربية التابعة لموسى ، فسار موسى لقتاله ومعه صهره غرسية ملك نافار فى قواته ، ونشبت بين الفريقين معركة شديدة هزم فيها موسى وجرح وقتل صهره غرسية . ثم توفى موسى متأثراً بجراحه ( ٨٦٢ م ) . وكانت ضربة شديدة أصابت سلطان بنى قسىّ فى الشمال . ولما شعر لب بن موسى عقب وفاة أبيه بقوة المملكة النصرانية ، وخطرها ، على سلطان أسرته ، سعى إلى مهادنة أردونيو ومحالفته على قتال المسلمين ، وردهم عن الولايات الشمالية .

وانتهز أردونيو فرصة اشتغال حكومة قرطبة بأمر النواحى الثائرة ، فعبر نهر دويرة بقواته ،وغزا مدينة قورية وأسر واليها ،ثم غزا شلمنقة ، وهزم المسلمين ، وعاث فى تلك الأنحاء(١). فسير محمد جيشاً إلى الشمال بقيادة ولده المنذر ، فاخترق ألبة والقلاع ، وهزم النصارى فى كل موطن ، ووصل إلى بنبلونة ، وعاث فى نواحيها . وتوالت حملات الأندلس بعد ذلك على ألبة والقلاع ، ونشبت بين المسلمين وأردونيو معارك متعاقبة ، هزم فيها النصارى جميعاً حسبما فصلنا ذلك فى موضعه(٢) . وأراد محمد أن يقضى نهائياً على مملكة جليقية فسير السفن إلى المياه الغربية لتغزوها من البحر ، ووصل الأسطول الأندلسى بالفعل إلى مصب نهر منهو ، ولكن العواصف ثارت وحطمت السفن ، وفشل المشروع فى المهد ( ٨٦٦ م ) .

ولزم أردونيو عقب هزائمه المتوالية السكينة بقية عهده ، ثم توفى فى شهر مايو

---

(١) Crónica General (Ed. Pidal) Vol. II. p. 366.

(٢) راجع تفاصيل هذه المعارك فى أخبار أمير الأندلس محمد بن عبد الرحمن ( ص ٢٩٤ — ٢٩٩ و ص ٣١١ ) .

سنة ٨٦٦م ، واختار قبيل وفاته ولده البكر ألفونسو لولاية عهده ، فخلفه على العرش باسم ألفونسو الثالث ولما يبلغ الرابعة عشر من عمره .

— ٣ —

وما كاد الملك الفتى يجلس على العرش ، حتى ثار عليه الكونت فرويلا حاكم ولاية جليقية وولد الملك برمند ، مطالباً بالعرش ، وسار فى قواته إلى أوبييدو ، ففر ألفونسو إلى ولاية ألبة ، واستولى فرويلا على القصر ، وأعلن نفسه ملكاً . ولكن الأشراف القوط الذين يرون فى العرش رمزهم وملاذهم ، لم يرقهم هذا الاغتصاب ، فثاروا على فرويلا وقاتلوه حتى قتل ، وعاد ألفونسو إلى أوبييدو ظافراً واسترد عرشه .

ولم يمض قليل على ذلك حتى دبر أخوة ألفونسو ، وهم فرويلا ونونيو وبرمند وأدڤاريوس مؤامرة لعزله وانتزاع العرش منه ، ولكن المؤامرة افتضحت قبل نضجها ، وقبض ألفونسو على أخوته وعاقبهم بسمل أعينهم واعتقالهم ، ولم ينج من بطشه سوى برمند إذ فر إلى أسترقة واستولى عليها ، واستطاع بمؤازرة المسلمين أن يستقل بحكمها بضعة أعوام(١) .

وكان حكم ألفونسو الثالث الذى استطال أربعة وأربعين عاماً ، فاتحة عهد جديد من القوة والنهوض بالنسبة للمملكة النصرانية ، وكان ألفونسو أميراً وافر العزم والكفاية ، فاستطاع خلال حكمه الطويل بالحروب والزواج أن يدفع حدود مملكته حتى جبال البرنيه شرقاً ؛ وعبر نهر دويرة إلى أراضى المسلمين مراراً ، ووصل فى غزواته إلى ضفاف التاجُه ، وغزا عدة من المدن الإسلامية المتاخمة مثل ماردة وقلمرية وبازو وقورية وشلمنقة ؛ ومع أنه لم يستطع أن يضم هذا البسيط إلى مملكته ، فانه استطاع أن يشدد الضغط على الأندلس من هذه الناحية ، وأن يرد تيار الغزوات الإسلامية . وفى سنة ٨٧٨ م حاول المسلمين غزو ليون وأسترقة ، فبادر ألفونسو إلى لقائهم ، وهزمهم فى موقعتين على مقربة من سمورة ، وأرغم أخاه برمند على الفرار من أسترقه ، والالتجاء إلى المسلمين . وفى سنة ٨٨١م غزا ألفونسو أراضى المسلمين وعبر دويرة والتاجه ، ووصل فى زحفه حتى أحواز ماردة ووادى أنة ، وهو مدى لم يبلغه أحد من أسلافه . وتقول الرواية النصرانية

(١) Crónica General : ibid. Vol. II. p. 376 — Aschach : ibid. B. I. s. 301

أنه التقى بالمسلمين عند سفح جبل أريفر من جبال سيرّا مورينا ( جبل الشارّات ) وهزمهم وقتل منهم عدة آلاف وهى موقعة لم تشر إليها الروايات الإسلامية(١) .

وكانت ريح الثورة تهب يومئذ على معظم جنبات الأندلس ، وتشغل حكومة قرطبة بمقارعة بنى قسى فى الثغر الأعلى . وتحالف محمد بن لب زعيم الأسرة الثائرة مع ألفونسو الثالث ، ليستعين به على قتال المسلمين ، ولكن المسلمين نجحوا فى انتزاع سرقسطة معقل ابن لب ، وزحفوا على ألبة لمقاتلة النصارى ، وعندئذ آثر ألفونسو أن يعقد السلم مع المسلمين ، وعقدت بالفعل بينه وبين الأمير محمد بن عبد الرحمن حسبما فصلنا من قبل ، معاهدة صلح استمرت ردحاً طويلا .

ذلك أن ملك النصارى رأى بالرغم مما كان يشغل حكومة قرطبة من ثورات متعاقبة ، أن يقنع بتأمين حدوده وأراضيه من خطر الغزو الإسلامى ، وأن يتفرغ لشئون مملكته الداخلية ، وكانت هذه الشئون تستغرق جل اهتمامه ، وكانت الأزمات والقلاقل السياسية والاجتماعية تتعاقب ، لأسباب وبواعث تتعلق بنظم المجتمع النصرانى وظروفه . وقد وقعت فى عهد ألفونسو عدة ثورات محلية ترجع بالأخص إلى المبالغة فى فرض الضرائب على الضياع ، وثار أصحاب الضياع لهذا الجور غير مرة فى أنحاء مختلفة ، وطالبوا بالحد من تغريمهم على هذا النحو لصالح الكنيسة ورجال الدين ، ولكن هذه الثورات الإقطاعية أخمدت تباعاً ، وصودرت معظم الضياع لصالح الكنيسة ، واستمر العرش فى الإغداق على الأديار ورجال الدين .

ومما تجدر ملاحظته أن الملوكية الإسبانية ، كانت تدين منذ نشأتها بمنتهى الولاء والطاعة للكنيسة وللكرسى الرسولى . وكانت البابوية تتمتع فى توجيهها بأعظم نفوذ . وكان العرش الإسبانى يشعر دائماً بأنه يستمد سلطانه من الكنيسة ، ويرجع إلى البابوية فى كل أمر يمس شئون السلطة الروحية . ومن ذلك أن ألفونسو الثالث كتب إلى البابا يوحنا الثامن يستأذنه فى عقد المؤتمر الكهنوتى وتعيين الأساقفة ، فأذن له ، وطلب إليه أن يبعث بفرقة من الفرسان للمعاونة فى محاربة المسلمين فى صقلية وجنوبى إيطاليا . وعقد المؤتمر الكهنوتى بالفعل فى أوبييدو سنة ٨٧١ م ونظمت فيه شئون الكنيسة الإسبانية . وكان ألفونسو الثالث ملكاً تقياً ورعاً ، وكانت

(١) Aschbach : ibid , B. I, s. 303

الكنيسة ورجال الدين يحظون منه بأوفر قسط من الرعاية والإغداق ، وكان هذا الجود المغرق يحمله على الإسراف فى فرض الضرائب على الطوائف المدنية ، وبذا يبث إليها بذور السخط والانتقاض[1] .

وفى أواخر عهد ألفونسو نشبت الحرب بينه وبين بنى قسىّ سادة الثغر الأعلى ، وأغار زعيمهم محمد بن لب غير مرة على أراضى المملكة النصرانية ونافار . وكذلك نشبت الحرب بين ألفونسو وبين ابن القط المعروف بالمهدى الذى تزعم البربر فى منطقة سمورة حسبما فصلنا ذلك فى موضعه . ولكن هذه المعارك التى وقعت يومئذ بين المسلمين والنصارى لم تتسم بالطابع الرسمى ، وكان يضطلع بها الزعماء الخوارج على حكومة قرطبة ، ومن ثم فقد استمر التهادن بين حكومة قرطبة وبين المملكة النصرانية طوال عهد الأمير محمد ، فإبنه الأمير المنذر ، ثم أخيه الأمير عبد الله . وبالرغم من أن ألفونسو لم يكن يترك فرصة لإذكاء الفتنة فى المملكة الإسلامية وتعضيد الخوارج عليها ، فإنه التزم عهده المعقود معها ، ولم يقم بغزوات ذات شأن فى الأراضى الخاضعة لها .

ودبرت عدة مؤامرات لخلع ألفونسو وانتزاع العرش منه . وكان المتآمرون من خاصة أسرته . وحاول المتآمرون لأول مرة تمكين أولاده وزوجه خمينا من الحكم ، ولكن ألفونسو استطاع أن يقف على المؤامرة وأن يقضى عليها . وقبض على ولده غرسية واعتقله فى قلعة أوبييدو . ولكن هذا الفشل لم يفت فى عضد المتآمرين ، فدبروا مؤامرة جديدة برياسة الملكة خمينا ، وهى امرأة ذات أطماع تهيم بالسلطان ، واشترك فى تدبيرها الكونت نونيو صاحب برغش وأولاد الملك الثلاثة وهم : أردونيو وفرويلا وجند سالقوس ،وانضم إليهم قسم من الجيش وفريق كبير من الشعب ، وسيطروا على كثير من المعاقل . وخشى ألفونسو عاقبة الحرب الأهلية فقبل شروط الثوار ، ونزل عن العرش لولده الأكبر غرسية ، وعين أردونيو حاكماً لحليقية ، وفرويلا حاكماً لأشتوريش ،ووقع ذلك فى سنة ٩١٠م ، وبذا اختتم ألفونسو عهده الذى استطال أربعة وأربعين عاماً . ولم يمض قليل على ذلك حتى توفى فى شهر اكتوبر من نفس العام وقد جاوز الثامنة والخمسين من عمره[2] .

(١) Aschbach : ibid, B. I. s. 346 & 352

(٢) Crónica General: ibid, Vol. II. p. 382

وتشيد الرواية بخلال ألفونسو الثالث ، وتصفه بالحزم والشجاعة ، وتقول لنا إنه كان خصماً عنيداً للمسلمين شديد الوطأة فى محاربتهم ، ولكنه حينما عقد السلم مع حكومة قرطبة احترم عهده والتزم الوفاء به . وكان ألفونسو فى الوقت نفسه نصيراً للآداب والعلوم يجزل صلاته لأهل العلم ، وكان من سعة أفقه أن عهد بتربية ولده أردونيو إلى بعض العلماء المسلمين (١)، وكان حسبما أسلفنا تقياً ورعاً يخص الكنيسة بأوفر رعايته وعطائه ، وقد أنشأ كثيراً من الكنائس والأديار ، وابتنى كنيسة شنت ياقب الشهيرة . وقد رأينا كيف حمله إسرافه فى الإغداق على الكنيسة ورجال الدين ، على المبالغة فى فرض الضرائب على الضياع ، فكان ذلك من عوامل الإنتقاض والثورة على سياسته ؛ وبذل ألفونسو جهوداً كبيرة فى تحصين مدن الحدود ، وفى مقدمتها برغش وسمورة وسيمانقة ( شنت منكش ) ، وزودها بالسكان والجند ، لكى تغدو سداً منيعاً ضد غزوات المسلمين .

ومنذ وفاة ألفونسو تسمى المملكة الإسبانية النصرانية مملكة ليون ، بعد أن كانت تسمى مملكة أشتوريش وجلِّيقية ؛ وقد نقل ابنه وخلفه غرسية قاعدة المملكة من أوبييدو إلى مدينة ليون لتوسط موقعها بين جلِّيقية وأشتوريش ؛ وتسبغ الرواية النصرانية على ألفونسو الثالث لقب ( ألفونسو الكبير ) El magno ، لما امتازت به المملكة النصرانية فى عهده من القوة والنهوض والاتساع ، وماتمتعت به خلال عهده الطويل من السلم والرخاء .

— ٤ —

إلى جانب مملكة أشتوريش أو مملكة ليون الإسبانية الشمالية ، كانت تقوم فى غربى البرنيه فى بلاد البشكنس الجبلية ، إمارة أو مملكة نصرانية أخرى هى مملكة ناڤار ( نبرّة ) . ويحيط الغموض بأصل هذه المملكة الصغيرة ونشأتها . وكل ما نعرفه من ذلك هو أن قبائل البشكنس ، كانت حتى أواخر القرن الثامن الميلادى تخضع لبعض السادة الإقطاعيين التابعين لمملكة الفرنج ، وربما حكمها دوقات كانتابريا أو أمراء أشتوريش . وكانت قاعدتهم مدينة بنبلونة الحصينة ، التى حكمها المسلمون ردحاً من الزمن ، ثم فقدوها فى أواخر القرن الثامن أيام غزوات الفرنج لاسبانيا الشمالية . وكانت بلاد البشكنس أو ناڤار منذ الفتح ميداناً للغزوات

(١) Aschbach : ibid , B. I. s. 352

الإسلامية والفرنجية . وقد حاول أمراء جليقية غزوها غير مرة ، وضمها إلى المملكة النصرانية . ولكن قبائل البشكنس كانت تتفانى دائماً فى الذود عن استقلالها . ولما شغلت المملكة النصرانية بمنازعاتها الداخلية ، لبثت نافار مدى حين مقصد الصوائف الإسلامية ، واجتاحها المسلمون مراراً .

وفى نهاية القرن الثامن الميلادى فى نحو سنة ٧٩٩ م ، ظهر فى نافار زعيم من السادة يدعى أزوار وجعل نفسه أميراً مستقلا . ولما توفى سنة ٨٣٦ م خلفه أخوه سانشو . ولكن أميراً آخر من الزعماء البشكنس هو غرسية إنيجيز بن إنيجو أريستا تغلب عليه وانتزع منه الإمارة . وتعرف الرواية الإسلامية إنيجو أريستا هذا وتسميه « ونقه بن شانجه ملك البشاكسة »(١). وهنا تبدو نافار لأول مرة فى صورة المملكة المستقلة ، ويبدأ ثبت ملوكها المتعاقبين . ومما يجدر ذكره أن مملكة نافار الناشئة ، رأت أن ترتبط برباط التحالف والمصاهرة مع إمارة إسلامية مجاورة هى إمارة بنى قسىّ سادة الثغر الأعلى ، وهم حسبما قدمنا يرجعون إلى أصل نصرانى أو قوطى. وقد تزوج إنيجو أريستا رأس الأسرة النافارية بأرملة موسى بن فرتون ابن قسى ، وتزوح موسى بن موسى من إبنة غرسية إنيجز ، وتزوج غرسية وإخوته من بنات لب بن موسى بن فرتون ، وتزوج بعض إخوة موسى وأبنائه من بنات أمراء نافار(٢) .

وهكذا كانت وشائج التحالف والمصاهرة تربط بين الأسرتين المسلمة والنصرانية ، وتوثقت هذه الوشائج واستطالت دهراً . وكذلك رأى غرسية إنيجيز أن يتحالف مع عمر بن حفصون زعيم الفتنة فى الأندلس . وكانت علائق نافار بجارتها المملكة النصرانية الكبيرة أو مملكة ليون يشوبها الكدر . ذلك أن مملكة نافار الصغيرة كانت دائماً تخشى مطامع ليون وغدرها ، وقد حارب غرسية إنيجيز أردونيو ملك ليون ، إلى جانب صهره موسى بن موسى ، فى موقعة البلدة وقتل سنة ٨٦٢ م حسبما أسلفنا .

وخلف غرسية ولده فرتون الذى لبث أسيراً فى قرطبة ردحاً طويلا . ثم خلفه ولده سانشو غرسية . وفى رواية أن سانشو هذا لم يكن ولداً لفرتون أو لغرسية

---

(١) راجع جهرة أنساب العرب لابن حزم ص ٤٦٨ .
(٢) جهرة أنساب العرب ص ٤٦٨ .

ولم يكن من أمراء البيت المالك ، ولكنه متغلب من نوع آخر انتزع الملك لنفسه . وعلى أى حال فقد استقر سانشو غرسية ملكاً على نافار . وهو أول من تلقب من أمراء نافار بألقاب الملك ، وبه تبدأ مملكة نافار الحقيقية . وقد حكم سانشو حتى سنة ٩٢٦ م ، وخاض مع المسلمين أيام الأمير عبدالله عدة حروب ووقائع ، وشغل حيناً بقتال بنى قسى الذين تصرمت علائقهم مع مملكة نافار ، وهاجم لب ابن محمد بن لب زعيم بنى قسى نافار غير مرة ، ونشبت بينه وبين سانشو على مقربة من بنبلونة وقائع متوالية انتهت بهزيمة لب ومقتله فى سنة ٩٠٧ م ، فخلفه أخوه عبدالله فى رياسة تطيلة وما جاورها ، واستمر فى محاربة نافار وهزم سانشو فى سنة ٩١١ م ، وتقول الرواية الإسلامية إن شانجه بن غرسية البشكنسى صاحب بنبلونه أعنى سانشو غرسية ، غزا مدينة تطيلة فى سنة ٣٠٣ هـ ( ٩١٤م ) ، فقتل كثيراً من المسلمين ، وأسر أميرها عبد الله بن محمد بن لب بن موسى القسوى . فدخلها أخوه مطرّف بن محمد فى اليوم التالى ، وقام مكان أخيه . وقد كان عبد الله وأخوه مطرف من أبطال الثغر الأعلى ، وكانت لهما غزوات عديدة مظفرة فى أراضى النصارى[1] . وشغل سانشو أيضاً بقتال الطويل وغيره من زعماء الثغر الأعلى حسبما فصلنا ذلك فى موضعه . وسنعرض فى فصل قادم إلى حروبه مع عبد الرحمن الناصر .

---

(١) المقتبس لابن حيان — السفر الخامس — مخطوط الخزانة الملكية بالرباط لوحة ١٦١ أ ، وهو الذى أشرنا فى مقدمة الكتاب إلى اكتشافه بين مخطوطات الخزانة الملكية .

# فهرست الموضوعات[1]

صفحة

مقــدمة ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ٥

## الكتاب الأول

### فتوح العرب فى إفريقية والأندلس وغاليس

### وعصر الولاة فى الأندلس

الفصل الأول : فتوح العرب فى إفريقية. ... ... ... ... ... ... ... ١٤
الفصل الثانى : إسبانيا قبل الفتح الإسلامى . ... ... ... ... ... ... ٢٧
الفصل الثالث : فتح إســسانيا ... ... ... ... ... ... ... ... ٣٨
الفصل الرابع : إسبانيا بعد الفتح الإســلامى ... ... ... ... ... ... ٦٣
الفصل الخامس : غاليس بين العرب والفرنج ... ... ... ... ... ... ٧٧
الفصل السادس : بلاط الشـــهداء... ... ... ... ... ... ... ... ٩٢
الفصل السابع : الأندلس بين المد والجزر .. ... ... ... ... ... ... ١١٢
الفصل الثامن : الحـــرب الأهليـــة .. ... ... ... ... ... ... ١٢٢
الفصل التاسع : خاتمة عصر الولاة ... ... ... ... ... ... ... ١٢٩

## الكتاب الثانى

### الدولة الأموية فى الأندلس

### القسم الأول ـــ عصر الإمارة

### من عبد الرحمن الداخل إلى عبد الرحمن بن عبد الحكم

---

(١) رأينا أن نكتفى بأن نثبت هنا فهرس الموضوعات والخرائط لهذا القسم الأول من الكتاب . أما ما عدا ذلك من الملاحق والفهارس المختلفة الأخرى ، فسوف نثبتها فى نهاية القسم الثانى من الكتاب .

صفحة

الفصل الأول : مصرع الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية ... ... ١٤٠

الفصل الثانى : بعث الدولة الأموية فى الأندلس . ... ... ... ... ... ١٤٧

الفصل الثالث : ولاية عبد الرحمن الداخل — ١ .. ... ... ... ... ... ١٥٧

الفصل الرابع : موقعة رونسفال أو باب شزروا .. ... ... ... ... ... ١٦٨

الفصل الخامس : ولاية عبد الرحمن الداخل — ٢ .. ... ... ... ... ... ١٨٥

الفصل السادس : خلال عبد الرحمن ومآثره . ... ... ... ... ... ... ١٩٢

الفصل السابع : المملكة النصرانية الشمالية منذ قيامها إلى ولاية ألفونسو الثانى ... ... ... ... ... ... ... ... ٢٠٧

الفصل الثامن : هشام بن عبد الرحمن والحكم بن هشام . ... ... ... ٢٢٣

الفصل التاسع : عبد الرحمن بن الحكم . ... ... ... ... ... ... ٢٥٤

## الكتاب الثانى

### الدولة الأموية فى الأندلس

### القسم الثانى — عصر الإمارة

### من محمد بن عبد الرحمن إلى عبد الله بن محمد

### وعهد الفتنة الكبرى

الفصل الأول : ولاية محمد بن عبدالرحمن بن الحكم ، وطوالع الثورة الأولى ٢٨٨

الفصل الثانى : ولاية المنذر بن محمد بن عبدالرحمن ، وبداية ثورة المولدين ٣١٧

الفصل الثالث : ولاية عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن

١ — ثورة المولدين والعرب ... ... ... ... ... ٣٢٢

الفصل الرابع : ولاية عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن

٢ — ذروة الفتنة الكبرى ... ... ... ... ... ٣٣٥

صفحة

الفصل الخامس : المملكة الإسبانية النصرانية. ... ... ... ... ... ...
خلال القرن التاسع الميلادى ... ... ... ... ... ... ٣٥٣

* * *

# فهرست الخرائط

١ — خريطة عامة لإسبانية المسلمة ( موضوعة فى فاتحة الكتاب ) ... ...
٢ — موقعة وادى لكه وخط سير طارق . ... ... ... ... ... ... ٤٣
٣ — مواقع غزوة شارلمان لسرقسطة ومعركة باب الشزرى ... ... ... ١٧٩
٤ — المملكة الإسبانية النصرانية ... ... ... ... ... ... ... ٢١٧
٥ — موقعة بلاى ومنطقة ثورة ابن حفصون ... ... ... ... ... ٣٢٧

# دولة الإسلام في الأندلس

## الخلافة الأموية والدولة العامرية

تأليف

محمد عبد الله عنان

العصر الأول - القسم الثاني

الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة

# الكتاب الثاني

# الدولة الأموية في الأندلس

## القسم الثالث

# عبد الرحمن الناصر

## وقيام الخلافة الأموية بالأندلس

٣٠٠ – ٣٥٠ هـ – ٩١٢ – ٩٦١ م

# الفصل الأول

## ولاية عبد الرحمن الناصر

### وقيام الخلافة الأندلسية

ولاية عبد الرحمن حفيد الأمير عبد الله . نشأته وحداثته . أخذ البيعة له . حزمه فى معالجة الثورة . غزو قلعة رباح وإخضاعها . خروج عبد الرحمن لغزو الثوار . غزوة المنتلون . غزوه لمعاقل ابن حفصون فى ريه وإلبيرة . سحق الثورة فى إشبيلية . عوده لغزو كورة ريه . محاصرته لقرمونة وإخضاعها . مولد ولى العهد الحكم . القحط بالأندلس . أقوال ابن حيان . إخضاع أوريولة ولبلة . ابن حفصون يطلب الصلح ويجاب إليه . عهد الناصر له . وفاة عمر بن حفصون . مبالغة النقد الغربى فى تصوير شخصيته . أبناؤه يخلفونه فى معاقله . مطاردتهم وإخضاع ببشتر آخر معاقلهم . استخراج جثة الثائر وصلبها . إعدام ابنته أرخنتا . كتاب الناصر عن فتح ببشتر . محاصرة طليطلة وإخضاعها . إخضاع بطليوس ونهاية بنى الجليقى . إخضاع بنى ذى النون . تمزيق الثوار فى شرق الأندلس . إسبانيا النصرانية وتربصها بالأندلس . عيث النصارى فى أراضى المسلمين . غزو أردونيو ليابرة وماردة وبطليوس . غزو المسلمين لأراضى ليون . موقعة شنت إشتيبن وهزيمة المسلمين . عود المسلمين إلى غزو ليون . موقعة مطونية وهزيمة النصارى . مسير عبد الرحمن إلى ليون . استيلاؤه على أوسمة وشنت إشتيبن . توغله فى أراضى نافار . موقعة جونكيرا وهزيمة النصارى . إستيلاء النصارى على بقيرة وفتكهم بالمسلمين . مسير عبد الرحمن إلى الثغر الأعلى . غزوه لنافار واستيلاؤه على بنبلونة . هزيمة النصارى . وفاة أردونيو وولاية ولده راميرو . راميرو يشجع ثوار طليطلة . محاصرة الناصر لطليطلة . محاولة راميرو إنجادها . سقوطها فى يد الناصر . غزو الناصر لقشتالة . مسيره إلى أوسمة . التماس طوطة للصلح . غزو ألبة والقلاع . غزوة بحرية إسلامية للثغر الفرنجى . الصلح بين الناصر وراميرو . تحالف بنى هاشم أصحاب الثغر الأعلى مع النصارى . مسير عبد الرحمن إلى مقاتلة الثوار . محاصرته لسرقسطة . خروج أمية بن إسحاق والتجاؤه للنصارى . سقوط سرقسطة وخضوع محمد بن هاشم . عهد الناصر له بالأمان . غزو عبد الرحمن لنافار وخضوع ملكتها طوطه . تأهب عبد الرحمن لمحاربة راميرو . نفوذ الصقالبة فى القصر والجيش . مسير عبد الرحمن إلى ليون . تحالف ليون ونافار . زحف عبد الرحمن على سمورة . موقعة الخندق وهزيمة المسلمين . أقوال الروايات العربية . رواية المسعودى . رواية ابن حيان . كتاب الناصر عن الغزوة . رواية ابن الخطيب . الروايات النصرانية . رواية ألفونسو الحكيم . الروايات الأخرى . آثار الموقعة . عود المسلمين لغزو ليون . وفاة راميرو وجلوس أردونيو . الصلح بين الأندلس وليون . بعض الحوادث الداخلية . حريق قرطبة . المحل والقحط . الدعوة الفاطمية واجتياحها للمغرب . جزع حكومة قرطبة . استيلاء عبد الرحمن على سبتة . خضوع المغرب الأقصى لعبد الرحمن . خطر الفاطميين على الأندلس . السفن الفاطمية تغزو ألمرية . غزوات عبد الرحمن لشواطىء المغرب . أثر الدعوة الفاطمية فى بعث فكرة الخلافة الأندلسية . عبد الرحمن يتخذ سمة الخلافة . الوثيقة الخاصة بذلك . ابن مسرة . حركته وحقيقة أمرها . أقوال ابن حيان عنها . مطاردة منتحليها . كتاب الناصر فى شأنها .

— ١ —

مضى زهاء قرن منذ استقر ملك بنى أمية بالأندلس ، وتوطدت أسس الدولة الجديدة ، وأخذت تزهو وتزدهر فى عهد عبد الرحمن بن الحكم . ولكن عوامل الإنتقاض والتفكك ، سرت فجأة إلى هذا الصرح القوى ، ولبثت الأندلس مدى النصف الأخير من القرن الثالث الهجرى ( أواخر القرن التاسع الميلادى ) تضطرم بسلسلة لا نهاية لها من الثورات والفتن ، حتى لاح مدى لحظة أن ملك بنى أمية أضحى على وشك الانهيار .

توفى الأمير عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن أمير الأندلس فى مستهل ربيع الأول سنة ٣٠٠ هـ (١٥ أكتوبر سنة ٩١٢ م ) بعدحكم طويل عاصف ، مزقت فيه أوصال المملكة ونضبت مواردها ، فخلفه فى نفس اليوم على العرش حفيده عبد الرحمن ابن ابنه محمد ، غير متجاوز الثالثة والعشرين من عمره ، وذلك بالرغم من وجود أعمامه وأعمام أبيه . وكان الأمير عبدالله قد اختار محمداً أكبر أولاده لولاية عهده ، فوجد عليه أخوه المطرِّف وقتله حسبما تقدم . وولد عبد الرحمن قبيل مقتل أبيه بأسابيع قلائل فى ٢٢ رمضان سنة ٢٧٧ هـ ( ديسمبر سنة ٨٩٠ م ) وأمه جارية إسبانية نصرانية تدعى ماريا أو مزنة حسبما تسميها الرواية العربية ، فنشأ الطفل اليتيم فى كفالة جده مرموقاً بعين العطف والرعاية ، وأسكنه جده معه بالقصر دون ولده . وما كاد يبلغ أشده حتى ظهرت نجابته ، وأبدى بالرغم من حداثته تفوقاً فى العلوم والمعارف إلى درجة تسمو على سنه ؛ ودرس القرآن والسنة وهو طفل لم يجاوز العاشرة ، وبرع فى النحو والشعر والتاريخ ، ومهر بالأخص فى فنون الحرب والفروسية ، وأقبل عليه جده الأمير يخصه بحبه وثقته ، ويرشحه لمختلف المهام ، ويندبه للجلوس مكانه فى بعض الأيام والأعياد لتسليم الجند عليه ؛ وهكذا تعلقت آمال أهل الدولة بهذا الفتى النابه ، وأضحى ترشيحه لولاية العهد أمراً واضحاً مقضياً ، بل يقال إن جده قد رشحه بالفعل لولاية عهده وذلك بأن برئ بخاتمه إليه ، حينما اشتد عليه المرض إشارة منه باستخلافه(١)

(١) وردت هذه التفاصيل الأخيرة فى أوراق مخطوطة عن بداية عهد الناصر ، نشرت بعناية الأستاذ ليڤى بروفنسال بعنوان : **Una Crónica Anónima de Abd Al-Rahman III, Al-Nasir (Madrid 1950) p. 29—80**

وما كاد الأمير عبدالله يسلم أنفاسه الأخيرة حتى بويع حفيده عد الرحمن بالملك . وجلس عبد الرحمن للبيعة ، يوم الخميس غرة شهر ربيع الأول فى قاعة « المجلس الكامل » بقصر قرطبة ، فكان أول من بايعه أعمامه ، وأعمام أبيه ، وتلاهم أخوة جده ، وقد مثلوا أمامه وعليهم الأردية والظهائر البيض عنوان الحزن على الأمير الراحل ، وتكلم بلسانهم عمه أحمد بن عبدالله فقال : « والله لقد اختارك الله على علم للخاص منا والعام ، ولقد كنت أنتظر هذا من نعمة الله علينا ، فأسأل الله إيزاع الشكر ، وتمام النعمة ، وإلهام الحمد » . وتتابع للبيعة بعد ذلك وجوه الدولة والموالى ، ثم أهل قرطبة من الفقهاء والأعيان ، ورؤساء البيوتات ، واستمرت بيعة الخاصة على هذا النحو حتى الظهر ؛ وعندئذ نهض الأمير الجديد فصلى على جثمان جده ، ثم واراه فى مدفنه بالروضة ، ومعه الوزراء ورجال الدولة . وجلس لتلقى البيعة فى المسجد الجامع صاحب المدينة الوزير موسى بن محمد بن حُدير ، والقاضى أحمد بن زياد اللخمى ، وصاحب الشرطة العليا ابن وليد الكلبى ، وصاحب الشرطة الصغرى ، أحمد بن محمد بن حدير ، وصاحب أحكام السوق محمد بن محمد بن أبى زيد ، فاستمرت بضعة أيام . وكذلك أنفذت الكتب بأخذ البيعة إلى العمال فى سائر الكور ، وأخرج الأمناء إلى البلاد لأخذها ، وتتابعت الردود بإنجازها من جميع النواحى(١). وساد البشر يوم البيعة فى القصر والمدينة ، وتوسم الجميع فى الأمير الفتى آيات العظمة واليمن ، وعلقوا على ولايته أكبر الآمال . وفى ذلك يقول معلمه شاعر العصر ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد ، يوم أن تولى عبد الرحمن الملك فى مستهل ربيع الأول سنة ٣٠٠ هـ :

| | |
|---|---|
| بدا الهلال جديداً | والملك غض جديد |
| يا نعمة الله زيدى | ما كان فيك مزيد |
| إن كان للصوم فطر | فأنت للدهر عيد |
| إمام عدل عليه | تاجان : بأس وجود |
| يوم الخميس تبدى | لنا الهلال السعيد |
| فكل يوم خميس | يكون للناس عيد |

وكانت الأندلس عندئذ أشد ما تكون حاجة إلى السكينة بعد أن هزتها الثورة

(١) الأوراق المخطوطة الخاصة بعهد الناصر ص ٣١ .

إلى الأعماق ، وتجاذبتها الأعاصير من كل صوب ، وكان الأمير الفتى يرى أن خطة التردد والرفق التى اتبعها أجداده نحو الزعماء الخوارج كانت سياسة خطرة ، ولم تكن ناجعة ، وأنه لابد لاستتباب الأمن واستقرار السكينة، من سحق الثورة وزعمائها بأى الوسائل . ومن ثم فإنه لم تمض على جلوسه أسابيع قلائل حتى بعث حملته الأولى إلى المناطق الثائرة بقيادة الوزير عباس بن عبدالعزيز القرشى ، فقصدت إلى منطقة قلعة رباح وكان قد ثار بها الفتح بن موسى بن ذى النون من زعماء البربر ، ومعه حليفه الرياحى المعروف بأرذبلش، فوقعت بين جند الأمير وبين العصاة معارك شديدة ، هزم فيها الفتح بن موسى ، وارتد مغلولا إلى معاقله ، وقتل أرذبلش ، وبعثت رأسه إلى قرطبة ، فرفعت فوق باب السدة ، وطهرت قلعة رباح وأحوازها من الثورة ، وذلك فى شهر ربيع الآخر[1]. وسارت حملة أخرى نحو الغرب ، واستردت مدينة إستجة من أيدى العصاة أتباع ابن حفصون ( جمادى الأولى ) ، وهدمت أسوارها وقنطرتها الواقعة على نهر شنيل ، حتى تعزل وتغدو بذلك عاجزة عن التمرد والخروج .

وفى شعبان سنة ٣٠٠ هـ ( مارس سنة ٩١٣ م ) خرج عبد الرحمن للغزو وتولى القيادة بنفسه ، فأثار ظهور الأمير الفتى فى الصفوف حماسة الجند وأكبروا شجاعته وإقدامه . وسار عبد الرحمن أولا إلى الجنوب الشرقى ، ومعه جند كورة إلبيرة وزعماؤها ، وكان ابن حفصون قد نزعهم حصونهم ومعاقلهم ، فالتجأوا إلى الأمير ، وألقوا بطاعتهم إليه ، واتجه صوب كورة جيان فى وسط الأندلس ، حيث كانت الثورة على أشدها ، وحيث كان ابن حفصون أخطر الزعماء الخوارج يبسط سلطانه على طائفة من الحصون القوية ؛ فاستولى على حصن مَرْتُش الواقع فى طريق جيان ، وسير فى نفس الوقت بعض قواته إلى مالقة لإنجادها ، وكان يهددها الزعيم الثائر ، فاحتلتها وأمنها . وقصد عبد الرحمن بعد استيلائه على مرتش ، إلى حصن مونت ليون ( حصن المنتلون ) القريب منها ، وكان يمتنع به زعيم من المولدين هو سعيد بن هذيل ، فضربه بشدة ، وهاجمه حتى اقتحمه ، وأذعن الزعيم الثائر إلى التسليم والطاعة ومنح الأمان ( رمضان سنة ٣٠٠ هـ ) . وتعتبر هذه الغزوة أول غزوات عبد الرحمن ، وتسمى عادة بغزوة المنتلون .

---

( ١ ) الأوراق المخطوطة السالفة الذكر ص ٣٣ .

واتجه عبد الرحمن بعد ذلك إلى حصن شمنتان ، الواقع على مقربة من بياسة ، وبه عبد الله بن الشالية ، فاستسلم الثائر دون مقاومة ، وطلب الأمان ، ونزل عن جميع حصونه ومعاقله . وأستولى عبد الرحمن بعد ذلك على حصن منتيشة من يد صاحبه ابن عطاف. وافتتح سائر الحصون التى كانت بيد ابن حفصون من كورة جيان ، وطهرها من آثار الخروج والعصيان . وقدم إليه سائر الزعماء الخوارج طاعتهم ، فتقبلها وعفا عنهم .

وسار عبد الرحمن بعد ذلك جنوباً إلى كورة ريُّه ، فاحتل منها سائر الحصون التى تدين بالطاعة لابن حفصون ، واقتحم أمنع هذه الحصون ، وهو حصن شبليس بعد قتال عنيف ، وقتل من كان به من أصحاب الثائر ، وفر أمامه جعفر ابن حفصون ليلا ولحق بأبيه ، ثم استولى عبد الرحمن على حصن إشتبين على مقربة من إلبيرة . واتجه بعد ذلك إلى وادى آش فاحتل حصونها ، ثم توغل فى شعب جبل الثلج ( سيراً نفادا ) وافتتح ما هنالك من المعاقل والحصون . وحاول ابن حفصون أن يزحف على غرناطة ، فخرج إليه أهل إلبيرة ومعهم مدد من جيش عبد الرحمن فردوه على عقبه . وما زال عبد الرحمن يجول فى تلك الأنحاء يخضع حصونها وينتسف أراضيها ، حتى قضى على كل عناصر الثورة والخروج فيها ، وبلغ ما استولى عليه فى تلك الغزوة من الحصون زهاء سبعين حصناً من أمهات المعاقل الثائرة ، ثم ارتد عائداً إلى قرطبة فوصلها فى يوم عيد الأضحى بعد أن قضى فى غزوته زهاء ثلاثة أشهر[1] .

على أن هذه الجولة الأولى لم تكن إلا بداية الصراع المرير ، الذى كان على عبد الرحمن أن يضطلع به . ذلك أنه لم تمض بضعة أشهر أخرى حتى عادت عناصر الثورة تجتمع ، وتتحفز ، وعاد ابن حفصون ينظم خططه وقواته . وكانت إشبيلية فى مقدمة القواعد التى رفعت لواء الثورة ، وقام بها منذ أيام الأمير عبدالله ، بنو حجاج حسبما تقدم ، وأنشأوا بها إمارة مستقلة . وقد كانوا بالرغم من انحدارهم من أصل عربى ينتمون إلى المولدين من ناحية الأم ، ويشاطرونهم شعور الحفيظة ضد حكومة قرطبة . وكان عبد الرحمن يتوق إلى تحطيم سلطان أولئك المولدين ومن يمالئهم ، وقد أبدوا دائماً أنهم لا يدينون بالولاء للحكومة الإسلامية التى

---

( ١ ) وردت تفاصيل هذه الغزوة فى الأوراق المخطوطة الخاصة بعهد الناصر ص ٣٥ — ٣٨ .

لم تدخر وسعاً فى الرفق بهم ومعاملتهم دون تمييز أو إجحاف أو تحامل . وكان زعيم إشبيليه إبراهيم بن حجاج قد توفى ، وخلفه فى حكمها ولده عبد الرحمن ، وخلفه فى حكم قرمونة ولده محمد . ولما توفى عبد الرحمن فى المحرم سنة ٣٠١ هـ ، تطلع أخوه محمد إلى أن يحكم إشبيلية من بعده ، ولكن أهل إشبيلية اجتمعوا حول زعيم قوى آخر هو أحمد بن مسلمة وهو أيضاً من بنى حجاج وقدموه لحكمها ، وسبق محمداً إلى الاستيلاء عليها . فسار محمد إلى قرطبة ، وقدم طاعته إلى عبد الرحمن ، فتقلبها وأوفد معه الجند بقيادة الحاجب بدر ، فحاصر إشبيلية ثم استولى عليها فى جمادى الأولى سنة ٣٠١ هـ وهدم أسوارها ، وندب لها عبد الرحمن والياً من قبله ، وانتهت بذلك ثورة العرب والمولدين فى إشبيلية .

وفى شوال سنة ٣٠١ هـ ( مايو سنة ٩١٤م ) خرج عبد الرحمن فى غزوته الثانية ، وقصد إلى كورة ريه والجزيرة . وكان ابن حفصون زعيم ثورة المولدين قد عاد فبسط حكمه على تلك الأنحاء ، وعادت الثورة تضطرم فيها . وبدأ عبدالرحمن بحصار قلعة « طرُّش » فى شرقى مالقة ، ثم سار إلى حصون ريه ومعاقلها يفتتحها تباعاً ؛ وهنا قدم ابن حفصون على رأس قواته والتقى بعبد الرحمن أمام قلعة طرُّش ، ونشبت بين الفريقين معركة شديدة قتل فيها كثير من جند ابن حفصون وحلفائه النصارى ، وارتد الثائر بفلوله صوب الغرب ، واستطاع أسطول عبد الرحمن أن يضبط عدة سفن محملة بالمؤن كانت قادمة من عدوة المغرب لإمداد ابن حفصون وأن يحرقها . وزحف عبد الرحمن على منطقة الجزيرة الخضراء ، واقتحم حصن لورة الواقع بجوار الجزيرة ، ثم دخل الجزيرة الخضراء فى أوائل شهر ذى القعدة سنة ٣٠١ ( يونيه ٩١٤ م ) . وسار عبد الرحمن بعد ذلك إلى شذونة ثم إلى قرمونة ، وكان حاكمها حبيب بن سوادة قد ثار بها ، فحاصرها حتى سلم الثائر واستأمن ، فمنح الأمان ، وانتقل بأهله إلى قرطبة . بيد أنه نكث بعهده فيما بعد . ودخلت فى طاعته سائر المعاقل والحصون التى مر بها ؛ ثم عاد إلى قرطبة فى شهر ذى الحجة بعد أن أصاب جبهة الثورة فى تلك المرة بضربة شديدة وإن لم تكن قاضية . ومع أن عبد الرحمن كان يتوق إلى سحق الثورة بكل الوسائل ، فإنه لم يلجأ إلى قسوة لا مبرر لها ، بل آثر منذ البداية أن يتبع سياسة الرفق والتسامح نحو الزعماء والثوار الذين قدموا خضوعهم

وطاعتهم ، فسمح للكثير منهم بالانتقال إلى قرطبة مع الأهل والولد ، وأجرى عليهم الأرزاق والأعطية ، وأبدى بالأخص نحو النصارى الذين أذعنوا إلى الطاعة منتهى الكرم والتسامح[1] :

وفى سنة ٣٠٢ هـ ( ٩١٥ م ) ، وقع حادث سعيد فى البلاط القرطبى ، هو مولد ولى العهد الحكم بن عبد الرحمن الناصر . وقد اختلف فى تاريخ مولده ، فيقول الرازى إنه وقع فى يوم الجمعة غرة رجب من هذه السنة . ويقول محمد ابن مسعود إنه وقع فى يوم الجمعة ٢٤ من جمادى الأولى ، وأمه مرجان الرومية ، أم الولد الأثيرة ، وقد سر عبد الرحمن بولادته أيما سرور ، ونوه بها ، وأوسع الإنعام ، وتقدمت طبقات الناس إليه بالتهنئة . وأنشد الشعراء تهانيهم ، فمن ذلك قول الفقيه أحمد بن محمد بن عبد ربه :

هلال نماه البدر واختاره الفجر ... تلقت به شمس وأنجمه زهر
على وجهه سيما المكارم والعــلى ... فضاءت به الآمال وابتهج الشعر
سلالة أفراس وبيت خــلايف ... أكفهم بحر ونايلهم غمــر
بدا لصــلاة الظهر نجم مكارم ... تحف به العليا ويكنفه الفخــر
نماه إلى العليــاء خير خليفــة ... تتيه به الدنيا ويزهى به العصر[2]

وفى أواخر سنة ٣٠٢ هـ ( ٩١٥ م ) حل بالأندلس قحط شديد ، فعزت الأقوات وارتفعت الأسعار ، وأمر عبد الرحمن وزيره أحمد بن محمد بن زياد بالبروز بالناس للاستسقاء ، فبرز بهم يوم الإثنين ١٣ شوال ( أول مايو ) فنزل فيه رذاذ مملح وندى مبلل لم يكن له كبير أثر[3] ، وعمت المحنة سائر القواعد والثغور ، واستمرت خلال العام التالى ( سنة ٣٠٣ هـ ) ، وبلغت الشدة بالناس مبلغاً عظيماً ، وانتشر الوباء مع القحط ، وكثر الموت ، وهلك كثير من الرؤساء والوجهاء ، وكانت محنة قاسية شديدة الوطأة . ولم يدخر عبد الرحمن خلال تلك الآونة العصيبة ، وسعاً فى بذل المعونة والغوث لشعبه بتوزيع المؤن والصدقات الوفيرة . وحذا حذوه كثير من الكبراء وأهل الدولة ، فكان

---

( ١ ) ابن حيان فى السفر الخامس ( مخطوط الخزانة الملكية بالرباط ) لوحة ٣٢ أ ، و Dozy : Hist., Vol. II. p. 103

( ٢ ) ابن حيان فى السفر الخامس ( مخطوط الخزانة الملكية ) لوحة ٥٣ .

( ٣ ) ابن حيان فى السفر الخامس ( مخطوط الخزانة الملكية ) لوحة ٥٣

لجهودهم أثر كبير فى التلطيف من آثار المحنة . وكان لهذا الظرف أثره فى تهدئة الثورة ، والفت فى عضد الثوار ، ولكن عبد الرحمن لبث مع ذلك متيقظاً يرقب حركاتهم بحذر وأهبة .

ويحدثنا ابن حيان عن هذه المحنة فى حوادث سنة ٣٠٣ هـ ، ويقدم إلينا عنها الصورة التالية :

« فيها كانت المجاعة بالأندلس التى شبهت بمجاعة سنة ستين ، فاشتد الغلاء ، وبلغت الحاجة والفاقة بالناس مبلغاً لم يكن لهم عهد بمثلها ، وبلغ قفيز القمح بكيل سوق قرطبة ثلاثة دنانير ، ووقع الوباء فى الناس ، فكثر الموتان فى أهل الفاقة والحاجة ، حتى عجز عن دفنهم ، وكثرت صدقات الناصر لدين الله فى هذه الأزمة على المساكين وأهل الفاقة ، وعلى المتعففين عن المسئلة ، وصدقات أهل الحسبة من رجاله المونسين فيه ، فنفع الله بهم كثيراً من خلقه . وكان حاجبه بدر بن أحمد ، مدبر دولته ، أفشاهم صدقة ، وأعظمهم مواساة ، فنعش الله به أمة . وعدا أصر هذه المجاعة وضيق الأحوال ، السلطان عن تجريد صايفة وإعداد جيش ، لما بالناس من الجهد . فأخذ الناصر لدين الله فى شأنه بالوثيقة ، وعول على ضبط أطراف وتحصين بيضته ، والإرصاد لأهل الخلاف والخلعان خلال معاقلهم ، ومجال مسارهم ، إذ كانوا مع استيلاء المجاعة عليهم ، لا يفترون عن العدوان ، على من مر بهم من رفاق المسلمين ، وطالبى المعيشة ، وجالبى الميرة ، فلم يجدوا منفذاً إلى ما طمعوا فيه من إشاعة ، ونفع الله بذلك . وعاث الموتان فى هذه الأزمة ، فأودى بخلق من وجوه أهل قرطبة وعلمائهم وخيارهم »(١) .

وما كادت تنقشع هذه الغمة حتى عاد عبد الرحمن إلى استئناف الغزو ، فسير قائده أحمد بن محمد بن أبى عبدة غازياً إلى أرض النصارى . وسوف نتتبع غزوات عبد الرحمن لاسبانيا النصرانية مجتمعة فيما بعد . وسير وزيره إسحق بن محمد القرشى إلى كورتى تدمير وبلنسية ، فطارد فيهما أهل الخلاف ، وافتتح حصن أوريولة المنيع ، قاعدة تدمير التالد من يد الثوار ، ثم أخضع الثوار فى مدينة الحامة . وغزا الحاجب بدر مدينة لبلة ، وكان صاحبها الثائر عثمان بن نصر ممتنعاً بها .

(١) السفر الخامس ( مخطوط الخزانة الملكية ) لوحة ٥٥ أ

فبعث إليه الحاجب يلاطفه ويبذل الأمان له ولأصحابه ، ويعده بكل ما يحب ؛ ولكن الثائر رفض كل عرض ، وأصر على العصيان ، فطوق بدر المدينة ، وبرز له كثير من أهل الطاعة فأمنهم ، وأبقاهم لديه ، وجد فى مهاجمة عثمان وأصحابه إلى أن اقتحم عليه المدينة يوم ٢٠ رمضان سنة ٣٠٣ هـ ( فبراير ٩١٦ م ) ، وقبض على عثمان وصحبه وأرسلهم فى الأصفاد إلى قرطبة ، وأمن أهل المدينة ، ونظر فى مصالحهم . وقد نظم ابن عبد ربه فى فتح مدينة لبلة وفى مديح الناصر والحاجب بدر قصيدة يقول فيها :

خليفة الله وابن عم رسول الله والمصطفى على رسله
منتك نعمى نمت سوابغها كما استتم الهلال فى كمله
وجه ربيع أتاك باكره يرفل فى حليه وفى حلله
وأقبل العيد لاهياً جذلا يختال فى لهوه وفى جذله
نصر من الله تضمنه ينهض فى ريثه وفى عجله
يجرى بشأو الأمام منصلتا يسبق حضر الجياد فى مهله
قد وقف النكث والخلاف بها وقوف صب يبكى على طله[١]

وفى هذا العام ، سنة ٣٠٣ هـ ، وقع حادث داخلى هام ، هو جنوح عمر بن حفصون ، أكبر ثوار الأندلس إلى الصلح والطاعة ، فبعث إلى الناصر يخطب وده ، ويلتمس الصلح ، مستشفعاً بما كان منه فى إيواء الأمير محمد والد عبد الرحمن وحمايته ، حينما فر من أبيه الأمير عبد الله . وقام بالوساطة فى ذلك يحيى بن إسحق طبيب عبد الرحمن ، وكان صديقاً لعمر بن حفصون ، فبذل فى سبيل ذلك جهده ، وعاونه الحاجب بدر لدى الناصر ، فاستجاب الناصر لعقد الصلح مع عمر ، مع الحذر من غدره ومكره ؛ واتصل يحيى فى ذلك مع جعفر بن مقسم أسقف ببشتر ، وعبد الله بن أصبغ بن نبيل ، وودنا ابن عطاف ، وهم أكابر رجال ابن حفصون وخاصته ، وكانوا يميلون إلى عقد الصلح والدخول فى كنف الطاعة . وسار يحيى نفسه لمقابلة ابن حفصون ، ووضع معه شروط الصلح ، وعاد إلى قرطبة ، وأقر الناصر تلك الشروط ،

---

(١) ابن حيان فى السفر الخامس ( مخطوط الخزانة الملكية ) لوحة ٦١ ب و ٦٢ أ .

وعقد لابن حفصون على ذلك كتابة المشهور ، الذى خط فى أسفله بيده الأسطر الآتية :

« يا لله الذى لا إله إلا هو الطالب الغالب ، وجميع إيمان البيعة لازمىّ من العهود المشددة ، والأيمان المؤكدة ، والمواثيق المغلظة ، لانقضت شيئاً مما جمعه هذا الكتاب تبديله ، ولا نقصان شيء منه ، ولارضيت ذلك فى سر ولا جهر ، وأن كل ما فيه من الشروط والعهود والمواثيق لازمىّ ، والله شهيد علينا ، وخططنا هذه الأحرف بيدنا ، وأشهدنا الله عز وجل على أنفسنا ، وكفانا بالله شهيداً ، ما وفى عمر بن حفصون بما نص فى هذا العهد وصحح فيه إنشاء الله ، والله المستعان » .

ويقول لنا الرازى الذى يورد لنا نص هذه الوثيقة ، إن الحصون التى دخلت فى أمان عمر بن حفصون بمقتضى هذا الصلح ، وسميت فى كتاب العهد ، مائة واثنين وستين حصناً . واغتبط عمر بن حفصون بعقد هذا العهد مع الناصر أيما غبطة ، وبذل جهده وفى المحافظة على شروطه وأوضاعه ، وسر الناصر من جانبه بما أبداه ابن حفصون فى ذلك من دقة وإخلاص ؛ وقدم ابن حفصون بهذه المناسبة إلى الناصر هدية فخمة ، فتقبلها الناصر ، وحسن موقعها لديه ، وكافأ ابن حفصون عنها بأضعافها ؛ وعظم سرور ابن حفصون بها ، واستحكمت طاعته طول حياته . وكان هذا من أعظم العوامل فى تهدئة اضطرام الثورة ، وجنوحها إلى التبدد والانهيار(١) .

وكان حبيب بن سوادة الثائر بقرمونة قد نكث بعهده ، وعاد إلى قرمونة ، وأظهر الامتناع بها ، فسير إليه عبد الرحمن الحاجب بدراً فى حملة قوية ، فحاصر بدر قرمونة وضربها بالمجانيق بشدة ، ثم دخلها عنوة ، وقبض على حبيب وولده وأرسلهما فى الأصفاد إلى قرطبة (ربيع الأول ٣٠٥ هـ)(٢) .

وفى شهر ربيع الأول من العام التالى ، فى سنة ٣٠٦ هـ ( سبتمبر ٩١٨ م )(٣)

---

(١) ابن حيان فى السفر الخامس من المقتبس — مخطوط الخزانة الملكية — لوحة ٥٦ ب و ٥٧ أ و ب .

(٢) الأوراق المخطوطة الخاصة بعهد الناصر ص ٥٥ و ٥٦ .

(٣) وفى رواية الرازى التى نقلها إلينا ابن حيان ، أن وفاة ابن حفصون كانت فى شهر شعبان سنة ٣٠٥ هـ — السفر الخامس — مخطوط الخزانة الملكية — لوحة ٦٥ أ .

وقع حادث كان له أكبر الأثر فى تفكك عرى الثورة وانحلالها . ذلك هو وفاة عمر بن حفصون زعيم الثورة الكبرى ، ومثير ضرامها فى غربى الأندلس، توفى بعد مرض طويل ، فى الثانية والسبعين من عمره . وكان ابن حفصون فى الواقع أخطر ثائر عرفته الأندلس منذ الفتح ، وكانت ثورته تمثل أخطر العناصر التى لا تدين بالولاء لحكومة قرطبة ، وفى مقدمتها طائفة المولدين الذين ينتمى إليهم ، وهم سلالة القوط والنصارى الإسبان الذين أسلموا منذ الفتح ، وغدوا جزءاً من الأمة الأندلسية . وكان أولئك المولدون بالرغم مما تسبغه عليهم حكومة قرطبة الإسلامية من ضروب الرعاية والتسامح ، يضمرون لها الخصومة والكيد ، وينتهزون كل فرصة للخروج عليها . وكانوا يلقون العون دائماً من زملائهم النصارى المعاهدين رعايا الحكومة الأسلامية . وقد رأينا كيف دبر ابن حفصون حركته ونظم ثورته فى المناطق الجنوبية الغربية ، فيما بين رندة ومالقة ، وقد كانت فضلا عن وعورتها ومناعتها الطبيعية ، تضم كثرة من المولدين والنصارى ، وكان من هؤلاء معظم أنصاره وجنده . ولم ير ابن حفصون نفسه وهو يرجع إلى أصل نصرانى ، بأساً من أن ينبذ الإسلام ويرتد إلى النصرانية لكى يذكى حماسة أنصاره . وهكذا كانت وفاة هذا الثائر الخطر ضربة شديدة للثورة ، وتنفست حكومة قرطبة لوفاته الصعداء ، بعد أن شغلها زهاء ثلاثين عاماً .

قال الرازى : « وكان أول قيامه بالفتنة ، وصدعه عصى الجماعة ، وامتناعه بقلعة ببشتر منبر المعصية ، من ثلاثين سنة ، ركب فيها من العيث فى الخلق ، والفساد فى الأرض بغير الحق ، ما لم يركبه مارق بالأندلس ، منذ دانت للمسلمين ، فعد مهلكه فاتحة الإقبال ، وطالعة السعد ، واجتثاث الفتنة »[1] .

وقد بالغت التواريخ النصرانية فى تصوير ثورة عمر بن حفصون الطويلة المدى ، واعتبارها ثورة قومية تهدف إلى غاية وطنية سامية ، وهى تحرير وطنه — إسبانيا — من نير المتغلبين عليه ، وأنه كان فى مناوأته لحكومة قرطبة الإسلامية يجيش بهذه النزعة ، ويهدف إلى هذه الغاية . وعمل النقد الحديث على إبراز هذه الصورة، وعلى اعتبار ابن حفصون بطلا قومياً ، جديراً بالتقدير والاحترام .

---

(١) ابن حيان فى المقتبس — السفر الخامس — لوحة ٦٥ ب .

وهذا ما نقرأه فى تعليقات بعض أكابر النقدة المحدثين أمثال دوزى وسيمونيت ، وذلك بالرغم من كونهم لم ينسوا أن يذكروا فى نفس الوقت أن ابن حفصون قد نشأ سفاحاً وقاطعاً للطرق ، لا تحدوه أية نزعة وطنية أو غاية مثلى . بيد أن سيمونيت ، وهو مؤرخ النصارى المستعربين ، يحاول أن يبرر حسن تقديره وتصويره لحركة ابن حفصون ، بأن قيامه اتخذ فيما بعد « شكلا أكثر نبلا ، وتحول من زعيم عصابة إلى زعيم حزب وأمة »[١]. ويصفه دوزى بأنه « البطل الإسبانى الذى لبث أكثر من ثلاثين عاماً يتحدى المتغلبين على وطنه ، والذى استطاع مراراً أن يجعل الأمويين يرتجفون فوق عرشهم » وأنه «كان بطلاخارقاً لم تنجب إسبانيا مثله منذ أيام الرومان »[٢] . أما نحن فنرى فى مثل هذه الآراء مبالغة وإغراقاً ، وأنها ليست إلا ثمرة نزعة من التعصب الدينى والجنسى ، الذى يطبع النقد الغربى ، فى كثير من المواطن ، وأن ابن حفصون بالرغم من صلابته وقوة عزمه ، وبراعة خططه ، لم يكن سوى قاطع طريق ، وثائر من طراز قوى عنيف . أجل إن ابن حفصون ، كان يدعو منذ اشتد ساعده ، إلى مايسميه قضية الاستقلال والحرية ، وتحرير مواطنيه من نير المسلمين ، بيد أنه لم يكن فى هذا الزعم سوى مخادع سياسى ، يسعى إلى كسب الصحب والأنصار لتقوية مركزه ، ودعم سلطانه ، ولم يكن يصدر فى مغامراته وحروبه أو فى أعماله خلال ثورته الطويلة ، عن أية نزعة نبيلة ، أو تصرف تطبعه الشهامة ، والعزة القومية ، بل كانت أعماله وتصرفاته كلها ، بغى صراح ، وإجرام فى إجرام ، وامتهان لكل المبادئ الأخلاقية ، وكل مقتضيات الشرف والمروءة والشهامة . ومن كان هذا شأنه ، فإنه من التعسف أن تُسبغ عليه صفات البطولة ، وثوب التحرير والوطنية .

وترك ابن حفصون أربعة بنين ، هم سليمان وعبد الرحمن وجعفر وحفص ، وابنة هى «أرختنا» ؛ وكان له ولد آخر هو أيوب اتهمه أبوه عندما اعتل ذات مرة ، بمحاولة الفتك به وقتله[٣]. فقام سليمان فى أبّده ، وقام جعفر مكان أبيه فى ببشتر بعهد منه ، وكان أبوه قد قلده عهده فى حياته ، وأخذ له البيعة فى

---

(١) راجع : J. Simonet : Histoira de los Mozarabes de Espana (Madrid 1897) p. 516 .

(٢) Dozy : Histoire ; V. II. p. 106 .

(٣) أعمال الأعلام لابن الخطيب ص ٣٢ ؛ ونقط العروس لابن حزم ص ٧٩ .

أواخر أيامه ، فأظهر جعفر يوم موت أبيه لجميع نصارى ببشتر أنه يعتقد دينهم ، ويدين بالنصرانية معهم ، وزعم أن أباه كان يعتقد ذلك ولا يظهره ، وجمع إلى نفسه ثقاته منهم ، مع القسيسين والرهبان دون سائر الناس ، فتولوا تجهيز والده معه ، ودفنه على سنة النصارى ، بعد أن أمر بسد باب القصبة ، وحجاب باقى الناس من نصارى وغيرهم ، ولاطف جعفر إخوته ، ووعدهم بالجميل حتى سلموا له ، قال الرازى : «وكان جعفر فى ذاته متهوراً سخيفاً ، جباناً ضعيف السيما ، ذميماً ، جسوراً حقوداً ، منافساً لمن يعمل عنده ، كنوداً لمن استرسل إليه ، موالفاً للسفال ، مستصحباً للأرذال ، لم تسم همته إلى مروءة ، ولا انطوت نيته على جميل ، ولا عرف قدر ما مهده له والده مع السلطان من فراش الصلح ، وبسط من ظلال الأمن ، بالتسجيل له على أعماله ، وإمضاء ذلك بعده لعقبه ، بل غمط النعمة عليه ، ورفض الساعين فيه لأبيه ، وعقد شهادات جماعة من السفلة والطغام ، على ابن مقسم الأسقف وابن نبيل وابن عطاف حاجبيه ، فإنهم سعوا فى الغدر بوالده عند السلطان ، وأرادوا إراحة سلطانه عن ولده بعده »(١) .

بيد أنه لم تمض أشهر قلائل حتى سير عبد الرحمن قواته إلى أبدة فاقتحمتها وأسر سليمان ، وأخذ إلى قرطبة حيث عفا عنه عبد الرحمن وضمه إلى جيشه ؛ وكذا استسلم عبد الرحمن بن حفصون ، وكان ممتنعاً بحصن طُرُّش ، وكان أخوه جعفر صاحب ببشتر ، قد ضايقه ، وحاول أن ينتزع منه طرش ، فالتجأ عندئذ إلى الأمير ، وأذعن للطاعة ، على أن يسلم حصنه ويمنح الأمان لنفسه وأهله ، فأجابه الأمير إلى ما طلب ، وتسلم منه الحصن ، واستقدمه إلى قرطبة وأجرى عليه الصلات ، وكان أديباً شاعراً . واستبد جعفر بحكم ببشتر وما حولها ، وآثر عبد الرحمن أن يهادنه مدى حين ، وأن يقره على أعماله . وفى سنة ٣٠٨ هـ (٩٢٠ م) قتل جعفر فى ببشتر ضحية مؤامرة قيل إنها من تدبير أخيه سليمان ، وقيل من جهة أخرى إنه رأى أن يعود إلى الإسلام اكتساباً لمودة السكان والجند المسلمين ، فاغتاله نفر من جنده النصارى(٢) . فقام أخوه سليمان مكانه فى ببشتر ، وأقره عبد الرحمن

---

(١) ابن حيان فى المقتبس — السفر الخامس — مخطوط الخزانة الملكية — لوحة ٦٥ ب

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٣٥ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ١٨٩ ، وراجع: Dozy : Hist., Vol. II. p. 108.

على ولايته ، ولكنه نكث عهد الطاعة ، فسار عبد الرحمن لقتاله وحاصره مدى حين ، وكان أصحاب سليمان بحصن طُرُّش ، قد نبذوا الطاعة مثله ، فسار عبد الرحمن إلى طرش ، ونازلهم ، ثم ترك قوة استمرت فى حصارهم ، حتى اذّعنوا إلى الطاعة ، وسلموا الحصن بالأمان ، وأمر عبد الرحمن بتخريبه وتسويته بالأرض . ثم سار عبد الرحمن لحصار سليمان مرة أخرى فى سنة ٣١١ هـ (٩٢٣ م) ، وخرب سائر المناطق التى يسيطر عليها الثائر ، وأخضع معظم حصونها ، واعتصم سليمان بجبل بُبَشتر ، فنازله عبد الرحمن ، واشتد فى محاصرته ، حتى ضاق الثائر وصحبه بالحصار ذرعاً ، وخرج عليه معظم أنصاره ، ونكل بالكثير منهم . ونازل عبد الرحمن بالأخص حصن الشط ، وكان من أمنع الحصون الثائرة ، حتى تغلب عليه وعلى ما حوله من الحصون . وأخيراً عرض عليه سليمان أن يعود إلى الطاعة ، وأن يسلم بعض حصونه ، فاستجاب عبد الرحمن إلى رغبته ، وتسلم حصن الشط ، وحصن منت ميور وغيرهما من الحصون كفالة بحسن الطاعة ، وانصرف عائداً إلى قرطبة ، وهو يتحين الفرصة الملائمة للقضاء على الثائر بصورة نهائية .

وفى سنة ٣١٣ هـ ، صُلب على الرصيف بباب قرطبة ، رجل من أصحاب ابن حفصون هو الرامى النصرانى المعروف بأبى نصر ، وكان من أحذق الرماة فى عصره ، وطار صيته أيام عمر بالحذق فى الرماية وإصابة الأغراض البعيدة ، قلما تخطئ رميته ، وقد أودى بحياة كثير من المسلمين من الجند وغيرهم ، وساد الذعر منه ، وانتهى الأمر بأسره ، وإحضاره إلى الحضرة ، فجيء به إلى باب السُّدَّة وأمر عبد الرحمن بصلبه وشكه بالسهام ، فرفع فوق جذع فى مشهد حافل من الناس ، وتعاورته الرماة بالسهام حتى مزق بدنه ، وترك داميا فوق جذعه ؛ ثم أخذت جثته بعد أيام وأحرقت(١) .

وفى أواخر سنة ٣١٤ هـ ، سير عبد الرحمن وزيره عبد الحميد بن بسيل إلى ببشتر ، وخرج سليمان فى قواته إلى لقائه فهزم وقتل ، واحتز رأسه وقطعت أشلاؤه ، وأرسلت إلى قرطبة فرفعت على باب السدة ( يونيه سنة ٩٢٧ م ) . وقام أخوه حفص مكانه فى ببشتر ، واستمر على المقاومة حيناً . وفى ربيع الأول سنة ٣١٥ هـ ، سار عبد الرحمن بنفسه إلى ببشتر ومعه ولى عهده الحكم ،

---

(١) ابن حيان فى المقتبس — السفر الخامس — مخطوط الخزانة الملكية ، لوحة ٨٤ ب .

وكان يومئذ صبياً فى الثانية عشرة من عمره ، ونزل على مدينة ببشتر ذاتها ، وبها حفص ، وشدد عليها الحصار ، وابتنى إزاءها حصناً للتضييق عليها ، وفرق قواته لمنازلة بقية الحصون الثائرة ، ثم ترك قوة لمتابعة الحصار . واستمر الحصار بضعة أشهر ، حتى اضطر حفص أن يذعن أخيراً إلى التسليم ؛ فسلم المدينة بالأمان إلى القائد سعيد بن المنذر ، وذلك فى أواخر شهر ذى القعدة سنة ٣١٥ ﻫ (يناير سنة ٩٢٨ م) وأخذ حفص بن عمر وأهله وأصحابه أسرى إلى قرطبة ، فعفا عبد الرحمن عنهم ، وأحسن مثواهم ، وضم حفصاً إلى جيشه .

وفى العام التالى سنة ٣١٦ ﻫ ، سار عبد الرحمن إلى ببشتر لتنظيم شئونها ، فخرج من قرطبة فى منتصف شهر المحرم منها (مارس سنة ٩٢٨ م) ورافقه ولده الحكم ، ووزيره أحمد بن محمد بن حُدير ، واستخلف على المدينة أحمد ابن عيسى بن أبى عبدة . وقصد إلى ببشتر بطريق أشونة ، فوصلها فى العشرين من المحرم ، ودخلها وجال فى أرجائها ، وألفاها منقطعة النظير من حيث الحصانة والمنعة . فعين لها والياً من قبله ، وعمد إلى تطهيرها من آثار ابن حفصون ، فصلى فى مسجدها الجامع ، وأمر أن تقام به الصلاة . وكان ابن حفصون فى أواخر أيامه ، قد أثار حول موقفه من تذبذبه حول إظهار الإسلام ، وجنوحه إلى النصرانية ، ريباً حول حقيقة الدين الذى كان يعتنقة . فأمر الناصر بنبش قبره ، وإخراج جثته وفحصها . فتبين من هيئتها ، وكونه ملقى على الظهر ، مشبوك الذراعين على الصدر ، ومستقبلا المشرق ، أنه دفن على دين النصرانية ، وعاين ذلك الناس من العسكر وغيرهم ، وشهد بذلك الفقهاء المرافقون ، واتفق الجميع على أنه هلك على دين النصرانية . فأمر عبد الرحمن بحمل الجثة ، إلى قرطبة ، حيث علقت فى أعلى الجذوع على باب السُّدة يكتنفها أشلاء ولديه المصلوبين قبله ، وهما حكم وسليمان . واستمرت أشلاؤهم معلقة على جذوعها عبرة للناظرين حتى سنة ٣٣١ ﻫ ، حيث حملها مد النهر الطامى فى تلك السنة ولأحمد بن محمد الرازى فى صلب أوصال ابن حفصون قصيدة يقول فيها

تبدى لمرأى العـين مجسـماً وقام من الأجداث خلقاً متمما
فما كان إلا مثـل من نام نومة فأنبه عنها حين أغفى وهـوّما

ثوى فى الثرى حتى إذا صار رمة — أعيد إليه جسمه فتلأما
رقى فوق جذع بالهواء معلق — يحاول منه بالنجوم تحوما
تبارك من أبداه للخلق سامعاً — وبوأ منه النفس قعر جهنما[1]

وأمر عبد الرحمن ، فعمرت سائر مساجد ببشتر المهجورة ، وهدمت سائر الكنائس والأديار ، التى ابتناها الثائر فى تلك المنطقة ، واستولى عبد الرحمن على سائر معاقلها وحصونها ، وطهرها من آثار الثورة الأخيرة[2] . ثم أمر بعد ذلك بالقبض على « أرختنا » ابنة عمر بن حفصون وإعدامها ، لارتدادها عن الإسلام ، وتمسكها باعتناق النصرانية ، فأعدمت فى سنة ٩٣١ م ، أو فى سنة ٩٣٧ وفقاً لرواية أخرى ، ونظمتها الروايات والأساطير النصرانية فى سلك القديسين والشهداء[3] :

هذا ، وقد أصدر الناصر عقب فتح ببشتر واستئمان حفص ، كتاباً طويلا ينوه فيه بهدى الإسلام وفضله ، وما خصه الله به من خلافته وأمانة عباده ، ويشير إلى خروج المارقين ، وميل نفوسهم المريضة إلى الشرك ، وكيف أنه أصدر أمانة لأهل ببشتر ، ثم يقول فى خطابه ما يأتى :

« وعهدنا إلى الوزير أحمد بن محمد حدير ، بالتقدم إليهم لحضور خروجهم ، ومباشرة نزولهم ، وإكمال الأمان لهم ، وقبض الأيدى عنهم ، فنهض إلى ذلك وقصد له ، فلما صار بمدينة طلجير ، المبتناة على مدينة ببشتر ، هبت بالطاغين عنها ، فتساربوا خارجين ، وتهافتوا ذاهبين ، وتعرفوا الذى سبا إلى جوانب شتى ، فقصد كل واحد إلى منزعه ، وأم مكان طاعيته ، ولحق بمداين الطاعة ، فصاروا فى غمار الرعية ، وتمكث خلفهم عميدهم حفص بن عمر طاير الفواد ،

---

(١) ابن حيان — السفر الخامس — لوحة ٨٩ أ و ب و ٩١ أ . هذا ولم نجد ذكراً لحكم من أبناء عمر بن حفصون إلا فى هذه المناسبة ، وفى رواية ابن حيان ، وفى الأوراق المخطوطة (ص ٧٧) .

(٢) تراجع تفاصيل المعارك الأخيرة بين عبد الرحمن وأبناء ابن حفصون ، وخاتمة هذه المعارك فى الأوراق المخطوطة الخاصة بعصر الناصر ص ٦٢ و ٦٥ و ٦٩ و ٧٣ و ٧٤ و ٧٥ و ٧٦ و ٧٧ و ٧٨ . وكذلك فى البيان المغرب ج ٢ ص ١٩١ و ١٩٣ و ١٩٤ و ٢٠٤ و ٢٠٨ و ٢٠٩ ؛ وابن خلدون ج ٤ ص ١٣٥ .

(٣) Dozy: Hist., Vol. II. p. 109 وكذلك R.M. Pidal: Origines del Espanol, p. 420

خافق القلب ، لم تطب نفسه على الخروج خواراً ، ولا سكن منه الأمان نفاراً ، يخشى كل يد أن تضبط عليه ، وكل شجرة أن تتعلق به ، قد خامره من الرعب ما كاد أن يربى على العطب ، فطمأن الوزير أحمد محمد بن حدير من جزعه ، وسكن من جأشه ، ووفاه من آمالنا المبسوطة ليناً وثق به واطمأن إليه ، فخرج آخر الخارجين ، ولحق بالآمنين ، فأصبحت مدينته بقعة الضلالة ، ومنبر الخلاف ، ومعدن الغواية ، مما أحاط بها من أسوارها وأبنيتها وقصابها ، وداخلها من جناتها ومصانعها ، مغوية من قطينها ، خاوية على عروشها ، كأن لم يغن بها ساكن ، ولا استوطنها قافل » .

ثم يقول إنه أمر بعد ذلك بتخريب ببشتر ، وحط أسوارها ، وإنزال جدرانها ، وهدم كل قايم فيها من قصرها ودورها ومخازنها ، وإعادتها جبلا أجرد ، على ما كانت عليه لأول خلقها . « ثم استقدمنا حفصاً اللائذ بالتوبة إلى ما تفضلنا عليه من التأمين والتمكين ، وعدنا عليه من العفو والتطمين ، وأخذنا فيه بالفضل المبين ، الذى جعلنا الله أهله ، وغلب على مذهبنا إيثاره ، وجمعنا له من ذلك ما اغتبط به ، وسكن إليه ، وقرر نفسه عليه ، فاعلم ذلك ، وقف عليه ، واستشعر حمد الله ، ومر بقراءة كتابنا هذا إليك على المسلمين قبلك فى جامع موضعك ، ليحمدوا الله عز وجهه ، على عظيم ما اصطنعه إليهم ، ووهبه لهم ، وليحدثوا من شكره تعالى على ما درأ عنهم ، والتقرب بنوافل الحمد إليه ، ما يستدام له رضاه عز وجهه ، ويستجلب به المزيد من نعمه ، إن شاء الله وهو المستعان ، وكتب يوم الخميس لخمس من ذى الحجة سنة خمس عشرة وثلث ماية » .

ويقول لنا الرازى ، إن الناصر لما خرج إلى ببشتر ، وأمر بهدمها ، أمر بالإبقاء على القصور والقصاب ، التى أبقاها لعماله وحشمه الذين ندبهم للقيام بها ، فدكت أسوارها ، وحطت أعلامها ، وإنه أى الناصر أصدر كتاباً بحوادث ببشتر ، والأمر بهدمها ، وهدم مسجدها الذى أقامه ابن حفصون ، لأنه كان ستاراً لفسقه المسلمين ، والأمر بإحراق منبره « الذى دعى فيه للخنزير الضال ، ومن خلفه من نسله الخبيث ، وأعلن عليه بدعوة الشيعة »[1] .

---

(١) ابن حيان فى المقتبس — السفر الخامس — مخطوط الخزانة الملكية لوحات ٩٤ و ٩٥ و ٩٦ .

ولم يغفل عبد الرحمن فى الوقت الذى كانت فيه ثورة ابن حفصون وأبنائه فى جنوب الأندلس ، تشغل معظم عنايته ،عن مطاردة الثورة فى الأنحاء الأخرى. وكانت طليطلة من أمنع معاقل الثورة ، فسير عبد الرحمن جنده لحصارها ، وفيها لُبّ بن الطربيشة وهو من زعماء المولدين ، واستمر الحصار زهاء عامين حتى نضبت موارد المدينة ،وخبت عزائم أهلها واضطرت فى النهاية إلى التسليم والإذعان. وسار لبّ مع الأمير بقواته إلى الغزو فى أرض النصارى (سنة ٣٠٨ هـ) . وكانت بطليوس وأحوازها منذ أكثر من أربعين عاماً ، معقلا من معاقل ثورة المولدين . وكان بنو مروان الجليقى مايزالون يسيطرون على تلك المنطقة ، وكانوا من أخطر الخوارج وأشدهم مراساً ، يمالئون الأمراء النصارى ويحالفونهم على حكومة قرطبة . فى سنة ٣١١ هـ ( ٩٢٣ م ) ، هلك عبد الله بن محمد بن مروان الجليقى صاحب بطليوس قتيلا بيد بعض المخالفين من أصحابه ، فقام مكانه ولده عبد الرحمن ، واستبد بمدينة بطليوس وما حولها ، واستمر بضعة أعوام على خروجه وتحديه لحكومة قرطبة .

وفى ربيع الأول سنة ٣١٧ هـ ( إبريل ٩٢٩ م ) خرج الناصر من قرطبة متجهاً نحو الغرب ، ومعه ولداه الحكم والمنذر وعدة من الوزراء ، واستخلف على القصر ولده عبد العزيز . وبعث الناصر ينذر المتخلفين عن الطاعة ، بوجوب الدخول فى طاعته ، والتخلى عن العصيان ، وفى مقدمتهم صاحب بطليوس عبد الرحمن بن عبد الله الجليقى . ووصل الناصر بجيشه إلى بطليوس فى أواخر ربيع الآخر من هذه السنة وحاصر بطليوس ، وقاتل المتصدين للمقاومة حتى هزموا واقتحم أرباضهم ، وأحرقت ديارهم ، فامتنعوا داخل المدينة ؛ فعهد الناصر بقتالهم إلى القائد أحمد بن إسحق القرشى فى قوة كثيفة ، فشدد فى حصار المدينة ، واقتحم ما حولها من الحصون ، ثم ضربها بالمجانيق بشدة ، وقطع عنها كل مورد ، واشتد بأهلها الضيق ، واضطر الجليقى إلى الإذعان وطلب الأمان ، فأجابه الناصر إليه ، وأسكنه هو وأهله وأكابر رجاله بحضرة قرطبة ، وعين لبطليوس والياً جديداً هو عثمان بن عبد الله ، وكان خضوع بطليوس فى سنة ٣١٨ هـ ( ٩٣٠ م ) .

ولما غادر الناصر بطليوس سار إلى مدينة باجة ، أقصى قواعد الغرب ،

وفيها الثائر عبد الرحمن بن سعيد بن مالك ، فنزل عليها ، وأنذر صاحبها بالدخول فى الطاعة ، فلم يقبل النصح ، فطوقها وحاصرها بشدة ، حتى أجهد أهلها الجوع والعطش ، وتساقطوا من الإعياء ، وعندئذ اضطر صاحبها إلى الإذعان ، فمنحهم عبد الرحمن الأمان ، وأمن صاحبها وآله ، وخرجوا إليه تائبين مستسلمين ، فبعثهم إلى قرطبة . وكان افتتاح باجة فى منتصف جمادى لآخر سنة ٣١٧ هـ . ونظر الناصر فى مصالح المدينة ، ثم عين لها والياً من قبله ، هو عبد الله بن عمرو ابن مسلمة ، وزوده بحامية كافية .

وتحول عبد الرحمن بعد ذلك إلى مدينة أكشونبه على مقربة من ساحل المحيط الجنوبى ، وبها الثائر خلف بن بكر ، فبادر إلى الطاعة معتذراً ، وأقره الناصر على ولايته ، على أن يلتزم بأداء الجباية وبحسن السيرة .

وقضى الناصر فى هذه الغزوة زهاء ثلاثة أشهر ، طهر خلالها أنحاء ولاية الغرب من آثار الخروج والثورة ، ثم قفل إلى قرطبة فوصل إلى القصر فى منتصف رجب[1] . وكان الناصر قد سار بنفسه إلى تدمير وبلنسية ، وذلك فى سنة ٣١٢ هـ ( ٩٢٤ م ) أثناء مسيره إلى غزوة بنبلونة الكبرى ، حسبما نفصل بعد . فطارد الخوارج والعصاة فى شرقى الأندلس ، واستولى على معاقلهم ومزق شملهم . وفى سنة ٣١٤ هـ ( ٩٢٦ م ) سير الناصر وزيره القائد عبد الحميد ابن بسيل إلى الثغر الأعلى لمقاتلة بنى ذى النون ، وكانوا قد عادوا إلى الخلاف والعصيان ، وأكثروا من الفساد والعدوان على من جاورهم من المسلمين وأهل الذمة ، فقصد إلى معقلهم شنت بَرِيَّة واقتحمها ، وقتل كبيرهم محمد بن محمد ابن ذى النون ، وعدة أخر من رجالهم ، وافتتح مدينة سُرية من مدنهم ، وولى عليها عاملا للسلطان . وخضعت شنت برية وما والاها للطاعة ، ودرت جبايتها من ذلك الحين[2] . وفى سنة ٣١٧ هـ ، افتتحت مدينة شاطبة ، واستنزل عنها صاحبها عامر بن أبى جوشن الثائر بها ، بعد أن ترددت الحملات عليه ، مدى خمسة أعوام ، وكان خضوعه على يد صاحب الشرطة العليا درّى بن

(١) ابن حيان فى المقتبس — السفر الخامس — لوحات ١٠٠ و ١٠١ و ١٠٩ ، والأوراق المخطوطة الخاصة بعهد الناصر ص ٨١ .

(٢) ابن حيان فى المقتبس — السفر الخامس — لوحة ٨٥ أ .

عبد الرحمن ، واشترط عامر عند استسلامه أن يمنح الإقامة مدة فى حصن «شنت مرية» من حصونه ، حتى ينظم شئونه ويسير فى أهله إلى قرطبة ، فأجيب إلى طلبه(١) . وهكذا أخمدت الثورة فى سائر النواحى ، بعد أن لبثت زهاء نصف قرن تستنفد قوى الأندلس ومواردها ، وتفت فى عضدها ، وتقعدها عن الكفاح ضد عدوها الحقيقى المتربص بها ، ونعنى إسبانيا النصرانية .

— ٢ —

كانت إسبانيا النصرانية فى خلال تلك الفترة التى اضطرمت فيها الأندلس بالفتن ، وشغلت حكومة قرطبة بأمر الثورة فى النواحى ، تسير قدماً فى سبيل القوة والتوطد، وتعمل جاهدة لانتهاز كل فرصة للكيد للأندلس ، وممالأة ثوارها والعيث فى أراضيها . وكانت تنقسم عندئذ إلى إمارتين أو مملكتين متحالفتين ، هما مملكة ليون ( أو مملكة جليقية ) ، ومملكة ناقار ( نبرة أو بلاد البشكنس ) . وكانت ليون وهى الواقعة فى الشمال الغربى بين المحيط ونهر دورة ، أكبر المملكتين وأوفرهما قوة ومنعة ، وكانت بذلك تتولى قيادة إسبانيا النصرانية ، فى ميدان الكفاح الخالد بينها وبين إسبانيا المسلمة . وكانت قواعد الأندلس الشمالية التى تتاخم مملكة ليون ، مثل أسترقة وسمورة وشلمنقة وشقوبية ومبراندة ، قد خلت منذ أواخر القرن الثامن من معظم سكانها المسلمين ، واستوحش العرب والبربر ، لقلتهم فى تلك الأنحاء ، وكثر اعتداء النصارى عليهم ، وتوالى القحط فى تلك الربوع ، فهاجروا إلى الجنوب ،وجاء ملك ليون ألفونسو الثالث ( أواخر القرن التاسع ) ، فعاث فى تلك المنطقة ، وفتك بمن فيها من المسلمين ، ثم ارتد إلى جباله . ولبثت هذه المنطقة قفراً خالية تقريباً ، يتبادلها المسلمون والنصارى من وقت إلى آخر ، وشغلت حكومة قرطبة بأمر الثورة فلم تستطع رد الاعتداء ، وانتهز ألفونسو الثالث تلك الفرصة ، فدفع حدود مملكته جنوباً حتى نهر دورة . واختط هنالك عدة قلاع منيعة ، كان يتخذها النصارى قواعد للإغارة على الحدود الإسلامية ،واجتياح المسلمين العزل بالنار والسيف ،وقتل النساء والأطفال والشيوخ ، ونهب الأموال والمتاع . وجرى ولده غرسية على هذه السياسة الدموية الغاشمة . وكانت إسبانيا النصرانية تنظر من خلال هضابها القفرة ، ومواردها

---

( ١ ) ابن حيان فى المقتبس – السفر الخامس ، لوحة ١٠١ ب .

الضئيلة ، وفقرها المدقع ، إلى وديان الأندلس النضرة ، وإلى نعمائها الوافرة ، وحضارتها الزاهرة ، بعين المقت والحسد ، وتعمل جاهدة لبث الدمار والويل إلى هاتيك الربوع السعيدة . وكان على حكومة قرطبة أن تعمل على حماية الأندلس وحماية تراثها وحضارتها ، من هذا العدوان المخرب الذى أخذ يشتد يوماً عن يوم .

وكان عبد الرحمن حينما ولى الملك ، يؤثر الإغضاء حيناً عن محاربة النصارى ، لكى يكرس جهوده وقواه لقمع الثورة ، وتطهير الأندلس من عناصر الفتنة ؛ ولكن النصارى رأوا بالعكس أن يعملوا على انتهاز الفرصة ، وإذكاء نار الفتنة والفوضى فى الأندلس . فما كاد عبدالرحمن يلى الملك ، حتى بادر أردونيو الثانى ( أرذون ) ملك ليون بالإغارة على الأراضى ، الإسلامية واتجه أولا نحو منطقة الغرب لنأيها وضعف وسائل الدفاع عنها ، وقصد إلى مدينة يابُرة ، الواقعة غربى بطليوس . ويقول لنا الرازى إن أردونيو نزل على يابرة فى يوم ١٣ من المحرم سنة ٣٠١ هـ ( أغسطس ٩١٣ م ) وأنه كان فى جيش يقدر بثلاثين ألفاً من الخيل والرجل والرماة ، وكان على يابرة يومئذ عاملها مروان عبد الملك بن ، فبذل جهده لمدافعة الغزاة ؛ وطوق أردونيو المدينة من سائر نواحيها ، وهاجمتها قواته من كل صوب ، ودافع المسلمون عن مدينتهم من فوق الأسوار ، حتى أرغموا بفعل السهام على النزول عنها وتسلق النصارى الأسوار ، ودخلوا المدينة ، واضطرمت بينهم وبين المسلمين داخلها معارك شديدة ، وفنى المسلمون شيئاً فشيئاً حتى قتلوا جميعاً ، ولم تنج منهم سوى شرذمة قليلة ، فرت تحت جنح الظلام إلى مدينة باجة . وسبى النصارى سائر النساء والذرية ، وقتل مروان بن عبد الملك عامل المدينة مدافعاً عنها ، وبلغ السبى أكثر من أربعة آلاف من النساء والولدان . وترك أردونيو المدينة خراباً يبابا ، وعاد فى قواته إلى جليقية . وبث هذا الحادث الروع والفزع فى سائر قواعد الغرب ، فأخذ أهلها فى إصلاح أسوارهم ، وقام أهل بطليوس بالأخص فى ذلك بمجهود ضخم ، ودعموا أسوارهم ، وزادوا فى عرضها وارتفاعها ، بقيادة عاملهم عبد الله بن محمد الحليقى(١) . وفى سنة ٣٠٣ هـ ( ٩١٥ م ) ، سار أردونيو فى قواته مرة أخرى إلى منطقة الغرب ، فى جيش تقدره الرواية الإسلامية بستين ألفاً ،

---

(١) ابن حيان عن الرازى — السفر الخامس — مخطوط الخزانة الملكية — لوحة ٥١ أ و ب

فعبر نهر التاجُه ، واشترك فى إرشاده إثنان من الأدلاء المسلمين ، من بربر مصمودة من البرانس ، ولكنهما كانا يضمران عكس ما طلب إليهما ؛ واتجه أردونيو جنوباً صوب حصن مدلين ، وقاده الدليلان المسلمان من طريق صعبة وعرة ، فلم يخرج منها إلا وقد نهك جيشه ، فأمر بالدليلين فأعدما ، وسار حتى وصل إلى الحصن ، فاستولى عليه دون مقاومة وأصاب فيه بعض الغنائم ، ثم سار إلى قلعة الحنش ( ألانية ) ، الواقعة جنوبى ماردة ، وكان يسكنها يومئذ برانس كتامة ، وكانوا فى عدد وافر وعلى أتم استعداد للمقاومة ، وكان المقدم عليهم يسمى بابن راشد ؛ فهاجم النصارى الحصن ، ودافع المسلمون عن أنفسهم أشد دفاع ، ولكنهم هزموا فى النهاية وقتل معظمهم ، وقتل ابن راشد فيمن قتل ، ودخل النصارى الحصن فقتلوا كل من وجدوه ، وسبوا النساء والذرية ، وهدموا الحصن . ثم سار أردونيو فى اليوم التالى إلى ماردة ، ولكنه وقف أمامها ذاهلا من حصانتها ، واعتزم الكف عن قتالها ، وبعث إليه قائد المدينة محمد بن تاجيت رسولا يستلطفه ، وأهدوا إليه فرساً رائعاً من عتاق الخيل بسرجه وعدته ، فقبله وأعجب به ، وتركهم ورحل عنهم . ولكنه عاث حين قفوله فى تلك المنطقة ، وقتل وسبى كثيراً من سكانها ، واستولى على بعض قلاعها ؛ ثم قصد إلى مدينة بطليوس ، فارتاع أهلها واسترضوه بالمال والحلى ، وعبر النصارى نهر دويرة قافلين إلى ديارهم مثقلين بالغنائم والسبى دون أن يعترض سبيلهم معترض[١] .

وبقيت يابرة خراباً نحو عام ، حتى بعث عبد الله بن محمد الجليقى ، صاحب بطليوس حليفه مسعود بن سعدون المعروف بالسرنباقى ، ومن معه من قومه الشاردين عن الجماعة إلى مدينة يابرة ، فنزلها مسعود بأهله وولده وصحبه ومن معهم ، وكان منهم كثير ممن لجأ من قبل من أهل يابرة إلى باجة وأكشونبه ؛ وابتنى لهم الجليقى أسوار المدينة ، وأمدهم بالأطعمة والدواب والكسى ؛ وعلى أثر ذلك قصد الناس إلى يابرة فاستوطنوها ، وعمرت بسكانها مرة أخرى[٢] ؛

---

( ١ ) ابن حيان فى السفر الخامس من المقتبس – مخطوط الخزانة الملكية ، لوحة ٦٠ أ و ب وابن خلدون ج ٤ ص ١٤١ .

( ٢ ) المقتبس – السفر الخامس ، لوحة ٥٣ و ٥٤ .

وكانت هذه المنطقة التى غزاها النصارى وهى منطقة ماردة ، من المناطق الثائرة . ولكن عبد الرحمن كان أبعد نظراً من أن يغضى عن عدوان يقع فى صميم الأراضى الإسلامية . هذا إلى أنه رأى أن يأسر قلوب الثوار ، بإنجادهم والانتقام لهم ، وأن يرد عدوان النصارى بمثله . ففى فاتحة سنة ٣٠٤ هـ (٩١٦ م) سير عبد الرحمن وزيره وقائده أحمد بن محمد بن أبى عبدة فى جيش قوى ، غازياً إلى أراضى مملكة ليون ، فالتقى بالنصارى وهزمهم فى عدة وقائع محلية ، وعاث فى أراضيهم وسبى وغنم غنائم كثيرة(١) . وفى العام التالى أراد أردونيو الثانى الانتقام لهزائمه ، فعاث فى منطقة طلبيرة(٢) ، وأحرق مدنها وانتسف ضياعها ، فضج المسلمون لهذا البلاء ، وتضرعوا إلى مليكهم أن ينقذهم من هذا العدوان الصارخ .

فسير عبد الرحمن قائده أحمد بن أبى عبدة ثانية إلى أرض النصارى فى جيش ضخم من المدونين ، والمتطوعة ، وانضم إليه حين دخوله إلى الثغر ( الحدود ) خلق كثير ، واخترق المسلمون أراضى قشتالة ، وزحفوا إلى قلعة شنت إشتين الواقعة على نهر التاجُه ، وكانت تسمى أيضاً قلعة قاشترو مورش(٣) ، وهى من أمنع قلاع النصارى على الحدود ، وضربوا حولها الحصار الصارم ، ثم نازلوها بشدة ، وكادت تسقط فى أيديهم ، لولا أن هرع إلى إنجادها أردونيو فى جموع ضخمة من النصارى ؛ وكان الجيش الإسلامى بالرغم من تفوقه فى الكثرة مختل النظام ، مفكك العرى ، يتألف سواده من البربر والمرتزقة الذين لا يعتمد على ولائهم وشجاعتهم ، وكانوا يحرصون على غنائمهم أكثر من حرصهم على مقاتلة العدو ، فلما انقض أردونيو بقواته على المسلمين ، تسللت منهم وحدات كثيرة ، وارتدت أمام المهاجمين ، ودب الهرج إلى صفوف المسلمين . ولكن قائدهم الشجاع أحمد بن أبى عبدة فضل الموت على الارتداد ، فصمد فى مكانه فى نفر من أشجع ضباطه وجنده ، فقتلوا جميعاً ، وهلك معهم عدة من أكابر الفقهاء والمجاهدين . وكانت هزيمة مروعة . وكان ذلك فى الرابع عشر من ربيع الأول سنة ٣٠٥ هـ ( ٤ سبتمبر سنة ٩١٧ م ) . وتقول

---

( ١ ) البيان المغرب ج ٢ ص ١٧٦ .

( ٢ ) وهى بالإسبانية **Talavera** ، وهى تقع على نهر التاجه غربى طليطلة .

( ٣ ) **San Esteban** أو **Castro Moros**

الرواية الإسلامية إن فلول الجيش الإسلامى ، استطاعت أن ترتد بعتادها ومتاعها سالمة إلى الأراضى الإسلامية[١] . ولكن الرواية الإسبانية تقول بالعكس إن هزيمة المسلمين كانت ساحقة ، وبلغ من روعتها أن غصت سائر التلال والسهول والغابات الممتدة جنوباً من دويرة إلى أنتيسة[٢] ، بقتلاهم وأشلائهم[٣].

وكان لذلك الخطب وقع عميق فى بلاط قرطبة . وكان عبد الرحمن يعتزم المبادرة إلى غزو ليون بنفسه ، لولا أن شغلته عندئذ حوادث إفريقية ، على أنه اضطر غير بعيد أن ينهض لرد اعتداء النصارى. ذلك أنه لم تمض بضعة أشهر حتى عاد أردونيو الثانى وحليفه سانشو ( شانْجُه ) ملك ناڤار ، إلى غزو الأراضى الإسلامية فى منطقة الثغر الأعلى ، وذلك فى ربيع سنة ٩١٨ م . وكانت موقعة شنت إشتين قد ضاعفت من جرأة النصارى واستهتارهم ، فعاثوا فى أحواز ناجرة وتطيلة . واستولى سانشو على بلدة بلتيرة[٤] وأحرق مسجدها الجامع ونكل بأهلها . يقول ابن حيان : « وانقلب الكفرة لعنهم الله إلى بلادهم أعزة ، فكان هذا مما أحفظ الناصر لدين الله وحرّكه لمجاهدة أعداء الله ، ورغبه فى الانتقام منهم بمن الله تعالى »[٥] . وكان عبد الرحمن فى الواقع يتوق إلى الانتقام لهزيمته الفادحة فى شنت اشتين ومقتل قائده الشهم ، ولم ينس أن أردونيو سمر رأسه فى جدران شنت إشتين ، فحشد جيشاً ضخماً لمقاتلة النصارى بإمرة حاجبه بدر بن أحمد ، وبعث الأوامر والكتب إلى أهل الثغور بالنهوض لتأييده ، ومعاونته على معاقبة النصارى ورد عدوانهم والإيقاع بهم . وخرج بدر فى جيشه الضخم من قرطبة فى المحرم سنة ٣٠٦ هـ ( أوائل يوليه سنة ٩١٨ م ) ، وهرع إليه أهل الثغور ( الأطراف ) من كل ناحية ، ظمئين إلى الجهاد والانتقام . وكذلك احتشد النصارى من سائر الأنحاء لرد الغزاة . ونفذ المسلمون كالسيل

---

( ١ ) هذا قول ابن حيان فى السفر الخامس من المقتبس — مخطوط الخزانة الملكية، لوحة ٦٤ أ ، وكذلك البيان المغرب ج ٢ ص ١٧٨ .

( ٢ ) هى بالإسبانية **Atienza**

( ٣ ) **Dozy : Hist, Vol. II. p. 117**

( ٤ ) ناجرة هى بالإسبانية **Najera** ، وبلتيرة هى **Valterra** ، وكلتاهما تقع فى أحواز تطيلة .

( ٥ ) السفر الخامس من المقتبس — لوحة ٦٦ ب .

وقضى عبد الرحمن أربعة أيام يجمع الأسلاب والنعم، ويهدم الديار ويقطع الأشجار: وأصاب المسلمون كثيراً من الأسلاب والغنائم . وحدثت هذه الوقيعة الساحقة على النصارى ، فى اليوم السادس من شهر ربيع الأول سنة ٣٠٨ هـ ( ٢٦ يوليه ٩٢٠ م ) . وهدم عبد الرحمن حصون العدو ، وأصلح حصون المسلمين ، وفى مقدمتها حصن بقيرة Viguera المشرف على حدود نافار ، وزودها بالعتاد والمؤن .

وفى اليوم السابع والعشرين من ربيع الأول ، قفل عبد الرحمن عائداً إلى قرطبة ، وتوقف فى طريقه يوماً بمدينة أنتيسة على مقربة من مدينة سالم ، وفرق الأموال والكسى فى أهل الثغر ، وأذن لهم بالعودة إلى ديارهم ، ووصل إلى قصر قرطبة فى يوم الخميس الثالث عشر من ربيع الآخر سنة ٣٠٨ هـ ( أواخر سبتمبر سنة ٩٢٠ م ) بعد أن قطع فى غزوته هذه ثلاثة أشهر ، وكانت غزوته الأولى فى مقاتلة النصارى ، وكان ممن شهدها معه سليمان بن عمر بن حفصون المستأمن إليه ، فأبلى فيها بلاء حسناً ، وبها ارتفع شأوه ، وتوطدت سمعته[1] .

وكان عبد الرحمن يرجو أن يكون هذا الدرس بعيد الأثر فى ردع النصارى ووقف عدوانهم . ولكنه أخطأ الظن . ذلك أنه لم يمض سوى عامين حتى أغار أردونيو على ناجرة واستولى عليها ، وسار حليفه سانشو إلى بقيرة ، وكان يتولى الدفاع عنها عبد الله بن محمد بن لب ، ومعه نفر من زعماء بنى لب وبنى ذى النون وغيرهم من الوجوه الأكابر ، فحاصرها سانشو واستولى عليها ، وأسر من فيها من الزعماء وحملهم إلى بنبلونه ثم قتلهم ، ولم ينج منهم سوى مطرف بن موسى ابن ذى النون حيث استطاع الفرار من سجنه . فضجت الأندلس من أقصاها إلى أقصاها لتلك الفعلة البشعة ، ووجهت سهام اللوم إلى عبد الرحمن لقصوره أو تقصيره ، فى حماية الثغور وحماية الزعماء والقادة ، ولم يك ثمة مناص من العمل على تهدئة الخواطر ، والانتقام لذلك الاجتراء . وسير عبد الرحمن مولاه ووزيره

---

( ١ ) ابن حيان فى السفر الخامس من المقتبس – مخطوط الخزانة الملكية – لوحة ٧١ ب ـ ٧٤ أ و ب، و الأوراق المخطوطة الخاصة بعصر الناصر ص ٦٣ و ٦٤ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ١٨٧ – ١٨٩ ، وكذلك Dozy : Hist., V. II. p. 114 & 143, Crónica General ; ibid. Vol. II. p. 386 .

عبد الحميد بن بسيل إلى الثغر الأعلى فى جيش قوى ، ريثما يتم هو أهبته ( ربيع سنة ٣١١ هـ — ٩٢٣ م ) ، فقصد إلى تطيلة وجازمنها إلى أراضى نبرّة ( نافار ) ، وعاث فيها ، وقاتل سانشو وهزمه فى عدة وقائع . ولم تمض بضعة أشهر أخرى ، حتى أتم عبد الرحمن أهبته ، ولم يصبر على انتظار الربيع وهو موعد الصوائف ، بل غادر قرطبة فى السادس عشر من المحرم سنة ٣١٢ هـ ( ١٧ إبريل سنة ٩٢٤ م ) فى قوى جرارة ، وهو يعتزم التنكيل بالنصارى ، والانتقام الذريع لجناية بقيرة ، وترك فى القصر إبنه الأكبر وولى عهده الحكم ، وهو صبى فى نحو العاشرة من عمره ، وإلى جانبه الوزير أحمد بن محمد بن حدير ، وسلك الناصر إلى الثغر طريق المشرق ، مخترقاً كورة تدمير ، فكورة بلنسية ، ونازل فى طريقه مدينة لورّقة ، وكان يمتنع بها زعيمها الثائر عبد الرحمن بن وضاح ، فأخضعه بالأمان ، وبعثه مع أهله إلى قرطبة . ثم تقدم منها إلى مدينة مرسية ، فاستنزل بها يعقوب بن أبى خالد التوزرى وزملاءه العصاة ، وأخضع بعض حصون أخرى فى قطاع بلنسية ، ثم سار إلى طرطوشة ونظر فى شئونها ، وتقدم بعد ذلك صوب سرقسطة ، وهنالك انضم إليه التجيبيون وحلفاؤهم .
ولما وصل إلى تطيلة هرع إليه زعماء الثغر بقواتهم ، وهم فى جموع وافرة وتعبية محكمة ، ودخل أراضى نافار فى أوائل ربيع الآخر ( يوليه ) . فساد الذعر بين النصارى ، وترك العدو معظم قلاعه وحصونه دون دفاع ، وكان أول ما استولى عليه المسلمون حصن قلهرّة وكان سانشو قد أخلاه ، فأمر عبد الرحمن بهدمه وإحراق ما فيه ، ثم استولى عبد الرحمن على حصن قلقرة ، ومحلة بيطرالته ( بيرالتا )[1] الواقعة شمال شرقى قلهرة وما حولها من الحصون ، وقتل وسبى كل من وجد بها من النصارى ؛ ثم سار إلى حصن بالحش القريب منها وأحرقه ، وخرب ما حوله من الضياع والزروع ، واستولى بعد ذلك على حصن قرقشتال ( كاركاستيلو ) فى وادى أراجون شرقى بيرالته ، وشمال شرقى تطيلة ، وهدم سائر القلاع فى تلك المنطقة أو أحرقها . ثم نفذ عبد الرحمن إلى قلب نافار وزحف على عاصمتها بنبلونة ، وحاول ملكها سانشو غير مرة أن يعترض طريقه فى شعب الجبال ، فكان يرد فى كل مرة بخسارة فادحة . ودخل

(١) يبدو أن بيطرالته هو المكان الذى يسميه ابن حيان « قنطرة أبة » .

عبد الرحمن بنبلونة ، وقد فر سكانها رعباً ، فدمرها وأحرق قصورها وكنائسها ، وجد سانشو فى جمع قواته ووافته الأمداد من قشتالة ، وحاول لقاء المسلمين فى مفاوز ناڤار الوعرة مرتين ، الأولى على مقربة من شنت إشتبن ، والثانية على مقربة من قلهرّة ، ولكن عبد الرحمن كان على حذر ، وكان يعرف تلك المفاجآت الخطرة ، فهزم النصارى فى كلتا الموقعتين ومزقوا شر ممزق ، وانهارت كل مقاومة ، وبذلك تم إخضاع ناڤار وسحق قواتها ( ربيع الثانى ٣١٢ هـ — أغسطس ٩٢٤ م ) .

ثم سار عبد الرحمن جنوباً إلى حصن مسرة ، وهو أول حصون المسلمين على حدود نبرّة ، فعهد إلى من فيه بادخار الأطعمة ، وفرق فيهم الأموال . ورحل بعد ذلك إلى مدينة تطيلة ، فوصلها فى اليوم السابع والعشرين من ربيع الثانى ، ثم قفل منها راجعاً إلى الحضرة ، وتوقف خلال الطريق بمدينة شنت برية مقر بنى ذى النون ، وكان زعيمهم يحيى بن موسى بن ذى النون قد خلع الطاعة ، والتزم العصيان مستقلا بسلطانه ، فلما أشرف الناصر على معقله ، خرج إليه نادماً مستغفراً منضوياً فى ظل طاعته ، فتقبل الناصر توبته ، ودخل الناصر قصر قرطبة فى يوم الخميس الثانى والعشرين من جمادى الأولى سنة ٣١٢ هـ ، وقد أنفق فى غزوته أربعة أشهر ، وهى تعرف فى الرواية الإسلامية « بغزوة بنبلونة »(١) .

ولم يمض سوى قليل حتى توفى أردونيو الثانى ملك ليون (سنة ٩٢٥ م) ، فخلفه فى الملك أخوه «فرويلا» ، فلم يحكم سوى عام ثم توفى ؛ فتنازع العرش سانشو وألفونسو ولدا أردونيو ، وشغلت ليون بحرب أهلية استمرت بضعة أعوام ، وانتهى طورها الأول بوفاة سانشو . ثم نشبت ثانية بين ألفونسو وأخيه راميرو ، وانتهت بفوز راميرو ، وجلوسه على عرش ليون باسم راميرو الثانى ، وذلك سنة ٩٣٢ م .

ولم يتدخل عبد الرحمن فى تلك الحرب الأهلية ، فترك النصارى يمزق بعضهم بعضاً ، وانتهز الفرصة ليتم سحق الثورة ، وتوطيد السكينة داخل مملكته ، حسبما

---

( ١ ) ابن حيان فى المقتبس — السفر الخامس — مخطوط الخزانة الملكية — لوحة ٨٠ — ٨٣ والبيان المغرب ج ٢ ص ١٩٥ — ٢٠١ ؛ وكذلك **Dozy : Hist, V. II. p. 144—145** .

فصلنا فى موضعه ، وليقضى على دعوة الفاطميين فى المغرب الأقصى :

وكان راميرو الثانى أو رذمير كما تسميه الرواية الإسلامية ، ملكاً مقداماً شديد البأس . فما كاد يلى العرش حتى نشط إلى استئناف الصراع القديم ضد المسلمين ، وكان يرى أن العمل على إذكاء عوامل الفتنة فى المملكة الإسلامية هو خير السبل إلى تبديد قوى المسلمين ؛ وكانت مدينة طليطلة قد عادت تضطرم بعوامل الفتنة والثورة ، وشجع راميرو بدسائسه ووعوده ، زعماءها على التمادى فى غيهم ، فأرسل إليهم عبد الرحمن وفداً من العلماء يخطب ودهم ويحثهم على الخضوع والطاعة ، فرفضوا نصحه بكبرياء وصلف ، معتمدين على مؤازرة ملك ليون . فبادر الناصر [1] بالسير إلى طليطلة فى قوات ضخمة ، وذلك فى ربيع الثانى سنة ٣١٨ هـ ( مايو سنة ٩٣٠ م ) وضرب حولها الحصار وانتسف ما حولها من المروج ، ثم غادرها بعد بضعة أسابيع ، وترك لحصارها بعض قواته ، ثم عاد فسار إليها بعد ذلك بعامين فى صيف سنة ٣٢٠ هـ ( يونيه سنة ٩٣٢ م ) معتزماً فى هذه المرة أن ينزل بها الضربة القاضية . وهنا حاول راميرو أن يسعى إلى إنقاذ المدينة المحصورة ، استجابة لنداء أهلها ، فسار لإنجادها فى بعض قواته ، واستولى فى طريقه على حصن مجريط [2] . ولكن القوات الإسلامية استطاعت أن ترده قبل أن يصل إلى طليطلة ، فاضطر أن يترك المدينة الثائرة لمصيرها ، وفقد الثوار بذلك كل أمل فى المقاومة ، وأضنتهم مصائب الحصار ، فاضطروا فى النهاية إلى الإذعان والتسليم ، ودخل الناصر طليطلة ظافراً ( رجب سنة ٣٢٠ هـ ) ، وشهد مبلغ منعتها وكثافة أسوارها ، وأمر بهدم حصونها ، وفقدت الثورة فى الأندلس بسقوط طليطلة أمنع معاقلها .

وفى العام التالى ، سنة ٣٢١ هـ ( ٩٣٣ م ) ، سار ملك ليون إلى مدينة أوسمة ( وخشمة ) التى كان يهددها المسلمون ، فردهم عنها واحتلها ، وكانت أوسمة ، وهى تقع شرقى شنت إشتبين على مقربة من دويرة ، وعلى خط الحصون الفاصل بين الأراضى الإسلامية وقشتالة القديمة ، من القواعد الدفاعية الهامة ، ومن ثم فقد اعتزم الناصر أن يسير لاستردادها بنفسه ، فخرج بالصائفة

---

(١) كان عبد الرحمن قد اتخذ سمة الخلافة وتلقب بالناصر لدين الله منذ سنة ٣١٧هـ حسبما نبين بعد .

(٢) هو حصن ومحلة منيعة أنشأها الأمير محمد بن عبد الرحمن سنة ٢٤٦ هـ ( ٨٦٠ م ) على ضفة نهر منثارس ضمن منطقة الحصون الدفاعية بين الأندلس ومملكة ليون . وقد استمرت تؤدى دورها الدفاعى حتى سقطت أخيراً فى يد القشتاليين سنة ٤٧٦ هـ ( ١٠٨٣ م ) ، وعلى موقعها أقيمت مدينة مدريد الحديثة .

من قرطبة فى منتصف جمادى الأولى سنة ٣٢٢ هـ (مايو ٩٣٤ م) ، فى جيش كثيف حسن الأهبة ، وكانت قواته فى هذه المرة ترفع أعلام العقاب المصورة ، التى كان أول من استعملها ، وكان معه ولده الأكبر وولى عهده الحكم ، واستخلف فى القصر ولده عبيد الله . وقصد الناصر إلى دار الحرب (أراضى النصارى) من طريق مدينة الفرج أو وادى الحجارة ، وذلك لكى يضع حداً لما أبداه محمد بن هاشم التجيبى صاحب سرقسطة ، من أعراض الخلاف ، والتوقف عن اللحاق به حسبما أوعز إليه ، فتحول نحو أراضيه مما يلى غرب الثغر الأعلى ، واحتل حصن ماومده من حصونه ، بعد أن بادر أهله بالطاعة ، ثم تقدم إلى حصن روطة اليهود على مقربة من سرقسطة ، وكان به أخوه يحيى بن هاشم ، وافتتحه قسراً . ثم سار إلى سرقسطة ، وطوقها ببعض قواته ، وبعث قوات أخرى إلى تطيلة وطرسونة . ولكنه رأى بعد ذلك أن يتحول بقواته إلى غزو أراضى النصارى ، وكان أقربها إليه أراضى نبرّة (نافار) . وهنا وفدت عليه رسل تيودا (طوطة) إبنة شنير ملكة نافار ، التى قامت بالأمر بعد وفاة زوجها سانشو ملك نافار وصية على ولدها غرسية ، ترجو عقد الصداقة ، والسلم . فرحب الناصر بطلبها ، ووفدت عليه فى وجوه مملكتها وقواميسها وأساقفتها ، وهو بمحلة قلهرّة ، فاستقبلها الناصر ومن حوله جيوشه الكثيفة ، العظيمة الأهبة ، وأكرم منزلتها ، وتعهدت لديه بالطاعة ، والابتعاد عن محالفة أى ملك أو أمير نصرانى ، وكف الأذى عن المسلمين ، ومعاونة قواد الثغر الأعلى فى محاربة كل من خرج على الطاعة ، وأخيراً أن تخلى سبيل وجوه بنى ذى النون الذين فى اعتقالها . وسجل الناصر ذلك وأشهد عليه ، وأقر الناصر من جانبه ولدها غرسية ، ملكاً على بنبلونة وأعمالها (بلاد البشكنس) ، وانصرفت مع رجالها مزودة بالهدايا والكسى الفاخرة ، وفى وفود طوطة على الناصر يقول الشاعر إسماعيل بن بدر :

| | |
|---|---|
| وقيـــدت زعيمتهم إليه | كبلقيس تحف به الجنـــود |
| تلفت لا ترى إلا شهاباً | به يرمى وتختطف العديد |
| فبادرت السجود لنور وجه | له رحب التواضع والسجود |
| فأوسعها بفضل العفو أمناً | وقد كادت بمهجتها تجود |

فدام يسوسنا ما دام شبه له فى الأرض طالعه السعود

وسار الناصر بعد ذلك إلى أراضى ألبة والقلاع ، وتوغل فيها ، ففر النصارى من السهول ، واعتصموا بالجبال ، وكان أول ما استولى عليه من حصون العدو ، حصن المنار ، وهو من أعظم حصون ألبة ، فدمره المسلمون ، ودمروا حدائقه ، ولم تبق منها قائمة . وتردد المسلمون بعد ذلك فى مختلف الأنحاء ، وهم يدمرون فى طريقهم كل شىء ، حتى وصلوا إلى حصن أنة ، فهدموه ، وأتلفوا حدائقه ومصانعه ، وكان ضمن أبنيته كنيسة فخمة ، وضمن سكانه ثلاثمائة راهب . واجتاح الناصر سائر بقاع ألبة . ثم نزل على قلونية فى شهر رمضان ؛ وكان الناصر يود أن يلتقى براميرو ملك ليون فى موقعة ما ، ولكنه حاول عبثاً أن يحمله على مغادرة قلاعه ، والاشتباك مع المسلمين فى معركة فاصلة ، وكان راميرو يرى ما ينزله المسلمون تباعاً بأراضى مملكته من صنوف التدمير والتخريب ، وهو عاجز عن أن يقوم بأية حركة لوقف هذا السيل المخرب . وأخيراً اجتمع النصارى ، ومعهم ملكهم راميرو فى قلعة مزورته الواقعة فوق ربوة وافرة الحصانة ، على مقربة من قلونية ، واستعدوا للقاء المسلمين ؛ فعبأ المسلمون صفوفهم ، واشتبكوا مع النصارى فى معركة حامية ، قتل فيها عدة من أكابر الفرسان النصارى ، واستشهد عدد من المسلمين ، وحاول المسلمون بعد ذلك استدراج النصارى إلى السهل . فلما عبروا وادى أوسمة حاول النصارى الهجوم ، فردهم المسلمون وقتلوا منهم جملة ؛ ثم رحل المسلمون بعد ذلك إلى حصن غرماج ( Gormaz ) على مقربة من ليون . ورأى الناصر أن التقدم بعد ذلك فى السهول القفرة يعرض جيشه لمتاعب شديدة ، فارتد بقواته شرقاً ، وهو يعيث فى أراضى قشتالة . ثم زحف على مدينة برغش عاصمة قشتالة وخربها ، وقتل على مقربتها عدداً كبيراً من أحبار الأديار المجاورة ( سنة ٩٣٤ م ) ثم قفل راجعاً بجيشه إلى قرطبة ، وقد قطع فى غزوته هذه زهاء أربعة أشهر . وذكر الناصر فى كتاب الفتح الصادر عن هذه الغزوة ، الجهات والمدن التى غزاها من بلاد ألبة والقلاع ، فكان منها مدينة أوسمة ، وحصن القصر ، وحصن أنة والدير المنسوب إليه ، ومدينة برغش وقصبتها المنيعة وبسيطها ، وحصن بلنسية وبسيطه ، وحصن اشكفيرش وبسيطه والأديار المتصلة به ، ومدينة لزمة

العظيمة الشأن وبسيطها ، ونظم الشعراء قصائدهم فى تهنئة الناصر بما أصابه فى هذه الغزوة من الظفر[١] .

وتقص علينا الرواية الإسلامية خبر غزوة بحرية قام بها أسطول الناصر فى تلك السنة ( ٣٢٣ هـ ) . وخلاصة ذلك أن أسطولا بقيادة أمير البحر عبدالملك ابن سعيد بن أبى حمامة ، قوامه أربعون مركباً منها عشرون من الحرافات التى تحمل النفط والآلات البحرية ، وعشرون تحمل الرجال المقاتلة ، وعدة ركابه من الجند ألف رجل ومن البحريين ألفين ، خرج من ثغر ألمرية فى شهر رجب ( مايو ٩٣٥ م ) فسار أولا إلى جزيرة ميورقة الإسلامية ، ثم خرج منها متجهاً نحو شاطىء الثغر الفرنجى ، وقصد أولا إلى مدينة بالش وهاجمها ، ووقعت بينه وبين أهلها معركة عنيفة هزم فيها الفرنج ، وقتل منهم ثلاثمائة رجل ؛ ثم سار الأسطول إلى مدينة إينش ، وأحدق بها المسلمون براً وبحراً وأحرقوا المراكب فى مرساها وقتلوا من أهلها نحو أربعمائة رجل ؛ وبعث ابن حمامة من سفنه خمسة عشر سارت شمالا إلى بلدة مسّنيط ثم سار خلفها ببقية الأسطول ، وغزا الأسطول قرى كثيرة على الشاطىء ، وحقق غنائم كثيرة ، وخرج الافرنج لقتاله ، فهزموا وقتل قائدهم . ثم تقدم الأسطول بعد ذلك من مدينة برشلونة ، عاصمة الثغر الفرنجى ، فاجتمع الفرنج لمقاومته بقيادة زعيمهم بليط ، فهزموا وقتل قائدهم ، وأغلقت المدينة أبوابها ودافع أهلها من فوق الأسوار ، فتحول الأسطول إلى الساحل الجنوبى ، ودارت بينه وبين الفرنج المجتمعين على الشاطىء معركة شديدة هزم فيها الفرنج . ثم قفل الأسطول الإسلامى بعد ذلك عائداً إلى ثغر طرطوشة الإسلامى ، مثقلا بالسبى والغنائم ، وهنالك تلقى قائده أبا حمامة كتاب الناصر ، بالنهوص إلى سبتة وطنجة لمحاربة من انتقض هنالك من أهلها فصدع القائد بالأمر ، وسار بسفنه نحو الجنوب ، ولبث متردداً بين مراسى العدوة حتى شتاء العام التالى ، ثم عاد إلى مراسيه فى ألمرية فى صفر سنة ٣٢٤ هـ[٢] .

---

( ١ ) ابن حيان فى المقتبس — السفر الخامس — مخطوط الخزانة الملكية ، لوحات ١٣١ - ١٣٥ ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٢ ؛ وكذلك : Dozy : Hist. · Vol. II. p. 148

( ٢ ) ابن حيان فى المقتبس — السفر الخامس — لوحة ١٤٤ ب و ١٤٥ أ .

وفى هذه السنة أيضاً ( ٣٢٣ هـ ) ، عقد السلم بين الناصر لدين الله وراميرو ملك ليون . وكان راميرو ، على أثر الغزوة المخربة التى قام بها المسلمون فى أراضيه ، قد بعث رسله إلى الناصر فى التماس الصلح ، فبعث إليه الناصر وزيره يحيى بن يحيى بن إسحاق سفيراً ، فاجتمع فى ليون مع راميرو ، وعقد معه شروط الصلح . ووقع الناصر هذه المعاهدة فى منتصف ربيع الثانى من هذه السنة ( مارس ٩٣٥ م ) ، فى يوم مشهود . وكان الناصر يرمى بعقد هذا الصلح إلى أبعاد ملك ليون عن التفاهم مع محمد بن هاشم صاحب سرقسطة ومعاونته . بيد أن هذا الصلح لم يدم طويلا ، لما كان يجيش به راميرو من رغبة ملحة فى النكث والتفاهم مع الخارجين على حكومة قرطبة[1] .

ذلك أن بذور الثورة كانت تختمر فى الثغر الأعلى ، وكان النصارى إلى جانب ذلك يتحينون الفرصة للنهوض والانتقام . وكانت طوطة ملكة نبرّة الوصية على ولدها غرسية ، قد لزمت السكينة حيناً وفقاً لمعاهدة السلم التى عقدتّها مع الناصر ، ثم تحرك البشكنس بعد ذلك وأغاروا على بعض الحصون الإسلامية ( ٩٣٧ م ) . وظهرت فى الوقت نفسه فى الولايات الشمالية أعراض فتنة خطيرة . ذلك أن بنى هاشم التجيبيين سادة سرقسطة ، لم يكونوا دائماً على وفاق مع حكومة قرطبة ، وكانت تحدوهم أطماع كثيرة . وكانوا يخشون عواقب السياسة التى يتبعها الناصر فى إخضاع الولاة المحليين ، وسحق سلطان الأسر القديمة ، وكان وجودهم فى الشمال بين الممالك النصرانية يفسح لهم مجال التآمر والخروج . وكان أبو يحيى محمد بن عبد الرحمن التجيبى ، حينما توفى فى سنة ٣١٢ هـ ، قد خلفه ولده هاشم بمصادقة الناصر ، وحكم سرقسطة ، وضبط الثغر ، واشترك فى الغزو مع الناصر ، وتوفى فى سنة ٣١٨ هـ . فطلب ولده محمد بن هاشم التجيبى إلى الناصر أن يقره على ولاية سرقسطة ، فلم يجبه إلى ذلك ، فسار محمد إلى قرطبة مؤكداً لولائه ، فصدر الأمر بتوليته فى رجب سنة ٣١٩ هـ ، والتزم بأن يورد قسما من الجباية . ولما سار الناصر فى سنة ٣٢٢ هـ إلى الغزو بعث إلى أهل الثغور لموافاته ، فقدم إليه التجيبيون ، فى رجالهم ، وتخلف محمد بن هاشم عنهم ، وسار الناصر لقتاله ، ولكنه تحول

---

( ١ ) ابن حيان — السفر الخامس — لوحة ١٤٣ أ

عنه إلى قتال النصارى حسبما تقدم[1] . ومن ثم فإنه لما اضطرمت نار الحرب بين ملك ليون وبين الناصر ، رأى التجيبيون الفرصة سانحة لتنفيذ مشاريعهم ، وكان راميرو ملك ليون بالرغم من ارتباطه بعهد السلم مع الناصر ، يرقب الفرصة للنكث واستئناف الحرب ضد المسلمين ، فلما استجاش به محمد بن هاشم ، رأى الفرصة سانحة ، فنكث عن السلم وعقد الحلف المنشود مع محمد بن هاشم التجيبي صاحب سرقسطة ، وقريبه مطرِّف بن منذر التجيبي صاحب قلعة أيوب[2] ، وتعهد محمد لراميرو أن يعترف بطاعته ، نظير معاونته إياه فى الخروج على عبد الرحمن الناصر ومحاربته ، بل يقال إن هذا الحلف كان قد عقد قبل ذلك سراً ، وإن آثاره ظهرت منذ سنة ٣٢٤ هـ ( ٩٣٤ م ) ، حينما كان الناصر يغزو أراضى ليون ، ولم يتقدم بنوهشام لمعاونته ، بل بالعكس جاهر محمد بالخروج عليه وخلع طاعته ، ثم اعترف بسيادة ليون على سرقسطة وأحوازها ، ولما أبى بعض قواد الحصون مجاراته فى خيانته ، سار إليهم راميرو وأخضعهم ، وسلم قلاعهم إلى الزعيم الثائر ، ثم عقد محمد وراميرو محالفة مع طوطة ملكة نافار ، وغزا البشكنس الأراضى الإسلامية حسبما قدمنا ، وبذا تحالف الشمال كله ضد عبد الرحمن .

وتقدم إلينا الرواية الإسلامية ، خبر معركة ، نشبت فى ذلك الوقت فى الثغر الأعلى بين المسلمين والنصارى . وذلك أن الفرنج فى برشلونة وحلفاءهم فى الثغر ،حاولوا انتهاز الفرصة ، وغزوا الأراضى الإسلامية ، فخرج إليهم أحمد بن محمد بن إلياس قائد القوات السلطانية المرابطة فى الثغر على مقربة من سرقسطة ، ونشبت بين المسلمين والنصارى معركة شديدة على ضفاف نهر إبره ، فهزم النصارى هزيمة شديدة وقتل وغرق منهم عدد جم . وتضع الرواية الإسلامية تاريخ هذه الموقعة فى آخر شوال سنة ٣٢٤ هـ ( سبتمبر ٩٣٦ م )[3] .

وبعث الناصر فى نفس الوقت جيشاً كثيفاً إلى الثغر الأعلى بقيادة الوزير عبد الحميد بن بسيل ، ليقوم بالتضييق على سرقسطة وبنى هاشم ، وليدعم

---

( ١ ) العذرى فى كتاب ترصيع الأخبار ص ٤٣ و ٤٤ .

( ٢ ) **Calatayud** وهى تقع جنوب غربى سرقسطة فى منتصف الطريق بينها وبين مدينة سالم .

( ٣ ) المقتبس — السفر الخامس — لوحة ١٤٨ ب و ١٤٩ أ

للقوى السلطانية المرابطة على مقربة منها ، وذلك ريثما يستطيع السير بنفسه إلى الشمال . ثم أتبعه بجيش آخر ، بعثه إلى الثغر أيضاً بقيادة الوزير سعيد بن المنذر القرشى ، ليقوم بالمعاونة فى التضييق على سرقسطة .

وفى نفس هذا العام ( ٣٢٤ هـ ) حاول نصارى ليون مرة أخرى الاستيلاء على قلعة مجريط أهم قلاع الثغر الأدنى ، فهاجمتها قوة كبيرة ، ولكن الحامية الإسلامية بقيادة أبى عمر بن أبى عمر استطاعت أن تصد هذا الهجوم ، وأن تنقذ القلعة[١] .

وكان عبد الرحمن أثناء ذلك يتأهب إلى الغزوة المرتقبة إلى الشمال . ففى منتصف شهر رجب سنة ٣٢٥ هـ ( مايو سنة ٩٣٧ م ) ، خرج من قرطبة إلى مقاتلة أعدائه فى جيش ضخم ، وكان بروزه يوماً مشهوداً ، تبدت فيه روعة أهباته ، وفى ذلك يقول الفقيه أحمد بن محمد بن عبد ربه :

يوم من العز مجموع له الناس     يختال فى عقوتيه الجود والباس

وعلم عبد الرحمن أثناء سيره ، أن النصارى فى الوقت الذى يحتشدون فيه بأطراف الثغر الأعلى ، لمناصرة حليفهم الخارج محمد بن هاشم التجيبى صاحب سرقسطة ، يحاولون فى نفس الوقت أن يزحفوا صوب طليطلة لإثارة الثورة فيها . فسار بجيشه إلى طليطلة كيما يؤمن أهلها ، ويرهب النصارى ، ونزل عليها ، فلما علم النصارى بمقدمه ارتدوا مذعورين إلى الشمال . وفى خلال ذلك وافاه كتاب من أحمد بن محمد بن إلياس قائد الثغر بظفره بالعصاة فى مدينة وشقة ، وكتاب آخر بإخماد ثورة أهل طلبيرة غربى طليطلة .

وسار عبد الرحمن بعد ذلك إلى الثغر الأعلى من طريق وادى الحجارة ، وأبقى قوة من جيشه فى منطقة طليطلة بقيادة مولاه درِّى ، للسهر على النظام فى تلك المنطقة ؛ ورأى أن يبدأ بقلعة أيوب ، وكان قد امتنع بها مطرِّف بن منذر التجيبى المعروف بأبى شورب ، وكان راميرو قد بعث لإنجاده فرقة من فرسان ألبة والقلاع . فحاصر عبد الرحمن القلعة ، وبعث يدعوه إلى الطاعة ، ويؤكد له الأمان بخطه ، فرفض مطرف أن يستجيب إلى هذه الدعوة ، فهاجم عبد الرحمن القلعة ، وبرز إليه مطرف وحلفاؤه ، ونشبت بين الطرفين معركة

---

( ١ ) المقتبس — السفر الخامس — لوحة ١٤٩ ب .

شديدة ، هزم على أثرها مطرف ، وقتل ، ولجأ أخوه حكم بن منذر فى فلوله ومن معه من فرسان ألبة إلى القصبة ، وامتنعوا بها ، فاستمر الهجوم عليهم ، وكثر القتل فى المدافعين ، حتى اضطر حكم أن يطلب الأمان لنفسه ولحلفائه النصارى ، ليعودوا إلى بلادهم ، ويلحق هو وأهله بالحضرة ، فقبل الناصر ونزل حكم ومن معه من القصبة ، وأعفى عن النصارى المستأمنين وقتل الباقون . ووقع فتح قلعة أيوب على هذا النحو فى التاسع عشر من شهر رمضان من هذه السنة .

وكان فتح قلعة أيوب أول صدع خطير فى ثورة بنى تجيب ، وكان بها ، فضلا عن مناعتها الطبيعية ، عدة كبيرة من فرسان سرقسطة الأكابر ، وخمسمائة من الفرسان النصارى لم ينج منهم سوى الخمسين الذين أمنوا ، وقد أفاضت الشعراء فى تهنئة الناصر بهذا الفتح ، ومن ذلك قصيدة لابن عبد ربه هذا مطلعها :

يا ابن الخلايف والصيد الصناديد ألقت إليك الرعايا بالمقاليد

ورأى الناصر ، قبل أن يسير إلى سرقسطة ، أن يقوم بجولة فى أرض النصارى . فاتجه إلى أراضى ألبة والقلاع ، فافتتح عدة كبيرة من حصونها تبلغ السبعة والثلاثين حصناً . واعتزم بعد ذلك أن يعاقب البشكنس على عدوانهم ، فسار إلى بسيط بنبلونة ، وخرب معاهدها وحصونها ، ومزق جموع البشكنس وسحق كل مقاومة ، وبعث فرقاً من جيشه إلى مختلف الأنحاء المجاورة فعاثت فيها وأصاب المسلمون غنائم كثيرة . وساد الرعبَ على البشكنس ؛ وهرعت إليه طوطة ، ملكة نبرّة تقدم إليه خضوعها وتوبتها ، فقبل الناصر اعتذارها وأقر ولدها غرسية ملكاً على نبرّة فى طاعته وتحت حمايته ؛ وكان ذلك فى أواخر رمضان وأوائل شوال من سنة ٣٢٥ هـ ( أغسطس ٩٣٧ م )[1].

وسار الناصر بعد ذلك إلى تطيلة ، ثم سار منها إلى سرقسطة ، فنزل عليها فى الثانى عشر من شهر شوال ، وابتنى حولها المنازل والدور بمحلته ، وعهد بحصارها إلى أحمد بن إسحاق القرشى قائد الفرسان ، وهو من قرابته ، وعينه حاكماً للثغر . ولكنه تهاون فى الحصار وتوانى لمرض فى قلبه ، ولأطماع كانت تجيش بها نفسه ، فأنبه عبد الرحمن وعزله ، فاتفق مع أخيه أمية على التآمر

---

( ١ ) ابن حيان فى المقتبس — السفر الخامس — لوحات ١٥٣ و ١٥٥ و ١٥٦ أ .

والخروج ، فوقف عبد الرحمن على أمرهما واكتفى بنفيهما من الأندلس .
فسار أمية إلى مدينة شنترين[١] فى ناحية الغرب ، واستولى عليها ورفع بها
علم الثورة ، وتحالف مع ملك ليون . فأمر الناصر القائد أحمد بن محمد بن إلياس ،
وكان مقيما فى بطليوس ليرصد حركات أمية بن إسحاق ، أن يغزو أرض العدو ،
فسار إلى أراضى ليون واشتبك مع الجلالقه فى معركة ، هزم فيها الجلالقة ،
وقتل منهم عدد جم ، ولا سيما من أهل سمورة ( جمادى الأولى سنة ٣٢٦ ﻫ ) ،
ثم أمر الناصر بعد ذلك القائد عبد الحميد بن بسيل ، أن ينضم فى قواته إلى أحمد
ابن محمد بن إلياس ، وأن يسيرا معاً إلى غزو ليون . فصدعا بالأمر ، ووصلا
بقواتهما إلى أرض النصارى وعاثا فى جنباتها ، وفى نفس الوقت تحركت بعض
السفن من نهر الوادى الكبير وسارت نحو الغرب لغزو أهل شنترين الذين
يناصرون أمية بن إسحاق . وانتهى الأمر بأن قام أحد الزعماء المحليين الذين
يدينون بطاعة الأمير ، واستطاع أن ينتزع شنترين من أمية ، فالتجأ أمية
إلى راميرو . أما أخوه أحمد فحاول أن يتصل بعمال الفاطميين فى عدوة المغرب ،
وأن يأتمر معهم على حكومة قرطبة ، فسعى عبد الرحمن إلى القبض عليه ثم أمر
بإعدامه[٢] ، ولكن سنرى أن مغامرات بنى إسحاق لم تنته عند هذا الحد .

واستمر حصار سرقسطة مدى أشهر ، والناصر يشدد عليها الخناق شيئاً
فشيئاً . وأخيراً اضطر محمد بن هاشم أن يبعث رسله فى طلب الأمان والصلح ،
على أن يقره الناصر على حاله ، فأبدى الناصر قبوله وتسامحه ، وطلب أن يخرج
إليه إخوة محمد ووجوه أهل سرقسطة لعقد الصلح . فخرج إليه وجوه سرقسطة ،
ومن بينهم إخوة محمد ، يحيى وعبد الرحمن وهذيل ، وعدة من ذوى الشوكة .
وهنا ثابت للناصر فكرة فى انتهاز الفرصة ، والقبض على تلك الصفوة المختارة
من أهل سرقسطة ، ليسدد إلى المدينة الثائرة ضربة مميتة ، فأمر بالقبض عليهم
جميعاً واعتقالهم داخل سرادقه ، فلما علم محمد بن هاشم بما تم سقط فى يده ،
وشعر بوقع هذه الضربة التى حرمته من كبار معاونيه ، ولكنه استمر صامداً
ممتنعاً ، ورسل الناصر تتردد إليه بالإعذار والإنذار دون جدوى . وأخيراً بعث

---

( ١ ) وهى بالإفرنجية Santarem .

( ٢ ) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٠ ؛ وابن الأثير ج ٨ ص ١١٥ .

إليه الناصر بوزيره ومولاه محمد بن عبد الملك بن أبى عبدة ، فاطمأن الثائر إليه ، وأذعن إلى التوبة والإنابة وطلب الأمان والصلح ، وكان ذلك خلال عيد الأضحى سنة ٣٢٥ ﻫ .

فاستجاب الناصر إلى طلب محمد بن هاشم ، وعقـــد له الأمان بأوثق عقد ، وشهـــد الملأ من أهل العسكر وأهل الثغور ، وشهدت نسخته فى الناس عامة ، وذلك فى شهر المحرم سنة ٣٢٦ ﻫ ( نوفمبر ٩٣٧ م ) . وكان مضمونه « أن يمنح الأمان لمحمد بن هاشم وإخوته وجميع أهله وأصحابه من مدينة سرقسطة ، وجميع من يتصل بهم من أهلها ، للمدة التى يرضاها الناصر ، وأن يملكه سرقسطة تمليكاً يدخل فيها من يشاء ، وإلى العدد الذى يرضاه من رجاله ، ويكون أهل مدينة سرقسطة ومن يبقيه محمد بن هاشم منهم من أهله وأتباعه آمنين بأمان لله ، محفوظين بعهد الملة . مستمسكين بمثل أمان محمد بن هاشم ، غير معتقبين فى أنفسهم ، ولا مأخوذين بذنب سلف ، وأن يخرج محمد بن هاشم من سرقسطة بنفسه ، ومن أحب إخراجه معه من خواص أهله وولده ، إلى مدينة تطيلة أو غيرها من مدن الثغر ، وحصوله مسجلا على الموضع الذى يتخيره ، ويبقى بسرقسطة من أحب منهم ، ويختلف عليهم . وعلى المُولّى بسرقسطة بعده إحسان صحبتهم ، وعليه أن يباعد منزله عنهم ، لا يقربه شىء من دور محمد ابن هاشم ، أو ينزل القصر القديم بعد خروج محمد بن هاشم عنه بجميع ماله فيه . وعلى أن يسجل الناصر لدين الله ، لأخيه يحيى بن هاشم على ما كان بيده من مدينة لاردة وأحوازها . فإن انقضت المدة التى يضربها الناصر لمحمد ، توجـــه إلى الحضرة ، وأقام فيها ثلثين يوماً أو نحوها ، مظهراً لصدق طاعته ، ماحياً لكل ما انتثر فى أقطار الأرض من معصيته ، وهو فى توجهـــه إليه آمن فى طريقه ، ومدة مقامه ومنصرفه ، غير مقطوع ولا معترض دون الانصراف ، إذ انقضت المدة التى وضعت له . وله على السلطان إذا وفى بما عقد عليه من الشخوص إلى باب سُدّته أن يكتب له عهداً على مدينة سرقسطة ، ويصرفه إليها عاملا وقايداً ، ويعزل عنها عامله وقايده ، بعد أن يناله من كرامته ، ويظهر عليه من آثار نعمته ، ما يعود معه إلى أحسن الأحوال التى كان عليها قبل هفوته » .

وقد اشترط عهد الأمان أيضاً أن يقدم محمد بن هاشم إلى الناصر رهائن من

ولده وإخوته وصحبه وكاتبه ، وأن يكون جماعتهم لدى الناصر بحال حفظ وتكرمة ، وأمان فى المسير والمقام ، يديلهم ستة أشهر ، باكفايهم ونظرائهم من إخوتهم خاصة ، إلى أن يظهر لأمير المؤمنين براءة محمد بن هاشم من ممالأة المشركين ، وتصحيحه طاعة أمير المؤمنين ، وعلى أن يقطع محمد بن هاشم من المشركين فى ظاهره وباطنه ، من حدّ بلد برشلونة إلى شرطانية إلى بنبلونة إلى ألبة والقلاع وإلى جليقية ، ولا يكاتبهم ولا يداخلهم ، ولا يصالحهم على طرف من أطراف الثغر إلا عن إذن أمير المؤمنين ، وأن يورد جباية بلده لمحلها ، بعد أن يسقط عنه جباية عام ، وألا يتقبل حراً نازعاً ، ولا عبداً آبقاً لأمير المؤمنين ، ولا لأحد من رعيته ، وأن يوثق من ظفر به من هذه الطبقة ويصرفه إلى مكانه ، وألا يتعقب أحداً ممن سجل له عليه ، أو يسجل بعد ، ممن حاربه مع أمير المؤمنين وفارقه إليه أيام الطاعة ، وأن يجدد البيعة لأمير المؤمنين ويلتزم شروطها ، وأن يغزو مع أمير المؤمنين ، ويعادى من عاداه ويحارب من حاربه ، ويسالم من سالمه من أهل الملوك وغيرهم ، ويقطع نصيبه من كل من أخرج يده عن طاعته ، وإن كان ابنه أو أخاه ، يلتزم كل ما ألزمه أمير المؤمنين من ظاهر القول وباطن الإرادة ، لا ينقص تناول البغية ، ولا يحرف عن التصحيح بالعلة ، فقد التزم أمير المؤمنين فى عقده ، مثل ما سأله محمد فى ذلك وأوجبه على نفسه مع دركه لهذه المنن ، إن صدق الطاعة ، أن يوليه مدينة سرقسطة ، وما وقع فى سجله معها ولاية مستمرة ، ولا يعزله طول أيامه عنها ، ثم لا يؤاخذه بذنب ، ولا يعدد عليه اقتراف خطأ ولا عمد ، ولا تقبل فيه مقالة كاشح ولا طعن حاسد ، ويصير ذلك له وصية فيمن بعده ، يلزمهم الوقوف عندها على سبيل الخلفاء فى خالدات عهودهم إن شاء الله ، ووقعت الأيمان فى هذا الأمان من الناصر لدين الله مستوفاة مغلظة ، أخذ على محمد بن هاشم أشد منها ، فحلف فى مقطع الحق بمسجد سرقسطة الجامع خمسين يميناً منسوقة بمحضر قاضى الجماعة بقرطبة والفقهاء وأعلام العسكر ، والملأ من أهل بيت محمد بن هاشم ، ووجوه أهل الثغر ، على التزام ما عقد على نفسه منه واعتداده إياه ديانته » . ثم أشهد الناصر لدين الله على نفسه فيه جميع أهل عسكره ، فكان أول من شهد عليه أولاده الحاضرون ، ثم أعمامهم ثم الوزراء وأصحاب الخطط ، ثم الفقهاء ، ثم

وجوه أهل سرقسطة ومن حضر من أهل الثغر[١].

سقطت سرقسطة وسائر الحصون المجاورة لها فى يد الناصر ، وكذلك سقط فى يده حصن روطة أمنع حصونها فى الغرب ، وبذا انهارت ثورة التجيبيين فى الشمال ، وكانت من أخطر الثورات التى واجهها الناصر ، لأنها كانت مركزاً لتجمع القوى المعادية لخلافة قرطبة ، من الخوارج والأمراء النصارى . أما عفو الناصر عن محمد بن هشام ، ومنحه الأمان له ، واستصناعه بالرغم من فداحة جرمه ، فيرجع إلى ما كان يتمتع به محمد من مقدرة إدارية فائقة ، ولما كان لبنى هاشم فى الشمال من مركز قوى مؤثل ، ولما كان لهم من العصبة والأنصار . وقد رأينا الناصر فى غير موطن ، يعفو عن الثوار العتاة ، ويحسن إليهم ، وينظمهم فى جيشه . وقد كانت هذه سياسة مستنيرة من الخليفة القادر ، للاستفادة من هذه العناصر المنحرفة القوية معاً ، متى استقرت توبتها ، وحسن ولاؤها .

ودخل الناصر بجيشه مدينة سرقسطة وفقاً للسلم المعقود فى يوم الخميس ١٤ من المحرم سنة ٣٢٦ هـ (٢٢ نوفمبر ٩٣٧ م) ، وشهد منعتها وحصانة أسوارها ، فأمر بهدم الأسوار حتى لا تعود منعتها فتشجع الخوارج على الثورة ، وشحنها برجاله ، ونظر فى مصالحها ، فساد بها الهدوء والأمن ، وبعث الناصر أثناء مقامه بسرقسطة ، قوة من جيشه بقيادة نجدة بن حسين الصقلبى لتقوم ببعض الغزوات فى أرض العدو ، وأمر محمد بن هاشم أن يرافقه فى أصحابه امتحاناً لوفائه ، فصدع بالأمر . وسار المسلمون بالرغم من اشتداد البرد وانهمار الثلوج صوب ناحية شنت إشتين ، وتفرقوا إلى ثلاث فرق ، أخذت كل فرقة منها بشن الغارات فى قطاع معين ، ثم اجتمعت عند حصن شنت إشتين ، وهنا حاول النصارى اعتراض المسلمين ، ونشبت بين الفريقين معركة هزم فيها النصارى . وتوغل المسلمون بعد ذلك فى أراضى ألبة ، وانتسفوا الزروع

(١) أورد لنا ابن حيان حوادث فتح سرقسطة ، وعهد الأمان الذى أصدره الناصر لمحمد ابن هاشم نقلا عن عيسى بن أحمد الرازى . وقد أورد لنا أيضاً أسماء الشهود الذين وقعوا هذا الأمان من الأمراء والوزراء وأصحاب الخطط والموالى والفقهاء وغيرهم ، وشغل ذلك أكثر من صفحة . المقتبس فى السفر الخامس — مخطوط الخزانة الملكية لوحات ١٥٦ ب إلى ١٥٩ أ .

وخربوا الكنائس والديارات ، ثم عادوا مثقلين بالغنائم إلى سرقسطة . وكان الناصر قد استتم خلال ذلك النظر فى شئون الثغر ، وحفظ أطرافه ، وتزويده بالحماة والمقاتلة ، وكل ما يضمن سلامته ، ثم خرج بجيشه من سرقسطة قافلا إلى الحضرة فى الرابع عشر من صفر ، فوصل إلى قصر الخلافة فى الثامن عشر من ربيع الأول سنة ٣٢٦ هـ ( أواخر يناير ٩٣٧ م ) ، وذلك بعد أن قضى فى غزوته زهاء ثمانية أشهر[١] .

ووفد محمد بن هاشم التجيبى بعد ذلك على قرطبة ، فأكرم الناصر وفادته ، وأقام فى كنفه مدة فى رغد وإيثار ، وهو يحضر مجالس الخليفة ، ثم غادر قرطبة فى رجب بعد أن ولاه الناصر سرقسطة ، وعقد له عليها وعلى الجهات التابعة لها ، وولاه القيادة فى نفس الوقت ، وبذا رد إلى سابق مناصبه ومكانته .

* * *

وهكذا استطاع عبد الرحمن أن يمزق شمل هذا التحالف الخطر ، وأن يخضع الشمال الشرقى من شبه الجزيرة كله لسلطانه وصولته ؛ ولم يبق عليه إلا أن يحطم خصمه القوى العنيد راميرو الثانى ملك ليون ، وهو محور النضال الحقيقى . فلم يمض سوى عامين حتى تأهب للقيام بأعظم غزواته ضد مملكة ليون . فحشد جيشاً ضخماً يبلغ زهاء مائة ألف ، وعهد بقيادته إلى نجدة بن حسين الصقلبى . وكان الأجانب والصقالبة قد تبوأوا يومئذ ذروة القوة والنفوذ فى بلاط قرطبة ، وسيطروا على معظم المناصب الكبيرة فى القصر والجيش . وكان لهذه السياسة التى أسرف الناصر فى اتباعها ، أسوأ الأثر فى نفوس الزعماء العرب ، وفى انحلال قوى الجيش المعنوية . وفى صيف سنة ٩٣٩ م ( ٣٢٧ هـ ) سار الناصر إلى ليون على رأس جيشه الضخم ، وعبر نهر التاجُه من عند طليطلة ، ثم عبر نهر دويرة متجهاً نحو قلعة شنت منكش ، أو شنت مانك ( سمانقة ) دون أن يفطن إلى ما يفت فى عضد هذه القوة العظيمة من العوامل الخفية ؛ وكان راميرو الثانى يرابط على مقربة منها فى حشود عظيمة ، متأهباً لقتال المسلمين بكل ما وسع ، وزوده حليفه الخائن أمية بن إسحاق بنصائح ومعلومات ثمينة ،

---

( ١ ) المقتبس فى السفر الخامس — لوحة ١٦٣ أ و ب .

وانضمت إليه طوطة ملكة ناڤار ناكثة لعهدها ، وبذا اتحدت قوى اسبانيا النصرانية لمقاتلة المسلمين مرة أخرى .

وهنا تختلف الرواية العربية والفرنجية اختلافاً بيناً فى شأن الموقعة التى نشبت بين المسلمين والنصارى ؛ وبينما تقدم إلينا الرواية الفرنجية كثيراً من التفاصيل الواضحة المغرقة أحياناً ، إذا بالرواية العربية يغلب عليها الإيجاز والغموض والتحفظ ؛ وبالرغم من أن الرواية الأندلسية تشير إليها فى غير موضع وتصفها « بغزاة القدرة » تنويهاً بأهميتها ، وما كان يعلق عليها من رغبة فى سحق المملكة النصرانية ، وتسميها بموقعة « الخندق » وهو نفس الإسم الذى تقدمه الرواية الفرنجية ، فإنها لا تقدم إلينا أى تفصيل شاف عن مكانها وظروفها[1] . وسوف نستعرض أقوال الرواية الإسلامية أولا ، ثم نتلوها بأقوال الرواية النصرانية ، حتى نستطيع بالتمحيص والمقارنة ، أن نخرج بفكرة واضحة عن حقائق هذه الموقعة التى تعتبر من كوارث التاريخ الأندلسى .

ويقدم إلينا المسعودى عن الموقعة رواية يطبعها لون القصة . فيقول لنا إن عبد الرحمن اقتحم بجيشه حدود ليون وزحف على مدينة سمّورة عاصمتها ، وكانت فى غاية المناعة ، يحيط بها سبعة أسوار شاهقة البنيان ، قد أحكمتها الملوك السابقة ، وبين الأسوار خنادق متسعة تفيض بالماء ، فافتتح المسلمون منها سورين ، واحتمى النصارى بداخل المدينة ، ثم لحق المسلمين الإعياء من امتناع المكان وحصانته ، فكر عليهم النصارى بشدة وحماسة ، فساد الاختلال بين المسلمين وهزموا هزيمة شديدة ، وقتل منهم زهاء أربعين ألفاً وقيل خمسين ألفاً ، وكان ذلك فى شوال سنة ٣٢٧ هـ ( يوليه ٩٣٩ م ) . وسميت الموقعة بموقعة الخندق لنشوبها على خنادق سمورة[2] .

على أن الرواية الأندلسية أكثر وضوحاً ودقة ، فى شرح تفاصيل هذه

---

( ١ ) أخبار مجموعة ص ١٣٦ ؛ ويشير ابن خلدون إلى الموقعة إشارات عابرة ( ج ٤ ص ١٣٧ و ١٤٠ ) . وكذا ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ١٥٠ . ولم يذكرها ابن عذارى فى البيان المغرب .

( ٢ ) مروج الذهب ( بولاق ) ج ١ ص ٧٨ ؛ ونقلها المقرى فى نفح الطيب ج ١ ص ١٦٥ وابن الأثير ج ٨ ص ١١٥ .

الكارثة . ولدينا من ذلك روايتان ، تمتاز كلتاهما بنوع من الوضوح فى تحديد مكان الموقعة وظروفها ، هما رواية مؤرخ الأندلس الكبير ابن حيان ، ورواية الوزير ابن الخطيب .

أما رواية ابن حيان ، وهى التى ينقلها فى المقتبس عن عيسى بن أحمد الرازى ، فخلاصتها ، هو أن الناصر لما عزم على غزو أهل جلِّيقية ( مملكة ليون ) ، جد فى الاستعداد والحشد ، وبعث كتبه إلى الثغور ، واستكثر من الآلات والسلاح ، وخرج فى حشوده إلى الغزو فى يوم الجمعة ٢٢ شعبان سنة ٣٢٧ ﻫ الموافق لأول شهر يونيه العجمى ( سنة ٩٢٩ م ) . وكان الناصر قد سير قبل خروجه الوزير القائد أحمد بن محمد بن أبى عبدة فى بعض قواته إلى جهة الغرب احتياطاً على أهله ، وحماية لهم أثناء قيامه بالغزو .

ووصل الناصر فى قواته إلى طليطلة فى يوم ٢٣ رمضان ، ثم خرج منها إلى أرض العدو (قشتالة) فى الخامس من شوال ، فعاث فيها أياماً ، وألفى النصارى قد أخلوا معظم بلاد هذه المنطقة ، وكانت غاصة بالنعم والأقوات ، فاستولى المسلمون عليها ، ثم تقدموا إلى حصن أشكر ، وخربوه وانتسفوا ما حوله . ثم ساروا إلى حصن أطلة ، فحصن برتيل ، وذلك فى يوم ١٣ شوال .

وكان محمد بن هاشم التجيبى صاحب سرقسطة قد تقدم فى قواته ، فى الوقت نفسه ، فعبر نهر شنت مانكش ( سيمانقا ) ، فارتد العدو بقواته وراء النهر ، ونشبت بين الفريقين معركة هزم فيها النصارى أولا ، ولكنهم عادوا فاجتمعوا وتكاثروا على المسلمين ، وسقط محمد بن هاشم عن فرسه خلال القتال فأسر ، وهزم المسلمون على باب شنت مانكش هزيمة شديدة ، وقتل منهم كثيرون وارتدوا فى تراجعهم إلى خندق عميق ، وهو الذى تنسب إليه الموقعة ، فتردى فيه منهم خلق كثير ، فتقدم الناصر مضطراً بقواته ، وترك محلته ، فملكها العدو فى الحال ، واحتل الناصر أعلى النهر بقواته ، وقد عجز النصارى عن اتباعه ، فلبث هناك يومه ، وقد ساد الخلل فى الجيش . وأيقن الناصر بتمحيص الله للمسلمين ، ثم رحل قافلا حتى وصل إلى مدينة وادى الحجارة ، ثم سار منها إلى قرطبة .

هذا ملخص ما نقله ابن حيان عن عيسى بن أحمد عن موقعة الخندق ، ويزيد ابن حيان على ذلك ، أن هذه الوقيعة التى اشتهر حديثها بالأندلس قد نالت

السلطان ( الخليفة ) والمسلمين فيها محنة عظيمة ، وقتل وأسر فيها خلق كثير . واستولى العدو على محلة السلطان وسرادقه وآلاته السلطانية ، وفيها مصحفه الخاص ودرعه الأثير لديه . وشملت الهزيمة سائر الكافة ، فلم ينج من نجا منها إلا على متون الدواب . وأصاب القتل والأسر بالأخص أهل البلاد والمطوعة . وأما الجند فقد نجا معظمهم ، وفشا القتل فيمن سواهم من المستنفرين والحشودة .

ويقول لنا ابن حيان ، إنه كان بين ضحايا المعركة جده أبو سعد مروان بن حيان بن محمد بن حيان . ومن الحقائق المؤلمة التي ينقلها إلينا ابن حيان ، أنه قد بدا في هذا اليوم ، من قوم من وجوه الجند « النفاق لأضغان احتملوها على السلطان فقبعوا للصفوف ، وسارعوا في الهرب ، وجروا على المسلمين الهزيمة وأوبقوهم . وكان أسبقهم إلى ذلك وأكشفهم لما في نفسه الخاين « ابن فرتون بن محمد الطويل » وقد بعث الناصر خلفه برسول استطاع القبض عليه ، فثقف وحمل إلى قرطبة ، وهنالك صلب على باب السُّدة يوم وصول الناصر من غزاته ، وألحق به نفر من أشكاله ممن عملوا عمله ، ولحقهم وزره .

ويصف لنا عيسى بن أحمد ، طريق العودة الذي سلكه الناصر بجيشه عقب الموقعة ، فيقول إن الناصر ، قصد أولا إلى مدينة الفرج ( وادي الحجارة ) ، ثم غادرها في يوم الخميس الحادي عشر من ذي العقدة ، وسار إلى جربيرة ، ومنها إلى شبطران ، ومنها إلى محارس ، ومنها إلى مدينة طليطلة ، فلبث بها أربعة أيام ، ورحل منها يوم الخميس إلى فج سراج ، ومنها إلى ملقون ، ثم احتل بالبركة ، ومنها إلى منزل رند ، ثم إلى قنالش على وادي أربيشر ، ومنها إلى طير برتيطة ، ومنها إلى قليانة ، فأرملاط ، ومنها إلى منية نصر على باب قرطبة بعدوة النهر بالربض . وهنالك قضى الليل . ثم سار إلى قصر قرطبة في الغد ، وقد نفذ أمره بصلب فرتون بن محمد الطويل ، على باب السُّدة الأكبر من أبواب القصر .

هذا ، وقد نقل إلينا ابن حيان نص الكتاب الذي صدر باسم الناصر عن الموقعة ، وهو من إنشاء الوزير الكاتب عيسى بن فطيس . وهو كتاب طويل ، يحاول فيه كاتبه أن يصف أدوار الموقعة ، وروعة القتال الذي نشب بين المسلمين والنصارى ؛ ويستخلص منه أن المعركة بدأت في صالح المسلمين ، وأنهم استطاعوا في البداية أن يردوا النصارى ، وأن يفضوا جموعهم ، حتى سقط محمد بن هاشم التجيبي

قائد الطليعة عن فرسه ، وأسره النصارى ، فعندئذ ارتد المسلمون إلى خطوطهم ، وذلك بعد أن قتلوا عدداً كبيراً من أعلام النصارى ، وقوامسهم وفرسانهم . ثم استؤنف القتال فى اليوم الثالث ، وقد تضخمت حشود النصارى بما ورد إليهم من الأمداد « من أقصى بنبلونة وألبة والقلاع ، وأهل قشتيلة إلى مشركى قلمرية ، وكل صنف من أصناف العجم معهم » ، واضطرمت المعركة بين الفريقين ، وانتهت هذه المعركة الثانية بهزيمة النصارى وقتل عدد من أعلامهم ، وارتد المسلمون إلى خطوطهم ظافرين . وفى اليوم التالى بادر النصارى بالهجوم ، فلقيهم المسلمون بعنف وشدة ، واحتدم القتال ، وسقط « عظيم من عظماء النصارى » فاستداروا حوله ، وقد لحقتهم الهزيمة ، وهنا يقول الكتاب « وبلغ أمير المؤمنين أقصى أمله من إذلال جميع المشركين ، والاحتلال بساحتهم ، وانحياز طاغيتهم فى أعلى شاهق ، يرجو النجاة بنفسه ، فأمر بالرحيل ، وقد ضاعف النظر ، والعدو فى ضبط ساقة جيشه ، لما توقع خروج الكفرة فى أثره ، وأصبح منتقلا ، فما أقدم أعداء الله أن ينظروا من الجيش إلا من بعد على رأس جبل » .

وسار الناصر ، حسبما ينبئنا الكتاب ، بعد ذلك صوب نهر دويرة ، فى اتجاه حصن شنت منكش ، وهو يهدم الحصون ، وينتسف الزروع فى طريقه ؛ وكان الناصر ، يزمع السير شرقاً بحذاء دويرة ، حتى حصن شنت إشتبين ، ولكنه عدل عن ذلك ، وأزمع السير إلى حصن أنتيشة . وهنا يحدثنا الكتاب عن المرحلة الحاسمة من الموقعة . ذلك أن الناصر ، أشرف فى سيره على « خنادق ومهاو تتقاذفه ، وأجراف منقطعة قد عرفها المشركون ، وقدموا إليها ، وألقوا إلى ساقة الجيش فرسانهم ، فدارت عليهم الحرب ، وصرع فيها من جلة فرسانهم ، ومتقدمى رجالهم جملة ، لو أصيبت بحيث يتراءى الجمعان لكانت سبب هزيمتهم ، ولكنهم وثقوا بالوعد ، وانتظروا تقدم الحماة ، وترادف الأثقال ؛ فحامى أمير المؤمنين برجاله وخاصته عن المسلمين ، ساعات من النهار ، حتى تقدم أكثرهم ، وجازت الخندق لقتالهم ، إلا من ضعفت دابته ، أو ضعفت تعبئته عن استنفارها ؛ فلما رأوا الخلل تصايحوا من قنن الجبال ، وانحطوا من أعاليها انحطاط الأوعال ، فأصابوا من الأمتعة والدواب المثقلة ، ما لو أصابوا مثله فى مجال حرب أو سهل

من الأرض ، لما أنكر مثله مثله ، عند مقارعة الرجال ، وتصرف الأحوال . وحامى صاحب العسكر عن كل من أجاز الخندق ، وخلص من مضايقه ، حتى أسهلوا ، وأصبح لأمير المؤمنين جيوشه ، وانتظمت جموعه ، وسلم الله رجاله ، فلم يصب منهم أحد . وفى ذلك دليل للسامع عن الموقعة أنها لم تدر بغلبة ، ولا ظفر المشركون ، اظفروا به فيها عن مساواة أو كثرة ، ولكن ضيق المسالك ، ووعر الطريق ، وسوء فهم الدليل ، خلى لما جلبه إلى أقدار الله تعالى التى لا تصرف ، ومحنه التى لم يزل يمتحن بها أولياءه ليعظهم ، ويبتلى عبيده ليرهبهم ، وأمير المؤمنين شاكر لله تعالى عظيم نعمه ، وواقف على تصرف محنته ، مستسهل ما اختص به فى حب طاعته ، ضارع إلى الله تعالى فى التقبل لقوله وفعله » .

وقد أرخ هذا الكتاب فى اليوم الثامن من ذى القعدة سنة ٣٢٧ هـ ، أعنى عقب الموقعة بأربعة أسابيع ، وحينما وصل الناصر فى ارتداده إلى وادى الحجارة ، وذلك ليكون إيضاحاً للناس ومعذرة من الخليفة ، عما أصابه من هزيمة . على أن هذه العبارات الرفيقة التى صيغ فيها الخطاب ، وهذه التأكيدات الجريئة ، بأن أمير المؤمنين ، عقب جواز الخندق ، قد انتظمت جيوشه ، وسلم الله رجاله ، ولم يصب منهم أحد ، لا يمكن أن تنفى شيئاً من الحقائق المؤلمة ، التى تشهد كلها بفداحه النكبة التى نزلت بجيش الناصر على خندق شنت منكش ، والتى يفصل لنا ابن حيان بعض نتائجها وآثارها فيما تقدم .

ونقل إلينا ابن حيان كذلك رواية موجزة عن الموقعة عن عريب بن مسعود جاء فيها : « غزا الناصر لدين الله سنة سبع وعشرين وثلاثمائة بالصوائف إلى مدينة شنت مانكش بلد ألبة ، وبارز الكفرة ، فوقعت حرب عظيمة انهزم المسلمون عنها ، واستمسك الناصر لدين الله فى رجال الحقيقة بعد أن هلك فى [ الموقعة ] عالم من المسلمين ، وقتل منهم كثير ، وأسر كثير ، وكان ممن أسر محمد بن هاشم التجيبى صاحب سرقسطة . وذلك فى شهر رمضان منها » .

وكان القائد الباسل محمد بن هاشم التجيبى ، قد لبث فى أسر راميرو ( رذمير ) ملك ليون ، مدة استطالت أكثر من عامين ، والناصر يسعى إلى افتكاكه ، ويضاعف له الفدية ، حتى أفرج عنه أخيراً ، وحضر إلى قرطبة فى

شهر صفر سنة ٣٣٠ هـ ، بعد عامين وثلاثة أشهر من أسره [١] :

وأما رواية ابن الخطيب ، فهى بالرغم من إيجازها أقرب الروايات الإسلامية إلى الدقة والحقائق التاريخية ؛ فهو يحدد تاريخ الموقعة ، ومكانها بدقة ، ويصفها « بالوقيعة الشهيرة التى ابتلى الله بها عبد الرحمن ومحصه ، والتى أوقعه بها عدو الله رذمير ابن أردون » . فأما تاريخ الموقعة فهو يوم الجمعة ١١ شوال سنة ٣٢٧ هـ ( أول أغسطس سنة ٩٣٩ م ) ، وقد وقعت على باب شانت منكش[٢] ، بعد قتال استمر أياماً ، تراوحت فيه المغالبة بين الفريقين بأشد ما يكون وأصعبه . ثم كانت للعدو الكرة ، فانكشف المسلمون انكشافاً لم يسمع بمثله ، وألجأ العدو المسلمين إلى التراجع إلى خندق عميق ، هو الذى تنسب إليه الموقعة ( فهى تسمى موقعة الخندق )[٣] . فتساقط فيه المسلمون حتى ساووا بين ضفتيه ، وانكشف الناصر ، واستولى العدو على محلاته ، وما فيها من عدة ومتاع ، وضاع فيها مصحفه ودرعه[٤].

ولدينا من الرواية النصرانية أولا رواية ألفونسو الحكيم فى تاريخه العام ، وهى رواية موجزة مغرقة معاً ، وخلاصتها أن عبد الرحمن ملك قرطبة وابن يحيى ملك سرقسطة ، قدما فى جيش ضخم إلى أرض الملك راميرو ، ووصلا فى جيشهما حتى بلدة سيت مانكاس . فلما علم بذلك الملك راميرو خرج لقتالهم وقاتلهم حتى هزم المسلمون ، وقتل منهم ثمانون ألفاً ، وكان هذا اليوم يوم القديس يوستى والقديس باستور . ويقول لوقا التوجى إنه كان يوم الإثنين . وأسر ابن يحيى . وهرع المسلمون الآخرون إلى حصن يسمى « الخندق » **Alfondiga** وتركوا كثيراً من قتلاهم فى الميدان . وحاصرهم الملك راميرو فى هذا الحصن ، وفر منه

---

( ١ ) نقلنا رواية ابن حيان عن موقعة الخندق والكتاب الذى صدر عن الناصر عقب وقوعها من السفر الخامس من المقتبس ( مخطوط الخزانة الملكية ) لوحات ١٦٧ إلى ١٧٢ أ . هذا وقد نشرنا نص كتاب الناصر كاملا فى نهاية الكتاب .

( ٢ ) شنت مانكش هى بالإسبانية **Simancas** ( سيمانقة ) . وهى تقع على مقربة من نهر دويرة شرقى مدينة سمورة وجنوب غربى بلد الوليد . وما تزال هذه القلعة قائمة حتى اليوم بصورتها النصرانية المجددة . وهى اليوم مقر دار المحفوظات الإسبانية .

( ٣ ) وتعرف الموقعة بالإسبانية **Alhandega** محرفة عن كلمة « الخندق » .

( ٤ ) أعمال الأعلام ص ٣٦ و ٣٧ .

عبد الرحمن ناجياً بنفسه فى نفر من صحبه ، وعاد الملك راميرو فى جيشه ومعهم غنائم كثيرة من الذهب والفضة والأحجار النفيسة وأشياء كثيرة أخرى ، وأخذ معه ابن يحيى أسيراً[١] .

بيد أن هنالك روايات نصرانية أخرى أكثر دقة ووضوحاً . وخلاصة هذه الروايات هو أن عبد الرحمن سار بجيشه فى اتجاه سيمانقة الواقعة على مقربة من نهر دويرة شرق مدينة سمورة ، فلقيه راميرو وحليفته طوطة فى قواتهما ، ونشبت بين الفريقين موقعة فى ٥ أغسطس سنة ٩٣٩ م ، فأبدى رؤساء العشائر العربية فى القتال فتوراً وتراجعوا أمام النصارى . ولكن حدث ما لم يتوقعه المسلمون : ذلك أن النصارى طاردوهم وألحوا فى قتالهم ، فارتد المسلمون أمامهم نحو الجنوب الغربى ، حتى محلة صغيرة فى جنوبى مدينة شملنقة تسمى ألانديجا ( الخندق ) ، ثم وقفوا وكروا على النصارى بفتور وتخاذل ، وهجم النصارى عليهم بجرأة وشدة ، فهزم المسلمون هزيمة شديدة ، وأمعن النصارى فيهم قتلا وأسراً . فساد الخلل فى الجيش الإسلامى ، ومزقت منه فرق برمتها ، وقتل قائده نجدة الصقلبى ، وأسر محمد بن هاشم حاكم سرقسطة ومزق جيشه ، وكان يحارب إلى جانب عبد الرحمن فى هذه الغزوة ، وحمل مصفداً إلى ليون . وأثخن عبد الرحمن نفسه جراحاً ، ولم ينج من الموت والأسر إلا بأعجوبة ، فولى شطر قرطبة فى نفر من الفرسان[٢] . ولم يحاول راميرو أن يستغل نصره بمطاردة المسلمين . ويقال إن الذى منعه من مطاردتهم هو أمية بن اسحاق إذ حذره من الكمين ورغبه فيما خلفوه من الأسلاب والغنائم الضخمة . ولولا ذلك لفنى الجيش الإسلامى بأسره[٣] . وكان لانتصار راميرو وقع عظيم فى أوربا وفى العالم الإسلامى ، بيد أن الموقعة على روعتها لم تكن بعيدة الأثر فى قوة الأندلس ومنعتها ، ولم يدخر عبد الرحمن منذ عوده إلى قرطبة جهداً فى تنظيم الجيش وإصلاحه ، وتطهيره من العوامل الخطرة التى أدت إلى هذه الكارثة . ويحاول ابن الخطيب أن يوضح لنا أسباب هذه الكارثة فى قوله : « وجرت الهزيمة على المسلمين طائفة من جند الناصر

---

(١) Crônica General, ibid, Vol. II. p. 396

(٢) Dozy : Hist.; Vol. II. p. 155—156 وكذلك : Aschbach : Geschichte der Omajaden in Spanien. B. II. p. 50 حيث يورد الروايات النصرانية .

(٣) نفح الطيب ج ١ ص ١٦٥ ، وابن الأثير ج ٨ ص ١١٥ .

لدين الله حسدته ما هيأ الله من الصنع ، ولم تناصحه فى الحرب حق النصح ، فجالت ثانية للأعنة ، واختل مصاف القتال » . ثم يقول لنا إن الناصر ، قرر أن يبطش بأولئك الخونة المتهاونين ، فأمر قبيل وصوله إلى قرطبة ، أن تقام المصالب على ضفة نهرها ، وما كاد يصل إلى قرطبة ، حتى قبض على نحو ثلاثمائه من الفرسان ، فصلبهم وأمر بالنداء عليهم : « هذا جزاء من غش الإسلام ، وكاد أهله ، وأخل بمصاف الجهاد»[1]. بيد أن موقعة الخندق كانت خاتمة أعمال الناصر الحربية فلم يغز من بعدها بنفسه .

وفى ذلك يقول ابن حيان : « إنه قد اشتدت على الناصر نكبته فى غزوته هذه ، فاتهم سعده ، واعتكر بكره ، حتى خاف على نفسه ، فأشير عليه بعكس همه . فالتفت إلى البنيان يعالج به همه وأساه ، فأنشأ مدينة الزهراء ، وأقصر من ذلك الوقت عن الغزو بنفسه ، ووكل إلى حزمة قواده وشجعانهم ، يجردهم بالصوائف كل عام » . ومن جهة أخرى فقد رأى عبد الرحمن أن يتبع نحو أمراء الثغر الأعلى سياسة جديدة . وذلك أنه ، وفقاً لقول ابن حيان قد « اقتصر فى تقليد شئون الثغر الأعلى المانعة للدروب على أكابر ساكنيها ورثها عن الأجداد والآباء صلابة البأس ، آل تجيب ، وآل ذى النون ، وآل زروال ، وآل غزوان ، وآل الطويل ، وآل رزين ، وأسبابهم المؤمرين قديماً بثغورهم ، الذابين عن حريمهم ، فضم بلادهم بينهم حصصاً ، وجدد لهم ولأعقابهم بعدهم على أقسامهم منها كل عام ، ثم لا يغبنهم بالصلات إذا وفدوا وطلبوا ، وبالهدايا إن بعدوا » ، وقد ترتب على ذلك أن كان هؤلاء الزعماء يقومون بدفاع النصارى ، وكان الناصر يزودهم كل عام بالعدد والسلاح ، والمستنفرة والمطوعة إلى الثغر تعضيداً لجهودهم[2] .

واستأمن أمية بن إسحاق بعد ذلك عبد الرحمن ، فلم ير بأساً من تأمينه والعفو عنه . وكانت سياسة عبد الرحمن ترمى دائماً إلى اصطناع خصومه الأقوياء بالعفو والإغضاء . وسعى عبد الرحمن حسبما تقدم إلى افتداء محمد بن هشام ، فأفرج عنه النصارى بعد أن لبث فى سجون ليون زهاء ثلاثة أعوام ، وغمره الناصر بعطفه

---

(١) أعمال الأعلام ص ٣٧ .

(٢) ابن حيان فى السفر الخامس لوحة ١٦٨ ب .

فأسبغ عليه لقب الوزارة ، وجعله قائداً للثغر ، وعاد إلى سرقسطة ، وكان يزور قرطبة من آن لآخر ، واستمر والياً لسرقسطة حتى توفى فى سنة ٣٣٨ هـ . فعين الناصر ولده يحيى مكانه فى الولاية والقيادة . وشغل النصارى مدى حين بعد موقعة الخندق بطائفة جديدة من الحروب الأهلية ، واستطاع عبد الرحمن خلال ذلك أن يعنى بإصلاح شئون المملكة وتقويتها .

وجنح راميرو ملك ليون إلى السلم مرة أخرى ، وبعث إلى الناصر يطلب عقد الصلح ، فأجابه الناصر عن كتابه بالقبول ، وبعث إليه سفيراً ليعقد معه شروط السلم . ولكنه كان كالعادة سلماً قصير الأمد .

وعقد الناصر من جهة أخرى السلم مع صاحب برشلونة الإفرنجى شنير بن منفريد ، وبعث إليه كاتبه حسداى بن إسحاق الإسرائيلى ، لينظم معه عقد السلم وفقاً للشروط التى ارتضاها الناصر ، وخلاصتها أن يتخلى شنير عن إمداد جميع النصارى الذين ليسوا فى سلم الناصر ، وأن يلتزم طاعته ، وأن يحل المصاهرة التى بينه وبين غرسية بن شانجه صاحب بنبلونة ( نبرّة ) ، وكان شنير قد زوجه ابنته فألغى زواجها وفقاً لرغبة الناصر . وأصدر الناصر أوامره إلى قادة الأسطول وعمال السواحل بتحامى أعماله ومسالمة أهل بلاده . ودعا حسداى أمراء الثغر الفرنجى إلى طاعة الناصر ، فأجابه منهم ، إلى جانب شنير ، إنجه صاحب جبرنده ، وبعث إلى قرطبة سفارة يطلب تأمين تجار أراضيه الذين يجوبون ربوع الأندلس ، فأجيب إلى طلبه ، وصدرت الأوامر إلى جميع عمال الجزائر الشرقية والمراسى الساحلية ، بتأمين سائر رعايا إنجه على أنفسهم وأموالهم[١] .

ولم يحترم ملك ليون عهد السلم طويلا ، وعادت بعوثه تعيث فى الأراضى الإسلامية . ومن ثم فإن غزوات المسلمين لإسبانيا النصرانية لم تنقطع فى الأعوام التالية . فى سنة ٣٢٩ هـ ( ٩٤١ م ) غزا المسلمون أراضى ليون وعاثوا فيها ؛ وفى سنة ٣٣٥ هـ ( ٩٤٦ م ) عنى الناصر بتجديد مدينة سالم[٢] وهى أقصى مدن الأندلس الشمالية الغربية على حدود ليون ، وحصنها وشحنها بالرجال والعدد ،

---

( ١ ) المقتبس — السفر الخامس — لوحات ١٧٣ — ١٧٥ .

( ٢ ) هى بالإسبانية **Medinaceli** وترجع تسميتها بذلك الاسم إلى أنها كانت منزل بنى سالم ، وهم بطن من بطون قبيلة مصمودة البربرية ( راجع جمهرة أنساب العرب لابن حزم — القاهرة — ص ٤٦١ ) .

وكانت قد خربت من جراء غزوات العدو المتكررة . وتوالت غزوات المسلمين لأراضي ليون في الأعوام التالية . وفي أواخر سنة ٣٣٩ هـ ( يناير ٩٥٠ م ) ، توفي راميرو الثاني ملك ليون ، فثارت الحرب الأهلية بين ولديه أردونيو وسانشو ، وانتهز المسلمون هذه الفرصة فعاثوا في أراضي ليون غير مرة ، وانتهى الأمر بفوز أردونيو وجلوسه على العرش . ورأى أردونيو أن يعقد الصلح مع الناصر ، فأرسل إليه سفيراً يخطب وده ، فاستجاب الناصر إلى دعوته ، وعقد معه معاهدة صلح تعهد فيها أردونيو بأن يصلح بعض القلاع الواقعة على الحدود ، وأن يهدم البعض الآخر ( سنة ٩٥٥ م ) ، ولكن أخاه سانشو رفض هذه المعاهدة وحال دون تنفيذها . فاضطر الناصر إلى استئناف الحرب ، وسير قائده أحمد ابن يَعلى في جيش إلى ليون ، فهزم النصارى وعقد الصلح بين الفريقين مرة أخرى ، واستقرت بينهما علائق السلم مدى حين .

* * *

ونعود الآن قليلا إلى الوراء لنستعرض بعض الحوادث الداخلية ، ومنها بالأخص ما حدث من محن المحل والمجاعة بالأندلس . ففي سنة ٣١٧هـ ( ٩٢٩ م ) ، وقع المحل بالأندلس واحتبس الغيث ، واضمحلت الزروع ، وعزت الأقوات ، وغلت الأسعار على نحو ما حدث في سنة ٣٠٣ هـ ، فأمر الناصر خطيب المسجد الجامع بالحضرة ، بالاستسقاء ، فبدأ بذلك في خطبة الجمعة التالية ، ثم برز بالناس إلى مصلى الربض يوم الإثنين الثامن من شهر صفر ( ٢٣ مارس ) ، فلم يسقط الغيث ، واستمر المحل والقحط ، وجهدت الناس . وخرجت كتب الناصر إلى جميع العمال على الكور بالأمر بالاستسقاء ، وكان الكتاب إلى جميع العمال بنفس النص على النحو الآتي :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد فإن الله عز وجل ، إذا بسط رزقه وأغدق نعمته ، وأجزل بركاته ، أحب أن يشكر عليها ، وإذا رواها وقبضها ، أحب أن يسئلها ، ويضرع إليه فيها ، وهو الرزاق ، ذو القوة المتين ، والتواب الرحيم ، الذي يقبل التوبة من عباده ، ويعفو عن السيئات ، ويعلم ما تفعلون ، وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا ، وينشر رحمته ، وهو الولي الحميد ، فأوجبت به الرغبة ، عز وجهه فيه ، والخشوع لعزته ، والاستكانة له ، والإلحاح في المسئلة

فيما احتبس به ، والتوبة من الأعمال المنكرة التى توجب سخطه منه ، وتبذل نقمته ، وتستروحه رضاه ، تعالى جده . وقد أمرنا الخطيب فيما قبلنا بالاستسقاء فى المسجد الجامع يوم الجمعة ، والجمعة الثانية التى تليه ، إن أبطأت السقيا ، والبروز يوم الإثنين بعدها لجماعة المسلمين عندنا إلى مصلاتهم ، أو يأتى الله قبل ذلك بغيثه المعنى عنه ، ورحمته المنتظرة منه ، المرجوة عنده ، فرالخطيب بموضعك أن يحتمل على مثل ذلك ، ويأخذ به من قبله من المسلمين ، وليحملهم بذلك المحمل ، ولتكن ضراعتهم إلى الله تعالى ، ضراعة من قد اعترف بذنبه ، ورجا رحمة الله ، والله غفور رحيم ، وهو المستعان لا شريك له إن شاء الله»[1].

وفى سنة ٣٢٤ هـ ، وقع بالأندلس محل جديد لم يعهد فيها بمثله من قبل ، فاحتبس المطر ، وجفت الزروع . ومع ذلك فلم يترك هذا المحل وراءه كثيراً من الآثار المخربة ، ويقول لنا ابن حيان ، إن البركات والخيرات استمرت ذائعة بين الناس فى سائر الجهات . وبذل الناصر لمعونة الناس ما جبر النقص فى المحل . وانهمل الغيث فى العام التالى ، وقد نظم الشاعر عبد الله بن يحيى بن إدريس فى ذلك قصيدة فى مديح الناصر هذا مطلعها :

نعم الشفيع إلى الرحمن فى المطر　　　مستنزل الغيث بالأعذار والنذر[2]

وعاد المحل والقحط يعصف بالأندلس فى سنة ٣٢٩ هـ ( ٩٤١ م ) ، وتوقف المطر ، وعم الجفاف ، وشرع قاضى الجماعة ، وصاحب الصلاة محمد بن أبى عبد الله بن عيسى فى إقامة صلاة الاستسقاء فى يوم الجمعة الثانى من ربيع الآخر . ولكن المحل تمادى ، وبرز الناس إلى مصلى الربض مراراً وتكراراً . وفى الثانى عشر من جمادى الأولى ( أول فبراير ) ، بدا نوء غليظ وسحاب كثيف ونزل الثلج طوال اليوم وغطى الأرض ، ثم نزل المطر والثلج ، وانقطع دون أن يروى الأرض . فعاد القاضى إلى الاستسقاء حتى استجاب الله لعباده بعد أيام قلائل ، وبدأ الناس فى الزرع ، وتوالى نزول الغيث ، وامتسقى الناس سقيا وافياً ، ورويت الأراضى والمزارع ، وهبطت الأسعار وعاد الرخاء[3] .

---

( ١ ) ابن حيان فى السفر الخامس — لوحة ١٠٢ أ و ب .
( ٢ ) ابن حيان — السفر الخامس — لوحة ١٥٠ أ .
( ٣ ) ابن حيان السفر الخامس — لوحة ١٨١ .

هذا ، ومما ذكره لنا ابن حيان من الحوادث الداخلية فى سنة ٣٢٤ هـ ( ٩٣٦ م ) ، وقوع الحريق العظيم بمدينة قرطبة . ففى أوائل شهر شعبان من هذه السنة ، شبت النار بسوق قرطبة ، فأحرقت جميع مجالس الحصاد ، واتصل الحريق بحى الصرافين ، وما جاور مسجد أبى هرون ، فاحترق وتداعى المسجد . ثم اتصلت النار بسوق العطارين ، وما جاوره من الأسواق والأحياء ، واتسع نطاقها بصورة مرعبة . وكان حريقاً شنيعاً مروع الآثار . وقد أمر الناصر بعد انتهائه ، وانجلاء آثاره ، أن يعاد بناء مسجد أبى هرون ، فأعيد على أحسن حال . وأمر الناصر كذلك بإعادة بناء ما تهدم من الدور والصروح العامة[1].

— ٣ —

لم ينس عبد الرحمن خلال توفره على محاربة الثوار والنصارى داخل شبه الجزيرة ، أن يعنى بمقاومة الدعوة الفاطمية التى اجتاحت شمالى إفريقية ، وامتدت بسرعة إلى عُدوة المغرب وإلى سبتة ، وأخذت تهدد شواطىء الأندلس . وكانت الدعوة الفاطمية تنطوى بالنسبة للأندلس على خطر مزدوج دينى وسياسى معاً . وكانت فى قوتها وعنفوانها تهدد طرفى إفريقية أعنى مصر والمغرب . فمنذ عبيد الله المهدى أول الخلفاء الفاطميين ، تتردد جيوش الخلافة الفتية من قواعدها فى تونس نحو مصر والمغرب ، غازية . وكان اجتياحها السريع للمغرب يثير بحق جزع حكومة قرطبة ؛ ولا غرو فقد كانت عدوة المغرب تعتبر دائماً ، قاعدة لغزو الأندلس وخط دفاعها الأول . وكان ثوار الأندلس يتجهون بأبصارهم إلى العدوة ، ويفاوضون الفاطميين ، ويأتمرون معهم على حكومة الأندلس ، فكان على عبد الرحمن أن يغالب هذا الخطر الجديد قبل استفحاله . ففى سنة ٣١٩ هـ ( ٩٣١ م ) سير عبد الرحمن إلى ثغر سبتة أسطولا قوياً يتكون من مائة وعشرين سفينة ، ما بين حربية وناقلة ، وسبعة آلاف رجل منهم خمسة آلاف من البحارة وألف من الحشم ، وانضم إليه عدة من وجوه ألمرية وبجانة تطوعا فى مراكبهم ، وكان تحت قيادة أميرى البحر أحمد بن محمد بن إلياس وسعيد بن يونس بن سعديل . فخرج هذا الأسطول من الجزيرة آخر جمادى الأولى من هذه السنة ، واستولى على سبتة من يد ولاتها البربر بنى عصام حلفاء الفاطميين ، وطلب الناصر إلى صاحب طنجة

(١) ابن حيان السفر الخامس – لوحة ١٥٠ أ .

أبى العيش الحسنى أن ينزل له عنها لتكمل له بذلك السيطرة على رأس العدوة ، فأبى ، فحاصره الأسطول وضيق عليه حتى أذعن ، وأجاب الناصر إلى ما طلب ، وانتقل مع إخوته وبنى عمه من الأدارسة إلى مدينة البصرة وثغر أصيلا تحت طاعة الناصر[1] .

وبادر زعماء البربر من الأدارسة وزنانة إلى طاعة الناصر ومهادنته ، وامتدت دعوته إلى فاس . وبعث إليه موسى بن أبى العافية أمير مكناسة يطلب محالفته والدخول فى طاعته ، فأجابه عبد الرحمن إلى رغبته ، وأمده بالأموال والهدايا ، وقوى أمره فى المغرب . وفى سنة ٣٢١ هـ ( ٩٣٣ م ) استطاع موسى أن يهزم جيشاً أرسله عبيد الله الفاطمى لغزو المغرب ، والقضاء على دعوة الناصر ، بقيادة قائده ابن يصل عامل تاهرت . ثم توفى عبيد الله فى العام التالى . وفى سنة ٣٢٣ هـ سير ولده الخليفة القائم إلى المغرب حملة أخرى ، بقيادة ميسور الصقلبى ، فضيق على موسى وطارده حتى الصحراء ، واستولى الأدارسة حلفاء الفاطميين على مملكته .

وبعث الناصر لإنجاده إلى شواطىء العدوة أسطولا قوامه أربعون سفينة بقيادة أمير البحر عبد الملك بن أبى حمامة ، سار إلى سبتة ، ثم تقدم إلى مليلة فافتتحها ، ثم افتتح نكور وجراوة ، فقويت نفس موسى ، واستقل نوعاً من عثرته ، وانسحب الفاطميون إلى الداخل ، وقضى الأسطول فى غزواته هذه ستة أشهر ، ثم عاد إلى قواعده فى ألمرية .

وجازت جيوش عبد الرحمن وأساطيله بعد ذلك مراراً إلى المغرب ، لمحاربة الفاطميين وحلفائهم من الأدارسة وغيرهم من أمراء البربر ، واضطر الأدارسة فى النهاية إلى طلب الصلح من عبد الرحمن والاعتراف بطاعته ( ٣٣٢ هـ ) ، ودعى لعبد الرحمن على منابر المغرب ، واستقرت دعوته هنالك مدى حين ، ولكن سلطانه فيما وراء البحر لم يكن ثابت الدعائم ، وكان رهيناً بقيام دولة الأمراء المحالفين له .

ولما تولى المعز لدين الله رابع الخلفاء الفاطميين الملك ، وبدت الدولة الفاطمية فى أوج قوتها فى إفريقية ، وأخذت أساطيلها القوية تزعج الدولة البيزنطية ، بغزو

---

(١) ابن حيان — السفر الخامس — لوحة ١٢٥ أ و ب ، والاستقصاء ج ١ ص ٨٥ .

شواطىء قلورية[١] فى جنوبى إيطاليا ، كان خطر غزو الفاطميين للأندلس يلوح قوياً فى الأفق . والظاهر أن هذه الفكرة لم تكن بعيدة عن ذهن المعز ، بل يبدو فوق ذلك أن حكومة قرطبة وقفت على بعض وثائق تؤيد هذه النية. وفى سنة ٣٤٤هـ (٩٥٥ م) سارت بعض السفن الفاطمية وهاجمت ثغر ألمرية ، وأحرقت ما فيه من السفن ، وعاثت فى ألمرية . فرد عبد الرحمن بأن أرسل قوة بحرية بقيادة أمير البحر غالب ، إلى شواطىء إفريقية (تونس) ، فعاثت فيها ، وأمر عبد الرحمن فى الوقت نفسه بلعن الشيعة والفاطميين على منابر الأندلس . ثم عاد بعد ذلك بثلاثة أعوام ، فسير أسطوله ثانية إلى إفريقية بقيادة أحمد بن يعلى ، تهديداً للقوات الفاطمية ، التى زحفت بقيادة جوهر الصقلى حذاء الشاطىء إلى عدوة المغرب ، وكان المعز قد سير قائده جوهراً فى سنة ٣٤٧ هـ ، فى جيش عظيم إلى المغرب الأقصى ، ومعه زعيم صنهاجة زيرى بن مناد فى قواته ، فاجتاح شمالى المغرب كله حتى المحيط ، ونازل فاس واقتحمها عنوة . وكان الناصر يرقب تقدم الفاطميين على هذا النحو فى أراضى العدوة بجزع ، ويجعل أساطيله على أهبة دائمة . وعبرت فى نفس الوقت حملة أندلسية أخرى من طريق سبتة إلى المغرب ، ولبثت هنالك حتى ارتد الفاطميون أدارجهم[٢] .

ويقدم إلينا ابن حيان بقلمه البليغ تلك الصورة عن تقدير الناصر لأهمية عدوة المغرب فى الدفاع عن الأندلس ، ومقاومة الدعوة الفاطمية :

« لم تزل نفس الخليفة الناصر لدين الله ، منذ استولى على أمر الملك ، واعين النصر ، وسلط على أهل الخلاف ، دروباً على ما سخر له من ذلك ، ظموءاً إلى درك اقصاره ، متخطياً موسطته إلى نهايته ، معملا فيه روءيته ، موقظاً له فكرته ، تأمل هذا الفرج فى ساحل البحر الرومى . . . مجاورة جبل البرابر الحالّين بلاد المغرب لملكتهم لعدوتهم الراكبة لعدوة بلد الأندلس ، تكاد عدوتهما تتراءى لضيق بحر الزقاق الحاجز بينهما ، وسهولة مرامه أى أوقات الزمان روى

---

(١) وهى بالإفرنجية **Calabria** .

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٣٨ و ١٤١ ؛ وابن الأثير ج ٨ ص ١١٩ ؛ ونفح الطيب ج ١ ص ١٦٩ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٢١٩ و ٢٢٠ و ٢٢٥ و ٢٣٧ ، ٢٣٨ ؛ وراجع **Dozy: Hist., Vol. II.p. 164 & 165**

ركوبه . فمنه طرقت الأندلس فى الزمان الخالية ، واكتسب أهلها المخافة ، فدعته همته العلية ، وفكرته المصيبة ، إلى التوقل إلى تلك الباغية المرهوبة ، والسمو لتلك العورة المكشوفة ، وذلك عند ما كشف عند يكنف ذلك الساحل الغربى من طنجة الفتنة ، وضع ما كان أوهته من صدع الفرقة ، وملك مفتاح الجزيرة الخضراء فرضة الأندلس الدنيا ، الراكبة فتح ذلك البحر المرهوب ، المحاضية لضرتها مدينة سبتة فرضة المجاز من بلد العدوة . فأذكى نظر عينه ما كان منبثاً بخاطره من الرهبة ، فأرهف العزم ، وألطف الحيلة ، وابتدئ ففتح ذلك بمخاضة من تقدمت له بأسلافه ملوك بنى أمية من أمراء تلك البلاد وصلة أو سلفت بينهم أصرة ، يستثير وصايلهم ، ويصل أحبلهم ، ويستدعى ولايتهم ، ويسبب ذلك ما شاء مهاداتهم ، واكرام أسبابهم ، وقضاء حوايجهم ، فلم يلبث أن هويت إليه أفئدة كثير منهم ، وزعمايهم بين مصحح فى ولايته ، مستجيب لدعوته ، مغتنم لعطيته . مستعين بقوته على مدافعة من قد هد ركنه من بنى عبيد الله إمام الشيعة المقتحم أرضه عليه ودونه ، وبين منافق مقيم لسوقه بينه وبين تلك الشيعة ، منذ بدت بينها العداوة ، مايل مع الدولة ، مجتلب لعاجل ما استمسك به من الرشوة .

« استوى للناصر لدين الله من الطائفتين أولياء قاموا بدعوته ، ورفعوا فوق أعلامه ، وعاطوا مضطهدا ، عبيد الله الشيعى صاحب إفريقية بدعوته ، وقلبوا مجانهم إليه ،ونصبوا الحرب لرجاله ، فكفكفوهم عن الإيغال فى بلدتهم من قاصية المغرب ، يهطنونهم بالكيد والمكر ، فتمكنت بذلك قدم الناصر لدين الله ، فيما حازه من مدينة سبتة والقطعة التى استضمها إليها من أرض العدوة ، واجتذب من أجله كثيراً من فرسان البربر وحماة رجالهم إلى حضرته ، استعان بهم فى حروبه ، وتمكن من ذلك من ارتياد عتاق الخيل بوادى البربر ، واستنتاجهم الفاضل لبراذين الأندلس ، فمتنت بذلك أسباب ملكه ، وجل مقداره ، وبعد صيته ، وهابته ملوك الأمم حوله ، وظهرت نتيجة ما عاناه من مواصلة أمراء البربر ، وسعى لهم سعيه لصدر دولته الفاضلة ، سنة سبع عشرة وثلث مايه وما يليها ، إذ ترددت فيها عليه كتب محمد بن خزر عظيم أمراء زنانة فى وقته ، وأنفرهم عن عبيد الله الشيعى ، وأدناهم من داره ، وأول من تناوله الناصر

لمدين الله من جماعتهم بمكاتبته ، واجتذبه بوصلته »[1] .

— ٤ —

هذا وربما كان قيام الخلافة الفاطمية فى الضفة الأخرى من البحر ، وانسياب دعوتها إلى المغرب الأقصى ، على مقربة من شواطىء الأندلس ، فى مقدمة البواعث التى حدت بعبد الرحمن إلى العمل على إحياء تراث الخلافة الأموية الروحى ، بعد أن توطدت دعائم دولتها السياسية بالأندلس ، وكان مؤسسها عبدالرحمن الداخل قد أمر بمنع الدعاء لبنى العباس ، ولكنه لم يتخذ سمة الخلافة واكتفى بلقب الإمارة . وسار بنوه على أثره . وبالرغم من أن الدولة الأموية قد استطاعت غير مرة ، أن تستعيد مجدها السالف ، فى عهد الحكم بن هشام وولده عبدالرحمن الأوسط ، فإن أمراء بنى أمية لم يفكروا فى الإقدام على منافسة بنى العباس فى ألقاب الخلافة . وقيل فى تعليل ذلك إنهم كانوا يرون الخلافة تراثاً لآل البيت ، ويدركون قصورهم عن ذلك « بالقصور عن ملك الحجاز أصل العرب والملة ، والبعد عن دار الخلافة التى هى مركز العصبية » وأنهم بعبارة أخرى كانوا يرون أن الخلافة تكون لمن يملك الحرمين[2] . بيد أننا نعتقد أن هذا الإحجام يرجع بالأخص إلى بواعث الحكمة والسياسة ، والتحوط من إثارة الفتنة والخلافات الدينية والمذهبية . فلما ظهرت الدعوة الفاطمية فى إفريقية ، ونمت بسرعة فى أوائل القرن الرابع الهجرى ، ولما تواترت الأنباء من جهة أخرى ، عما انتهت إليه الدولة العباسية فى المشرق من الإضطراب والفوضى ، وما حدث من استبداد موالى الترك بالأمر وحجرهم على الخلفاء ، رأى عبد الرحمن أن يتسم بسمة الخلافة ، وأن يسترد بذلك تراث أسرته الروحى ، وأنه بما وفق إليه من النهوض بالدولة الإسلامية وتوطيد أركانها ، أحق بألقاب الخلافة من دولة منحلة وأخرى طارئة . ونفذ الأمر بذلك فى يوم الجمعة مستهل ذى الحجة سنة ٣١٦ هـ ، حيث قام صاحب الصلاة القاضى أحمد بن أحمد بن بقى بن مخلد بالدعاء له بالخلافة ، على منبر المسجد الجامع بقرطبة[3] . وإليك نص الوثيقة الرسمية التى صدرت بذلك وهو :

---

(١) ابن حيان فى المقتبس — السفر الخامس لوحة ١٠٣ ب و ١٠٤ ا

(٢) ابن خلدون ج ١ ( المقدمة ) ص ١٩٠ ؛ والمسعودى فى مروج الذهب ( بولاق ) ج ١ ص ٧٨ ؛ وابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٩٩ .

(٣) ابن حيان فى المقتبس — السفر الخامس — لوحة ٩٩ أ .

« بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على نبيه محمد الكريم . أما بعد فإنا أحق من استوفى حقه ، وأجدر من استكمل حظه ، ولبس من كرامة الله تعالى ما ألبسه ، فنحن للذى فضلنا الله به ، وأظهر أثرتنا فيه ، ورفع سلطاننا إليه ، ويسر على أيدينا دركه ، وسهل بدولتنا مرامه ، وللذى أشاد فى الآفاق من ذكرنا ، وأعلى فى البلاد من أمرنا ، وأعلن من رجاء العالمين بنا ، وأعاد من انحرافهم إلينا ، واستبشارهم بما أظلهم من دولتنا إنشاء الله ، فالحمد لله ولى الإنعام بما أنعم به ، وأهل الفضل بما تفضل علينا فيه . وقد رأينا أن تكون الدعوة لنا بأمير المؤمنين ، وخروج الكتب عنا وورودها علينا بذلك — إذ كل مدعو بهذا الإسم غيرنا ، منتحل له ، ودخيل فيه ، ومتسم بما لا يستحقه منه ، وعلمنا التمادى على ترك الواجب لنا من ذلك حق أضعناه ، واسم ثابت أسقطناه ، فمر الخطيب بموضعك ، أن يقول به ، وأجر مخاطبتك لنا عليه إن شاء الله . والله المستعان . وكتب يوم الخميس لليلتين خلتا من ذى الحجة سنة ٣١٦ »[1] .

وهكذا اتخذ عبد الرحمن سمة الخلافة عن يقين بأفضليته ، وأولوية حقه وحق أسرته ، وتسمى بأمير المؤمنين الناصر لدين الله ، وذلك فى الثانى من شهر ذى الحجة سنة ٣١٦ هـ ( يناير سنة ٩٢٩ م ) فكان أول أمير من بنى أمية بالأندلس ينعت بأمير المؤمنين . وبدأت الدعوة من ذلك الحين لبنى أمية بألقاب الخلافة فى الأندلس والمغرب الأقصى ، ونقشت ألقاب الخلافة على السكة . ويضع بعض المؤرخين اتخاذ لقب الناصر لسمة الخلافة فى سنة ( ٣٢٧ هـ ) أى بعد وقوعه بنحو عشرة أعوام ، وهو تحريف واضح تنقضه وثيقة الدعوة الرسمية[2] .

— ٥ —

وكان من أبرز الحوادث الداخلية فى عصر الناصر ، حركة الفيلسوف المتصوف ابن مَسَرَّة الجبلى ، واهتمام الناصر بمقاومتها وقمعها ، وذلك حتى بعد أن توفى زعيمها بأعوام طويلة ، وإصدار كتابه الشهير فى إشأنها .

---

( ١ ) يضع ابن حيان اتخاذ الناصر لسمة الخلافة فى حوادث سنة ٣١٦ هـ والدعاء له بها ، حسبما تقدم فى مستهل ذى الحجة من هذه ، السنة ويلخص فى كلامه نص الوثيقة ( السفر الخامس — لوحة ٩٩ أ ) . وقد اعتمدنا فى نقل الوثيقة الخلافية على ما ورد فى الأوراق المخطوطة الخاصة بعهد الناصر ، ص ٧٨ و ٧٩ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٢١٢ .

( ٢ ) هذه رواية ابن الأثير ( ج ٨ ص ١٧٨ ) وكذلك ابن خلدون ( ج ٤ ص ١٣٧ ) . والظاهر أن أصحاب هذه الرواية لم يطلعوا على وثيقة الدعوة التى أثبتنا نصها .

وهو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن مَسَرَّة من أهل قرطبة ، وبها ولد سنة ٢٦٩ هـ (٨٨٢ م) ، ودرس على أبيه وعلى ابن وضاح والخشنى وغيرهم، ولكنه جاهر ببعض الآراء الدينية المغرقة فى التأويل والقدر وإنفاذ الوعيد وغيرها ، فاتهم بالزندقة ، فغادر الأندلس فارًّا إلى المشرق ، وأنفق هنالك بضعة أعوام ، وتفقه على يد المعتزلة والكلاميين وأهل الجدل . ثم عاد إلى الأندلس ، وهو يخفى آراءه ونحلته الحقيقية تحت ستار من النسك والورع ، وكان ذلك فى بداية عهد الناصر ، فاختلف إليه الطلاب من كل صوب ، وكان يستهويهم بغزير علمه ، وسحر بيانه ، ومنطقه الخلاب ، حتى التف حوله جمهرة كبيرة من الصحب والأتباع ، أضحت تكون مدرسة خاصة من الآراء الدينية والكلامية المتطرفة . واختلف الناس فى أمر ابن مسرة ، فمنهم من كان يرتفع به إلى مرتبة الإمامة فى العلم والزهد والورع ، ومنهم من كان يرميه بالزندقة وترويج البدع ، والانحراف عن مبادىء الدين الصحيحة . وتوفى ابن مسرة بقرطبة فى شوال سنة ٣١٩ هـ ( ٩٣١ م)[1] . ولكن آراءه وتعاليمه بقيت من بعده ذائعة بين تلاميذه وأتباعه ، وتكونت من حولها فرقة سرية ، اتهمت بالمروق والإلحاد ، تتابع دعايته ، وتعمل على بث تعاليمه ، حتى برم بهم المتزمتون من أهل السنة ، وأخذوا يسعون لدى السلطات المختصة ، لتعمل على قمع هذه الجماعة ، والقضاء على تعاليمها .

وإليك كيف يصور لنا ابن حيان بقلمه البارع خطة ابن مسرة فى بث تعاليمه ، واستهواء أتباعه . قال :

« كان مذهب الظنين ، المرتب المرائى بالعبادة ، المنطوى على دخل السريرة ، محمد بن عبد الله بن مسرة ، الرابض للفتنة ، دب فى الناس صدر دولة الخليفة الناصر لدين الله ، واستهواهم بفضل ما أظهره من الزهد ، وأبدى من الورع .

« وكان يستهوى العقول ، ويصور الأفئدة . وكان من شأنه أن يلقى أول من يأتيه ، مقتبساً من أهل السلامة ، بالمساهلة ، إلى أن يحيله عن رأيه بالمفاضلة ، فإذا أصغى إلى عذوبة منطقه ، وعلق فى شرك حجاجه ، غره رفقاً بباطله من

---

(١) ابن الفرضى فى « تاريخ العلماء والرواة بالأندلس » (القاهرة) ج ٢ رقم ١٢٠٤ . وكذلك الحميدى فى « جذوة المقتبس » (القاهرة) ص٥٨ و٥٩ . والتكملة لابن الأبار ( القاهرة) رقم ٧٦٥ و٩٩١ .

الطاير فرخه ، فلا يبعد أن يلفته عن رأيه ، ويشككه فى اعتقاده . . . ويحصله فى اتباعه ، فاستهوى خلقاً من الناس ، صدّهم عن سبيل الله ، وأوحشهم من الجماعة ، واتخذ من رأى غيهم فى مذهبه واعة دخل فى عرضهم رجال من ذوى الفهم . ولم يزل يستظهر عليهم بالمواثيق فى الكتمان إلا من الثقات الوثاق العقدة ، فاكتتم بذلك شأنه ، إلى أن عاقصته منيته ، صدر دولة الناصر لدين الله ، أيام شغله بحروب أهل الخلاف المتصلة . فرفع الله بموته عن الناس فتنة ، ولم يلبث دعاته مع انتشارهم فى البلاد أن تلبسوا بعده بما أودعه من مكنون علمه ، فكثر القول فى شأنه ، وشم أهل الخلاف من تلقايه ، فذعر له أهل السنة من أهل قرطبة ، وتوقعوا منه البلية ، ففزع فقهاؤهم وكبراؤهم بها إلى أصحاب الخليفة الناصر لدين الله فنبهوا ... »[1] .

ومضت أعوام طويلة ، قبل أن تصل أصوات أهل السنة المعارضين لتعاليم ابن مسرة إلى المسئولين ، ولم يصدر قرار السلطة العليا فى شأنه وشأن تعاليمه ، إلا بعد أن مضى أكثر من عشرين عاماً على وفاته ، مما يدل على أن دعوته وتعاليمه لبثت حية ذائعة . قال ابن حيان :

« وفى يوم الجمعة لتسع خلون من ذى الحجة سنة أربعين وثلاث ماية ، قرئ على الناس بالمسجدين الجامعين بالحضرتين ، قرطبة والزهراء ، كتاب أمير المؤمنين الناصر لدين الله إلى الوزير صاحب المدينة عبد الله بن بدر ، بإنكاره لما ابتدعه المبتدعون ، وشذ فيه الخارجون ، من رأى الجماعة المنتمون إلى صحبة محمد بن عبد الله بن مسرة ، وانتحلوه فى الديانة ، فافتتن العوام بما أظهره من التقشف والشظف فى المعيشة ، واستتروا لبدعهم بسكنى الأطراف البعيدة ، حتى استمالوا بفعلتهم عصابة . . . وفرقة ، فتنت بمذاهبهم ، وأن ذلك بلغ أمير المؤمنين ، ففحص عليه ، وعلم صحته ، فتعاظمه ، واستوحش من اجتراء تلك الطايفة الخبيثة عليه ، فأوعز إلى وزيره ومتولى أحكامه ومدينته ، تتبع هذه الطائفة ، وإخافتها والبسط عليها ، والقبض على من عثر عليه منها ، وإنهاء خبره إلى أمير المؤمنين » .

وأورد لنا ابن حيان بعد ذلك ، نص الكتاب الذى صدر باسم الخليفة

---

(١) مخطوط ابن حيان ( السفر الخامس من المقتبس ) المحفوظ بالخزانة الملكية . وقد حالت خروم المخطوط دون ظهور بعض الكلمات .

الناصر لدين الله ، فى الحملة على تلك الطائفة ، والتبرؤ منها ، وهو من إنشاء كاتبه ووزيره عبد الرحمن بن عبد الله الزجالى .

ويبدأ الكتاب بالتنويه بشأن الإسلام ، وأفضليته على سائر الأديان ، وبرسالة محمد خاتم النبيين ، الذى اصطفاه الله ، وأرسله إلى الناس ، وكرم به أمته على سائر الأمم ، وما نبه به الإسلام من إقامة الدين ، وعدم افتراق الكلمة . وانه لما شملت النعمة ، وعم الأقطار بعدل أمير المؤمنين السكون والدعة ، طلعت فرقة لا تبتغى خيراً ، ولا تأتمر رشداً ، من طغام السواد ، « وأبدت كتباً لم يعرفوها ، ضلت فيها حلومهم ، وقصرت عنها عقولهم » واستولى عليهم الشيطان بخيله ورجله ، فقالوا بخلق القرآن ، واستيئسوا ، وآيسوا من روح الله ، وأكثروا الجدل فى آيات الله ، وحرموا التأويل فى حديث رسول الله ، فبريت منهم الذمة ، ووعدهم الله ببالغ نكاله ، لما انطوت عليه قلوبهم من الزيغ ، ولما كذبوا من التوبة ، وأبطلوا من الشفاعة ، ونالوا محكم التنزيل ، والقدح فى الحديث ، والقول بمكروه فى السلف الصالح ، فشذوا عن مذهب الجماعة ، حتى تركوا رد السلام على المسلمين ، وهى التحية التى نسخت تحية الجاهلين ، وقالوا بالاعتزال عن العامة . ولما فشى غيهم ، وشاع جهلهم ، واتصل بأمير المؤمنين ، من قدحهم فى الديانة ، وخروجهم عن الجادة ، أغلظ فى الأخذ فوق أيديهم ، وأنذرهم إنذاراً فظيعاً ، واعتزم أن يوقع بهم العقاب الشديد ، وأمر بقراءة كتابه هذا على المنبر الأعظم بحضرة قرطبة ، ليفزع قلب الجاهل ، ويضطر الغواة إلى الآثار الصحيحة التى يتقبلها الله منهم ، وأن يقرأ هذا الكتاب فى سائر الأقطار والكور ، وفى البدو والحضر ، وأن ينفذ عهده بذلك إلى سائر قواده ، وجميع عماله . لكى يقوموا بمطاردة هذه « الطغمة الخبيثة ، التى اجترأت على تبديل السنة ، والاعتداء على القرآن العظيم ، وأحاديث الرسول الأمين » . ويختتم الكتاب بمطالبة العمال ببث العيون ، وتتبع أولئك المارقين ، وإخطار أمير المؤمنين بأسمائهم ومواضعهم ، وأسماء الشهود عليهم ، حتى يحملوا إلى باب سدته ، وينكلوا بحضرته[1] .

---

(١) ورد نص هذا الكتاب فى اللوحات ١٧ و ١٨ و ١٩ من مخطوط المقتبس السالف الذكر . وسوف ننشر نص الكتاب كاملا فى نهاية الكتاب .

قال ابن حيان : « وتمادى الطلب لهذه الفرقة المسرِّية ، والإخافة لهم ، وتخويف الناس من فتنتهم بقية أيام الناصر لدين الله » .

وهنا ولأول مرة نجد شرحاً وافياً ، بقلم ابن حيان القوى الناقد ، لتلك الحركة الدينية الخطيرة ، حركة ابن مسرَّة وتلاميذه ، وهى التى استحالت أيام الناصر لدين الله إلى جمعية سرية واسعة الانتشار . فهل كانت حقاً ، كما يصورها ابن حيان ، وكما تصورها لنا الوثيقة الخلافية ، التى ينقلها إلينا ، جمعية مارقة ملحدة ، تهدد العقائد والنظام والأمن ؟ أم هل كانت حركة تفكير فلسفى حر ، لم يتسع لها أفق التفكير المعاصر ، وكانت كمعظم الحركات المماثلة ضحية لنقمة المتزمتين الرجعيين من الفقهاء والحكام ، يدافعون بسحقها عن نفوذهم وسلطانهم المطلق ؟ .

# الفصل الثانى

## خلال الناصر ومآثره

عصر الناصر أعظم عصور الإسلام بالأندلس . منشآت الناصر . مشروع بناء الزهراء . البدء فى إنشائها . قصر الزهراء وفخامته وروعته . منشآت الزهراء الأخرى . بعض أوصاف وأرقام عن الزهراء . نهاية الزهراء كقاعدة ملوكية . تخريبها أيام الثورة . بعض ما قيل فى رثائها . أطلال الزهراء واختفاؤها . جهود العلماء الإسبان للكشف عن مواقعها . وصف لما ظهر من آثارها ومعالمها . منشآت الناصر بالمسجد الجامع . تنظيم الناصر للجيش والأسطول . الأحوال المالية فى عهد الناصر . غنى الدولة الأموية وبذخها . إنشاء دار السكة بقرطبة . قرطبة وعظمتها . اصطفاء الدولة الأموية للموالى والصقالبة . حرص الناصر على السلطان المطلق . الصقالبة ونفوذهم . أثر هذا الاصطفاء . قرطبة مركز الجاذبية الدبلوماسية . تقدم الصلات الدبلوماسية بين الإسلام والنصرانية . سفارة قيصر قسطنطينية إلى الناصر . حفل استقبال السفراء وروعته . هدايا قيصر إلى الناصر . خطاب القاضى منذر بن سعيد . سفارات ملوك النصرانية . سفارة إمبراطور ألمانيا . سفارة الناصر إلى الإمبراطور . موضوع المفاوضات بين العاهلين . رأى الناصر فى نظام الحكم . سفارات نصرانية أخرى إلى الناصر . مرض الناصر ووفاته . خلاله وصفاته . حجابه. ووزراؤه وقواده . الوزراء وأصحاب الخطط . تنويه الشعر بعظمة عصره . صفة الناصر . أبناؤه . إشادة النقد الحديث بمناقبه .

ننتقل الآن إلى ناحية أخرى من نواحى عصر الناصر .

كان عصر عبد الرحمن الناصر بالرغم مما شغله من فتن وحروب مستمرة ، عصر عظمة ورخاء ومجد ، بل كان فى الواقع أعظم عصور الإسلام بالأندلس ، ولاسيما من نواحيه المعنوية والحضارية . وإذا كانت الأندلس قد بلغت فيما بعد فى عصر المنصور بن أبى عامر ، ذروة تفوقها السياسى والحربى فى شبه الجزيرة الإسبانية ، فإن الدولة الأموية بالأندلس بلغت فى عهد الناصر ذروة القوة والبهاء ؛ وكان هذا العهد حد الفصل بين مراحل تقدمها وازدهارها ، ومراحل انحلالها وسقوطها .

ولم تحل مهام الحرب والسياسة دون قيام الناصر بأعمال الإنشاء العظيمة ، وكان فى مقدمتها إنشاء مدينة الزهراء أعظم قواعد الأندلس الملوكية . وكانت قرطبة عاصمة الأندلس قد بلغت يومئذ أوج العظمة والازدهار ، وأضحت تفوق بغداد منافستها فى المشرق بهاء وفخامة . وكان الناصر قد ابتنى إلى جانب القصر الزاهر

وهو مقام الملك ، قصراً جديداً سماه دار الروضة ، جلب إليه الماء من فوق الجبل ، واستدعى المهندسين والبنائين من كل فج ، وأنشأ فى ظاهر قرطبة متنزهات عظيمة ساق إليها الماء من أعلى الجبل فوق قناطر بديعة . ومع ذلك فقد كانت قرطبة بمعاهدها ودورها وطرقها الزاخرة ، وسكانها الخمسمائة ألف ، تضيق بما يتطلبه ملك عظيم كملك الناصر ، من استكمال الفخامة الملوكية ، والقصور والميادين والرياض الشاسعة ، بل كانت تضيق بهذه المرافق الملوكية منذ عهد عبد الرحمن الداخل ، حيث أنشأ الرصافة فى ظاهرها لتكون له منزلا ومتنزها ملوكياً . وقد كان بناء القواعد الملوكية دائماً سنة العروش القوية الممتازة . فلما بلغ الناصر لدين الله ما أراد من توطيد ملكه ، وسحق أعدائه فى الداخل والخارج ، عنى بأن يعرض آيات من ملكه الباذخ ، وثاب له رأى فى أن يقيم بجوار قرطبة ضاحية ملوكية عظيمة ، فأنشأ مدينة الزهراء . ولإنشاء الزهراء قصة ، وربما كانت أسطورة على مثل الأساطير التى ترتبط بقيام المدن والمنشآت العظيمة . ولم تقل لنا الرواية إن الناصر رأى حلماً كالذى رآه قسطنطين ، وأوحى إليه بإنشاء قسطنطينية ، ولكنها تقول لنا إن الذى أوحى إلى الناصر ببناء هذه الضاحية الملوكية هى جاريته وحظيته «الزهراء» وأنه ورث من إحدى جواريه مالا كثيراً ، فأمر أن يخصص لافتداء الأسرى المسلمين ، ولكنه لم يجد من الأسرى من يفتدى ، فأوحت إليه «الزهراء» بأن ينشئ بهذا المال ، مدينة تسمى باسمها وتخصص لسكناها[1] . بيد إنا نفضل أن نرجع مشروع الناصر إلى بواعث الملك والسياسة ، وإلى عرض فخامة الملك ، والترفع بمظاهره وخصائصه ، عن المظاهر العامة ، لعاصمة مكتظة زاخرة .

والظاهر أيضاً أن شغفا خاصاً بالعمارة والبناء ، كان يحفز الناصر ويذكى رغبته فى إقامة هذه الضاحية الملوكية ، وقد كانت المنشآت والهياكل العظيمة على كر العصور مظهر الملك الباذخ ، والسلطان المؤثل ، وقد نسبت إلى الناصر فى ذلك أبيات قالها فى هذا المعنى :

| | |
|---|---|
| همم الملوك إذا أرادوا ذكرها | من بعدهم فبألسن البنيان |
| أو ما ترى الهرمين قد بقيا وكم | مُلْك محاه حوادث الأزمان |
| إن البناء إذا تعاظم شأنه | أضحى يدل على عظيم الشان |

(١) نفح الطيب ج ١ ص ٢٤٥ .

وهكذا اختطت الزهراء فى ساحة تقع شمال غربى قرطبة ، على قيد خمسة أميال أو ستة منها ، فى سفح جبل يسمى جبل العروس[1] . وكان البدء فى بنائها فى فاتحة المحرم سنة خمس وعشرين وثلثمائة ( نوفمبر سنة ٩٣٦ م ) . وعهد الناصر إلى ولده وولى عهده الحكم ، بالإشراف على بناء العاصمة الجديدة[2] ، وحشد لها أمهر المهندسين والصناع والفنانين من سائر الأنحاء ، ولا سيما من بغداد وقسطنطينية[3] . وجلب إليها أصناف الرخام الأبيض والأخضر والوردى من ألمرية وريُّه ، ومن قرطاجنة إفريقية وتونس ، ومن الشام وقسطنطينية ، وجلب إليها من سوارى الرخام أربعة آلاف وثلاثمائة أربعة وعشرين سارية[4] . وكان يشتغل فى بنائها كل يوم من العمال والفعلة عشرة آلاف رجل ، ومن الدواب ألف وخمسمائة ، ويعد لها من الصخر المنحوت نحو ست آلاف صخرة فى اليوم ؛ وقدرت النفقة على بنائها بثلثمائة ألف دينار كل عام طوال عهد الناصر ، أعنى مدى خمسة وعشرين عاماً ، هذا عدا ما أنفق عليها فى عهد ولده الحكم[5] . وابتنى الناصر فى حاضرته الجديدة قصراً منيف الذرى ، لم يدخر وسعاً فى تنميقه وزخرفته ، حتى غدا تحفة رائعة من الفخامة والجلال ، تحف به رياض وجنان ساحرة ، وأنشأ فيه مجلساً ملوكياً جليلا سمى بقصر الخلافة ، صنعت جدرانه من الرخام المزين بالذهب ، وفى كل جانب من جوانبه ثمانية أبواب ، قد انعقدت على حنايا من العاج والأبنوس المرصع بالذهب والجوهر ، وزينت جوانبه بالتماثيل والصور البديعة ، وفى وسطه صهريج عظيم مملوء بالزئبق ، وكانت الشمس إذا أشرقت على ذلك المجلس سطعت جوانبه بأضواء ساحرة[6] . وزود الناصر مقامه فى قصر الزهراء ، وهو الجناح الشرقى المعروف بالمؤنس بأنفس التحف والذخائر ، ونصب فيه الحوض الشهير المنقوش بالذهب ، الذى أهدى إليه من قيصر

---

( ١ ) مختصر نزهة المشتاق للادريسى ( طبع رومة ) ص ١٩٣ ؛ والمسالك والممالك لابن حوقل ص ٧٨ . ويسمى ابن حوقل هذا الجبل بجبل بطلش .

( ٢ ) البيان المغرب ج ١ ص ٢٤٧ ؛ ونفح الطيب ج ١ ص ٢٦٦ .

( ٣ ) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٤ .

( ٤ ) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٤٦ ، ونفح الطيب ج ١ ص ٢٤٦ ، وأعمال الأعلام ص ٣٨

( ٥ ) نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٥ .

( ٦ ) نفح الطيب ج ١ ص ٢٤٦ و ٢٤٧ .

قسطنطينية ، والذى جلبه من هنالك إلى قرطبة ، ربيع الأسقف . وجلب إليه الوزير أحمد بن حزم من الشام حوضاً ثانياً رائعاً ، يقوم عليه اثنا عشر تمثالا من الذهب الأحمر المرصع بالجواهر ، وهى تمثل بعض الطيور والحيوانات وتقذف الماء من أفواهها إلى الحوض[1] . وقد دون هذه الروايات والأوصاف العجيبة ، التى تشبه أوصاف قصور ألف ليلة وليلة المسحورة ، عن قصر الزهراء ، أكثر من مؤرخ معاصر وشاهد عيان ، وأجمعت الروايات على أنه لم يبن فى أمم الإسلام مثله فى الروعة والإناقة والبهاء[2] .

وأنشأ الناصر فى الزهراء أيضاً مسجداً عظيماً ، تم بناؤه فى ثمانية وأربعين يوماً. وكان يعمل فيه كل يوم ألف من العمال والصناع والفنانين ، وزوده بعمد وقباب فخمة ، ومنبر رائع الصنع والزخرف ، فجاء آية فى الفخامة والجمال[3] . وأنشئت بها مجالات فسيحة للوحوش متباعدة الساح ، ومسارح للطير مظللة بالشباك ، ودار عظيمة لصنع السلاح ، وأخرى لصنع الزخارف والحلى[4] . والخلاصة أن الناصر أراد أن يجعل من الزهراء قاعدة ملوكية حقة ، تجمع بين فخامة الملك الباذخ ، وصولة السلطان المؤثل ، وعناصر الإدارة القوية المدنية والعسكرية .

واستمر العمل فى منشآت الزهراء طوال عهد الناصر ، أعنى حتى وفاته فى سنة خمسين وثلثمائة ، واستمر معظم عهد ابنه الحكم المستنصر ، واستغرق بذلك من عهد الخليفتين زهاء أربعين سنة[5] ؛ ولكنها غدت منزل الملك والخلافة مذ تم بناء القصر والمسجد فى سنة تسع وعشرين وثلثمائة ، وبذا كانت (إلى جانب قرطبة ) أول منزل للخلافة الإسلامية بالأندلس .

وقد انتهت إلينا عن هذه الضاحية الملوكية الشهيرة أوصاف وأرقام مدهشة ، تنبىء عما كانت عليه من الضخامة . فقد ذكر ابن حيان مؤرخ الأندلس أن الزهراء كانت تشغل مسطحاً قدره تسعمائة وتسعون ألف ذراع ، وأن مبانيها اشتملت على أربعة آلاف سارية ما بين صغيرة وكبيرة ، منها ما جلب من مدينة

---

(١) نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٦ ؛ وأعمال الأعلام ص ٣٨ .
(٢) نفح الطيب ج ١ ص ٢٧٤ ، ٢٦٥ .
(٣) نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٤ .
(٤) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٤ .
(٥) نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٤ .

رومة ، ومنها ما أهداه قيصر قسطنطينية ، وأن مصاريع أبوابها كانت تبلغ زهاء خمسة عشر ألفاً ، وكلها ملبسة بالحديد والنحاس المموه . وذكر مؤرخ آخر أن عدد الفتيان بالزهراء ثلاثة عشر ألفاً وسبعمائة وخمسين فتى ، وعدد النساء والحشم بالقصر ستة آلاف وثلثمائة ، يصرف لهم فى اليوم ثلاثة عشر ألف رطل من اللحم ، سوى الدجاج والحجل وغيرها[1] . وقد لا نجد فى المنشآت الملوكية الحديثة ما يذكرنا بهذه الأرقام المدهشة ، سوى القصر البابوى أو قصر الفاتيكان الشهير برومة ، وما انتهى إليه خلال العصور المتعاقبة من الضخامة والفخامة والجلال ، فإن هذا المقام الكنسى الملوكى الفخم ، يحتوى على أربعة آلاف غرفة ، وعلى مئات الأبهاء والساحات والأروقة ، ويضم عدة أجنحة ومجالس رائعة ، أسبغ عليها أبدع ما عرف الفن الرفيع من آيات الزخرف والنقش والتصوير .

ويحدثنا الرحالة البغدادى ابن حوقل عن الزهراء — وقد زارها أيام الحكم ولد الناصر — فيصف موقعها ، ويقول «إن العمارة اتصلت بينها وبين قرطبة ، وإن لها مسجداً جامعاً دون جامع البلدة (قرطبة) فى المحل والقدر ، وعلى سورها سبعة أبواب حديد ، وليس لها نظير بالمغرب فخامة حال وسعة تملك ، وابتذال لجيد الثياب والكسى ، وفراهة الكراع وكثرة التحلى ، وإن لم يكن لها فى عيون كثير من الناس حسن بارع»[2] .

ولكن الزهراء لم تعمر طويلا كقاعدة ملوكية ، فقد لبثت قاعدة الملك والخلافة زهاء أربعين عاماً فقط ، مذ نزل بها الناصر سنة ٣٢٩ هـ حتى نهاية عهد ابنه الحكم المستنصر سنة ٣٦٦ هـ ، ولم يكن ذلك لأن الزهراء قد عفت كقاعدة ملوكية ، ولكن لأن تحولا خطيراً قد وقع فى سلطان بنى أمية عقب وفاة الحكم ، إذ استطاع الوزير محمد بن أبى عامر ( الحاجب المنصور ) أن يتغلب على الدولة وأن يحجر على الخليفة هشام المؤيد ولد الحكم حسبما نفصل بعد؛ ثم رأى أن ينقل قاعدة الحكم إلى ضاحية ملوكية جديدة أنشأها لنفسه بجوار قرطبة ( سنة ٣٦٨ هـ ) على نهر الوادى الكبير وسماها الزاهرة ، ونقل إليها خزائن الأموال والأسلحة ودور الحكومة ، واتخذ لنفسه سمة الملك ، وتسمى بالحاجب المنصور .

---

( ١ ) نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٥ .

( ٢ ) المسالك والممالك ص ٧٨ .

وهكذا فقدت الزهراء صفتها كقاعدة رسمية ، وشاءت الأقدار ألا تكون منزل الملك والخلافة إلا فى عهد مؤسسها ، وعهد خلفه الذى أكمل بناءها ؛ وكان قيام الحاجب المنصور فى الواقع خاتمة لسلطان بنى أمية ، ولم يبق بعد ذلك من دولتهم سوى الإسم . وقد بقيت الزهراء حيناً مقاماً ملوكياً للخليفة المحجور عليه — هشام المؤيد — ولكنها فقدت من ذلك الحين أهميتها السياسية وهيبتها الملوكية .

ثم كانت المحنة الكبرى بانهيار هذا الصرح البديع الذى شاده بنو أمية بالأندلس ، وانهيار الخلافة الأموية والدولة العامرية معاً ، وسقوط الأندلس صرعى الحرب الأهلية . ففى ربيع الأول سنة ٤٠١ هـ ( نوفبر سنة ١٠١٠ م ) زحفت قوات البربر ومعها سليمان المستعين زعيم الثورة الأموية على قرطبة لينتزعها من الخليفة هشام المؤيد ، والفتى واضح الحاجب المتغلب عليه ، واقتحموا فى طريقهم مدينة الزهراء ، وفتكوا بحاميتها وسكانها ، وعاثوا فى معاهدها ورياضها ، وأحرقوا المسجد والقصر ، ولبثوا بها بضعة أشهر . والظاهر أن الضربة كانت قاضية فلم يبق من الضاحية الملوكية الباهرة بعد أن غادروها سوى أطلال دارسة . ولا يكاد اسم الزهراء ، يذكر بعد ذلك فى التاريخ الأندلسي ، إلا كأثر عصفت به صروف الدهر ، وقد كانت الزهراء أيام روعتها وازدهارها ، وحى الشعر الرائع والخيال الرفيع ، وقد أشاد بجمالها وفخامتها ، جمهرة من أكابر شعراء الأندلس وأمراء البيان ، ثم رثوها بعد ذلك فى مقطوعات مؤثرة . ومما قاله ابن زيدون وهو من أعظم شعراء عصر الطوائف ، يشيد بالزهراء ، وروائع ذكرياتها :

خليلى لا فطر يسرٌ ولا أضحى ... فما حال من أمسى مشوقاً كما أضحى
لئن شاقنى شرق العقاب فلم أزل ... أخص بمخصوص الهوى ذلك السفحا
معــاهد لذات وأوطان صبوة ... أجلت المعلى فى الأمانى بها قدحا
ألا هل إلى الزهــراء أوبة نازح ... تقضت مبانيها مدامعــه نزحا
مقاصــر ملك أشرقت جنباتها ... فخلنا العشاء الجون أثناءها صبحا
يمثــل قرطيها لى الوهم جهرة ... فقبتها فالكوكب الرحب فالسطحا
محل ارتيــاح يذكر الخلد طيبه ... إذا عز أن يصدى الفتى فيه أو يضحا

هناك الحمام الزرق تندى خفافها ظلال عهدت الدهر فيها فتى سمحا
تعوضت من شدو القيان خلالها صدى فلوات قد أطار الكرى صبحا[1]

ونقل إلينا الشيخ محيى الدين بن عربى[2] أبياتاً ، قال إنه قرأها على بعض جدران الزهراء بعد خرابها ، رثاء فى المدينة الشهيرة وهى :

ديار بأكناف الملاعب تلمع وما إن بها من ساكن وهى بلقع
ينوح عليها الطير من كل جانب فيصمت أحياناً وحيناً يرجع
فخاطبت منها طائراً متغرداً له شجن فى القلب وهو مروع
فقلت على ماذا تنوح وتشتكى فقال على دهر مضى ليس يرجع

ويرثى الفتح بن خاقان معاهد الزهراء خلال رواية نقلها عن جولة لبعض الكبراء فى تلك الأطلال : « وآثار الديار قد أشرفت عليهم كثكالى ينحن على خرابها ، وانقراض أطرابها ، والوهى بمشيدها لاعب ، وعلى كل جدار غراب ناعب ، وقد محت الحوادث ضياءها ، وقلصت ظلالها وأفياءها ، وطالما أشرقت بالخلائف وابتهجت ، وفاحت من شذاهم وأرجت ، أيام نزلوا خلالها ، وتفيأوا ظلالها ، وعمروا حدائقها وجناتها ، ونبهوا الآمال من سناتها ، وراعوا الليوث فى آجامها ، وأخجلوا الغيوث عند انسجامها ، فأضحت ولها بالتداعى تلفع واعتجار ، ولم يبق من آثارها إلا نوى وأحجار ، وقد هوت قبابها ، وهرم شبابها ؛ وقد يلين الحديد ، ويبلى على طيه الجديد ... »[3] .

وكانت أطلال الزهراء ما تزال قائمة حتى القرن السابع الهجرى ( القرن الثالث عشر ) . وقد ذكرها الشريف الإدريسى فى معجمه الجغرافى الذى وضعه فى منتصف القرن السادس الهجرى (منتصف القرن الثانى عشر) ، وذكر أن بينها وبين قرطبة خمسة أميال[4] ؛ وذكرها أيضاً ياقوت الحموى فى معجمه الجغرافى الذى

---

(١) راجع قصيدة ابن زيدون برمتها فى ترجمته فى « قلائد العقيان » للفتح بن خاقان ص ٧٢ .

(٢) هو من أكابر متصوفة الأندلس وعلمائها فى أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع الهجرى ، وقد نقل إلينا هذه الرواية والأبيات فى كتابه الشهير « محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار » .

(٣) راجع قلائد العقيان فى ترجمة المعتمد بن عباد ص ١٠ .

(٤) راجع نزهة المشتاق ( المختصر ) طبع رومة — ص ١٩٣ .

وضعه فى أوائل القرن السابع الهجرى[1] . وفى شوال سنة ٦٣٣ هـ ( ١٢٣٦ م ) كانت نكبة الأندلس ونكبة الإسلام ، بسقوط قرطبة فى أيدى الإسبان ؛ فطويت بذلك أسطع صحف الإسلام وصحف الخلافة فى الأندلس . وكانت قرطبة قد فقدت أهميتها السياسية منذ الثورة وسقوط الدولة الأموية ، ولكنها لبثت بعد ذلك عصراً تحتفظ بهيبتها الخلافية القديمة . ومن المرجح أن أطلال الزهراء بقيت بعد سقوط قرطبة فى أيدى الإسبان عصراً يصعب تحديده ، غير أن قرطبة فقدت فى ظل سادتها الجدد صبغتها ومعالمها الإسلامية بسرعة ، ولم يبق اليوم من آثارها وصروحها الإسلامية سوى مسجدها الجامع ، الذى ما يزال بالرغم من تحويله إلى كنيسة جامعة ، يحتفظ إلى اليوم بكثير من روعته الإسلامية السالفة .

* * *

هذا وما زالت سيرة مدينة الزهراء وذكريات فخامتها الذاهبة ، تحتل المقام الأول فى تاريخ إسبانيا المسلمة الأثرى والفنى . وقد اهتم العلماء الإسبان منذ نحو قرن بالكشف عن معالمها وأطلالها ، لما يلقيه ذلك الكشف من أضواء هامة على أحوال الخلافة الأندلسية ونظمها الإدارية والاجتماعية ، وعلى تطور الفن الأندلسى فى أزهى عصوره . وعنيت الحكومة الإسبانية منذ بداية القرن الحالى ، بإجراء الحفريات الأثرية للكشف عن صروح المدينة الخلافية . وبالرغم من أن جهود اللجان الأثرية المتعاقبة التى اضطلعت بهذا العمل ، لم تكن متواصلة أو ذات نطاق واسع ، فقد استطاع الأثريون الإسبان أن يكشفوا عن كثير من معالم الزهراء ، ومواقع صروحها ، وأبهائها الملوكية .

وقد أتيح لنا أن نزور معالم الزهراء وأطلالها غير مرة ، خلال زياراتنا لعاصمة الخلافة القديمة[2] . وتقع هذه الأطلال الضخمة غربى قرطبة على بعد نحو سبعة أميال منها ، وشمالى نهر الوادى الكبير على قيد ميلين ، وتحتل منحدراً صخرياً وعراً يقع أسفل الأكمة التى يحتلها دير سان خيرنمو **San Jeronimo** الشهير ، الذى يقال إنه بنى بأنقاض قصر الزهراء . وتسمى هذه المنطقة التى تحتلها أطلال الزهراء « قرطبة القديمة » **Córdoba la vieja** .

---

( ١ ) راجع معجم البلدان تحت كلمة الزهراء ( مصر ) ج ٤ ص ٤٢١ .

( ٢ ) قمنا بزيارة أطلال الزهراء لآخر مرة فى مايو سنة ١٩٦٣ .

وتشمل الحفريات الأثرية التى يقوم بها العلماء الإسبان منذ سنة ١٩١٠ منطقة واسعة ، تمتد ١٥١٨ متراً من الشرق إلى الغرب و ٧٤٥ متراً من الشمال إلى الجنوب . ومع أن هذه المنطقة لم تكشف كلها فإن ما كشف حتى الآن من الأطلال الضخمة ، ومن نقوشها وزخارفها التى مازال بعضها قائماً فى بعض الجدران ، والتى تتمثل بالأخص فى مئات القطع الرخامية الزخرفية التى وجدت ، يكفى لتكوين فكرة عامة، عن هندسة المدينة الملوكية ومنعتها وفخامة صروحها الذاهبة .

وتنقسم أطلال الزهراء بصفة عامة إلى مجموعات ثلاث ، مدرجة من أعلى إلى أسفل . وتشمل المجموعة الأولى مواقع القصر الخليفى والمقام الخاص . وتشمل الثانية فيما يبدو مساكن الحاشية والحرس . وتشمل المجموعة الثالثة، وهى الواقعة أسفل الربوة ، فى بسيط معتدل من الأرض ، أربعة أفنية كبيرة عالية ، هى التى يجرى اليوم ضمها وإعادتها تشكيلها ، فيما يظن أنه البهو العظيم الذى كان مخصصاً لاستقبال الملوك وأكابر السفراء .

وقد تم الكشف عن هذا البهو الذى يعتبر أعظم ما كشف حتى اليوم من آثار الزهراء فى سنة ١٩٤٤ ، ووجدت سائر حطامه وزخارفه مدفونة تحت الأنقاض . ويعكف الأثريون الإسبان منذ أعوام على إقامة الصرح وتنسيقه ، مما وجد من أنقاضه وأعمدته وزخارفه . وقد أقيم حتى اليوم فى وسطه ما اصطلح على تسميته « بهو السفراء » أو باسمه التاريخى « المجلس المؤنس » ، وهو عبارة عن أربعة أفنية متلاصقة تبلغ واجهتها نحو أربعين متراً ، وقد قسمت من الداخل إلى ثلاث أروقة مستطيلة ، يتوسطها رواق رابع ذو عقود من الجانبين. ويقوم كل فناء منها على خمسة عقود ، وقد ركب على هذه العقود ما وجد بين الأطلال من رؤوس وقواعد رخامية مزخرفة ، وفى وسط الرواق الثالث عقد جميل عال يفضى إلى بهو داخلى ، زين جانباه بالزخارف الرخامية . ويبلغ طول كل رواق من الأروقة المذكورة نحو عشرين متراً ، وعرضه نحو ثمانية أمتار . وقد صنعت العقود كلها على نمط واحد ، وزينت من أعلاها بما أمكن جمعه من قطع الزخارف الرخامية التى وجدت . وقد شيدت هذه الأروقة على ارتفاع يبلغ نحو عشرة أمتار .

وقد كشفت الحفريات الأخيرة عن مجموعة جديدة من الأطلال تقع أعلى هذه الأبهاء من اليسار ، وهى عبارة عن مجموعة من الغرف السكنية وبهو مستطيل :

وهى لا تفترق كثيراً عن غيرها من المجموعات الأخرى المماثلة من حيث التخطيط ، ولكنها تكشف لنا عن حقائق معمارية وفنية هامة ، فهى المجموعة الوحيدة التى وجد بها أثر الدهان واضحاً . وقد تبين أن لون الدهان الذى كان مستعملا فى هذه المجموعات من المساكن ( مساكن الحاشية ) هو اللون الأحمر ، يحف به على ارتفاع نحو متر ونصف خط أبيض ، يعلوه خط أحمر ، وتبين كذلك أن البلاط المستعمل فى تغطية أرض الغرف هو أيضاً أحمر اللون ، وهو قطع مربعة يبلغ ضلع الواحدة منها أربعين سنتمتراً . وتبين أخيراً أن الأحجار المستعملة فى أسفل البناء ، هى أحجار كبيرة بعضها يبلغ طوله نحو ٨٠ سنتيمتراً وعرضه ٤٠ سنتيمتراً .

وإلى جانب هذه المجموعات الجديدة من أطلال الزهراء ، توجد المجموعات القديمة ، وهى تشمل موقع القصر الخليفى والجدار الشمالى ، والفناءين التوأمين المتصلين بالمنحدر ، والفناء الصغير المتصل بقصر الجلفاء ، ومجموعة من مساكن الحرس . وترجع منطقة الجدار الشمالى إلى عصر الناصر ذاته ، وهى من منشآته فى المرحلة الأولى من بناء الزهراء ، وقد أصلحت على امتداد سبعين متراً . وهذا الجزء من الجدار أمتن وأحكم صنعاً ، من قسمه الذى بنى فيما بعد فى عهد الحكم المستنصر .

أما عن الفناءين المتماثلين أو الفناءين التوأمين ، فيقع أولهما على بعد ثمانية أمتار أسفل القصر الخليفى ، ويشتمل كل منهما على بهو كامل ، وهناك ما يدل على أن كلا منهما كان يحتوى على مجموعة من المساكن المتماثلة المخصصة لسكنى طائفة هامة من البطانة أو الجند . ويشغل الفناء الغربى رقعة ضخمة مربعة تقريباً تبلغ مساحتها نحو خمسمائة متر ، وبه أيضاً بقايا أبنية سكنية . بيد أنه لم يكتشف فى هذه المنطقة أبواب أو مداخل تكشف عن حقيقة نوع هذه الأبنية ، والظاهر أن الفناء الشرقى كان موقع مسكن « للحريم » ، أو بعبارة أخرى كان جناحاً للقصر الذى تسكنه النساء والأولاد حسبما تدل على ذلك آثار أبنيته ومرافقه .

وعثر المكتشفون إلى جانب هذه المجموعات الضخمة من أطلال المدينة الخليفية ، بطائفة كبيرة من القطع الزخرفية والعقود والأعمدة والألواح والأحواض الرخامية ، ومئات من القطع والأوانى الزخرفية والبللورية ، وقد جمعت كلها فى متحف خاص أقيم عند مدخل « مدينة الزهراء » ، وعرضت فيه بعض القطع

والأحواض الرخامية البديعة الزخرف والنقوش، وبعض الأوانى الخزفية والبللورية المصححة، وهذا إلى ما يوجد من تحف الزاهراء ونقوشها الزخرفية بمتحف قرطبة الأثرى، وفى مقدمتها الوعل البرونزى الشهير الذى يعتبر من أروع القطع الفنية .

نقول ، ولعل حفائر الزهراء المستقبلة تكشف لنا عن معالم كثيرة أخرى من ضروب الفخامة والجلال ، التى كانت تتسم بها المدينة الخلافية ، والتى تحدثنا عنها الروايات المعاصرة[١] .

هذا ولم ينس الناصر أن يشمل المسجد الجامع بعنايته ، أسوة بسائر أسلافه من بنى أمية ، فجدد واجهته ، وزاد فيه زيادات كبيرة (٣٤٦ هـ — ٩٥٧ م) . وكان قبل ذلك قد هدم منارته القديمة ، وأنشأ مكانها المنارة العظمى ، وذلك فى سنة ٣٤٠ هـ ( ٩٥١ م ) . وكانت منارة الناصر تمتاز بفخامتها وارتفاعها الشاهق ، وكانت مربعة الواجهات ، ولها أربعة عشرة شباكاً ذات عقود ، وتحتوى على سلمين أحدهما للصعود ، والآخر للنزول ، وقد ركب فى قمتها ثلاث تفاحات كبيرة ، إثنتان منها من الذهب ، والثالثة من الفضة[٢] ، وكانت إذا أرسلت الشمس أشعتها عليها ، تكاد تخطف الأبصار ببريقها . وقد أزال الإسبان فيما بعد ، تلك المنارة العظيمة ، تتمة لبرنامجهم فى تشويه المسجد الجامع ، وأقاموا مكانها برج الأجراس الحالى .

وما زالت اللوحة التى تنوه بما قام به الناصر من تجديد واجهة الجامع قائمة إلى اليوم ، فى مكانها فى الجانب الأيمن من بابه الرئيسى المسمى «باب النخيل»[٣] وقد كتب بها ما يأتى بخط كوفى جميل :

« بسم الله الرحمن الرحيم . أمر عبد الله عبد الرحمن أمير المؤمنين الناصر لدين الله أطال الله بقاءه ، ببنيان هذا الوجه ، وإحكام إتقانه ، تعظيما لشعائر الله ،

---

( ١ ) رجعنا فى هذا الاستعراض لأطلال الزهراء إلى مشاهداتنا الخاصة . وكذلك إلى البحوث الأثرية الآتية :

**Medina Azzahra y Alamiriya, por D.R. Velazquez Bosco (Madrid 1912)**
**Excavaciônes del Plan nacional en Medina Azzahra (Côrdoba), Campana de 1943. por R. Castéjon y Martinez de Arizala (Madrid 1945)**
**Nuevas Excavaciônes en Medinat Al-Zahra : El Salon de Abd Al-Rahman III por R. Castéjon (Al-Andalus, Vol. X (1945) Fsc. I.**

( ٢ ) أعمال الأعلام ص ٣٨ .

( ٣ ) وبالإسبانية **Puerta de las Palmas**

ومحافظة على حرمة بيوته ، التى أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه ، ولما دعاه على ذلك من تقبل عظيم الأجر ، وجزيل الذخر ، مع بقاء شرف الأثر ، وحسن الذكر ، فتم ذلك بعون الله ، فى شهر ذى الحجة سنة ست وأربعين وثلث مائة على يد مولاه ووزيره وصاحب مبانيه عبد الله بن بدر ، عمل سعيد بن أيوب»[1] .

— ٢ —

تولى عبد الرحمن الناصر عرش مملكة تفاقمت من حولها الخطوب ، واستنفدت مواردها الثورة ، فتداركها بعزمه وقوة نفسه ، واستطاع أن يسحق خصومها فى الداخل والخارج ، فى سلسلة طاحنة من الحروب والغزوات المستمرة ، وأن يوطد دعائمها وأن يخضع الجزيرة لصولتها ، وأن يكفل لها الأمن والسكينة والرخاء .

ولم يفت الناصر منذ البداية أن الجيش عماد الدولة وسياج الملك ، فعكف على إصلاح الجيش الذى أضناه الكفاح ضد الثورة ، وحشد له الجند من سائر أنحاء الأندلس والمغرب ، واستكثر من الأسلحة والذخائر ، وصقلت الحروب والغزوات المستمرة كفاية الجيش ودربته ، وأمدته بطائفة من أمهر القادة وأشدهم بأساً ، ورفعت القوة المعنوية بين الصفوف . وكان إقدام الأمير على تولى القيادة بنفسه مجدداً لعهد الحماسة الحربية والانتصارات الباهرة . وعنى عبد الرحمن فى الوقت نفسه بأمر الأسطول وإصلاحه ، فأنشأ له وحدات جديدة قوية . وكانت ألمرية عندئذ مركز الأسطول الأندلسى الرئيسى ، وبها أكبر دار للصناعة . وبلغ الأسطول فى عهد الناصر زهاء مائتى سفينة مختلفة الأنواع والأحجام ، وهذا عدا الأسطول المخصص لشئون المغرب البحرية ، وقد كان يضم كذلك عدداً كبيراً من السفن . وهكذا كان أسطول الأندلس فى ذلك العهد من أقوى الأساطيل يومئذ ، وكان بضخامته وأهباته ، يسيطر على مياه إسبانيا الجنوبية والشرقية ، وينازع الفاطميين سيادة الشق الغربى من البحر المتوسط .

وكان عهد الناصر بالرغم من استمرار الحروب والغزوات ، كما قدمنا عهد رخاء ويسر ، توطدت فيه مالية الدولة وامتلأت خزائنها بالأموال الوفيرة ، وزاد الخراج والدخل زيادة عظيمة باستتباب السكينة والأمن ، وازدهار الزراعة والتجارة والصناعة ، وكثرة الأخماس والغنائم . وإن فيما احتوته الزهراء من القصور

---

(١) راجع الآثار الأندلسية الباقية لمحمد عبد الله عنان ( الطبعة الثانية ) ص ٢٠ و ٢١ و ٣٠

والمنشآت الباذخة ، وما بذل لإقامتها من النفقات مدى أعوام طويلة ، لما يستوقف النظر ، ويحمل على تأمل ذلك المدى المدهش الذى بلغته الدولة الأموية بالأندلس فى عهد الناصر من القوة والضخامة والغنى . وقد انتهت إلينا فى ذلك أرقام مدهشة ، منها أن جباية الأندلس بلغت فى عهد الناصر من الكور والقرى خمسة آلاف ألف وأربعمائة ألف وثمانين ألف دينار ، ومن السوق والمستخلص سبعمائة ألف وخمسة وستين ألف دينار ، هذا عدا أخماس الغنائم التى لا تحصى . وقيل إن الناصر خلف عند وفاته فى بيوت الأموال ما تبلغ قيمته خمسة آلاف ألف ألف ( خمسة آلاف مليون ) دينار . وكان يقسم الجباية من أجل النفقة إلى ثلاثة أثلاث : ثلث لنفقة الجيش ، وثلث للبناء والمنشآت العامة ، وثلث يدخر للطوارئ(١). ولم يتردد المؤرخ الحديث فى قبول هذه الأرقام حتى أن العلامة دوزى ينقلها ، ويقدر أن الناصر ترك عند وفاته فى بيت المال عشرين مليوناً من الذهب(٢). ويقول لنا ابن حوقل الرحالة البغدادى الذى زار قرطبة فى هذا العهد ، إن الناصر كان أغنى ملوك عصره ، وإنه وبنى حمدان ملوك حلب والجزيرة أغنى ملوك العالم فى ذلك العصر(٣). وهذه أرقام وروايات تشهد بضخامة الدولة الأموية وغناها الطائل فى عصر الناصر ، وتفسر لنا كيف استطاع الناصر إلى جانب حروبه غزواته ، أن يضطلع بكثير من المنشآت العظيمة .

هذا ، وقد كان مما عنى به الناصر تنظيم العملة ، وتثبيتها ، فأمر فى سنة ٣١٦هـ ، باتخاذ دار السكة داخل مدينة قرطبة لضرب العين من الدنانير والدراهم ، فاتخذت هناك على رسمه ، وولى خطتها أحمد بن محمد بن حدير ، وذلك فى ١٧ من شهر رمضان من هذه السنة ، فقام بالضرب فيها من هذا التاريخ ، من خالص الذهب والفضة ، وبذل جهده فى الاحتراس من المدلسين ، فأصبحت دنانيره ودراهمه عياراً محضاً . وقد كان ضرب النقد معطلا قبل الناصر ، وكان لهذا الإجراء أثره فى تثبيت العملة واستقرار التعامل(٤).

---

(١) نفح الطيب ج ١ ص ١٧٧ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٤٧ ، وأعمال الأعلام ص ٣٨ .

(٢) Dozy : Hist. Vol. II. p. 178

(٣) ابن حوقل ، المسالك والممالك ص ٧٧ .

(٤) ابن حيان – السفر الخامس – مخطوط الخزانة الملكية لوحة ٩٩ ب .

وبلغت الأندلس فى عهد الناصر ذروة الرخاء والنعماء والأمن والعزة ، وازدهرت الزراعة والتجارة والصناعة والعلوم والآداب والفنون ، وشمل الأمن سائر أطراف المملكة ، ورخصت كلفة العيش . ونمت قرطبة نمواً عظيماً حتى بلغ سكانها أكثر من خمسمائة ألف ، وبلغت مساجدها ثلاثة آلاف ، ومنازلها أكثر من مائة ألف ، وحماماتها العامة ثلاثمائة ، وبلغت أرباضها أو ضواحيها ثمانية وعشرين ، هذا عدا المدينة الوسطى ، وكان لقرطبة يومئذ سبعة أبواب : باب القنطرة ، وباب اليهود ، وباب عامر ، وباب العطارين ، وباب طليطلة ، وباب عبد الجبار ، وباب الجوند . وكان للقصر الأموى ستة أبواب : باب السُّدة ، وباب الجنان ، وباب العدل ، وباب الصناعة ، وباب الملك ، وباب الساباط ، وهو فى المسجد الجامع . وازدانت قرطبة بعدد كبير من القصور والمتنزهات الفخمة ، ودوت شهرتها فى الآفاق ، ووصلت إلى قاصية الشمال ، حتى أن الراهبة السكسونية هروسوفيتا التى اشتهرت بنظمها فى أواخر القرن العاشر ، أشادت فى قصائدها اللاتينية بمحاسن قرطبة ووصفتها بأنها « زينة الدنيا »(1) .

— ٣ —

كانت سياسة الدولة الأموية بالأندلس تقوم منذ البداية على اصطناع الموالى والصقالبة واتخاذهم أداة وبطانة ، وكان مؤسسها عبد الرحمن الداخل قد عمد بتأثير الظروف العصيبة التى أحاطت بقيام ملكه ، والخطوب والثورات الجمة التى أثارها خصومه ومنافسوه من زعماء القبائل العربية ، إلى الاسترابة بالعرب ، واصطناع البربر والموالى الذين آزروه وقت المحنة ، ومكنوه من توطيد زعامته وإمارته . وقد حافظ خلفاء الداخل على هذه السياسة فى جوهرها . ومنذ عهد الحكم المنتصر (١٨٨ — ٢٠٦ هـ) نرى نفوذ الموالى والصقالبة يشتد فى البلاط وفى الدولة . وكان الحكم يعشق مظاهر الفخامة والملك والباذخ ، فغص البلاط الأموى فى عهده بالخدم والحشم ، من المماليك والصقالبة ، بيد أن نفوذهم لبث مدى حين بعيداً عن شئون الدولة العليا ، قاصراً على شئون القصر والخاص .

واقتفى عبد الرحمن الناصر أثر سياسة جده الداخل ، فى الاسترابة بالقبائل

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٤٧ . وكذلك Dozy : Hist. Vol. II. p. 174

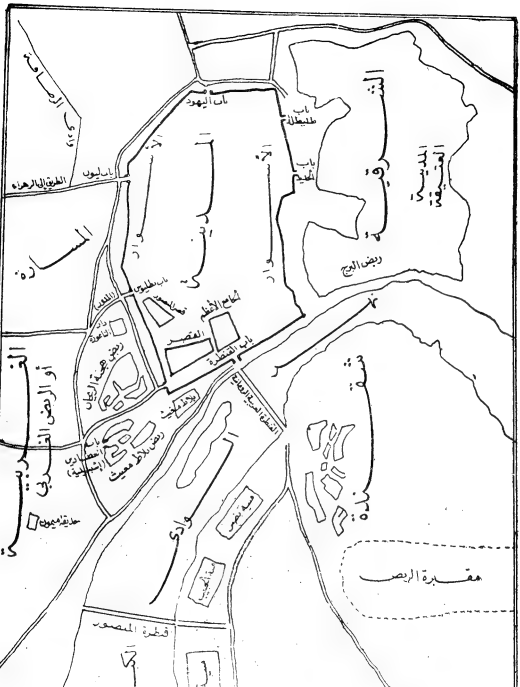


خطط قرطبة الإسلامية
من خريطة العلامة الأثري القرطبي
رافائيل كستيخون

العربية ذات البأس والعصبية ، وفى إقصاء زعمائها عن مناصب النفوذ والثقة ؛ واستأثر بكل سلطة حقيقية فى الدولة ، وجمع مقاليد الحكم كلها فى يده ، فلم يبق سلطة فعلية لحاجب أو وزير . وكان الناصر حريصاً على سلطانه المطلق ، لايني عن سحق كل من حدثته نفسه بالوقوف فى سبيله ، ولو كان أقرب الناس إليه . ولما نمى إليه أن ولده عبد الله يأتمر به مع بعض فتيان القصر ورجال الدولة ، لأنه آثر أخاه الحكم بولاية العهد وتصريف الشئون ، وأن جماعة من أهل قرطبة بايعوه بالخلافة ، لم يحجم عن أن يقضى بإعدامه ، وإعدام جميع من اتجهت إليهم شبهة الاشتراك معه ، وكان ذلك فى سنة ٣٣٨ هـ (٩٤٩ م) . وكان عبد الله من أفضل أبناء الناصر علماً وعقلا وبصراً بالأمور ؛ وكذلك قضى الناصر بإعدام بعض أبناء عمومته وأخيه القاضى ابن محمد حين قامت الأدلة على ائتمارهم به[١] .

وعهد الناصر بالمناصب الكبيرة إلى رجال وضيعى المنبت من الصقالبة والموالى المعتقين أو الأرقاء ، وهم رجال لا إرادة لهم يوجههم كيفما شاء ، وكان يثق بالصقالبة بنوع خاص ، ويوليهم من السلطان والنفوذ ما لا يوليه سواهم[٢] .

وقد كانت كلمة « الصقالبة » تطلق فى الأندلس على الأسرى والخصيان من الأجناس الصقلبية (السلافية) الحقيقية ، ثم غدت تطلق بمضى الزمن على جميع الأجانب الذين يعملون فى البطانة وفى القصر . وكان أولئك الصقالبة مزيجاً من الجليقيين (النصارى الإسبان) والألمان والفرنسيين واللونبارد والإيطاليين[٣] ، وكان معظمهم يؤتى بهم أطفالا بواسطة خوارج البحر (القراصنة) وتجار الرقيق ، وكانوا يختارون من الجنسين ، ويربون منذ الحداثة تربية عربية حسنة ، ويلقنون مبادىء الإسلام ، وقد نبغ بعضهم فى النثر والنظم وصنفوا الكتب والقصائد . ومنذ عهد الناصر يشتد نفوذ الصقالبة فى شئون الإدارة والحكم ، فضلا عن القصر والخاص ، ويعهد إليهم بالمناصب الكبرى فى القصر والإدارة والجيش ؛ وما لبث أن سما شأنهم وتوطد سلطانهم ، وأحرزوا الضياع والأموال الوفيرة ، وفاق عددهم فى عهد الناصر أى عهد آخر ، حتى قدر بعض المؤرخين عددهم

---

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٣ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٤٤ ، وأعمال الأعلام ص ٣٩ .

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٣٨ .

(٣) ابن حوقل فى المسالك والممالك ص ٧٥ ؛ وكذلك Dozy : Hist. Vol. II. p. 158

يومئذ فى القصر والبطانة ، بثلاثة عشر ألفاً وسبعمائة وخمسين ، وبلغوا فى رواية أخرى سبعة آلاف وثمانين . ويقول لنا ابن الخطيب إن عدد الفتيان الصقالبة بمدينة الزهراء كان عند وفاة الناصر ثلاثة آلاف وسبعمائة وخمسين ، وعدد النساء بالقصر ستة آلاف وسبعمائة وخمسين ، تجرى عليهم جميعاً رواتب الطعام بسائر صنوفه(١) . وعلى أى حال فقد كان من أولئك الصقالبة الحرس الخليفى ، ورجال الخاص والحشم ، وكان الناصر يمد لهم فى السلطان والنفوذ ، ويرغم أشراف العرب وزعماء القبائل على الخضوع لهم ، ليذل بذلك أنوفهم ويسحق هيبتهم(٢) . بل كان منهم فى عهد الناصر قائد الجيش الأعلى نجدة ، ومعظم أكابر القادة والضباط ، وكان منهم أفلح صاحب الخيل ، ودرّى صاحب الشرطة ، ومنهم ياسر وتمام صاحبا النظر على الخاص(٣) . وكان لهذه السياسة غير بعيد ، أسوأ الأثر فى انحلال الجيش وفتور قواه المعنوية ، لما جاشت به صدور الضباط والجند العرب ، من الحفيظة والسخط على هذه السياسة المهينة ، وكانت هزيمة الناصر فى موقعة الخندق الشهيرة ( ألانديجا ) (٣٢٧ هـ) ، ترجع من وجوه كثيرة إلى هذا الانحلال المعنوى ، الذى سرى إلى الجيش من جراء الأحقاد القومية والطائفية(٤) .

— ٤ —

كانت الأندلس بما اجتمع لها فى عهد الناصر من أسباب القوة والسلطان ، قد تبوأت مركز الصدارة بين الدول الإسلامية ، وكانت الدولة العباسية قد دخلت يومئذ فى دور انحلالها ، ولم تكن الدولة الفاطمية الفتية منافستها فى المشرق ، قد بلغت يومئذ ذروة قوتها ونفوذها ، فكانت الأندلس تستأثر يومئذ بزعامة الإسلام . وكانت قرطبة مركز الجاذبية الدبلوماسية فى العالم الإسلامى ، تتجه إليها أبصار الدول النصرانية فى طلب المودة ، وعقد العلائق الدبلوماسية ؛ وكانت قسطنطينية مركز هذه الجاذبية الدبلوماسية بين أمم النصرانية حتى القرن الثامن . ثم نافستها فى ذلك مملكة الفرنج القوية مدى حين ، فلما اضمحل شأن المملكة

---

(١) أعمال الأعلام ص ٤٠ و ٤١ .

(٢) Dozy : Hist. Vol. II. p. 153 . وراجع نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٥ .

(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ١٢٣ ؛ ونفح الطيب ج ١ ص ١٧١ .

(٤) Dozy : Hist. V. II. p. 153

الفرنجية ، استردت قسطنطينية زعامتها الدبلوماسية فى النصرانية . ولما قامت الإمبراطورية الجرمانية فى القرن العاشر ، استطاعت أن تبسط زعامتها السياسية على أواسط أوربا وغربها ، وهكذا كانت زعامة النصرانية تتردد فى هذه الحقبة بين شرقى أوربا وغربها . هذا بينما لبثت قرطبة تستأثر وحدها بزعامة الإسلام فى الغرب حتى نهاية القرن العاشر .

وقد كان هذا العصر الذى اجتمعت فيه تلك الزعامات الدينية والسياسية القوية ، أحفل العصور بصلات الإسلام والنصرانية . فكانت ثمة معاهدات وسفارات ومراسلات وعلائق دبلوماسية ، بين قرطبة وبين معظم الأمم النصرانية ، وقد بلغت هذه الصلات ذروتها فى عصر الناصر لدين الله ، وتوالت وفود الأمم النصرانية يومئذ على بلاط قرطبة ، تنشد الحلف والصداقة والمهادنة ، من زعيم الإسلام فى الغرب .

وكان بلاط قسطنطينية بالرغم من نأيه عن مقر الخلافة الأندلسية ، وعدم اتصاله بها ، بأية حدود أو صلات جغرافية مشتركة ، فى مقدمة الساعين إلى توثيق الروابط الودية مع بلاط قرطبة . ففى سنة ٣٣٦ هـ ( ٩٤٨ م )[١] ، وفدت على الناصر رسل قسطنطين السابع قيصر قسطنطينية المعروف «ببورفيروجنتوس»[٢] ومعهم طائفة من الهدايا النفيسة . وتقدم إلينا الرواية الأندلسية عن هذه السفارة تفاصيل شائقة ، تلقى ضوءاً على نظم الرسوم الدبلوماسية فى هذا العصر ، فتقول لنا إن الناصر بعث رسله للقاء السفراء البيزنطيين حين وصولهم إلى الشاطىء لإرشادهم وخدمتهم ، ولما وصل الركب إلى مقربة من قرطبة ، بعث بعض قواته للاحتفاء بهم ، ثم بعث الفتيين ياسراً وتماماً فصحباهم إلى دار الضيافة ، بقصر ولى العهد الحكم ، فى ربض قرطبة ، ومنعوا من لقاء الخاصة والعامة ، ورتب لخدمتهم طائفـــة من الموالى والحشم . وفى اليوم الحادى عشر من

---

( ١ ) هذه هى رواية ابن خلدون ( ج ٤ ص ١٤٢ ) . وفى رواية أخرى أنها وقعت سنة ٣٣٨ هـ ( نفح الطيب ج ١ ص ١٧١ ) . وذكر الطبيب الأندلسى ابن جلجل وقد عاش قريباً من عصر الناصر ، أنها وقعت فى سنة ٣٣٧ هـ ( راجع طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة — طبعة ميللر — ج ٢ ص ٤٧ ) . وذكر صاحب البيان المغرب أنها وقعت فى سنة ٣٣٤ هـ ( ج ٢ ص ٢٣٩ ) . ولم نعثر فى تواريخ الدولة البيزنطية على تفاصيل هذه السفارة ، ولكن الرواية الإسلامية واضحة جلية .

( ٢ ) ومعناها الأرجوانى .

ربيع الأول من السنة المذكورة ، خروج الناصر من قصر الزهراء إلى قصر قرطبة لاستقبالهم ، وجلس فى بهو المجلس الزاهر ، وكان يوماً مشهوداً من أيام الأندلس . فركبت الجند بالسلاح فى أكمل شكل ، وزين القصر الخلافى بأنواع الزينة وأصناف الستور ، وحفل السرير الخلافى بمقاعد الأبناء والإخوة والأعمام والقرابة ، وجلس عن يمين الخليفة ولده وولى عهده الحكم ، وجلس باقى أولاده يميناً وشمالا ، ورتب الوزراء فى مراتبهم ، وغص المجلس برجال الدولة والقادة والعظماء والزعماء من كل ضرب . ودخل سفراء ملك الروم ، فبهرهم ما رأوا من روعة الملك وفخامة السلطان ، وقدموا الهدايا التى يحملونها . وذكر لنا الطبيب الأندلسى أبو داود سليمان بن حسان المعروف «بابن جُلجل» الذى عاش فى عصر هشام المؤيد حفيد الناصر ، أنه كان فى مقدمة هدايا أرمانيوس ملك الروم إلى الناصر سفران جليلان من كتب الأقدمين ، أحدهما نسخة مصورة أبدع تصوير من كتاب ديسقوريدس[1] عن الحشائش ، مكتوبة بلغة مؤلفها أى باليونانية ؛ والثانى نسخة من تاريخ أورسيوس (هروسيس)[2] مكتوبة باللاتينية ، وهو المتضمن لتاريخ العالم القديم ، وأقاصيص الملوك السابقين[3]. وقدم الرسل كتاب القيصر قسطنطين السابع ، وقد كتب فى رق ذى لون سماوى باللغة اليونانية ، وداخل الكتاب مدرجة مصبوغة ومكتوبة بنفس اللغة ، فيها وصف لهدايا الإمبراطور ، وعلى الكتاب طابع ذهبى ، على إحدى وجهيه صورة للمسيح ، وعلى الوجه الآخر صورة الإمبراطور قسطنطين ، مصنوعة من الزجاج الملون البديع . وكان فى ترجمة عنوان الكتاب فى سطر منه : « قسطنطين ورومانين

---

( ١ ) ديسقوريدس **Dioscorides** طبيب وكيمائى يونانى . أصله من كليكية بآسيا الصغرى . وقد عاش فى القرن الأول للميلاد ، واشتهر بكتابه عن مركبات الأدوية . وهو ما يزال يعتبر ذا قيمة علمية حتى عصرنا ، وكان يعتبر حتى القرن السابع عشر أثمن مرشد لخواص الأعشاب الطبية .

( ٢ ) باولوس أورسيوس **Paulus Orosius** حبر ومؤرخ إسبانى ( قوطى ) عاش فى القرن الخامس الميلادى ووضع باللاتينية تاريخاً للخليفة فى عصره . وقد اشتهر تاريخه بالرغم من ركاكته وكثرة خرافاته ، وانتفع به كثير من المؤرخين اللاحقين . وعرفه المؤرخون المسلمون ونقلوا عنه . وأشار إليه ابن خلدون فى مواضع عديدة من تاريخه ، وتعرفه الرواية الإسلامية بهروسيس أو هرشيوش .

( ٣ ) راجع رواية ابن جلجل منصلة فى كتاب طبقات الأطباء ، فى ترجمة ابن جلجل ( ج ٢ ص ٤٤٧ ) .

المؤمنان بالمسيح الملكان العظيمان ملكا الروم »[1]، وفى سطر آخر صيغة التوجيه : « العظيم الإستحقاق للفخر ، الشريف النسب عبد الرحمن الخليفة ، الحاكم على العرب بالأندلس ، أطال الله بقاءه » . وذكر لنا ابن جُلجل أن ملك الروم كتب إلى الناصر فى شأن كتاب ديسقوريدس أنه لا تجنى فائدته إلا بواسطة شخص يجيد اليونانية ، وأنه لم يكن فى قرطبة يومئذ من يحسن هذه اللغة ، وأن الناصر كتب فى خطابه إلى « أرمانيوس» فيما بعد ، أن يرسل إليه برجل يتكلم اليونانية واللاتينية ، فبعث إليه براهب يدعى نيقولا ، فحظى عند الناصر ، وتوفر على تفسير كتاب ديسقوريدس وشرح محتوياته لأطباء قرطبة . وأما كتاب أورسيوس المكتوب باللاتينية فقد كان فى بلاط قرطبة من يجيدها[2] . وكان الناصر قد أمر أن يخطب الأعلام فى ذلك الحفل ، وأن يعظموا من شأن الإسلام والخلافة ، وأن يشكروا نعمة الله على ظهور دينه ، وإعزاز كلمته ، وذلة أعدائه ، واستعد بعض الخطباء لذلك ، ولكن بهرهم هول المجلس فوجموا وأرتج عليهم القول ، وكان منهم اللغوى الكبير أبو على القالى وافد العراق وضيف الخليفة — وكان قد وفد على الأندلس فى سنة ٣٣٠ هـ — ، ندبه الناصر لذلك تكريماً له وتقديراً لبلاغته ، ولكنه ما كاد يبدأ خطابه ، حتى بهت وتلعثم ثم صمت ؛ فعندئذ نهض الفقيه منذر بن سعيد البلوطى دون استعداد ولا سابق توقع ، وارتجل خطاباً بليغاً ضافياً يشيد فيه بعهد الناصر ومآثره ، ثم أعقبه بقصيدة فى نفس المعنى[3] ، فأثار بذلاقته وثبت

---

(١) رومانين هو رومانوس الثانى ابن قسطنطين السابع ، وقد حكم بعد أبيه من سنة ٩٥٩ إلى سنة ٩٦٣ م . وتسميه الرواية الإسلامية « أرمانيوس » .

(٢) راجع رواية ابن جلجل المشار إليها فى طبقات الأطباء ج ٢ ص ٤٤٧ .

(٣) نقل المقرى عن ابن حيان وغيره ، نص الخطاب الذى ألقاه منذر بن سعيد فى ذلك الحفل . وإنه ليصعب علينا متى تأملنا عباراته المنمقة ، وسجعاته المرتبة ، وما يتخلله من ضروب البيان والبديع ، أن نصدق أنه خطاب مرتجل ألقى عفو الساعة . ولعله صورة منقحة منمقة للخطاب الأصلى . وقد رأينا أن ننقل فقرات من ذلك الخطاب تتناول عهد الناصر بشىء من الوصف والتحليل .

جاء فى الخطاب بعد الديباجة ما يأتى :

« وإنى أذكركم بأيام الله عندكم ، وتلافيه لكم بخلافة أمير المؤمنين ، التى لمت شعثكم ، وأمنت سربكم ورفعت قوتكم ، بعد أن كنتم قليلا فكثركم ، ومستضعفين فنصركم ، ولاه الله رعايتكم وأسند إليه إمامتكم ، أيام ضربت الفتنة سرادقها على الآفاق ، وأحاطت بكم شعل النفاق ، حتى صرتم ، فى مثل حدقة البعير من ضيق الحال ، ونكد العيش والتقتير ، فاستبدلتم بخلافته من الشدة بالرخاء ، وانتقلتم بين سياسته إلى تمهيد كنف العافية ، بعد استيطان البلاء . أناشدكم بالله معشر الملأ =

جنانه ، أيما إعجاب ، وأكبر الناصر همته وعلمه ، وكان هذا الخطاب المرتجل فاتحة مجده ، فأغدق عليه الناصر عطفه ، وولاه القضاء ، وأصبح من رجال الدولة المشهورين .

ومن شعر منذر بن سعيد فى وصف ذلك الحفل المشهود قوله :

مقالى كحد السيف وسط المحافل ... فرقت به ما بين حق وباطل

بقلب ذكى ترتمى جمراته ... كبارق رعد عند رعش الأنامل

فما دحضت رجلى ولا زل مقولى ... ولا طاش عقلى يوم تلك الزلازل

وقد حدقت حولى عيون أخالها ... كمثل سهام أثبتت فى المقاتل

لخير إمام كان أو هو كائن ... لمقتبل أو فى العصور الأوائل

ترى الناس أفواجاً يؤمون بابه ... وكلهم ما بين راج وآمل

وفود ملوك الروم وسط فنائه ... مخافة بأس أو رجاء لنائل

فعش سالماً أقصى حياة مؤملا ... فأنت رجاء الكل حاف وناعل

ستملكها ما بين شرق ومغرب ... إلى درب قسطنطين أو أرض بابل (1)

= ألم تكن الدماء مسفوكة فحقنها ، والسبل مخوفة فأمنها ، والأموال منتهبة فأحرزها وحصنها ؟ ألم تكن البلاد خراباً فعمرها ، وثغور المسلمين مهتضمة فحماها ونصرها » .

ثم قال : « فأصبحتم بنعمة الله إخواناً ، وبلم أمير المؤمنين لشعثكم على أعدائه أعواناً ، حتى تواترت لديكم الفتوحات ، وفتح الله عليكم بخلافته أبواب الخير والبركات ، وصارت وفود الروم وافدة عليكم ، وآمال الأقصين والأدنين مستخدمة إليه وإليكم ، يأتون من كل فج عميق وبلد سحيق »

ثم قال : « فاستعينوا على صلاح أحوالكم بالمناصحة لإمامكم ، والتزام الطاعة لخليفتكم ، فإن من نزع يداً من الطاعة ، وسعى فى تفريق الجماعة ، ومرق من الدين ، فقد خسر الدنيا والآخرة ، وذلك هو الخسران المبين . وقد علمتم أن فى التعلق بعصمتها والتمسك بعروتها ، حفظ الأموال وحقن الدماء وصلاح الخاصة والدهماء ، وأن بقوام الطاعة تقام الحدود وتوفى العهود ... فاعتصموا بما أمركم الله بالاعتصام به ، فإنه تبارك وتعالى يقول ( أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ) ، وقد علمتم ما أحاط بكم ، فى جزيرتكم هذه من ضروب المشركين وصفوف الملحدين ، الساعين فى شق عصاكم ، وتفريق ملأكم الآخذين فى مخاذلة دينكم وتوهين دعوة نبيكم ... الخ .

راجع خطاب ابن سعيد بأكمله فى نفح الطيب ج ١ ص ١٧٢ — ١٧٣ .

(١) وقد نقل إلينا المقرى عن المغرب لابن سعيد وغيره نبذة فى ترجمة القاضى منذر بن سعيد البلوطى ، وفيها أنه ولد سنة ٢٦٥ هـ ، وبرع فى علوم القرآن والسنة ، وظهر بفصاحته وذلاقته وجزالة شعره ، وكان الخطاب الذى ارتجله فى مجلس الناصر لمناسبة استقباله لرسل ملك الروم بدأ ظهوره وشهرته ، فولاه الناصر الصلاة والخطابة فى مسجد الزهراء ، ثم ولاه قضاء الجماعة بقرطبة . وتوفى سنة ٣٥٥ هـ . ( راجع نفح الطيب ج ١ ص ١٧٤ و ١٧٥ وكذلك قضاة قرطبة للخشنى ص ١٧٥ و ١٧٦ ) .

ولما انصرف رسل قسطنطين ، بعث الناصر معهم سفيراً هو هشام بن هذيل بهدية حافلة ، ليؤكد المودة ويوثق عرى التحالف بين قرطبة وقسطنطينية ، فعاد بعد سنتين وقد أدى سفارته خير أداء ، وعادت معه رسل قسطنطين[١] .

وتفيض الرواية الإسلامية فى تفاصيل هذه السفارة إفاضة واضحة ، ولكنها لا تلقى كبير ضوء على موضوعها وغايتها الحقيقية ، وأكبر الظن أنها لم تكن إلا تجديداً لعلائق الدولة البيزنطية مع دولة الإسلام بالأندلس، وتوطيداً للصداقة القديمة التى رأى بلاط قسطنطينية أن يعقدها مع بلاط قرطبة منذ عهد عبد الرحمن ابن الحكم[٢] لتكون شبه تحالف ضد الدولة العباسية خصيمتهما المشتركة . وربما كانت ترمى فى الوقت نفسه إلى تنظيم الخطط المشتركة بين الدولتين ، لمقاومة الدولة الفاطمية الفتية ، التى بدأت تزعج البيزنطيين فى أواسط البحر المتوسط ، وتزعج حكومة قرطبة بتوغلها فى المغرب الأقصى .

ثم توالت سفارات ملوك النصرانية بعدئذ على الناصر فوفدت عليه رسل ملك الصقالبة وهو يومئذ الملك بيتر أو بطرس[٣] ، فاحتفل بقدومهم كذلك وبعث معهم ربيعاً ( ريفا ) الأسقف سفيراً إلى ملكهم ؛ ثم وفدت رسل ملك فرنسا وهو يومئذ لويس الرابع فى طلب الصداقة والمودة ، فأجابهم إلى ما طلبوا .

على أن أهم سفارة تلقاها الناصر يومئذ ، هى سفارة أوتو الأكبر إمبراطور ألمانيا ، وقد كان أوتو يومئذ زعيم النصرانية ، كما كان عبد الرحمن الناصر زعيم الإسلام . وتشير الرواية الإسلامية إلى تلك السفارة فى غموض وإيجاز ، وتصف أوتو بملك الصقالبة أو ملك « اللمان » وتسميه « هوتوا » أو « هوتو »[٤]، ولكنها تتفق مع الرواية الفرنجية فى تاريخ هذه السفارة وهو سنة ٣٤٤هـ الموافقة سنة ٩٥٦م . فنى ذلك العام وفد على قرطبة سفير ، وهو حبر يدعى يوحنا الجورزينى نسبة إلى الدير الذى ينتمى إليه فى جورزنى على مقربة من متز ، وكان يوحنا من أكابر

---

( ١ ) راجع فى أخبار هذه السفارة البيزنطية : ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٢ و ١٤٣ ، ونفح الطيب ج ١ ص ١٧٠ — ١٧٤ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٣٩ . وراجع **Aschbach : ibid, B. I. p. 96—100**

( ٢ ) راجع « دولة الإسلام فى الأندلس » القسم الأول ص ٢٨٢ — ٢٨٣ .

( ٣ ) هو بطرس بن سيمون الكبير ملك بلغاريا وقد كان يومئذ يعرف بملك الصقالبة .

( ٤ ) راجع ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٣ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٣٤ .

العلماء وأقطاب البحث والمناظرة . والظاهر أنه قد وقعت فعلا قبل ذلك مراسلات كلامية بين الناصر وأوتو عن الإسلام والنصرانية ، وأن الناصر قد عرض فى بعض رسائله بالنصرانية وتعاليمها ، فألفى أوتو الفرصة سانحة لأن يدافع سفيره العلامة الذلق عن قضية النصرانية لدى خليفة قرطبة[١]. بيد أنه يبدو من أقوال الروايات الكنسية أن هذه المهمة الجدلية ،لم تكن إلا مهمة ثانوية إلى جانب موضوع سفارته الأصلية ، وأن مهمته الحقيقية كانت تتعلق بشأن توغل المستعمرات العربية المغامرة ، فى جنوبى فرنسا وفى ليجوريا وسويسرة ، وعيثها فى تلك الأنحاء ، بصورة تبث الرعب والروع إلى كثير من المدن والجماعات النصرانية ، والاستعانة بنفوذ خليفة الأندلس الذى تنتمى إليه هذه المستعمرات من الناحية الأدبية ، لوقف عدوانها وتوغلها[٢] . وقدم يوحنا إلى قرطبة عن طريق الرون وقطلونية برفقة راهب آخر ، ومعه طائفة نفيسة من الهدايا برسم الخليفة ، فاستقبل بحفاوة ، وأنزل فى إحدى الدور الرسمية . ولكن الناصر لم يبادر باستقباله حين وقف على موضوع رسالته ، ولم يقبل بالأخص أن تكون المسائل الدينية موضوع جدل بينهما . ولما ألح يوحنا فى طلب المقابلة والمحادثة ، أجاب الناصر بأنه سبق أن أرسل رسولا أسقفاً إلى أوتو فاعتقله مدى ثلاثة أعوام ،وأنه سيعتقله أى يوحنا ، أضعاف هذه المدة ، لأنه أرفع مقاماً من ملك النصرانية . وأخيراً تقرر أن يرسل الناصر إلى ملك الألمان رسولا آخر يستوثق من عواطفه ونياته نحوه ،وأن يبقى يوحنا معتقلا حتى يعود السفير. واختير لهذه السفارة كالعادة قس من رعايا الخليفة هو ربيع أو ريفا الأسقف ، وكان عالماً متمكناً يشغل فى البلاط منصباً هاماً ، ويحبوه الناصر بعطفه وتقديره ، لعلمه وجليل خدماته[٣] ، فاخترق فرنسا إلى ألمانيا ، ومثل لدى الإمبراطور أوتو فى تورنجن ، حيث كان ينفق معظم أوقاته . وكان أوتو يجوز يومئذ بعض المتاعب الداخلية من جراء ثورة ولده عليه ، فأبدى تساهلا فى قبول وجهات نظر الخليفة ، وأكرم مثوى سفيره ، وعاد ربيع الأسقف إلى قرطبة ، بعد سنتين من سفره (٣٤٧ هـ — ٩٥٨ م) . فارتاح الناصر لنتائج سفارته ، وأذن برؤية يوحنا سفير

---

(١) Reinaud: Invasions des Sarrazins en France p. 187

(٢) تناولنا قصة هذه المستعمرات فى الفصل التالى .

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٣ . وهو ربيع بن زيد من زعماء النصارى المعاهدين ، وكان يجيد العربية واللاتينية .

الإمبراطور ، واستقبله بقصر قرطبة فى احتفال فخم ، ظهرت فيه روعة البلاط الأموى ، وأفضى إلى الخليفة بموضوع سفارته . ولسنا نعرف ماذا كانت نتائج هذه السفارة ، لأن الرواية العربية لا تحدثنا عن موضوعها ، ولا تحدثنا الرواية الكنسية عن نتائجها . ولكن المرجح أن وجهة النظر التى أبدتها حكومة قرطبة لسفير الإمبراطور ، فيما يتعلق بأمر المستعمرات العربية المغامرة ، وغزواتها فى غاليس وشمالى إيطاليا وسويسرة ، أنها ليست لها علاقة بتلك المستعمرات ، وأنها لاتتحمل تبعة أعمالها ، ولاتستطيع أن تتدخل فى شأنها ، أو تبذل نصحها لأولئك المغامرين الخارجين عن طاعتها ، وهو استنتاج يؤيده صمت الرواية العربية عن ذكر أخبار هذه المستعمرات ، مما يدل على أن حكومة الأندلس ، لم تكن ذات علائق رسمية بها ، ولم تكن تعنى بأمرها ، وإن كانت بلا ريب تنظر إلى غزواتها وتوغلها فى الأراضى النصرانية ، بعين العطف والرضى . ولكن لوتبراند وهو مؤرخ كنسى معاصر ، يؤكد لنا أن الخليفة كان يحمى هذه المستعمرات ، ويمدها بالتشجيع والعون[1] .

بيد أن الرواية الكنسية تقدم إلينا بهذه المناسبة حديثاً طريفاً عن آراء الناصر فى نظم الحكم ، فقد وقف الناصر من مستشاريه أو من يوحنا نفسه على طرق نظام الحكم الإقطاعى السائد فى ألمانيا ، وما يتمتع به بعض الأمراء المحليين فى ظل هذا النظام ، من الاستقلال الداخلى ، وأبدى ليوحنا اعتراضه على هذا النظام ، قائلا إن ملككم أمير حكيم ماهر ، ولكن فى سياسته شيئاً لا أستسيغه ، وهو أنه بدلا من أن يقبض بيديه على جميع السلطات ، ينزل عن بعضها لأتباعه ، ويترك لهم بعض ولاياته ، معتقداً أنه يكسب بذلك ، وهذا خطأ فادح ، فإن مداراة العظماء لا يمكن إلا أن تزيد فى كبريائهم ، وتذكى رغبتهم فى الثورة[2] . وفى ذلك ما يوضح لنا فكرة الناصر فى الحكم المطلق ، وسياسته فى سحق أولى الشأن والعصبية من زعماء القبائل العربية ، واعتماده على بطانة ذليلة من الفتيان الصقالبة والمولدين .

تلك تفاصيل المراسلات والسفارة الشهيرة التى تبادلها أوتو الأكبر وعبد الرحمن الناصر ، زعيما النصرانية والإسلام فى عصرهما ، بيد أنها لم تكن خاتمة الصلات

---

(١) Reinaud : Ibid, p. 193

(٢) Dozy : Hist. V. II. p. 153

الدبلوماسية بين الناصر وملوك النصرانية . فقد تلقى الناصر كذلك فى سنة ٣٤٤ هـ (٩٥٥ م) سفارة من أردونيو الرابع ملك ليون يرجو عقد السلام والمودة ، فأجابه إلى طلبه ؛ وأرسل فى السنة التالية سفيره محمد بن الحسين إلى ليون ، فعقد مع أردونيو معاهدة صادق عليها ، ولكن حال دون تنفيذها منافسة سانشو لأخيه أردونيو . وفى سنة ٣٤٧هـ (٩٥٨م) وفدت طوطة ملكة نافار بنفسها إلى قرطبة ، ومعها ولدها غرسية وسانشو أمير ليون ، وطائفة من الأحبار والعظماء النصارى ، فاستقبلهم الناصر فى قصره بالزهراء استقبالا حافلا ، وعقد السلم مع طوطة ، وأقر ولدها ملكاً على نافار ، ووعد سانشو بالعون على استرداد عرشه . ثم وفدت على الناصر رسل البابا يوحنا الثانى عشر فى طلب السلم والمودة بين الإسلام والنصرانية فأجابهم إلى ما طلبوا[1] ، وكانت سفارة ذات مغزى واضح فى الاعتراف بزعامة الناصر للعالم الإسلامى . وفى أخبار هذه السفارات المتبادلة بين زعيم الإسلام وملوك النصرانية ، وفى تفاصيلها الشائقة ، ما يلقى كبير ضوء على طبيعة التقاليد والرسوم الدبلوماسية فى العصور الوسطى .

— ٥ —

فى أوائل سنة ٣٤٩ هـ مرض الناصر من برد شديد أصابه ، واحتجب حيناً ، وأكب الأطباء على معالجته حتى تحسنت حالته نوعاً ، وعاد إلى الجلوس فى القصر ، ولكنه أصيب بنكسة ، وعاد إلى احتجابه ، ولبث أشهراً تشتد به العلة حيناً ، وتخف حيناً ، حتى وافاه القدر المحتوم ، فى الثانى من شهر رمضان سنة ٣٥٠ هـ (١٥ أكتوبر سنة ٩٦١ م) . وكانت وفاته بقصر الزهراء فى الحادية والسبعين من عمره ، واستطال حكمه زهاء خمسين عاماً ، وهى أطول مدة حكمها خليفة من خلفاء الإسلام ، إذا استثنينا عهد المستنصر بالله الفاطمى بمصر .

وكان عبد الرحمن الناصر أعظم أمراء الإسلام فى عصره ، بل ربما كان أعظم أمراء عصره قاطبة . ولم تصل الدولة الإسلامية فى الغرب ، إلى ما وصلت إليه فى عصر الناصر ، من القوة والسؤدد والهيبة والنفوذ . وكان يتمتع بخلال باهرة قلما تجتمع فى شخصية واحدة ، سياسية وعسكرية وإدارية . وكان يشبه فى

---

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٣ .

حزمه وصرامته وبعد نظره ، بجده الأكبر عبد الرحمن الداخل[١] . ويجمل ابن الأبار خواصه وخواص عصره فى تلك العبارة : « وظهر لأول ولايته من يمن طائره ، وسعادة جده ، واتساع ملكه ، وقوة سلطانه ، وإقبال دولته ، وخمود نار الفتنة على اضطرامها بكل جهة ، وانقياد العصاة لطاعته ، مما تعجز عن تصوره الأوهام »[٢] . وتولى حجابته لأول ولايته مولاه بدر بن أحمد ، وما لبث أن اصطفاه وأولاه كل ثقته ، وفوض إليه الأمر والنهى ، وجعله على حد قول المؤرخ «شمساً لملكه وبدراً »[٣]. وولى أبناءه الثلاثة عبد الرحمن وعبد الله وإسماعيل مناصب فى القصر والخاص . ولما توفى بدر بن أحمد فى شهر رجب سنة ٣٠٩هـ ، ولى الناصر مكانه فى الحجابة موسى بن محمد بن حُدير . وتولى وزارته عدة من أنبه رجال العصر ، منهم أحمد بن محمد بن حُدير ، وجَهْور بن عبد الملك ، وعبد الله بن محمد الزجّالي . وتولى إدارة الشئون المالية عبد الملك بن جهور ، وأحمد بن عبد الملك بن شُهَيد[٤]. وأهدى ابن شهيد إلى الناصر هديته المشهورة ، التى أفاض فى وصفها مؤرخو الأندلس ، وكان منها خمسمائة ألف مثقال من الذهب ، ومائتا أوقية من المسك والعنبر ، وثلاثون شقة من الحرير المرقوم بالذهب ، ومائة فرس مسرجة ، وعشرون بغلا عالية الركاب ، وأربعون وصيفاً ، وعشرون جارية بكسوتهن وزينتهن ، وأصناف عديدة أخرى. قال ابن خلدون « وهى مما يدل على ضخامة الدولة الأموية واتساع أحوالها » . ويجمع مؤرخو الأندلس على أنه لم تقدم هدية فى قدرها ونفاستها إلى ملك من ملوك الأندلس . قدمها ابن شهيد إلى الناصر فى سنة ٣٢٧ هـ ، ومعها خطاب رقيق يشيد فيه بعظمة الناصر ومآثره ، فوقعت لديه أحسن موقع ، وزاده حظوة واختصاصاً ، وأسمى منزلته على سائر الوزراء ، وأسبغ عليه لقب ذى الوزارتين ، فكان أول من حظى بهذا اللقب من وزراء الأندلس ، وضاعف له رزق الوزارة ، وجعله ثمانين ألف دينار فى العام[٥] . وولى قيادة الجيش لأول عهد الناصر أحمد بن محمد

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ١٦٣ .

(٢) الحلة السيراء (ليدن) ص ٩٩ — ١٠٠ .

(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٤٠ .

(٤) البيان المغرب ج ص ١٦٤ .

(٥) راجع ابن خلدون ج ٤ ص ١٣٨ ؛ ونفح الطيب ج ١ ص ١٦٦ و ١٦٧ و ١٧٧ نقلا عن ابن حيان وابن الفرضى وغيرهما .

ابن أبى عبدة ، سليل الأسرة الشهيرة ، التى تولى زعماؤها قيادة الجيوش الأندلسية خلال الفتنة الكبرى . وكذلك وليها الحاجب بدر غير مرة ، ووليها الفتيان الصقالبة مثل نجدة وميسور وغيرهما . وقد رأينا كيف انتهت سياسة عبد الرحمن فى إيثار الصقالبة بالقيادة إلى كارثة الخندق . وممن ولى القضاء فى عهد الناصر أحمد بن محمد بن زياد ، وأسلم بن عبد العزيز بن هشام ، ومنذر بن سعيد البلوطى(١) .

وقد أورد لنا ابن حيان ثبتاً طويلا من الوزراء وأصحاب الخطط والموالى الذين تولوا المناصب الكبرى فى عهد الناصر .

فمن الوزراء : محمد بن سليمان بن وانسوس . سعيد بن المنذر القرشى ؛ عبد الحميد بن بسيل ، خالد بن أمية بن شهيد . عيسى بن أحمد بن أبى عبدة ؛ جهور بن عبد الملك البختى ، أحمد بن محمد بن إلياس .

ومن أصحاب الخطط : محمد بن سعيد بن المنذر القايد . عيسى بن فطيس الكاتب . عبد الله بن بدر بن أحمد صاحب الشرطة . محمد بن قاسم بن طملس صاحب المظالم . محمد بن عبد الله بن موسى الخازن ؛ إسماعيل بن بدر بن اسماعيل العارض .

ومن الموالى : جهور بن عبيد الله بن محمد بن أبى عبده . أحمد بن خالد ابن أمية بن عيسى بن شهيد . محمد بن جهور بن عبد الملك البختى . مروان بن جهور بن عبد الملك البختى ، أحمد بن سهل بن محمد . عبد الله بن أحمد بن محمد ابن عيسى . محمد بن عباس بن محمد بن أبى عبدة . عبيد الله بن عباس بن أحمد ابن أبى عبده ، عبد الله بن يحيى بن أدريس . عبد الوهاب بن محمد بن بسيل . محمد بن مروان بن عبد الله بن بسيل . عبد الرحمن بن أحمد بن زكريا بن عاصم . محمد بن أحمد بن قابوس . أحمد بن محمد بن عيسى . محمد بن عبد السلام بن كليب بن ثعلبة(٢) .

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ١٦١ .

(٢) نقلنا هذا الثبت عن ابن حيان أورده فى المقتبس — السفر الخامس — مخطوط الخزانة الملكية الذى سبقت الإشارة إليه غير مرة . وأورد لنا ابن حيان أيضاً ثبتاً طويلا بأسماء عمال الكور فى عهد الناصر استغرق صفحة كاملة ( لوحة ١٥٣ أ ) . ولكننا لم نجد محلا لإيراده .

وذكر لنا ابن حيان ، فى حوادث سنة ٣٢٤ ﻫ ، أن الوزراء فى هذه السنة كانوا عشرة ، وهم : سعيد بن المنذر القرشى المروانى . أحمد بن محمد بن حدير . عبد الحميد بن بسيل . أحمد بن عبد الوهاب بن عبد الرؤوف . خالد بن أمية ابن شهيد . عيسى بن أحمد بن أبى عبدة . عبد الملك بن جهور . فطيس بن أصبغ بن فطيس . أحمد بن محمد بن إلياس . يحيى بن إسحق .

وذكر لنا فى حوادث سنة ٣٢٥ ﻫ ، أنه قد عزل عن الوزارة يحيى بن إسحق ، ووليها أحمد بن عبد الملك بن شهيد ، وعبد الرحمن بن عبد الله الزجالى ، وأن الوزراء بلغ عددهم فى هذه السنة واحداً وعشرين وزيراً ، منهم تسعة من العشرة الذين سبق ذكرهم عدا يحيى بن إسحق[١] .

وكان عبد الرحمن الناصر عالماً أديباً ، يهوى الشعر وينظمه ، ويقرب الأدباء والشعراء ؛ وكان فى مقدمة دولته وأكثرهم حظوة لديه ، الفقيه ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد ، وشاعر الدولة المروانية منذ محمد بن عبد الرحمن . ويفيض ابن عبد ربه فى مناقب الناصر ، ويستعرض غزواته منذ ولايته حتى سنة ٣٢٢ﻫ ، فى أرجوزة طويلة رتبت وفق السنين[٢] . ومن شعره فى وصف عصر الناصر ، واعتزاز الإسلام بدولته قوله :

| | |
|---|---|
| قد أوضح الله للإسلام منهاجا | والناس قد دخلوا فى الدين أفواجا |
| وقد تزينت الدنيا لساكنها | كأنها ألبست وشياً وديباجا |
| ياابن الخلائف إن المزن لو علمت | نداك ما كان منها الماء ثجاجا |
| والحرب لو علمت بأساً تصول به | ما هيجت من حمياك الذى اهتاجا |
| مات النفاق وأعطى الكفر رمته | وذلت الخيل إلجاماً وإسراجا |
| وأصبح النصر معقوداً بألوية | تطوى المراحل تهجيراً وإدلاجا |
| أدخلت فى قبة الإسلام بارقة | أخرجتها من ديار الشرك إخراجا |
| بجحفل تشرق الأرض الفضاء به | كالبحر يقذف بالأمواج أمواجا |
| يقوده البدر يسرى فى كواكبه | عرمرماً كسواد الليل رجراجا |

---

(١) وردت الفقرة الأولى فى المقتبس – السفر الخامس – لوحة ١٥٣ أ ، ووردت الفقرة الثانية فى لوحة ١٦٢ أ .

(٢) راجع هذه الأرجوزة فى كتاب العقد الفريد ( طبعة المطبعة الأزهرية ) ج ٣ ص ٢٠٩ إلى ٢٢٧ .

إن الخلافة لن ترضى ولا رضيت  حتى عقدت لها فى رأسك التاجا[١]

ومما ينسب إلى الناصر من النظم ، قوله :

لا يضر الصغير حدثان سن  إنما الشأن فى سعود الصغر

كم مقيم فازت يداه بغنم  لم تنله بالركض كف مغر[٢]

وكان الناصر سمحاً وافر الجود . ويصفه ابن الأثير بأنه كان ، أبيض ، أشهل ، حسن الوجه ، عظيم الجسم ، قصير الساقين[٣] » وترك الناصر من البنين أحد عشر ولداً منهم ولى عهده وخلفه الحكم المستنصر بالله .

وقال الوزير جعفر بن عثمان المُصْحَفى فى رثاء الناصر :

إلا إن أياماً هفت بإمامها  لجائرة مشتطة فى احتكامها

فلم يؤلم الدنيا عظام خطوبها  وأحداثها إلا قلوب عظامها

تأمل فهل من طالع غير آفل  لهن وهل من قاعد لقيامها

وعاين فهل من عائش برضاعها  من الناس إلا ميت بفطامها

كأن نفوس الناس كانت بنفسه  فلما توارى أيقنت بحمامها

فطار بها يأس الأسى وتقاصرت  يد الصبر عن أعوالها واحتدامها

ويشيد النقد الحديث بمناقب عبد الرحمن الناصر وعصره أعظم إشادة : وربما كان أبلغ ما قيل فى ذلك تلك العبارات القوية التى يختتم بها العلامة دوزى حديثه عن عصر عبد الرحمن الناصر : « لقد كانت هذه نتائج باهرة ، ولكنا نجد إذا ما درسنا ذلك العصر الزاهر ، أن الصانع يثير الإعجاب والدهشة ، بأكثر مما يثيرها المصنوع : تثيرهما تلك العبقرية الشاملة التى لم يفلت شىء منها ، والتى كانت تدعو إلى الإعجاب فى تصرفها نحو الصغائر ، كما تدعو إليه فى أسمى الأمور » إن ذلك الرجل الحكيم النابه ، الذى استأثر بمقاليد الحكم ، وأسس وحدة الأمة ، ووحدة السلطة معاً ، وشاد بواسطة معاهداته نوعاً من التوازن السياسى ، والذى اتسع تسامحه الفياض لأن يدعو إلى نصحه رجالا من غير المسلمين ، لأجدر بأن يعتبر قريناً للملوك العصر الحديث ، لا خليفة من خلفاء العصور الوسطى »[٤].

---

(١) وقيل إن هذه القصيدة وجهت إلى الناصر لمناسبة عوده ظافراً من أول غزوة قام بها ضد الثوار فى مستهل حكمه .

(٢) نفح الطيب ج ١ ص ١٦٦ .

(٣) ابن الأثير ج ٨ ص ١٧٧ .

(٤) Dozy : Hist, V. II. p. 175

# الفصل الثالث

## غزوات المسلمين

### فى غاليس وشمال إيطاليا وسويسرة

توقف الغزو الإسلامى عقب بلاط الشهداء . استئناف الغزو فى عهد هشام . غزو الفرنج لشمالى الأندلس . الغزوات الإسلامية المغامرة . صمت الرواية الإسلامية عن ذكرها . غزو قورسقة وشواطىء فرنسا الجنوبية . غزو مرسيليا وپروڤانس . غزو موسى بن موسى لسبتمانيا . غزو جزيرة كاماراج . اضطراب الأحوال فى جنوبى فرنسا . غزو المسلمين لشواطىء سان تروپيه . معاقلهم فى تلك الأنحاء . تدخلهم بين النصارى . اختراق الغزاة لدوفينه . عبورهم مون سنى . احتلالهم لممرات الألب . جوازهم إلى سهول پيمون . عودهم إلى غزو پروڤانس . غزوهم لمرسيليا وإيكس . غلقهم لممرات الألب . تقدمهم إلى ليجوريا . غزوهم لمنطقة ڤاليه وساڤوا . وصولهم إلى قلب سويسرة وشرقها . غزوهم لثغر فريجوس . اتحاد الأمراء النصارى على مقاومتهم . استنجادهم بقيصر قسطنطينية . مهاجمة المسلمين وتمزيقهم . الصلح بينهم وبين ملك پروڤانس . احتلالهم لممر سان برنار . استيلاؤهم على جرينوبل . غاراتهم فى پيمون . الحرب بينهم وبين المجر . وصولهم إلى سان جالن . قتالهم وهزيمتهم . صدى الغزوات الإسلامية فى جنوبى أوربا . سعى البابوية وإمبراطور ألمانيا لوقفها . محاربة الغزاة فى دوفينه وپروڤانس . هزيمتهم وارتدادهم إلى الجنوب . سقوط حصن فراكسنيه . سقوط المستعمرات الإسلامية فى الألب . غزوات بحرية إسلامية لشواطىء فرنسا . غزو قورسقة وسردانية . ظروف هذه الغزوات الإسلامية . خواصها وبواعثها . آثارها المادية والأدبية . أثر العرب فى تقدم الزراعة فى الأنحاء المفتوحة . نقلهم لكثير من المحاصيل والغراس . أثرهم فى تحسين سلالة الخيل . الآثار الاجتماعية . أقوال النقد الحديث .

— ١ —

تحدثنا فيما تقدم عن غزوات العرب فى غاليس ( جنوبى فرنسا ) منذ الفتح ، ورأينا كيف وضع ارتداد العرب فى موقعة بلاط الشهداء فى سنة ١١٤هـ (٧٣٢ م) حداً لغزواتهم فى غاليس ، وكيف فقدوا تباعاً قواعدهم فى لانجدوك وسبتمانيا ، حتى انتهت رياستهم فيما وراء البرنيه بسقوط ثغر أربونة ، آخر قواعدهم فى سبتمانيا ، فى يد الفرنج فى سنة ١٤٢ هـ ( ٧٥٩ م )[1] .

وكانت الأندلس خلال هذه الفترة تضطرم بالفتن الداخلية والحرب الأهلية . ولما استطاع عبد الرحمن الأموى أن ينتزع الرياسة لنفسه من غمر الفتنة ، وأن يعيد

(١) راجع « دولة الإسلام فى الأندلس » القسم الأول ص ١٣٧ .

حلك الدولة الأموية بالأندلس ، لبث بقية عهده يعمل على توطيد ملكه الفتى ، وحمايته من الثوار والخوارج ، ولم تتح له فرصة للتفكير فى الغزوات الخارجية . بل لقد اضطر أن يقف موقف المدافع من مملكة الفرنج ومن عاهلها شارلمان ، الذى حاول أن يغزو الولايات الإسلامية ، بموازرة الزعماء الخوارج فى الثغر الأعلى ، واضطر أن يغضى مدى حين عن غزوات المملكة النصرانية الناشئة ، لأراضى الأندلس وقواعدها الشمالية .

فلما تولى ولده هشام الملك ، واستطاع أن يقضى على ثورة أخويه سليمان وعبد الله ، وجه عنايته إلى مقارعة المملكة الفرنجية ، ورد خطرها عن الأندلس ، وبعث إلى الشمال فى سنة ١٧٦ هـ (٧٩٢ م) بجيش كثيف بقيادة حاجبه عبد الملك ابن عبد الواحد بن مغيث ، فعبر جبال البرنيه ، ونشبت بين المسلمين والفرنج فى بسائط سبتمانيا عدة معارك كانت سجالا ، وجدد بذلك عهد الغزو والجهاد فيما وراء البرنيه .

وعاد الفرنج فى عهد الحكم بن هشام ، فعبروا جبال البرنيه فى سنة ١٨٥ هـ ( ٨٠١ م ) وغزوا الثغر الأعلى وافتتحوا ثغر برشلونة ، واقتطعوا بذلك جزءاً من الأندلس الشمالية . ولم تمض بضعة أعوام أخرى ، حتى عبر الفرنج البرنيه للمرة الثانية ( ١٩٣ هـ — ٨٠٩ م ) وحاولوا الاستيلاء على مدينة طرطوشة ، ولكن المسلمين استطاعوا إنقاذها .

وفى عهد عبد الرحمن بن الحكم سارت حملة بحرية أندلسية لغزو الجزائر الشرقية . وقد رأينا فيما تقدم كيف غدت مياه الأندلس الشرقية مركزاً لحملات البحارة المسلمين ، يسيرون منها نحو الشمال والشرق إلى الشواطئ والجزائر القريبة ، ينقضون عليها طلباً للغنيمة والسبى ، وكيف بدأت من ذلك الحين محاولات المجاهدين المسلمين ، لغزو شواطىء فرنسا الجنوبية وأحواز مصب الرون .

وقد فصلنا فيما تقدم من كتابنا أخبار الغزوات الأندلسية الرسمية فيما وراء البرنيه ، وأشرنا بإيجاز إلى بداية عهد الحملات البحرية الأندلسية الخاصة[1]. سنحاول فى هذا الفصل أن نستعرض لمحة من أخبار هذه الحملات والغزوات الإسلامية غير الرسمية البحرية والبرية ، إلى شواطئ فرنسا الجنوبية ، وما يجاورها

(١) راجع « دولة الإسلام فى الأندلس » ص ٢٦٥ و ٢٦٦ .

من سهول ليجوريا وهضاب سويسرة ، ومما يجدر ذكره أن الرواية الإسلامية قلما تشير إلى هذه الغزوات بكلمة ؛ وربما كان ذلك راجعاً إلى طبيعة هذه الغزوات والمغامرات غير الرسمية ، التى كانت تنظمها جماعات خاصة من المجاهدين لا تربطها بحكومة قرطبة صلة رسمية ، ولا تعتمد إلا على جهودها ومواردها الخاصة .

بدأت هذه الغزوات الأندلسية للشواطئ والثغور الفرنجية منذ أوائل القرن التاسع . وكان معظمها حملات بحرية ، قوامها جماعات من المجاهدين والزعماء المغامرين . فى سنة ٨٠٦ م غزت إحدى هذه الجماعات البحرية المجاهدة جزيرة كورسيكا ( قورسقة ) ، وهزمت الأسطول الفرنجى الذى بعثه بيبن ابن شارلمان ملك إيطاليا لقتالهم ، وعادت بكثير من الغنائم والسبى . وتوالت بعد ذلك غزوات البحارة الأندلسيين لشواطىء كورسيكا وسردانية ، وهما يومئذ أغنى جزر البحر المتوسط . وكذلك توالت غارات البحارة المسلمين على شواطىء فرنسا الجنوبية . وتعنى الرواية الكنسية والفرنجية المعاصرة بتدوين هذه الغزوات الإسلامية ، وتصف عصفها وعيثها ، وما كانت تحدثه من الرعب بين السكان النصارى ، وتقول لنا إن البحارة المسلمين ، ذهبوا فى الجرأة إلى حد التجول فى مياه الأطلنطيق ، والإغارة على شواطىء فرنسا الغربية ، وإن سفينة عربية كبيرة اجتازت فى ذلك الحين مياه الأطلنطيق حتى مصب نهر اللوار[1] .

وفى سنة ٨٣٨ م سار أسطول أندلسى من مياه طركونة ومياه الجزائر الشرقية إلى مياه پروڤانس ، وغزا ثغر مرسيليا وما حوله من الأراضى ، وأثخن فيها ، وحمل الغزاة كثيراً من الغنائم والسبى . ولم يستطع ملك فرنسا الضعيف لويس ابن شارلمان مقاتلة الغزاة . ثم عاد البحارة المسلمون وغزوا شواطىء پروڤانس مرة أخرى ، ونفذوا إلى مصب نهر الرون ، واقتحموا مدينة آرل وخربوا كنائسها . وتوالت بعد ذلك غزواتهم لهذه المنطقة . وفى سنة ٨٥٠م فى أواخر عهد عبد الرحمن ابن الحكم ، عبر موسى بن موسى بن قسى صاحب سرقسطة وزعيم الثغر الأعلى ، جبال البرنيه ، وغزا سبتمانيا وأثخن فى نواحيها ، واضطر شارل الأصلع ملك فرنسا أن يهادنه ، وأن يعقد الصلح معه ، وأن يسترضيه بالهدايا والتحف . ومن

---

( ١ ) جمعت أقوال الروايات الكنسية والفرنجية المعاصرة ، عن هذه الغزوات الإسلامية ، فى موسوعة Bouquet التى سبقت الإشارة إليها غير مرة ، بنصوصها اللاتينية أو الفرنسية القديمة ، وقد عتمدنا عليها فى كثير من حوادث هذا الفصل .

المرجح أن هذه الغزوة لم تكن ذات طابع رسمى ، ولم تكن لها صلة بحكومة قرطبة . ذلك أن بنى قسىّ زعماء الثغر الأعلى فى ذلك الحين ، كانوا يتمتعون باستقلال محلى ، ولا يدينون بالولاء لحكومة قرطبة ، وكانوا بالعكس ينزعون إلى مقاومتها والخروج عليها . وفى سنة ٨٦٩م هاجمت جماعة من البحارة والمجاهدين المسلمين شواطىء پروڤانس مرة أخرى ، واستولت على جزيرة كامارج الواقعة فى مصب الرون ، وأسرت أسقف آرل الذى كان يقيم بها ، وعادت مثقلة بالغنائم والأسرى .

— ٢ —

وأذكى نجاح هذه الغزوات المتوالية ، فى نفوس المغامرين والمجاهدين من مسلمى الأندلس وإفريقية ، حب التوغل فى هاتيك الأنحاء ، ورغبة فى استعمارها والاستقرار فيها . وكانت أحوال غاليس ( جنوبى فرنسا ) قد اضطربت يومئذ ، وغلب سيد من سادة هذه الأنحاء يدعى بوسون على ولايتى دوفينه وپروڤانس ، وتلقب بملك آرل . وقام يناوئه بعض منافسيه ، ونشبت بينه وبينهم حرب أهلية ( نحو سنة ٨٩٠ م ) . ففى تلك الآونة رست سفينة عربية صغيرة عليها عشرون بحاراً من المسلمين ، فى خليج جريمو أو خليج سان تروپيه ، ونزلوا إلى الشاطئ ولجأوا إلى غابة كثيفة ، تظللها الجبال ، ثم هاجموا بعض الضياع القريبة وفتكوا بسكانها . ولما رأوا منعة معقلهم من البر والبحر ، عولوا على الاستقرار فيه ، ودعوا إخوانهم من الثغور الإسلامية القريبة إلى القدوم ، وأرسلوا فى طلب العون والتأييد من حكومات الأندلس والمغرب ، فوفد عليهم كثير من المغامرين البواسل . ولم تمض أعوام قلائل ، حتى استقروا فى ذلك المكان ، وأنشأوا لهم سلسلة من المعاقل والحصون ، أمنعها وأشهرها حصن تطلق عليه الرواية الفرنجية المعاصرة ، اسم ( فراكسنتم ) Fraxinetum . والمظنون أنه هو المكان الذى تقوم عليه اليوم قرية (جارد فرينيه) Garde-Frinet الواقعة فى سفح جبال الألب[1]. وما زالت ثمة آثار تدل على قيام معاقل قديمة فى ذلك المكان . ولما كثر جمعهم ، واشتد ساعدهم ، اخذوا فى الإغارة على الأنحاء المجاورة ، وأصبحوا قوة تخشى بأسها . وسعى إليهم بعض الأمراء والسادة المتنافسين يستظهرون بهم ، بعضهم على بعض ، فلبوا الدعوة ،

---

( ١ ) Reinaud : Invasions des Sarrazins en France. p. 160

وانتزعوا من بعض السادة أراضيهم ، وأعلنوا أنفسهم سادة فى الأنحاء المغلوبة ، وبثوا الذعر والروع فى جنوب پروڤانس ، حتى وصفهم كاتب معاصر « بأن واحداً منهم يهزم ألفاً ، واثنين يهزمان ألفين »[1] .

وكانت هذه أول خطوة فى استعمار المسلمين لجنوبى فرنسا . وفى خاتمة القرن التاسع اتخذ المستعمرون المسلمون خطوة أخرى ، فتقدموا نحو جبال الألب غرباً وشمالا . وكانت مملكة آرل قد ضعفت واضمحلت ، وخلف بوسون ولده لويس ، ولكنه ذهب إلى إيطاليا ليحارب إلى جانب حلفائه فهزم هنالك وأسر ، وترك مملكته بلا دفاع ، وساد الإنحلال والفوضى غاليس كلها : فانتهز المسلمون تلك الفرصة واخترقوا مفاوز دوفينه ، وعبروا « مون سنى » أهم ممرات الألب الفرنسية ، واستولوا على دير نوڤاليس الشهير الواقع فى وادى «سيس» على حدود پييمون ، وفر الأحبار إلى مختلف الأنحاء (سنة ٩٠٦ م) . وأغار المسلمون على القرى والضياع المجاورة ونهبوها ، وفتكوا بأهلها ، وأسر بعضهم وأخذوا إلى تورينو بإيطاليا وسجنوا فى ديرها ، ولكنهم استطاعوا أن يحطموا أغلالهم ، وأضرموا النار فى الدير وفى المدينة ، وفروا عائدين إلى زملائهم ؛ واشتد بأس المسلمين فى تلك الأنحاء ، واحتلوا معظم ممرات الألب ، فسيطروا بذلك على طرق المواصلة بين فرنسا وإيطاليا ، ثم انحدروا من آكام الألب إلى سهول بييمون ، وأغاروا على بعض مناطقها .

وفى سنة ٩٠٨ م نزلت سرية قوية من البحارة المسلمين فى شاطىء پروڤانس على مقربة من « إيج مورت » ونهبت دير بالمودى ، وكانت الأديار والكنائس يومئذ مطمح أنظار الغزاة ، لما كانت تغص به من الذخائر والأموال ؛ وانتشر المسلمون بعد ذلك فى جميع الأنحاء المجاورة ، واجتاحوا كل ما فى طريقهم من البسائط ، وهاجموا مرسيليا ، وهدموا كنيستها ، وغزوا إيكس ، وسبوا النساء وتزوجوا بهن ليكثر نسلهم ويقووا به ، وانضم إليهم كثير من النصارى المغامرين من أهل هذه الأنحاء ، وهجر السادة والأغنياء حصونهم وقصورهم ، والتجأوا إلى الداخل خشية القتل والأسر ، وأغلق المسلمون طريق الألب إلى إيطاليا ، وكان يمر بها كل عام ألوف من الحجاج الذين يقصدون إلى رومة ، واقتضوا منهم الضرائب الفادحة ليسمحوا لهم بالمرور .

Reinaud : ibid, p. 161 (١)

— ٣ —

ثم اتخذ المسلمون خطوة جديدة فى سبيل التقدم إلى أواسط أوربا ، فدفعوا غزواتهم إلى بييمون ومونفراتو. وتقول لنا الرواية الكنسية المعاصرة إنهم وصلوا فى أوائل القرن العاشر إلى حدود ليجوريا على شاطىء خليج جنوة . ويروى لوتبراند ، وهو كاتب معاصر ، أن العرب غزوا سنة ٩٠٦ ، مدينة « آكى » من أعمال مونفراتو الشهيرة بحماماتها ( وهى على مقربة من تورينو ) ، ثم غزوها ثانية سنة ٩٣٥ بقيادة زعيم يدعى ( ساجيتوس ) ولكنهم هزموا ومزقوا . وفى هذا الوقت أيضاً نزلت جماعة قوية من البحارة الإفريقيين بساحل جنوة ، وقتلت عدداً كبيراً من أهلها ، وأسرت جموعاً كثيرة من النساء والأطفال .

وفى سنة ٩٣٩ م غزا المسلمون منطقة « ڤاليه » فى جنوب سويسرة ، ونهبوا دير « أجون » الشهير ، وغزوا فى الوقت نفسه منطقة « تارانتيز » من أعمال ساڤوا الوسطى ، ثم اتخذوا منطقة « ڤاليه » قاعدة للإغارة على الأراضى المجاورة فى سويسرة وإيطاليا ، ونفذوا منها إلى أواسط سويسرة ، ثم إلى « جريزون » فى شرق سويسرة ، ونهبوا دير ديزنتى أشهر وأغنى الأديار السويسرية ، ونهبوا طائفة أخرى من الأديار والكنائس الغنية . وفى بعض الروايات أيضاً أن المسلمين وصلوا فى غزواتهم إلى بحيرة جنيف ، وجاوزوا إلى مفاوز چورا الواقعة فى شمالها ، وكانت سويسرة يومئذ من أقاليم بورجونية وملكتها يومئذ الملكة « برت » الوصية على ولدها الطفل كونراد ، فارتدت حين اقتراب العرب إلى حصن ناء فى جهة نيو شاتل .

وفى سنة ٩٣٠ م غزا العرب فريجوس وكانت يومئذ من أكبر وأمنع ثغور فرنسا الجنوبية ، وغزوا أيضاً ثغر طولون ، ففر السكان إلى الجبال ، وعاث المسلمون فى تلك الأنحاء ، وخربوا المدن والحصون ، وأحرقوا الأديار والكنائس.

ولما اشتدت وطأة المسلمين فى جنوبى فرنسا ، وبلغ السخط من غزواتهم وعيثهم ذروته ، اعتزم سادة الجنوب ، وعلى رأسهم هوج ملك بروڤانس أن يبذلوا كل ما فى وسعهم لسحق ذلك العدو المزعج. ورأى هوج أن يبدأ بافتتاح حصن فراكسنيه (فراكسنتم) الذى يمتنع به المسلمون، ويتخذونه قاعدة لتأمين مواصلاتهم مع اسبانيا وإفريقية ، وقاعدة للإغارة على الداخل ، وكتب إلى صهره إمبراطور

قسطنطينية ، يطلب منه أسطولا من قاذفات النار اليونانية ، حتى يستطيع مهاجمة المسلمين من البر والبحر معاً . فلبى نداءه . وفى سنة ٩٤٣ م رسا أسطول بيزنطى فى مياه سان تروپيه ، وزحف هوج فى نفس الوقت بجيشه على فراكسنيه ، وهوجم المسلمون من البر والبحر بمنتهى الشدة ، وأحرقت سفنهم ، ونفذ هوج إلى الحصن بعد قتال رائع ، وفر المسلمون إلى الآكام والربى ، وكاد يسحق سلطانهم فى تلك الأنحاء . ولكن حدث بعد ذلك أن علم هوج أن خصمه ومنافسه بيرانجيه ، قد عاد إلى إيطاليا لينازعه فى انتزاع عرشها فصرف هوج الأسطول ، واضطر أن يعقد الصلح مع المسلمين ، بشرط أن يبقوا فى رؤوس الألب وممراتها ، وأن يغلقوا الطريق إلى إيطاليا فى وجه خصمه ، وبذلك استعاد المسلمون قلاعهم وسيادتهم فى جنوبى پروڤانس .

واحتل المسلمون آكام الألب وممراتها ، وفرضوا الضرائب الفادحة على المسافرين ، واستطاعوا بسيطرتهم على ممر سان برنار الكبير ، الموصل بين سويسرة وإيطاليا ، وغيره من الممرات والمعاقل الجبلية ، أن يجتاحوا الأنحاء المجاورة ، وأن يبثوا فيها الذعر والروع ، واستقرت منهم جموع فى السهول والضياع القريبة من معاقلهم ، وتزوجوا النساء الأسيرات ، وزرعوا الأرض ، واكتفى أمراء هذه النواحى بأن يحصلوا منهم بعض الضرائب . ونفذ المسلمون أيضاً إلى منطقة نيس ذاتها ، وما يزال فى نيس إلى اليوم حى يعرف بحى العرب **Canton des Sarrazins**

وأخيراً نفذ المسلمون إلى قلب ولاية دوفينه ، وغزوا جرينوبل واحتلوها مدى حين ، واحتلوا واديها الخصيب «جريزيڤودان» الذى يجرى فيه نهر الإيزر فرع الرون ، وفر أسقف جرينوبل وزملاؤه إلى الشمال حاملين رفات قديسيهم [(١)] .

— ٣ —

وهكذا انتشرت المستعمرات والمعاقل الإسلامية خلال القرن العاشر الميلادى فى پروڤانس وساڤوا وپيمون وسويسرة ، وبسط المسلمون سيادتهم على ممرات جبال الألب وعلى الحدود بين غاليس وبلاد اللونبارد (شمال إيطاليا) وبينها وبين سويسرة ، وبلغوا فى تقدمهم فى غاليس مدينة جرينوبل ، واحتلوا فى سويسرة ولاية ڤاليه ومفاوز چورا المتاخمة لبرجونية ، واحتلوا فى إيطاليا الشمالية ، ولاية

(١) **Reinaud : ibid , p. 180 & 181**

ليجوريا : وكانت معاقلهم فى پروڤانس ولا سيما حصن «فراكسنيه» ، قواعد غزواتهم وملاذ قوتهم وسيادتهم . والظاهر أنهم اتبعوا نفس هذه الخطة فى سهول پييمون ، فأنشأوا بها سلسلة من الحصون والقلاع القوية ، لتكون مركز غزواتهم فى بلاد اللونبارد وفى سويسرة ، فإن الرواية الكنسية التى كتبها حبر معاصر من دير نوڤاليس ، تذكر لنا اسم حصن إسلامى فى تلك الأنحاء وتسميه «فراشنديلوم» Fraschendellum ، والمظنون أنه هو المكان الذى تعرفه الجغرافية الحديثة باسم «فراسنيتو» ، وهو الواقع فى لومبارديا على مقربة من نهر « پو » . وتقص علينا نفس هذه الرواية الكنسية أيضاً أن سيداً نصرانيا من سادة تلك الأنحاء يدعو إيمون دفعه شغف المغامرة والكسب ، إلى محالفة المسلمين فانضم إليهم ، واشترك فى غاراتهم الناهبة ؛ وفى ذات يوم وقعت بين السبايا امرأة رائعة الحسن ، فاستبقاها إيمون لنفسه ، ولكن زعيماً مسلماً استحسنها وانتزعها منه قسراً ، فغضب إيمون والتجأ إلى كونت روتبالدرس حاكم بروڤانس العليا ، وفاوضه سراً فى محاربة المسلمين ، وإنقاذ البلاد منهم ، فرحب الكونت بهذا المشروع ، ودعا السادة إلى معاونته ، واستطاع أن يحشد قوات كبيرة ، وهوجم المسلمون فى بييمون من كل صوب ومزقوا ، وسقطت قلاعهم فى أيدى النصارى ، وذهب سلطانهم فى تلك الأنحاء . وتقص الرواية الكنسية أيضاً قصة مؤامرة دبرها كونراد ملك برجونية لإهلاك المسلمين النازلين فى أملاكه فى چورا وعلى حدود برجونية ، والمجر الذين كانوا يشاطرونهم يومئذ الإغارة والعيث فى تلك الأنحاء . وذلك أنه كتب إلى المسلمين يستحثهم على قتال منافسيهم المجر ، وانتزاع ما بيدهم من الأراضى والضياع الخصبة ، وكتب مثل ذلك إلى المجر يستحثهم لقتال المسلمين والمعاونة على إجلائهم ، وعين مكاناً للقاء الفريقين ، فالتقت الجموع المتنافسة من المسلمين والمجر ، ونشب بينهما قتال هلك فيه كثير من الفريقين ، ثم أشرف كونراد بجموعه ، ومزق البقية الباقية من الفريقين قتلا وأسراً ، وتضع الرواية تاريخ هذه الموقعة فى سنة ٩٥٢ م ، ولكنها لا تعين لنا مكان حدوثها[1] .

ومنذ منتصف القرن العاشر يأخذ نجم أولئك المسلمين المستعمرين المغامرين فى الأفول ، وتضمحل سيادتهم فى تلك الأنحاء . بيد أنهم لبثوا مدى حين بعد ذلك

---

(١) Bouquet : T, IX, p. 6., Reinaud : ibid , p.128

يحتلون كثيراً من مواقع ساقوا ، ويجوبون أنحاء سويسرة كلها فى طلب الغنيمة والسبى ، وقد اعتادوا على حرب الجبال وحذقوا أساليبها ، وبلغوا فى توغلهم فى سويسرة مدينة سان جالن على مقربة من بحيرة كونستانس ، وأنشأوا ثمة كثيرا من القلاع والأبراج ، التى مازالت تقوم منها إلى اليوم بعض الأطلال والبقايا ، ولبثوا حيناً فى سان جالن حتى حشد رئيس ديرها حوله جمعاً من المقاتلين الأشداء ، وفاجأوا المسلمين فى جوف الليل ، ومزقوهم قتلا وأسراً ، وبذلك خفت وطأة الغزوات الإسلامية فى شمال سويسرة .

واستمرت المستعمرات والمعاقل الإسلامية فى دوفينه وبروڤانس ، وبعض جهات الألب ، وكان قربها من «فراكسنيه» أمنع المعاقل الإسلامية يمدها بأسباب الجرأة والعون ، ويمدها قربها من البحر دائماً بأمداد جديدة من المتطوعين والمغامرين من ثغور الأندلس وإفريقية .

وكان لاستقرار هذه المستعمرات الإسلامية فى جنوبى أوربا ، وعيثها المستمر فى الأنحاء والسهول المجاورة ، وقع عميق فى الحكومات الأوربية ، وكان صريخ البابوية يتردد لدى أمراء أوربا ، بالسعى إلى مكافحة هذا الخطر الداهم ، وكان أوتو الأكبر إمبراطور ألمانيا وأعظم أمراء النصرانية يومئذ ، أشد هؤلاء الأمراء اهتماماً بالقضاء على خطر المستعمرات الإسلامية ، لأنه يدنو من أملاكه ويصيبها بشره . ولهذا رأى أن يبذل فى هذا السبيل سعيه ، لدى عبد الرحمن الناصر عاهل الأندلس وزعيم الإسلام الروحى والزمنى ، وأوفد إليه فى سنة ٩٥٦ م سفارته الشهيرة التى أتينا على ذكرها . وبحث سفيره يوحنا الجورزينى مع الخليفة مسألة اعتداء المستعمرات الإسلامية على الأراضى النصرانية ، والتمس إليه أن يعاون بنصحه ونفوذه على قمع هذا العدوان . ولكن هذا المسعى لم يسفر عن أية نتائج عملية ، إذ اعتذر الخليفة حسبما فصلنا من قبل ، بأن هذه المستعمرات الإسلامية لا تخضع له ولا تأتمر بأوامره ، وأنها تعمل مستقلة بعيدة عن حكومة قرطبة . على أن لوتبراند، وهو مؤرخ كنسى معاصر ، يؤكد أن الخليفة كان يحمى هذه المستعمرات ويمدها بالتشجيع والعون[1] .

— ٤ —

ولم يمض قليل على ذلك حتى أخرج المسلمون من معاقلهم فى آكام سان برنار

---

(١) Reinaud : ibid, p. 193

( فى نحو سنة ٩٦٩ م ) ؛ ولسنا نعرف تفاصيل ذلك الحادث ، ولكن المحقق أن المسلمين أبدوا كعادتهم منتهى البسالة فى الدفاع عن مواقعهم ؛ والظاهر أيضاً أن القديس برنار ( سان برنار ) الذى سميت هذه الآكام باسمه ، كان من أبطال الموقعة التى نشبت وانتهت بجلاء المسلمين ؛

واستمر المسلمون فى دوفينه وپروڤانس ، وكثيراً ما دعوا إلى التدخل بين سادة هذه الأنحاء . ولما غزا الإمبراطور أوتو بلاد اللونبارد ، وأخرج منها ملكها بيرانجيه ، التجأ ولده أدلبرت إلى عرب «فراكسنيه» ، ليعاونوه فى استعادة ملكه ، وكان هذا التحالف بين السادة والمسلمين ، يقوى سيادة الغزاة ويدعمها كلما أذنت بالانهيار . بيد أن هذه السيادة قد أخذت فى الاضمحلال ، مذ فقد العرب معاقلهم فى جبال الألب . وفى سنة ٩٦٥ م أخرج المسلمون من مدينة جرينوبل ومن واديها الخصب (جريزيڤودان) وطوردوا فى تلك النواحى ،وساءت أحوالهم ، وأعلن الإمبراطور أوتو بعد ذلك بعامين أو ثلاثة وهو يومئذ فى إيطاليا ، أنه سيتولى طرد المسلمين من الأراضى النصرانية ، ولكنه توفى دون القيام بمشروعه .

ثم دنت بوادر المعركة الحاسمة : وحدث فى ذلك الحين أن حبراً كبيراً ذائع الصيت ، وهو سان ماييل أسقف دير كلونى من أعمال برجونية ، حج إلى رومة ، ولما عاد من طريق دوفينه أسره المسلمون المرابطون فى الجبال مع جماعة كبيرة من الحجاج ، واشترطوا عليهم فدى فادحة ، فدفعت بعد عناء ، وأطلق سراح سان مييل وزملاؤه ، وأذكى الحادث حماستهم وسخطهم ، وذاعت قصة أسرهم ، وما يعانيه الحجاج من شر المسلمين وعدوانهم . فنهض سيد من سادة تلك الأنحاء يدعى بوبون ، ( أو بيفون ) ، وانتهز فرصة الحماسة العامة وجمع حوله كثيراً من المقاتلة ، وبنى حصناً فى سترون على مقربة من حصن كان يملكه المسلمون ، ولبث يتحين الفرصة لمفاجأة العرب والاستيلاء على حصنهم ، حتى استطاع ذات يوم أن يحمل بعض الحراس على فتح الأبواب ، فتمت الخيانة ، وباغت النصارى المسلمين فى حصنهم ، وقضوا عليهم قتلا وأسراً ( سنة ٩٧٢م ) ؛

وفى الوقت نفسه التف النصارى فى دوفينه حول زعيم يدعى جيوم ، وهاجموا المسلمين فى جميع مراكزهم وقلاعهم ومزقوهم فى كل ناحية ، وبذا انهارت سيادتهم فى دوفينه ، ولم تبق إلا فى پروڤانس ؛ ولما قوى جيوم وكثر جمعه ، بسط نفوذه

على بروفانس وتلقب بألقاب الإمارة ، واعتزم أن يخرج المسلمين نهائياً من تلك الأرض . فدعا السادة لمعاونته ومنهم كونت نيس ، ورأى المسلمون أن العاصفة تنذر باجتياحهم من كل ناحية ، فاستجمعوا كل أهبتهم وقواهم ، ونزلوا من الآكام إلى البسيط فى صفوف متراصة ، ووقعت بينهم وبين النصارى معركة هائلة فى « تورتور » فهزم المسلمون وارتدوا إلى قلاعهم ، ولاسيما «فراكسنيه» التى غدت ملاذهم الأخير ، فطاردهم النصارى أشد مطاردة ، وضيقوا الحصار عليهم ، فحاولوا الفرار تحت جنح الليل إلى الغابات المجاورة ، ولكن النصارى لحقوا بهم وأمعنوا فيهم قتلا وأسراً ، وأبقى على من استسلم وعلى المسالمين الذين كانوا يحترفون الزرع فى الضياع المجاورة ، وفر كثيرون من طريق البحر ، وتنصر كثير منهم ، وبقى نسلهم فى تلك الأرض زمناً طويلا .

وهكذا سقط حصن فراكسنتم أو فراكسنيه سنة ٩٧٥ م ، بعد أن لبث زهاء ثمانين سنة مركزاً قوياً للغزوات العربية فى غاليس ، وقسمت أسلاب العرب وأراضيهم بين السادة والجند ، الذين اشتركوا فى هذه الحرب الصليبية ، وانهارت سلطة العرب فى تلك الأنحاء .

أما المستعمرات الإسلامية التى كانت مبعثرة فى آكام الألب ، فيقال إنها طوردت ومزقت فى نفس الوقت ، واعتنق الذين أسروا النصرانية . ولكن توجد رواية أخرى خلاصتها أن هذه المستعمرات لبثت فى معاقلها نحو جيل آخر حتى تولى مطاردتها زعيم يدعى جيرولدوس . وعلى أى حال فلم تأت أواخر القرن العاشر حتى ذهبت سيادة المسلمين فى غاليس وسويسرة ، ولم يجب أحد فى إفريقية والأندلس صريخ الغوث ، الذى وجهه أولئك المستعمرون البواسل إلى إخوانهم ، لأن الحوادث الداخلية لم تكن تسمح يومئذ ببذل هذا العون .

على أن ذلك لم يكن خاتمة الغزوات الإسلامية فى تلك المياه . ففى سنة ١٠٠٣ م سارت حملة بحرية من مسلمى الأندلس ، ونزلت بجوار أنتيب فى جنوب فرنسا ، واجتاحت الأراضى المجاورة . وفى سنة ١٠١٩ م نزلت حملة مسلمة أخرى فى ظاهر أربونة وحاولت أن تستولى عليها ، ولكنها هزمت ومزقت . وفى سنة ١٠٤٧ م هاجمت حملة أخرى جزيرة ليران الواقعة إلى الغرب من مرسيليا وأسرت عدداً من الرهبان . وظهر فى ذلك الحين زعيم أندلسى جرىء هو مجاهد العامرى

أحد أمراء الطوائف ، وصاحب ثغر دانية والجزائر الشرقية ( جزائر البليار ) ، واهتم بأمر الغزوات البحرية ، فسار فى أسطوله إلى مياه قورسقة وسردانية ، وغزا سردانية واحتل بعض أنحائها (سنة ٤٠٦ هـ — ١٠١٥ م ) ، ولكن النصارى استردوها بعد قليل[١] . ولبث مجاهد العامرى الذى تسميه الرواية النصرانية «موسيتو » أو موجيتوس » مدى حين سيد هذه المياه ، يبث فيها بحملاته الرعب والروع .

تلك هى قصة الغزوات الإسلامية فى غاليس وبلاد اللونبارد وسويسرة ؛ وهى قصة تغفل الرواية الإسلامية كثيراً من أدوارها ووقائعها ، ولكنها تشغل فراغاً كبيراً فى الروايات الكنسية والفرنجية المعاصرة . وهذه الروايات هى عمدتنا فيما ننقل من سير هذه الغزوات الشهيرة . ومن المحقق أنها مشبعة بروح التحامل والخصومة فى كثير من المواطن ، ولكنا نستطيع مع ذلك أن نتبين منها ، أهمية الدور الذى قام به أولئك المجاهدون والمغامرون المسلمون ، فى تلك الوهاد والآكام النائية ، وما كان لهم بين هاتيك الأمم من السيادة والنفوذ مدى عصور .

— ٥ —

والآن فلنحاول أن نستعرض طرفاً من العوامل والظروف التى أحاطت بتلك الغزوات الإسلامية النائية ، وطرفاً من الآثار التى خلفتها فى البلاد والأمم التى كانت ميداناً لها .

ينكر بعض مؤرخى الغرب على تلك الفتوحات والغزوات العربية والإسلامية بوجه عام ، خاصة الاستقرار والإنشاء ، ويقولون إنها كانت فى الغالب حملات ناهبة ، تقوم على رغبة الكسب وتحصيل الغنائم . ولاريب أن ظمأ المغنم وشغف المغامرة ، وما إليها من لذة الاستكشاف والسيادة ، كانت من أهم العوامل التى قامت عليها هذه الغزوات ، وتلك هى العوامل الخالدة التى تقوم عليها فتوحات الأمم منذ أقدم العصور . ولكن من الحق أيضاً أن نقول إن نزعة الجهاد لم تكن بعيدة عن تلك الغزوات ، وإن كثيراً من أولئك المغامرين البواسل ، كانت تحفزهم الحماسة الدينية ، وفكرة الجهاد فى سبيل الله . وقد كانت هذه العصابات الغازية المستعمرة تعمل فى الغالب لحساب نفسها ، ولكنها كانت تعمل ملحوظة بعطف

---

( ١ ) ابن خلدون ؛ المقدمة ص ٢١٢ .

الحكومات والأمم الإسلامية التى تنتمى إليها . وكانت تؤدى إلى تلك الحكومات خدمات جليلة ، بما كانت تقوم به من إزعاج الحكومات والأمم النصرانية ، وإضعاف جيوشها ومواردها . ومن المحقق أيضاً أن نزعة الاستقرار والإنشاء لم تكن بعيدة عن أذهان الغزاة ، بل كان يحفزهم مثل ذلك الروح الاستعمارى القوى الذى دفع الأمم الغربية فى العصر الحديث إلى افتتاح الأمم المتأخرة واستعمارها(١). وقد استقروا بالفعل واستعمروا ، حيث مهدت لهم الكثرة والقوة سبيل البقاء ، كما فعلوا فى إقريطش (كريت) ، حيث استقروا بها بعد افتتاحها زهاء قرن وثلث قرن (٨٢٧ — ٩٦١م) ، ونشروا بها الإسلام والحضارة الإسلامية . وكذلك استقروا مدى حين فى بارى وفى تارنت من ثغور إيطاليا الجنوبية وفى راجوزا (رغوس) من ثغور الأدرياتيك الشرقية ؛ وكان لهم على شواطىء قلورية (جنوبى إيطاليا) مستعمرة زاهرة لبثت تستطع فى هذه المياه عصراً :

ويبالغ المؤرخون الغربيون أيضاً ، فى تصوير الآثار المخربة لتلك الغزوات الإسلامية ، وما كانت تقترن به من ضروب العنف والسفك . ولكن العنف والقسوة والسفك والتخريب ، لم تكن خاصة بالغزوات الإسلامية ، وإنما كانت من خواص العصر ذاته ، ولم تكن الغزوات النصرانية للأراضى الإسلامية أقل عنفاً وسفكاً . ويكفى أن نشير هنا إلى الحملات الصليبية التى لبثت مدى عصور تحمل إلى الأمم الإسلامية أروع صنوف الدمار والسفك ، بل يكفى أن نشير إلى ما كانت ترتكبه البعوث الإستعمارية الحديثة ، الإسبانية والإنجليزية والفرنسية ، فى الدنيا الجديدة من صنوف القسوة والسفك ، وما ترتكبه اليوم بعض الأمم الأوربية « المتمدنة » من الجرائم المروعة فى إفريقية وآسيا باسم المدنية والاستعمار .

* * *

والآن لنر ماذا خلفته الغزوات الإسلامية فى هذه الأنحاء من الآثار المادية والاجتماعية . ومن المحقق أن هذه الآثار لاتكاد ترى اليوم ، ولايشعر بها إلا الباحث المنقب . ويلاحظ أولا أن الفتوحات العربية الأولى فى غاليس وأكوتين لم يطل أمدها أكثر من نصف قرن ، ولم تكن الحضارة الإسلامية فى اسبانيا قد تكونت وتفتحت بعد . ثم كانت الغزوات اللاحقة التى فصلنا أخبارها ، والتى كانت

(١) Finlay : Byzantine Empire, Ch. III—I

أقرب إلى المغامرة المؤقتة ، منها إلى الفتوح المستقرة ، فلم تتح للغزاة فرص الإستقرار والعمل السلمى ، لأنهم كانوا فى مراكزهم النائية متفرقين ، يشتغلون قبل كل شىء بالدفاع عن مراكزهم وأنفسهم . بيد أن هذه الغزوات المحلية المتقطعة وهذه المستعمرات الإسلامية النائية ، خلفت وراءها فى الأراضى المفتوحة بعض الآثار المادية والمعنوية . ومن ذلك ما كشفته المباحث الأثرية منذ القرن الماضى على شواطىء خليج سان تروپيه من أطلال الحصون العربية القديمة التى كانت قائمة فى تلك الأرض ، والتى ما تزال قائمة فى بعض آكام الألب الفرنسية والسويسرية ، وهى تدل على ما كان للغزاة من الحذق والبراعة فى فن التحصينات والمنشآت الحربية . وهناك فى جنوب فرنسا وفى بعض أنحاء إيطاليا الشمالية والجنوبية ، عدد كبير من الأبراج القائمة فوق الآكام والربى ، يدل ظاهرها على أنها كانت تستعمل لأغراض حربية . ويرى البعض أن هذه الأبراج هى آثار عربية من مخلفات الغزاة كانت تبنى لعقد حلقات الاتصال ، وتسهيل حركات الدفاع فيما بينهم : ومن المعروف أن العرب منذ فتوحاتهم الأولى فى سبتمانيا أعنى منذ أوائل القرن الثامن ، كانوا ينشئون فى الأراضى المفتوحة حصوناً وأبراجاً تسمى «بالرباط» : بيد أن فريقاً آخر من الباحثين يرى بالعكس أن هذه الأبراج إنما كانت من إنشاء أبناء الأرض المفتوحة ، أقاموها أيام اشتداد خطر الغزوات العربية ، ليستعينوا بها على رد الغزاة .

وقد ظفرت المباحث الأثرية أيضاً بالعثور على كثير من القطع الذهبية والفضية (المداليات) فى أنحاء كثيرة من لانجدوك وپروڤانس ، وثبت أنها من مخلفات العرب والمسلمين ، وأنها كانت تستعمل للتعامل مكان النقود ، ولكنها لا تحمل اسما ولا تاريخاً ولا يمكن تعيين عهد سكها ، وإن كانت بذلك تدل على أنها ترجع إلى عصر الغزوات الأولى . ووجدت أيضاً فى العهد الأخير فى منطقة تورا سيوف ودروع قيل إنها عربية ، من مخلفات الموقعة الشهيرة التى نشبت فى تلك السهول بين العرب والفرنج فى سنة ٧٣٢ م ( موقعة بلاط الشهداء ) .

ومن الحقائق التى لاشك فيها أثر المسلمين فى الزراعة ؛ فقد رأينا أن كثيراً من الغزاة تخلفوا عن إخوانهم ، واستقروا فى تلك الأرض وزرعوها ، ومن المعروف أن العرب حولوا وديان اسبانيا المجدبة ، إلى حدائق وغياض زاهرة ، ونقلوا

إليها مختلف الغراس من المشرق ، وأنشأوا بها القناطر العظيمة . وقد حمل هؤلاء الغزاة المغامرون إلى جنوب فرنسا كثيراً من خبرتهم الزراعية ، ولقنوها لسكان تلك الأنحاء . ويقال إن « القمح الأسمر » الذى هو الآن من أهم محاصيل فرنسا إنما هو من مخلفات العرب ، وهم الذين حملوا بذوره ، وكانوا أول من زرعه بفرنسا ؛ والمرجح أيضاً أنهم هم الذين حملوا فسائل النخيل من اسبانيا وإفريقية إلى شواطىء الريڤييرا . ومن آثارهم الصناعية ، استخراج «القطران» الذى تطلى به قاع السفن ويحميها من العطب ، فهم الذين علموه لأهل بروڤانس ، وما زال عندهم من الصناعات الذائعة ، وما زال اسمه الفرنسى Quitran ينم عن أصله العربى .

ومن الحقائق الثابتة أيضاً ، فضل العرب فى تحسين نسل الخيول فى تلك الأنحاء ، وما يزال فى جنوب فرنسا جهات تشتهر بجمال خيولها ونبل أرومتها ، ولا سيما فى «كاماراج» فى مقاطعة « لاند » من أعمال غسقونية ، ومن المحقق أن هذه الخيول الأصيلة الجميلة ، إنما هى من سلالة الخيول العربية ، التى أحضرها الفرسان المسلمون معهم إلى تلك الأنحاء .

ولا ننسى ما للدم العربى من أثر فى بعض أنحاء جنوب فرنسا . فقد رأينا أن المسلمين أنشأوا بعض المستعمرات الزراعية ، وتزوجوا من نساء تلك الأراضى وتناسلوا فيها . ولما تغلب عليهم النصارى وأخرجوا نهائياً من تلك الأراضى تنصر كثير منهم ممن أسروا ، وأرغموا على افتداء حياتهم وأسرهم بالتنصر ، وقد لبث أبناء أولئك المسلمين المتنصرين عصوراً فى تلك البلاد ، يشتغلون بالزراعة والتجارة حتى جرفهم تيار التطور واندمجوا فى المجتمع النصرانى ، واختفت كل آثارهم وخواصهم العربية والإسلامية .

هذا ، وأما عن الآثار الاجتماعية ، فانه يلاحظ فى بعض جهات پروڤانس التى استقر فيها المسلمون مدى حين ، أن لسكانها بعض التقاليد الخاصة ، ومن ذلك أنواع معينة من الرقص يظن أنها ترجع إلى أصل عربى . على أن أعظم آثار العرب الاجتماعية فى جنوب فرنسا ، يبدو فى تطور الحركة الفكرية فى العصور الوسطى ، فقد كان للعرب أثر عظيم فى تكوين النزعة الشعرية فى الجنوب ، وظهر أثر هذه النزعة واضحاً فى الحركة الأدبية التى تعرف بحركة «التروبادور» Troubadour التى ظهرت فى جنوبى فرنسا ، وفى شمال إسبانيا وشمال إيطاليا ، منذ القرن الحادى عشر

الميلادى ، وقوامها القريض الحربى والغنائى ، وزعماؤها فرسان شعراء وفنانون . أضف إلى ذلك أن تأثير الحضارة الإسلامية فى سير الحضارة الأوربية ، لم يقف عند هذا العصر ولا عند هذه الحدود ، فقد استمرت العلائق بعد ذلك طويلا بين مسلمى الأندلس والأمم النصرانية المجاورة ، وكان للحضارة الأندلسية فى تطورها العقلى والاجتماعى أعظم الآثار .

وقد لبثت ذكرى العرب وذكرى الغزوات العربية فى فرنسا ، تثير مدى القرن الثامن فى نفوس النصارى أعظم ضروب السخط والروع ، وتقدمها الرواية الكنسية المعاصرة فى أشنع الصور ؛ فلما ظهرت عصابات النورمان والمجر وغزت فرنسا من الشرق والغرب ، رأى النصارى من عيثهم وسفكهم أهوالا لا تذكر بجانبها أهوال الغزوات الإسلامية ، وارتفعت ذكرى العرب وأضحت تقترن بكل ما هو عظيم ضخم[١] ، وفى ذلك يقول المستشرق رينو : « إن ذكرى الغزوات النورمانية والمجرية لا توجد إلا فى الكتب . ولكن ما السر فى أن ذكرى العرب ما زالت ماثلة فى جميع الأذهان . لقد ظهر العرب فى فرنسا قبل النورمان والمجر ، واستطالت إقامتهم بعد الغزوات النورمانية والمجرية ، وإن غزوات العرب الأولى ليطبعها طابع من العظمة ، حتى أننا لا نستطيع أن نتلو أخبارها دون تأثر . ذلك لأن العرب[٢] دون النورمانيين والمجر ، ساروا مدى آماد فى طليعة الحضارة ، ثم إنهم لبثوا بعد أن غادروا أرضنا موضع الروع فى شواطئنا ، وأخيراً لأن المعارك التى اضطلعوا بها أيام الصليبيين فى اسبانيا وإفريقية وآسيا ، أسبغت على اسمهم بهاء جديداً ، بيد أن هذه العوامل كلها قد لا تكفى لتعليل المكانة العظيمة التى يتبوأها الاسم العربى فى أوربا وفى أذهان المجتمع الأوربى . أما السبب الحقيقى لهذه الظاهرة المدهشة ، فهو الأثر الذى بثه قصص الفروسية فى العصور الوسطى ، وهو أثر لا يزال ملموساً إلى يومنا »[٣] .

---

(١) Reinaud : ibid , p. 310

(٢) يلاحظ أن كلمة « العرب » هنا يجب أن تفهم بأوسع معانيها ، فالمقصود بها هنا « الغزاة المسلمون » . ومنذ أواخر القرن الثامن الميلادى تغيض الصبغة العربية عن هذه الفتوحات ، وتغدو فتوحات إسلامية ، ينضوى تحت لوائها العرب وغيرهم من أبناء المجتمعات الإسلامية ، التى قامت فى إفريقية واسبانيا .

(٣) Reinaud : ibid; p. 311 — 312 . وقد اعتمدنا على مؤلف هذا العلامة فى كثير من هذه الملاحظات الخاصة بآثار العرب ( المسلمين ) فى جنوب فرنسا .

# الكتاب الثانى

# الدولة الأموية فى الأندلس

## القسم الرابع

# ربيع الخلافة الأندلسية

٣٥٠ – ٣٧٠ هـ : ٩٦١ – ٩٨٠ م

# الفصل الأول

## الحكم المستنصر بالله

خلافة الحكم المستنصر . تنظيم البيعة له . عنايته بتوسيع المسجد الجامع . تحرك أمير قشتالة . وفود أردونيو الرابع على الحكم . وصف لحفل استقباله . سفارة سانشو . وفاة أردونيو . تحالف الملوك النصارى ، خروج الحكم إلى الغزو . استيلاء المسلمين على شنت إشتيبن . إفتتاح قلهرة . استرداد حصن غرماج . عناية الحكم بتعزيز الأسطول . ظهور النورمان فى المياه الغربية . مقاومة المسلمين وارتداد النورمان . عود النورمان إلى المياه الغربية ثم انسحابهم . قرطبة تغدو مركز التوجيه فى شبه الجزيرة . وفود الملوك النصارى وسفاراتهم على قرطبة . حوادث المغرب . انحلال دولة الأدارسة . أميرهم الحسن بن كنون . طاعته للناصر والحكم . مسير بلكين نائب المعز الفاطمى إلى قتال زناتة . ولاء زناتة لبنى أمية . غزو بلكين لأراضيهم . هزيمة زناته . نكث الحسن بن كنون . الحكم يرسل جيوشه إلى المغرب . هزيمة الحسن وفراره . عوده إلى القتال . هزيمة جند الأندلس . الحسن يطلب الصلح . الحكم يرسل كبير قواده غالباً فى جيش ضخم . غالب يطارد الحسن ويرغمه على التسليم . التجاء الحسن إلى قرطبة . وصف لموكب القائد غالب . وصف لصفات الحسن . مغادرته قرطبة إلى مصر . اعتداء صاحب قشتالة على الأراضى الإسلامية . نكبة جعفر ويحيى ابنى على بن حمدون . اصطناع الحكم للبربر . مولد ولى العهد هشام . الحكم العالم . شغفه باقتناء الكتب . المكتبة الأموية الكبرى ودور الحكم فى إنشائها . ذيوع الشغف باقتناء الكتب . جامعة قرطبة . تشجيع الحكم للعلماء . تقدير النقد الحديث لهذه النزعة العلمية . المكتبات العامة بالأندلس . أخذ البيعة لولى العهد الطفل . تعليق ابن حيان على ذلك . وفاة الحكم . ورعه وخلاله . الحاجب جعفر بن عثمان المصحفى . هديته إلى الحكم . القائد غالب الناصرى . الحكم الشاعر . أبهة بلاط قرطبة فى عهد الحكم . تكوين المجتمع الأندلسى فى هذا العصر . الأرستقراطية الأندلسية . المولدون . طبقة الرقيق. النصارى المعاهدون . اليهود . نفوذهم وازدهارهم العلمى.

طويت بوفاة عبد الرحمن الناصر ، ألمع صفحة فى تاريخ اسبانيا المسلمة ، وتاريخ الخلافة الأندلسية .

استقرت الخلافة الأندلسية فى عهد الناصر ، على أسس ثابتة ، وسحقت ثورة المولدين والعرب ، بعد أن كادت تقضى على ملك بنى أمية ، وعلى صرح الدولة الأندلسية كلها ، وورد النصارى الإسبان إلى عقر دارهم ، فسكنوا وجلين منتظرين ، وتمتعت الأندلس بعهد من السلم والاستقرار والرخاء ، لم تعرفه من قبل ، ووصلت رقعة الوطن الأندلسى إلى أعظم ما وصلت إليه ، إذا استثنينا عهد الفتح الأول . وهكذا كان عصر الناصر بالنسبة للأندلس ، ذروة عصورها ، قوة وعظمة ومجداً .

وخلف الناصر أكبر ولده الحكم المستنصر بالله بعهد منه ، وكان الناصر قد آثره منذ حداثته على سائر إخوته وولاه عهده[1]. وقيل إنه أخذ له بيعة العهد وهو طفل لم يجاوز الثامنة . وبويع الحكم فى اليوم التالى لوفاة أبيه ، فى الثالث من رمضان سنة ٣٥٠هـ (١٦ أكتوبر ٩٦١م) ، وكان الحكم يومئذ فى نحو الثامنة والأربعين من عمره ، إذ كان مولده حسبما تقدم بقرطبة فى ٢٤ من جمادى الأولى وقيل فى غرة رجب سنة ٣٠٢ هـ ( ٩١٥ م )[2] وأمه أم ولد تدعى مرجان . وأخذت البيعة للخليفة الجديد فى قصر الزهراء . وجلس الحكم على سرير الملك فى البهو الأوسط الذهبى ، واجتمع إخوته ، وسائر الوزراء ورجال الدولة ، وأكابر الفتيان الصقالبة ، ومن دونهم من رجال الخاص ، وأهل الخدمة ، وأكابر الجند ، انتظموا جميعاً وفق مراتبهم فى المجلسين الشرقى والغربى ، وفى مختلف الأروقة ، وانتظم الحرس وفرسان الحشم وطبقات الجند ، فيما وراء باب السدة ، صفوفاً متصلة حتى باب المدينة . ولما تمت البيعة ، أذن للناس فى الانصراف ، إلا الإخوة والوزراء ورجال الخاصة ، فإنهم لبثوا بالقصر ، حتى احتمل جسد الخليفة الذاهب ( الناصر ) إلى قصر قرطبة ليدفن هنالك فى مقبرة القصر[3] .

ولم يكن الحكم حين ولايته ، محدثاً فى شئون الملك ، بل لقد مارسها فى حياة أبيه ، وكثيراً ما ندبه أبوه لمباشرة المهام والشئون الخطيرة ، فكان عند جلوسه أميراً مكتمل النضج والخبرة .

واستهل الحكم عهده بالنظر فى توسيع المسجد الجامع ، وأصدر بذلك مرسومه فى اليوم التالى لجلوسه . وكان المسجد الجامع قد ضاقت جنباته بجموع المصلين ، فتقرر توسيعه من الناحية الشرقية على طول الجامع من الجنوب إلى الشمال حتى صحنه . وبلغت الزيادة نحو مساحة الجامع ، فتضاعف بذلك حجمه . وابتنى الحكم محرابه الثالث ، واستغرق بناؤه أربعة أعوام ، وعملت له قبة فخمة زخرفت

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٤٤ ، وأعمال الأعلام لابن الخطيب ( المطبوع ببيروت سنة ١٩٥٦ ) ص ٤١ .

(٢) الإحاطة فى أخبار غرناطة لابن الخطيب ( القاهرة سنة ١٩٥٦ ) ج ١ ص ٤٨٧ ، والحلة السيراء لابن الأبار ص ١٠٢ . وراجع ص ٣٧٨ من هذا الكتاب .

(٣) نفح الطيب ج ١ ص ١٨١ .

بالفسيفساء البديعة . وأرسل قيصر قسطنطينية رومانوس الثانى إلى الحكم منها قدراً كبيراً ، كما أرسل إليه أستاذاً خبيراً بأعمال الفسيفساء . وأنشأ الحكم أيضاً مقصورة جديدة لها قبة على الطراز البيزنطى . وابتنى إلى جانب المسجد داراً للصدقة ، وأخرى للوعاظ وعمال المسجد . وتشغل زيادة الحكم فى الجامع اليوم قسمه الأوسط ، الواقع بين الجناح القديم ، الذى أنشأه عبد الرحمن الداخل وزاد فيه عبد الرحمن الأوسط — والجناح الذى أنشأه الحاجب المنصور ، وهو يشغل نحو ثلث المسجد من الناحية الشرقية[1] .

ولم يمض سوى قليل ، حتى بدت من الأمراء النصارى نزعة إلى العدوان . وكان الناصر قبيل وفاته قد عاون سانشو الأول (شانجُه) ملك ليون ابن أردونيو الثالث بالمال والجند على استرداد عرشه ، وفر ابن عمه ومنافسه أردونيو الرابع مهزوماً إلى برغش (سنة ٩٦٠ م) ، واشترط الخليفة ثمناً لهذا العون ، أن يهدم النصارى بعض حصون الحدود ، وأن يسلموا عدداً آخر منها إلى المسلمين . فلما توفى الناصر بعد ذلك بقليل ، نكث سانشو بالعهد ، وأبى تنفيذ ما وعد . ومن جهة أخرى فقد ظهر عامل جديد فى عدوان النصارى . وذلك أن قشتالة ، وقد كانت يومئذ ولاية من ولايات ليون ، كانت تنزع إلى الاستقلال ، وكان زعيمها الكونت (القومس) فرنان كونثالث[2] رجلا مقداماً يلتف حوله مواطنوه ، فثار على سانشو ، وأعلن استقلال قشتالة ، ونصب نفسه أميراً عليها ، وأخذ يغير على أراضى المسلمين المجاورة ، وهى مما يلى غرب الثغر الأعلى ، وشمال الثغر الأوسط ، وانضم إليه كثير من النصارى المتعصبين . فنما بذلك جيشه واشتد بأسه . وكان الكونت يطمح إلى توسيع أملاكه ، ويعتمد على مناعة قلاعه الواقعة على الحدود . وقد أغضى الحكم فى البداية عن هذا العدوان مؤثراً الاعتصام بالسلم ، ولكنه لما رأى تمادى النصارى فى بغيهم ، أخذ فى التأهب للحرب ، وأنفذ الكتب إلى سائر الولاة والقواد ، بوجوب الأهبة والاستعداد للجهاد فى سبيل الله .

وكان أردونيو الرابع الملك المخلوع ، قد لجأ إلى الحكم ليعاونه على استرداد

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٤٩ ، وأعمال الأعلام ص ٤٨ .

(٢) ويسميه ابن خلدون « فردلند القومس » (ج ٤ ص ١٤٤) وفى مكان آخر فرلند بن غند شلب (ج ٤ ص ١٨٠) وورد اسمه فى أعمال الأعلام « فران غنصالص » وهو أكثر مطابقة للاسم القشتالى (ص ٣٧٥) .

عرشه . وتفيض الرواية الإسلامية فى وصف مقدمه على قرطبة ، ومثوله بين يدى الخليفة ، فتقول لنا إن أردونيو وفد على قرطبة فى عشرين رجلا من وجوه أصحابه ، ومعهم غالب الناصرى مولى الحكم وصاحب مدينة سالم ، وذلك فى آخر صفر سنة ٣٥١هـ ( ٣٠ مارس ٩٦٢م ) . وتلقاهم الوزير هشام المصحفى فى قوات كثيفة من الجند . فلما دخلوا قصر قرطبة ، ووصل أردونيو إلى ما بين باب السُّدة وباب الجنان ، سأل عن مكان مدفن الناصر ، فأشير إليه فى الروضة بداخل القصر ، فسار إليه وخلع قلنسوته وانحنى أمامه خاشعاً . وأنزل أردونيو وصحبه فى دار الناعورة الفخمة ، وبولغ فى إكرامهم . وبعد يومين استدعاهم الحكم إلى قصر الزهراء ، وقد حشدت قوات عظيمة من الجند ، وبولغ فى الاحتفال بالزينات ، وإظهار الأسلحة والعُدَد . وجلس الحكم فوق سرير الملك فى المجلس الشرقى ، ومن حوله الإخوة والوزراء والأكابر ، وجىء بأردونيو وأصحابه ، ومعهم جماعة من وجوه نصارى الأندلس . فدخلوا بين الصفوف الفخمة المزركشة وقد بهروا بما رأوا ، وجازوا أبواب القصر المتعاقبة ، وأجلسوا برهة فى بهو الانتظار ، ثم استدعوا للمثول بين يدى الخليفة ، فسار أردونيو ومن ورائه أصحابه ، فلما وصل إلى المجلس الخلافى كشف رأسه وخلع برنسه . ولما دنا من سرير الحكم سجد أمامه ثم قبل يده . ثم ارتد راجعاً إلى كرسى من الديباج المثقل بالذهب . وتولى الترجمة بين أردونيو والخليفة ، وليد بن خيزون قاضى الذمة بقرطبة ، وأعرب الحكم عن سروره وترحيبه بمقدم أردونيو ، ووعده برعايته . وبسط أردونيو قضيته ، وشكا مما أنزله به خصمه سانشو ، مع أن الشعب كان قد آثره باختياره ، ولكن خصمه لجأ إلى الخليفة الراحل واستجار به ، فأغاثه ونصره عليه ، ومع ذلك فقد قصر فى الوفاء بعهوده ، وأنه يضع نفسه وبلاده وشعبه تحت رعاية الخليفة ، وأنه يتعهد بمحالفة الإسلام ، ومقاطعة صهره فردلند القومس أمير قشتالة ، ويقدم ولده غرسيه رهينة بصدق وفائه[1] . وهنا وعده الخليفة بعونه ونصرته فى تمليكه ما كان له . وانصرف أردونيو بعد الشكر والتحية ، وخرج من المجلس ، وقد بهره وأذهله ما رأى من آيات الفخامة والسلطان . وقدم إليه الحاجب جعفر الهدايا التى أمر بها الخليفة له ولأصحابه . وألقى الخطباء والشعراء

---

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٥ .

خطبهم وقصائدهم ، منوهين بروعة هذا اليوم المشهود . فمن ذلك قول عبد الملك ابن سعيد المرادى من قصيدة :

| | |
|---|---|
| ملك الخليفة آية الإقبال | وسعوده موصولة بنوال |
| والمسلمون بعزة ورفعة | والمشركون بذلة وسفال |
| ألقت بأيديها الأعاجم نحوه | متوقعين لصولة الرئبال |
| هذا أميرهم أتاه آخذاً | منه أواصر ذمة وحبال |
| متواضعاً لجلاله متخشعاً | متبرعاً لما يرع بقتال[1] |

فلما نمى إلى سانشو ما وعد به الخليفة خصمه ومنافسه ، خشى عاقبة هذا المسعى ، فبعث إلى الحكم وفداً من الأكابر والأحبار ، يعرض عليه أن يعترف بطاعته ، وأن يقوم بتنفيذ ماتعهد به للناصر من تسليم بعض الحصون الواقعة على الحدود وهدم البعض الآخر[2]. ولكن أردونيو ما لبث أن توفى ، وعاد سانشو إلى نكثه بعد أن أمن شر منافسه . وهنا شعر الأمراء النصارى بخطورة أهبة المسلمين العسكرية ، وأدركوا أن لا بد لهم من الاتحاد جميعاً ، لكى يستطيعوا مواجهتهم . وهكذا عقد التحالف بين سانشو ملك ليون ، وخصمه الكونت فرنان أمير قشتالة ، وغرسية سانشيز ملك نافار ، وكونت برشلونة ، وتأهب الجميع لمدافعة المسلمين .

وفى صيف سنة ٣٥٢ هـ ( ٩٦٣ م) خرج الحكم إلى الغزو ، معلناً الجهاد ، واجتمعت إليه الجيوش فى طليطلة ، فسار مخترقاً جبال وادى الرملة إلى أراضى قشتالة ، وأشرف على قلعة شنت إشتبين المنيعة[3] فحاصرها المسلمون ، واستولوا عليها . وعبثاً حاول الكونت فرنان كونثالث ، أن يقف فى سبيل المسلمين ، واجتاح المسلمون أراضيه ، ومزقوا قواته ، حتى أذعن إلى طلب الصلح ، ولكنه نكث عهده ، فهاجمه المسلمون كرة أخرى ، واستولوا على بلدة أنتيسة الحصينة[4].

(١) أورد لنا المقرى ( عن ابن حيان ) عن هذه الزيارة تفاصيل مسهبة ( راجع نفح الطيب ج ١ ص ١٨١ — ١٨٤ ) . ولخصها ابن خلدون (ج ٤ ص ١٤٥ ) . وكذلك البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥١ .

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٥ .

(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥١ .

(٤) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٤ . وأنتيسة هى **Atienza** .

وأرسل الحكم جيشاً آخر بقيادة يحي بن محمد التجيبى حاكم سرقسطة فى اتجاه ناقار . وكان ملكها غرسية سانشيز ، قد أغار على الأراضى الإسلامية ناكثاً لعهده ، وهرع حليفه سانشو ملك ليون فى قواته لإنجاده ، ونشبت بين الفريقين موقعة هزم فيها النصارى وامتنعوا بالجبال . وفى نفس الوقت سار القائد غالب مولى الحكم فى جيش قوى إلى مدينة قلهرّة ، من قواعد ناقار الغربية ، فافتتحها ، وحصنها وشحنها بالرجال والعدة ، وكان فتحاً عظيماً . وسار حاكم مدينة وشقة فى قواته شمالا نحو أراضى ناقار مما يلى جبال البرنيه ، واستولى على حصن يبه[١] واجتاح تلك المنطقة ، وغنم ما فيها من السلاح والأقوات والماشية[٢]. واستغرقت هذه الفتوح والغزوات العظيمة ، الصائفة فى سنتى ٣٥٢ و ٣٥٣هـ (٩٦٣ — ٩٦٤) .

ويروى لنا ابن خلدون قصة غزوة إسلامية أخرى فى أراضى قشتالة — فيقول لنا إن غالباً سار إلى بلاد ألبة ، ومعه يحي بن محمد التجيبى ، وقاسم بن مطرف بن ذى النون ، فاستولى على حصن غرماج Gormaz . ويضع ابن خلدون تاريخ هذه الغزوة فى سنة ٣٥٤ هـ (٩٦٥ م) . وتقع قاعدة « غرماج » الحصينة على نهر دويرة على مقربة من شنت إشتبين . وكان الناصر قد انتزعها من النصارى فى سنة ٩٤٠ م . والظاهر أن القشتاليين بقيادة فرنان كونثالث ، كانوا قد استولوا عليها فيما استولوا عليه من قواعد الحدود ، قبل أن يخرج الحكم إلى الغزو ، فاستردها المسلمون فى صائفة سنة ٣٥٣ هـ ، أو فى الصائفة التالية ، وقاموا بتحصينها لمدافعة القشتاليين فى هذه المنطقة[٣] .

وتشير الرواية الإسلامية فوق ذلك إلى غزوات ناجحة أخرى ، قام بها المسلمون فى أراضى قشتالة فى سنتى ٣٥٥ و ٣٥٦ هـ ، بيد أنها لا تقدم إلينا شيئاً عن تفاصيل تلك الغزوات[٤] .

وفى سنة ٣٥٣ هـ وقعت بالعاصمة الخلافية مجاعة عظيمة ، فبذل الحكم للفقراء والمعوزين فى سائر أرباض قرطبة والزهراء ، من النفقة مايكفل أقواتهم ويسد عوزهم.

---

(١) وبالإسبانية Yerba .

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٥ .

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٥ .

(٤) راجع البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥٥ .

وكانت حوادث المغرب الأقصى (وسوف نتحدث عنها بعد) ، وما يتهدد الأندلس من جراء مشاريع الفاطميين وأشياعهم فى تلك المنطقة ، مما يشغل حكومة قرطبة ، ويحفزها دائماً إلى اليقظة والتأهب ، وكان من أثر ذلك أن قصد الحكم فى شهر رجب سنة ٣٥٣ إلى ثغر ألمرية (سبتمبر سنة ٩٦٤) فى جماعة كبيرة من الرؤساء والقادة ، ليشرف بنفسه على أعمال التحصين الجارية فيها ، وليتخذ ما يجب لتجديد الأسطول وتعزيزه . وكانت ألمرية أعظم قواعد الأسطول الأندلسى ، وكانت سفنه الراسية بها يومئذ تبلغ ثلاثمائة قطعة[1] .

بيد أنه لم يمض قليل ، حتى جاء الخطر يتهدد الأندلس من ناحية أخرى : ففى أواخر سنة ٣٥٥ هـ[2] (أواخر سنة ٩٦٧ م) ظهرت سفن النورمان أو المجوس فى مياه الشاطىء الغربى قبالة ولاية الغرب .

وكان النورمان قد ظهروا فى مياه الأندلس لأول مرة فى سنة ٢٢٩ هـ (٨٤٣م) أيام عبد الرحمن بن الحكم ، وبدأت حكومة قرطبة تعنى بشأن الأسطول ومضاعفة أهبتها البحرية من ذلك الحين . وكان أولئك الغزاة النورمان فى هذه المرة من أهل دانماركة المجوس ، ويقودهم رتشارد الأول دوق نورماندى ، وحفيد زعيمهم الكبير رولو . وكانت عدة أسطولهم ثمانية وعشرين مركباً . ونزل الغزاة على مقربة من بلدة قصر أبى دانس[3] ، وعاثوا فى تلك المنطقة ، ثم زحفوا شمالا إلى بسائط أشبونة الغنية اليانعة ، وعاثوا فيها تخريباً ونهباً ، واجتمع المسلمون فى تلك المنطقة لقتالهم . ونشبت بينهم وبين الغزاة موقعة دامية قتل فيها كثير من الفريقين . وفى تلك الأثناء خرج أسطول إشبيلية من نهر الوادى الكبير بقيادة أمير البحر عبد الرحمن بن رماحس ، وسار على عجل إلى شاطىء البرتغال الجنوبى ، وكان الغزاة قد انحدروا عندئذ جنوباً ثم شرقاً بمحاذاة الشاطىء ، ووقع اللقاء بين سفنهم وبين سفن المسلمين عند مصب نهر شِلْب . فحطم المسلمون عدة من سفن الغزاة ، وأنقذوا من كان بها من أسرى المسلمين ، وقتل كثير من النورمان ، وارتدوا منهزمين عن تلك المياه ، بيد أن سفنهم لبثت تجوس خلال المياه الغربية ، والمسلمون لهم بالمرصاد أينما ظهروا . وأمر الحكم زيادة فى التحوط أن تحشد بعض

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥٢ ، والإحاطة (١٩٥٦) ج ١ ص ٤٨٦ .

(٢) ويذكر ابن خلدون أنها كانت سنة ٣٥٤ هـ (ج ٤ ص ١٤٥) .

(٣) وهى بالإفرنجية Alcacer do Sal ، وهى ثغر برتغالى صغير يقع جنوب شرقى اشبونة .

سفن الأسطول الصغرى فى نهر الوادى الكبير تجاه قرطبة ، وترتيبها على هيئة مراكب النورمان[١] ، وذلك خشية أن يتسرب الغزاة بطريق النهر إلى العاصمة ، كما فعلوا حينما هاجموا إشبيلية فى غزوتهم الأولى .

ولم تمض بضعة أعوام على ذلك ، حتى عادت مراكب النورمان تجوس خلال المياه الغربية (٣٦٠ هـ — ٩٧١ م) مرة أخرى ، وتهدد شواطىء ولاية الغرب الغنية .

ويقدم إلينا ابن حيان عن هذه الغزوة الثانية للنورمان لشواطىء الأندلس بعض تفاصيل ملخصها أن الحكم عهد إلى أمير البحر عبد الرحمن بن رماحس بتسيير الأسطول من ألمرية وإشبيلية ، واجتماع قوى الأندلس البحرية كلها لمواجهة الغزاة ، كما عهد إلى الوزير القائد غالب بن عبد الرحمن بأن يشرف على القوات البرية والبحرية التى أعدت لمدافعة أولئك الغزاة ، وأمر صاحب الخيل والحشم زياد بن أفلح بإخراج السلاح والعدة ، وحشد قوة مختارة من الجند .

بيد أنه لم تقع فيما يبدو ، أية معارك هامة بين المسلمين والغزاة ، ولم يحدثنا ابن حيان عن وقوع مثل هذه المعارك . والظاهر أنهم ارتدوا من تلقاء أنفسهم لما رأوا من تفوق قوى المسلمين[٢] .

وفى خلال ذلك كانت قرطبة تغدو شيئاً فشيئاً ، مركز التوجيه فى شبه الجزيرة الإسبانية كلها ، وتغدو كعبة لملوك اسبانيا النصرانية ، يفدون إليها تباعاً ، يقدمون إليها عهود الطاعة ، ويلتمسون منها الصداقة والعون . وقد بدأ تقاطر هذه الوفود والسفارات من سنة ٣٥٥ هـ (٩٦٦ م) واستمر عدة أعوام . ويجدر بنا قبل التحدث عنها ، أن نشير إلى ما وقع من تغييرات فى الإمارات والممالك النصرانية . فقد توفى سانشو ملك ليون مسموماً فى سنة ٩٦٦ م . وخلفه ولده الطفل راميرو الثالث ، تحت وصاية عمته الراهبة إلبيرة ، وكان من أثر ذلك أن وقع التفكك فى مملكة ليون ، وأعلن عدة من الزعماء المحليين استقلالهم . وتوفى الكونت

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥٥ .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥٧ . وابن حيان فى المقتبس – مخطوط أكاديمية التاريخ بمدريد ( مجموعة كوديرا ) المنشور بتحقيق الأستاذ عبد الرحمن على الحجى ( بيروت ١٩٦٥ ) ص ٢٣ — ٢٦ وبه بيانات وتفاصيل هامة عن حوادث الأعوام الخمسة من سنة ٣٦٠ إلى سنة ٣٦٤هـ . وسوف نرجع إليه بكثرة فيما يتعلق بأحداث هذه الأعوام وأحوالها .

فرنان كونثالث أمير قشتالة فى سنة ٩٧٠ م ، وخلفه ولده غرسيه فرنانذ . وتولى عرش نافار سانشو غرسية الثانى ، بعد وفاة أبيه غرسية سانشيز .

وكان أول الوافدين على قرطبة من أمراء النصارى أمير جليقية ، وأمير أشتوريش ، (الأستورياس) . ثم وفدت رسل سانشو غرسية ملك نافار ، وهم جماعة من القوامس والأساقفة يسألون الصلح ، فأجابهم الحكم إلى ما طلبوا .

ووفدت فى شعبان سنة ٣٦٠ هـ ( يونيه ٩٧١ م ) سفارة من أمير برشلونة الكونت بوريل ابن شونير Saunier على رأسها مبعوثه القومس بون فلى لتجديد المودة والصداقة ، ومعهم ثلاثون أسيراً من المسلمين الذين كانوا محجوزين بالإمارة ، تقرباً من الخليفة . فاستقبلهم الحكم بالمجلس الشرقى من قصر الزهراء مرتين ، الأولى فى الرابع من رمضان سنة ٣٦٠ هـ ، والثانية فى الثانى من شوال ، واستمع إلى رسالتهم بالقبول والرضى ، وصرفهم بجزيل الصلات وفاخر الكسى[١]. وفى السادس من ذى الحجة سنة ٣٦٠ هـ ( أكتوبر ٩٧١ م ) وفدت الراهبة إلبيرة عمة ملك ليون راميرو الثالث والوصية عليه — ويسميها ابن حيان حلوبرة وأحياناً حلورية[٢]— ، فقوبلت فى قرطبة بمظاهر الترحاب والتكريم ، واحتفل الحكم باستقبالها بقصر الزهراء فى يوم مشهود ، وعقد السلم للملك ليون تحقيقاً لرغبتها ، وأغدق عليها الهدايا والصلات « وحملت على بغلة فارهة بسرج ولجام مثلقين بالذهب وملحفة ديباج »[٣]. ومما هو جدير بالذكر أنه قام بالترجمة يومئذ بين الخليفة الحكم ، وبين سفراء أولئك الأمراء والملوك النصارى ، قاضى النصارى وأسقفهم بقرطبة ، عيسى بن منصور ، وقومس أهل الذمة ، معاوية بن لب ، ومطران إشبيلية عبيد الله بن قاسم . وكانت لغة النصارى

---

( ١ ) ابن حيان فى المقتبس — قطعة أكاديمية التاريخ السالفة الذكر ص ٢١ و ٣٢ .

( ٢ ) راجع ابن حيان فى المقتبس — القطعة السالفة الذكر ص ٦٣ و ١٤٦ و ٢٣٥ و ٢٤١ . ويلاحظ أن ابن حيان لم يتحدث عن قدومها بنفسها إلى قرطبة وإنما يتحدث عن قدوم رسل من قبلها . بيد أننا أخذنا هنا برواية ابن خلدون بالرغم من كونها تنصرف إلى اسم سيده نصرانية أخرى . والرواية الإسبانية تؤيد هذا التفصيل .

( ٣ ) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٦ . وراجع المقتبس لابن حيان ( قطعة أكاديمية التاريخ السالفة الذكر ) ص ٦٤ .

الإسبان يومئذ هى اللغة الرومانية (الرومانثى) Romance أو « اللاتينية » ، وهى التى تطورت فيما بعد إلى اللغة القشتالية[١] .

ووفدت سفارات أخرى من غرسية فرناندز أمير قشتالة ، وفرنان لينيزكونت شلمنقة وغيرهما . وفى سنة ٩٧٣ م ( ٣٦٢ هـ ) وفدت سفارة جديدة من سانشو غرسية ملك نافار ، ومن الراهبة إلبيرة الوصية على ملك ليون . وكان جل هذه الزيارات والسفارات من أمراء اسبانيا النصرانية ، يقصد إلى عقد السلم والمودة مع خليفة الأندلس ، وأحياناً إلى تقديم الطاعة وطلب العون .

هذا وقد وردت إلى الخليفة رسالة ودية من يوحنا زيمسكى (الدمستق) قيصر قسطنطينية على يد رسوله قسطنطين الملىّ ، وذلك فى جمادى الأولى سنة ٣٦١ هـ ( ٩٧٢ م )[٢] ، ورسالة أخرى فى أواخر سنة ٣٦٣ هـ ( ٩٧٤ م ) من إمبراطور ألمانيا أوتو الثانى الذى خلف أباه أوتو الأول ، وفيها يجدد علائق المودة التى كانت بين أبيه وبين الناصر . ووردت فى نفس العام سفارة جديدة من الكونت بوريل أمير برشلونة يطلب تجديد المودة والصداقة .

ويعلق العلامة المؤرخ الأستاذ پيدال على ذلك بقوله : « وصلت الخلافة الأندلسية فى ذلك العصر إلى أوج روعتها ، وبسطت سيادتها السلمية على سائر اسبانيا ، وكفلت بذلك السكينة العامة » .

وفى هذا العام ، سنة ٣٦١ هـ ، فى الخامس والعشرين من جمادى الأولى ، أمر الخليفة الحكم صاحب مدينة الزهراء ، محمد بن أفلح ، بمطاردة الشعراء الهجائين والقبض عليهم ، صوناً لأعراض الناس من لاذع ألسنتهم ومقذع هجائهم وكان منهم عيسى بن قرلمان الملقب بالزبراكة ، ومؤنس الكاتب ، وأحمد بن الأسعد ، ويوسف بن هارون البطليوسى وغيرهم . فظفر صاحب المدينة بمعظمهم وأودعهم السجن ، واختفى البطليوسى حيناً ، ولكنه لما شعر بوطأة المطاردة ،

---

( ٢ ) R. M. Pidal : Origenes del Espanol p. 421

( ٣ ) راجع المقتبس قطعة أكاديمية التاريخ ص ٧١ و ٧٢ . وكان يوحنا زيمسكى . وهو كبير الجيش البيزنطى قد ائتمر بعمه القيصر نيقفور الثانى مع زوجه الحسناء ثيوفانو وانتهى بقتله وذلك فى العاشر من ديسمبر سنة ٩٦٩ م ، واعتلى العرش فى الحال مكانه ، وحكم حتى وفاته فى العاشر من يناير سنة ٩٧٩ م .

قدم نفسه لصاحب المدينة ، فزج إلى السجن . ورفع أمره إلى الخليفة ، فرق لمحنتهم ، وأمر بالإفراج عنهم ، فأطلق سراحهم فى أواخر شعبان من هذه السنة[1] وفى هذا الإجراء ما يشهد برفيع خلال الحكم ، ورقة شعوره ، وموفور احتشامه .

* * *

وفى ذلك الحين حدثت بعدوة المغرب ، فى الضفة الأخرى من البحر ، حوادث هامة ، شغلت الحكم ، وكدرت صفو السلام السائد فى مملكته . وقد سبق أن أشرنا إلى غزو الناصر لدين الله لثغر سبتة ، وعبور جيوشه إلى المغرب لمقاومة جهود الفاطميين فى السيطرة عليه ، ومحاربة الأدارسة أمراء المغرب وحلفاء الفاطميين ، ومطاردتهم ، حتى أذعنوا فى النهاية إلى طلب الصلح ، والاعتراف بطاعة الناصر ( سنة ٣٣٢ هـ — ٩٤٣ م ) ، وقيام الدعوة المروانية بالمغرب منذ ذلك الحين .

وكانت دولة الأدارسة ، قد تقلصت فى ذلك الحين ، عن معظم أنحاء المغرب الجنوبية والوسطى ، وارتدت إلى منطقة الريف الشمالية ، ما بين غربى بحر الزقاق والمحيط ، وجعلت قاعدتها بعد انقراض أمرهم فى فاس ، فى قلعة حجر النسر المنيعة ، الواقعة فى جنوبى تطوان . ولم تكن مع ذلك دولة مستقلة بمعنى الكلمة ، إذ كانت تنضوى تحت لواء المتغلب على المغرب ، سواء من العبيديين (الفاطميين) أصحاب إفريقية ، أو الأمويين أصحاب الأندلس . وكان أمير الأدارسة فى أواخر عهد الناصر ، الحسن بن كنّون ( أو قنون ) ، وهو القاسم بن محمد ابن القاسم بن إدريس ، الذى قدر أن تنقضى على يده دولة الأدارسة بالمغرب ، وكان قد بايع العبيديين ، ودعا لهم حينما تغلب جوهر الصقلى على المغرب ، ناكثاً بذلك عهده للناصر . فلما انصرف جوهر إلى إفريقية فى أواخر سنة ٣٤٩ هـ ( ٩٦٠ م ) عاد الحسن إلى طاعته لبنى أمية . ولما توفى الناصر أعلن الحسن طاعته لولده الحكم المستنصر . ولم يكن ذلك سوى مصانعة ورياء ، إذ كان الأدارسة يبغضون بنى أمية ، ويترقبون فرص الخروج عليهم ، ولم تكن طاعتهم لهم إلا خوفاً من بطشهم ، لوقوع مملكتهم فى شمال العدوة على مقربة من الأندلس .

---

( ١ ) راجع المقتبس — قطعة أكاديمية التاريخ المشار إليها — ص ٧٣ — ٧٥ .

وفى أوائل سنة ٣٦١ هـ (٩٧١ م) سار بُلُكّين بن زيرى بن مناد الصنهاجى ، قائد الخليفة الفاطمى المعز لدين الله ، من إفريقية غازياً إلى المغرب ، ليعيد هنالك سلطان الشيعة ، ولينتقم من قبيلة زناته لمقتل أبيه زيرى بن مناد . وكان زيرى عامل الخليفة المعز وقائده على المغرب ، وكانت زناتة من القبائل المغربية القوية المخالفة للشيعة ، والمنضوية تحت لواء الأمويين . وكان من أشد خصوم الشيعة أيضاً ، جعفر ويحيى إبنا على بن حمدون المعروف بالأندلسى[1] ، وكان الأندلسى هذا قد استقر فى «المسيلة» فى المغرب الأوسط ، وبسط حكمه على تلك الناحية ، وخلفه ولده جعفر فى إقطاعه ، ولكنه خشى سطوة الشيعة ، وسطوة عاملهم زيرى ، ففروأخوه يحيى مع الأهل والمال إلى المغرب الأقصى ، ولجأ إلى بنى خزر أمراء زناتة الأقوياء ، وألد خصوم الشيعة وصنهاجة . وكان رسل الحكم يروجون الدعوة فى زناتة وحلفائهم لمحاربة الشيعة ، ويمدونهم بالمال لحشد الرجال والعدة ، فاجتمعت قوات بنى خزر وجعفر ويحيى على قتال زيرى ، ودارت بينهما الحرب فى وادى ملوية عند مشارف المغرب الأقصى ، وانهزم الشيعة ، وقتل زيرى ومعظم رجاله بعد معركة طاحنة . واحتوى الزناتيون على معسكره ، وانهار بذلك سلطان الشيعة فى المغرب ، وكان ذلك فى العاشر من رمضان سنة ٣٦٠ هـ ( يوليه ٩٧١ م ) . واحتز الظافرون رأس زيرى ورؤوس عدة من أكابر صحبه . وحملها جعفر ويحيى وأصحابهما إلى الأندلس ، وقدموها إلى الحكم ، فحظوا لديه وغمرهم بعطفه وصلاته[2].

---

( ١ ) ذكر ابن حيان نقلا عن محمد بن يوسف بن عبد الله الوراق أن جعفراً وأخاه هما من أصل أندلسى ، وهما ابنا على بن حمدون بن سملك بن سعيد بن إبراهيم . وكان منزلهم بالأندلس بكورة البيرة على مقربة من قلعة يحصب . وانتقل جدهما حمدون إلى إفريقية وتزوج من كتامة ، ثم سافر إلى الحج ، وتعرف هناك بأبى عبد الله الشيعى ودخل فى مذهبه . ولما ظهر الشيعى بإفريقية واحتوى على ملك بنى الأغلب حظى لديه ، وحظى أبناؤه لدى الخلفاء الفاطميين ، واستقروا مدى حين حكاماً للمسيلة . ثم اتهم زعيمهم جعفر بالاتصال ببنى خزر ، وتوعده الخليفة المعز بشر النكال ففر وأخوه فى الأهل والمال إلى بنى خزر أمراء زناته ( راجع المقتبس – قطعة أكاديمية التاريخ – ص ٣٣ – ٣٦

( ٢ ) يقدم إلينا ابن حيان تفاصيل ضافية عن استقبال جعفر وأخيه يحيى حين مقدمها إلى الأندلس برؤوس زيرى وأصحابه ، ودخولها قرطبة فى ركب فخم برفقة احب السكة والمواريث وقاضى إشبيلية محمد بن أبى عامر ، ثم استقبال الخليفة لهما ومن معهما من أعيان بنى خزر ، وذلك بالمجلس القبلى من قصر الزهراء ، فى حفل فخم رتبت فيه صفوف الجند وأهل الخدمة بأنواعهم =

وكان لهذه النكبة التى حلت بجيش الشيعة وصنهاجة ، وقع عميق فى الخلافة الفاطمية . فأمر الخليفة المعز قائده يوسف بن زيرى بن مناد ، المسمى بُلُكّين ( بلقين ) أن يسير فى الجيوش إلى المغرب جسيما تقدم . فسار بلكين ، وهو ينزل ضرباته المتوالية بأتباع زناتة حيثما وجدوا فى طريقه ، وكانت منهم جموع غفيرة فى المغرب الأوسط فى بجاية ، والمسيلة ، وبسكرة ، وتاهرت وغيرها ، فمزقهم شر ممزق . ووصل بلكين فى قواته ، إلى المغرب الأقصى ، فى ربيع الثانى سنة ٣٦١ هـ ، واستعد بنو خزر وسائر أمراء زناتة للقائه ، ووقعت الحرب بين الفريقين ، فهزمت زناتة شر هزيمة ، وانتحر أميرها محمد بن الخير بن خزر وذلك بأن اتكأ على سيفه فذبح نفسه ، حتى لا يقع فى يد عدوه ، ومزق بلكين زناتة كل ممزق ، وهدم مدينة البصرة ، وبسط سلطانه على معظم أنحاء المغرب ، وقطع دعوة الأمويين ، وحقق انتقامه لمقتل أبيه كاملا(1) .

وسارع الحسن بن كنون ، القلّب مع كل تطور جديد ، إلى بيعة بلكين ، والانضواء تحت لوائه ، أو بعبارة أخرى ، تحت لواء سادته الشيعة . ولكن بلكين لم يمكث طويلا بالمغرب . إذ سرعان ما استدعاه سيده المعز — وكان يتخذ يومئذ أهبته للسفر إلى مصر ، مقر ملكه الجديد — فارتد عائداً بقواته إلى إفريقية .

ووقف الحكم على تطور الحوادث بالمغرب ، فأزعجه ذلك وأهمه ، وبادر

---

= الزاهية ، وقد رفعت رؤوس القتلى وعددها مائة وفى مقدمتها رأس زيرى على القنوات . وكان دخولهم على الخليفة ، فى أواخر ذى القعدة سنة ٣٦٠ هـ . واستقبلهم الخليفة بالبشر والرضى ، وامتدح موقفهم وانصرافهم عن حزب الشيعة إلى مؤازرة حزبه . وعلى أثر انتهاء المقابلة ، انزلوا فى الدور التى خصصت لهم بقرطبة ، ورتب الخليفة لكل من جعفر وأخيه يحيى نفقة شهرية قدرها ألف دينار ، ورتب لمرافقيهم من بنى خزر ، كل ما يكفيه من النفقة والطعام. يقول ابن حيان بعد أن أورد لنا هذه التفاصيل الشائقة بإسهاب لا مزيد عليه : « فكان يوم جعفر بن على ومن ورد معه من أحد الأيام العظم بقرطبة ، فى اكتمال حسنه وجلالة قدره ، خلد حديثه زمناً فى أهلها ، قاضياً من عجب الجلالة ، وكل شىء فإلى انقضاء ، إلا إله الأرض والسماء ، تعالى جده » ( المقتبس — قطعة أكاديمية التاريخ ص ٤٤ — ٥٣ وص ٥٧ ) .

( ١ ) راجع مجموعة « نبذ تاريخية فى أخبار البربر فى القرون الوسطى » المنتخبه من كتاب « مفاخر البربر » لمؤلف مجهول ، والمنشور بعناية الأستاذ ليڤى بروڤنسال ( الرباط سنة ١٩٣٤ ) ص ٦ — ٨ ، ويرجح الكاتب هذه الموقعة إلى سنة ٣٦٠ هـ . وراجع أيضاً المقتبس — قطعة أكاديمية التاريخ ص ٣٦ و ٣٨ .

باعداد جيش ضخم ، حسن الأهبة ، لغزو المغرب ، ومقاتلة الحسن بن كنون ، تحت إمرة قائده محمد بن القاسم بن طملس ، كما أمر قائد البحر عبد الرحمن بن رماحس بحشد الأسطول . وعبر محمد بن القاسم فى قواته من الجزيرة الخضراء إلى سبتة ، فى شوال سنة ٣٦١هـ ( يوليه ٩٧٢ م ) ، وكان الحسن بن كنون عندئذ فى طنجة ، فخرج فى جموع البربر لقتال جيش الحكم ، فوقعت عليه الهزيمة وقتل كثير من أصحابه ، وفر هارباً تاركاً أمواله وعتاده بطنجة ، واستسلم أهل طنجة إلى محمد بن القاسم ، وأعلنوا طاعتهم للحكم ؛ ودخل محمد طنجة واحتلها ، وبعث إلى الحكم بفتحها . ثم طارد فلول الحسن بن كنون جنوباً حتى ثغر أصيلا ، ودخلها .

وفى تلك الأثناء كان الحسن قد جمع فلوله ، وأعاد تنظيم قواته ، وسار إلى لقاء جيش الحكم مرة أخرى ، فالتقى الجمعان فى مكان يعرف بفحص مهران ؛ وهنا حالف الحسن حسن الطالع ، فدارت الدائرة على جند الأندلس ، وقتل منهم عدة كبيرة فرساناً ومشاة ، وفى مقدمتهم قائدهم محمد بن القاسم ، وبلغ القتلى من الفرسان وفق تقدير الرازى خمسمائة ومن الرجالة ألفاً ، وكان ذلك فى الثالث والعشرين من ربيع الأول سنة ٣٦٢ هـ ، وفرت فلول الأندلسيين إلى سبتة فامتنعوا بها ، وبعثوا إلى الحكم يطلبون الإنجاد والغوث [١].

وأراد الحسن فى نفس الوقت أن يستغل نصره بطلب الصلح ، وتقديم الطاعة وتبادل الرهائن ، وبعث أمير البحر عبد الرحمن بن رماحس بذلك إلى الحكم ، فكتب الحكم إليه ومن معه من القادة يوصيهم بالاستمرار فى مجاهدة الملحد ، ومجاهدة من معه ، حتى يفتح الله عز وجل فيه وفيهم . وكان مما قاله فى كتابه : « أن أفضل ما احتمل عليه ، وعمل به ، استشعار الحزم ، وادراع التحفظ ، واستنصاح الاتهام ، وإذكاء العيون ، وبث الجواسيس ، والاستكثار منهم ، ومن حملة الأخبار حتى لا يخفى لحسن — أهلكه الله — حركة ، ولا يتوارى له مذهب » .

ومما كتبه الحكم إلى عبد الرحمن بن يوسف بن أرمطيل قائد ثغر أصيلا ،

---

( ١ ) راجع مجموعة « نبذ تاريخية فى أخبار البربر » التى سبق ذكرها ص ٨ . وابن حيان فى المقتبس — قطعة أكاديمية التاريخ ص ٩٦ .

رداً على ما أبداه الحسن من رغبة فى الإنابة والصلح : « وكيف يذهب الآن هذا المذهب وهو فى طغيانه مستمر ، وفى دينه مستبصر ، ولكم فى كل أيامه محارب ، هذا هو الضلال ، والمحال عين المحال ، وسبب الخبال ، وقد رأى أمير المؤمنين تأمين جميع الناس لديه غيره ، وغير من أصر إصراره ، وتمادى تماديه ، إلى أن يحكم الله عليه ، ويفتح فيه »[١] .

وبادر الحكم فى نفس الوقت بحشد جيش جديد ، ندب لقيادته مولاه ووزيره وكبير قواده غالباً بن عبد الرحمن « البعيد الصيت المعروف بالشهامة » . وأمده عدا الجند الكثيف ، والعتاد الضخم ، بأموال جليلة لاستمالة القبائل ، وأمره أن يشتد فى قتال الأدارسة ، وأن يستأصل شأفتهم ، وأن يطهر المغرب من كل القوى المناوئة لبنى أمية . وقال له : « سر ياغالب مسير من لا إذن له فى الرجوع إلا حياً منصوراً ، أو ميتاً معذوراً ، وابسط يدك فى الإنفاق ، فان أردت نظمت للطريق بيننا قنطار مال »[٢] . فخرج غالب فى قواته الجرارة من قرطبة ، وعبر البحر من الجزيرة الخضراء إلى قصر مصمودة ( أو القصر الصغير ) وذلك فى الحادى عشر من رمضان سنة ٣٦٢ هـ . وعلم الحسن بمقدمه ، وعظم أهبته ، فغادر مدينة البصرة ، الواقعة فى الجنوب حيث كان يقيم ، ولجأ بأهله وأمواله وذخائره إلى قلعة حجر النسر ، الواقعة شمالها . ثم جمع قواته وخرج لقتال جيش الحكم ، ونشب القتال بين الفريقين أياماً ، وبث غالب فى رؤساء البربر من غمارة وغيرهم من جند الحسن ، الأموال والهدايا ، فانفصلوا عنه ، واضطر الحسن أن يمتنع بمن بقى معه فى قلعة حجر النسر ، فطارده غالب وضرب الحصار حول القلعة . وفى أوائل شوال بعث الحكم ثقته محمد بن أبى عامر إلى العدوة بأحمال من المال والحلى والخلع لتوزيعها على أكابر البربر الذين يمكن استمالتهم إلى جانب الخلافة . وأصدر الحكم فى نفس الوقت مرسومه بتعيين ابن أبى عامر

---

( ١ ) ابن حيان — قطعة أكاديمية التاريخ ص ٩٧ و ٩٨ .

( ٢ ) ابن خلدون ج ٦ ص ٢١٨ ، وكذلك « نبذ تاريخية فى تاريخ البربر » ص ٩ . وقد وردت هذه العبارة بصورة أخرى فى كتاب نقله إلينا ابن حيان ، وأرسله الحكم إلى غالب وهو بالعدوة ردا على كتاب منه وجاه ، فى خاتمته هذه العبارة : « فاستقبل نظرك استقبال من استشعر مذهب أمير المؤمنين ووطن فيه على أن لا مرجع إلا بما يحب أو يموت فيعذر » . راجع المقتبس — قطعة أكاديمية التاريخ — ١٣١ .

قاضياً لقضاة العدوة ، إلى ما يتقلده من خطتى الشرطة الوسطى والعليا والمواريث وقضاء إشبيلية[١] . ووصلت إلى غالب من الأندلس بعد ذلك أمداد جديدة ، بقيادة الوزير يحيى بن محمد التجيبى وإخوته ، يوسف ومحمد وهاشم وهذيل ، ومعه جملة من المال ( المحرم سنة ٣٦٣ هـ ) ونزل يحيى وجنده بطنجة ، وانضموا إلى قوات القائد الأعلى غالب . وشدد غالب الحصار على الحسن ، وقطع سائر علائقه وموارده ، وبث قواته فى سائر الأنحاء لمطاردة الأدارسة ، واستئصال شأفتهم . ونشبت بين جند الحكم وبينهم معارك عديدة ، قتل فيها الكثير منهم ؛ وفى صفر سنة ٣٦٣ هـ استولى غالب على مدينة البصرة ، وسلمها إليه أهلها ، بعد أن قتلوا نائبها الحسنى . وكان ضمن حاشية غالب الشاعر محمد بن حسين التميمى المعروف بالطبنى ، بعثه إليه الحكم تحقيقاً لرغبته لكى يساعده بنظمه على اكتساب ولاء المنشقين على الحسن[٢] . وفى تلك الأثناء ، كان الحسن قد أجهده الحصار ، وأشرف على الهلاك ، ومن معه من أهله ورجاله ، فاضطر فى النهاية إلى طلب الأمان والتسليم ، وأعلن طاعته للحكم ( جمادى الآخرة سنة ٣٦٣هـ ) ، ودخل غالب قلعة حجر النسر ، ودعى فى مسجدها للحكم . ووصلت هذه الأنباء السارة إلى الحكم ، وأعلنها الحكم فى جامع قرطبة ، بعد ذلك بأيام قلائل ؛ وتتبع غالب سائر من بقى من الأدارسة ببلاد الريف حتى استأصل شأفتهم ، وقضى على دولتهم . وسار إلى مدينة فاس ودخلها ، وعين لها حاكماً من قبله ، وتم بذلك إخضاع المغرب للدعوة الأموية .

وكان قد وصل من العدوة قبل هزيمة الحسن ، عدد كبير من القبائل والبطون البربرية الخارجة عليه ، الجانحة إلى طاعة الحكم . وكان بين هؤلاء عدد كبير من فرسان قبائل كتامة يبلغون زهاء ثلاثة آلاف وخمسمائة فارس ، ورئيسهم أبو العيش بن أيوب ، وقد عقد له الحكم على قومه ، وأصدر له بذلك سجلا من إنشاء صاحب المواريث جعفر بن عثمان ، يبين فيه واجباته وسلطاته ولا سيما فى شئون الجباية ، وأصدر الحكم سجلات مماثلة لزعماء القبائل والبطون البربرية الأخرى ، وقد ذكرها لنا ابن حيان ، وذكر أسماء زعمائها[٣] .

---

( ١ ) ابن حيان – قطعة أكاديمية التاريخ ص ١٢٣ .

( ٢ ) ابن حيان فى المقتبس – قطعة أكاديمية التاريخ ص ١٠٩ .

( ٣ ) ابن حيان فى المقتبس قطعة أكاديمية التاريخ ص ١١٠ – ١١٥ .

وفى أواخر ذى الحجة سنة ٣٦٣ هـ ، عبر القائد الأعلى غالب البحر إلى الجزيرة الخضراء ، تاركاً شئون العدوة للقائد يحيى بن محمد بن هاشم التجيبى تحقيقاً لرغبة الحكم ؛ وكان فى ركب القائد الأعلى المظفر ، الحسن بن كنون وسائر أهله وشيعته من زعماء الأدارسة ومعهم الأهل والولد . وصدر قبيل ذلك فى قرطبة ، عن أمر الخليفة الحكم ، كتاب طويل من إنشاء الوزير جعفر ابن عثمان قرئ على سائر منابر الأندلس ، وفيه ينوه بما من الله على خليفته من كفالة أمر المسلمين ، وقمع عدوان النصارى بالأندلس ، ثم مطاردة الشيعة أهل البدع بالعدوة ، وما منحه الله من النصر على المخالفين « حتى استوسقت الطاعة فى جميع بلاد المغرب وقامت الدعوة بمنابر قواعده »(١) . وأشرف غالب فى ركبه الحافل على قرطبة فى أوائل المحرم سنة ٣٦٤ هـ ، وأنزل الأشراف الحسنيون المرافقون له فى الدور التى أعدت لهم بقرطبة وأرباضها . وخرج الجند من مدينة الزهراء فى صبيحة يوم الخميس الخامس من محرم لتلقى القائد المظفر ، والمسير بين يديه ، وعلى رأسهم عدة من الفتيان ورؤساء الخدمة ، ودخل غالب قرطبة فى عسكره ، وفى ركبه الأشراف الأدارسة ، ونزل بفحص الناعورة ؛ ويصف لنا ابن حيان فى تفصيل شاف موكب القائد غالب ، وركبه المظفر الفخم ، ومن كان يحف به أو يتبعه من الفرسان المدرعين وأهل الخدمة والصقالبة ، والعبيد الرماة وغيرهم من أصحاب الطبول والقرون والبنود والرايات . ودخل غالب فى موكبه الفخم مدينة الزهراء من باب السُّدة ، ونفذ إلى القصر ، وأنزل الأدارسة الذين معه فى المجالس القبلية بدار الجند . وكان الخليفة الحكم قد جلس لاستقباله فى المجلس الشرقى المشرف على الرياض ، وقد حف به الإخوة ، وجلس من بعدهم الوزراء والحجاب وأصحاب الشرطة والمدينة والقضاة وسائر أهل الخدمة ، كل فى مكانه المعهود . واستقبل الخليفة زعماء الأدارسة ، وشيخهم حنون بن أحمد بن عيسى ، وشكر طاعتهم ، وعفا عن الحسن ، ووعدهم بالإحسان ، وأجزل لهم الأرزاق والصلات(٢) . وعين من حاشيتهم فى ديوانه ، سبعمائة من أنجادهم . واستمر الحسن وذووه على ذلك زهاء عامين . ثم وقعت

---

(١) راجع الكتاب المذكور فى المقتبس — قطعة أكاديمية التاريخ ص ١٧٨ — ١٨٢ .

(٢) ابن حيان فى المقتبس — قطعة أكاديمية التاريخ ص ١٩٤ — ٢٠٠ .

النفرة بينه وبين الحكم لأسباب منها ، «سوء خلق الحسن ولجاجته» . قال المؤرخ : «وكان الحسن بن قنون هذا جاهلا متهوراً فظاً ، شديد الجرأة ، قاسى القلب» . ولم ينس الحكم ما كان من قسوته وفظاعته نحو جنده أيام الحرب بينهما ، حيث كان الحسن يلقى بالأسرى من جند الأندلس من أعلى قلعته الشامخة فيصلون إلى الأرض إرباً[1] . وهكذا ثقل وجوده وذووه فى قرطبة . ومن جهة أخرى فقد كان الحاجب جعفر بن عثمان المُصْحفى يتوجس شراً من وجود الحسن وصحبه ، ويستثقل نفقاتهم ، وينصح بإخراجهم من الأندلس . فرأى الحكم أن يقصيهم عن مملكته ، وأن يتخلص من نفقاتهم الباهظة ، وأن يبعث بهم إلى المشرق . وهكذا أخرج الحسن وعشيرته من قرطبة ، وركبوا البحر من ألمرية إلى تونس سنة ٣٦٥ هـ (٩٧٥ م) ، ثم ساروا إلى مصر ، حيث نزلوا فى كنف خليفتها الفاطمى العزيز بالله ، فأكرم وفادتهم ، ووعدهم بنصرة قضيتهم : واستقر الحسن بمصر بضعة أعوام ، حتى سنة ٣٧٣ هـ ، وعندئذ بعثه العزيز بعهد منه ، إلى بلكين بن زيرى بن مناد بالقيروان ، يطلب إليه إمداده وعونه ، على تنفيذ مشاريعه ، إلى أن كان من أمره ما سيجىء[2] .

وكان غرسية فرناندز ، ولد فرنان كنثالث ، صاحب قشتالة وألبة ، قد خلف أباه فى الحكم ، منذ وفاته فى سنة ٩٧٠ م . وكان مثله يتبع سياسة النفاق والمصانعة ، فى إظهار رغبته فى السلم ، ثم يقوم فى الوقت نفسه بالإغارة على الأراضى الإسلامية ، كلما سنحت الفرص . فلما شغل الحكم بحوادث المغرب ، وعبرت الجيوش الأندلسية وقوادها الأكابر ، إلى العدوة ، بعث غرسية قواته ، فأغارت على أراضى المسلمين ، واقتحمت حصن دسة الواقع شمال شرقى مدينة سالم ، والذى يتوسط أراضى بنى عمريل بن تيملت الثغرى . ووقع هذا الاعتداء فى شهر ذى الحجة سنة ٣٦٣ هـ (صيف سنة ٩٧٤ م) ، وأحرق النصارى الزروع واستاقوا الماشية ؛ فخرج فى أثرهم زروال ومضاء ، ولدا عمريل ، واليا هذه

---

(١) «نبذ تاريخية فى أخبار البربر» ص ١٠ و ١٤ .

(٢) راجع فى سرد هذه الحوادث المغربية : البيان المغرب ج ٢ ص ٢٦١ – ٢٦٥ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢١٦ – ٢١٩ ، والاستقصاء ج ١ ص ٨٦ – ٨٨ . و «نبذ تاريخية فى أخبار البربر» ص ٦ – ١٢ .

المنطقة ، فى أصحابهما ، واستنقذوا الماشية ، وقتلوا عدداً من النصارى ؛ ولكن النصارى تكاثروا عليهم بعد ذلك ، ووقعت بين الفريقين معركة قتل فيها زروال . ومن الغريب أن غرسية فرناندز ، كان قبل هذا الاعتداء بقليل ، قد بعث رسله إلى قرطبة ، فى طلب السلم والمهادنة ، فأجابهم الحكم إلى ما طلبوا ؛ وما كادوا ينصرفون من قرطبة ، حتى جاءت الأنباء بما حدث من اعتداء القشتاليين ، فبعث الحكم لفوره أفلح صاحب الخيل ، فى سرية من وجوه الجند ، للقبض على السفراء القشتاليين ، فهرعت فى أثرهم واستطاعت أن تظفر بهم ، وأعيدوا إلى قرطبة حيث زجوا إلى السجن .

ووفد على الحكم فى العام التالى ، أبناء عمريل الخمسة بعد وفاة أبيهم ، وشهد القائد الأعلى غالب بن عبد الرحمن ، بحزمهم وحسن طاعتهم ، وأوصى بتقليدهم عمل والدهم ، فقسمت بينهم الأراضى والحصون ، على رضا منهم ، وغمرهم الحكم بالخلع والصلات[١] .

وكان من الأحداث البارزة فى أواخر سنة ٣٦٣ هـ ، ما وقع من نكبة جعفر ويحيى ابنى على بن حمدون الأندلسى . وكانا قد استقرا فى قرطبة، فى كنف الحكم وتحت سابغ رعايته . وكان الحكم قد ابتاع منهما عبيدهما الذين استعفوا من خدمتهما ، ودفع الثمن إليهما ، وتم فصل العبيد عنهما ، وضمهم الحكم إلى جنده لما كانوا يتصفون به من الشجاعة والبأس ، وكان لذلك فيما يبدو أثر سىء فى نفسيهما ، فقيل إنهما تكلما فى حق الخليفة بما لا يحمد ، وجاهرا بامتداح خلفاء الشيعة ، سادتهم الأوائل ، ونمى ذلك إلى الحكم ، فأمر فى الحال بالقبض عليهما ، وزجا مكبولين إلى سجن الزهراء . وكان ذلك فى شوال سنة ٣٦٣ هـ ، ولبثا فى المطبق بضعة أشهر ، حتى عاد الخليفة فعفا عنهما ، وأمر بإطلاق سراحهما ، وذلك فى رجب من العام التالى ، فأقرا بالذنب وطلبا الإنابة والصفح ، فأسعفهما الخليفة بما طلبا ، وغمرهما بصلاته[٢] .

---

(١) راجع ابن حيان فى « المقتبس » قطعة مكتبة أكاديمية التاريخ (ص ٧٣و١٨٨و١٨٩) . وراجع بحثاً فى ذلك الموضوع للعلامة كوديرا عنوانه :

**Embajodores de Castilla encarcelados en Córdoba de los ultimos anos de Alhakam II (B. R. A. H. Tom. XIV, 1889).**

(٢) ابن حيان فى المقتبس — قطعة أكاديمية التاريخ ص ١٧١ — ١٧٤ .

وعمد الحكم فى نفس الوقت إلى اصطناع البربر وفرسانهم ، لما لقيه منهم فى حربه ضد الحسنيين الأدارسة ، من المجالدة ووفرة البأس والشجاعة ، فأكرم وفادتهم ، وألحقهم بجنده ، وأجزل لهم العطاء . وكان فى مقدمة هؤلاء بنو برزال الذين أبلوا من قبل فى محاربة زيرى بن مناد الصنهاجى ، وكانوا قد عبروا إلى الأندلس ، وأغضى الحكم عن انحيازهم إلى مبادئ الخوارج الإباضية . وهكذا اجتمعت للحكم من عبيد جعفر ويحيى ومن داخلهم من أحرار البربر الوافدين ، قوة عسكرية بربرية تضم نحو سبعمائة فارس من خيرة الشجعان[1] .

وفى شهر جمادى الآخرة سنة ٣٦٤ ﻫ أصدر الحكم أوامره بإسقاط سدس المغرم ( الضرائب ) الواجب أداؤه على سائر الرعايا عن هذه السنة ، وأنفذ بذلك مرسومه إلى سائر القواد والعمال بمختلف الكور ، وقرر أن يكون هذا السدس شائعاً فى الناس يستوى فى معرفته العالم منهم والجاهل ، وذلك ترفيهاً لهم وتحقيقاً لمصالحهم[2] .

وفى شهر رجب من هذه السنة ، بعث الحكم ، نظراً لما بدا من تحركات النصارى فى مختلف الأنحاء ، عدداً من أكابر رجال المملكة إلى كور الأندلس لحث أهلها على ارتباط الخيل ، والاستعداد لمؤازرة جيش الصائفة ، وكان ممن بعث من رجالاته صاحب الشرطة العليا ، يحيى بن عبيد الله بن يحيى ، بعثه إلى كور الجوف ، وبعث قائد البحر عبد الرحمن بن رماحس إلى كور الشرق ، وبعث أحمد بن محمد بن سعد الجعفرى إلى الغرب ، نحو شنترين وما إليها ، وبعث آخرين لنفس الغرض[3] .

وفى أوائل شعبان سنة ٣٦٤ ﻫ ( ابريل ٩٧٥ م ) هاجم جيش مشترك من الجلالقة والقشتاليين والبشكنس ، حصن غرماج الواقع على نهر دويرة على مقربة

---

( ١ ) ابن حيان – قطعة أكاديمية التاريخ ص ١٩١ و ١٩٢ .

( ٢ ) المقتبس – قطعة أكاديمية التاريخ ص ٢٠٨ . وقد أورد لنا ابن حيان نص هذا المرسوم كاملا ( ص ٢٠٧ و ٢٠٨ ) وفيه يقرر الحكم أنه أصدر مرسومه المذكور « لما تظاهرت آلاء الله تعالى عليه ، وحسن بلائه عنده » وأنه « رأى أن يجدد له الشكر » ويمترى منه المزيد بإسقاط سدس جميع مغرم الحشود الواجب تقاضيها منهم لسنة أربع وستين وثلاثمائة ، تخفيفاً عن رعيته وإحساناً إلى أهل مملكته .

( ٣ ) المقتبس – قطعة أكاديمية التاريخ ص ٢١٦ .

من مدينة سالم ، ونشب بينه وبين حاميته الإسلامية قتال عنيف . وشجع النصارى على انتهاك السلم المعقود بينهم وبين الخليفة ، اعتقادهم بأن قوى الأندلس كلها ما تزال مشغولة بحروب العدوة . وانقلب النصارى إزاء بسالة الحامية الإسلامية إلى محاصرة الحصن ، ووافتهم أمداد أخرى جاءت لتشد أزرهم . وما كاد الحكم يقف على هذه الأنباء حتى بعث كبير قواده غالباً بن عبد الرحمن فى قوة مختارة غادرت قرطبة على عجل . وبعث الحكم فى أثرها أحمال المال للإنفاق على الصائفة . واستمر حصار النصارى لغرماج حتى شوال من تلك السنة . وجاءت للنصارى أمداد جديدة من جند ليون ، سيرتها الراهبة إلبيرة الوصية على ملك ليون ، ناكثة بذلك عهدها فى التهادن والسلم . وفى منتصف شوال ، هاجم النصارى الحصن ، وهم فى أكثر من ستين ألفاً ، محاولين اقتحامه ، ونشبت بينهم وبين الحامية الإسلامية معركة طاحنة انتهت بهزيمة النصارى وتبديد شملهم ، فبادرت صفوفهم بالارتداد عن الحصن بعد أن فقدوا كثيراً من جندهم وعتادهم ، وطاردهم المسلمون ، فقتلوا منهم جموعاً أخرى ، وأحرزوا غنائم جمة . وبعث المسلمون إلى الوزير غالب ، وهو مقترب منهم لنصرتهم ، بنبأ هذا الظفر ، فأنفذه من فوره إلى الخليفة ، وسار إلى الحصن ونزل به ، ثم خرج فى قواته ، فعاث حيناً فى أراضى قشتالة ، وانتسف الزروع ، وخرب القرى ؛ وتقدمت قوة بعث بها غرسية فرنانديز صاحب قشتالة لمدافعة المسلمين ، فهزمت وردت إلى أعقابها[١] .

* * *

تولى الحكم المستنصر الملك ، حسبما أسلفنا ، وهو كهل فى الثامنة والأربعين من عمره ، ولم يكن إلى ذلك الحين قد أنجب ولداً ، وكان ذلك مما يثير قلقه وجزعه ، إذ كان يتوق أن يكون له وريث فى الملك . ومن ثم فقد سر أيما سرور حينما ولدت له حظيته « جعفر » أو صبح النافارية ، ولداً سماه عبد الرحمن ( سنة ٣٥١ هـ — ٩٦٢ م ) ، وكان مولده حادثاً خطيراً ، نوهت به الشعراء والأدباء . ولكن هذا الولد توفى طفلا ، فحزن الحكم لفقده أيما حزن . على أن القدر لم يلبث

( ١ ) المقتبس — قطعة أكاديمية التاريخ ص ٢١٨ و ٢١٩ و ٢٣٤ — ٢٣٧ .

أن حباه مرة أخرى ، إذ ولدت «جعفر» ولداً آخر سماه أبوه هشاماً وكنيته أبو الوليد ، فكان ولى عهده الملقب بالمؤيد . « فعظم استبشاره به وسروره بموهبة الله فيه »[1]. وحضر الحاجب جعفر بن عثمان المصحفى وقت البشارة بولادته ، وأنشد هذه الأبيات :

أطلع البــدر فى سحابه      وأطرف السيف من قرابه
وجاءنا وارث المعــالى      ليثبت الملك فى نصــابه
بشرنا ســيد الــبرايا      بنعمــة الله فى كتــابه

وكان مولد هشام المؤيد سنة ٣٥٤هـ ( ٩٦٥م ) ، وكان مؤدبه مذ بلغ الثامنة من عمره الفقيه أحمد بن محمد بن يوسف القسطلى ، وقد أمر الحكم بأن تعد لتعليمه الدار المعروفة بدار الملك بقصر الزهراء ، وأن تزود بجميع ما يحتاج إليه لذلك . وكان قعود هشام مع مؤدبه فى المجلس الشرقى منها فى رمضان سنة٣٦١هـ . وندب الحكم وصيفه الفتى ذكاء ناظراً للأمير متكفلا بشئونه[2]. وفى أواخر سنة ٣٦٣ هـ ندب الخليفة العلامة النحوى أبا بكر الزبيدى الإشبيلى ليقوم بتدريس العربية وعلومها لولى العهد . وفى العام التالى ندب الفقيه المحدث يحيى بن عبدالله ابن يحيى ليقوم بإسماعه الحديث . وكان يومئذ عمدة المحدثين بقرطبة[3] . وسنرى أى دور عظيم تلعبه فيما بعد ، أم هشام جعفر أو صبح النافارية ، على مسرح الحوادث .

وأما عن شخص الحكم ، فقد كان حسبما تصفه الرواية ، أبيض مشرباً بحمرة ، أعين ، أقنى ، جهير الصوت ، قصير الساقين ، ضخم الجسم ، غليظ العنق ، عظيم السواعد ، أفقم[4] .

* * *

يمتاز عصر الحكم المستنصر بظاهرة ، من ألمع الظواهر فى تاريخ الدولة

---

( ١ ) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥٢ و ٢٥٣ ، وأعمال الأعلام لابن الخطيب ص ٤٣ .
( ٢ ) ابن حيان فى المقتبس – قطعة أكاديمية التاريخ ص ٧٦ و ٧٧ .
( ٣ ) المقتبس – قطعة أكاديمية التاريخ ص ١٣٣ و ٢١٦ .
( ٤ ) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٤٩ . والأعين هو ذو العينين السوداوين النجلاوين ، والأقنى ذو الأنف المرتفع الأعلى والمحدودب الوسط ، والأفقم أى الأعرج .

الأندلسية ، هى ازدهار العلوم والآداب أعظم ازدهار ، وإنشاء المكتبة الأموية العظيمة ، التى كانت بضخامتها ، وتنوع محتوياتها ، من أعظم مكتبات العصور الوسطى .

ويرجع ذلك قبل كل شىء إلى شخصية الحكم نفسه ، وإلى صفاته العلمية الممتازة ، التى نوه بها أكثر من مؤرخ أندلسى ، وإلى شغفه العظيم بجمع الكتب ، وهو شغف كان له أكبر الأثر فى ملء خزائن الأندلس بنفائس الكتب ، من كل فن ومن كل قطر ، من أقطار العالم الإسلامى .

وقد أشاد ابن حيان مؤرخ الأندلس — وقد عاش قريباً من عصر الحكم — بصفات الحكم العلمية ، وتقدمه فى العلوم الشرعية ، وعنايته بتحقيق الأنساب وتأليف قبائل العرب ، واستدعاء رواة الحديث من جميع الآفاق ، وإيثار مجالس العلماء ، وشغفه بجمع الكتب بصورة لم يسمع بها[1] . ويشاطره معاصره الفيلسوف ابن حزم ، هذا الإعجاب بصفات الحكم العلمية ، ويذكر لنا فى أكثر من موضع من مؤلفه الجامع فى الأنساب ، أنه ينقل من خط الحكم[2] . ويجمل ابن الخطيب هذه الصفات فى قوله : « وكان رحمه الله ( أى الحكم ) عالماً فقيهاً بالمذاهب ، إماماً فى معرفة الأنساب ، حافظاً للتاريخ ، جماعاً للكتب ، مميزاً للرجال من كل عالم وجيل ، وفى كل مصر وأوان ، تجرد لذلك ، وتهمم به ، فكان حجة وقدوة ، وأصلا يوقف عنده »[3] .

وقد انتهت إلينا تفاصيل مدهشة عن الدور العظيم الذى قام به الحكم فى إنشاء المكتبة الأموية الكبرى . وكانت هذه النزعة الأموية ، إلى تشجيع العلوم والآداب وجمع الكتب ، قد بدت منذ عصر عبد الرحمن الداخل . وفى عهد الأمير محمد ابن عبد الرحمن كانت المكتبة الأموية بالقصر ، أعظم مكتبات قرطبة . وكان عبد الرحمن الناصر يشغف بجمع نفائس الكتب من سائر الآفاق ، حتى أن قيصر

---

(١) الحلة السيراء ، نقلا عن ابن حيان ص ١٠١ و ١٠٢ .

(٢) جمهرة أنساب العرب لابن حزم (القاهرة) ص ٢٨١ و ٢٨٢ و ٢٩٢ و ٣٧٤ و ٣٧٥ و ٣٨٤ ، ٣٩٨ . وقد وضع الحكم بالفعل كتاباً فى « أنساب الطالبيين والعلويين القادمين إلى المغرب » ( نفح الطيب ج ٢ ص ٧٩ ) .

(٣) أعمال الأعلام ص ٤١ .

قسطنطينية حينما أرسل إليه سفارته الشهيرة ، حرص على أن يهديه كتابين من ذخائر الأقدمين هما كتاب ديسقوريدس عن الأعشاب الطبية وتاريخ أورسيوس .
ولما توفى الناصر ، عنى ولده الحكم بجمع مكتبات القصر وتنظيمها ، لتكون بداية طيبة للمكتبة الأموية العظيمة ، التى أنفق بقية عمره فى جمعها وتنسيقها[١] .
ويقول لنا ابن حيان فى دهشة وإعجاب إنه « لم يسمع فى الإسلام بخليفة ، بلغ مبلغ الحكم فى اقتناء الكتب والدواوين ، وإيثارها والتهمم بها . أفاد على العلم ، ونوه بأهله ، ورغب الناس فى طلبه ، ووصلت عطاياه ووصلاته إلى فقهاء الأمصار النائية » . وكان الحكم يبعث إلى أكابر العلماء المسلمين من كل قطر ، بالصلات الجزيلة ، للحصول على النسخ الأولى من مؤلفاتهم . ومن ذلك أنه بعث إلى أبى الفرج الأصفهانى ألف دينار من الذهب العين ، ليحصل منه على نسخة من كتابه «الأغانى» . فأرسل إليه منه نسخة حسنة منقحة ، قبل أن يحصل عليه أحد فى العراق أو ينسخه أحد منهم ، وأرسل إليه أبو الفرج أيضاً — وهو ممن ينتمون إلى المروانية بنى أمية — كتاباً ألفه فى أنساب قومه بنى أمية ، يشيد فيه بمجدهم ومآثرهم ، فجدد له الحكم الصلة الجزيلة[٢] . وفعل الحكم مثله ذلك مع القاضى أبى بكر الأبهرى المالكى ، إذ بعث إليه بمبلغ جليل ليحصل على النسخة الأولى من شرحه لمختصر ابن عبد الحكم . وأسبغ الحكم رعايته على اللغوى الكبير أبى على القالى ، الذى وفد من العراق على أبيه الناصر ، وقربه إليه ، وألف كتبه تحت كنفه ، وأورث أهل الأندلس علمه[٣] . وأهدى إليه أبو عبد الله الخشنى بعض كتبه ومنها كتاب «القضاة» أو «قضاة قرطبة»[٤] ؛ وأهدى إليه مطرف ابن عيسى الغسانى ، كتابه المسمى بالمعارف فى « أخبار كورة إلبيرة » ، كما أهدى إليه كثير من علماء العصر مؤلفاتهم ، تيمناً برعايته للعلم والعلماء . وكان للحكم طائفة من مهرة الوراقين بسائر البلاد ، ولاسيما فى بغداد والقاهرة ودمشق ، ينقبون له عن الكتب ، ويحصلون منها على النفيس والنادر ، كما كانت له فى بلاطه طائفة

---

(١) J. Ribera : Disertaciones y Opusculos (Madrid 1928) p. 191 & 192

(٢) الحلة السيراء — عن ابن حيان ص ١٠٢ .

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٦ .

(٤) راجع كتاب قضاة قرطبة للخشنى ( المقدمة ) .

أخرى ، من البارعين فى نسخ الكتب ، وتحقيقها ، وتجليدها ، وتصنيفها . وبذل فى هذا السبيل من الجهود والأموال ما لم يسمع به ، واجتمع لديه من نفائس الكتب فى مختلف العلوم ، ما لم يجتمع لأحد قبله . ولما ضاقت أبهاء القصر الخليفى ، عن استيعاب العدد العظيم ، من الكتب الواردة إليها باستمرار ، أنشأ الحكم على مقربة من القصر صرحاً عظيماً خاصاً بالمكتبة ، افتن المهندسون فى ترتيبه وتنسيقه ، وإنارة أبهائه . قال ابن حزم « ملأ الأندلس بجميع كتب العلوم » وذكر لنا أن تليداً الفتى — وكان على خزانة العلوم بقصر بنى أمية بالأندلس — أخبره أن عدد الفهارس التى كانت فيها تسمية الكتب أربع وأربعون فهرسة ، فى كل فهرسة خمسون ورقة ، ليس فيها إلا ذكر أسماء الدواوين فقط [1].

وعهد الحكم بإدارة المكتبة الأموية العظيمة إلى أخيه عبد العزيز . وعهد بالإشراف على جامعة قرطبة وأساتذتها إلى أخيه المنذر . وكان يقضى معظم أوقاته بمدينة الزهراء ، فى أبهائها المنيفة وظلالها الهادئة ، معتكفاً على القراءة والدرس برفقة صفيه محمد بن يوسف الحجارى ، الذى كتب له تاريخ الأندلس والمغرب ، وتواريخ أخرى لبعض المدن . وكان من أصفيائه فى تلك المجالس أيضا ، الفتى سابور الفارسى ، الذى قدم بدعوته إلى قرطبة ، واختاره ليكون وصيفاً خاصاً له ، وكان من أعلم أهل عصره [2] .

ولم يكن هذا الشغف بجمع الكتب ، فى عصر الحكم ، قاصراً على الأمير ، فقد عنى كثير من كبراء العصر وعلمائه ، بانشاء مكتبات خاصة زاخرة بنفائس الكتب . وشغف النساء المثقفات كذلك بجمع الكتب ، وإنشاء المكتبات ، ومن أشهر هؤلاء عائشة بنت أحمد بن قادم ، وكانت من أبرع نساء عصرها ، علماً وأدباً وشعراً ، وكانت خزانة كتبها من أغنى وأقيم المكتبات الخاصة . وكانت سوق الكتب فى قرطبة ، من أشهر الأسواق وأحفلها بالحركة . بل لقد سرى هذا الشغف باقتناء الكتب إلى النصارى واليهود أنفسهم ، وكان الكثير منهم يجيدون اللغة العربية ، ويتذوقون ثمرات التفكير العربى من أدب وشعر وفلسفة وغيرها . وكان من أشهر هؤلاء الطبيب اليهودى حسداى ، طبيب الحكم الخاص ، وفى

---

(١) جمهرة أنساب العرب ص ٩٢ . ونقلها ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ١٠٣ .

(٢) Modesto Lafuente : Historia General de Espana ; T. III, p. 337.

ظله وتحت رعايته كتب يهود قرطبة باللغة العربية ، وألفوا بها مختلف الكتب ، وكان من أشهر المكتبات الأندلسية الخاصة فيا بعد ، مكتبة يوسف بن إسماعيل ابن نغرالة اليهودى ، وزير باديس أمير غرناطة(١) .

وإلى جانب هذا الشغف بالكتب والثقافة العالية ، كان التعليم العام فى عهد الحكم يجوز نهضة عظيمة ، وكان أبناء الشعب جميعاً يعرفون القراءة والكتابة ، هذا بينما كان أرفع الناس مكانة فى أوربا — خلا رجال الدين — لا يعرفو ن. وأسس الحكم عدداً كبيراً من المدارس يتعلم فيها الفقراء مجاناً . أما جامعة قرطبة ، فقد كانت يومئذ من أشهر جامعات العالم ، وكان مركزها فى المسجد الجامع ، وتدرس فى حلقاتها مختلف العلوم ، وكان يدرس الحديث أبو بكر ابن معاوية القرشى ، ويملى أبو على القالى ضيف الأندلس دروسه عن العرب قبل الإسلام ، وعن لغتهم وشعرهم وأمثالهم ، وكان ابن القوطية يدرس النحو ، وكان يدرس باقى العلوم أساتذة من أعلام العصر ، وكان الطلبة يعدون بالآلاف(٢) .

وكان الحكم يسبغ رعايته على سائر العلماء من مختلف الملل والنحل ، مسلمين كانوا أو غير مسلمين . ومن شواهد هذه الرعاية أن الأسقف العالم ريثموندو الإلبيرى ، المسمى باسمه العربى ، ربيع بن زيد ، كان أثيراً لديه متمتعاً برعايته ، لتبحره فى علم الفلك ، والعلوم الفلسفية ، وهى من الدراسات التى كان يعنى بها الحكم . وكان هذا الحبر القرطبى عالماً مبرزاً ، متمكناً من الآداب العربية واللاتينية ، وكان الناصر والد الحكم يقدر علمه ومواهبه ، ويحبوه بعطفه ورعايته بالرغم من نصرانيته ، وكان يشغل مكانة هامة فى القصر(٣) .

يقول العلامة دوزى : « وعلى العموم فإن إغداق الحكم على العلماء الإسبان والأجانب لم يعرف حداً ، وقد كانوا يهرعون إلى بلاطه . وكان المليك يشجعهم ويوليهم رعايته ، حتى الفلاسفة استطاعوا فى ظله أن ينصرفوا إلى بحوثهم دون

---

(١) كتاب الصلة لابن بشكوال (القاهرة) ج ٢ ص ٦٥٤ ، وكذلك J. Ribera : ibid., p. 199—202

(٢) Dozy : Histoire des Musulmans d'Espagne, Vol. II, p. 184 & 185

(٣) F. J. Simonet : Historia de los Mozarabes de Espana (Madrid 1897), p. 607 & 612.

خوف من أن يقتلهم الأتقياء الورعون »[1]..

ويبدى النقد الحديث تقديره وإعجابه بتلك النزعة العلمية التى امتاز بها الحكم ، والتى سادت كل عصره . فمثلا يقول لنا المؤرخ الإسبانى موديستو لافونتى :

« كانت دولة الحكم الثانى دولة الآداب والحضارة ، كما كانت دولة أبيه دولة العظمة والبهاء . وإن الرواية العربية لتحبو الحكم بكثير من جميل الذكر : فهل نغضى نحن عن تسجيل إعجابنا بما لهذا الأموى المستنير من الصفات الباهرة ، لأنه كان مسلماً ولم يكن نصرانياً؟ إن ذلك يعنى أننا ننكر فضائل أمثال أوغسطوس وتراچان وأدريان وماركوس أوريليوس ، لأن أولئك القياصرة العظام لم يكونوا نصارى . إن السلم الذى وطده أكتافيوس فى اسبانيا الرومانية ، قد وطده الحكم فى اسبانيا العربية ؛ وقد قدم الحكم ، كما قدم أكتافيوس من قبل ، الأدلة على أن الرغبة فى السلم ، لم تكن لأنه لا يعرف الحرب ولا النصر ، ولكن لأنه كان يؤثر إلهام القريض ، ويؤثر الكتب على خزائن السلاح ، وإكليل الجامعات الحقيقى على إكليل الحروب الدموى .

لقد أعيد عصر أوغسطوس فى اسبانيا بعد ألف عام فى صورة جديدة ، وقد تحول بلاط قرطبة إلى نوع من الأكاديمية العظيمة ، وأغدق على ثمرات العبقرية فيض الإغداق والكرم الرائع ، ونستطيع أن نقدر مدى التضحيات العظيمة ، ومدى الصبر ، والمثابرة ، والنفقات التى أمكن أن يتحقق بها إنشاء تلك المجموعة المدهشة ، من أربعمائة ألف إلى ستمائة ألف مخطوط ، هى محتويات مكتبة قصر بنى مروان » .

ثم يشير موديستو لافونتى بعد ذلك إلى أن هذا المستودع الزاخر من ثمرات العقل ، وتلك الحضارة التى وصل إليها العرب فى عصر الحكم ، كانت قد وضعت بذورها من قبل ، وتعاقب أمراء بنى أمية منذ عبد الرحمن الداخل فى تعهدها بالغرس والنماء ، وقد كانوا جميعاً من أهل العلم والأدب ، ومن حماة العلوم والآداب . ثم يختتم تعليقه على عصر الحكم بقوله :

« لقد جاء هذا الخليفة الشهير الذى يعشق الآداب فى عهد سعيد من السلم ، ولما كانت بذور التمدن موجودة من قبل ، فقد تفتحت فى ظل رعايته ، وازدهر

---

(١) Dozy : Histoire des Musulmans d'Espagne ; Vol. II, p. 189.

الغرس ازدهاراً عظيماً ، حتى أنه بعد الحرث الكثير ، والمطر الغزير ، بدت شمس وضاءة رائعة منعشة »(١) .

وقد اختلف فى تقدير محتويات المكتبة الأموية العظيمة ، التى أنشأها الحكم المستنصر ، فقدرها بعض المؤرخين بأربعمائة ألف مجلد ، وقدرها البعض الآخر بستمائة ألف (٢). وكانت توجد فى قواعد الأندلس الأخرى ، عدا مكتبة قرطبة العظيمة زهاء سبعين مكتبة أخرى (٣). وهذا وحده يكفى للدلالة على مدى التقدم العظيم ، الذى بلغته الحركة الفكرية والأدبية فى الأندلس ، فى هذا العصر الزاهر . ولبثت المكتبة الأموية العظيمة قائمة بقصر قرطبة ، حتى وقعت الفتنة الكبرى فى سنة ٤٠٠ هـ ، وحاصر البربر قرطبة ، فأخرجت معظم الكتب من خزائنها خلال الحصار ، وبيعت بأمر الفتى واضح مولى المنصور بن أبى عامر ، ثم نهب ما تبقى منها عند اقتحام البربر لقرطبة ، حسبما نذكر بعد (٤) .

* * *

وشعر الحكم فى أواخر عهده ، بأعراض الضعف والمرض تدب إليه ، فانتقل من قصر الزهراء وفقاً لنصح أطبائه ، لغلبة برد الجبل عليه ، وقضى حيناً فى منية ناصح ، ومنية الناعورة ، ثم انتقل إلى قصر قرطبة . وعقد العزم على تأمين ولاية العهد لولده الطفل هشام . وتم ذلك فى شهر جمادى الثانية سنة ٣٦٥ هـ ( ٥ فبراير سنة ٩٧٦ م ) حيث جلس الحكم بقصر قرطبة ، وأعلن عزمه فى تقليد ولده عهد الخلافة من بعده ، وأخذت البيعة بالفعل من الحاضرين ، وأخرجت كتبها لسائر الخاصة والعامة . وتولى أخذها على الناس وفق مراتبهم ، محمد بن أبى عامر ، وهو يومئذ صاحب الشرطة والمواريث ، وكان من قبل كافلا لهشام ، وميسور الفتى الكاتب مولى صبح ، ثم دعى لهشام فى الخطبة بالأندلس والمغرب ، ونقش اسمه فى السكة .

---

(١) Modesto Lafuente : Historia General de España (Barcelona 1889), Tom. II ; p. 364 - 367.

(٢) نفح الطيب ج ١ ص ١٨٤ .

(٣) Prescott : Ferdinand and Isabella of Spain, p. 187.

(٤) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٦ .

وينعى ابن حيان على الحكم هذه السياسة فى اختيار ولده الطفل لولاية العهد ، فيقول إنه أى الحكم على ما وصف من رجاحة «كان ممن استهواهم حب الولد ، وأفرط فيه ، وخالف الحزم فى توريثه الملك بعده ، فى سن الصبا دون مشيخة الأخوة ، وفتيان العشيرة ، ومن يكمل للإمامة بلا محاباة ، فرط هوى ، ووهلة انتقدها الناس على الحكم ، وعدوها الحانية على دولته . وقد كان يعيبها على ولد العباس قبله ، فأتاها هو مختاراً ولا مرد لأمر الله » .

وأصيب الحكم بعد ذلك بقليل ، بشلل أقعده عن الخروج والحركة ، ويقول لنا ابن حيان إن الحكم كان يعانى من هذه «العلة الفالجية » ولا يكاد يستفيق منها[١] فلزم فراشه ، وتولى تدبير الشئون خلال مرضه ، وزيره جعفر بن عثمان المصحفى . ثم توفى بعد ذلك بأشهر قلائل ، فى اليوم الثانى من صفر سنة ٣٦٦ هـ ( ٣٠ سبتمبر سنة ٩٧٦ م )[٢] .

* * *

وكان الحكم المستنصر من خيرة أمراء بنى أمية خلقاً وعلماً وعدلا . وتنوه الرواية الإسلامية فى غير موطن بجميل خلاله وصفاته . فيقول لنا ابن الأبار : « وكان حسن السيرة ، فاضلا عادلا ، مشغوفاً بالعلوم »[٣] . ويقول لنا ابن الخطيب : « وإليه انتهت الأبهة والجلالة ، والعلم والأصالة ، والآثار الباقية ، والحسنات الراقية »[٤]. وكان الحكم من ذوى الورع والتقوى ، تشهد بذلك عنايته الفائقة بأمر المسجد الجامع ، وتوسعته وإنشاء منبره الحديد ، وتزويده بالماء بطريقة هندسية بديعة ، وما بذله فى سبيل ذلك من النفقات الطائلة ، ويشهد بذلك أيضاً تشدده فى محاربة الخمر وإراقتها[٥]. وكان محباً للعدل معنياً بإقامته ، شديداً فى محاسبة الطغاة من العمال والحكام، يؤيد ذلك ما رواه صاحب

---

( ١ ) المقتبس — قطعة مكتبة أكاديمية التاريخ ص ٢١١ .

( ٢ ) تضع معظم الروايات وفاة الحكم فى هذا التاريخ ( الحلة السيراء ص ١٠١ ، ونفح الطيب ج ١ ص ١٨٥ ، وابن الخطيب عن ابن حيان ، فى أعمال الأعلام ص ٥٦ ) . ولكن صاحب البيان المغرب ينفرد بالقول بأن وفاته كانت فى الثالث من رمضان سنة ٣٦٦ هـ .

( ٣ ) الحلة السيراء ص ١٠١ .

( ٤ ) أعمال الأعلام ص ٤٩ .

( ٥ ) الحلة السيراء ص ١٠٣ .

البيان المغرب من أنه أرسل غير مرة إلى الحكام الظلمة ، يحذرهم من سطوته ، وإلى القواد والعمال ، يحذرهم من سفك الدم بلا موجب[١] .

وكان من أعمال الحكم الإنشائية أيضاً إصلاح قنطرة قرطبة العظيمة على نهر الوادى الكبير ، وتقوية دعائمها التى وهنت بمضى الزمن (سنة ٣٦١ هـ) ، وإشرافه على ذلك بنفسه[٢] .

وكان الحكم عارفاً بأقدار الرجال ، مميزاً للنابهين منهم ، وقد جمع فى حكومته وبلاطه جمهرة من أعاظم رجال العصر وألمعهم . وكان فى مقدمة هؤلاء ، كبيرهم وزعيمهم الحاجب جعفر بن عثمان بن نصر المصحفى . وكان جعفر ينتمى إلى بطن من بطون البربر من بلنسية ، وتولى أبوه عثمان أيام الناصر تأديب ولده الحكم ، وهكذا نشأت بين الحكم وبين ولد أستاذه ومؤدبه جعفر مودة عميقة ، فلما أسندت إليه ولاية العهد ، قدم جعفر فى الأعمال واستخدمه فى الكتابة ، ثم ولاه الناصر بعد ذلك حكم جزيرة ميورقة . ولما ولى الحكم الخلافة استوزره وأمضاه على كتابة الخاصة ، وضم إليه بعد ذلك ولاية الشرطة ، ثم تولى بعد ذلك منصب الحجابة أى رياسة الوزارة ، خلفاً للحاجب جعفر بن عبد الرحمن الصقلبى ، وأصبح أول رجل فى الدولة ، واجتمعت لديه سائر السلطات ، ولما رزق الحكم بولده هشام اختار جعفر كافلا له ، واستمر جعفر هو القائم بدولة الحكم حتى وفاته . وكان المصحفى من أساطين الكتابة والشعر وله شعر حسن ، أورد لنا منه ابن الأبار مختارات رقيقة مشرقة تدل على تمكنه[٣] .

وكان من أشهر أعمال المصحفى فى بداية عهد الحكم أن قدم إليه هديته الباذخة ، التى حاول أن يبز فيها هدية الوزير ابن شهيد إلى الناصر . وقد أورد لنا ابن حيان فى المقتبس وصفاً لمحتويات هذه الهدية الشهيرة وهى : مائة مملوك من الفرنج ناشئة على خيول صافنة كاملو العدة والسلاح ، وثلاثمائة وعشرون درعاً مختلفة الأجناس ، وثلثمائة خوذة كذلك ، ومائة بيضة هندية ، وخمسون خوذة

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥٥ ، ٢٥٦ .

(٢) ابن حيان فى المقتبس — قطعة مكتبة أكاديمية التاريخ السابق الإشارة إليها ص ٦٤ و ٦٥ .

(٣) راجع ترجمة جعفر المصحفى ومختارات من شعره ، فى « الحلة السيراء » ص ١٤١–١٤٧ .

حبشية من حبشيات الإفرنجة ، وثلثمائة حربة إفرنجية ، ومائة ترس سلطانية ، وعشرة جواشن مذهبة ، وخمسة وعشرون قرناً مذهبة من قرون الجاموس[١].
وكانت هدية المصحفى للحكم ، من أشهر الحوادث الاجتماعية فى هذا العصر .

وكان من أكابر دولة الحكم أيضاً ، القائد غالب بن عبد الرحمن الناصرى صاحب مدينة سالم ، وكان مولى لأبيه الناصر . وكان غالب ، فضلا عن كونه من نصحاء الحكم ، ومستشاريه المقربين ، من أعظم قادة الأندلس ورجالاتها فى هذا العصر ، وكان الحكم ، عرفاناً منه بقدر هذا القائد المظفر ، قد أسند إليه القيادة العليا ، وأصدر مرسومه بذلك إليه فى سنة ٣٦١ هـ ، وذلك « لغنائه وجميل مقامه » . ثم عاد على أثر انتصاره فى موقعة حصن غرماج فى سنة ٣٦٤ هـ ، فقلده سيفين مذهبين من ذخائر سيوفه ، وسماه « ذا السيفين » ،[٢] وكان منهم أيضاً الوزير يحيى بن محمد التجيبى ، والقائد سعيد بن الحكم الجعفرى ، وكلاهما من أعظم الوزراء والقادة ، وقد برز كلاهما فى غزوات الصوائف ، وحوادث المغرب الأقصى .

وكان من كتاب الحكم عيسى بن فطيس ، ومن قضاته منذر بن سعيد البلوطى كبير القضاة فى عهد أبيه الناصر ، ثم أبو بكر محمد بن السليم .

وكان الحكم ، بالرغم مما كان يسود الممالك الإسبانية النصرانية فى عهده من جنوح إلى المهادنة والسلم ، يرقب حركاتها وتصرفاتها بعناية ، وقد رتب لذلك بعض عماله المهرة المخلصين المعروفين بصدق الخدمة ، وفى مقدمتهم ابن أبى عمروس العريف ، وصاحبه سعيد ، للسفارة بينه وبين ملوك جليقية ، ولقاء قواميسها ، والتردد عليهم « للتعرف على أخبارهم ، والتجسس لأنبائهم » وحمل الكتب إليهم فى كل وقت ، وصرفها عنهم ، وهو ما يفصح عن بعض الوسائل التى كان يلجأ إليها بلاط قرطبة للإحاطة بأخبار الممالك النصرانية ونياتها[٣].

وكان الحكم شاعراً مطبوعاً ينظم القريض الرقيق ؛ ومما ينسب إليه قوله :

إلى الله أشكو من شمائل مسرف ... علىّ ظلوم لا يدين بما دنت

---

(١) ابن خلدون فى كتاب العبر ج ٤ ص ١٤٤ .
(٢) راجع المقتبس — قطعة أكاديمية التاريخ ص ٦٩ و ٢٢٠
(٣) المقتبس — قطعة أكاديمية التاريخ ص ٧٦ .

نأت عنه دارى فاستزاد صدوده ... وإنى على وجدى القديم كما كنت
ولو كنت أدرى أن شوقى بالغ ... من الوجد ما بلغته لم أكن بنت

وقوله :

عجبت وقد ودعتها كيف لم أمت ... وكيف انثنت بعد الوداع يدى معى
فيامقلتى العبرا عليها اسكبى دماً ... ويا كبدى الحرّا عليها تقطعى

* * *

ونلاحظ أخيراً أن بلاط قرطبة ، كان فى أيام الحكم المستنصر ، يبدو فى بهى أثوابه الملوكية والخلافية ، وكان جلوس الحكم فى أيام الأعياد أو لاستقبال الوافدين والسفراء من أيام قرطبة المشهودة . وقد أفاض ابن حيان فى وصف هذه الأيام والحفلات الباذخة . ويبدو مما كتبه أن الخليفة الحكم ، كان يؤثر الجلوس فى هذه الأيام بالمجلس الشرقى من قصر الزهراء ، ويجلس عن يمينه ويساره إخوته بترتيب السن ؛ ثم يليهم فى ترتيب الجلوس ، الوزراء ، يجلسون بعد فرجتين ، إلى اليمين وإلى اليسار ، ويلى ذلك صاحب المدينة بقرطبة ، ويجلس إلى اليمين ، وإلى جانبه صاحب المدينة بالزهراء ، ثم يجلس من بعدهم صاحب الحشم ، فصاحب الخيل ، فأصحاب الشرطة العليا والوسطى ، وسائر طبقات أهل الخدمة وفق مراتبهم ، وقاضى الجماعة ، والحكام وأصحاب الشرطة الصغرى ، وأسباط الخلافة ، وجلة قريش ، ثم وجوه الموالى ، ثم قضاة الكور والفقهاء المشاورون والعـــدول ، وأعيان قرطبة . ويصطف الجند فى أثوابهم الزاهية ، منذ مداخل القصر حتى الممر المفضى إلى مجلس الخليفة ، وقد أورد لنا ابن حيان وصف هذا النظام فى مختلف المناسبات الرسمية ، مما يدل على أنه هو نظام البروتوكول ( المراسيم ) الثابت الذى كان يتبعه بلاط قرطبة فى هذا العهد عند جلوس الخليفة للمناسبات الرسمية الكبرى (1) .

ويجب أن نلاحظ من ذلك الوقت التطور العظيم ، الذى حدث فى تكوين المجتمع الأندلسى . فقبل عهد الناصر كانت الرياسة والأرستقراطية ، تنحصر فى القبائل العربية . وكان البربر يحتلون مقاماً أدنى . وكانت المعارك يضطرم لظاها

( ١ ) ابن حيان فى المقتبس — قطعة أكاديمية التاريخ ص ٢٩ و ٤٩ و ٥٠ و ٥٧ و ٨١ و ٩٤ و ١٩٤ و ١٩٥ .

باستمرار بين السلطة المركزية أعنى بين الإماوة وبين العصبية العربية ، التى تحاول دائماً أن تقيم رياستها فى الثغور والمدن على أساس الاستقلال المحلى . وقد استمرت هذه المعارك عصوراً ، منذ عبد الرحمن الداخل ، حتى جاء الناصر ، فشدد فى مطاردة العصبية العربية وتحطيمها ، وآثر أن يعهد بالرياسة والسلطات المحليه إلى طوائف الصقالبة حسبما شرحنا ذلك من قبل . وفى عهد الحكم المستنصر كانت الأرستقراطية العربية ، قد اضمحلت ، وغاض نفوذها ، واختفت كقوة سياسية واجتماعية تخشاها السلطة المركزية ، وإن كانت قد بقيت كطبقة من الطبقات ، وحلت محلها أرستقراطية من نوع جديد ، قوامها القادة والرؤساء العسكريون ، من الموالى والصقالبة ، فكانت بذلك أرستقراطية سيف ، وليست أرستقراطية قبيل أو عصبية ، وبلغ الفتيان الصقالبة أيام الحكم ، ذروة القوة والنفوذ والثراء ، مثلما كانوا أيام أبيه الناصر . ويكفى أن نذكر هنا دليلا على ضخامة ثراء هؤلاء القوم ، أن أحدهم وهو الفتى الكبير درّى الخازن ، قام بإهداء مولاه الخليفة الحكم ، منيته الغراء بوادى الرمان من ضواحى قرطبة ، وكان قد أنشأها مغنى ومتنزهاً ، وأفاض عليها أروع صنوف البذخ والبهاء ، وجعلها برياضها ومنشآتها جنة حقة . وقد قبل الحكم هدية فتاه ، وقام بزيارة هذه المنية مع ولى عهده هشام وحاشيته ، وأنفق فيها يوم استجمام ومسرة . وقد أجمع الخليفة ومرافقوه على أنهم « لم يشاهدوا فى المتنزهات السلطانية أكمل ولا أعذب ولا أعم من صنيع درّى هذا »[1] . هذا وأما الطبقة الوسطى فقد انحصرت فى التجار ورجال الصناعة وغيرهم ممن استطاعوا أن يحرزوا بالتجارة والفنون فى مختلف القواعد ثروات عظيمة . ويأتى بعد الطبقة الوسطى ، طبقات الشعب الكادحة ، وكانت على نحو ما يحدث فى كل زمان ومكان ، تبغض الطوائف الميسورة ، وتنقم عليها نعماء العيش .

وكانت ثمة طبقة أخرى ، ذات مميزات خاصة ، هى طبقة المولدين أوبعبارة أخرى مسلمو الإسبان ، وكانت تحتل مكانها بين الطبقات المتوسطة والميسورة . وكان بينها الكثيرون ممن أحرزوا الجاه والنفوذ والثراء . بيد أن المولدين بالرغم من إسلامهم ، كانوا يعتبرون أقل مكانة من المسلمين الأصليين . وكان المعروف

---

(١) ابن حيان فى المقتبس — قطعة أكاديمية التاريخ ص ١٠٧ .

من أصولهم دائماً ، أنهم كانوا على الأغلب عبيداً أو مسترقين من القوط ، دخلوا فى الإسلام اجتناء للحرية . وقد زاد عدد المولدين زيادة كبيرة ، منذ عهد عبد الرحمن ابن الحكم ، حيث دخل كثير من النصارى المعاهدين فى الإسلام ، حينما اشتدت وطأة حكومة قرطبة عليهم ، أيام الفتن التى حاولوا إثارتها لإشاعة الإضطراب والفوضى ، حسبما فصلنا ذلك فى موضعه . وبذلك ازداد عدد المولدين زيادة كبيرة ، منذ أوائل القرن التاسع الميلادى ، وغدوا فى ظل الخلافة أيام الناصر وولده الحكم ، يمثلون أقلية كبيرة بين الأمة الأندلسية .

وأما الطبقة المسترقة أو طبقة العبيد ، فكانت فى تلك العصور تتألف من العمال العبيد ، الذين يلحقون فى الغالب بالضياع . وكان هذا النظام موجوداً منذ أيام القوط ، ولكنه طبق أيام المسلمين ، بصورة أفضل بكثير مما كان عليه ، ومنح هؤلاء العمال حقوقاً إجتماعية وإنسانية ، رفعت عنهم كثيراً من صور العبودية القديمة ، التى كانت تعطى للسيد عليهم حق الحياة والموت ، والبيع والشراء . ويلحق بغير الأحرار أيضاً طبقة الصقالبة والخصيان . بيد أن هذه الطبقة كانت تحتل مكانة ملحوظة فى المجتمع ، وكان لها فى الحكومة والقصر ، إنما نفوذ ، وقد ظهر منها زعماء وقادة وصلوا إلى مراكز عظيمة ، وكان لهم فيما بعد شأن يذكر ، فى تطور الحوادث التى أعقبت انهيار الخلافة الأندلسية .

وإلى جانب هذه الطبقات المختلفة ، التى تتألف منها الأمة الأندلسية ، كانت توجد دائماً طبقة النصارى المعاهدين ، الذين يعيشون فى ظل الحكم الإسلامى ، وكانت تجتمع فى القواعد الأندلسية فى أقليات كبيرة . وكانت تحتل فى العاصمة ، وفى بعض المدن الأخرى مكانة خاصة ، ويشغل كثير من أفرادها مراكز هامة فى الحكومة والجيش ، وقد تحدثنا من قبل عن بعض أحوال هذه الطبقة وظروفها : ويجب أخيراً ألا ننسى الأقلية اليهودية . فقد عومل اليهود منذ الفتح بمنتهى الرفق والرعاية ، وازدهرت أعمالهم التجارية والصناعية ، فى ظل ذلك التسامح الإسلامى المأثور ، ووصلوا فى قرطبة فى ظل الخلافة ، إلى ذروة النفوذ والرخاء . وفى أيام الناصر تولى أحدهم ، وهو العلامة حسداى بن شبروط ، الإشراف على الخزانة العامة ، وكان قبل ذلك قد حظى برعاية الناصر بخدماته الدبلوماسية ، وترجمته لكتاب ديسقوريدس عن الأعشاب الطبية ، من اليونانية إلى العربية ،

وهو الكتاب الذى ا لذى قيصر منه نسخة إلى الناصر . وفى ظل هذه الرعاية ، وفد كثير من العلماء والأدباء اليهود إلى قرطبة ، أيام الناصر وولده الحكم ، وقامت فى ظل نشاطهم مدرسة قرطبة التلمودية ، ومؤسسها الرابى موسى بن حنوش ، وازدهرت فى ظلها البحوث التلمودية ، وغدت مركز الرياسة والتوجيه لهذه البحوث . واستمرت الخلافة الأموية ، ومن بعدها حكومات الطوائف على رعاية الأقلية اليهودية وتشجيعها ، وكان يهود قرطبة يرتدون الزى العربى ، ويتخلقون بالتقاليد والعادات العربية ، ويمتازون بثرائهم ومظاهرهم الفخمة [1].

---

(١) راجع : R. Altamira : Historia de Espana y de la Civilización Espanola, Vol. I, p. 250 - 257.

# الفصل الثاني

## هشـــام المؤيد بالله

مؤامرة الفتيان الصقالبة لإبعاد هشام وترشيح المغيرة بن الناصر . الحاجب جعفر يناهض مشروعهم . محمد بن أبي عامر يتولى قتل المغيرة . معسكر الصقالبة ومعسكر الأحرار . أخذ البيعة لهشام . وصف ابن الخطيب لأحوال الخلافة الأندلسية يومئذ . اجتماع السلطة في يدى الحاجب جعفر وابن أبي عامر . صبح البشكنسية أم المؤيد . ظهورها في بلاط قرطبة وتمكن نفوذها من الحكم . حظوة الحاجب جعفر لديها . محمد بن أبي عامر . أصله ونشأته . خلاله وطموحه . حظوته لدى صبح . [طبيعة العلائق بينهما . مصانعته للحاجب جعفر . نفوذه لدى صبح . جعفر المصحفى يتولى الحجابة وابن أبي عامر الوزارة . الصراع الخفى بين الرجلين . الخليفة الصبى هشام . شغفه باللهو واللعب . حجبه والحجر عليه . دور ابن أبي عامر في ذلك . طموحه في الاستئثار بالسلطة . الفتيان الصقالبة . تفاهم الحاجب وابن أبي عامر على سحقهم . ابن أبي عامر يتولى قيادة الجيش ويغزو أرض النصارى . الخلاف بين الحاجب والقائد غالب . مسير ابن أبي عامر وغالب إلى الغزو . ذيوع شهرة ابن أبي عامر . الصراع بينه وبين المصحفى . محاولة المصحفى التفاهم مع غالب . ابن أبي عامر يحبط خطته . مسير ابن أبي عامر وغالب ثانية إلى الغزو . زواج ابن أبي عامر من أسماء ابنه القائد . تولية غالب منصب الحجابة . تضاؤل مكانة المصحفى . إقالته والقبض عليه وعلى أهله . اشتداد ابن أبي عامر في مطاردته . وفاة المصحفى أو قتله في سجنه . شعر له في محنته . ابن أبي عامر يسحق خصومه ومنافسيه . اهتمامه بتنظيم الجيش . اصطناعه للبربر واضطهاده للعرب .

لما توفى الحكم المستنصر بالله ، في اليوم الثاني من صفر سنة ٣٦٦ هـ ، حرص خادماه الخصيان ، الفتيان فائق وجوذر ، على كتمان خبر موته ، وقاما بضبط القصر ، واتخاذ التدابير اللازمة ، لتسيير الأمور وفق الخطة التي وضعاها . وكانت هذه الخطة ، تنحصر في تنحية ولى العهد الصبي هشام عن العرش ، واختيار عمه أخي المستنصر ، المغيرة بن عبد الرحمن الناصر ، لولاية العرش ، وكان الفتيان الصقالبة داخل القصر ، زهاء ألف ، ولهم نفوذ عظيم ، وفي يدهم الحرس الخليفي ومعظمه من الصقالبة والمرتزقة . فكانوا بذلك قوة يخشى بأسها .

استدعى فائق وجوذر ، الحاجب جعفر بن عثمان المُصْحَفى ، ونبأه بموت الخليفة وعرضا عليه مشروعهما ، في تولية المغيرة ، فتظاهر الحاجب بالاستحسان والموافقة ، ووعدهما بالعمل وفق خطتهما ، وتنفيذ ما يشيران به . ثم خرج ،

فبادر إلى ضبط أبواب القصر ، واستدعى أصحابه من خاصة الحكم ، مثل زياد بن أفلح مولى الحكم ، وقاسم بن محمد ، ومحمد بن أبى عامر ، وهشام بن محمد بن عثمان وغيرهم . واستدعى فى نفس الوقت عصبته وأشياعه من زعماء البربر ، مثل بنى برزال ، كما استدعى سائر القادة الأحرار ، فاجتمع له منهم ومن أجنادهم طوائف ضخمة . فنعى لهم الخليفة ، وعرض عليهم مشروع الفتيان الصقالبة ، فى تنحية هشام وتولية المغيرة ، وأوضح لهم أن هذا المشروع خطر داهم عليهم ، وأنه إذا ولى المغيرة ، واستبد الصقالبة بالأمر ، قضى عليهم وعلى دولتهم ونفوذهم ، ونكل بهم المغيرة والصقالبة . والأمر بالعكس إذا ولى هشام ولى العهد الشرعى ، فإنهم يستبقون سلطانهم ونفوذهم ، وتغدو الدولة دولتهم ، ويأمنون على أنفسهم وأموالهم . فاقترح بعض أصحابه أن يقتل المغيرة ، فيؤمن بذلك شره فى الحال والاستقبال ، وتطوع محمد بن أبى عامر لتنفيذ هذه المهمة الدموية ، حفظاً للوئام والوحدة ؛ فبعث جعفر معه سرية من الجند الأحرار الموثوق فيهم ، وسار معه بدر القائد مولى الحكم ، فى سرية من غلمان الخليفة . وأحاط الجند بدار المغيرة ، ثم نفذ محمد بن أبى عامر فى نفر من أصحابه ، ونبأه بموت الخليفة وجلوس ابنه هشام ، وأنه أتى ليتبين حقيقة موقفه ، فذعر المغيرة وأكد لا بن أبى عامر ، أنه مطيع مخلص لكل ما تقرر ، وتضرع إليه أن يحقن دمه ، وأن يراجع القوم فى أمره . ولكن الرد كان قاطعاً فى وجوب التخلص من المغيرة ، فدفع إليه ابن أبى عامر عدة من رجاله ، فقتلوه خنقاً أمام زوجته ، ثم أشاعوا أنه قتل نفسه ، ودفن فى نفس مجلسه ، وكان سنه يوم قتل سبعاً وعشرين سنة . ووقع ذلك كله فى يوم واحد فقط .

ولما وقف الفتيان فائق وجوذر على ما وقع ، تملكهما السخط والروع ، وبادرا إلى الحاجب جعفر ، وتظاهرا بالرضا والاستبشار بما وقع ، واعتذرا له عما سبق أن اقترحا عليه ، وأخذ الفريقان من ذلك الحين ، يتوجس كل من صاحبه ويتربص به ، وانقسم أهل القصر إلى معسكرين ، معسكر الصقالبة يتزعمه فائق وجوذر ، ومعسكر الأحرار يتزعمه الحاجب جعفر ومحمد بن أبى عامر[1]

---

(١) نقل إلينا ابن بسام فى الذخيرة هذه التفاصيل عن ابن حيان ( الذخيرة – القسم الرابع المجلد الأول ص ٤٠ و ٤١ ) . ونقلها أيضاً صاحب البيان المغرب ج ٢ ص ٢٧٨ – ٢٨٠ .

وسنرى فيما بعد ، كيف تطورت هذه المعركة الخفية بين المعسكرين .

* * *

وهكذا وقع الاتفاق على تولية هشام ، وأخذت له البيعة فى صبيحة اليوم التالى لوفاة أبيه الحكم ، وهو يوم الإثنين الثالث من صفر سنة ٣٦٦ هـ ( أول أكتوبر سنة ٩٧٦ م ) . فأجلس الخليفة الصبى هشام ، فى كرسى الخلافة ، ولما يجاوز الثانية عشرة من عمره . وتولى أخذ البيعة له الحاجب جعفر ومحمد ابن أبى عامر ، ولم يعترض أحد على توليته . واستمر أخذ البيعة أياماً ، وكتب بها إلى الأقطار ، فلم يردها أحد . وينقل إلينا ابن الخطيب ، عن ابن حيان ، مئات من أسماء الوزراء والعلماء والقضاة والأكابر ، من مختلف الطبقات ، الذين أخذوا البيعة لهشام ، ومنهم كثيرون ، ممن اشتركوا فى أخذ البيعة له بولاية العهد ، فى حياة أبيه[1] .

ويصف لنا ابن الخطيب حالة الخلافة الأندلسية ، وأحوال الأندلس ، عند ولاية هشام ، فيما يأتى : « بويع ولى عهده ( أى الحكم ) هشام الملقب بالمؤيد بالله والخلافة قد بلغت المنتهى ، وأدركت الجنى ، وبلغ طورها ، وانتهى دورها ، فكانت كمامة ثم زهرة بسّامة ، ثم ثمرة بهية ، ثم فاكهة شهية ؛ وكان بكرسى العامرية مجلاها ، ثم تلاها ما تلاها ، وأرخص الحظوظ من أعلاها ، فكان المال قد ضاقت عنه خزائنه ، والمصر قد عظمت مزاياه ومزاينه ، والملك تعوذ بالله ، أن لا يصيبه عائنهُ الذى يعاينه ، والمبانى قد بلغت السماء سمواً ، وزاحمت الكواكب علواً ، والبلاد وقد بلغ فيها إلى أقاصى الاهتمام ، وفرغت بناتها من لبنات التمام ، والآثار الصالحة قد تخلدت ، والمآثر الواضحة قد تعددت ، والأذهان فى بسطة الإسلام قد تبلدت ، ورسم الخلاف قد أمحى ، والدولة المراونية قد بركت وسط المرعى ، والدعوة قد انتشرت فى المغرب الأقصى »[2] .

* * *

وهكذا تمت البيعة لهشام المؤيد ، بين يوم وليلة ، وقضى على كل معارضة ، وتوارى الأعمام وبنو العم ، واجتمعت مقاليد السلطة فى أيدى رجلين ، هما الحاجب

---

( ١ ) أعمال الأعلام ص ٤٨ . وقد شغلت أسماء الذين أخذوا البيعة لهشام تسع صفحات كاملة . ( ٤٨ — ٥٧ ) .

( ٢ ) أعمال الأعلام ص ٤٣ و ٤٤ .

جعفر بن عثمان المصحفى ، ومحمد بن أبى عامر ، وهو يومئذ مدير الشرطة ، ومتولى خطة المواريث ، وناظر الحشم . بيد أنه من الخطأ أن يقال إن السلطة ، قد خلصت لهذين الرجلين وحدهما ؛ فقد كان ثمة شخصية ثالثة تشاطرهما السلطان من وراء ستار . تلك هى « صبح » البشكنسية حظية الحكم وأم ولده هشام الخليفة الصبى ، وكانت قد منحت الوصاية على ولدها ، واكتسبت بذلك صفة شرعية فى الاشتراك فى الحكم وتدبير الشئون .

فمن ذلك كانت تلك المرأة ، التى لبثت ردحاً طويلا من الزمن ، تسيطر بسحرها ونفوذها ، على خلافة قرطبة ، وتشترك فى تدبير شئونها ، فى السلام والحرب ، مع أعظم رجالات الأندلس ؟ لسنا نعرف الكثير عن نشأتها وحياتها الأولى . وكل ماتقدمه إلينا الرواية الإسلامية فى ذلك ، هو أن « صبحاً » كانت جارية بشكنسية أى نافارية . ولا تذكر الرواية إن كانت قد استرقت بالأسر فى بعض المواقع ، أم كانت رقيقاً بالملك والتداول ، ولكنها تصفها بالجارية والحظية ؛ وصبح أو صبيحة ترجمة لكلمة Aurora الفرنجية ، ومعناها الفجر أو الصباح الباكر ، وهو الاسم النصرانى الذى كانت تحمله صبح فيما يظهر[١] .

وظهرت صبح فى بلاط قرطبة فى أوائل عهد الحكم المستنصر ، وكانت فتاة رائعة الحسن والخلال ، فشغف بها الحكم ، وأغدق عليها حبه وعطفه ، وسماها «جعفر»[٢] ولم تلبث أن استأثرت لديه بكل نفوذ ورأى . ثم ازداد هذا النفوذ توطداً وتمكناً ، حينما رزق منها الحكم بولده عبد الرحمن ثم بولده هشام حسبما تقدم . ولم تك صبح يومئذ جارية أو حظية فقط ، بل كانت ملكة حقيقية ، ولا تشير الرواية الإسلامية إلى أنها غدت زوجة حرة للحكم المستنصر ، بعد أن كانت جارية وحظية . ولكن هنالك مايدل ، على أن صبحاً ، كانت تتمتع فى البلاط والحكومة بما يشبه مركز الملكة الشرعية . فالرواية الإسلامية تنعتها بالسيدة صبح أم المؤيد[٣] أو السيدة أم هشام . وتصفها التواريخ الإفرنجية «بالسلطانة صبح»[٤] . بيد أن

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٦٨ و ٢٦٩ . وكذلك Dozy : Hist. Vol, II. p. 100

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥١ و ٢٥٣ .

(٣) راجع الذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ٤٣ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٦٧ و ٢٨٢ .

(٤) Conde : Dominacion, V I. p. 480 & 493 ; Dozy : Hist. Vol, II. p. 190 & 195.

هناك ما يقطع مع ذلك بأنها بقيت من الوجهة الشرعية جارية « وأم ولد » فقط ، وأن الحكم توفى عنها دون تغيير فى مركزها الشرعى[١] .

استمرت صبح أيام الحكم ، تتمتع فى البلاط والحكومة ، بنفوذ لا حد له . وكان الحكم يثق بإخلاصها وحزمها ، ويستمع لرأيها فى معظم الشئون . وكانت كلمتها هى العليا ، فى تعيين الوزراء ورجال البطانة ، وكان الحاجب جعفر بن عثمان المصحفى ، يجتهد فى خدمتها وإرضائها ، ويستأثر لديها ولدى الحكم بنفوذ كبير . واستمرت الحال حيناً على ذلك ، حتى دخلت فى الميدان شخصية جديدة قدر لها أن تضطلع فيما بعد بأعظم قسط فى توجيه مصاير الأندلس . تلك هى شخصية محمد بن أبى عامر الذى تقدم ذكره غير مرة ، والذى رأيناه فى أواخر عهد الحكم يشغل منصب مدير الشرطة وناظر الخاص .

كان محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أبى عامر المعافرى ، يرجع إلى أصل من أعرق الأصول العربية . وكان جده عبد الملك بن عامر المعافرى ، أول من دخل الأندلس مع الفاتحين موسى وطارق ، وظهر فى الفتح بشجاعته وحسن بلائه . ونزلت أسرة بنى عامر بالجزيرة الخضراء ، وأقطعت حصن طرُّش الواقع على نهر وادى يارُه ، الذى يصب على مقربة من جبل طارق ، وظهرت بالعلم والوجاهة ، وتولى كثير من أبنائها مناصب القضاء والإدارة ؛ وولد محمد بن أبى عامر بحصن طرُّش وأنفق فيه حداثته . وكان أبوه عبد الله ، المكنى بأبى حفص من أهل العلم والتقى ، عالماً بالحديث والشريعة ، وكانت أمه بريهة بنت يحيى تنتمى إلى بنى تميم . ونشأ محمد على تقاليد أسرته ، مؤثراً حياة الدرس ، ووفد على قرطبة حدَثاً ، ودرس فى معاهدها درساً مستفيضاً ، وبرع فى الأدب والشريعة ، وكان من أساتذته العلامة اللغوى أبو على القالى البغدادى ، وأبو بكر بن القوطية ، والمحدث أبو بكر بن معاوية القرشى ؛ وكان طموحاً مضطرم النفس والعزم ، رفيع المواهب والخلال . وتنوه بهذا الطموح المدهش معظم الروايات المعاصرة واللاحقة[٢] : وكان محمد بن أبى عامر فى نحو

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٦٩ . والمعجب للمراكشى ص ٧٤ .

(٢) الحلة السيراء ص ١٤٨ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٧٤ ، والذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ٢٤٣ . والإحاطة فى أخبار غرناطة ( القاهرة ١٩٥٦ ) ص ٤٧٤ .

السابعة والعشرين من عمره ، حينما أراد الخليفة الحكم أن يعين مشرفاً لإدارة أملاك ولده عبد الرحمن ، ورشحه الحاجب جعفر فيمن رشح لتولى هذا المنصب ، وأعجبت صبح بذكائه وحسن روائه ، وظرف شمائله ، فاختارته دون غيره ، وعين بمرتب قدره خمسة عشر ديناراً فى الشهر ، وذلك فى أوائل سنة ٣٥٦ هـ ( ٩٦٧ م )[1] . ولما توفى عبد الرحمن طفلا ، عين مشرفاً لإدارة أملاك أخيه هشام ، وتقدم فى وظائف الدولة بسرعة . فأضيف إليه النظر على الخزانة العامة . وعلى أمانة دار السكة ، ثم عين للنظر على خطة المواريث (٣٥٨ هـ) ، فقاضياً لكورة إشبيلية ولبلة . ثم عينه الحكم مديراً للشرطة الوسطى ( ٣٦١ هـ ) . وفى أواخر أيامه عينه ناظراً على الحشم ( الخاص ) . ويقدم إلينا ابن حيان وظائف ابن أبى عامر فى أواخر أيام الحكم على النحو الآتى : صاحب الشرطة الوسطى ، والمواريث ، وقاضى إشبيلية ، ووكيل الأمير أبى الوليد هشام ، وكان عندئذ يلقب « بفتى الدولة »[2] .

وهكذا وصل محمد بن أبى عامر إلى أرفع وظائف الدولة والقصر فى أعوام قلائل . ويرجع الفضل فى تقدمه بتلك السرعة ، أولا إلى مواهبه وكفاياته الباهرة ، ثم يرجع بالأخص إلى عطف صبح وحمايتها له . وقد انتهى هذا العطف غير بعيد إلى النتيجة الطبيعية : كانت صبح امرأة حسناء ، لا تزال فى زهرة العمر ، وما زال قلبها يضطرم حباً وجوى ، وكان سيدها الحكم قد أشرف على الستين ، وهدمه الإعياء والمرض ؛ أما ابن أبى عامر فقد كان فتى فى نضرة الشباب ، وسيم المحيا ، حسن القد والتكوين ، ساحر الخلال ، وكان من جهة أخرى يفتن فى خدمة صبح وإرضائها ، ولاينفك يغمرها بنفيس الهدايا والتحف ، حتى لقد أهداها ذات مرة نموذج قصر من الفضة ، بديع الصنع والزخرف ، أنفق عليه مالا عظيماً ، ولم ير مثله من قبل بين تحف القصر وذخائره ، وشهده أهل قرطبة حين حمل من دار ابن أبى عامر إلى القصر ، فكان منظراً يخلب اللب ، وبثوا

---

( ١ ) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٦٧ . وينقل إلينا المقرى رواية أخرى عن اتصال ابن أبى عامر بصبح ، خلاصتها أنه كان يجلس فى دكان عند باب القصر ، ليكتب للخدم والمترافعين للسلطان ، إلى أن طلبت صبح من يكتب عنها ، فعرفها به بعض من كان يأنس الجلوس إليه من فتيان القصر : فاستحسنت كتابته ، وعينته أميناً لبعض شئونها ( نفح الطيب ج ١ ص ١٨٧ ) .

( ٢ ) المقتبس — قطعة أكاديمية التاريخ — ص ١٠٦ .

يتحدثون بشأنه حيناً ؛ فكانت هذه العناية تقع من قلب صبح أحسن موقع ، وتزيدها عطفاً على ابن أبى عامر وشغفاً به . وكان الحكم يشهد هذا السحر الذى ينفثه ابن أبى عامر إلى حظيته ، وإلى نساء القصر جميعاً ، ويعجب له . ويروى أنه قال يوماً لبعض ثقاته : « ما الذى استلطف به هذا الفتى حرمنا حتى ملك قلوبهن ، مع اجتماع زخرف الدنيا عندهن ، حتى صرن لايصفن إلا هداياه ، ولا يرضين إلا ما أتاه ، إنه لساحر عظيم أو خادم لبيب ، وإنى خائف على ما بيده »[1] .

ولم تلبث علائق صبح وابن أبى عامر أن ذاعت ، وغدت حديث أهل قرطبة ، ولم يك ثمة ريب فى أنها استحالت غير بعيد إلى علائق غرامية . وربما ارتاب الحكم فى طبيعة هذه العلائق ، وثاب له رأى فى نكبة ابن أبى عامر ، وسعى لديه بعض خصومه ، واتهمه بأنه يبدد الأموال العامة ، التى عين للنظر عليها ، فى شراء التحف والإنفاق على أصدقائه ، فأمره الحكم أن يقدم حساب الخزانة العامة ، ليتحقق من سلامتها ، وقد كان بالخزانة فى الواقع عجز كبير ، فهرع ابن أبى عامر إلى صديقه الوزير ابن حُدير ، وكان وافر الوجاهة والثراء ، فأغاثه وأعانه بماله على تدارك هذا العجز ، وتقدم إلى الحكم سليم العهدة برىء الذمة ، فزالت شكوكه ، وتوطدت ثقته فيه .

واستمر ابن أبى عامر متمتعاً بنفوذه وسلطانه ، يندبه الحكم لعظائم المهام والشئون ، وكان آخرها ما عهد إليه من تنظيم البيعة بولاية العهد لولده هشام حسبما تقدم ؛ وابن أبى عامر خلال ذلك كله ، يحرص على عطف صبح ، ويستزيده ويصانع الحاجب جعفر ، ويجتهد فى إرضائه وكسب ثقته ؛ وكان بين الرجلين تباين يفيد منه ابن أبى عامر ، فقد كان الحاجب جعفر على ما يديه من التواضع والبشر والترفق بالناس ، قليل الجود ، مؤثراً لجمع المال . وكان ابن أبى عامر على نقيضه فى ذلك ، فكان واسع البذل والجود ، حريصاً على اصطناع الرجال ، وكانت داره الفخمة بضاحية الرُّصافة ، مقصد الناس من كل صوب ، وكانت مائدته معدة دائماً ، وكان بذلك كله يخلق جواً من الحب والإعجاب ، ويجتذب الصحب والأنصار ، بسحر خلاله ، ووافر بذله ومروءته ، وبارع وسائله وأساليبه[2] .

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٦٨ .

(٢) الذخيرة — القسم الرابع المجلد الأول ص ٤٢ . والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٧٥ .

فلما توفى الحكم المستنصر ، وأسندت الخلافة إلى ولده الطفل هشام ، اتخذت الأمور وضعاً جديداً ، ينذر بتطورات جديدة . وقد رأينا أى دور قام به ابن أبى عامر عندئذ ، من الانضمام إلى الحاجب جعفر فى معارضة الفتيان الصقالبة ، ومقتل مرشحهم للخلافة ، المغيرة بن عبد الرحمن الناصر .

* * *

وهكذا تحقق مشروع الحكم بجلوس ولده هشام ، وتحقق مشروع الثلاثة ذوى السلطان من بعده ؛ وكان طبيعياً أن تحرص صبح على تولية ولدها لتحكم باسمه ، وكان طبيعياً كذلك أن يؤازر ابن أبى عامر صاحبته المحسنة إليه ، ليستمر بواسطتها محتفظاً بسلطانه ونفوذه . أما الحاجب جعفر فقد كان له مثل ذلك الباعث فى تولية هشام ، إذ كان يخشى من تولية المغيرة ، وأوليائه الصقالبة ، على نفسه وعلى سلطانه . وهكذا جمعت البواعث والغايات المشتركة بين أولئك الثلاثة ، الذين قدر لهم أن يسيطروا على تراث الخلافة الأموية . ولكن هذا التحالف الذى أملته الضرورة المؤقتة ، لم يكن طبيعياً ولا سيما بين الحاجب جعفر ، ومنافسه القوى محمد بن أبى عامر . وكانت العلائق بين صبح وابن أبى عامر ، تزداد كل يوم توثقاً ، ولا سيما منذ وفاة الحكم . وكان ابن أبى عامر ، يرى فى تلك المرأة ، التى تجتمع فى يدها السلطة الشرعية ، بوصايتها على ولدها الطفل ، أداة صالحة هينة ، يستطيع أن يخضعها لإرادته ، ويسخرها لمعاونته ، على تحقيق مشاريعه البعيدة المدى . وكانت صبح من جانبها تغدق كل عطفها وثقتها ، على هذا الرجل القوى الذى سحرها بخلاله ، وقوة نفسه ، وباهر كفاياته ، وتضع فيه كل أملها لحماية العرش الذى يشغله ولدها الفتى ، فلم تمض أيام قلائل على تولية هشام ، حتى عين حاجب أبيه جعفراً المصحفى حاجباً له ، ورقى فى نفس الوقت ابن أبى عامر من خطة الشرطة إلى مرتبة الوزارة ، وجعله معاوناً للمصحفى فى تدبير دولته[1] . وبذلك أشرك ابن أبى عامر ، فى تولى السلطة المباشرة مع المصحفى ، ولم يعترض أحد من رجال القصر أو الدولة على ذلك الاختيار ، سوى الحاجب جعفر ، فقد كان يرى فى هذا التعيين انتقاصاً لسلطته ، ونكراناً لجميله ، بعد أن حمل أعباء السلطة كلها دهراً . وكان يرى فى ابن أبى عامر بالأخص منافساً يخشى

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٧٠ .

بأسه ، ويرتاب في نياته وأطماعه . ومن ذلك اليوم يضطرم بين الرجلين صراع عنيف صامت لم يك ثمة شك فى نتيجته . وكان ابن أبى عامر هو الأقوى بلا ريب ، سواء بمواهبه وقوة نفسه ، أو بموازرة صبح له . ولم تكن هذه الموازرة ترجع فقط إلى ذلك الحب القديم ، الذى تضطرم به جوانح صبح نحو ذلك الرجل القوى ، ولكنها كانت أيضاً ترجع إلى ثقة صبح فى مقدرته وبراعته ، وفى أنه هو الرجل الوحيد الذى يستطيع أن يحمى ملك ولدها الفتى ، وأن يوطد الأمن والسلام فى المملكة . كان ابن أبى عامر فى الواقع هو السيد المطلق ، وكانت صبح تفوض إليه كل سلطة وكل أمر ، فكان يدير الشئون كلها بمهارة ، تثير إعجاب خصومه وأصدقائه على السواء .

وكان الخليفة الفتى هشام المؤيد بالله ، ميالا بطبيعته وسنه إلى اللهو والدعة ، ولم يكن له شىء من تلك الخلال الرفيعة ، التى تهيىء الأمراء للاضطلاع بمهام الملك ، فكان يلزم القصر والحدائق ، ويقضى كل أوقاته فى اللهو واللعب ، بين الخصيان وآلات الطرب ؛ وكان ابن أبى عامر وصبح يشجعان هذه الميول السيئة فى نفس الأمير ، ويريانها ملائمة لمقاصدهما[1]. ومذ ولى هشام ، حجر عليه ابن أبى عامر ، ولم يسمح لأحد غيره برؤيته أو مخاطبته ، وكان يحمل صبحاً بدهائه وقوة عزمه ، على أن تختلق الأعذار لحجب ولدها ، حتى غدا هشام شبه معتقل أو سجين . وفى ذلك يقول لنا مؤرخ أندلسى : « حجر المنصور ابن أبى عامر على هشام المؤيد ، بحيث لم يره أحد مذ ولى الحجابة ، وربما أركبه بعض سنين ، وجعل عليه برنساً فلا يعرف ، وإذا سافر وكل من يفعل به ذلك »[2]. ويقدم إلينا ابن الخطيب تلك الصورة عن الخليفة هشام : « ولما كان هشام مندرجاً فى طى كافله الحاجب المنصور ، بحيث لا ينسب إليه تدبير ، ولا يرجع إليه من الأمور قليل ولا كثير ، إذ كان فى نفسه وأصل تركيبه مضعفاً مهيناً مشغولا بالنزهات ، ولعب الصبيان والبنات ، وفى الكبر بمجالسة النساء ومحادثة الإماء ، يحرص بزعمه على اكتساب البركات والآلات المنسوبات »[3] . وفى الفرص النادرة ، التى كان يسمح فيها للأمير بالخروج ، كان ابن أبى عامر يتخذ أشد

---

(١) Dozy : Hist. Vol. II. p. 227

(٢) راجع نفح الطيب ج ١ ص ٢٧٦ .

(٣) أعمال الأعلام ص ٥٨ .

التحوطات ، فيحيط موكب الأمير حين يخترق شوارع قرطبة ، بصفوف كثيفة من الجند ، تمنع الشعب من رؤيته أو الاقتراب منه . وكان حجب هشام على هذا النحو ، عماد ذلك الانقلاب العظيم الذى اعتزم ابن أبى عامر ، أن يحدثه فى نظم الدولة ، لتمكين سلطانه وجمع سلطات الخلافة كلها فى يده .

وكان لابد لتحقيق هذه الغاية الكبرى ، أن يسحق ابن أبى عامر كل سلطة أخرى تعترض سبيله . وكان الصقالبة وعددهم نحو ألف ، لايزالون قوة يحسب حسابها ، وكذا كان الحاجب جعفر بن عثمان المصحفى ، مايزال يحكم منصبه وتأييد عصبته ، مسيطراً على السلطة العليا . وكانت الوحشة ماتزال قائمة بين الحاجب وبين الصقالبة ، مذ تسبب فى فشل مشروعهم لتولية المغيرة بن عبد الرحمن ، وحصد شوكتهم بتوليته هشام . وكان الحاجب يخشى غدرهم ودسائسهم . وبلغه أن فريقاً من زعمائهم ، وعلى رأسهم الفتيان جوذر وفائق ، يدبرون مؤامرة لقلب نظام الحكم ، فاتخذ بعض التحوطات ، ووضع الفتيان تحت الرقابة ، وأغلق باب الحديد ، الذى كان مخصصاً بدخولهم ودخول أصحابهم إلى القصر ، وقصر دخولهم مع بقية الناس على باب السُّدة ، وفصل الغلمان من أصحاب جوذر وفائق ، وتفاهم مع ابن أبى عامر على إلحاقهم بحاشيته ، وكانوا زهاء خمسمائة ، فقبل ابن أبى عامر خدمتهم وفخم بهم شأنه ، ثم انحاز إليه بنو برزال ، وكانوا قبلا من أصحاب الحاجب جعفر ، فقوى بهم أمره ، ولم يمض سوى قليل حتى استقال زعيم الصقالبة الفتى جوذر ، وشعر الصقالبة بأن نجمهم قد أفل ، وسلطانهم قد انهار ، فسرى بينهم التذمر ، واجتمع المتمردون حول فتى من زعمائهم يدعى درّى . فتفاهم الحاجب وابن أبى عامر على إزالته ، فدعى إلى بيت الوزارة لسؤاله عن أمور نسبت إليه وإلى عماله من رعيته فى بياسة ؛ ولما قدم درى ورأى كثرة الجند ، شعر بالشر ، وأراد العودة فمنعه ابن أبى عامر ، فهجم عليه وأراد أن يبطش به ، فصاح ابن أبى عامر بالجند ، فهرع إليه بنو برزال وانهالوا عليه ضرباً ، ثم حمل إلى داره وقتل فى نفس المساء . ورأى ابن أبى عامر الفرصة سانحة لسحق الصقالبة ، فأمر كبيرهم فائقاً وباقى زعمائهم بالتزام دورهم ، وفرق بذلك شملهم . ثم جد فى مطاردتهم واستصفاء أموالهم ، وفشى فيهم القتل والنفى ، حتى هلك الكثير منهم ، وأبعد الفتى فائق فى النهاية إلى

ميورقة فمات هناك ، وانهار بذلك سلطان الصقالبة ، وأمن الحاجب وزميله ابن أبي عامر شرهم ، وتقلد الحاجب جعفر أمر القصر والحُرم بدلا منهم :

ويبدي ابن حيان ارتياحه لسحق الصقالبة واستئصال شأفتهم على هذا النحو . وقد كان الصقالبة في البداية زينة للدولة والبلاط ، وكان ظهورهم بجموعهم المتألقة وأزيائهم الفخمة ، يسبغ على القصر ، وعلى مواكب الخلافة ، طابعاً من الأبهة والعظمة . ولكنهم منذ استأثروا بثقة الخليفة ، وبسطوا سلطانهم على القصر والدولة ، اشتد طغيانهم ، وثقلت وطأتهم على أهل الدولة ، وعلى الشعب قاطبة[1] .

وسنحت بعد ذلك بقليل فرصة أخرى ، لكي يوطد ابن أبي عامر قدمه في السلطة ، ويبسط نفوذه على الجيش عصب كل سلطان حقيقي . وذلك أن القشتاليين ، كانوا قد انتهزوا فرصة مرض الحكم ، وانشغال المسلمين عقب وفاته ، فدفعوا غاراتهم جنوباً ، ووصلوا إلى مقربة من العاصمة ذاتها ، ولم يبد الحاجب في ذلك ، ما كان واجباً من الهمة والنجدة ، فاهتم ابن أبي عامر ، وأشار إلى الحاجب جعفر بتجهيز الجيش واستئناف الجهاد ؛ ولكن الحاجب لم يجد من القادة من يعهد إليه بتلك المهمة ، فتقدم ابن أبي عامر للاضطلاع بها ، وجهز المال والجند ، وأشرف بنفسه على اختيار الجند . وخرج من قرطبة في رجب سنة ٣٦٦هـ ( فبراير ٩٧٧ م ) ، وسار شمالا إلى أراضي قشتالة ، ثم عطف غرباً حتى أحواز شلمنقة ، وحاصر حصن الحامة ، ومكانه اليوم محلة تسمى بالإسبانية « لوس بانيوس Los Baños » (الحمامات) ، وتقع في جنوب بلدة (بخار) في السفح الغربي لجبال جريدوس ، ثم استولى على الحصن وربضه ، وقفل راجعاً إلى قرطبة ، مثقلا بالأسرى والغنائم ، وذلك لثلاثة وخمسين يوماً من خروجه إلى الغزو[2] .

وكان لهذا الظفر الحربي الأول ، الذي حقق على يد ابن أبي عامر ، أكبر الأثر في نفوس الجند ، ونفوس الشعوب قاطبة ، فقد رأى الجند فيه قائدهم المظفر ، وقد استولى على قلوبهم ببذله ووفرة عطائه ، ورأى فيه الشعب حامي المملكة والمدافع عنها ، وكان لهذه البداية نتائج بعيدة المدى .

ولم تمض أسابيع قلائل على ذلك حتى تأهب ابن أبي عامر للسير إلى غزوته

---

( ١ ) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٨٠ و ٢٨١ . والذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ٤٤ .

( ٢ ) الذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ٤٥ . والبيان المغرب ج ٢ ص ٣٨٢ . وكذلك Dozy : Hist. Vol. II. p. 208.

الثانية ؛ وكانت قد وقعت ثمة ظروف جديدة زادت فى توطيد مركزه ، وفى إضعاف مركز الحاجب جعفر . وكان بين الحاجب ، وبين القائد غالب بن عبد الرحمن صاحب مدينة سالم ، وأعظم فرسان الأندلس ، عداء مستحكم ، زاده ما تقوّل به الحاجب على غالب ، من تقصيره فى الدفاع عن الحدود الشمالية ، وعجزه عن رد النصارى ، فانتهز ابن أبى عامر هذه الفرصة ليضم غالباً إلى جانبه ، وسعى إلى خدمته والدفاع عنه لدى صبح ، ولدى الخليفة ، حتى خرج المرسوم برفعه إلى خطة «ذى الوزارتين» ، وبأن يندب لقيادة جيش الثغر ، وأن يندب ابن أبى عامر لقيادة جيش الحضرة . وخرج ابن أبى عامر على أثر ذلك بالجيش إلى غزوته الثانية ، وذلك فى يوم عيد الفطر سنة ٣٦٦ هـ (مايو ٩٧٧ م) ، فالتقى بغالب وجيشه فى محلة مجريط [١] على طريق وادى الحجارة ، واخترق الجيشان معاً أراضى قشتالة القديمة ، واستولى المسلمون على حصن مولة ، وأصابوا كثيراً من الغنائم والسبى . وكان لجيش غالب التفوق فى الأعمال الحربية فى تلك المنطقة ، ولكن غالباً تنحى عن ذلك لابن أبى عامر ، وارتد بجيشه إلى الثغر ، بعد أن توثق بينهما التحالف ، والتفاهم على سحق الحاجب جعفر عدوهما المشترك ؛ وقفل ابن أبى عامر إلى قرطبة بالغنائم والسبى ، وقد نسب إليه فخر الظفر على الأعداء ، فزاد صيته ، وارتفعت هيبته ، وتمكنت منزلته لدى الخليفة ، وازداد الشعب حوله التفافاً وله حباً [٢].

وهنا بدت طلائع المعركة الحاسمة بين ابن أبى عامر وجعفر المصحفى . فما كاد ابن أبى عامر يصل إلى قرطبة ، حتى خرج أمر الخليفة بعزل محمد بن جعفر ولد الحاجب عن حكمها ، وتقليده لابن أبى عامر ، وبذلك تم لابن أبى عامر السيطرة على المدينة والجيش معاً . وكانت قرطبة تعانى قبل توليه حكمها من اضطراب الأمور ، واختلال الأمن ، وذيوع الفساد والفسق ، فضبط أمرها وقمع أهل الشر والدعارة ، فساد بها الهدوء والأمن . ثم استخلف ابن أبى عامر على حكم المدينة ابن عمه عمرو بن عبد الله بن أبى عامر . فسار على طريقته ، فى

---

(١) هى محلة وقلعة حصينة أنشأها الأمير محمد بن عبد الرحمن فوق سفح جبال وادى الرملة على مقربة من طليطلة لصد غارات النصارى . ولبثت تؤدى مهمتها الدفاعية ، حتى سقطت فى أيدى النصارى فى سنة ٤٧٦ هـ (١٠٨٣م) . وعلى موقعها القديم أنشئت مدينة مدريد الحديثة .

(٢) الذخيرة — القسم الرابع ج ١ ص ٤٦ و ٤٧ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٨٣ .

انتهاج الحزم والشدة فى ضبط الأمور ، ومطاردة أهل البغى والعدوان . كل ذلك والحاجب جعفر ، يشهد سلطانه يغيض شيئاً فشيئاً ، وسلطان ابن أبى عامر فى صعود وتمكن مستمر ، ويشهد انصراف الخليفة والشعب عنه ، ويشعر فى قرارة نفسه بدنو الخاتمة المحتومة .

وخطر للحاجب جعفر أن يقف هذا التحول الخطر ، باستمالة القائد غالب ومصالحته ، فطلب يد ابنته أسماء زوجاً لابنه محمد ، فاستجاب غالب إلى طلبه ، وكادت تتم المصاهرة ، ولكن سرعان ما علم ابن أبى عامر بذلك المشروع ، فثارت نفسه ، وكتب إلى غالب يناشده الولاء ، ويخطب ابنته لنفسه ، وعضده فى ذلك أهل القصر ، فنزل غالب على تلك الرغبة ، وعدل إلى مصاهرة ابن أبى عامر ، وتم العقد فى أوائل المحرم سنة ٣٦٧ هـ ( ٩٧٧ م ) . ولم يمض قليل على ذلك حتى خرج ابن أبى عامر إلى غزوته الثالثة ، فسار إلى طليطلة فى أوائل صفر ، حيث التقى مع صهره غالب . وسار الإثنان فى قواتهما شمالا ، وافتتحا فى طريقهما بعض الحصون ، ثم قصدا إلى مدينة شلمنقة الواقعة جنوب غربى مملكة ليون فافتتحاها ، وعاثا فى أرباضها ، واستوليا على كثير من الغنائم والسبى ؛ وعاد ابن أبى عامر إلى قرطبة لأربعة وثلاثين يوماً فقط من خروجه ، ومعه عدد عظيم من رؤوس النصارى . فاغتبط الخليفة بصنعه ، ورفعه إلى خطة الوزارتين أسوة بصهره غالب ، ورفع راتبه إلى ثمانين ديناراً فى الشهر ، وهو راتب الحجابة فى ذلك العصر .

وما كاد ابن أبى عامر يستقر فى قرطبة ، حتى اتخذت الأهبة لإتمام زفافه . فأحضرت أسماء إلى العاصمة فى موكب فخم ، وكانت من أجمل نساء عصرها وأوفرهن ثقافة وسحراً ، وكانت قد تزوجت لأول مرة بالوزير ابن حُدير أيام الحكم ، ثم طلقت منه . وزفت أسماء إلى ابن أبى عامر ، فى حفلات كانت مضرب الأمثال فى البذخ والبهاء ، ونظم الاحتفال فى قصر الخليفة ، وبإشراف أمه صبح ، وأغدقت صبح على العروس أروع الهدايا والتحف . وكان زواجاً سعيداً موفقاً لبث مدى الحياة(١) ، وإن كان غالب قد خرج بعد ذلك بأعوام قلائل على صهره حسبما نفصل بعد .

---

( ١ ) الذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ٤٦ و ٤٧ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٨٤ و ٢٨٥ ، ونفح الطيب ج ١ ص ١٨٧ . وراجع أيضاً **Dozy : Hist. Vol. II. p. 214 & 215.**

واستقدم الخليفة غالباً من الثغر ، وقلده خطة الحجابة إلى جانب جعفر ، فكانت ضربة جديدة للحاجب . ولكن جعفراً لم يسعه إلا الإذعان والسكوت ، وقد أضحى يشعر شعوراً قوياً بالخطر المحدق به ، وبأنه لم يبق له من الحجابة سوى الاسم ، ولم ينخدع بما كان يبديه نحوه ابن أبى عامر من التلطف والمصانعة ، وهو يقبض دونه على كل شىء فى القصر والدولة .

وأخيراً وقعت النكبة المرتقبة ، ففى الثالث عشر من شعبان سنة ٣٦٧ هـ ، أصدر الخليفة أمره بإقالة الحاجب جعفر بن عثمان المصحفى ، والقبض عليه وعلى ولده وآله ، والتحفظ على أموالهم . وبادر ابن أبى عامر إلى محاسبتهم واستصفاء أموالهم ، وشدد فى مطاردتهم ، حتى مزقهم كل ممزق ، وعوجل هشام ابن أخى الحاجب فقتل فى مطبقه ، وكان من أشد الناس عداوة لابن أبى عامر ، وزج جعفر إلى ظلام السجن ، يعتقل فيه حيناً ، ثم يعتقل حيناً فى داره ، واضطر إزاء التشدد فى مطالبته أن يبيع داره الفخمة بالرُّصافة ، وكانت من أعظم دور قرطبة ، وأمعن ابن أبى عامر فى نكايته ، واستجوابه بمحضر من زملائه القدماء ؛ واستطالت محنة المُصْحفى أعواماً ، عانى خلالها أروع آلام المهانة والذلة ، وهو يستعطف ابن أبى عامر فلا يرحمه ؛ واستمر سجيناً فى مطبق الزهراء حتى توفى سنة ٣٧٢ هـ ( ٩٨٢ م ) . وقيل إنه قتل خنقاً فى مطبقه ، وقيل إنه دست إليه شربة مسمومة كانت سبب وفاته .

وكان المصحفى حسبما تقدم شاعراً جزلا ، وقد أذكت المحنة شاعريته ، وصدر عنه فى مطبقه كثير من القصائد المؤثرة . ومن ذلك قوله :

| | |
|---|---|
| صبرت على الأيام لما تولت | وألزمت نفسى صبرها فاستمرت |
| فياعجباً للقلب كيف اصطباره | وللنفس بعد العز كيف استذلت |
| وما النفس إلا حيث يجعلها الفتى | فإن طمعت تاقت وإلا تسلت |
| وكانت على الأيام نفسى عزيزة | فلما رأت صبرى على الذل ذلت |
| وقلت لها يانفس موتى كريمة | فقد كانت الدنيا لنا ثم ولت |

ويعلق ابن حيان على محنة المصحفى بقوله : « وكانت لله عند جعفر ، فى إيثاره هشاماً بخلافته ، واتباع شهوة نفسه وحظ دنياه ، وتسرعه إلى قتل المغيرة لأول وهلة ، دون قصاص جريرة استدركته دون إملاء ، فسلط

عليه من كان قدر أن يتسلط على الناس باسمه »[١] .

وهكذا سار ابن أبى عامر إلى غايته بسرعة مدهشة ، ولجأ فى تحقيقها إلى أذكى الوسائل وأشدها ، واستطاع بعزمه وصرامته وبارع خططه ، أن يسحق كل عقبة ، وأن يروع كل منافس ومناوئ . ويجمل ابن خلدون معركة ابن أبى عامر مع خصومه فى تلك العبارة القوية : « ثم تجرد لرؤساء الدولة ممن عانده وزاحمه ، فمال عليهم ، وحطهم عن مراتبهم ، وقتل بعضهم ببعض ، كل ذلك عن أمر هشام وتوقيعه ، حتى استأصل شأفتهم ، ومزق جموعهم »[٢] ؛ ولم يكن مهلك المصحفى ، بعد سحق الصقالبة ، سوى حلقة جديدة فى سلسلة المطاردة الشاملة التى نظمها ابن أبى عامر لاستئصال شأفة خصومه ومنافسيه . ذلك أنه جد فى نفس الوقت ، فى مطاردة كل من يخشى بأسه من بنى أمية أو غيرهم من زعماء القبائل ، حتى سحق كل من يصلح منهم للولاية والرياسة ، ومزقهم فى البلاد شر ممزق ، كل ذلك تحت شعار حمايته للمؤيد وللعرش ، وفى ذلك يقول شاعر من شعراء العصر :

أبنى أميـــة أين أقمـــار الدجى ... منكم وأين نجومها والكوكب

غابت أسود منـــكم عن غابهـــا ... فلذاك حاز الملك هـــذا الثعلب

ولما خلا الجو لابن أبى عامر من أولياء الخلافة ، والمرشحين للرياسة ، اهتم بتنظيم الجيش . فأنشأ صفوفاً جديدة من المرتزقة من زنانة وصنهاجه وغيرهما من قبائل البربر ، ومن الجند النصارى من ليون وقشتالة ونافار ، وبذل لهم الأجور السخية ، واجتذب ولاءهم بعدله ورفقه وجوده . وغير أنظمة الجيش القديمة ، فقدم رجال البربر ، وأخر زعماء العرب ، وأقصاهم عن مناصبهم ، وفرق جند القبيلة الواحدة فى صفوف مختلفة ، وكانوا من قبل ينتظمون فى صف واحد . وكان العرب يتمسكون منذ أيام الفتح بوحدة القبيلة ، لأن العصبية كانت فى قبائلهم حتى أيام الناصر ، ما تزال فتية قوية ، ولكن الناصر عمل على سحق القبائل العربية ، وإضعاف هيبتها ، وجاء ابن أبى عامر فألفى الميدان ممهداً لخططه ، فلم تلق سياسته الجديدة كبير معارضة[٣] .

---

(١) راجع فى محنة المصحفى ، الذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ٤٨ و ٤٩ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٨٥ — ٢٨٨ ، والحلة السيراء ص ١٤٢ .

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٧ .

(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ٣١٦ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٤٨ ، ونفح الطيب ج ص ١٣٧ . وراجع : **Dozy : Hist. Vol. II. p. 232 & 233**

# الكتاب الثالث

# الدّولة العامريّة

٣٦٨ – ٣٩٩ هـ : ٩٧٨ – ١٠٠٩ م

# الفصل الأول

## الحاجب المنصـــــور

ابن أبى عامر يطمح إلى حلل الملك . إنشاؤه لمدينة الزاهرة وانتقاله إليها . يؤلف حرسه من الصقالبة والبربر . تشدده فى الحجر على هشام . موقف صبح من ذلك . ذيوع علاقتها مع ابن أبى عامر . تحولها إلى خصومته والتشهير به . تفاهمها مع القائد غالب . التفاف المعارضين حوله . جعفر بن حمدون الأندلسى يتولى الوزارة . تقاطر البربر من العدوة . الوحشة بين ابن أبى عامر وغالب . نهوض غالب لمحاربته . استعانته بملك ليون . القتال بين غالب وابن أبى عامر . مصرع غالب وهزيمة قواته . الموقعة حسبما يصفها ابن حزم . غزوات ابن أبى عامر . غايته من القيام بها . مسيره إلى ليون ومحاصرته لسمورة . هزيمته للنصارى فى شنت منكش . توغله فى ليون ثم عوده إلى قرطبة . إتخاذه لسمة الملك وتسميه بالحاجب المنصور . غدره بجعفر الأندلسى . الحرب الأهلية فى ليون . اعتراف برمودو بطاعة المنصور . مسير المنصور إلى الغزو . يخترق شرق الأندلس ويغزو قطلونية . اقتحامه لبرشلونة وتدميرها . حوادث المغرب . مسير الحسن بن كنون إلى غزو المغرب . المنصور يرسل جيشاً لقتاله . مطاردة الحسن وإرغامه على طلب الأمان . مسيره إلى قرطبة واغتياله . ندب الوزير السلمى لحكم المغرب . إجتماع قبائل البربر حوله . مسير زيرى زعيم مغراوة إلى قرطبة . القتال بين السلمى وبنى يفرن . مقتله وولاية زيرى حكم المغرب . مسير زيرى ثانية إلى قرطبة . عوده وخيبة أمله . غز بنى يفرن لفاس واحتلالها . القتال بين مغراوة وبنى يفرن . اشتداد ساعد زيرى . إنشاؤه لمدينة وجدة . غزو المنصور لليون واستيلاؤه على قلمرية . غزوه لناڤار . ما تزعمه الرواية النصرانية . عود المنصور إلى غزو ليون . اقتحامه لمدينة ليون وتدميرها . استيلاؤه على سمورة . حوادث الثغر الأعلى . عبد الله ولد المنصور . تآمره مع عبد الرحمن التجيبى والى سرقسطة وآخرين . وقوف المنصور على المؤامرة فى خروجه إلى الغزو . اعتقاله لعبد الرحمن التجيبى . فرار عبدالله والتجاؤه إلى غرسية أمير قشتالة . غزو المنصور لقشتالة وهزيمة أميرها . غرسية يرسل عبدالله استجابة لطلب المنصور . إعدامه . تأملات عن هذا الحادث . سانشو ابن غرسية يخرج عليه بتحريض المنصور . المنصور يغزو قشتالة ويستولى على شنت إشتيبن وكلونية . قصة الأيل الذى أهداه صاعد إلى المنصور . مسير المنصور إلى غزو ليون . إذعان برمودو وتعهده بأداء الجزية . المنصور يرشح ولده عبد الملك للولاية من بعده ويوليه الحجابة . اقتصاره على التسمى « بالمنصور » . اختصاصه بألقاب السيادة . إحجامه عن المساس بالخلافة . عوامل هذا الإحجام . موقف صبح أم المؤيد . اتصالها بزيرى حاكم المغرب . تحوطات المنصور . تفاهمه مع هشام وموكبهما المشترك . يأس صبح ووفاتها . الوحشة بين المنصور وزيرى . مسير عبد الملك إلى العدوة لمحاربة زيرى . هزيمة البربر وسقوط فاس . عبد الملك يولى حكم المغرب . الصلح بين زيرى والمنصور . المنصور يغزو جليقية . اختراقه لأراضى البرتغال . استيلاؤه على بازو وقلمرية . توغله فى جليقية ومسيره إلى شنت ياقب . يهدم أسوارها وكنيستها العظمى . مسيره شمالا حتى ثغر لاكروڤيه . عوده من طريق لاميجو إلى قرطبة . ملك ليون يطلب

الصلح . غزوة أخرى لقشتالة . موقعة صخرة جربيرة . اقتحام المنصور لمدينة برغش . غزوه لنافار . آخر غزوات المنصور . ما تقوله الرواية الإسلامية . موقعة قلعة النسور . ما تقوله عنها الرواية النصرانية . آراء البحث الحديث فى شأنها . مرض المنصور ووفاته . قبره بمدينة سالم .

أضحى ابن أبى عامر ، بعد أن قضى على كل خصومه ومنافسيه ، وحده ، سيد الميدان ، وأضحى بعد أن وضع يده على الجيش ، صاحب السلطة العليا دون منازع ولا مدافع . ولم يكن الخليفة هشام المؤيد ، بعد ذلك ، سوى أداة لينة فى يد المتغلب القوى ، يوجهها كيف يشاء .

على أن ابن أبى عامر لم يقنع بما حققه لنفسه من الاستئثار بالسلطة الفعلية . وعلى الرغم من أنه لم يفكر يومئذ فى الافتئات على شيء من رسوم الخلافة الشرعية ، فإنه اتجه إلى أن يتشح بحلل الملك فى صورة من صوره ، فتكون له ثوباً خلاباً ، يتوج سلطانه الفعلى ، بمظاهر العظمة والأبهة الملوكية .

ولم يكن اتجاه ابن أبى عامر يقف عند تحقيق المظهر دون غيره ، ولكن كانت لديه أسباب عملية قوية ، تدعو إلى التحوط من أخطار التآمر والغيلة ، وقد أصبح يخشى على نفسه من الوجود فى قصر الزهراء ، ومما قد يضمره بعض الحاقدين المتربصين[1] ، ورأى أن يتخذ له مركزاً مستقلا للإدارة والحكم ، يجمع بين السلامة ومظاهر السلطان والعظمة . فوضع أسس مدينة ملوكية جديدة أسماها الزاهرة ( ٣٦٨ هـ — ٩٧٨ م ) . وقد اختلف فى الموقع الذى كانت تحتله الزاهرة لأن البحوث الأثرية الحديثة لم تكشف شيئاً من معالمها ، مثلما فعلت بالنسبة لمدينة الزهراء . ويقول البعض إنها كانت تحتل بسيطاً يقع جنوب شرقى قرطبة فى منحنى نهر الوادى الكبير ، وعلى قيد أميال قليلة منها . ويقول البعض الآخر إنها كانت تحتل بقعة على مقربة من شرقى قرطبة على الضفة الجنوبية لنهر الوادى الكبير[2] . وأنشأ المنصور بالزاهرة قصراً ملوكياً فخماً ، ومسجداً ، ودواوين للإدارة والحكم ، ومساكن للبطانة والحرس ، وأقام حولها سوراً ضخماً ، ونقل إليها خزائن المال والسلاح ، وإدارات الحكم ؛ وتم بناء المدينة الجديدة فى نحو عامين ، وأقطع ما حولها للوزراء والقادة ، وأكابر رجال الدولة ، فابتنوا الدور العظيمة ، وأنشئت الشوارع والأسواق الفسيحة ، واتصلت أرباضها بأرباض قرطبة ،

---

( ١ ) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٩٤ ، وأعمال الأعلام ٦٢ .

( ٢ ) وهذا يستفاد من أقوال ابن حزم فى « طوق الحمامة » ص ١١٠ .

وأضحت تنافس المدينة الخليفية فى الضخامة والرونق .

وفى أوائل سنة ٣٧٠هـ (٩٨٠م) ، انتقل محمد بن أبى عامر إلى مدينة الزاهرة ، واتخذ له حرساً خاصاً من الصقالبة والبربر ، وأحاط قصره الجديد بالحراس والحاشية ، يرقبون كل حركة وسكنة فى الداخل والخارج ، وأقفرت بذلك مدينة الزهراء الخليفية ، وهجر الوزراء والكبراء قصر الخليفة ، وساد الصمت حول مركز الخلافة الشرعى ؛ وأنشأ ابن أبى عامر فى نفس الوقت حول القصر الخليفى سوراً وخندقاً ، وأحكم غلق أبوابه ، ووكل بها من يمنع دخول أى شخص أو نبأ إلى الخليفة دون علمه وإذنه . وبث عيونه على هشام وحاشيته ، وأشاع أنه قد فوض إليه النظر فى سائر شئون المملكة ، لكى يتفرغ لشئون العبادة . وهكذا أهمل شأن الخليفة الفتى ، وقطعت سائر علائقه مع الخارج ، ولبث محجوباً فى أعماق قصره ، يغمره الخمول والنسيان[١] .

ماذا كان موقف صبح إزاء هذا الانقلاب الحاسم فى مركز ولدها ومركز الخلافة ؟ لاريب أنها كانت بموقفها وتصرفها ، أكبر معين لابن أبى عامر على إحداثه ، وكان حبها المضطرم لذلك الرجل الذى ملك عليها كل مشاعرها وعقلها ، يدفعها دائماً إلى مؤازرته والإذعان لرأيه ، وكان إعجابها الشديد بمقدرته وتوفيقه يضاعف ثقتها به ، ويعميها دائماً عن إدراك الغاية الخطيرة التى يسعى إلى تحقيقها ، هذا إذا لم نفترض أن تلك البشكنسية المضطرمة الجوانح ، كانت تذهب فى حبها إلى حد الائتمار بولدها وتضحية حقوقه ومصالحه . والظاهر أن علائقها بابن أبى عامر قد انتهت بالخروج عن كل تحفظ ، وغدت فضيحة قصر ذائعة ، شهر بها مجتمع قرطبة ، وتناولها بلاذع التعليق والهجو ، وظهرت بهذه المناسبة قصائد وأناشيد شعبية كثيرة ، فى التشهير بحجر ابن أبى عامر على هشام وعلائقه بصبح ، فمن ذلك ما قيل على لسان هشام فى الشكوى من الحجر عليه :

أليس من العجائب أن مثلى ... يرى ما قل ممتنعاً عليه
وتملك باسمه الدنيا جميعاً ... وما من ذاك شىء فى يديه[٢]

ومن ذلك ما قيل فى هشام وأمه صبح ، وقاضيه ابن السليم :

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٩٥ و ٢٩٦ و ٢٩٧ و ٢٩٨ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٤٨ والحلة السيراء ص ١٤٩ ، ونفح الطيب ج ١ ص ٢٧٢ .

(٢) هذان البيتان ينسبان أيضاً إلى المقتدر العباسى .

اقترب الوعـــد وحان الهـــلاك وكل ما تحـــذره قد أتـــاك
خليفـــة يلعب فى مكتب أمه حبـــلى وقاض . . .(١)

وهذه الأناشيد اللاذعة وأمثالها تعبر عن روح العصر ، وتدل على ما كان يثيره موقف صبح وسمعتها ، من الحملات المرة . وتتفق الرواية الإسلامية فى الإشارة إلى هذه العلاقة الغرامية التى استطال أمدها ، بين صبح وابن أبى عامر ، وإن كانت تؤثر التحفظ والاحتشام ، ولم نجد ما يعارضها سوى كلمة أوردها المقرى لكاتب مغربى يدافع فيها عن ابن أبى عامر ، ويدفع عن صبح تهمة شغفها به ، ويرمى أولئك الشعراء بالتحامل والكذب (٢).

على أنه يبدو أن الحوادث قد بدأت تتطور من ذلك الحين ، وأن موقف صبح قد بدأ يتخذ وجهة أخرى. فقد أدركت صبح أخيراً ما يرمى إليه ابن أبى عامر ، وأدركت خطورته على مستقبل ولدها ، ومستقبل الأسرة والخلافة ، فثارت نفسها سخطاً . وكانت صبح قد جاوزت الأربعين يومئذ ، وقد تصرم ذلك الحب القديم ، الذى شغفها بابن أبى عامر دهراً ، وأضحت تبغض ذلك الرجل الذى سلب ولدها ، وسلبها كل نفوذ وسلطة ، ومن ذلك الحين تنقلب صبح إلى خصومة ابن أبى عامر ومقاومته . وقد كان من الصعب ، إزاء عزم ابن ابى عامر ويقظته ، وسلطانه الشامل ، ان تستطيع صبح القيام بأية عمل مباشر ، فلجأت عندئذ إلى العمل المستتر ، وأخذت تبث فى نفس ولدها هشام ، بغض ابن أبى عامر والسعى إلى مناوأته واسترداد سلطانه منه ، وتولى مقاليد الحكم بنفسه ، وشهرت بواسطة أعوانها من الناقمين ، على ابن أبى عامر ، دعاية شديدة ، واتهمته بأنه يسجن الخليفة الشرعى ويحكم رغم إرادته ويغتصب سلطته . والظاهر أن صبحاً لم تقف عند هذا الحد من المقاومة الأدبية ، وأنها حاولت فى نفس الوقت ، أن تقوم بمحاولة عملية لمقاومة ابن أبى عامر وإسقاطه .

وربما كان لتدبير صبح وتحريضها ، أثر فيما وقع يومئذ بين ابن أبى عامر وصهره القائد غالب ، صاحب مدينة سالم . وكان غالب بالرغم من تقلده خطة الوزارة ، يقيم بالثغر بعيداً عن قرطبة . وكان يتمتع فى قرطبة وسائر مدن الأندلس

(١) البيان المغرب عن ابن حيان ج ٢ ص ٣٠٠ ، ونفح الطيب ج ١ ص ٢٨١ .
(٢) راجع نفح الطيب ج ١ ص ٢٨٢ .

بسمعة عالية فى ميدان الفروسية والقيادة ، وهو ما كان ينقمه ابن أبى عامر على صهره . وكان المعارضون يرون فيه الرجل الوحيد ، الذى يستطيع أن يقارع ابن أبى عامر ويقاومه . فرأى ابن أبى عامر أن يرفع إلى مرتبة الوزارة جعفر بن على ابن حمدون المعروف بالأندلسى ، وكان من مشاهير الفرسان والقادة البربر من زناته ، وكان مقيما بالعدوة ، فعبر البحر إلى الأندلس ، واستقر فى الوزارة ، يكنفه ابن أبى عامر بحبه وثقته ، ويستعين به على تأليف البربر وكسب محبتهم ، ولاسيما بعد أن غدوا يؤلفون معظم حرسه وحاشيته. وتقاطر البربر من العدوة ، وابن أبى عامر يستقبلهم بأوفر ضروب البذل والإحسان ، ويقوى بهم صفوفه وبطانته . وكان غالب يستشعر الوحشة والريبة من تصرفات صهره ، ويتوقع منها سوء العاقبة . ولم يمض قليل حتى ساء التفاهم بين غالب وصهره ، فعمد غالب إلى مصانعة ابن أبى عامر ، ودعاه أثناء غزوه بالصائفة فى أراضى قشتالة ، إلى وليمة أقامها بمدينة أنتيسة(١) ، إحدى مدن الثغر التى تحت ولايته ، وجاء ابن أبى عامر إلى القلعة حيث أقيمت الوليمة ، فى بعض أصحابه ، فانفرد به غالب وشرع فى عتابه . ثم اشتد بينهما النقاش ، فشهر غالب سيفه على صهره فجأة ، فأصابه فى بعض أنامله وصدغه ، واستطاع ابن أبى عامر أن يفر ناجياً بنفسه ، من مأزق بالغ الخطورة . وامتنع غالب بالقلعة ، بينما سار ابن أبى عامر لفوره إلى مدينة سالم ، حيث دار غالب وأهله ، فاستولى عليها وعلى سائر أمواله ومتاعه ، وفرقها فى الجيش ، وعاد إلى الحضرة ، وهو يضمر لغالب أسوأ النيات .

وكان غالب أعظم قادة الأندلس وأبرعهم فى ذلك العصر ، وكانت لديه فى الثغر قوات يعتد بها ، فنهض لقتال قوات ابن أبى عامر ، وغلب عليها ، فى البداية غير مرة . ثم رأى أن يستعين براميرو الثالث ملك ليون ، فأمده ببعض قواته . وسار ابن أبى عامر لمقارعة خصمه فى معركة حاسمة . ووقع اللقاء بين الفريقين أمام حصن شنت بجنت San Vicente على مقربة من أنتيسة ، ونشبت بينهما معركة شديدة ، أبلى فيها غالب وقواته بلاء حسناً وكاد يحرز النصر فى البداية ، ولكنه ما لبث أن سقط ميتاً عن جواده خلال المعمعة ، ولم يعرف سبب مصرعه لأنه لم يقتل بيد أحد ، وحملت رأسه فى الحال إلى ابن أبى عامر ، فدب الوهن

(١) وهى بالإسبانية Atienza . وهى تقع شمال وادى الحجارة ، على مقربة من غربى مدينة سالم .

والذعر إلى قوانه ، وطاردتها قوات الأندلس ، وأمعنت فيها قتلا وأسراً ، وهلك من الجند النصارى الذين كانوا يقاتلون إلى جانب غالب عدد جم . وكان بين القتلى أمير نصرانى هو راميرو ابن سانشو أباركا من أمراء البشكنس[1] . وقتل كذلك فى المعركة عدة من الكبراء والقادة المسلمين ، الذين كانوا مثل غالب يعارضون سياسة ابن أبى عامر . وكان ذلك فى الرابع من محرم سنة ٣٧١ هـ ( أغسطس سنة ٩٨١ م )[2] .

وقد روى الفيلسوف ابن حزم عن أبيه الوزير ابن حزم ، وزير ابن أبى عامر ، وكان ممن صحبه فى تلك الموقعة ، تفاصيل الموقعة حسبما شهدها . وهو يصف لنا هيئة القائد غالب خلال الموقعة فى قوله : « وهو شيخ كبير قد قارب الثمانين عاماً وهو على فرسه ، وفى رأسه طرطور عال ، وقد عصب حاجبيه بعصابة » قال : وكان قد جمع جموعاً عظيمة من المسلمين والنصارى ، فبدأ بالهجوم على الميمنة ، وفيها جعفر بن على وأخوه يحيى والبربر ، وحمل عليهم حملة ، أزاحتهم عن مواقعهم ، ومزقت صفوفهم ؛ ثم حمل على الميسرة ، وكان فيها الوزير ابن حزم مع غيره من الرؤساء ، ففعل بها كما فعل بالأولى . ثم أخذ يتأهب لمهاجمة القلب ، وهو تحت قيادة ابن أبى عامر نفسه ، وهو يقول : « اللهم إن كنت أصلح للمسلمين من ابن أبى عامر فانصرنى ، وإن كان هو الأصلح لهم فانصره » . ثم يصف لنا ابن حزم مصرع غالب على النحو الآتى ، قال : « ثم هز فرسه ، وترك جهة القتال وأخذ ناحية إلى خندق كان فى جانب عسكره ، فظن أصحابه أنه يريد الخلاء ، فلما أبطأ عليهم ركبت طائفة منهم نحوه ، فوجدوه قد سقط إلى الأرض ميتاً ، وقد فارق الدنيا بلا ضربة ولا رمية ولا أثر ، وفرسه واقف بجانبه يعلك لحامه ، ولا يعلم أحد سبب موته . فلما أدرك أصحابه سقط فى أيديهم ، وطلبوا حظ أنفسهم ، فبادر مبادر منهم بالبشرى إلى ابن أبى عامر ، فلم يصدق حتى وافى مواف بخاتمه ، ووافاه آخر بيده ، ووافاه آخر برأسه » .

هذا وقد بلغت القسوة بابن أبى عامر ، أن أمر بالتمثيل بجثمان خصمه الصريع

---

( ١ ) وهو الذى تسميه الرواية العربية برذمير بن شانجه ويعرف « براى قرجة » .

( ٢ ) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٩٨ و ٢٩٩ ، وأعمال الأعلام ص ٦٢ و ٦٣ . وكذلك Dozy : Hist. Vol. II. p. 233 & 234

الباسل ، فحشى جلده بالقطن ، وصلب على باب القصر بقرطبة ، وصلب رأسه على باب الزاهرة ، ولبث كذلك دهراً ، حتى أدركه الفيلسوف ابن حزم نفسه ، وهو فتى ، وذلك عند إنزاله يوم هدم الزاهرة فى سنة ٣٩٩ هـ ( ١٠٠٨ م )(١).

* * *

وهنا تبدأ سلسلة هذه الغزوات الشهيرة العديدة ، التى شهرها ابن أبى عامر على الممالك الإسبانية النصرانية ، واستمر يضطلع بها باستمرار ودون هوادة ، والتى خرج منها جميعاً متوجاً بغار الظفر ، ولم يهزم فى أية واحدة منها .

وتتحدث معظم الروايات الإسلامية عن حروب ابن أبى عامر وغزواته بإفاضة ، وتعددها بأكثر من خمسين غزوة . ولكنها لا تقدم إلينا عنها تفاصيل واضحة ، ولاسيما عن الزمان والمكان(٢) ، ويجمل ابن خلدون ذكرها فى قوله : « وردد الغزو بنفسه إلى دار الحرب ، فغزا اثنين وخمسين غزوة فى سائر أيام ملكه ، لم ينكسر له فيها راية ولا فل له جيش ، ولا أصيب له بعث ولا هلكت سرية »(٣) .

وتجمل الرواية الإسلامية بواعث هذه الغزوات المستمرة فى نزعة الجهاد . ولكن الحقيقة هى أن ابن أبى عامر ، كان باضطلاعه بتلك الغزوات المتعاقبة يرمى إلى غاية سياسية بعيدة المدى ، لم يفكر فيها أحد قبله من أمراء الأندلس ، أو لم يجد لديه وسيلة أو مقدرة لتنفيذها . ذلك أنه فكر فى أن يسحق الممالك الإسبانية النصرانية سحقاً تاماً ، وأن يقضى على استقلالها القومى ، وأن يخضعها جميعاً إلى سلطة الخلافة . وقد خالف ابن أبى عامر فى غزواته ، سنن أسلافه من الأمراء والقادة ، فقد كان هؤلاء يحاربون فى معظم الأحيان للدفاع ورد غارات النصارى ، ولكن ابن أبى عامر كان هو البادئ بالحرب دائماً ، ولم يقبل من أعدائه قط صلحاً أو مهادنة ، ولم يقنع إلا بالنصر الكامل .

---

( ١ ) راجع رواية ابن حزم فى رسالة « نقط العروس » ( المنشورة فى مجلة كلية الآداب بالقاهرة فى عدد ديسمبر سنة ١٩٥١ ) ص ٨١ و ٨٢ .

( ٢ ) ذكر ابن الأبار فى الحلة السيراء أن المؤرخ الكبير أبو مروان ابن حيان قد استوعب هذه الغزوات وفصلها فى كتابه الكبير الذى ألفه فى أخبار الدولة العامرية . ولكن هذا المؤلف لم يصل بعد إلينا ( ص ١٤٩ ) .

( ٣ ) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٨ . وكذلك ابن الأثير ج ٨ ص ٢٢٤ و ج ٩ ص ١٢ .

ولكن سوف نرى أن غزوات المنصور ، بالرغم من تحرى هذه الغاية البعيدة المدى ، وبالرغم مما كان يحالفها من الظفر المستمر ، لم تخرج فى مجموعها عن أساليب الصوائف والغزوات الإسلامية المأثورة ، ولم تتجه بالفعل إلى تحرى هذه الغاية الكبرى .

سار ابن أبى عامر عقب الفراغ من أمر صهره غالب ، إلى مملكة ليون ، ليعاقب ملكها راميرو الثالث على معاونته لخصمه غالب ، وتدخله على هذا النحو فى شئون الأندلس ، وقصد إلى مدينة سمورة الحصينة الواقعة شمالى شلمنقة ، وضرب حولها الحصار ( أوائل سنة ٣٧١ هـ الموافقة ٩٨١ م ) ولكنه لم يستطع الاستيلاء على قلعتها المنيعة بسرعة ، فتركها وعاث فيما حولها من السهول ، وأمعنت قواته فى التخريب والقتل ، وأحرقت مئات القرى والضياع ، وهام النصارى على وجوههم فى الجبال والوديان ألوفاً مؤلفة . وهرع راميرو الثالث إلى غرسية فرنانديز كونت قشتالة ، وسانشو ملك نافار ، وعقد الثلاثة تحالف المحاربة ابن أبى عامر ، وسارت قواتهم المشتركة للقائه . ونشب القتال بين الفريقين فى ظاهر بلدة « روضة » فى جنوب غربى « شنت منكش »(١) ، فهزم النصارى وقتل منهم عدد كبير ، واستولى المسلمون على قلعة شنت منكس الشهيرة ؛ ثم زحف ابن أبى عامر بعد ذلك شمالا إلى مدينة ليون عاصمة المملكة ، وهنالك وقف راميرو فى قواته محاولا اعتراضه ، وحاول المسلمون اقتحام المدينة ، ووصلوا فى هجومهم بالفعل إلى أبوابها ، ولكن الشتاء كان قد دخل ، وغمرهم البرد والثلوج ، فاضطروا إلى وقف القتال ، وعاد ابن أبى عامر إلى قرطبة بعد غزوات دامت بضعة أشهر(٢) .

وعلى أثر هذا النصر ، وفى أواسط سنة ٣٧١ هـ ( أواخر ٩٨١ م ) اتخذ ابن أبى عامر سمة الملك ، فتسمى بالحاجب المنصور ، وأمر بالدعاء له على المنابر ، ونفذت الكتب والأوامر باسمه عن « الحاجب المنصور أبى عامر محمد بن أبى عامر » ونقش اسمه فى السكة ، وجرى الوزراء ورجال الدولة على تقبيل يده ، عند المثول لديه ، واجتمعت حول شخصه ، وحول داره ، مظاهر الجلالة الملكية ، وتم بذلك استئثاره بجميع السلطات والرسوم ، ولم يبق من الخلافة الأموية سوى

---

(١) روضة هى بالإسبانية **Rueda** ، وشنت منكش هى **Simancas** .

(٢) **Dozy : Hist. Vol. II. p. 234—235 ; Recherches (3ème ed.) Vol. I. p. 180—181**

الاسم (١). هذا وسوف نجرى منذ الآن فصاعداً على تسمية ابن أبى عامر باسمه الملكى : المنصور .

وكان المنصور حين استقدم جعفراً بن على الأندلسى ، ورفعه إلى خطة الوزارة ليعارض به نفوذ القائد غالب ، وليوثق بوجوده مودة البربر وتأييدهم ، يتوجس مع ذلك من وجوده وسلطانه ، ويخشى أطماعه ومشاريعه ، فى الناحية الأخرى من البحر ، فما كاد ينتهى من أمر غالب ، ومن ترتيب رسومه الملكية ، حتى قرر أمره ، فدعاه ذات مساء إلى مأدبة حافلة ، وأغرى به السقاة حتى فقد وعيه ، ثم دس عليه فى طريقه إلى منزله من قتله ، وحمل إليه رأسه سراً (٣٧٢ هـ) . فتظاهر المنصور بالحزن على ضحيته ، وكانت هذه الجريمة المثيرة ، عنواناً لبعض النواحى القاتمة ، فى خلاله وفى وسائله السياسية (٢) .

وفى ذلك الحين كانت الأحوال قد اضطربت فى ليون ، وفقد راميرو الثالث من جراء هزائمه المتوالية كل عطف وتأييد ، وزاد الشعب نقمة عليه ، محاولاته فى توسيع سلطانه ، وتمكين حكمه المطلق . وما لبثت جليقية أهم ولاياته ، أن اضطرمت بالثورة ، وقرر أشرافها خلع راميرو ، وتولية ابن عمه برمودو ( أو برمند ) ملكاً مكانه . وفى أكتوبر سنة ٩٨٢ م ، توج هذا الأمير ملكاً على ليون فى مدينة شنت ياقب. فسار راميرو إلى محاربته ونشبت بينهما موقعة شديدة غير حاسمة ، فى بلدة بورتليا دى أريناس ، على حدود ليون وجليقية ، ثم عاد برمودو إلى جمع قواته ، وسار لمحاربة خصمه مرة أخرى ، فهزمه واستولى على مدينة ليون فى مارس سنة ٩٨٤ . فالتجأ راميرو إلى مدينة أسترقة ، والتمس مساعدة المنصور ، على أن يعترف بطاعته ؛ ولكنه توفى بعد ذلك بأشهر قلائل ؛ وحاولت أمه أن تحكم مكانه بمعاونة المنصور ، فأبى المنصور أن يستمع إليها وأدرك برمودو من جهة أخرى أنه لن يستطيع مقاومة الأشراف المعارضين لحكمه إلا بمعاونة المسلمين ، فتقدم إلى المنصور ، وعرض أن يعترف بطاعته ، فقبل المنصور وأمده بجيش ، استطاع ان يخضع به سائر المملكة ، وأن يوطد حكمه . وبقيت بعد ذلك فى مدينة ليون حامية كبيرة من المسلمين :

---

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٨ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٩٩ ، و ٣٠٠ .
(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠١ ، وأعمال الأعلام ص ٦٥ .

وهكذا غدت مملكة ليون الإسبانية النصرانية لأول مرة ، ولاية تابعة لحكومة قرطبة ، تؤدى لها الجزية ، وتأتمر بأوامرها ، وكانت هذه أول ثمرة لسياسة الغزو المنظم ، التى سار عليها المنصور .

وتحول اهتمام المنصور بعد ذلك إلى شمال شرقى الأندلس ، فحشد جيشاً ضخماً استعداداً لغزوة هامة ، لم تخطر من قبل لأحد من أمراء الأندلس . وخرج فى قواته من قرطبة فى ذى الحجة سنة ٣٧٤ هـ (مايو ٩٨٥ م) ، ومعه عدة من الكتاب والشعراء ، يجتمعون فى مجلسه خلال السير . وتوصف غزوة المنصور هذه بأنها الثالثة والعشرون . وسار المنصور جنوباً صوب إلبيرة ( غرناطة ) ، ثم اتجه شرقاً إلى بسطة ، فلورقة ، فتدمير ، فمرسية ، وأقام فى مرسية ثلاثة وعشرين يوماً فى ضيافة أحمد بن عبد الرحمن المعروف بدجيم بن مروان بن خطاب وولده أبى الأصبغ موسى . وكان ابن خطاب من أعظم رجالات الأندلس وجاهة وثراء وجوداً ؛ ومن المدهش حقاً ، ما تنقله إلينا الرواية ، من أنه استضاف المنصور وسائر حاشيته وجيشه خلال هذه المدة ، وتكفل بسائر النفقات ، وأبدى من ضروب الجود والبذخ ما يفوق قصص ألف ليلة وليلة ، وغدا بذلك من أعظم أصدقاء المنصور وأكثرهم حظوة لديه[1] .

وسار المنصور فى جيشه بعد ذلك شمالا . وكان يقصد ثغر برشلونة العظيم . وقد لبثت برشلونة منذ الفتح فى أيدى المسلمين نحو قرن من الزمان ، وكانت أعظم ثغور الأندلس الشمالية الشرقية ، ثم افتتحها عاهل الفرنج شارلمان أو كارل الأكبر فى سنة ٨٠١ م (١٨٥ هـ) أيام الحكم بن هشام ، بعد حصار طويل ، وبعد أن دافع المسلمون عنها أروع دفاع . واتخذ الفرنج من برشلونة قاعدة لولاية « الثغر القوطى » ، الذى نما فيما بعد ، واستطاع حكامه الكونتات القوط مع الزمن ، أن ينتزعوه من يد الفرنج ، وأن يجعلوا منه إمارة مستقلة ، هى إمارة قطلونية ، التى

---

(١) الحلة السيراء عن ابن حيان وابن الفياض ص ٢٥١ و ٢٥٢ و ٢٥٣ . هذا ويقدم إلينا العذرى نسبة ابن خطاب كاملة ، فهو أحمد بن عبد الرحمن المعروف بدجيم بن مروان بن خطاب بن محمد بن مروان بن خطاب بن عبد الجبار الداخل . ويقول لنا إنه استضاف المنصور وجميع عسكره أياماً ، وصنع له فيما صنع حماماً كان ماء الحمام من ماء الورد الطيب الغاية وأهدى له قناطر من الفضة الخالصة . ( العذرى فى كتاب ترصيع الأخبار السابق ذكره ص ١٥ ) .

حافظت عصراً على استقلالها ، ثم اندمجت بعد ذلك فى مملكة أراجون القوية[١].
واخترق المنصور بجيشه قطلونية ، وهزم قوات أميرها الكونت بوريل ، فى أواخر شهر يونيه ، وأشرف على ظاهر برشلونة فى اليوم الأول من يوليه ، ولم تمض أيام قلائل حتى اقتحم المسلمون المدينة ، ودخلوها فى يوم الاثنين منتصف صفر ، سنة ٣٧٥ هـ ، الموافق سادس يوليه سنة ٩٨٥ م[٢] . ودمر المسلمون المدينة وأحرقوها ، وقتلوا معظم أهلها ، وتركوها قاعاً صفصفاً ، وكان بين الأسرى أودلرادو نائب كونت برشلونة ، فاقتيد إلى قرطبة ، حيث قضى فى الأسر أعواماً طويلة . والظاهر أن المنصور لم يحاول الاحتفاظ ببرشلونة ، ولم تكن لديه نية افتتاحها بصورة دائمة ، ولكنه قصد أن يدمر قوى النصارى فى هذا الطرف النائى من شبه الجزيرة الإسبانية .

* * *

وما كاد المنصور يرتد بجيشه إلى قرطبة ، حتى استغرقت حوادث المغرب جل اهتمامه . وقد فصلنا فيما تقدم عند الكلام على عهد عبد الرحمن الناصر ، ثم عهد ولده الحكم المستنصر ، أدوار الصراع الذى نشب فى المغرب الأقصى ، بين الفاطميين منذ قامت دولتهم فى إفريقية ، وبين بنى أمية ، ورأينا كيف استطاع الحكم المستنصر ، بعد سلسلة من الأحداث المثيرة ، والمعارك الطاحنة ، بينه وبين الفاطميين وحلفائهم الأدارسة بالمغرب ، أن يقضى على قوى الشيعة والأدارسة ، وكيف استسلم إليه الأدارسة وكبير زعمائهم الحسن بن كنون فى سنة ٣٦٣ هـ ، واستقروا حيناً فى كنفه فى قرطبة ، ثم خرجوا منها بعد ذلك بعامين ، وساروا إلى مصر حيث استقروا بها فى كنف خليفتها الفاطمى العزيز بالله .

وكان العزيز قد شغل فى أوائل ولايته ، برد خطر القرامطة عن مصر والشام ؛ فلما تمت هزيمة القرامطة ، وزال خطرهم ( ٣٦٨ هـ ) ، عاد إلى الاهتمام بشئون المغرب ، وثاب له رأى فى العمل على استعادة سلطان الدعوة الفاطمية ، وسحق

---

( ١ ) راجع تفاصيل ذلك فى القسم الأول من العصر الأول من « دولة الإسلام فى الأندلس » ص ٢٣٤ — ٢٣٦ .

( ٢ ) تتفق الروايات النصرانية مع الرواية الإسلامية فى تحديد تاريخ دخول المسلمين لبرشلونة على هذا النحو . راجع الإحاطة لابن الخطيب ( القاهرة ) ج ٢ ص ٧١/ . وكذلك **Dozy : Hist. Vol. II. p. 239** والمراجع .

الدعوة المروانية فى المغرب الأقصى ، فأوعز إلى نائبه على إفريقية ( تونس ) بُلُكّين بن زيرى بن مناد الصنهاجى ، أن يسير فى قواته إلى المغرب ؛ فبدأ بلكين زحفه على المغرب سنة ٣٦٩ هـ ، فاستولى على مدينة فاس ، وهزم سائر الأمراء الذين تصدوا لمقاومته من زناتة وغيرهم ، وفر أولئك الأمراء المعارضون جميعاً إلى الشمال ، واعتصموا بسبتة ، وبعثوا إلى المنصور يستغيثون به . فعهد المنصور يومئذ ، إلى جعفر بن على بن حمدون المعروف بالأندلسى ، وهو من زعماء زناته بمحاربة بلكين ، وأمده بالجند والمال ، والتف حوله باقى الزعماء . ولكن بلكين استمر فى تقدمه ، رغم كل معارضة ، حتى استولى على المغرب كله ، ولم يبق منه بيد خصوم الشيعة سوى القطا الشمالى .

وفى سنة ٣٧٣هـ ( ٩٨٣م ) بعث العزيز بالله، الحسن بن كنّون زعيم الأدارسة، من مصر إلى المغرب تحقيقاً لملتمسه ، ليسعى إلى استرجاع ملكه ، وقلده عهده ، وأمر نائبه على المغرب بلكين أن يمده بالقوات اللازمة ؛ وكان العزيز ، ووزيره ابن كلّس تخالجهما ايضاً رغبة فى التخلص من الحسن وصحبه ، والتخفف من مؤنتهم(١). فسار الحسن إلى المغرب ، فى جيش صغير أمده به بلكين ، ودعا لنفسه ، فالتف حوله كثير من البربر ، ولاسيما بنى يفرن ، وجاهروا بطاعته ؛ وعلم المنصور بخبره ، فبعث ابن عمه الوزير أبا الحكم عمرو بن عبد الله بن عامر المعروف بعسكلاجة ، فى جيش كثيف ، إلى المغرب ، لقتاله والقضاء على دعوته ؛ فعبر البحر إلى سبتة لقتال الحسن ، وانضم إليه زعماء مغراوة فى قواتهم ، وفى مقدمتهم كبيرهم زيرى بن عطية بن خزر ، ثم بعث المنصور لإمداده جيشاً آخر إلى المغرب بقيادة ولده عبد الملك . وطارد عسكلاجة الحسن ، ثم أحاطه بقواته ، وحاصره حتى أرهقه الحصار ، ولم ير بداً من طلب الأمان والتسليم ، على أن يسير إلى الأندلس كسابق عهده ، فأجيب إلى طلبه ، وأرسل على عجل إلى قرطبة تحقيقاً لرغبة المنصور . ولما علم المنصور بمقدم الحسن ، آثر أن ينقض الأمان الذى منحه ابن عمه ، وأن يقضى على حياة ذلك الخصم العنيد ، الذى تكرر خروجه على حكومة قرطبة ، فأنفذ إليه من قتله فى الطريق وأتاه برأسه ، وذلك فى جمادى الأولى سنة ٣٧٥ هـ (أواخر سنة ٩٨٥ م) وانهارت بذلك دعوة الأدارسة

---

(١) « نبذ تاريخية فى أخبار البربر » ص ١٩ .

بالمغرب الأقصى ، وتفرق أنصارهم ، وركدت ريحهم .

وعلى أثر ذلك ندب المنصور لحكم المغرب الوزير الحسن بن أحمد بن عبد الودود السلمي ، ومنحه السلطان المطلق ، وأمره أن يعمل على استمالة البربر فى تلك الأقطار ، إذ يجب أن لا ننسى أن البربر كانوا للمنصور ظهيراً ، وعوناً على إخضاع القبائل العربية بالأندلس ، ومنهم اتخذ المنصور حاشيته وجنده ، وكثيراً من رجالات حكومته وجيشه . فسار الوزير إلى المغرب ( ٣٧٦ هـ ) ونزل بفاس ، وضبط شئون البلاد ، واجتمعت إليه أمراء زناته ومغراوة ، واتخذ من زعيم مغراوة زيرى بن عطية عوناً وحليفاً ، لما أبداه من إخلاص للدعوة المروانية وتأييدها . واستدعى المنصور زيرى للوفود عليه ، فسار إلى قرطبة ، واحتفى المنصور بمقدمه ، وأسبغ عليه كثيراً من مظاهر العطف والتكريم ، وأوعز إليه بمقاتلة بنى يفرن أولياء الفاطميين ؛ فلما عاد زيرى إلى المغرب سار مع الوزير الحسن إلى قتال بنى يفرن وزعيمهم يدُّو بن يَعلى ، ولكنه هزم ، وجرح الوزير الحسن ، ثم توفى متأثراً بجراحه (سنة ٣٨١ هـ) . فلما علم المنصور بذلك عقد لزيرى على المغرب ، وندبه لحكمه ، وأمره بضبط الأمور ، والتعاون مع جيش الخلافة ، وأصحاب الحسن ، فاضطلع زيرى بمهام الحكم بمقدرة وكفاية ، وكان حازماً ، قوى النفس والعزم ، فقوى أمره وتوطد سلطانه ، ولكنه لبث مشغولا بأمر خصومه من بنى يفرن وغيرهم ، ولبثت الحرب سجالا بينهم مدى حين[1] .

وفى سنة ٣٨٢ هـ ( ٩٩٢ م ) استدعى المنصور زيرى بن عطية ، للقدوم عليه للمرة الثانية ، فاستخلف زيرى على المغرب ولده المعز ، وسار إلى قرطبة ، وقدم إلى المنصور هدية عظيمة منها طيور نادرة ، وحيوانات غريبة ، وأسود ؛ فأكرم المنصور وفادته ، وأنزله بقصر المصحفى ، وغمره بالمال والصلات ، ومنحه لقب الوزارة ، وجدد له عهده على المغرب ، وعلى جميع ما غلب عليه ؛ ولكن زيرى لم يبتهج بلقب الوزارة ، بل بالعكس ساءه ذلك ، إذ كان يعتبر نفسه فى مرتبة الإمارة ، فعبر البحر إلى العدوة وفى نفسه مرارة وخيبة أمل . وما كاد يصل إلى طنجة حتى نمى إليه أن خصومه الألداء بنى يفرن وأميرهم يدُّو

---

( ١ ) راجع فى حوادث المغرب الأقصى ، ابن خلدون ج ٧ ص ٢٨ — ٣٠ ، والاستقصاء ج ١ ص ٨٨ — ٩٢ ، و « نبذ تاريخية فى أخبار البربر » ص ١٧ — ٢١ .

ابن يعلى ، قد انتهزوا فرصة غيبته ، فزحفوا على فاس واستولو عليها ، وقتلوا بها كثيراً من رجال مغراوة . فأسرع بالسير إلى فاس ، وهناك جمع قواته ، ونشبت بين مغراوة وبنى يفرن معارك عديدة متوالية ، قتل فيها كثير من الطائفتين وانتهت بهزيمة بنى يفرن ومقتل أميرهم يدُّو ، وبعث زيرى برأسه إلى المنصور (٣٨٣ هـ) .

وأصبح زيرى بعد هزيمة بنى يفرن وركود أمرهم ، أعظم أمراء الغرب قوة وبأساً ، واستقر سلطانه فى سائر أنحاء المغرب ، واستمر فى الظاهر على ولائه للمنصور ، وللدعوة الأموية . ولكن نفسه كانت تجيش بمشاريع أخرى . ولما كانت فاس بموقعها فى الطرف الغربى للمغرب ، وعلى مقربة من مواطن القبائل الخصيمة ، أصبحت لا تصلح لمشاريعه ، فقد اعتزم أن ينشئ لنفسه قاعدة جديدة ، فأنشأ مدينة وجدة الواقعة جنوبى شرقى مليلة ، وعلى مقربة من جنوب غربى تلمسان ، وابتنى بها قصبة منيعة وقصراً ، وأحاطها بأسوار ضخمة ، ونقل إليها أمواله وذخائره ، وسكنها بأهله وحشمه ، واتخذها قاعدة الحكم (سنة ٣٨٦ هـ — ٩٩٦ م) لموقعها المتوسط بين المغربين الأوسط والأقصى [١] .

* * *

ولنقف الآن قليلا فى تتبع حوادث المغرب ، لنعود إلى تتبع حوادث الأندلس ؛ ذلك أن المنصور سار على سنته من المضى فى غزو الممالك النصرانية . وكانت الأحوال فى ليون ما تزال بعيدة عن الإستقرار ، نظراً لما كان يضطرم بين حامية ليون المسلمة ، وبين النصارى من الشغب المستمر . وكان برمودو ملك ليون ، بعد أن استتب له الأمر ، يرقب الفرص لإخراج المسلمين من مملكته ، فجد فى جمع قواته ، وانقض ذات يوم على المسلمين ، وطاردهم إلى خارج حدوده ؛ فاضطر المنصور أن يرد بغزو ليون ؛ فسار فى قواته نحو الشمال مخترقاً أراضى ليون ، ثم سار غرباً إلى مدينة قُلُمرية ، الواقعة فى شمال البرتغال على مقربة من المحيط ، واستولى عليها فى يونيه سنة ٩٨٧ م (٣٧٨ هـ) ، وأمعن فى تخريبها حتى لبثت قاعاً صفصفاً مدى سبعة أعوام . وفى خلال ذلك كان البشكنس أو النافاريون قد أغاروا بقيادة ملكهم سانشو على أراضى الثغر الشمالى ، فسار المنصور إلى

(١) الإستقصاء ج ١ ص ٩٢ .

قتالهم وطاردهم حتى مدينة بنبلونة عاصمة نافار ؛ وهنا تقول الرواية النصرانية إن البشكنس انقلبوا إلى الهجوم ، وهزموا المسلمين ( أواخر ٩٨٧ م ) . ثم تزيد على ذلك أن جيشاً من الفرنسيين ، قد سار فى نفس الوقت إلى برشلونة ، تعاونه سفن من البحر ، فاستولى عليها ، ولم تلبث طويلا فى يد المسلمين . وقد رأينا فيما تقدم أن المسلمين حين غزوا برشلونة ، لم يقصدوا إلى الاحتفاظ بها ، بل اكتفوا بتخريبها وإحراقها .

على أن الرواية الإسلامية تحدثنا عن غزوة نافار هذه ، دون أن تشير أية إشارة إلى هزيمة المسلمين ، وهى تسميها بغزاة البياض ، وتضع تاريخها فى سنة ٣٧٩ هـ ( ٩٨٩ م ) ، وتقول لنا إن المنصور عاد بجيشه إلى سرقسطة ، حيث التقى هنالك بولده عبد الملك أثر عوده من حروب المغرب [١].

وما كادت تمضى أشهر قلائل ، حتى عاد المنصور لاستئناف الغزو ؛ فخرج فى ربيع سنة ٣٧٨ هـ ( ٩٨٨ م ) فى جيش ضخم ، وعبر نهر دويرة ، واخترق أراضى ليون شمالا ، فرابط برمودو فى معظم قواته بمدينة سمورة ، اعتقاداً منه أن المنصور سيبدأ بمهاجمتها ، ولكن المنصور سار تواً إلى مدينة ليون ، فقاومته حيناً لمناعة قلاعها ، ولكنه اقتحم أسوارها ، بعد قتال رائع ، قتل فيه قائدها الكونت جونزالفو كونثالث ، ودخلها المسلمون فخربوا صروحها ، وأبادوا سكانها ، وغادروها أطلالا دارسة . وسار المنصور بعد ذلك جنوباً إلى سمورة ، وأحرق فى طريقه عدداً من الأديار ومنها ديرى إسلونزا وسهاجون العظيمين ، وضرب الحصار حول المدينة ، فغادرها برمودو سراً ، واضطر السكان إلى تسليمها إلى المنصور ، فأمر بنهبها ، واضطر معظم نبلاء المملكة (الكونتات) إلى الاعتراف بطاعته ، ولم يبق بيد برمودو من مملكته ، سوى الرقعة الجبلية الشمالية الغربية من جليقية [٢] .

وفى العام التالى وقعت بالثغر الأعلى حوادث هامة . وكان الثغر الأعلى وقاعدته سرقسطة ، لوقوعه فى أقصى الشمال بعيداً عن قرطبة ، يغدو فى فرص

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠٢ و ٣٠٣ .

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٨١ . وكذلك **Crónica General ; ibid ; Vol. II. p. 446** و **Dozy : Hist. Vol. II. p. 244 & 245**

كثيرة مهداً للقلاقل والثورات المتعاقبة . وكان حكامه بنو هشام التجيبيون الذين غلبوا على بنى قسىّ ، وانتزعوا سرقسطة لأنفسهم ، منذ أيام الأمير عبد الله ، يتمتعون بنوع من الإستقلال المحلى ، ويحرصون على سلطانهم ، بالرغم من اعترافهم الإسمى بسلطان الحكومة المركزية . وكان حاكم الثغر الأعلى وهو يومئذ عبد الرحمن بن مطرّف التجيبى ، يرقب سياسة المنصور ، فى القضاء على سلطان الحكام المحليين ، بتوجس وحذر ، ويلتمس السبل لحماية سلطانه ، ولم يكن بعيداً عن التفكير فى التحالف مع جيرانه من النصارى ، فى نافار ، وقشتالة ، كما فعل أسلافه أيام الناصر ؛ ولكن تطور الحوادث جعله يتجه اتجاهاً آخر . ذلك أن عبد الله ابن المنصور بن أبى عامر ، كان ناقماً على أبيه لأنه يؤثر أخاه عبد الملك عليه ويصطفيه دونه ، ويوليه كل عطفه وثقته . وكان عبد الله يومئذ فتى فى الحادية والعشرين من عمره ، وكان يشعر أنه يتفوق فى الشجاعة والخلال على أخيه الأكبر ، ولكن المنصور كان يشك فى بنوة ولده عبد الله ، ويضن عليه بحبه وثقته ، ويخشى نياته ومشاريعه[1] . وكان عبد الله قد ذهب إلى سرقسطة ، ونزل عند صاحبها عبد الرحمن ، وهو متغير النفس على أبيه . فانتهز التجيبى الفرصة ، واستمال عبدالله إليه ، وأذكى حقده على أبيه ، وائتمر الإثنان على الوثوب بالمنصور فى أول فرصة والقضاء عليه ، على أن يقتسما ملك الأندلس ، فيستولى عبدالله على قرطبة وما والاها ، ويستولى عبد الرحمن على الثغر وأحوازه ، وانضم إليهما فى تلك المؤامرة بعض أكابر الجند ورجال الدولة ، من المعارضين للمنصور والناقمين عليه ، وفى مقدمتهم الوزير عبد الله بن عبد العزيز المروانى حاكم طليطلة المعروف بالربضى .

وترامت أخبار هذه المؤامرة الخطيرة إلى المنصور قبل نضجها ، فأعمل الحيلة فى استدعاء ولده عبد الله من سرقسطة ، وأبدى له كثيراً من الرفق والعطف ، وصرف الوزير المروانى عن حكم طليطلة صرفاً جميلا ، ثم أقاله بعد ذلك من الوزارة ، واعتقله بداره . ثم خرج بالصائفة غازياً إلى أراضى قشتالة ، واستدعى أمداد الثغور ، فتوافدت إلى لقائه ، وفيهم عبد الرحمن بن مطرف ورجاله . واجتمعت الحشود بقوات قرطبة فى مدينة وادى الحجارة . وهناك أجمع أهل

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠٥ و ٣٠٦ .

الثغور بوحى المنصور ، على الشكوى من عبد الرحمن بدعوى احتباسه لأرزاقهم ، فقرر المنصور إقالته ، ولكنه رأى استمالة لبنى هاشم ، أن يعين مكانه فى حكم سرقسطة ، ولده يحيى الملقب «بسماحة» ( نهاية صفر ٣٧٩ هـ ) . ولم تمض على ذلك أيام قلائل ، حتى أمر المنصور بالقبض على عبد الرحمن ، ومحاسبته ، ثم أعدم بأمره فيما بعد إثر عوده إلى الزاهرة(١) .

واستدعى المنصور فى نفس الوقت ولده عبد الله إلى معسكره خشية مما قد يقع منه . ثم سار فى قواته شمالا إلى شنت إشتيبن ، وبينما هو مشغول بحصارها ، إذ فر ولده عبد الله فى نفر من غلمانه ، ولحق بغرسية فرنانديز كونت قشتالة ، فوعده بحمايته وتأييده . فطالب المنصور غرسية بتسليم ولده ، وأقسم ألا يكف عن قتاله ، حتى ينزل على رغبته ، فأبى غرسية ، واضطرم القتال بين الفريقين ، وسار المنصور شرقاً ، واستولى على أوسمة (وخشمة) ووضع بها حامية إسلامية ، ثم استولى على « القبة » بعد ذلك بقليل ، وتوالت الهزائم على غرسية ، حتى اضطر أخيراً إلى أن يتضرع إلى المنصور أن يكف عنه ، وتعهد بإجابته إلى سائر مطالبه ؛ فقبل المنصور ضراعته ، وبعث غرسية عبد الله ، فى جماعة من القشتاليين ، فاستقباه سعد الخادم ، مع جماعة من الفرسان ، وقبل يده ولاطفه ، ثم تركه مع بعضهم ، فأنزلوه عن بغله ، وأخطروه أن يتأهب للموت ، فترجل عبد الله ، وقدم نفسه للموت هادئاً ، ثبت الجنان رائع الشجاعة ، فضرب عنقه عند غروب الشمس من يوم الأربعاء ١٤ جمادى الآخرة سنة ٣٨٠ هـ ( ٩ سبتمبر ٩٩٠ م ) وأنفذ برأسه فى الحال إلى والده المنصور ، فبعث به المنصور مع كتاب الفتح إلى الخليفة ، ودفن شلوه فى مكان مصرعه ، وكان عمره يوم إعدامه ثلاثة وعشرين عاماً . وكانت غزوة المنصور التى وقعت خلالها تلك الحوادث هى غزوته الخامسة والأربعون(٢).

وقد يبدو لنا المنصور ، بإقدامه على إزهاق ولده ، فى أشنع الصور وأروعها. ولكن يجب علينا أن نذكر الظروف التى اضطر فيها المنصور ، إلى اتخاذ تلك الخطوة المؤلمة ؛ فقد كان ائتمار عبد الله بأبيه ، وتحالفه أولا مع التجيبيين سادة الثغر ، وخصوم الحكومة المركزية منذ بعيد ، ثم التجاؤه بعد ذلك إلى أمير قشتالة

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠٤ .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠٤ و ٣٠٥ . وكذلك Dozy Hist.: Vol. II. p. 247 & 248

من أقطع الدلائل على مرض نفسه ، وخطورة مقصده ؛ ولو نجحت المؤامرة ، لقضى على سلطان المنصور ، وانهارت دعائم الدولة الإسلامية العظيمة ، التى نجح المنصور فى إقامتها وتوطيدها ، ولكان المنصور نفسه حسبما كان يعتقد ، من أول ضحاياها[١]، فما كان عبدالله ليتردد عندئذ فى إزهاق أبيه ليفسح المجال لنفسه ؛ ولقد كان تصرف المنصور قبل كل شىء تصرفاً سياسياً صارماً ، خلواً من كل عاطفة ، إلا عاطفة الاحتفاظ بالنفس والسلطان ، وكان للمنصور فى تصرفه المثير أسوة فى كل عصر ، وفى كل قطر ، بل كانت له أسوة فى بنى أمية أنفسهم من أمراء وخلفاء ، فقد قام عبد الرحمن الداخل بإزهاق ابن أخيه وأبناء عمومته ، وأقدم الأمير عبدالله على إزهاق إخوته الثلاثة ، وإزهاق ولديه ، ثم جاء الناصر لدين الله ، فأقدم على إزهاق ولده وأبناء عمومته ، كل ذلك بتهمة التآمر ، وحرصاً على السلطان . وقد كان القتل ، ومازال على كر العصور ، سلاح الطغاة الأقوياء ، يجعلونه سياجاً لطغيانهم ودولتهم ؛ وهكذا جعل المنصور مقتل ولده سياجاً لطغيانه فاهتز له الناس ، وملئوا وحشة وروعاً[٢] .

هذا وأما عبدالله بن عبد العزيز المروانى ، أحد أركان المؤامرة ، فقد استطاع الفرار فى الوقت المناسب ، والتجأ إلى حماية برمودو ملك ليون .

وكان من ذيول المؤامرة أن قرر المنصور أن يعاقب غرسية فرنانديز كونت قشتالة ، على ما ارتكبه فى حقه ، باغراء ولده عبد الله وحمايته ، فحرض ولده سانشو على الثورة عليه ، وأيده عدد كبير من الأشراف ، وانتهى سانشو بأن أعلن الحرب على أبيه ، وجاهر المنصور بتأييده ، ثم انتهز فرصة اضطرام هذه الحرب الأهلية ، وسار لمحاربة الكونت ، واستولى على شنت إشتبن وكلونية . ثم ترك جزءاً من قواته لمتابعة الصائفة وعاد إلى قرطبة .

وهنا تقدم الرواية الإسلامية إلينا قصة حادث مدهش ، يعتبر من أغرب موافقات القدر ، وهو أن شاعر المنصور أبا العلاء صاعدا بن الحسن البغدادى ، أهدى إليه أيّلا فى عنقه حبل ، وسماه غرسية باسم كونت قشتاله ، وبعث به إلى القصر يوم السبت منتصف ربيع الثانى سنة ٣٨٥ ﻫ ، ومعه أبيات جاء فيها :

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠٦ .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠٥ .

يا حرز كل مخوف وأمان كل مشرد ومعز كل مذلل
عبد جذبت بضبعه ورفعت من مقداره أهدى إليك بأيِّل
سميته غرسية وبعثته فى حبله ليتاح فيه تفاؤلى

فكان من عجائب القدر ، أن تحققت نبوءة الشاعر . فى نفس اليوم الذى قدم فيه الأيل والقصيدة إلى المنصور ، تمت الهزيمة على الكونت غرسية فرنانديز ، وجرح وأسر على ضفاف نهر دويرة ، على مقربة من بلدة «القصر» ، وذلك فى يوم ٢٥ مايو سنة ٩٩٥ (منتصف ربيع الثانى ٣٨٥ ه) . ثم توفى الكونت بعد أيام قلائل متأثراً بجراحه ، وتم الأمر لولده سانشو ، ولكنه اضطر أن يؤدى الجزية للمسلمين[1] .

وفى خريف هذا العام سار المنصور إلى غزو ليون ومعاقبة ملكها برمودو على حمايته لعبد الله بن عبد العزيز المروانى . وكانت الأحوال قد ساءت فى ليون ، واستولى الأشراف الإقطاعيون على سائر أراضيها وضياعها ، ولم يبق لملكها سوى الاسم ، واضطر برمودو أن يغادر مدينة ليون عاصمة ملكه ، وأن يتخذ أسترقة عاصمة مكانها . فلما أرهقه المنصور بالحرب غادر أسترقه ، والتمس الصلح من المنصور ، وسلمه المتآمر عبد الله ، وتعهد بدفع الجزية ، فأجابه المنصور إلى ما طلب . واستولى فيما بعد على مدينة سمورة ، وأسكن بها المسلمين ، وولى عليها عاملا من قبله هو أبو الأحوص معن بن عبد العزيز التجيبى . وهكذا عادت قشتالة وليون إلى دفع الجزية لحكومة قرطبة[2] . وأما عبد الله المروانى ، فقد ألقى به المنصور إلى السجن مصفداً ، وتركه يرزح فى أصفاده ، بالرغم مما رفعه إليه من القصائد المؤثرة فى طلب العفو والمغفرة[3] .

* * *

وقد تقدم أن ابن أبى عامر اتخذ سمة الملك منذ سنة ٣٧١ ه ( ٩٨١ م ) ، وتسمى بالحاجب المنصور ، وأمر بالدعاء له على المنابر ، وكانت هذه أول خطوة فى اتخاذه ألقاب الملك بصفة رسمية ، بعد أن استأثر بكل سلطة فعلية .

---

( ١ ) الذخيرة المجلد الرابع القسم الأول ص ٢٢ و ٢٣ ، وأعمال الأعلام ص ٦٨ و ٦٩ ، والمعجب لعبد الواحد ( القاهرة ١٩١٤ ) ص ٢٠ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٨١ .

( ٢ ) ابن خلدون ج ٤ ص ١٨١ . وراجع **Dozy : Hist. Vol. II. p. 249**

( ٣ ) راجع الحلة السيراء ص ١١٣ و ١١٤ .

وفى سنة ٣٨١ هـ (٩٩١ م) أى بعد ذلك بعشرة أعوام ، اتخذ المنصور خطوة أخرى فى سبيل تدعيم صفته الملوكية . فرشح ولده عبد الملك للولاية من بعده ، وهو فتى لم يجاوز الثامنة عشرة ، ونزل له عن خطة الحجابة والقيادة العليا ، وسائر الخطط الأخرى التى كان يتقلدها ، واقتصر على التسمى بالمنصور ، وأن تنفذ الكتب عنه « باسم المنصور أبى عامر وفقه الله » كما قلد ولده عبد الرحمن خطة الوزارة .

ثم كانت الخطوة الثالثة بعد ذلك بخمسة أعوام ، حينما أصدر المنصور فى سنة ٣٨٦ هـ ( ٩٩٦ م ) أمره ، بأن يخص بألقاب السيادة من بين سائر الناس فى المخاطبات ، وأن يرفع ذلك عن سائر أهل الدولة ، ونفذت الكتب بذلك ، وخوطب المنصور من ذلك الوقت « بالملك الكريم » ، وبولغ فى تكريمه وتعظيمه فى سائر المخاطبات ، واستمر ذلك بقية حياته[١] .

ولم يك ثمة شك فيما يرمى إليه ابن أبى عامر ، من وراء هذه الخطوات المتعاقبة فى سبيل الاتشاح بألقاب الملك والسيادة . فهو قد حقق من الناحية العملية أمنيته الجوهرية ، بالاستيلاء على الدولة والاستئثار بكل سلطة فعلية . ولكنه كان يرمى إلى أبعد من ذلك . فهو قد أصبح أعظم وأقوى رجل فى الدولة ، وقد جمع بين يديه سائر السلطات السياسية والعسكرية . وكان الجيش وهو عماد السلطان والدولة ، يتكون معظمه من البربر والنصارى المرتزقة ، ويدين للمنصور بمنتهى الولاء والإخلاص ، وهو الذى عنى بإنشائه وتنظيمه ، وقاده إلى ميادين النصر عشرين عاماً . وإذاً فقد كان يبدو من هذه الظروف كلها ، أنه لم يك ثمة ما يحول دون أن يحقق المنصور غايته الأخيرة ، فيتوج حكمه بالصفة الشرعية ، وينتزع لنفسه ما بقى من رسوم الملك والخلافة ، ويؤسس بذلك لنفسه ولعقبه دولة جديدة ، تحل مكان الدولة الأموية المحتضرة .

وهنالك ما يدل على أن المنصور ، كان يعتزم بالفعل أن يتخذ سمة الخلافة ؛ وهذا ما يقرره الفيلسوف ابن حزم ، ويروى تفاصيله نقلا عن أبيه الوزير ابن حزم وزير المنصور . وملخص روايته أن المنصور جمع للمشورة فى ذلك الأمر قوماً من خواصه منهم ابن حزم ، وابن عياش ، وابن فطيس من الوزراء ، وبعض الفقهاء ؛ وقد صوّب رأيه ابن عياش وابن فطيس ، ولكن ابن حزم

---

( ١ ) البيان المغرب ج ٢ ص ٣١٥ و ٣١٦ .

عارض فيه ، وأعرب عن خوفه من أن يحرك ذلك ساكن الأحوال ، وأن المنصور ليس فى حاجة إلى مثله ، وبيده سائر الأمور ؛ وتردد رأى الفقهاء بين الاعتراض والموافقة(١) .

على أنه يبدو من جهة أخرى ، من تريث المنصور وتمهله فى اتخاذ الخطوات المذكورة ، أنه كان يخشى نتائج العنف والتسرع . فما الذى كان يخشاه المنصور إذاً ، وقد اجتمعت فى يده كل السلطات ، وأضحى يسيطر على سائر القوى ؟ لقد كان نهوض المنصور وتقدمه فى سبيل السلطان ، مقترناً بظروف لا تساعد على اكتساب محبة الشعب وتأييده الخالص . فقد وقع عن طريق اتصاله بصبح ، بالمرأة التى كانت تسيطر على الدولة ، والتى كانت علائقه بها تثير كثيراً من الهمس والتعليق اللاذع ، وقد وقع على حساب الخليفة الطفل هشام المؤيد ، الذى استلب ابن أبى عامر سلطانه وحقوقه تباعاً ، ثم حجر عليه بطريقة قاسية تشبه الموت المدنى ، وقطع علائقه مع العالم ، ولم يكن يسمح له بمقابلة أحد ، أو بالخروج من القصر ؛ وفى الفرص النادرة التى كان يسمح بخروجه فيها ، كان يسير فى موكبه وعليه برنس يخفى شخصه ، ومن حوله صفوف كثيفة من الجند ، فلا يستطيع أحد أن يراه أو يقترب منه(٢) . وكان الشعب القرطبى يشهد أطوار هذه المأساة المؤلمة واجماً ناقماً ، ويعتبر الخليفة الشرعى ضحية وشهيداً ، يستحق كل عطفه ورثائه . ولم يكف كل ما حققه المنصور من مظاهر السلطان والمجد ، وما أحرزه من الظفر المتوالى ، وما أسبغه حكمه على الأندلس من أسباب السكينة والعزة والأمن والرخاء ، لم يكف ذلك كله لحمل الشعب على نسيان قضية خليفته الشرعى. أضف إلى ذلك كله ، تلك الوسائل الدموية المثيرة ، التى لجأ إليها ابن أبى عامر للتخلص من خصومه ومنافسيه ، فقد كانت تباعد بينه وبين الشعب ؛ ولم يكن الشعب ، إزاء هذه الظروف والعوامل كلها ، ليمنح ابن أبى عامر حبه وولاءه ، وإن كان من جهة أخرى يخشاه ويرهبه ، بل ويعجب بحزمه وعزمه وعبقريته فى تسيير الأمور ، وفى تأمين البلاد ، وإذلال العدو .

ومن ثم كان تريث ابن أبى عامر وتحوطه . فإنه لم يكن واثقاً من إغضاء

---

(١) راجع نقط العروس لابن حزم ص ٧٧ .

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ٤١ ، ونفح الطيب ج ١ ص ٢٧٦ .

الشعب ، عن انقلاب حاسم يقضى به على آخر مظاهر الخلافة الشرعية ، وينتزع به تراث بنى أمية . ومن جهة أخرى ، فقد كانت هناك صبح أم الخليفة المعتقل ، المحروم من كل حقوقه وسلطانه ؛ وكانت صبح قد غدت بمضى الزمن ألد خصوم ابن أبى عامر وأخطرهم . وقد رأينا كيف بدأت تعمل لمقاومته ، مذ شعرت بخطورة مشاريعه ، على مركز ولدها ، وتحاول أن تجمع من حولها كلمة الناقمين والمعارضين لابن أبى عامر ، باسم حماية الخليفة الشرعى ، وإنقاذه من نير المتغلب ، وكيف وقعت أول محاولة حقيقية لمقاومة ابن أبى عامر ، فى انقلاب صهره القائد غالب عليه ومحاربته إياه ، ولم تبذل من ذلك الحين أية محاولة أخرى فى هذا السبيل . هذا وسلطان المنصور على كر الأعوام يتوطد ، ومركز هشام المؤيد يزداد سوءاً وانحلالا ، وتغيض ذكريات الخلافة ورسومها شيئاً فشيئاً .

فلما عمد المنصور أخيراً إلى اتخاذ ألقاب السيادة والملك ، شعرت صبح بأن الضربة القاضية أضحت على وشك الوقوع ، واعتزمت ان تضاعف العمل فى سبيل حماية ولدها ، وتحريره من قبضة المتغلب . فكررت ضد المنصور دعايتها القديمة ، واتهمته على يد دعاتها وأعوانها ، باغتصاب سلطان الخلافة ، ومقاومة رغبة الخليفة فى تولى الحكم بنفسه ؛ وخطر لها فى نفس الوقت أن تتصل بزيرى ابن عطية حاكم المغرب ، وأن تدفعه إلى مناوأة المنصور ، فبعثت إليه رسلها ، وأنفذت إليه الأموال سراً ، ليحشد الجند ويتأهب للعبور إلى الأندلس . وكان زيرى من أولياء بنى أمية ومن أشد المخلصين لقضيتهم ، وكان ينقم على المنصور سياسته فى الحجر على هشام ؛ وفوق ذلك فقد كان غاضباً على المنصور ، لما أساء به فى حقه حين زيارته إلى قرطبه ؛ وإذاً فقد لبى زيرى دعوة صبح ، وأخذ يشهر بالمنصور وسياسته ، وحجره على الخليفة ، ويدعو إلى مقاومته ، ورد الأمر إلى الخليفة الشرعى[1] .

وكان المنصور يقظاً ، فلم يفته شىء من خطط صبح وأعوانها . وكان أول همه أن يرفع يدها عن الأموال ، التى أخذت تفتن فى تهريبها بواسطة فتيان القصر ، وكان المنصور مريضاً ، فبعث ولده عبد الملك فى قوة من الجيش إلى قصر الخلافة بقرطبة ، ومعه جمهرة من الفقهاء والوزراء ، ثم دخل بهم إلى مجلس الخليفة ،

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠٢ ، و « نبذ تاريخية فى أخبار البربر » ص ٢٧ .

وخاطبه فى الأمر ، فأنكر هشام ذلك ، وتبرأ من خصومة المنصور ، ووافق على نقل المال ، فنقل فوراً إلى الزاهرة ، ولم يبق منه فى خزائن القصر شىء ، ولم تجد توسلات صبح ، ولا وعيدها ، وتطاولها على عبد الملك شيئاً ، ويقال إن ما حمله المنصور يومئذ من المال بلغ عدة ملايين[1] .

ولما أبل المنصور من مرضه بعد ذلك بقليل ، سار إلى قصر قرطبة مع ابنه عبد الملك وسائر عظماء الدولة ، وانفرد بالخليفة فى مجلسه ، فاعترف له هشام بالفضل ، وحمد اضطلاعه بشئون الدولة ، وأقره على سياسته . ثم عمد المنصور إلى اتخاذ خطوة جريئة أخرى ، فأخرج هشاماً من القصر ، وأركبه فى زى الخلافة فى موكب عظيم ، وركب إلى جانبه ، وأمامه ولده عبد الملك ، وسار الجيش أمام الموكب ومن خلفه ، وتبع الموكب جموع عظيمة من طوائف الجند والفتيان الصقالبة . وشق هذا الموكب الخليفى شوارع قرطبة ، بين جموع حاشدة مستبشرة من الشعب ، وكان يوماً عظيماً مشهوداً ، وكان آية الظفر للمنصور وسياسته[2] .

وهكذا فشلت صبح فى محاولتها ، ولم يسفر ذلك الصراع المتأخر إلا عن توطيد سلطان المنصور ، وسحق البقية الباقية من خصومه ومعارضيه . ولم تك صبح فى الواقع أهلا لمقاومة ذلك الرجل القوى ، خصوصاً بعد أن مكن له فى كل شىء ، ولم يبق للخليفة الأموى من السلطان سوى الاسم . ولما أيقنت صبح أن المقاومة عبث ، وأنه لا منقذ لولدها من ذلك النير الحديدى ، لجأت إلى السكينة والعزلة ، فلا نسمع عنها بعد ذلك فى سير الحوادث ، ولا نعرف تاريخ وفاتها بالتحقيق ، ولا نعرف إن كانت وفاتها قبل وفاة المنصور أو بعدها ؛ وكل ما تقوله الرواية الإسلامية فى ذلك ، هو أن وفاتها كانت أيام ولدها هشام . والظاهر أنها توفيت بعد ذلك بقليل قبل وفاة المنصور ، حوالى سنة ٣٩٠ هـ ( ١٠٠٠ م ) ، لأننا لانعثر باسمها بعد ذلك فى حوادث الأندلس . وقد نظم شاعر العصر أبو عمر محمد ابن دراج القسطلى ، قصيدة مؤثرة رثى فيها صبحاً « أم هشام المؤيد بالله » ، ومما جاء فيها :

---

( ١ ) الذخيرة ( عن ابن حيان ) المجلد الرابع القسم الأول ص ٥٢ — ٥٤ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ٩٥ .

( ٢ ) الذخيرة المجلد الرابع القسم الأول ص ٥٤ .

هل الملك يملك ريب المنو ... ن أم العز يصرف صرف القضاء
ألم تر كيف استباحت يدا ... ه حريم الملوك وعلق النساء
هو الرزء أودى بعزم الملو ... ك مصاباً وأودى بحسن العزاء
لبيض أياديك فى الصالحا ... ت تمساك وجه الضحى بالضياء
فتلك مآثرها فى التقى ... وبذل اللهى ما بها من خفاء
جزاك بأعمالك الزاكيا ... ت خيرُ المجازين خيرَ الجزاء
ولقيت من ضنك ذاك الضريح ... نسيم النعيم وطيب الثواء[1]

هذا وأما عن موقف زيرى بن عطية ، وتطاوله على المنصور ، فقد رد المنصور بأن قطع عنه رزق الوزارة ، ومحا اسمه من ديوانه ، واعتبره خارجاً عاصياً ؛ ورد زيرى على ذلك بأن قطع ذكر المنصور من الخطبة ، وطرد عماله بالمغرب ، وأعلن الخروج والثورة . فجهز المنصور لقتاله جيشاً عظيماً بإمرة مولاه الفتى واضح ، وأمده بالأموال والذخائر ؛ وعبر واضح البحر فى قواته إلى طنجة ، وهناك انضمت إليه جموع غفيرة من برير غمارة وصنهاجة ، وحالفته على قتال زيرى . وخرج زيرى فى قواته والتقى الجمعان بوادى زارات جنوبى طنجة ، ونشبت بينهما معارك شديدة متصلة مدى ثلاثة أشهر ، ثم انتهت بهزيمة واضح وتمزيق جيشه ، ففر فى فله إلى طنجة ، وكتب إلى المنصور يستصرخ به .

فخرج المنصور من قرطبة إلى الجزيرة الخضراء ، وتوافدت إليه الجيوش ، ثم أجاز ابنه عبد الملك بمعظم قوات الأندلس وقوادها ، وأمره بالتشدد فى محاربة زيرى والقضاء عليه ؛ فعبر عبد الملك البحر فى قواته إلى سبتة ، واتصل خبره بزيرى فتأهب للقائه ، وبعث إلى جميع بطون زناتة يستصرخهم لنصرته ، فهرعت إليه الوفود والقوات من سائر النواحى ، وسار لقتال عبد الملك فى جموع عظيمة . وزحف عبد الملك من طنجة ، ومعه الفتى واضح فى قوات لا تحصى ، والتقى الفريقان بوادى منى من أحواز طنجة ، ونشبت بينهما معارك هائلة هزم البربر فى نهايتها شر هزيمة ، وقتل منهم عدد ضخم ، وجرح زيرى واستولى عبد الملك على معسكره ، ثم طارده حتى مكناسة ، ففر إلى الصحراء مع نفر من أصحابه ؛

---

(١) وردت هذه القصيدة بأكملها فى ديوان ابن دراج المنشور بعناية الدكتور محمود على مكى (ص ١١٩ — ١٢٣ ) ووردت كذلك فى يتيمة الدهر ( القاهرة ١٩٤٧ ) ج ٢ ص ١٠٩ و ١١٠ .

وقد أشاد شاعر العصر ابن دراج القسطلى بعبقرية المنصور وأهباته العسكرية ضد زيرى بن عطية فى قصيدة طويلة هذا مطلعها :

| | |
|---|---|
| لك الله بالنصر العزيز كفيــل | أجــد مقام أم أجــد رحيل |
| هو الفتح أما يومــه فمعجــل | إليك وأما صــنعه فجــزيل |
| وآيات نصر ما تزال ولم تزل | بهن عمايات الضــلال تزول |
| سيوف تثير الحق أنى انتضيتها | وخيل يجول النصر حيث تجول |

ومنهــا :

| | |
|---|---|
| لئن صديت الباب قوم ببغيهــم | فسيف الهدى فى راحتيك صقيل |
| فإن يحى فيهم بغى جالوت جدهم | فأحجار داود لديك مثــول |
| هدًى وتقى يؤدى الظلام لديهما | وحق بدفع المبطلين كفيــل |
| يجمع له منه قائد النصر عاجل | إليه ومن حسن اليقين دليــل |
| تحمل منه البحر بحــراً من القنا | يروع بهــا أمواجه ويهــول |
| بكل معــالاة الشراع كأنها | وقد حملت أسد الحقائق غيل[1] |

ودخل عبد الملك مدينة فاس ظافراً ، فى نهاية شوال سنة ٣٨٧ هـ ( نوفمبر ٩٩٧ م ) وكتب إلى أبيه المنصور بالفتح ، فكتب إليه بعهده على المغرب ، وعاد واضح بالجيش إلى قرطبة . ولبث عبدالملك والياً للمغرب ستة أشهر فقط ، نظم خلالها شئونه ، ووطد أمره ، ثم عاد إلى الأندلس ، وخلفه على المغرب عيسى ابن سعيد صاحب الشرطة ، فلبث فى ولايته حتى وائل سنة ٣٨٩ هـ . ثم أقيل وخلفه الفتى واضح .

وفى تلك الأثناء كان زيرى بن عطية قد جمع فلوله من قوات زناتة ، ووافته جموع كثيرة من مغراوة ، وكانت صنهاجة قد اختلفت على أمرها ، فانتهز زيرى هذه الفرصة وزحف شرقاً على بلاد صنهاجة ، وأوغل فيها ، واستولى على تاهرت وتلمسان وبعض بلاد الزاب ، وأقام بها الدعوة لهشام المؤيد وللمنصور ، ثم كتب إلى المنصور يتقرب إليه ويسترضيه ، ويؤكد حسن طاعته من جديد ، فعفا عنه المنصور ، وأعاده لولاية المغرب ، بيد أنه لم يعش طويلا فتوفى فى سنة ٣٩١ هـ ( ١٠٠١ م ) ، متأثراً بجراحه التى أصابته فى موقعة وادى منى . وخلفه فى

( ١ ) وردت هذه القصيدة فى ديوان ابن دراج المشار إليه ( ص ٣ — ٩ ) .

الولاية ولده المعز . فأقره المنصور ، ولبث المعز والياً للمنصور ، مقيما على دعوة بنى أمية ، يعمل على توطيدها بالمغرب ، إلى أن اضطرب حبل الخلافة بالأندلس(١).

* * *

وبينما كان عبد الملك المنصور بالمغرب يتم إخضاع زيرى وشيعته ، كان المنصور يتخذ الأهبة لأعظم غزاته . وكانت منطقة جلّيقية فى قاصية اسبانيا الغربية ، تعتبر لنأيها ووعورتها ، أمنع مناطق اسبانيا النصرانية ، وأبعدها عن متناول الفاتحين . ولم يفكر أحد من الغزاة المسلمين ، منذ أيام طارق أن يقصد إلى تلك المنطقة الجبلية الوعرة ، لما يعترض الوصول إليها من الصعاب الهائلة . ولكن المنصور اعتزم أن يسير إلى جليقية لسببين : الأول أنها كانت ملاذاً وملجأ لملوك ليون ، يمتنعون به كلما أرهقتهم الغزوات الإسلامية ، والثانى أنها كانت مستقراً لمدينة شنتياقب (أو شنت ياقب) الدينية ، كعبة إسبانيا النصرانية ومزارها المقدس ، ورمز زعامتها الروحية . وقد سبق أن عرضنا إلى نشأة هذه المدينة المقدسة ، وإلى أسطورة القديس ياقب (أو يعقوب الحوارى) التى اتخذت أساساً لإنشائها ، وكيف زعمت الأسطورة أن قبر القديس يعقوب ، قد اكتشف بمعجزة وقعت فى هذه المنطقة ، فأنشئت فوقه كنيسة ، وأنشئت حول الكنيسة مدينة مقدسة ، سميت باسم القديس ، وغدت عاصمة اسبانيا الدينية ، ومزاراً شهيراً يقصده النصارى من سائر الأنحاء(٢). وقد شاء المنصور أن يضرب اسبانيا النصرانية فى صميم معقلها القاصى ، وفى صميم زعامتها الروحية ، بغزو جليقية ، واقتحام مدينتها المقدسة . فخرج من قرطبة فى الثالث والعشرين من جمادى الآخرة سنة ٣٨٧ ﻫ (٣ يوليه ٩٩٧ م) على رأس قوى الفرسان ، وفى الوقت نفسه تحرك الأسطول الأندلسى ، الذى أعده المنصور لهذه الغزوة الكبرى ، من مرساه أمام قصر أبى دانس Alcacer do Sal فى مياه البرتغال الغربية ، شمالا بحذاء الشاطىء البرتغالى ، يحمل المشاة والأقوات والذخيرة ؛ واخترق المنصور اسبانيا الغربية شمالا ، وهو يعبر الجبال والأنهار العظيمة تباعاً ، حتى وصل إلى مدينة

(١) راجع حوادث المغرب فى البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠٢ ، وابن خلدون ج ٧ ص ٣٣ ، والإستقصاء ج ١ ص ٩٣ و ٩٤ ؛ و «نبذ تاريخية فى أخبار البربر» ص ٣٠ – ٣٥ .

(٢) راجع تفاصيل ذلك فى القسم الأول من العصر الأول من «دولة الإسلام فى الأندلس» ص ٢٢٠ و ٢٢١ .

قورية ؛ ثم زحف نحو الشمال الغربى ، واستولى فى طريقه على مدينتى بازو وقلمرية[1]. وهنا وفد على المنصور ، عدد كبير من القوامس ( الكونتات ) النصارى المعترفين بطاعته ، وهم الواقعة أملاكهم فى أراضى البرتغال ما بين نهرى دويرة ومنيو ، وانضموا مع قواتهم إلى جيشه . ثم سار المنصور شمالا حتى وصل إلى نهر دويرة ، وهنالك وافاه الأسطول ، مخترقاً النهر من مصبه عند ثغر بورتو ، فجعل منه جسراً مريحاً لعبور جيشه وعدده وأقواته ، واتجه الجيش الإسلامى بعد ذلك صوب جليقية ، وهو يقتحم السهل والوعر فى شعب الجبال ، ثم عبر نهر منيو ( منهو ) ، وسار بحذاء شاطىء المحيط ، واستولى فى طريقه على بعض الحصون ، وخرب عدداً من الأديرة التاريخية فى تلك المنطقة . وكانت جموع كبيرة من النصارى ، قد فرت إلى الجزائر المقابلة للشاطىء ، فعبر المسلمون إليهم من بعض المخائض وأسروا معظمهم ، واخترقوا مفاوز الجبال المجاورة للمحيط ، واستخرجوا من لجأ إليها من النصارى ، واستصفوا غنائمها ؛ ثم اقتحموا الجبال إلى السهل ، وخربوا بلدة إيليا ( إيريا ) ونهبوها ، وهى أيضاً من المزارات الدينية الشهيرة . وأشرف المسلمون على مدينة شنت ياقب فى يوم الأربعاء الثانى من شعبان ( ١١ اغسطس ) ، فوجدوها خالية من أهلها ، وكانوا قد غادروها حين اقتراب الغزاة ، فدخلها المسلمون ، وهدموا أسوارها وصروحها التاريخية ، وكنيستها العظمى ، واستولوا على سائر ما فيها من الذخائر والتحف ، وأمر المنصور بصون قبر القديس ياقب القائم وسط الكنيسة العظمى ، والمحافظة عليه . ولم يجد المنصور بالكنيسة إلا شيخاً من الرهبان يجلس على القبر فسأله عن مقامه ، فقال أؤانس يعقوب ، فتركه وأمر بالكف عنه . وأخذ المسلمون أبواب المدينة ، ونواقيس الكنيسة العظمى ، وحملها الأسرى النصارى على كواهلهم حتى قرطبة ، فوضعت الأبواب فيما بعد ، فى سقف الزيادة التى أنشأها المنصور بالمسجد الجامع ، وعلقت به النواقيس رؤوساً للثريات الكبرى[2].

وسار المنصور بعد ذلك مخترقاً أراضى برمودو التى امتنع بها وعاث فيها

---

( ١ ) هما بالإفرنجية على التوالى Viseu و Coimbra

( ٢ ) تتبعنا حوادث هذه الغزوة حسبما أوردها ابن عذارى فى البيان المغرب ج ٢ ص ٣١٦ — ٣١٩ . وراجع ابن خلدون ج ٤ ص ١٨١ ، وأعمال الأعلام ص ٦٧ و ٦٨ ، ونفح الطيب ج ١ ص ١٩٣ — ١٩٥ . وكذلك Crónica General ; ibid; Vol. II. p. 448 & 449

ولم يستطع أحد أن يقف فى سبيله ، ووصل إلى شاطىء المحيط على مقربة من بلدة كرونية ( قرجيطة ) . ثم انحدر جنوباً حتى وصل إلى أراضى الزعماء النصارى ( القوامس ) الموالين له ، والذين صحبوه فى غزوته ، فأمر بالكف عنها ، وتابع سيره حتى وصل إلى مدينة لاميجو فى شمال البرتغال الحديثة (وتسميها الرواية الإسلامية لميقة ) ، وهنالك وزع الهدايا والكسى الفاخرة على الزعماء النصارى ، وصرفهم إلى بلادهم ، وكتب بالفتح إلى دار الخلافة ، ثم عبر نهر دويرة على النحو الذى تقدم وصفه ، وقفل راجعاً إلى قرطبة ، وفى ركبه عدد كبير من الأسرى ، ومقادير عظيمة من الغنائم . وكانت غزوة عظيمة ، استبشر بها المسلمون ، وقرت نفوسهم ، واهتزت لها اسبانيا النصرانية من أقصاها إلى أقصاها ، ولبث أثرها العميق أعواماً بعيدة ، وكانت غزوة المنصور الثامنة والأربعون .

ونظم ابن دارج القسطلى فى تهنئة المنصور بغزوة « شنتياقُه » ( شنت ياقب ) قصيدة طويلة هذا مطلعها :

| | |
|---|---|
| اليوم أنكص إبليسٌ على عقبــه | مُبرّءاً سبَبُ الغاوين من ســببه |
| واستيقنت شيع الكفار حيث نأت | فى الشرق والغرب أن الشرك من كذبه |
| بشنتياقة لـمـا أن دلفْتَ لــه | بالبيض كالبدر يسرى فى سنا شهبه |
| وجلة الدين والإســلام عاطفة | عليك كالفَلَكِ الجارى على قُطُبه[1] |

وعلى أثر غزوة شنت ياقب اضطر برمودو ملك ليون ، بعد الذى أصاب بلاده من الهزائم والمحن ، أن يسعى إلى طلب الصلح ، فبعث ولده بلايو بصحبة معن بن عبد العزيز حاكم سمّورة المسلم ، إلى قرطبة طالباً عقد الصلح ، فأجابه المنصور إلى ما طلب ، وانصرف راجعاً إلى أبيه[2] . ولم يعش برمودو طويلا بعد ذلك ، فتوفى سنة ٩٩٩ م : وخلفه فى الملك ولده الطفل ألفونسو الخامس ، تحت وصاية أحد الأشراف ، ولزم مكانه فى قاصية جليّقية .

وقام المنصور بعد ذلك بعدة غزوات أخرى فى أراضى النصارى ، بيد أننا لا نظفر فى شأنها بتفاصيل دقيقة واضحة . والظاهر من إشارة أوردها صاحب

---

(١) وردت هذه القصيدة فى ديوان ابن دراج المتقدم ذكره ( ص ٤٤٠ – ٤٤٣ ) . ويلاحظ أنه قد ورد بها اسم « شنت ياقب » ، « شنتياقة » وهو أقرب إلى رسمه الإسبانى **Santiago**

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٨١ .

البيان المغرب ، أن المنصور قام بغزوة إلى نافار فى سنة ٣٨٩ هـ (٩٩٩ م)[١] . وفى العام التالى أعنى فى سنة ٣٩٠ هـ ( ١٠٠٠ م ) سار المنصور إلى أراضى قشتالة فى جيش ضخم : وذلك أن الملوك والأمراء والنصارى « من حيز بنبلونة إلى أسترقة » ، اتفقوا جميعاً بزعامة سانشو غرسية كونت قشتالة ، على مقاومة المنصور والتفانى فى قتاله ، وحشد سائر أمراء البشكنس وقشتالة وليون قواتهم ، وجمع سانشو غرسية سائر قواته فى وسط قشتالة ، فى وادى دورة الأدنى خلف الحاجز الجبلى الوعر المسمى « صخرة جربيرة » Peña Cervera ، وتعاهد الملوك والأمراء النصارى على الثبات وعدم الفرار . ورأى المنصور كعادته أن يبادر أعداءه بالقتال ، فسار فى قواته توا إلى مدينة سالم ، ونفذ شمالا إلى أراضى قشتالة حيث يرابط أعداؤه ، فلما أشرف على صخرة جربيرة ، هاله ما رأى من وعورتها ، وحصانة المراكز التى يحتلها العدو ، ووفرة جموعه وعدده . ورأى سانشو أن يعجل بمهاجمة المسلمين ، قبل أن يوطدوا مراكزهم ، فاندفع النصارى فى هجوم عنيف خاطف على المسلمين ، فاضطربت ميمنة المسلمين وميسرتهم ، ودب الخلل إليهم ، وعمد إلى الفرار كثير منهم ، وكادت تدور عليهم الدائرة . ولكن القلب ، وكان يقوده ابنا المنصور عبد الملك وعبد الرحمن ، ويتألف معظمه من فرق البربر القوية الباسلة ، صمد أمام الموجة الهائلة ، وهرع المنصور إلى رابية مشرفة على الموقعة ، ومن ورائه خاصته وحاشيته ، وهو يحث رجاله وقادته على الثبات ، فلم يمض سوى قليل حتى انقلبت الآية ، وارتد العدو فى غير نظام ، وتمكن أحد الزعماء البربر من قتل أحد كونتات بنى غومس[٢] وجاء برأسه ؛ فضاعف المسلمون جهودهم ، وشددوا الوطأة على النصارى ، وأمعنوا فيهم قتلا وأسراً ، وطاردوهم إلى عدة مراحل حتى مزقوهم شر ممزق . وكانت هذه الوقيعة فى اليوم الرابع والعشرين من شهر شعبان سنة ٣٩٠ هـ ( ٣٠ يوليه سنة ١٠٠٠ م ) . وخسر المسلمون فى الموقعة أكثر من سبعمائة قتيل .

وتابع المنصور زحفه فى أراضى قشتالة ، وهو يدمر كل شىء فى طريقه ،

---

( ١ ) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٢١ .

( ٢ ) بنى غومس يسمون كذلك فى الرواية العربية ، وهم أبناء غومس دياث Gomez Diaz أحد زعماء ليون . وقد تزوج ابنة كونت قشتالة فرنان كونثالث ، وأصبحوا خلفاء له ، وكانت أملاكهم فى سالدانيا وكريون وسمورة .

حتى اقتحم عاصمتها « برغش » وذلك فى يوم عيد الفطر ( ٤ سبتمبر ) ، ثم واصل سيره إلى سرقسطة ، وقام من هنالك بغزوة فى أراضى نافار ، حتى أشرف على عاصمتها بنبلونة . وكل ذلك دون أن يجرأ أحد من النصارى على الوقوف فى سبيله. ثم عاد إلى قرطبة وقد أنفق فى هذه الغزوات مائة يوم وتسعة أيام . ووجه على أثر عوده إلى قواده ، كتاباً ليقرأوه فى الجيش . وفيه ينحى المنصور باللائمة على جنده ، لما بدا منهم من التخاذل والنكوص ، ويذكرهم بأنه لولا شجاعة فئة قليلة ، منهم ، عاونت بثباتها على إحراز النصر ومحو العار ، لانتهى بإقالتهم جميعاً[1] .

وكان لهذه الغزوة ، وما لابسها من الظروف الدقيقة ، أعظم وقع فى الأندلس . وكان لنصر جربيرة مغزى أعمق من أى نصر أحرزه المنصور . وفيه يقول صاعد شاعر المنصور مهنئاً ، من قصيدة تعتبر من غرر قصائده :

| | |
|---|---|
| جددت شكرى للهوى المتجدد | وعهدت عندك منه ما لم يعهد |
| اليوم عاش الدين وابتـــدأ الهدى | غضاً وعاد الملك عذب المورد |
| ووقفت فى ثانى حنين وقفـــة | فرأيت صنع الله يؤخذ باليـــد |
| من فاته بدر وأدرك عمـــره | جربير فهو من الرحيل الأسعد |
| خملت ميامنهم عليك نشـــيجة | كالسيل يحطم جلمداً عن جلمد |
| ما ناجزوك وفى الجوانح موضع | لتصــبُّر ومكانة لتجــلُّد |
| طال الشـــقاء عليهم وتبرمـــوا | بالجيش فى الذل المقيم المقعد |
| فتحالفوا لمحنث وتجمعـــوا | لمفـــرق وتألفـــوا لمبـــدد |

وفى ربيع سنة ٣٩٢ هـ ( ١٠٠٢ م ) خرج المنصور إلى الغزو لآخر مرة ، فاخترق أراضى قشتالة شمالا ، ووصل فى زحفه حتى بلدة قناليش الواقعة جنوبى ناجرة ، ثم سار غرباً فى اتجاه برغش وعاث فى تلك المنطقة[2] . ولا تقدم الرواية الإسلامية عن هذه الغزوة تفاصيل أخرى ، ولا تحدثنا بالأخص عن أية موقعة حاسمة ، وقعت بين المسلمين والنصارى . ولكن بعض الروايات النصرانية الإسبانية القديمة ، تذكر لنا فى هذا الموطن ، أن القوات النصرانية المتحدة ، المكونة من جيوش برمودو ملك ليون ، وغرسى فرناندز كونت قشتالة ،

---

( ١ ) راجع فى تفاصيل هذه الموقعة للشهيرة : أعمال الأعلام ص ٦٩ — ٧٢ .

( ٢ ) راجع الإحاطة فى أخبار غرناطة لابن الخطيب (طبعة القاهرة القديمة) ج ٢ ص ٧٢ .

وغرسية سانشيز ملك نافار ، وقفت فى وجه المنصور فى ظاهر بلدة صغيرة تسمى « قلعة النسور »(١) ، وتقع فى غربى مدينة سرية ، وأنه وقعت بين المسلمين والنصارى ، موقعة هزم فيها المسلمون ، وقتل منهم عدة آلاف ، وأن المنصور انسحب فى قواته تحت جنح الظلام ، ثم توفى بعد ذلك بقليل حزناً وغماً ، أو من الجراح التى أصابته فى الموقعة(٢) .

ولا بأس من أن نقدم هنا خلاصة لما تذكره الرواية النصرانية من تفاصيل الموقعة ، وإليك ما يقوله فى ذلك المؤرخ لافونتى . ومما هو جدير بالذكر أنه يرجع بداية حوادثها إلى سنة ١٠٠١ م ، وفى هذا الوقت كان ملك ليون ألفونسو الخامس الطفل ولد برمودو الثانى ، وكان تحت وصاية مننده كونثالث كونت جليقية وزوجته دونيا مايور ؛ وكان يحكم قشتالة الكونت سانشو غرسيس ولد غرسى فرناندز ، ويحكم نافار الملك سانشو غرسيس الكبير .

يقول لافونتى : إنه فى هذه السنة أعنى سنة ١٠٠١ م ، بدت فى قلب اسبانيا المسلمة طلائع استعدادات عظيمة ، وجمع ولاة شنترين وبطليوس وماردة كل قواتهم ، وعبرت حشود عظيمة من الجند البربر إلى الجزيرة ، وكانت هى الأمداد التى وعد بإرسالها المعز بن زيرى من المغرب إلى المنصور ، واجتمعت جيوش إفريقية والأندلس والبرتغال المسامة فى طليطلة ، فهل كان المنصور يزمع أن يضرب قشتالة التى أتعبته مقاومتها الضربة الأخيرة ؟ لقد تفاهم سانشو أمير قشتالة مع قريبيه ملكى ليون ونافار على التعاون على مقاومة الجيش الإسلامى العظيم ، وأدرك الجميع ضرورة الاتحاد والتحالف . واجتمعت الجيوش النصرانية المتحدة فى السهل الواقع جنوب مدينة سرية عند منابع دويرة ، قريباً من مدينة نومانثيا القديمة Numacia ؛ وكان يقود جيوش ليون وجليقية والأستورياس الكونت مننده وصى الملك الطفل ألفونسو الخامس ، ويقود قوات قشتالة ونافار ، كل ملكها .

وقدم المسلمون ، وقد انقسمت قواتهم إلى شطرين ، قوات الأندلس وقوات البربر ؛ وساروا تواً نحو ضفاف نهر دويرة ، حتى التقوا بالنصارى فى

---

(١) وهى بالإسبانية **Calatanazor**

(٢) **Crónica General ; Ibid ; Vol. II. p. 449**

مكان يسمى « قلعة النسور » . ثم وقعت بين الفريقين مناوشات ختمها مقدم الليل ، وفى فجر اليوم التالى تأهب كل فريق ، وحشد قواته ، واختلط ضجيج المسلمين بصيحات النصارى ، وأصوات المزمار بدوى الطبول . واشتبك الفريقان بعنف ، وأخذ زعماء كل فريق يحث رجاله ويشجعهم . وكان المنصور يثب هنا وهنالك كأنه نمر ، وقد شقت فرسانه صفوف القشتاليين ، وساءه ما لقى من مقاومة ، فاندفعت قواته إلى الهجوم بعنف ، واستمر القتال تحت جو قاتم من الغبار المتصاعد ، حتى دخل الليل ، فانفصل الجيشان دون أن يكتب النصر لأحدهما .

وأصيب المنصور خلال القتال بجراح عديدة ، فأوى إلى خيمته ، وقد علم أن كثيراً من قادته قتلوا ، وأدرك مبلغ الخسارة الفادحة التى حاقت بجيشه ؛ فأصدر أوامره قبل الصبح بالارتداد . وعبر نهر دويرة ، وهو على أهبة الحرب حتى لا يفكر النصارى فى مطاردته . ثم شعر المنصور خلال السير بالإعياء والخور ، ولم يستطع أن يستمر فوق صهوة جواده لخطورة جراحه ، فحمل فى محفة إلى مدينة سالم .

ثم يقول لافونتى : إن بعض مؤرخينا ومنهم ماريانا يحاول أن يرد هذه الموقعة إلى ما قبل ذلك بثلاثة أعوام ، وأنه يوجد منهم من يقرنها بأخطاء ومغامرات خرافية بل مضحكة .

تلك هى خلاصة التفاصيل التى تسبغها الرواية النصرانية على موقعة قلعة النسور . ويلاحظ أن هذه الرواية ترجع الموقعة إلى سنة ١٠٠١ م ، وأن المؤرخ يتحدث هنا عن طبقة جديدة من الملوك النصارى ، وهم خلفاء أولئك الذين تزعم الروايات النصرانية الأخرى تحالفهم على قتال المنصور[١] .

وقد حاول بعض الباحثين الإسبان المحدثين ، مثل سافدرا وكوديرا التدليل على صحة هذه الرواية وقبولها . ولكن فريقاً آخر من أقطاب البحث الحديث وفى مقدمتهم دوزى ، يرون بطلان هذه الرواية ، ومخالفتها للحقائق التاريخية الثابتة . ذلك أن برمودو ملك ليون كان قد توفى فى سنة ٩٩٩ م ، وتوفى غرسية فرناندز كونت قشتالة فى سنة ٩٩٥ م ، وتوفى غرسية سانشيز ملك نافار فى سنة ١٠٠٠ م ،

---

(١) Modesto Lafuente : Historia general de Espana. T, III. P. 24-26

فكيف تتحدث الرواية هنا عن تحالف الملوك الثلاثة ، وقد ماتوا جميعاً قبل الموقعة المزعومة ؟ هذا ومن جهة أخرى فإن الرواية الإسلامية لا تذكر شيئاً عن هذه الموقعة ، وهى لا تضن علينا فى مواطن كثيرة بالتحدث عن هزائم المسلمين ، وصمتها فى هذا الموطن قرينة ، على أنه لم يك ثمة موقعة ولا هزيمة[١] . ويعلل مؤرخ إسبانى معاصر هو الأستاذ مننديث پيدال ، أصل هذه الأسطورة بكونه إنما يرجع إلى ما أحرزه سانشو غرسية كونت قشتالة ، من نجاح جزئى فى بعض الوقائع ، وقد حرصت الأساطير القشتالية على تسجيل هذا النجاح ، وعمدت إلى المبالغة فيه شيئاً فشيئاً[٢] .

وعلى أثر اختتام الغزوة ، ارتد المنصور بجيشه جنوباً ، وقد لحقه الإعياء ، واشتد به المرض ، فترك جواده ، وسار نحو أسبوعين محمولا على محفة ، حتى وصل إلى مدينة سالم ، وهى معقل الثغر المنيع ؛ وكان من أعز أمانى المنصور أن تدركه منيته خلال الغزو ، مجاهداً فى سبيل الله ، وكان دائماً يحمل معه أكفانه حيثما سار إلى الغزو ، وهى أكفان صنعت من غزل بناته ، واشتريت من خالص ماله الموروث . وقد استجاب الله دعاءه ، فما كاد يحل بمدينة سالم ، حتى شعر بدنو أجله ، فاستدعى ولده عبد الملك ، وألقى إليه نصائحه الأخيرة . وفى ليلة الإثنين ٢٧ رمضان سنة ٣٩٢ ، الموافق ١١ أغسطس سنة ١٠٠٢ ، توفى المنصور محمد بن أبى عامر ، ودفن كرغبته فى صحن قصر مدينة سالم ، وذلك لسبعة وعشرين عاماً من حكمه ، وعمره أربعة وستون عاماً ، إذ كان مولده فى سنة ٣٢٨ هـ ، ونقش على شاهد قبره هذان البيتان :

آثاره تنبيك عن أخباره  حتى كأنك بالعيان تراه
تالله لا يأتى الزمان بمثله  أبداً ولا يحمى الثغور سواه[٣]

ولبث قبر المنصور بمدينة سالم عصوراً ، مزاراً معروفاً ، وذلك بالرغم من

---

(١) راجع : Dozy : Recherches : Vol. I, p. 193-202 ; Hist. V. II. p. 268
وقد لخص العلامة المستشرق كونثالث بالانثيا آراء الفريقين فى كتابه :
Historia de la Espana Musulmana (4a Ed.) p. 57 & 58.

(٢) R.M. Pidal : Historia y Epopya p. 21

(٣) الحلة السيراء ص ١٥١ .

استيلاء النصارى على المدينة ، منذ أواخر القرن الحادى عشر . ويروى لنا ابن الخطيب ، أنه عهد إلى بعض رسله ممن وجههم إلى قشتالة ، لتأكيد عقد الصلح مع ملكها ، بأن يزور فى طريقه مدينة سالم ، وأن يشاهد قبر المنصور ، وأن هذا الرسول قد أخبره عند عوده ، أن القبر ما يزال قائماً فى مكانه إلا أن رسومه من شعر منقوش ، وتاريخ مثبوت ، قد عفت ومحيت آثارها ، وقد كان ذلك فيما يبدو فى وزارة ابن الخطيب الثانية فيما بين سنتى ١٣٦١ و ١٣٧٠ م[١].

(١) أعمال الأعلام ص ٨١ .

# الفصل الثانى

## خلال المنصـــور ومآثره

الناصر والمنصور . المنصور يشق طريقه إلى السلطان . وسائله فى ذلك . جيش المنصور وأهباته . شغفه بالجهاد . نتائج غزواته . الصوائف الإسلامية . عقمها وأثرها فى إنهاك الجيوش الإسلامية . عبقرية المنصور الإدارية . استقرار الأمن والرخاء فى عهدة . وزراء المنصور وكتابه . أعماله الإنشائية . توسيعه للمسجد الجامع . تجديده لقنطرة قرطبة وإنشاؤه لقنطرة إستجة . جوده وبذله . مفاخرته بنشأته المتواضعة . صرامته فى إقامة العدل . شغفه بالشراب . براعته العلمية والأدبية . رعايته للعلماء والأدباء . صاعد البغدادى شاعر المنصور . ديوان الندماء . مجالس المنصور الأدبية . شغفه بجمع الكتب . مقته للفلسفة والتنجيم . شعره ونثره . وصيته لابنه عبد الملك . وصيته لغلمانه . علائقه الدبلوماسية . مصاهرته لسانشو غرسية ملك نافار . وفود سانشو إلى الزاهرة . عبد الرحمن ولد المنصور وحفيد سانشو . إشادة الروايات الإسلامية بعظمة المنصور وخلاله . إشادة النقد الغربى بعبقريته السياسية والعسكرية .

كان المنصور بن أبى عامر عبقرية فذة ، تمثل ذروة النبوغ الشعبى ، والطموح الفردى ؛ فقد خرج المنصور من صفوف الطبقة الوسطى ، وشق طريقه بساعده وهمته إلى السلطان والرياسة ، ولم تسعفه فى ذلك نشأة ملوكية ، أو انقلاب عنيف ، ولم يكن عزمه فى بلوغ ذلك أقل شأناً من تألق طالعه ، وقد وصل المنصور إلى مرتبة من السلطان والقوة ، لم يصل إليها أحد قبله من أعاظم أمراء الأندلس حتى ولا عبد الرحمن الناصر نفسه . ويمكننا أن نقول إنه إذا كان عهد الناصر ألمع صفحة فى تاريخ اسبانيا المسلمة ، من النواحى السياسية والحضارية ، فإن عهد المنصور لايقل عنه لمعاناً وتألقاً ، بل ربما امتاز على عهد الناصر ، بما أحرزته اسبانيا المسلمة خلاله ، من تفوق عظيم فى السلطان والقوى العسكرية ، فى شبه الجزيرة الإسبانية . فقد استطاعت إسبانيا النصرانية فى عهد الناصر ، أن تنتهز فرصة الفتن الداخلية بالأندلس ، وأن توطد قواها العسكرية ، وأن تغزو الأندلس غير مرة غزوات مخربة ، وقد لقى الناصر على يد النصارى غير هزيمة فادحة ؛ أما فى عهد المنصور ، فقد انتهت اسبانيا النصرانية إلى حالة يرثى لها من التفكك والضعف ، واستمرت زهاء ثلث قرن تتلقى ضربات المسلمين الساحقة

المتوالية . وقد وصل المنصور فى غزواته فى شبه الجزيرة الإسبانية ، إلى مواطن لم يبلغها فاتح مسلم من قبل .

بدأ المنصور حياته فى حلبة العلم والدرس ، ولكن سرعان ما تفتحت مواهبه الإدارية والسياسية ، فجاز مراتب المناصب السلطانية بسرعة ، وظهر فى كل منها بفائق كفايته وحزمه . وما كاد يختفى الحكم المستنصر من الميدان ويقوم ولده الطفل هشام فى الخلافة ، حتى تبلورت مطامع المنصور ، واتجهت تواً إلى غايتها البعيدة ، فكان الصراع مع الفتيان الصقالبة ، ثم مع الحاجب جعفر ، ولم يتح بعد ذلك لأية قوة معارضة أن تقف فى سبيله . ولما اجتمعت سائر السلطات فى يده ، اتشح بثوب الحاكم المطلق ، الذى لايطيق أية مشاركة فى سلطانه أو أى اعتراض لرأيه ، ولم يدخر وسعاً فى أن يخمد أية نزعة للخروج أو الثورة على حكمه . وهنا تبرز النواحى القاتمة فى عبقرية المنصور ، فنراه يلجأ فى تدعيم سلطانه وحمايته إلى نفس الوسائل المكيافيللية التى يلجأ إليها الطغاة دائماً فى كل قطر ، وفى كل عصر : إلى القتل ، والغيلة ، والخديعة ، وكل ضروب العنف المثير ، ونراه يسير إلى تحقيق الغاية بأى الوسائل ، ولايعف فى ذلك السبيل عن ظلم يقع ، أو دم يسفك ، حتى ولو كان دم ولده بالذات .

على أن هذه الوسائل المثيرة التى كانت سياجاً لسلطان المنصور ، ودعامة لدولته ، والتى هى دائماً من لوازم الحكم المطلق ، يجب ألا تحول أنظارنا عن حقيقة ناصعة أخرى ، وهى أن المنصور لم يستخدم هذا السلطان إلا لخير دينه ، وخير الأمة التى نصب نفسه حاكماً عليها ، ومشرفاً على مصايرها ؛ ولعل الإسلام فى شبه الجزيرة الإسبانية ، لم يظفر قط بمجاهد فى بطولة المنصور ، وتفانيه فى الذود عن دينه ، وإعلاء كلمته ، ولعل الأندلس لم تر قط مثل المنصور ، زعيماً أخلص فى خدمتها ، وكرس جهوده ومواهبه فى بناء قوتها وعظمتها ، وسحق عدوها ، وتحقيق أمنها ورخائها .

وقد أدرك المنصور منذ البداية ، أنه يجب لتحقيق سلام الأندلس وأمنها ، وردع الممالك النصرانية عن عدوانها المستمر ، أن يكون للأندلس قوة عسكرية عظيمة ، تكفى لإرهاب عدوها ، وإعزاز دينها ، ومن ثم فقد بذل جهده لإصلاح الجيش الأندلسى ، وتقويته ، وتزويده بأفضل العناصر المحاربة . وقد رأى

المنصور أن يعتمد على البربر بالأخص، لما كانوا يتصفون به من البداوة والشجاعة، فاستقدمهم من العدوة ، ورغبهم بوفرة البذل والعطاء[1]. وكذلك استخدم المرتزقة من النصارى الإسبان ، ومنحهم الأجور والجرايات السخية ؛ وكان يجمع فى جيشه الكثير منهم ، ومعظمهم من المستعربين ، وكان يحرص على رضائهم بتوسيع النفقة عليهم ، ومعاملتهم بالمساواة والرفق[2] . واستطاع المنصور بما وضعه للجيش من أنظمة محكمة ، وما أفاض عليه من وافر النفقة والعدد ، أن ينشىء للأندلس قوة عسكرية عظيمة ، لم تعرفها فى أية عهد آخر . وكانت هذه القوة فضلا عن كونها دعامة سلطانه وحكمه ، دعامة الأندلس وأداتها للدفاع والغزو . ونستطيع أن نقدر أهمية الجيش الأندلسى وكفايته أيام المنصور ، متى ذكرنا أن المنصور لبث زهاء ربع قرن ، يقود قواته إلى الغزو المستمر ، فى أراضى الممالك النصرانية ، كل ربيع وكل صيف ، وأنه فى نفس الوقت كان يبعث الحملات العسكرية العظيمة إلى المغرب ، لتخوض سلسلة من الحروب الطاحنة . وقد بلغ من كثرة قوى الجيش النظامية وكفايتها، أن أصدر المنصور فى سنة ٣٨٨هـ (٩٩٨ م) أمره بإعفاء الناس من إجبارهم على الغزو ، اكتفاء بعدد الجيش المرابط ، وقرأ الخطباء ذلك المرسوم على الناس ، إثر قراءة كتب الفتح ، وعرفوا فيه « بأن من تطوع خيراً ، فهو خير ، ومن خف إليه ، فمبرور ومأجور ، ومن تثاقل فمعذور »[3] .

وقد أورد لنا ابن الخطيب (عن التيجانى) بعض الإحصاءات الهامة عن جيش المنصور ، فذكر لنا أن الجيش المرابط (الثابت) بلغ فى عهده من الفرسان اثنى عشر ألف ومائة فارس من سائر الطبقات ، جميعهم مرتزقون فى الديوان ، يصرف لهم السلاح والنفقة والعلوفة . وكان عدد الحرس الخاص ستمائة فارس غير الأتباع . وانتهى عدد الرجالة فى الجيش المرابط إلى ستة وعشرين ألف راجل . وكان عدد الجيش المرابط يتضاعف وقت الصوائف بما ينضم إليه من صفوف المتطوعة . وقد بلغ عدد الفرسان فى بعض الصوائف ستة وأربعين ألفاً ، وكان عدد المشاة يتضاعف كذلك ، وقد يبلغ المائة ألف أو تزيد .

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٩٩ و ٣١٥ و ٣١٦ .

(٢) Simonet : Historia de los Mozarabes de Espana (Madrid 1897) p. 630

(٣) أعمال الأعلام ص ٦٨ .

وأورد لنا ابن الخطيب أيضاً بيانات مفصلة عما كان يقتنيه المنصور من عتاق الخيل برسم الجهاد ، ومطايا الركوب ، ودواب الحمل ، وقد بلغت وحدها أربعة آلاف جمل خصصت لحمل الأثقال .

وأما عن عُدة الحرب ، فقد كان المنصور يحتفظ بكميات عظيمة من الخيام والسهام والدروع ، والتراس ، وعدد من المحانيق وغيرها من آلات الحصار[1].

وكان المنصور يضطرم شغفاً بالجهاد فى سبيل الله ، وكانت غزواته التى زادت على الخمسين ، فضلا عن كونها عنوان هذا الجهاد المستمر ، ترمى إلى غاية عسكرية وسياسية فطنة ، هى تحطيم قوى اسبانيا النصرانية ، وردعها بذلك عن العدوان على أراضى المسلمين . وقد تحققت هذه الغاية فى أواخر عهد المنصور على أكمل وجه . وقد عنى مؤرخ الأندلس الكبير ابن حيان — وقد عاش قريباً من ذلك العصر — بتفصيل هذه الغزوات فى مؤلف ضخم سماه « بالمآثر العامرية » واستخرجه من تاريخه الكبير « المقتبس »[2]. وكان من نتائج هذه الغزوات أن امتلأت الأندلس فى عصر المنصور بالغنائم والسبى من بنات الإسبان وأولادهم ونسائهم ، وتغالى الناس فى تجهيز بناتهم بالثياب والحلى والمال ، وذلك لرخص بنات الإفرنج وركود سوق الزواج[3] .

وبلغ من شغف المنصور بالجهاد ، أنه كان يتولى القيادة بنفسه فى سائر غزواته الصائفة والشاتية ، ولم يقعده شىء عن القيادة ، والإشتراك الفعلى فى كثير من المعارك ، حتى أننا نراه فى آخر غزواته يتولى القيادة بالرغم من مرضه ، ويسير محمولا على محفة ، ثم يقضى نحبه عقب الغزو ، بين يدى جنده وفى معقل الثغر ، بعيداً عن قصوره ، ومهاد راحته ونعمائه . وكان يحرص فى سائر غزواته ، على أن يستخلص ما يعلق بوجهه أو ثيابه من الغبار ، أثناء المعارك التى يخوضها ، فكان يمسحه بمناديل اجتمعت له منها رزمة كبيرة ، كان يحملها معه دائماً ، حتى

---

(١) أعمال الأعلام ص ٩٩ و ١٠١ و ١٠٢ .

(٢) جذوة المقتبس للحميدى ( القاهرة ١٩٥٢ ) ص ٧٤ ، والحلة السيراء ص ١٤٩ ، والمعجب لعبد الواحد المراكشى ص ٢١ . وذكر لنا ابن الخطيب اسم هذا المؤلف كاملا وهو : « أخبار الدولة العامرية المنسوخة بالفتنة البربرية وما جرى فيها من الأحداث الشنيعة » كما ذكر لنا أنه يحتوى على أكثر من مائة سفر ( أعمال الأعلام ص ٩٨ ) .

(٣) المعجب ص ٢١ .

إذا وافته المنية ضمت إلى أكفانه، ودفنت معه تنفيذاً لوصيته[1].

ومما يؤثر عن علائق المنصور بجيشه، أنه كان لقوة ذاكرته، يعرف كثيراً من جنده بالإسم: أو يعرف على الأقل كثيراً ممن امتاز منهم خلال المعارك بالإقدام والشجاعة، ويدعوهم إلى مائدته فى المآدب الكبيرة، التى اعتاد أن يقيمها لجنده عقب كل انتصار.

بيد أننا نستطيع أن نلاحظ بعد كل ذلك، أن سياسة المنصور العسكرية وغزواته المتوالية المظفرة، وإن كانت فى الأصل تنطوى على غاية عسكرية وسياسية بعيدة المدى، هى سحق اسبانيا النصرانية، لم تؤت ثمارها إلا فى حيز ضيق، هو ردع اسبانيا النصرانية، وكف عدوانها عن الأراضى الإسلامية، ولم تقصد بالفعل إلى الغاية الحاسمة، وهى القضاء على قوة اسبانيا النصرانية وسحقها بصورة نهائية، وهى غاية قصرت سياسة اسبانيا المسلمة عن العمل لها منذ البداية، ومن ثم فقد استطاعت الممالك الإسبانية النصرانية، أن تعيش، وأن تنمو قواها تباعاً، وأن تغدو بمضى الزمن، مناوئاً خطراً لاسبانيا المسلمة، يستغرق قواها باستمرار، ويشغلها فى كفاح مدمر مستمر.

وهنا، وعلى ضوء هذا الكفاح العقيم الذى استمر أجيالا بين اسبانيا المسلمة واسبانيا النصرانية، لا نرى مندوحة، من أن نحكم على سياسة الصوائف أو الغزوات الإسلامية العارضة، التى كانت تقليداً عسكرياً إسلامياً، فى معظم الدول الإسلامية المتاخمة للدول النصرانية، فنقول إنها كانت من الناحية العسكرية تقوم على أسلوب خاطئ، وقد كانت تنهك الجيوش الإسلامية بقدر ما تنهك جيوش العدو، ولم يكن لها غاية محدودة مستقرة. وليس أدل على ذلك من تاريخ الصوائف أو الغزوات الإسلامية الموسمية أيام الدولة العباسية فى أراضى الدولة البيزنطية، فقد كان معظمها حملات غازية تقصد إلى العيث فى أرض العدو، وإلى إحراز الغنائم المؤقتة الإقليمية وغيرها، ولم تنجح فى تحطيم قوى الدولة البيزنطية أو سحقها. وقد كان عقم هذه الغزوات العارضة أشد وأوضح فى الأندلس، حيث لبثت الدولة الأندلسية، إبان قوتها وتفوقها، عصوراً، تقتصر على الصوائف وما إليها من الغزوات الموسمية برسم الجهاد أو الانتقام من العدو،

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٣١٠، والمعجب ص ٢١.

وتنهك بذلك قوى الجيوش الإسلامية ومواردها بصورة مستمرة ، وذلك دون أن تحقق غاية ثابتة مستقرة ، أو توفق إلى القضاء على القوى الخصيمة بصورة حاسمة .

ولقد اجتمعت لاسبانيا المسلمة فى عصر المنصور أعظم القوى والموارد العسكرية التى اجتمعت لها فى أى عصر سابق أو لاحق ، وكانت هذه القوى الزاخرة ، التى كان رائدها المنصور ، وهو أعظم شخصية سياسية وعسكرية ، أتيح لها أن تقود الأندلس ، وأن تسهر على مصايرها — كانت هذه القوى كفيلة بسحق الممالك الإسبانية النصرانية لو أنها وجهت نحو هذه الغاية توجهاً صائباً . ويقدر النقد الإسبانى الحديث نفسه هذه الحقيقة ، فيقول لنا إن غزوات المنصور ودفعه حدود النصارى إلى ما وراء نهر دويرة ، وافتتاحه لقلمرية وسمورة وليون وشنت ياقب وكويانسا وشنت منكش وأوسمة وبرشلونة ، دفع اسبانيا النصرانية إلى حافة الخراب تقريباً ، وقضى هذا البعث لقوة الإسلام على كل أمل فى « الإسترداد » La Reconquista[1] .

ولكن غزوات المنصور على كثرتها ، وعلى ما أسبغ عليها من طابع النصر المستمر ، لم تخرج كثيراً عن حيز الصوائف والغزوات الإسلامية العارضة ، التى تحقق أية غاية مستقرة ثابتة .

وأما عن مقدرة المنصور فى الإدارة والحكم ، فإن الكلام فيها حرى بأن يطول ، فقد أبدى المنصور طوال حياته كفاية إدارية مدهشة ، وظهر فى سائر المناصب التى أسندت إليه ، مذ تولى وكالة هشام ولى العهد ، فأمانة دار السكة والخزانة ، ثم خطة المواريث ، فخطة القضاء ، ثم الشرطة ، فالإشراف على الحشم والخاص ؛ ظهر فيها جميعاً ببراعته وحصافته ، وحسن تصريفه ؛ ثم ظهرت هذه المقدرة على أتمها مذ ولى الحجابة ، واستأثر بسائر السلطات ، واحتمل فوق كاهله سائر المسئوليات الكبرى . فقد غدا المنصور زعيم الأندلس ، وحاكمها الأوحد ، والمشرف على مصايرها فى الحرب والسلم ؛ وقد أبدى المنصور فى اضطلاعه بتلك المهمة العظمى ، مقدرة فائقة ، لم يبدها أحد من أسلافه . فلم تر الأندلس من قبل استقراراً كالذى رأته فى عهد المنصور ، ولم تتمتع قط بمثل ما تمتعت به فى عهد المنصور ، من الأمن والطمأنينة والدعة . وكانت أيام المنصور بالأندلس كلها

---

(١) Simonet: Historia de los Mozarabes de España; p. 629

أيام فخار وظفر ورخاء ورغد ، لم تعان خلالها من غزوات العدو المخربة ، ولم تصب فيها بأية هزيمة ذات شأن، ولم تضطرم فيها أية ثورة أو فتنة ؛ وفيها ازدهرت الزراعة والتجارة والصناعة ، وزهت العلوم والآداب ، وعم الخصب والرخاء فى جنبات الأندلس ، وفاضت خزائن قرطبة بالإموال ، ووصل محصل الجباية يومئذ إلى أربعة آلاف ألف دينار (أربعة ملايين) سوى رسوم المواريث ، وسوى مال السبي والغنائم ، وما ينتج من المصادرات وأمثالها مما لا يرجع إلى قانون . وكانت النفقات السلطانية تبلغ فى الشهر نحو مائتى ألف دينار ، فاذا دخل شهر يونيه ، وحلت الصائفة ، تضاعفت النفقة بسبب الاستعداد للغزو ، ووصلت إلى خمسمائة ألف فى الشهر أو أكثر[1].

وكانت حكومة المنصور تضم عدة من أقدر رجالات الأندلس فى هذا العصر ما بين وزراء وكتاب. وكان من وزرائه ، أبو مروان عبدالملك بن شهيد ، ومحمد بن جَـهور ، وعيسى بن فُطيس وأبو ،عبدالله بن عياش ، وأحمد بن محمد ابن حدير ، ومحمد بن حفص بن جابر ، وأحمد بن سعيد بن حزم والد الفيلسوف الشهير ، وكان من أقدر وزراء المنصور وآثرهم لديه ، وكان المنصور قد استوزره قبل سائر أصحابه فى سنة ٣٨١ هـ ، وبلغ من ثقته به أن كان يستخلفه على المملكة فى أوقات معينة ، ويعهد إليه بخاتمه ؛ والظاهر أنه لما بلغ ذروة النفوذ والسلطان ، شمخ بأنفه ، وبدرت منه بوادر الدالة والاعتداد، فتغير عليه المنصور، وأقصاه عن خدمة الوزارة ، وبعثه إلى كورة الغرب لينظر فى شئونها ، ثم عاد بعد قليل فأعاده إلى حسن رأيه ، ورده إلى منصبه فى الوزارة ، وكان ابن حزم من أكابر أهل العلم والبلاغة[2]. وكان من كتاب المنصور عيسى بن سعيد القطاع ، وهو من أقدم كتابه ، وكان من أنصاره ومعاونيه منذ أيام الحكم ، فبلغ فى ظله وتحت كنفه أرفع مكانة ، وكان فوق ذلك من أخصائه ورفاقه فى مجالس أنسه ترتفع بينهما الكلفة ؛ وكان منهم ، أبو مروان عبد الملك بن إدريس الخولانى ، وخلف ابن حسين بن حيان والد المؤرخ ، وغيرهم . وكانت هذه الصفوة من الوزراء والكتاب ، الذين ينتمى معظمهم إلى أسر عريقة تعاقب أبناؤها فى الوزارة ، مثل آل شُهيد ، وآل عبدة ، وآل جَهور ، وآل فُطيس ، وآل حُدير وغيرهم ،

---

(١) أعمال الأعلام ص ٨٩ .

(٢) كتاب « إعتاب الكتاب » لابن الأبار – مخطوط الإسكوريال – لوحة ٥٣ و ٥٤ .

ممن حملوا عمد الدولة الأموية ، وعملوا على توطيد دعائمها ، تعمل مع المنصور على تسيير دفة الحكم بمقدرة فائقة . وكان من هؤلاء الوزراء من يتصل بالمنصور برباط المودة الشخصية الوثيقة ، ويشاطره شغفه بالشعر والأدب ، ويغشى مجالس أنسه وشرابه ، مثل عبد الملك بن شهيد ، وأبى عبد الله بن عياش ، وعيسى ابن سعيد . هذا وكان ممن اشترك مع المنصور فى الحجابة فى بداية عهده ، بعد المصحفى ، جعفر بن على بن حمدون الأندلسى ، والقائد غالب بن عبد الرحمن ، الذى جمع بين القيادة والحجابة حيناً ، وقد رأينا كيف لقى كل منهما مصرعه بعد ذلك على النحو الذى تقدم ذكره[1] .

* * *

ولم يحل انشغال المنصور طوال عهده بالغزو المستمر ، عن القيام بأعمال الإنشاء العظيمة . فقد أنشأ مدينة الزاهرة ، وقصورها المنيفة ، وحدائقها الغناء ، واتخذها كما تقدم مركزاً للإدارة والحكم . ثم ابتنى إلى جانبها منية جميلة ذات قصر وحدائق رائعة ، يرتادها للاستجمام والتنزه ، وسماها «بالعامرية» . وقد كان جمال هاتين الضاحيتين العامريتين ، مستقى للأوصاف الشعرية والنثرية الرائعة . ومما قيل فى العامرية أبيات لعمرو بن أبى الحباب أنشدها ، وقد دخل يوماً على المنصور بقصر المنية ، والروض قد تفتحت أزهاره :

| | |
|---|---|
| لا يوم كاليوم من أيامك الأول | بالعامرية ذات المـــاء والظلل |
| هواؤها فى جميع الدهر معتـــدل | طيباً وأن حل فصل غير معتدل |
| ما إن يبالى الذى يحتـــل ساحتها | بالسعد ألا تحل الشمس بالحمل |
| كأنما غرست فى ساعة وبدا الس | وسان من حينه فيها على عجل[2] |

وكان من أعظم وأجل أعمال المنصور زيادة المسجد الجامع . وكانت قرطبة قد اتسعت رقعتها اتساعاً عظيماً منذ أيام الناصر ، واضطرد هذا الاتساع فى أيام المنصور حتى بلغت مبلغاً عظيماً ، وبلغت أرباض المدينة أعنى أحياؤها يومئذ

---

(١) راجع فى ذكر وزراء المنصور : البيان المغرب ج ٢ ص ٢٨٦ و ٢٨٧ و ٢٩٠ و ٢٩٩ ، وأعمال الأعلام ص ٧٠ و ٧٥ و ٨٠ ، ونفح الطيب ج ١ ص ٢٧٤ ، والذخيرة ، القسم الرابع ، المجلد الأول ص ١٧ و ٥٦ .

(٢) راجع بعض هذه القصائد والأوصاف فى البيان المغرب ج ٢ ص ٢٩٦ و ٢٩٧ ، ونفح الطيب ج ١ ص ٢٧٢ و ٢٧٣ .

إحدى وعشرين ربضاً «كل ربض فيها يعد أكبر مدينة من مدائن الأندلس» . وقد ذكر ابن الخطيب لنا أسماءها ومواقعها تفصيلا ، وبلغ خندقها المحيط بها ما عدا ناحية النهر سبعة وأربعين ألف وخمسمائة ذراع أى ستة عشر ميلا(١) ، وزاد سكانها فى نفس الوقت زيادة كبيرة ، ولاسيما منذ مقدم طوائف البربر الكثيرة عليها ، فى بداية عهد المنصور ، وضاقت رحبات المسجد الجامع برواده ، ولاسيما فى أيام الجمع . فرأى المنصور أن يقيم للجامع من ناحيته الشرقية جناحاً جديداً ، لأن ناحيته الغربية كانت متصلة بالقصور الملكية . وشرع فى إنشاء هذا الجناح فى سنة ٣٨٧ هـ (٩٨٧ م) ، فأقيم بحذاء الجامع من شماله إلى جنوبه ، على رقعة شاسعة تكاد تعدل مساحته الأصلية ، وروعيت فى إنشائه البساطة والمتانة قبل الزخرفة ، كما روعى التماثل والمطابقة للصرح القديم ؛ ونزعت من أجل ذلك ملكية عدد كبير من الأماكن والدور ، حرص المنصور على أن ينصف أصحابها فيما يستحقونه من ثمن أو معاوضة . وتضاعف حجم المسجد الجامع بهذه الزيادة ، وأضحى يحتل رقعة عظيمة شاسعة تبلغ فى الطول مائة وثمانين متراً ، وفى العرض مائة وخمسة وثلاثين متراً . وكان يشتغل فيه عدد كبير من الأسرى النصارى ، الذين أخذوا فى مختلف المعارك . وكان المنصور يشترك بنفسه أحياناً فى أعمال البناء . وبلغ عدد سواريه ما بين كبيرة وصغيرة ، ألف وأربعمائة وسبعة عشرة ، وبلغت ثرياته مابين صغيرة وكبيرة مائتان وثمانون ، وبلغ عدد المكلفين بالخدمة به فى عهد المنصور ، مابين أئمة ومقرئين وأمناء ومؤذنين وسدنة وغيرهم مائة وخمسون شخصاً ، وكان الجامع وما حوله يعتبر وحده ربضاً مستقلا يتولاه عريفه وحراسه على حدة(٢) . ومازال جناح المنصور بمسجد قرطبة الجامع حتى اليوم ، قائماً بسائر رحابه وعقوده وسواريه ، وذلك بالرغم من تحويل عقوده الجانبية إلى كنائس وهياكل ، ويعرفه الأثريون « بمسجد المنصور »(٣) .

وجدد المنصور قنطرة قرطبة القائمة على نهر الوادى الكبير ، وراء المسجد

---

(١) أعمال الأعلام ص ١٠٣ .

(٢) أعمال الأعلام ص ١٠٣ .

(٣) راجع فى زيادة المنصور للمسجد الجامع ، البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠٦ – ٣٠٨ ، ونفح الطيب ج ١ ص ٢٥٧ . وراجع كتابى « الآثار الأندلسية الباقية » حيث يوصف جامع قرطبة بحالته الحاضرة تفصيلا الطبعة الثانية ( ص ٢٠ – ٣١ ) .

الجامع ، وكانت فى الأصل قنطرة رومانية ، فجددها السمح بن مالك أمير الأندلس ثم جاء المنصور فجددها ، وأعاد بناءها ، وذلك فى سنة ٣٧٨هـ (٩٨٨ م) ، وتم بناؤها فى سنة ونصف ، وبلغت النفقة عليها مائة وأربعين ألف دينار ، وعظم بها نفع القرطبيين .

وابتنى المنصور كذلك قنطرة إستجة على نهر شنيل ، فرع الوادى الكبير ، واقتضى إنشاؤها كثيراً من الجهد والنفقة ، ولكنها حققت تسهيلات عظيمة ، فى مواصلات قرطبة بالقواعد والولايات الغربية والجنوبية[1] .

* * *

وكان المنصور ، على الرغم من صرامته ، وما لجأ إليه لتوطيد حكمه من الوسائل المثيرة ، يتسم بصفات عديدة مؤثرة ؛ فقد كان جواداً وافر الجود والبذل ، يغدق صلاته على من يستحقها من العاملين معه والمتصلين به ، وعلى الفقراء وذوى الحاجات ، وله فى ذلك حكايات كثيرة .

وكان يفاخر بنشأته المتواضعة ، ويقلل من شأن نفسه . وذكر المؤرخ ابن حيان فى كتابه فى «أخبار الدولة العامرية» عن والده خلف بن حيان كاتب المنصور ، أن المنصور لامه ذات يوم لأمر من الأمور ، فبدا عليه الفزع ، فأشفق عليه المنصور وهدأ من روعه ، ثم خلا به بعد أيام وقال له : «رأيت من ذعرك ما استنكرت ، ومن وثق بالله برئ من الحول ، والقوة لله ، وإنما أنا آلة من آلاته أسطو بقدرته ، وأعمل عن إذنه ، ولا أملك لنفسى إلا ما أملك ، ... فطأمن جأشك ، فإنما أنا ابن امرأة من تميم طالما تقوت بثمن غزلها ، أغدو به إلى السوق ، وأنا أفرح الناس بمكانه ، ثم جاء من أمر الله ما تراه ، ومن أنا عند الله لولا عطفى على المستضعف المظلوم ، وسيرى لجهاد الطاغية»[2] .

وكان ورعاً ، شديد الإيمان واليقين ، يخشى ربه ، ويزدجر إذا ذكر الله وعقابه . وكانت هذه أعجب الخلال فى رجل كالمنصور ، لم يعف عن سفك الدماء فى سبيل تحقيق أطماعه . ولكنها حقيقة تنوه بها الرواية الإسلامية وتؤكدها ، ومن دلائلها أن المنصور ، كان يحمل معه فى سائر غزواته وأسفاره مصحفاً

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠٩ ، ونفح الطيب ج ١ ص ١٩١ ، وأعمال الأعلام ص ٧٦

(٢) إعتاب الكتاب لابن الأبار – مخطوط الإسكوريال – لوحة ٥٦ .

خطه بيده ، يقرأ فيه ويتبرك به فى كل مناسبة(١).

وكذلك تنوه الرواية بعدالة المنصور ، وصرامته فى إحقاق الحق ، والانتصاف لذوى المظالم . وقد أورد لنا صاحب البيان المغرب عدة أمثلة رفعت فيها الظلامات إلى المنصور ضد بعض أكابر خدمه وحاشيته ، ممن كانوا يظنون أن مراكزهم تحميهم من إجراء العدالة ، فأمر المنصور بالانتصاف منهم لذوى الظلامات . وكان يقترن بهذه الصفة ، خلة محمودة أخرى ، هى تذرعه بالحلم والصبر ، وضبط النفس فى أمور كثيرة ، وذلك بالرغم مما كان عليه من الهيبة والرهبة والسلطان(٢).

ولكن الرواية تنعى على المنصور خلة سيئة ، هى شغفه بمعاقرة الخمر ، وقد لازمته هذه الرذيلة طوال حياته ، ولم يقلع عنها إلا قبل وفاته بعامين . ويصف لنا ابن الخطيب كيف كان المنصور يصل فى العمل يومه بليله ، وهو عاكف على الشراب ، فى تلك الفقرة البليغة : « وكانت الجزالة والرجولة ثوبه الذى لم يخلعه ، إلى أن وصل إلى ربه ، والحزم والحذر شعاره الذى لم يفارقه طول حياته ، والنصب والسهر شأنه فى يومه وليله ، لا يفضل لذة على تدبيره ، وحلاوة نهيه وأمره ، فينفذ الأمور ، والكأس تدور ، والجبال للطرب تمور »(٣).

* * *

بقيت من خلال المنصور ناحية ربما كانت ألمع خلاله جميعاً ، وتلك هى الناحية العلمية .

نشأ المنصور حسبما رأينا فى بيت علم وأدب ، ودرس وفقاً لتقاليد أسرته دراسة حسنة ، وبرع فى الشريعة والأدب ، وكان حرياً به أن يتبوأ مكانه بين علماء عصره ، لولا أن شاءت الأقدار أن تدفع به إلى معترك السياسة والسلطان .

على أن المنصور لبث بالرغم من مشاغل هذا المعترك السياسى الخضم ، يحتفظ طول حياته بشغفه بالعلم والأدب ، ويوثق صلاته بالعلماء والأدباء والشعراء ويؤثرهم بحبه وعطفه ، ويجمعهم حوله فى أوقات فراغه وسويعات لهوه وأنسه ، ويساجلهم البحث والمناظرة ، ويطارحهم قرض الشعر ، ذلك لأن المنصور كان شاعراً أيضاً ، وله نظم حسن سوف نورد شيئاً منه .

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠٩ و ٣١٠ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٤٧ .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٣١٠ – ٣١٢ ، والحلة السيراء ص ١٥١ .

(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ٣١٠ ، وأعمال الأعلام ص ٧٥ .

وكان من أخص جلسائه الأدباء ، الكاتب البغدادى ، أبو العلا صاعد ابن الحسن . وكان قد وفد من المشرق على الأندلس سنة ٣٨٠ هـ ، والمنصور فى أوج سلطانه ، فأراد المنصور أن يجعل منه قريناً لأبى على القالى ، الوافد من قبل على الناصر والحكم ، فقربه وأذن له أن يجلس بجامع مدينة الزاهرة ، يملى كتابه المسمى « بالفصوص » على أدباء قرطبة ، وهو كتاب فى الآداب والأخبار والأشعار ، ولكن أدباء قرطبة أنكروا ما ورد فيه ، وكذبوه فى كثير مما يلقيه ، وفضحوا كثيراً من سرقاته الأدبية والشعرية(١). ومع ذلك فقد كان صاعد أديباً بارعاً ، خفيف الروح ، متوقد الذهن ، حاضر البديهة ، وكان يأتى بكثير من غريب الشعر بداهة ، فأعجب به المنصور ، وأولاه رعايته ، وألحقه بديوان الندماء ، وأجرى عليه راتباً حسناً ؛ وكان بهذا الديوان بعض أدباء العصر مثل زيادة الله بن مضر الطبنى ، وابن العريف ، وابن التيانى ، وغيرهم . وغدا صاعد شاعر المنصور ينظم له المدائح والطرف ، ويصطحبه المنصور فى نزهاته برياض الزاهرة ، وينظمه فى مجالس أدبه وأنسه . وقد أورد لنا ابن بسام وصفاً مسهباً لهذه المجالس الأدبية ، التى يجتمع فيها المنصور بخلانه وندمائه ومنهم صاعد ، وأورد لنا كثيراً مما قيل فيها من النظم . وقد كان بعض الفتيان الصقالبة من بطانة المنصور ، يأخذ بقسط حسن من الشعر والأدب ، ويغشى مجالس المنصور الأدبية ويشترك فى المطارحات الشعرية ، وكان من أشهرهم الفتى فاتن ، وكان من أبرع العارفين منهم باللغة والأدب . وقد كان للفتيان الصقالبة فى الواقع تراث من الشعر والأدب ، واشتهروا بذلك أيام المنصور خاصة ،وأصدر أحدهم فى ذلك كتاباً سماه « الإستظهار والمغالبة على من أنكر فضل الصقالبة » ، ضمنه كثيراً من أشعارهم ونوادر أخبارهم (٢).

ولبث صاعد على مكانته حتى وفاة المنصور ، ومن بعده حتى نهاية الدولة العامرية ، ثم أفل نجمه بعد ذلك ، وساءت أحواله عند ظهور الفتنة ، فغادر الأندلس متخفياً فى سنة ٤٠٣ هـ ، وجاز البحر إلى صقلية ، واتصل بأميرها فأولاه رعايته ، وحسنت حاله ، وكانت وفاته بها فى سنة ٤١٠ هـ .

---

(١) الصلة لابن بشكوال ( طبعة القاهرة ) رقم ٤٠ .

(٢) راجع الذخيرة . القسم الرابع المجلد الأول ص ٧ – ٢٢ ، والمعجب ص ١٦ و ١٧ .

وكان للمنصور ، فضلا عن مجالس الأدب والأنس العابرة ، مجلس أسبوعى يعقده للبحث والمناظرة ، ويشهده كثير من العلماء والأدباء[١] . وكان فى غزواته يستصحب بعض العلماء والأدباء من أصدقائه ، إذ كان شغف البحث والمناظرة ، يلازمه دائماً حتى فى ميدان الحرب ؛ وإلى جانب هذا الشغف الشخصى بالحياة العقلية ، كان المنصور مولعاً بالعمل على نشر العلم والمعرفة بين طبقات الشعب ، فأنشأ كثيراً من دور العلم بقرطبة ، وبالغ فى الإنفاق عليها ، وكان يزور المدارس والمساجد ، ويجالس الطلاب أحياناً ، ويمنح المكافآت النفيسة لمن يستحقها .

وإلى جانب هذا الشغف بالآداب والعلوم ونشر الحياة العقلية ، كان المنصور يشغف أيضاً بجمع الكتب ، وكان أكابر المؤلفين يهدون إليه كتبهم ، على نحو ما كان متبعاً أيام الحكم ، ومن ذلك أن صاعداً البغدادى أهدى إليه كتاب « الفصوص » المتقدم ذكره ، فأثابه عنه بخمسمائة دينار[٢] .

وكان المنصور يمقت الفلسفة وما إليها ، ويرى أنها مخالفة للدين ، ويكره التنجيم والمنجمين ، وقد أمر بأن يستخرج من المكتبة الأموية العظيمة ( مكتبة الحكم المستنصر ) سائر كتب الفلاسفة والدهريين ، وأن تحرق بمحضر من كبار العلماء ، وفى مقدمتهم أبو العباس بن ذكوان ، وأبو بكر الزبيدى ، والأصيلى وغيرهم ، وكان ذلك بلا ريب عملا غير موفق ، وكان خسارة علمية فادحة . وينعى المستشرق سيمونيت على المنصور هذا التصرف ، فيقول : إنه إذا كان الحكم الثانى قد استطاع لنزعته العلمية والأدبية أن يحمى الفلاسفة ، فقد جاء المنصور من بعده فقام بحرق كتب الفلسفة التى كانت بمكتبة الحكم ، وذلك لكى يرضى الفقهاء والدهماء »[٣] . واشتد المنصور أيضاً فى مطاردة المنجمين ، وبلغه أن أحدهم وهو محمد بن أبى جمعة ، يهجس فى تنبؤاته بانقراض دولته ، فأمر بقطع لسانه وقتله ، فخرست ألسن المنجمين جميعاً[٤] .

---

( ١ ) راجع جذوة المقتبس للحميدى ص ٧٣ ، والمعجب ص ٢٠ .

( ٢ ) الصلة لابن بشكوال رقم ٤٠ .

( ٣ ) Simonet : Historia de los Mozarabes de Espana ; p. 351

( ٤ ) البيان المغرب ج ٣ ص ٣١٥ ، وأعمال الأعلام ص ٧٧ .

وللمنصور شعر جيد ، نظمه فى مختلف مناسبات حياته ، ومن ذلك قوله فى الفخر :

| | |
|---|---|
| رميت بنفسى هول كل عظيمة | وخاطرت والحر الكريم يخاطر |
| وما صاحبى إلا جنــان مشيع | وأسمــر خطى وأبيض بــاتر |
| وإنى لزجاء الجيوش إلى الوغى | أسـود تلاقيها أسود خوادر |
| فسدت بنفسى أهل كل سيادة | وفاخرت حتى لم أجد من أفاخر |
| وما شدت بنياناً ولكن زيادة | على ما بنى عبد المليــك وعامر |
| رفعنــا العوالى بالعوالى مثلهــا | وأورثناها فى القــديم معــافر |

وقوله يتهدد الفاطميين بمصر ، ويمنى نفسه بفتح مصر والشأم :

| | |
|---|---|
| منع العــين أن تذوق المنــاما | حبا أن ترى الصــفاء والمقاما |
| لى ديون بالشرق عنــد أناس | قد أحلوا بالمشعــرين الحراما |
| إن قضــوها نالوا الأمانى وإلا | جعــلوا دونها رقاباً وهــاما |
| عن قريب ترى خيول هشــام | يبلغ النيــل خطوها والشــاما |

وأما عن نثر المنصور ، فقد رأينا أن نورد نموذجاً له ، وصيته لولده عبدالملك حينما حضرته الوفاة ، وقد نقلها إلينا ابن حيان عن أبيه خلف بن حسين ، وهذا نصها :

« يا بنى : لست تجد أنصح لك ، ولا أشفق عليك منى ، فلا تعدَّين وصيتى ، فقد جردت لك رأيى ورويتى ، على حين اجتماع من ذهنى ، فاجعلها مثالا بين عينيك . وقد وطأت لك مهاد الدولة ، وعدلت لك طبقات أوليائها ، وغارت لك بين دخل المملكة وخرجها ، واستكثرت لك من أطعمتها وعددها ، وخلفت لك جباية تزيد على ما ينوبك لجيشك ونفقتك ، فلا تطلق يدك فى الإنفاق ، ولا تقبض لظلمة العمال ، فيختل أمرك سريعاً ، فكل سرف راجع إلى اختلال لا محالة ، فاقصد فى أمرك جهدك ، واستثبت فيما يرفع أهل السعاية إليك ، والرعية قد استقصيت لك تقويمها ، وأعظم مناها أن تأمن البادرة ، وتسكن إلى لين الجنبة . وصاحب القصر قد علمت مذهبه ، وأنه لا يأتيك من قبله شىء تكرهه ، والآفة ممن يتولاه ويلتمس الوثوب باسمه ، فلا تنم عن هذه الطائفة جملة ، ولا ترفع عنها سوء ظن وتهمة ، وعاجل بها من خفته على أقل بادرة ، مع

قيامك بأسباب صاحب القصر على أتم وجه . فليس لك ولا لأصحابك شيء يقيكم الحنث فى يمين البيعة ، إلا ما تقيمه لولها من هذه النفقة ، فأما الانفراد بالتدبير دونه ، مع ما بلوته من جهله وعجزه عنه ، فإنى أرجو أنى وإياك منه فى سعة ما تمسكنا بالكتاب والسنة . والمال المخزون عند والدتك ، هو ذخيرة مملكتك وعدة لحاجة تنزل بك ، فأقمه مقام الجارحة من جوارحك التى لا تبذلها إلا عند الشدة ، تخاف منها على سائر جسدك . ومادة الخراج غير منقطعة عنك بالحالة المعتدلة . وأخوك عبد الرحمن قد صيرت إليه فى حياتى ما رجوت أنى قد خرجت له فيه عن حقه من ميراثى ، وأخرجته عن ولاية الثغر ، لئلا يجد العدو مساغاً بينكما فى خلاف وصيتى ، فيسرع ذلك فى نقض أمرى ، ويجلب الفاقرة على دولتى . وقد كفيتك الحيرة فيه ، فأكفه الحيف منك عليه ، وكذلك سائر أهلك فيما صنعت فيهم ، بحسب مما قدرت به خلاصى من مال الله الذى فى يدى . وخلافتك بعدى أجدى عليهم مما صرفته ، فلا تضيع أمر جميعهم ، والحظهم بعينى فإنك أبوهم بعدى. فان انقادت لك الأمور بالحضرة فهذا وجه العمل ، وسبيل السيرة ، وإن اعتاصت عليك ، فلا تلقين بيدك إلقاء الأمة ، ولا تبطر بك وأصحابك السلامة ، فتنسوا مالكم فى نفوس بنى أمية وشيعتهم بقرطبة . فإن قاومت من توثب عليك منهم ، فلا تذهل عن الحزم فيهم ، وإن خفت الضعف فانتبذ بخاصتك وغلمانك ، إلى بعض الأطراف التى حصنتها لك ، واختبر غدك إن أنكرت يومك . وإياك أن تضع يدك فى يد مروانى ما طاوعتك بنانك ، فإنى أعرف ذنبى إليهم » .

وهذه وصيته لغلمانه نقلها إلينا أيضاً ابن حيان عن أبيه :

«تنبهوا لأمركم واحفظوا نعمة الله عليكم ، فى طاعة عبدالملك أخيكم ومولاكم ولا تغرنكم بوارق بنى أمية ومواعيد من يطلب منهم شتاتكم ،وقدروا ما فى قلوبهم وقلوب شيعتهم بقرطبة من الحقد عليكم ، فليس برأسكم بعدى أشفق عليكم من ولدى. وملاك أمركم أن تنسوا الأحقاد ، وأن تكون جماعتكم كرجل واحد ، فإنه لا يفل فيكم »[1] .

---

(١) نقل إلينا ابن بسام ( عن ابن حيان ) هذين النصين فى الذخيرة . القسم الرابع المجلد الأول ص ٥٦ — ٥٨ . ونقلهما ابن الخطيب أيضاً فى أعمال الأعلام ص ٨١ و ٨٢ .

وفى وصية المنصور لولده وغلمانه ، يرتسم برنامج سياسته كلها ، وتبدو بالأخص نواحى توجسه وتخوفه ، فهو لم يكن يأمن جانب بنى أمية قط ، وقد لبث يتوقع الشر منهم حتى وفاته . ثم توفى وهو يتوقع الشر منهم لبنيه ودولته ؛ وقد كان المنصور فى ذلك صائب التقدير ، بعيد النظر .

* * *

هذا وأما علائق المنصور الدبلوماسية فإنه لم يتح له عقد الكثير منها ، ولم تفد إليه سفارات من ملوك النصارى على نحو ما حدث أيام الناصر والحكم المستنصر . ذلك لأن عهد المنصور كان كله عهد حروب مستمرة ، بين الأندلس وبين اسبانيا النصرانية ، ولم يقع بين الفريقين تهادن أو سلم طويل الأمد .

وكل ما نستطيع أن نسجله من ذلك حادثان متشابهان ، أولها قدوم برمودو الثانى ملك ليون إلى قرطبة فى سنة ٩٨٥ م ، مستجيراً بالمنصور ليعاونه على مقاومة الأشراف الخارجين عليه وتوطيد عرشه . وقد أجابه المنصور إلى طلبه وبادر بمعونته . ومما هو جدير بالذكر أن برمودو قدم ابنته تريسا Teresa بعد ذلك إلى المنصور عروساً له ، فقبلها المنصور وتزوجها أو اتخذها سرية له [١].

والثانى ، وهو من أشهر الحوادث الشائقة التى وقعت أيام المنصور ، هو مقدم سانشو غرسية ملك نافار على المنصور ، معتذراً إليه ، لائذاً بعفوه ومهادنته . والوجه الشائق فى ذلك هو أن سانشو غرسية هذا كان صهراً للمنصور ، وكان تقرباً من المنصور ، واكتساباً لمودته قد قدم ابنته عروساً إليه ( ٩٨١ م ) فتزوجها المنصور ، واعتنقت الإسلام ، وسميت باسم « عبدة » ، وكانت من أحظى نسائه لديه ، ورزق منها بولده عبد الرحمن الذى سمى أيضاً « شنجول » أو «سانشول» أى شانجُه (سانشو) الصغير نسبة لجده ملك نافار . ثم ساءت العلائق بين المنصور وصهره ، وتابع المنصور غزو نافار مرة بعد مرة ، حتى اضطر سانشو إلى طلب الصلح ، وسار إلى قرطبة مستصرخاً المنصور ولائذاً بعفوه . ووصل سانشو إلى قرطبة فى الثالث من رجب سنة ٣٨٢ هـ (٤ سبتمبر سنة ٩٩٢ م) فسر المنصور بمقدمه سروراً عظيماً ، وبعث القواد والكبراء وطوائف الجند فى موكب فخم ، وعلى رأسهم ولده عبد الرحمن وهو طفل فى مهده ، لاستقباله ومرافقته

---

(١) R. M. Pidal : La Espana del Cid (Madrid 1947) p. 71

إلى قصر الزاهرة ، فلما وقعت عين سانشو على حفيده ، ترجل وقبل يده ورجله ، ثم رافق الركب إلى الزاهرة ، وقد اصطفت الجند على طول الطريق فى صفوف كثيفة زاهية كاملة السلاح والعدة ، واصطف الوصفاء والصقالبة من باب القصر إلى الداخل صفين. وسار سانشو ، وقد بهره كل ما رأى ، حتى وصل إلى مجلس المنصور فى عصر ذلك اليوم ، وقد جلس المنصور فى هيئة فخمة ، ومن حوله الوزراء وأعاظم رجال الدولة ؛ فلما أبصره سانشو هوى إلى الأرض فقبلها مرات متوالية ، ثم قبل يدى المنصور ورجليه ، فأمره بالجلوس على كرسى مذهب خصص له ، ثم انصرف الناس واختلى الملك النصرانى بالمنصور ، وأفضى كل إلى صاحبه بما أراد ، ثم خرج سانشو وفى أثره الخلع السلطانية ، وما انفض المجلس إلا عند دخول الليل .

وكان مقدم سانشو غرسية إلى قرطبة ، واستقباله بها ، من أيام الأندلس المشهودة ، وقد أعاد بروعته وما اقترن به من مغزى عميق بظفر الإسلام على أعدائه ، ذكرى أيام الناصر فى وفود الملوك النصارى عليه ، ملتمسين منه الصلح والمودة[1] .

• • •

وقد أجمعت الرواية الإسلامية ، الأندلسية والمشرقية ، على الإشادة بخلال المنصور وباهر صفاته . وهى جميعاً سواء أوجزت القول أو أفاضت ، تنم عن عميق التقدير والإعجاب : ثم هى مع ذلك لم تغفل التنويه بالجوانب القاتمة فى تلك العبقرية الفذة ، على أنها على العموم أكثر ميلا إلى إبراز محاسن المنصور ومواهبه ، والإشادة بما أسبغته على الأمة الأندلسية من ضروب العظمة والبهاء .

قال ابن الأثير يصف المنصور : « وكان شجاعاً ، قوى النفس ، حسن التدبير ، وكان عالماً محباً للعلماء ، يكثر مجالستهم ويناظرهم ، وقد أكثر العلماء ذكر مناقبه ، وصنفوا لها تصانيف كثيرة »[2]. وقال ابن خلدون : « وكان ذا عقل ورأى وشجاعة ، وبصر بالحروب ، ودين متين »[3] . ويصفه الفتح ابن خاقان فى «المطمح» فى تلك العبارات الشعرية : « وكان أمضاهم ( يعنى من

(١) أورد لنا ابن الخطيب فى «أعمال الأعلام» وصفاً شائقاً لهذا الحادث . ص ٦٦ و٧٣ و٧٤ .
(٢) ابن الأثير ج ٩ ص ٦١ .
(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٧ .

تقدمه ) وأذكاهم جناناً ، وأتمهم جلالا ، وأعظمهم استقلالا . قام بتدبير الخلافة ، وأقعد من كان له فيها إنافة . وساس الأمور أحسن سياسة ، وداس الخطوب بأخشن دياسة ، فانتظمت له الممالك ، واتضحت به المسالك ، وانتشر الأمن فى كل طريق ، واستشعر اليمن كل فريق . وملك الأندلس بضعاً وعشرين حجة ، لم تدحض لسعادتها حجة ، ولم تزخر لمكروه بها لجة ، وكانت أيامه أحمد أيام ، وسهام بأسه أشد سهام »[١] .

ويجمل ابن حيان حياة المنصور فى تلك الفقرة : « وامتثل رسم المتغلبين على سلطان ولد العباس بالمشرق من أمراء الديلم فى عصره . فنال بغيته ، وتهنأ معيشته ، وأورثه عقبه بعده ، عن غير اقتدار عليه ، بجند خاص ، ولا صيال بعشيرة ، ولا مكاثرة بمال وعدة ، بل رمى الدولة من كنانها ، وعدا عليها بأعضادها ، وانتضلها بمشاقصها ، وأنفق على ضبطها أموالها وعددها ، حتى حولها إليه وسبكها فى قالبه ، وسلخ رجالها برجاله ، وعفى رسومها بما أوضح من رسومه »[٢] .

هذا ، وقد أشاد ابن الخطيب بخلال المنصور فى مواطن وفقرات عديدة نقتطف منها ما يلى :

قال مشيراً إلى ولاية هشام : « فاستقر الأمر لهشام ، يكنفه الحاجب المنصور أسعد أهل الأندلس مولداً ، وأشهرهم بأساً ونداً ، وأبعدهم فى حسن الذكر مداً ، الحازم العازم ، العظيم السياسة ، الشديد الصلابة ، القوى المنة ، الثبت الموقف ، معود الإقبال ، ومبلغ الآمال ، الذى صحبته ألطاف الله الخفية فى الأزمات ، واضطرد له النصر العزيز فى نحو سبع وخمسين من الغزوات ، ولم تفارقه السعادة حالتى المحيا والممات » .

وقال : « فقد أجمع الشيخة أنه نهض بجد لا كفاء له ، وأصحب سعداً لا نحس يخالطه ، وأعطى إقبالا لا إدبار معه ، قد وثق بذلك فلم يلتفت إلى غيره ...

« وكان مهيباً وقوراً ، فإذا خلا كان أحسن الناس مجلساً ، وأبرهم بمن يحضر منادماً ومؤانساً ، وكان شديد القلق من التبسط عليه ، والدالة ، والامتنان ،

---

( ١ ) نقله البيان المغرب ج ٢ ص ٢٩٢ ، والمقرى فى نفح الطيب ج ١ ص ١٨٩ .
( ٢ ) نقله صاحب الذخيرة . القسم الرابع المجلد الأول ص ٤٣ .

لا يغفرها زلة ، ولا يحلم عنها جريرة ، ولم يكن يسامح فى نقصان الهيبة ، وحفظ الطاعة أحداً ، من ولد ولا ذى خاصة ، دعاه ذلك إلى قتل ولده عبد الله صبراً بالسيف بما هو معروف » .

« وكانت الجزالة والرجولة ، ثوبه الذى لم يخلعه ، إلى أن وصل إلى ربه ، والحزم والحذر شعاره ، الذى لم يفارقه طول حياته ، والنصب والسهر شأنه فى يومه وليله ، لا يفضل لذة على لذة تدبيره ، وحلاوة نهيه وأمره »[١] .

ولم يكن النقد الغربى أقل تقديراً لعظمة المنصور ، وقد أشاد بعبقريته ومواهبه كثير من المؤرخين والنقدة الغربيين ، وهذه نماذج من أقوالهم :

قال المؤرخ الإسبانى اليسوعى ماسديه مشيراً إلى المنصور : « وكان سياسياً كبيراً ، وقائداً عظيماً ، فقد أخمد نار الثورات التى كانت تعصف بالمملكة ، واكتسب حب الشعب بجميع طبقاته ، وتفوق فى شهرته وهيبته على أكبر القواد ، بما اجتمع فى أحكامه من الصرامة واللين والقصاص والعفو ، وكان يهدم المدن التى تقاوم جيوشه ويبيدها ، ولكنه لم يسمح قط لجنده بأن تسىء معاملة مدينة سلمت طوعاً »[٢] .

ويقول المؤرخ الإسبانى المعاصر الأستاذ مننديث پيدال معلقاً على عصر المنصور : « عاش الإسلام فى اسبانيا أروع أيامه وأسطعها ، وانتهى نصارى الشمال إلى حالة دفاع كانت دائماً مقرونة بالمحن ، ولاح كأنهم لم يعيشوا إلا لتأدية الجزية والسلاح والأسرى والمجد للخلافة الأموية »[٣] .

ويلاحظ الأستاذ پيدال فى نفس الوقت أن عبقرية المنصور العسكرية والسياسية كانت من عوامل القضاء على الروح القومية النصرانية المستعربة ، وذلك لما أغدقه المنصور من عطفه ورعايته على كثير من النصارى والمستعربين[٤].

ويختم العلامة دوزى كلامه عن المنصور بالفقرة الآتية : « وعلى الحملة ، فإذا وجب أن نستنكر الوسائل التى لجأ إليها المنصور فى اغتصاب السلطة ، فمن

---

(١) راجع أعمال الأعلام ص ٥٨ و ٧٤ و ٧٥ .

(٢) J. F. Masdeu : Historia critica de Espana y de la Cultura Espanola

(٣) R. M. Pidal : La Espana del Cid, p. 72

(٤) R. M. Pidal : Origenes del Espanol, p. 423

الواجب أيضاً أن نعترف بأنه استخدمها بطريقة شريفة . وما كنا لنسرف فى لومه لو أن القدر خلقه على أريكة العرش ، ولعله كان يعتبر عندئذ من أعظم الملوك الذين عرفهم التاريخ . ولكنه خلق فى القرية ، واضطر لتحقيق أطماعه ، أن يشق لنفسه طريقاً تكتنفه آلاف الصعاب . ومن الأسف أنه من أجل تذليلها ، قلما راعى شرعية الواسطة . لقد كان المنصور رجلا عظيماً من وجوه كثيرة ، ولكن يستحيل علينا ، متى رجعنا إلى مبادئ الأخلاق الخالدة أن نحبه ، ومن الصعب أن نعجب به »[1] .

(١) Dozy : Hist. Vol. II. p. 275

# الفصل الثالث

## الممالك النصرانية الإسبانية

### خلال القرن العاشر الميلادى

نهوض اسبانيا النصرانية فى عهد الفتنة الأندلسية . وفاة أردونيو الثانى . الحرب الأهلية فى ليون . استقرار راميرو فى الملك . ولاية قشتالة . جهادها فى سبيل الاستقلال . الكونت فرنان كونثالث. ثورته ضد راميرو الثانى . هزيمته وأسره . ثورة قشتالة . الإفراج عن الكونت . طاعته الملك ليون . استمراره فى العمل لاستقلال قشتالة . وفاة راميرو . الحرب الأهلية بين ولديه أردونيو وسانشو . معاونة فرنان كونثالث لسانشو . انتصار أردونيو وفوزه بالملك . يعقد الصلح مع الناصر . وفاته وجلوس سانشو . موقف فرنان كونثالث . اضطراب الأحوال فى ليون . فرار سانشو وجلوس أردونيو الرابع . التجاء سانشو وجدته طوطة إلى الناصر . سانشو يسترد العرش بمعونة الناصر . نكثه لعهوده . فرنان كونثالث يعلن استقلال قشتالة . التجاء أردونيو إلى الحكم . اتحاد الأمراء النصارى . غزو الحكم لقشتالة وناڤار . اضطرارهما لعقد الصلح . بداية الكفاح بين قشتالة والمملكة الإسلامية . الحكم يأذن بنقل رفات القديس بلايو . الثورة فى جليقية . مصرع سانشو وجلوس ولده راميرو . وفاة فرنان كونثالث وصفاته . وفود الأمراء النصارى وسفاراتهم على قرطبة . عدوان النصارى على أراضى المسلمين وردهم . النزاع بين راميرو وبرمودو على العرش . تدخل المنصور فى ذلك . غزو المنصور لشنت ياقب . برمودو يلتمس الصلح . وفاته وجلوس ولده ألفونسو . مملكة ناڤار . غرسية سانشيز وأمه طوطة . ولده سانشو غرسية . غزو المنصور لناڤار . وفاة سانشو وجلوس ولده غرسية سانشيز . ولده سانشو الكبير . عناصر المجتمع فى اسبانيا النصرانية . طبقة الأشراف والفرسان والملاك والزراع الأحرار . طبقة الأرقاء . رقيق الضياع . التنظيم السياسى للمملكة النصرانية . السلطة الملكية . الأشراف . القضاء واشتراك الأشراف فى مزاولته . رجال الدين وسلطانهم الإقطاعى . مقارنة بين هذا النظام ونظام المملكة الإسلامية .

لما بلغت الثورات والفتن الداخلية بالأندلس ، ذروتها فى النصف الأخير ، من القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) ، فيما اصطلح على تسميته بالفتنة الكبرى ، وبددت قوى الأندلس ومواردها فى ذلك الصراع الداخلى المدمر ، أخذت اسبانيا النصرانية ، وقد أمنت شر الغزوات الإسلامية طوال هذه الفترة ، تتنفس الصعداء ، فاشتد ساعدها ، ونمت مواردها ، وتوطدت حكوماتها . ولم تأت فاتحة القرن العاشر الميلادى ، حتى كانت مملكة ليون ، التى خلفت مملكة جليقية ، وبسطت سلطانها على ولاية قشتالة ، فى أواسط اسبانيا الشمالية ، قد

بلغت مستوى من القوة والبأس ، يتيح لها أن تخوض مع المملكة الإسلامية صراعاً عنيفاً .

وقد رأينا كيف بلغ هذا الصراع ذروته فى عهد الناصر ، وكيف أنه بالرغم مما حققه الناصر من إخماد الفتنة ، وإحياء قوة الأندلس ، استطاع النصارى بقيادة ملكهم أردونيو الثانى ، أن يحرزوا على المسلمين نصرهم الخطير ، فى موقعة شنت إشتيبن فى سنة ٩١٧ م .

وكانت موقعة شنت إشتيبن ، وما تلاها من تكرر غزو النصارى للأراضى الإسلامية ، نذيراً خطيراً لحكومة قرطبة . ولكن وفاة أردونيو الثانى فى سنة ٩٢٥ م وضع حداً مؤقتاً لتلك الفورة القومية ، التى جاشت بها اسبانيا النصرانية . ذلك أن أخاه وخلفه فرويلا ، لم يحكم سوى عام واحد ، ثم توفى ، فاضطرم النزاع على العرش بين سانشو وألفونسو ولدى أردونيو ، وانتهى بأن فاز ألفونسو بالعرش بمعاونة صهره وحميه سانشو ملك ناقار . ولكن سانشو لم ييأس ، فجمع جيشاً جديداً ، وتوج نفسه ملكاً فى شنت ياقب فى أقاصى جليقية ، ثم زحف على ليون فحاصرها واستولى عليها ، وارتقى العرش مكان أخيه . فعاد ملك ناقار إلى مؤازرة ألفونسو ومعاونته ، حتى استطاع أن يهزم أخاه ، وأن يستولى على مدينة ليون مرة أخرى . بيد أن أخاه سانشو لبث محتفظاً بجليقية ، مصراً على دعواه فى الملك .

واستمرت الحرب الأهلية بين النصارى أعواماً ، وانتهى طورها الأول ، حينما توفى سانشو ابن أردونيو فى سنة ٩٢٩ م ، واستقر الملك لأخيه ألفونسو الرابع دون منازع . ثم بدأ طورها الثانى فى سنة ٩٣١ م ، ففى تلك السنة توفيت زوجة ألفونسو ، فحزن لفقدها أيما حزن ، وغلب عليه اليأس والزهد ، فتنازل عن العرش لأخيه راميرو ثانى ملوك ليون بهذا الإسم ، ولجأ إلى دير ساهاجون واعتنق الرهبانية ، ولكنه عافها بعد قليل ، فترك عزلة الدير ، ونادى بنفسه ملكاً فى حصن شنت منكش Simancas ، وكان عمله فى نظر الرهبان عاراً كبيراً ، فأثاروا عليه دعاية شديدة ، حتى اضطر أن يعود إلى الرهبانية . وقد كان ألفونسو فى الواقع « أميراً أصلح لقلنسوة الراهب منه لتاج الملك ، وأشد شغفاً بالمقدس منه بميدان الحرب » ، ولكنه ما لبث أن انتهز فرصة مسير أخيه راميرو إلى نجدة

ثوار طليطلة ، فغادر الدير ، وزحف فى بعض أنصاره على مدينة ليون واستولى عليها ، فعاد راميرو مسرعاً ، وحاصر أخاه فى ليون واستولى عليها بلوره . ثم أراد أن يضع حداً لمساعى ألفونسو ومحاولته فسمل عينيه ، وسمل كذلك أعين أبناء عمه الثلاثة ، وهم أولاد فرويلا الذين اشتركوا فى الثورة عليه .

ويعلق النقد الإسبانى الحديث على تلك القسوة بقوله : « وإنه لبروعنا ذكرى العقوبة التى أنزلها راميرو الثانى بأخيه ألفونسو ، وبأبناء عمه الثلاثة ، وإنه لن يكفى مر القرون لمحو ذكرى عقوبة سمل العينين التى ورثت عن التشريع القوطى ، قبل أن نراها تطبق بكثرة من جانب ملوكنا نحو ذوى قرباهم »(١) .

وهكذا استقر الملك لراميرو بعد صراع عائلى عنيف . وكان راميرو الثانى أو ردمير كما تسميه الرواية الإسلامية ، ملكاً شجاعاً مقداماً ، نذر نفسه للكفاح ضد المسلمين ، ومقارعتهم بكل الوسائل ، فتارة يغير على الأراضى الإسلامية ، وتارة يحرض الثوار على حكومة قرطبة ، أو يسير إلى إنجادهم بالفعل ، كما حدث حينما سار لمعاونة طليطلة على مقاومة الناصر (٩٣٠ م ) ، وتارة يشتبك مع المسلمين فى معارك طاحنة . وقد سبق أن فصلنا أدوار ذلك الصراع العنيف ، الذى اضطرم بين راميرو وبين الناصر ، والذى بلغ ذروته فى موقعة الخندق المشئومة ، التى دارت فيها الدائرة على المسلمين ، تحت أسوار مدينة سمورة فى سنة ٣٢٧ ﻫ ( ٩٣٩ م ) .

## ١ — نشأة مملكة قشتالة

لم يكن اضطراب الأمور فى مملكة ليون ، قاصراً على قسمها الغربى فى جليقية ، حيث كان الزعماء (الكونتات) الحلالقة ، يثورون على العرش من آن لآخر ، بغية توطيد سلطانهم المحلى ، بل كان يشمل أيضا قسمها الشرقى ، فى منطقة قشتالة ، التى كانت تسمى يومئذ « بردوليا » ثم سميت فيما بعد « قشتالة Castilla »(٢) ، وذلك لكثرة الحصون التى كانت تقام بها . وكانت هذه المنطقة ، التى استحالت فيما بعد إلى مملكة قشتالة ، تمتد شرقاً حتى هضاب نافار ، ومن

(١) M. Latuente : Historia general de Espana (Barcelona 1889) T. II.p.360

(٢) كلمة Castillo الإسبانية معناها الحصن . وقد كانت تسمى فى الجغرافية العربية القلاع قبل أن تنتظم إلى مملكة قشتالة . وتسمى بالإضافة إلى ولاية « ألبة » Alava « ألبة والقلاع » .

ولاية ريوخا جنوباً ، حتى الأراضى التى سميت فيما بعد أراجون وسورابى ، وكان سكانها الأصليون من البشكنس وأهل ألبة . وكان ملوك الجلالقة أو ملوك أوبييلو قد غزوها وأضافوها إلى أملاكهم ، وكانت عاصمتها يومئذ مدينة برغش . وأبدى زعماء قشتالة منذ البداية ، مقاومة عنيفة للملوك الجلالقة ، وبذلوا جهدهم للمحافظة على استقلالهم المحلى ، وثاروا بالفعل فى عهد أردونيو الثانى فى أوائل القرن العاشر . فحاربهم أردونيو وأخضعهم ، وقبض على كثير منهم وأعدمهم ،واضطر الباقون إلى الالتزام بطاعته ، وكانوا يتمتعون بسلطات محدودة تحت سلطان زعيم محلى ، مقره فى « برغش » . وهو يخضع بدوره لملك ليون . ولكن هذا النظام المهين ، لم يرق لكونتات قشتالة ، فلبثوا يتحينون الفرص للثورة ، وتحقيق استقلالهم المنشود .

وعرضت هذه الفرصة ، وألفت قشتالة بطل ثورتها التحريرية ، فى شخص زعيمها الكونت فرنان كونثالث (وفى الرواية الإسلامية فرّان غنصالس) ، الذى غدت حياته مستقى للملاحم الشعرية ، والقصص الإسبانى فى العصور الوسطى ، فحشد الكونت أنصاره وقواته ، وأعلن الحرب على راميرو الثانى ملك ليون ، وولد أردونيو ؛ وكان راميرو يومئذ فى أوج قوته ، بعد انتصاره على المسلمين فى موقعة الخندق ، فلم يلق مشقة فى هزيمة الكونت وسحق قواته ، وأسر فرنان كونثالث ، وزجه راميرو إلى ظلام السجن فى مدينة ليون ، وعين لحكم قشتالة آسور فرناندز كونت مونزون ، ثم عين بعد ذلك لحكمها ولده سانشو ، وأمره أن يعامل القشتاليين بالرفق والحسنى ؛ ولكن ذلك لم يخمد جذوة الوطنية القشتالية . ولبث القشتاليون مخلصين لأميرهم المأسور ، واستمروا فى الثورة والقتال ، وزحفت جموعهم بالفعل على ليون ، فخشى راميرو العاقبة ، وأطلق سراح فرنان كونثالث ، ولكن بشروط فادحة ، هى أن يقسم يمين الطاعة لملك ليون ،وأن يتنازل عن كل أملاكه ،وأن يزوج ابنته أوراكا لأردونيو ولد راميرو الأكبر . وقبل فرنان كونثالث هذه الشروط مرغماً . وظل أهل قشتالة على بغضهم لملك ليون ،وولائهم لأميرهم . وفقد راميرو بذلك عون الزعماء القشتاليين ومساهمتهم المخلصة فى الدفاع عن البلاد ، واستطاع المسلمون خلال ذلك الإغارة مرراً على أراضى ليون والعيث فيها ، وقام الناصر بتجديد مدينة سالم ، ثغر

الحدود بين أراضي قشتالة والأراضي الإسلامية ، وتحصينها ( سنة ٩٤٦ م ) . واضطر راميرو أن يلتزم خطة الدفاع ، إزاء الغزوات الإسلامية المتوالية .

وكان فرنان كونثالث ، يعمل أثناء ذلك ، على توطيد مركزه ، وضم كونتيات قشتالة كلها تحت لوائه ، ليجعل منها وحدة سياسية ، أو بالحرى إمارة مستقلة ، يغلو عرشها من بعده وراثياً فى أسرته . وقد استطاع غير بعيد أن يحقق هذه الغاية(١) .

## ٢ – مملــكة ليون

وفى أوائل سنة ٩٥٠ م توفى راميرو الثانى ملك ليون ، فنشبت الحرب الأهلية مرة أخرى بسبب وراثة العرش . وذلك أن راميرو ترك ولدين أولهم أردونيو ، وهو ولد زوجه الأولى تاراسيا ، وسانشو وهو ولد زوجه الثانية أوراكا أخت غرسية ملك نافار . فادعى أردونيو أنه أحق بالعرش باعتباره أكبر الأخوين ، ولكن سانشو نازعه فى ذلك ، معتمداً على عون أخواله النافاريين ، وجدته طوطة ملكة نافار ، وكذلك على عون الكونت فرنان كونثالث وأهل قشتالة . وكان الكونت غير ميال إلى معاونة أردونيو ، بالرغم من كونه زوج ابنته ، إذ كان قد أرغم على تلك المصاهرة كما تقدم ، وقد آثر أن يقف إلى جانب سانشو ، إذ وعده بأن يرد إليه أملاكه ، وأن يحقق أمانيه فى الاستقلال ، ومن ثم فقد كان من الطبيعى أن يعمل على إضعاف مملكة ليون لكى يدعم بذلك استقلاله . وهكذا نشبت الحرب بين أردونيو وبين جيش متحد من قوات سانشو ، ونافار ، وقشتالة . ولكن أردونيو هزم أعداءه ، وأخضع سائر الخارجين عليه واستقر فى العرش ، ورأى انتقاماً لخيانة فرنان كونثالث أن يطلق زوجه الملكة إبنة الكونت ، وبذلك كفرت هذه الأميرة عن خصومة أبيها لمملكة ليون .

وانتهز المسلمون فرصة الحرب الأهلية ، فتوالت غزواتهم لأراضى ليون ؛ ومن جهة أخرى فقد كان أشراف ليون فى تمرد مستمر على ملكهم ؛ وخشى أردونيو العاقبة ، فبعث سفيراً إلى قرطبة فى أوائل سنة ٩٥٥م يطلب عقد الصلح مع الناصر ، فأجابه الناصر إلى طلبه ، وبعث إليه سفيره محمد بن الحسين ، فعقد معه

---

(١) R. M. Pidal : La Espana del Cid p. 70 ; Altamira : Historia de Espana, Vol. I. p. 244—245.

معاهدة صلح ، تعهد فيها أردونيو بأن يصلح بعض القلاع الواقعة على الحدود ، وأن يهدم البعض الآخر . ثم توفى أردونيو بعد ذلك بقليل ، وخلفه أخوه سانشو فى الملك ؛ وكان أول ما عمل أن رفض تنفيذ المعاهدة التى عقدها أخوه مع الناصر ، فاضطر الناصر إلى إعلان الحرب ، وبعث حاكم طليطلة أحمد بن يعلى فى الجيش إلى ليون ، فغزاها ، وتوغل فى أراضيها ، واضطر سانشو أن يعقد الصلح ، وأن يقر ما سبق أن تعهد به أخوه . وبذلك استقرت علائق السلم بين الفريقين .

ومن جهة أخرى فإن فرنان كونثالث لم يتحول عن سياسة العداء نحو ليون ؛ وقد كان قبل أن يرتقى سانشو العرش ، يؤازره ويناصره ضد أخيه أردونيو ، فلما تولى أردونيو عرش ليون ، انقلب إلى خصومته وفقاً لسياسته المأثورة ضد ليون ، وكان يبغى فى الوقت نفسه أن تعود ابنته أوراكا مطلقة أردونيو الثالث إلى العرش ، بعد أن تزوجت من ابن عمه الأمير أردونيو ، وقد عاونه القدر غير بعيد على تحقيق بغيته .

ذلك أن الأحوال ما لبثت أن ساءت فى مملكة ليون ، فقد ثار الأشراف بسانشو ونزعوه عن العرش ، واحتجوا لخلعه بهزيمته أمام المسلمين فى بعض المعارك التى خاضها ، وبأن بدانته الفائقة تمنعه من ركوب الخيل ، ومن تولى القيادة ، ففر سانشو إلى بنبلونة ، إلى جانب جدته طوطة ملكة نافار ، وقام الأشراف فى ليون وقشتالة ، باختيار ملك جديد هو أردونيو الرابع ، وهو ابن ألفونسو الرابع ، عم الملك المخلوع وصهر الكونت فرنان كونثالث ، وكان أحدباً دميما سيء الخلال ، حتى لقب بالردىء El Malo . ولجأ سانشو إلى عون الناصر ، فأرسل إليه طبيباً يهودياً من قرطبة ، يتولى علاجه من بدانته ؛ وفى سنة ٩٥٨ م (٣٤٧ ﻫ) قصدت طوطة إلى قرطبة ، ومعها ولدها الفتى غرسية سانشيز الذى كانت تحكم نافار باسمه ، وسانشو ملك ليون المخلوع ، فاستقبلهم الناصر استقبالا حافلا ، وعقد السلم مع طوطة ، وأقر ولدها ملكاً على نافار ، ووعد سانشو بالعون على استرداد عرشه ، وذلك مقابل تعهده بأن يسلم للمسلمين ، بعض الحصون الواقعة على الحدود ، وأن يهدم البعض الآخر ؛ ثم أمده الناصر بالمال والجند ، فغزا ليون ، وغزا النافاريون فى الوقت نفسه ولاية قشتالة من ناحية الشرق ، وانتهت هذه الحرب الأهلية الحديدة ، بانتصار سانشو وجلوسه على العرش مرة أخرى ، وفر أردونيو إلى برغش ٥

ولكن سانشو نكث بعهده للمسلمين ، وأبى تنفيذ ما تعهد به ، ثم توفى الناصر بعد ذلك بقليل ، ولزمت ليون ونافار السكينة حيناً . ولكن فرنان كونثالث اتجه وجهة أخرى. وكان قد انتهز فرصة الحرب الأهلية ، وأعلن استقلال قشتالة ، ونصب نفسه أميراً مستقلا عليها ، وأخذ يسعى إلى توسيع أملاكه بالإغارة على الأراضى الإسلامية . وكان يرى فى نزول ميدان الكفاح ضد المسلمين ، وسيلة لتدعيم هيبته فى نفوس النصارى المتعصبين ، فأخذ يغير على الأراضى الإسلامية مرة بعد أخرى .

وكان فرنان كونثالث ، على قول المؤرخ الإسبانى « ذا عبقرية تمازجها الغطرسة ، وروح تمازجها العجرفة ، معتداً بنفسه ، وعالماً بما يمكن أن يجنيه من قلبه وساعده ، محباً للاستقلال ، تملؤه فكرة تحرير بلاده قشتالة من نير ليون ، وأن يقيم لها سيادة خاصة »(1) .

وقد رأينا فيما تقدم ، كيف لجأ أردونيو الرابع ملك ليون المخلوع إلى الحكم ، وكيف استقبله الخليفة بقصر الزهراء فى حفل مشهود ، ووعده بأن يعاونه على استرداد عرشه ، لقاء عهود قطعها على نفسه ، وكيف خشى سانشو عاقبة هذا المسعى ، فبعث إلى الحكم يعرض عليه أن يعترف بطاعته ، وأن ينفذ ما تعهد به للناصر ، وكيف عاد بعد ذلك إلى نكثه السابق حينما توفى خصمه أردونيو .

وعندئذ لم يجد الحكم بداً من الحرب ، ولم يجد الأمراء النصارى بداً من الاتحاد . وقد فصلنا فيما تقدم كيف اجتاحت الجيوش الإسـلامية ، أراضى قشتالة ، ومزقت جيوش أميرها فرنان كونثالث ، فى موقعة شنت إشتيبن ، وأرغمته هو وحليفه سانشو ملك ليون على طلب الصلح ، وكيف اجتاحت غربى نافار عقاباً لأميرها غرسية سانشيز على نكثه ، وإغارته على أراضى المسلمين ، وكيف توالت غزوات المسلمين لأراضى قشتالة ، ما بين سنتى ٩٦٣ و ٩٦٧ م .

وهنا نقف قليلا أمام تلك الحقيقة التاريخية الهامة ، وهى أننا نجد قشتالة إحدى ولايات مملكة ليون القديمة ، تحارب المسلمين لأول مرة كإمارة مستقلة . ومن ذلك التاريخ تحتل قشتالة مكانتها فى تاريخ الكفاح ، بين إسبانيا النصرانية

---

(1) Modesto Lafuente : ibid ; T. II. p. 361

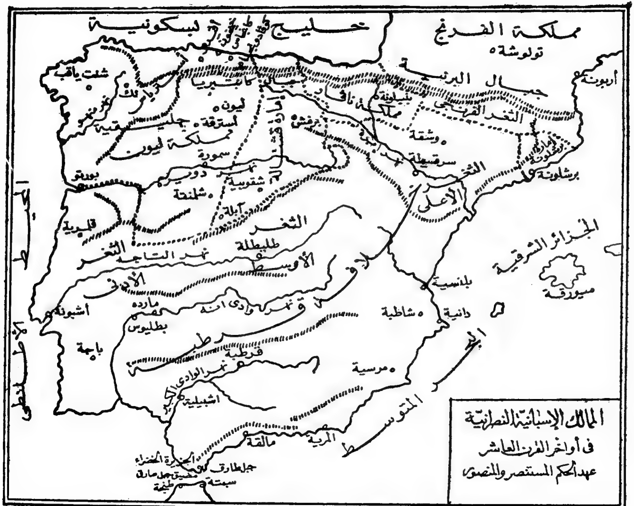


الممالك الإسبانية النصرانية
فى أواخر القرن العاشر
عهد الحكم المستنصر والمنصور

واسبانيا المسلمة ، وتغدو بالرغم من نشأتها المتواضعة شيئاً فشيئاً ، أعظم الممالك النصرانية رقعة ، وأوفرها قوة ومنعة ، وأشدها مراساً فى محاربة المسلمين ، وإنهاك قوى المملكة الإسلامية .

واستمر سانشو حيناً يحكم فى ظروف صعبة من جراء ثورات الزعماء والأشراف الخارجين عليه ، وكان بعد أن عقد الصلح مع الحكم ، قد أرسل إليه تحقيقاً لرغبة زوجه تريسا ، وأخته الراهبة إلبيرة ، سفارة يطلب إليه الإذن بنقل رفات القديس بلايو إلى ليون . وكان نصارى قرطبة قد عنوا بنقل رفات هذا القديس من الوادى الكبير ، فأجاب الخليفة سؤله ، ونقلت الرفات فى العام التالى فى حفل فخم ، وأودعت ليون بكنيسة خاصة أقامها الملك ، وسماها دير سان بلايو . ولم يحضر سانشو هذا الحفل لانشغاله بمقاومة الخوارج عليه . وكان من أشد خصومه والمحرضين عليه الحبر سسناندو أسقف شنت ياقب ؛ وكان هذا الأسقف قد حصن مدينته وقصره الأسقفى ، بحجة حمايتها وحماية مزار القديس ياقب من غارات النورمان ، ولكنه أعلن العصيان ، وعبثاً حاول سانشو استرضاءه ، بيد أنه اضطر أخيراً أن يفتح مدينته للملك حينما رأى فشل الزعماء الخارجين فى مقاومته .

وكان بين الزعماء الخارجين عليه من الأشراف وأشدهم مراساً ، الكونت جوندسالڤو ( غندشلب ) سانشيز حاكم جليقية ، وكان قد استطاع أن يوطد استقلاله فى المنطقة الواقعة بين نهرى منيو ودورة ، وأن يبسط حكمه على لاميجو وبازو وقلمرية ، الواقعة فيما وراء دورة شمالى ولاية البرتغال ، فسار سانشو لقتاله ، ولكنه حينما عبر نهر منيو بقواته ، ألفى رسل الزعيم الثائر يعرضون عليه التسليم والطاعة ، مع رجاء واحد فقط هو أن يأذن الملك بمقابلة الكونت ، فقبل سانشو . وكان الكونت قد دبر مشروعاً دنيئاً لاغتياله . فدعاه إلى مأدبة أقامها وقدم إليه فاكهة مسمومة تناولها سانشو دون أن يخامره الريب ، وسرعان ما شعر بدبيب الموت يسرى إلى أحشائه ، فحمل فى الحال إلى ليون وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة ، ودفن بها تحقيقاً لرغبته . وكان ذلك فى سنة ٩٦٦ م[1] .

وهكذا توفى سانشو ملك ليون مسموماً ، بعد أن حكم اثنى عشرة سنة ، فخلفه ولده راميرو الثالث ، طفلا فى الخامسة من عمره تحت وصاية عمته الراهبة

---

(١) Modesto Lafuente ; ibid, T. II. p 341—342

إلبيرة . ولكن معظم الأشراف أبوا الاعتراف بسلطانه . ونشبت فى ليون طائفة من الثورات المحلية ، ولاسيما فى ولايات جليقية ، وحاول كثير من الزعماء الأقوياء الانفصال عن العرش ، وتوطيد سلطانهم المحلى . وكان مثل فرنان كونثالث فى الاستقلال بولاية قشتالة ، أقوى مشجع لهم ، ولبثت أخطر حركة من ذلك النوع ، هى ثورة جوندسالفو سانشيز (قاتل مليكه) حيث استمر على استقلاله بحكم المنطقة الواقعة بين نهرى منيو ودويرة ، وحكم القواعد الثلاثة الهامة لاميجو وبازو وقلمرية ، الواقعة فيما وراء نهر دويرة .

وفى خلال ذلك ، توفى الكونت فرنان كونثالث أمير قشتالة فى سنة ٩٧٠ م وخلفه فى الإمارة ولده غرسية فرناندز ، كما توفى غرسية سانشيز ملك ناڤار وخلفه ولده سانشو غرسية الثانى .

ويعلق المؤرخ لافونتى على عمل فرنان كونثالث مؤسس استقلال قشتالة وسياسته بقوله : « إن جميع الوسائل التى تذرع بها الكونت لتحقيق غايته لا تبدو مستحسنة فى نظرنا ، فإن معاملته للملوك ليون راميرو الثانى ، وأردونيو الثالث ، وسانشو الأول ، وأردونيو الردىء ، وكذلك معاملته لغرسية ملك ناڤار ، حليفاً وخصماً بالتوالى لهؤلاء وهؤلاء ، وساعياً فى تولية وعزل هؤلاء وهؤلاء ، ومقسماً للولاء وناقضاً له ، ولقد كانت مقتضيات السياسة وملابساتها فى صالحه ، وإن كان ذلك لايطابق حكم الأخلاق الصارم . بيد أننا نلاحظ أنه من مفاخر الكونت أنه لم يحالف المسلمين قط ، ولم يتهادن قط مع أعداء وطنه أو دينه . أما عن بدء عهد استقلال قشتالة ، فيمكن أن نضعه فى منتصف القرن العاشر ( الميلادى ) ، وهو الوقت الذى رأينا فيه الكونت يعمل لحسابه دون خضوع للملوك ليون »[1].

وأدركت الممالك النصرانية يومئذ ، وفى مقدمتها مملكة ليون ، التى شغلت بحوادثها الداخلية ، أنه لا مجال للعدوان على أراضى المسلمين ، ولزمت السكينة حيناً .

واتجه الملوك والأمراء النصارى إلى تحسين علائقهم مع بلاط قرطبة ، فتوالت زياراتهم وسفاراتهم على الحكم ، يسألون الصلح والمهادنة . وكان من الوافدين بأنفسهم على قرطبة أمير جلّيقية ، والراهبة إلبيرة الوصية على عرش ليون . وقد فصلنا من قبل قصة هذه الزيارات والسفارات فى موضعها .

---

(١) Madesto Lafuente : Ibid., T. II. p. 361

ولما توفى الحكم المستنصر ، وشـغل المسلمون بعض الوقت بشئونهم الداخلية ، اعتقد النصارى أن الفرصة قد عرضت مرة أخرى لغزو أراضى المسلمين ، فأغار القشتاليون على الأراضى الإسلامية ، وتوغلوا فيها جنوباً وعاثوا فيها ؛ وهنا نهض محمد بن أبى عامر لرد عدوانهم ، فغزا أراضى قشتالة فى أوائل سنة ٩٧٧ م ( ٣٦٦ هـ ) ثم غزاها ثانية ، واقتحم مدينة شلمنقة فى العام التالى . وبدأت بذلك سلسلة الغزوات الشهيرة المتوالية ، التى شهرها المنصور بن أبى عامر ، على الممالك الإسبانية النصرانية ، واستغرقت طيلة حياته ، والتى فصلنا أخبارها فيما تقدم .

ونستطيع أن نشير هنا فيما يتعلق بمملكة ليون ، إلى ما وقع من إقدام راميرو الثالث ملك ليون ، على معاونة القائد غالب الناصرى ببعض قواته ، فى حربه مع المنصور ، فلما سار المنصور بعد ذلك لمحاربة راميرو ومعاقبته على هذا التحدى ، استغاث راميرو بغرسية فرناندز أمير قشتالة ، وسانشو غرسية ملك ناڤار ، فسار المنصور ، لمقاتلة القوات النصرانية المتحدة ، وهزمها فى موقعة شنت منكش فى سنة ٩٨١ م ( ٣٧١ هـ ) .

وعلى أثر ذلك ، رأى أشراف ليون ، أن راميرو لم يعد صالحاً لحكم المملكة ، فقرروا خلعه ، وتولية ابن عمه برمودو ملكاً عليهم (٩٨٢ م) . ولكن راميرو لم يذعن لهذا القرار ، فجمع أنصاره واستعد للحرب ، واضطرمت بين برمودو وراميرو حرب أهلية ، انتهت بهزيمة راميرو ، وفراره إلى مدينة أسترقة ، وامتناعه بها . وحاول راميرو بعد ذلك ، أن يلجأ إلى المنصور ، وأن يستمد عونه لاسترداد عرشه . ولكنه توفى بعد ذلك بقليل ، وتخلص برمودو بذلك من منافسته .

بيد أن برمودو ، لم يشعر مع ذلك بالطمأنينة . فقد لبث فريق كبير من الأشراف على معارضتهم لحكمه ، ولبث النضال الداخلى مؤذناً بالخطر . وعندئذ قرر برمودو أن يلجأ إلى المنصور ، فالتمس منه التأييد والعون ، على أن يعترف بطاعته ، فأجابه المنصور إلى طلبه ، وبعث إليه بقوة من جنده ، حلت بمدينة ليون عاصمة المملكة ، وبذلك أصبحت ليون مملكة تابعة تؤدى الجزية .

ولكن برمودو حينما شعر بتوطد مركزه ، واشتداد ساعده ، قرر أن يتخلص

من نير المنصور ، فهاجم الحامية الإسلامية ، واستخلص مدينة ليون من يدها ، فنهض المنصور لمحاربته ، وسار إلى مدينة ليون فاقتحمها وخربها ، ومزق قوى النصارى ، ثم استمر يغزو أراضى ليون تباعاً ، ويوقع الهزائم المتوالية ببرمودو ، حتى اضطر برمودو إلى طلب الصلح ، والعودة إلى الاعتراف بالطاعة (٩٩٥ م) ؛

وقد رأينا كيف سار المنصور بعد ذلك ، إلى غزو مدينة شنت ياقب عاصمة إسبانيا النصرانية الروحية (٩٩٧ م) ، وكيف انضم إليه فى تلك الغزوة معظم أشراف جليقية . وعندئذ لم ير برمودو مناصاً فى النهاية ، من العود إلى التماس الصلح ، والاعتراف بالطاعة ، ونبذ كل مقاومة . فأجابه المنصور إلى طلبه . وعاش برمودو بعد ذلك عامين آخرين ، قضاهما فى إصلاح الكنائس والأديار والقلاع ، التى هدمت خلال الحرب . ثم توفى سنة ٩٩٩ م ، فخلفه ولده ألفونسو الخامس طفلا . وقام بالوصاية عليه الكونت منديث كونثالث أحد أشراف المملكة(١) .

### ٣ — مملكة نافار

أشرنا فيما تقدم إلى نشأة مملكة نافار المستقلة ، فى أواخر القرن التاسع الميلادى ، وكيف تولى عرشها سانشو غرسية (الأول) ، عقب اعتزال أخيه فرتون الملك فى سنة ٩٠٥ م . وقد عمل سانشو على توسيع أطراف مملكته الصغيرة ، واستطاع أن يدفع حدودها جنوباً حتى ناجرة ، وخاض مع المسلمين حروباً عديدة ، أيام الأمير عبد الله ، وفى أوائل عهد الناصر . وقد غزا الناصر نافار سنة ٩٢٠ م ، ثم بعد ذلك فى صائفة ٩٢٤ م ، ودخل عاصمتها بنبلونة وخربها ، وسحق قوى نافار ، وقضى على كل مقاومة من جانبها وكل نزعة للعدوان .

ولما توفى سانشو فى سنة ٩١٦ م ، خلفه ولده غرسية سانشيز طفلا ، وحكم أولا تحت وصاية عمه خمينو غرسيس ، ثم بعد ذلك تحت وصاية أمه الملكة طوطة ، التى لبثت تحكم باسمه طويلا ، حتى بعد أن بلغ سن الفتوة والنضج . وكانت نافار خلال ذلك ترتبط برباط المصاهرة ، مع المملكتين النصرانيتين الأخريين . فقد كان أردونيو الثالث ملك ليون متزوجاً من أوراكا إبنة الملكة طوطة وأخت غرسية . وكان فرنان كونثالث كونت قشتالة متزوجاً من إبنة أخرى لطوطة هى

---

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٨١ ؛ وكذلك Altamira : Ibid, Vol. I. p. 246

سانشا . وكانت طوطة تحتل بذلك مقاماً ملحوظاً فى الممالك الثلاث . ولما توفى راميرو الثانى ملك ليون فى سنة ٩٥٠ م ، واضطرمت الحرب الأهلية حول وراثة العرش بين ولديه أردونيو وسانشو ، وقفت نافار إلى جانب سانشو ، ولد الملكة أوراكا النافارية ، ثم وقفت بعد ذلك إلى جانبه مرة أخرى ، بعد أن تولى العرش عقب وفاة أخيه ، وقام أشراف ليون بخلعه ، ولجأت الملكة طوطة فى معاونته إلى الناصر حسبما تقدم .

ثم اضطربت العلائق بين نافار وبين جارتها قشتالة ، ونشبت الحرب بينهما ، فهزم الكونت فرنان كونثالث أمير قشتالة ، وأسر فى موقعة نشبت بين الفريقين على مقربة من ناجرة ، واعتقل فى نافار مدة طويلة ضعفت فيها شوكة قشتالة ولزمت السكينة حيناً .

ولما توفى الناصر ، وتولى مكانه ولده الحكم المستنصر ، طالب ملك ليون بتسليم الحصون التى تعهد بتسليمها إلى أبيه ، وطالب ملك نافار بأن يسلمه أسيره فرنان كونثالث أمير قشتالة ، فرفض الملكان مطالب الحكم ، وأطلق غرسية أسيره فرنان كونثالث ، فهرع إلى برغش عاصمته ، وقبض على صهره أردونيو الرابع ، وأرسله مخفوراً إلى الحدود الإسلامية ، وهنالك التجأ إلى القائد غالب حاكم الثغر ، ثم سار معه إلى الحكم مستجيراً به ، واستقبله الحكم كما تقدم فى احتفال مشهود .

واستطال حكم غرسية سانشيز حتى سنة ٩٧٠ م ، واستمرت أمه الملكة العجوز طوطة ، محتفظة بإشرافها عليه ، ومشاركتها الفعلية فى الحكم ، حتى وفاتها فى سنة ٩٦٠ م .

ولما توفى غرسية سانشيز ، خلفه فى عرش نافار ولده سانشو غرسية الثانى . وكانت مملكة نافار قد اتسعت رقعتها عندئذ ، وأصبحت تشمل عدا ولاية نافار الأصلية ، ولايات كانتبريا ، وسوبرابى ، ورباجورسا ، ونمت مواردها وقواها حتى أن سانشو لم يحجم عن الإغارة على الأراضى الإسلامية ، ورد المنصور على هذه الجرأة ، فغزا نافار ، وتوغل فيها حتى اقتحم عاصمتها بنبلونة ، وذلك فى سنة ٩٨٧ م .

وخلف سانشو فى الحكم ولده غرسية سانشيز الثالث ، فلم يدم حكمه سوى

خمسة أعوام ، وفى عهده غزا المنصور نافارمرة أخرى ( ٩٩٩ م ) . ثم توفى غرسية فى العام التالى ، فخلفه ولده سانشو الثالث الملقب بالكبير .

## ٤ — عناصر المجتمع فى اسبانيا النصرانية

سبق أن تحدثنا فيما تقدم عن عناصر المجتمع فى اسبانيا المسلمة ، ويجدر بنا أن نتحدث هنا عن عناصر المجتمع فى اسبانيا النصرانية .

لم يكن فى اسبانيا النصرانية بعد الفتح الإسلامى ، ما يمكن أن يسمى بالحياة القومية العامة . وكانت كل ولاية أو مملكة ، تعيش وفق ظروفها ونظمها الخاصة ، وكان هذا التباين ذاته ، يقوم فى الداخل ، ويتفاقم أحياناً بما يحدث إلى جانبه من خلافات أخرى ، تصيب النظم والحياة الإجتماعية .

وقد بقى تكوين المجتمع النصرانى الإسبانى عقب الفتح ، على ما كان عليه أيام القوط ، فكان يتكون من عنصرين رئيسيين ، هما الأحرار ، والعبيد ؛ وكان الأحرار وهم الذين يستطيعون التصرف فى أشخاصهم ، والتنقل بحرية من مكان إلى آخر ، ينقسمون بدورهم إلى أشراف وعامة .

وكانت طبقة الأشراف ، تتكون أولا من الحكام ومن خاصة الملك ، وتتوقف فى تكوينها على الملك ، بمنحها الألقاب والأراضى والوظائف . ويلحق بهذه الطائفة كبار الملاك ، الذين يحصلون على أملاكهم سواء بالميراث أو الهبة . وكان للأشراف امتيازات كثيرة ، سواء بالنسبة لأشخاصهم أو أملاكهم ، فكانوا داخل أراضيهم سادة بكل معنى الكلمة ، لهم مطلق الحرية والتصرف ، بل كان لهم أن يتركوا خدمة الملك ، وأن ينتقلوا إلى مملكة أخرى ، إذا غضبوا منه لسبب من الأسباب . وكان من جراء ذلك ، أن كثيراً من الأشراف النصارى ، كانوا ينتقلون إلى الأراضى الإسلامية ، وينضوون تحت لواء الأمراء والخلفاء ، ويحاربون معهم ضد مواطنيهم وأبناء دينهم .

وكان هؤلاء الأشراف يعفون من الضرائب ، خلافاً لما كان عليه الأمراء فى عهد القوط ، وكانوا ملزمين فقط بمساعدة الملك وقت الحرب ، فينتظمون مع أتباعهم فى الجيش المحارب على نفقة الملك .

وكان يلحق بهذه الطبقة من الأشراف ، بعض طوائف أخرى أقل أهمية من الناحية الاجتماعية ، مثل الفرسان والمحاربين ، وهم الأشخاص الذين يستطيعون

أن يقتنوا لأنفسهم خيلا وسلاحاً ، ليشتركوا فى الحرب ، ثم يمنحون نظير هذا الاشتراك بعض الإمتيازات . وقد نمت هذه الطبقة فيما بعد . وكذلك كان ينتمى إلى الأشراف ، وينضوى تحت حمايتهم ، بعض الطوائف الميسورة ، مثل صغار الملاك ، وأصحاب الصناعات . ولم تكن هذه الحماية تقف عند الأشخاص أو الأسر المعينة فقط ، ولكنها كانت تشمل أحياناً بعض القرى والضياع ، فينضوى أهل القرية أو الضيعة ، تحت حماية الشريف بشروط معينة ، وكان هؤلاء يقدمون جزءاً من أملاكهم إلى السيد المتولى حمايتهم ، ويؤدون إليه إتاوات معينة ، وأعطية شخصية . بيد أنهم كانوا فى حل من تركه إذا قصر فى حمايتهم ، والانضواء تحت حماية سيد آخر .

ويلحق أخيراً بهذه الطبقة الشعبية الزراع الأحرار ، وهم الأشخاص الأحرار الذين لا يملكون أرضاً ، ولكن يتلقون من الملاك أرضاً لزرعها . وكذلك الأحرار الذين كانوا من قبل رقيقاً ، ثم وفقوا إلى تحقيق حرياتهم ، وكان هؤلاء عليهم أن يؤدوا إلى السيد أو المالك ضرائب وإتاوات عينية فادحة ، بيد أنه كان فى وسعهم أن يتركوه متى شاءوا .

إلى جانب هذه الطبقات الحرة من المجتمع النصرانى ، كانت توجد الطبقة المستعبدة أو طبقة الأرقاء ، وقد بقيت أحوالها على ما كانت عليه أيام القوط تقريباً . وكانت تتكون من عناصر عدة ، فمنهم عبيد الدولة ، وعبيد الملك ، وعبيد الكنيسة والأديار (عبيد رجال الدين) ، ثم عبيد الأفراد وعبيد الأرض الملحقين بها . وكان عبيد الأفراد على الأغلب من أسرى الحرب ، ومنهم الأسرى المسلمون . وقد استمرت هذه الطوائف من الرقيق ، قائمة حتى القرن الثانى عشر ، ثم اندمجت بعد ذلك فى طائفة واحدة من الأرقاء ، هم رقيق الضياع .

وكان رقيق الضياع يعتبرون من مرافق الأرض ، وينتقلون معها بانتقال الملكية . وكانوا يزرعون الأرض على نفقتهم ، ويؤدون إلى السيد ، سواء أكان هو الملك ، أو الأشراف أو الكنيسة ، جزءاً من المحصول ، وإتاوات أخرى ، ويقدمون إلى جانب ذلك خدمات شخصية كثيرة ، مثل القيام بحرث أرض السيد ، أو ضم محاصيله وعصر نبيذه وزيته ، أو المعاونة فى بناء داره ، وتنحصر حقوقهم فى التمتع بالسكن ، والعيش فى الضيعة . وكان بيع الضيعة يغدو فى معظم

الأحيان بالنسبة لهم محنة أليمة ، إذ يفرق أحياناً بين الرجل وزوجه ، أو بينه وبين أولاده .

وكانت هذه الطبقة من الأرقاء تتكون من أبناء العبيد ، ومن المحكوم عليهم بالرق ، فى قضية مدنية أو جنائية ، ومن أسرى الحرب ، وقد كانوا أسوأ طوائف الرقيق حظاً .

وكان تحرير الرقيق ، يقع إما بالعتق أو بالفرار أو الثورة . على أن ثورات العبيد كانت قليلة ، وكان الأغلب أن يظفر العبيد بحرياتهم ، فى أعقاب الثورات التى يشتركون فيها . أما العتق فكان يجرى وفقاً لتعاليم الكنيسة . على أن هذه الطائفة من المتحررين ، لم تكن تتمتع بكامل حقوق الطوائف الحرة الأخرى ، فكان السيد يحتفظ لنفسه أحياناً قبل المعتوقين ببعض الخدمات أو الإتاوات .

وقد استمرت الطبقة الوسطى ، تنمو على كر الزمن ، بزيادة عدد المعتوقين أو الأحرار الأصائل ، حتى إذا كان القرن العاشر ، كانت هذه الطبقة ، تكون الجزء الأعظم من السكان ، وتتمتع بظروف وأحوال أفضل بكثير مما كانت عليه من قبل[1] .

٥ — تنظيم السلطات السياسية

أما من حيث التنظيم الأساسى ، وتوزيع السلطات السياسية ، فى الممالك الإسبانية النصرانية ، فقد كانت هذه السلطات موزعة ، بين ثلاث جهات رئيسية ، هى الملك ، والأشراف ، ورجال الدين .

وقد كان المفروض أن تكون السلطة الملكية ، هى أعلى السلطات وأشملها ، وقد كانت كذلك من الوجهة النظرية . فقد كان الملك ، هو رئيس الدولة الأعلى ، وله الولاية على كل فرد تضمه أرض المملكة . وكان الملك مصدر التشريع ، ومنه وباسمه تصدر القوانين العامة ، وكذا كان له حق الموافقة على القوانين المحلية ، التى يصدرها الأشراف بالنسبة للمنتمين إليهم ، وله أن يدعو رعاياه إلى الحرب ، وأن يرغمهم على الخدمة فيها ، وأن يصدر السكة ، وأن يباشر العدالة . وهو الذى يعين الأساقفة ويقيلهم ، ويؤسس الكنائس والأديار ، وهو الذى يقود الجيش ، وعلى الجملة فهو الذى يتولى سائر الوظائف السياسية والعسكرية والدينية والمدنية .

---

(١) Altamira : ibid ; Vol. I. p. 287-293

على أن هذه السلطات لم تكن متساوية فى جميع الأحوال والعصور ، وقد تعدلت بمضى الزمن ، وانتقصت أطرافها ، أحياناً بطريق التنازل من جانب الملوك ، وبخاصة لأن الملك لم يكن يزاول هذه السلطات بطريق مباشر .

وكان الأشراف يتمتعون داخل أملاكهم ، بقدر كبير من الاستقلال ، ويبسطون حكمهم على طائفة كبيرة من الأراضى والقرى والضياع والحصون ؛ وكان السيد يعيش فى حصنه ، وهو يقع عادة فى موقع إستراتيجى حصين ، ويحيط به عدد من المساكن المحصنة ، ويخضع لسلطته سائر سكان المنطقة ، بعضهم كعبيد ، والبعض الآخر من المشمولين بحمايته . وكان يجبى منهم الضرائب والإتاوات العينية ، ويدعوهم للخدمة العسكرية متى دعاه الملك إلى الحرب ، ويباشر القضاء بينهم ، وله أن يوقع عليهم بعض الأحكام الجنائية التى تتصل بالقانون العام . وعلى الجملة فقد كان للشريف على سكان منطقته ، السيادة المطلقة ، وهو الذى يوزع بينهم مختلف المناصب والأعمال .

وأما القضاء قِبل الأشراف أنفسهم ، فقد كان يزاوله بالنسبة للسيد ، أشراف من طبقته ، ولايزاوله قضاة الملك ، لأنهم لم يكونوا من الأشراف . وكان للشريف أن يشهر الحرب على زملائه الأشراف ، إذا أصابه منهم حيف أو إهانة ، وله أن يترك خدمة الملك دون أن يخسر شيئاً من أملاكه ، بل كان له أن يشهر الثورة ضد الملك . ولم يكن يحد من هذه السلطة ، التى يمنحها الملك إياه سوى أمرين ، الأول الخيانة ، وفى هذه الحالة يجرد الشريف من أملاكه وامتيازاته ، والثانى متى ضمت لأملاكه أراض جديدة ، فإنه لا يستطيع أن يبسط عليها سلطته وامتيازاته إلا بموافقة الملك .

وكان الأشراف يشاركون فى مزاولة القضاء مشاركة فعلية ؛ فقد كانوا يؤلفون جزءاً من المحاكم العادية ، ويشتركون فى تشكيل المحاكم الملكية كلما اجتمعت ، ويحتلون كذلك بعض المناصب الإدارية الهامة . وكان لهذه المساهمة الخطيرة أثرها فى إذكاء شهوتهم إلى الاستئثار بالسلطة ، وتوطيد استقلالهم المحلى ، وكثيراً ما كانوا يلجأون إلى الثورة ، لفرض إرادتهم على العرش ، أو يتدخلون فى وراثة العرش بالقوة القاهرة .

ومع ذلك فقد كان الملوك ، يعمدون إلى الإغضاء فى أحيان كثيرة ، ولو كان

فى ذلك إضرار بالسلطة الملكية . ذلك أن ضعف الملوكية ، وضرورات الحرب ، ثم الحاجة إلى معاونة الأشراف أيام الحرب الأهلية حول وراثة العرش ، كانت ترغم الملوك على التسامح ، بل وأحياناً على زيادة المنح والامتيازات للأشراف ، وذلك حرصاً على استتباب الأمن والسكينة ، إذ كان الأشراف فى تلك العصور قوة يخشى بأسها .

وقد كانت طائفة الأشراف هذه ، بالرغم من مركزها الاجتماعى الممتاز ، تنطوى على عيوب ومثالب كثيرة ، فقد كانت تجنح إلى استغلال الرعايا ، وانتزاع ما فى أيديهم ، بل وقد كانت ترتكب الجرائم جهاراً ، فتعمد إلى نهب التجار والمسافرين ، وكان الأشراف يقتتلون فيما بينهم للفوز بثمار أمثال هذه الجرائم . وقد استمر هذا النظام الإجرامى الجائر عصوراً ، بالرغم من تدخل الملك والأساقفة ، لحفظ الأمن فى كثير من الأحيان .

وإلى جانب الأشراف ، كان رجال الدين من الأساقفة والرهبان ومن إليهم ، يتمتعون كذلك فى أراضيهم بسلطان مستقل . وكان للكنائس والأديار أراض شاسعة خاصة ، ترجع إلى الهبات والنذور وغيرها ، وفيها تزاول السلطة بطريق مطلق ، وفقاً لروح هذا العصر الإقطاعى . وكان لها أيضاً كثير من العبيد والزراع تتمتع قبلهم كالأشراف ، بالحق فى تحصيل الجباية والمحاصيل وغيرها . وكان الملوك فى أحيان كثيرة يهبون بدافع الورع والحماسة الدينية ، إلى الكنائس والأديار ، رقاعاً شاسعة من الأرض ، فتبسط سلطانها على سكان المنطقة ، وتحصل منهم الإتاوات ، وتزاول بينهم القضاء . وكانت الكنائس والأديار ، تدفع هذه السلطات أحياناً إلى حدود مرهقة ، اجتناباً لافتئات الأشراف المجاورين . وكان رجال الدين ، على مثل الأشراف ، يلبون دعوة الملك إلى الحرب هم ورجالهم ، ويحشدون الصفوف من بين رعاياهم من الأحرار والزراع والأرقاء ، أو يعهدون بذلك إلى رئيس من غير رجال الدين . والخلاصة أن الأساقفة والرهبان كانوا كالأشراف ، سادة بكل معانى الكلمة ، وكانوا يمتازون فى ذلك على الأشراف ، بأن كان الملك يصدر الوثائق والمراسيم المكتوبة بامتيازاتهم ، وكان يتبع الكنيسة أحياناً مناطق كثيفة من السكان ، كما كان الشأن فى شنت ياقب ، حيث قامت حول الكنيسة مدينة عظيمة ، صارت تابعة لها هى وما حولها من الأراضى الشاسعة .

وكانت سلطة الأسقف تتخذ فى أحيان كثيرة صورة مطلقة فى المدينة وفى الحقل ، يزاولها على يد كونتات وموظفين وغيرهم . وكان له جيشه أو جنده الخاص ، يحمون أراضيه من الأجانب أو الأشراف المغيرين[1] .

ونلاحظ أن هذا التنظيم السياسى ، الذى تطبعه روح إقطاعية عميقة ، والذى ينطوى على توزيع السلطة بين مختلف الطوائف والعصبيات ، بصورة تجعل دولا عديدة داخل الدولة ، يتنافى فى جملته وتفاصيله مع التنظيم السياسى للدولة الأندلسية الإسلامية . فقد رأينا فيما تقدم ، كيف كان العرش يحرص منذ البداية على سلامة السلطة المركزية ، وكيف بذل أمراء بنى أمية ، منذ عبد الرحمن الداخل جهودهم ، لإخماد النزعة القبلية ، وتحطيم رياستها ؛ ثم جاء الناصر فحطم العصبية العربية ، وقضى على رياسة القبائل العربية بصورة نهائية ، واستخلص السلطة كلها للعرش ، ولم يكن العرش يتسامح بعد ذلك ، مع أية رياسة محلية تنزع إلى الاستقلال ، إلا ما كان بالنسبة لبعض الثغور النائية ، مثل طليطلة وسرقسطة ، وذلك لأسباب عملية واستراتيجية .

(١) R. Altamira : Ibid, Vol. I. p. 293-299

# الفصل الرابع

## عبــد الملك المظفر بالله

عبد الملك بن المنصور يتولى الحجابة وتدبير المملكة . إشادة الرواية الإسلامية بعهده وبخلاله . يحذو حذو أبيه فى سياسته نحو المغرب . يتابع سنته فى الغزو . خروجه إلى الغزو ومسيره إلى الثغر الأعلى . عيثه فى أراضى برشلونة . عوده إلى قرطبة واستقبال هشام له . جلوسه فى الزاهرة . سفارة أمير برشلونة . إحتكام أميرى قشتالة وجليقية إليه . غضب سانشو غرسية وعدوانه . مسير عبد الملك لغزو قشتالة . غزوه لمملكة ليون . غزوة بنبلونة . استقباله لسفير القيصر فى مدينة سالم . غزوة قلونية أو غزاة النصر . إتخاذ عبد الملك لقب المظفر بالله . قصة هذا اللقب ومرسومه . استئنافه الغزو واختراقه لقشتالة . الغزوة السابعة أو غزاة العلة . مرضه وتفرق جيشه . وفاته . ما قيل عن اغتياله بالسم . موقفه من الخليفة هشام . إنهماكه فى الشراب واعتماده على الفلمان والوزراء . الوزير عيسى ابن القطاع . المنافسة بينه وبين الفتيان . تغلب الفتى طرفة واستئثاره بالسلطة . تغير عبد الملك عليه . القبض عليه وإعدامه . ابن القطاع يسترد نفوذه وسلطانه . كبرياؤه وتعسفه . الوقيعة فى حقه . استظهار عبد الملك بالصقالبة والبربر . سخط الأسر العربية لذلك . تآمر ابن القطاع على إزالة بنى عامر . وقوف عبد الملك على المؤامرة . بطشه بالوزير وأصحابه . استرداده لسائر السلطات . صفات عبد الملك وخلاله .

لما توفى المنصور بن أبى عامر بمدينة سالم ، فى السابع والعشرين من رمضان سنة ٣٩٢ هـ ، بعد أن ألقى إلى ولده عبد الملك ، وصيته ونصائحه الأخيرة ، بادر عبد الملك بالعودة إلى قرطبة ، تاركاً لأخيه الأصغر عبد الرحمن ، أمر العناية بمواراة أبيه ، والعودة بالجيش . وما كاد يصل إلى العاصمة ، حتى بادر برؤية الخليفة هشام المؤيد ، واستصدر منه المرسوم بتوليته الحجابة ، وجلس فى الحكم مكان أبيه بالزاهرة . وتلى نص المرسوم بالمسجد الجامع ، وأنفذت الكتب إلى الجهات ، وإلى عدوة المغرب ، معرفة بوفاة المنصور وتولية ابنه عبد الملك تدبير المملكة مكانه . وكان لوفاة المنصور وقع عظيم بقرطبة ، فحزن الناس لفقده أيما حزن ، وأدرك العقلاء أن رزءاً فادحاً نزل بالإسلام وبالأندلس . واعتقد فريق من الفتيان المروانيين بالقصر ، وبعض الناقمين من العناصر الأخرى ، أن الفرصة قد سنحت ، للتحرر من نير الحكم القائم ، والعود إلى النظام الخلافى ، ولكن السلطات العامرية كانت ساهرة . فقبض فى الحال على عدد من المحرضين ،

وأبعدوا إلى العدوة ، واستتب الأمر لعبد الملك ، دون ما جهد أو اضطراب ، واستقبل الناس حكمه بالاستبشار والرضى .

وكان عبد الملك ، حينما خلف أباه المنصور فى الحكم ، فى الثامنة والعشرين من عمره ، إذ كان مولده بقرطبة فى سنة ٣٦٤ هـ ، ويكنى أبا مروان ويلقب بسيف الدولة وبالمظفر بالله ، وأمه حرة تدعى الذلفاء ؛ وقد رأينا كيف تمرس عبد الملك فى شئون الحكم أيام أبيه ، وكيف تولى القيادة ، واشترك معه فى كثير من غزواته ، ومن ثم فقد قبض عبد الملك على زمام الأمور بحزم وكفاية ، واعتزم أن يسير على خطى أبيه ، سواء فى تدبير الشئون الداخلية ، أو الاستمرار فى غزو الممالك النصرانية .

وتشيد الرواية الإسلامية بعهد عبد الملك على قصره ، وما بلغته الأندلس فيه من الرخاء والنعماء ، وتقدمه إلينا فى صور طيبة لامعة . فيقول لنا ابن حيان فى قوة وحماسة : « انصب منه الإقبال والتأييد على دولته انصباباً ، ما عهد مثله فى دولة . وسكن الناس منه إلى عفاف ، ونزاهة ، ونقى سريرة ، ووثوق فى بعد همته ، اطمأنوا بها إلى جنبه ، فى السرّ والعلانية ، فباحوا بالنعم ، واستثاروا الكنوز ، وتناهوا فى الأحوال ، وتناغوا فى المكاسب ، وتحاسدوا فى اقتناء الأصول ، وابتناء القصور ، وغالوا فى الفرش والأمتعة ، واستفرهوا المراكب والغلمان ، وغالوا فى الجوارى والقيان ، فسمت أثمان ذلك فى تلك المدة ، وبلغت الأندلس فيها الحد الذى فاق الكمال ؛ فهد تلك الدولة فى احتشاد النعم عندها ، وارتفاع حوادث الغير عنها ... فى كنف ملك مقتبل السعد ، ميمون الطائر ، غافل عن الأيام ، مسرور بما تتنافس فيه رعيته من زخرف دنياها . فاجتمع الناس على حبه. ولم يدهنوا فى طاعته ، ورضى بالعافية منهم ، وآتوه إياها فصفى عيشه ، وانشرح قلبه ، وخلصه الله من الفتنة » .

ويشيد ابن حيان بعد ذلك ، بعفة عبد الملك ، وورعه وتواضعه وشجاعته وحيائه ، وتورعه عما يشين الملك من المجون والاستهتار ، وبره بوالديه ، وثباته على عهد أبيه . كل ذلك فى عبارات تنم عن عميق تأثره وإعجابه[1].

بيد أن هذه الصور المشرقة التى تقدم إلينا عن خلال عبد الملك ، تغشاها

---

(١) نقله أعمال الأعلام ص ٨٤ و ٨٥ ، والبيان المغرب ج ٣ ص ٣ .

من الناحية الأخرى خلة قائمة ، هى شغفه بمعاقرة الشراب وانهماكه فى لذاته[١].

افتتح عبد الملك المنصور عهده ، بإجراء كان له فى نفوس الناس أطيب وقع ؛ وذلك أنه أسقط سدس الجباية عن سائر الناس ، فى سائر بلاد الأندلس . فكان لذلك أثره فى التخفيف عن الناس ، والرفق بهم ، وبث شعور الرضى والاستبشار بالعهد الجديد .

وحذا عبد الملك حذو أبيه المنصور نحو المغرب ، فى تأييد زناتة ومغراوة ، والإبقاء على ولائهم . وكان المنصور حينما توفى زيرى بن عطية زعيم مغراوة ، فى سنة ٣٩١ هـ ، قد أقر ولده المعز حاكماً على المغرب حسبما قدمنا . فلما تولى عبد الملك الحجابة ، أعلن المعز طاعته له ، ودعى له على منابر المغرب ، فكتب إليه عبد الملك بعهده ، على سائر ما يملكه من أقطار المغرب ( سنة ٣٩٣ هـ ) على أن يؤدى إلى حكومة قرطبة ، مقادير معينة من المال والخيل والدرق . واستمر المعز على الوفاء بعهوده ، أيام عبد الملك وأخيه عبد الرحمن من بعده[٢].

واعتزم عبد الملك أن يسير على سنن أبيه فى متابعة غزو الممالك النصرانية ، وألا يترك لها فرصة لتذوق السلم والدعة . وكان الملوك النصارى قد تنفسوا الصعداء عند وفاة المنصور ، واعتقدوا أن الظروف قد تتغير ، وأن أخطار الغزوات الإسلامية قد تخبو ، ولكن سرعان ما تبدد هذا الأمل . ذلك أنه لم تمض أشهر قلائل على تولية عبد الملك ، حتى اتخذ الأهبة لغزوته الأولى ، واستعد لها استعداداً خاصاً ، ووفدت على قرطبة طوائف كبيرة ، من الزعماء والمتطوعة من العدوة ، للاشتراك فيها ، وأجزل لهم عبد الملك الصلات والأرزاق ، ووزع فيهم ما كان مخزوناً من السلاح .

وخرج عبد الملك بالجيش من مدينة الزاهرة ، فى شعبان سنة ٣٩٣ هـ ( يونيه ١٠٠٣ م ) . وتصف لنا الرواية مشهد خروجه فتقول لنا إنه « خرج على الناس شاكى السلاح ، فى درع جديد سابغة ، وعلى رأسه بيضة جديدة مثمنة الشكل مذهبة ، شديدة الشعاع ، وقد اصطفت القواد والموالى والغلمان الخاصة ، فى أحسن تعبئة ، فساروا أمامه ، وقد تكنفه الوزراء الغازون معه»[٣]. وسار عبد الملك

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٣ .

(٢) نفح الطيب ج ٢ ص ١٩٨ ؛ والاستقصاء ج ١ ص ٩٥ .

(٣) البيان المغرب ج ٣ ص ٥ .

أولا إلى مدينة طليطلة ، ثم ارتد منها إلى مدينة سالم ، وهنالك انضم إليه الفتى واضح فى قواته ، ووفد عليه فى نفس الوقت قوة من النصارى ، أرسلها الكونت سانشو غرسية أمير قشتالة ، وفقاً لمعاهدته مع المنصور .

وتابع الحاجب عبد الملك سيره بعد ذلك نحو الثغر الأعلى ، واستراح أياماً فى سرقسطة ، ثم غادرها قاصداً إلى الثغر الإسبانى أو بعبارة أخرى إلى إمارة برشلونة التى بدت من أمرائها منذ أيام المنصور نزعة إلى العدوان ؛ وأشرف على سلسلة من الحصون القوية الواقعة جنوبى جبال مونسيش ، واستولت قوات الفتى واضح على حصن مدنيش[١] ، وحاصر الحاجب بقواته حصن ممقصر أو ممقصره[٢] ، واستولى عليه بعد قتال عنيف ، وأباد حاميته ، وعاث المسلمون بعد ذلك فى بسائط برشلونة ، وخربوا كثيراً من حصون العدو ، واستولوا على كثير من الغنائم والسبى .

وقضى الحاجب وجيشه عيد الفطر فى بسائط برشلونة ، واحتفل بالعيد احتفالا فخماً ، واستقبل طبقات الأجناد مهنئين ومسلمين . وبعث من معسكره رسالتين إلى قرطبة من إنشاء كاتبه أحمد بن برد يصف فيهما الفتح ، إحداهما برسم الخليفة هشام المؤيد ، والثانية لتقرأ على الكافة فى جامع قرطبة .

ثم قفل عبد الملك بجيشه عن طريق مدينة لاردة . واخترق الثغر الأعلى جنوباً إلى قرطبة ، فدخلها فى الخامس من ذى القعدة . وهنالك تلقاه الأكابر والعلماء مهنئين مستبشرين ؛ وقصد الحاجب من فوره إلى الخليفة هشام ، فاستقبله أحسن استقبال ، وأكرم منزله ، وخلع عليه من ثيابه وسلاحه ، فشكره الحاجب وقبل يده . وفى اليوم التالى جلس بقصر الزاهرة ، واستقبل مختلف الوفود ، وكان يوماً مشهوداً[٣] .

وقد نظم ابن دراج القسطلى فى التهنئة بهذه الغزوة قصيدة هذا مطلعها :

بدا ريح السعد واستقبل النجح فبالله فاستفتح فقد جاءك الفتح

---

(١) هو باسمه الإسبانى حصن **Meya** .

(٢) هو باسمه الإسبانى حصن **Monmagastre** ؛ ويسميه ابن الخطيب حصن منقص ( أعمال الأعلام ص ٨٧ ) .

(٣) راجع فى أخبار هذه الغزوة : البيان المغرب ، ج ٣ ص ٥ — ٩ ، وأعمال الأعلام ص ٨٧ .

وقد قدّم النصر العــزيز لواءه | وقبل طلوع الشمس ينبلج الصبح
فقــد فى سبيل الله جيشاً كأنه | من الليل قطع طبق الأرض أوجنح
كتائب فى أقدامها النجح والهدى | وألوية فى عقدها اليمن والنجح(١)

ولم يمض قليل على ذلك ، حتى أرسل أمير برشلونة الكونت رامون بوريل الثالث ، سفارة إلى قرطبة يطلب عقد الصلح والمهادنة ، فاستقبل السفراء الفرنج استقبالا حافلا ، على نمط أسلافهم من السفراء النصارى . وكانت هذه آخر فرصة من نوعها أبديت فيها أبهة الخلافة وفخامتها(٢) .

وكان من أثر هيبة عبد الملك فى نفوس الملوك النصارى ، أن احتكم إليه أمير قشتالة الكونت سانشو غرسية ، ومننديث كونثالث زعيم جليقية ، والوصى على ملك ليون الطفل . وكان ملك ليون وهو ألفونسو الخامس ، يومئذ ما يزال حدثاً فى العاشرة من عمره ، وكانت أمه إلبيرة أختاً لسانشو غرسية ، وكان سانشو يرى بذلك أنه أحق بالوصاية على ابن أخته الملك الطفل ، من مننديث كونثالث. فلما احتكم الطرفان إلى عبد الملك ، ندب قاضى النصارى أصبغ بن سلمة ، لبحث النزاع والفصل فيه ، فقضى لمننديث كونثالث بأحقيته للوصاية ، واستمر بالفعل وصياً على ملك ليون حتى قتل غيلة فى سنة ٣٩٨ هـ ( ١٠٠٨ م ) (٣).

والظاهر أن سانشو غرسية لم يرضه هذا الحكم ، فبدت منه أعراض العدوان على أرض المسلمين ، أو هو قد اعتدى عليها بالفعل . ومن ثم فإنا نجد عبد الملك يخرج بقو ته فى صيف سنة ٣٩٤ هـ (١٠٠٤ م) ويقصد إلى أراضى قشتالة ويعيث فيها ، ولم يبد سانشو أية مقاومة ، فقفل عبد الملك إلى قرطبة ، واضطر سانشو إلى طلب الصلح ، وقصد بنفسه إلى قرطبة ، فاستقبله عبد الملك أحسن استقبال ، وأعيد عقد الصلح والتهادن بين الفريقين ، وتعهد سانشو أن يعاون عبد الملك فى غزواته ضد مملكة ليون ، وضد خصومه من بنى غومس وغيرهم .

وفى العام التالى ( ٣٩٥ هـ — ١٠٠٥ م ) خرج عبد الملك فى قواته وسار

---

(١) تراجع هذه القصيدة بأكملها فى ديوان ابن دراج القسطلى الذى سبقت الإشارة إليه ص ٤٦٦ و ٤٦٧ .

(٢) الذخيرة . القسم الرابع ، المجلد الأول ، ص ٦٤ .

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٨١ ، والبيان المغرب ج ٣ ص ١٠ .

صوب طليطلة ؛ وهنالك لحق به الفتى واضح وسانشو غرسية فى بعض قواته ، ثم سار شمالا نحو أراضى ليون ، وبعث واضحاً فى قواته إلى مدينة سمورة ، وكانت قد خربت منذ أيام المنصور ، وليس بها سوى قليل من النصارى يقيمون فى بعض أبراجها ، فقتل الرجال ، وسبى النساء . وعاث عبد الملك بعد ذلك فى أراضى ليون ، وإلى جانبه سانشو غرسية ، واقتحم أملاك بنى غومس ، ووصل فى زحفه فى جلّيقية ، إلى بلدة لونة الحصينة ، واستولى فى هذه الغزوات على كثير من الغنائم والسبى . ولكنه لم يحقق خلالها نتائج حربية ذات شأن[1] .

وفى أواخر سنة ٣٩٦ هـ ( صيف سنة ١٠٠٦ م) خرج عبد الملك إلى غزوته الرابعة . وتصف الرواية الإسلامية هذه الغزوة بأنها غزوة « بنبلونة » ، وبعبارة أخرى « بنبلونة » عاصمة نافار . وتقول لنا إن عبد الملك سار بجيشه إلى سرقسطة ثم إلى وشقة ، ثم إلى بربشتر ، ومنها نفذ إلى أرض العدو . ولكن هذا الإتجاه الذى اتخذه الجيش الإسلامى، لا يحمل على الاعتقاد بأنه كان يقصد إلى نافار أو بلاد البشكنس ، وإنما يبدو بالعكس أنه اتجه شمالا إلى أراضى ولاية « ريباجرسا » الصغيرة الواقعة شمال شرقى بربشتر ، وهى إحدى ولايات البرنيه الفرنجية . وتقول الرواية الإسلامية إن المسلمين اقتحموا فى هذه الغزوة بسيط أبنيونش وشنت يوانش ، (سان خوان) وعاثوا فى أرض العدو قتلا وسبياً وحرقاً ، ثم تقول لنا إن الجيش الإسلامى قد انقضت عليه يومئذ عاصفة مروعة من رعد وبرق ومطر غزير . تخللها قصف مفزع وبرد قارس ، وخشى أن تكون سبباً فى نكبته . ولكن تداركه لطف الله . وقفل عبد الملك راجعاً بجيشه إلى قرطبة . ولكن الشعب لم يبد فى استقباله شيئاً من الحماسة ، لضآلة النتائج التى ترتبت على هذه الغزوة ، ولكونها لم تسفر عن شيء من الغنائم والسبى ، التى كانت تملأ أسواق قرطبة أيام أبيه المنصور[2] .

ومما يتصل بأخبار هذه الغزوة ، أن عبد الملك عرج فى طريق العودة على مدينة سالم ، وقضى بها عيد الأضحى ، وهنالك وافاه سفير من قبل قيصر

---

(١) راجع أخبار هذه الغزوة فى الذخيرة . القسم الرابع ، المجلد الأول ص ٦٥ ؛ والبيان المغرب ج ٣ ص ١١ و ١٢ .

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ١٢ و ١٣ ؛ وأعمال الأعلام ص ٨٧ .

قسطنطينية ، الإمبراطور بسيل الثانى ، ومعه كتاب مكتوب بالذهب يطاب فيه قيصر استئناف المودة والصداقة ، التى كانت قائمة بين ملوك بنى أمية ، وبين القياصرة ، ومعه كذلك هدية وعدد من الأسرى المسلمين الذين أسروا فى أطراف الجزائر التابعة لقيصر ، فسر عبد الملك لذلك ، وصرف السفير أجمل صرف[١].

ونمى إلى عبد الملك فى تلك الأثناء ، ماكان يجيش به أمير قشتالة سانشوغرسية من قصد إلى العدوان ، فرأى أن يعالجه بالغزو . فخرج من قرطبة فى صيف سنة ٣٩٧ هـ (١٠٠٧ م) فى غزوته الخامسة ، وهى المعروفة بغزوة قلونية ، أو غزوة النصر ، وسار مخترقاً أراضى قشتالة . ويبدو من أقوال الرواية الإسلامية أن عبد الملك لم يكن يواجه يومئذ أمير قشتالة فحسب ، ولكنه كان يواجه جبهة متحالفة من الملوك النصارى ، يشترك فيها سانشوغرسية ، وألفونسو الخامس ملك ليون ، وسانشو الثالث ملك نافار ، وعدد من الزعماء النصارى فى مقدمتهم بنوغومس[٢] . ويشير صاحب البيان المغرب إلى هذه الغزوة بقولة «غزاة النصر التى لقى فيها ( أى عبد الملك ) شانجه بجميع النصرانية على اختلافها »[٣]. ولا تقدم إلينا الرواية الإسلامية بعد ذلك شيئاً من التفاصيل ، سوى قولها إن الحاجب عبد الملك ، قد هزم النصارى فى تلك الموقعة هزيمة عظيمة فى ظاهر مدينة قلونية (كلونية) ، الواقعة شمال نهر دويرة على مقربة من شنت إشتيبن ، وأحرز عليهم نصراً مبيناً ، وافتتح الحصن صلحاً . ووصل كتاب الفتح إلى قرطبة ، وقرئ على الكافة كالعادة ، فكان له وقع عظيم ، وكان أهل قرطبة يخشون سوء العاقبة من اجتماع الجيوش النصرانية لقتال المسلمين . وقفل عبد الملك بالجيش إلى قرطبة ، فوصل إليها فى أواخر ذى الحجة من تلك السنة ، واتخذ على أثر ذلك لقبه « المظفر بالله » تنويهاً بما أحرزه من النصر العظيم[٤] .

وقد ساق لنا المؤرخ الفقيه أبو المطرف ابن عون الله ، وهو من معاصرى هذه الحوادث ، قصة هذا اللقب ، فذكر أن عبد الملك كان مثل أبيه يسمو إلى

---

( ١ ) الذخيرة ، القسم الرابع ، المجلد الأول ، ص ٦٥ و ٦٦ .

( ٢ ) راجع ابن خلدون ج ٤ ص ١٨٢ .

( ٣ ) البيان المغرب ج ٣ ص ١٤ .

( ٤ ) ابن خلدون ج ٤ ص ١٨٢ ؛ والبيان المغرب ج ٣ ص ١٤ ؛ والذخيرة ، القسم الرابع ، المجلد الأول ص ٦٦ .

الألقاب السلطانية ، فتقدم إلى الخليفة هشام ، على أثر عوده من غزوة قلونية ، والتمس إليه إخراج الأمر له ، بأن يتسمى « بالمظفر » وهو اللقب الذى اختاره وآثره ، وأن يكنى فى سائر ما يذكر عنه « بأبى مراون » ، وأن ينعم على ابنه الغلام محمد ، الذى منح لقب الوزارة ، بلقب « ذى الوزارتين » ، ويعلى بذلك مرتبته على سائر الوزراء ، وأن يكنى بأبى عامر ، كنية جده ، وكان الخليفة يقيم يومئذ عند الحاجب بقصر الزاهرة ، فى الجناح الفخم الذى أنشىء وقتها . فنى منتصف المحرم سنة ٣٩٨ هـ ، تحرك الخليفة خفية إلى قصر ناصح من قصور الزاهرة ، واستدعى حاجبه ، وفاوضه فيما أراد . ولما انصرف من لدنه ، اتبعه فى الحال بمرسوم التكريم الذى التمسه ، فأذاع عبد الملك نص المرسوم ، وبعث بالكتب للعمل به ، وإليك نص هذا المرسوم ، وقد زعم البعض أنه كان بخط الخليفة هشام نفسه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من الخليفة هشام بن الحكم المؤيد بالله ، أتم الله عليك نعمه ، وألبسك عفوه وعافيته ، إنا أريناك ... من صنع الله الجسيم ، وفضله العظيم ، لنا عليك ما شفى الصدور ، وأقر العيون ، فاستخرنا الله سبحانه فى أن سميناك المظفر ؛ فنسأل الله تعالى سؤال إلحاف وضراعة وابتهال ، أن يعرفنا وإياك بركة هذا الاسم ، ويحليك معناه ، ويعطينا وإياك وكافة المسلمين ، فضل ما حملت منه ، وأن يخير لنا ولهم فى جميع أقضيته ، ويقرنه بيمنه وسعادته ، بمنه وخفى لطفه ، وكذلك أبحنا التكنى فى مجالسنا ومحافلنا ، وفى الكتب الجارية منك وإليك ، فى أعمال سلطاننا ، وسائر ما يجرى فيه اسمك معنا ودوننا ، إنافة بمحلك لدينا ، ودلالة على مكانك منا ، وكذلك ما شرفنا به فتاك أبا عامر ، محمد ابن المظفر تلادنا ، أسعده الله ، بالإنهاض إلى خطة الوزارتين ، وجمعناه بها فى التكنى على المشيخة والترتيب ، وآثرك فى الدولة ، وأنت الحقيق منا بذلك كله ، وبجميل المزيد عليه ، لأنك تربيتنا ، وسيف دولتنا ، وولى دعوتنا ، ونشىء نعمتنا ، وخريج أدبنا ، فأظهر ما حددناه لك فى الموالى ، وأهل الخدمة ، واكتب بها إلى أقطار المملكة ، وتصدقه بشكر النعمة ، أحسن الله توفيقك ، وأمتعنا طويلا بمعافاتك ، وآنسنا ملياً بدوام سلامتك ، إنه ولى قادر عزيز قاهر » .

وكانت الكتب تخرج من قبل عبد الملك على النحو الآتى : « من الحاجب

المظفر سيف الدولة أبي مروان عبد الملك بن المنصور» . فكان بذلك أول من اجتمع له لقبان ملوكيان من حكام الأندلس(١) . وكان صدور هذا المرسوم حادثاً مشهوداً ، أطلق عبد الملك على أثره الصلات والكسى ، وكثرت تهانى الشعراء ومدائحهم .

والظاهر أن عبد الملك لم يجن من هذا النصر ما كان يؤمل من إرغام أمير قشتالة على التزام السلم والهدوء ، وأن سانشوغرسية بالعكس استمر فى عدوانه . ومن ثم فإنه لم يمض سوى قليل ، حتى تأهب عبد الملك لاستئناف الغزو ، فخرج من قرطبة فى أوائل شهر صفر سنة ٣٩٨ هـ ( أكتوبر ١٠٠٧ م ) واخترق قشتالة الوسطى ، حتى ضفاف نهر دويرة ، وقصد إلى حصن شنت مرتين المنيع ، الواقع على مقربة من غربى قلونية على الضفة اليمنى من النهر ، فحاول النصارى فى البداية أن يردوا المسلمين فى ظاهر الحصن ، ولكن المسلمين صدوهم بعنف ، فالتجأوا إلى الحصن ، وحاولوا الدفاع من وراء الأسوار ، فهاجم المسلمون الحصن بشدة وثلموا أسواره بالمجانيق والنار ، واضطر النصارى إلى التسليم ، فأمر عبد الملك بقتل الجند وسبى النساء والذرية ، وإصلاح ما تهدم من الحصن ، وقفل راجعاً إلى قرطبة فوصلها فى أوائل شهر ربيع الآخر .

وفى شوال من نفس العام ( صيف ١٠٠٨ م ) ، خرج عبد الملك بالجيش ، وكانت غزوته السابعة والأخيرة ، وتعرف «بغزاة العلة» . ذلك أنه ما كاد يصل إلى مدينة سالم حتى اشتد به المرض ، فاستقر بها حيناً يرقب البرء . وفى أثناء ذلك دب الخلل إلى الجيش ، وتفرق عنه أكثر المتطوعة ، وأخفق مشروع الغزو ، واضطر عبد الملك أن يعود أدراجه إلى قرطبة ، عليلا ضعيفاً ، وذلك فى منتصف المحرم سنة ٣٩٩ هـ . ومع ذلك فما كاد عبد الملك يشعر بقليل من التحسن ، حتى عقد العزم على التأهب لاستئناف الغزو ، وخرج بالفعل من قرطبة فى منتصف شهر صفر ، ولكن أصابته عندئذ نكسة شديدة ، صحبتها نوبة سعال عنيف ، فحمل إلى قصر الزاهرة فى محفة ، ومن حوله خاصة غلمانه ، وتوفى على الأثر ، وكان أخوه عبد الرحمن حاضراً مع أكابر رجال الدولة ، وقيل إنه توفى مسموماً من شربة دست له بتحريض أخيه عبد الرحمن . وكانت وفاته فى ١٦ صفر سنة ٣٩٩ هـ

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ١٥ – ١٧ ؛ وأعمال الأعلام ص ٨٨ و ٨٩ .

(٢١ أكتوبر سنة ١٠٠٨ م)[1]، ولم يكن قد جاوز الرابعة والثلاثين من عمره .

• • •

حكم عبد الملك المظفر ستة أعوام وبضعة أشهر ، قضى معظمها فى متابعة الغزو ، ولم يكن لديه سعة من الوقت ليتناول تدبير الأمور بنفسه . وكانت الدولة قد توطدت منذ أيام أبيه المنصور ، ولم يقع تبدل فى طرق الحكم ، فكان الخليفة هشام ، كعهده أيام المنصور محجوباً فى قصره ، وكان عبد الملك يحرص على حجبه وإخفائه بين صفوف الجند ، كلما سنحت فرصة خروجه فى موكبه ، بيد أنه يبدو أن عبدالملك كان أكثر تودداً للخليفة ، ورفقاً به من أبيه ، فقد كان يدعوه إلى قصوره بالزاهرة للتريض والاستجمام ، وكان هشام ينفق أوقاتاً فى ضيافته[2].

وكان عبد الملك لانهماكه فى الشراب واللهو ، قد اعتمد فى تدبير شئون الدولة ، على خاصته من أكابر الفتيان العامريين أمثال طرفة ، وواضح، وزهير ، وخيران ، ومجاهد ، وعلى عيسى بن سعيد اليحصبى المعروف بابن القطاع ، وزيره ووزير أبيه من قبل . وكان عبد الملك لأول ولايته ، قد فوض أمره إليه ومنحه سائر السلطات العليا ، ثقة منه بإخلاصه ، واعتماداً على كفايته . ووطد حسن ظنه فيه ، ما أبداه عيسى من البراعة والحزم فى تدبير الأمور ، وتوطيد النظام والأمن . وكان الفتيان الصقالبة ، ولاسيما زعيمهم طرفة ، خادم عبد الملك الأكبر ، ينقمون على عيسى ، حظوته واستئثاره بالسلطة ، ويعملون ما وسعوا للنيل من مكانته . واضطرمت المنافسة بالأخص بينه وبين طُرفة ، وبذل طرفة جهوداً عنيفة لإفساد الجو بينه وبين الحاجب ، واستطاع مع استمرار الوقيعة والدس أن يزعزع ثقة عبد الملك فيه ،وأن يصرفه عن الاعتماد عليه،وانتهى الأمر بأن تغلب طرفة على الوزير ، وحل محله فى تدبير الأمور ، واجتمعت السلطة فى يده شيئاً فشيئاً ، حتى غدا كل شىء فى القصر وفى الدولة ، وسما شأن الفتيان

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٣٧ ، والذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ٦٦ ، وأعمال الأعلام ص ٨٩ . وذكر المقرى أن وفاة عبد الملك كانت فى المحرم سنة ٣٩٩ (ج ١ ص ١٩٨) . ويؤيد ابن الأثير رواية وفاة عبد الملك بالسم ويقول لنا إن أخاه عبد الرحمن سمه فى تفاحة قطعها بسكين كان قد سم أحد جانبيها فتناول أخاه مما يلى الجانب المسموم ، وأخذ مما يلى الجانب الصحيح فأكله بحضرته ، فاطمأن المظفر وأكل ما بيده منها فمات (ج ٨ ص ٢٢٥) .

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ١٦ .

الصقالبة ، وغلبوا على من عداهم من الكبراء وأصحاب المناصب . ومرض الحاجب فى أوائل سنة ٣٩٦ هـ ، واستبد طرفة بالأمر ، وأمضى كثيراً من الأمور دون علم الحاجب أو موافقته ، وأبدى كثيراً من الاستهتار والتبذل والطيش ، فلما أبل الحاجب من مرضه ، كانت نفسه قد تغيرت على طرفة ، ولما خرج إلى الغزو فى شهر رمضان من هذا العام ، خرج معه الوزير عيسى ، واستطاع خلال الطريق أن يقنع عبد الملك بسوء مسلك طرفة وخطر مشاريعه ، وكان من المقرر أن يلتقى طرفة بسيده فى سرقسطة ، فقدم إليها فى بعض القوات فى نفس اليوم الذى وصل فيه الحاجب مع جيشه ؛ وما كاد يدخل إلى عبد الملك فى قصره ، حتى قُبض عليه ، وصُفد بالأغلال ، وحمل إلى إحدى جزر الشاطىء ، واعتقل حتى انتهى عبد الملك من غزوته ، فأمر بقتله ، وهو فى طريق العودة ، وأمر الحاجب فى نفس الوقت بقتل عبد الملك بن إدريس الجزيرى الكاتب البليغ أمين البلاط ، وكان من خاصة طرفة ، وكان الوزير عيسى قد حذر عبد الملك من ممالأته لطرفة ومعاونته على إفساد أمور الدولة[1].

وأضحى عيسى بن سعيد ، بعد قتل طرفة ، رجل الدولة الأول ، واسترد كامل حظوته وسلطانه ، على أنه لم ينعم طويلا بظفره . وكان هذا الوزير قد تقلب فى مناصب الدولة منذ أيام المنصور ، وحظى لديه ، وسما شأنه ، حسبما رأينا ، ثم تضاعف شأنه ، واستأثر بتدبير الأمور منذ بداية عهد عبد الملك ، وجمع الأموال الطائلة ، وزاد فى توطد سلطانه ونفوذه مصاهرته للحاجب ،حيث تزوج ابنه عبد الملك المكنى أبا عامر ، أخت عبد الملك الصغرى ، إحدى بنات المنصور . وهكذا بلغ الوزير أقصى مراتب النفوذ والثقة ، وكثر بذلك حساده والوشاة فى حقه . وكان عيسى يذكى من حوله عواطف الخصومة والنقمة . بما كان يجنح إليه من الصلف والخشونة والكبرياء ، والنكول عن قضاء حاجات الناس ، والنظر فى مظالمهم ، والتعالى عليهم ، وكان حجابه وعماله ، على شاكلته من الغلظة والتعسف فى معاملة الناس . فكان ذلك كله سبباً فى تسمم الجو حول الوزير ، وحول تصرفاته . أضف إلى ذلك أن الوزير ، لم يكن يشارك الحاجب فى مجالس شرابه وأنسه إلا فى القليل النادر ، لأنه كان مقلا للشراب ، فكان تخلفه يمهد

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٢٤ — ٢٦ .

لخصومه المقربين من الحاجب ، سبل الدس والوقيعة فى حقه . وقد كانت الذلفاء والدة الحاجب فى الوقت نفسه تبغض الوزير ، لأنه أيد ولدها عبد الملك فى الزواج من قينة حسناء من جواريه هام بها ، وكانت تعارضه فى ذلك . والخلاصة أن عبد الملك أخذ يفقد ثقته فى وزيره بسرعة ، وقد كان فيما يبدو كثير التأثر بالوشاية ، سريع التقلب والغدر ، وأخذ الوزير من جانبه يشعر بهذا النقص فى حظوته ويتوجس من عواقبه .

والظاهر أن عيسى بن سعيد ، كانت تحدوه فى نفس الوقت أطماع ومشاريع أخرى . فقد كان يشعر أنه غدا باجتماع سائر السلطات فى يده ، ومشايعة رؤساء الجند له ، أقوى رجل فى الدولة ، وأنه يستطيع أن يقف فى وجه بنى عامر ، وأن يغدو بطل المناهضة لحكمهم . والواقع أن حكم العامريين كانت تشتد وطأته على الناس يوماً بعد يوم . وكان عبد الملك جرياً على سنة أبيه المنصور ، قد مضى فى الاستظهار بالفتيان الصقالبة والبربر ، وبلغ الفتيان فى عهده نحو ألفى غلام ، ووفد عليه كثير من البربر ؛ وكان أهم من وفد إليه من زعمائهم زاوى بن زيرى بن مناد الصنهاجى ، عم أبى المعز بن باديس صاحب إفريقية ، وزعيم الفرقة الخارجة عليه ، وفد عليه مع إخوته ، فاستقبلهم عبد الملك ، وغمرهم بصلاته ، واستمروا بقرطبة حتى وقعت الفتنة ، وكان لهم فى حوادثها شأن يذكر [١]. وفى رواية أخرى أن وفود زاوى وقومه على الأندلس ، كان فى أواخر أيام المنصور ، وأنه هو الذى أذن لهم فى الجواز [٢]. وكانت الأرستقراطية العربية تمقت هذا الإيثار للصقالبة والبربر ، والاستظهار بهم ، وترى فيه افتئاتاً على حقوقها ومكانتها ، وكان كثير من الأسر العربية الكبيرة مثل آل حدير ، وآل فطيس ، وآل شهيد ، وغيرهم ، يتوقون إلى انتهاء حكم العامريين ، ورد الأمر إلى بنى أمية ، وكان عيسى بن سعيد ، وهو أيضاً من البطون العربية ، يعتنق فكرتهم ، ويعتقد أنه يستطيع أن يعمل على تحقيقها .

واعتزم عيسى بالفعل أن يعمل فى هذا السبيل ، واتجه ببصره إلى سليل من

---

(١) الذخيرة عن ابن حيان القسم الرابع المجلد الأول ص ٦١ .

(٢) كتاب التبيان أو مذكرات الأمير عبد الله بن بلقين ( القاهرة ١٩٥٥ ) ص ١٧ ، وابن خلدون ج ٦ ص ١٥٧ و ١٥٨ .

المروانية هو هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر ، وكان بينهما مودة وصداقة . وكاشف عيسى هشاماً بمشروعه ، فى إزالة بنى عامر ، وإزالة الخليفة هشام المؤيد لعجزه وعقمه ، وإقامته مكانه فى الخلافة ، ورد الأمر بذلك إلى بنى أمية . فاستجاب هشام إلى دعوته ، وجرت بينهما المفاوضة بمنتهى التكتم والحذر . وكانت خطة عيسى ، تتلخص فى أن يدعو عبد الملك وأخاه عبد الرحمن وصحبه ، إلى حفل عظيم يقيمه بالمنية التى وهبه عبد الملك إياها بقرب قصر الزاهرة ، وذلك تيمناً بمولود رزق به ولده عبد الملك بن عيسى ، وأن يحيط المنية بطوائف من رجاله المسلحين ، فإذا حضر عبد الملك وأخوه وصحبه ، انقض عليهم أولئك الرجال وقضوا عليهم جميعاً ، وعندئذ يسير عيسى بصاحبه هشام إلى قصر الزاهرة فيجلسه فيه ، ويأخذ له البيعة بالخلافة ، وقد تقدم عيسى بالفعل بدعوته إلى عبد الملك فقبل الدعوة ، وحدد بالفعل يوم الحفل .

ولكن سرعان ما اتصل خبر المؤامرة بعبد الملك ، نقله رجل من ثقات عيسى إلى نظيف الفتى الصقلبى ، فأبلغه فوراً إلى سيده . وفى رواية أن عبد المللك بادر فى الحال فقتل عيسى . ولكن الرواية الراجحة هى أن عبد الملك وأخاه عبد الرحمن اتفقا على تدبير قتله ، فى مجلس شراب ينظم لهذا الغرض ، ونظم المجلس بالفعل فى بهو القصر الكبير المشرف على النهر ، وذلك فى ٢٠ ربيع الأول سنة ٣٩٧ هـ . واستدعى الحاجب وزيره عيسى إليه ؛ ومن غرائب القدر أن كان الوزير أيضاً يجلس مع بعض خاصته على الشراب ، ومنهم الكاتب أبو حفص ابن برد ، فبادر عيسى بالركوب إلى عبد الملك ، ومعه بعض خاصته ، فاستقبله عبد الملك بظاهر من الحفاوة . ثم أخذ بعد قليل فى عتابه ومحاسبته على ما عزى إليه ، ثم أغلظ له القول ، وعيسى يعتذر ويحتج ببطلان ما نسب إليه ، ويشدد القسم على ذلك ، ويناشد حقن دمه . وفجأة جذب عبد الملك سيفه من جانب الفراش وشهره على عيسى ، وطعنه فى وجهه ، فسقط على الأرض ، فانهال عليه الجماعة طعناً بسيوفهم ، ثم احتز رأسه ووضع جانباً ؛ وقتل الجماعة أيضاً صاحبيه خلف ابن خليفة ، وحسن بن فتح ، وألقيت جثث الثلاثة فى النهر ، بعد أن وضعت فى زنابيل مثقلة بالحجارة ، وأمر عبد الملك بأن ينصب رأس عيسى على باب مدينة الزاهرة ، عبرة للناس . وتركت معلقة فى مكانها حتى انقضت الدولة العامرية ،

ونفذ الجند فى الحال إلى منازل عيسى وأصحابه ، وصودر ما فيها ، وقبض على أبناء عيسى وزجوا إلى السجن ، وأرغم ولده عبد الملك على طلاق زوجته أخت الحاجب ؛ وجدت الشرطة فى أثر هشام بن عبد الجبار ، حتى قبض عليه ، ثم حمل إلى الزاهرة فأمر الحاجب باعتقاله فى سجن أعد له ، وهناك قتل خفية ، ولم يسمع له خبر بعد ذلك قط .

وكان لمقتل الوزير عيسى بن سعيد أعمق وقع فى قرطبة ، لما كان له من رفيع المنزلة والسلطان ، ولبثت الوفود أياماً تحضر إلى الزاهرة لمشاهدة رأسه[1] .

وثاب المظفر بعد مقتل وزيره إلى نفسه ، وعمل على جمع السلطة فى يده ، والحد من سلطة الوزراء والكتاب ، ومراقبتهم ومحاسبتهم ، وواظب على الجلوس بنفسه ، وهجر اللهو والراحة ؛ وكانت الأحوال المالية قد ساءت ، مما أسرف فيه من النفقة والصلات ، ومما أسقطه للناس من سدس الجباية ، فاقتصد فى النفقة ، واجتهد فى توفير المال ، وتنمية الموارد ، فنجحت المحاولة ، وتحسنت الأحوال المالية فى أواخر عهده[2]

وقد أشرنا من قبل إلى طرف من اخلاق عبد الملك ، وما جمعت من الصفات المشرقة والقاتمة معاً . ونزيد هنا ما رواه صاحب الذخيرة عن ابن حيان ، من أن عبد الملك كان عرياً عن العلم والمعرفة والأدب ، ولم يكن يجتمع فى مجالسه سوى الأعاجم من الحلالقة والبربر ومن إليهم ، ولم يكن يؤمها أحد من أهل المعرفة ، من الأدباء والعلماء . بيد أنه مع ذلك لبث يسبغ رعايته على من كان يتصل منهم بأبيه من العلماء والأدباء والندماء وغيرهم ، وأبقى لهم أرزاقهم ورواتبهم كما كانت أيام أبيه[3]. وكان يستمع إلى الشعر ، ويصل الشعراء ، وقد أبقى بالأخص على شاعر أبيه صاعد البغدادى ، وجعله شاعراً ونديماً له . وكان من خواص شعرائه أيضاً أبو عمر بن دراج القسطلى ، والكاتب الشاعر أبو حفص ابن برد . وقد أورد لنا صاحب البيان المغرب نبذاً من الشعر ، نظمها صاعد وابن دراج تحقيقاً لرغبة

---

(١) راجع تفاصيل هذه المؤامرة وذيولها فى الذخيرة ، القسم الأول المجلد الأول ص ١٠٣ — ١٠٧ ، والبيان المغرب ج ١ ص ٢٧ — ٣٥ .

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ٣٦ ، وأعمال الأعلام ص ٨٩ .

(٣) الذخيرة — القسم الأول المجلد الأول ص ٦٠ .

المظفر ، فى وصف مختلف صنوف الزهر ، من الآس ، والنرجس ، والبنفسج ، والورد والسوسن . ومما جاء فى قصيدة ابن دراج فى وصف السوسن ومديح الحاجب عبد الملك تلك الأبيات[1] :

إن كان وجه الربيع مبتسما    فالسوسن المجتـــلى ثناياه
ياحسنه بين ضاحك عبـــق    يطيب ريح الحبيب ريّاه
ياحاجباً مذ براه خالقــه    توّجــه بالعــلى وحــلاه
إذا رآه الزمــــان مبتهجاً    فقـــد رأى كل ما تمنـــاه
وإن رآه الهــــلال مطلــعاً    يقــول ربى وربــك الله

ونظم بعضهم فى وصف عهد عبد الملك الأبيات الآتية :

زمان جــديد وصنع جــديد    ودنيــا تروق ونعمى تزيد
وغيث يصوب وعيش يطيب    وعــز يدوم وعيــد يعود
ودهــر ينير بعبــد المليك    كشمس الضحى ساعدتها السعود

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ١٨ — ٢١ . وكذلك الروض المعطار ص ١٦٠ .

# الفصل الخامس

## عبد الرحمن بن المنصور

### وسقوط الدولة العامرية

نظام الطغيان العامرى . كيف كانت تلطفه عبقرية المنصور . ظهور مثالبه فى عهد عبد الملك . عبد الرحمن المنصور يخلف أخاه . يتقلد الحجابة . تلقيبه بشنجول أو شانجه الصغير . إنحرافه وسوء خلاله . تودده للخليفة هشام . تلقبه بالمأمون وناصر الدولة . شروعه فى اغتصاب ولاية العهد . ضغطه على هشام لتحقيق ذلك . مرسوم ولاية العهد ونصه . جلوس عبد الرحمن فى الزاهرة . عكوفه على الشراب واللهو . إرغامه الكبراء على لبس العمامة . خروجه إلى الغزو . يخترق أراضى ليون . إعتصام النصارى بالجبال . إرتداد عبد الرحمن . أنباء الانقلاب فى قرطبة . الاضطراب فى الجيش . سيره إلى قلعة رباح . سخط أهل قرطبة على بنى عامر . المؤامرة وعناصرها . الذلفاء والدة عبد الملك ودورها . ترشيح محمد بن هشام للخلافة . نضج المؤامرة وتهيؤ الظروف لتنفيذها . مهاجمة المتآمرين للقصر . مصرع عبد الله بن أبى عامر . موقف الخليفة هشام وتصرفه . إقتحام العامة للقصر . الزاهرة وتسليمها . إقتحام الجموع لها ونهبها . إستيلاء المهدى على أموالها ونفائسها ثم تدميرها . نبوءة المنصور بخراب الزاهرة . وقوف شنجول على خبر الانقلاب وحيرته . يناشد أهل الثغر تأييد هشام . تخلى زعماء الجند عن نصرته . شنجول وصديقه ابن غومس . مسيره صوب قرطبة . فرار البربر تحت جنح الظلام . مسيره إلى أرملاط . التجاؤه وابن غومس إلى الدير . وقوعهما فى يد فرسان المهدى . القبض على حشم شنجول ونسائه . مقتل شنجول وابن غومس . ما يقوله شاهد عيان عن هذه الحوادث . تأملات عن انهيار الدولة العامرية .

كانت وفاة عبد الملك المظفر ، فاتحة لفترة من أعجب فترات التاريخ الأندلسى وأشدها غموضاً واضطراباً ، وكانت نذيراً بانقلاب من أعنف ماعرفت الأندلس وأشدها تقويضاً لبنائها وسلامها ورخائها .

مضت خمسة وثلاثون عاماً على حكم الطغيان المطبق ، الذى فرضه المنصور ابن أبى عامر على الشعب الأندلسى ، وقضى فى ظله على سلطان الخليفة الشرعى ، ومحيت رسوم الخلافة ، وسحقت العصبية العربية ، وطوقت أعناق الشعب بأغلال خانقة . وبالرغم مما نعمت به الأندلس أيام المنصور من الاستقرار والعزة والرخاء ، فإن الشعب لم يكن يرى فى المنصور ، سوى مغتصب للسلطة الشرعية ، وكان يتوق إلى التحرر من هذا الطغيان الذريع ، والتخلص من وطأة الصقالبة والبربر ، والعود

إلى الأوضاع الطبيعية المألوفة. وكانت شخصية المنصور العظيمة ، وعزمه الصارم ، وهمته البعيدة ، وخلاله الرفيعة ، وتفانيه فى الجهاد ، والعمل على إعزاز الأندلس وإسعادها : كانت تفرض نفسها على الناس ، وتخفف نوعاً من وطأة النظام وحدته ، وتبث فى نفوس الشعب نوعاً من الإعجاب المقرون بالإغضاء والتسامح . فلما توفى المنصور ، ونهض ولده عبد الملك بأعباء الحكم ، بدأ ينقشع هذا الشعور الملطف ، وبدت مثالب الحكم المطلق على أشدها ، وزاد إحساس الشعب بما يعانيه من ضروب الإرهاق والضغط ، وظهرت شخصية عبدالملك ضئيلة باهتة بالنسبة لشخصية أبيه العظيم ، وبدت بالرغم مما اضطلع به من الغزوات ، وما تمتعت به البلاد فى ظله من السلام والرخاء ، لا تحمل سوى الأوزار الظاهرة ، من عكوف على الشراب ، وانهماك فى الملاذ ، والمضى فى اغتصاب السلطة الشرعية ، وتمكين لنير الصقالبة والبربر ، والتطلع إلى ألقاب الملك ، بصورة تكشف عما وراءها من الأطماع الخطرة .

وجاء عبد الرحمن ابن المنصور إثر أخيه عبد الملك ، وقد كان أضعف منه شخصية ، وأسوأ خلالا ، ليتابع حكم الإرهاب والطغيان ، وجلس غداة وفاة أخيه بقصر الزاهرة ، كما يجلس خليفة العرش مكان سلفه ، فى السابع عشر من صفر سنة ٣٩٩ هـ (٢٢ أكتوبر سنة ١٠٠٨ م) . ومثل فى نفس اليوم لدى الخليفة هشام ، فخلع عليه الخلع السلطانية ، وقلده الحجابة ، ثم أقبل إليه الأكابر والأعيان بقصر الزاهرة ، مهنئين مبايعين .

وكان عبد الرحمن وكنيته أبو المطرِّف ، حينما تولى الحكم ، فتى فى الخامسة والعشرين من عمره . وكان يلقب منذ حداثته « بشنجول » (سانشول) أو شانجُه الصغير ، وذلك لأنه حسبما تقدم كان حفيداً لسانشو غرسية ملك نافار ، وكانت أمه الأميرة النافارية ، حينما تزوجت المنصور ، قد اعتنقت الإسلام ، وتسمت باسم « عبدة » ، وكان ولدها عبد الرحمن « أشبه الناس بجده » . وكان لهذه الأرومة الفرنجية الواضحة ، أثرها فى انصراف الناس عن محبته والعطف عليه ، وكان يزيد فى هذه الوحشة بين عبد الرحمن وبين الشعب ، إنحرافه وخلاله السيئة ، فقد كان فاجراً كثير الإستهتار والمجون ، يقضى معظم وقته فى الشراب واللهو ، يخرج من منية إلى منية ، ومن متنزه إلى متنزه ، مع الخياليين والمغنين

والمضحكين ، مجاهراً بالفتك ، وشرب الخمر »[1] .

وجرى عبد الرحمن على سنة أبيه وأخيه ، فى الحجر على الخليفة هشام وحجبه ، وفى الاستبداد بالرأى والحكم[2] ، ولكنه نهج فى معاملة الخليفة نهجاً جديداً ، فأكثر من الإتصال به ، والتقرب إليه ، وبالغ فى إرضائه وإرضاء حاشيته ، وتحقيق رغباتهم ؛ هذا فى حين أن المنصور كان يقتصر فى الاتصال بالخليفة على المواقف الضرورية ، ويقتصد فى رؤيته ، ويؤثر التظاهر بتوقيره مع البعد عنه ، ويحرص على عدم تدليله ، وكبح جماح حاشيته ؛ وجرى ولده المظفر على هذه السياسة . ولكن عبد الرحمن بالغ فى التودد لهشام ومخالطته ؛ ومن ذلك أنه استأذنه فى أن يقوم بالتنزه مع أهله فى قصور الملك بقرطبة ، ويكون الخليفة هنالك مع خاصته وجواريه . فأذن هشام بذلك ، وخرج مع الحاجب فى موكبه مستخفياً ، وقد ارتدى برنساً كالذى يرتديه الجوارى ، حتى لا يعرفه أحد ، واخترق الموكب شوارع قرطبة المقفرة ومن حوله الجند ، ونزل بقصر ناصح . وهنالك عرض عليه الحاجب شئون المملكة ، والتمس إليه أن يأذن له فى التلقب بالمأمون ، وأن يضاف إلى اسمه ناصر الدولة ، فخرجت رقعة الخليفة بذلك إلى الوزير الكاتب جهور بن محمد ، وتسمية عنوانها « الحاجب المأمون ناصر الدولة أبو المطرف حفظه الله » وأبلغت بعد ذلك إلى الجهات والكافة . وكان ذلك لعشرة أيام فقط من ولاية عبد الرحمن . فعجب الناس لهذه الجرأة ، وأنكر الناس على الحاجب هذا التسمى بألقاب الملك والخلافة ، واعتبروها افتئاتاً وغروراً ، ممن لا تؤهله خلاله لمثل هذا التكريم . ولكن سوف نرى أنها لم تكن سوى مقدمة لما هو أخطر وأبعد أثراً[3] .

ذلك أنه لم تمض على هذا الإجراء فترة يسيرة ، حتى غادر الخليفة هشام قصر ناصح بقرطبة ، إلى القصر الخليفى بمدينة الزهراء مستخفياً كعادته ، يتقدم موكبه الحاجب عبد الرحمن ، ونزل عبد الرحمن بمدينة الزاهرة . وأقام الخليفة بالزهراء يومين . وفى اليوم الثالث الموافق ١٤ ربيع الأول سنة ٣٩٩ هـ ، غادر القصر الخليفى فى أهله ، إلى منية جعفر المجاورة ، ومعه الحاجب . وكان عبد الرحمن

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٣٩ .

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ١٤٨ .

(٣) البيان المغرب ج ٣ ص ٤٠ – ٤٢ ؛ وأعمال الأعلام ص ٩٠ .

بعد أن حصل على ألقاب الملك ، يجيش بمشروع ضخم ، هو أن ينتزع ولاية العهد من الخليفة الضعيف الساذج ، وأن يقضى بذلك نهائياً على تراث بنى أمية ، وينقل رسوم الخلافة جملة إلى أسرة بنى عامر ، فتخلف أسرة بنى أمية فى ملك الأندلس . وقد رأينا فيما تقدم كيف أن أباه المنصور ، بالرغم من قوة نفسه ، وعريض سلطانه ، كان ينأى عن المغامرة بمثل هذه المشاريع الدقيقة ، لأنه كان يدرك بذكائه ، وبعد نظره ، أنها تنطوى على أخطر العواقب ، وأنه لم يقدم على اتخاذ ألقاب الملك إلا بعد طول روية وأناة ، وأنه كان أبداً حريصاً على الإبقاء على رسوم الخلافة وأوضاعها . وقد حذا ولده عبد الملك المظفر حذوه فى حرصه وتعقله . ولكن عبد الرحمن لم يكن إلا فتى طائشاً ، متعجلا ، كثير الغرور ، قصير النظر . وقد وصف لنا ابن حيان موقفه من المشروع فى تلك العبارات القوية : « وقد تقدم القول فى سبب تعلق هذا الجاهل بدعوى الخلافة ، عجرفية من غير تأويل ولا عقيدة ، وكيف استهواه كيد الشيطان ، وغرته قوة السلطان إلى أن ركبها عمياء مظلمة ، لم يشاور فيها نصيحاً ، ولا فكر فى عاقبة ، بل جرها بالعجلة »[١] .

وخلا عبد الرحمن بالخليفة ، وأطال التقرب منه ، وعرض عليه مشروعه ، ويقال إنه أقنعه بأنهما على صلة رحم من ناحية الخؤولة ، إذ ولد كلاهما من أم بشكنسية (نافارية)[٢] . ويقال من جهة أخرى ، إن عبد الرحمن دس إلى الخليفة من هدده بالويل ، وأنذره بأن عبد الرحمن قد اعتزم الفتك به ، إذا لم يمنحه ولاية عهده[٣] . ويقال أيضاً إن هشاماً استفتى فى ذلك فقهاء قرطبة وعلماءها ، فأقروه على ما طلب . وكان أشد الساعين لتأييد عبد الرحمن ، قاضى الجماعة أبو العباس ابن ذكوان ، وكاتب الإنشاء أبو حفص بن برد[٤] . وعلى أى حال فقد استجاب هشام المؤيد إلى طلب عبد الرحمن . وخرج أصحابه عشية ذلك اليوم ، يذيعون الخبر على الملأ ، ويقولون إن الخليفة قد اختاره ولياً لعهده ، إذ ليس له ولد يؤمل خلافته ، وكثر الإرجاف لذلك .

---

(١) أعمال الأعلام ص ٩١ ؛ والبيان المغرب ج ٣ ص ٤٣ .

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ٤٢ .

(٣) البيان المغرب ج ٣ ص ٣٩ .

(٤) ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ١٥٠ .

وفى صباح اليوم التالى ، وهو اليوم الخامس عشر من ربيع الأول سنة ٣٩٩ هـ ( نوفبر ١٠٠٨ م ) ، أحيط قصر الخليفة بصفوف كثيفة من الجند ، وأخرج عبد الرحمن هشاماً ، وأجلسه فى الساحة الكبرى ، وجلس من حوله الوزراء والقضاة والقادة وأكابر رجال الدولة ، فكان يوماً مشهوداً ، وصدر مرسوم ولاية العهد وهو من إنشاء كاتب الرسائل أبى حفص أحمد بن برد ، وذيل بشهادة قاضى الجماعة أحمد بن عبد الله بن ذكوان ، وشهادة الوزراء وهم تسعة وعشرون وزيراً ، ويليهم شهادة مائة وثمانين رجلا ، من أكابر أهل الدولة والحكام ، والفقهاء ، وغيرهم . وإليك نص هذا المرسوم الشهير :

« هذا ما عهد به أمير المؤمنين هشام المؤيد بالله — أطال الله بقاءه — إلى الناس عامة ، وعاهد الله عليه من نفسه خاصة ، وأعطى عليه صفقة يمينه ببيعة تامة ، بعد أن أمعن النظر وأطال الاستخارة ، وأهمه ما جعله الله إليه من إمامة المسلمين ، وخصه به من إمرة المؤمنين ، واتقى حلول القدر بما لا يؤمن ، وخاف نزول القضاء ، بما لا يصرف ، وخشى أن هجم محتوم ذلك عليه ، ونزل مقدور ذلك به ، ولم يرفع لهذه الأمة علماً تأوى إليه ، ولم يوردها ملجأ تنعطف عليه ، أن يكون يلقى الله مفرطاً فيها ، ساهياً عن أداء الحق إليها . ونفض عند ذلك طبقات الرجال من أحياء قريش وغيرهم ، ممن يستحق أن يسند الأمر إليه ، ويعول فى القيام به عليه ، ممن يستوجبه بدينه وأمانته وهديه وورعه ، بعد اطراح الهوادة ، والتبرئ من الهوى ، والتحرى للحق ، والزلفى إلى الله عز وجل بما يرضيه . وبعد أن قطع الأواصر ، وأسخط الأقارب ، عالماً بأن لا شفاعة عنده أعلى من العمل الصالح ، وموقناً أن لا وسيلة إليه أرضى من الدين الخالص ، فلم يجد أحداً أجدر أن يوليه عهده ، ويفوض إليه النظر فى أمر الخلافة بعده ، لفضل نفسه ، وكرم خيمه ، وشرف همته ، وعلو منصبه ، مع تقواه وعفافه ومعرفته وحزمه ، من المأمون الغيب ، الناصح الجيب ، النازح عن كل عيب ، ناصر الدولة أبى المطرف عبد الرحمن بن المنصور أبى عامر محمد بن أبى عامر وفقه الله ، إذ كان أمير المؤمنين قد ابتلاه واختبره ، ونظر فى شأنه واعتبره ، فرآه مسارعاً فى الخيرات ، مستولياً على الغايات ، جامعاً للمأثرات ، وارثاً للمكرمات ، يجذب بضبعية إلى أرفع منازل الطاعة ، وينمو بعينيه إلى أعلا درج النصيحة ،

أب منقطع القرين ، وصنو معدوم الغريم ، ومن كان المنصور أباه ، والمظفر أخاه ، فلا غرو أن يبلغ فى سبيل الخير مداه ، ويحوى من حلل المجد ما حواه ، مع أن أمير المؤمنين أكرمه الله بما طالعه من مكنون العلم ، ووعاه من مخزون الأثر ، أمل أن يكون ولى عهده القحطانى ، الذى حدّث عنه عبد الله بن عمرو ابن العاص ، وأن يتحقق به ما أسنده أبو هريرة إلى النبى — صلى الله عليه وسلم — ألا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه . فلما استوى له الاختبار ، وتقابلت عنده فيه الآثار ، ولم يجد عنه مذهباً ، ولا إلى غيره معدلا ، خرج إليه من تدبير الأمر فى حياته ، وفوض إليه النظر فى الخلافة بعد مماته ، طائعاً راضياً ، ومجتهداً متخيراً ، غير محاب له ، ولا مائل له بهواه ، ولا متّرك نصح الإسلام وأهله فيه . وجعل إليه الاختيار لهذه الأمة بولاية عهده فيها ، وأمضى أمير المؤمنين أعزه الله ، عهده هذا ، وأنفذه ، وأجازه ، وبتله ، لم يشترط فيه مثنوية ولا خياراً ، وأعطى على الوفاء بذلك فى سره وجهره ، وقوله وفعله ، عهد الله وميثاقه وذمة نبيه — صلى الله عليه وسلم — وذمة الخلفاء الراشدين من آله وآبائه ، وذمة نفسه ، بأن لا يبدل ولا يغير ، ولا يحول ولا يتأول . وأشهد على ذلك الله وملائكته ، وكفى بالله شهيداً . وأشهد عليه من أوقع اسمه فى هذا الكتاب . وهو — أعزه الله — جائز الأمر ، ماضى القول والفعل ، بمحضر من ولى عهده المأمون ناصر الدولة أبى المطرف عبد الرحمن بن المنصور — وفقه الله — وقبوله لما قلده ، والتزامه ما ألزمه ، وذلك فى شهر ربيع الأول سنة ٣٩٩ »(١)

• • •

وعلى أثر صدور هذا المرسوم الفذ فى تاريخ الخلافة الإسلامية ، خرج عبد الرحمن فى موكب عظيم من الوزراء والقادة وأكابر أهل الدولة ، إلى قصر الزاهرة وهو «يختال فى ثوب الخلافة ، يحسب أنها له نحلة ، وأنه مستحق لها ، وخليق بها »(٢) . وأقبل عليه المهنئون من الوزراء ورجال الدولة ، يتكلفون البشر ، والدعاء له بما أكرمه الله به ، وقلوبهم تفيض إنكاراً وسخطاً ، وأنفذت

---

(١) ورد نص هذا المرسوم فى أعمال الأعلام ص ٩١ — ٩٣ ؛ ونفح الطيب ج ١ ص ١٩٨ و١٩٩ ؛ وابن خلدون ج ٤ ص ١٤٩ ؛ والبيان المغرب ج ٣ ص ٤٤ — ٤٦ ؛ وقد اتبعنا نحن بالأخص النص الوارد فى أعمال الأعلام لأنه أوفاها وأصحها .

(٢) البيان المغرب عن ابن عون الله ج ٣ ص ٤٦ .

الكتب فى الحال إلى سائر نواحى الأندلس والعدوة ، بوجوب إذاعة المرسوم ، والدعاء لولى العهد على المنابر بعد الخليفة .

وفى اليوم التالى جلس عبد الرحمن بقصر الزاهرة فى هيئة الملك ، واصطف من حوله رجال الدولة وفق مراتبهم ، وأقبل وجوه قرطبة لتهنئته ، وفى مقدمتهم طائفة من المروانية المبعدين عن الخلافة ، وغيرهم من بطون قريش . يقول المؤرخ : « وخرجوا من عنده ، وقلوبهم ذؤوبة عليه ، موقدة ببغضه » . وبادر الشعراء وفى مقدمتهم أبو العلاء صاعد البغدادى ، برفع قصائد التهانى . وقد أورد لنا ابن حيان طرفاً مما قاله الشعراء فى ذلك[1] .

بيد أن شاعراً آخر ، هو ابن أبى يزيد المصرى ، نظم فى ذم ابن ذكوان وابن برد وهما المسئولان عن تحرير مرسوم البيعة هذين البيتين :

إن ابن ذكوان وابن برد     قد ناقضا الدين عن عهد

وعاندا الحـــق إذ أقاما     حفيد شنجُه ولى عهـــد[2]

وذهب عبد الرحمن فى غروره واختياله إلى أبعد مدى ، فعين ابنه الطفل عبد العزيز فى خطة الحجابة ، وأسبغ عليه لقب سيف الدولة ، وهو لقب عمه المظفر . واعتقد عبد الرحمن أنه حقق بذلك مشروعه العظيم ، فى تخليد ملك الدولة العامرية ، وأن الأمور قد دانت كلها له ، فأطلق العنان لأهوائه ، وانكب على لهوه وشرابه ، يحيط به نفر من البطانة السيئة ، والندماء الأسافل ، يصورون له الأحوال فى أبدع الصور وأحبها إلى نفسه .

وكان من الحوادث البارزة فى تلك الآونة ، حادث ظاهر البساطة فى ذاته ، ولكنه أذكى موجة جديدة من السخط . وذلك أن عبدالرحمن أصدر أمره إلى رجال الدولة وأكابر أهل الخدمة ، بأن يتركوا قلانسهم الطويلة ، المبرقشة الملونة ، التى كانوا يضعونها على رؤوسهم ، ويمتازون بها على باقى الطوائف ، وأن يستبدلوها فوراً بالعمائم . وقد كانت العمائم هى غطاء الرأس عند البربر . فأنف الكبراء لذلك ، ولكنهم رضخوا للأمر كارهين ، وحضروا إلى قصر الزاهرة بالعمائم لأول مرة فى يوم ١٤ جمادى الأولى ، وعلق جمهور الشعب على ذلك بمختلف الأقوال والتأويلات .

---

(١) راجع البيان المغرب ج ٣ ص ٤٦و٤٧ ؛ وأعمال الأعلام ص ٩٤ — ٩٦.

(٢) ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ١٥٠ .

وكان عبد الرحمن أثناء ذلك قد فكر فى أن يشغل الناس بحديث الغزو أسوة بأبيه وأخيه ، وكان سانشو غرسية أمير قشتالة من جهة أخرى قد أبدى أنه لايزمع احترام السلم المعقود ، وأخذ بالفعل يغير على الحدود الإسلامية . ولم تكن أخبار قرطبة ، وما يسودها من اضطراب الأحوال ، خافية على الملوك النصارى . واعتزم عبدالرحمن أن يسير إلى الغزو ، وأن يقصد إلى جلّيقية ، فاعترضه كبير الفتيان الصقالبة ، وحذره من مغادرة قرطبة فى هذا الوقت ، وأوضح له أن المروانية (بنى أمية) يأتمرون به ، ويدبرون انقلاباً ينتزعون به الحكم ، وأن كثيراً من الجند يميلون إليهم ، فلم يصغ إلى قوله ، وأمر بالخروج إلى الغزو[1] ، وعهد بإدارة الحكومة فى غيبته إلى ابن عم أبيه عبدالله بن أبى عامر المعروف بعسكلاجة . وكان خروجه من قرطبة فى ١٦ جمادى الأولى سنة ٣٩٩ هـ ( يناير سنة ١٠٠٩ م ) أعنى فى أعماق الشتاء ، وسار بالجيش صوب طايطلية فى طريقه إلى جليقية والأمطار تنهمر والبرد يهرأ الأجسام ، وهو على سجيته من اللهو والشراب . ثم اخترق حدود مملكة ليون ، ودخل جليقية . ولكن ملك ليون ألفونسو الخامس تحصن بقواته فى رؤوس الجبال ، ولم يتقدم لقتال المسلمين ، ولم يجد عبد الرحمن سبيلا لقتاله لفيضان الأنهار وكثرة الثلوج ، فقرر العودة بجيشه ، فارتد راجعاً أدراجه . وبالرغم من أنه لم يحقق فى غزوته هذه أية نتائج ذات شأن ، فقد نظم ابن دراج القسطلى ، على سجيته ، فى تلك الغزوة قصيدة طويلة ، يشيد فيها بعبد الرحمن ، وهذا مطلعها :

هو البدر فى فلك المجد دارا ... فما غسق الخطب إلا أنارا
تجلى لنا فأرتنا السعود ... غيوب المنى فى سناه جهارا
وأوفى فكادت صوادى القلوب ... تفوت العيون إليه بدارا
وحل فحلت جسام الفتو ... ح تبأى اختيالا وتزهى افتخارا[2]

وما كاد عبد الرحمن يصل إلى طليطلة ، حتى وافته الأنباء بأن انقلاباً حدث فى قرطبة ، وأن الثوار قد استولوا على مدينة الزاهرة ، ونهبوا ذخائرها ، وأضرموا النار فى صروحها . وتسربت الأنباء إلى الجند ، فوقع الاضطراب فى الجيش ،

---

(١) أعمال الأعلام ص ٩٦ .

(٢) وردت هذه القصيدة كاملة فى ديوان ابن دراج ( ص ٤٥٩ – ٤٦٣ ) .

واضطر عبد الرحمن أن يسير لفوره بالجيش إلى قلعة رباح ، فى طريقه إلى قرطبة .

— ٢ —

لم يكن ذلك الهدوء الظاهر ، الذى ساد قرطبة خلال هذه الأشهر القلائل التى اضطلع فيها عبد الرحمن بالأمر ، سوى الهدوء الذى يسبق العاصفة . وكان حكم الطغيان الذى فرضه بنو عامر على الأندلس قد أخذ منذ أيام عبد الملك ، يحدث آثاره المادية والأدبية ، فى نفوس الشعب ، ويبدو لهم بغيضاً مرهقاً . ولم يكن يستر هذه الآثار سوى سياج خفيف من الحذر والترقب . ذلك أن سلطان بنى عامر كان يستند دائماً إلى قوة عسكرية يخشى بأسها ، قوامها البربر والصقالبة ؛ فلما جاء عبد الرحمن ، وكشف عن نيته فى الاستئثار برسوم الملك ، واغتصاب ولاية العهد ، ألفت العناصر الناقمة ، وفى مقدمتها بنو أمية أصحاب الولاية الشرعية ، فى ذلك مادة جديدة ، للتنديد بحكم بنى عامر وطغيانهم واجترائهم ، وفى تلمس الوسائل الكفيلة بسحق دولتهم ؛ وكانت شخصية عبد الرحمن الهزيلة ، وأرومته الأجنبية ، وما أبداه من ضروب الاستهتار والمجون ، تذكى عاطفة السخط عليه ، سواء بين الخاصة أو الكافة ، وتمهد السبيل إلى الانقلاب المنشود .

وكانت خيوط المؤامرة التى اجتمعت حولها العناصر الناقمة ، تتوثق شيئاً فشيئاً ، وكان أهم مدبريها شخصيتين ، الأولى الذلفاء والدة عبد الملك المصور ، وقد كانت تعتقد اعتقاداً جازماً بأن ولدها قد توفى غيلة بالسم ، وأن قاتله هو أخوه عبد الرحمن ، وكانت لذلك تتوق إلى الانتقام ، والثانية هى شخصية فتى من بنى أمية هو محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر ، وكان عبد الملك قد أمر بإعدام أبيه هشام بتهمة التآمر مع الوزير عيسى بن سعيد كما تقـــدم .

وكانت الذلفاء امرأة ذكية قوية العزم ، كثيرة المال والوجاهة ، وكانت بالرغم مما أسبغه عبدالرحمن عليها وعلى أسرة ولدها وأخيه عبدالملك ، من ضروب الرعاية والإكرام ، تسعى دائبة للإيقاع به . فلما شعرت بأن الجو قد تهيأ للسعى ، مما ثار حول تصرفات عبد الرحمن من ضروب الإنكار والسخط ، اتصلت بوجوه بنى أمية ، وأخذت تحثهم على التحرك والقيام لاسترجاع دولتهم ، والانتقام من بنى عامر ، وكان صلة الوصل بينها وبينهم فتى من صقالبة العامريين يدعى بشرى

وكان من قبل من فتيان المراونة ، ثم انتقل إلى العامريين فيمن انتقل من فتيان القصر ، ولكنه بقى على ولائه لسادته الأقدمين . وتعهدت الذلفاء بأن تعاون المتآمرين بالمال والتدبير ؛ وسرعان ما استجاب بنو أمية للدعوة واختاروا من بينهم زعيماً هو محمد بن هشام بن عبد الجبار . وكان فتى جريئاً مغامراً فى الثالثة والثلاثين من عمره إذ كان مولده فى سنة ٣٦٦ هـ ، وأمه أم ولد تدعى مزنة[1]، وكان مذ قتل أبوه هشام ، يتحرز على نفسه ، ويختفى فى أحواز قرطبة وكهوفها ، ويجتمع حوله الصحب من المغامرين . فلما أجمع بنو أمية أمرهم على اختياره ، بايعوه سراً بالولاية والخلافة ، وكان له ولأبيه من قبل دعاة من أهل قرطبة من المروانية وغيرهم ، يدعون له ؛ واشتدت هذه الدعاية مذ أجمع المتآمرون رأيهم على اختياره . وكان خروج عبد الرحمن المنصور أو شنجول إلى الغزو فرصة سانحة للعمل ، فأخذ محمد بن هشام يحشد أنصاره ، ويجتمع بهم سراً فى كهوف جبل قرطبة . وكثر إرجاف دعاته فى المدينة أن دولة بنى عامر قد قضى عليها ، وأن الأمر سيعود إلى المروانية ، وكثر تشهيرهم بعبد الرحمن وقبيح تصرفاته . وكانت هذه الدعاية تجد لدى جمهور الكافة أذناً صاغية ، لما وقر فى نفوسهم من بغض عبد الرحمن وازدرائه . وإليك كيف يصف لنا ابن الخطيب موقف الشعب القرطبى ، وحالته النفسية إزاء العامريين ، وإزاء عبد الرحمن :

« وقد جبل الله أهل قرطبة على ملل ملوكها ، والقلق بذوى أمرها ، والإرجاف بما يتوقع لها . وكان سفهاؤهم بالأسواق والمجامع غير المحتشمة ، تؤثر عنهم فى العامريين نوادر حارة ، واستراحات عنهم ؛ كان المنصور وولده المظفر يستحضر لذلك مشيختهم ، ويأمرهم بإنهاء وعيده ، ويشافههم بإنكاره ، ولا يزال حكامه يبلغون فى تغيير ذلك وإنكاره أقصى المبالغ ضرباً للظهور ، وقطعاً للألسنة . فلما ذهب عبد الرحمن هذا المذهب ، وأطاع هذا الخرق ، كثر الحمل وشهرت البغضة »[2] .

ولم يكن المروانية ، وحدهم فى هذا التدبير الذى قصد به إلى سحق نير العامريين ودولتهم ، فقد كان إلى جانبهم سائر العناصر الناقمة من قريش ، ومن المضرية

---

(١) جذوة المقتبس ص ١٩ .

(٢) أعمال الأعلام ص ٩٠ .

واليمنية ، أو بعبارة أخرى من البيوت العربية ، التى عمل المنصور وآله على سحق رياستها ومكانتها الاجتماعية ، وإخضاعها لنفوذ البربر والصقالبة . وقد رأينا فيما تقدم أن هذه لم تكن أول مؤامرة أو محاولة من نوعها لتحطيم نير بنى عامر ، وأن المنصور وولده عبد الملك ، استطاعا أن يقضيا على بعض المؤامرات الخطيرة ، التى دبرت لتحقيق هذه الغاية .

كانت الظروف قد تهيأت إذاً أمام المتآمرين للعمل . فقد خرجت معظم وحدات الجيش مع عبد الرحمن إلى الغزو ، ولم يبق منه سوى فرق قليلة ترابط فى قرطبة والزاهرة ، وجمهور الشعب متأهب بعواطفه ونفسيته الضجرة المتذمرة لتأييد أى انقلاب .

ولما نضجت المؤامرة ، واتسع نطاق الدعوة لمحمد بن هشام ، وكثر الإرجاف بالانقلاب المنشود ، شعر الوزراء العامريون بالخطر ، وضاعفوا الأهبة والحرس حول قصور الزاهرة . وكان محمد بن هشام وأعوانه خلال ذلك يجتمعون سراً وينظمون خطتهم الأخيرة . وكان محمد هذا الذى اختاره بنو أمية زعيماً لهم ، قد فطر منذ نشأته على الشر والمغامرة ، لا يخالط سوى الزعانف والأشرار . وقد وصفه ابن الخطيب فى قوله : « جرار جسور ، ثائر مخاطر ، خليع ، مداخل للصقورة والفتاك ، لا يدرى فى أى واد يهلك »[1] .

وفى يوم ١٦ جمادى الأولى سنة ٣٩٩ هـ (١٥ فبراير ١٠٠٩ م ) جاءت الأنباء إلى قصر الزاهرة بأن عبد الرحمن قد عبر بجيشه إلى أرض النصارى ، فأدرك المتآمرون فى الحال أن الفرصة قد سنحت للعمل ، واعتزم محمد بن هشام لفوره أن ينزل الضربة المنشودة . وكان قد بث نفراً من رجاله حول قصر قرطبة ، وقد تسلحوا تحت ثيابهم خفية . ففى عصر هذا اليوم ، كان محمد يكمن فى الضفة الأخرى من النهر (نهر الوادى الكبير) قبالة القصر . وكانت خطة المتآمرين أن يسددوا الضربة الأولى لقصر قرطبة ، وهو يومئذ المقام الشتوى للخليفة هشام المؤيد ، وحوله قلة من الحرس ، ولأن ظروف العمل فى قرطبة ، كانت أدعى إلى النجاح نظراً لعطف الكافة والدهماء وتأييدهم . وفى الوقت المحدد عبر محمد النهر ، والتف حوله من أصحابه اثنا عشر فتى ، منهم طرسوس المجوسى ، وهو أشدهم

(١) أعمال الأعلام ص ١٠٩ ؛ وراجع البيان المغرب ج ٣ ص ٥٢ .

جرأة وفتكاً ؛ فساروا حذرين حتى باب القصر ، ثم شهر طرسوس سيفه ، وهجم فى الحال على صاحب المدينة عبدالله بن أبى عامر (عسكلاجة) وانتزعه من مجلسه ، وكان يحتسى الخمر مع قينتين من جواريه ، وجىء به مخموراً إلى محمد بن هشام ، فأمر بضرب عنقه ، ورفع رأسه على رمح ، فلما أبصرت العامة رأسه مرفوعاً ، هرعت إلى محمد بن هشام ، والتف حوله منهم جمهرة كبيرة من السفلة والغوغاء ، فقويت بذلك عصبته ، ثم بادر باقتحام سجن العامرية ، وأفرج عمن فيه من القتلة واللصوص ، وتلاحق عليه أقاربه المروانية من كل صوب ، واستنهضوا الناس لنصرته ، حتى اجتمع حوله منهم طوائف غفيرة .

ونمى الخبر إلى الخليفة هشام المؤيد ، فأمر بإغلاق أبواب القصر ، وصعد إلى السطح ، ومن حوله خادمان يحمل كل منهما مصحفاً ، وحاول مخاطبة العامة ، فأسكتوه وأغلظوا له القول ، فانصرف عنهم إلى داخل القصر ، وأمر الخدم بالكف عن كل مقاومة حتى يقضى الله أمره . فأمر محمد بن هشام العامة بنقب أسوار القصر ، واقتحام أبوابه ، وبذل العامة فى ذلك جهوداً فادحة ، وأتوا بالسلالم ، وصعدوا إلى أعلا الأسوار ، وسيطروا على عدة نواح من سطح القصر ، وارتد الخدم أمامهم ، ووصلوا إلى خزائن السلاح فنهبوها واشتد ساعدهم . ولما سمع الخليفة بذلك ، خشى البادرة على نفسه وأهله ، فبعث إلى محمد بن هشام يعرض عليه أن يقصى بنى عامر عن الحكم ، وأن يشركه فى أمره ، فرفض محمد ذلك ، وطلب إلى فاتن محافظ القصر أن يفتح الأبواب ، فأذعن ودخل محمد القصر ، واحتل مجلسه ، ومن حوله خاصة أصحابه ، واعتزم أن يقضى ليله بين الشموع المضيئة . ثم قام بطرد العامة عن القصر وأجلاهم عن سطحه ، وكفهم عن انتهاك حرمه ، وعين ابن عمه محمداً بن المغيرة فى كرسى الشرطة ، وابن عمه الآخر عبد الجبار بن المغيرة فى خطة الحجابة ، ودعا سليمان بن هشام من قرابته فسماه ولى عهده ، وبعث إلى الخليفة هشام يعاتبه على إيثار بنى عامر ، ويدعوه إلى خلع نفسه ، منذراً مهدداً ، فارتاع هشام وبادر بالقبول ، واستدعى محمد فى الحال بنى عمومته ، وأكابر بيته ، ونفراً من الأعيان والوزراء والقضاة فى جوف الليل ، وأعلن هشام خلع نفسه بمحضر من بعضهم ، وقدم إلى محمد بعض حلله الخلافية الفاخرة ، فتم الخلع ، وذلك بعد أن مكث هشام فى الخلافة ثلاثة وثلاثين عاماً

وبضعة أشهر ، وآلت الخلافة فى تلك الليلة إلى محمد بن هشام بن عبد الجبار ابن عبد الرحمن الناصر ، وتلقب بالمهدى . وكان ذلك صبيحة يوم الأربعاء ١٧ جمادى الآخرة سنة ٣٩٩ هـ ( ١٦ فبراير سنة ١٠٠٩ م ) .

وهرعت الجموع من سائر أنحاء قرطبة إلى محمد بن هشام ، ملتفة حوله ، مؤيدة لبيعته ، واعتبروه بطلا منقذاً ، إذ كان أول من استطاع أن يثور فى وجه بنى عامر ، وأن يعمل لإزالة ملكهم ، وشعروا أن كابوس الإرهاب العامرى قد تقلص ، وأن عهداً جديداً سوف يبدأ ، ولم يخطر ببالهم قط ، أن هذا التحول كان نذير المحنة الغامرة ، التى سوف تطيح بكل مانعموا به فى ظل الدولة العامرية من السكينة والأمن والرخاء .

وفى الوقت نفسه كانت مدينة الزاهرة ، معقل بنى عامر ، عرضة لهجوم مماثل . وكان القائمون على أمرها قد نمى إليهم ما وقع بقرطبة ، وبادر محافظ الزاهرة عبد الله بن مسامة إلى ضبط أسوارها وأبوابها ، وحشد ما لديه من الجند ، فبلغوا سبعمائة ، وتأهب للدفاع وبعث محمد بن هشام إلى الزاهرة جمهوراً غفيراً من العامة مع طائفة من أصحابه . فأحاطوا بها وحاولوا اقتحامها ، ولكن نظيفاً الخادم ، ونصراً المظفرى ، وهما من الفتيان العامريين ، استطاعوا فى قوة من الغلمان إجلاء العامة عن الأسوار ، ثم دخل الليل فحال بين الفريقين .

وفى صباح اليوم التالى ، ١٨ جمادى الأولى ، ندب محمد بن هشام أو الخليفة المهدى ، ابن عمه عبد الجبار بن المغيرة لمهاجمة الزاهرة ، فسار إليها على رأس قوة كبيرة من العامة ، الذين أقبلوا على التطوع فرساناً ومشاة ، ووزعت عليهم الأسلحة ، وأمامهم رأس عبدالله بن أبى عامر مرفوعاً فوق رمح ، وهاجموا قصر عبد الملك المظفر ، وكان خارج الأسوار ، وكان فيه أهله وأمه الذلفاء ، فنهبوه وتخاطفوا متاعه وذخائره ، وذلك بالرغم من أن الذلفاء هى التى أمدت محمداً بن هشام بعونها ومالها . فلما شعر أهل الزاهرة ، بأنه من العبث مقاومة هذه الجموع الهائلة ، عرضوا التسليم على أن يصدر لهم المهدى الأمان ، فبعث إليهم المهدى الأمان المنشود مكتوباً بخطه ، وكان ذلك وقت الظهر ، ففتحوا أبواب المدينة وسلموها ، ودخل عبد لجبار لفوره قصر الزاهرة ، واقتحمته الجموع ، ونهبت منه من المتاع والنفائس ما لا يقدر ولا يوصف ، واستأثر عبد الجبار

وصحبه المقربين من ذلك بأعظم نصيب ، واستولت العامة على خزائن الكسوة والمتاع والسلاح والحلى ، ولم يكف النهب إلا فى مساء اليوم التالى . وحرص عبد الجبار على أن يحيط بقواته بيوت الحُرم والمال وخاص المتاع والجوهر ، وأن يبعد العامة عنها ، وقد استولى المهدى على جميع محتوياتها ونقلها إلى قصر الخلافة بقرطبة . ويقال إنه حصل من أموال الزاهرة المنهوبة خمسة آلاف وخمسمائة ألف دينار من النقود ، ومن الذهب ما قيمته ألف ألف وخمسمائة ألف ؛ وأطلق المهدى الحرائر من بنى عامر ، واصطفى الجوارى لنفسه ، ووهب منهن لوزرائه وأصحابه ، وأذن للذلفاء أن تنتقل وأسرة ولدها عبد الملك وولده الصغير محمد ، مطلقة السراح إلى دورها بالمدينة ، وكانت لحرصها قد نقلت إليها معظم خزائن المال والمتاع .

ولم يكتف المهدى بذلك كله ، بل عمد بعد أن استصفى سائر ما فى الزاهرة من الخزائن والأموال الطائلة ، إلى هدم صروحها وأسوارها ، واستطالت الأيدى إلى كل نفيس من مرمر قصورها وطرائفها وأنقاضها وأبوابها ، فلم تمض أيام قلائل على ذلك السيل المدمر ، حتى اختفت صروح الزاهرة ومعالمها الضاحكة ، وغدت أطلالا دارسة ، وخرائب موحشة . وكان المهدى يتعجل إزالة رسوم بنى عامر بكل ما وسع ، خشية أن يعود عبد الرحمن المنصور ، قبل أن يتم إحكام ضربته وتوطيد مركزه .

وقد ذكرت لنا الرواية أن المنصور بن أبى عامر ، كان يتوقع ذهاب دولته وخراب الزاهرة ، وكان هذا الخاطر ينتابه من آن لآخر ، ويفضى به إلى خاصته ؛ وقد نقل إلينا الوزير أحمد بن حزم ، والد الفيلسوف الشهير ، أن المنصور كان يقول : « ويحاً لك يازاهرة الحسن ، لقد حسن مرآك ، وعبق ثراك ، وراق منظرك ، وفاق مخبرك ، وطاب تربك ، وعذب شربك ، فياليت شعرى من الذى يهدمك ، ويوهن جسمك ويعدمك » ، وأنه كان يؤكد لأصحابه صحة هذه النبوءة فى مناسبات كثيرة[1] .

— ٣ —

لما وصلت أنباء هذا الإنقلاب الخطير الذى وقع فى قرطبة ، إلى عبد الرحمن

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٦٥ .

المنصور أو شنجول ، وهو فى طليطلة ، بادر بالسير فى قواته إلى قلعة رباح ؛ والحيرة تغلب عليه ، والاضطراب يسود صفوف الجنود ، وهنالك تمهل قليلا ، وأعلن فى الحال أنه ينزل عن ولاية العهد ، ويقتصر على الحجابة ، وبعث كتبه بذلك إلى طليطلة وأعمالها ، وفيها يناشد الناس أن يهرعوا إلى نصرة الخليفة المظلوم هشام ، وإلى التمسك بطاعته ، ويصف لهم ما ارتكبه محمد المهدى ودهماء قرطبة من العيث والسفك . فلم يعبأ أحد بدعوته ، وكان أول الخارجين عليه الفتى واضح مولى أبيه ، وهو يومئذ والى طليطلة . وحاول شنجول فى الوقت نفسه ، أن يأخذ العهد على زعماء الجند بنصرته والقتال معه ، ولا سيما زعماء البربر الذين يؤلفون سواد الجيش ، فتظاهروا بموافقته ، ولكنهم تعاهدوا فيما بينهم ، وعلى رأسهم كبيرهم محمد بن يعلى الزناتى زعيم زناتة ، أن يتخلوا عن شنجول وألا يغامروا بمحاربة أهل قرطبة ، وفيها أسرهم وأموالهم ، وخصوصاً بعد الذى ترامى إليهم عن التفاف الناس حول محمد بن هشام ، وتفانيهم فى نصرته ؛ وقوى هذا العزم لديهم ما أفضى إليهم القاصى أبو العباس بن ذكوان — وكان قد صحب شنجول فى غزاته — من أنه يتبرأ من شنجول ويقضى بفسقه ، وينكر عليه ما يدعو إليه من قتال المسلمين بقرطبة ، وفيهم العلماء والصالحون ، والنسوة والأطفال . ومما تجدر ملاحظته أن القاضى ابن ذكوان هذا ، كان من قبل من أخص رجال الدولة العامرية ، وكان من أشد المعاونين لعبد الرحمن المنصور على انتزاع ولاية العهد من هشام .

وكان إلى جانب شنجول فى معسكره ، زعيم من زعماء بنى غومس سادة مقاطعة كريون فى جلّيقية ، وكان قد صحبه يرجو عونه على بعض خصومه من الزعماء المجاورين ، فلما رأى اضطراب أحوال الجند ، نصح شنجول بأن يعدل عن السير إلى قرطبة ، وأن يعود فى أصحابه إلى طليطلة فيتفق مع واضح ، فأبى شنجول نصحه ، وزعم أنه متى اقترب من قرطبة ، سارع الناس إلى نصرته . وقد بقى هذا الزعيم النصرانى إلى جانب شنجول حتى النهاية (١).

وعلى أى حال فقد سار شنجول فى قواته صوب قرطبة ، حتى انتهى إلى «منزل هانى» ، وهى أقرب محلاته إلى المدينة . وما كاد الليل يرخى سدوله ،

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٧٠ .

حتى غادر معظم الجند البربر أمكنتهم تحت جنح الظلام ، وأسفر الصبح وهو صبح نهاية شهر جمادى الآخرة سنة ٣٩٩ هـ ( نهاية فبراير سنة ١٠٩٩ م ) فلم يبق إلى جانب عبد الرحمن سوى خاصته وحرمه وحشمه وجمع يسير من غلمانه ، وابن غومس فى نفر من أصحابه ، وغادر المعسكر تباعاً زعماء البربر ، والفتيان الصقالبة ووجوه الأندلسيين ، وهنا نصحه ابن غومس مرة أخرى بأن ينجو بنفسه وصحبه ، فأبى .

وسار شنجول فى أهله حتى وصل إلى أرملاط من مشارف قرطبة ، وقد تركه النفر القليل الذى بقى معه ، فاستولى عليه اليأس ، وأدخل حرمه قصر أرملاط ، ثم خرج مودعاً والصراخ يتبعه ، وسار ومعه ابن غومس ، وقد عول على الفرار ، فالتجأ ليلا إلى الدير القريب. وكان محمد بن هشام فى تلك الأثناء يتتبع أخباره وحركاته ، فلما نمى إليه أنه يزمع الفرار ، بعث فى الحال الحاجب ابن ذرى فى طائفة من الفرسان ، فصار مسرعاً إلى أرملاط ودهم الدير ، وقبض على شنجول وابن غومس . وأخذ نساء شنجول من القصر ، وهن سبعون جارية ، فبعث بهن إلى قرطبة . ولما شعر شنجول بأنه هالك أعلن أمام معتقله أنه يعترف بطاعة المهدى ، فاستاقه ابن ذرى هو وابن غومس ، ثم أمر بتوثيق يديه بالرغم من احتجاجه ، وفى خلال الطريق طلب شنجول أن يفك وثاق يديه قليلا ليستريح ، فأجيب إلى طلبه ، وعندئذ أخرج من خفه سكيناً بسرعة البرق ، وحاول أن يغمده فى صدره ، فتداركه الجند ، وأوثقوا يديه ، وأمر الحاجب بقتله ، فذبح فى الحال ، وفصل رأسه عن جسمه ، وقتل ابن غومس ، وحمل رأس شنجول إلى المهدى فى نفس المساء ، وحمل جسده معروضاً على بغل ، وأمر المهدى فحنطت الجثة ، وركب عليها الرأس ، وألبست كسوتها ، ونصبت على خشبة طويلة على باب السُّدة ، ونصبت رأس ابن غومس على سارية إلى جانبها . وكان مقتل عبد الرحمن المنصور فى اليوم الثالث من رجب سنة ٣٩٩ هـ (٣ مارس سنة ١٠٠٩ م ) .

وقد انتهت إلينا من تعليقات المعاصرين على تلك الحوادث المتوالية المدهشة تعليق شاهد عيان يقول فيه :

« ومن أعجب ما رأيت من عبر الدنيا ، أنه تم من نصف نهار يوم الثلاثاء

لأربع عشرة ليلة بقيت من جماذى الآخرة المؤرخ إلى نصف نهار يوم الأربعاء ثتمة الشهر ، وفى مثل ساعته فتح مدينة قرطبة ، وهدم مدينة الزاهرة ، وخلع خليفة قديم الولاية وهو هشام بن الحكم ، ونصب خليفة جديد لم يتقدم له عهد ، ولا وقع عليه اختيار ، وهو محمد بن هشام بن عبد الجبار ، وزوال دولة آل عامر ، وكرور دولة بنى أمية ، وإقامة جنود من العامة المحشودة عوض بها أجناد السلطان أهل الدربة والتجربة ، ونكوب وزراء جلة ، ونصب ضدادهم ، تقتحمهم العين هجنة وقماءة . وجرى هذا كله على يدى بضعة عشر رجلا من أراذل العامة ، حجامين وخرازين ، وكنافين ، وزبالين ، تجاسروا عليه ، وقد تكفل المقدور بوقوعه ، فتم منه ما لم يكن فى حسبان مخلوق تمامه »[1] .

* * *

وهكذا انهارت الدولة العامرية بسرعة مدهشة لم يكن يتوقعها أحد ؛ فقد تولى عبد الرحمن المنصور الحكم عقب وفاة أخيه عبد الملك فى ١٧ صفر سنة ٣٩٩هـ والدولة محكمة النظام ، وطدة الدعائم ، والجيش على ولائه للدولة العامرية ، فلم تمض سوى ثلاثة أشهر حتى انهار ذلك الصرح الشامخ ، الذى شاده المنصور ابن أبى عامر ، والذى لبث خمسة وثلاثين عاماً معقد النظام والسلامة والأمن والرخاء للأندلس ، واستطاعت جموع يسيرة من الدهماء ، أن تحقق بسرعة البرق ما لم يجرؤ على تصوره أو محاولته من قبل ، أحد من أكابر خصوم الدولة العامرية والمتربصين بها . ومن الواضح أن الأسباب الجوهرية لمثل هذا الانقلاب الصاعق ، ترجع قبل كل شىء إلى العوامل الأدبية والنفسية ، فقد كان نظام الطغيان المطبق الذى فرضه المنصور على الأمة الأندلسية ، بالرغم من كل ما حققه للأندلس من السؤدد والرخاء ، يبدو كالكابوس المرهق ، وكان الشعب يتوق إلى التخلص من هذا النير ، الذى سلبه كل مظاهر الحرية . فلما تولى عبد الرحمن المنصور ، كانت النفوس قد أشبعت ببغض هذا النظام والرغبة فى زواله ، وكان سلوك عبد الرحمن وتصرفاته ومجونه واستهتاره ، عاملا جديداً فى إذكاء هذا البغض وهذه الرغبة . وكان لاجترائه على اغتصاب ولاية العهد ، أسوأ وقع فى نفوس قوم جبلوا على تقديس شعائر الخلافة وحقوقها الشرعية . فلما خرج عبد الرحمن إلى الغزو ، كان

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٧٤ .

الشعب يضطرم سخطاً وبغضاً وازدراء ، وكان يرقب أول بادرة للانفجار . فلما وقعت هذه البادرة بوثوب محمد بن هشام ، لبى الشعب لفوره دعوة الخروج والثورة ، ولم يفكر فى شىء من العواقب ، ولم يفكر إلا فى تحطيم هذا النير البغيض — نير بنى عامر — بأية وسيلة . وكان له ما أراد ، وقد حقق رغبته بأيسر أمر .

على أن الأمة الأندلسية لم تجن خيراً من هذا الانقلاب ، الذى حققه الشعب القرطبى دون تدبر ودون تحوط . ذلك لأنه لم يقف عند القضاء على دولة بنى عامر ، بل بالعكس كان نذيراً بانهيار دعائم النظام والأمن ، اللذين تمتعت بهما الأندلس فى ظل الدولة المنقضية ، ودفع الأمة الأندلسية إلى معترك مروع من الفتن المضطرمة ، والفوضى الشاملة ، التى انتهت بانهيار حكومتها المركزية ، وتمزيق وحدتها ، وبمواجهتها لأخطر مصير عرفته منذ قيامها فى شبه الجزيرة .

# الكتاب الرابع

# سُقوط الخلافة الأندلسيّة
## ودولة بنى حمّود

٣٩٩ – ٤٢٢ هـ : ١٠٠٩ – ١٠٣١ م

# الفصل الأول

## الخلافة فى معترك الفتنة والفوضى

غداة الانقلاب . اقتسام السلطان . الشعب القرطبى . شخصية المهدى . اضطهاده البربر . تحامل العامة عليهم . نفى المهدى للفتيان العامريين . إخفاؤه الخليفة هشام وادعاؤه بوفاته . عيثه وطغيانه . هشام بن سليمان . سعيه إلى خلع المهدى . القتال بين الفريقين . هزيمة هشام ومصرعه . تحريض المهدى على البربر والفتك بهم . مسيرهم إلى قلعة رباح . يرشحون سليمان بن الحكم للخلافة . استنصارهم بسانشو غرسية أمير قشتالة . الحرب بينهم وبين الفتى واضح . هزيمته وفراره . تأهب المهدى للدفاع . مسير البربر وحلفائهم النصارى إلى قرطبة . موقعة قنتش . هزيمة القرطبيين وتمزيق جموعهم . المهدى يظهر الخليفة هشام . فشل محاولته وفراره . مبايعة سليمان بن الحكم . المهدى وواضح يدبران محاولة جديدة . استنصارهما بأميرى برشلونة وأورقلة . مسير المهدى وحلفائه الفرنج إلى قرطبة . اللقاء بينهم وبين البربر . هزيمة البربر وفرار سليمان . تجديد البيعة للمهدى. مسيره لمطاردة البربر . هزيمته وارتداده إلى قرطبة . استعداده للدفاع . الوحشة بينه وبين واضح . ائتمار الفتيان به ومقتله . عود هشام المؤيد إلى الخلافة . واضح يتولى الحجابة . تمسك البربر بولاية سليمان . مسير البربر إلى الزهراء واحتلالها . عيثهم بأراضى قرطبة . هشام يقدم الحصون الأمامية لأمير قشتالة . حصار البربر لقرطبة . واضح يحاول الفرار . ضبطه ومقتله . ابن وداعة وابن مناو . هشام يحاول استرضاء البربر وسليمان . فشل المحاولة . اشتداد الحصار على قرطبة . مقتل حباسة بن ماكسن . هياج البربر . القتال بينهم وبين أهل قرطبة . هزيمة القرطبيين . اقتحام البربر للمدينة والفتك بأهلها . سليمان المستعين يسترد الخلافة . مصير هشام المؤيد . سليمان يتلقب بالظافر . تفكك عرى الدولة . توزيع الكور بين زعماء البربر . خلال سليمان وشعره .

تربع محمد بن هشام الملقب بالمهدى على كرسى الخلافة ، مكان الخليفة هشام المؤيد ، فى ١٧ جمادى الآخرة سنة ٣٩٩ هـ ( ١٦ فبراير سنة ١٠٠٩م ) ، وانقضى عهد السلطة الثنائية — سلطة الخليفة الشرعى الإسمية ، وسلطة حاجبه والمتغلب عليه الفعلية — ليفسح مجالا لعود السلطة الموحدة . ولكن الظروف التى وقع فيها هذا الانقلاب الحاسم ، الذى أودى بين عشية وضحاها ، بسلطان دولة من أعظم الدول الأندلسية ، لم تكن تسمح لأية سلطة نظامية أن تثبت وأن تستقر ؛ فقد كان الخليفة الجديد ، شخصية مغامرة رخوة ، تحركها النزعات الوضيعة ، ولا تحدوها أية غاية مثلى ، وقد أطلقت سائر الأهواء المتوثبة من عقالها ، وأخذ كل حزب وكل فريق وكل طائفة ، تحاول أن تحصل نصيبها من

أسلاب الدولة المنهارة . فقد كان هناك المروانية أو بنو أمية ، يرون أنهم أصحاب السلطة الشرعية ، وأصحاب التراث المتخلف عن مغتصبيها ، بنى عامر ؛ وكان هناك الفتيان العامريون ، وأنصارهم من الصقالبة ، ومن إليهم من الجند المرتزقة ، وقد كانوا أولياء الدولة العامرية ، وكانوا من حيث العدد والعصبية قوة يعتد بها ؛ وكان هناك البربر ، وقد كانوا عماد الجيش العامرى ، وكان عددهم قد تضاعف فى أواخر أيام المنصور وبنيه ، وتوافد كثير من زعمائهم إلى شبه الجزيرة ؛ ثم كان هناك أخيراً الشعب القرطبى ، أو بعبارة أخرى كتلة العامة والدهماء الذين آزروا الخليفة الجديد والتفوا حوله ، وقد كانوا قوة خطرة متقلبة ، كثيرة الأهواء والنزعات ، لا تؤمن عواقبها .

استقبل الشعب القرطبى ، ولاية الخليفة الجديد ، بمظاهر السرور والرضى ، وأقاموا الحفلات والولائم ، وظنوا أنهم قد أفلتوا من أغلال النظام العامرى المرهق ، ليستقبلوا عهداً أكثر تسامحاً ، وأوسع آفاقاً ، وما دوروا أن القدر يتربص بهم ، وأن الأندلس سوف تجوز من تلك الساعة ، عهداً مليئاً بالمحن والأحداث المؤلمة .

والواقع أن الخليفة الجديد لم يكن رجل الموقف ، ولم تكن جرأته التى تذرع بها لانتزاع السلطة من هشام المؤيد ، والقضاء على سلطان بنى عامر ، جرأة زعيم مقدام يقدر المسئوليات التى أخذها على عاتقه ، ولكن جرأة مغامر متهور ، وزعيم عصابة غير مسئولة ، التفت حوله جموع الدهماء الصاخبة ، دون وعى ولا تدبر ، شأنها دائماً فى كل انقلاب وكل حدث جديد . ومن ثم فإنه ما كاد يشعر باستقرار أمره ، وتمكن سلطانه ، حتى أطلق العنان لطغيانه وأهوائه ، وجمع حوله بطانة سوء ، أخذت تتنكر للناس ، وتضطهدهم ، وتسومهم سوء الخسف ؛ وأبدى الموكلون بالقصر من رجاله نحو البربر بنوع خاص منتهى الشدة والفظاظة ، وكان المهدى ورجاله يخصون البربر بالبغض والزراية ، لأنهم كانوا عضد المنصور ، وسند نظامه الحديدى ، وكان أهل قرطبة ينساقون مع المهدى فى هذه العاطفة ضد البربر ، وينظرون إليهم شزراً .

وبدا سخط المهدى نحو البربر فى سوء معاملتهم ، والتشدد فى دخولهم القصر ، فكانوا يمنعون من الركوب عند الدخول ، وينزع سلاحهم ، ويوجه إليهم قارص

الكلام ، ولم يفرق فى ذلك بين أصاغرهم وزعمائهم ، حتى أن كبيرهم زعيم قبيلة صنهاجة ، زاوى بن زيرى بن مناد ، عند مقدمه إلى القصر ، مع جماعة من رجاله ، ردوا عند الباب بفظاظة ، وأهينوا ، فانصرفوا وقلوبهم تضطرم سخطاً .

وسرت إلى العامة عندئذ ، موجة من التحامل ضد البربر ، فهاجمت بعض جموعهم دور البربر فى ضاحية الرُّصافة ، ونهبوا بعضها ، وبادر صاحب المدينة بضبط الحال ورد الغوغاء ، وقتل ثلاثة منهم . وأسرع زاوى بن زيرى ، وحبوس بن ماكسن ، وأبو الفتوح بن ناصر ، وغيرهم من زعماء البربر بالدخول على محمد بن هشام ، وأخبروه بما وقع ، فاعتذر لهم ، ووعدهم برد ما نهب ، وقتل عدد من الغوغاء ، ولكن البربر لم تهدأ ثائرتهم ، وبقيت نفوسهم على اضطرامها .

وكان من أعمال العنف التى قام بها محمد بن هشام ، أن نفى عدداً من الفتيان الصقالبة العامريين. فغادروا قرطبة ، ولجأوا إلى أطراف الأندلس الشرقية ، وكان من تملكهم لبعض نواحيها ومدنها ما سنذكر فى موضعه . ولم يقبل منهم على مسالمة محمد بن هشام ومصادقته ، سوى الفتى واضح صاحب مدينة سالم والثغر الأوسط ، فإنه بعث إليه كتاباً يؤكد فيه طاعته ، ويبدى ابتهاجه بمصرع عبد الرحمن المنصور ، فرد عليه المهدى بالشكر ، وبعث إليه أموالا ومتاعاً ، ومرسوماً بولاية الثغر كله .

وعمد محمد بن هشام بعد ذلك إلى مطاردة الخليفة هشام المؤيد ، فحبسه فى القصر أولا ، وأخرج جواريه وفتيانه ، ودوابه المحبوبة ؛ ثم أخرجه بعد ذلك من القصر ، وأخفاه فى بعض منازل قرطبة . وتوفى فى ذلك الوقت رجل نصرانى أو يهودى ، قيل إنه كان يشبه هشاماً شبهاً قوياً ، فأعلن محمد بن هشام ، وفاة الخليفة ، وأحضر الوزراء والفقهاء فشهدوا بأنه هو الخليفة هشام المؤيد حتماً . ودفن هذا الخليفة المزعوم فى اليوم السابع والعشرين من شعبان سنة ٣٩٩ هـ[١] .

ولما شعر محمد بن هشام أن الأمر قد استتب له ، أطلق العنان لأهوائه ، وشهواته الوضيعة ، وانكب على معاقرة الخمر ، وبالغ فى الاستهتار والمجون ، والمجاهرة بالفسق والفجور ، بصورة مثيرة أفقدته عطف الكثيرين واحترامهم ،

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٧٧ ؛ و ابن الأثير ج ٨ ص ٢٥٢ .

وبطش بكثير من الناس ، وفى مقدمتهم ولى عهده سليمان بن هشام ، فقد سجنه وسجن معه جماعة من قريش ، وأخرج من الجيش نحو سبعة آلاف جندى ، أقيلوا وقطعت أرزاقهم ، وأضحوا عنصراً من عناصر التوتر والشغب ؛ وزاد فى التحامل على البربر ، والتعريض بهم والطعن فيهم ، فى كل فرصة وموطن ، حتى أصبح بغضه لهم ، وتربصه بهم ، من الأمور الذائعة ، وأخذ كل فريق يحترز من صاحبه ، ويتوقع منه الشر والغدر .

وكان هشام بن سليمان بن الناصر ، وهو والد سليمان ولى العهد المعتقل ، قد وجد على محمد بن هشام من جراء انحرافه وطغيانه ومجونه ، وخشى سوء العاقبة على بنى أمية ، وانهيار أمرهم ، فأخذ يسعى فى خلع محمد بن هشام ، وانضم إليه جماعة من الناقمين عليه ، وفى مقدمتهم جماعة العبيد العامريين ، وطوائف البربر ، ومن تغيرت نفوسهم على محمد بن هشام ، وحاصر الثوار محمد بن هشام فى قصره ، فبعث إلى هشام القاضى ابن ذكوان ، وأبا عمر بن حزم ، يعاتبانه على تصرفه ، وأمر بالإفراج عن سليمان بن هشام ، ووقع بين الرسولين وبين هشام حوار شديد ، أعلن فيه أنه أحق من محمد بالعرش ، فانصرفا عنه . والتفت العامة من الربض الغربى حول محمد ؛ وخرج محمد المهدى فى جموعه لمقاتلة خصومه ، ودار القتال بينهما يومين متواليين ، ثم أسفرت المعركة عن هزيمة هشام وجموعه من البربر والعامريين ، وأسر هشام وابنه وأخوه أبو بكر ونفر من الزعماء ، قتلهم المهدى جميعاً (١) . وانثالت الدهماء على دور البربر ، فأعملت فيها التدمير والنهب حتى دخل الليل ، وكان ذلك فى أواخر شوال سنة ٣٩٩ هـ ( يونيه سنة ١٠٠٩ م ) .

ودافع البربر عن أنفسهم ، ثم انسحب معظمهم إلى أرملاط (٢) ضاحية قرطبة ، ووقع القتال بقرطبة بين من تبقى منهم وبين العامة ، وحرض المهدى على قتلهم ، وجعل لرؤوسهم أثماناً ، ففتكت العامة بكثير منهم ، ومن بينهم عدة من الزعماء ، ونهبوا دورهم ، واغتصبوا النساء وسبوهن ، كل ذلك فى مناظر مثيرة من السفك والاعتداء الغاشم ؛ واختفى كثير من زعمائهم . وتوجس المهدى من العواقب ، فأصدر للبربر أماناً ، ونادى الكف عنهم ، ونصحهم بتغيير زيهم اتقاء

(١) البيان المغرب عن ابن حيان ج ٣ ص ٨٤ .

(٢) وهى بالإسبانية Guadimellato

الأذى، وكتب إلى البربر فى أرملاط أماناً ، فلم يلتفتوا إليه ، وغادروا أرملاط وساروا شمالا إلى قلعة رباح ، وهناك أخذوا ينظمون أنفسهم ويتدبرون أمرهم .

وكان ممن فر من بنى أمية عقب هزيمة هشام بن سليمان ومصرعه ، ولد أخيه سليمان بن الحكم بن عبد الرحمن الناصر ، وكان إماماً للبربر ، فسارمعهم ، ورشحوه منذ البداية لتولى الأمر مكان المهدى ، ولقبوه بالمستعين. وكان سانشو غرسية أمير قشتالة يرقب تطور الحوادث فى قرطبة باهتمام ، متأهباً لمظاهرة الفريق الخارج على الآخر ، ففاوضه سليمان وزعماء البربر فى طليطلة على أن يمدهم بالجند ، وتعهدوا إليه بتسليم بعض الحصون الواقعة على الحدود ، فقبل معاونتهم ؛ وفى أثناء ذلك حاول الفتى واضح صاحب مدينة سالم أن يعرقل مسير البربر ، فأمر مدن الثغر أن تمنع المؤن عن البربر ، ولقوا من جراء ذلك شدة وإرهاقاً . وأمده المهدى ببعض قواته بصحبة غلامه بليق ، فجمع جموعه وسار لقتال البربر ، ولجأ البربر من جانبهم إلى حليفهم سانشو ، فأمدهم بالجند والمؤن الوفيرة . والتقى البربر وجيش واضح فى مكان يسمى شرنبة على مقربة من قلعة النهر أو قلعة هنارس الحالية **Alcalá de Henares** فهزم واضح هزيمة شنيعة، واستولى البربر على محلته وسلاحه ، وفرت فلوله صوب قرطبة . وكان ذلك فى شهر ذى الحجة سنة ٣٩٩ هـ [1].

وارتاع المهدى لتلك الهزيمة ، وأخذ فى تحصين قرطبة ، وحفر حول فحص السرادق ، وهو محلة البربر خندقاً ، ورتب الرجال على الأبواب والأسوار ، وأخذ ينظم قواته النظامية ومن العامة . وكان واضح قد أتاه منهزماً فى أربعمائة فارس من الثغر ، انضمت إلى قواته . وسار سليمان بن الحكم من جهة أخرى فى جموع البربر ، ومعها القوات القشتالية بقيادة سانشو غرسية ، صوب قرطبة ، وعسكروا بشرقها فى سفح جبل يعرف بجبل قنتج أو قنتش وذلك فى يوم ١١ ربيع الأول سنة ٤٠٠ هـ . وبرز واضح فى جموعه من أهل قرطبة والثغر ، واشتبك الفريقان فى القتال يوم السبت ١٣ ربيع الأول ( ٥ نوفمبر ١٠٠٩ م ) ، واضطرمت بينهما معركة شديدة ، وسرعان ما دب الخلل إلى جيش قرطبة ، فارتد منهزماً إلى الوادى ، وتبعه البربر بعنف . فضاقت بهم المسالك . وقتل منهم عدد جم

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٨٧ .

يقدره البعض بعشرة آلاف ، بينهم عدد كبير من العلماء والأئمة ، وقتل النصارى وحدهم نيفاً وثلاثة آلاف رجل ، وثبت واضح فى رجاله حتى دخل الليل ، فانسل تحت جنح الظلام وفر هارباً إلى الثغر [1] .

ولما رأى المهدى هزيمة جنده ، سقط فى يده ، وحاول أن ينقذ نفسه بحيلة سخيفة ، يدفع بها دعوى سليمان ، فأظهر الخليفة هشاماً المؤيد ، وكان قد أخفاه حسبما تقدم ، وزعم أنه مات ، وأجلسه فى مكان بارز فى شرفة القصر ، وبعث القاضى ابن ذكوان إلى البربر ، يخبرهم أن الخليفة هشاماً ما زال على قيد الحياة ، وأنه الإمام الشرعى ، وليس المهدى سوى نائبه وصاحبه ، فرده البربر بجفاء وسخرية ، وأبدوا تمسكهم بولاية سليمان . ولم ير المهدى أمامه سوى الفرار والنجاة بحياته ، فغادر القصر سراً ، واخترق قرطبة متنكراً ، ولحق بطليطلة . ودخل زاوى بن زيرى زعيم البربر القصر ، ودخل سليمان بن الحكم فى أثره فى يوم الإثنين الخامس عشر من ربيع الأول سنة أربعمائة ، وبايعه الناس بالخلافة ، وتلقب بالمستعين بالله ، واستقبله الشعب القرطبى القلّب بحماسة ، شأنه مع كل متغلب وظافر [2] . ووكل سليمان بعض الفتيان الصقالبة بالمحافظة على هشام المؤيد فى بعض أجنحة القصر ، ونزل البربر فى الزهراء اتقاء للاحتكاك مع العامة . ومع ذلك فقد كانت حوادث الاعتداء تتوالى عليهم فى دروب قرطبة وأزقتها . وكان من أول أعمال سليمان أن أمر بإنزال جثة عبد الرحمن بن المنصور عن خشبتها ، فغسلت ودفن فى دار أبيه ؛ ووفد سانشو غرسية إلى القصر ، فاستقبل بحفاوة وخلع عليه وعلى أصحابه ، ثم عاد إلى معسكره ، ووعده البربر بتسليم الحصون التى تعهدوا بتسليمها متى استقر سلطانهم ، ثم غادر قرطبة بعد أن ترك من جنده مائة أنزلوا فى ربض منية العقاب .

أما محمد المهدى فما كاد يصل إلى طليطلة ، حتى أخذ يدبر أمره من جديد ، وكانت الثغور ما تزال باقية على طاعته ودعوته ، وانضم إليه واضح وأخذ الأمر بيده . ولما علم سليمان بما يدبره المهدى وواضح ، خرج فى قواته من قرطبة ،

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٩٠ ؛ ويقول ابن الخطيب إن النصارى قتلوا من أهل قرطبة ثلاثين ألفاً ، وهو رقم يحمل طابع المبالغة ( أعمال الأعلام ص ١١٣ ) .

(٢) الذخيرة لابن بسام . المجلد الأول القسم الأول ، ص ٣٠ و ٣١ ؛ والبيان المغرب ج ٣ ص ٨٩ و ٩٠ .

وصار صوب طليطلة ، ثم دعا أهلها إلى طاعته ، فأبوا . وانصرف سليمان بقواته إلى مدينة سالم ، فلقى نفس الفشل فى استمالة أهلها ، فارتد عندئذ إلى قرطبة اتقاء لأهوال الشتاء ( أواخر شعبان سنة ٤٠٠ هـ ) . وفى خلال ذلك كله كان الفتى واضح قد سار إلى طرطوشة من ثغور الثغر الأعلى ، واتصل بأمير برشلونة الكونت رامون بوريل وزميله أمير أورقلة الكونت أرمنجو ، واتفق معهما على أن يمداه بجيش لمقاتلة البربر فى قرطبة ، فقبلا معاونته بشروط باهظة ، من تقديم الطعام والشراب ، وأن يتناول كل منهما فى اليوم مائة دينار ، وأن يتناول كل جندى دينارين فى اليوم ، وأن يستولى الجند النصارى على ما يغنمونه من سلاح البربر وأموالهم ، وأخيراً أن يستولوا على مدينة سالم ، وقد احتلوها بالفعل فى طريقهم إلى طليطلة ، بعد أن أخلاها واضح من المسلمين[1] .

وسار الجيش الفرنجى برفقة واضح إلى طليطلة ، حيث انضم إليه المهدى فى قواته ، وسارت القوات المتحدة صوب قرطبة . وكان سليمان المستعين قد وقف على أهبة خصومه ، ووفرة القوات الزاحفة عليه ، فاستنفر الناس لنصرته ، فلقيت دعوته فتوراً ، فحشد ما استطاع من جموعه ، وخرج مع البربر لملاقاة خصومه . وكان اللقاء على قيد نحو عشرين كيلومتراً من شمالى قرطبة فى مكان يعرف « بعقبة البقر » ، وذلك فى منتصف شوال سنة ٤٠٠ هـ ( أواخر مايو سنة ١٠١٠ م ) ، واحتل البربر بقيادة زعيمهم زاوى بن زيرى المقدمة ، ورابط سليمان بقواته فى المؤخرة . واقتتل البربر مع الفرنج قتالا شديداً ، قتل فيه كثير منهم ، وفى مقدمتهم الكونت أرمنجو ( وتسميه الرواية العربية أرمقند ) ، ولكن جانباً من فرسان الفرنج اخترقوا صفوف البربر ، فظن سليمان أن الهزيمة وقعت بهم فارتد منهزماً وكشف بذلك مؤخرة البربر ، فلما رأى البربر فرار سليمان بقواته ، ارتدوا لفورهم نحو الزهراء ، فأخذوا أهلهم وأموالهم وغادروها إلى الجنوب مسرعين ، وفر سليمان فى بقية من صحبه شرقاً صوب شاطبة . وفى اليوم التالى دخل واضح ومحمد المهدى قرطبة ، وجدد المهدى البيعة لنفسه وعين واضحاً لحجابته[2] .

واعتزم المهدى أن يقضى على البربر قبل أن يعودوا لمقارعته . فجمع الأموال

---

( ١ ) البيان المغرب ج ٣ ص ٩٤ .

( ٢ ) البيان المغرب ج ٣ ص ٩٤ و ٩٥ ؛ والذخيرة القسم الأول المجلد الأول ص ٣٢ .

من أهل قرطبة ، وأعطى الفرنج أعطياتهم ، وحشد كل ما استطاع من قواته ، وخرج لمطاردة البربر . وكان البربر قد وصلوا عندئذ إلى « وادى آره » أو وادى يارو[١] . على مقربة من موبلة فى طريقهم إلى الجزيرة الخضراء . وكان جيش المهدى يتكون من نحو ثلاثين ألف من المسلمين ، وتسعة آلاف من الفرنج . وهناك التقى الجمعان ، واشتبكا فى معركة طاحنة ، دارت فيها الهزيمة على المهدى وحلفائه ، وقتل من الفرنج نحو ثلاثة آلاف ، وغرق منهم عدد جم ، واستولى البربر على كثير من أسلحتهم وخيلهم ومتاعهم[٢] ، ووقعت هذه الموقعة ، فى شهر ذى القعدة سنة ٤٠٠ هـ ( يونيه ١٠١٠ م ) ، وعلى أثرها ارتد المهدى إلى قرطبة ، وهنالك غادره حلفاؤه النصارى عائدين إلى بلادهم . وسار البربر جنوباً إلى ناحية ريُّه ، وهنالك لحق بهم سليمان المستعين بمن معه . وأخذ الفريقان يدبران معاً استئناف الصراع للاستيلاء على قرطبة .

وعكف المهدى على تحصين قرطبة ، وحفر حولها خندقاً ، أقيم وراءه سور ، وأخذ يستعد للدفاع ، ويحشد الجند توقعاً لمعاودة البربر الكرة . وكانت جموع من البربر فى أثناء ذلك تغير على نواحى قرطبة من آن لآخر . وفى أثناء ذلك كان واضح قد ضاق ذرعاً بتصرفات المهدى وحماقاته ، وسوء خلقه من عكوف على الشراب والمجون . وكان الفتيان العامريون وفى مقدمتهم واضح جميعاً ينقمون على المهدى ما فعله بهشام المؤيد ، وبنى عامر ؛ وكان قد وصل إلى قرطبة جملة منهم من شاطبة ، وفيهم بعض الفتيان البارزين مثل خيران وعنبر ، فأتمروا على الغدر بالمهدى ، وأخرجوا هشاماً من محبسه بالقصر ، وأجلسوه للخلافة ونادوا بولايته ، وأتوا بالمهدى بين يديه ، فضرب عنقه ، واحتز رأسه ، وألقى بجسده من أعلى السطح ، ورفعوا رأسه على قناة طيف بها فى الشوارع ، ووقعت هذه الجريمة فى الثامن من ذى الحجة سنة ٤٠٠ هـ ( ٢٣ يوليه ١٠١٠ م )[٣] .

وهكذا استرد هشام المؤيد الخلافة ، بعد سلسلة من الخطوب والأحداث المثيرة ، وكان يومئذ كهلا فى نحو السابعة والأربعين من عمره ، وكان قد مضى

---

( ١ ) وبالإسبانية Ouadiaro

( ٢ ) البيان المغرب ج ٣ ص ٩٦ ؛ وأعمال الأعلام ص ١١٣ .

( ٣ ) ابن خلدون ج ٤ ص ١٥٠ ؛ وابن الأثير ج ٨ ص ٢٢٦ ؛ والذخيرة القسم الأول ، المجلد الأول ص ٣٢ ؛ والبيان المغرب ج ٣ ص ٩٦ و ٩٩ و ١٠٠ .

عليه مذ ولى الخلافة صبياً لأول مرة أربعة وثلاثون عاماً ، وفى تلك الفترة شهدت الأندلس طائفة من الأحداث الجسام ، لم تشهد مثلها من قبل : شهدت قيام الحاجب المنصور ودولته العامرية ، واختفاء سلطة الخلافة ، فى ظل نظام الطغيان المرهق الذى فرضه بنو عامر ، ثم شهدت الثورة الغامرة التى أطاحت بالدولة العامرية وعود الخلافة الأموية فى ثوبها الباهت المهلهل ، على يد مغامرين مثل محمد بن هشام المهدى ، وسليمان المستعين ، وشهدت وفاة هشام المزعومة ، ثم بعثه ، وعوده إلى تولى الخلافة ، شبحاً من أشباح الماضى ، وألعوبة فى يد واضح وزملائه الفتيان العامريين ، أصحاب الحول والسلطان ، بعد ابتعاد البربر ومصرع المهدى .

وتولى واضح بالطبع منصب الحجابة للخليفة الذى اصطنعه ، وسكنت الفتنة ، وهدأت الخواطر نوعاً ، وبعث الخليفة برأس المهدى إلى سليمان المستعين وحلفائه البربر ، وكتب إليهم يدعوهم إلى طاعته ، وأخذ يظهر فى شوارع قرطبة خلافاً لما كان عليه فيما مضى ، إظهاراً لهيبة الخلافة وسلطانها . ولكن البربر لم يقبلوا دعوته ، وأبدوا تمسكهم بولاية سليمان ، وكان البربر فى الواقع يضطرمون حقداً على أهل قرطبة لما أصابهم منهم من أنواع النكال ، ويزمعون الانتقام منهم بكل وسيلة . وحاول سليمان والبربر أن يحصلوا مرة أخرى على معاونة سانشو غرسيه أمير قشتالة ، وعرضوا أن يسلموه سائر الحصون الأمامية التى افتتحها الحكم والمنصور ، إذا ارتضى محالفتهم ومعاونتهم على استعادة قرطبة ، وخلع المؤيد ، ولكن سانشو لم يصغ إليهم فى تلك المرة ، معتزماً أن يوجه مطالبه إلى الخليفة القائم . وعندئذ عول البربر على السير إلى قرطبة ، فسارت جموعهم حتى وصلت إلى الزهراء غربى قرطبة ، فهاجموها وقتلوا معظم الجند الذين بها ، واحتلوها وذلك فى شهر ربيع الأول سنة ٤٠١ هـ (نوفمبر سنة ١٠١٠ م) ، واستمروا بها بضعة أشهر حتى أواخر شعبان من تلك السنة ، ثم زحفت جموعهم على أرباض قرطبة ، يعيثون فيها تخريباً ونهباً وقتلا ، ويجتنبون الاشتباك مع جند واضح ، وضج أهل قرطبة لهذا الاعتداء ، وزادت نفوسهم حقداً على البربر ، وتحرقاً للانتقام منهم ، وانتشرت جموع البربر فى نفس الوقت جنوباً ، حتى وصلت إلى أحواز غرناطة ومالقة وهى تنشر الخراب والدمار أينما حلت .

وفى تلك الأثناء وصل سفراء سانشو غرسية أمير قشتالة إلى قرطبة ، يطالبون بالحصون الواقعة على الحدود ، والتى افتتحها المسلمون منذ أيام الحكم حتى نهاية عهد بنى عامر. ولم ير هشام وواضح بداً من إجابة سانشو إلى طلبه ، اتقاء لعدوانه من جهة ، واتقاء لتحالفه مع البربر من جهة أخرى . وعقد مجلس من الفقهاء والقضاة ، وكتب محضر رسمى بتسليم عدد كبير من الحصون إلى النصارى ، يقال إنها أربت على المائتين[1] ، ومنها معاقل هامة ، كانت قواعد أمامية للمسلمين ، مثل شنت إشتيبن ، وقلونية ، وأوسمة ، وغرماج وغيرها ، وخسرت الأندلس بذلك خط دفاعها الأول ، وتركت حدودها الشمالية مفتوحة لغزوات النصارى .

واستمر البربر على حصارهم لقرطبة ، وعيثهم فى أرباضها الخارجية ، وكانت الحالة تسوء من يوم إلى يوم ، وكان الناس فى قرطبة ، جيشاً وشعباً ، يزمعون مقارعة البربر ، والقضاء عليهم بكل ما وسعوا ، ويرفضون كل رأى أو مسعى يتجه إلى مسالمتهم أو التفاهم معهم ، ولم يجد المؤيد وواضح بداً من الانسياق مع التيار العام ، واتخاذ كل وسيلة ممكنة للدفاع عن المدينة ، ولكن الموارد كانت تقل يوماً عن يوم ، حتى اضطر المؤيد إلى إخراج سائر نفائس القصر وتحفه ورياشه ، ليقتنى بثمنها الخيل والسلاح ، وفضلا عن ذلك فقد أرهق القرطبيون بالمطالب والمغارم حتى ضاقوا ذرعاً ؛ وأخيراً شعر واضح بأنه يواجه حالة مستحيلة ، واعتزم أن يغادر قرطبة سراً ، إلى بعض نواحى الثغر ، ولكن بعض أكابر الجند وقفوا على مشروعه ، فنهض أحدهم ، وهو على بن وداعة مع نفر من زملائه ، فعاتبوه على ما بدد من الأموال ، وما أساء من تصرف ، ثم قتلوه واحتزوا رأسه ، وطيف بها فى الشوارع ، ونهبت دوره ودور أصحابه ، فوجد بها مال كثير معبأ كان يعتزم الفرار به . وهكذا كفر واضح بدمه عن جريمته فى اغتيال المهدى ، وهكذا أضحت الجريمة وسيلة ذائعة فى بلاط قرطبة ، لاقتناص السلطان أو التخلص من صاحبه[2] .

وعلى أثر ذلك ولى المؤيد ابن وداعة شرطة المدينة ، فاستعمل الحزم والشدة ، فى قمع الشغب وصون النظام والأمن ، فهابته العامة ، وقلت حوادث الشغب ، وتولى تدبير الأمور للمؤيد رجل من موالى العامريين يسمى ابن مناو ؛ ثم جاءت

(١) أعمال الأعلام ص ١١٧ .

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ١٠٣ و ١٠٤ ؛ وأعمال الأعلام ص ١١٧ و ١١٨ .

إلى قرطبة كتب من أهل الثغور يعتذرون فيها عن عجزهم عن إرسال الأمداد ، وينصحون المؤيد إما بمصالحة البربر ، أو التفاوض مع أمير قشتالة ؛ فكتب هشام إلى زاوى بن زيرى يحثه على عقد الصلح ، ويعده بما شاء من مال أو ولاية ، فرد زاوى بأنه لايستطيع مخالفة أصحابه ، وأنه مع ذلك لايدخر وسعاً فى العمل لتأليف كلمة المسلمين وحقن الدماء[1] .

ثم بذلت محاولة مماثلة لدى سليمان بن الحكم والبربر ، إذ كتب أهل قرطبة على لسان هشام وابن مناو كتابين ، وجه أحدهما من هشام إلى سليمان ، وفيه يرجو العمل على إخماد الفتنة ، وتسليم الأمر إليه ، وعلى أن يغدو سليمان ولى عهده والقائم بأعباء الخلافة عنه ، ووجه الثانى من وزراء قرطبة إلى وزراء البربر ، فلم يحفل سليمان بكتاب هشام ، وقال للرسل بل إنه هو أمير المؤمنين والخليفة ، وأنه لا يعترف لهشام بصفة ما .

كل ذلك والأمر يشتد على أهل قرطبة . ودخل الوزراء ووجوه الجند والفتيان على هشام ، وكشفوا له خطورة الحالة ، واشتداد ضغط البربر على المدينة وأرباضها ، وتفاقم الضيق والغلاء ، وقصور الثغور عن إنجاد المدينة ، وكون الشعب منقسم على نفسه ما بين راغب فى الكفاح ، وراغب فى الصلح ، فبكى هشام فيما قيل ، واعتذر لعجزه وقصوره ، وقال لهم افعلوا ما ترون .

وعجل باضطرام النار حادث وقع فى آخر ذى الحجة سنة ٤٠٢ هـ ، إذ تقدم جماعه من وجوه البربر وفى مقدمتهم حباسة بن ماكسن ابن أخى زاوى ، وكان من أشجع قادة البربر ، ومعه جماعة قليلة من الفرسان ، ونزلوا فى بقعه قريبة من الأسوار ، فرآهم أهل قرطبة من وراء الخندق ، فاجتمع منهم عدد عظيم ، وانقضوا على حباسة وصحبه ، فدافعوا عن أنفسهم دفاعاً عظيماً ، ولكنهم غلبوا فى النهاية على أمرهم ، وأسر حباسة ، فلماعرفه القوم قتلوه بوحشية ، وقطعوا جسده إرباً لعظيم حقدهم عليه ، ولما قاسوه من شدة قتاله ونكايته ، فلما وقف أخوه حبوس وعمه زاوى على الخبر ، اضطرب البربر ، واستعدوا للقتال ، وفى اليوم التالى اشتبكوا مع أهل قرطبة فى عدة معارك ، وفتكوا بكثير منهم ،

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ١٠٧ و ١٠٨ .

واستمرت المعارك من ذلك الحين بين الفريقين سجالا ، وأهل قرطبة يخرجون من المدينة مرة بعد أخرى ، ويقاتلون البربر محاولين تحطيم الحصار المرهق ، والبربر من جانبهم ينزلون بهم أشد الضربات . وفى ٢٦ شوال سنة ٤٠٣ هـ ( مايو سنة ١٠١٣ م ) نشبت بين الفريقين معركة عامة ، وقاتل أهل قرطبة قتالا شديداً ، ولكنهم هزموا بعد معارك طاحنة ، وقتل منهم عدد جم ، وساد الاضطراب أرجاء المدينة ، وفتحت أبوابها ؛ وخرج القاضى ابن ذكوان مع جماعة من الفقهاء وساروا إلى معسكر البربر ، وطلبوا الأمان من سليمان وزعماء القبائل البربرية ، فمنح الأمان لقاء مبالغ عظيمة فرضت على المدينة ، ودخل البربر المدينة دخول الوحوش المفترسة ، فقتلوا كثيراً من سكانها ، ولم يفروا الأطفال والشيوخ ، وأوقعوا بها السلب والنهب ، وأحرقوا الدور ، واغتصبوا النساء والبنات ، وارتكبوا أشنع ضروب السفك والإثم ، وكانت محنة من أروع ما قاسته عاصمة الخلافة .

وفى اليوم التالى دخل سليمان المستعين قصر قرطبة ، واستدعى هشاماً المؤيد وعنفه على موقفه ، فاعتذر بأنه مغلوب على أمره . وهنا تختلف الرواية فى مصير هشام ، فالبعض يقول إن سليمان أخفاه حيناً ، ثم قتله ولده محمد بن سليمان ، والبعض الآخر بأنه فر من محبسه ، وقصد إلى ألمرية حيث عاش حيناً فى خمول وبؤس حتى توفى . بيد أننا نرجح الرواية الأولى ، وإن كان اسم هشام سوف يظهر بعد ذلك على مسرح الحوادث .

ولما استتب الأمر لسليمان ، وهدأت الخواطر نوعاً ، تلقب بالظافر بحول الله مضافاً إلى المستعين ، وانتقل إلى مدينة الزهراء بحاشيته وقواد البربر وجندهم ، فاحتلوها وما حولها ؛ ونزل على والقاسم ابنا حمود قائدا فرقة العلوية بشقندة ضاحية قرطبة ، وأخذ سليمان ينظم شئون الحكومة المضطربة . وكانت الفوضى قد سرت إلى جميع النواحى ، وتفككت عرى الدولة ، وقصر نفوذ الحكومة إلا عن قرطبة وما يجاورها ، وقبض البربر الذين رفعوا سليمان إلى العرش ، على السلطة الحقيقية ، فتولوا مناصب الحجابة والوزارة ، وسائر المناصب الهامة ؛ ورأى سليمان إرضاء لهم من جهة ، لهم وإبعاداً عن قرطبة من جهة أخرى ، أن

---

( ١ ) راجع فى سقوط قرطبة ومصير هشام ، ابن خلدون ج ٤ ص ١٥١ ؛ وابن الأثير ، ج ٩ ص ٧٥ والمراكشى ص ٢٢ — ٢٥ ؛ وأبو الفدا ج ٢ ص ١٣٩ ؛ والبيان المغرب ج ٣ ص ١١٢ و ١١٣ ؛ وأعمال الأعلام ص ١١٨ — ١٢٠ .

يقطعهم كور الأندلس ، وكانوا ست قبائل رئيسية ، فأعطى قبيلة صنهاجة وزعماؤها بنى زيرى ، ولاية إلبيرة ( غرناطة ) ، وأعطى مغراوة جوفى البلاد ، وبنى برزال وبنى يفرن ولاية جيان ومتعلقاتها ، وبنى دُمَّر وازداجة منطقة شذونة ومورور ؛ وأقر المنذر بن يحيى التجيبى على ولاية سرقسطة والثغر الأعلى ، وكان قد انضم إلى سليمان ، وحارب مع البربر من أجل قضيته ، وولى بنى حمود الأدارسة ثغور المغرب ، فولى علياً بن حمود على ثغر سبتة ، وأخاه القاسم بن حمود على ثغور الجزيرة الخضراء ، وطنجة وأصيلا ، وهكذا سيطر البربر على ولايات الأندلس الجنوبية والوسطى ، وأخذوا يحتلون فى شئونها مكانة لها خطرها(١) .

وكان الفتيان العامريون لما رأوا غلبة البربر على حكومة قرطبة الجديدة ، قد توجسوا من غدرهم ، وفر معظمهم إلى شرقى الأندلس ، بعيداً عن سلطان الحكومة المركزية ، وأنشأوا هنالك فى القواعد الشرقية ، حكومات محلية حسبما نذكر بعد .

وقضى سليمان المستعين فى الحكم للمرة الثانية نحو ثلاثة أعوام ، استمرت خلالها حال الاضطراب والفوضى فى قرطبة وسائر أنحاء الأندلس . ولم تهدأ الخواطر ولم تطمئن النفوس . وغلب سلطان البربر ، واشتد طغيانهم وتحكمهم ، ولبثت الأهواء المتوثبة تجيش فى صدور الطامعين من زعمائهم ، حتى تمخضت غير بعيد عن انقلاب جديد فى مصاير الخلافة .

وكان من أبرز صفات سليمان ، مواهبه الأدبية الرفيعة ، فقد كان أديباً متمكناً ، وشاعراً مطبوعاً ، قال فيه ابن بسام إنه «أحد من شرَّف الشعر باسمه ، وتصرف على حكمه » وأورد له القصيدة الآتية ، وهى الوحيدة التى عثر بها من نظمه ، وفيها يعارض قطعة الرشيد « ملك الثلاث الآنسات عنانى » وفيها تبدو براعته ورقة خياله :

| | |
|---|---|
| عجباً يهاب الليث حدَّ سنانى | وأهاب لحظ فواتر الأجفان |
| فأقارع الأهوال لا متهيباً | منها سوى الإعراض والهجران |
| وتملكت نفسى ثلاث كالدمى | زهر الوجوه نواعم الأبدان |
| ككواكب الظلماء لُحن لناظرى | من فوق أغصان على كثبان |
| هذى الهلال ، وتلك بنت المشترى | حسناً وهذى أخت غصن البان |

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ١١٣ – ١١٥ ؛ وأعمال الأعلام ص ١١٩ .

حاكمت فيهن السلو إلى الصبا ... فقضى بسلطان على سلطانى

فأبحن من قلبى الحمى وتركننى ... فى عز ملكى كالأسير العانى

لا تعذلوا ملكاً تذلل للهوى ... ذل الهوى عزٌ وملك ثانى

ما ضر أنى عبدهن صبابة ... وبنو الزمان وهن من عبدانى

إن لم أطع فيهن سلطان الهوى ... كلفاً بهن فلست من مروان

وإذا الكريم أحب أمَّن إلفه ... خطب القلى وحوادث السلوان

وإذا تجارى فى الهوى أهل الهوى ... عاش الهوى فى غبطة وأمان(١)

---

(١) ابن بسام فى الذخيرة . المجلد الأول القسم الأول ص ٣٣ و ٣٤ ؛ والمراكشى ص ٢٥ .

# الفصل الثاني

## دولة بنى حمّـــود

ظهور البربر فى الميدان . على والقاسم ابنا حمود . بنو حمود ونسبتهم . ولاية الثغور بين البربر والفتيان العامريين . استيلاء البربر على قرطبة باسم سليمان . خيران العامرى ينتزع ألمرية ويدعو للمؤيد . على بن حمود يزعم أنه تلقى ولاية العهد من هشام . تحالفه مع خيران وعبوره إلى الجزيرة . مسير القوات المتحالفة إلى قرطبة . القتال بينها وبين البربر . هزيمة البربر وسليمان . على بن حمود يدخل القصر . اشتداده فى معاملة البربر . خيران يخرج عليه ويدعو لعبد الرحمن المرتضى . انضمام الثغور الشرقية وسرقسطة لهذه الدعوة . القتال بين المرتضى وصنهاجة . انتصار البربر ومقتل المرتضى . اضطهاد على لأهل قرطبة . مصرعه . أخوه القاسم يخلفه . جنوحه إلى سياسة اللين والتفاهم . غلبة البربر عليه . خروج يحيى بن على واستيلاؤه على الخلافة . التجاء القاسم إلى إشبيلية . خلع المعتلى وعود القاسم . اصطفاؤه للبربر . سخط أهل قرطبة . محاربتهم وهزيمتهم للبربر . مسير القاسم إلى إشبيلية ثم إلى شريش . يحيى المعتلى يطارده ويأسره . إستقرار المعتلى فى الثغور الجنوبية . رد الأمر لبنى أمية . خلافة عبد الرحمن المستظهر . وصف ابن حيان لبلاطه . عطفه على البربر . فتك القرطبيين بهم . فرار المستظهر ومصرعه . خلافة المستكفى . إضطهاده للزعماء . خلعه وفراره . يحيى بن حمود يحتل قرطبة . فتك القرطبيين بالحامية البربرية . رد الأمر لبنى أمية . بيعة هشام المعتد بالله . وزيره حكم بن سعيد . سوء مسلكه ومصرعه . خلع هشام ومصيره . الإجماع على إبطال الخلافة والتخلص من بنى أمية . استيلاء يحيى المعتلى على قرمونة . الحرب بينه وبين ابن عباد . هزيمة يحيى ومصرعه . خلافة إدريس المتأيد بالله . غزو إدريس وحلفائه لأحواز إشبيلية . الحرب بين زهير العامرى وباديس أمير غرناطة . مصرع زهير . الحرب بين ابن عباد والبربر . هزيمة ابن عباد ومقتل ولده إسماعيل . وفاة إدريس وخلافة ولده يحيى . خروج حسن بن يحيى ومبايعته بالخلافة . مقتل الوزير ابن بقنه . مصرع حسن . محاولة الحاجب نجا ومصرعه . خلافة إدريس العالى . الثورة عليه وخلعه . خلافه محمد بن إدريس المهدى . طغيانه والسخط عليه . مصرعه . خلافة إدريس السامى . عودة إدريس العالى . خلافة المستعلى . إستيلاء باديس على مالقة . حكومة بنى القاسم بن حمود بالجزيرة . إستيلاء ابن عباد على الجزيرة . إنقراض دولة بنى حمود . تفكك الأندلس وانقسامها .

لما قضى على دولة الأدرسة بالمغرب الأقصى أيام الحكم المستنصر ، ثم بعد ذلك أيام المنصور بن أبى عامر ، وأصبح المغرب ولاية أندلسية تخضع لحكومة قرطبة ، تفرق كثير من زعمائه فى مختلف الجهات ، ولاذوا بالاختفاء ، بعيداً عن بطش السلطة الجديدة ، وأخذوا يرقبون الفرص لاستعادة سلطانهم ؛ وهاجر

عدد كبير منهم إلى الأندلس ، من البربر والمغاربة ، وانضووا تحت لواء الدولة العامرية فى أواخر عهدها ، وعاونوا فى توطيد سلطانها وتدعيم جيشها .

ولما انهارت الدولة العامرية ، وعم الاضطراب والفوضى فى قرطبة ، ظهر البربر طرفاً بارزاً من أطراف المعركة ، التى اضطرمت حول السلطان والخلافة ؛ ولما نجح بنو أمية فى تحقيق ضربتهم الأولى على يد محمد بن هشام المهدى ، انحاز البربر للفريق المعارض ، لما نالهم من مطاردته واضطهاده ، وكانت الخصومة تضطرم فى الواقع منذ بعيد بين الأمويين والبربر ، لاعتقاد الأمويين أن البربر كانوا أكبر عضد للمنصور ، فى اغتصاب السلطة والقضاء على سلطان بنى أمية . ولما فشل البربر فى محاولتهم الأولى للقضاء على رياسة المهدى ، التفوا حول خصيمه سليمان المستعين ، ليكون مرشحهم الشرعى ، ووسيلتهم إلى انتزاع السلطة ، وانتهى الصراع بين الفريقين ، آخر الأمر بانتصار البربر ، واستيلاء مرشحهم سليمان على الخلافة ، وحصولهم على نصيبهم من أسلاب السلطة ، بتولى رياسة الولايات والثغور الجنوبية .

وكان من بين الزعماء المغاربة ، الذين قادوا جموع البربر فى معركة قرطبة المظفرة ، رجلان من عقب الأدارسة ، هما على والقاسم ابنا حمُّود بن ميمون ابن حمود . ونحن نعرف أن الأدارسة يرجعون نسبتهم إلى الحسن بن على بن أبى طالب ؛ وإذاً ، فقد كان على والقاسم ، وفقاً لهذا القول ، علويين من سلالة آل البيت . وهذا ما يقوله العلامة النسابة ابن حزم ، إذ يرجع نسبة على والقاسم ، إلى إدريس بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن على[1] ، ويقوله أيضاً عبد الواحد المراكشى وابن عذارى ، وابن الخطيب[2] .

بيد أنه بالرغم من هذه النسبة العلوية ، وهذه الأرومة العربية العريقة ، التى ينتحلها بنو حمود ، فإنهم ، إذا تركنا مسألة النسبة والسلالة جانباً ، كانوا ينتمون فى الواقع من حيث النشأة والعصبية والمصير ، إلى البربر ، وكان الطابع البربرى غالباً عليهم ، حتى أنهم لم يكونوا يتكلمون العربية ، وإنما كانوا يتكلمون باللهجة البربرية ، وقد أشار ابن الخطيب إلى ذلك فى حديثه عن على بن حمود[3] .

---

(١) راجع جمهرة أنساب العرب (القاهرة) ص ٤٣ و ٤٤ .

(٢) المراكشى فى المعجب ص ٢٤ ؛ وابن عذارى فى البيان المغرب ج ٣ ص ١١٩ ؛ وابن الخطيب فى أعمال الأعلام ص ١٢٨ .

(٣) أعمال الأعلام ص ١٢١ .

وقد رأينا أن سليمان المستعين حينما استرد الخلافة ، عقب انتصار البربر على أهل قرطبة ، خص علياً والقاسم ، بولاية الثغور المغربية ، وندب علياً لحكم سبتة ، وندب القاسم لحكم الجزيرة الخضراء وطنجة وأصيلا ، وذلك فى أوائل سنة ٤٠٤ هـ (١٠١٣ م) .

وفى الوقت الذى استولى فيه البربر ، على الولايات والثغور الجنوبية ، كان الفتيان العامريون ، منذ اضطرام الفتنة ، قد استقروا بشرقى الأندلس ، واستولى كثير منهم على الثغور الشرقية ، وفى مقدمتهم مجاهد الذى استولى على دانية والجزائر الشرقية فيما بعد ، وخيران ، الذى استولى على ألمرية ومرسية . وكان خيران حينما استولى محمد بن هشام المهدى على الخلافة للمرة الثانية ، بمؤازرة واضح والجند النصارى ، وتولى واضح منصب حجابته ، قد عاد إلى قرطبة مع نفر من الفتيان العامريين ، وانضموا إلى وضح ثم اشتركوا معه فى تدبير اغتيال المهدى ، وإعادة هشام المؤيد إلى كرسى الخلافة حسبما تقدم . وكان أولئك الفتيان يعتبرون هشاماً إمام دولتهم بعد ذهاب المنصور . فلما قتل واضح واستولى البربر على قرطبة ، وانتزع سليمان المستعين الخلافة من هشام المؤيد ، غادر خيران ومعه عدة كبيرة من الفتيان قرطبة ، اتقاء بطش البربر ، وسار إلى شرقى الأندلس ، وانضم إليه حال سيره كثير من الناقمين من بنى أمية وغيرهم ، ثم زحف على ألمرية ، وكانت بيد أفلح الصقلبى ، فانتزعها منه ، واستولى على كثير من الأماكن المجاورة ، واشتد بأسه فى تلك الناحية ، ودعا لهشام المؤيد .

وكان تمزق الأندلس على تلك الصورة ، وانتثار السلطة بين الأمويين والبربر ، والفتيان العامريين ، مما يفسح المجال لأطماع الطامعين والمتغلبين ، وكانت تلك الأطماع تجيش فى الواقع ، فى صدور أولئك الذين رأوا فى ضعف السلطة المركزية ، وذيوع الخلاف والفوضى ، فرصة تمكن انتهازها . وكان على ابن حمود الحسنى ، قد ولى حكم سبتة ، وولى أخوه الأكبر القاسم ، حكم الجزيرة الخضراء ، لا يفصلهما سوى مضيق جبل طارق . وكان على يطمح إلى أكثر من حكم مدينة ، ويتطلع إلى الوثوب بحكومة قرطبة المضطربة المتداعية . وكان يرى فى الفتيان العامريين خصوم سليمان المستعين حلفاءه الطبيعيين ، فكاتب كبيرهم خيران صاحب ألمرية ، وأظهر كتاباً زعم أنه تلقاه من الخليفة هشام المؤيد يوليه

فيه ولاية عهده ، ويطلب إليه أن ينقذه من أسر البربر وسليمان ؛ ويقول لنا ابن حيان ، إن هشاماً المؤيد لما رأى اضطراب أمره وتصرم دولته ، قد منح على ابن حمود ولاية عهده ، وأوصى إليه بالخلافة من بعده ، وأرسل إليه ذلك بسبتة سراً ، وولاه طلب دمه ، واستكتمه السر حتى يحين الأوان لذلك(١) .
فذاعت دعوة على ، ولباها بعض حكام الثغور الجنوبية مثل ، عامر بن فتوح الفائقى مولى الحكم المستنصر ووزير ولده المؤيد ، وكان يومئذ حاكماً لمالقة . وكتب إليه خيران أن يعبر إليهم . فعبر على من سبتة إلى الجزيرة الخضراء فى أواخر سنة ٤٠٦ هـ (١٠١٦ م) وسار فى أشياعه من البربر إلى مالقة ، فسلمها إليه عامر ابن فتوح ، ودعا له بولاية عهد المؤيد حالة ظهوره حياً ، وسار خيران فى قواته والتقى بعلى فى ثغر المنكب الصغير ، ما بين مالقة وألمرية ، فجمع الزعيمان قواتهما ونظما خطتهما للزحف على قرطبة ، وبويع على بن حمود على طاعة المؤيد . ثم سارت القوات المتحدة صوب قرطبة ، وانضم إليها خلال السير زاوى بن زيرى وحبوس الصنهاجى فى قوة من بربر غرناطة . وكان سليمان المستعين ، قد ترامت إليه أنباء أولئك الخوارج عليه ، وزحفهم لقتاله ، فخرج من قرطبة للقائهم فى جند البربر ، والتقى الفريقان فى ظاهر قرطبة على قيد عشرة فراسخ منها ، ونشبت بينهما معركة شديدة ، انتهت بهزيمة سليمان ، وقتل عدد جم من أنصاره ، وكان سليمان وأبوه الحكم ، وأخوه عبد الرحمن ، بين الأسرى .

ودخل على بن حمود قصر قرطبة فى الثامن والعشرين من محرم سنة ٤٠٧ هـ ( أول يوليه سنة ١٠١٦ م) وبحث عن هشام المؤيد فلم يجده ، وكان الاعتقاد سائداً بأن سليمان أخفاه ولم يقتله ، فلما علم بأنه قُتِل ، أتى بسليمان وأبيه وأخيه وقتلهم بنفسه انتقاماً للمؤيد . ثم أعلن وفاة المؤيد ، ودعا إلى البيعة لنفسه ، فبويع بالخلافة وتلقب بالناصر لدين الله ، وكانت مدة خلافة سليمان الثانية منذ دخل قرطبة إلى أن قتل ثلاثة أعوام وبضعة أشهر ، وكانت أمه أم ولد تدعى ظبية ومولده فى سنة ٣٥٤ هـ(٢) .

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ١١٤ و ١١٦ .

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ١١٦ و ١١٧ و ١١٩ و ١٢٠ ؛ وابن خلدون ج ٦ ص ٢٢١ وج ٤ ص ١٥٣ ؛ والمراكشى ص ٢٤ ؛ وأعمال الأعلام ص ١٢٩ ؛ ونفح الطيب ج ٩ ص ٢٢٤ ، وجذوة المقتبس ص ٢٠ .

وهكذا اختتمت الدولة الأموية حياتها بالأندلس بعد أن عاشت منذ عصر الإمارة حتى نهاية عصر الخلافة مائتين وثمانية وستين عاماً ، وانهارت دعائم الخلافة الأموية نهائياً ، بعد أن لبثت منذ عصر هشام المؤيد أربعين عاماً ، ستاراً للمتغلبين من بنى عامر ، ثم شبحاً هزيلا يضطرب فى غمر الفتنة والفوضى .

ولما قبض على بن حمود على زمام الحكم ، اشتد فى معاملة البربر ، وإخماد تمردهم وشغبهم ، وحماية السلطة المركزية من عدوانهم ، فهابوه ولزموا السكينة ، وقضى بمنتهى الشدة على كل نزعة إلى الخروج والعصيان ، وفتك بالمعارضين له ، سواء فى ذلك العرب أو البربر ، وأذل الزعماء واستأثر بالسلطة . وحاول من جهة أخرى أن يحسن معاملة القرطبيين ، وأن يقيم العدل ، ويقمع الفوضى ، وكان من معاونيه فى الحكم ، جماعة من أولياء الخلافة السابقين مثل أبى الحزم بن جهور ، وأحمد بن برد وغيرهما .

على أن الحوادث ما لبثت أن تطورت بسرعة . ذلك أن خيران العامرى ، لما دخل قرطبة مع على بن حمود ولم يجد الخليفة هشاماً المؤيد على قيد الحياة ، خشى سطوة الناصر وغدره ، فغادر قرطبة ، معلناً الخلاف ، وسار إلى شرق الأندلس حيث يحتشد معظم الزعماء العامريين وأنصارهم ، وأعاد الدعوة لبنى أمية فى شخص مرشح جديد منهم ، هو عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله ابن عبد الرحمن الناصر ، باعتباره أصلح من بقى منهم ، وكان قد فر خفية من قرطبة إلى جيان ، فاستدعاه خيران وبايعه وجمع كبير من أصحابه بالخلافة ، ولقبوه بالمرتضى ، وانضم إليهم فى تلك الحركة المنذر بن يحيى التجيبى والى سرقسطة والثغر الأعلى ومعه قوة من المرتزقة النصارى ، وكذلك ولاة شاطبة وبلنسية وطرطوشة وألبونت وغيرها . وأعلن المرتضى الخلاف على الناصر ، وسار فى جموعه أولا إلى غرناطة ليحارب جيش صنهاجة القوى ، فلقيه أميرها زاوى بن زيرى فى قواته ونشبت بينهما معركة طاحنة استمرت أياماً ، وانتهت بهزيمة أهل الأندلس ، ومقتل المرتضى ، وتمزق جموعه ، وسقوط معسكره فى أيدى البربر . وفى رواية أخرى أن المرتضى استطاع الفرار ناجياً بحياته ، فبعث خيران فى أثره بعض أعوانه فقتلوه على مقربة من وادى آش ، وحملوا رأسه إلى خيران . وكان خيران والمنذر قد حقدا عليه لما رأيا من حدته وصرامة نفسه ، وخشيا من غدره[1].

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ١٢٧ .

وسار خيران وللنذر فيمن بقى من أصحابهما ولحقا بألمرية . وسار الإفرنج المرتزقة حلفاء المنذر إلى الشمال . قال ابن حيان « فحل بهذه الوقيعة على جماعة الأندلس مصيبة أنست ماقبلها ، ولم يجتمع لهم جمع بعد ، وأقروا بالإدبار ، وباءوا بالصغار » واستطاع أخ للمرتضى ، وهو أبو بكر هشام بن محمد ، أن ينجو من الموقعة ، فى بعض أصحابه إلى ألبونت ، حيث دعا لنفسه بالخلافة ، وأقام بها يرقب الحوادث[1] .

وتغفل معظم الروايات الإسلامية تاريخ هذه الموقعة ، ولكن الظاهر من سياق الحوادث ، ومما ذكره صاحب البيان المغرب ، أن سير المرتضى من شرقى الأندلس صوب قرطبة ، كان فى سنة ٤٠٩ هـ[2] ، وأن الموقعة حدثت فى أواسط هذا العام ، وفى خلافة القاسم بن حمود ، بعد مقتل أخيه على حسبما يجىء .

وكان على بن حمود ، حينما ترامت إليه أنباء خروج المرتضى ومسيره لقتاله ، قد انقلب على أهل قرطبة خشية من غدرهم ، ولما آنسه من ميلهم إلى المرتضى ، وعاد فأطلق يد البربر ، واشتد على أهل قرطبة ، ونزع سلاحهم ، واعتقل كثيراً من أعيانهم ، وفى مقدمتهم وزيره أبو الحزم بن جهور ، وصادر أموالهم ، وهبت على القرطبيين ريح من الإرهاب والروع فلزموا السكينة حيناً[3] .

ولكن القدر كان يتربص بعلى بن حمود ؛ ذلك أنه بينما كان يتأهب لقتال خصومه ، المجتمعين يومئذ فى منطقة جيان حول راية المرتضى ، إذ ائتمر به نفر من فتيان القصر الصقالبة من موالى بنى أمية ، وتسلل ثلاثة منهم إليه وهو فى الحمام وقتلوه ، وذلك فى الثانى من ذى القعدة سنة ٤٠٨ هـ ( ٢٣ مارس سنة ١٠١٨ م ) ، وكان سنه وقت مقتله خمس وخمسون سنة ، ولم يمكث فى الخلافة سوى عام وتسعة أشهر .

فبعث زعماء زناتة إلى أخيه القاسم بنبأ موته ، وكان يكبره ببضعة أعوام ، وكان يومئذ والياً لإشبيلية ، فحضر مسرعاً ، وبويع بالخلافة فى الثامن من ذى القعدة ، أعنى لستة أيام من مقتل أخيه ، وتلقب بالمأمون ، وقبض على الفتيان

---

( ١ ) البيان المغرب ج ٣ ص ١٢٥ و ١٢٦ و ١٢٧ .

( ٢ ) البيان المغرب ج ٣ ص ١٢٥ . وذكر ابن الخطيب وحده أن الموقعة حدثت بالفعل فى سنة ٤٠٩ هـ ( أعمال الأعلام ص ١٣١ ) .

( ٣ ) البيان المغرب ج ٣ ص ١٢٣ ؛ وأعمال الأعلام ص ١٢٩ .

الثلاثة الذين قتلوا أخاه وأعدمهم لوقته . وكان يحيي بن على ، ولد الخليفة القتيل والياً على سبتة ، وولده الآخر إدريس والياً على مالقة ، فاختلف البربر فى البداية على مسألة الخلافة ، ولكن أكثرهم انضم إلى جانب القاسم لأنه غبن أولا ، وقدم عليه أخوه الأصغر .

وهكذا استتب الأمر للقاسم ، فعدل عن سياسة الشدة إلى سياسة اللين والمسالمة ، وأحسن إلى الناس ونادى بالأمان وبراءة الذمة ممن تسور على أحد ، وأسقط كثيراً من المكوس . فهدأت الخواطر ، واطمأن الناس نوعاً ، وكانت حركة المرتضى قد وصلت خلال ذلك إلى ذروتها ، ووقعت الحرب بين جموع المرتضى وحليفه خيران والمنذر بن يحيي التجيبي ، وبين قوى صنهاجة على مقربة من غرناطة ، وانهزم أهل الأندلس وقتل المرتضى ، وبعث زاوى بن زيرى إلى القاسم بما وقع مع سهمه من الغنائم ، ومنها سرادق المرتضى ، فسر القاسم لذلك ، وعرض سرادق المرتضى على نهر قرطبة ليراه الناس[1]. وعمد القاسم إلى استمالة خيران واستعطافه ، ولكنه بقى معتصما بألمرية ، وأقطع زميله زهيراً العامرى ولاية جيان وقلعة رباح ، محاولا بذلك أن يعقد السلم مع الفتيان العامريين ، وأن يأمن خصومتهم وكيدهم .

واتخذ القاسم بطانة من السود ، وأسند إليهم مناصب الرياسة والقيادة ، ولكنه لم يتخلص من قبضة البربر وسيطرتهم عليه ، فضعف أمره وتكاثرت الصعاب من حوله . وكان ابن أخيه يحيي بن على والى سبتة ، يرقب الفرصة للخروج عليه ، فاتفق مع أخيه إدريس والى مالقة ، على أن يتركها له ، لتكون قاعدة للعمل ، وأن يستقر إدريس مكانه فى سبتة . وأخذ يحيي يحشد أنصاره تباعاً فى مالقة حتى اجتمع له جيش قوى . وفى أثناء ذلك كان عمه القاسم يشكو أمره إلى زعماء البربر ، ولكنهم عجزوا عن التوفيق بينهما ؛ وزحف يحيي فى قواته على قرطبة ، وخشى القاسم العاقبة فآثر الانسحاب على الحرب ، وغادر قرطبة إلى إشبيلية فى ٢٣ ربيع الثانى سنة ٤١٢ هـ ( أغسطس سنة ١٠٢٢ م ) ، وضبط البربر القصر حتى مقدم أخيه يحيي .

ودخل يحيي بن على بن حمود قرطبة بعد ذلك بأيام قلائل ، فى مستهل جمادى

---

(١) أعمال الأعلام ص ١٣١ .

الأولى سنة ٤١٢ هـ . وبويع بالخلافة ، وتلقب بالمعتلى بالله ، وكان فى الثانية والأربعين من عمره . واستقبل البربر والأندلسيون معاً رياسته بالاستبشار والرضى . وكان المعتلى فارساً بارعاً يتحلى بخلال الفروسية ، ويجانب العصبية ، ويؤثر العدل ، ويجزل العطاء لمن وفد عليه ، أومدحه بشعره ، فأحبه الناس ؛ وكان من وزرائه أبو العباس أحمد بن برد ، والكاتب محمد بن الفرضى ، ولكنه وقع مثل عمه القاسم تحت نفوذ البربر وإمرتهم ، فاستبدوا به ، وضيقوا عليه .

وكان القاسم بن حمود أثناء ذلك قد استقر فى إشبيلية ، وتسمى بالخلافة ، وتلقب بالمستعلى ، وأخذ يرقب سير الحوادث . ومن الغريب أن القاسم وابن أخيه يحيى ، تهادنا واتفقا على أن يعترف كلاهما بصفة صاحبه . ويعلق الفيلسوف ابن حزم على ذلك بأنه لم يسمع بخليفتين تصالحا « وهو أمر ، لم يسمع فى الدنيا بأشنع منه ، ولا أدل على إدبار الأمور »(١) .

على أن هذا الوضع الشاذ لم يدم طويلا . ذلك أن البربر أعلنوا خلع يحيى المعتلى فى الثانى عشر من ذى القعدة سنة ٤١٣ هـ ، ولم يكن قد مضى على خلافته سوى عام ونصف ، فبادر يحيى بمغادرة قرطبة إلى مالقة . وفى الحال تحرك عمه القاسم من إشبيلية تلبية لدعوة البربر ، ودخل قرطبة فى الثامن عشر من ذى القعدة المذكور ، وجددت له البيعة وتسمى بأمير المؤمنين ؛

ولكن القاسم لم يوفق فى سياسته أيضاً فى تلك المرة . ذلك أنه اصطفى البربر ، ومكنهم من أهل قرطبة ، فاشتدوا فى معاملتهم ومطاردتهم ، وضاق أهل قرطبة فى النهاية ذرعاً بتلك الحالة ، فثاروا بالبربر ، واستعدوا لقتالهم ، وأعلنوا خلع القاسم ، واستمرت المعارك حيناً حتى استطاع القرطبيون إرغام القاسم على مغادرة القصر ، وذلك فى جمادى الثانية سنة ٤١٤ هـ ( سبتمبر سنة ١٠٢٣ م ) . فانقلب البربر إلى محاصرة المدينة بعد أن أغلق القرطبيون أبوابها . واستمر الحصار خمسين يوماً ، والمعارك فى كل يوم تتجدد ، وأخيراً خرج القرطبيون واشتبكوا مع البربر فى معركة كبيرة حاسمة ، وقاتلوا قتال اليائسين ، حتى هزموا البربر ومزقوا جموعهم ، وتفرقت بقايا البربر وانفضت عن القاسم ، فسار القاسم فى نفر من صحبه إلى إشبيلية ، وكان بها إبناه محمد والحسن ، فأغلقت المدينة أبوابها دونه ،

---

(١) راجع نقط العروس ص ٨٠ ، والبيان المغرب ج ٣ ص ١٣٢ و ١٣٣ .

وأخرج منها إبناه ومن معهم من البربر ، وقام أعيان المدينة ، وعلى رأسهم قاضيها محمد بن إسماعيل بن عباد ، بضبط الأمور فيها ، وسار القاسم وصحبه إلى بلدة شريش[١].

وفى تلك الأثناء كان يحيى المعتلى ، قد سار من مالقة إلى الجزيرة الخضراء ، وكانت بها أموال عمه القاسم وأسرته فاستولى عليها ، واستولى أخوه إدريس والى سبتة ، على ثغر طنجة ، وكانت أيضاً من أعمال القاسم ، وكان يعدها ملجأ له وملاذاً يحتمى به إذا ما ذهب سلطانه بقرطبة ؛ ولما انقلب القاسم فى فلوله إلى شريش سار يحيى المعتلى لقتاله ، وحاصر شريش حتى سلمت ، وقبض على عمه وبنيه ، وحملهم فى الأصفاد إلى مالقة ، وهناك أودعهم السجن ، وانفرد يحيى برياسة البربر ، وبسط سيادته على شريش ومالقة ، وسبتة وطنجة من ثغور المغرب ، وبايعه البربر بالخلافة ، وسموه المعتلى بالله ، وبقى القاسم يرسف فى سجنه ردحاً طويلا من الزمن ، حتى قتل خنقاً فى سنة ٤٣١ هـ ، وهو فى نحو الثمانين من عمره[٢].

وكان أهل قرطبة قد سئموا عندئذ حكم البربر وأشياعهم ، وأجمعوا على رد الأمر إلى بنى أمية . وكان ثمة ثلاثة من المرشحين الذين اعتبروا أصلح من بقى من بنى أمية لتولى الخلافة ، هم سليمان بن المرتضى ، ومحمد بن العراقى ، وعبد الرحمن ابن هشام بن عبد الجبار بن الناصر لدين الله ، فقرر القرطبيون أن يختاروا أحدهم بطريق الشورى ، وعقدت لذلك جلسة كبرى بالمسجد الجامع ، حضرها الوزراء والأكابر والخاصة والعامة . وحضر سليمان المرتضى ومحمد العراقى فى البداية ، وكاد الاختيار يقع على أولهما ، وبدئ بالفعل فى تحرير مرسوم البيعة ، لولا أن حضر عندئذ عبد الرحمن بن هشام فى كبكبة عظيمة ، ومن حوله طائفة كبيرة من الجند شاهرة السلاح ، فدخل المقصورة ، وعقدت له البيعة فى الحال ، بين دهشة الحضور واضطرابهم ، وذلك فى السادس عشر من رمضان سنة ٤١٤ هـ ( ديسمبر سنة ١٠٢٣ م ) . ثم خرج من المسجد إلى القصر وقد اصطحب معه ابنى عمه سليمان والعراقى ، فاعتقلهما لديه . ويصف لنا ابن حيان هذا الحفل الشهير ، وكان من شهوده ، بإفاضة ممتعة[٣] .

---

( ١ ) البيان المغرب ج ٣ ص ١٣٤ و ١٣٥ ؛ وأعمال الأعلام ص ١٣٣ .

( ٢ ) راجع البيان المغرب ج ٣ ص ١٣٥ و ١٤٤ ؛ والمراكشى ص ٢٩ .

( ٣ ) راجع الذخيرة ، القسم الأول المجلد الأول ص ٣٥ و ٣٦ . ويقول لنا ابن حيان إن الحفل عقد فى الرابع من رمضان ، والظاهر أن هناك تحريفاً ، لأنه يقول لنا بعد ذلك عند مقتل=

واتخذ عبد الرحمن لقب المستظهر بالله، وكان يوم جلوسه فتى فى الثالثة والعشرين من عمره ، وندب للوزارة بعض القدامى من وزراء بنى أمية السابقين مثل أحمد ابن برد ، وجماعة من الفتيان الطامحين الأغمار ، مثل أبى عامر بن شهيد ، وأبى محمد ابن حزم ( وهو الفيلسوف المستقبل ) ، وابن عمه عبد الوهاب بن حزم، وقد كانا على قول ابن حيان «من أكمل فتيان الزمان فهماً ومعرفة، ونفاذاً فى العلوم الرفيعة » . فقدمهم على سائر رجاله، وأولاهم منتهى النفوذ والثقة ؛ ويورد لنا ابن حيان ثبت المناصب الوزارية والرئيسية يومئذ على النحو الآتى :

خدمة المدينتين، الزهراء والزاهرة، وخدمة كتابة التعقب والمحاسبة، وخدمة الحشم ، وخدمة القطع بالناض والطعام ، وخدمة مواريث الخاصة ، وخدمة الطراز . وخدمة المبانى ، وخدمة الأسلحة وما يجرى مجراها، وخدمة الخزانة القبض والنفقة . وخدمة الوثائق ورفع كتب المظالم ، وخدمة خزانة الطب والحكمة . وخدمة الأنزال والنزائل ، وخدمة أحكام السوق .

ثم يعلق ابن حيان على ذلك بقوله : « وهذا زخرف من التسطير وضع على غير حاصل، ومراتب نصبت لغير طائل ، تنافسها طالبوها يومئذ بالأمل ، فلم يتحلوا منها بنائل، ولاقبضوا منها مرتزقاً ، ولا نالوا بها مرتفقاً ، وغرهم بارق الطمع وسط بلد محصور ، وعمل معصوب ، وخراب مستول ، ومع سلطان فقير ، لا يقع بيده درهم إلا من صبابة ، مستغل جوف المدينة، أو نهب مغلول ممن تقلقل عنها ، يقيم منها رمقه، ويفرق جملته على من تكنفه من جنده ودائرته، ويتطرق إلى ما يقبح من ظلم رعيته، فلم يلبث الأمر أن تفرى به فسفك دمه ، وانحسم الأمل من دولته »(١) .

تلك هى الصورة القوية التى يقدمها إلينا المؤرخ الأندلسى المعاصر عن بلاط المستظهر ، وظروف ولايته . والواقع أن هذا الخليفة الفتى كان يتمتع بخلال باهرة ، وكان ممكناً أن يكون معقد الآمال ، لو أتيح له من السلطان وحرية التصرف ما طاب، ولكن الظروف عاجلته وغلبته على أمره؛ وكان قد بدأ ولايته بأن أرسل إلى المدن والثغور يدعو إلى تأييد بيعته، فلم تثمر دعوته أو لم يتسع

= المستظهر إن خلافته كانت سبعة وأربعين يوماً ، ومقتله فى الثالث من ذى القعدة . وهو ما يرد تاريخ البيعة إلى السادس عشر من رمضان ( راجع البيان المغرب ج ٣ ص ١٣٥ ) .

( ١ ) نقله فى الذخيرة . القسم الأول المجلد الأول ص ٣٦ و ٣٧ .

الوقت لذلك ، وقبض على عدد من الوزراء والأكابر وصادر أموالهم، وكان يرجو بإزالتهم تمكين نفوذه وسلطانه، ثم قبض على عدد من أبناء عمه المروانية ، واعتقلهم بالقصر مع ابنى عمه سليمان والعراقى ، وكانت هذه البوادر المكدرة تقضى على هيبته بسرعة، وتذكى السخط عليه فى صدور الخاصة والعامة معاً .
ثم وقع حادث كان نذير الاضطرام . وذلك أنه استقبل عدة من الفرسان البربر فأكرم وفادتهم وأنزلهم بالقصر ، فغضب لذلك الكبراء، وأوغروا صدور العامة قائلين لهم : إننا حاربنا البربر وقهرناهم، وهذا الرجل يسعى فى ردهم إلينا ، وتمكينهم من أمرنا . فهاجت العامة، وزحفت جموعهم على القصر، واقتحموه على غرة، وقتلوا البربر حيث وجدوا ، وفتحوا المطبق وأخرجوا من كان به من المعتقلين، ووثبوا إلى جناح الحرم ، وأدرك عبدالرحمن المستظهر أنه هالك، فاختبأ فى أتون الحمام ، واعتدى الثوار على آل عبد الرحمن وحريمه، وسبوا أكثرهن ، وكانت مناظر شنيعة مروعة[1] .

ولما اختفى المستظهر بالله ، ظهر ابن عمه محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله ابن الناصر . وكان مختفياً خشية البطش به ، فأخذ إلى القصر ، وأجلس فى مجلس الملك ، وبويع بالخلافة فى اليوم الثالث من ذى القعدة سنة ٤١٤هـ (١٧ يناير ١٠٢٤ م) ، وتلقب بالمستكفى بالله . وبحث عن المستظهر حتى عثر به فى أتون الحمام فى حالة مزرية ، فأخذ إلى حضرة الخليفة الجديد، وأعدم أمامه، وكانت إمارته مذ ولى حتى قتل سبعة وأربعين يوماً، لم يحدث فيها حدث هام، ولم يجاوز سلطانه مدينة قرطبة .

وكان عبد الرحمن المستظهر أديباً شاعراً من الطراز الأول ، وقد نوه ابن بسام بمواهبه الأدبية الرفيعة ، وأورد له طائفة من القصائد الجيدة[2] .

ومن شعره من قصيدة طويلة قالها فى ذكر ابنة عمه أم الحكم بنت المستعين أيام خطبته لها :

حمامة بنت العبشميين رفرفت ... فطرت إليها من سراتهم صقرا
تقل الثريا أن تكون لهـا يدا ... ويرجو الصباح أن يكون لها نحرا

---

(١) الذخيرة القسم الأول المجلد الأول ص٣٨ و٣٩ ، والبيان المغرب ج ٣ ص١٤٨ و١٣٩ .
(٢) راجع الذخيرة . القسم الأول المجلد الأول ص ٤٠ — ٤٣ .

وإنى لطعان إذا الخيــل أقبلت    جوانبها حتى ترى جونها شقرا
ومكرم ضيفى حين ينزل ساحتى    وجاعل وفدى عند سائله وفرا

وكان المستكفى يوم ولايته فى الثانية والأربعين من عمره إذ كان مولده فى سنة ٣٦٦هـ ، وأمه أم ولد تسمى حوراء . وكان عاطلا من الخلال الحسنة ، ميالا إلى البطالة ، شغوفاً بالمجون والشراب ، عاجزاً سيئ الرأى ، وقد شبهه ابن حزم ، فى سوء خلاله ، وفى مجونه وفسقه ، وفى خضوعه لغانية خبيثة ، بسميه المستكفى العباسى ، وقد كان كلاهما فى نفس السن ، وحكم كل منهما نحو سنة وخمسة أشهر(١) .

ولم تقع خلال ولاية المستكفى القصيرة ، أحداث ذات شأن . وكان مما عمله أن أمر بخنق ابن عمه محمد العراقى ، ونعاه للناس ، وندب لولاية عهده ابن عمه سليمان بن هشام بن عبيد الله بن الناصر . وفى أيامه هدمت القصور الناصرية ، وخربت قصور المنصور بالزاهرة ، فسادتها الوحشة والخراب .

واضطهد المستكفى معظم الرجال البارزين من الساسة القدماء ، ومن المفكرين ، وغادر كثير منهم قرطبة ، ولجأوا إلى بلاط يحيى بن حمود بمالقة ، وكان من هؤلاء الوزير السابق والشاعر اللامع أبو عامر بن شهيد ؛ ووصف هؤلاء ليحيى ابن حمود سوء الأحوال فى قرطبة . ومع أن يحيى لم يكن متحمساً لفكرة السير إلى قرطبة ، فإن الأنباء ترامت إلى القرطبيين بأنه يتخذ أهباته لاسترداد عاصمة الخلافة ؛ وعلى أى حال فقد سئم القرطبيون ولاية المستكفى العاطلة الماجنة الفاسدة ونادوا بخلعه . فدخل عليه الوزراء والكبراء ، وأغلظوا له فى القول ، وطلبوا إليه التخلى ، فاستعطفهم بلين القول ، ثم غادر قرطبة فى نفس اليوم متنكراً فى زى امرأة . وكان ذلك فى اليوم الخامس والعشرين من ربيع الأول سنة ٤١٦هـ ( مايو سنة ١٠٢٥ م ) . وسار المستكفى صوب الثغر فى نفر من صحبه ، ووصل إلى إقليج من أحواز قرطبة ، وهنالك اغتاله بعض مرافقيه ، لاعتقادهم أنه يحمل مالا . وكان مقتله لسبعة عشر يوماً فقط من خلعه(٢) .

---

( ١ ) البيان المغرب ج ٣ ص ١٤١ ، وأعمال الأعلام ص ١٣٦ .

( ٢ ) البيان المغرب ج ٣ ص ١٤٢ و ١٤٣ ؛ وأعمال الأعلام ص ١٣٦ .

ومما هو جدير بالذكر أن محمد بن عبد الرحمن المستكفى هو والد الأديبة والشاعرة الأندلسية الكبيرة « ولادة » التى اشتهرت بروعة أدبها وشعرها ، والتى أوحت إلى الوزير الشاعر ابن زيدون =

ومضت بضعة أشهر ؛ والحكومة فى قرطبة فوضى لا ضابط لها . وأخيراً قرر يحيى بن حمود أن يسير إلى العاصمة ، فقصد إليها فى قواته ودخل القصر فى الخامس عشر من رمضان من نفس العام (٩ نوفمبر سنة ١٠٢٥م) ، وبقى بها إلى نهاية هذا العام، ثم غادرها فى أوائل المحرم سنة ٤١٧هـ قاصداً إلى مالقة، وترك بها وزيريه أحمد بن موسى ، ودوناس بن أبى روح ، يدبران شئونها، ومعهما حامية صغيرة من البربر ، بيد أنه لم يمض زهاء شهرين حتى تجهمت الحوادث كرة أخرى .

ذلك أن خيران وزهير الفتيين العامريين ، قصدا إلى قرطبة ، وأوعزا إلى القرطبيين بالتخلص من البربر ، فثار القرطبيون فجأة، وفتكوا بالحامية البربرية، وكانت زهاء ألف رجل ، وفر أحمد بن موسى وزميله دوناس إلى مالقة، وكان ذلك فى العشرين من ربيع الأول من سنة ٤١٧ هـ .

وأجمع القرطبيون على أثر ذلك على رد الأمر لبنى أمية، وكان عميدهم فى ذلك الوزير أبو الحزم جَهْوَر بن محمد بن جهور ، واتفقوا على مبايعة هشام بن محمد ابن عبد الله بن عبد الرحمن الناصر ، أخى عبد الرحمن المرتضى . وكان عند مقتل أخيه فى سنة ٤٠٩هـ ، قد فر من قرطبة فى نفر من صحبه، ولجأ إلى مدينة ألبونت فى شمال شرقى الأندلس، واستظل من ذلك الحين بحماية واليها عبد الله بن قاسم الفهرى . وبعث إليه أهل قرطبة بالبيعة، وهو بمقره بحصن ألبونت ، فتلقاها فى ٢٥ ربيع الآخر سنة ٤١٨هـ ، وتلقب بالمعتد بالله، وبقى بمقره بألبونت مدة سنتين وسبعة أشهر ، وهو يخطب له بقرطبة، ثم قدم إليها فى شهر ذى الحجة سنة ٤٢٠هـ[1] فجددت له البيعة، واستمر فى كرسى الخلافة عامين آخرين . وسر القرطبيون لمقدمه فى البداية ، ولكنه ألقى زمام الأمور إلى رجل من الموالى يسمى حكم بن سعيد القزاز ، فاستأثر بكل سلطة ، وأطلقت يده فى الأموال ، وكان أخرق عسوفاً ، فجمع حوله نفراً من السفهاء العاطلين عن كل إخلاص وحزم، وأطلق العنان لغوايته وأهوائه ، فاضطربت الشئون وامتعض العقلاء ،

---

=المتيم بها طائفة من غرر قصائده . وقد لبثت ولادة عصراً تخلب بجمالها وأدبها وشعرها ألباب المجتمع القرطبى الرفيع . وتوفيت فى سنة ٤٨٤ هـ (١٠٩١ م) ( راجع الصلة لابن بشكوال رقم ١٥٤٠ ؛ وقلائد العقيان ص ٧٠ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ٤٤٧ - ٤٤٩ ) .

(١) جذوة المقتبس ص ٢٦ و ٢٧ .

وزعماء البيوتات الكبيرة ، وشعروا بما نالهم على يده من ضروب الإهانة والنيل ؛ وأحاط هذا الوزير المستبد الماجن الخليفة برجاله ، وأبعد عنه الصحب وذوى الحجى ، ودفعه بالرغم من شيخوخته ، إلى تيار الشراب والمجون ، حتى ساءت الأمور إلى الذروة ، وفقدت الخلافة والحكومة ، كل عطف وهيبة ، وتهامس الناس فى وجوب إزالة هذه الحالة ، والتخلص من أوزارها وعواقبها . والتفت جماعة الناقمين حول فتى من أبناء عمومة هشام ، هو أمية بن عبد الرحمن العراقى ، من أحفاد الناصر ، وكان فتى شديد التهور والجهالة ، ولكن بعيد الأطماع ؛ وفى ذات يوم تربصت تلك الجماعة الناقمة بالوزير حكم بن سعيد وفتكت به ، وطافت برأسه فى المدينة ، وتركوا جثته فى العراء ( ذو القعدة سنة ٤٢٢ هـ — نوفمبر سنة ١٠٣١ م ) . ثم سار أمية فى جموعه إلى القصر ، والخليفة هشام عاكف على شرابه ونسائه ، فنهبت العامة بعض أجنحة القصر ، ولولا أن زجرهم الوزير الشيخ ابن جهور ونصحهم بالكف عنه ، لما أبقوا على شىء . وخشى هشام المعتد على نفسه ، فبادر إلى الخروج من القصر مع ولده ونسائه ، وهو يناشد الجماعة أن يحقنوا دمه ، ولجأ إلى ساباط الجامع واجتمع رأى الناس جميعاً كباراً وصغاراً على خلعه ، والتخلص جملة من بنى أمية ، وإبطال رسم الخلافة ، وعلى نفى بنى أمية وإجلائهم جميعاً عن المدينة ، وكان رائد الجماعة وناصحهم فى ذلك أبو الحزم ابن جهور ، وكان هذا الوزير النابه يستأثر نظراً لماضيه التالد ، وأسرته العريقة ، ورأيه الناضج ، بمحبة الشعب وثقته وتأييده ، وسنرى فيما بعد أى دور خطير يلعبه ابن جهور فى مصاير قرطبة .

وانتهى القوم إلى خلع هشام المعتد ، وإبعاده وأهله إلى أحد الحصون القريبة ، ثم غادره بعد أيام قلائل ، وسار إلى الثغر ، حيث التجأ إلى سليمان بن هود صاحب لاردة من أعمال الثغر الأعلى ، وقضى هنالك بقية أيامه حتى توفى فى سنة ٤٢٨ هـ دون عقب ؛ وأبعد أمية بن عبد الرحمن عن القصر ، وكان يهجس بتولى كرسى الخلافة مكان المعتد ، فلما رأى وعيد القوم ، اختفى وغادر قرطبة إلى حيث لا يعلم أحد . ونودى فى سائر أحياء قرطبة وأرباضها بأن لا يبقى بها أحد من بنى أمية ، ولا يأويهم أحد ، وتولى ابن جهور تنفيذ هذا الأمر بمنتهى الحزم ، حتى أجلاهم عن المدينة ومحا رسومهم [1] .

( ١ ) راجع البيان المغرب ج ٣ ص ١٤٥ — ١٥٢ ؛ وأعمال الأعلام ص ١٣٨ — ١٤٠ .

وبخلع هشام المعتد ، تنتهى رسوم الدعوة الأموية بصورة نهائية ، وينقطع ذكرها إلى الأبد من منابر الأندلس والمغرب الأقصى .

* * *

و لنعد الآن قليلا إلى الوراء لنتتبع مصاير دولة بنى حمود فى جنوبى الأندلس ، وقد رأينا أن يحيى بن على بن حمود الملقب بيحيى المعتلى ، بعد أن خلع عمه القاسم من الخلافة ، وأرغم على مغادرة قرطبة فى سنة ٤١٤هـ ، سار إلى بلدة شريش ، فسار يحيى فى أثره ، وما زال به حتى هزمه وقبض عليه ، ثم قتل فى سجنه فيما بعد ، واستولى يحيى على سائر ما كان بيده من البلاد والثغور ، وانفرد برياسة البربر فى الأندلس . ثم عاد فدخل قرطبة مرة أخرى على أثر خلع المستكفى فى سنة ٤١٦هـ . ولكنه غادرها بعد ذلك إلى مالقة ، التى غدت من ذلك الحين معقله وعاصمة ملكه ، فى أوائل سنة ٤١٧ هـ ، واستمر بها مدى حين .

وكان يحيى المعتلى يخشى بالأخص على مملكته الفتية ، من مطامع القاضى محمد بن إسماعيل بن عباد ، الذى استقل برياسة إشبيلية ، حسبما تقدم . فسار بقواته إلى قرمونة حصن إشبيلية من الشمال الشرقى ، وانتزعها من يد حاكمها محمد ابن عبد الله البرزالى كبير بنى برزال ، واستقر بها يرقب الفرصة للوثوب بابن عباد وتحطيمه ، فسار البرزالى إلى ابن عباد وتحالف معه على قتال يحيى . وكان يحيى قد استسلم إلى لهوه وملاذه ، وعكف على معاقرة الشراب والمجون المستمر ، وجنوده تغير على إشبيلية من آن لآخر . ورأى القاضى ابن عباد أن يدحض دعوى المعتلى فى الخلافة أولا ، فأظهر فى أواخر سنة ٤٢٦هـ شخصاً زعم أنه هشام المؤيد ، وأنه كان مختفياً ولم يمت ، وبايعه بالخلافة ، ودعا الناس إلى الدخول فى طاعته . ثم سير ابن عباد إلى قرمونة بعض قواته مع ابنه إسماعيل ، ومعها طائفة من قوات البربر المتحالفة معه ، فطوقت المدينة ليلا ، وكمن معظمها فى أماكن مستورة ، ووقف يحيى على الخبر فخرج فى قواته وهو ثمل ، واشتبك مع الهاجمين فى معركة حامية وكاد يوقع بهم الهزيمة ، لولا أن ظهرت قوات ابن عباد من كمينها ، وأطبقت عليه ، فانهزم أصحابه ، وقتل فى المعمعة واحتز رأسه ، وحمل سريعاً إلى ابن عباد فى إشبيلية ( المحرم سنة ٤٢٧هـ — نوفبر سنة ١٠٣٥م ) ، واستمر فتك جند ابن عباد بالبربر أمام أسوار قرمونة ، ولم يقف إلا حينما تدخل محمد بن عبد الله

البرزالى ، وقد ساءه هذا الفتك الذريع بقومه ، فكف ابن عباد مرغماً ، ودخل البرزالى قرمونة ، واستولى على ما فيها من مال ومتاع ، وسبى نساء يحيى وجواريه[١] .

ولما قتل يحيى المعتلى على هذا النحو ، سارع وزيراه أبو الفوز نجا الصقلبى ، وأبو جعفر أحمد بن موسى بن بقنّة البربرى ، باستدعاء أخيه إدريس لتولى الملك مكانه ، وكان واليا لسبتة . وكان ليحيي ولدآن حدثان هما إدريس وحسن ؛ وفى رواية أنه كان قد أوصى بولاية عهده اولده حسن ، ولكن حداثة سنه حالت دون ولايته . وهكذا بويع إدريس بالخلافة فى مالقة ، قاعدة المملكة الحمودية وتلقب بالمتأيد بالله ، وعين ابن أخيه حسناً لحكم سبتة وأعمالها ، وندب لمعاونته الحاجب نجا ، واعترفت بولايته رندة والجزيرة ، وكان من حلفائه المعترفين ببيعته الفتى زهير العامرى صاحب ألمرية ، وحبوس بن ماكسن زعيم صنهاجة وصاحب غرناطة ؛ وقد سارا فى قواتهما لمعاونة إدريس على محاربة ابن عباد ، وانضم إليهما البرزالى صاحب قرمونة . وفى شهر ذى القعدة سنة ٤٢٧هـ (١٠٣٦م) سارت القوات المتحالفة إلى أحواز إشبيلية وعاثت فيها ، واحتلوا قرية طشّانة ، ثم احتلوا «القلعة» ، الواقعة شرقى إشبيلية ، وأحرقوا طـّريانة الواقعة فى جنوبها ، ثم احتلوا حصن القصر ، وانصرف زهير بعد ذلك إلى ألمرية .

وفى العام التالى توفى حبوس بن ماكسن ، وخلفه فى حكم غرناطة ولده باديس ، وبعث باديس وأخوه بُلُقّين إلى زهير يطلبان تجديد التحالف الذى كان بينه وبين أبيهما ، ولكن زهيراً سار فى قواته إلى غرناطة ، والتقى بباديس وأخيه فى قرية من أحواز غرناطة تسمى «ألفنت»[٢] . والظاهر أنه وقع بين الفريقين نوع من سوء التفاهم ، واعتبر باديس أن زهيراً توغل فى أرضه بقواته أكثر مما يجب ؛ أو أن باديس وأخاه بلقين ، قد وضعا خطة للغدر بزهير . وعلى أى حال فقد عمل باديس على قطع طريق الرجعة على زهير ، ووضع له الكمائن فى المضايق . ووقع القتال بين زهير والبربر ، فهزم زهير وقتل ، ولم يعثر على جثته ، واحتوى باديس على معسكره ، واستولى على غنائم هائلة من الخيل والسلاح والمتاع ، وقبض باديس على كاتب

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ١٨٨ و ١٨٩ و ١٩٠ ؛ وأعمال الأعلام ص ١٣٧ .

(٢) وهى بالإسبانية Dalfontes ، وهى تقع على قيد نحو خمسة كيلو مترات من شمالى غرناطة .

زهير أحمد بن عباس ثم قتله بعد ذلك . وحدثت هذه الواقعة فى أواخر سنة ٤٢٩ هـ ( ١٠٣٨ م )[1] .

وكان القاضى ابن عباد ، المتغلب على إشبيلية ، بعد قتل منافسه يحيى المعتلى قد خلا له الجو ، واشتد بأسه ، وأخذ يطمح إلى التغلب على ما يجاور إشبيلية من المدن والمقاطعات . فبدأ بأن سير ولده إسماعيل فى جيش زحف على قرمونة حصن إشبيلية ، من الشمال الشرقى ، وكان بها محمد بن عبد الله البرزالى ، فاستولى عليها ، واستولى كذلك على إستجة الواقعة فى شرقها . فاستغاث البرزالى بإدريس المتأيد ، وباديس أمير غرناطة ، وهرعت الجند البربر من مالقة وغرناطة استجابة لدعوته . ونشبت بين البربر وبين جند ابن عباد الأندلسيين وقائع عديدة ، انتهت بهزيمة الأندلسيين ومقتل إسماعيل بن عباد ، وذلك فى أوائل المحرم سنة ٤٣١ هـ ( أواخر سنة ١٠٣٩ م )[2] .

ولم تمض على ذلك أيام قلائل حتى توفى إدريس المتأيد فى قلعة ببشتر ، وكان قد نقل إليها مريضاً من مالقة . وكانت وفاته فى السادس عشر من محرم سنة ٤٣١ هـ .

وعلى أثر وفاته بويع ولده يحيى بالخلافة فى مالقة ، وذلك بترتيب وزيره أبى جعفر ابن بقنة وسعيه . وتلقب يحيى بالقاسم بأمر الله ، وكان فتى حدثاً قليل الخبرة والحزم ، ولكن ابن بقنة سارع برفعه إلى العرش استبقاء لسلطانه الذى تأثل فى ظل أبيه . بيد أن الحوادث ما لبثت أن تطورت بسرعة . ذلك أن نجا الحاجب الصقلبى ، وكان يومئذ بسبتة ، لم يرقه هذا الاختيار ، فبادر بالدعوة إلى حسن بن يحيى المعتلى ( ابن أخى إدريس ) . وكان إدريس قد اختاره لولاية عهده ، وكان وقت وفاة عمه حاكماً لسبتة والثغور المغربية ، فبويع حسن بالخلافة ، وجهز الحاجب جيشاً ، وسار بقواته مع حسن فى أسطول يمم شطر مالقة ، ونزلت القوات إلى البر ، وحاصرت مالقة من البر والبحر ، ولم تمض أسابيع قلائل حتى اضطر يحيى إلى التسليم والتنازل عن الخلافة ، ثم سار إلى قمارش ، وأقام بها .

---

( ١ ) راجع فى تفصيل هذه الحوادث : البيان المغرب ج ٣ ص ١٩٠ و ١٩١ و ٢٩٣ ، والإحاطة فى أخبار غرناطة لابن الخطيب ( القاهرة ١٩٥٦ ) ج ١ ص ٢٦٩ و ٥٢٧ و ٥٢٨ .

( ٢ ) البيان المغرب ج ٣ ص ١٩٩ .

وبويع حسن بن يحيى بالخلافة فى مالقة فى جمادى الثانية سنة ٤٣١ هـ ، وتلقب بالمستنصر بالله ، واعترفت بطاعته غرناطة وغيرها ، وعهد بتدبير الأمور إلى الوزير أبى جعفر بن بقنة ، وعهد إلى الحاجب نجا بحكم الثغور المغربية . وكان حسن أميراً حازماً ، قوى النفس ، فنظم الإدارة ، واستكثر من الجند ، وجبى الأموال . واستراب بوزيره أبى جعفر ، وكان يسر له نصرته ليحيى ، فدبر مقتله ، وذلك فى يوم عيد الفطر سنة ٤٣٣ هـ (١) ، ثم أمر بقتل يحيى القاسم ، فقتل فى ربيع الثانى سنة ٤٣٤ هـ . وكانت أخته زوجة للمستنصر ، فما لبثت أن دبرت مقتله انتقاماً لأخيها ، وهلك حسن بالسم فى جمادى الأولى سنة ٤٣٤ هـ ( ديسمبر سنة ١٠٤٢ م ) .

والروايات بعد ذلك متضاربة ، فمنها ما يقول بأن الحسن لم يعقب ذرية(٢) ومنها ما يقول إنه ترك ولداً صغيراً بسبتة . وعلى أى فقد نهض الحاجب نجا على أثر وفاة المستنصر ، وعبر البحر فى قواته من سبتة إلى الجزيرة ؛ وهنا يقال إنه نهض ليؤيد دعوة ولد الخليفة المتوفى ، ويقال من جهة أخرى إنه نهض ليستخلص تراث الحموديين لنفسه ، بعد أن اضطربت شئونهم . وسار نجا إلى الجزيرة وفيها ابنا القاسم بن حمود ، فخرجت إليه أمهما سبيعة ، وعنفته على مسلكه وعدم ولائه لسادته ، فاستحى منها ، وغادر الجزيرة ميمماً شطر مالقة . وكان معظم جنده من قبيلة برغواطة البربرية ، أخوال حسن بن يحيى ، فاسترابوا منه ومن مقاصده وائتمروا به ، وقتلوه فى الطريق . ثم ساروا إلى مالقة ، وكان حسن بن يحيى أيام خلافته قد قبض على أخيه إدريس ، وزجه إلى السجن ليأمن منافسته . فأخرجه الجند من سجنه وبويع بالخلافة . وتلقب بالعالى ، وذلك فى جمادى الثانية سنة ٤٣٤ هـ ( يناير سنة ١٠٤٣ م ) ، وأطاعته البربر فى غرناطة وقرمونة وجيان وغيرها . وهو الممدوح بالقصيدة المشهورة ، التى نظمها عبد الرحمن بن مُقانا القبذاقى الأشبونى فى مدحه ومطلعها :

| | |
|---|---|
| ألبرق لائح من أندرين | ذرفتْ عينــاك بالماء المعين |
| لعبت أسيافه عــارية | كمخاريق بأيدى اللاعبين |

---

( ١ ) البيان المغرب ج ٣ ص ٢٩٠ ؛ والمراكشى ص ٣٦ .
( ٢ ) المراكشى ص ٣٧ .

واصوت الرعد زجر وحنن ... وبقلبي زفرات وأنين
وأناجي في الدجى عاذلتي ... ويلك لا أسمع قول العاذلين[1]

ومنها :

عيرتني بسقام وضنى ... إن هذين لدين العاشقين
قد بدا لي وضح الصبح المبين ... فاسقنيها قبل تكبير الأذين
إسقنيها مرة مشمولة ... لبثت في دنها بضع سنين
مع فتيان كرام نجب ... يتهادون رياحين المجون[1]

وكان العالى أميراً رقيق الخلال ، جواداً كثير الصلات ، أديباً ينظم الشعر ؛ ومع ذلك فقد كان يجمع حوله بطانة سيئة ، وصحاباً من أراذل القوم . وكان ضعيف الرأى ، متهاوناً فى شئون الحكم ، فسرى التفكك إلى سلطانه ، وفى أواخر سنة ٤٣٨هـ (١٠٤٦م) ، ثار عليه ابن عمه محمد بن إدريس بن على بن حمود ، فخرج إدريس فى صحبه من مالقة إلى حصن ببشتر ، وعاونه باديس بن حبوس أمير غرناطة بجنده ليسترد سلطانه . فغزا مالقة ولكنه لم يفز بطائل ، فارتد مع أهله وصحبه إلى سبتة .

وبويع محمد بن إدريس فى شعبان سنة ٤٣٨هـ . وتلقب بالمهدى ، وتوطد أمره بمالقة ؛ ولكن بعض النواحى نكلت عن تأييده ، ولا سيما غرناطة ؛ وكان أميرها باديس من أشد معارضيه . وكان يشعر أنه أحق من غيره بزعامة البربر ؛ وأبدى المهدى عزماً فى تنظيم الحكومة وإصلاح الأمور ، ولكنه كان طاغية سفاكاً للدماء يسرف فى قتل مواطنيه البربر ، حتى كرهه معظمهم ، واجتمع رأى معارضيه من الزعماء وعلى رأسهم باديس على وجوب خلعه ، والاعتراف بطاعة محمد بن القاسم بن حمود صاحب الجزيرة الخضراء ، واتفق رأى البعض الآخر ومنهم أبو نور بن أبى قرة اليفرنى صاحب رندة ، على الاعتراف بطاعة إدريس بن يحيى العالى . وهكذا ادعى الخلافة ثلاثة من أمراء بنى حمود فى وقت واحد ، وفى مناطق صغيرة متقاربة ، وهذا إلى الخليفة المزعوم الذى أقامه ابن عباد صاحب إشبيلية باسم هشام المؤيد ؛ ويستعرض الفيلسوف ابن حزم هذه الحالة وهو معاصر لها فى مرارة وتهكم ، ويصفها بأنها « فضيحة لم يقع فى العالم

---

(١) راجع هذه القصيدة بأكلها فى نفح الطيب ج ١ ص ٢٠٢ و ٢٠٣ .

إلى يومنا مثلها: أربعة رجال فى مسافة ثلاثة أيام فى مثلها ، كلهم يتسمى بأمير المؤمنين ، ويخطب لهم فى زمن واحد »[1] .

واستمر محمد بن إدريس المهدى فى كرسى الخلافة زهاء ستة أعوام . ولما لم يرخصومه وسيلة للتغلب عليه ، لجأوا إلى الغيلة ، فدسوا عليه من قتله بالسم ، وذلك فى أواخر سنة ٤٤٤ ﻫ ( أوائل سنة ١٠٥٣ م ) .

فبويع من بعده ولد أخيه وهو إدريس بن يحيى بن إدريس بن على بن حمود ، وتلقب بالسامى ، وأقام حيناً بمالقة ، ثم أصابته فيما يظهر لوثة ، فغادر مالقة ، وهام على وجهه فى صفة تاجر ، وغادر البحر إلى شاطئ العدوة ، فأخذ إلى سبتة ، حيث قتله حاكمها سواجات البرغواطى[2] .

وكان إدريس بن يحيى العالى ، قد لجأ على أثر خلعه إلى سبتة ، فأقام بها فى كنف سواجات ، وأقام كذلك حيناً فى رندة ، فى كنف حاكمها أبى نور بن أبى قرة ، فلما هلك السامى ، سار إلى مالقة واستقبله أهلها بحماسة ، ودعى له بالخلافة مرة أخرى ، واستمر فى الحكم حتى توفى سنة ٤٤٦ ﻫ (١٠٥٤م) بعد أن عهد بالخلافة لابنه محمد .

فخلفه ولده محمد ، وتلقب بالمستعلى ، وأقرت بيعته ألمرية ورندة ، ولكن معظم الزعماء البربر ، وفى مقدمتهم باديس صاحب غرناطة نكلوا عن طاعته . وفى سنة ٤٤٩ ﻫ ( ١٠٥٧م ) ، سار باديس فى قواته إلى مالقة ، واستولى عليها وضمها إلى إمارته ، وغادرها المستعلى ، وسار إلى ألمرية ، ثم عبر منها البحر إلى مليلة فقبله أهلها حاكماً عليهم ،واستمر بها حتى توفى سنة ٤٥٦ ﻫ (١٠٦٤م) والمستعلى هو آخر من حكم فى مالقة من أمراء بنى حمود .

وفى أثناء ذلك كان رأى الزعماء البربر ، وفى مقدمتهم باديس صاحب غرناطة وإسحاق بن محمد بن عبدالله البرزالى صاحب قرمونة ، ومحمد بن نوح صاحب مورور ، وعبدون بن خزرون صاحب أركش ، قد أجتمع على البيعة لبنى محمد بن القاسم بن حمود صاحب الجزيرة الخضراء . وكان يحيى المعتلى حينما خلع

---

(١) ابن حزم فى رسالته « نقط العروس » ص ٨٣ . وراجع البيان المغرب ج ٣ ص ٢١٧ و ٢٤٤ ؛ وأعمال الأعلام ص ١٤١ .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٢١٧ ؛ وأعمال الأعلام ص ١٤٢ .

عمه القاسم بن حمود، قد قبض على ولديه محمد وحسن، واعتقلهما بالجزيرة ، فلما توفى يحيى ، أفرج عنهما . وتولى محمد حكم الجزيرة، وذلك فى الوقت الذى قامت فيه دولة المهدى فى مالقة . ثم حاول محمد أن ينتزع الخلافةلنفسه، فسار فى أنصاره إلىمالقة يحاول انتزاعها من يد المهدى، ولكنه أخفق فى محاولته، فارتد إلى الجزيرة ، وتوفى بها فى سنة ٤٤٠ هـ .

فخلفه محمد ولده وحكم الجزيرة فترة قصيرة ؛ ثم خلفه ولده القاسم، وتلقب بالواثق، وكانت خلافته هزيلة ضيقة الرقعة والموارد ، ولم يتح لها من البقاء سوى فترة يسيرة . ذلك أن ابن عباد صاحب إشبيلية اعتزم أن يقضى على خلافة الحموديين بصفة نهائية، فبعث قواته إلى الجزيرة الخضراء فطوقتها من البر والبحر واضطر القاسم سراعاً إلى التسليم، وغادر الجزيرة بالأمان مع أهله وصحبه (٤٤٦هـ — ١٠٥٥م ) وسار إلى ألمرية حيث التجأ الى حماية صاحبها المعتصم ابن صمادح ، ولبث بها حتى توفى سنة ٤٥٠ هـ ( ١٠٥٨ م ) .

وفى نفس الوقت كان باديس أمير غرناطة قد استولى علىمالقة من يد المستعلى ( ٤٤٩هـ ) ، وانهار بها سلطان الحموديين، وهكذا انقرضت دولة بنى حمود من مالقة والجزيرة معاً ، وانتهى بذلك سلطانهم بالأندلس بعد أن حكموا المثلث الإسبانى الجنوبى ، وثغور العدوة الشمالية ، زهاء نصف قرن[1] .

* * *

وهكذا انحدرت إسبانيا المسلمة، فى النصف الأول من القرن الخامس الهجرى ( الحادى عشر الميلادى ) عقب انهيار دعائم الخلافة الأموية والدولة العامرية ، إلى معترك مروع من التمزق والفوضى، واستحالت الأندلس بعد أن كانت كتلة موحدة، تمتد من ضفاف دويرة شمالا إلى مضيق جبل طارق جنوباً ، ومن شاطئ البحر المتوسط منذ طركونة شرقاً حتى شاطئ المحيط الأطلنطى غرباً ، إلى أشلاء ممزقة ، ورقاع متناثرة، وولايات ومدن متباعدة متخاصمة ، يسيطر على كل منها حاكم سابق استطاع أن يحافظ على سلطته المحلية خلال الانهيار ،

---

( ١ ) راجع فى تفاصيل الحوادث المتقدمة ، البيان المغرب ج ٣ ص ٢٨٨ و ٢٩١ و ٢٩٢ ؛ وابن خلدون ج ٤ ص١٥٤ و ١٥٥ ؛ وابن الأثير ج ٩ ص ٩٦ و ٩٧ ؛ والمراكشى ص ٣٧ — ٣٩ ، وأعمال الأعلام ص ١٤٢ و ١٤٣ . وراجع بحثا بالإسبانية للأستاذ المستشرق الغرناطى ميكودى لوثينا عن دولة بنى حمود عنوانه : **Los Hammudles, Senores de Málaga y Algeciras, p. 47-53**

أو متغلب من الفتيان الصقالبة أو القادة ذوى السلطان السابق ، أو زعيم أسرة محلى من ذوى الجاه والعصبية . وسيطر البربر من جانبهم على أراضى المثلث الإسبانى الجنوبى ، وما كان منه بيد الدولة الحمودية ، وأنشأوا هنالك إمارات عدة ، ما لبثت أن نزلت إلى ميدان الصراع العام ، الذى شمل هذه المنطقة . وهكذا قامت على أنقاض الدولة الأندلسية الكبرى دول عديدة هى دول «الطوائف» ، وذلك منذ أوائل الربع الأول من القرن الخامس ، حتى الفتح المرابطى ، زهاء سبعين عاماً ، قضتها جميعاً فى سلسلة لا نهاية لها من المنازعات الصغيرة ، والخصومات والحروب الأهلية الانتحارية ، وكادت بتنابذها وتفرقها ومنافساتها ، تمهد لسقوط الأندلس النهائى . وقد كان من رحمة القدر ، أن اسبانيا النصرانية ، كانت فى نفس الوقت الذى انتثرت فيه وحدة الأندلس على هذا النحو الخطر ، تعانى من انقسام الكلمة ، وتعصف بها ريح الخلاف والتفرق ، فلم تتح لها فرصة للوثوب بالأندلس الممزقة ، إلى أن كان الوقت الذى بلغ فيه تنابذ الطوائف ذروته ، واشتد ساعد اسبانيا النصرانية كرة أخرى ، واستطاعت أن تضرب ضربتها القوية بانتزاع طليطلة ، أول قاعدة إسلامية كبيرة (٤٧٨هـ — ١٠٨٥ م) ؛ وعندئذ تطورت الحوادث بسرعة واتجهت الأندلس الجريح ، فى توجسها وانزعاجها ، إلى إخوانها المسلمين فيما وراء البحر ، بعدوة المغرب ، تستدعيهم لنصرتها . وكان أن تدفقت الجيوش المرابطية من المغرب على شبه الجزيرة الإسبانية ، وكان أن أنقذت دولة الإسلام فى الأندلس .

# الكتاب الخامس

## النظم الإداريّة والحركة الفكريّة
## في عصرى الإمارة والخلافة

# الفصل الأول

## نظم الحكم

### والأوضاع السياسية والإدارية والعسكرية والاقتصادية

### فى عصرى الإمارة والخلافة

— ١ —

تعاقبت خلال هذه الفترة الطويلة التى سردناها من تاريخ الأندلس ، على الأمة الأندلسية ، أنواع من نظم الحكم ، ومن الأوضاع السياسية والإدارية ، كانت تسير طوراً بعد طور مع مختلف الحوادث ، والحروب والانقلابات المتوالية . وبالرغم من أنه لم يفتنا أن نشير فى مختلف المواطن إلى تلك التغييرات المتوالية ، التى شهدتها الأمة الأندلسية ، فإنه يجدر بنا أن نتحدث عنها حديثاً خاصاً ، وأن نقدم منها إلى القارئ صورة مجتمعة متماسكة .

كانت الأندلس عقب الفتح ولاية تتبع إفريقية ، ويقوم باختيار حاكمها والى إفريقية . وقد استمر هذا الوضع نحو ثمانية أعوام فقط ، تعاقب فيها على ولاية الأندلس ثلاثة من الولاة هم عبد العزيز بن موسى ، وأيوب بن حبيب اللخمى ، ثم الحر بن عبد الرحمن الثقفى . غير أنه كان من الواضح أن هذا النظام لم يكن يلائم قطراً ضخماً كالقطر الأندلسى ، وخصوصاً بعد ما بدأت الغزوات الإسلامية لغاليس ( جنوب فرنسا ) ، وبدأت الأندلس تخوض الصراع مع مملكة الفرنج فيما وراء البرنيه ، ومع نصارى الشمال . ومن ثم فقد رأت خلافة دمشق أن تكون الأندلس ولاية مستقلة تتبع الخلافة مباشرة ، ويقوم الخليفة بتعيين واليها . وكان الخليفة عمر بن عبد العزيز هو الذى أصدر هذا القرار شعوراً منه بأهمية الأندلس السياسية والعسكرية والاجتماعية .

وكان أول ولاة الأندلس من قبل الخلافة ، هو السمح بن مالك الخولانى ، وقد ندبه عمر بن عبد العزيز لولايتها فى سنة مائة من الهجرة (٧١٩م) . بيد أنه

لما توفى عمر بن عبد العزيز ( ١٠١ هـ ) عاد الأمر فى تعيين ولاة الأندلس إلى ولاة إفريقية ، ولكن بمصادقة الخليفة . وكان الوالى عادة هو قائد الجيش العام ، وإليه يرجع أمر الغزو فى الشمال . ولما وقعت نكبة بلاط الشهداء فى سنة ١١٤ هـ ( ٧٣٢ م ) ، أخذت الخلافة مرة أخرى بيدها تعيين والى الأندلس ، واختار الخليفة هشام بن عبد الملك لولايتها عبد الملك بن قطن . واستمر الأمر بعد ذلك حيناً يرجع إلى والى إفريقية ، وأحياناً إلى اختيار الجماعة ، أعنى جماعة الزعماء والقادة فى شبه الجزيرة ، وكان ذلك يحدث بالأخص حين تضطرب الأمور ، ويقع الخلاف بين مختلف القبائل والزعامات . ولما اضطرمت الفتنة بين الشاميين والبلديين ، وأخذ الفريقان يتبادلان الرياسة ، ضعف أمر السلطة المركزية ، ولم تهدأ الأمور حتى عين أبو الخطار الكلبى والياً للأندلس ( ١٢٥ هـ ) . ولكن أبا الخطار كان يمنياً فمال إلى اليمنية ، واضطرمت الفتنة بين اليمنية والمضرية ، ولما تفاقم الأمر ، وخشى الزعماء عاقبة الفتنة والحرب الأهلية ، اتفقوا على تعيين يوسف بن عبد الرحمن الفهرى من المضرية للولاية ، وذلك دون موافقة أو مصادقة لا من والى إفريقية ، ولا من الخلافة ، وكان ذلك فى سنة ١٢٩ هـ ( ٧٤٧ م ) .

واستمر يوسف بن عبد الرحمن الفهرى والياً للأندلس زهاء عشرة أعوام ، وهو يزاول سلطة شبه مطلقة . وقد استطاع بعزمه وحزمه ، أن يعيد إلى الأندلس نوعاً من الاستقرار والسكينة . ولكن القدر كان يدخر للأندلس مصيراً آخر ، فى ظل سلطة أخرى ، لم تكن تخطر ليوسف أو غيره من الزعماء المتطلعين إلى الرياسة . وذلك أن عبد الرحمن الأموى عبر إلى الأندلس فى ربيع الآخر سنة ١٣٨ هـ ( سبتمبر سنة ٧٥٥ م ) ، وهرع فى الحال إلى لوائه جمع من الصحب والأنصار ، ووقع الحدث الحسم فى موقعة المسارة فى العاشر من ذى الحجة سنة ١٣٨ هـ ( ١٣ مايو سنة ٧٥٦ م ) فهزم يوسف الفهرى وصحبه ، وأنتهت رياسته للسلطة ، وكتب النصر لسليل بنى أمية ، فبويع عبد الرحمن الأموى فى الحال بالإمارة ، وبعثت من ذلك التاريخ دولة بنى أمية بالأندلس ، بعد أن سقطت بالمشرق قبل ذلك ببضعة أعوام .

ومن ذلك التاريخ تقوم الدولة الأموية فى الأندلس ، وتستقر قواعدها تباعاً ، بعد معارك طويلة متعددة ، بينها وبين الزعامات المحلية والعناصر الثائرة . وقد

بقيت الدولة الأموية عصراً تتشح بثوب الإمارة ، وذلك وفقاً لما قرره مؤسسها عبد الرحمن الداخل . وبالرغم من أن بلاط قرطبة ، بلغ فى عصر أمراء مثل الحكم ابن هشام ، وولده عبد الرحمن ، مبلغاً عظيماً من القوة والبهاء ، وأضحى ينافس بلاط بنى العباس فى الأخذ بزعامة الإسلام ، فإن أمراء بنى أمية لبثوا على مبدئهم من الاكتفاء بلقب الإمارة ، إلى أن كان عهد عبد الرحمن الثالث ( الناصر ) فعندئذ تغيرت أوضاع الغرب الإسلامى بقيام الخلافة الفاطمية فى الضفة الأخرى من البحر ، على مقربة من الأندلس . وكان هذا الحدث الخطير فى ذاته أول حافز للناصر على اتخاذ سمة الخلافة ، وصدر مرسومه بذلك فى اليوم الثانى من شهر ذى الحجة سنة ٣١٦ هـ ( يناير ٩٢٩م ) وبذا تحولت الدولة الأموية من إمارة إلى خلافة ، وكان عبد الرحمن الناصر أول من تلقب من أمرائها « بأمير المؤمنين » .

وقد تميزت الخلافة الأمويه بعدة خصائص ، أولها الاعتماد فى توطيد سلطانها على الموالى والصقالبة ، وهى سياسة بدأت فى عهد الإمارة منذ عبد الرحمن الداخل ، ووصلت إلى ذروتها فى عهد الناصر ، وذلك حسبما فصلناه فى موضعه ، وثانيها الاسترابة بالقبائل والزعامات العربية ، والعمل المستمر على إخضاعها ، والقضاء على سلطانها ونفوذها ، وذلك لما لقيه بنو أمية منذ البداية من معارضة هذه القبائل والزعامات ، وانتقاضها المتوالى ، وثوراتها المتعددة ، وثالثاً عطفها الواضح على أهل الذمة وهم النصارى واليهود ، وكفالة حرياتهم الدينية والاجتماعية ، وهذه السياسة أيضاً ترجع إلى عصر الإمارة ، حيث أنشىء منذ عهد الحكم بن هشام أو قبله بقرطبة ، منصب خاص لإدارة شئون أهل الذمة يعرف صاحبه « بالقومس » ، وقد كان للنصارى المعاهدين ، فوق ذلك قاض خاص ، وقد يكون أسقفهم فى نفس الوقت ؛ وعين بعد ذلك للنصارى مطران خاص ، مركزه بمدينة إشبيلية . وقد استمر هذا التسامح نحو النصارى المعاهدين عصوراً ، وذلك بالرغم مما كانوا يدبرونه فى بعض الأحيان ضد الحكومة المسلمة من الدسائس والمؤامرات ويعقدون من الصلات المريبة مع نصارى الشمال .

وبلغت الخلافة الأموية بالأندلس ذروة قوتها ونفوذها السياسى والأدبى فى عهد الناصر وولده الحكم المستنصر . بيد أنه بوفاة المستنصر ( ٣٦٦ — ٩٧٦م ) وولاية ولده الحدث الضعيف هشام المؤيد ، تبدو طلائع ذلك الانقلاب الحاسم

الذى كان يدخره القدر لمصير الخلافة الأموية . ذلك أن محمد بن أبى عامر ، الذى أخذ يبزغ نجمه منذ أواخر أيام الحكم ، ما كاد يلى منصب الوزارة ، حتى أخذ يستجمع أزمة السلطة فى يده تباعاً ، ويحطم كل معارضة لسلطانه ، وانتهى الأمر بأن فرض ابن أبى عامر نفسه حاكماً مطلقاً للأندلس ، وأنشأ مدينة الزاهرة ، لتكون له قاعدة جديدة للحكم ، واتخذ سمة الملك، وتسمى بالحاجب المنصور ( ٣٧١هـ — ٩٨١م ) ، وبالرغم من أنه لم يتعرض بشىء للخلافة الأموية أو رسومها ، فإن الخلافة لم تكن فى ظل حكمه سوى شبح باهت ، واسم بلا مسمى . وهكذا قامت الدولة العامرية واستمرت فى ظل المنصور ، ثم ولده عبد الملك المظفر ، فأخيه عبد الرحمن زهاء ثلاثين عاماً ، ثم انتهت بمصرع عبد الرحمن المنصور فى رجب سنة ٣٩٩ هـ ( ١٠٠٩ م ) .

وهنا استعادت الخلافة الأموية سلطانها بقيام محمد بن هشام الملقب بالمهدى ، وتربعه فى كرسى الخلافة مكان الخليفة هشام المؤيد ، وانتهى بذلك عهد السلطة الثنائية ، سلطة الخلافة الأموية الإسمية ، وسلطة بنى عامر الفعلية ، ولكن عودة الخلافة الأموية على هذا النحو لم يكن سوى بداية مأساة مروعة ، استمرت زهاء أربعين عاماً ، اضطرمت الأندلس فيها بالفتن المدمرة ، وغدت الخلافة الإسمية ، والسلطة الفعلية ، غنماً متداولا بين بنى أمية ، والفتيان العامريين ، والبربر ، وبنى حمود ؛ وانتحل بنو حمود ألقاب الخلافة ، وقامت فى وقت واحد بالأندلس أكثر من خلافة فى قرطبة ، ومالقة ، وإشبيلية ، وغدت قرطبة والأندلس كلها مسرحاً لمعارك وحروب أهلية متوالية ، ودمرت خلال ذلك مدينة الزهراء الخلافية ، وعدة من أحياء قرطبة ، وسادت الفوضى كل جنبات ، الأندلس ، واستمرت هذه المحنة زهاء أربعين عاماً ، ثم تمخضت فى النهاية عن مأساة جديدة . وهى تمزق الأندلس إلى ولايات ومدن عديدة مستقلة ، يحكم كل منها زعيم أو أمير مستقل ، وبدأ بذلك عهد الطوائف .

تلك خلاصة وجيزة للأوضاع النظامية ، وأنواع الحكم المتوالية ، التى عاشت فى ظلها الأمة الأندلسية زهاء ثلاثة قرون منذ فتح الأندلس فى سنة ٩٢ هـ ( ٧١١م ) حتى قيام دول الطوائف ، فى الربع الثانى من القرن الرابع الهجرى.

— ٢ —

## الحجابة والوزارة

كانت حكومة الأندلس فى عصر الولاة ، هيئة إدارية محلية قوامها الحاكم ( الوالى ) وقادة الجيش . ولم تك ثمة مناصب وزارية بالمعنى المعروف ، إذ لم يكن الوالى سوى رئيس مؤقت لإدارة الإقليم ، وقد كان الوالى فى معظم الأحيان هو قائد الجيش العام . ولم تظهر المناصب الوزارية إلا فى بداية عصر الإمارة مذ قامت الدولة الأموية بالأندلس ، على يد مؤسسها عبد الرحمن الداخل . وقد اقتبس الداخل لنظام حكومته ، من أنظمة الحكومة الأموية بالمشرق ، وأنشأ منصب الحجابة ، ولكنه لم ينشئ مناصب الوزارة ، بل اكتفى بتعيين نفر من أخلص أنصاره كمعاونين ومستشارين ، يعاونونه فى القيام بأعباء الحكم ، ويبذلون له النصح فى مهام الأمور . وعين للجيش أيضا قائده العام . بيد أنه كان يقود الجيش بنفسه فى مواطن كثيرة . وقد امتازت حكومة الداخل بالاعتماد على الموالى والاسترابة بالعرب ، لما لقيه الداخل من خصومتهم ومناوأتهم . وقد غدت هذه الظاهرة فيما بعد ، ظاهرة الاسترابة بالعرب ، من مميزات الحكومة الأموية بالأندلس ، سواء فى عهد الإمارة أو عهد الخلافة ، واتخذت أسطع مظاهرها فى عهد عبد الرحمن الناصر .

واتجهت الحكومة الأموية ، إلى جانب الاعتماد على الموالى ، إلى اصطناع الصقالبة ، واتخذ هذا الاتجاه طابعه القوى منذ عهد الحكم بن هشام ، وظهر الصقالبة لأول مرة بكثرة فى البلاط الأموى ، واحتلوا معظم مناصب القصر والخاص . غير أن الاعتماد على الصقالبة لم يمنع قيام الحجابة والوزارات القوية . فكان منصب الحجابة فى الواقع هو أهم المناصب التنفيذية ، وكان يليه فى معظم الأحيان رجال من الطراز الأول ، أحياناً من رجال السيف ، مثل عبد الكريم ابن عبد الواحد بن مغيث وعبد العزيز بن أبى عبدة حاجبا الحكم ، وأحياناً من رجال القلم مثل عيسى بن شهيد حاجب عبد الرحمن بن الحكم ، والحاجب جعفر المصحفى ، حاجب الحكم المستنصر ، وأحياناً يجمع الحاجب بين السيف والقلم مثل الحاجب عبد الكريم ، وهاشم بن عبد العزيز حاجب الأمير محمد بن عبد الرحمن .

وكان يعاون الحاجب، وهو بمثابة رئيس الوزارة ، عدة من الوزراء ، يتولون مختلف المناصف الوزارية . وقد بلغت الوزارة فى ظل الحكومة الأموية الأندلسية شأواً بعيداً ، وتعاقب فى ولايتها جمهرة من أعظم الرجال ، وألمعهم خلالا ، وكانت تضم عدة من أخطر مناصب الدولة ، مثل منصب كبير الخاص. وكان يشغله على الأغلب فتيان الصقالبة . وخطة الخيل . وخطة الكتابة أو الكتابة العليا ، وكان يتولاها وزير من الكتاب النابهين . وخطة صاحب المدينة أو حاكم قرطبة ، وصاحب المدينة بالزهراء ، وكانتا من أهم المناصب الوزارية . وخطة المظالم ، وكانت قبل عهد الناصر خطة مفردة تتضمن العرض والمظالم ، ولكنها فى عهد الناصر ، قسمت إلى خطتين ( ٣٢٥هـ ) ، وجعل العرض خطة مستقلة بذاتها ، وكذلك المظالم أضحت خطة مستقلة، وكان أول من وليها مستقلة محمد بن قلسم بن طملس ، وكان يتولى المظالم وزير ، وقد وليها قبله أيام الناصر جماعة من الوزراء النابهين مثل أحمد بن حدير ، وعبد الملك بن جهور . وخطة الشئون المالية . وخطة الشرطة ، وكانت من أهم المناصب الإدارية المتعلقة بضبط النظام والأمن ، وكانت قبل عهد الناصر تنقسم إلى مرتبتين ، الشرطة العليا ، والشرطة الصغرى، ولكنها منذ سنة ٣١٧ هـ فى عهد الناصر لدين الله ، قسمت بحسب أهميتها إلى ثلاث مراتب : الشرطة العليا ، والشرطة الوسطى، والشرطة الصغرى ؛ وقد رتب رزق الشرطة الوسطى، وسطاً بين رزقى العليا والصغرى، وكان أول من تقلدها سعيد بن سعيد بن حدير . وخطة القضاء ، وتتبعها خطة المواريث ، وكذلك خطة السوق أو الحسبة . وخطة الشورى ، وكانت من الخطط العارضة ، ومن المناصب ذات النفوذ العلمى والأدبى قبل كل شىء ، وتسند عادة إلى من يعتبر فى وقته عميد العلماء وشيوخهم، وكان أشهر من وليها رجال مثل بقى بن مخلد . وفى أيام المنصور بن أبى عامر ، كان ثمة ديوان يسمى ديوان الندماء، كان يلحق به كل أديب وشاعر ممن يؤثرهم الأمير بصحبته ومجالسته . وفى أواخر الدولة العامرية، غلب الصقالبة فى تولى الخطط الكبرى من حجابة ووزارة ، وبدأ ذلك بنوع خاص فى عهد عبد الملك المنصور . ولما انهارت الدولة العامرية استمرت هذه الظاهرة حيناً ، وتولى أولئك الفتيان الحجابة للخلفاء الأخيرين من بنى أمية، وغلبوهم على أمرهم ، ثم استبدوا فيما

بعد ، عند انهيار الدولة، برياسة طائفة من المدن والولايات، وكان من هؤلاء أمراء للطوائف، مثل مجاهد العامرى صاحب دانية، وخيران العامرى صاحب ألمرية .
وظهرت فى الدولة العامرية بدعة أخرى، هى إسناد منصب الحجابة إلى الأطفال. فقد استصدر عبد الملك المنصور من الخليفة المحجور هشام المؤيد، مرسوماً بتعيين ولده الطفل محمد فى منصب الحجابة ، ولقب بذى الوزارتين، وعين عبد الرحمن المنصور ولده الطفل عبد العزيز فى منصب الحجابة، وأسبغ عليه لقب سيف الدولة . وكانت هذه المهازل وأمثالها دليلا على تصدع ذلك الصرح الإدارى المحكم الذى شاده الأمراء والخلفاء من بنى أمية ، خلال قرنين من الجهود المتوالية . وفى أيام الخليفة المستظهر العابرة ( رمضان — ذو القعدة ٤١٤هـ ) استحدث بالوزارة عدة خطط جديدة مثل : خطة خدمة المدينتين الزهراء والزاهرة ، وخدمة كتابة التعقب والمحاسبة ، وخدمة الحشم، وخدمة مواريث الخاصة ، وخدمة الطراز ، وخدمة المعالى، وخدمة الأسلحة ، وخدمة الخزانة ، وخدمة الوثائق ، ورفع كتب المظالم ، وخدمة خزانة الطب والحكمة ، وخدمة أحكام السوق ، وهى خطط يصفها ابن حيان بأنها عبث وزخرف من التسطير وضع على غير حاصل ، ومراتب نصبت لغير طائل .

— ٣ —

الجيش ، نظامه وتكوينه

كان أول جيش إسلامى عبر إلى شبه الجزيرة لفتح الأندلس، مكوناً من العرب والبربر ، وكان قائد الجيش الفاتح ، طارق بن زياد، فيما يرجح بربرياً من قبيلة نفزة . وقد لعب البربر منذ البداية فى تكوين قوى الأندلس الغازية والدفاعية أعظم دور، وكان تدفقهم من الضفة الأخرى من البحر — من المغرب على شبه الجزيرة أسرع وأغزر من تدفق المتطوعة العرب، وكانوا يؤلفون الكثرة فى جيش الغزو . ولما نظم عبد الرحمن الغافقى جيشه الضخم لغزو بلاد الفرنج ، كان البربر من عناصره المختارة الغالبة ، وكانت القيادة دائماً بيد الضباط العرب، وكان الخلاف الذى اضطرم منذ بداية الفتح بين العرب والبربر، يعمل عمله المقوض بين صفوف الجيش ، وقد بدأ تكوين الجيوش الغازية الضخمة ، منذ عهد السمح بن مالك الخولانى والى الأندلس، وكان أعظم هذه

الجيوش ، الجيش الضخم الذى حشده عبدالرحمن الغافقى لغزو مملكة الفرنج . وبالرغم من أن البربر كان لهم فى إنجاح معظم الغزوات الشمالية أثر فعال ، فإنهم كانوا أيضاً فى بعض الأحيان عنصراً خطراً على سلامة الجيش، لما كان يسودهم فى بعض الأحيان من البغض وعدم التعاون لقادتهم العرب . وكان أسطع مثل لذلك الخلاف المدمر ، ما حدث فى موقعة بلاط الشهداء ( ١١٤هـ — ٧٣٢ م ) من تخاذل البربر وتخلفهم عن القتال أمام الفرنج ، وإرغامهم هيئة الجيش على الانسحاب بعد مقتل قائده البطل عبد الرحمن الغافقى . ولما قامت ثورة البربر فى المغرب ، وهزم العرب فى منطقة طنجة ، وعبرت فلول الجيش المنهزم وهم من الشاميين بقيادة بلج بن بشر القشيرى إلى الأندلس ، وذلك بدعوة الوالى ابن قطن ، ليستعين بهم على مغالبة البربر فى الأندلس ، رجحت كفة العناصر العربية فى الجيش مدى حين . ولكن جيش الأندلس ما لبث أن انقسم إلى قسمين ، معسكر الشاميين وهم أنصار بلج ، ومعسكر العرب والبربر المحليين . ولبثت الحرب الأهلية تضطرم حيناً ، حتى قام يوسف بن عبد الرحمن الفهرى فاستقر فى ولاية الأندلس ، وقام بإصلاح الجيش وتنظيمه ، ليعود كما كان جيشاً أندلسياً ، يضطلع بالغزو ورد هجمات نصارى الشمال .

وعنى عبد الرحمن الداخل بتنظيم الجيش أشد عناية ، وحشد له المتطوعة والمرتزقة من سائر الطوائف . وبلغت قواته يومئذ نحو مائة ألف مقاتل . وهذا عدا الحرس الخاص ، الذى يتكون من الموالى والبربر والرقيق ، وقد بلغت قواته نحو أربعين ألفاً . ووضع عبد الرحمن الداخل أيضاً نواة الأسطول الأندلسى بما أنشأ من قواعد لبناء السفن فى بعض الثغور النهرية والبحرية . ولكن بداية قيام الأسطول الأندلسى الفعلية ترجع إلى ما بعد ذلك بنحو نصف قرن ، حينما فاجأ النورمانيون الأندلس بغزو الثغور الغربية ، ثم بغزو إشبيلية ، والفتك بأهلها . وكان ذلك فى سنة ٢٣٠هـ ( ٨٤٣م ) فى عهد عبد الرحمن بن الحكم ، فعندئذ أدركت الحكومة الأندلسية وجوب العناية بأمر الأسطول والتحصينات البحرية وبدئ بإنشاء السفن الحربية . وكانت أكبر دور الصناعة لإنشاء السفن فى مياه الوادى الكبير تجاه إشبيلية . ومن ذلك الحين يقوم الأسطول الأندلسى بدوره فى شئون

الغزو والدفاع ، وقد بلغت وحداته فى عهد عبد الرحمن الناصر زهاء مائتى سفينة .

ومما تجدر ملاحظته أن الجيش الأندلسى ، قد تلقى خلال عهد الفتنة الكبرى التى شملت سائر نواحى الأندلس ، ولاسيما المنطقة الجنوبية ، واستمرت تضطرم زهاء ستين عاما ، منذ عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن ( ٢٣٨–٢٧٣هـ ) كثيراً من الدربة والتجارب المريرة فى معاركه المستمرة مع جيوش الثوار ، وأضحى فى أواخر هذه الحقبة فى عهد عبد الرحمن الناصر ، من حيث العدد والكفاية قوة لها خطرها . وقد بذل الناصر جهوداً عظيمة لإصلاح الجيش وتقويته ، ومده بالأسلحة والعتاد الوفير . وعنى فى الوقت نفسه بأمر الأسطول ، فأنشأ له وحدات جديدة ، وجعل مركزه الرئيسى ثغر ألمرية ، وأنشأ بها أعظم دار للصناعة ، وبلغ الأسطول الأندلسى فى عهد الناصر ، حسبما تقدم ، زهاء مائتى سفينة مختلفة الأنواع والأحجام ، وهذا عدا أسطول آخر خصص لشئون المغرب البحرية ؛ وكان الأسطول الأندلسى يومئذ من أقوى الأساطيل ، وكان يسيطر على مياه إسبانيا الشرقية والجنوبية .

وفى عهد المنصور بن أبى عامر ، بلغ الجيش الأندلسى المرابط ذروة القوة والضخامة ، وقد رأى المنصور أن يعتمد بالأخص فى تكوين الجيش على حشود البربر ، فاستقدمهم من العدوة ، وبذل لهم الأعطية السخية ، وكذلك حشد فى جيشه كثيراً من المرتزقة النصارى ، ومعظمهم من المستعربين رعايا الحكومة الأندلسية ، واستطاع المنصور ، بما بذله من جهود عنيفة متوالية ، ومن أموال وفيرة ، أن ينشىء للأندلس قوة عسكرية هائلة لم تعرفها الأندلس فى أى عصر سابق ، أو لاحق . وقد نقلت إلينا الرواية بعض أرقام عن الجيش الأندلسى المرابط فى عهد المنصور ، من ذلك أن الفرسان بلغ عددهم إثنى عشر ألف ومائة فارس من سائر الطبقات ، تصرف لهم النفقة والسلاح والعلافة ، وبلغ عدد الرجالة ( المشاة ) فى الجيش المرابط ستة وعشرين ألف مقاتل . وكان عدد الجيش المرابط ، يتضاعف وقت الصوائف مراراً بما ينضم إليه من صفوف المتطوعة ، وقد بلغ عدد الفرسان فى بعض الصوائف ، ستة وأربعين ألفاً ، وكان عدد المشاة يتضاعف أيضاً ، وقد يعدو المائة ألف أو تزيد .

— ٤ —

## الموارد الاقتصادية
## وصنوف الجـباية

لما افتتح المسلمون الأندلس ، كان الشعب الإسبانى المغلوب ، ما يزال يعيش فى ظل بقايا النظم الرومانية ، التى اتخذها القوط أساساً لتشريعاتهم ونظمهم الإدارية . وكان عبء الضرائب يقع معظمه على طبقات الشعب الدنيا ، ولا يكاد يقع شىء منه على عاتق الأشراف ورجال الدين ، ومن إليهم من الطبقات الممتازة . فلما افتتح المسلمون شبه الجزيرة ، فرضت الضرائب على قاعدة المساواة دون تمييز بين طبقة وأخرى ، وفرضت الجزية على من لم يعتنق الإسلام من أبناء الشعب المغلوب . وفى خلال الحقبة الأولى ، التى تميزت باستمرار الغزوات الإسلامية ، وما تقتضيه من حشد الجيوش المستمرة ، لم تكن موارد القطر المفتوح قد حققت كلها واستغلت . وقد كان من الواضح منذ البداية أن القطر المفتوح قطر زراعى قبل كل شىء . وكان خراج الأرض الزراعية ، والجزية ، وأخماس الغنائم ، هى المصادر الرئيسية للدخل ، وقد ازدهرت الزراعة بالأخص عقب الفتح لما حدث من توزيع أفضل للأرض ، وتحسين أحوال العاملين فيها . وكان يوسف الفهرى آخر الولاة ، أول من عدل نظام الضرائب القديم ، ففرض على كل ولاية ، أن تقدم ثلث الدخل ، ورفع الجزية عمن توفوا من النصارى ، وقسم الأندلس من الناحية الإدارية إلى خمس ولايات حسبما أسلفنا ذلك فى موضعه . وكانت حكومة قرطبة الإسلامية تسيطر على أخصب وأغنى وديان شبه الجزيرة الإسبانية ، وكان أهم المحاصيل الزراعية هى القمح والزيتون والفاكهة وغابات الأشجار الخشبية ، وما تزال هذه المحاصيل إلى اليوم هى أهم موارد اسبانيا الزراعية . وكذا كان تربية الماشية مورداً من أهم موارد الدخل القومى . ولما استقرت الأمور ، واستطاع الفاتحون أن يضعوا أيديهم على موارد البلاد وثرواتها الطبيعية ، وأن يستغلوها بمقدرة وذكاء ، لم تبق الزراعة هى المورد الوحيد ، وإن لبثت دائماً هى المورد الرئيسى . ذلك أن شبه الجزيرة الإسبانية ، تضم ثروات متنوعة من المعادن ، كانت تستغل منذ أيام الرومان ، فكان يستخرج

بها الفضة والرصاص والحديد والذهب والزئبق ، والقصدير من أنحاء مختلفة ، فى الشمال والجنوب ، فكانت الفضة والنحاس تستخرج فى الشمال ، وفى جهة قرطبة ، وكورة تدمير ، وكان الزئبق يستخرج من جبال البرانس ، والقصدير بجهة أكشونبة من ولاية الغرب ، وكان البللور يستخرج فى منطقة لورقة ، والرخام من جبل قرطبة وباغة ومن جبال سيرّا مورينا . وكانت تقوم إلى جانب الزراعة صناعات هامة ، مثل صناعة النسيج والملابس والأثاث والفخار والزجاج والورق[1] ، وكانت التجارة تزدهر فى نفس الوقت داخل شبه الجزيرة ، وخلال موانيها الشرقية والجنوبية ولاسيما مالقة وألمرية ، وتجبى الدولة من المكوس التجارية ، سواء على التجارة الداخلية أو الخارجية أو على السفن الصادرة والواردة مقادير عظيمة .

ولم تأت أوائل القرن الثالث الهجرى ( التاسع الميلادى ) ، فى عصر عبد الرحمن ابن الحكم ، حتى كانت إسبانيا المسلمة ، قد بلغت مبلغاً عظيماً من الرخاء ، وتضاعفت مواردها من الدخل القومى ، وبلغت حصيلة الجباية من المكوس وحدها زهاء ألف ألف دينار فى السنة ، وبلغت فى عهد عبد الرحمن الناصر من الكور والقرى خمسة آلاف وأربعمائة ألف وثمانين ألف دينار . وبلغت من المستخلص ( وهى الأملاك السلطانية ) سبعمائة ألف وخمسة وستين ألف دينار ، وقد ذكرنا فيما تقدم ، فى موضعه ، أن الناصر خلف عند وفاته فى بيت المال عشرين مليوناً من الذهب ، هذا عدا ما أنفقه من الأموال الطائلة فى مختلف الغزوات ، وفى مختلف المنشآت الباذخة التى أقامها ، وفى مقدمتها مدينة الزهراء الملوكية ، وهى مما يدل على ضخامة الموارد المالية للأندلس فى عصر الخلافة .

وفى أيام المنصور بن أبى عامر ، فى أواخر عصر الخلافة ، حققت موارد الدخل زيادة عظيمة ، ووصل محصل الجباية وحده إلى أربعة آلاف ألف دينار (أربعة ملايين ) ، سوى رسوم المواريث وسوى مال السبى والغنائم ، واستمرت هذه الزيادة فى عهد ولده عبد الملك . ثم كان انهيار الدولة العامرية ، وانهيار الخلافة الأموية ، واضطرام الفتنة فى كل مكان ، فتحطمت موارد الدخل ، وكسدت التجارة والصناعة ، وغاضت أسباب الرخاء .

---

( ١ ) راجع كتاب الأستاذ ليڤى بروفنسال **L'Espagne Musulmane aux xème Siècle; p. 176, 183 & 184** ، وكذلك نفح الطيب ج ١ ص ٧٨ و ٩٣ .

# الفصل الثاني

## الحركة الفكرية الأندلسية

### فى عصرى الإمارة والخلافة

— ١ —

لبثت الأندلس عقب الفتح ، ردحاً من الزمن ، بعيدة عن أن تكون مهداً لنشوء الحركة الفكرية . ذلك أنه خلال عصر الولاية ، لم تكن الأمور قد استقرت بعد ، ولم تترك مشاغل الغزو ، والخلافات الحزبية ، والانقلابات المتوالية فى الرياسة ، كبير مجال لاتجاه الأذهان إلى التفكير والأدب ، ومن ثم فإنا لا نجد فى هذا العصر كتّاباً أو شعراء أو مفكرين ذوى خطر ، وإن كنا نجد بعض الآثار الشعرية القليلة ، التى ترد على ألسنة بعض الولاة أو الزعماء .

ويمكننا أن نرجع الحركة الفكرية الأندلسية ، إلى عصر عبد الرحمن الداخل المتوفى سنة ١٧٢ هـ . ذلك أن هذا الأمير القوى اللامع ، منشئ الدولة الأموية بالأندلس ، كان أول شخصية بارزة ظهرت فى ميدان التفكير والأدب والشعر ، ويمكن أن نعتبره بحق رائد النهضة الأدبية النثرية والشعرية ، التى تفتحت فيما بعد ، وازدهرت فى عهد خلفائه ، ولنا فيما أوردناه من نماذج قليلة ، من نثره ، ومن نظمه، ما يدل على براعته وتفوقه فى هذا الميدان .

ومن بين أمراء بنى أمية بالأندلس ، كان الرواد الأوائل فى الحديث والفقه، فقد كان الداخل ، فوق براعته الأدبية عالماً بالشريعة ، وكان ولده هشام بن عبد الرحمن المتوفى سنة ١٨٠ هـ ( ٧٩٦ م ) مبرزاً فى الحديث والفقه . وفى عصر هذا الأمير ظهرت طلائع النهضة الأولى فى ميدان التفكير والأدب ، وكان يغلب على هذه النهضة فى البداية ، الطابع الدينى قبل كل شىء ، وكان قد رحل فى عصر الداخل جماعة من فقهاء الأندلس إلى المشرق ، ودرسوا بالمدينة على الإمام مالك وغيره من أقطاب المشرق ، واستقوا من علم مالك واجتهاده ، ونقلوا عنه كتابه ( الموطأ ) ، وكان فى مقدمة هؤلاء فقهاء مبرزون، مثل زياد بن عبد الرحمن،

وعيسى بن دينار ، ويحيى بن يحيى الليثى ، وكان زياد بن عبد الرحمن عميد فقهاء الأندلس فى وقته ، وكان الأمير هشام بن عبد الرحمن يوقره ويجله لعلمه وورعه وزهده ، وتوفى فى سنة ٢٠٤ هـ(١) . وكذا كان عيسى بن دينار ، وأصله من طليطلة ، وسكن قرطبة ، عالماً راسخاً ، وكان أستاذ الفتيا فى وقته لا يتقدمه فيها أحد ، وكان ممن اتجهت إليهم الريبة فى ثورة الربض فهرب واستخفى حيناً ، ثم عفا عنه الأمير الحكم وأمّنه ، فعاد إلى قرطبة وتوفى سنة ٢١٢ هـ(٢) . وأما يحيى بن يحيى الليثى فقد رحل كزميله إلى المشرق ، وسمع من مالك ، والليث ابن سعد ، وعبد الله بن وهب وغيرهم ، وعاد إلى الأندلس ليشغل بين فقهائها مركز الصدارة ، وكان ذهناً حراً يعتز بحريته واستقلاله ، فلم يل قضاء ، ورفض كل دعوة إلى توليه ، وتوفى فى سنة ٢٣٤ هـ(٣). وعلى يد أولئك الفقهاء والرواد ، ذاع مذهب مالك بالأندلس منذ عصر هشام . وكان هشام نفسه كثير الإجلال لمالك ومذهبه ، فزاد ذلك فى ذيوع المذهب ، وفى تمكين مكانته بالأندلس . وكان هذا بداية لنفوذ الفقهاء فى شئون الدولة ، وهو نفوذ اشتد فيما بعد ، وكان له أثر عميق فى تحريك القوى المعارضة ، التى انتهت باضطرام ثورة الربض ضد الحكم بن هشام ، فى سنة ٢٠٢ هـ ( ٨١٨ م ) ، وذلك حسبما أوضحنا فى موضعه .

وفى عصر الحكم بالذات ، تتخذ الحركة الفكرية طابعاً أوسع أفقاً ، وتظهر طوالع النزعة الأدبية إلى جانب العلوم الدينية ، ويظهر الأدباء والشعراء إلى جانب الفقهاء والمحدثين . وكان فى مقدمة من ظهروا فى تلك الفترة عبد الملك ابن حبيب بن سليمان السلمى ، وأصله من إلبيرة وسكن قرطبة ، ثم رحل إلى المشرق وسمع الكثير من علمائه . ولما عاد إلى الأندلس عمل مشاوراً مع يحيى ابن يحيى ، وسعيد بن حسان ، وكان حافظاً للفقه على مذهب المدنيين ، بيد أنه كان إلى جانب الفقه ، بارعاً فى النحو والعروض والشعر ، حافظاً للأخبار والأنساب والأشعار ، متصرفاً فى عدة فنون . وكتب عدة مؤلفات فى الفقه والتاريخ منها « الواضحة » و « الجوامع » وكتاب فى « فضائل الصحابة » ، وكتاب فى « غريب الحديث » ، وكتاب « حروب الإسلام » ، وكتاب « طبقات

---

( ١ ) راجع علماء الأندلس لابن الفرضى ( مصر ) رقم ٤٥٨ .

( ٢ ) راجع علماء الأندلس رقم ٩٧٥ .

( ٣ ) جذوة المقتبس للحميدى ( مصر ) رقم ٩٠٨ .

الفقهاء والتابعين » و « مصابيح الهدى » وغيرها ، وكان محمد بن عمر بن لُبابة يقول فيه : عبد الملك بن حبيب عالم الأندلس ، ويحيى بن يحيى عاقلها ، وعيسى ابن دينار فقيهها . وتوفى عبد الملك بن حبيب فى سنة ٢٣٨ هـ[١] .

وفى عصر الحكم بن هشام تتخذ الحركة الفكرية ، التى غلب عليها الطابع الدينى ، حتى ذلك الوقت ، طابعاً أدبياً واضحاً ، ويبدأ ظهور الكتّاب والشعراء المبرزين ، وكان الحكم نفسه فى مقدمة شعراء عصره وأدبائه ، وكان له نظم بارع أوردنا فيما تقدم طرفاً منه . ومن شعراء هذا العصر ، عباس بن ناصح الجزيرى المصمودى ، وهو من أهل الجزيرة ، وقد رحل إلى مصر والحجاز والعراق ، وتلقى على علمائها ، ودرس الفقه ، ولقى الأصمعى وغيره ببغداد ، ثم عاد إلى الأندلس ، ومدح الأمير الحكم فندبه لقضاء الجزيرة ، وكان بارعاً فى اللغة وشاعراً جزلا ، يسلك فى شعره مسلك العرب القديمة ، وكان له أيضاً حظ من الفقه[٢] . وكان ولده عبد الوهاب بن عباس بن ناصح أيضاً ، فقيهاً وشاعراً محسناً[٣] ، وكان من الكتاب والشعراء أيضاً حاجب الحكم وقائده عبد الكريم ابن عبد الواحد بن مغيث ، ومؤمن بن سعيد . وكان مؤمن شاعراً مبرزاً كثير الشعر . وكان حاد النكتة والنادرة ، ومن شعره قوله :

حرمتك ما عدا نظراً مضراً  بقلب بين أضلاعى مقـــيم
فعينى منك فى جنات عدن  مخلدة وقلبى فى الجحيم[٤]

وبلغ الشعر فى عصر الحكم ذروته ، على يد شاعرين كبيرين ، هما العلامة عباس بن فرناس ويحيى الغزال الجيّانى . وكان أولهما عالماً بالفلسفة والفلك والكيمياء الصناعية والموسيقى . وقد أشرنا فيما تقدم إلى مخترعاته العلمية ، وإلى محاولته اختراع طريقة لطيران الإنسان . وكان ثانيهما كذلك عالماً بالفلسفة والفلك ، وقد عاش كلاهما طويلا بعد عصر الحكم ، وفيما أوردناه فيما تقدم من شعرهما دليل على براعتهما فى هذا الميدان .

---

(١) راجع ابن الفرضى ، علماء الأندلس ، رقم ٨١٦ .
(٢) راجع ابن الفرضى رقم ٨٨١ .
(٣) ابن الفرضى رقم ٨٨١ .
(٤) راجع جذوة المقتبس للحميـدى رقم ٨٢٦ ، وقضاة قرطبة للخشنى (مصر) ص ١٠٣ و ١٠٥ .

وفى عصر عبد الرحمن بن الحكم ، بلغت الحركة الفكرية الأندلسية الأولى ذروتها ، ففى ميدان الكتابة احتشد فى بلاط الحكم عدة من أكابر الكتاب المبرزين ، وفى مقدمتهم الحاجب عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث ، ومحمد ابن سليمان الزجالى ، وفى ميدان العلوم الدينية ظهر فى عهد عبد الرحمن ، جمهرة من أكابر الفقهاء ، مثل محمد بن يوسف بن مطروح ، ومحمد بن حارث ، وعبد الأعلى بن وهب ، وبقىّ بن مخلد ، ومحمد بن وضاح ، وغيرهم ، وكان عميد هذه الجمهرة من الفقهاء بقى بن مخلد ، وهو من أهل قرطبة ، ودرس على علماء الأندلس وإفريقية ، وبرع فى الحديث والرواية ، ويمكننا أن نعتبره رائد علم الحديث فى الأندلس . وقد أنكر عليه بعض خصومه ما أدخله من كتب الاختلاف وغريب الحديث بالأندلس ، ووشوا به للأمير محمد بن عبد الرحمن . وقد أشرنا فيما تقدم إلى ما كان من مناظرته لخصومه ، وإلزامهم الحجة ، وإلى ما حباه به الأمير من عطفه وحمايته ، وقد كان ذلك من أسباب انتشار الحديث بالأندلس . ولبقى بن مخلد عدة مؤلفات فقهية . وله تفسير للقرآن ومسند للنبى ، وينوه العلامة ابن حزم فى رسالته بعلم بقى وأهمية كتبه ، ويقول لنا إن تفسيره للقرآن لم يؤلف فى الإسلام مثله[١] . وسمع على بقى جمهرة من فقهاء الأندلس ، وكان ورعاً زاهداً ، وتوفى سنة ٢٧٦ هـ[٢] .

وكان من أعلام الفقهاء فى هذا العصر ، محمد بن عبد السلام الخشنى وهو من أهل قرطبة ، ورحل إلى المشرق وسمع ، فى البصرة وبغداد ومصر ، وكان فصيحاً جزل البيان ، بارعاً فى اللغة ، ورواية الحديث ، وكان أنوفاً منقبضاً عن السلطان ، وقد رفض أن يتولى القضاء للأمير محمد بن عبد الرحمن ، وتوفى فى سنة ٢٨٦ هـ[٣] .

وقد سبق أن أشرنا إلى ما كان يتمتع به الأمير عبد الرحمن بن الحكم من المواهب الأدبية والشعرية ، وأوردنا فيما تقدم طرفاً من شعره . وكان من ألمع شعراء عصره ، صديقه وشاعره عبد الله بن الشمر بن نمير ، وهو من أهل وشقة ، وكان

---

(١) راجع رسالة ابن حزم عن علماء الأندلس فى نفح الطيب ج ٢ ص ١٣١ .

(٢) راجع ابن الفرضى رقم ٢٨٣ .

(٣) ترجمته فى ابن الفرضى رقم ١١٣٤ . وهو غير محمد بن حارث الخشنى صاحب « قضاة قرطبة » المتوفى سنة ٣٦١ هـ

عالماً متمكناً وشاعراً محسناً . وله شعر جيد كثير وقد أخذ الناس من شعره[١] .

وكان من أبرز الظواهر الأدبية فى هذا العصر ، انتشار اللغة العربية وآدابها بين طائفة المستعربين أو النصارى المعاهدين ، ونبوغ الكثير منهم فيها ، وبلوغهم مرتبة البراعة فى كتابتها ، ويمكننا أن نذكر من كتابهم المبرزين فى هذا العصر ، الأسقف جومث بن أنتنيان، قومس أهل الذمة ، وكان أديباً بارعاً ، وكاتباً مقتدراً ، ومن كتاب الأمير عبد الرحمن .

وكانت الفتنة الكبرى فى عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن ( ٢٢٨ — ٢٧٣ ﻫ ) وولده الأمير عبد الله ( ٢٧٥ — ٣٠٠ ﻫ ) عاملا هاماً فى اضطرام النهضة الأدبية، والشعرية بنوع خاص . وكان من أبرز شعراء عهد الفتنة الأول عباس ابن فرناس، وقد أوردنا قصيدته فى موقعة طليطلة ، التى سحق فيها الثوار . وفى أواسط عهد الفتنة ظهر شاعر من أعظم شعراء الأندلس ، وأديب من أعظم أدبائها، هو الفقيه أبو عمر أحمد بن عبد ربه ( ٢٤٦ — ٣٢٨ ﻫ ) صاحب كتاب « العقد الفريد » الذى يعتبر من أعظم آثار الأدب الأندلسى . ويمكننا أن نعتبر ابن عبد ربه شاعر الدولة المروانية، منذ عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن حتى عهد عبد الرحمن الناصر ، وقد ظهر بشعره فى موقعة إستجة التى سحق فيها الثائر عمر بن حفصون ، وذلك فى سنة ٢٧٨ ﻫ ( ٨٩١ م ) ، وظهر بمدائحه للأمير عبد الله، ثم حفيده عبدالرحمن الناصر ، وقد كان معلمه فى صباه، وبأرجوزته فى غزوات الناصر ومآثره . وقد أوردنا من نظمه فيما تقدم عدة من قصائده . وأما كتابه « العقد الفريد » فإنه يعتبر بمحتوياته وتنوعه ، من أمتع الكتب فى الأدب العربى ، وبالرغم من أن موضوعاته ، يغلب عليها طابع الأدب المشرقى ، فإنه يعتبر عنواناً بارزاً للأدب الأندلسى فى مرحلته الأولى . وقد انتقد بعضهم العقد الفريد لأنه « لم يجعل فضائل بلده ، واسطة عقده ، ومناقب ملوكه يتيمة ملكه، »[٢] ويعتبر العقدالفريد بطابعه المشرقى ، على النقيض من كتاب « الذخيرة » لابن بسام الشنترينى ، المتوفى سنة٥٤٢ﻫ ، والذى يعتبر بمحتوياته وروحه، مثلا ساطعاً للأدب الأندلسى .

---

( ١ ) ابن الفرضى رقم ٦٩١ .

( ٢ ) راجع نفح الطيب ج ٣ ص ١٢٦ .

ومن شعراء عهد الفتنة وأدبائها البارزين سوّار بن حمدون القيسى ، وسعيد ابن سليمان بن جودى ، وهما من زعماء الفتنة العرب ، وكان كلاهما إلى جانب فروسيته من أعلام البيان والنظم فى وقته ، وقد نقل إلينا ابن الأبار نماذج من نظمهما(١) .

وكان من أعلام الأدب فى تلك الفترة أيضاً محمد بن أضحى الهمدانى ، وهو من زعماء العرب بكورة إلبيرة . وكان بارعاً فى الأدب ، خطيباً مفوهاً ، يخطب بين يدى الأمراء فى المحافل ، وكان خلال الفتنة قد انضوى تحت لواء الأمير عبد الله ، ثم انضوى بعد ذلك تحت طاعة الناصر فيمن خضع من ثوار النواحى(٢) .

وكان الأمير عبد الله نفسه من ألمع شعراء عصره . وكان بارعاً فى العربية ، حافظاً للغريب من الأخبار ، وقد نوه المؤرخ ابن حيان بشاعريته ، ورفيع أدبه ، وأوردنا نحن فيما تقدم نماذج رقيقة من شعره .

— ٢ —

وكان عصر عبد الرحمن الناصر ، من ألمع عصور الدولة الأموية بالأندلس ، وفيه زهت العلوم والآداب ، وظهرت جمهرة من أكابر الشعراء والعلماء . وكان من أعلام تلك الفترة ، إلى جانب عميدهم ابن عبد ربه ، صاحب العقد الفريد ، محمد بن عمر بن لُبابة ، وهو من أهل قرطبة . وكان إماماً فى الفقه ، متمكناً من حفظ الرأى ، والبصر بالفتيا ، وكان مشاوراً أيام الأمير عبد الله ، ثم انفرد بالفتيا أيام الناصر ، فلم يكن يشاركه أحد فى الرياسة والقيام بالشورى ، وكان حافظاً لأخبار الأندلس ، وله حظ من النحو والشعر . وقد وُلى الصلاة بالمسجد الجامع ، وتوفى فى سنة ٣١٤هـ . ومن مؤلفاته كتاب المنتخب فى روايات مذهب مالك(٣) .

وقد حدثنا ابن حيان فى المقتبس عن شعراء عصر الناصر الذين التفوا حول بلاطه ، وأشادوا بمدحه ، فقال : إن « فى مقدمتهم معلمه فى الصبا أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه ، ويليه من نمطه عبيد الله بن يحيى بن إدريس ، وعبد الملك بن سعيد المرادى ، وإسمعيل بن بدر ، وأغلب بن شعيب ، وحسان بن

---

(١) راجع الحلة السيراء ( طبعة دوزى ) ص ٨٠ - ٨٧ .

(٢) الحلة السيراء ص ٩٨ .

(٣) ابن الفرضى رقم ١١٨٩ .

حسان [السناط] وغيره ، ومن كبار الطارئين عليه من المشرق ، طاهر بن محمد المهند البغدادى ، ومحمد بن حسين الطبنى الإفريقى ، وغيرهما ، أسلفوا فى الناصر لدين الله إحساناً كثيراً .

فمن قول أبى عثمان عبيد الله يحيى بن إدريس فى الناصر لدين الله ، وقد غزا الروم فى شهر رمضان ، وأدركه الفطر فى بلاد العدو ، فلم يتورع ، وصمد إلى لقابهم ، وقد اجتمعوا :

يهنى الخلافة سعى خير إمام ... لله مسعاه وللإسلام
ملك تمكن فى المكارم والعلى ... كتمكن الأرواح فى الأجسام
عزم الرحيل مصمماً فى عيده ... لشفاء غلة سيفه الصمصام
يصل الترحل بالترحل دائبا ... فى الحل يحكمه وفى الإبرام
ليعز دين الله فى كنف العلى ... ويذب عن حرم الهدى ويحام
مستنجزاً وعد الإله بنصره ... فى شيعة الإشراك والإحرام

وقوله حينما نزل الناصر بجيوشه طايطلة ، وارتياع الحلاقة لمقدمه ، من قصيدة :

على أى فتح تقدما أنتـ ... ـلك فتوح الثغر فذاً وتوءما
تباشير تترى من فتوح تواتـ ... ـرت كما تابع النثر الجمان المنظما

ومن نظم أبى الحسن جعفر بن عثمان المعروف بالمصحفى كاتب ولى العهد الحكم بن الناصر لدين الله ، السامى المحل فى الاشتمال على متن البلاغة ، من النثر والنظم بالتبريز ، ما نظمه وقت انتقال الناصر لدين الله عن سرقسطة :

على أيمن الأوقات كان ارتحالك ... وفى أيمن الساعات كان احتلالكا
تنقلت عن دار الشقاق مظفراً ... وقد صال بالمخذول فيها صيالكا
وحاربت ذا السيف العريض بميتة ... أرت مستجيش الشرك كيف اغتيالكا
وأقفلت عنهم والمنايا صوايب ... تسيل بها فى ساحتيهم سجالكا
إذا ماالقرى رام اغتلاق جفونهم ... فخطفه بالخوف عنها خيالكا
وإن ذهبوا للسير فى الأرض مذهبا ... تراءى لهم فى كل أفق مثالكا
هل الأجل المرهوب إلا صيالكا ... أم الأمل المرغوب إلا نوالكا
بقيت أمير المؤمنين مملكاً ... فما الروضة الزهراء إلا جلالكا

وقال إسمعيل بن بدر فى مديح الناصر وذكر غزوته للجزيرة الخضراء :

تطوى المراحل إدلاجاً وتنحيرا مشمراً فى رضى الرحمن شميرا

بدر الملوك الذى إشراق سنته تجلو عن الدين والدنيا الدياجيرا

من قد قضى الله فى ماضى شبيبته لا يزال على الأعداء منصورا

قال ابن حيان : « والشعر فى الناصر لدين الله رحمة الله عليه ، كثير جداً ، محمول عن فحول يقدمهم ابن عبدربه ، وابن إدريس ، ومهند والطبنى ونمطهم... فى تجويد صناعتهم بفضل ما ألفوا لديه من التوسعة عليهم ، والإحسان إليهم ، فكل منهم كمل فيما صاغه فيه ديواناً بذاته ، عنى رسومها ، وغيض معينها من الليالى وانصرام الدولة ، وتسلط الفتن البربرية ، والمطاولة على التواريخ الملوكية ، التى كانت له قاصمة وجامعة ، حتى مزقت كل ممزق بأيدى الجهال ، فهل من باقية »[1] .

وكان بين وزراء الناصر وحجابه ، عدة من أكابر الكتاب والأدباء ، مثل الحاجب موسى بن محمد بن حدير ، وقد كان من أهل الأدب والشعر ، فضلا عن كونه من بيت رياسة وجلالة[2] وعبد الملك بن جهور ، وقد كان وزيراً جليلا ، وأديباً وشاعراً محسناً ، ومن شعره :

إن كانت الأبـــدان نائمـــة فنفوس أهل الظرف تأتلف

يارب مفترقـــين قد جمعت قلبيهما الأقـــلام والصحف[3]

وكان من أعلام تلك الفترة أيضاً القاضى منذر بن سعيد البلوطى ( ٢٦٥ — ٣٥٥هـ ) ، وكان بارعاً فى علوم القرآن والسنة ، وظهر فوق ذلك بفصاحته وجزالة شعره . وقد أشرنا فيما تقدم إلى موقفه الخطابى الرائع ، فى حفل استقبال سفارة قيصر الروم ، وما حباه به الناصر من أجل ذلك ، من عطف ، وتقدير ، وتوليه للخطابة والقضاء . ومن مؤلفاته «كتاب الإبانة عن حقائق أصول الديانة » .

وفى عصر الناصر ظهرت حركة دينية ، على رأسها أبى عبد الله محمد بن عبد الله بن مسرة الجبلى من أهل قرطبة . وكان مولده بها فى سنة ٢٦٩ هـ . وقد

---

( ١ ) ابن حيان فى المقتبس — السفر الخامس — مخطوط الخزانة الملكية — لوحات ٢٧ و ٣١ .

( ٢ ) جذوة المقتبس رقم ٧٨٧ .

( ٣ ) جذوة المقتبس رقم ٦٢٦ .

برع ابن مسرة فى العلوم الدينية ، ولكنه جاهر ببعض الآراء المغرقة ، فى التأويل والقدر وغيرها ، فاتهم بالزندقة وغادر الأندلس . فاراً إلى المشرق وذلك فى سنة ٢٩٨ هـ ، ودرس هنالك على أيدى المعتزلة ، والكلاميين وأهل الجدل . ثم عاد إلى الأندلس وهو يخفى نحلته وآراءه الحقيقية ، تحت ستار من النسك والزهد . وكان يتخذ لنفسه غاراً يتعبد فيه على مقربة من جبل قرطبة ، حتى سمى بالجبلى . واختلف إليه الطلاب من كل صوب . وكان يستهويهم بغزير علمه وجزالة بيانه ، حتى ذاعت شهرته ، وتبعه الكثيرون من الصحب و التلاميذ . وقد اختلف فى أمر ابن مسرة ، فبعضهم يسمو به إلى مرتبة الإمامة فى العلم و الزهد والورع ، ومنهم من كان يرميه بالزندقة وترويج البدع . وتوفى ابن مسرة بقرطبة سنة ٣١٩ هـ ( ٩٣١م )[1] . على أن تعاليم ابن مسرة لبثت بعد ذلك حية ذائعة ، طوال عهد الناصر ، وقام جمهرة من أهل السنة ، بمعارضة تعاليمه وإنكارها ، ووصل صوتهم فى ذلك إلى الخلافة ، واضطر الناصر إلى أن يصدر باسمه بياناً فى سنة ٣٤٠ هـ ، يستنكر فيه تعاليم ابن مسرة وتلاميذه ، ويرميهم بالمروق ، والخروج عن تعاليم السنة الحقيقية ، وقد أورد لنا ابن حيان هذا البيان الفريد فى المقتبس[2] ، وقد تحدثنا فيما تقدم عن ابن مسرة وحركته ، ولخصنا كتاب الناصر فى شأنها .

وفى عصر الناصر بالذات ظهر شاعر من أعظم شعراء الأندلس ، هو أبو القاسم محمد بن هانىء الأزدى الإشبيلى ، وقد ولد بإشبيلية فى سنة ٣٢٦ هـ ، وظهر منذ حداثته ببراعة شعره وروعة افتتانه ، ولكنه اتهم بالكفر والزندقة . فغادر الأندلس ، ولحق بالبلاط الفاطمى بالمهدية ، والخليفة المعز لدين الله يتأهب عندئذ لفتح مصر ، فأغدق عليه المعز عطفه ورعايته . ولما سار المعز إلى مصر ، سار ابن هانىء للحاق به ، ولكنه توفى فى طريقه فى سنة ٣٦٢ هـ . وقد شُبه ابن هانىء بالمتنبى فى رصانة شعره ، وروعة افتتانه ، ومن أشهر قصائده قصيدته التى يصف فيها جيش المعز الذاهب إلى فتح مصر ، بقيادة جوهر الصقلى ، والتى يقول فيها :

---

( ١ ) ابن الفرضى رقم ٦٤٢ .

( ٢ ) وذلك فى النسخة الخطية من السفر الخامس من المقتبس المحفوظة بخزانة القصر الملكى بالرباط بالمغرب وقد نقلناه منه ، ونشرناه فى آخر الكتاب .

رأيت بعيني فوق ما كنت أسمع | وقد راعني يوم من الحشر أروع
غداة كان الأفق سد بمثله | فعاد غروب الشمس من حيث تطلع
فلم أدر إذ ودعت كيف أودع | ولم أدر إذ شيعت كيف أشيع
ألا إن هذا حشد من لم يذق له | غرار الكرى جفن ولا بات يهجع
إذا حل فى أرض بناها مدائنـــا | وإن سار عن أرض غدت وهى بلقع
تحل بيوت المـــال حيث محـــله | وجم العطايا والرواق المرفـــع
رحلت إلى الفسطاط أول رحلة | بأيمن فأل فى الذى أنت تجمـــع
فإن يك فى مصر ظمأ لمـــورد | فقد جاءهم نيل سوى النيل يهرع
ويممهم من لا يغـــار بنعمـــة | فيسلبهم لـــكن يزيد فيوســـع

وكان من أعلام الشعر فى عصر الناصر أيضاً الوزير جعفر بن عثمان المصحفى، الذى تولى الحجابة فيما بعد لولده الحكم المستنصر، وتوفى فى سنة ٣٧٢هـ فى سجن الزهراء، ضحية لمنافسه القوى محمد بن أبى عامر المنصور. وقد أوردنا من شعره فيما تقدم فى غير موطن.

وظهر فى عصر الناصر عدد من أكابر الكتاب البلغاء، فى مقدمتهم كاتب الناصر الأثير عبد الله بن محمد الزجّالى، وهو الذى أنشأ عن لسانه البيان الخاص بمروق ابن مسرة الذى سبقت الإشارة إليه.

وكان الناصر نفسه عالماً أديباً، يهوى الشعر وينظمه، ويقرب الأدباء والشعراء. وكان فى مقدمة شعراء دولته وآثرهم لديه الفقيه ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد، وذلك حسبما أشرنا فى موضعه.

وظهر فى عهد الناصر عدة من أعلام المؤرخين الذين وضعوا أسس الرواية الأندلسية. أولهم أحمد بن محمد بن موسى الرازى، وقد ولد الرازى سنة ٢٧٤ هـ وتوفى سنة ٣٤٤هـ. ومن تصانيفه «أخبار ملوك الأندلس وخدمتهم وغزواتهم ونكباتهم»، وكتاب «الإستيعاب فى أنساب أهل الأندلس»، وكتاب فى «صفة قرطبة وخططها ومنازل الأعيان بها». وقد كانت رواية الرازى مستقى خصباً لمؤرخى الأندلس، وفى مقدمتهم عميدهم ابن حيان.

وظهر قرينه ومعاصره ابن القوطية، وهو أبو بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز بن عيسى بن مزاحم؛ ويعرف بابن القوطية لانتسابه بطريق النسب إلى

سارة القوطية إبنة وتيزا ملك القوط . وقد ولد بقرطبة وتوفى بها سنة ٣٦٧ هـ (٩٧٧م) ، وكان راوية متمكناً حافظاً لأخبار الأندلس . وسير أمرائها وأخبار علمائها وفقهائها وشعرائها . وقد كتب تاريخه المسمى « تاريخ افتتاح الأندلس » .

وكان فوق ذلك من أئمة عصره فى اللغة والنحو ، وله فى ذلك مؤلفات قيمة ، وكانت كتب اللغة أكثر ما تقرأ عليه ، وتؤخذ عنه .

ومن أعلام المؤرخين فى ذلك العصر أيضاً أحمد بن موسى العروى المتوفى سنة ٣٨٨ هـ ، وقد ألف كتاباً عنوانه « تاريخ الأندلس » .

واستمرت النهضة الفكرية ، التى ازدهرت فى عصر الناصر ، وفى عهد ولده الحكم المستنصر ( ٣٥٠ — ٣٦٦ هـ ) وازدادت قوة وازدهاراً . وكان الحكم ، وهو الخليفة الأديب العالم ، رائد هذه الحركة الفكرية العظيمة . وكان من ظواهرها قيام جامعة قرطبة العظيمة ، واحتشاد أكابر الأستاتذة بين عقودها ، وإنشاء المكتبة الأموية الكبرى ، التى بذل الحكم فى إنشائها من الجهود العظيمة والأموال الزاخرة ما لم يسمع بمثله ، حتى بلغت محتويات هذه المكتبة الفريدة زهاء أربعمائة ألف مجلد ، من مختلف أصناف العلوم والفنون . وكثرت المكتبات العامة والخاصة ، وبلغ شغف اقتناء الكتب أشده فى ذلك العصر ، واحتشد حول بلاط الحكم ، جمهرة من أكابر العلماء ، فى مقدمتهم الحافظ أبو بكر بن معاوية القرشى ، وأبو على القالى ضيف الأندلس يومئذ ، والأديب المؤرخ محمد بن يوسف الحجارى ، وإمام النحو والرواية ابن القوطية ، وربيع بن زيد الفيلسوف والعلامة الفلكى النصرانى ، وغيرهم .

وظهر فى تلك الفترة جمهرة من الشعراء المبرزين ، وكان فى مقدمتهم طاهر ابن محمد البغدادى ، الوافد من المشرق إلى الأندلس ، وكان يعرف بالمهند . وكان شاعراً محسناً ، مدح الحكم المستنصر ، ثم مدح المنصور بن أبى عامر بعد ذلك ، وحظى لديه ، وقد اتهم بالغلو فى بعض الآراء الدينية . ومن شعره قوله :

| | |
|---|---|
| متى أشكر النعمى التى هى جنتى | فنى ظلها أمسى وفى ضوئها أضحى |
| إذا قلت قد جازيت بالشكر نعمة | شفعت بأخرى منك دائمة السفح |
| فحمدى لا ينأى وفضلك لا ينى | وأرضى لا تصدى وأفقك لا يصحى (١) |

ومنهم محمد بن مطرف بن شخيص ، وكان من أهل الأدب البارع ، ومن

(١) راجع جذوة المقتبس للحميدى ( مصر ) رقم ٥١٥ ، وبغية الملتمس رقم ٨٥٩ .

أعيان الشعراء المجيدين، كان متصرفاً فى القول، متقناً لأساليب الجد والهزل، وكان من أخص شعراء بلاط الحكم، وله شعر كثير، ومن شعره فى تهنئة الحكم بوفود جعفر ويحيى ابنى حمدون، وتقديم طاعتهم إليه، قصيدة طويلة، هذا مطلعها :

بأيمن إقبال وأسعد طائر تباشير محتوم من الأمر واقع
توافت بملك من معد مقوض لملك إلى مهدى مروان راجع
فيا لك من بشرى سرور تضمنت بلوغ الأمانى عن سعود الطوالع

ومن قوله فى الغزل :

فهل من شفيع عند ليلى إلى الكرى لعلى إذا ما نمت ألقى خيالها
يقولون لى صبراً على مطل وعدها وما عدت ليلى فأشكو مطالها
وما كان ذنبى غير حفظ عهودها وطى هواها واحتمالى دلالها(١)

ومنهم محمد بن الحسين التميمى الطبنى، أصله من طبنة، بلد بأرض الزاب بالمغرب، وكان شاعراً محسناً، وأديباً بارعاً من بيت أدب وجلالة ورياسة، وكان من شعراء الحكم الأثيرين. ومن شعره يهنىء الحكم بحلول عيد الأضحى :

بخلت بجوهر لفظها أن يلقطا لما رأته من الجواهر أبسطا
يا أيها الملك المتوج بالهدى نوراً على غسق الظلام مسلطا
صل عيدك البهيج السنا فى غبطة وازدد من الأعياد ألفا مغبطا(٢)

ومنهم يحيى بن هذيل، وكان من أهل العلم والأدب والشعر الجيد؛ وتوفى سنة ٣٨٦ هـ، ومن شعره :

لم يرحلوا إلا وفوق رحالهم غيم حكى غبش الظلام المقبل
وعلت مطارفهم مجاجات الندى فكأنما مطرت ببدر مرسل
لما تحركت الحمول تناثرت من فوقهم فى الأرض تحت الأرجل
فبكيت لو عرفوا دموعى بينها لكنها اختلطت بشكل مشكل(٣)

ومنهم، ومن أشهرهم يوسف بن هارون الرمادى القرطبى المعروف بأبى جنيش، كان من أشهر شعراء الأندلس فى وقته، واشتهر بالأخص بشعره

---

(١) جذوة المقتبس رقم ١٤٤. وبغية الملتمس رقم ٢٧٦، والمقتبس، قطعة أكاديمية التاريخ ص ٥٤ و ٦٠.
(٢) جذوة المقتبس رقم ٣٨، والمقتبس — قطعة أكاديمية التاريخ ص ٩٤.
(٣) جذوة المقتبس رقم ٩٠٧، وبغية الملتمس رقم ١٤٩٤.

**الهجائى** ، وكان سريع البديهة مشهوراً عند العامة والخاصة ، لسلوكه فى فنون مختلفة من المنظوم . ومدح الرمادى الحكم المستنصر ، ولكنه وقع تحت طائلة غضبه لما صدر منه من شعر قاذف فى حقه ، وأمر باعتقاله مع باقى الشعراء الهجائين ، حماية للناس من ألسنتهم ، وزج الرمادى إلى السجن مدة ، وكتب خلال اعتقاله كتاباً سماه « كتاب الطير » وصف فيه كل طائر معروف . ثم عفا عنه الحكم وأطلقه مع باقى إخوانه . وتوفى الرمادى فقيراً معدماً أيام الفتنة فى سنة ٤٠٣ هـ . ومن شعره قوله :

| | |
|---|---|
| لا تنكروا غزر الدموع فكل ما | ينحل من جسمى يصير دموعا |
| والعبد قد يعصى وأحلف أننى | ما كنت إلا سامعاً ومطيعا |
| قولوا لمن أخذ الفؤاد مسلماً | ممن على برده مصدوعا[1] |

ونبغ فى تلك الفترة عالم من أعظم علماء اللغة بالأندلس ، هو أبو بكر محمد ابن الحسن الزبيدى النحوى الإشبيلى . وقد وضع فى اللغة والنحو عدة كتب مشهورة منها « الواضح » و « لحن العامة » « وأخبار النحويين » ، كما وضع مختصراً لكتاب « العين » ، إلى غير ذلك . وكان فى نفس الوقت أديباً بارعاً ، وشاعراً محسناً ، وقد أورد لنا الحميدى شيئاً من نظمه ، وندبه الخليفة الحكم ، حسبما أسلفنا فى موضعه لتدريس اللغة لولده هشام ، وألزمه بالبقاء فى قرطبة ، ولم يأذن له بالرجوع إلى وطنه إشبيلية . وتوفى الزبيدى قرابة سنة ٣٨٠ هـ .[2]

وكان الخليفة الحكم المستنصر نفسه ، فوق تمكنه من العلوم الشرعية وتحقيق الأنساب ، أديباً ينظم الشعر الرائق. وقد أوردنا من قبل فى موضعه شيئاً من نظمه.

ثم كان الانقلاب العظيم ، فى مصاير الخلافة الأموية ، وتغلب محمد بن أبى عامر أو الحاجب المنصور على الدولة ، وكان من حسن الطالع أن المنصور بنشأته وخلاله العلمية اللامعة ، كان من أعظم رواد الحركة الفكرية ، وكان المنصور عالماً متمكناً من الشريعة والأدب ، بارعاً فى النثر والنظم ، وقد ذكرنا فيما تقدم شيئاً من نثره ونظمه . وكان يعشق مجالس العلماء والأدباء ، حتى أنه كان خلال الغزو ، يصطحب معه طائفة من الكتاب والشعراء ، ينتظمون فى مجلسه خلال

---

(١) الصلة لابن بشكوال رقم ١٤٩١ ، وجذوة المقتبس رقم ٨٧٨ .

(٢) جذوة المقتبس رقم ٣٤ .

السير . وكان شاعره الأثير أبو العلاء صاعد بن حسن البغدادى المتوفى سنة٤١٧ﻫ ؛ وكان قد وفد من المشرق على الأندلس ، فى أوائل عهد المنصور ، وكان عالماً باللغة والأدب والتواريخ ، فقربه المنصور ، وأغدق عليه عطفه ، وجمع له صاعد كتاباً سماه « بالفصوص فى الآداب والأشعار والأخبار » فأثابه عنه المنصور بخمسة آلاف دينار ، وأمر أن يقرأه على الناس بمسجد الزاهرة[1] .

بيد أن المنصور ، بالرغم من شغفه بالعلم والأدب ، لم يبد تسامحاً إزاء الفلسفة والفلاسفة ، أو بعبارة أخرى إزاء الأفكار الحرة . وقد كانت هذه النزعة الضيقة الأفق ، تمثل نفس التيار الذى يندفع فيه كل حاكم مطلق . وقد رأينا فيما تقدم كيف طورد عباس بن فرناس ، فى عهد عبد الرحمن بن الحكم ، واتهم بالزندقة لما أبداه من براعة علمية وفنية خارقة ، وكيف طورد تلاميذ ابن مسرة وطوردت تعاليمه فى عهد الناصر ، وأصدر الناصر منشوره بتكفيره وتكفير تلاميذه ، وقد استمر هذا التيار الرجعى فيما بعد فى عهد الطوائف ، حيث أحرقت كتب ابن حزم ، وفيما تلا بعد ذلك من عهود ، وذلك حسبما نذكره فى موضعه .

وكان من أعظم شعراء الأندلس فى عصر المنصور أبو عمر أحمد بن محمد ابن درّاج القسطلى . وكان كاتباً بليغاً من كتاب ديوان الإنشاء ، وشاعراً لامعاً فى نفس الوقت . وقد نبغ فى ميدان الشعر نبوغاً جعله عمدة شعراء عصره . وكان من شعراء المنصور المقربين ، وله فيه مدائح رائعة ، نقلنا بعضها فيما تقدم . ولما توفى المنصور فى سنة ٣٩٢ ﻫ ، تجول ابن دراج فى أنحاء الأندلس ، ومدح بعض أمراء الطوائف ، مثل خيران العامرى صاحب ألمرية ، ومبارك ومظفر صاحبا بلنسية ، والمنذر بن هود صاحب سرقسطة . وقد قال العلامة ابن حزم فى حقه ، إنه لم يكن بالأندلس أشعر من ابن دراج ، وتوفى ابن دراج فى سنة ٤٢٠ ﻫ ( ١٠٢٩ م )[2] .

وكان من أكابر الفقهاء والحفاظ فى عصر المنصور ، عبد الرحمن بن فطيس قاضى الجماعة بقرطبة ، وكان من أئمة المحدثين وكبار العلماء ، حافظاً متمكناً من الحديث ، عارفاً بأسماء الرجال ، وله مشاركة فى مختلف العلوم ، وتقدم فى

---

( ١ ) كتاب الصلة لابن بشكوال ( مصر ) رقم ٥٤٠ .

( ٢ ) راجع جذوة المقتبس للحميدى رقم ١٨٦ ، وبغية الملتمس للضبى رقم ٣٤٢ .

معرفة الآثار والسير والأخبار ، وكان جمّاعة للكتب ، وقد جمع منها ما لم يجمعه أحد من أهل عصره بالأندلس . تقلد قضاء الجماعة بقرطبة سنة ٣٩٤ هـ ، مقروناً بولاية الصلاة والخطبة ، وذلك إلى جانب عمله فى الوزارة ، وذلك أيام المظفر عبد الملك المنصور ، وكان مشهوراً فى أحكامه بالنزاهة والصلابة فى الحق ، ونصرة المظلوم ، وله مؤلفات كثيرة منها كتاب « أسباب نزول القرآن » و « كتاب فى فضائل الصحابة » و « أعلام النبوة ودلالات الرسالة » و « مسند حديث محمد بن فطيس » وغيرها ، وتوفى ابن فطيس أثناء الفتنة البربرية فى سنة ٤٠٢ هـ (١).

* * *

ولما انقضى عهد الدولة العامرية ، وانهارت الخلافة الأموية ، واضطرمت الفتنة بالأندلس ، انكمشت الحركة الفكرية ، وشغلت الأمة الأندلسية بما دهاها من أمر الفتن المتوالية ، وتعاقب الرياسات ، ومع ذلك ففى غضون الفتنة ، نجد من الخلفاء من يتذوق الشعر وينظمه . فقد كان الخليفة سليمان المستعين ، أديباً متمكناً ، وشاعراً مطبوعاً ، أشاد ابن بسام بأدبه وشاعريته . وقد أوردنا له فيما تقدم قصيدته الرائعة التى يعارض فيها شعر الخليفة الرشيد . وكذلك كان الخليفة المستظهر أديباً شاعراً من الطراز الأول ، وقد نوه ابن بسام بمواهبه الأدبية ، وأورد له طائفة من القصائد الجيدة .

وحتى فى ظل الخلافة الحمودية البربرية ، كان للأدب والشعر دولة ومكانة ، وكان الخليفة العالى خليفة مالقة أديباً ينظم الشعر . وكان من شعراء دولته الشاعر الكبير ، عبد الرحمن بن مقانا الأشبونى ، وكان أديباً بارعاً ، وشاعراً متقناً ، وهو الذى مدح العالى بقصيدته الشهيرة التى مطلعها :

ألبرق لائح من أندرين ... ذرفت عيناك بالماء المعين

ونكتفى بتلك الصورة الموجزة ، عن سير الحركة الفكرية الأندلسية ، فى عهد الإمارة ، وعهد الخلافة . وقد ذكرنا فيما تقدم أثناء استعراضنا لتاريخ هذين العهدين كثيراً من تفاصيلها ، وأشرنا إلى كثير من أعلام الفكر والأدب ، ممن لم نر أن نعود إلى ذكره فى هذا الفصل .

(١) الصلة لابن بشكوال رقم ٦٨٢ .

# الوثائق والملحقات

## وثائق تاريخيـــة

## — ١ —

### كتاب الخليفة الناصر لدين الله

### بشـــأن حـــركة ابن مسرة

( منقول عن السفر الخامس من كتاب « المقتبس » لابن حيان ، وهو المخطوط المحفوظ بالخزانة الملكية بالرباط لوحات ١٣ و ١٤ و ١٥ ) .

« وأنفذ الخليفة الناصر لدين الله إلى آفاق مملكته بشأن هؤلاء المبتدعة ( يعنى تلاميذ ابن مسرة ) كتاباً طويلا قرئ عليهم بأمصارهم ، من إنشاء الوزير الكاتب عبد الرحمن بن عبد الله الزجّالى ، نسخته :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد ، فإن الله تعالى جده ، وعز ذكره ، جعل دين الإسلام أفضل الأديان ، فأظهره وأعلاه ، ولم يقبل من عباده غيره ، ولا رضى منهم سواه ، فقال فى محكم تنزيله : « ومن يتبع غير الإسلام ديناً ، فلن يقبل منه ... » الآية ، وقضى فى محتوم أمره ، ونفاذ حكمه ، أن تنسخ به الديانات ، وبختم برسالته الرسالات ، فبعث محمداً خاتم النبيين ، وأكرم الأكرمين ، وأعز الخلايق على رب العالمين ، بأن كتب الصلاة والسلام عليه فى عرشه قبل أن يخلقه ، واصطفاه لأمانته قبل أن يكونه ، وأرسله بأفضل دين سماه حنيفاً إلى خير أمة اختارها ... كما قال عز من قائل ، إذ عرّفنا فضل ما هدانا إليه من الدين ، وكرمنا به على ساير الأمم : « كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر ... الآية » . فله جل جلاله ، وتقدست أسماؤه ، الشكر على خصايص هذه الفضيلة ، والحمد بالمنة الجليلة ، فقد استنقذ من الغواية وهدى ، فأحسن الهداية ، وأبان الحجة ، وكفانا بواضح المناهج مؤنة الفكرة ، ونظم زمام الأمة ، وجمع وجوه السعادة العاجلة ، والنجاة الآجلة فى تأليف الجماعة ، واجتبا فيهم رعاية الفرقة ، حيث يقول عز وجهه ، لنبيه صلى الله عليه وسلم .. به وبعباده المخصوص بهداه ، ورأفة بسطها على خير.. وإعلاما لهم...بتواصل الدين من قبله لأنبيائه... وكراهته لاختلافهم بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً ، والذى أوحينا

إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى ، أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ... الآية » . فخوف وحذر ، ونهى عن افتراق الكلمة ، ونبه على البعد ، ونفى الله الخبيث عنها ، وفضلها على سائر البلدان ، واستقر فيها الدين ، كهيئته يوم أكمله الله لعباده . ولما استوسقت الطاعة ، وشملت النعمة ، وعم الأقطار ، بعدل أمير المؤمنين ،السكون والدعة ، طلعت فرقة لا تبتغى خيراً ، ولا تأتمر رشداً ، من طغام السواد ، ومن ضعف آرائهم ، ومن خشونة الأوغاد ، كتباً لم يعرفوها ، ضلت فيها حلومهم ، وقصرت عنها عقولهم ، وظنوا أنهم فهموا ما جهلوا ، وتفقهوا فيما لم يدركوا ، واستولى عليهم الخذلان ، وأحال عليهم بخيله ورجله الشيطان ، فزينوا لمن لا تحصيل لهم ، ولقوم آمنين لا علم عندهم ، فقالوا بخلق القرآن ، واستيئسوا ، وآيسوا من روح الله ، ولا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ، وأكثروا الجدل فى آيات الله ، وحرموا التأويل فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبريت منهم الذمة بقوله تقدست أسماؤه : « ألم تر إلى الذين يجادلون فى آيات الله أنى يصرفون ، الذين كذبوا بالكتاب ، وما أرسلنا به رسلنا فسوف يعلمون ، إذ الأغلال فى أعناقهم والسلاسل يسحبون . فى الحميم ثم فى النار يُسجرون . فهذا أبلغ الوعيد ، وأفظع النكال ، لمن جادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ثانى عطفه : ليضل عن سبيل الله له فى الدنيا خزى ، ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق ... » ثم تجاوزوا فى البهتان ، وسدوا على أنفسهم ألوان الغفران ، فأكذبوا التوبة ، وأبطلوا الشفاعة ، ونالوا محكم التنزيل ، وغامض متن التأويل ، بتقدير عقولهم : فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة ، وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله ، والراسخون فى العلم ، يقولون آمنا به ، كل من عند ربنا ، وما يذكر إلا أولو الألباب . فصاروا بجهل الآثار ، وسوء حمل الأخبار إلى القدح فى الحديث ، وترك نهج السبيل ، فأساءوا الفهم عن العوام ، وأقدموا بمكروه القول فى السلف الصالح ، واستبدلوا على نقلة الحديث ، ووضعوا من الكتب لوضعها ، وتابعوا شهواتهم فيها،وتتابعوا فيما...وورطهم،ورأوا لتخضع وحشة بحثهالازم الضلالة، وداعية الهلكة ، والشذوذ عن مذهب الجماعة ، من غير نظر نافذ فى دين، ولا رسوخ فى علم ، حتى تركوا رد السلام على المسلمين ، وهى التحية التى نسخت تحية الجاهلين . خلافاً على أدب الله تعالى ، وقوله جل جلاله : وإذا حييتم

بتحية ، فحيوا بأحسن منها أوردوها ، وقالوا بالاعتزال عن العامة وشذوا ... وكشفوا بتكررهم الذين يستمعون القول ، فيتبعون أحسنه ، فلجوا فى جهالتهم ، وتاهوا فى غيهم ، ونكسوا على رؤوسهم ، حقداً على الأمة الحنيفة ، واعتقاداً لبغضتها ، واستحلالا لدمائها ، وزرعاً إلى انتهاك حرمها ، وسبى ذراريها ، قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر ، لولا أن سيف أمير المؤمنين من ورائهم ، ونظره محيط. ولما صار غيهم فاشيا ، وجهلهم شايعا ، واتصل بأمير المؤمنين من قدحهم فى الديانة ، وخروجهم عن الجادة ، فأشغل نفسه ، وأقض مضجعه ، وأسهد ليله ، أغلظ أمير المؤمنين فى الأخذ فوق أيديهم ، وأوعز إيعازاً شديداً ، وأنذر إنذاراً فظيعاً ، وعهد عهداً مؤكداً شافياً كافياً ، نظر به لوجهه تبارك اسمه ، وقدم فيه بين يدى العقاب الشديد ، وأمر بقراءة كتابه هذا على المنبر الأعظم بحضرته ، ليفزع قلب الجاهل ، ويفت كبد المستهتر الحاير ، وينقض عزم العاند المعاجل ، ويضطر الغواة إلى الإثابة الصحيحة ، التى يتقبلها الله منهم ، أو يكشف عن الأذهان سرايرهم فيكون عليهم شهيداً ، ويأتيهم عذاب غير مردود. ورأى أمير المؤمنين أن يشمل بنظره أقطار كوره ، ويرسله فى بدوه وحضره ، وأن ينفذ عهوده إليك ، وإلى ساير قواده ، وجميع عماله بها ، يقرأ على منابر المسلمين ، ولا يحرم القاصى ما عم الدانى من تطهير هذا الرجز وتمحيصه ، وكفاية المسلمين شبهته وفتنته ، فلم يحل الديار ، ولا تعقب الآثار ، ولا استحق البلا على قوم ، ولا أهلك الله أمة من الأمم ، إلا بمثل ما تكشف هذه الطغمة الخبيثة ، من التبديل للسنة ، والاعتداء فى القرآن العظيم ، وأحاديث الرسول الأمين ، صلوات الله عليه وسلم ، هذا عند وروده عليك فى قبلك ، ونشره فى سماع رعيتك ، وتتبع هذه الطايفة بجميع أعمالك ، وابثث فيهم عيونك ، وطالب فيهم غورهم جهدك ، فمن تحلى منهم بما انتسب إليهم ، وقامت عليه البينات بذلك عندك ، فاكتب إلى أمير المؤمنين بأسمائهم ومواضعهم ، وأسماء الشهود عليهم ، ونصوص شهاداتهم ، لنعهد باستجلابهم إلى باب سدته ، لينكلوا بحضرته ، فيذهب غيظ نفسه ، ويشفى حنين صدره ، وإياك أن تهون من أهل الريبة ، وتتخطاهم إلى ذوى السلامة والأحوال الصالحة ، فإن فرطت فى أحد الأمرين أو كليهما . فقد برى الله منك ، وأحل دمك ، ومالك ، فاعلمه ، واعتد به إنشاء الله تعالى » .

— ٢ —

## كتاب الخليفة الناصر لدين الله
## عن غـــزوة الخنـــدق

( منقول من السفر الخامس من كتاب «المقتبس» لابن حيان ، وهو المخطوط المحفوظ بالخزانة الملكية بالرباط ، فى حوادث سنة ٣٢٧ هـ ) .

قال ابن حيان : وأما لفظ كتاب الفتح الوارد من قبل الناصر لدين الله إلى الحضرة بخبر هذه الغزوة من إنشاء عيسى بن فطيس الكاتب ، فإن الفصل الذى رفع فيه خبر هذه الوقعة ، وقع كما أثبته هاهنا :

« واستعزم الله أمير المؤمنين ليلته ، واستخاره عن رحمته فى النهوض إلى مدينة شنت مانكش دار الكفرة ومجمع النصرانية ، إلى إليها استركن عدو الله ، وضاقت الحيل عليهم ، ووثقوا بحصانته ، ليعلمهم أن كلمة الله هى إظهار دينه ، ونصر أوليائه ، وإعزاز خلفايه ، فى مشارق الأرض ومغاربها ، ولو كره المشركون، فضم صاحب المقدمة عمال الثغور عندهم وفرسانهم وخيلهم ، واكتنف الجمع فى مجنبتى العسكر مع من والاهم ، وجرد الرجالة من الخيول بأسلحتهم ، وصمد لجمع المشركين، فاستقبلهم بنية صادقة ، ونفس صابرة ، وجموع كثيفة ، وكتايب تملأ الفضا ، ومغانب تضيق عنها الشعاب ، ويصير فى سهل الأرض كالآكام ، تتألق عليهم سوابغ الدروع ، فإذا تداعوا ، قلت موج تراكم ، وإذا وقفوا فكأنما النقع عليهم ليل مظلم . فلما قربت العساكر من محل الخنازير، ثابوا فيما بينهم ، وثاروا إلى خيولهم ، وعلوا الشراقين ، ينظرون إلى كتايب دين الله ، بقلوب قد خلعها الذعر ، وقبضهم عن التقدم الوجل ، وجعلوا بينهم وبين المسلمين وادى بشرقه ، ثقة بوعورته ، وقلة مخاوضه ، فلم ترعهم إلا مقدمة الجيش وراءه، قد سهل الله عليهم جوازه، وتبعتهم الأثقال، وتحيز أمير المؤمنين كدية سامية ، يتطلع منها على عسكر المسلمين، فأمر بالاضطراب فيها للعسكر ، وتقدمت الخيول بين يديه، وقد تلاحقت جموع الكفرة ، وقدموا صلبانهم، ووثقوا بشيطانهم الذى غرهم . وكان المسلمون على نشطة إلى لقائهم ، فلم ينتظر أولهم إلى أن توافى آخرهم ، ولا فارسهم أن يتمعد براجلهم ، وتخطوا

الرماح إلى السيوف ، والطعن إلى الضرب ، وكروا فى حومة المنايا ، كرّ من يحمى حليله ، ويخشى بعد ساعة أن تسبي ذريته ، فلم ير المسلمون حرباً مثلها ، ولا شهدوا يوم وغى أطول من يومهم ذاك . ونصر الله تعالى يهون عليهم ما هم فيه ، حتى فضوا جموع المشركين ( لوحة ١٤٣ أ ) ، وزلزلوا ردوءهم التى كانت أكاليل الجبال ، وردم الشعاب ، وضمهم إلى معسكرهم ، وأثارت سنابك الخيل من القتام ، ما غيب من كان فى القلب عمن يليه من يمين الحرب ويسارها .

وكان محمد بن هاشم فى وقدتها حاثاً سعيره قد طال به مدامها ، واستدارت حوله رحامها ، فكبا به فرسه ، ولم يعلم أحد بمصرعه ، فصار فى أيدى الخنازير أسيراً ، فاستشفوا به الحياة بعد اليأس منها ، فجالدوا بنفوس قد عاودتها رمقها ، وانحاز المسلمون إلى معسكرهم ، قد قتلوا من أعلام المشركين وقوامسهم وأهل البأس من فرسان الحرب ، ومن صبر لوقع السيف ، فكانت مصيبتهم بمن قتل منهم عظيمة ، فلما أصبح أمير المؤمنين لحلته ، أمر بحمل من عقر فرسه ، وصلة من أغنى فى حربه ، وتعرض المشركون للحرب تعرض من قد تنخل لعدو قد أصابهم ، ونكايته قد فلقت قلوبهم . فلما كان فى اليوم الثالث من احتلاله ، عهد أمير المؤمنين إلى صاحب العسكر بمصاحبتهم بالحرب ، وقد تلاحقت بهم المدود من أقصى بنبلونة وألبة والقلاع ، وأهل قشتيلة ، إلى مشركى قلمرية ، وكل صنف من أصناف العجم معهم ، وهتف على المسلمين بالخروج تحت راياتهم ، والتأهب للقاء عدوهم ، وأغدوا فى نهوضهم ، ونزل صاحب العسكر ، فرتب تعيينهم ، فكثف الردوء ، وضم إليها الرجال ، وألزم القلب بنفسه ، وميز فيه خيل الميمنة والميسرة ، وقدم إليهم المقاتلة ، وأقام بين يديه جملة الخيل عدة ، فإذا رأى فى جهة من جهات الحرب خللا سده واستدركه ، أو فتقا رتقه ، حتى كانت أيدى المسلمين فى المقاطع عالية ، فتلظت الحرب واحتدمت ، وكأن المنايا إنما قصدت فيها أعلام الكفرة وقوامسهم ، فصرع قومس غرماج ، وابن أخى الخنزير ابن فرذلند ، وشيخ النصرانية وعميدها ابن دخبر ، إلى العدد الجم من فرسانهم ، وأهل الصبر منهم ، وانجلت الحرب عن هزيمتهم ، وانكشاف أجبل قد كانوا علوها ، وسدوا بالخيل والرجال ما بينها ، وظنوا أن لا غالب لهم ، فزلزلوا زلزالا شديداً ، وانصرف المسلمون بعد الظفر والسلامة فى المنقلب ،

فباتوا بأنعم بال ، وأسكن حال . فلما ظن أعداء الله أن قد ملوا حربهم ، وتجددت لهم مدودهم ، رفعوا معسكرهم ، وقدموا صلبانهم ، وخرجوا بفارسهم وراجلهم فألقوا إلى ما يلى منهم العسكر ، سراع خيولهم ، فبادر المسلمون إليهم تبادر الأسود الضارة ، فغادروا موقفهم ، وجالدوا بسيوفهم ، حتى انفرج الموقف عن قتل عظيم من عظمائهم ، أعولوا عليه ، واستداروا حواليه ، وانصرفوا قد أذلهم الله ، ووهنهم ، وهون عليهم جمعهم ، ووفور مددهم ، فى ضبط المعيشة ، وقلة التبسط ، ومصابحة الحرب ومماساتها ، حتى كأنهم أهل حصن حوصروا فيه ، أو فل جيش لا يستطيعون الرجوع إليه . وأقام أمير المؤمنين ومن معه من جيوشه وحشده ، وأهل البصاير والحفايظ ، وبلغ أمير المؤمنين أقصى أمله من إذلال جميع المشركين ، والاحتلال بساحتهم ، وانحياز طاغيتهم فى أعلى شاهق ، يرجو النجاة بنفسه ، فأمر بالرحيل وقد ضاعف النظر ، والعدو فى ضبط ساقة جيشه لما توقع خروج الكفرة فى أثره . وأصبح منتقلا ، فما أقدم أعداء الله أن ينظروا من الجيش إلا من بعد على رأس جبل ، ونهض يطأ بلادهم وطأة متثاقل ، حتى انصرف إلى نهر دويرة ، واستقبل عمارته من حصن مانكش التى اتصلت بنكاية أهله ، فلم يدع فى جليقية حصناً إلا هدمه ، ولا معاشاً إلا انتسفه ، حتى انتهى إلى مدينة روضة ، وهى خالية على عروشها ، فأقام على هدمها ، وهدم حصن دبيلش معها ، يومين كانا أطول على أعداء الله من عامين ، لما غير فيهما من نعمهم ، وهدم من مساكنهم ، وقطع من شجرهم . وكان أمير المؤمنين يرى التقدم على نهر دويرة إلى شنت إشتين وغرماج لنقص الزروع لديه وضيق (١٤٣ ب) العلف بإفساده . فرفع إليه من حضره من أهل مدينة الفرج وحصونها ، يشكون ما يلقونه من مشركى وادى أبينه ، ومعاقلها ، وترددوا عليه ضارعين إليه ، أن يجعل ممر الجيش المؤيد على حصونهم وعماراتهم ، وذكروا أن ذلك أنفع لهم ولأهل الثغور معهم ، من الإيغال فى بلد المشركين ، ونكاية من لا ينالهم بغارة ، ولا ينهض إليهم بقوة ، فصرف الجيوش عند ذلك إلى وادى أبينه ، فلم يدع فيها حصناً إلا هدم ، ولا قرية إلا هدمت ، ولا معاشاً إلا استقصى جميعه . فلما صار فى آخره ولم يبق موضع يقوم الجيش بالتردد عليه ، أمر الأدلاء بالكشف عن أفضل الطرق إلى حصن أنتيشه ، وأرفقها بالمسلمين فى منصرفهم براح ظهرهم ، وأحوط عليهم فى

طريقهم ، وأجمعوا على قصد حصن قشترب ، وأيأسوا من الخروج على غيره ، فلما استقبل أمير المؤمنين لامه ، وقطع بعض محلته ، استقبل شَعْراء لا يتخللها المتفرد بحمده ، ولا يتخاص منها الخف ، لو لم يكن أحد يعترضه . ثم أشرف على خنادق قفرة ومهاو تتقاذفه ، وأجراف منقطعة قد عرفها المشركون وقدموا إليها ، وألقوا إلى ساقة الجيش فرسانهم ، فدارت عليهم الحرب ، وصرع فيها من جلة فرسانهم ، ومتقدمى رجالهم جملة ، لو أصيبت بحيث يتراء الجمعان لكانت سبب هزيمتهم ، ولاكنهم وثقوا بالوعد ، وانتظروا تقدم الحماة وترادف الأثقال ، فحامى أمير المؤمنين برجاله وخاصته عن المسلمين ساعات من النهار ، حتى تقدم أكثرهم ، وجازت الخندق لقتالهم ، إلا من ضعفت دابته ، أو ضعفت تعبئته عن استنفارها . فلما رأوا الخلل تصايحوا من قنن الجبال ، وانحطوا من أعاليها انحطاط الأوعال ، فأصابوا من الأمتعة والدواب المثقلة ، ما لو أصابوا مثله فى مجال حرب أو سهل من الأرض ، لما أنكر مثله عند مقارعة الرجال ، وتصرف الأحوال . وحامى صاحب العسكر عن كل من أجاز الخندق وخلص من مضايقة ، حتى أسهلوا ، واجتمع لأمير المؤمنين جيوشه وانتظمت جموعه ، وسلم الله رجاله ، فلم يصب منهم أحد . وفى ذلك دليل للسامع عن الوقعة أنها لم تدر بغلبة ، ولا ظفر المشركون أظفروا به فيها عن مساواة ولا كثرة ، ولكن ضيق المسالك ، ووعر الطريق ، وسوء فهم الدليل ، خلى لما جلبه إلى أقدار الله تعالى التى لا تصرف ، ومحنه التى لم يزل يمتحن بها أولياءه ، ليعظهم ، ويبتلى عبيده ليرهبهم ، وأمير المؤمنين ، شاكر لله تعالى على عظيم نعمه ، وواقف على تصرف محنته ، مستسهل ما اختص به فى حب طاعته ، ضارع إلى الله فى التقبل لقوله وفعله . وكتابه إليك ، وهو قافل بالمسلمين على أحسن أحوالهم ، وأسهل طريقهم ، وأجمعه بمعايشهم ، إن شاء الله . فأمر بقراءة كتاب أمير المؤمنين على الناس قبلك أثر صلاة الجمعة ليشكروا الله على ما أنعم به من نصر إمامهم ، وسلامة إخوانهم ، والصنيع الذى عمهم ، فإنه يحب الشاكرين ، ويزيد الحامدين . واعهد نسخه إلى عمال الكور حولك إنشاء الله تعالى ، والله المستعان . وكتب يوم الإثنين لثمان خلون من ذى القعدة سنة سبع وعشرين وثلاث مابة » .

# ثبت المراجع

## ١ – مراجع أندلسية وإسلامية عامة


تاريخ ابن خلدون المسمى « كتاب العبر » ( بولاق ) .

تاريخ الكامل لابن الأثير ( الطبعة الأهلية ١٣٠٣ هـ ) .

تاريخ الطبرى المسمى « تاريخ الأمم والملوك » ( الطبعة الأهلية ) .

تاريخ أبى الفدا المسمى « المختصر فى أخبار البشر » ( الطبعة الأهلية ) .

فتوح البلدان للبلاذرى ( القاهرة ١٩٣٢ ) .

مروج الذهب للمسعودى ( بولاق ) .

نهاية الأرب للنويرى ( القسم التاريخى ومعظمه ما زال مخطوطاً ) .

وفيات الأعيان لابن خلكان ( بولاق ) .

كتاب الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة ( القاهرة ١٣٢٥ هـ ) .

كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار لتقى الدين المقريزى ( الطبعة الأهلية ١٣٢٤ هـ ) .

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة لابن تغرى بردى (طبعة دار الكتب) .

فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم المصرى ( طبع لجنة ذكرى جب ) .

يتيمة الدهر فى محاسن أهل العصر للثعالبى ( القاهرة ١٩٤٧ ) .

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقرى ( القاهرة ١٣٠٢ هـ ) .

أخبار مجموعة فى فتح الأندلس لمؤلف مجهول ( مدريد ١٨٦٧ ) .

تاريخ افتتاح الأندلس لأبى بكر بن القوطية ( مدريد ١٨٦٨ ) .

البيان المغرب فى أخبار ملوك الأندلس والمغرب لابن عذارى المراكشى ( الجزء الأول الخاص بإفريقية والثانى الخاص بالأندلس المنشوران بعناية العلامة دوزى ( ليدن ١٨٤٨ – ١٨٤٩ ) والثالث المنشور بعناية الأستاذ ليڤى بروڤنسال .

بغية الملتمس فى تاريخ رجال أهل الأندلس لابن عميرة الضبى ( ضمن المكتبة الأندلسية ) .

كتاب الصلة لابن بشكوال ( ضمن المكتبة الأندلسية ، والقاهرة سنة ١٩٥٥ )

قضاة قرطبة لأبى عبدالله الخشنى المنشور بعناية الأستاذ ريبرا (مدريد ١٩١٤) .

المقتبس فى تاريخ رجال الأندلس لابن حيان ، السفر الثالث المنشور بعناية الأب ملشور أنتونيا ( باريس ١٩٣٧ ) .

الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة لابن بسام الشنترينى ( المجلدات الثلاثة المطبوعة بعناية جامعة القاهرة ) .

الحلة السيراء لابن الأبار القضاعى (القسم المطبوع بعناية العلامة دوزى) ؛

المعجب فى تلخيص أخبار المغرب لعبد الواحد المراكشى (القاهرة ١٣٣٢هـ) ؛

جذوة المقتبس للحميدى ( طبع القاهرة ) .

العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسى ( طبع القاهرة ١٩٢٨ ، وكذلك طبعة لجنة التأليف والترجمة ) .

المطرب من أشعار أهل المغرب لابن دحية البلنسى ( المطبوع بعناية وزارة التربية المصرية ) .

أعمال الأعلام لابن الخطيب ( طبع بيروت ١٩٥٦ ) .

الإحاطة فى أخبار غرناطة لابن الخطيب (القاهرة ١٩٠٤ و ١٩٥٦ ) .

الإستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى للسلاوى ( القاهرة ١٣٠٦ هـ ) .

نبذ تاريخية فى أخبار البربر فى القرون الوسطى ( الرباط ١٩٣٤ ) .

جمهرة أنساب العرب لابن حزم ( القاهرة ١٩٤٨ ) .

رسالة نقط العروس لابن حزم ( المنشور بمجلة كلية الآداب بالقاهرة فى عدد ديسمبر سنة ١٩٥١ ) .

نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار لأحمد بن عمر العذرى ( منشور بعناية الدكتور عبد العزيز الأهوانى — مدريد سنة ١٩٦٥ ) ؛

طوق الحمامة لابن حزم ( دمشق ١٣٤٩ هـ ) .

معجم البلدان لياقوت الحموى ( القاهرة ١٣٢٣ — ١٣٢٥ هـ ) .

الروض المعطار ( صفة جزيرة الأندلس ) لأبى عبد الله محمد بن عبد المنعم الحميرى ( القاهرة ١٩٤٨ ) .

مختصر نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق للشريف الإدريسى (طبع رومة ١٥٩٢) .

وصف الأندلس للإدريسى ( المطبوع بعناية المستشرق ساڤدرا ) .

المسالك والممالك لابن حوقل ( المكتبة الجغرافية ) .

المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب المستخرج من كتاب المسالك والممالك لأبى عبيد البكرى والمنشور بعناية المستشرق دى سلان .

## مصـــادر مخطوطة

تاريخ ابن حيان : « المقتبس فى تاريخ أهل الأندلس » ، مجموعة أوراق مخطوطة من « السفر الأول» تشمل حوادث سنة ١٨٠ —٢٣١هـ ، عثر بها المرحوم الأستاذ ليڤى بروڤنسال ، ونقلت منها وقد ضاعت الآن .

تاريخ ابن حيان : « السفر الثانى » من المقتبس وهو يشمل حوادث سنى ٢٣٣ — ٢٦٧ هـ قطعة مخطوطة محفوظة بمكتبة جامع القرويين بفاس .

قطعة ثالثة مخطوطة من تاريخ ابن حيان محفوظة بمكتبة أكاديمية التاريخ بمدريد تتعلق بحوادث سنة ٣٦٠— ٣٦٤هـ . وقد نشرت أخيراً ببيروت (١٩٦٥) بعناية الأستاذ عبد الرحمن الحجى .

السفر الخامس من « المقتبس » وهو مخطوط الخزانة الملكية بالرباط ويتعلق بعهد عبد الرحمن الناصر ، ويسرد حوادث الأندلس من سنة ٣٠٢ إلى سنة ٣٢٩هـ ويحمل رقم 87.

إعتاب الكتاب لابن الأبار ( مخطوط محفوظ بمكتبة الإسكوريال رقم١٧٣١ الغزيرى ) .

كتاب تحفة الأنفس وشعار أهل الأندلس لعلى عبد الرحمن الهذيل ( مخطوط محفوظ بمكتبة الإسكوريال رقم ١٦٥٢ الغزيرى ) .

شذور مخطوطة لابن حزم نشرها الأستاذ ميجل آسين بلاثيوس فى مجلة الأندلس ( سنة ١٩٣٤ ) .

## ٢ – المراجع الأوربية

رجعنا فيما يتعلق بالروايات الإسبانية اللاتينية إلى موسوعة الأب Enrique Florez الكنسية الكبرى وهى :

**España Sagrada (Madrid 1747—1886, 51 Tomos)**

وقد تضمنت الروايات التاريخية الآتية :


**Isidorus Pacensis Crónicon** رواية إيزيدور الباجى

**Chrónicon Compostellanum** رواية كومبستيلا (اشنت ياقب)

**Annales Toledanes** الأخبار الطليطلية

**Chronicon Lusitanum** الرواية اللوستيانية البرتغالية

**Chronicon Adefonsi** الرواية الأدفونشية

**Rodericus Toletanus : Historia Arabum.** رواية ردريك الطليطلى ( تاريخ العرب )

**Lucas Tudensis : Chronicon Mundi.** رواية لوقا التطيلى ( تاريخ العرب )

**Crónica General de España- (Ed. Pidal)** تاريخ أسبانيا العام لألفونسو العالم

Padre Mariana : Historia General de Espana (Madrid 1855).

Conde : Historia de la Dominación de los Arabes en Espana.

F.J. Simonet : Historia de los Mozárabes de España (Madrid 1897).

Modesto Lafuente : Historia General de Espana (Barcelona 1889).

Julian Ribera : Disertaciónes y Opúsculos (Madrid 1928).

R. Altamira : Historia de España y de la Civilización Espanola (Barcelona 1900).

R.M. Pidal : La España del Cid (Madrid 1947).

" " " : La Chanson de Roland y el Neotradicionalismo (Madrid 1959).

" " " : Origenes del Espanol.

" " " : Historia y Epopya.

Una Crónica anonima de Abd Al-Rahman Al-Nasir (Madrid-Granada 1950).

F. Codera : Embajadas de Principes cristianos en Córdoba en los ultimos anos de Al-Haquam II (B.R.A.H. XIII, 1886).

F. Codera : Embajadores de Castilla encarcelados en Córdoba en los ultimos anos de Al-Haquam II (B.R.A.N., XIV, 1887).

A.G. Palencia : Historia de la España Musulmana.

L.S. de Lucena : Los Hammudies Senores de Málaga y Algeciras. (Málaga 1955).

Cardonne : Histoire de l'Afrique et de l'Espagne sous la Domination des Arabes.

Camille Julian : Histoire de la Gaule.

Dom Vissette : Histoire de Languedoc.

Reinaud : Histoire des Invasions des Sarrazins en France,

Dozy : Histoire des Musulmans d'Espagne jusqu'à la Coquête des Almoravides (Ed. Lévy-Provençal 1932).

Dozy : Recherches sur l'Histoire et Littérature de l'Espagne pendant le moyen-âge. (3e Ed ).

Zeller : Histoire de l'Allemagne.

Aschbach : Geschichte der Omajaden in Spanien.

Schlegel : Philosophie der Geschichte.

Gibbon : Decline and Fall of the Roman Empire.

Lane-Poole : The Moors in Spain.

Scott : Moorish Empire in Europe.

H. Ch. Lea : History of the Inquisition of Spain.

Creasy : Decisive Battles of the World.

Finlay : Byzantine Empire.

Hodgkin : Charles the Great.

Casiri : Bibliotheca Arabico-Hispana Escurialensis.

Encyclopédie de l'Islam.

Bayle : Dictionnaire Historique et Critique.

Bouquet : Receuil des Historiens de la Gauie et de la France.

# فهرست الوثائق التاريخية

## للقسمين الأول والثانى

# فهرست الشعر والشعراء

صفحة

صفحة

# فهرست الأعلام الجغرافية والتاريخية الأندلسية
## ومقابلها الإفرنجي

| | |
|---|---|
| أكوتين | Aquitaine |
| بلاد أرغن . أرغن . الثغر الأعلى | Aragon |
| أسترقة | Astorga |
| أشتوريش | Asturias |
| ابن باجة | Avenpace |
| صخرة أبنيون | Avignon |
| آبلـــة | Avila |
| بطليوس | Badajoz |
| بياســـة | Baeza |
| الجزائر الشرقية | Baleares |
| برشلونة ــ برشنونة | Barcelona |
| باجة | Beja |
| بربشتر | Berbastro |
| برمنـــد | Bermudo |
| بسكونية ــ بسكونس | Bicsay – Viscaya |
| ببشـــتر | Bobastro |
| برغش | Burgos |
| قبرة | Cabra |
| قلهرّة | Calahorra |
| قلعة أيوب | Calatayud |
| | Calatrava |

| | |
|---|---|
| ألبـــة | Alava |
| ألبة والقلاع | Àlava et Castella Vetula |
| البسيط | Albacete |
| شنتمرية الشرق | |
| | Albarracin |
| شنتمرية ابن رزين | |
| قصر أبي دانس | Alcacer do Sal |
| قلعة النهر | Alcalá de Henares |
| القنطرة | Alcántra |
| القصر | Alcázar |
| | Alfonso Raimundez |
| أدفنش بن رمند | |
| كورة الغرب | Algarve |
| الجزيرة الخضراء | Algeciras |
| لقنت | Alicante |
| ألمرية | Almeria |
| المدوّر | Almodavar |
| حصن المدور | Almodavar del Rio |
| المرابطون | Almoravides |
| المنكّب | Almunecar |
| | Alphonso - Alfonso |
| أدفنش ، أذفنش ، ألفنش | |
| البشرّات البشرة | Alpujurras<br>Alpuxarras |

| | |
|---|---|
| Calatanazor | قلعة النسور |
| Carcassone | قرقشونة |
| Carmona | قرمونة |
| Carthage | قرطاجنة القديمة |
| Cartagena | قرطاجنة الأندلس |
| Castellon | قسطلونة |
| Castile— Castilla | قشتالة |
| Catalonia<br>Cataluna | قطلونية |
| Cardegna— Cerdana | شرطانيه |
| Ceuta | سبتة |
| Charlemagne<br>Karl— Charles | قارله — شارلمان |
| Cintra | شنترة |
| Coimbra | قُلُمرية — قلنبرية |
| Cordova Córdoba | قرطبة |
| Coria | قورية |
| Corsica | قورسقة |
| Cuenca | قونقة — كونكة |
| Daroca | دروقة |
| Denia | دانية |
| Duero·Douro | نهر دورة |
| Ebro | نهر إبره |
| Ecija | إستجة |
| Elvira | إلبيرة |
| Evora | يابرة — يافورة |
| Favila | فاڤلة |
| Fernando - Ferdinand | فرذلند |
| Fernan Gonzales | فرنان غنصالص |
| Froila | فرويلة |
| La Frontera | ألفرنتيره |
| Galicia | جلّيقية |
| Garcia | غرسية |
| Gaule | غاليس |
| Gerona | جيرندة |
| Gilbraltar | جبل طارق — جبل الفتح |
| Goths- Godos | القوط — الغوط |
| Granada | غرناطة |
| Gregorius | جرجير |
| Guadalajara | وادى الحجارة |
| Guadalete | وادى لكُّه |
| Guadalquivir | الوادى الكبير — النهر الأعظم |
| Guadarrama | وادى الرملة |
| Guadiana | وادى يانة — وداى أنة |
| Guadix | وادى آش |
| Huesca | وشقة |
| Ivica-Ibiza | جزيرة يابسة |
| Jaca | جاقة |
| Jaen | جيّان |
| Jódar | شوذر |
| Lamigo | لميقة |
| Lausitania | البرتغال القديمة |
| León | ليون ( جليقية ) |

| | |
|---|---|
| Navarra | بلاد البشكنس — نبرة |
| Niebla | لبـلة |
| Normans | الأردمانيون — المجوس |
| Ocsonoba | أكشونبة |
| Orelius | أورالى |
| Oria | أوْرية |
| Orihuela | أوريوله |
| Pallares | بليارش |
| Pamplona | بنبلونة |
| Pedro | بِطْرُه |
| Pelagius-Pelayo | بلاى — بلايو |
| Priego | باغة |
| Pyrenees Pirineos | جبال البرنيه أو البرت أو البرتات |
| Poley | بلاى — بلى |
| Rejio | ريُّه (كورة) |
| Ramiro | ردمير — رذمير |
| Ramon Berenguer | رمند |
| Rhône | نهر (وادى) رذونة |
| Roderic | لذريق — رذريق |
| Roncesvalles | باب شزروا — باب الشزرى |
| Ronda | رندة |
| Rueda | حصن روطة |
| Salmanca | شلمنقة |
| Sancho | شانجُه |
| San Esteban | شنت إشتيبن |
| Santa Maria de Algarve | شنتمرية الغرب |
| Lerida | لاردة |
| Lisbon-Lisboa | أشبونة — لشبونة |
| Lombardy | بلاد اللنبرد — أنكبردية |
| Lopez | لب |
| Lorca | اورقة |
| Lugo | لُك |
| Lyon | اوذون — لوطون |
| Madelin | حصن مادلين |
| Magerit | مجريط |
| Majorca-Mallorca | جزيرة ميورقة |
| Málaga | مالقة |
| Martos | مرتش |
| Mauretania | المغرب الأقصى |
| Medinaceli | مدينة سالم |
| Medina-Sidonia | شذونة |
| Mérida | ماردة |
| Mertola | مارتلة — ميرتلة |
| Minorca | جزيرة منورقة |
| Monzon | منتشون |
| Montimayor | منتميور |
| Montileon | منتلون |
| Morón | مورور |
| Mozárabes | المستعربون أو النصارى المعاهدون |
| Mula | مولة |
| Murcia | مرسية |
| Narbonne | أربونة |

| | |
|---|---|
| Santarein-Santarem | شنترين |
| Santaver | شنت برية |
| Santiago | شنت ياقب |
| Saragossa-Zaragoza | سرقسطة |
| Sardegna | جزيرة سردانية |
| Sicilia | صقلية |
| Ségovia | شقوبية |
| Seville-Sevilla | إشبيلية |
| Sierra de Almaden | جبال البرانس |
| Sierra Morena | جبل الشارات |
| Sierra Nevada | جبل شلير—جبل الثلج |
| Tagus-Tajo | نهر التاجه أو التاجو |
| Tanger — Tangier | طنجة |
| Tarifa | جزيرة طريف — طريف |
| Tarragona | طركونة |
| Toledo | طليطلة |
| Torrox | طرش |
| Tortosa | طرطوشة |
| Toulouse | تولوشة |
| Trujilllo | ترجاله |
| Tudela | تطيلة |
| Tudmir | تدمير |
| Ubeda | أبدة |
| Urgel | أرقلة |
| Vacasorra | بقسرة |
| Valencia | بلنسية |
| Valtierra | بلتيرة |
| Valladolid | بلد الوليد |
| Viguera | بقيرة |
| Villanueva | بلة نوبه |
| Viseu | بازو |
| Xativa-Jativa | شاطبة |
| Xenil-Genil | نهر شنيل |
| Xeres-Jerez | شريش |
| Xecunda | شقندة |
| Zamora | سمورة |

# فهرست الموضوعات

( للقسم الثانى من الكتاب )

## الكتاب الثانى

### الدولة الأموية فى الأندلس

### القسم الثالث — عبد الرحمن الناصر وقيام الخلافة الأندلسية



## الكتاب الثانى

### الدولة الأموية فى الأندلس

### القسم الرابع — ربيع الخلافة الأندلسية



## الكتاب الثالث

### الدولة العامرية

## الكتاب الرابع

### سقوط الخلافة الأندلسية ودولة بنى حمّود



## الكتاب الخامس

### النظم الإدارية والحركة الفكرية

### فى عصرى الإمارة والخلافة



## فهرست الخرائط

# فهرست الكتب

# فهرست القبائل والطوائف والدول

## ا ـ ب ـ ت

## ج — ز



## س — غ

## ف ـ ق ـ ك

# فهرست البلدان والأماكن

## — ا —

## ج — خ

## د — ز

## س — غ

## ف — ك — ق

## ل — ى

# فهرست الأعلام

## ب — ت — ث

## ج — ح — خ

## د — ز

## س — ط

## ع — غ

## ف — ق — ك

## ل — م

## ن — ى

# موسوعة الأندلس

تأليف الأستاذ محمد عبد الله عنان

تشتمل على سبعة مجلدات هى الآتية :

دولة الإسلام فى الأندلس المجلدان الأول والثانى ( الطبعة الرابعة )

دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطى ( الطبعة الثانية )

عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والأندلس ( مجلدان )

نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين ( الطبعة الثالثة )

الآثار الأندلسية الباقية فى اسبانيا والبرتغال ( الطبعة الثانية )

ويلحق بهذه المجموعة كتاب :

لسان الدين بن الخطيب ، حياته وتراثه الفكرى